

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

المُسَكَّى

بِأَوَّلِ أَهْلِ السُّنَّةِ

تَصْنِيفُ

أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَازِينِيِّ السَّمَرْقَنْدِيِّ الْحَنْفِيِّ

(ت ٣٢٣ هـ)

تَحْقِيقُ

فَاطِمَةُ يَوْسُفِ الْخَمِي

الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ

مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ نَاشِرُونَ

تَفَنَّنِي بِرَأْفَتِكَ الْعَظِيمَةِ
الْمُسْتَعِينِ

تَاوِيلًا لِهَذِهِ السَّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات

مركز رصوان كعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠

فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩١١)

ص ب: ١١٧٤٦٠

بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721

Fax: (961) 546722

P.O. Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web site:

<http://www.resalah.com>

جميع الحقوق محفوظة للنّاشِر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

ISBN 9953-32-096-9

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٤ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



اللهم

اجعلني ومن كانت له يد في

إخراج هذا الكتاب ومن يقرؤه بمن يردد

دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة إبراهيم

قيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتُبٌ﴾ ﴿الرَّ﴾ كناية عن حروفٍ مُقَطَّعةٍ، جعلها بالحكمة كتاباً ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ بعدما لم تكن تَدْرِي، ما الكتاب؟ وهو كما قال ﷺ: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله جلَّ جلالته: ﴿وَلَا تَحْطُمُ بِسَبِيلِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾ وما يُضاف الإخراج إلى الله فإنه يكون بإعطاء الأسباب وحقيقة ما تكون به الأفعال، وهي القدرة. وما يُضاف الإخراج إلى الرسل فإنه لا يكون إلا بإعطاء الأسباب لأنه لا يملك أحد سواه إعطاء ما به يكون الفعل.

ثم الأسباب تكون بوجهين:

أحدهما: الدعاء إلى ذلك.

والثاني: ما أتى به^(٢) من البيان والحجة على ذلك، فهو الأسباب التي يملك الرسل إتيانها. وأما ما به حقيقة الفعل فإنه لا يملكه^(٣) إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [يختلج وجهين:

أحدهما^(٤)]: مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ؛ سَمَّى الْكُفْرَ ظُلُمَاتٍ، وهما^(٥) واحدٌ، لأنه يَشْتَرُ جَمِيعَ مَنَافِذِ الْجَوَارِحِ مِنَ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَاللِّسَانِ؛ يُبْصِرُ مَا لَا يَصْلُحُ، وَيُسْمِعُ مَا لَا يَصْلُحُ، وكذلك جميع الجوارح. والإيمان يَرْفَعُ، ويكشف جميع الحُجُبِ وَالشُّتُورِ، ويُضيء^(٦) له كلَّ مستور.

والثاني^(٧)]: مِنَ الشُّبُهَاتِ إِلَى النُّورِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالهُدَى.

وقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الإخراج^(٨) المضاف إلى الله هو^(٩) الهداية، يُخْرِجُ على وجوه أربعة:

أحدها: يَأْمُرُهُمْ، ويدعوهم إلى ما ذَكَرَ.

والثاني: يَكْشِفُ، وَيُبَيِّنُ.

والثالث: يَرْغِبُ، وَيُرْهَبُ، حتى يَرْغَبُوا فِي الْمَرْغُوبِ، وَيَخْذَرُوا الْمَرْهُوبَ^(١٠).والرابع: يُحَقِّقُ^(١١) ما تكون به الهداية، وذلك لا يكون إلا بالله، وهو التوفيق والعضمة.

وأما الوجوه الثلاثة الأولى فإنها تكون برسول الله ﷺ: يَأْمُرُ، وَيَدْعُو، وَيَرْغِبُ، وَيُرْهَبُ، وَيُبَيِّنُ، وَيَكْشِفُ، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) في الأصل وم: يملك. (٤) في الأصل وم: قيل. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) من م، في الأصل وم: ومضيء. (٧) في الأصل وم: والثاني: قوله ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي. (٨) من م، في الأصل: لإخراج. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، في الأصل: المرغوب. (١١) من م، في الأصل: تحقيق.

وقوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [يُخْتَمِلُ وَجُوهًا:

أحدهما:]^(١) كانه قال: كتاب أنزلناه إليك لتأمر الناس بالخروج مما ذكر إلى ما ذكر.

والثاني: ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ﴾ به الناس مما ذكر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: بأمر ربهم. وقال قائلون: يعلم ربهم؛ أي أنزل هذه الحروف المقطعة يعلمه.

والثالث: يُخْتَمِلُ بتوفيق ربهم. والإذن^(٢) من الله يُخْتَمِلُ أخذ الوجوه التي ذكرنا: الأمر، والعلم، والتوفيق.

وقوله / ٢٦٧ - / تعالى: ﴿إِلَّا صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو الله. أي يدعوهم إلى طريق الله الذي من سلكه نجا

﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ سماء^(٣) عزيزاً لأن كل عزيز، به يعز، ويقال: عزيز لأنه عزيز بذاته، ليس بغيره كالخلاق، أو العزيز، هو الذي لا يطلب. والحميد، هو الذي لا يلحقه الذم في فعله كالحكيم الذي لا يلحقه الخطأ في تدبيره.

وقال أهل التأويل: العزيز المنيع، والحميد، هو الذي يقبل اليسير من العباد.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ مَأْوًى فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مَنْ قَرَأَ بِالْخَفْضِ ﴿اللَّهُ﴾ صَيَّرَهُ مُوصُولاً بِالْأَوَّلِ، وَجَعَلَهُ كَلَاماً واحداً، وَاتَّبَعَ الْخَفْضَ بِالْخَفْضِ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ^(٤) اللَّهُ جَعَلَهُ مُقْطِعاً عَنِ الْأَوَّلِ عَلَى حَقِّ الْإِبْتِدَاءِ، فَقَالَ: اللَّهُ ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ مَأْوًى فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ دَكَرَ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ مَأْوًى فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لِيُعْلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا^(٥) يَأْمُرُ الْخَلْقَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ، وَيَمْتَحِنُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْيَحْنِ، لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ أَوْ لِحَاجَتِهِ فِي ذَلِكَ بَلْ لِحَاجَةِ الْمُتَمَحِّنِينَ وَمَنَافِعِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: الْوَيْلُ الشَّدَّةُ، وَقِيلَ: الْوَيْلُ هُوَ اسْمُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، وَقَالَ [أَبُو بَكْرٍ]^(٦) الْأَصْمُ: الْوَيْلُ هُوَ يَدَاءُ كُلِّ مَكْرُوبٍ وَمَلْهُوفٍ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ، وَقَوْلُ الْحَسَنِ كَذَلِكَ.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ وَضَفَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ ذَكَرَ أَنَّ فِيهِمُ الْوَيْلَ؛ مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أَيِ آثَرُوا، وَاخْتَارُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، أَيِ رَضُوا بِهَا، وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ [يُونُسُ: ٧] اخْتَارُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، لَمْ يَخْتَارُوا لِلْآخِرَةِ، فَالدُّنْيَا أُنْشِئَتْ لَا لِلدُّنْيَا، وَلَكِنْ إِنَّمَا أُنْشِئَتْ لِلْآخِرَةِ. فَمَنْ اخْتَارَهَا لَهَا، لَا يَسْلُكُ بِهَا إِلَى الْآخِرَةِ، ضَلَّ، وَزَاغَ عَنِ الْحَقِّ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا ﴿يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ حَتَّى يَلْهُوْا عَنِ الْآخِرَةِ، وَيَسْهُوْا فِيهَا، وَيَغْفُلُوا. وَأَهْلُ^(٧) الْإِسْلَامِ رَبَّمَا يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ لِلْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ لِلدُّنْيَا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يُخْتَمِلُ ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَعْرَضُوا بِأَنْفُسِهِمْ.

والثاني: صَرَفُوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي مِنْ سَلَكِهِ نَجَا.

لَكِنْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ بِالْمُضَدِّ: صَدَّ يَصُدُّ صَدًّا؛ صَرَفَ غَيْرُهُ، وَصَدَّ يَصُدُّ صُدُوداً: أَعْرَضَ هُوَ بِنَفْسِهِ.

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿وَيَتَّبِعُونَ عِوَجًا﴾ أَيِ طَغَنًا وَعِيبًا فِيهِ. دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ فِي الرُّؤَسَاءِ مِنْهُمْ وَالْقَادَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَتَّبِعُونَ^(٩) فِي دِينِ اللَّهِ الطُّغْنَ وَالْعِيبَ، فَمَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا قَطُّ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: الأذان. (٣) في الأصل وم: سمي. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٢٤. (٥) في الأصل بما، في م: قادر بما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ولا أهل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويغفونها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي سَلَابٍ بَعِيدٍ﴾ الضَّلَالُ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ الضَّلَالُ [الهلاك] ^(١) أي هلكوا ملاً، لا نَجاة فيه قط، وَيَحْتَمِلُ الحَيْرَةُ والثَّيَّة؛ أي تحيروا فيه، وتاهوا، حتى لا يَهْتَدُوا ^(٢). وَيَحْتَمِلُ الضَّلَالُ البُطْلانَ، أي في بُطْلانٍ بعيدٍ حتى لا يَضْلَحُوا أبداً. وهو في قوم، عَلِمَ الله أنهم لا يَهْتَدُونَ أبداً، وَيَحْتُمُونَ على الضَّلَالِ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ لو كَانَ غَيْرُهُ مِنَ الكُتُبِ أُرْسِلَ ^(٣) بِغَيْرِ لِسَانِ الْأُمَمِ لَكَانَ هَذَا الْكِتَابُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُبَعُوثاً بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِأَنَّهُ جَعَلَ هَذَا الْكِتَابَ حُجَّةً وَآيَةً لِرِسَالَتِهِ لَأَنَّهُمْ يَنْجِزُونَ عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ، هُوَ كَانَ بِلِسَانِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ [جاء مِنَ اللَّهِ] ^(٤) إِذْ لَوْ كَانَ مِنَ الْخِتِرَاعِ الرَّسُولِ ﷺ لَقَدَرُوا عَلَى الْخِتِرَاعِ مِثْلِهِ لِأَنَّ لِسَانَهُمْ مِثْلُ لِسَانِهِ، فَإِذَا عَجِزُوا عَنْ إِتْيَانِ مِثْلِهِ ذَلَّ أَنَّهُ مُنزَّلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لَا مِنْ عِنْدِ الْخَلْقِ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ وجوهاً:

[أحدها: ما ^(٥)] قَالَ قَائِلُونَ: هَذَا بَعْدَ مَا اخْتَلَفَ الْأَلْسُنُ أُرْسِلَ هَذَا، وَفِيهِ أَنْبَاءٌ أَوَائِلُهُمُ الَّذِينَ كَانَ لِسَانُهُمْ غَيْرَ لِسَانِ هَؤُلَاءِ، وَأَخْبَارُهُمْ ^(٦)، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَتْ تِلْكَ الْأَنْبَاءَ وَالْأَخْبَارَ ^(٧) الَّتِي كَانَتْ بِغَيْرِ لِسَانِهِمْ بِاللَّهِ.

[والثاني: ما ^(٨)] قَالَ بَعْضُهُمْ: أُرْسِلَ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لثَلَا يَكُونَ لَهُمْ مَقَالٌ كَقَوْلِهِمْ ^(٩): ﴿لَوْلَا فَصَّلَتْ يَابَتْهُ﴾ [فصلت: ٤٤]. والثالث: أَنَّهُ إِذَا كَانَ بِلِسَانِهِمْ يَكُونُ آلَفٌ وَأَقْرَبُ إِلَى الْقَبُولِ مِنْ إِذَا كَانَ بِغَيْرِهِ؛ إِذْ كُلُّ ذِي نَوْعٍ وَجَنَسٍ يَكُونُ بِجَنَسِهِ وَنَوْعِهِ آلَفٌ مِنْ غَيْرِ نَوْعِهِ وَجَوْهَرِهِ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] إِذْ لَيْسَ فِي وَسْعِ الْبَشَرِ رُؤْيُ الْمَلَكِ وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ كُلِّ ذِي لِسَانٍ يَكُونُ بِلِسَانِهِ أَفْهَمَ وَأَقْرَبُ لِلْقَبُولِ وَآلَفٌ مِنْ غَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: لِيَكُونَ أَبْيَنَ لَهُمْ وَأَفْهَمَ، وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فَيَفْهَمُونَ قَوْلَ رَسُولِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ^(١٠) يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ أَثَرُ سَبَبِ الضَّلَالِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مَنْ أَثَرُ سَبَبِ الْهُدَى بِهِ يَهْتَدِي [إليه] ^(١١). وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ أَنْ يُضِلَّ الْمُكْذِبِينَ، وَيَهْدِي الْمُسْذِقِينَ.

لَكِنَّ الرُّجْعَةَ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا بَدْءاً: أَنَّهُ يُضِلُّ مَنْ أَثَرُ سَبَبِ الضَّلَالِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ أَنْ يُضِلَّ الْمُكْذِبِينَ، وَيَهْدِي الْمُسْذِقِينَ، أَيِ مَنْ أَثَرُ سَبَبِ الْإِهْتِدَاءِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، أَذْلَاءُ، بِوَ بَعِزٌّ مَنْ عَزَّ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا يُغْلَبُ.

وَالْحَكِيمُ: هُوَ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ الْخَطَأُ فِي الْحُكْمِ وَالتَّدْبِيرِ، أَوِ الْحَكِيمُ فِي بَعَثِ الرُّسُلِ، وَفِي جَمِيعِ فِعْلِهِ، وَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ خَطَأٌ قَطُّ، مُصِيبٌ فِي وَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ تَحْتَمِلُ آيَاتُهُ حُجَجُهُ وَبَرَاهِينُهُ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَالرُّوْحَانِيَّةِ، وَتَحْتَمِلُ آيَاتُهُ الَّتِي بَعَثَهَا إِلَى مُوسَى لِيُقِيمَهَا عَلَى رِسَالَتِهِ؛ إِنْ شِئْتَ قُلْتَ: آيَاتُهُ حُجَجُهُ، وَإِنْ شِئْتَ سَمَّيْتَهَا أَعْلَاماً. وَالْآيَاتُ وَالْأَعْلَامُ وَالْحُجَجُ، كُلُّهُ وَاحِدٌ، فَتَكُونُ أَعْلَامٌ وَحْدَانِيَّةٌ لِلَّهِ وَالرُّوْحَانِيَّةُ أَوْ أَعْلَامٌ رِسَالَتِهِ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أَيِ بِدِينِنَا، أَيِ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِدِينِنَا لِيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وَعَلَى ذَلِكَ بَعَثَ جَمِيعَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ؛ بُعِثُوا لِيُخْرِجُوا قَوْمَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يهتدون. (٣) في الأصل وم: أرسلت. (٤) من م، في الأصل: لمن الله جاء. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: واختارهم. (٧) في الأصل وم: والأخبار. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل: قوله، في م: لقوله. (١٠) من م: في الأصل: أن. (١١) في الأصل وم: يهدي ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ لِلَّهِ التَّذَكُّيرُ هُوَ الْعِقْدَةُ﴾ أي عَقْدُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ. قَالَ قَائِلُونَ: أَيَّامُ اللَّهِ نِعْمُهُ. وَقَالَ^(١) قَتَادَةُ: أَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ [أَي قُلْ: إِنَّ^(٢)] اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَيَّامًا مِّنَ النَّعَمِ كَأَيَّامِ الْقَوْمِ؛ كَمْ مِنْ خَيْرٍ قَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ لَكُمْ! وَكَمْ مِنْ سُوءٍ قَدْ صَرَفَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ! وَكَمْ مِنْ غَمٍّ قَدْ فَرَّجَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ! فَاللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: أَيَّامُ اللَّهِ وَقَائِعُهُ، أَيْ ذَكَّرَهُمْ بِوَقَائِعِ اللَّهِ فِي الْأَمَمِ السَّالِفَةِ كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا الرِّسْلَ. هَذَا يُحْتَمَلُ: [فِي ذَكَّرَهُمْ^(٣)] بِنِعَمِ اللَّهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْمُصَدِّقِينَ بِتَصَدِيقِهِمْ، وَهُوَ مَا أَنْجَى الْمُصَدِّقِينَ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ إِهْلَاكَ تَعْذِيبٍ، أَوْ ذَكَّرَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْهُمْ بِالْوَقَائِعِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أُولَئِكَ بِالتَّكْذِيبِ، وَهُوَ الْإِهْلَاكُ.

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿بِأَنَّهُمْ لِلَّهِ﴾ الْإَيَّامَ الْمَعْرُوفَةَ نَفْسَهَا: أَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِهَا لِأَنَّ الْإَيَّامَ تَأْتِي بِأَرْزَاقِهِمْ، وَتُنْضِي بِأَعْمَارِهِمْ، إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرٌّ، وَتَقْتُلِي أَعْمَارَهُمْ وَآجَالَهُمْ، وَفِي مَا يَأْتِي بِأَرْزَاقِهِمْ نِعَمٌ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَفِي ذَهَابِ أَعْمَارِهِمْ وَآجَالِهِمْ إِظْهَارُ سُلْطَانِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ/ ٢٦٧ - ب/ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هَذَا يُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُ مُوسَى أَنْ يُذَكِّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ ثُمَّ الْإِنْجَاءَ مِنْ بَعْدُ.

يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ذَكَّرَهُمُ الْإَيَّامَ الْمَاضِيَةَ وَمَا تَلَاهَا^(٤)، وَهَذَا أَشْبَهُ، وَأَقْرَبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ الصَّبْرَ، هُوَ كَفُّ النَّفْسِ عَنِ مَعَاصِي اللَّهِ ﷻ وَعَنِ جَمِيعِ مَنَاهِيهِ، وَالشُّكْرُ، هُوَ الرُّغْبَةُ فِي طَاعَتِهِ. اخْتَبَرَ أَنْ فِي مَا ذَكَرَ آيَاتٍ لِّمَنْ كَفَّ هُوَ نَفْسَهُ^(٥) عَنِ الْمَعَاصِي وَرَغِبَ فِي طَاعَتِهِ، لَا لِيَمُنَّ تَطَوَّلَ عَلَى الرِّسْلِ، وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ، وَتَرَكَ إِبْجَابَتَهُمْ، وَلَمْ يَرْغَبْ فِي مَا دُعِيَ^(٦) إِلَيْهِ، لَيْسَ لِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ عِزَّةٌ وَآيَةٌ، [لَكِنْ^(٧)] لِيَمُنَّ ذَكَّرْنَا.

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الصَّبَّارُ وَالشُّكُورُ كِنَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ آمَنَ بِاللَّهِ، وَوَحَّدَهُ، وَاعْتَقَدَ الْكَفَّ عَنْ جَمِيعِ [مَعَاصِيهِ]^(٨) وَالرَّغْبَةَ فِي كُلِّ طَاعَتِهِ، وَإِنْ كَانَ يَقَعُ أَحْيَانًا فِي مَعْصِيَتِهِ. فَكَانَهُ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧ والعنكبوت: ٤٧] وَقَوْلُهُ^(٩): ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الذَّارِيَات: ٢٠] وَقَوْلُهُ: ﴿لِّلشَّافِقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦ و...]. [وَنَحْنُ ذَلِكَ]^(١٠) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى الْإِضْمَارِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَيْ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ. يَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَيْيَاتًا وَجَمَعَكُمْ مِّثْلُكُمْ﴾ [الْمَائِدَة: ٢٠] وَأَذْكُرُوا أَيْضًا ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قِيلَ: يُعَذِّبُونَكُمْ «سُوءَ الْعَذَابِ».

وَقَالَ قَائِلُونَ: يَكْلَفُونَكُمْ «سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذْخُمُونَ أَسْنَاءَكُمْ وَتَسْتَعْيِرُونَ نِسَاءَكُمْ» السُّومُ الْإِذَاقَةُ وَالْعَرْضُ؛ يُقَالُ: سَامَنِي كَذَا، أَيْ إِذَاقَنِي، وَعَرَضَنِي، وَيُقَالُ: سُمْتُ الدَّائِيَةَ عَلَى الْحَوْضِ، أَيْ عَرَضْتُهَا «وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» هَذَا أَيْضًا قَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْأَعْرَافِ^(١١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ، وَقِيلَ: وَإِذْ أَعْلَمَ رَبُّكُمْ، وَاخْتَبَرَ. وَالْعَرَبُ رُبَمَا قَالَتْ: أَفَعَلْتُ فِي مَعْنَى تَفَعَّلْتُ، فَهَذَا مِنْ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ فِي الْكَلَامِ: أَوْعَدَنِي، وَتَوَعَّدَنِي، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ، وَحَقِيقَتُهُ، وَعَدَ رَبُّكُمْ، أَوْ كَفَّلَ رَبُّكُمْ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(١٢): ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: لَيْنَ شَكَرْتُمْ نِعْمَةً كَذَا، وَلَا بَيَّنَّ أَيْ نِعْمَةً [وَلَا]^(١٣) النَّعْمَ كُلَّهَا، أَوْ نِعْمَةً دُونَ نِعْمَةٍ، وَلَا قَالَ: شَكَرْتُمْ عَلَى ذَا.

وَقَالَ: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لَمْ يَذْكُرِ الزِّيَادَةَ فِي مَاذَا؟ وَمِنْ أَيْ شَيْءٍ هِيَ؟ فَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ﴾ بِالتَّوْحِيدِ،

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. فإن. (٣) في الأصل وم. يذكرهم. (٤) في الأصل وم. يتلوها. (٥) أدرج قبلها في الأصل: في. (٦) في الأصل وم. دعوهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم. و. (١٠) في الأصل وم. ونحوه. (١١) [البقرة: ٤٩ والأعراف: ١٤١]. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

أَيَّ وَحَدَّثْتُمْ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فِي مَا خَلَقَكُمْ خَلْقًا، وَرَكَّبَ فِيكُمْ مَا تَتَلَذَّدُونَ [١٤] وَتَشْتَمُونَ فِي الدُّنْيَا، وَفِي مَا قَوْمَكُمْ ﴿فِي آخِرَةِ تَقْبِرُهُمْ﴾ [التين: ٤] ﴿لَا زَيْدٌ لَكُمْ﴾ النِّعَمُ الدَّائِمَةُ فِي الْآخِرَةِ. فَيَصِيرُ عَلَى هَذَا التَّوَلُّدِ كَأَنَّهُ قَالَ: لَنُنْزِلَنَّ شَاكِرِينَ فِي الْآخِرَةِ لَا زَيْدٌ لَكُمْ النِّعَمُ الدَّائِمَةُ.

وإلى هذا يذهب ابن عباس رضي الله عنه أو قريب منه. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابَ لَشَدِيدٍ﴾ أَي وَلَيْسَ كَفَرْتُمْ، وَلَمْ تُوَحِّدُوهُ، وَأَشْرَكْتُمْ غَيْرَهُ فِيهِ، وَصَرَفْتُمْ شُكْرَ تِلْكَ النِّعَمِ إِلَى غَيْرِهِ ﴿إِنَّ عَذَابَ لَشَدِيدٍ﴾. وَتَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ نِعْمَةٍ، يُشْكُرُهَا، يَزِيدُ لَهُ مِنْ نَوَاجِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُدِيمُ^(٢) ذَلِكَ لَهُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَكِنْ شَكَرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَكُمْ﴾ لُطْفٌ وَقَضَلٌ لِأَنَّ الشُّكْرَ هُوَ الْمُجَازَاةُ وَالْمُكَافَاةُ لِمَا سَبَقَ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُكَافَأُ فِي مَا أَنْعَمَ فَلَانَهُمْ^(٣) يَسْتَزِيدُونَ لِأَنفُسِهِمُ الزِّيَادَةَ بِالشُّكْرِ الَّذِي ذَكَرَ فَهُوَ لَيْسَ يُشْكِرُ فِي الْحَقِيقَةِ. لَكِنْ هَذَا، مِنْهُ لُطْفٌ، ذَكَرَهُ وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَابَةً حَسَنًا﴾ الْآيَةُ [المزمل: ٢٠] وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشْرَفُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ١١١] فَهَذِهِ الْأَنْفُسُ وَالْأَمْوَالُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ، لَيْسَتْ لَهُمْ، فَهُمْ فِي مَا يَقْرِضُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَكَذَلِكَ فِي الشُّرَى؛ يَشْتَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ مَوْلَاهُمْ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ شِرَاءَ لُطْفًا مِنْهُ وَقَضَلًا.

فَعَلَى ذَلِكَ فِي مَا ذَكَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَهُ، يَطْلُبُونَ الزِّيَادَةَ لِأَنْفُسِهِمْ، لُطْفًا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الشُّكْرُ فِي الظَّاهِرِ، مَوْضُوعُهُ الْمُكَافَاةُ لِمَا سَبَقَ. فَهُوَ فِي مَا بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعِبَادِ لَيْسَ بِمُكَافَاةٍ، وَلَكِنْ سَبَبُ الزِّيَادَةِ. وَلَكِنْ [سَمَاءُ شُكْرًا]^(٤) لُطْفًا مِنْهُ وَقَضَلًا عَلَى مَا ذَكَرَ التَّصَدُّقُ^(٥) قَرْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِّخَ حَبِيدًا﴾ أَي غَنِيًّا [بِدَائِيهِ، لَيْسَ يَأْمُرُ مَا يَأْمُرُ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ أَوْ^(٦) لِمَنْفَعَةٍ لَهُ، وَلَكِنْ مَا امْتَحَنَكُمْ إِنَّمَا امْتَحَنَكُمْ لِحَاجَةِ أَنْفُسِكُمْ وَلِمَنْفَعَةِ أَبْدَانِكُمْ؟

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِّخَ حَبِيدًا﴾ [أَي غَنِيًّا]^(٧) عَنْ عِبَادَةِ خَلْقِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَيْسَ يَأْمُرُهُمْ فِي مَا يَأْمُرُ لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ أَوْ لِحَاجَةِ نَفْسِهِ، وَلَكِنْ لِمَنْفَعَةٍ، تَحْصُلُ لِلْخَلْقِ وَلِحَوَائِجِ، تَبْدُو لَهُمْ. وَكَذَلِكَ النَّهْيُ عَمَّا يَنْهَى، لَيْسَ يَنْهَى لِخَوْفِ مَضَرَّةٍ، تَلْحَقُهُ، وَلَكِنْ لِلضَّرَرِ، يَلْحَقُهُمْ، وَلَاقَةِ، تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ.

يُخْبِرُ عَنْ غِنَاهُ عَمَّا يَأْمُرُ خَلْقَهُ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَوَجُّهِهِ الشُّكْرَ إِلَيْهِ. وَالْحَمِيدُ هُوَ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ الذَّمُّ فِي فِعْلِهِ. يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّهُمْ، وَإِنْ كَفَرُوا، وَكَانَ عَلِيمٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ، فَعِلْمُهُ بِذَلِكَ لَا يَجْعَلُهُ فِي إِشَائِهِمْ مَذْمُومًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ الْآيَةُ. يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ وَالرَّسُلِ؛ خَاطَبَهُمْ تَنْبِيهًُا وَتَنْبِيْهَا عَلَى تَكْذِيبِ الْكُفَرَةِ لِإِيَّاهُمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَي قَدْ آتَاكُمْ خَبَرُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، مَا فِيهِ مَرْجَرٌ لَكُمْ عَنْ مِثْلِ مُعَامَلَتِهِمُ الرُّسُولَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] أَنْ^(٨) مَا نَزَلَ بِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَالْإِسْتِهْزَاءِ بِاتِّبَاعِهِمْ.

يَذَكِّرُ هَذَا لَهُمْ لِيَهْوُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلِيَحْقُقَهُ^(٩)، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ لَهُ شُرَكَاءَ فِي مَا بُلِيَ بِهِ، وَامْتَحِنَ، كَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَهْوًى وَاخْتَفَ مِنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَخْصُوصُ فِيهِ.

وَتَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْهُمْ؛ يَقُولُ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَي قَدْ آتَاكُمْ خَبَرُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [أَنْ مَا]^(١٠) نَزَلَ بِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِاتِّبَاعِهِمْ، فَيَنْزِلُ بِكُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ، لِأَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَيٌّ قَادِرٌ عَلَى إِنْزَالِ مِثْلِهِ. فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرِجَ التَّوْبِيخِ وَالتَّغْيِيرِ وَالْوَعِيدِ لِيَحْذَرُوا مِنْ صَنِيعِهِمْ^(١١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويدوم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: سمي شكر، في م: سمي شكرًا. (٥) في الأصل وم: التصديق. (٦) في الأصل: لا. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: وليخفف. (١٠) في الأصل: أنه ما، في م: أنه ماذا. (١١) في الأصل وم: صنع أولئك.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه دلالة أن تكلفت معرفة الأنساب وحفظها شغل وتكلف، لأنه أخبر أن فيهم من لا [يَعْلَمُ ذَلِكَ] ^(١) ﴿لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

وروي في الخبر أنه [صلى الله عليه وسلم] ^(٢) كان ينسب إلى مضر، ولا ينسب إلى أكثر من ذلك.

قال أبو بكر الأصبهاني: قوله: ﴿لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ يكذب من ادعى معرفة الأنساب المتقدمة لأنه قال: ﴿لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أخبر أيضاً أنه لم يقص عليه خبر الكل بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] فمن البعيد أن يتكلف تعرف ما لم يقص على رسوله، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: البيئات بينات على وحدانية الله والوحيية، وتختلج الحجة التي أتى بها الرسل على إثبات الرسالة والنبوّة. وقال بعضهم: البيئات: ما يتقون، وما يأتون، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون هذا على التمثيل والكناية عن التكذيب وترك الإجابة، لأن رد الأيدي في أفواههم يمنعهم عن التصديق/٢٦٨ - / كقوليه: ﴿كَتَبْتُ كَتَبَهُ إِلَى آتَمَاءِ﴾ الآية [الرعد: ١٤] إذا ترك إجابته، وقوله: ﴿بَرَدُوا كُفْرَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وأمثاله.

ويشبه أن يكون على تحقيق جعل الأيدي في أفواههم. ثم يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ في أفواه الرسل: يقولون: إنكم كذبة.

والثاني: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ^(٥) في أفواه أنفسهم: يَصُوتُونَ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بهم وأتباعهم كقوليه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْآلِيَةِ إِلَّا مَسْكَةً وَتَصْدِيَةً﴾ الآية [الأنفال: ٣٥] وقد ذكرنا معناها في موضعه، فعلى ذلك [هذا] ^(٦) والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ الآية، وقد ذكرنا معناها: يَحْتَمِلُ قوله: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ التوحيد، لأنهم أرسلوا بالدعاء إلى توحيد الله والعبادة له. يدل على ذلك قولهم: ﴿وَأِنَّا لَنِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ وقول الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ الآية [إبراهيم: ١٠].

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من إثبات الرسالة وإقامة الحجة عليها ﴿وَأِنَّا لَنِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ من التصديق بالرسالة والنبوّة.

[وقوله] ^(٧) هذا يدل أنهم كانوا على شك مما يفتدون من الأوثان والأصنام، لأنه لو كان لهم بيان في ذلك وحجة ودعاء إليه لكانوا لا يقولون: ﴿وَأِنَّا لَنِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ ولكن كانوا يقطعون فيه القول، فدل أنهم كانوا على شك وريب في عبادتهم الأصنام والأوثان التي عبدوها.

ثم الشك والريب: قال بعضهم: هما سواء، وقال بعضهم: الشك، هو الشك المعروف، والريب، هو النهاية في الشك.

وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي عَضُوا على أصابعهم غيظاً على ما دُعُوا [إليه] ^(٨). وقال بعضهم: ردوا عليهم قولهم، وكذبوهم، وهو ما ذكرنا بذهاء، وقال [بعضهم] ^(٩) ردوا عليهم [بأيديهم وأفواههم] ^(١٠).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. أتوا. (٤) في الأصل وم. عليهم وما يحرم. (٥) في الأصل وم. ويحتمل رد الأيدي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم. بأفواههم.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي في ألوهية الله شك؟ أفى عبادة الله شك؟ أي ليس في ألوهيته ولا في عبادته شك.

تَقْرُونَ^(١) أنتم أنه إله، وأنه معبود، وكذلك أقرّ آبائكم أنه إله، وأنه معبود، فليس في ألوهيته ولا في عبادته شك، إنما كان الشك في عبادة من تعبدون دونه من الأوثان والأصنام وألوهيتها، لأنّ آبائكم أقرّوا بألوهية الله وأنه معبود حين^(٢) قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأقرّوا أنه خالق السموات والأرض، فاطر جميع ما فيهما بقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وأنّ الأصنام التي عبدوها لم تخلق شيئاً، فليس في الله شك عندكم، إنما الشك في ما تعبدون دونه لا^(٣) في وحدانية الله.

أو يقول: ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ إنه لم يزل معبوداً، أي ليس في الله شك أنه لم يزل معبوداً، إنما الشك في الأصنام التي قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فأمّا في الله فلا شك أنه لم يزل معبوداً.

[وقوله تعالى]^(٤): ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يشبه أن يكون على الإضمار، أي ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ وأنتم^(٥) تقولون أنه خالقهما. ويحتمل أن يكون على الاحتجاج أي ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهو فاطر السموات والأرض، أي تعلمون أنه فاطر السموات والأرض، وتقرّون أنه خالقهما.

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا يحتمل [وجوهاً]:

أحدها^(٦): ليغفر لكم ذنوبكم التي كانت لكم في حال الفترة إذا أسلمتم. وفيه^(٧) دلالة، والله أعلم: أن المآثم التي كانت لهم في وقت الفترة مأخوذة عليهم وقد وعد لهم مغفرتها^(٨) إذا أسلموا.

والثاني: وعد المغفرة والتجاوز لما كان منهم من الأثراء على الله والقول فيه بما لا يليق به إذا أسلموا، وتابوا عن ذلك، أي إنكم، وإن أفرقتم على الله، وقلتم فيه ما قلتم، وكذبتم رسله إذا أسلمتم، وثبتم، وصدقتم رسله^(٩) غفر لكم ذلك كله. وفيه ذكر لطيف وحسن معاملته خلقه.

والثالث^(١٠): جواب ما قالوا: ﴿إِنْ نَجِّىَ الْهَدْيَ مَعَكَ تَحْتَطَفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].

والرابع^(١١): إذا أسلمتم، وثبتم، لا تحطفون، ولكن تبغون إلى آجالكم المسماة.

[وقوله تعالى]^(١٢): ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تتعلق المعتزلة بظاهر هذه الآية [وتقول]^(١٣): إن لكل إنسان أجلاً: أجل في حال إذا فعل فعل كذا [وأجل في حال إذا فعل فعل كذا]^(١٤).

لكن جعل الأجلين إنما يكون بجهل في العواقب [بجهل]^(١٥) من يجهل العواقب.

والله^(١٦) هو عالم بما كان، ويكون، فلا يحتمل أن يجعل لخلق^(١٧) أجلين، وهو عالم بما يكون. وإنما جعل أجله الذي علم أنه يكون منه في الوقت الذي جعل أجله بالذي [جعل]^(١٨) والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ في قولهم تناقض من وجوه^(١٩):

أحدهما: أنهم تركوا طاعة رسلهم واتباعهم لأنهم بشر مثلهم حين^(٢٠) قالوا: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فذلك تناقض في القول.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقد.

(٦) في الأصل: يحتمل، ساقطة من م. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ثم وعد لهم المغفرة. (٩) من م، ساقطة من

الأصل. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً قوله ﴿يَدْعُوكُمْ... تُسَمًّى﴾. (١١) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً قوله ﴿يَدْعُوكُمْ... تُسَمًّى﴾.

(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: فاما.

(١٧) في الأصل وم: له. (١٨) من م، ساقطة من الأصل. (١٩) في الأصل وم: وجهين. (٢٠) في الأصل وم: حيث.

والثاني: أنهم لم يروا الرسل متبوعين [لأنهم] ^(١) بشر.

[والثالث: أنهم لا يخلون] ^(٢) أنفسهم من أن يكونوا متبوعين، استتبعوا غيرهم من دونهم، أو كانوا أتباعاً لغيرهم حين ^(٣) قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِ آلِهَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فذلك تناقض في القول.

[وقوله تعالى] ^(٤): ﴿فَأَتَيْنَاكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ سألوا الحجة على ما دُعوا إليه من ألوهية الله وربوبيته أو على ما دُعوا من الرسالة من الله وفي كل شيء، وَقَعَ عليه ^(٥) بصرهم دلالة وحدانية الله وألوهيته. لكنهم سألوا ذلك سؤال تَعْتِيٍّ وعناد. وكذلك قد سألوا ^(٦) الحجاج على ما دُعوا ^(٧) من الرسالة، لكنهم تعاندوا، وكابروا في رد ذلك، فسألوا سؤال آية وحجة، تَضَطَّرُّهُمْ، وتَقْهَرُهُمْ على ذلك.

أو يكون عند إتيانها هلاكهم، فأجابهم الرسل، فقالوا: ﴿وَمَا كَأَنَّ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١] أي ما كان لنا أن نأتيكم بآية، يكون بها هلاككم، إنما ذلك إلى الله، إن شاء لم يفعل.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَاكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما نحن إلا بشر مثلكم، رد قول الباطنية، لأنهم ينكرون كون الرسالة في جوهر البشريّة، ويقولون: إنما تكون الرسالة في جوهر الروحية. فهم - صلوات الله عليهم - إنما أجابوا قومهم حين ^(٨) قالوا لهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. بقولهم ^(٩): ﴿إِنَّا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لم يذكروا شيئاً سوى البشريّة. فذل أن قول الباطنية باطل حين ^(١٠) قالوا: ﴿إِنَّا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

[وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾] ^(١١) فيه دلالة نقض قول المعتزلة، لأنهم يقولون: إن الله لا يختص أحداً بالرسالة إلا من كان منه ما يستحق به الرسالة. وهم - صلوات الله عليهم - لم يذكروا سوى منة الله عليهم. دل أنه يُمُنُّ عليهم، ويختصهم لا بشيء من الاستحقاق يكون منهم من الأعمال، ولكن بالمنة والفضل منه عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَأَنَّ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هو ما ذكرنا: الإذن الإباحة، هو مقابل الحجر، لكن الإذن المذكور في القرآن ليس كله على وجه واحد، ولكن يتجده في كل موضع، ويحمل ^(١٢) على ما يليق به كقوله ^(١٣) تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي بنصر الله، لأن الهزيمة هي موضع النصر، يحمل عليه، وقوله ^(١٤) تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا آلَ لُوطٍ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي ب: إن شاء الله.

فعلَى ذلك الإذن ههنا حيث قال: ﴿وَمَا كَأَنَّ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ب: إن شاء الله السلطان، واجراؤه على أيدينا.

ويحمل ^(١٥) الإذن المذكور في القرآن على ما يصلح، ويليق بما تقدّم ذكره/ ٢٦٨ - ب/ ويحمل الإذن ههنا الأمر أي بأمر الله نأتي، أي [إن] ^(١٦) أمرنا الله بذلك نأتي ^(١٧) به.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يشبه أن يكون ذكر هذا على إثر وعيد وأذى كان منهم إليهم، فقالوا: على الله يتكل، ويعتمد، المؤمنون في دفع وعيدكم وأذاكم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا يُخْرِجُ على وجهين:

(١) ساقطة من الأصل وم (٢) في الأصل وم: ثم لا يخلوهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم. (٦) في الأصل وم: أقاموا. (٧) في الأصل وم: ادعوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقولهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ويحمل. (١٣) في الأصل وم: قال الله. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: ويحمل. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: نأتي.

أخذهما: على الأمر، أي على الله توكلوا أيها المؤمنون في جميع ما يوعدكم أهل الكفر وفي جميع أموركم. والثاني^(١): على الإخبار عن صنيع المؤمنين أنهم إنما يتوكلون على الله، وبه يعتمدون في جميع أمورهم، ومنه يزون كل خير وبر، لا بالأسباب التي لهم يزون^(٢) منها.

وأما أهل الكفر فإنما يتوكلون، ويعتمدون بالأسباب، ومنها يزون كل سعة وخير، والله أعلم.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ كأن هذا يخرج على إثر جواب كان منهم: لما قال الرسل: ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمُ يَسْطَلِينِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فأجابوهم بحرف، فعند ذلك قال الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ لكنه لم يذكر ما كان منهم، ولكن ذكر جواب الرسل لهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾. قال بعضهم: وقد بين لنا سلوك سبلنا.

وعندنا قوله: ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ أي وفق لنا السلوك في السبل التي علينا أن نسلکها، وأكرم لنا ذلك، أي ما لنا ألا نتوكل عليه في الضر والظفر عليكم، وقد وفقنا [وأكرم لنا]^(٣) السلوك في السبل التي علينا سلوكها، وذلك أغسر من القيام للاعداء والظفر^(٤) بهم، وقد أكرمنا بما^(٥) هو أغسر وأعظم. فإن ينصرونا [فهو]^(٦) أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَيَّنَّا عَلَى مَا آذَيْنَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرُوا بِالْقِيَامِ لَهُمْ وَالْإِسْتِنصَارِ مِنْهُمْ؛ أَمَرُوا بِالضَّرِّ عَلَى إِذَاهُمْ، فَقَالُوا: ﴿وَلَمَّا بَيَّنَّا عَلَى مَا آذَيْنَا﴾.

ويُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ فِي كَثْرَةٍ، وَكَانَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِي قِلَّةٍ، يَسْتَقِيلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيُعَاتِبُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ بِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِنَا وَالْعَلَبَةِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ أَكْرَمْنَا بِمَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كَأَنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى الْأَمْرِ؛ أَيِ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا، وَلَا تَتَوَكَّلُوا عَلَى غَيْرِهِ. وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْخَبَرِ؛ أَيِ لَا يَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، لَا يَتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ كَقَوْلِ الرُّسُولِ ﷺ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية [هود: ٥٦] وهو قول هود، وقول المؤمنين: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] ونحوه.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ الإخراج يَحْتَمِلُ وَجْهًا ثَلَاثَةً:

أحدها: على حقيقة الإخراج من البلد إلى غيره من البلدان والأرضين.

والثاني^(٨): الإخراج الحبس لَنُخْرِجَنَّكُمْ أَيِ لَنَحْبِسَنَّكُمْ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْبَلَدِ وَبِأَهْلِهِ وَبِمَا فِيهِ.

والثالث^(٩): الإخراج القتل، أَيِ نَقْتُلُكُمْ.

وقد كَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ يُوعِدُونَ، وَيُخَوِّفُونَ الرُّسُلَ وَاتِّبَاعَهُمْ بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ونحوه.

ثم فِي وَعِيدِهِمُ الَّذِي أُوْعِدُوا الرُّسُلَ [وجوه ثلاثة حين]^(١٠) تجاسروا إقبال الرسل بمثل هذا الوعيد، ومع الرسل آيات وحجج:

أحدها: أنهم رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ مُسَلَّطِينَ عَلَى أَوْلَئِكَ قَاهِرِينَ عَلَيْهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِبَرٍ وَتَجَبُّرٍ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَحَبَّ كُلُّ بَنِيكَارٍ عَيْسِي﴾ [إبراهيم: ١٥] دَلَّ هَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَا أَهْلَ تَسَلُّطٍ وَتَجَبُّرٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: وَيَحْتَمِلُ. (٢) أَدْرَجَ فِي الْأَصْلِ رَم قَبْلَهَا: وَلَا. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: وَأَكْرَمْنَا. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَالنَّصْر. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: مَا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: وَيَحْتَمِلُ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَم: وَيَحْتَمِلُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: وَجْهًا ثَلَاثَةً حَيْثُ.

والثاني: قالوا ذلك لهم لما لم يكن عندهم ما يدفعون حُجَجَ الرسل وبراهينهم، فهَمُّوا بِقَتْلِهِمْ وإخراجهم بعجزهم عن دفع ما أَرْزَمَهُمُ الرسل. وهكذا الأمرُ الْمُتَعَارَفُ بَيْنَ الْخَلْقِ: أَنَّ الْخَصْمَ لَا يَقْصِدُ إِهْلَاكَ خَصْمِهِ مَا دَامَ لَهُ الْوُصُولُ إِلَى الْحِجَاجِ. فإذا عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَهْمُ بِقَتْلِهِ، وَيَقْصِدُ إِهْلَاكَهُ.

والثالث: جواب الرسل إياهم عند القول السَّيِّئِ بالقول الذي ليس فوقه أحسن منه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُوذَنَّ فِي مَلِئَتَا﴾ المِلةُ الدينُ كقولهِ ﷺ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ الْمِلَّتَيْنِ» [الترمذي: ٢١٠٨] وقوله تعالى: ﴿مِلةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥ و...]. أي دين إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُوذَنَّ فِي مَلِئَتَا﴾ ليس أنهم كانوا فيها فتركوها، ولكن على ابتداء الدخول فيها على ما ذكرنا.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْحَى إِلَهُهُمْ رَبَّهُمْ لَثِيكَرَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَسْتَخَنَّكُمُ الْأَرْضُ مِنْ بَدِينِهِمْ﴾ وَعَدَّ لَهُمُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَيْهِمْ وَالتَّمَكِينَ فِي أَرْضِهِمْ مَعَ قَلَّةٍ عَدَدِ آبَاعِ الرِّسْلِ وَضَعْفِ أَسْبَابِهِمْ وَمَعَ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ وَقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ بَوْخٍ مِنَ اللَّهِ وَوَعْدِهِ إِيَّاهُمْ لَا مِنْ حَيْثُ أَنْفُسُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَكَانَ عَلَى مَا أَخْبَرُوا، فَكَانَ [ذَلِكَ] ^(١) مِنْ آيَاتِ رِسَالَتِهِمْ.

وما ينبغي لهم أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ الرِّسْلِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ عَلَى مَا ادَّعَوْا لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْعَوْهُمْ إِلَى طَاعَةِ أَنْفُسِهِمْ أَوْ عِبَادَتِهِمْ، وَإِنَّمَا دَعَوْهُمْ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْوَهْبِيَّةِ وَجَعَلَ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَةَ لَهُ دُونَ مَا عَبَدُوهَا مِنَ الْأَصْنَامِ.

وذلك في شهادة خَلْقَتِهِمْ وشهادة كُلِّ خَلْقِهِ، وَإِنْ لُطِفَ، وَصَغُرَ، فَلَمْ يَخْتَجُوا بِأَنْ ^(٢) يَقِيمُوا الْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ عَلَى مَا ادَّعَوْا هُمْ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا مُعَانِدِينَ مُكَابِرِينَ، لَا يَقْبَلُونَ قَوْلَهُمْ، وَلَا يُصَدِّقُونَهُمْ تَعَنُّتًا وَتَكِبْرًا، لَمْ يَنْظُرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ لِيُذَكِّرُوا آثَارَ وَحْدَانِيَّتِهِ وَالْوَهْبِيَّةِ، فَكَلَّفُوا إِقَامَةَ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ لَنَلَّا يَكُونَ لَهُمُ الْإِخْتِجَاجُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهًا [ثلاثة] ^(٣) لَأَنَّهُ قَدْ سَبَقَهُ ^(٤) خِصَالُ ثَلَاثٍ: مَا يَخْتَمِلُ رَجُوعَ هَذَا الْحَرْفِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ:

أحدها: [سَبَقَ] ^(٥) قوله: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فَيَخْتَمِلُ قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَنْ وَالْفَضْلُ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والثاني ^(٦): سبق أيضاً قوله: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَحْنُ وَكَانَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] أي ذلك الهدى والسُّبُلُ التي هَدَانَا إِلَيْهَا، أي ذلك الهدى والهداية ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والثالث ^(٧): سبق أيضاً [قوله] ^(٨): ﴿فَأَرْحَى إِلَهُهُمْ رَبَّهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣] أي ذلك النصرُ وَالظَّفَرُ بِهِمْ وَالتَّمَكِينُ فِي الْأَرْضِ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

ثم قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيِ خَافَ سُلْطَانِي وَنَفَقَتِي وَعَذَابِي فِي الدُّنْيَا بِمَا نَزَلَ بِمُكْذِبِي رَسُولِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وَعَذَابِي فِي الْآخِرَةِ حِينَ ^(٩) وَعَدَّ أَنَّهُ يَجْلُ بِهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَتَرْكِ الْإِجَابَةِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] يَخَافُ ذَلِكَ الْمَقَامَ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وَخَافَ مَا وَعَدَ مِنَ الْعَذَابِ فِي النَّارِ.

ثم قوله: ﴿مَقَامِي﴾ حِينَ ^(١٠) أَضَافَ إِلَيْهِ لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِأَقْلٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَسْتَوِي عَلَى السَّمَرِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إلى أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سبق. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وَأَقْلَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] وأمثاليه. فكيف اشتَبَهَ هذا على التشبيه، ولم يُشْتَبِه قَوْلُهُ: ﴿مَقَامِي﴾ حين^(١) سألوا في ذلك، ولم يسألوا في هذا؟ وهذا: إن^(٢) لم يكن أكثر من الإشتباه، فليس بأقل.

والأصل في هذا وأمثاليه من قَوْلِهِ: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨ و...]. وقَوْلِهِ^(٣): ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: ٤] [وقَوْلِهِ^(٤): ﴿وَالْيَوْمَ مَقَابِ﴾ [الرعد: ٣٦] [وقَوْلِهِ^(٥): ﴿وَالْيَوْمَ مَنَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]: دَكَرَ هذا، وإن كَانَ الْخَلَائِقُ جَمِيعاً، يَكُونُ مَصِيرُهُمْ وَمَرْجِعُهُمْ إِلَيْهِ، لَأنه - جَلَّ، وَعَلا - لم يَخْلُقْهُمْ لِلْمَقَامِ فِي الدُّنْيَا والدوام فيها، وإنما خَلَقَهُمْ لِلزَّوَالِ عنها والفناء والمَقَامِ فِي الْآخِرَةِ والدوام فيها، لكن خَلَقَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَتَحَنُّنِهِمْ، وَيُبْتَلُونَ فِيهَا/ ٢٦٩ - أ/ ثم يَصِيرُونَ إِلَى دَارِ الْمَقَامِ.

فَالْآخِرَةُ هِيَ الْمَقْصُودُ فِي خَلْقِهِمْ فِي الدُّنْيَا، لَا الدُّنْيَا. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَضَافَ الْمَصِيرَ إِلَى نَفْسِهِ لِمَا هُوَ الْمَقْصُودُ فِي خَلْقِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ صَاحِبِينَ إِلَيْهِ غَيْرَ غَائِبِينَ عَنْهُ طَرَفَةً عَيْنٍ، وَلَا فَائِزِينَ عَنْهُ، وَبِاللهِ النِّجَاحُ.

ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَنْبَاءَ الرُّسُلِ الْمَاضِيَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَأَنْبَاءَ أَعْدَائِهِمْ، وَمَا عَامَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَمَا نَزَلَ بِالْأَعْدَاءِ بِمَا عَامَلُوا رُسُلَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْإِسْتِنصَالِ وَأَنْوَاعِ الْبَلَايَا، وَمَا أَكْرَمَ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَالظَّفَرِ بِهِمْ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ.

وَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ كِتَاباً بِالْحِكْمَةِ يُثَلَّى لِلْعِلْمِ [كَيْفَ يُعَامَلُ]^(٦) الْأَعْدَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ لِيُرْغَبَ فِي مَا اسْتَوْجَبَ الْأَوْلِيَاءُ مِنَ الْكِرَامَاتِ، وَلِيُحْذَرَ^(٧) عَنْ مِثْلِ صَنِيعِ الْأَعْدَاءِ، وَلِيُعْلِمَ^(٨) كَيْفَ عَامَلَ رُسُلُهُ وَأَوْلِيَاءُهُ وَكَيْفَ عَامَلَ الرُّسُلَ [رَبَّهُمْ]^(٩).

أَضَافَ الرُّسُلَ جَمِيعَ مَا يَأْتُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْكِرَامَاتِ إِلَى اللهِ كَانَ لَا صُنْعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ حِينَ^(١٠) قَالُوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

ذَكَرَ [اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُمْ]^(١١) ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لِيُعْلِمَ أَنَّ الْخَيْرَ لَيْسَ يَكُونُ بِالْجَوْهَرِ، وَلَكِنْ بِفَضْلِ مَنْ اللهُ تَعَالَى وَبِرَحْمَتِهِ.

وَقَالُوا^(١٢): ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا﴾ [إبراهيم: ١٢] وأمثاله، وَأَضَافُوا ذَلِكَ إِلَيْهِ كَانَهُمْ لَا صُنْعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وَذَكَرَ اللهُ ﷻ مَا أَكْرَمَ أَوْلِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَالْإِنزَالِ فِي الدِّيَارِ كَانَهُمْ اسْتَوْجَبُوا ذَلِكَ بِفِعْلٍ^(١٣) كَانَ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ ذَلِكَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوُجُودِ [فِي قَوْلِهِ]^(١٤): ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾: ذَكَرَ أَنَّهُمْ اسْتَوْجَبُوا ذَلِكَ لَا أَنْ كَانَ [ذَلِكَ]^(١٥) مِنْ اللهِ بِحَقِّ إِفْضَالٍ وَأَمْتِنَانٍ [وَلَكِنْ]^(١٦) لِيُعْلَمُوا مُعَامَلَةَ اللهِ رُسُلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَمُعَامَلَةَ الرُّسُلِ وَالْأَوْلِيَاءِ سَيِّدَهُمْ وَمَوْلَاهُمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْإِسْتِنصَارُ؛ اسْتَنْصَرُوا اللَّهَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَاذِبُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتَحُوا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] أَيِ يَسْتَنْصِرُونَ.

وَالثَّانِي: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أَيِ تَحَاكَمُوا إِلَى اللهِ فِي النَّصْرِ لِلْأَحَقِّ مِنْهُمْ وَالْأَقْرَبِ إِلَى الْحَقِّ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وَهُوَ التَّحَاكُمُ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَخَافَ كُلُّ جبَّارٍ عَنِيذِهِ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا: تَحَاكَمُوا إِلَى اللهِ، فَتَنَصَّرَ أَوْلِيَاءُهُ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءُهُ عَلَى مَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ مُقَابِلٌ فِي م: يُعَامَلُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِيَحْذَرُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِيُعْلَمُوا أَنَّ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ تَعَالَى (١٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِفَطْر. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ذَكَرَ أَنْ أبا جَهْلٍ قَالَ: اللَّهُمَّ دِينُكَ الْقَدِيمُ، وَأَيَادِيكَ الْحَسَنَةُ، أَثِنَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَقْرَبَ مِنَ الْحَقِّ فَاغْصُرْهُ، فَغَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلَكَ الْأَعْدَاءَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَّ كُفْرًا بِنِكَاحٍ عَيْنِي﴾ أي مُتَجَبِّرٌ عَلَى رُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ. وَالْعَيْنُ قِيلَ: الْمَغْرِضُ الْمُجَانِبُ عَنِ الْحَقِّ وَالطَّاعَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَبَّارُ الْقَاتِلُ عَلَى الْغَضَبِ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ فِي سُلُوفٍ جَهَنَّمَ﴾ أي مِنْ وَرَاءِ عَذَابِ الدُّنْيَا لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ. وقوله: ﴿يَنْزِلُ فِي سُلُوفٍ جَهَنَّمَ﴾ الْوَرَاءُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي أَمَامٍ وَخَلْفٍ، أَيْ مِنْ أَمَامٍ مَا حَلَّ بِهِمْ جَهَنَّمَ. وَيَحْتَمِلُ: وَرَاءَ مَا أَصَابَهُمْ مَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِثَ مِنْ مَّاءٍ مَكِيدٍ﴾ أَيْ يُسْقَى فِي جَهَنَّمَ صَدِيدٌ مَكَانَ مَا يُسْقَوْنَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْقُرُوحِ.

جَعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ مَكَانَ مَا كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِيَأْسَ وَشَرَابًا وَطَعَامًا مَا كَانَتْ تَكْرَهُهُ أَنْفُسُهُمْ.

جَعَلَ مَكَانَ مَا يُسْقَوْنَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَاءِ فِي النَّارِ الصَّدِيدَ وَالْغُسْلِينَ الْحَمِيمَ، وَمَكَانَ الطَّعَامِ فِي الدُّنْيَا فِي النَّارِ الزُّقُومَ وَالضَّرِيعَ، وَمَكَانَ اللَّبَاسِ الْقَطْرَانَ وَتَحْوَهُ، وَمَكَانَ الْقَرِينِ وَالصَّدِيقِ فِي الدُّنْيَا يَجْعَلُ قَرِينَهُ الشَّيْطَانُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

كَانَ^(١) ذَلِكَ كُلُّهُ يَمْنَعُهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَيَصُدُّهُمْ عَنْ ذِكْرِهِ، وَكَانَ^(٢) جَزَائُهُمْ مِنْ نَوْعٍ مَا كَانَ يَمْنَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَاعَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الصَّدِيدَ الَّذِي يُسْقَوْنَ هُوَ أَنَّ النَّارَ تَجْرُحُهُمْ، وَتَقْرُحُهُمْ، فَيَسِيلُ مِنْ ذَلِكَ الصَّدِيدِ^(٣) فَيُسْقَوْنَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ يَجْعَلُ شَرَابَهُمْ، فِيهِ^(٤) صَدِيدٌ [لَا]^(٥) كَشَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَطَعَامَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِثَ مِنْ مَّاءٍ مَكِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ^(٦) ﴿وَنُفِثَ مِنْ مَّاءٍ﴾ فِي ظَنِّهِمْ مَاءً، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ وَالظَّاهِرِ صَدِيدٌ، لَكِنْ يَشْرَبُونَ رَجَاءً أَنْ يَذْفَعَ عَطَشَهُمْ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُمْ﴾ قَالَ أَبُو عَرُوسَةَ: التَّجَرُّعُ مَا يَشْرَبُهُ [الْمَرْءُ]^(٧) مُكْرَهًا عَلَيْهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ﴾ يُقَالُ: اسْقَتْهُ، أَيْ ادْخَلْتَهُ^(٨) فِي الْخَلْقِ، يُقَالُ: اسْقَتْهُ، فَسَاقَ فِي خَلْقِهِ إِذَا دَخَلَ دَخُولًا سَهْلًا، لَا يُؤْذِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قَالَ قَاتِلُونَ: يَأْتِيهِمُ الْعَمُّ وَالْهَمُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَكَذَلِكَ الْمُتَعَارَفُ فِي الْخَلْقِ إِذَا اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَمُّ وَالْهَمُّ وَالشَّدَّةُ يُقَالُ: كَانَتْ مِثٌّ، أَوْ تَمُوتُ غَمًّا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيْ أَسْبَابُ الْمَوْتِ مَا لَوْ كَانَ مِنْ قَضَائِهِ الْمَوْتُ فِيهَا لَمَاتُوا لِشِدَّةِ مَا يَحُلُّ بِهِمْ، وَلَكِنْ قَضَاءُ [لَا يَمُوتُونَ]^(٩) فِيهَا ﴿وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ﴾ مَوْتُ حَقِيقَةٍ، يَسْتَرِيعُ مِنَ الْعَذَابِ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ فِي سُلُوفٍ جَهَنَّمَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ فَوْقٍ وَمِنْ تَحْتٍ وَمِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدَامٍ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَنْزِلْ فِي سُلُوفٍ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ١٦] وقوله^(١٠): ﴿لَمْ يَنْزِلْ فِي سُلُوفٍ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ٤١] أَخْبَرَ أَنَّ النَّارَ تَأْتِيهِمْ، وَتَأْخُذُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَمِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿يَنْزِلُ فِي سُلُوفٍ جَهَنَّمَ﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ سَبَبٍ مِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَأْتِيهِمْ مَا لَوْ كَانَ [مِنْ قَضَائِهِ]^(١١) الْمَوْتُ لَمَاتُوا بِكُلِّ سَبَبٍ مِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيْ لَيْسَ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ جَسَدِهِ وَمِنْ سَائِرِ جَوَارِحِهِ إِلَّا الْمَوْتُ يَأْتِيهِ مِنْهَا مِنْ شِدَّةِ مَا يَحُلُّ فِيهِمْ حَتَّى يَجِدُوا طَعْمَ الْمَوْتِ وَكَرَهُهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَكُونَ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ادْخَلَتْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ لَا يَمُوتُونَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَضَاءُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ ذَلَّاهُ﴾ أي من وراء ذلك العذاب ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لا يَنْقَطِعُ، ولا يَنْقُزُ. وَصَفَهُ بِالْغَلِيظِ وَالشَّدِيدِ لِذَوَابِهِ وَالْإِيَّاسِ عَنِ انْقِطَاعِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ هو، والله أعلم، على التقديم، أي مثل أعمال الذين كفروا برَبِّهم كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ.

ثم تَحْتَمِلُ ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ الأفعال التي كانت لهم في حال إيمانهم، ثم كفروا بما أخذوا من الكُفْرِ، أَبْطَلَ ذَلِكَ الأفعال الصالحة في الإيمان، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] أو تكون محاسنهم التي كانت لهم في حال الكُفْرِ، طَمِعُوا أَنْ يَنْتَفِعُوا بِتِلْكَ الْمَحَاسِنِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَا انْتَفَعُوا بِهَا، فَصَارَتْ كَالرَّمَادِ الَّذِي تَذَرُهُ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ، لَمْ يَنْتَفِعْ صَاحِبُ ذَلِكَ الرَّمَادِ بِوَعْدِ مَا عَمِلَتْ [به الرِّيحُ مَا عَمِلَتْ] ^(١).

فَعَلَى ذَلِكَ الأفعال الصالحة التي عملوها في حال كُفْرِهِمْ أو أعمالهم الصالحة التي كانت لهم في حال الإيمان، ثم أخذوا الكُفْرَ، لا يَنْتَفِعُونَ بِهَا. وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ يُبْعَثُ﴾ [النور: ٣٩] فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أَعْمَالِهِمْ السَّيِّئَةِ فِي أَنْفُسِهَا، فَرَأَوْهَا حَسَنَةً كَقَوْلِهِ: ﴿كَانَ يُؤْمِنُ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَوْءٌ عَلَيْهِ﴾ [محمد: ١٤] فَرَأَاهُ حَسَنًا، فَيُشَبَّهُ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ حَسَنًا بِالسَّرَابِ، لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ هُنَاكَ، إِنَّمَا يَرَى خَيَالًا.

فَعَلَى ذَلِكَ أَعْمَالُهُمُ السَّيِّئَةُ فِي أَنْفُسِهَا، رَأَوْهَا حَسَنَةً صَالِحَةً، وَمَا كَانَ، وَمَا يُشَبَّهُ بِالرَّمَادِ فِيهِ الأفعال الصالحة في أَنْفُسِهَا، لَكِنَّ الكُفْرَ أَبْطَلَهَا.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ اليوم لا يكون عاصفاً، ولكن على الإضمار، كَانَهُ قَالَ فِي يَوْمٍ فِيهِ رِيحٌ عَاصِفٌ كَقَوْلِهِ: ٢٦٩ - ب/ ﴿وَالنَّهَارُ بُمِيسِرٌ﴾ [يونس: ٦٧] النَّهَارُ لَا يُبْصِرُ، وَلَكِنْ يُبْصَرُ فِيهِ، أَوْ يُبْصَرُ بِهِ. قِيلَ: هُوَ الْقَاصِفُ الْكَاسِرُ الَّذِي يَكْسِرُ الْأَشْيَاءَ. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وَالْعَاصِفُ وَالْقَاصِفُ حِرْفَانِ يُؤْذِيَانِ جَمِيعًا مَعْنَى وَاحِدًا..

وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ كَالرَّمَادِ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّ صَاحِبَهُ، لَا يَقْدِرُ بِهِ [على شيءٍ بَعْدَ مَا] ^(٢) عَمِلَتْ بِهِ الرِّيحُ، وَذَرَتْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ذَلِكَ﴾ الْكُفْرَ ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ لَا نَجَاةَ فِيهِ أَبَدًا، أَوْ ذَلِكَ الَّذِي أَتَوَاهُ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَلَمْ تَرَ: حَزَفُ تَنْبِيهِ عَنْ عَجِيبٍ، بَلَّغَهُ، وَعِلْمُ بِهِ، غَفَلَ عَنْهُ. أَوْ نَقُولُ: حَزَفُ تَنْبِيهِ عَنْ عَجِيبٍ، لَمْ يَبْلُغْهُ بَعْدُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ، عَلَى هَذَيْنِ ^(٣) الْوَجْهَيْنِ يُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ^(٤) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِّ لِلْحَقِّ. وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِلْحَقِّ أَيِّ لِلْكَافِرِينَ، لَا مُحَالَةً، وَهِيَ الْآخِرَةُ، لِأَنَّ خَلْقَ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ لِلْعَالَمِ الثَّانِي:، وَالْمَقْصُودُ فِي خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ الْعَالَمِ الثَّانِي:، فَكَانَ حَقُّهُمَا لِلثَّانِي، لَا لِلأَوَّلِ دُونَ الثَّانِي:، يَخْصُلُ خَلْقُهُمَا لِلْفَنَاءِ، وَذَلِكَ خَارِجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ لِلْحَقِّ الَّذِي وَجَبَ لَهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِمْتِحَانِ وَالْإِبْتِلَاءِ، خَلَقَهُمَا لِلشَّهَادَةِ لَهُ عَلَى الْمُتَمَتِّعِينَ. أَوْ نَقُولُ: خَلَقَهُمَا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِّ بِالْحِكْمَةِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بعد. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل: خالق، وهي قراءة حمزة والكسائي و... انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٣٣.

وقوله تعالى: ﴿أَنكَ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ إِنَّ كَانَ الْخِطَابُ بِرَسُولِ اللَّهِ قَيْصِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ: قَدْ رَأَيْتَ، وَعِلِمْتُ ﴿أَنكَ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ بِرَسُولِهِ مِنْ أَوْلَئِكَ يَقُولُ^(١): اَعْلَمُوا ﴿أَنكَ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لَمْ يَخْلُقْهُمَا عَبَثًا بَاطِلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هَذِهِ الْمُخَاطَبَةُ، يُخَاطَبُ بِهَا أَهْلَ مَكَّةَ، يَذْكُرُ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ عَلَى بَعْثِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ، يَقْدِرُ عَلَى إِذْهَابِكُمْ وَإِهْلَاكِكُمْ، وَيَقْدِرُ أَيْضًا أَنْ يَأْتِيَ بِخَيْرِكُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى بَعْثِكُمْ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ.

[الآية ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَيِ عَلَيْهِ هَيِّنٌ يَسِيرٌ. وَلَكِنْ عِنْدَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَيِ ذَهَابِكُمْ وَقَنَاؤُكُمْ لَيْسَ بِشَدِيدٍ عَلَيْهِ، وَلَا شَاقٌّ؛ لَيْسَ كَمَلُوكِ الْأَرْضِ إِذَا [ذَهَبَ شَيْءٌ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ]^(٢) يَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

فَأَمَّا اللَّهُ ﷻ فَلَا يَزِيدُ الْخَلْقَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا يُنْقِصُ قَنَاؤُهُمْ وَذَهَابُهُمْ مِنْهُ شَيْئًا كَقَوْلِهِ: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أَيِ أَشِدَّاءُ^(٣) عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مَا وَصَفَهُمْ ﷻ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ذَكَرَ مَكَانَ الشَّدَةِ الْعِزَّةَ وَمَكَانَ الذَّلَّةِ هَهُنَا الرُّحْمَةَ.

وَيَكُونُ^(٤) قَوْلُهُ: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَيِ مَا بَعْثُكُمْ وَإِحْيَاؤُكُمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ عَلَى اللَّهِ بِشَاقٌّ وَلَا شَدِيدٌ.

[الآية ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: خَرَجُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ قُبُورِهِمْ جَمِيعًا. وَقَالَ: ﴿جَمِيعًا﴾ لِأَنَّهُ لَا يُغَادِرُ أَحَدًا إِلَّا بَعَثَهُ^(٥). وَيَحْتَمِلُ وَجُوهًا أُخَرُ سِوَى ذَلِكَ.

وهي^(٦): أَنْ قَوْلُهُ: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ أَيِ لِأَمْرِ اللَّهِ، أَيِ لِيُؤْغِيهِ الَّذِي وَعَدَ أَنَّهُمْ يَنْبَعَثُونَ.

أَوْ يُرِيدُ الْحُكْمَ: اللَّهُ يَحْكُمُ فِي بَعْثِهِمْ.

[أَوْ]^(٧): ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ أَيِ ظَهَرُوا بِهِ، وَوُجِدُوا، فَيَكُونُونَ مَوْجُودِينَ ظَاهِرِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فَائِتِينَ ذَاهِبِينَ غَائِبِينَ؛ أَيِ عِنْدَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ [فَائِتُونَ غَائِبُونَ]^(٨) عَنِ اللَّهِ، فَيَوْمَئِذٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يُخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وَقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى تَمَازَ الْجَاهِلُونَ يَكْفُرُوا وَالْمُتَّقِينَ﴾ [محمد: ٣١] [وَأَمْثَالِهِمْ: أَيِ لِيَعْلَمَهُمْ]^(٩) مُجَاهِدِينَ صَابِرِينَ كَمَا عَلِمَهُمْ غَيْرَ مُجَاهِدِينَ وَغَيْرَ صَابِرِينَ وَقَوْلِهِ^(١٠): ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣ و...]. أَيِ^(١١) يَعْلَمُهُمْ شَهَادًا كَمَا عَلِمَهُمْ غَيْبًا.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ أَيِ يَكُونُونَ لَهُ مَوْجُودِينَ ظَاهِرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وإضافة البروز إليه في الآخرة، وَإِنْ كَانَ بُرُوزُهُمْ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ، وَالْمَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَالْمَأْبَى، وَنَحْوُهُ. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا لَا يُنَازَعُهُ أَحَدٌ فِي الْبُرُوزِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَدْ يُنَازَعُ فِي الدُّنْيَا.

أَوْ خَصَّ ذَلِكَ الْبُرُوزَ بِالْإِضَافَةِ لِمَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِنْشَائِهِ إِيَّاهُمْ وَخَلْقِهِمْ، لَيْسَ الْمَقْصُودُ فِي خَلْقِهِمْ وَإِنْشَائِهِمُ الْأَوَّلَ، وَلَكِنْ الْآخِرَ. فَخَصَّ ذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ أَيِ يَوْمَئِذٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، لِأَنَّهُمْ^(١٢) لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ قَبْلَ^(١٣) ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿تَقَالُ الشُّعْمَتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُثْقَنُونَ عَبَثًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: شَيْءٌ مِنْ مَمْلَكَتِكُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: شَدِيدٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يَكُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعَثَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَائِتِينَ غَائِبِينَ. (٩) فِي الْأَصْلِ: وَأَمْثَالُهُ أَنْ يَعْلَمَهُمْ، فِي م: وَأَمْثَالُهُ أَيِ يَعْلَمُهُمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَقَوْلِهِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَأَنَّهُمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَبْلَ.

قائلون: قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْشُونَ عَنَّا﴾ أي دافعون عنا من عذاب الله إذ كُنَّا لَكُمْ أتباعاً، وَكُنْتُمْ مُتَّبِعِينَ، فادْفَعُوا عَنَّا ذَلِكَ. لَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُمْ دَفْعَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَقَدْ رَأَوْهُمْ فِي الْعَذَابِ. فَلَوْ قَدَّرُوا عَلَى دَفْعِ [العذاب] ^(١) عَنْهُمْ لَدَفَعُوا أَوْلَى عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ حَيْرَةٌ وَعَمَى كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا؛ فَلِلْحَيْرَةِ مَا قَالُوا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢].

والأشبهُ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ [مِنْهُمْ دَفْعَ بَغْضِ الْعَذَابِ] ^(٢) عَنْهُمْ [وَتَحْمِلَ بَغْضَ الْعَذَابِ] ^(٣) لَأَنَّ مَوْثِقَ الْإِتِّبَاعِ فِي الْعَرْفِ يَتَحَمَّلُهَا الْمُتَّبِعُ، فَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ دَفْعَ شَيْءٍ وَتَحْمِلَ بَغْضَ مَا حَلَّ بِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ الْآخِرَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْشُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] طَلَبُوا مِنْهُمْ تَحْمِيلَ بَغْضِ مَا حَلَّ بِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ قَالَ بَغْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ الْكُفْرَةَ جَمِيعاً أَتْبَاعُهُمْ وَمُتَّبِعِيهِمْ أَعْلَمُ بِهَدَايَةِ اللَّهِ مِنَ الْمُعْتَرِثَةِ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَوْ هَدَاهُمْ لَاهْتَدَوْا، وَأَنَّهُ ^(٤) يَمْلِكُ هِدَايَتَهُمْ، وَالْمُعْتَرِثَةُ يَقُولُونَ: قَدْ هَدَى اللَّهُ جَمِيعَ الْكُفْرَةِ وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ، فَلَمْ يَهْتَدُوا، وَأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا لَمْ يَمْلِكْ. وَالْكُفْرَةُ حِينَ ^(٥) قَالُوا: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ رَأَوْا، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَوْ هَدَاهُمْ لَاهْتَدَوْا، لِأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهَدَايَتِهِ إِذَا هَدَاهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى أَتْبَاعِهِمْ ﴿لَهْدَيْنَاكُمْ﴾.

وقال إبليس: ﴿رَبِّ يَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] أَضَافَ الْإِغْوَاءَ إِلَيْهِ، وَهُمْ ^(٦) يَقُولُونَ: لَا يُغْوِي اللَّهُ أَحَدًا. فإِبْلِيسُ أَغْلَمُ بِهَذَا مِنَ الْمُعْتَرِثَةِ، وَقَوْلُهُمْ ^(٧): ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ﴾ أَي لَوْ رَزَقَنَا اللَّهُ الْهُدَى، وَأَكْرَمَنَا بِهِ ﴿لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ وَلَكِنْ لَمْ يَزُقْنَا ذَلِكَ، وَلَمْ يُكْرَمْنَا بِهِ ^(٨).

وقال أبو بكرٍ الْأَصَمُّ: تَأْوِيلُ قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ لَوْ كَانَ الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ هُدًى لَهْدَيْنَاكُمْ.

فهَذَا صَرَفٌ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ وَجْهِهَا بِلَا دَلِيلٍ؛ فَلَوْ جَازَ لَهُ ^(٩) هَذَا جَازَ لِغَيْرِهِ صَرَفُ جَمِيعِ الْآيَاتِ عَنْ ظَاهِرِهَا بِلَا دَلِيلٍ مَعَ مَا أَنَّ الْإِتِّبَاعَ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ هُدًى، فَلَا مَعْنَى لِهَذَا.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيبٍ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُمْ قَالُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْزِعَ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنَا، فَجَزَعُوا حِينَئِذٍ، فَلَمْ يُرْحَمُوا، ثُمَّ قَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَضِيرَ، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنَا، فَلَمْ يُرْحَمُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيبٍ﴾.

لَكِنْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ بَعْدَ الْإِمْتِحَانِ وَالْإِخْتِيَارِ، لَكِنْ كَانَهُمْ قَالُوا ذَلِكَ بِالَّذِي سَمِعُوا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَسْبِرُوا أَوْ لَا تَسْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا نَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] [أَي لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ] ^(١٠) قَالُوا: ﴿سَوَاءٌ / أَوْ لَا تَسْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيبٍ﴾ أَي مُنْجٍ وَمُخْلَصٍ.

لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولُوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيبٍ﴾ فِي أَوَّلِ أَحْوَالِهِمْ وَأُمُورِهِمْ، وَلَكِنْ يُحْتَمَلُ مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِيَّاسِ.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَي أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ؛ يَقُومُ إِبْلِيسُ خَطِيئاً فِي النَّارِ، وَيَخْطُبُ ^(١١)، كَمَا ذَكَرَ.

وقال قائلون: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَي مُيِّزٌ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَبْلَ أَنْ يُدْخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَامَ [إِبْلِيسُ] ^(١٢) خَطِيئاً؛ فَخَطَبَ لِأَتْبَاعِهِ كَمَا ذَكَرَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ويحتمل بعض. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الضمير يعود إلى المعتزلة. (٧) الضمير يعود إلى الكفرة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لغير. (١٠) في الأصل وم: ولما سمعوا ذلك عند ذلك. (١١) في الأصل وم: وخطب. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لَمَّا قُضِيَ مِنَ الْحِسَابِ وَمِنْ أَمْرِهِمْ. عِنْدَ ذَلِكَ يَخْطُبُ [إِبْلِيسُ كَمَا] ^(١) ذَكَرَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا قُضِيَ وَلَوْ أَنَّ قَوْمَهُ مُنْذِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٢٩] أي لَمَّا قُضِيَ مِنَ الْحِسَابِ ^(٢). فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لَمَّا ^(٣) نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ.

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ هُوَ أَنَّ اللَّهَ كَانَ قَدْ وَعَدَ أَنْ يَقُومَ إِبْلِيسُ خَطِيباً لَهُمْ، فَقَضَى الْأَمْرَ، أَيِ أَنْجَزَ مَا وَعَدَ أَنَّهُ يَخْطُبُ.

أَوْ أَنْ يَكُونَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ لَجَاجَاتٍ وَمُنَازَعَاتٍ فِي مَا بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَيَقُولُونَ لَوْ كُنَّا نَحْمِلُونَ الْكُفْرَ﴾ [الآية: المجادلة: ١٨] يَكْذِبُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَيَكُونُ لَهُمْ لَجَاجَةٌ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَجِّجُونَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ إِبْلِيسَ هُوَ كَانَ غَلَبَنَا، وَقَهَرَنَا، لِأَنَّهُ كَانَ يَرَانَا، وَنَحْنُ لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ؛ فَالْمَغْلُوبُ الْمَقْهُورُ غَيْرُ مَا خُوِذَ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي حُكْمِكَ.

تَحْتَجِّجُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ وَاللَّجَاجَاتِ، وَتَقُولُونَ: هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا، فَيَقُومُ عِنْدَ ذَلِكَ إِبْلِيسُ خَطِيباً بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ ^(٤): ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حَتَّى أَقْهَرُكُمْ، وَأَغْلِبُكُمْ، إِلَّا الدُّعَاءَ ﴿فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي﴾ طَائِعِينَ غَيْرَ مَقْهُورِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ﴾ يُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ وَعْدُهُ مَا وَعَدَ عَلَى السُّنَنِ الرَّسُولِ أَنَّ الْبَغْتَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالْحِسَابَ وَالْعَذَابَ كَانَتْ، لَا مَحَالَةَ، أَوْ جَمِيعُ مَا وَعَدَ مِنْ مَوَاعِيدِهِ، فَذَلِكَ كُلُّهُ حَقٌّ، أَيِ كَانَتْ، لَا مَحَالَةَ.

[وقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٥): ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ حَيْثُ قَالَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ يَوْمَ الْآثَانِ وَإِلَيَّ جَاؤَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] وَأَمَثَلَهُ مِنْ عِدَائِهِ، كَانَتْ كُلُّهَا أَمَانِيٍّ وَغُرُوراً وَكُذِباً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ مُلْكٍ وَقَهْرٍ وَغَلْبَةٍ، أَقْهَرُكُمْ، وَأَغْلِبُ عَلَيْكُمْ، إِلَّا الدُّعَاءَ، فَاسْتَجِبْتُمْ طَوْعاً.

وَالثَّانِي ^(٦): يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ مِنْ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ؛ أَيِ لَمْ يَكُنْ لِي حُجَّةٌ وَبُرْهَانٌ عَلَى مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، إِنَّمَا كَانَ لِي دُعَاءٌ وَوَسَاوِسٌ، وَكَانَ لِلرُّسُلِ حُجَجٌ وَبُرَاهِينٌ، فَتَرَكْتُمْ إِبَاجَتَهُمْ ﴿فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي﴾ بِلَا حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ؛ أَيِ لَمْ أَقْهَرُكُمْ، وَلَمْ أَغْلِبُ عَلَيْكُمْ.

لَكِنْ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ كَانُوا مَغْذُورِينَ غَيْرَ مُعَذِّبِينَ، لِأَنَّ الْمَقْهُورَ الْمَغْلُوبَ مُضْطَرٌّ، وَالْمُضْطَرُّ مُعَذَّرٌ، وَلَكِنْ لِلْسُّلْطَانِ حُجَّةٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لَيْسَ مُرَادُهُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَنْ ^(٧) يَلَامَ، وَلَكِنْ مُرَادُهُ أَنْ أَرْجِعُوا إِلَى لَا إِلَهَ إِلَّا أَنفُسُكُمْ، وَاسْتَغْلُوا بِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْكُمْ، لَمْ يَكُنْ مِنَّا إِلَّا الدُّعَاءُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَنَا بِمُغْنِيكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ﴾ قِيلَ: مَا أَنَا بِنَاصِرِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِنَاصِرِي. وَقِيلَ: مَا أَنَا بِمُغْنِيكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُغْنِي. وَقِيلَ: مَا أَنَا بِمَانِعِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمَانِعِي مَا نَزَلَ فِي. هَذَا كُلُّهُ وَاحِدٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ﴾ أَيِ مَا أَنَا بِمَالِكٍ إِغَائِثِكُمْ وَإِنْقَادَكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمَالِكِي إِغَائِثِي، وَإِلَّا لَوْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ ذَلِكَ لَفَعَلُوا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرِكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، أَيِ ^(٨) كُنْتُ بِذَلِكَ كَافِراً، وَيَحْتَمِلُ: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ أَيِ تَبَرَّأْتُ الْيَوْمَ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مَعَ اللَّهِ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ : مَا . (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ : السَّاعَ . (٣) مِنْ م ، فِي الْأَصْلِ : وَلَوْلَا . (٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ : وَقَالَ . (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ . (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَ : وَ . (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ : أَلَا . (٨) مِنْ م ، فِي الْأَصْلِ : أَنْ .

مِنْ قَبْلِ أَحَدِ الْتَّوَالِيَيْنِ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّهُ يَتَّبِعُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقْتَ مَا قَامَ خَطِيئاً، [وَمِنْ الثَّانِي: إِلَى أَنَّهُ تَبَيَّرَ^(١)] مِنْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَقْتَ أَشْرَكُوهُ [لِقَوْلِهِ تَعَالَى]^(٢) ﴿إِنَّ الْفَالِغِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيِ أَذْنُ لَهُمْ بِالْدُخُولِ فِي الْجَنَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الْإِذْنُ ههنا كَأَنَّهُ الرَّحْمَةُ، أَيِ خَالِدِينَ فِيهَا بِرَحْمَةِ رَبِّهِمْ ﴿يَجْعَلُ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يَحْتَمِلُ السَّلَامُ الشَّاءَ، أَيِ يُثْنُونَ عَلَى رَبِّهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ الْآيَةُ [فَاطِر: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: [يَسْلُمُ بَعْضُهُمْ]^(٣) عَلَى بَعْضٍ، وَيُخَيِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالسَّلَامِ. [وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّلَامُ: ^(٤) هُوَ اسْمُ كُلِّ خَيْرٍ وَثَمَنِ وَبَرَكَتَةٍ كَمَا قَالَ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مَرْيَم: ٦٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنْ كَلِمَةً ﴿أَلَمْ﴾ حَزَفَ تَنْبِيهُ عَنْ عَجِيبٍ، كَانَ بَلَّغُهُ، فَغَفَلَ عَنْهُ، أَوْ تَنْبِيهُ عَنْ عَجِيبٍ، كَانَ لَمْ يَبْلُغُهُ^(٥). وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: هِيَ كَلِمَةٌ يَفْتَحُ بِهَا الْعَرَبُ عِنْدَ الْحَاجَةِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخْرَجْ: أَلَمْ تَرَ مَا قَعَلَ فُلَانٌ، وَنَحْوَهُ. هَذَا يَحْتَمِلُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَوَاضِعِ، وَأَمَّا فِي هَذَا فَإِنَّهُ غَيْرُ مُحْتَمِلٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ قِيلَ: بَيَّنَّ اللَّهُ مَثَلًا، وَأَظْهَرَ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هُوَ الْقُرْآنُ، وَ ﴿كَلِمَةً خَبِيثَةً﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٦] هِيَ الْكُتُبُ الَّتِي أَخَذَهَا النَّاسُ؛ شَبَّهَ الْقُرْآنَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وَهِيَ النَّخْلَةُ عَلَى مَا ذَكَرَ، إِنْ ثَبَتَ، أَوْ كُلُّ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، وَشَبَّهَ الْكُتُبَ الَّتِي أَخَذَهَا النَّاسُ بِالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُثْمِرُ، وَقَالَ: إِنَّمَا شَبَّهَ الْقُرْآنَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ لِأَنَّ الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ هِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ، لَا يَقْطَعُونَهَا، فَهِيَ تَدُومُ، وَتَبْقَى دَهْرًا. فَعَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ، يَنْتَفِعُ بِهِ^(٦) النَّاسُ، وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿أَسْلُمًا نَائِتٌ وَقَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿أَسْلُمًا نَائِتٌ﴾ لَهَا قَرَارٌ. فَعَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ، هُوَ ثَابِتٌ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالْكَتُبُ الَّتِي أَخَذَهَا هَؤُلَاءِ، هِيَ بَاطِلَةٌ فَاسِدَةٌ، لَا حُجَّةَ مَعَهَا، وَلَا بُرْهَانَ، كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مُثْمِرَةٍ، لَا بَقَاءَ لَهَا، وَلَا قَرَارَ، وَلَا ثِبَاتَ.

الآية ٢٥ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ؛ شَبَّهَهَا بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وَهِيَ الَّتِي تُثْمِرُ، وَتَنْمُو، وَتَزْكُو، هِيَ عَلَى مَا وَصَفَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تُؤْتِي أَكْثَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢٥] فَعَلَى [ذَلِكَ]^(٧) الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ، لَا يَزَالُ يُثْمِرُ لِأَهْلِهِ الْخَيْرَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كَالشَّجَرَةِ الَّتِي وَصَفَهَا أَنَّهُ ﴿تُؤْتِي أَكْثَلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ وَكُلُّ وَقْتٍ ﴿أَسْلُمًا نَائِتٌ﴾ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿وَقَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ﴾ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَرْتَفِعُ، وَيَضَعُ بِهِ الْعَمَلُ [الصَّالِحُ]^(٨) إِلَى السَّمَاءِ.

وَالْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ هِيَ الْكُفْرُ، لِأَنَّهُ لَا مَنَفْعَةَ لِأَهْلِهَا فِيهَا؛ إِذْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ، وَلَا حُجَّةَ مَعَهَا، وَلَا بُرْهَانَ، إِنَّمَا شَيْءٌ، أَخَذُوهُ عَنْ شَهْوَةٍ وَأَمَانِيٍّ، فَكَانَ كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي لَا ثَمَرَ لَهَا، وَلَا مَنَفْعَةَ لِأَحَدٍ فِيهَا، فَهِيَ لَا تَبْقَى، وَلَا تَدُومُ.

الآية ٢٦ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَجَعَلْتُمْ مِنْ قَوْيِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ ضَرْبُ الْمَثَلِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ أَنَّهُ ذَكَرَ جَوَاهِرَ طَيِّبَةً وَجَوَاهِرَ خَبِيثَةً مِمَّا تَقَعُ عَلَيْهَا الْحَوَاسُّ، وَيَقَعُ عَلَيْهَا الْبَصَرُ، لِيَكُونَ كُلُّ جَوْهَرٍ مِنْ هَذِهِ الْجَوَاهِرِ الَّتِي تَقَعُ عَلَيْهَا الْحَوَاسُّ / ٢٧٠ - ب / وَيَقَعُ عَلَيْهَا الْبَصَرُ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّبٍ دَلِيلًا وَشَاهِدًا لِمَا غَابَ عَنْهُمْ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْحِسُّ، تُذَكَّرُ بِالْعَقُولِ الَّتِي رُكِّبَتْ فِيهِمْ لِيُرْغَبَ الطَّيِّبُ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ الْحِسُّ وَالْبَصَرُ عَلَى الْمَوْعُودِ الْغَائِبِ، وَيُحْذَرُ الْخَبِيثُ الْمَخْشُوسُ عَمَّا غَابَ، وَأَوْعِدَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: : وَالثَّانِي: أَنِّي كُنْتُ تَبَيَّرْتُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

(٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وكذلك هذه الآلام والأمراض والشدائد التي جعلَ في هذه الدنيا لِتَرْجُرَهُمْ عَنِ الْأَفْعَالِ التي بها يَسْتَوْجِبُونَ مِثْلَهَا فِي الْآخِرَةِ. وكذلك النِّعَمُ التي في الدنيا واللذاتُ جَعَلَهَا لِتُدْلَّهُمْ عَلَى النِّعَمِ الدَّائِمَةِ.

على هذا يَجُوزُ أَنْ يُخْرَجَ، لَا أَنَّهُ أَرَادَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الشَّجَرَةَ نَفْسَهَا أَوْ بِالشَّجَرَةِ [الخَيْبَةِ الشَّجَرَةَ] ^(١) نَفْسَهَا، وَلَكِنْ مَا وَصَفْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ضَرَبَ اللَّهُ [مَثَلَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِ] ^(٢) هُوَ فِي الْأَرْضِ، وَعَمَلُهُ يَضَعُهُ فِي السَّمَاءِ كُلَّ يَوْمٍ. فَكَمَا تُؤْتِي الشَّجَرَةُ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ لِلَّهِ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: كُلَّ عَامٍ لَأَنَّهُا تُثْمِرُ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً. وَقَالَ قَائِلُونَ: [كُلَّ] ^(٣) سِتَّةَ أَشْهُرٍ مِنْ وَقْتِ طُلُوعِهَا إِلَى وَقْتِ إِدْرَاكِهَا. وَقَالَ قَائِلُونَ: كُلَّ عَشِيَّةٍ وَعَذْوَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُسُوتُ وَحِينَ تَضِيحُونَ﴾ [الرُّوم: ١٧] وَقَالَ قَائِلُونَ: [كُلَّ] ^(٤) شَهْرَيْنِ وَأَمْثَالَهَا ^(٥).

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَلَكِنَّهُ الْأَوَاقِتُ كُلُّهَا: فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكُلِّ سَاعَةٍ.

فَإِنْ قَالَ لَنَا مُلْحِدِيٌّ: إِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلَهَا بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ كَلِمَتُنَا، وَنَحْنُ الْمُرَادُ بِذَلِكَ، وَالْكَلِمَةُ الْخَيْبَةُ الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلَهَا بِالشَّجَرَةِ الْخَيْبَةِ، هِيَ كَلِمَتُكُمْ، وَأَنْتُمْ الْمُرَادُ بِهَا، لَا نَحْنُ، قِيلَ: قَدْ سَبَقَ لِهَذَا الْمَثَلِ أَمْثَالٌ وَدَلَالٌ:

أَحَدُهَا ^(٦): أَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ، هِيَ الَّتِي لَهَا عَاقِبَةٌ وَآخِرَةٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ، لَهُ الْعَاقِبَةُ ^(٧) وَالنَّظَرُ فِي آخِرِهِ، هُوَ ^(٨) الْحَقُّ، وَالَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لَا عَاقِبَةَ لَهُ، وَلَا آخِرَةَ، وَفِي ^(٩) الْحِكْمَةِ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ، لَا عَاقِبَةَ لَهُ، هُوَ ^(١٠) بَاطِلٌ، وَالْكَفَرُ، لَا عَاقِبَةَ لَهُ ^(١١).

وَالثَّانِي: أَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدَ، لَهُ الْحُجَجُ وَالِدَلَالُ، وَالْكَفَرُ مِمَّا لَا حُجَّةَ لَهُ، وَلَا دَلَالَ، إِنَّمَا هُوَ مَأْخُودٌ بِالْأَمَانِيِّ وَالشَّهْوَةِ مِنْ تَشْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرْنَا.

وَالثَّلَاثُ ^(١٢): تَحْتِمِلُ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْوَحْيُ الَّذِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ، وَالْكَلِمَةُ الْخَيْبَةُ مَا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُؤْخِرُكَ إِلَى أُولَيَاتِهِمْ﴾ [الْأَنْعَام: ١٢١] فَوَحْيُ اللَّهِ، هُوَ ثَابِتٌ دَائِمٌ، يَنْتَفِعُ بِهِ أَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْعَاقِبَةِ، وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ هُوَ بَاطِلٌ مُضْمَحِلٌ، لَا عَاقِبَةَ لَهُ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ ^(١٣) أَهْلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ قَوْيِ الْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَوْصِلْتُ، وَقِيلَ: انْتَزَعْتُ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: اقْتُلَعْتُ مِنْ أَصْلِهَا؛ يُقَالُ: جَنَّتُ الشَّجَرَةَ، أَجْتُهَا جَنًّا، إِذَا قَلَعْتَهَا مِنْ أَصْلِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾: هُوَ مَا ذَكَرْنَا. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: سَبَّهَ كَلِمَةَ الشُّرْكِ بِخَنْطَلَةٍ، قُطِعَتْ، فَلَا أَصْلَ لَهَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا قَرَعَ لَهَا فِي السَّمَاءِ، أَيْ لَا يَضَعُهُ لَهَا عَمَلٌ وَلَا حَمْدٌ، وَسَبَّهَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ فِي نَفْعِهَا وَقُضْلِهَا وَثَبَاتِهَا وَقَرَارِهَا فِي الْأَرْضِ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ اخْتَجَّ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي خَلْقِ الْإِيمَانِ وَالْكَفَرِ، فَقَالَ: لِأَنَّهُ ضَرَبَ مَثَلَهُ بِمَا هُوَ خَلْقٌ، وَهُوَ الشَّجَرَةُ، فَعَلَى ذَلِكَ الْإِيمَانُ.

وَلَكِنْ عِنْدَنَا: لَا بِهَذَا يَجِبُ أَنْ اسْتَدِلَّ ^(١٤) فِي خَلْقِهِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ أَنْ شَبَّهَهُمَا وَاحِدًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَبَّهَهُمَا مُخْتَلِفًا لَكَانَ لَا يَضْرِبُ مَثَلَ هَذَا بِهَذَا وَلَا هَذَا بِهَذَا. فَإِذَا ضَرَبَ ذَلِكَ أَنَّ شَبَّهَهُمَا وَاحِدًا. فَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ دَلٌّ مَا وَصَفْنَا.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَذَا: أَنَّهُ يَزْدَادُ، وَيَنْقُصُ حِينَ ^(١٥) شَبَّهَهُ بِالشَّجَرَةِ، وَهِيَ تَزْدَادُ، وَتَنْقُصُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: مثلاً للمؤمنين، في م: مثل الشجرة الطيبة مثلاً للمؤمنين. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: على. (٧) في الأصل وم: عاقبة. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) الروا ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فهو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: يستدل. (١٥) في الأصل وم: حيث.

ونحن نقول: ليس فيه دلالة ما ذكرُوا، لأن الشجرة في نفسها، ليست بذی حَدٍّ، والإيمان ذو حَدٍّ، فما يزداد هو [في] ^(١) حق التَّزْيِين والتَّحْسِين، وأما الإيمان نفسه فإنه لا يزداد كالشجرة، إذا أُرْقَتْ ^(٢)، وخرجت ثمارها، تُوصَفُ بالزينة والحسن، فأما نفس الشجرة فلا تُوصَفُ بالزيادة، فعلى ذلك الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْرِيبُ اللَّهُ الْآثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ يُبَيِّنُ الله الأمثال التي يَقَعُ عليها الحسن، وَيَقَعُ عليها البُصْرُ، والأشياء الظاهرة، لِتَذَلُّهُمْ على ما اسْتَرَّ، وغاب عنهم؛ يَذْكُرُونَ بالعقول ما اسْتَرَّ، وَخَفِيَ، بالظاهر والمحسوس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لَعَلَّهُمْ يَتَعَبَّوْنَ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمة الطيبة تُحْتَمِلُ التوحيد، وفُروغها، هي الخوف والخشوع والخضوع والرغبة، وأكلها، هي ^(٣) الأعمال الصالحة، والخيرات، تكون منه. [والكلمة الخبيثة، هي الشرك، وفُروغها ما يكون من] ^(٤) الشرك من الفساد والتَّمَرُّد والعناد، وأكلها هي ^(٥) الأعمال التي تكون من الشرك.

أو أن تكون الكلمة الطيبة هي الإيمان وفُروغها هي الشرائع والأحكام التي تُعْمَلُ، وأكلها، هي ^(٦) ما يُثَابُ عليه في الدنيا والآخرة أبداً، والله أعلم.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿يُنِثُّ اللَّهُ الذُّبَابَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ذَكَرَ [الإيمان] ^(٧) مرةً بالثبوت ومرةً بذكر الزيادة كقوله ^(٨) ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ومرةً بذكر الابتداء والتجديد بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالتجديد والابتداء في حادث الوقت لأن الأفعال، تَنْقُصُ، وتَذْهَبُ، ولا تَبْقَى. وأما الزيادة [فهي] ^(٩) على ما كان، وكلُّه واحد في الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْفَالِغِينَ﴾ أضافت الإضلال مرةً إلى نفسه، ومرةً إلى الشيطان، ولا شك أن ما أُضيف إلى الشيطان إنما أُضيف على الذم. فإذا كان ما ذَكَرْ فتكون الجهة التي أُضيفت إلى الله غير الجهة التي أُضيفت إلى الشيطان. فالجهة ^(١٠) التي أُضيفت إلى الله، هي أن خلقَ فَعَلَ الضلالَ مِنَ الكافر، وما أُضيف إلى الشيطان، هو على التزيين والتشويل لِتَصِحَّ الإضافتان.

ولو كان على التسمية على ما يقول الْمُعْتَزِلَةُ: [إنه سَمَاءُ] ^(١١) ضالاً لكان كلُّ مَنْ سَمِيَ آخرَ ضالاً كافراً، جاز أن يُسَمَّى مُضِلّاً، فإذا لم يُسَمَّ بِتَسْمِيَتِهِ ضالاً أو كافراً مُضِلّاً دلَّ أنه إنما سَمِيَ الله نفسه مُضِلّاً لِتَحْقِيقِ الْفِعْلِ فِيهِ، وهو ما ذَكَرْنَا أن فَعَلَ الضلال منه. والمُعْتَزِلَةُ يقولون: إن الله خَلَقَ الْخَلْقَ جميعاً، لكنهم لم يَهْتَدُوا، وَضَلُّوا، مِنْ غَيْرِ أن يكونَ الله أَضَلَّهُمْ. فهذا صَرَفُ ظاهِرِ الآية إلى غَيْرِهِ بلا دليل.

وقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ وعلى قول الْمُعْتَزِلَةِ: لا يَقْدِرُ أنْ يَفْعَلَ ما يَشَاءُ لأنهم يقولون: إنه شاءَ إيمانَ جميع البَشَرِ، لكنهم لم يؤمنوا، وكذلك قال: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وهم يقولون: أرادَ إيمانَهُمْ [لكنهم لم يَفْعَلُوا] ^(١٢) ما أرادَ، ولا يَمْلِكُ، وقد أخبر أنه أرادَ [بقوله] ^(١٣): ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ هناك وقوله ههنا ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ^(١٤) وهم يقولون: لم يَمْلِكْ [أن يَفْعَلُوا ما شاء، و] ^(١٥) أرادَ، بل العبادُ يَفْعَلُونَ ما شَاءُوا ^(١٦) غير ما شاء هو. فتأويلُهُم خلافُ ظاهرِ القرآن، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يُنِثُّ اللَّهُ الذُّبَابَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يُشَبِّهُ أن يكونَ هذا صِلَةً قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] على نأويل مَنْ يقول: إنَّ الكلمة/ ٢٧١ - / الطيبة هي الإيمان ^(١٧)، ويكونُ القولُ الثابتُ هو القرآن.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تورقت. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: أن سماها، في م: أن سماه. (١٢) في الأصل وم: لكنه لم يفعل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: ولما يشاء. (١٥) في الأصل: أن يفعل ما شاءوا، في م: ما شاء و. (١٦) في الأصل وم: شاء. (١٧) في الأصل وم: القرآن.

يقول، والله أعلم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حين^(١) تَلَقَّوْهُ بِالْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِهِ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي بِالْآخِرَةِ وَالْبَعَثِ يُقَرُّونَ بِهِ ﴿وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ الطَّالِبِينَ﴾ حين^(٢) تَرَكُوا الْإِجَابَةَ، وَتَلَقَّوْهُ بِالرَّدِّ وَالْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ.

وَمَنْ يَقُولُ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ التَّوْحِيدُ، فَيَكُونُ^(٣) الْقَوْلُ الثَّابِتُ هُوَ الْإِيمَانُ، يُثَبِّتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِاخْتِيَارِهِمْ. وَفِي الْآخِرَةِ: قِيلَ: فِي قُبُورِهِمْ يُثَبِّتُهُمْ لِإِجَابَةِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَمُمْكِنٌ لَهُمْ ذَلِكَ ﴿وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ الطَّالِبِينَ﴾ الَّذِينَ تَرَكُوا الْإِجَابَةَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْقُبُورِ حِينَ^(٤) تَرَكُوا الْإِجَابَةَ فِي الدُّنْيَا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] يُثَبِّتُ مَنْ أَجَابَ اللَّهَ إِلَى مَا دَعَا فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِ الطَّرِيقَ الَّذِي بِهِ يُوَصِّلُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ [وَالْكَافِرُ حِينَ تَرَكَ إِجَابَتَهُ إِلَى مَا دَعَاهُ، يُضِلُّهُ فِي الْآخِرَةِ طَرِيقَ دَارِ السَّلَامِ]^(٥) بترك إجابته في الدنيا، والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ فِي هِدَايَةِ مَنْ اخْتَارَ الْإِجَابَةَ وَالْإِهْتِدَاءَ [وَفِي إِضْلَالٍ]^(٦) مَنْ اخْتَارَ تَرَكَ الْإِجَابَةَ وَالْقَوَايِ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ اخْتَلَفَ فِي تَرْوِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ السُّورَةُ كُلُّهَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ، فَإِنَّمَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ بِمَكَّةَ كُلُّهَا.

الآية ٢٩ فَمَنْ [يَقُولُ: ^(٧)] نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: قَوْلُهُ ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [جَهَنَّمَ] [إِبْرَاهِيمَ: ٢٨ و ٢٩] هُوَ بَذَرٌ، أَيْ حَمَلُوهُمْ إِلَى بَذَرٍ حَتَّى قُتِلُوا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ بَذَرٌ، إِنَّمَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ. وَمَنْ يَقُولُ: نَزَلَتْ بِمَكَّةَ يَقُولُ: ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ هِيَ جَهَنَّمُ عَلَى مَا فُسِّرَ ظَاهِرُ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْأَشْبَهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ بَيَّنَّ تِلْكَ الدَّارَ، فَقَالَ: ﴿جَهَنَّمَ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٩].

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْآيَةَ فِي عُظَمَائِهِمْ وَكِبَرَائِهِمْ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ﴾ الْآيَةَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي النِّعْمَةِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُمْ بَدَّلُوهَا كُفْرًا [فَهِيَ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]^(٩):

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَوَسَّعَهَا عَلَيْهِمْ، فَحَرَّمُوا تِلْكَ النِّعَمَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَجَعَلُوهَا لِلْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا، وَسَيَّبُوهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا مِنْ نَحْوِ الْبَحِيرَةِ الَّتِي ذَكَرُوا وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامِي. وَمَا جَعَلُوا لِلْأَصْنَامِ هُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿وَهَذَا لَشَرٌّ كَانَتْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فَذَلِكَ تَبْدِيلُ النِّعْمَةِ كُفْرًا حِينَ^(١٠) حَرَّمُوا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كُفْرًا، وَأَحْلَوْا لَهُمْ.

وَالثَّانِي: تِلْكَ النِّعْمَةُ مُحَمَّدٌ أَوْ الْقُرْآنُ أَوْ الْإِسْلَامُ [وَهِيَ نِعْمَةٌ كَذَبُوهَا]^(١١) أَوْ أَنْ يَكُونُوا بَدَّلُوا الشُّكْرَ الَّذِي عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ كُفْرًا، جَعَلُوهَا سَبِيًّا لِلْكُفْرِ، فَلَمْ يَشْكُرُوهُ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ حَقِيقَةُ تَخَرُّجٍ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: بَدَّلُوا، وَصَرَّفُوا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى أَخَذَ مِنْهُمْ، بَدَّلُوا بِهِ كُفْرًا.

وَالثَّانِي: بَدَّلُوا بِهِ كُفْرًا، بَعْدَ مَا سَأَلُوا رَبَّهُمْ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فَلَمْ يَشْكُرُوا مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَبَدَّلُوا الشُّكْرَ كُفْرًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِضْلَالُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهًا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ نِعْمَةٌ كَذَبُوهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي أنزلوا. دل هذا أن الآية نزلت في الرؤساء من الكفرة والأئمة منهم حين^(١) أخبر أنهم أحلوا قومهم دار البوار. ذكر: أحلوا قومهم على الماضي لأنه قد وجد منهم الجناية بالإحلال في دار البوار، وذكر في دخولهم جهنم على الإتيان بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَلَكَّ الْفَرَارُ﴾ لما لم يوجد بعد، سيوجد. ويجوز أن يستدل بهذا لأصحابنا لمسألة، وهو أن العبد إذا حفر بئراً، ثم أغتقى، فوقع في البئر إنسان، ينظر في قيمة العبد يوم حفر، لأن الحفر منه جناية، وإلى الواقع فيه يوم الوقوع لا يوم الحفر، لأنه لم يوجد بعد يوم الحفر جناية. أو أن يقال: أحلوا أرواحهم دار البوار: فتدخل أجسادهم يومئذ، لم تدخل [أرواحهم]^(٢) بعد.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ثم فسر أنهم لم أحلوا^(٣) قومهم دار البوار، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أعدالاً وأمثالاً ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

يختل قول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في العبادة، يعبدها^(٤) كما يعبد الله [أو]^(٥) في التسمية، يسمونها آلهة كما يسمي الله [جعلوا لله]^(٦) أنداداً. في هذين الوجهين يذكر سفلتهم حين^(٧) جعلوا ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا ينفع، ولا يدفع، ولا يضُر، أمثالاً وأعدالاً ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ على علم منهم أن الله هو الذي خلقهم، ورزقهم، ويتعبدونهم، وهو الذي يدفع عنهم كل بلاء وشدة.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ هو تفسير ما ذكر من تبديل النعمة كفرًا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بهذه النعم التي ذكر أنهم بدلوها كفرًا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ هذا في قوم، ماتوا على الكفر، أو^(٨) يقول: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ في الدنيا، أي تمتعوا بالكفر ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ هذا في قوم، علم الله أنهم لا يؤمنون أبداً. وفيه دلالة إثبات الرسالة.

وقال أبو عريضة: البوار الهلاك والفناء؛ يقال: بار الرجل يبور بوراً، فهو باير، وقوم بور، أي هالكون، ويقال: باريت السوق، وباريت السلعة إذا كسدت، ويقال: باريت المرأة تبور بوراً، فهي باثرة إذا كثرت.

وفي حديث النبي ﷺ «نعود بالله من بوار الأئمة» [عزاء زغلول في موسوعته إلى مسند الربيع بن حبيب ٣٠/٢] قيل: يعني من كسادها، والله أعلم.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يختل إقامة الإيمان بها كقوله: ﴿لَئِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو إقامة الإيمان بها، إذ لا يختل الحبس إلى أن يقيموا إقامة الفعل والوفاء؛ إذ في ذلك حبسهم أبداً. ويختل إقامة الوفاء بها والفعل لأنه إنما خاطب المؤمنين على إقامتها، وقد سبق منهم ما ذكرنا من الإيمان بها.

قيل: هذا جائز [إذ]^(٩) يأمرهم بإقامة الإيمان بها في حادث الوقت؛ إذ للإيمان حكم التجلّد في كل وقت، وهو كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِأَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٦] أي آمنوا بحادث^(١٠) الوقت.

فعلى ذلك، هذا مُحتمل الأمر بإقامتها إقامة الإيمان بها. ويختل ما ذكر من إقامة الصلاة في الآية والإنفاق [إقامة الصلاة وأداء الزكاة]^(١١) والإدامة لهما وال لزوم بهما. ويختل القبول والوفاء بهما.

وقوله تعالى: ﴿وَرِيقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ قال الحسن: الأمر بالإنفاق ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الزكاة المفروضة. ألا ترى أنه ذكر الوعيد في الآخرة، وقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَرَّ لِيَوْمِهِ وَلَا فَخْرَ﴾.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: آمنوا. (٤) في الأصل وم: يعبدون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: جعلوه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: بالله. (١١) في الأصل وم: هي الصلاة المفروضة.

ولا يَحْتَمِلُ الوَعْدَ فِي صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ، وهو ما ذَكَرَ أَيْضاً فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠] ولا يَحْتَمِلُ طَلَبَ الرجوعِ والتَّأخِيرِ إِلَى أَجَلٍ فِي النِّوَافِلِ. دَلٌّ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الزَّكَّاتِ الْمَفْرُوضَاتِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَيُفْقَرُ بِمَا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً﴾ هِيَ التَّطَوُّعُ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ الْفَرِيضَةُ، لِأَنَّ الْفَرِيضَةَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَظْهَرَ، وَتُعْلَنَ، وَلَيْسَ فِي آدَائِهَا رِيَاءٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾ ﴿يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ أَي يَوْمٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَبِيعَ نَفْسَهُ مِنْ رَبِّهِ [وفي الدنيا يَقْدِرُ أَنْ يَبِيعَ نَفْسَهُ مِنْ رَبِّهِ] كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتَيْنَاهُ مَهْمَا تَشَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمَوْهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ يَبِيعُ نَفْسَهُ مِنْ رَبِّهِ [فيه] (٣). وَيَحْتَمِلُ ﴿يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾ أَي لَا يَنْفَعُهُ بَيْعُ نَفْسِهِ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَإِنْ بَاعَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ٢٧١ - ب/ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَانًا لَوْ تَكَرَّرَ ثَمَنًا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤ و٨٥] تَعَلَّى ذَلِكَ الْأَوَّلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْلُ﴾ هو مُضَدَّرُ خَالَتْ، وهو مِنَ الْخِلَّةِ وَالصَّدَاقَةِ. ثُمَّ هُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَي لَا تَنْفَعُهُمُ الْخِلَّةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ كُلَّ خِلَّةٍ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا مِمَّا لَيْسَتْ لِلَّهِ فَهِيَ تَصِيرُ عَدَاوَةً فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ الآية [الزخرف: ٦٧] أَخْبَرَ أَنَّ الْأَخِلَّاءَ الَّذِينَ كَانُوا يُخَالَتُونَ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا فَهُمْ الْأَعْدَاءُ إِلَّا الْخِلَّةُ الَّتِي كَانَتْ لِلَّهِ فَهِيَ تَنْفَعُ أَهْلَهَا، وهو ما ذَكَرَهُ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِيَبْلُغَ بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَأَمثالُهُ: يُخْبِرُ أَنَّ الْخِلَّةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، لَا لِلَّهِ، فَهِيَ تَصِيرُ عَدَاوَةً فِي الْآخِرَةِ حَتَّى يَبْرَأَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والثاني: أَي يَكُونُ لَهُمْ شُفَعَاءُ وَأَخِلَّاءُ، وَلَكِنْ لَا يَشْفَعُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] أَوْ يَشْفَعُونَ (٣) لَهُمْ، لَكِنْ لَا تُقْبَلُ [شَفَاعَتُهُمْ] (٤) كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّائِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

الآيتان ٣٢ و ٣٣ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ دَلَالَةً أَنَّ تَدْبِيرَ اللَّهِ [مُتَّسِقٌ مُحِيطٌ] (٥) بِجَمِيعِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ حِينَ (٦) ذَكَرَ: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ يَعْنِي الْبَشَرَ. جَعَلَ مَنَافِعَ السَّمَاءِ مُتَّصِلَةً بِمَنَافِعِ الْأَرْضِ مَعَ بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا. دَلٌّ أَنَّهُ عَنْ تَدْبِيرٍ فَعَلَ هَذَا وَعِلْمٍ، وَأَنَّهُ تَدْبِيرٌ وَاحِدٌ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

ثُمَّ مَا ذَكَرَ مِنْ تَسْخِيرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ شِدَّةِ السَّمَاءِ وَصَلَابَتِهَا وَغِلَظِ الْأَرْضِ وَكَثَافَتِهَا، وَتَسْخِيرِ الْبَحْرِ مَعَ أَهْوَالِهِ وَأَمْوَاجِهِ [وَتَسْخِيرِ الْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ] (٧) وَتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِهَذَا الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: يَذْكُرُهُمْ نِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ الْمَنَافِعِ الَّتِي جَعَلَ لَهُمْ فِي تَسْخِيرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي ذَكَرَ لَهُمْ عَلَى جَهْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُمْ مُسَخَّرَاتٌ لِغَيْرِهِمْ لِيَسْتَاوِيَ بِذَلِكَ شُكْرُهَا.

وَالثَّانِي: يَذْكُرُ سُلْطَانَهُ وَقُدْرَتَهُ حِينَ (٨) سَخَّرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا وَغِلَظِهَا وَأَهْوَالِهَا. وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى تَسْخِيرِ مَا ذَكَرَ [فَهُوَ] (٩) قَادِرٌ عَلَى الْبَغْيِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنْ تَسْخِيرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي ذَكَرَ [أَمْرَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا (١٠): أَنَّهُ أَنْشَأَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مُسَخَّرَةً مُذَلَّةً لَنَا.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَشْفَعُ. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحِيطٌ مُتَّسِقٌ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: [أنه]^(١) سَخَّرَ لنا، أي عَلَّمَنَا مِنَ الأسبابِ وَالْجِبِلِ التي تَنْهَيَّا لنا الْإِنْتِفَاعَ بها والتَّشْخِيرَ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ فِيهِ لُغَتَانِ وَتَأْوِيلَانِ:

[أحدهما: ما]^(٢) قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ﴾ ^(٣) عَلَى التَّنْوِينِ ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ عَلَى الْجَحْدِ، أَيِ أَنَّا كُنَّا مِنْ غَيْرِ أَنْ سَأَلْتُمُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُ سَخَّرَهَا لَنَا، أَيِ أَنَّا كُنَّا مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ وَلَا طَلْبَةٍ.

والثاني: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وَمَا لَمْ تَسْأَلُوهُ، لِأَنَّهُ أَعْطَانَا أَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَسْأَلَ حِينَ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ذَكَرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَنَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قَالَ: مَا لَمْ تَسْأَلُوهُ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّا نَسْأَلُ أَشْيَاءَ لَمْ نُعْطَهَا، فَمَا مَعْنَى الْآيَةِ؟ قِيلَ بِوَجْهِ:

أَحَدُهَا: ذِكْرُ حَرْفِ التَّبْعِيضِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

والثاني: ﴿وَأَتَيْنَكُم﴾ عَلَّمَ مَا سَأَلْتُمُوهُ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوا وَجْهَةً عِلْمِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ.

والثالث: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَحَقُّ السُّؤَالُ، وَيَلِيقُ بِهِ.

عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهُ تُخَرِّجُ الْآيَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ لَا تُخْصِمُوهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا تُخْصِمُوهُ﴾ أَيِ لَا تَشْكُرُوهُ، أَيِ لَا تَقْدِرُوا شُكْرَهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ لَا تَقْدِرُوا إِحْصَاءَهَا وَعَدَّهَا. وَهَكَذَا أَنَّ أَقْلَ النَّاسِ نِعْمَةً، لَوْ تَكَلَّفَ إِحْصَاءَ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ الْجَوْهَرِ وَالصُّورَةِ وَاسْتِقَامَةِ التَّرَكِيبِ وَالْبُنْيَةِ وَسَلَامَةِ الْجَوَارِحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا سَبِيلَ لَهُ فِي^(٥) ذِكْرِهَا وَإِحْصَائِهَا إِلَّا بَعْدَ طَوِيلِ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ لَا تُخْصِمُوهُ﴾ لَا تُحِيطُوا بِكُنْهَيْهَا وَنَهَائِهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلِيقٌ لِّمَا كَفَرٌ﴾ أَيِ ظَلَمَ نَفْسَهُ حِينَ^(٦) صَرَفَهَا إِلَى غَيْرِ الْجِهَةِ الَّتِي جُعِلَتْ،

وَأَمَرَ بِالصَّرْفِ إِلَيْهَا^(٧) وَأَدْخَلَهَا فِي الْمَهَالِكِ، وَأَلْقَاهَا فِي التَّهْلُكَةِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ لِنِعْمِهِ حِينَ^(٨) صَرَفَ شُكْرَهَا إِلَى الْغَيْرِ الَّذِي [جَعَلَهُ إِلَهًا]^(٩) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ الْمَعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِّمَآدَى الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُكُورِ وَالْآخِرِ وَالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالْأَوَّلِ﴾ بِتَبَعٍ فِيهِ وَلَا خِلَافٍ [إِبْرَاهِيم: ٣١] إِنَّ صَاحِبَ الْكِبِيرَةِ يُخَلِّدُ فِي النَّارِ، لِأَنَّهُ أَوْعَدَ بِتَرْكِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ التَّخْلِيدَ أَبَدًا، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ مِنَ الْكِبَارِ. دَلٌّ أَنَّهُ مَا ذَكَرَ.

فَنَقُولُ نَحْنُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ: إِنَّ الْآيَةَ تَحْتَمِلُ الْأَمْرَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ إِقَامَةً الْإِيمَانِ بِهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ تَأْوِيلِ بَعْضِ الْمُتَأْوِيلِينَ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا عَلَى إِقَامَةِ الْإِيمَانِ بِهَا، فَمَنْ تَرَكَ ذَلِكَ فَهُوَ يُخَلَّدُ أَبَدًا، لَا شَكَّ فِيهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَنْ اسْتَحَلَّ تَرْكَهَا، فَهُوَ بِالْإِسْتِحْلَالِ يَكْفُرُ، فَهُوَ يُخَلَّدُ، وَمَنْ^(١٠) يَتْرُكُهَا لِعُذْرٍ فَهُوَ لَا يُخَلَّدُ عَلَى اتِّفَاقِ الْقَوْلِ. فَإِذَا كَانَ مَا ذَكَرْنَا مُحْتَمَلًا دَلٌّ أَنَّ الْآيَةَ مَخْصُوصَةٌ.

ثُمَّ مَعْرِفَةُ تَخْلِيدِ صَاحِبِ الْكِبِيرَةِ إِنَّمَا هِيَ بِالْدَّلَائِلِ سِوَى هَذَا؛ إِذْ لَيْسَ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ دَلَالَةُ التَّخْلِيدِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِحْتِمَالِ الْخُصُوصِ. دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا يُطْلَبُ الدَّلِيلُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٣٨. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إلى ما. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: جعلها له. (١٠) في الأصل وم: أو.

قَالَ الْقَتِيبِيُّ: ﴿وَلَا يَلْبَسُ﴾ جِلَالٌ: مَصْدَرُ خَالَتَ فَلَانًا جِلَالًا وَمُخَالَةً، وَالْإِسْمُ الْجِلَّةُ وَالْمَخَلَّةُ، وَهِيَ الصَّدَاقَةُ. وَقَالَ أَبُو عَرَسَةَ: ﴿وَلَا يَلْبَسُ﴾ قَالَ مِنَ الْمُخَالَةِ، يَعْنِي الْبَمُودَةِ ﴿وَالْيَبِيبِ﴾ قَالَ: يَجْرِيَانِ أَبَدًا، وَهُوَ مِنَ الدُّوبِ أَيِ مِنَ الثَّعْبِ.

الآية ٢٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أَيِ مَآمِنًا، سَمَى آمِنًا لِمَا بِأَمْنِ الْخَلْقِ فِيهِ كَمَا سَمَى النَّهَارَ مُبْصِرًا^(١) وَالنَّهَارَ، لَا يُبْصِرُ، وَلَكِنْ يُبْصَرُ فِيهِ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ.

ثُمَّ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [مَا]^(٢) قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا طَلَبَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَجْعَلَ آمِنًا عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ خَاصَّةً لَا عَلَى النَّاسِ كَافَّةً [لِنَلَا تُشْفَكَ]^(٣) فِيهِ الدَّمَاءُ، وَتُهَنَكُ^(٤) فِيهِ الْحَرَمُ. دَلٌّ أَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ خَاصَّةً. وَلَكِنْ لَوْ كَانَ مَا ذَكَرُوا مُحْتَمَلًا مَا يُضْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ الْآيَةُ [الْعَنْكَبُوتُ: ٦٧] وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابةً لِّلنَّاسِ وَآثَارًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وَغَيْرِهَا^(٥) مِنَ الْآيَاتِ؟ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ تِلْكَ الْبُقْعَةَ مَآمِنًا لِلْخَلْقِ، بِأَمْنُونَ فِيهَا. ثُمَّ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: جَعَلَهُ آمِنًا بِحَقِّ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ، أَلْزَمَ الْخَلْقَ حِفْظَ تِلْكَ الْبُقْعَةِ عَنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ فِيهَا وَهَتِكِ الْحَرَمِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعَاصِي، وَإِنْ كَانُوا ضَيَّعُوا ذَلِكَ، وَعَمِلُوا فِيهَا مَا لَا يَضْلُحُ كَالْمَسَاجِدِ الَّتِي بُنِيَتْ لِلْعِبَادَةِ وَإِقَامَةِ الْخَيْرَاتِ، أَلْزَمَ [عَلَى]^(٦) أَهْلَهَا وَعَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ حِفْظَهَا عَنْ إِدْخَالِ مَا لَا يَضْلُحُ، وَلَا يَجِلُّ. ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ قَدْ ضَيَّعُوا ذَلِكَ، وَعَمِلُوا فِيهَا مَا لَا يَلِيقُ بِهَا، وَلَا يَضْلُحُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُ مَآمِنًا.

[وَالثَّانِي: جَعَلَهُ مَآمِنًا]^(٧) بِالْخِلْقَةِ مِنْ ذَا الْوَجْهِ، [وَلَا]^(٨) يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: كَيْفَ سَفَكَ فِيهِ الدَّمَاءُ؟ وَمَتَى فِيهِ الْحَرَمُ؟ وَهُوَ بِالْخِلْقَةِ جَعَلَهُ مَآمِنًا. قِيلَ: يَجُوزُ هَذَا بِحَقِّ الْعُقُوبَةِ، وَإِنْ كَانَ آمِنًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ مَكِينٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الْآيَةُ [النِّسَاءُ: ١٦٠] الطَّلِبَاتُ بِالْخِلْقَةِ حِلَالًا، لَكِنَّهُ [حَرَمًا]^(٩) عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالظُّلْمِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ بِحَقِّ الْعُقُوبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْحَرَمِ، جَعَلَهُ مَآمِنًا بِالْخِلْقَةِ.

ثُمَّ قِيلَ: فِيهِ عُقُوبَةٌ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي/ ٢٧٢ - أ/ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبْ ذَيْنِ أَنْ تُغِدَّ الْأَسْنَامَ﴾ الْآيَةُ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ دَعَا، وَطَلَبَ مِنْهُ الْعِصْمَةَ، وَقَدْ عَصَمَهُ بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ، وَاخْتَارَهُمَا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا سَأَلَ عِصْمَةَ وَلَدِهِ وَذُرِّيَّتِهِ لِمَا عَلِمَ أَنَّ ذُرِّيَّتَهُ قَدْ يَخْتَلِفُونَ فِي دِينِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَإِنَّ^(١٠) ذَكَرَ نَفْسَهُ لِمَا الْمَعْرُوفُ أَنَّ مَنْ دَعَا لِأَخْرَ بَدَأَ بِنَفْسِهِ.

قَالَتِ الْمَعْتَزِلَةُ: [دَعَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ]^(١١)، وَطَلَبَ الْعِصْمَةَ مِمَّا ذَكَرَ يَدُلُّ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى بِدَعَا عِبَادَةٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَعْطَاهُ ذَلِكَ، أَوْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَغْفُورٌ [لَهُ]^(١٢). قِيلَ: دَعَا إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عِصْمَتُهُمْ [بِأَنِّ كَانَتْ مَقْرُونَةً بِمَا طَلَبُوا]^(١٣) مِنْهُ، وَسَأَلُوهُ، وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا تِلْكَ الْعِصْمَةَ بِإِهْمَالِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَتَرْكِهِمْ إِيَّاهَا سُدًى، بَلْ إِنَّمَا وَجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ بِمَا أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ الْآيَةُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ طَلَبَ مِنْهُ الْعِصْمَةَ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ [عَلَى]^(١٤) عَلِمَ أَنَّهُ يَغْتَصِمُ إِذَا عَصَمَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيَهْتَدِي إِذَا هَدَاهُ. وَهُمْ يَقُولُونَ: اللَّهُ يَغْتَصِمُ، وَلَا يَغْتَصِمُ الْعَبْدُ، وَيَهْتَدِي، وَلَا يَهْتَدِي الْعَبْدُ، وَيَقُولُونَ: إِذَا أَعْطَى أَحَدًا^(١٥) ذَلِكَ خَرَجَ ذَلِكَ مِنْ يَدِهِ، أَوْ^(١٦) لَا يَمْلِكُ إِعْطَاءَ ذَلِكَ.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و.]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إذ قد سفك. (٤) في الأصل وم: وسفك. (٥) في الأصل وم: وغيره. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وما. (١١) في الأصل وم: دعا إبراهيم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كانت مقرونة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أخذ. (١٦) في الأصل وم: و.

فَعَلَى قَوْلِهِمْ تَخْرُجُ الدَّعَوَاتُ عَلَى الرُّسُلِ عَلَى الْهَزْءِ أَوْ عَلَى الْكِبَرَانِ؛ لِأَنَّ مَنْ سَأَلَ مِنْ آخَرِ شَيْءٍ، يَغْلُمُ أَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُ، فَهُوَ هُزْءٌ، أَوْ سَأَلَ، وَهُوَ يَغْلُمُ أَنَّهُ قَدْ أَعْطَاهُ ذَلِكَ، فَهُوَ كِبَرَانٌ.

والثاني^(١): كَانَ خَوْفُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكِبَرَاءِ مِنَ الْخَلْقِ أَشَدَّ وَاتَّخَذَ عَلَى دِينِهِمْ وَالزُّبَيْغِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ لَمَّا خَافُوا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ. كَانُوا أَبَدًا وَجِلِينَ خَائِفِينَ عَلَى سَلْبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ.

وهكذا الواجب أن يكون الخوف على مَنْ نِعْمُهُ أَكْثَرُ، فَخَوْفُهُ أَشَدُّ.

فَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي﴾ أَيِ بَاعِذْنِي، وَاجْتَنِبْنِي أَيْ جَنِّبْنِي وَإِيَّاهُمْ.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِيَّاكَ أَتَيْنَ كَثِيرًا مِنْ الْأَصْنَامِ﴾ نَسَبَ الْإِضْلَالَ إِلَى الْأَصْنَامِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا صُنْعٌ فِي الْإِضْلَالِ لِأَنَّهُمْ بِهَا ضَلُّوا، وَكَانَتْ الْأَصْنَامُ سَبَبَ إِضْلَالِهِمْ. وَقَدْ تُنَسَّبُ الْأَشْيَاءُ إِلَى الْأَسْبَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَسْبَابِ صُنْعٌ فِيهَا نَحْوُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وَالسُّورَةُ لَا تَزِيدُهُمْ رِجْسًا، لَكِنْ يُنَسَّبُ الرَّجْسُ إِلَيْهَا لِمَا كَانَتْ هِيَ سَبَبَ زِيَادَةِ رِجْسِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ [أَزْدَادُوا هُمْ بِهَا]^(٢) تَكْذِيبًا وَكُفْرًا بِهَا، فَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَيْهَا.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي: تُنَسَّبُ الْأَحْوَالُ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مَا لَوْ كَانَتْ تِلْكَ بِذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ لَكَانَتْ تُضِلُّ، وَتُغْوِي، مَنْ يَكُونُ مِنْهُ الْإِضْلَالُ لِأَنَّهُ تَزَيَّنَّ، وَتُحَلَّى بِالْأَشْيَاءِ، نَحْوُ مَا تُسَبِّبُ الْغُرُورَ إِلَى الدُّنْيَا [وَأَنَّ كَانَتْ الدُّنْيَا]^(٣) لَا تُغَرُّ؛ لِأَنَّهُ تَكُونُ بِحَالٍ، لَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ مِنْ ذِي الرُّوحِ لَكَانَ ذَلِكَ تَغْرِيرًا، فَعَلَى^(٤) ذَلِكَ نَسَبُ الْإِضْلَالِ إِلَى الْأَصْنَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْنِي فَلَا تَمُوتْ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ ﴿فَلَا تَمُوتْ﴾ أَيِ مُوَافِقِي فِي الدِّينِ أَوْ فِي الْوِلَايَةِ. وَحَاصِلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: مَعِيَ فِي الدِّينِ وَفِي أَمْرِ الدِّينِ. وَكَذَلِكَ [قَوْلُهُ ﷻ]: «مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا» [كَشَفَ الْأَسْتَارَ عَنْ زَوَائِدِ الْبِزَارِ ١٢٥٦] أَيْ لَيْسَ بِمُوَافِقٍ لَنَا، أَوْ لَيْسَ مَعَنَا، أَوْ لَيْسَ فِي مِلَّتِنَا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَمُوتْ﴾ أَيِ مِنْ مِلَّتِي.

وَحَاصِلُهُ: ﴿فَمَنْ يَعْنِي﴾ وَاجِبَانِي فِي مَا دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ، وَأَمْرُهُ بِهِ ﴿فَلَا تَمُوتْ﴾ أَيِ مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: «مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا» أَيْ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَلَا تَكُفِّرْ عَنْكَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ يُشَبِّهُ قَوْلَهُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ لَيْسَ عَصِيَانٌ شَرِيكٌ، وَلَكِنْ عَصِيَانٌ مَا دُونَ الشَّرِّكِ ﴿فَلَا تَكُفِّرْ عَنْكَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ أَوْ ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَلَا تَكُفِّرْ عَنْكَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ أَيِ سَائِرٍ عَلَيْهِ الْكُفْرُ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ؛ إِذِ الْعُفْرَانُ هُوَ الشَّرُّ، فَتَسْتَرْ عَلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٤٢].

أَوْ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَلَا تَكُفِّرْ عَنْكَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ أَيْ تُمْكِنُ لَهُ مِنَ التَّوْبَةِ وَالْإِسْلَامِ، فَيُسْلِمُ، وَيَتُوبُ، فَيَغْفِرُ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْعِصْيَانِ، وَتَرَحُّمٌ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فِي مَا دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ، وَأَمْرُهُ بِهِ ﴿فَلَا تَكُفِّرْ عَنْكَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ تُمْكِنُ لَهُ مِنَ التَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ عَمَّا كَانَ مِنْهُ، فَتَغْفِرُ لَهُ، وَتَرَحُّمُهُ.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿زَيْنًا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ هَذَا أَوَّلَ مَا قَدِمَ تِلْكَ الْبُقْعَةَ، لِأَنَّهُ قَالَ ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وَلَا بَيِّنَ هُنَاكَ. دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا دَعَا بِهِذِهِ الدَّعَوَاتِ: ﴿زَيْنًا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِي﴾ وَمَا ذَكَرَ ﴿زَيْنًا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إِلَى آخِرِهِ مَا ذَكَرَ بَعْدَ مَا رَفَعَ الْبَيْتَ.

وقوله تعالى: ﴿زَيْنًا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِي﴾ دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا أَسْكَنَ بَعْضَ دُرِّيَّتِهِ، وَلَمْ يُسْكِنْ دُرِّيَّتَهُ كُلَّهَا حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿مِنْ دُونِ بَيْتِي﴾ اِمْتَحَنَهُ اللَّهُ بِمَحَنٍ ثَلَاثٍ، لَمْ يَمْتَحِنْ بِمِثْلِهَا أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ: يَزِدَادُ لَهُمْ. فِي م: يَزِدَادُ لَهُمْ بِهَا. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

أَحَدُهَا: امْتَحَنَهُ بِإِسْكَانِ وَلَدِهِ ﴿يَوَادُّ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ﴾ وَغَيْرِ ذِي مَاءٍ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ قَلْبُ بَشَرٍ تَرْكُهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ^(١). دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِيَةُ: امْتَحَنَهُ بِذَنْبِهِ وَلَدِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ فَدَّاهُ اللَّهُ بِكَفِّهِ^(٢).

وَالثَّالِثَةُ^(٣): امْتَحَنَهُ بِالْقَائِمِ فِي النَّارِ، فَأَلْقَيْ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ﴿بِرَّكَ وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَلَالَةٌ رَسَالَتِهِ. وَكَانَ لَهُ هِجْرَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: إِلَى مَكَّةَ حَيْثُ اسْكَنَ فِيهَا وَلَدَهُ. وَالْهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهِيَ^(٤) مَا ذَكَرَ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الْآيَةُ [الأنبياء: ٧١].

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي يَوَادُّ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هُوَ دَعَاءٌ بِتَغْرِيبٍ لَا بِتَضَرُّيْعٍ. وَالدَّعَاءُ بِالتَّغْرِيبِ، وَالسُّؤَالُ بِالْكُنَايَةِ ابْتِغَاءً وَافْتِحَارًا مِنَ السُّؤَالِ بِالتَّضَرُّيْعِ، وَهُوَ كَدَعَاءِ آدَمَ وَحَوَّاءَ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٢٣] فَهَذَا ابْتِغَاءً فِي السُّؤَالِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَغْنِرْ لَنَا وَآزَحِنَّا﴾ [البقرة: ٢٨٦ و...]. لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا قَدْ سُئِلَ مَنْ دُونَهُ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنَ الْخُسْرَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةً ﴿مِنْ﴾ صِلَةً، أَيْ اسْكَنْتُ ذُرِّيَّتِي، وَتَحْتَمِلُ عَلَى التَّبْعِيضِ، أَيْ اسْكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتِي عَلَى مَا ذُكِرَ فِي بَعْضِ التَّأْوِيلَاتِ ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: حَرَمُهُ أَنْ يُسْتَحْلَ فِيهِ مَا لَا يَحِلُّ، وَلَا يَضْلُحُ. لَكِنَّهُ خَصَّ تِلْكَ الْبُقْعَةَ بِالذِّكْرِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ، لَا يَحِلُّ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْبِقَاعِ لِفَضْلِ الْحُرْمَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهَا كَمَا خَصَّ الْمَسَاجِدَ بِأَشْيَاءَ لِفَضْلِهَا عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَمْكَنَةِ وَالْبِقَاعِ.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أَيْ الْمَنْعُوعِ، يُقَالُ: حَرَّمَ أَيْ مَنَعَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى التَّحْرِيمِ إِلَّا تَحِلُّ لَهُ الْمَرَاضِعُ، وَلَكِنْ عَلَى الْمَنْعِ، أَيْ مَنَعْنَا عَنْهُ لِنُرُدَّهُ إِلَى أُمِّهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أَيْ الْمَنْعُوعِ عَنِ الْخَلْقِ حَتَّى لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنَ الْفَرَاغَةِ وَالْمُلُوكِ الْعَلِيَّةِ عَلَيْهِ وَإِدْخَالُهُ^(٥) فِي مَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ [هُوَ مَنْعُوعٌ]^(٦) عَنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ.

وَفِيهِ أَنَّ الْوَحْدَانِيَّةَ لَهُ، وَالْأُلُوهِيَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا يُفِئِسُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ بِقَوْلِهِ^(٧): ﴿وَأَجْبُنِي وَيَوْمَ أَنْ تَقْبَدْ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ﴿رَبَّنَا يُفِئِسُوا الصَّلَاةَ﴾.

ثُمَّ تَحْتَمِلُ الصَّلَاةُ الصَّلَاةَ الْمَعْرُوفَةَ، وَتَحْتَمِلُ الصَّلَاةُ الدَّعَاءَ وَالْأَذْكَارَ وَغَيْرَهَا مِنَ الدَّعَوَاتِ، وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا يُفِئِسُوا الصَّلَاةَ﴾ الصَّلَاةَ نَفْسَهَا وَغَيْرَهَا مِنَ الطَّاعَاتِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَجْعَلْ آفِئْدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ سَوَالُهُ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ آفِئْدَةً ﴿النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لَمَّا اسْكَنَ ذُرِّيَّتَهُ فِي مَكَانٍ، لَا مَاءَ فِيهِ، وَلَا نَبَاتَ، وَلَا زَرْعَ، وَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ يُسْتَوْحَشُ الْمَقَامُ فِيهِ، سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ ﴿آفِئْدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ لِتَأْتُوا/ ٢٧٢-ب/ ذَلِكَ الْمَكَانَ، فَتَذْهَبَ عَنْهُمْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ، فَيَسْتَأْنِسُوا^(٨) بِهِمْ.

وَالثَّانِي^(٩): سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ لِيَتَعَيَّشُوا بِمَا يُثْقَلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الزَّادِ وَالْأَطْعِمَةِ، إِذْ اسْكَنْهُمْ فِي مَكَانٍ، لَا زَرْعَ فِيهِ، وَلَا يَتَعَيَّشُونَ فِيهِ بِهِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى بُنْيَةَ هَذَا الْبَشَرِ، إِذْ لَا قِيَامَ لَهُمْ إِلَّا بِالْأَغْذِيَةِ وَالْأَطْعِمَةِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ لِيَتَعَيَّشُوا بِمَا يُحْمَلُ إِلَيْهِمْ.

(١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: مِثْلَهُ. (٢) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَنْبِهِ عَظِيمًا﴾ [الصافات: ١٠٧]. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهَا وَإِدْخَالُهَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: هِيَ مَمْنُوعَةٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَسْتَأْنِسُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ.

وقال أهل التاويل: ﴿فَجَعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ الْتَّائِبِينَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ لِلْحَجِّ، وقالوا: لو قال: فاجعل أفندة الناس تهوي إليهم، ولم يقل: ﴿مِنَ﴾ حَجَّةُ الْخَلْقِ جميعاً الكافر والمؤمن، لكن لا يَحْتَمِلُ عندنا أن يكون سؤاله لِلْخَلْقِ جميعاً، أو يكون قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] لِلْخَلْقِ جميعاً للكافر والمؤمن، بل يرجع ذلك إلى الخصوص، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك الثمرات، ويَحْتَمِلُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ بما جعل لهم مِنَ الثَّمَرَاتِ بما يُحْمَلُ إليهم مِنَ الأغذية والأطعمة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ليس على تخصيص الثمرات، ولكن سأل الثمرات وما به غذاؤهم وقوامهم.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا﴾ لا يَحْتَمِلُ أن يكون مثل هذا الدعاء منه مُبْتَدَأً، بل كأنه، والله أعلم، عن نازلة دعاء؛ إذ يعلم، صلوات الله عليه، أنه كان يعلم ما يُخْفُونَ وما يُعْلِنُونَ، لكن لم يبين، ما تلك النازلة؟ وأهل التاويل يقولون: قال هذا: أي ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ مِنَ الْحُزْنِ والوَجْدِ على إسماعيل وأمه حين تركهما بوادٍ، لا ماء فيه، ولا رزق. ويقولون: ﴿وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا﴾ هو قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ [إبراهيم: ٣٧] لكن لا نعلم ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ كان هذا جواباً عن الله وإخباراً منه إياه أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه ما، لا أمر فيه، ولا نهى، ولا جزاء، فكيف يخفى عليه الأعمال التي عليها الجزاء والأمر؟

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قال أهل التاويل: إنه وهب له الولد، وهو ابن كذا، وامرأته ابنة كذا، لكن لا نعلم ذلك سوى ما ذكر أنه وهب له الولد على الكبر في وقت الإياس عن الولد حين^(١) بُشِّرَ بالولد، فقال: ﴿أُبَشِّرُكُمْ بِبَلَائٍ أَكْبَرَ﴾ [الحجر: ٥٤] وحين^(٢) قالت امرأته لما بُشِّرَتْ بالولد: ﴿أَلَدُ آوَنَاءٍ عَجُوزٍ وَهَذَا بَقْلٌ شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] نعلم أنه وهب له الولد، وهما كانا كبيرين في وقت الإياس عن الولد.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ يكون حمده على الأمرين جميعاً. على الهبة وعلى الولادة في حال الكبر، وهو حال الإياس، إذ كل واحد مما يوجب الحمد عليه والثناء.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَقِي لَسِيحِ الدَّعَاءِ﴾ قيل: لمجيب الدعاء.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَرِزْقِي﴾ قد سبق من الله الأمر بإقامته الصلاة، وهو المقيم لها. فذل الدعاء منه والسؤال على أن يجعله مقيم الصلاة أن عند الله لطفاً^(٣) سوى الأمر، لم يُعْطِهِ [إياه]^(٤) فسأله ذلك، هو التوفيق.

وعلى قول المعتزلة لقولهم: إنه أعطى كل شيء حتى لم يبق عنده ما يُعْطِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ قال بعضهم: تقبل دعائي في إقامة الصلاة لنفسه وذريته. لكن لا يجب أن يخص دعاء من الدعوات التي سأل ربه بدعوات كثيرة نحو ما قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُعِيشُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ الْتَّائِبِينَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وما^(٥) قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وغير ذلك من الدعوات.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ الْمَغْفِرَةَ لِوَالِدَيْهِ. قال الحسن: إن أمه، كانت مسلمة، وأما أبوه، فكان كافراً لأنه قال: ﴿وَافْغِرْ لِآلِيَّتِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] خص والدَه بالضلال. دل أن أمه، كانت مسلمة، لكننا [لا]^(٦) نعلم، ما حال الأم؟ أنها^(٧) كانت مسلمة أو كافرة. وأما أبوه فهو، لا شك أنه، كان كافراً.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: لطف. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: أمم، في م: أن.

ثم [لا^(١)] يَحْتَمِلُ دُعَاؤُهُ لِوَالِدَيْهِ، وَهُمَا كَافِرَانِ، وَإِنْ كَانَتْ أُمُّهُ كَافِرَةً، إِلَّا عَلَى إِضْمَارِ الْإِسْلَامِ، أَيْ اغْفِرْ لَهَا، إِنْ اسْلَمَا، أَوْ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُ الْمَغْفِرَةِ لَهَا سُؤَالِ الْإِسْلَامِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ، طَلَبُ مَنْهُ الشَّرُّ عَلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا يُخْزِيهِمَا. لَكِنَّهُ سَأَلَ الْمَغْفِرَةَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وَلَا يَحْتَمِلُ طَلَبُ الشَّرِّ إِلَّا أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَيَتَدَيَّ^(٢) لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

ودعاء^(٣) إبراهيم وسؤاله المغفرة لوالديه، يَكُونُ سَبَبَ سُؤَالِ السَّبَبِ الَّذِي يَسْتَحِقُّانِ بِهِ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّهِمَا، وَيَكُونَانِ أَهْلًا لَهَا، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَمَعْرِفَةُ^(٤) الْمَوْلَى، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي أَمْرِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ الْإِسْتِغْفَارَ لَهُ^(٥)، وَكَذَلِكَ قَوْلُ هُودٍ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿وَتَقْوِي اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الْآيَةُ [هود: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ بِالْعَدْلِ؛ يَقُولُ الرَّجُلُ لآخر: أَقِيمْ حِسَابِي، أَيْ اعْدِلْ فِيهِ. وَإِقَامَةُ الْحِسَابِ الْعَدْلُ فِيهِ عَلَى مَا تَوْجِبُ الْحِكْمَةُ، لَا يُزَادُ، وَلَا يُنْقُصُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَسُخَ الْوَصُوفِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يَوْمٌ يُحَاسِبُونَ، وَقِيَامُ^(٧) الْحِسَابِ، هُوَ الْمَحَاسَبَةُ، نَفْسُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ تَكْتُمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُكَلِّمُ﴾ كَأَنَّ لَهُ حَاجَاتٍ، أَخْفَاهَا، وَطَلَبَ^(٨) قَضَاءَهَا، فَقَالَ: نَعْلَمُ حَاجَاتِي [إِنْ^(٩)] أَخْفَيْتَهَا، أَوْ إِنْ أَغْلَيْتَهَا، فَاغْفِرْهَا لِي.

أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْمُهُ، طَعَنُوهُ^(١٠) فِي شَيْءٍ، فَقَالَ ذَلِكَ عَلَى التَّبَرُّيِّ مِنْ ذَلِكَ: إِنَّهُ يَغْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُكَلِّمُ، وَلَمْ يَغْلَمِ ذَلِكَ الَّذِينَ يَغْلَمُونَ فِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة: ١١٦].

أَوْ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَدْيَانِ جَمِيعاً كَانُوا يُؤَالُونَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِمْ، وَكَذَلِكَ قَالَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٦٧] بَرَأَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّا ادَّعَى كُلُّ فَرِيقٍ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْفِرَقِ يَدْعُونَ الْإِسْرَارَ عَنِ اللَّهِ وَالْإِخْفَاءَ عَنْهُ، فَقَالَ هَذَا لِيَعْلَمَ النَّاسُ تَوْحِيدَهُ أَنَّهُ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ أَخْفَى، أَوْ أَغْلَى، لِيَعْرِفُوا تَوْحِيدَهُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُخْفَى عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولًا عَمَّا يَفْعَلُ الْظَّالِمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُخَاطَبَةُ بِهَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ يُظَنُّ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ عَمَّا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ، لَكِنَّهُ خَاطَبَ بِهِ كَمَا خَاطَبَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَنفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهِهَا الْآخَرَةُ﴾ [الشعراء: ٢١٣ و...]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥] وَأَمْثَالِهَا^(١١)؛ نَهَاهُ مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ.

وَأَصْلُهُ فِي هَذَا: أَنَّ الْعِصْمَةَ، لَا تَرْفَعُ الْمِخْنَةَ، وَلَيْسَتْ الْمِخْنَةُ إِلَّا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ؛ إِذْ لَوْ رَفَعَتِ الْعِصْمَةُ الْمِخْنَةَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَذَهَبَتْ فَالِدَةُ الْعِصْمَةِ، وَلَا حَاجَةَ تَقَعُ إِلَيْهَا. فَذَلِكَ أَنَّ الْعِصْمَةَ تَزِيدُ فِي الْمِخْنَةِ، وَمَعَ الْمِخْنَةِ يُعْتَاجُ إِلَيْهَا، وَيَنْتَفِعُ بِهَا.

وَيَحْتَمِلُ الْخِطَابُ بِالْآيَةِ غَيْرُهُ: كُلُّ ظَانٍّ، يُظَنُّ بِاللَّهِ الْعَفْلَةَ عَنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ، وَهُوَ كَمَا خَاطَبَهُ^(١٢) بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ الْكَثِيرُ﴾ [الانفطار: ٦] إِنَّمَا خَاطَبَ بِهِ كُلُّ غَارٍ بِرَبِّهِ الْكَرِيمِ لَا كُلُّ إِنْسَانٍ.

فَعَلَى ذَلِكَ خَاطَبَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولًا عَمَّا يَفْعَلُ الْظَّالِمُونَ﴾ كُلُّ ظَانٍّ بِاللَّهِ الْعَفْلَةَ عَنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ودعى. (٤) من م، في الأصل: ومنفرة. (٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَغْفِرْ لِمَنْ أَهْلَكَ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ [هود: ٤٧]. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: طعنوا. (١١) في الأصل وم: وأمثاله. (١٢) في الأصل وم: خاطب.

ثم إِنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الظَّنِّ بِاللَّهِ الْغَفْلَةُ عَنْ ظَلَمِ الظَّالِمِ جِلْمُهُ^(١) وتأخيرُ العذاب عنهم عن وَقْتِ ظَلَمِهِمْ وتركِ أخذِهِمْ بذلك.

فَمَنْهُمْ مَنِ ادَّعى الْغَفْلَةَ عَنْ ذَلِكَ لِمَا رَأَوْا مِنْ عَادَةِ مَلُوكِ الْأَرْضِ: أَنْ مَنْ ظَلَمَ أَحَدًا مِنْهُمْ انْتَقَمَ مِنْهُ/ ٢٧٣ - / في أَجَلٍ وَقْتٍ، يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ، فَحَمَلَ تَأْخِيرَ اللَّهِ الْعَذَابَ عَنْهُمْ وَالْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِالْغَفْلَةِ. وَمِنْهُمْ مَنِ ادَّعى الرِّضَا بِمَا اخْتَارُوا مِنْ الشَّرِّ وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَادَّعَوْا الْأَمْرَ بِذَلِكَ لِمَا لَمْ يَأْخُذْهُمْ، وَلَمْ يَسْتَأْصِلْهُمْ بِصَنِيعِهِمْ، فَاسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ رِضَاهُ بِغَفْلَتِهِمْ^(٢) وأمرُهُ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ، فَأَخْبَرَ رَسُولَهُ أَنَّ تَأْخِيرَهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ وَإِمَاهَالَهُ إِيَّاهُمْ، لَيْسَ عَنْ غَفْلَةٍ عَنْهُمْ^(٣)، وَلَا عَنْ سَهْوٍ وَرِضَا^(٤) وأمرٍ. وَلَكِنْ «يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ» ثُمَّ وَصَفَ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِشِدَّةِ قَوْلِهِ وَقَرَعِهِ فَقَالَ: «تَنْتَحَنُّ فِيهِ الْأَبْصَارُ».

الآية ٤٣

«مُتَهَيِّئِينَ مَغْنًى رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ مُرْفِقُهُمْ وَأَقْدَمُهُمْ هَوَاءً» قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى الظَّرْفِ وَالْبَصَرِ؛ يَقُولُونَ: شَاخِصَةٌ أَبْصَارُهُمْ «مُتَهَيِّئِينَ» تَأْطِرِينَ إِلَيْهِ إِلَى الدَّاعِي «مَغْنًى رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ مُرْفِقُهُمْ» يَهْوِلُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، هَذَا كُلُّهُ، يَضْرِبُ قُوَّةً^(٥) إِلَى الْأَبْصَارِ دُونَ الْأَنْفُسِ^(٦) لِأَنَّ الْإِمْطَاعَ وَالْإِقْنَاعَ، هُوَ النَّظَرُ وَالشَّخْصُ الْإِبْصَارُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ قَوْلَهُ «تَنْتَحَنُّ فِيهِ الْأَبْصَارُ» وَقَوْلَهُ^(٧): «لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ مُرْفِقُهُمْ» إِلَى الْبَصَرِ، وَصَرَفَ قَوْلَهُ: «مُتَهَيِّئِينَ مَغْنًى رُؤُسِهِمْ» إِلَى الْأَنْفُسِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «مُتَهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِي» [القمر: ٨] أَي مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ الْإِجَابَةَ رِجَاءَ التَّخْلُصِ وَالتَّجَاوُزِ عَمَّا حَلَّ بِهِمْ بِتَرْكِ الْإِجَابَةِ. وَالْإِمْطَاعُ: قِيلَ: هُوَ النَّظَرُ الدَّائِمُ، وَالْإِقْنَاعُ هُوَ الرَّفْعُ رَفْعَ الرَّاسِ «مُتَهَيِّئِينَ» أَي مُدِيمِي النَّظَرَ «مَغْنًى رُؤُسِهِمْ» رَافِعِيهَا. وَعَلَى تَأْوِيلِ بَعْضِهِمْ: مُسْرِعِينَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «مَغْنًى رُؤُسِهِمْ» أَي رَافِعِيهَا، مُلْتَوِّقَةً إِلَى أَعْنَاقِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولًا عَمَّا يَصَلُّ الْقَائِلُونَ» يُخْرِجُ هَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا؛ يَقُولُ: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولًا عَمَّا يَصَلُّ الْقَائِلُونَ» وَفَتْ خَلْقِهِ الْخَلْقُ وَالنَّاسُ بِهَيْمَ يَكُونُ^(٨) مِنْهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، أَيْ لَا عَنْ غَفْلَةٍ وَسَهْوٍ عَنْ ظَلَمِ الظَّالِمِينَ أَنْشَأَهُمْ، وَخَلَقَهُمْ، وَلَكِنْ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ أَنْشَأَهُمْ، وَخَلَقَهُمْ، لَكِنْ أَنْشَأَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ذَلِكَ عَنِ الْحِكْمَةِ.

وَالثَّانِي: مَا ذَكَرْنَا أَنَّ تَأْخِيرَهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، لَيْسَ لِيَغْفَلَ مِنْهُ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ لِمَا أَخَذَهُمْ بِالْعَذَابِ وَقَدْ صَنِيعِهِمْ زَوَالَ الْبِخْنَةِ، لِأَنَّهُ يَصِيرُ الْعَذَابُ وَالثَّوَابُ مُشَاهِدَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَقْدَمُهُمْ هَوَاءً» خَالِيَةً يَقُولُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، أَيْ خَالِيَةً عَنِ التَّدْبِيرِ، لِأَنَّ فِي الشَّاهِدِ أَنَّ مَنْ يُبْلَى بِبَلَايَا وَشِدَائِدٍ يَتَدَبَّرُ، وَيَتَفَكَّرُ فِي دَفْعِ ذَلِكَ. فَيُخْبِرُ أَنَّ أَقْدَمَهُمْ هَوَاءً يَوْمَئِذٍ أَيْ خَالِيَةً عَنِ التَّدْبِيرِ؛ إِذْ أَقْدَمَتْهُمْ، لَا تَكُونُ مَعَهُمْ لِيَشِدُّ أَعْوَالِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «وَأَقْدَمُهُمْ هَوَاءً» أَيْ لَا شَيْءَ فِيهَا، مَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا. وَالْهَوَاءُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ يُوصَفُ بِالْخَلَاءِ^(٩) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا مِنْ أَجْلِ قُرْبٍ» يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: «وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ» قَوْلَهُمْ الَّذِي يَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ «رَبَّنَا أَخْرِنا مِنْ أَجْلِ قُرْبٍ» وَيَحْتَمِلُ «وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ» الَّذِي يَحُلُّ بِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا يَقُولُونَ إِذَا حُلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ «رَبَّنَا أَخْرِنا مِنْ أَجْلِ قُرْبٍ».

قَالَ بَعْضُهُمْ: إِلَى الدُّنْيَا، وَالدُّنْيَا أَجْلُهَا قَرِيبٌ. لَكِنْ هَذَا لَا يُحْتَمَلُ، لِأَنَّ الدُّنْيَا أَوَّلَى، وَالْآخِرَةُ آخِرَةٌ. فَلَوْ جَازَ هَذَا لَيَكُونُ الْآخِرَةُ أَوَّلَى، فَذَلِكَ بَعِيدٌ، لَكِنْ طَلَبُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الرَّدُّ إِلَى حَالِ الْأَمْنِ لِجُحُودِ دَاعِيَةٍ، إِذْ لَمْ تَنْفَعَهُمْ إِبْجَابَتُهُمْ فِي

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: حِلْمُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَغْفَلُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: عَنْهُ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالرِّضَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْرِفُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّفْسُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُوا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْخَلَاءِ.

حَالِ الْخَوْفِ [وَالْهَوْلِ] ^(١). وَمَا حَلَّ بِهِمْ إِنَّمَا حَلَّ بِتَرْكِهِمْ [الْإِجَابَةِ] ^(٢) فِي حَالِ الْأَمْنِ، فَطَلَبُوا الرُّدَّ إِلَى حَالِ الْأَمْنِ لِيُجِيبُوا دَاعِيَةَ لِنْتَفَعَهُمْ إِبَابَتُهُمْ حِينَ ^(٣) قَالُوا: «يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَشِيعُ الرُّسُلُ».

وقوله تعالى: «أَوَلَمْ تَكُورُوا أَنْفُسَكُمْ يَنْ قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» لم يُبَيِّنْ بما أَقْسَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَهُوَ مَا بَيَّنَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ» [النحل: ٣٨].

ثم قوله تعالى: «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» قَالَ قَائِلُونَ: «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» مِنَ الدُّنْيَا؛ أَيِ كُنْتُمْ تَقُولُونَ: أَنْ لَيْسَ إِلَّا الدُّنْيَا، لَا زَوَالٌ لَهَا عَنْهَا أَحْيَاءٌ وَمَوْتَى كَقَوْلِهِمْ: «إِنْ هِيَ إِلَّا حِسَابُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» الْآيَةُ [المؤمنون: ٣٧] عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ قَسَمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَبْعَثُونَ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ» جَوَابٌ لِسُؤَالِهِمْ: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَكَ أَجَلِي قَرِيبٍ» عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ. قَالَ: مَا لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ إِلَى مَا تَسْأَلُونَ مِنَ الْمَلَأِذِ وَالنَّاسِخِ، أَيِ مَا لَكُمْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: «وَأَقْبَدْتُمْ مَوَاتٍ» أَيِ تُنَزِّعُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى صَارَتْ فِي حَنَاجِرِهِمْ، فَلَا تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا لِشِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفَزَعِهِمْ مِنْهُ ^(٤)، وَهُوَ عَلَى التَّمْثِيلِ وَالْكِنَايَةِ كَقَوْلِهِ ^(٥): «إِذَا جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ» الْآيَةُ [الأحزاب: ١٠] لَشِدَّةِ خَوْفِهِمْ، وَهُوَ عَلَى التَّمْثِيلِ.

وَلَا يَحْتَمِلُ بُلُوغُ الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرَ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَةً؛ إِذْ لَوْ بَلَغَتْ ذَلِكَ لَخَرَجَتْ، فَمَاتُوا، إِذِ الدُّنْيَا يُحْتَمَلُ الْمَوْتُ فِيهَا، فَذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى التَّمْثِيلِ لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ. وَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْ رَبِّهِمُ الرُّدَّ إِلَى حَالِ الْأَمْنِ لِيُجِيبُوا [دَاعِيَةَ] ^(٦) بِقَوْلِهِمْ: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَكَ أَجَلِي قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَشِيعُ الرُّسُلُ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، أَيِ سَكَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا فِي مِثْلِ مَنَازِلِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ، فَرَأَيْتُمْ مَا نَزَلَ بِأَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَنَعُوا مِثْلَ صَنِيعِكُمْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: «وَبَيَّنَّا لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ» مِنَ التَّعْذِيبِ وَالْإِسْتِصَالِ، ثُمَّ لَمْ يَتَّعِظُوا بِمَا حَلَّ بِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ إِذَا رُدُّتُمْ إِلَى حَالِ الْأَمْنِ لَا تَتَّعِظُونَ بِمَا حَلَّ بِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَهُوَ مَا قَالَ: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَآيَاتُهُمْ لِكَذِبِهِمْ» [الأنعام: ٢٨] فِي مَا يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ يُجِيبُونَ دَعْوَتَهُ. هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَأْوِيلُهُ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أَيِ عَمِلْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْإِسْتِصَالِ بِالتَّكْذِيبِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، فَلَمْ تَتَّعِظُوا بِذَلِكَ، فَلَا تَتَّعِظُونَ بِهَذَا أَيْضاً إِذَا رُدُّتُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ دَلَالَةَ لُزُومِ النَّظَرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ وَلُزُومِ الْقِيَاسِ، وَدَلَالَةَ لُزُومِ الْعُقُوبَةِ، وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ بَعْدَ أَنْ مَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهِ.

أَمَّا دَلَالَةُ النَّظَرِ وَالْإِسْتِدْلَالِ فَهِيَ ^(٧) قَوْلُهُ: «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» فَهَلَا نَظَرْتُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَاتَّعِظْتُمْ بِهِ.

وَدَلَالَةُ الْقِيَاسِ هُوَ مَا خَوَّفَهُمْ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِأَوْلَئِكَ، لِأَنَّهُمْ اشْتَرَكُوا فِي الْمَعْنَى الَّذِي نَزَلَ بِأَوْلَئِكَ؛ مَا نَزَلَ هُوَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَسُوءِ مَعَامَلَتِهِمْ لِإِثْمِهِمْ.

وقوله تعالى: «وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ» أَيِ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْيَاءَ مَا يَعْرِفُكُمْ لَوْ تَأَمَّلْتُمْ أَنَّ أَوْلَئِكَ، لَكُمْ أَشْيَاءَ وَأَمْثَالَ، وَصَنَعْتُمْ لِمِصْنَعِهِمْ أَشْيَاءَ وَأَمْثَالَ، فَيَنْزِلُ بِكُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِمْ.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ مَكْرُوا: اختالوا على إهلاك الرسل وقتلهم كقوله: ﴿وَرَادَّ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] وكيدهم الذي ذَكَرَ في غير آية^(١) مِنَ الْقُرْآنِ بِرُسُلِ اللَّهِ حَتَّى قَالَ الرُّسُلُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥].

وَمَكَّرُوا أَيْضًا بِدِينِ اللَّهِ الَّذِي أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ مَكَّرُوا، وَاخْتَالُوا/ ٢٧٣ - ب/ عَلَى إِطْفَاءِ ذَلِكَ النُّورِ، فَأَبَى اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ، وَأَبْقَى نُورَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢].

كَانَ مَكْرُهُمْ وَحِيلُهُمْ يَرْجِعُ فِي أَحَدِ التَّائِيلَيْنِ إِلَى نَفْسِ الرُّسُلِ حِينَ هَمُّوا، وَقَصَدُوا^(٢) إِهْلَاكَهُمْ، وَفِي^(٣) الثَّانِي: يَرْجِعُ إِلَى إِطْفَاءِ الدِّينِ الَّذِي أَتَى [بِهِ الرُّسُلُ]^(٤) وَالنُّورِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أَي عِنْدَ اللَّهِ الْعِلْمُ بِمَكْرِهِمْ، مُحْفُوظٌ ذَلِكَ عِنْدَهُ، لَا يَقُوتُ، وَلَا يَذْهَبُ عَنْهُ شَيْءٌ، فَيَجْزِيهِمْ بِذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ. أَوْ ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أَي عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي بِهَا مَكَّرُوا، مِنْ عِنْدِ اللَّهِ اسْتَفَادُوا، وَهُوَ النِّعَمُ الَّذِي أَعْطَاهُمْ، وَالْأَمْوَالُ الَّتِي مَلَكَهُمْ، وَالْعُقُوبُ الَّتِي رَكَّبَ فِيهِمْ بِمَا قَدَّرُوا عَلَى الْمَكْرِ وَالِاخْتِيَالِ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنُزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ اخْتَلَفَ فِي تَلَاوِيهِ وَقِرَائَتِهِ وَتَأْوِيلِهِ.

قَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ بِالذَّالِ [وَأَذ]^(٥)، وَهُوَ حَرْفُ عَمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ بِالنُّونِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: ﴿وَإِنْ﴾ بِمَعْنَى مَا، أَي مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لِنُزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ، قَالَ: كَانَ مَكْرُهُمْ أَوْهَنَ وَأَضْعَفَ مِنْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، [وَقَالَ: إِنَّ]^(٦) بِمَعْنَى مَا كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١] أَي مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ إِنْ فِي مَوْضِعٍ: قَدْ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] أَي قَدْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا.

فَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى: مَا فَقَدَ اسْتِهَانَ بِمَكْرِهِمْ، وَاسْتَحَفَّ بِهِ، فَقَالَ: إِنَّ مَكْرَهُمْ أَوْهَنَ وَأَضْعَفَ مِنْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، وَالْجِبَالُ أَوْهَنُ وَأَسْرَعُ زَوَالًا مِنْ رِسَالَةِ الرُّسُلِ وَدِينِ اللَّهِ، بَلْ رِسَالَةُ الرُّسُلِ وَدِينُ اللَّهِ [أَثَبَتْ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ دِينَ اللَّهِ]^(٧) وَرُسُلَهُ، مَعَهُمَا حُجَجُ اللَّهِ وَبِرَاهِينُهُ. فَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ مَكْرُهُمْ فِي إِزَالَةِ الْجِبَالِ لَا يَعْمَلُ فِي إِزَالَةِ دِينِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ الرُّسُلِ، وَمَعَهُمَا الْحُجَجُ وَالْبِرَاهِينُ.

وَمَنْ قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَدْ كَانَ حَمَلَهُ عَلَى [اسْتِعْظَامِ مَكْرِهِمْ]^(٨) وَعَلَى ذَلِكَ مَنْ قَرَأَ كَاذًا بِالذَّالِ عَلَى [اسْتِعْظَامِ مَكْرِهِمْ]^(٩) كَقَوْلِهِ: ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْظُرْنَ مِنْهُ وَيَتَنَقَّى الْأَرْضُ وَيَحْتَرُّ لِبَالٌ هَدَا﴾ [مريم: ٩٠ و ٩١] مَنْ عَظِيمُ مَا قَالُوا كَادَتْ السَّمَوَاتُ تَنْشَقُّ. فَعَلَى ذَلِكَ مَكْرُهُمْ جَمِيعًا [فِي]^(١٠) الرَّوْحَيْنِ: أَنْ يُسْتِهَانَ مَرَّةً، وَيُسْتَعْظَمَ أُخْرَى إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ كَلِمَتَهُمْ مِنْ حَيْثُ الشُّرْكُ وَالْكُفْرُ عَظِيمَةٌ، وَمِنْ حَيْثُ اخْتِيَالُهُمْ وَمَكْرُهُمْ فِي إِزَالَةِ ذَلِكَ النُّورِ وَإِطْفَاءِهِ ضَعِيفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يُخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلُهُ﴾ الْخِطَابُ بِهِ يَخْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا؛ أَي لَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ مَا تَأَخَّرَ مِنْ نُزُولِ مَا وَعَدَ أَنَّهُ يُخْلِفُ وَعْدَهُ الَّذِي وَعَدَ رُسُلُهُ كَمَا لَمْ^(١١) يَكُنْ تَأْخِيرُ الْعَذَابِ عَنْهُمْ مِنْ وَقْتِ ظُلْمِهِمْ عَنْ غَفْلَةٍ وَسَهْوٍ، وَلَكِنْ كَانَ وَعْدُهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَخُلِفَ الْوَعْدُ فِي الشَّاهِدِ مِنَ الْخَلْقِ إِنَّمَا يَكُونُ لِرُوحَيْنِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: آي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَعْدُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِالرُّسُلِ. (٥) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ فِي الْقُرْآنِ ج ٣/ ٢٤٢. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ كَانَ مَكْرُهُمْ وَإِنْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الِاسْتِعْظَامُ بِمَكْرِهِمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الِاسْتِعْظَامُ بِمَكْرِهِمْ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَنْ.

أحدهما: لما لا يَمْلِكُ إِنْجَارَ ما وَعَدَ.

والثاني: لما يَضُرُّهُ الْإِنْجَارُ. فإِنَّهُ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَقِيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ قَاهِرٌ، يَفْهَرُ، وَيُذَلُّ. فَالْخِلَافُ كُلُّهُمُ أَذْلَاءُ دُونَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أَيُّ غَالِبٍ قَاهِرٍ ذُو انْتِقَامٍ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، أَيُّ غَالِبِ الْأَعْدَاءِ، وَقَاهِرُهُمْ وَنَاصِرُ الْأَوْلِيَاءِ.

وَأَمَّا مَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مَنَّهُ الْجِبَالِ﴾ إِنَّهُ نَزَلَ فِي شَأْنِ نَمْرُودَ، وَإِنَّهُ اتَّخَذَ تَابُوتًا، وَرَبَطَ نُسُورًا عَلَى قَوَائِمِهِ، وَمَا ذَكَرُوا إِلَى آخِرِهِ، فَلَا عِلْمَ لَنَا إِلَى ذَلِكَ، وَاطَّعْنَا أَنَّهُ كُلُّهُ خِبَالٌ، فَلَا نَقُولُ إِلَّا الْقَدْرَ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ.

وقوله^(١): لَنَزُولِ بِنَصْبِ اللَّامِ الْأُولَى وَيَرْفَعُ الْآخِرَةَ عَلَى مَعْنَى التَّوَكُّيدِ، وَ﴿لَنَزُولِ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ [الْأُولَى]^(٢) وَنَصْبِ الْآخِرَةِ عَلَى الْجَحْدِ^(٣)، أَيُّ مَا كَانَتْ الْجِبَالُ لَنَزُولِ مِنْ مَكْرِهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: تَقْنَى هَذِهِ الْأَرْضُ، ثُمَّ تُعَادُ مِنْ سَاعَتِهِ مُسْتَوِيَةً، لَا شَجَرَ فِيهَا، وَلَا جَبَلَ، وَلَا إِكَامَ ﴿فَاعَا سَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ و ١٠٧].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: تَبْدُلُ هَذِهِ الْأَرْضُ أَرْضًا غَيْرَ هَذِهِ بِيضَاءَ نَقِيَّةٍ، لَمْ يَسْفِكْ عَلَيْهَا دَمٌ، وَلَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا بِالْمَعَاصِي، وَكَذَلِكَ السَّمَوَاتِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَا تَبْدُلُ عَيْنُهَا، وَلَكِنْ تَتَغَيَّرُ صِفَتُهَا وَزِينَتُهَا كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِآخَرٍ: تَبَدَّلْتَ يَا فُلَانُ، لَا يُرِيدُ تَبْدُلَ أَصْلِهِ وَعَيْنِيهِ، وَلَكِنْ تَغْيِيرَ الْأَخْلَاقِ وَالْدِينِ. فَعَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ تَبْدِيلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ. وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي آيَةٍ: ﴿يَوْمَ تَحْثُثُ أَخْبَارُهَا﴾ [الزُّلْزَلَةُ: ٤] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الْإِنْشِقَاقُ: ٣] [وَقَالَ]^(٤): ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ [الْفِرْقَانُ: ٢٥] وَقَالَ^(٥): ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الْإِنْشِقَاقُ: ١] وَقَالَ^(٦): ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الْإِنْشِقَاقُ: ١] [وَقَالَ]^(٧): ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبًا جَازِيَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النَّمَلُ: ٨٨] [وَقَالَ]^(٨): ﴿يَوْمَ تُبَدِّلُ الْجِبَالَ﴾ [الْكَهْفُ: ٤٧] وَقَالَ: ﴿وَنَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وَقَالَ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ نَاحِيَةً مُشْتَرَاةً﴾ [الْفِرْقَانُ: ٢٣].

ذَكَرَ مَرَّةً: تُعَدُّ الْأَرْضُ، وَذَكَرَ مَرَّةً أَنَّهَا تُجْبَرُ، وَتُحَدَّثُ عَمَّا عَمِلَ عَلَيْهَا، وَذَكَرَ فِي السَّمَاءِ [التَّبْدِيلُ]^(٩) بِالشَّقِيقِ وَالْإِنْشِقَاقِ وَفِي الْجِبَالِ بِالسَّيْرِ وَالْمُرُورِ مَرَّةً وَمَرَّةً بِالرَّفْعِ، وَمَرَّةً أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُ ﴿مَكَّةً مُشْتَرَاةً﴾ [الْفِرْقَانُ: ٢٣] وَآمَنَ.

فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوَاقَاتِ؛ إِذْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ، فَيَكُونُ كُلُّ مَا ذَكَرَ عَلَى مَا قَالَ: ﴿يَوْمَ يَهْمُ قَوْمٌ لَا يَسْأَلُونَ﴾ [الْقَصَصُ: ٦٦] قَالَ فِي آيَةٍ: ﴿وَأَنْهَلْ بِسْمِ اللَّهِ عَلَى بَعْضِ يَسْأَلُونَ﴾ [الصَّافَاتُ: ٣٧]... وَقَالَ: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ١٠١] وَقَالَ^(١٠): ﴿يَسْتَلُّونَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٩] فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوَاقَاتِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

[وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَبْدِيلُ أَهْلِهَا عَلَى مَا يَذْكُرُ الْأَرْضَ وَالْقَرْيَةَ، وَالْمُرَادُ مِنْهَا الْأَهْلُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَتِلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يُوسُفُ: ٨٢] وَقَوْلِهِ: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾ [النَّحْلُ: ١١٢] وَنَحْوُهُ كَثِيرٌ.

وَالثَّانِي: تَبْدِيلُ نَفْسِ الْأَرْضِ.

(١) فِي الْأَصْلِ دَمٌ: وَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٌ. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٣/ ٢٤٢. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٌ. (٥) فِي الْأَصْلِ دَمٌ: وَ. (٦) فِي الْأَصْلِ دَمٌ: وَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٌ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٌ. (٩) فِي الْأَصْلِ دَمٌ: وَ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ دَمٌ.

ثُمَّ يَخْتَمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الرَّجْهَيْنِ وَجْهَيْنِ:

أحدهما^(١): تبديل أهلها، هو أن يكونوا مُسْتَسْلِمِينَ خاضعين له في ذلك، ولم يكونوا في الدنيا، [كذلك]^(٢).
والثاني: تبديل أهلها، هو أن يكون الأولياء في النعم الدائمة واللذة الباقية، والأعداء في عذاب وألم وشدة، وكانوا في هذه الدنيا جميعاً مُشْتَرَكِينَ، الأولياء والأعداء، في اللذات والآلام.
فإن كان تبديل نفس الأرض، فهو يُخْرِجُ على وَجْهَيْنِ:
أحدهما: تغيّر زيتها وصفتها.

والثاني: تبديل عينها وجوهرها، وهو ما ذُكِرَ أن أرض الجنة تكون من منك وزعفران ونحو ما رُوِيَ في الخبر، والله أعلم.

كان قوله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ صلة قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِلًا فِي دَعْوَاهُ﴾ الآية، فقالوا: متى يكون ذلك؟ فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾ يُخْرِجُ جواباً لسؤال، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْوَحِيدَ الْقَهَّارَ﴾ قد ذكرنا تخصيص بُرُوزِهِمْ لله يوم القيامة، أنه، والله أعلم، أنشأ هذا العالم الأول للعالم الثاني. [فالعالم الثاني]:^(٣) هو المقصود في إنشائهم.

وقال قائلون: تخصيص بُرُوزِهِمْ له يومئذ، لأنهم يُخْرَجُونَ من قبورهم للحساب لا لغيره. فهو/ ٢٧٤ - أ/ يُحَاسِبُهُمْ.
فاضاف البروز إليه لما لا يُخْرَجُونَ إلا له. وأما في الدنيا فإنما يُخْرَجُونَ لحوائج أنفسهم، لذلك خرج التخصيص له، والإضافة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُ اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثة:

أحدها^(٤): برزوا له مُسْتَسْلِمِينَ خاضعين قائلين طائعين، ولم يكونوا في الدنيا كذلك.

والثاني: يَبْرُزُونَ له لما وعدوا، وأوعدوا، فهم بارزون لما دُعُوا إليه، ورغبوا فيه.

والثالث: يَبْرُزُونَ له لما لا يَمْلِكُونَ إخفاء أنفسهم وسرّها، بل ظاهرون^(٥) له.

وقوله تعالى: ﴿الْوَحِيدَ الْقَهَّارَ﴾ الذي لا شريك له، و ﴿الْقَهَّارَ﴾ يَهْزُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، وَيَغْلِبُ^(٦) الجبابرة والفراعنة.

أو يَبْرُزُونَ له لِيَجْزِيَهُمْ على ما ذكر الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١] والله أعلم.

الآيات ٤٩ و ٥٠ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظُفُرٍ﴾ ذكر ﴿مِّنْ ظُفُرٍ﴾^(٧)

قيل: الظفر، هو النحاس، والآنبي: الذي انتهى حره كقوله: ﴿وَيَنَاجِي جِيمَ إِيٍّ﴾ [الرحمن: ٤٤] وقيل: الصفر، وقال بعضهم: ﴿مِّنْ ظُفُرٍ﴾ أي من نحاس أن لهم أن يُعَذَّبُوا. وقال بعضهم: هو من الظفر المعروف الذي يظلم به الإبل، ذكر هذا لأنه أشد إحراقاً وإشتعالاً.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ إلى آخر ما ذكر؛ جعل الله عذاب الكفر في الآخرة بالأسباب والأشياء التي كانوا يفتخرون بها في الدنيا من اللباس والشراب والأصحاب [وغيرها، وهي كانت]^(٨) سبب منيهم عن إجابة الرسل في ما دعوهم إليه. فجعل تعذيبهم في الآخرة بذلك النوع من النار، فقال: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ يُقَرَّنُونَ، وَيُقَيَّدُونَ^(٩) بعضهم ببعض كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ الآية [الزخرف: ٣٦] لأنه كان يتبعه، ويأتمر بأمره، وكقوله: ﴿اٰخِذُوا اٰلَيْنَ عَلٰتًا﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وكذلك الرؤساء منهم والمثبوعون.

(١) في الأصل وم: إما. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: ظاهرين. (٦) في الأصل وم: يغلبهم. (٧) انظر معجم الفراءات القرآنية ج ٣/ ٢٤٤. (٨) في الأصل وم: غيره وهو كان. (٩) في الأصل وم: ويغض.

وقوله تعالى: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ لما كانوا يفتخرون في الدنيا بلباسهم، وكذلك كل نوع يفتخرون به في الدنيا، ويغتمهم عن الإجابة إجابة الرسل. وقد ذكرنا هذا في ما تقدم.

والأصفا: قيل: الأغلال، أي قد قرن بعضه إلى بعض في الأغلال. واجدها: صفد، وهو قول القتيبي، وكذلك قول أبي عوسجة في الأصفا، إلا أنه قال: واجدها: صفاد، والصفد العطية [والوفاق] (١). ﴿سَرَّابِلُهُمْ﴾ قمصهم، واجدها: سربال ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ القطر ما ذكرنا النحاس، والآني الذي قد اشتد حره، وهو قول القتيبي وأبي عوسجة.

ذكر هذه المواعيد والشدائد وأنواع ما يعذبون [بها] (٢) في الآخرة، ونعيمها على السن من قد ظهر صدقهم بالآيات والحجج ليحذروا ما أوعدوا، ويرغبوا لئلا يكون لهم الإحتجاج يومئذ بقوله: ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ أَرْسَالِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٤٢] ونحوه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقْنَىٰ رُجُومُهُمْ النَّارُ﴾ لأن أيديهم مغلولة إلى أعناقهم، فلا يقدرون أن يثقوا النار بأيديهم. ذكر هذا لأن في الشاهد من أصاب وجهه أذى يتقي منه يديه، فيخير أنهم إنما يتقون ذلك بوجوههم، والله أعلم.

الآية ٥١

[وقوله تعالى] (٣): ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ قد (٤) ذكرنا: يبرزون الله ليجزيهن من خير وشر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [يحتمل وجهين:

أحدهما: ما] (٥) قال بعضهم: كان قد جاء حسابه.

والثاني: ذكر هذا لأن الحساب إنما يبطئ، لا يتذكر من له الحساب، لمن يحاسبه في الشاهد في ما يحاسبه، فيطول الحساب أو الإشتغال بشيء عنه أو الجهل بالحساب.

فأما الله ﷻ لا يخفى عليه شيء، ولا يشغله شيء عن شيء، كله محفوظ عنده، فهو سريع الحساب، والله أعلم.

أو نقول: إنما يطول الحساب في الشاهد، ويمتد، لما يحتاج إلى التفكير والتذكر في ذلك. فالله، سبحانه، متعال عن التفكير والنظر. بل كل شيء محفوظ عنده، والله أعلم.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُذْذَرُوا بِهِ﴾ [يحتمل قوله: ﴿هَذَا بَلَدٌ﴾ هذا بلاغ القرآن، وهو (٦) بلاغ للناس على ما ذكر في صدر السورة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية [الآية: ١] هو بلاغ على ما ذكر، والله أعلم، ﴿وَلِيُذْذَرُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن أيضاً على ما ذكر ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَرْسَلْنَا بِكَ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِيُنذِرَ أَمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ويحتمل قوله: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ﴾ ما ذكر من المواعيد، وهو قوله: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩] إلى آخر ما ذكر؛ أي هذا الذي ذكر في البلاغ، يبلغهم، لا محالة ﴿وَلِيُذْذَرُوا بِهِ﴾ بما ذكر ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له بالآيات التي أقامها على وحدانيته وألوهيته ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي ذؤو العقول. والله أعلم.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لما. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) الراو ساقطة من الأصل وم.

سورة الحجر

ذكر أنها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ قد ذكرنا في ما تقدّم أنه يَحْتَمِلُ أَنَّ الحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ كِنَايَةً عَنْ كِتَابِهِ أَوْ آيَاتِهِ: أَنَّهُ جَمَعَهَا عَلَى مَا تَوَجَّهَ الْحِكْمَةُ، فَجَعَلَهَا كِتَابًا أَوْ آيَاتٍ كِتَابٍ يُقَالُ، أَوْ يَكُونُ كِنَايَةً عَنِ الْأَنْبَاءِ وَالْأَخْبَارِ عَنِ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ الَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

تلك الأنباء والأخبار التي جعلناها كتاباً أو آياتٍ لِيَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ إِنَّمَا أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ قَالَ: بَيَّنَّ فِيهِ مَا يُؤْتَى، وَمَا يُنْقَى، أَوْ ﴿مُبِينٍ﴾ يُبَيِّنُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿زَيْبًا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا يَدُّونَ الْإِسْلَامَ وَالتَّوْحِيدَ بَعْدَ مَا عَذَّبَ بِالنَّارِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِذُنُوبِهِمْ، ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا بِالشَّفَاعَةِ أَوْ بِالرَّحْمَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَمَنَّى أَهْلُ الشُّرْكِ، وَيَدُّونَ الْإِسْلَامَ وَالتَّوْحِيدَ ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ؛ إِذْ لَا يَتَمَنَّونَ إِلَّا [وَهُمْ] ^(١) فِي النَّارِ، بَعْدَ مَا أُخْرِجَ أَوْلَئِكَ، وَقَدْ أَصِيبُوا ^(٢) بِالشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتُوا النَّارَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ الْآيَةُ [المؤمنون: ٩٩ و ١٠٠] أَخْبَرَ أَنَّهُ يَتَمَنَّى عِنْدَ حُلُولِ الْمَوْتِ الْإِسْلَامَ حِينَ ^(٣) طَلَبَ الرَّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا. دَلَّ أَنَّهُمْ يَدُّونَ الْإِسْلَامَ قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي ذَكَرَ، أَوْ يَتَمَنَّونَ الْإِسْلَامَ إِذَا حُوسِبُوا، أَوْ إِذَا بُعِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَيُعْثُوا هُمْ إِلَى النَّارِ، يَتَمَنَّونَ الْإِسْلَامَ قَبْلَ ذَلِكَ، فِي مَوَاضِعَ. وَرَبَّمَا يَتَمَنَّى الْآخِذُ مِنَ الْكُفْرَةِ، وَيَدُّونَ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ فِي أَحْوَالٍ وَأَوْقَاتٍ، يَظْهَرُ لَهُمُ الْحَقُّ، لَكِنَّ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ قُوَّةٌ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَذَهَابُ شَيْءٍ طَمَعُوا فِيهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قَسَمَ لِمَا ذَكَرَ ﴿زَيْبًا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يَقُولُ: أَقْسِمُ / ٢٧٤ - ب/ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ أَنَّهُمْ يَدُّونَ الْإِسْلَامَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا﴾ هَذَا لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ، وَلَكِنْ عَلَى التَّوْعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَإِبْلَاحٍ فِي الرُّعْيِدِ وَتَأْكِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] وَهُوَ عَلَى التَّوْعِيدِ لِأَنَّهُ ^(٤) قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَقَالَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا﴾ وَعِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ ﴿ذَرَهُمْ﴾ وَلَا تُكَافِئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الْمُحِقُّ وَالْمُبْطِلُ، وَأَنَّ الْمُحِقَّ وَالْمُبْطِلَ مَنْ؟ أَنْتَ أَوْ هُمْ، أَوْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ نُصْحَكَ إِيَّاهُمْ وَشَفَقَتَكَ لَهُمْ، أَنْكَ نَصَحْتَ لَهُمْ، وَاشْفَقْتَ، لَا أَنْكَ حُتَّتُهُمْ، أَوْ يَعْلَمُونَ بِمَا سَخَرُوا بِكُمْ، وَهَرَبُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيْلِهِمُ الْأَمَلُ﴾ الْأَمَلُ الطَّمَعُ. اخْتَلَفَ فِيهِ [بوجوه]:

أَخَذَهَا ^(٥): أَي مَنَعَهُمْ طَمَعُهُمْ أَنَّهُمْ وَأَبَاؤُهُمْ قَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ، ذَلِكَ مَنَعَهُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ وَالنَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أصيب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: تَقْدِيرُهُمْ بِامْتِدَادِ حَيَاتِهِمْ لِيَتَّبِعِيَ لَهُمُ الرِّسَالَةُ وَالشَّرَفُ، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ وَالنَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ.

والثالث: يَظْمَعُونَ هَلَاكَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَمْتِنُونَ ذَلِكَ، وَانْقِطَاعَ مُلْكِهِ وَأَمْرِهِ وَالْعَوْدَ إِلَيْهِمْ، فَذَلِكَ الَّذِي كَانَ مَنَعَهُمْ.

وَفِي حَرْفِ حَفْصَةٍ: ﴿ذَرَهُمْ﴾ يَخُوضُوا، وَيَلْعَبُوا، ﴿وَيَلْهَمُ الْأَمْلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَتَسْتَعْمُوا﴾ الآية في قومٍ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. أَيْسَ رَسُولُهُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طَلْفَيْنِهِمْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: وَمَا أَهْلَكْنَا أَهْلَ قَرِيْبَةٍ إِهْلَاكَ تَعْذِيبٍ إِلَّا وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا بِكِتَابٍ مَعْلُومٍ، يَتْلُونَ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَعْلُومَ عَلَيْهِمْ. فإِذَا كَذَّبُوهُمْ، وَأَيْسُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ، فَيَعْذِبُ ذَلِكَ يُهْلِكُونَ إِهْلَاكَ تَعْذِيبٍ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِيْ أُنْهَارِهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٥٩] فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقال بعضهم: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ يَقُولُ: كِتَابٌ، فِيهِ أَجَلٌ مَعْلُومٌ مُوقَّتٌ^(١). عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ كَانَ قَدْ خَرَجَ جَوَاباً لِقَوْلِهِ كَانَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ عَنِ اسْتِعْجَالِهِمْ الْإِهْلَاكَ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمْرٍ أَجَلًا وَمَا يَسْتَفْهِتُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْهِتُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

هَذَا يَنْقُضُ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ قَوْلَهُمْ حِينَ^(٢) قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ [يَجْعَلُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَجَلًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدٌ إِلَى^(٣) آخَرٍ، فَيَقْتُلُهُ قَبْلَ الْأَجَلِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ. وَاللَّهُ قَالَ^(٤): ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْهِتُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وَقَالَ: ﴿وَيَسْتَفْهِتُونَكَ بِالْمَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُ الْمَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] يُخْبِرُ أَنَّهُ «لَجَاءَهُ الْمَذَابُ» لَوْ لَا مَا جَعَلَ مِنْ أَجَلٍ مُّسَمًّى، قَدْ وَعَدَ، جَلٌّ، وَعَلَا، أَنَّهُ يَبْقَى بِمَا وَعَدَ مِنَ الْبُلُوغِ إِلَى الْأَجَلِ الَّذِي سَمَّى.

وَعَلَى قَوْلِ الْمَعْتَزِلَةِ: لَا يَمْلِكُ إِنْجَارَ مَا وَعَدَ، لِأَنَّهُ [يَجِيءُ إِنْسَانٌ، فَيَقْتُلُ آخَرَ]^(٥) فَيَمْنَعُ اللَّهُ عَنْ وَفَاءِ مَا وَعَدَ، فَذَلِكَ عَجْزٌ وَخُلْفٌ فِي الْوَعْدِ. فَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ السَّرَفِ فِي الْقَوْلِ وَالزَّيْغِ عَنِ الْحَقِّ^(٦).

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَنَا إِلَهِي نَزْلٌ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ «يَأْتِيَنَا إِلَهِي» تَدَّعِي أَنَّهُ «نَزْلٌ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» فِي مَا تَدَّعِي مِنْ نَزْوِلِ الذِّكْرِ؛ هُوَ عَلَى الْإِضْمَارِ الَّذِي قَالَ الْحَسَنُ، وَإِلَّا [فَهُوَ]^(٧) فِي الظَّاهِرِ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ بِنَزْوِلِ الذِّكْرِ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ أَقْرَأُوا بِنَزْوِلِ الذِّكْرِ عَلَيْهِ لَكَانَ قَوْلُهُمْ مُتَنَاقِضاً فَاسِداً ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ سَمَوْهُ مَجْنُوناً. وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى تَسْوِيئِهِمْ إِيَّاهُ مَجْنُوناً وَجَوَهُ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْهُ أَنَّهُ قَدْ أَظْهَرَ الْخِلَافَ لِذَوِي الْعُقُولِ مِنْهُمْ وَالْأَفْهَامِ وَالِدُّعَاءِ إِلَى غَيْرِ مَا هُمْ [فِيهِ]^(٨) قَرَأُوا أَنَّهُ لَيْسَ مُخَالَفاً^(٩) أَهْلَ الْعُقُولِ وَالْفَهْمِ إِلَّا بِجَنُونٍ فِيهِ، سَمَوْهُ^(١٠) مَجْنُوناً.

وَالثَّانِي: رَأَوْهُ أَظْهَرَ الْخِلَافَ لِلْفِرَاعِثَةِ وَالْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ كَانَتْ عَادَتُهُمْ الْقَتْلُ وَإِهْلَاكَ^(١١) مَنْ أَظْهَرَ الْخِلَافَ لَهُمْ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِهِمُ الدُّنْيَاوِيَّةِ، فَكَيْفَ مَنْ أَظْهَرَ الْخِلَافَ لَهُمْ فِي الدِّينِ؟ فَظَنُّوا أَنَّهُ لَيْسَ يُخَالَفُهُمْ، وَلَا يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَرُوحِهِ إِلَّا لِبُجُونٍ فِيهِ.

وَالثَّالِثُ: قَالُوا ذَلِكَ لَمَّا رَأَوْهُ، كَانَ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ عِنْدَ نَزْوِلِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ، فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لَاقَةٍ فِيهِ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مِنْ وَقْتُ. (٢) مِنْ الْأَصْلِ مِنْ م: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجْعَلُ لَخَلْقِهِ أَجَلاً ثُمَّ يَجِيءُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٥) فِي الْأَصْلِ: لَا يَجِيءُ إِنْسَانٌ فَيَقْتُلُهُ، فِي م: يَجِيءُ إِنْسَانٌ فَيَقْتُلُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَلْقُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مُخَالَفٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَسَمَوْهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْهَلَاكُ.

وَمَنْ تَأْمَلْ حَقِيقَةَ ذَلِكَ عَلِيمٌ أَنْ مَنْ ^(١) قَرَفَهُ بِالْجُنُونِ بِهِ، هُوَ الْمَجْنُونُ، لَا هُوَ [وَأَنَّهُ] ^(٢) قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [الآية: الأعراف: ١٨٤] وَقَالَ: ﴿مَا أَنْتَ بِمُنْجِيٍّ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَوْ تَفَكَّرُوا عَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ جِنَّةٌ، وَلَكِنْ عَنْ مُعَانَدَةٍ وَمُكَابَرَةٍ يَقُولُونَ وَجَهْلٍ.

وَسَمُوهُ سَاحِرًا؛ فَذَلِكَ تَنَاقُضٌ فِي الْقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى سَاحِرًا إِلَّا لِفَضْلِ بَصَرٍ وَعِلْمٍ. فَذَلِكَ تَنَاقُضٌ.

الآية ٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَقُولُونَ لَهُ، إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُونَكَ بِالْوَحْيِ، فَهَلَّا أَظْهَرْتَ لَنَا إِذَا أَتَوَكَ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أَمَلَائِكَةٌ هُمْ عَلَى مَا تَزْعُمُ، أَمْ شَيَاطِينُ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ فَيَشْهَدُونَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّكَ أُرْسِلْتَ عَلَى مَا تَدَّعِي مِنَ الرِّسَالَةِ.

الآية ٨

فَقَالَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَّا بِالْمَوْتِ ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ فِي وَسْطِ الْبَشَرِ رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَّا بِالْمَوْتِ. لَوْ رَأَوْا لَمَاتُوا لِمَا لَمْ يَجْعَلْ فِي وَسْطِهِمْ رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ لَمَاتُوا؛ إِذْ لَيْسَ فِي وَسْطِهِمْ رُؤْيَا الْمَلَكِ عَلَى صُورَتِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَيْضًا أَنَّهُ لَوْ جَعَلَهُ مَلَكًا لَجَعَلَهُ رَجُلًا، وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى أَوْلَئِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيِ بِالْحُجَجِ وَالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى الرِّسَالِ وَعَلَى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَذَلِكَ، لَيْسَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيِ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُهُمْ. وَهَكَذَا إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تُنْزَلُ إِلَّا بِالْعَذَابِ الَّذِي فِيهِ هَلَاكُهُمْ، أَوْ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ بِعَنِي الْقُرْآنَ ﴿وَرِنَّا لَهُ لَحَفُظُونَ﴾ حَتَّى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْغُطُوبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وَفِي مَا وَكَّلَ الْحِفْظَ إِلَى نَفْسِهِ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنَ الطَّاعِينَ مَعَ كَثَرَتِهِمْ مُنْذُ نُزِّلَ وَضَعَ ^(٣) الطَّاعِنِ فِيهِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ أَنَّهُ سَمَائِيٌّ، وَأَنَّهُ مَحْفُوظٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَرِنَّا لَهُ لَحَفُظُونَ﴾ أَيِ مُحَمَّدًا، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ، أَيِ نَحْفَظُهُ بِالذِّكْرِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَمُصُّكَ مِنْ أَمَامِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ مَلَكَتْ فَنَاسًا أَيْدٍ عَلَى نَفْسٍ﴾ [الآية: سبأ: ٥٠] أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَهْتَدِي بِمَا يُوحِي إِلَيْهِ رَبُّهُ. فَعَلَى ذَلِكَ يَحْفَظُهُ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ النَّبِيُّ، أَيِ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا النَّبِيَّ، وَإِنَّا لَهُ، أَيِ لِرَسُولِهِ لِحَافِظُونَ بِالنَّبِيِّ وَالرِّسَالَةِ.

الآية ١٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْءٍ الْأَوَّلِينَ﴾ قِيلَ: فِي مُلْكِ الْأَوَّلِينَ، وَقِيلَ: فِي فِرْقِ الْأَوَّلِينَ، وَقِيلَ: فِي جَمَاعَاتِ [الْأَوَّلِينَ] ^(٤)، وَهُوَ وَاحِدٌ.

الآية ١١

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٥): ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يُصَبِّرُ رَسُولُهُ عَلَى اسْتِهْزَاءِ قَوْمِهِ إِيَّاهُ وَأَذَاهُمْ؛ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَسْتُ أَنْتَ الْمَخْصُوصُ بِهِذَا، وَلَكِنْ لَكَ شُرَكَاءُ وَأَصْحَابٌ فِي ذَلِكَ، وَلِيَحْفَظَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَيَهْوَنَ، لِأَنَّ الْعُرْفَ فِي الْخَلْقِ أَنْ مَنْ كَانَ لَهُ شُرَكَاءُ وَأَصْحَابٌ فِي شَيْءٍ ٢٧٥ - ١ / أَصَابَتْهُ أَوْ بَلَاءٌ، يُصِيبُهُ، كَانَ ذَلِكَ أَيْسَرَ عَلَيْهِ وَأَهْوَنَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ ^(٦) هَذِهِ الْآيَةُ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيَهَا إِلَيْهِ نُزْلٌ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]. فَكَأَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ هَذَا اسْتَدَّ عَلَيْهِ، وَضَاقَ صَدْرُهُ بِذَلِكَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْءٍ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠] إِلَى آخِرِهِ يُصَبِّرُهُ عَلَى أَذَاهُمْ وَهَزِينِهِمْ بِهِ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَوْضِع. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) الْوَارِءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

فإِذَا يَشْعُدْ عَلَيْهِ ذَلِكَ عَلَى قَدَرٍ شَفَقْتِهِ وَنَصِيحَتِهِ لَهُمْ، وَكَانَ بَلَغَ نَصِيحَتَهُ وَشَفَقَتَهُ لَهُمْ مَا ذَكَرَ: ﴿لَتَكُنَّ نَجْمٌ تَشْكُرُ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقال^(١): ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] كَادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ.

أَوْ ذَكَرَ هَذَا لِيُحَذِّرَ أَنْ هَؤُلَاءِ؛ أَعْنِي قَوْمَهُ، إِنَّمَا اسْتَهْزَؤُوا بِهِ تَقْلِيداً لِأَبَائِهِمْ وَاقْتِدَاءً بِهِمْ وَتَلَقُّنَا مِنْهُمْ، لَا أَنَّهُمْ انْتَهَوْا ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأُولَئِكَ؛ أَعْنِي الْأَوَائِلَ، إِنَّمَا اسْتَهْزَؤُوا بِرُسُلِهِمْ لَا تَقْلِيداً لِأَحَدٍ، وَلَكِنْ إِنْشَاءً مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ. فَمَنْ اسْتَهْزَأَ بِآخَرٍ، فَشَتَمَهُ، تَقْلِيداً وَاقْتِدَاءً وَتَلَقُّنَا كَانَ ذَلِكَ أَيْسَرَ عَلَيْهِ وَأَخَفَ مِنْ فِعْلِ [مَنْ فَعَلَهُ]^(٢) مِنْ ذَاتِهِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُلْقِنُ الْمَجَانِينَ وَالصَّيَّانَ وَمَنْ بِهِ آفَةٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

فَهُمُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ بِالتَّلْقِينِ، وَأَمَّا الْمُقْلَاءُ وَالسَّالِمُونَ مِنَ الْآفَاتِ فَلَا. فَذَلِكَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِهْزَاءِ أُولَئِكَ بِرُسُلِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: كَذَلِكَ نَسْلُكُ التَّكْذِيبَ فِي الْإِسْتِهْزَاءِ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

الآية ١٣ [وقوله تعالى]^(٣): ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يَقُولُ: مِنْ حُكْمِ اللَّهِ أَنْ يَسْلُكَ التَّكْذِيبَ فِي قَلْبٍ مَنِ اخْتَارَ التَّكْذِيبَ^(٤)، وَمِنْ حُكْمِهِ أَنْ يَسْلُكَ التَّصْدِيقَ فِي قَلْبٍ مَنْ صَدَّقَهُ، وَاخْتَارَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾ نَجْعَلُ الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ بِكَفَرِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] وَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] وَنَحْوَهُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْحُجَجَ وَالْآيَاتِ لِيَكُونَ تَكْذِيبُهُمْ وَرَدُّهُمْ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ وَتَكْذِيبُهُمْ تَكْذِيبَ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ [لأنهم]^(٥) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَي مِثْلَ الَّذِي سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبُولِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ وَالتَّصْدِيقِ لَهَا، لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ ﴿نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ مِنْ تَكْذِيبِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ وَرَدِّهَا، لَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ الرُّدَّ وَالتَّكْذِيبَ لَهَا. هَذَا مُحْتَمَلٌ، وَيَحْتَمِلُ غَيْرُ هَذَا مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنةُ الْأَوَّلِينَ﴾ بِالتَّكْذِيبِ وَالرُّدِّ وَالْمُعَانَدَةِ وَالْمُكَابَرَةِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنةُ الْأَوَّلِينَ﴾ بِالْهَلَاكِ وَالِاسْتِصْغَالِ عِنْدَ مُكَابَرَةِ حُجَجِ اللَّهِ وَمُعَانَدَتِهِمْ لِيَاها.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ﴾ أَي نَجْعَلُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا الْكُفْرَ بِالْعَذَابِ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَي لَا يُصَدِّقُونَ بِالْعَذَابِ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنةُ الْأَوَّلِينَ﴾ بِالتَّكْذِيبِ لِرُسُلِهِمْ بِالْعَذَابِ. فَهَؤُلَاءِ يَسْتَنْتُونَ بِسُتَيْبِهِمْ.

وقال أبو عوسجة: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ﴾ أَي نُدْخِلُهُ؛ يَقَالُ: السَّالِكُ الدَّخْلَ، وَالسُّلُوكُ الدُّخُولُ، وَسَلَكْتُ أَدْخَلْتُ. وَتَصْدِيقُ [قَوْلِهِ]^(٦) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] وَقَوْلُهُ^(٧): ﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] أَي أَدْخِلْ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرُجُونَ﴾ يُخْبِرُ، جَلَّ، وَعَلَا، عَنْ سَفَهِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي سَوَالِهِمُ الْآيَاتِ وَطَلَبِ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ. يَقُولُونَ: ﴿وَلَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيقول: ^(٨) إِنْ سَأَلْتَهُمُ الْآيَاتِ، وَمَا سَأَلُوا مُتَعَتِّتِينَ مُكَابِرِينَ لَيْسُوا هُمْ بِمُسْتَرْشِدِينَ، لَكِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، لَا يَعْرِفُونَ تَعَتُّتَهُمْ بِالذِّكْرِ^(٩) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ مَّاءٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١٠) وَمَا يُشْعِرْكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ [الأنعام: ١٠٩].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَذِبَهُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٩) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ ثُمَّ قَالَ.

وذلك أن المؤمنين كانوا يشفعون لهم بسؤالهم الآيات [بقولهم] ^(١) لعلهم يؤمنون، فأخبر ﴿وَمَا يُخْبِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

فعلى ذلك قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ﴾ يُخْبِرُ أَنَّهُمْ بِسؤالهم نزول الملائكة [معاندون مكابرون] ^(٢) ليسوا بمُسْتَرَشِدِينَ.

ثم اختلف فيه: قال بعضهم: قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ يعني على الملائكة باباً حتى رأوا، أو عاينوا الملائكة ينزلون من السماء، ويضعدون، فلا يؤمنون [ويقولون]:

الآية ١٥ قوله تعالى ^(٣): ﴿إِنَّمَا سَكِرْتُمْ أَبْصَرْنَا﴾ قيل: حُبِرْتُمْ، وسُدَّتْ ﴿بَلْ تَحْنُ قَوْمٌ مَّتَحَوْرُونَ﴾ أي سَجِرْتُمْ أَعْيُنَا، فلا تَرَى ذلك.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي لهم ﴿بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كقولهم: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ [المائدة: ٣] أي للنَّصَبِ.

وقوله تعالى: ﴿ظَلُّوا فِيهِ﴾ حتى ﴿يَهْرَجُونَ﴾ ويُعاينون نزول الآيات، ويُشاهدون كل شيء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرْنَا بَلْ تَحْنُ قَوْمٌ مَّتَحَوْرُونَ﴾ يقولون ذلك لشدَّة تَعَتُّبِهِمْ وَسَفْهِهِمْ لِيُشَدَّ مُعَايِنَةُ ذَلِكَ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قيل: نُجُومًا، وَتَحْتَمِلُ الْبُرُوجُ الْمَنَازِلَ الَّتِي يَنْزِلُ فِيهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ؛ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنَ ذَلِكَ مَنْزِلًا يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلٍ عَلَى حِدَةٍ. وَتَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْبُرُوجِ: هِيَ مَطَالِغُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ﴾ يعني السماء. وفي قوله: ﴿وَرَزَقْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ﴾ دلالة تَقْضِي قَوْلٍ مِّنْ يَنْهَى عَنِ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ مِنَ الْقَرَاءِ لَأنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ رَزَقْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيْنَهَا، ثُمَّ يَنْهَى عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا دَلَّ أَنَّهُ لَا بَأْسَ لِلنَّاطِرِينَ.

وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذُّبَابَ يَمْصِيحُ﴾ [الملك: ٥] وَجَعَلَ اللَّهُ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ مَنَافِعَ يَهْتَدُونَ بِهَا الطُّرُقَ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، وَجَعَلَهَا مَصَابِيحَ فِي الظُّلُمَاتِ ^(٤).

وأخبر أنه رَزَقْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ، لَأَنَّ مَا يَقْبَحُ فِي الْعَيْنِ مِنَ الْمَنْظَرِ، لَا يَتَفَكَّرُ النَّاطِرُ فِيهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَرَزَقْنَاهُ ^(٥) لَهُمْ لِيَحْتَمِلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيهِ وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ تَدْبِيرٌ وَاحِدٌ حِينَ ^(٦) جَعَلَ مَنَافِعَ السَّمَاءِ مُتَّصِلَةً بِمَنَافِعِ الْأَرْضِ مَعَ بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا، وَجَعَلَ أَشْيَاءَ هِيَ فِي الظَّاهِرِ أَشْبَاهُهَا، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْأَضْدَادِ لَهَا، وَمِنْهَا مَا هِيَ فِي الظَّاهِرِ أَضْدَادُ، وَهِيَ كَالْأَشْكَالِ نَحْوُ النَّوْرِ وَالظُّلْمَةِ، هِيَ فِي الظَّاهِرِ أَضْدَادُ، فَصَارَتْ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ مَنَافِعِهَا كَالْأَشْكَالِ، وَجَعَلَ لَا يَنْتَفِعُ بِضَوْءِ النُّجُومِ بِذَلِكَ أَهْلُ الْأَرْضِ، هِيَ فِي الظَّاهِرِ أَضْدَادُ، فَصَارَتْ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ مَنَافِعِهَا كَالْأَشْكَالِ، وَجَعَلَ لَا يَنْتَفِعُ بِضَوْءِ النُّجُومِ مَعَ نَوْرِ الْقَمَرِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِنَوْرِ الْقَمَرِ مَعَ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَهُنَّ أَشْكَالٌ بِمَا يَذْهَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِسُلْطَانِ الْآخَرِ، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ تَدْبِيرٌ وَاحِدٌ حِينَ ^(٨) صَارَتْ الْأَضْدَادُ ^(٩) كَالْأَشْكَالِ وَالْأَشْكَالُ كَالْأَضْدَادِ فِي حَقِّ الْمَنْفَعَةِ.

الآيتان ١٧ و ١٨ وقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ يعني السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيزٍ﴾ [إِلَّا مَنَ اسْتَفَقَّ السَّمْعَ فَأَتَيْتَهُمْ شِهَابٌ ثَائِبٌ] ^(١٠) ذَكَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ ^(١١) كَانُوا يَضَعُدُونَ السَّمَاءَ، فَيَسْتَمِعُونَ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مِمَّا يَكُونُ فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْبٍ وَغَيْرِهِ. ثُمَّ زَادُوا فِيهَا مَا شَاؤُوا، فَيُلْقُونَ إِلَى الْكَهْنَةِ، فَيُخْبِرُ الْكَهْنَةُ النَّاسَ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ نُخْبِرْكُمْ بِالْمَطَرِ فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، وَكَانَ حَقًّا، ثُمَّ مَيَّعُوا عَنْ صُورِهِمْ [إِلَى السَّمَاءِ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْهُمْ] ^(١٢) فَجَعَلُوا ٢٧٥ - ب/ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ،

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معاندين مكابرين. (٣) في الأصل وم: قالوا. (٤) في الأصل وم: ظلمات. (٥) في الأصل وم: فزينا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من م. (٩) ساقطة من م. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: الشيطان. (١٢) في الأصل وم: أعني السماء وحفظوا عنهم.

فَسَلَّطَ اللَّهُ الشُّبُهَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقْذِفُوا بِهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْبَعُمْ مِنْهَا نَبَاتٌ مُبِينٌ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(١): ﴿وَيَقْذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾
﴿مُخْرَجًا﴾ [الصافات: ٨، ٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْبَعُمْ مِنْهَا نَبَاتٌ كَاثِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أَيِ أَهْلِهَا ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ ذِكْرِ أَشْيَاءَ مِنَ الْقَرْيَةِ وَالْمِصْرِ وَالْعِيرِ وَغَيْرِهِ،
وَالْمُرَادُ مِنْهُ أَهْلُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ بِاجْتِمَاعِهِمْ أَهْلُ وَلَايَةِ اللَّهِ، وَأَهْلُ طَاعَتِهِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَرْضِ فَمِنْهُمْ مِنَ الْغَاوِينَ الضَّالِّينَ، فَهُمْ أَوْلِيَاءُ أَهْلِ الشَّيْطَانِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾
الآيَةِ [النحل: ١٠٠].

وَيَحْتَمِلُ حِفْظَ السَّمَاءِ نَفْسِهَا بِالْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ الْآيَةِ [الصافات: ٨] وَيَحْتَمِلُ بِالشُّبُهَةِ الَّتِي فِي غَيْرِ
آيَةٍ^(٢) مِنَ الْقُرْآنِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّجِيمُ اللَّعِينُ، وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ لَعِينٍ. وَاللَّعِينُ فِي اللُّغَةِ، هُوَ
الْمَظْرُودُ، الْمُبْعَدُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿مُخْرَجًا﴾ [الصافات: ٩].

الآيَةُ ١٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] بِعَنِي الْجِبَالِ. فَظَاهِرٌ هَذَا أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْهَا مَضْطَرِئَةً، وَتَنَكَّفَتْ بِأَهْلِهَا، فَأَنْبَتَتْهَا بِالْجِبَالِ، وَالْأَرْضَ،
طَبْعُهَا التَّسْفُلُ وَالْإِنْجِدَارُ، فَكَيْفَ كَانَ ثَبَاتُهَا بِشَيْءٍ، طَبْعُهَا التَّسْفُلُ وَالتَّسْرُّبُ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ طَبْعَهَا، كَانَ الْأَضْطِرَابُ
وَالْإِنْكِفَاءَ، فَأَنْبَتَتْهَا بِالْجِبَالِ عَنِ الْأَضْطِرَابِ وَالْإِنْكِفَاءِ؟ أَوْ أَنْ يُقَالَ: مِنْ طَبْعِهَا مَا ذَكَرْنَا: التَّسْفُلُ وَالْإِنْجِدَارُ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ
يُلْطِفُهُ أَنْبَتَ مَا هُوَ طَبْعُهَا التَّسْفُلُ كَذَلِكَ. لِيُعْلَمَ لُطْفُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِيهَا﴾ يَعْنِي فِي الْجِبَالِ ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أَيِ مَا
يُوزَنُ مِنْ نَحْوِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالرُّصَاصِ وَنَحْوِهِ مِمَّا يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا. وَهَذَا كَأَنَّهُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ فِي
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ: إِنَّهُ أَنْبَتَ فِي الْأَرْضِ كَمَا يُقَالُ ذَلِكَ لِلنَّبَاتِ وَمَا يُنْبَتُ فِيهَا، وَإِنَّمَا يُقَالُ لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ:
جَعَلْنَا فِيهَا، أَوْ خَلَقْنَا فِيهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَلْبَتْنَا فِيهَا﴾ يَعْنِي فِي الْأَرْضِ ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ مِنْ كُلِّ الْوَانِ [النَّبَاتِ]^(٣) مَوْزُونٍ أَيِ مَعْلُومٍ مُقَدَّرٍ
بِقَدَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَقْلُوبٍ﴾ [الحجر: ٢١] وَيَحْتَمِلُ ﴿وَأَلْبَتْنَا فِيهَا﴾ وَمَا يَصِيرُ مَوْزُونًا فِي الْأَجْرَةِ مِنَ الزَّرْعِ
وغيرِهَا وَالْحَبُوبِ أَوْ مَا ذَكَرْنَا: أَيِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَيْسَ عَلَى الْجُزْأِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ فِعْلِ جَاهِلٍ عَلَى غَيْرِ تَدْبِيرٍ وَلَا تَقْدِيرٍ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ لَمْ يَعْرِفُوا قَدْرَ مَا يَزِدَادُ، وَيَنْمُو مِنَ النَّبَاتِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ
وَطَرَفَةٍ عَيْنٍ فِي أَوَّلِ مَا يَخْرُجُ، وَيَبْدُو مِنَ الْأَرْضِ، وَذَلِكَ مَوْزُونٌ عِنْدَهُ مَعْلُومٌ قَدْرُهُ لِيُعْلَمَ لُطْفُهُ [وَقُدْرَتُهُ وَتَدْبِيرُهُ وَعِلْمُهُ وَأَنَّهُ
تَدْبِيرٌ]^(٤) وَاحِدٌ حِينَ^(٥) لَمْ يَخْتَلِفْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَفَاوَتْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿فَطَلَّوْا فِيهِ﴾ [الحجر: ١٤] أَيِ [صَارُوا، وَقَوْلُهُ]^(٦): ﴿يَتَرَجَّحُونَ﴾ يَرْتَفِعُونَ، وَيَضَعِدُونَ، وَقَالَ
غَيْرُهُ: ﴿يَتَرَجَّحُونَ﴾ أَيِ مَا لَوْ كَقَوْلِهِ: ﴿فَطَلَّكَ أَفْتَقُهُمْ﴾ [الشعراء: ٤] وَقَالَ: قَوْلُهُ: ﴿سَكَّرْتُ أَبْصَرُنَا﴾ [الحجر: ١٥] أَيِ
خَيْرْتُ، يُقَالُ: سَكَّرَ بَصْرَهُ إِذَا تَخَيَّرَ، وَقَالَ: يُقَالُ أَيْضًا: تَخَيَّرْتُ، يُقَالُ: سَكَّرَ اللَّهُ بَصْرَهُ، أَيِ خَيْرَهُ، وَسَكَّرَتِ الرِّيحُ،
تَسَكَّرَ سُكُورًا إِذَا سَكَنَتْ، وَيُقَالُ: لَيْلٌ سَاكِرٌ أَيِ سَاكِئٌ، وَسَكَّرْتُ الْمَاءَ، أَسَكَّرُهُ سَكْرًا، أَيِ حَبَسْتُهُ، وَالسُّكْرُ السُّدُّ وَالسُّكُورُ
جَمْعٌ، وَالسُّكْرُ مَضْدَرٌ سَكِرَ يَسْكُرُ سَكْرًا، فَهُوَ سَكْرَانٌ، وَقَوْمٌ سَكْرَى وَسَكَرَى، وَالسُّكْرَةُ الْغَمْرَةُ، وَالْغَمْرَةُ الشَّدَّةُ. وَقَالَ
﴿وَبَيَّاتٌ سَكْرَةٌ أَلْمَزَتْ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أَيِ شِدَّتُهُ وَعُسْرَتُهُ^(٧).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْذِفُونَ وَهُوَ قَوْلُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: آي. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَتَدْبِيرُهُ. (٥) فِي
الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ: طَارُوا يَوْمَهُمْ، فِي م: صَارُوا يَوْمَهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ م.

وقال الفتيي: سكرت غشيت، ومنه يقال: سكر النهر إذا سده، فالتسكر أنتم ما سكرت، وسكر الشراب منه، إنما هو الغطاء على العقل والعين.

وقال الحسن: سكرت بالتخفيف^(١) سكرت، وقوله تعالى: ﴿بُرُكًا﴾ [الحجر: ١٦] قال: اثني عشر بُرجاً، وأصل البرج^(٢) الجضم والقصر؛ وقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّعْ﴾ [الحجر: ١٧، ١٨] يقول: حفظناها من أن يصل إليها شيطان، أو يغلم من أمرها شيئاً إلا استرافاً ﴿فَالْبَعَثَ فِيهِ ثَمِينٌ﴾ أي كوكب مضيء.

وقال أبو عوسجة: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّعْ﴾ يقال: اسرقت السمع، أي تقفبت^(٣) قوماً حتى سمعت حديثهم، وهم لا يعلمون. وهكذا لو علم الملائكة أن الشياطين ينسرقون السمع، ويخطفون، لمنعوا من ذلك، وامتنعوا عن التكلم به حتى لا يستمعوا كلامهم وحديثهم. وثهاب: كوكب. وقيل: الشهاب خشبة، في طرفها نار، والشهاب جماعة، وقال بعضهم: ﴿ثَمِينٌ ثَمِينٌ﴾ لرسول الله، كان له إحاضاً، لم يكن لغيره^(٤) والله أعلم.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشَ﴾ أي في الأرض والجبال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ قال الحسن: أي جعلنا لكم في الأرض معاش: ما تعيشون به، ولعن حولكم أيضاً جعل فيها معاش، لا ترزقونه أنتم، إنما ذلك على الله، هو يرزقهم وإياكم.

وقال بعضهم: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ الرخش والطيور. وأما الأنعام فإنه قد أشركهم البشر في المعاش. وكان غير هذا أقرب وأوفق، وهو أن أهل مكة، كانوا^(٥) يمتنون على رسول الله ﷺ، ويقولون: نحن ربنا، وغدنا، وأنفقنا عليه، ورزقناه، ثم قل بنا كذا. فخرج هذا جواباً لهم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾ أي محمداً.

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ يختل هذا، والله أعلم ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ﴾ يُخْزَنُ فِي الْخَلْقِ ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي إلا عندنا تلك الخزائن، أي ما تخزنون من الأشياء فذلك^(٦) عندنا، وفي خزائنا.

[وقوله تعالى^(٧)]: ﴿وَمَا تَنْزِيلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَقْلُوبٍ﴾ على هذا ﴿وَمَا تَنْزِيلُهُ﴾ وما نعطيهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَقْلُوبٍ﴾ أي وإن كان عندكم مخزوناً مخبوساً [فإن ذلك كله من^(٨) خزائنه، أعطى من شاء، وحرم من شاء.

ويختل قوله: ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الخزائن، وهي الأمكنة الخفية التي تُخْزَنُ فِيهَا الْأَمْوَالُ، ويواطن من الأرض. نقول، والله أعلم، ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ﴾ كان في بواطن الأرض وأمكنة خفية ﴿إِلَّا عِنْدَنَا﴾ تدير ذلك وعلمه؛ يخبر أن تديره وعلمه في الخفية من الأمكنة^(٩) فهو في الظاهر؛ لا يخرج شيء عن تديره. بل كل ذلك في تديره وعلمه.

وقال الحسن: ﴿وَلَنْ يَنْ شَاءَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي الماء الذي به جعل حياة كل شيء، ولا يخرج شيء عن منافعه فهو خزانه^(١٠) الأشياء كلها، وقوام كل شيء، وقال: ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَا تَنْزِيلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَقْلُوبٍ﴾ وذكر الانزال، وهو الذي يتزل من السماء ظاهراً؟

هذا الذي قاله مختل. لكن تمامه أن يقال: إن الماء خزائنه والخزائن، هي [المواضع التي^(١١) تُخْزَنُ فِيهِ.

وفي الماء قوة ومعنى، يكون فيه حياة الخلق ومنافعهم في ما جعل فيه لا في نفس الماء.

ألا ترى أنه يُصببُ غرور الشجر، فتظهر منافعه في غصونها في أعلاها؟ فثبت أن فيه قوة سرية ومعنى، تكون المنافع بها لا بنفس الماء، والله أعلم بذلك.

ثم ما ذكر من الخزائن والرياح والماء والمطر وغير ذلك من النعم يذكر على الاحتجاج عليهم، لأنه إنما أنشأ هذه

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٥٢. (٢) في الأصل وم: البروج. (٣) في الأصل وم: تقفلت. (٤) في الأصل وم: خاصة لم يكن.

(٥) في الأصل وم: كانوا. (٦) الماء ساقطة من الأصل وم: (٧) ساقطة من الأصل وم: (٨) في الأصل: فإنه ذلك كل، في م: فإن ذلك كله.

(٩) من م، في الأصل: الأرض. (١٠) في الأصل: خزائنه. (١١) في الأصل وم: الموضع الذي.

الاشياء، وخلقها لهؤلاء لا انه انشأها لنفسها. فإذا كان انشأها لهم، فلا يَحْتَمِلُ أَنْ يَتْرُكَهُمْ، لا يَأْمُرُهُمْ، ولا يَنْهَاهُمْ، ولا يَنْتَحِثُهُمْ، ولا يجعل لهم عاقبة، يثابون، ويعاقبون. ولذلك قال في آخيه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا يَقْدِرُ مَقْلُوبٌ﴾ على التأويل الأول ما ذكرنا، أي ما نعطيه ﴿إِلَّا يَقْدِرُ مَقْلُوبٌ﴾ وإن خَرَجَتْ، وَحَبَسَتْ / ٢٧٦ / ١ / وَيَحْتَمِلُ ﴿إِلَّا يَقْدِرُ مَقْلُوبٌ﴾ بِقَدَرٍ سَابِقٍ مَعْلُومٍ ذَلِكَ، أي إن كان على هذا فإنه يدل على أن [ما] ^(١) يكون، ويَحْدُثُ، إنما يكون بِقَدَرٍ سابق، لا يكون غير ما سَبَقَ تَقْدِيرُهُ، أو ﴿يَقْدِرُ مَقْلُوبٌ﴾ محدود، أي ليس يَنْزِلُ جُزْأً، ولكن معلوماً محدوداً، والله أعلم.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ قال بعضهم: ﴿لَوَاقِحَ﴾ حواميل، وقال بعضهم: هذا لا يصح [لأنه] ^(٢) لو كان على هذا لكان ملاقيح وملقحات.

قال أبو عوسجة: ﴿لَوَاقِحَ﴾ تُلْقِعُ الشَّجَرَ، أي تُثَبِّتُ وَرَقَهَا، وهي مُلْقَحَةٌ، وقال: يُقَالُ: نَاقَةٌ لَاقِحٌ، أي حاملٌ، قد حَمَلَتْ، ونوقٌ لَوَاقِحُ، ويُقَالُ: حَرَبٌ لَاقِحٌ [أي شديدة] ^(٣) وسحابٌ لَاقِحٌ، [وهو] ^(٤) الذي فيه ماءٌ أي مطرٌ، وريحٌ لَاقِحٌ، أي مُلْقِحٌ، تُلْقِعُ الشَّجَرَ، أي تُثَبِّتُ وَرَقَهُ وَحَمَلَهُ. ويُقَالُ: أَلْقَعَ الرَّجُلُ إِذَا لَقِحَتْ إِبِلُهُ، أي حَمَلَتْ، ورجلٌ مُلْقِعٌ، واللقوحُ الناقةُ التي معها وَلَدٌ صغيرٌ، والجَمْعُ لِقَاحٌ، وَجَمْعُ الْجَمْعِ لِقَائِحٌ، واللُّقْعُ اللُّوَاقِحُ، وهي الحواميل مِنَ الإبل.

قال الفُتَيْبِيُّ: قال أبو عبيدة ﴿لَوَاقِحَ﴾ إنما هي ملاقيح جمع مُلْقِحَةٍ، ويريد أنها تُلْقِعُ الشَّجَرَ، وتُلْقِعُ السحابَ، كأنها تُثَبِّتُهُ، واللُّوَاقِحُ المُتَّبِجَةُ الثَّمارَ مِنَ الأشجارِ والسحابِ وغيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالنَّيْلُ كُنُوزٌ وَمَا أَنشَرْنَا لَكُمْ يُحْزِنِينَ﴾ هو ما ذكرنا على التأويل: ﴿وَأَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيُ﴾ [الحجر: ٢١] ﴿وَمَا أَنشَرْنَا لَكُمْ يُحْزِنِينَ﴾ وعلى تأويل الحَسَنِ هو ما ذَكَرَ مِنَ الْمَاءِ وَالْمَطَرِ ﴿وَمَا أَنشَرْنَا لَكُمْ يُحْزِنِينَ﴾ أي ليست خزائنه ^(٥) في أيديكم ولا بيد أحد، ولكن بيد الله ﷻ، وعلى تأويل الآخر ﴿وَمَا أَنشَرْنَا لَكُمْ يُحْزِنِينَ﴾ بِمُدَبِّرِينَ ما خُزِنَ فِي الْأَرْضِ، وَذُقِنَ.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُؤْتِي وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي الباقيون، يَقْنَى الْخَلْقُ كُلُّهُ، فَيَبْقَى هُوَ. ولذلك سُمِّيَ مَنْ خَلَفَ الْمَيِّتَ وَارِثًا، لأنه يَمُوتُ، وَيَبْقَى الْوَارِثُ، وهو باقٍ. وكذلك يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُورِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مریم: ٤٠] والله أعلم.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ﴾ قال بعضهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ﴾ مِنَ الْمُكْذِبِينَ مِنْكُمْ ما حَلَّ بِهِمْ بِالْكَذِبِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ﴾ مِنَ الْمُكْذِبِينَ مِنْكُمْ. وقال بعضهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ﴾ مَنْ يَكُونُ مِنْهُمْ، وَيُولَدُ.

الآية ٢٥ ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ مَنْ مَضَى، وَمَنْ بَقِيَ، [وَمَنْ] ^(٦) لم يَكُنْ بَعْدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وقال الحسن: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ﴾ فِي الْخَيْرِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ﴾ فِي الشَّرِّ، وقال بعضهم: [﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ مِنْكُمْ﴾ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِينَ﴾ فِي الصَّفِّ الْآخِرِ] ^(٧) لكنه بعيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ. أحدهما: ^(٨) هو الذي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا. والثاني: هو الذي يَجْعَلُ لِلْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا.

فَالأَوَّلُ: قد يَعْرِفُ الْخَلْقُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَأما الثاني: فلا يكون ذلك إِلَّا بِاللَّهِ. وقوله: ﴿عَلِيمٌ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ، وَمَالِهِمْ، وَمَا عَلَيْهِمْ، أَوْ عَلَيْهِمْ بِوَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: خزائن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: في الوصف والآخر. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْثُورٍ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ طِينٍ لِأَزْوَاجٍ﴾ [الصفات: ١٢] وقال في [آية^(١)] أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

ذَكَرَ مَرَّةً الْحَمَّ الْمَسْنُونُ؛ وقيل: هو الطينُ الأسودُ الْمُتَغَيَّرُ، وَذَكَرَ مَرَّةً التُّرَابَ، وَمَرَّةً الطينَ اللَّازِبَ، وهو الملتصِقُ، وَمَرَّةً مِنْ سُلَالَةٍ الطينِ. فَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْأَحْوَالِ وَاخْتِلَافِ الْأَوَاقَاتِ: كَانَ فِي الْحَالِ^(٢) الْأَوَّلِ تُرَابًا، وَفِي حَالٍ طِينًا لَازِبًا وَفِي حَالٍ حَمًّا مَسْنُونًا، وهو الذي اسْوَدَّ، وَتَغَيَّرَ لِطَوِيلِ مُكُوثِهِ، وَصُلْصَلًا وَفَخَارًا^(٣). فَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ خَلْقًا مَرْكَبًا: الْجَوَارِحُ فِيهِ وَالْعِظَامُ، كَانَ عَلَى^(٤) هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ عَلَى [مَا]^(٥) أَخْبَرَ مِنْ تَغْيِيرِ أَحْوَالِ أَوْلَادِهِ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥، ...] ذَكَرَ أَحْوَالًا ثَلَاثَةً قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ [فِيهِ]^(٧) لَحْمًا وَعَظْمًا فِي حَالٍ، كَانَ نُطْفَةً [ثُمَّ صَارَ عَلَقَةً]^(٨) ثُمَّ صَارَ مُضْغَةً.

فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ فِي آدَمَ مِنْ تُرَابٍ وَطِينٍ وَحَمَلٍ وَنَحْوِهِ، إِنْ كَانَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. أَوْ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ بِالطِينِ الَّذِي ذَكَرَ، وَهُوَ أَنَّ الطينَ الذي يكونُ كالصَّلْصَلِ وَالْفَخَّارِ وَاللَّازِبِ وَنَحْوِهِ، هُوَ الطينُ الطَّيِّبُ الذي يكونُ منه الْبِنْيَانُ وَالْأَوَانِي وَالْقُدُورُ وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ.

وَأَمَّا الطينُ الذي يَخْبُثُ فَإِنَّهُ لَا يَتَّخِذُ مِنْهُ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَا، وَلَا يَتَّخِذُ، وَلَا يَنْتَهِيَا اتِّخَاذُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَيُشَبِّهُ خَلْقَ آدَمَ بِالطِينِ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ. فَعَلَى ذَلِكَ جَمَعَ فِي آدَمَ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ وَالْخَيْرِ كَالطِينِ الطَّيِّبِ.

ثُمَّ فِيهِ دَلَالَةٌ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَذِكْرُ نِعْمَةٍ حِينَ^(٩) أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ وَطِينٍ وَمَا ذَكَرَ، وَلَيْسَ فِي التُّرَابِ وَلَا فِي الطينِ مِنْ أَثَرِ الْبَشَرِيَّةِ شَيْءٍ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ فِي النُّطْفَةِ الَّتِي خَلَقَ الْبَشَرَ مِنْهَا أَثَرُ الْبَشَرِيَّةِ شَيْءٌ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِنْشَاءِ الْأَشْيَاءِ مِنْ شَيْءٍ وَمِنْ لَا شَيْءٍ؛ إِذْ لَيْسَ فِي مَا ذَكَرَ مِنَ الطينِ وَالتُّرَابِ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ آدَمَ الْبَشَرَ مِنْ أَثَرِ الْبَشَرِيَّةِ [فِيهِ شَيْءٌ]، وَلَا فِي النُّطْفَةِ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا أَوْلَادُهُ مِنْ أَثَرِ الْبَشَرِيَّةِ^(١٠) وَالْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ وَالشَّعْرِ وَغَيْرِهِ، وَمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالتَّوْبِيرِ وَالْجَوَارِحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، شَيْءٌ، لِيَعْلَمَ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ لَا مِنْ شَيْءٍ، وَلِيَعْرِفُوا نِعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ حِينَ^(١١) أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ لِأَزْوَاجٍ وَصُلْصَلٍ وَمَا ذَكَرَ؛ وَذَلِكَ وَصَفُ الطينِ الطَّيِّبِ لِأَنَّهُ مَا خَبُثَ مِنَ الطينِ، لَا يَبْلُغُ الْمَبْلَغَ الَّذِي وَصَفَ، وَلَا يَصِيرُ إِلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَإِنْ طَالَ مُكُوثُهُ لِأَنَّهُ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ لَا مِنْ اتِّخَاذِ الْبِنْيَانِ وَالْأَوَانِي وَالْقُدُورِ، وَلَا يُنْبِتُ الزَّرْعَ أَيْضًا، فَيَحْتَمِلُ عَلَى التَّمثِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا لَا عَلَى التَّحْقِيقِ^(١٢) أَوْ عَلَى التَّحْقِيقِ عَلَى الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ. فَقَدْ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ، طَابَ أَصْلُهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ تَحْتَمِلُ النُّطْفَةُ الَّتِي يَخْلُقُ مِنْهَا الْبَشَرَ، [أَنْ]^(١٣) تَكُونَ طَاهِرَةً، وَهِيَ لَا تَصِيبُ شَيْئًا [مِنْ النِّجَاسَاتِ وَالرُّطُوبَاتِ فِي الْبَدَنِ]^(١٤) وَهِيَ عَلَى غَيْرِ الْوَصْفِ، تُخْرَجُ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿خَلَقَ مِنْ تَلَوِّ دَاقِقٍ﴾ [الطارق: ٦] وَقَالَ: ﴿أَزَّ غَلَقُكَ مِنْ تَلَوِّ تَهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

وَالصُّلْصَلُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ التُّرَابُ الْيَابِسُ، وَالْحَمَّ الطينُ الْأَسْوَدُ، وَالْمَسْنُونُ الْمُتَغَيَّرُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصُّلْصَلُ هُوَ الَّذِي إِذَا ضَرَبْتَهُ يُصَوِّتُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: صُلْصَلَةُ اللَّجَامِ، وَالْفَرَسُ إِذَا كَانَ يُصْلُصِلُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عليه السلام. وَقَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: الصُّلْصَلُ الطينُ الْيَابِسُ الَّذِي لَا يَصْبِيهِ النَّارُ، فَإِذَا نَقَرْتَهُ صَوَّتَ، فَإِذَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَهُوَ فَخَارٌ.

وَالْمَسْنُونُ الْمُتَغَيَّرُ الرَّاحِحَةُ، وَالْمَسْنُونُ أَيْضًا الْمَضْبُوبُ، وَسَنَنْتُ الشَّيْءَ إِذَا صَبَبْتَهُ صَبًّا سَهْلًا، وَسَرَّ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِكَ، وَهُوَ قَوْلُ الْقَتَّيْبِيِّ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَال. (٣) إِنْشَاءً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْعَصْفَرِ﴾ [الرحمن: ١٤]. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حِينَ. (٧) ساقطة من الأصل وَم. (٨) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٠) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: التَّخْصِصُ. (١٣) وَ(١٤) ساقطة من الأصل وَم.

وقال أبو عوسجة: ﴿مِنْ حَمَلٍ تَشْتَرُونَ﴾ الحمأ التراب الأسود، يكون في أسفل البئر، ومن هذا سُمِّيَ الحمأ، لأنه يحمأ أن يُزعى، ويقال: حمأت الحرب والشمس والتور يحمأ إذا اشتد حره، و﴿تَشْتَرُونَ﴾ أي مخلوق.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ الشُّرُورِ﴾ قال بعضهم: الجان هو إبليس، وقال بعضهم: الجان هو أبو البشر، وإبليس هو أبو الشياطين، سُمِّرُوا شياطين لِمَتَرُدُّهُمْ فِي فِغْلِهِمْ، والجان^(١) مُقْتَدِرٌ مِنْ فِغْلِهِمْ. ألا ترى أنه ذَكَرَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ شياطين؟ وهو قوله: ﴿شَيطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وذلك لِمَتَرُدُّهُمْ وَالْجَانُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْجِنِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

والسُّومُ: قال بعضهم: السُّومُ لَهَبُ النَّارِ، كَأَنَّهُ لَيْسَ^(٢) لَهُ دَخَانٌ، وَهُوَ الْمَارِجُ ﴿مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] وَالْمَارِجُ هُوَ الْمُنْقَطِعُ مِنْهَا. وقال بعضهم: ٢٧٦ - ب/ مِنْ جِشِّ النَّارِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ لَهَبَهَا، وَقَالَ: نَارُ السُّومِ الْحَارَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ فَإِنْ كَانَ السُّومُ وَالْمَارِجُ مَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَهَبُ النَّارِ، فَمِنْ طَبْعِهِ الِارْتِفَاعُ وَالْعُلُوُّ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا خَلَقَ مِنْهُ، طَبْعُهُ الِارْتِفَاعُ وَالْعُلُوُّ، وَهُوَ الْجَانُ الَّذِي ذَكَرَ. وَالطِّينُ، طَبْعُهُ التَّسْفُلُ وَالْإِنْجِدَارُ إِلَى الْأَرْضِ، فَعَلَى ذَلِكَ مَا خَلَقَ مِنْهُ، طَبْعُهُ الْهَوِيُّ إِلَى الْأَرْضِ وَالتَّيْلُ إِلَيْهَا.

[وقوله تعالى:]^(٣) ﴿وَلَقَدْ﴾ قال أبو عوسجة: الْجِنُّ وَاحِدُ الْجَانِ، وَالْجَانُ جَمْعٌ، سُمِّيَ ذَلِكَ لِاسْتِجَابَتِهِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: الْجِنُّ الْجَمَاعَةُ، وَالْجَانُ الْوَاحِدُ.

الآيتان ٢٨ و ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ تَشْتَرُونَ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أَي أَنْصَبْتُهُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] لَمْ يُشَبَّهْ هَذَا عَلَى النَّاسِ، وَلَمْ يَفْهَمُوا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [وقوله]^(٤): ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] مَا فَهَمُوا مِنْ نَفْخِ الْخَلْقِ.

فَمَا بِاللَّهُمْ فَهَمُوا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وَنَحْوِ اسْتَوَاءِ الْخَلْقِ. بَلْ [فَهَمُوا نَفْخَةً مِنْهُ]^(٥) فَهَمَ نَفْخِ الْخَلْقِ أَكْثَرَ مِنْ اسْتَوَائِهِ لِأَنَّهُ أَمَكَّنَ صَرْفَ الْإِسْتِواءِ إِلَى وَجْهِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ صَرْفَ النَّفْخِ مِنْهُ. لَكِنَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ اقْتَدَرُوا فِعْلَ اللَّهِ بِفِعْلِ الْخَلْقِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَقْتَدِرُوا بِالْخَلْقِ عَلَى مَا لَمْ يَقْتَدِرُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ خُودُوا آدَمَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَ﴿حُكِمَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٣]، وَ﴿عَبَدُوا اللَّهَ﴾ [مريم: ٣٠] وَ﴿خَلَقُوا﴾ [لقمان: ١١] وَأَمْثَالِهَا^(٦). وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أَوْ تَلْقَيْنَ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وقوله تعالى: ﴿رُوحِي﴾ وَ﴿رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أَيِ الرُّوحِ الَّذِي بِهِ حَيَاءُ الْخَلْقِ، أَيِ خَلَقَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ حَيَاءُ الْخَلْقِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَرَّبُوا لِلَّهِ سَجِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا﴾ مِمَّا ذَكَرَ خَبِيرًا^(٧) أَنَّهُ سَيَقْعَلُ، وَأَمْرًا^(٨) لَهُمْ بِالسُّجُودِ [فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ]^(٩) بَعْدَ مَا خَلَقَهُ إِيَّاهُ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ تَقَدُّمُ الْأَمْرِ عَنْ وَقْتِ الْفِعْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٢٠ و ٢١ وقوله تعالى: ﴿تَسْجُدَ لِلْمَلَكَةِ كُلُّهُمْ أَسْمَاءُ﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ إِنَّهُ كَانَ كَفُورًا﴾ ظَاهِرُ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ وَالِاسْتِثْنَاءِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِأَنَّ [الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ كَانَ فِيهِمْ] وَمِنْهُمْ وَقَعَتْ^(١٠) الثَّنَاءُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا اخْتِلَافَهُمْ وَأَقَابِلَهُمْ فِي مَا تَقَدَّمَ مَقْدَارَ مَا حَفِظْنَاهُ^(١١).

[ثم الأصل أن]^(١٢) كُلُّ مَا خُرِجَ مُخْرَجَ الْإِسْتِثْنَاءِ يَجِبُ أَنْ يُسْقَطَ اسْمُهُ مَا أَجْمَلَ نَحْوُ قَوْلِ الرَّجُلِ لِأَخِي: لَكَ عَلَيَّ

(١) من م، في الأصل: ذلك. (٢) أدرج قبلها في الأصل: م، و. (٣) ساقطة من الأصل: م، (٤) ساقطة من الأصل: م، (٥) في الأصل: م، و. (٦) في م، فهم نفخة من، ساقطة من الأصل: (٧) في الأصل: م، وأمثاله. (٨) في الأصل: م، خبير. (٩) في الأصل: م، أمر. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل: م، فيهم كان الأمر بالسجود، ومنهم وقع. (١٢) في تفسير الآية ٤٥ من سورة البقرة. (١٣) في الأصل: م، قال والأهل بأن.

عَشْرَةً، إِلَّا دَرَهْمًا، يُنْقِطُ الْإِسْتِثْنَاءُ مَا أُخْبِلَ مِنَ الْإِسْمِ حَتَّى صَارَ بِنَعْمَةٍ. وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: [لَكَ عَلَيَّ] ^(١) أَلْفٌ إِلَّا خَمْسِينَ، وَإِذَا لَمْ يُنْقِطْ ذَلِكَ الْإِسْمُ فَلَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ الْكُلُّ فِيهِ مُضْمَرًا نَحْوُ قَوْلِ الرَّجُلِ: رَأَيْتُ عُلَمَاءَ بَلَدٍ كَذَا إِلَّا فُلَانًا، يَحِبُّ أَنْ يُضْمَرَ فِيهِ حَرْفُ الْكُلِّ حَتَّى يَقَعَ عَلَى كُلِّ نَحْوٍ أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ كُلَّ عُلَمَاءِ بَلَدٍ كَذَا إِلَّا فُلَانًا، فَعَلَى ذَلِكَ تَخْصِصُ الْعُمُومِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ نَسْتَوِي﴾ [الحجر: ٢٦] قَالَ: الصَّلَافُ هُوَ الطَّيْنُ الْحَرُّ الَّذِي يَتَصَلَصَلُ مِنْ صَلَابِيهِ وَبُوسَتِهِ، وَالْحَمَلُ الطَّيْنُ الْمَسْنُونُ، قَالَ: ﴿نَسْتَوِي﴾ خَلَقْتُهُ، فَهِيَ سُنَّةٌ لِلْخَلْقِ بَعْدَهُ، مِنْ دُرَّتِي أَنْ يُخْلَقُوا عَلَى خَلْقَتِي، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يَقُولُ: اسْتَلَّهَا مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِي الطَّيْنِ لَا كُلَّ طِينٍ خَلَقْتُ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي تَنَاسُلِ دُرَّتِي، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ لَيْسَ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقْتُ، وَلَكِنْ اسْتَلَّهَا مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِي الْمَاءِ.

وَقَالَ ﴿وَلَمَّا نَسُوا﴾ إِبْلِيسُ هُوَ أَبُو الْجِنِّ ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ قَدْ﴾ أَيِ مِنْ قَبْلِ آدَمَ ﴿وَمِنْ نَارِ السُّمُورِ﴾ [الحجر: ٢٧] يَقُولُ: السُّمُورُ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، وَلَهَا ^(٢) أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ. أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَهُ ﴿وَمِنْ نَارِ السُّمُورِ﴾ أَيِ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ٣١ و ٣٢ و ٣٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ الَّذِي كَرِهَ﴾ [الحجر: ٣٣] قَالَ بِطَالِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ الشَّيْطَانِ ﴿وَقَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ نَسْتَوِي﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَنْ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وَقَالَ لَهُ: ﴿قَالَ بِطَالِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ الشَّيْطَانِ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ذَكَرَ مَثَلٌ هَذَا عَلَى اخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْمُخَاطَبَاتِ مَعَهُ، لَمْ تَكُنْ مَعَهُ مِرَارًا، وَلَكِنْ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ إِبْلِيسَ وَقِصَصَ ^(٣) الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا فِي مَوَاضِعَ، لَأَنَّهَا كَذَلِكَ كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ، فَذَكَرَهَا عَلَى مَا فِي كُتُبِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ لِيَذْلَهُمْ عَلَى صِدْقِهِ.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْفَاظِ وَتَغْيِيرَهَا لَا يَوْجِبُ اخْتِلَافَ الْحُكْمِ، وَلَا ^(٤) يُغَيِّرُ الْمَعْنَى. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْخَبَرَ إِذَا آدَى مَعْنَاهُ عَلَى اخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ. وَكَذَلِكَ إِذَا قُرِئَ بِغَيْرِ لِسَانٍ الَّذِي أُتْرِلَ فَإِنَّهُ يَجُوزُ إِذَا آتَى بِمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَاصْرُفْ يَنْهَا فِئَكَ لَنَحْشُرَكَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿فَاصْرُفْ يَنْهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَخْرَجَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا لَهَا ^(٥) أَوْ أَخْرَجَ مِنْ صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ إِلَى صُورَةِ الْبَالِسَةِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُقَالَ: أَخْرَجَ مِنْ كَذَا إِلَى مَكَانٍ كَذَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةِ الْخُرُوجِ. وَلَسْنَا نَذَرِي كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ^(٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَجِمَ﴾ قِيلَ: الرَّجِيمُ الْمَلْعُونُ، وَقِيلَ: الرَّجِيمُ مَا يُرْجَمُ بِالْكَوَاكِبِ.

الآية ٣٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عِلْمُ الْيَوْمِ الَّذِي لَكُمْ فِي الطُّرْدِ فِي اللَّغَةِ وَالْخِطْلَانِ﴾ طُرِدَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ حَتَّى لَا يَهْتَدِيَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَهَدَاهُ. ثُمَّ يَوْمُ الدِّينِ لَهُ الْعَذَابُ الدَّائِمُ وَاللَّعْنَةُ الْقَائِمَةُ ^(٧).

الآيات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ فَلَنُظَرِّيَهُنَّ إِلَى يَوْمِ يَنْشُرُونَ﴾ قَالَ فُلَانٌ مِنَ الشُّطْرَيْنِ ﴿إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لَمَّا لَمِصْنُ، وَطَرِدَ عَنْ رَحْمَتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ أَيِ لَا تُذَرِّكُهُ الْهَدَايَةُ، لِأَنَّ الْهَدَايَةَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا تُذَرِّكُهُ بِرَحْمَتِهِ. وَالرَّحْمَةُ فِي الْآخِرَةِ هِيَ الْعَفْوُ عَمَّا لَزِمَهُ، وَوَجِبَ عَلَيْهِ.

مَسْأَلَةٌ، تَكَلَّمُوا فِيهَا: مَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى إِبْلِيسَ مَعَ عَلَيْهِ مَا يَكُونُ مِنْهُ مِنْ إِفْسَادِ خَلْقِهِو والدعاء إلى المعاصي وإنظاره ﴿إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُنْظَرُ لِيُفْسِدَ عِبَادَهُ، ؟ فَمَعَ مَا عَلِمَ مَا يَكُونُ مِنْهُ، فَمَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِهِو؟.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وله. (٣) في الأصل وم. وقصة. (٤) في الأصل وم. بعد الا. (٥) في الأصل وم. وأمثلة. (٦) في الأصل وم. كذلك. (٧) في الأصل وم. القائم.

قَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَ إِبْلِيسَ وَأَهْلَ الْمَعَاصِي مَعَ عِلْمِهِ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ وَلَا لِحَاجَةِ نَفْسِهِ، وَأَنَّ مَعَاصِيَهُمْ ^(١) لَا تَضُرُّهُ، وَلَا تُدْخِلُ نَقْصَانًا فِي مُلْكِهِ. فَخَلَقَهُ مَعَ عِلْمِهِ لِمَا يَكُونُ مِنْهُ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ لِمَنَافِعِ نَفْسِهِ وَلَا لِحَاجَتِهِ وَلَكِنْ لِمَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ وَلِحَاجَاتِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَ الْأَعْدَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ نَظَرًا لِلْأَوْلِيَاءِ، لِيُعْلَمَ أَوْلِيَاؤُهُ الْإِخْتِصَاصَ الَّذِي اخْتَصَّهُمْ بِهِ، وَلَوْ كَانُوا جَمِيعًا أَوْلِيَاءَهُ لَمْ يَعْرِفُوا فَضِيلَةَ اللَّهِ وَإِخْتِصَاصَهُ بِإِيَّاهُمْ. وَهَكَذَا النِّعَمُ وَإِحْسَانُ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِنَفْسِ النِّعَمِ وَنَفْسِ الْإِحْسَانِ، وَإِنَّمَا تُعْرَفُ بِالْبَلَايَا وَالشَّدَائِدِ الَّتِي تَحُلُّ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوْلِيَاءُ؛ لَوْلَمْ يَكُنِ الْأَعْدَاءُ لَمْ يَعْرِفُوا إِخْتِصَاصَ اللَّهِ لَهُمْ وَفَضَائِلَهُ الَّتِي أَكْرَمَهُمْ بِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَ الْأَعْدَاءَ نَظَرًا لِلْأَوْلِيَاءِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، لَكِنْ مِنْ وَجْهِ آخَرَ: وَأَضْلَهُ أَنَّ اللَّهَ ۞ جَائِزٌ أَنْ يَنْشِئَ أَشْيَاءَ فِيهَا حِكْمَةٌ وَسِرِّيَّةٌ، لَا يَتْلُغُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ، وَلَا تُذَكِّرُهَا حِكْمَةُ الْبَشَرِ عَلَى مَا جَعَلَ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ، فِيهَا حِكْمَةٌ مَعْنَى، لَا يَتْلُغُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ وَلَا حِكْمَةُ ^(٢) الْبَشَرِ. وَكَذَلِكَ الْبَلَايَا وَالشَّدَائِدُ، فِيهَا حِكْمَةٌ، لَا يَتْلُغُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنَّهُ خَلَقَ إِبْلِيسَ وَالْعَصَاةَ وَالْعُتَاةَ لِجَحْمَتِهِ، جَعَلَ فِي ذَلِكَ حِكْمَةً، لَا يَتْلُغُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ، وَلَا تُذَكِّرُهَا حِكْمَةُ الْبَشَرِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالشَّدَائِدِ الظَّاهِرَةِ.

وَأَضْلَهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُمْ، يَغْصُونَ، وَيُعَادُونَ، لَكِنْ [مَكَّنَ لَهُمْ] ^(٣) مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِثَارِ مَا بِهِ نَجَاتُهُمْ وَهَلَاكُهُمْ إِذَا اخْتَارُوا / ٢٧٧ - أ. ذَلِكَ. فِإِذَا اخْتَارُوا مَا بِهِ نَجَاتُهُمْ نَجَّوْا، وَإِذَا اخْتَارُوا مَا بِهِ هَلَاكُهُمْ هَلَكُوا، فَيَكُونُ هَلَاكُهُمْ بِإِخْتِيَارِهِمْ وَنَجَاتُهُمْ بِإِخْتِيَارِهِمْ.

وَأَضْلَهُ مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ أَنْشَأَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِيَمْتَحِنَهُمْ فِيهَا، وَفِي خَلْقِ مَا ذَكَرَ مِنْ إِبْلِيسَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَعْدَاءِ لِيَمْتَحِنَهُمْ فِيهَا. وَفِي تَرْكِ خَلْقِ ذَلِكَ ذَهَابَ الْمِخْنَةِ، وَهِيَ دَارُ الْإِمْتِحَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِلَى النِّفْخَةِ الْأُولَى. وَقِيلَ: إِلَى النِّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَنَحْوُهُ. لَكِنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ. وَكَانَهُ تَعَالَى أَنْظَرَهُ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُ ذَلِكَ الْوَقْتُ، وَلَمْ يُظْلِمْنَاهُ عَلَيْهِ حِينَ ^(٤) قَالَ: ﴿وَإِنْ جَاءَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَيْتِ الْفُتَيَانِ لَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] أَخْبَرَ أَنَّهُ يَرَى مَا لَا يَرُونَ هُمْ، وَأَنَّهُ يَخَافُ اللَّهَ. وَلَوْ كَانَ بَيِّنَ لَهُ الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ لَكَانَ لَا يَخَافُ هَلَاكَهُ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ.

فهذا يدلُّ على ما ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؟

الآية ٣٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أَيَّ لَعْنَتِي، وَهَذَا مِنْهُ اخْتِيَالٌ وَفَرَارٌ عَنْ مَذْهَبِ الْإِغْوَاءِ وَمَا يُلْزِمُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ يُلْزِمُ فِي قَوْلِهِ: لَعْنَتِي، لِأَنَّ اللَّعْنَ هُوَ الطَّرْدُ، فَإِذَا طَرَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ فَقَدْ خَذَلَهُ فِي الطَّرْدِ. وَالْإِغْوَاءُ وَالْإِضْلَالُ سَوَاءٌ؛ فَيُلْزِمُ فِي اللَّعْنِ مَا يُلْزِمُهُمْ فِي الْإِغْوَاءِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصْمُ: الْإِغْوَاءُ وَاللَّعْنُ مِنَ اللَّهِ شَتْمٌ. لَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ؛ لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَى اللَّهِ الشَّتْمُ [وَلَا يُعَال] ^(٥) إِنَّهُ يَشْتُمُ؛ لِأَنَّ الشَّتْمَ وَالسَّابَّ لِآخَرَ فِي الشَّاهِدِ بِمَا يَشْتُمُهُ مَذْمُومٌ عِنْدَ الْخَلْقِ. فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَى اللَّهِ مَا بِهِ يَذَّمُ.

وَأَضْلَهُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ خَلَقَ فَعَلَ الْغَوَايَةَ مِنْهُ، أَوْ أَغْوَاهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْغَوَايَةَ وَالضَّلَالَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ فِي الْغَوَايَةِ بِمَا أَغْوَيْتَنِي. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا وَأَمْثَالَهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قَوْلُ إِبْلِيسَ وَهُوَ كَاذِبٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ، قِيلَ: [لَوْ كَانَ] ^(٦) فِي مَا أَضَافَ إِلَيْهِ الْإِغْوَاءَ كَاذِبًا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعَاصِيهِ. (٢) فِي م: حَكَم. (٣) فِي الْأَصْلِ: كُنْ، فِي م: كُنْ لَهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

لَكَذِبُهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ [كَمَا كَذَّبَهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ^(١)]: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»^(٢) [الأعراف: ١٢، ص ٧٦ حين^(٣)]. «قَالَ قَامِقُظٌ مِنْهَا نَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا» [الأعراف: ١٣] فلما لم يردَّ عليه، ولم يكذِّبْهُ فِي مَا أَضَافَ إِلَيْهِ حَرْفَ الإِغْوَاءِ. دَلَّ أَنْ [إِضَافَةَ الإِغْوَاءِ وَالِإِضْلَالِ إِلَيْهِ]^(٤) حَقِيقَةً، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» إِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ ذِكْرٌ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ حِينَ^(٥) أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَهُ مِمَّا هُوَ أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ مِمَّا خَلَقَ آدَمَ، فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرِجَ الشُّكْرِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» لَيْسَ عَلَى ذَلِكَ فَلَا يُحْتَمَلُ إِلَّا يُكَذِّبُهُ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ إِذَا كَانَ كَاذِبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ فَعَلَ شَرًّا أَضَافَهُ إِلَيْهِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ الإِغْوَاءُ، لِذَلِكَ اخْتَلَفَا؛ أَيِ لَوْ كَانَ قَوْلُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ كَذِبًا فَمَا تَضَعُونَ بِقَوْلِ نُوْحٍ ﷺ حِينَ^(٦) قَالَ: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» [هود: ٣٤] [وقول موسى حين قال: ^(٧) «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»؟ [الصف: ٥].

الآية ٤٠ ثم قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ» [إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ] يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ عَزَمٌ عَلَى مَا ذَكَرَ دُونَ أَنْ يَتَفَوَّهَ بِذَلِكَ. فَأَخْبَرَهُ ﷺ عَمَّا كَانَ عَزَمَ مِنَ الإِغْوَاءِ وَغَيْرِهِ بِالْقَوْلِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ، يُخْبِرُ عَنِ الْعَزَمِ وَالْقَصْدِ كَقَوْلِهِ: «إِنَّمَا ظَنَنْتُكُمْ لِيَّيْتِ اللَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا» [الدهر: ٩] لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ قَوْلًا مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ مِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ يَقُولُ بِعَمَلٍ ذَلِكَ عِنْدَ التَّصَدُّقِ، لَكِنَّهُ إِخْبَارٌ عَمَّا قَصَدُوا، وَعَزَمُوا، بِالتَّصَدُّقِ. فَعَلَى ذَلِكَ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ اللَّهِ إِخْبَارًا عَمَّا عَزَمَ إِبْلِيسُ، وَقَصَدَ، عَلَى غَيْرِ التَّقَوُّوْ بِهِ وَالْقَوْلِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» [المائدة: ٩٩، والنور: ٢٩] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَتَمُوا فِيهِ، وَأَضْمَرُوا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّقَوُّوْ بِمَا ذَكَرَ لَمَّا قَالَ لَهُ ﷺ: «وَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ يَا بَوَّالَ الَّذِينَ» [الحجر: ٣٥] لَمَّا شَهِدَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِاللُّغْنِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أَيْسَ لَعَنَهُ اللَّهُ عَنِ الْهُدَى، فَقَالَ: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» لَعَنَتْنِي، وَشَهِدْتَ عَلَيَّ بِذَلِكَ «لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ» [إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ] [بَنَصْبِ اللَّامِ هُوَ الَّذِي أَخْلَصَهُ اللَّهُ، وَحَفِظَهُ، وَغَصَصَهُ، وَاخْتَصَّهُ بِذَلِكَ، وَالْمُخْلَصُونَ^(٨)]: لَا يُقَالُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِيهِمْ صُنْعٌ، وَلَهُمْ اخْتِصَاصٌ وَقَصَائِلُ، اخْتَصَّهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ^(٩) وَفَضْلِهِ.

[وَالْمُخْلَصُ^(١٠) بِخَفْضِ اللَّامِ هُوَ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ الإِغْتِقَادَ وَالْعَمَلَ وَالِدَعَاءَ^(١١)].

وَالْمُعْتَرِزُ يَقُولُونَ: لَا يَسْتَوْجِبُ أَحَدُ الإِخْتِصَاصِ وَالْفَضِيلَةِ إِلَّا بِفِعْلٍ يَكُونُ مِنْهُ، لَا يَسْتَوْجِبُ بِاللَّهِ. يَقُولُونَ: اللَّهُ لَا يُغْوِي أَحَدًا إِلَّا إِبْلِيسَ وَلَا وَاحِدًا مِنْ أَتَابِعِهِ. فإِبْلِيسُ أَغْرَفَ بِاللَّهِ مِنَ الْمُعْتَرِزِ [حِينَ رَأَى^(١٢) أَنْ اللَّهَ لَا يُغْوِي أَحَدًا، وَلَا يَخْتَصُّ أَحَدًا إِلَّا بِصُنْعٍ يَكُونُ مِنْهُ.

الآية ٤١ وقوله تعالى: «قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ» قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: «عَلَيَّ» بِمَعْنَى إِلَيَّ أَيِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛ يَقُولُ: هُوَ بِيَدِي، لَيْسَ بِيَدِ أَحَدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَقُّ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ، لَا يَتَوَجَّعُ عَلَى شَيْءٍ. وَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ: «عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ» أَيِ عَلَيَّ بَيَانُهُ، وَهُوَ مُسْتَقِيمٌ كَقَوْلِهِ: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» [النحل: ٩] أَيِ بَيَانُ قَصْدِ السَّبِيلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ «وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ» يَقُولُ: عَلَيَّ مَمَرٌ مِنْ أَغْوِيَتِهِ، وَتَابِعُكَ كَقَوْلِكَ^(١٣) لَا خَيْرَ إِذَا أَوْعَدْتَهُ: إِنَّ طَرِيقَكَ عَلَيَّ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» يُحْتَمَلُ قَوْلُهُ: «لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» أَيِ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ «إِلَّا مَنْ أَتَىكَ مِنَ الصَّائِرِينَ» فَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَكَ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كذا، وخلفته في كذا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الإضافة إليه الإغواء والإضلال. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وقال موسى. (٨) في م، والمخلص، مدرجة بعد الدعاء، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: والمخلص. (١٠) في الأصل وم: بذلك رحمة الله. (١١) في م: المخلص. (١٢) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٢٥٤. (١٣) في الأصل وم: حيث رأوا. (١٤) في الأصل وم: كقوله.

وَيُخْتَلِ قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تَقْهَرُهُمْ، وَتَضْطَرُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَكَ عَلَى غَيْرِ قَهْرٍ وَاضْطِرَارٍ، أَيْ مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَتَّبِعَكَ، وَيَخْتَارَ الْغَوَايَةَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إغْوَاؤُكَ إِيَّاهُ، فَإِنَّ لَكَ عَلَيْهِ سُلْطَانًا.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَتَمِينَ﴾ أَيْ لَمَوْعِدُ إِبْلِيسَ وَاتَّبَاعِهِ.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعَتْ أَبْوَابُ﴾ تَخْتَلِ الْأَبْوَابِ الْمَعْرُوفَةِ، وَتُخْتَلِ الْأَبْوَابِ الْمَوَارِدِ وَالْجِهَاتِ الَّتِي تَكُونُ

لَهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾؟ فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَبْوَابِ الْمَوَارِدِ وَالْمَوَارِدَاتِ لَا نَفْسُ الْأَبْوَابِ؛ إِذْ «جُزْءٌ مَقْسُومٌ» إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمَوَارِدَاتِ، لَا يَكُونُ لِلْأَبْوَابِ نَفْسِهَا.

قَالَ الْحَسَنُ وَالْأَصَمُّ: ﴿لَمَّا سَمِعَتْ أَبْوَابُ﴾ يَغْنِي بِالْأَبْوَابِ الطُّبَقَاتِ وَالْمَوَارِدَاتِ ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ لِلْيَهُودِ بَابٌ، وَلِلصَّابِيِّينَ^(١) بَابٌ، وَلِلْمَجُوسِ بَابٌ، وَلِلَّذِينَ أَشْرَكُوا بَابٌ، وَلِلْمُنَافِقِينَ بَابٌ، وَلِلْأَهْلِ الْكِبَائِرِ بَابٌ. وَذَكَرَ^(٢) أَيْضًا بَابًا لِغُرَيْبٍ أَدْخَلَ^(٣) أَهْلَ الْكِبَائِرِ [فِيهِ وَالنَّصَارَى]^(٤) وَالذَّهْرِيَّةَ.

وَعِنْدَنَا أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ فِي الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. وَالْغَاوُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا غُرَيْبَتْهُمْ﴾ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَسَمِعَتْ^(٥) الْأَبْوَابُ الَّتِي ذَكَرَ كُلُّهَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ، لَا يَدْخُلُ أَهْلُ الْكِبَائِرِ فِيهَا.

وَيُخْتَلِ بَابٌ لِلْمُتَجَاهِلَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْعَالَمَ الشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ، وَلَا يَقْرُونَ بِشَيْءٍ، وَبَابٌ لِلذَّهْرِيَّةِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الصَّانِعَ، وَبَابٌ لِلتَّوْبَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْإِثْنَيْنِ، وَبَابٌ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَهُمْ يَقُولُونَ بِالْوَاحِدِ، لَكِنِّهِمْ يُشْرِكُونَ فِيهِ غَيْرُهُ، يَغْبِلُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، وَبَابٌ لِلْيَهُودِ، وَبَابٌ لِلنَّصَارَى، وَبَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ. فَتِلْكَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ. وَلَيْسَ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مُسَمًى مَعْلُومٌ، إِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ التَّوْبَتَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ إِنْ كَانَ أَهْلُ الْكِبَائِرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا سَمِعَتْ أَبْوَابُ﴾ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ التَّوْبَتَيْنِ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكِبَائِرَ، وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ^(٦) ٢٧٧ ب/ الْكِبَائِرِ لَمْ يَدْخُلُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا سَمِعَتْ أَبْوَابُ﴾ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ التَّوْبَتَيْنِ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرْكَ.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ أَيْ بَسَاتِينٍ. وَالْبَسَاتِينُ هِيَ الَّتِي تَقُتُّ بِالْأَشْجَارِ وَالنَّخِيلِ، وَالْعُيُونُ قَدْ تَكُونُ جَارِيَةً فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ جَارِيَةٍ. فَأَخْبَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ عُيُونَ الْآخِرَةِ تَكُونُ جَارِيَةً بِقَوْلِهِ: ﴿يَسَاءَ عَيْنَاكَ يَحْيَىٰ﴾ [الرَّحْمَنِ: ٥٠].

[وقوله تعالى^(٧)]: ﴿وَعُيُونٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ الْعُيُونَ لِغُلَامٍ أَنَّ مِيَاهَ الْجَنَّةِ لَيْسَتْ تَكُونُ مِنَ التَّلَوُّجِ وَالْإِنْهَارِ الْعِظَامِ عَلَى مَا تَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ تَنْتَبِعُ فِيهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ الْعُيُونَ لِأَنَّهُ يَنْتَبِعُ فِي بُسْتَانٍ كُلِّ أَحَدٍ عَيْنٌ عَلَى جِدَّةٍ، لَا تَأْتِي بُسْتَانَهُ^(٨) مِنْ مَلِكٍ آخَرَ وَمِنْ بُسْتَانٍ آخَرَ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ تَنْتَبِعُ فِي جَنَّةٍ كُلِّ أَحَدٍ عَيْنٌ عَلَى جِدَّةٍ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ، لَيْسَ أَنَّهَا تَقْصِلُ بِالْأَرْضِ كَمَا ذَكَرَ فِي قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا مِئَتَةَ عَيْنٍ﴾ [البقرة: ٦٠] أَنْ [شَاءَ]^(٩) اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْحَجَرِ مَاءً، يَخْرُجُ لَهُمْ عَلَى غَيْرِ اتِّصَالِهِ بِالْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ يَنْشِئُ فِيهِ مَاءً، فَعَلَى ذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ.

وُثِبَهُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا لِمَا تَخْتَلِفُ رِغَائِبُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا: مِنْهُمْ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَيْنِ^(١٠)، وَيَتَلَذَّذُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْغَبُ فِي النَّهْرِ الْجَارِي، فَذَكَرَ مَرَّةً الْعُيُونَ وَمَرَّةً الْإِنْهَارَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥ و.].

(١) فِي م: وَلِلنَّصَارَى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَكَرَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَدْخَلُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ: فِيهَا وَالنَّصَارَى، فِي م: فِيهَا وَالصَّابِيِّينَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَالسَّبْعَةُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بَسْتَانٍ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الدُّنْيَا.

على ما ذَكَرَ مَرَّةَ الْخِيَامِ وَالْقِيَابِ [وَمَرَّةً^(١)] الْغُرَفِ وَأَنْوَاعِ الْفُرُشِ وَالْبُسُطِ وَالْكِيزَانِ وَالْأَكْوَابِ وَالْجَوَارِي وَالْغِلْمَانَ وَغَيْرَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَرَعِبُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا: مِنْهُمْ مَنْ يَرَعِبُ فِي نَوْعٍ [لَا يَرَعِبُ فِي نَوْعٍ^(٢)] آخَرَ، فَذَكَرَ فِيهَا كُلَّ [مَا]^(٣) يَرَعِبُونَ فِي الدُّنْيَا لِيَعْنَتَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا بِسَلَامٍ ؕ أَيْنِيتُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿ادْخُلُوا بِسَلَامٍ﴾ أَيِ اجْعَلُوا دُخُولَكُمْ فِيهَا بِسَلَامٍ عَلَى مَا أَمَرَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَجْعَلُوا الدُّخُولَ فِي الْمَنَازِلِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً﴾ [النور: ٦١] وَعَلَى مَا أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ يُبَشِّرُ﴾ [الزمر: ٧٣] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَيُنَبِّئُهُمْ عَنْ صَتِيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ [الحجر: ٥١ و ٥٢].

وقال بعضهم: قَوْلُهُ: ﴿ادْخُلُوا بِسَلَامٍ﴾ أَيِ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ، لَا يُصِيبُكُمْ مَكْرُوهٌ ﴿أَيْنِيتُمْ﴾ لَا يَنْغُصُكُمْ خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ عَلَى مَا أَخْبَرَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ و...].

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ الْمُنْتَقِبُ فِي جَنَّتِ وَيُتَبَوَّنُ﴾ [الحجر: ٤٥] أَيِ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْغِلِّ^(٤) الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا بِالْكَفْرِ^(٥) فَصَارُوا [إِخْوَانًا] بِالْإِسْلَامِ الَّذِي هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَكَانُوا إِخْوَانًا.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِلَا غِلٍّ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِمَعِيَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قَدْ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الْغِلَّ فِي الدُّنْيَا، فَصَارُوا إِخْوَانًا، فَدَخَلُوا الْجَنَّةَ.

وقال بعضهم: قَوْلُهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، وَتَقَابَلُوا، وَاتَّكَبُوا عَلَى سُورٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْزِعُ الْغِلَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَالْمِظَالَمَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ بَيْنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وعلى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: مَنْ جَفَا آخَرَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَنْسَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ^(٦) فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْجَفَاءِ يَنْقُصُ النِّعَمَ الَّتِي فِيهَا. وَكَذَلِكَ مَا يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَوَلَدِهِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعُقُوقِ، يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى [اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمَا]^(٧). وَعَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ.

وقوله^(٨) تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُورٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَجْعَلُ اللَّهُ مَنَازِلَهُمْ بَعْضًا مُقَابِلَ بَعْضٍ، فَيَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَيَزُورُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وقال بعضهم: بِأَمْرِ اللَّهِ السُّرُورُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا جُلُوسٌ لِيَكُونَ بَعْضُهُمْ مُقَابِلَ بَعْضٍ؛ إِذَا اشْتَهَى بَعْضُهُمْ زِيَارَةَ بَعْضٍ، وَلَا يَكُونُونَ مُذْبِرِينَ وَلَا مُغْرِضِينَ بِلِ مُقَابِلِينَ. يُخْبِرُ عَنِ اجْتِمَاعِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فِي الشَّرَابِ وَأَنْوَاعِ الْمَطَاعِمِ عَلَى مَا يَسْتَحْسِنُ فِي الدُّنْيَا الْإِخْوَانُ بَيْنَهُمْ الْاجْتِمَاعَ عَلَى الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ وَالتَّلَذُّذِ وَالنَّظَرِ، بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

فَعَلَى ذَلِكَ أَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ اجْتِمَاعاً فِي الشَّرَابِ وَالنَّظَرِ وَأَنْوَاعِ التَّلَذُّذِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَسَبٌ﴾ أَيِ عَنَاءٍ وَمَشَقَّةٍ. أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا عَنَاءَ يَمَسُّهُمْ كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ فِي الدُّنْيَا مَنْ أَطَالَ الْمَقَامَ فِي مَوْضِعٍ يَمَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْأَمُ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَكْثَرَ مِنْ نَوْعٍ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ وَالْفَاكِهَةِ يَمَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْأَمُ، وَيُؤْذِيهِ، وَلَا يُؤَافِقُهُ. فَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَمَلُّونَ، وَلَا يُؤْذِيهِمْ طَعَامُهُمْ وَإِنْ أَكْثَرُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِتَنَابُؤٍ مُتَحَرِّجِينَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَلَا هُمْ يَطْلُبُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَّقُونَ عَنَابَ حَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] لِأَنَّ خَوْفَ زَوَالِ النِّعْمَةِ يَنْقُصُ عَلَى صَاحِبِهَا تِلْكَ النِّعْمَةَ وَطَعْمَهَا، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ فِيهَا أَبَدًا، وَتِلْكَ النِّعْمَةُ لَهُمْ دَائِمَةٌ غَيْرُ زَائِلَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: غِلٌّ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فِي الْكَفْرِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ عَلَيْهِمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ اللَّهُ.

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿يَعِزُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال بعضهم: ﴿يَعِزُّ عِبَادِي﴾ أي أخصبهم ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لِمَنْ اسْتَغْفَرَنِي، وتاب عما ارتكب من معاصيه.

الآية ٥٠ [وقوله تعالى] ^(١): ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لِمَنْ عصاني، ولم يستغفر، ولم يثب إلي ^(٢).

ويختل غير هذا، وهو أن يقول: ﴿يَعِزُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لئلا يئاسوا من رحمتي، ولا يقتطوا مني، ولكن يرجون رحمتي وعفوه، ويخافون عذابه ونقمتي، ويثبتهم أيضاً: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لئلا يكونوا ^(٣) آمينين أبداً. فيكون فيه أمر بأن يبشروا وأن يندبروا، كأنه قال: بشروا أوليائي ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لأوليائي ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ لأعدائي.

وفي قوله: ﴿يَعِزُّ عِبَادِي﴾ بشارة ^(٤) ونذارة. أما البشارة فهي ^(٥) قوله: ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأما النذارة فهي ^(٦) قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي نبئ قومك عن صيف إبراهيم، أي نبئهم بتمام ما فيه من الرجز والمعرة، لأن في ذلك إخبار ما نزل بالمكذبين بتكذيبهم الرسل، وهو الإهلاك ونجاة من صدق الرسل. ففيه تمام ما يزجرهم، ويعظمهم من الترهيب والترغيب.

فإن فيهم آية لرسالتك ونبوتك لأنه يخبرهم على ما في كتبهم، لم يشهدوا هو، فبدلهم أنه إنما عرف ذلك بالله، أو يثبتهم، فإن ذلك ما يزجرهم عن مثل صنيعهم.

وفيه ذكر نعم الله لأنهم جاؤوا بالبشارة بشارة الولد، وجاؤوا بإهلاك قوم مجرمين. فذلك بالذي يزجرهم عن مثله، والبشارة ترغبهم في مثل صنيع إبراهيم، فتثبتهم، فإن ^(٧) فيه ما ذكرنا.

ودل ^(٨) قوله: ﴿صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أن الصيف اسم كل نازل على آخر، طعم عنده، أو لم يقطع، وكان نزوله للطعام أو لا.

الآية ٥٢ وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي سلموا على إبراهيم، فرد إبراهيم السلام عليهم.

وقال أبو بكر الأصب: السلام: جعله الله اماناً بين الخلق وعطفاً في ما بينهم وسبباً لإخراج الضغائن من قلوبهم. وقال بعضهم: جعل الله السلام تحية كل داخل على آخر، وهو ما ذكرناه. وقال بعضهم: السلام هو اسم كل خير وبركة كقوله: ﴿لَا يَسْمُونَ فِيهَا لِقَاءَ إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢] والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَهْلُونَ﴾ أي خائفون. قال بعض أهل التأويل: إنما خاف لأنه ظن أنهم لصوص وأهل رزية. لكن هذا [لا] ^(٩) يَحْتَمِلُ أن يخاف منهم، ويظن أنهم لصوص وأهل رزية، وقد سلموا عليه وقت ما دخلوا عليه، واللصوص وأهل الرزية إذا دخلوا بيت آخر، لا يسلمون عليه، لكنه إنما خافهم إذ ^(١٠) رأى أيديهم لا تصل إليه كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] عند ذلك خافهم. فلما رأى ذلك / ٢٧٨ - / ظن إبراهيم أنهم ملائكة إنما جاؤوا لأمر عظيم حين ^(١١) لم يتناولوا مما قرب إليهم، وبين إبراهيم وبين المكان الذي يرتحل منه مكان تقع لهم الحاجة إلى الطعام.

الآية ٥٣ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْحَلْ﴾ أي لا تحف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾ كقوله ^(١٢) في آية أخرى ﴿فَبَشِّرْنَهُ بِمَلِكٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] والجلم هو الذي ينفي عن صاحبه كل أخلاق دنية، والعلم هو الذي يدعو صاحبه إلى كل خلق رفيع ليُعلم أنه اجتمع فيه جميع الخصال الرفيعة، ونفى عنه كل خلق دني.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليه. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) من م، في الأصل: وقال. (٨) الواو ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إذا. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وقال.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ابْشِرُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي ابشُرْتُمُونِي أَنْ يُولَدَ لِي، وأنا على الحال التي أنا عليها؟ أَوْ يُرَدُّ إِلَيَّ شَبَابِي وَشَبَابُ امْرَأَتِي ﴿فَيَدَّبَّرُونِي﴾ على الحال التي أنا عليها وامرأتي؟ أَوْ يُرَدُّ الشَّبَابُ إِلَيَّ. وإلا لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ قَدْرَةُ اللَّهِ [على^(١)] هَبَّةَ الْوَلَدِ فِي حَالِ الْكِبَرِ، لكنه لم يَرِ الْوَلَدَ^(٢) يُولَدُ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَاسْتَحْبَرَهُمْ أَنَّهُ يُولَدُ فِي تِلْكَ الْحَالِ، أَوْ يُرَدُّ إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى حَالِ الشَّبَابِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بما هو كائن، لا محالة، والواجب على كل من أنعم عليه أَنْ يَشْتَغِلَ بِالشُّكْرِ لِلنِّعَمِ، لَا يَسْتَكْشِفُ عَنِ الْوَجْهِ الَّتِي أَنْعَمَ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا.

ثم في الإشارة بالوَلَدِ بِإِشَارَتَانِ: إحداهما^(٣): بِإِشَارَةِ بِالْغَلَامِ، والثانية^(٤): بِالْبَقَاءِ وَالْبُلُوغِ إِلَى وَقْتِ الْعِلْمِ حِينَ^(٥) قَالُوا ﴿إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو ما قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَيُعَلِّمُ الْإِنْسَانَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] ففي قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ دَلَالَةٌ وَإِشَارَةٌ أَنَّهُ يَبْقَى إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَهْلًا، وَإِلَّا الْكَهْلُ يَضَعُفُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ نُهُوا عَنْ أَشْيَاءَ، قَدْ عُصِمُوا عَنْهَا مَا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَا نُهُوا عَنْهُ نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧ و...]. [وقوله^(٦)]: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤ و...]. [وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾]^(٧) [يونس: ١٠٦] [وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾] [هود: ٤٢] وأمثاله. وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَوَهَّمُ كَوْنُهُ مِنْهُمْ. وَذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْعَصْمَةَ لَا تَرْفَعُ الْمِحْنَةَ، لَأَنَّهُ لَوْ رُفِعَتْ لَذَعَبَتْ فَائِدَةُ الْعِصْمَةِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْمِحْنَةِ. فَأَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنْ مِحْنَةً فَلَا حَاجَةَ^(٨) إِلَيْهَا.

فَعَلَى ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ لَمْ يَكُنْ قَنِطٌ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ، إِذْ^(٩) لَا يَهَبُ لَهُ الْوَلَدُ فِي كِبَرِهِ، وَلَكِنْ مَا ذَكَرْنَا.

الآية ٥٦

ثم يَبَيِّنُ أَنَّهُ لَا ﴿يَقْطَعُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الْقُنُوطَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ الْقُنُوطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، هُوَ ضَلَالٌ، وَالْإِبَاسَ مِنْ رَحْمَتِهِ كَفَرٌ.

وَالْمَعْتَزِلَةُ يَقْطَعُونَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ لِقَوْلِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ مَا يَقُولُونَ [فَعِنْدَهُمْ تَضِيقُ رَحْمَتُهُ حَتَّى لَا تَسْعَ فِيهَا الْكِبَائِرُ]^(١٠).

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قِيلَ: فَمَا خَبَرُكُمْ وَمَا قَصْتُكُمْ؟ وَمَا شَأْنُكُمْ؟ وَالْخَطْبُ الشَّأْنُ، أَيْ عَلَى أَيْ أَمْرٍ وَشَأْنٍ أُرْسِلْتُمْ؟

الآية ٥٨

﴿قَالُوا إِنَّا أَنْبِيَاءُ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ لَمْ يُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ مَا أَخْبَرُوا إِبْرَاهِيمَ، وَقَالُوهُ، هَذَا، وَلَكِنْ كَانَ فِيهِ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى قَالُوا: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ مَذْيَاقِ الْقَرْيَةِ الَّتِي أَنْبَأْنَا أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] وقالوا^(١١): ﴿إِنَّا مُزِيلُونَ عَلَى أَهْلِ مَذْيَاقِ الْقَرْيَةِ رِجْرَاءَ تِلْكَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤] فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢].

يَذْكُرُ هُنَا عَلَى الْإِخْتِصَارِ. فَذَلِكَ يَدُلُّ أَنَّ الْخَبَرَ إِذَا أَدَّى مَعْنَاهُ يَجُوزُ، وَإِنْ لَمْ يُوْتِ بِلَفْظِهِ عَلَى مَا كَانَ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْبِيَاءُ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ كَأَنَّ الثَّنِيَا هُنَا تَكُونُ عَنِ الْأَشْخَاصِ وَأَنْفُسِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ [لَا]^(١٢) عَنْ قَوْلِهِ ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ لِأَنَّ آلَ لُوطٍ لَمْ يَكُونُوا مُّجْرِمِينَ، فَلَا يُحْتَمَلُ الْإِسْتِثْنَاءُ مِنْ ذَلِكَ. أَوْ لَا يَكُونُ عَلَى حَقِيقَةِ الثَّنِيَا، وَإِنْ كَانَ فِي الْخَبَرِ اسْتِثْنَاءٌ.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُجْرِمُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَهْلِكُونَ قَوْمَهُ، ثُمَّ اسْتَشْنَى آلَهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَمْرَأَتَهُ مِنْ آلِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوالد. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تقع. (١٠) في م: أنه. (١١) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم: والمعتزلة. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ففيه دلالة أن الثنيا ليس برجوع؛ لأنه لو كان [رجوعاً لكان] ^(١) يوجب الكذب في الخبر. ولكن في الثنيا بيانٌ تحصيل المراد مما أُجِيبَ في اللفظ.

وفيه دلالة أيضاً أنه يجوز أن يُسْتَنْشَى مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ، لأنه استثنى امرأته من آله بقوله: ﴿إِلَّا نَالَ لُوطٌ إِنَّا لَنَجُوعُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٢) ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ فَجُعِلَتْ ^(٣) المرأة من قومه حين ^(٤) استثنائها من آله.

وفيه أنه قد يجوز أن يُسْتَنْشَى مِنْ خِلَافِ نَوْعِهِ، لأنه استثنى آل لوط من قومه، والمُجَرَّمُ لَيْسَ مِنْ نَوْعِ الصَّالِحِ، ثم استثنى امرأته من آله، وهي ليست منهم.

وفيه أيضاً أن آل الرجل يكون أتباعه حين ^(٥) استثنى آله منهم، يُدْخِلُ فِيهِ مَنْ تَبِعَهُ.

الآ تَرَى أَنَّهُ قَالَ: آلَ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّمَا هُمْ أَتْبَاعُهُ، وَآلَ مُوسَى وَآلَ هَارُونَ وَآلَ عِمْرَانَ: كُلُّ يَرْجِعُ إِلَى أَتْبَاعِهِمْ؟ فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِمْ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كُلُّ مَنْ تَبِعَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدْزَنَّا إِنَّمَا كُنَّ الْقَتِيلَاتُ﴾ قال أبو بكرٍ الأصم: ﴿قَدْزَنَّا إِنَّمَا﴾ أي اخْبَرْنَا. لكن هذا منه اختيالٌ على تَقْوِيَةِ مَذْهَبِ الْإِعْزَالِ: إِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُ الْعَبِيدِ مُقَدَّرَةً لِلَّهِ مَخْلُوقَةً، فَبِذَلِكَ دَلَالَةٌ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ مُقَدَّرَةٌ لَهُ. وَأَضْلُهُ: أَي قَدْزَنَّا بِقَاءِهَا مِنَ الْأَصْلِ.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الْقَتِيلَاتُ﴾ أي الباقيات. قال أبو عَوَسَجَةَ: الْغَابِرُونَ الْبَاقُونَ، وَالْغَابِرُونَ الْمَاضُونَ أَيْضاً؛ يُقَالُ: غَبَرَ يَغْبُرُ غَبْرًا إِذَا بَقِيَ، وَإِذَا مَضَى أَيْضاً.

الآيَتَانِ ٦١ وَ ٦٢ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْكِرُونَ﴾ أي إنكم مُنْكَرُونَ، لَا تُعْرِفُونَ بِأَهْلَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ. وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ هَذَا لِأَنَّ قَوْمَهُ ^(٦) إِنَّمَا يَعْمَلُونَ مَا يَعْمَلُونَ بِالْغُرَبَاءِ، لَا يَعْمَلُونَ بِأَهْلِ الْبَلَدِ.

الآ تَرَى أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْقَتِيلَاتِ﴾ [الحجر: ٧٠] أَنْ تُضَيِّفَ أَحَدًا مِنْهُمْ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيَةُ ٦٣ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَاءٍ كَاثِرٍ يَسْتَرْوُكُ﴾ هذا ليس بجواب لما سَبَقَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْكِرُونَ﴾ ولكن قالوا ذلك له، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَ لُوطٍ وَبَيْنَ قَوْمِهِ مُجَادَلَاتٍ وَمُخَاصَمَاتٍ: مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ^(٧): ﴿قَالَ إِنَّ هَذِهِ سَبِيلِي فَلَا تَنْصَحُونِي﴾ ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي﴾ [الحجر: ٦٨ و ٦٩] وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمُخَاصَمَاتِ. وَقَدْ كَانَ لُوطٌ يَعِدُّهُمْ الْعَذَابَ بِصَنِيعِهِمْ الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَلِذَلِكَ قَالُوا لَهُ: ﴿قَاتِنًا يَكَا تَمِدَّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. فَبَعْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿بَلْ جِئْتَنَا بِمَاءٍ كَاثِرٍ يَسْتَرْوُكُ﴾.

قال بعضهم: بما كانوا فيه يَشْكُونَ بما كان يَعِدُّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. وقال بعضهم: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَرْوُكُ﴾ يُجَادِلُونَ، وَيُنَازِعُونَ. أَوْ يَقُولُ: ﴿بَلْ جِئْتَنَا بِمَاءٍ كَاثِرٍ يَسْتَرْوُكُ﴾ بِجَزَاءِ مَا ﴿كَانُوا فِيهِ يَسْتَرْوُكُ﴾.

ثم امْتَرَأَوْهُمْ يَحْتَمِلُ مُجَادَلَتَهُمْ إِيَّاهُ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّيَّةِ.

الآيَةُ ٦٤ وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ قال بعضهم: ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بِنَجَاتِكَ وَنَجَاةِ أَهْلِكَ وَإِهْلَاكِ قَوْمِكَ. وقال بعضهم: ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بِالْعَذَابِ الَّذِي كُنْتَ تَعِدُّهُمْ ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بما نقول ^(٨) يَحْتَمِلُ هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْهُمْ قَوْلًا، قَالُوهُ، لِأَنَّ لُوطًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ بِمَا يَقُولُونَ حِينَ ^(٩) عَلِمَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ. لَكِنْ أَخْبَرَ عَنْهُمْ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ عَلَى غَيْرِ قَوْلٍ كَانَ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيَةُ ٦٥ وقوله تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِأَمْرِكَ يُفْلِحُ مِنَ آلِئِلَ﴾ أي بِبَعْضِ مِنَ اللَّيْلِ. وقال بعضهم: بِسَحْرِ عَلَى مَا قَالَ: ﴿يَجْنَتْهُمْ بِسَحْرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وَهُوَ بَعْضُ سَحَرٍ ^(١٠) كَانَ، أَوْ غَيْرُهُ ﴿وَأَتَيْنَكَ أَذْيَرَهُمْ﴾ أي يَزِي مِنْ وَرَائِهِمْ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فحصلت. (٣) (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: قوم. (٦) من م، في الأصل: وقول. (٧) في الأصل وم: نقولون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: سحر.

وهكذا الواجب على كل مولى أمر جيش أن يتبع أمرهم، أو يأمر من يتبع أمرهم ليُلحق بهم من تخلف منهم، ويَحْمِلُ المُتَقَلِّعُ منهم، وليكون ذلك أخفَظ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْفُتْ سِكْرًا لَمَدًا﴾ إلا أمرأتك فإنها تتخلف عنهم، فَيَصِيهَا ما أصاب/ ٢٧٨ - ب/ أولئك.

هذا يدل أن ليس في تقديم الكلام وتأخيرهِ منْع، ولا في تغيير اللسان ولَفْظِهِ بَعْدَ أَنْ يُؤْذِي الْمَعْنَى خَطَرًا، لأن قصة لوط وغيرهما من القصص ذُكِرَتْ، وَكُرِّرَتْ على الزيادة والتفصيص وعلى اختلاف الألفاظ واللسان. فدل أن اختلاف ذلك لا يُوجِبُ تَغْيِيرًا في المعنى، ولا بأس بذلك.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَلَا يَلْفُتْ سِكْرًا لَمَدًا﴾ أي لا ينظر أحد وراءه. فهو، والله أعلم، لما لعلمهم إذ نظروا وراءهم، قرأوا ما حل بهم من تقلب الأرض وإرسالها عليهم، لا تَحْتَمِلُ بَيْنَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ، فَيَهْلِكُونَ، أو يُضْمَقُونَ.

ألا ترى أن موسى مع قُوَّتِهِ لم يَحْتَمِلْ اندكاك الجبل؟ ولكن ضيق، فصار مدهوشاً في ذلك الوقت، فهؤلاء أضعف، وما حل بقومهم أشد، فَبَيْنَهُمْ آخَرَى أَلَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ، والله أعلم.

الآية ٦٦ وقوله تعالى: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ قوله: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قيل: وأوحينا إليه كقوله: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي وأوحينا إليهم. وقال بعضهم: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي أنهينا إليه، وأعلمناه، وهو قول الكسائي والقشيري.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ هو ما ذكر: ﴿أَنَّ دَايَرَ مَتَوْلَاةٍ مَقْطُوعٍ مُصْبِحِينَ﴾ هذا الذي أوحى إليه، وأعلمناه. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي وأوحينا إلى محمد ﷺ أن ذلك الأمر الذي بَلَغَكَ مَقْطُوعٍ مُصْبِحِينَ. ويَحْتَمِلُ الوحي إلى لوط على البشارة ﴿أَنَّ دَايَرَ﴾ قومه ﴿مَقْطُوعٍ مُصْبِحِينَ﴾ أي مَقْطُوعٍ نَسْلُهُمْ؛ فيه إخبار عن قطع نسلهم. وفي الخبر عن قطع نسلهم إخبار عن هلاكهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ دَايَرَ مَتَوْلَاةٍ﴾ قال بعضهم: أصل هؤلاء. وقال بعضهم: ﴿أَنَّ دَايَرَ مَتَوْلَاةٍ مَقْطُوعٍ﴾ أي مُسْتَأْصِلُونَ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ليس يريد به حين أصبحوا، أي حين بَدَأَ طُلُوعُ الْفَجْرِ، ولكن أراد طُلُوعَ الشَّمْسِ. ألا ترى أنه قال: ﴿وَتَأَخَذَتْهُمُ الشَّيْطَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] وإشراقُ الشمس هو ارتفاعها وبسطها في الأرض. دل أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

والصبيحة تَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما^(١): ذُكِرَ الصبيحة لِسُرْعَةِ هلاكهم، أو قَدَرُ صَبْحَتِهِمْ.

والثاني: أَهْلِكُوا بالصبيحة، أي^(٢) صاح أولئك لما أَهْلِكُوا. والصبيحة اسم كل عذاب.

الآية ٦٧ وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَتَخَفَتُونَ﴾ يَحْتَمِلُ يُسْرُونَ بِزُولِ أَصْيَابِهِ، أو يُشِيرُ بعضهم بعضاً لما راوا بهم من حُسن الهيئة والمنظر ورقعة^(٣) اللباس.

الآية ٦٨ وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ مَتَوْلَاةً مَنِيَّ فَلَا تَفْسَحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهين: [يَحْتَمِلُ]^(٤) ﴿فَلَا تَفْسَحُونَ﴾ في ضيبي فإنهم إنما نزلوا بنا على آمن منا ﴿فَلَا تَفْسَحُونَ﴾ عندهم، وهو ما قال في آية أخرى ﴿وَلَا تَحْزَنُونَ فِي ضَيْبِي﴾ [هود: ٧٨].

ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَفْسَحُونَ﴾ في الخلق، يقولوا^(٥): إن في أهل بيت لوط يفعل بالاضياف كذا، وإنما عرفت أهل بيتي عند الخلق بالصلاح، وإلا ﴿فَلَا تَفْسَحُونَ﴾ في الخلق، واتقوا الله في صنيعتكم بالرجال ﴿وَلَا تَحْزَنُونَ فِي ضَيْبِي﴾ عند الخلق [هود: ٧٨] قيل: هو الهوان؟

الآية ٦٩ ويُسَبِّهُ أن يكون قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُونَ﴾ أن يكون الإخزاء، هو الفضيحة. دليله ما ذكر ﴿إِنَّ مَتَوْلَاةً

(١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ورقعة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقولون.

مَنِيٍّ فَلَا تَفْشَرُونَ ﴿٦٩﴾ فيكونُ هذا تفسِيرَ ذلك. وَيَحْتَمِلُ الْهَوَانُ. وكذلك قيلَ في قوله: ﴿إِنَّ الْآخِرَىٰ لَأَنبَىٰ﴾ [النحل: ٢٧] أي الهَوَانُ اليومَ.

الآية ٧٠ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْمَلَائِكَةِ﴾ هذا يدلُّ على أنه قد كان سَبَقَ النَّهْيُ عَنْ انْزَالِ الْأَصْيَافِ. لَذَلِكَ ﴿قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْمَلَائِكَةِ﴾.

قال أبو بكرٍ الأصمُّ: يُخْرِجُ قَوْلُهُمْ: ﴿أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْمَلَائِكَةِ﴾ مُخْرَجَ الْإِغْتِدَارِ لَهُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُعْظَمُونَ الرِّسْلَ إِلَيْهِمْ سِوَى الْخِلَافِ فِي الدِّينِ، والدِّعَاءِ إِلَى دِينِ اللَّهِ. فهُمْ وَإِنْ كَذَّبُوا الْحُجَجَ الَّتِي آتَتْ بِهَا^(١) الرِّسْلُ فَقَدْ كَانُوا يُعْظَمُونَهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِنَا ﷺ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ إِلَهِ يَقُولُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٢٣]، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؟

الآية ٧١ وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتُيَ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ وفي موضعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ يَقْوَرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وقد ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي السُّورَةِ الَّتِي فِيهَا ذَكَرُ هُودٍ [الآية: ٧٨]. قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ نِسَاءُ قَوْمِهِ^(٢) لِأَنَّهُ كَالِابٍ لَهُمْ عَلَى مَا ذَكَرَ أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾^(٣) [الأحزاب: ٦] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي الْبَنَاتِ إِخْبَارٌ مِنْهُ لِهَمَّ بِنَهَايَةِ فُحْشِ صَنِيعِهِمْ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ وَرُودُ الشَّرْعِ عَلَى بَنَاتِهِ لَهُمْ، وَلَا يَجُوزُ جُلُّ ذَلِكَ بِحَالٍ.

الآية ٧٢ وقوله تعالى: ﴿لَمَنْزِلِكُمْ لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَتَمَثَّلُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: يُقْسِمُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَإِنَّمَا أَقْسَمَ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ [وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَقْسَمَ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ]^(٤) وَلَمْ يُقْسِمَ بِحَيَاةِ غَيْرِهِ وَبِغَيْرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿لَمَنْزِلِكُمْ﴾ كَلِمَةٌ تُسْتَعْمَلُهَا الْعَرَبُ فِي أَقْسَامِهِمْ عَلَى غَيْرِ إِرَادَةِ الْقَسَمِ بِحَيَاةِ أَحَدٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى التَّعْرِضِ.

وَاضْلُهُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَقْسَمَ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَقْسَمَ بِالْجِبَالِ وَالسَّمَاءِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُعْظَمُ عِنْدَ الْخَلْقِ. فَرَسُولُ^(٥) اللَّهِ ﷺ قَدْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ وَهُدًى [وَذَلِكَ]^(٦) أَوَّلَى أَنْ يُعْظَمَ^(٧) بِالْقَسَمِ بِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمَلَائِكَةِ﴾؟ [الأنبياء: ١٠٧] فَمَنْ كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِ كُلِّهِ أَوَّلَى أَنْ يُعْظَمَ مِنْ غَيْرِهِ؛ إِذْ مَنْفَعُهُ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَمَنْزِلِكُمْ﴾ الْقَسَمُ لَيْسَ بِحَيَاةِ الرَّسُولِ، وَلَكِنْ بِدِينِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَتَمَثَّلُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: السَّكْرَةُ الشَّدَّةُ الَّتِي تَحُلُّ بِهِمْ عِنْدَ الْمَوْتِ؛ شَبَّهَهُمْ بِحَيْرَتِهِمْ الَّتِي فِيهِمْ بِسَكْرَةِ الْمَوْتِ ﴿يَتَمَثَّلُونَ﴾ يَتَرَدَّدُونَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ﴿يَتَمَثَّلُونَ﴾ يَتَحَيَّرُونَ.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ الْمُصِيبَةَ شَرْيْقِينَ﴾ قد ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ اخْتِلَافَهُمْ فِي الصَّيْحَةِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّيْحَةُ، هِيَ الْعَذَابُ نَفْسُهُ؛ أَيْ أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمَى صَيْحَةً لِسُرْعَةِ نَزْوِلِهِ بِهِمْ وَأَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَرْيِقِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، وَأَنَارَتْ، وَشَرَقَتْ إِذَا بَزَعَتْ، وَهُوَ قَوْلُ الْكِسَانِيِّ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿شَرْيِقِينَ﴾ أَيْ إِذَا أَشْرَقُوا، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا.

الآية ٧٤ وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا﴾ قد ذَكَرْنَا فِي السُّورَةِ الَّتِي فِيهَا ذَكَرُ هُودٍ [الآية: ٨٢].

الآية ٧٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ لِّلْمُتَفَرِّسِينَ مِنَ الْفَرَاثَةِ.

وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرْوِيهِ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ؛ قَالَ: «اتَّقُوا فَرَاثَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بَنُو اللَّهِ» [الترمذي: ٣١٢٧] قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. فَإِنْ ثَبَتَ الْخَبَرُ، وَثَبَتَتْ تِلَاوَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِثْرِ مَا ذَكَرَ فَهُوَ هُوَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الْمُتَعَبِّرِينَ، وَقِيلَ: الْمُتَفَكِّرِينَ، وَقِيلَ: النَّاطِرِينَ. ذَكَرُوا أَنَّهُ آيَةٌ لِّلْمُعْتَبِرِينَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْمُهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمَهَاةِي. (٤) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَرَسُول. (٦) سَاقِطَةٌ مِنْ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يُعْظَمُ.

ولكن لم يبتوا من أي وجه يكون آية لمن ذكر. فَيَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها: آية ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ الْمُتَّقِينَ لِرسالته، لأنه ذَكَرَ قصة إبراهيم ولوط على ما كانتا^(١)، وهو لم يشهدهما^(٢).
فذلك يدل على صدقه وآية رسالته.

والثاني: آية لِصِدْقِ خَبَرِ إبراهيم وصادق لوط، لأنهم كانوا يُخْبِرُونَ قومَهُمْ أَنَّ العذابَ يَنْزِلُ بِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الوعيد، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ خَبَرِ الأنبياء، عليهم السلام، في كل ما يُخْبِرُونَ.

والثالث: في هلاك مَنْ أَهْلَكَ مِنْهُمْ وَنَجَا مَنْ أَنْجَى مِنْهُمْ آية لِمَنْ ذَكَرَ [أَنْ]^(٣) مَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ هَلَكَ بِالتَّكْذِيبِ، وَمَنْ نَجَا مِنْهُمْ نَجَا بِالتَّصْدِيقِ، فيكون لهم آية.

والرابع: قد بقي من آثار مَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ / ٢٧٩ - / آية، فيكون هلاكُهُمْ [آية لِمَنْ] ذَكَرَ.

وأصل هذا أَنَّ الله ذَكَرَ أَنَّ ﴿فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي المؤمنين الْمُتَّقِينَ، والإغتيار والتفكير للمؤمنين، لأنهم هم الْمُتَّقُونَ. والمُتَّقِسُّمُ^(٤) هو الذي يُعْلَمُ^(٥) بعلامة، وكذلك الْمُتَّقِرُّسُ هو الذي يُعْلَمُ^(٦) بعلامة في غيره؛ يَنْظُرُ في غيره بأن هلاكه يَمُكَانُ؟ فَيَنْزَجِرُ عَنْ صَنِيعِهِ، وَيَتَعِظُ بِهِ، وهو كَالْمُتَّقِفِ الذي يُعْلَمُ^(٧) بِالْمَعْنَى، والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْتَغُوا سَبِيلَ مُقِيمٍ﴾ أي طريق دائم، مُعْلَمٌ.

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهو ما ذَكَرْنَا أَنَّ الآية تكون للمؤمنين، والله أَعْلَمُ.

ذَكَرَ فِي الآية الأولى الآيات لأنه [ذَكَرَ]^(٩) أنباء إبراهيم وقصته وقصة قوم لوط؛ ففي ذلك آيات لِمَنْ ذَكَرَ.

وَذَكَرَ فِي هذه الآية ﴿لَآيَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه ذَكَرَ شيئاً واحداً، وهو السَّبِيلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ ظَالِمًا لِّظُلْمٍ﴾ أي وقد ﴿كَانَ أَحَدُكُمْ الظَّالِمِينَ لَظُلْمٍ﴾ والأيكة: ذِكْرُ أنها

الغَيْضَةُ مِنَ الشَّجَرِ، وهي ذات أجامٍ وشَجَرٍ. كانوا فيها، فَبِعَثَ إِلَيْهِمْ شُعَيْبٌ، وهو فِي الغَيْضَةِ.

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّ شُعَيْباً بُعِثَ إِلَى قَوْمَيْنِ: إِلَى أَهْلِ غَيْضَةِ مَرَّةَ، وَإِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ مَرَّةَ عَلَى مَا ذَكَرَ: ﴿وَإِنْ

مَدْيَنَ أَهْلَهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿كَذَّبَ أَحَدُكُمْ لِّئِكَذِهِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُو﴾ [الشعراء: ١٧٦ و ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ الظَّالِمِينَ لَظُلْمٍ﴾ سَمَى الله تعالى الكُفْرَةَ بِأَسْمَاءٍ مُّخْتَلِفَةٍ؛ سَمَاهُمْ مَرَّةَ ظَالِمِينَ، وَمَرَّةَ

فَاسِقِينَ، وَمَرَّةَ^(١٠) مُشْرِكِينَ.

وَأَسْمُ الظُّلْمِ قَدْ يَقَعُ فِي مَا دُونَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ. وكذلك اسْمُ الْفِسْقِ يَقَعُ فِي مَا دُونَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ.

ثم الْكُفْرُ لَمْ يَقْبَحْ لِأَسْمِ الْكُفْرِ، وكذلك الإيمان لَمْ يَحْسُنْ لِأَسْمِ الْإِيمَانِ؛ إِذَا مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ يَكْفُرُ بِأَشْيَاءَ،

وَيُؤْمِنُ بِأَشْيَاءَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] الْمُؤْمِنُ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ بِالْأَصْنَامِ، كَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ عِبْدُهَا، وكذلك الْكَافِرُ يُؤْمِنُ بِأَشْيَاءَ، وَيَكْفُرُ بِأَشْيَاءَ؛ يُؤْمِنُ بِالْأَصْنَامِ، وَيَكْفُرُ بِاللَّهِ.

فَبَيَّنَتْ أَنَّ الْكُفْرَ لِأَسْمِ الْكُفْرِ لَيْسَ بِقَبِيحٍ، وكذلك الإيمان لِأَسْمِ الْإِيمَانِ لَيْسَ بِحَسَنٍ، ولكن إنما حَسُنَ لِأَنَّهُ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ،

وَالْكَفْرُ إِنَّمَا قَبِحَ لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ فَهُوَ لِأَسْمِ الظُّلْمِ قَبِيحٌ، وكذلك الْفِسْقُ لِأَسْمِ الْفِسْقِ قَبِيحٌ، فَسَمَاهُمْ بِأَسْمَاءٍ، هي بِأَسْمِهَا قَبِيحَةٌ^(١١).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَشْهَدُهَا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْمَلُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْمَلُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْمَلُ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) م، فِي الْأَصْلِ: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَبِيحٌ.

لكن الإيمان المطلق، وهو الإيمان بالله، والكفر المطلق، هو الكفر بالله، وإن كان يُسمى بدون الله كُفراً وإيماناً كما قلنا: الكتاب المطلق كتاب الله، والدين المطلق دين الله، وإن كان اسم الكتاب والدين يقع على ما دونه.

الآية ٧٩

وقوله تعالى: ﴿فَأَنقَضْنَا بِئِهِمْ﴾ ذكر الإنقيام منهم، ولم يذكر ههنا لِمَ^(١) كان الإنقيام؟ وقال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقال في آية أخرى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

فيَحْتَمِلُ أن تكون الرِّجْفَةُ لقوم، والصَّبْحَةُ لقوم، ويوم الظُّلَّةِ لقوم منهم، وإن كان واحداً^(٢)، فسَمَّاها بأسماءٍ مُخْتَلَفَةٍ، وليس لنا إلى معرفة ذلك العذاب حاجة سوى ما عَرِفَ أنهم إنما أَهْلِكُوا، أو عَذَّبُوا بالكذب ليكون ذلك آية لِمَن بَعْدَهُمْ، لِيَحْذَرُوا مِنِّمِ صَنِيعِهِمْ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنقَضْنَا بِئِهِمْ﴾ للرُّسُلِ كما انقَضْنَا مِن قَوْمِ لُوطٍ لِلُّوطِ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ وَسُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ نَتَّبِعُ مِن أَهْلِ مَكَّةَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ [وسوءاً]^(٣) مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ.

وقد كان ما نَزَلَ بِأَصْحَابِ الْاِيْكَةِ كِفَايَةً مَزْجِرٍ لَهُمْ وَعِظَةً، لَا يَخْتِاجُ إِلَى مَا ذَكَرَ مَا نَزَلَ بِقَوْمِ لُوطٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنقَضْنَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي قَوْمَ لُوطٍ وَقَوْمَ شُعَيْبٍ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَأْمُرَ ثِيْبِينَ﴾ أَي طَرِيقِ مُسْتَبِينَ، أَي بَيْنَ هَلَاكِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَسْبِلُ نُفْيَرِ﴾ [وقوله تعالى]^(٤): ﴿وَأَنَّا لَيَأْمُرُ ثِيْبِينَ﴾ واحدٌ، أَي بَيْنَ وَاضِحَةٍ^(٥) أَنَارُهُمْ؛ مِنْ سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ، أَوْ دَخَلَ قَرَاهُمْ وَمَكَانَهُمْ، لَا شُبَّانَ لَهُ أَنَارَ هَلَاكِهِمْ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَأْمُرَ ثِيْبِينَ﴾ أَي طَرِيقِ، يُؤْمَرُ، وَيُقَصَّدُ، بَيْنَ، وَاضِحٍ.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْاَلْجِرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَصْحَابُ الْحِجْرِ قَوْمُ صَالِحٍ وَنَمُودٍ. وَقَالُوا: الْحِجْرُ: هُوَ اسْمُ وَادٍ، وَقِيلَ: هُوَ اسْمُ الْقَرْيَةِ عَلَى شَطِّ الْوَادِي، نُسِبُوا إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْاَلْجِرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: يَعْنِي بِالْمُرْسَلِينَ صَالِحاً وَخَذَهُ، لَكِنْ ذَكَرَ الْمُرْسَلِينَ لِأَن صَالِحاً يَدْعُوهُمْ إِلَى مَا كَانَ دَعَا سَائِرِ الرُّسُلِ. فَإِذَا كَذَّبُوهُ فَكَأَنَّهُمْ^(٦) قَدْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ جَمِيعاً؛ إِذْ كُلُّ رَسُولٍ كَانَ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ جَمِيعاً، فَإِذَا كَذَّبَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبَ الْكُلَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْنَاهُمْ بِآيَاتِنَا فَكَاثَرُوا عَنْهَا مُرْسِبِينَ﴾ تَحْتَمِلُ الْآيَاتُ آيَاتِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ. وَتَحْتَمِلُ جَمِيعُ الْآيَاتِ: آيَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَحُجَجُهَا^(٧) وَآيَاتِ رِسَالَتِهِمْ [وقوله]^(٨) ﴿مُرْسِبِينَ﴾ أَي لَمْ يَقْبَلُوهَا، فَقَدْ أَغْرَضُوا عَنْهَا، وَأَغْرَضُوا عَنْهَا، أَي كَذَّبُوهَا.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثَرُوا بِتَجْوَنَ مِنَ الْاَلْبَالِ يُؤْتَا أَمِينِينَ﴾ عَمَّا وَعَدَهُمْ صَالِحٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ حِينَ^(٩) قَالُوا: ﴿يَنْصَلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] كَانُوا آمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانُوا آمِنِينَ عَنْ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ مَا نَحْنُوا لِحَذَاقَتِهِمْ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَتَجْوَنَ مِنَ الْاَلْبَالِ يُؤْتَا قَرِينِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] عَلَى تَأْوِيلِ بَعْضِهِمْ حَادِثِينَ.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الْعَذَابَ مُصِيبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَخَذْنَاهُمْ ظَاهِرَةَ النَّهَارِ^(١٠).

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ أَي مَا كَانُوا يَنْحَتُونَ لَا يُغْنِيهِمْ

(١) من م، في الأصل: ثم. (٢) في الأصل: واحد. (٣) في الأصل: وم. (٤) ساقطة من الأصل: وم. (٥) في الأصل: وم. واضح. (٦) في الأصل: وم. فكان. (٧) في الأصل: وم. وحججه. (٨) ساقطة من الأصل: وم. (٩) في الأصل: وم. حيث. (١٠) في الأصل: وم. بالنهار.

من عذاب الله من شيء. وَيَحْتَمِلُ: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ تَأَمُّلُ عَمَلِهِمْ مِنَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ﴾ [حين] ^(١) قالوا: ﴿مَا مَنَعَهُمْ إِلَّا يُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا ^(٢): ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أي لم يُغْنِهِمْ مَا عَبَدُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أو يقول: مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا تَوَعَّموا ^(٣)، وَأَتَوَعَّمُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَعَتُهُمْ وَلَا أَصْرُهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٦] وَإِنْ أَعْطُوا مَا ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْأَفْتِدَةِ إِذْ لَمْ يَنْظُرُوا، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَجَعَدُوا ^(٤).

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الحق الذي جعل تسميته على أهلها، والحق الذي ليغض على بعض. والحق هو اسم كل محمود مختار من القول والفعل، والباطل اسم كل مذموم من القول والفعل. قال بعضهم: تأويله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ شهوداً لله ﴿بِالْحَقِّ﴾ على أهلها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لم يخلقهما لغير شيء، ولكن خلقهما للمحنة؛ يمتحنهن بالعبادة فيها. وإلى هذا ذهب الحسن.

وقيل: خلقهما وما بينهما لأمر كائن أي لعاقبة للثواب أو الجزاء، لم يخلقهما للفناء خاصة، ولكن للعاقبة؛ لأن خلق الشيء خاصة عبث، وهو ما قال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْنَا أُمَّةً فَخَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَرَكِبُوا لَنَا رَبْعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أَخْبَرَ أَنَّ خَلْقَهُمْ لَا لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ وَلَا لِلْعَاقِبَةِ عَبْثٌ. وقد [ذكرنا هذا في ما تقدم] ^(٥).

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَرَأَتْ السَّاعَةُ لَأَيَّةً﴾ على الإختجاج على أولئك لإنكارهم الساعة لوجوب:

أحدهما: ما ذكرنا أنه، لو لم تكن الساعة، حصل خلقهما وما بينهما للفناء خاصة [وخلق الشيء] ^(٦) لِلْفَنَاءِ خاصةً عَبْثٌ باطلٌ كِبَاءُ الْبِنَاءِ لِلتَّقْصِصِ خاصةً لا لعاقبة، تُقْصَدُ، عَبْثٌ.

والثاني: أنه يكون في ذلك التورية بين الأعداء والأولياء. وفي الحكمة التفريق بينهما، وقال: ﴿وَمَا ٢٧٩ - ب/ خَلَقْنَا السَّاعَةَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [ص: ٢٧] لم يكن ظنهم أنه خلقهما باطلاً، ولكن لما أنكروا البعث صار في ظنهم خلقهما باطلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَتْ السَّاعَةُ لَأَيَّةً فَاصْفَحَ الْجَمِيلُ﴾ أي أغرض عنهم، ولا تكافئهم بما آذوك بالسببهم وفعلهم ﴿وَرَأَتْ السَّاعَةُ لَأَيَّةً﴾ فإنا ^(٧) كافيهم عنك على آذائهم إياك وصنيعهم يومئذ. الصفح الجميل: هو ما لا نقض فيه، ولا مئة في العرف؛ أي اصفح الصفح ما توصف فيه بتمام الأخلاق، وما لا نقض فيه ولا مئة.

[ويحتمل الصفح الجميل أن تصفح] ^(٨) صفحاً، لا مئة فيه ﴿وَرَأَتْ السَّاعَةُ لَأَيَّةً﴾ فتجزى أنت على صفحك الجميل، وهم على آذاك، والله أعلم.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه خلقهم على علم بما يكون منهم من المعصية والخلاف، لا خلقهم عن غفلة وجهل بذلك، ليُعلم أنه لم يخلق الخلق لحاجة نفسه ولا لمنفعة نفسه، ولكن خلقهم ليمتحنهم بما أمرهم به ونهاهم ولما يرجع إلى منافيتهم وحوادثهم.

والثاني: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لخلقهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم: بأن الصفح الجميل لهم أضلح في دينهم من المكافات، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: متعما. (٤) من م، في الأصل: وجحدوا. (٥) في الأصل: ذكرناها، في م: ذكرنا في ما تقدم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ماذا. (٨) في الأصل: يحتل الصفح الجميل هو أن يصفح في م: يحتل الصفح الجميل هو أن يصفح ولا يمن عليهم، كان أمره أن يصفح.

الآية ٨٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

اختلف في قوله: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ قال بعضهم: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ هو القرآن [كُلُّهُ لِقَوْلِهِ^(١)]: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ لِقَدَيْهِ كِتَابًا مُتَنَبِّهَا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣] وقيل: سُمِّيَ مَثَانِي لِتَزْدِيدِ الْأَمْثَالِ فِيهِ وَالْغَيْرِ وَالْأَنْبَاءِ فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ أَي سَبْعًا مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

ثم يَحْتَمِلُ السَّبْعُ الطَّوَالَ عَلَى مَا ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: كَأَنَّهُ قَالَ: آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَيَحْتَمِلُ ﴿سَبْعًا﴾ بِعَنِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِنَ الْقُرْآنِ، أَي آتَيْنَاكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مِنَ الْقُرْآنِ.

وقال قوم: يقولون: سَبْعُ الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ. وَيَرْوُونَ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢) رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي». [الترمذي: ٣١٢٤].

وَعَنْ أَبِي [بْنِ كَعْبٍ]^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي» [وهي مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ]^(٦) [مسلم ٣٩٥].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ^(٧) مَثَانِي الْقُرْآنِ كَلِمَةٌ تَذْهَبُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْآيَةِ، وَبِمَا يُرَوَّى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَالْقُرْآنِ مِثْلَهَا» بِعَنِي أُمُّ الْقُرْآنِ وَإِنِهَا لَسَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيَ.

ذَكَرَ: «وَإِنِهَا لَسَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي» فَإِنْ كَانَ سَبْعُ الْمَثَانِي فَاتِحَةَ الْكِتَابِ يَصِيرُ^(٨) كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ وَهِيَ الْمَثَانِي. وَإِنْ كَانَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي [هُنَّ الطَّوَالَ يَكُنْ]^(٩) هَكَذَا: أَي ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ [وَهُنَّ الطَّوَالَ مِنَ الْقُرْآنِ]^(١٠).

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(١١) قَالَ «آتَانِي السَّبْعُ الطَّوَالَ مَكَانَ التَّوْرَةِ وَالْمَثَانِي مَكَانَ الْإِنْجِيلِ، وَقَضَّلَنِي رَبِّي بِالْمُقْضَلِ» [أحمد ١٠٧/٤].

ثم إن ثبت ما رَوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ سَبْعَ الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَلَا الْكَفِّ وَالْإِمْسَاكُ أَوْلَى؛ لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَكُونُ تَسْمِيَتُنَا بِهَا سِوَى الشَّهَادَةِ. وَمَا خَرَجَ مَخْرَجَ الشَّهَادَةِ مِنْ غَيْرِ حَصُولِ النِّفْعِ لَنَا فَالْكَفُّ عَنْهُ وَالْإِمْسَاكُ أَوْلَى. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُنَّ الْمُقْضَلُ.

وَمَنْ قَالَ: الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ قَالَ: لَأَنَّهُ تَنَبَّيَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَمَا جُعِلَ فِيهَا [مُكْرَرًا مُعَادًا]^(١٢) لِأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ يُؤْذِي مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ، فَسُمِّيَ مَثَانِي.

وَمَنْ قَالَ: الْمَثَانِي هُوَ الْقُرْآنُ قَالَ لِمَا ذَكَرْنَا، لِأَنَّ أَمْثَالَهُ وَأَنْبَاءَهُ وَغَيْرَهُ مُعَادَةٌ مُرَدَّدَةٌ.

وَمَنْ قَالَ: الْمَثَانِي السَّبْعُ الطَّوَالَ قَالَ: لَأَنَّهُ تَنَبَّيَ فِيهَا حُدُودَ الْقُرْآنِ وَفَرَائِضُهُ وَعَامَّةُ أَحْكَامِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ سَمَاءٌ عَظِيمًا وَسَمَاءٌ مَجِيدًا وَحَكِيمًا، [وهي أسماء]^(١٣) الْفَاعِلِينَ، وَلَا عَمَلٍ لِلْقُرْآنِ^(١٤)، وَلَا فِعْلٌ فِي الْحَقِيقَةِ، لَكِنَّهُ يُخْرَجُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ:

يَحْتَمِلُ سَمَاءٌ عَظِيمًا مَجِيدًا لِمَا عَظَمَهُ، وَشَرَّفَهُ، وَمَجَّدَهُ، فَهُوَ عَظِيمٌ مَجِيدٌ حَكِيمٌ، أَي مُنْهَكَمٌ. وَالْفَعِيلُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللَّغَةِ. أَوْ سَمَاءٌ بِذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَعَمِلَ بِهِ، يَصِيرُ^(١٥) عَظِيمًا مَجِيدًا. أَوْ سَمَاءٌ عَظِيمًا مَجِيدًا حَكِيمًا، أَي جَاءَ مِنْ عِنْدِ عَظِيمٍ مَجِيدٍ حَكِيمٍ. وَأَصْلُ الْحَكِيمِ الْمُصِيبُ الْوَاضِعُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: كُلُّ قَوْلِهِ، فِي م: كُلُّهُ كَقَوْلِهِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) هَذَا جُزْءٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ الَّذِي أَوْرَدَهُ الْمُؤَلِّفُ أَبُو مَنْصُورٍ فِي حَدِيثِهِ عَنِ التَّسْمِيَةِ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَثَانِي. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصِيرُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ الطَّوَالَ يَكُونُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ الْقُرْآنُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مُكَرَّرَةٌ مُعَادَةٌ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَه. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصِيرُ.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ المراد بقوله: ﴿عَيْنَيْكَ﴾ نَفْسَ العَيْنِ. ثم يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: نَهَى رسوله أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا مَتَّعَ أولئك مِثْلَ نَظَرِهِمْ، لأنهم ظَنُّوا أنهم إنما مَتَّعُوا هذه الأموال في الدنيا لِخَطَرِهِمْ وَقَدَرِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، وعلى ذلك [قَالَ مَنْ قَالَ] ^(١): ﴿وَلَكِنْ رُودَتْ لَكَ رَبِّي لِأَيِّدَةٍ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقال: ﴿وَلَكِنْ تُجِئْتُ لَكَ رَبِّي﴾ الآية [فصلت: ٥٠] وَنَحْوَهُ. ظَنُّوا أنهم إنما مَتَّعُوا في هذه الدنيا لِخَطَرِهِمْ وَقَدَرِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، لذلك قالوا ما قالوا، فَتَناهَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ذلك بِعَيْنِ الذين نَظَرُوا هُمُ إِلَيْهِ، ولكن بِالِاخْتِيَارِ.

والثاني: نَهاى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ذلك نَظَرُ الإِسْتِكْبَارِ وَالتَّجَبُّرِ عَلَى المؤمنين وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ عَلَى مَا نَظَرُوا هُمُ، لأنهم بما مَتَّعُوا مِنْ أنواعِ المالِ اسْتَكْبَرُوا عَلَى الناسِ، وَاسْتِهْزَؤُوا بِهِمْ؛ إِذِ البَصَرُ قَدْ يَقَعُ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ، فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ نَهاى عَنِ الرَّغْبَةِ وَالِاخْتِيَارِ فِي مَا مَتَّعُوا بِهِ، لِأَنَّ مَا مَتَّعُوا بِهِ هُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿فَلَا تُجِئَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥ و ٨٥] وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لِيَقْتَنِبَهُمْ فِيهَا﴾ [طه: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا﴾ مَتَّعُوا فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا مَتَّعُوا لِمَا ذَكَرَ.

وَيَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنْ مَدِّ الْعَيْنِ لَا الْعَيْنَ نَفْسَهَا ^(٢)، وَلَكِنْ نَفْسَهُ. كَأَنَّهُ [قَالَ] ^(٣): لَا تُمَتِّعَنَّ نَفْسَكَ فِي مَا مَتَّعُوا هُمُ، فَلَا تُرَغَّبْهُمَا فِي ذلك؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ يُوسَّعُ ذلك عَلَيْهِمْ لِخَطَرِهِمْ وَقَدَرِهِمْ، وَلَكِنْ لِيُعْلِمَ أَنْ لَيْسَ لذلك خَظَرٌ عِنْدَ اللَّهِ وَقَدَرٌ حِينَ ^(٤) أَعْطَى مِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ، وَجَحَدَ نِعْمَهُ وَفَضْلَهُ.

وَفِي الْآيَةِ تَفْضِيلُ الْفَقْرِ عَلَى الْغِنَى لِأَنَّهُ نَهَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَمُدَّ عَيْنِيهِ إِلَى مَا مَتَّعُوا. مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَدَّ [عَيْنِيهِ] ^(٥) إِلَى ذلك، لَيْسَ يَمُدُّ لِلدُّنْيَا، وَلَا لِشَهَوَاتِهِ، وَلَكِنْ لِيَسْتَعِينَ بِهِ فِي أَمْرِ جِهَادِ عَدُوِّهِ، وَيُعَيِّنَ بِهِ أَصْحَابَهُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرَاتِ، ثُمَّ نَهاى مَعَ ذلك عَنْهُ.

دَلَّ أَنَّ الْاِخْتِيَارَ وَالْأَفْضَلَ مَا اخْتَارَهُ مِنَ الْفَقْرِ وَقُصُورِ ذَاتِ يَدَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أَيِ أَصْنَافًا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالرَّوَانَا مِنَ النُّعَمِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أَيِ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ وَأَشْبَاهَا.

فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هُوَ أَصْنَافُ الْأَمْوَالِ فَهُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ. كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا مِنْهُمْ أَزْوَاجًا؛ هُوَ أَصْنَافُ النَّاسِ، فَهُوَ عَلَى التَّنْظِيمِ الَّذِي جَرَى بِهِ التَّنْزِيلُ؛ أَيِ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ قَوْمًا مِنْهُمْ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ دَلَالَةٌ نَقْضِ قَوْلِ الْمُعْتَزَلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْطِي أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا هُوَ أَضْلَحَ لَهُ فِي الدِّينِ. وَلَوْ كَانَ مَا مَتَّعَ هَؤُلَاءِ أَضْلَحَ لَهُمْ فِي الدِّينِ لَمْ يَنْهَ رَسُولَهُ عَنْ مَدِّ عَيْنِيهِ إِلَيْهِ. دَلَّ أَنَّهُ قَدْ يُعْطَى مَا لَيْسَ بِأَضْلَحَ فِي الدِّينِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿إِنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا﴾ وَهُمْ يَقُولُونَ: تُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا خَيْرًا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٠] هَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا تَنْقُضُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ / ٢٨٠ - / النَّهْيَ نَفْسَهُ، وَنَهاى أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمْرَهُ أَنْ يُغْلِظَ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿جَهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] يَحْتَمِلُ النَّهْيَ نَفْسَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسَهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَعَلَىٰ هَٰذَا يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ارفق بهم، وتلين عليهم، واشدد على أولئك، وأغلظ عليهم، وهو ما وصفهم [بقوله] ^(١) ﴿أَيُّدَاءَ عَلَى الْكَافِرِ رَحْمَةً يَنْتَهُمُ﴾ [الفتح: ٢٩] [وقوله] ^(٢) ﴿أَوَّلُو عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّو عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أخبر أنهم أهل شدة على الكفار وأهل غلظة ورحة ينتهم، وأهل ذلة على المؤمنين وأهل شدة عليهم، أي على الكفار. فعلى ذلك هذا. ويحتمل أن ليس على التثني، ولكن على التخفيف والتثلي ورفع الحزن عن نفسه لأنه كان يحزن لـكفرهم بالله وتزويجهم الإيمان حتى كادت نفسه تثلث لذلك كقوله: ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تَخْلُفُونَهُ﴾ الآية [الكهف: ٦] والشعراء: [٣] وقوله: ﴿فَلَا تَذَعَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتِي﴾ [فاطر: ٨] وأمثاله.

ويحتمل أيضاً وجهاً آخر، وهو أنه كان يحزن عليهم، ويضيق صدره لما مكروا به، وكابدوه كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي شَيْءٍ مِّنْهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] والنمل: [٧٠] فإني أكافيتهم، والله أعلم.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنَّا الْغَايِبُ الْغَايِبُ﴾ يحتمل ﴿إِنَّا الْغَايِبُ﴾ على معاصيه ﴿الْغَايِبُ﴾ على طاعاته، أو ﴿الْغَايِبُ﴾ على العيوب من عذاب الله ﴿الْغَايِبُ﴾ لأمره ونواهي، والله أعلم.

الآيتان ٩٠ و ٩١

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ حَسَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال الحسن: الكتب كلها قرآن؛ يعني كتب الله اقتسموها، وجعلوها عِصِينَ، أي فرّقوها بالتحريف والتبديل؛ فما وافقهم أخذوه، وما لم يوافقهم غيروا، وبدّلوه، كقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا نَرَىٰ رَبَّنَا هَٰذَا فَخَدُّهُ وَإِنَّا لَنَرِيَّوْهُ فَخَدُّوهُ﴾ [المائدة: ٤١] ونحوه، فذلك اقتسامهم، وتغيّبتهم على قوله، وكقوله: ﴿يَحْمِلُونَهُ قَرَابِسَ تَبْدُونَهَا وَتُغْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَرْهَامَهُمْ يَبْتِمُّ زُرَّارٌ﴾ [المؤمنون: ٥٣] ونحوه.

وقال بعضهم: اقتسامهم: هو ^(٣) أن نقرأ من قریش كانوا اقتسموا عقاب مكة ليضدوا الناس عن رسول الله: فتقول طائفة منهم إذا سئلوا عنه: هو كاهن، وطائفة أخرى هو شاعر سحر مجنون، ونحوه.

وعضّتهم ^(٤) قولهم: هو سحر، شعر كهانة، أساطير الأولين ﴿أَفَتَدْعُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤] وأمثال ما قالوا: فذلك اقتسامهم وعضّتهم.

وقال بعضهم: هو على التقديم، أي آتيك المثاني والقرآن العظيم، أنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى؛ فهم الْمُقْتَسِمُونَ كتاب الله، فامتنوا ببعض، وكفروا ببعض.

وقال أبو عوسجة: يقال: عَصَيْتُ الجزور، أي قَسَمْتُهَا عَصُورًا. وقال غيره: هو من العِصَةِ، وهو السحر بلسان قريش. يقال للساحر: عاصه.

وقال القتيبي: الْمُقْتَسِمُونَ: قوم تحالفوا على عصية النبي ﷺ وأن يذيعوا بكل طريق، ويخبروا به التزاع إليهم. وقوله ^(٥) ﴿عِصِينَ﴾ أي قُرُوءه، وعَصُوه. وقيل: قَرَّعُوا القول فيه. وهو ما ذكرنا، والله أعلم.

الآيتان ٩٢ و ٩٣

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَنَنْتَلِيَنَّ أَعْيُنَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَسْتَلُونَ﴾ قوله: ﴿وَرَبِّكَ﴾ قَسَمٌ، اقْسَمَ الله تعالى: ﴿لَنَنْتَلِيَنَّ أَعْيُنَ﴾ قال بعضهم: الخلائق كلها كقوله: ﴿فَلَنَسْطَلَنَّ إِلَيْكَ أَرْسِلْ إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أخبر أنه يسألهم جميعاً: الرسل عن تبليغ الرسالة والذين أرسل إليهم عن الإجابة لهم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَرَبِّكَ لَنَنْتَلِيَنَّ أَعْيُنَ﴾ هؤلاء الذين سبق ^(٦) ذكرهم: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ حَسَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ والذين استهزؤا برسول الله ﷺ وأصحابه. يسألهم عن حُجَج ما فعلوا والمعنى الذي حملهم على سوء معاملته رسوله وكتابه: لأي شيء نسبتم رسولي وكتابي إلى السحر والكذب والكهانة والإفتراء على الله؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. وهو. (٤) في الأصل وم. (٥) في الأصل وم. (٦) في الأصل وم. سبقوا.

لَا يُسْأَلُونَ: مَا فَعَلْتُمْ؟ وَإِي شَيْءٍ عَمِلْتُمْ؟ لَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مَكْتُوبًا فِي كُتُبِهِمْ، يَقْرَؤُنَهُ^(١) كَقَوْلِهِ: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وهو وعيدٌ شديدٌ في نهاية الوعيد والشدة لأنه وعيدٌ مَقْرُونٌ بِالْقَسَمِ، وكلُّ وعيدٍ قُرْنٌ بِالْقَسَمِ فهو غايةُ الشدة، إذ لو جاءنا هذا الوعيدُ مِنْ مُلْكٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَشَرِ يَجِبُ^(٢) أَنْ يُخَافَ، فكيف مِنْ رَبِّنَا؟

الآية ٩٤

وقوله تعالى: ﴿فَاصْنَعِ يَا تَوْمَرُ﴾ كَقَوْلِهِ^(٣): ﴿فَاسْتَوَيْتُمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ [هود: ١١٢] فهو في كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَاصْنَعِ﴾ أَيِ امْضِ ﴿يَا تَوْمَرُ﴾ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيِ اغْرِضْ عَنْ مَكَايِبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. امْضِ عَلَى مَا تَوْمَرُ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَخَفْهُمْ، وَلَا تَهَيِّبْهُمْ، وَلَا يَمْنَعَكَ شَيْءٌ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ: الْخَوْفُ وَلَا الْقَرَابَةُ وَلَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. وَلَكِنْ امْضِ عَلَى مَا تَوْمَرُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هَوَٰ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وَقَالَ: ﴿كُوثُوا قَوْمِينَ بِالْأُسْطِ شَهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] أَيِ لَا يَمْنَعُكُمْ عَنِ الْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ بُغْضُكُمْ لِيَاهِمُ وَلَا قَرَابَتُكُمْ.

فَعَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَاصْنَعِ يَا تَوْمَرُ﴾ أَيِ امْضِ عَلَى مَا أَمَرْتُ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَلَا يَمْنَعُكَ عَنْ ذَلِكَ الْخَوْفُ وَالْوَعِيدُ وَالْقَرَابَةُ الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ.

وَقَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: ﴿فَاصْنَعِ يَا تَوْمَرُ﴾ أَيِ اظْهَرِ. صَدَعَ: أَظْهَرَ ذَلِكَ. وَأَضْلَهُ: الْفَرَقُ وَالْفَتْحُ، يَرِيدُ اضْطِغَابَ الْبَاطِلِ بِحَقِّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ الْمُوقِنُ بِهِ، وَهُوَ الْمَوْتُ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿فَاصْنَعِ﴾ أَيِ امْضِ ﴿يَا تَوْمَرُ﴾ عَلَى مَا تَوْمَرُ، وَصَدَعْتُ أَيِ مَضَيْتُ، وَذَلِكَ مِنَ الْمَضِيِّ. وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ الشَّقُّ، وَيُقَالُ: تَصَدَّعُوا، أَيِ تَفَرَّقُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيِ اغْرِضْ عَنْ مَكَايِبِهِمْ، فَاِنَّا أَكَاثِفُهُمْ عَنْكَ عَلَى مَا آذَوْكَ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ هُوَ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ لَكِنْ عَلَى الْوَجْهِ^(٤) الَّذِي ذَكَرْنَا لَيْسَ بِمَنْسُوخٍ.

وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِنْ كَانَ أَرَادَ بِهِ الْقِتَالَ وَالِدَعَاءَ إِلَى التَّوْحِيدِ فَهُوَ فِي وَقْتِ [دُونَ وَقْتِ أَوْ]^(٥) فِي قَوْمٍ خَاصٍّ؛ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَهُ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَإِبَاسٌ^(٦) رَسُولِهِ [مِنْ]^(٧) إِيْمَانِهِمْ، فَقَالَ: أَغْرِضْ [عَنْ]^(٨) هَؤُلَاءِ، وَلَا تَشْتَغِلْ بِهِمْ، وَلَا تَذْغُهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ ادْعُ قَوْمًا آخَرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا كُتُبًا مِّنْ قَبْلِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كُنَّا كُتُبًا مِّنْ قَبْلِكَ﴾ الْكُفْرَةُ جَمِيعًا، فَمَنْعَانَاهُمْ عَنْ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ عَلَى مَا قَصَدُوا إِلَيْكَ مِنْ إِهْلَاكِكَ وَغَيْرِهِ، كَقَوْلِهِ^(٩): ﴿فَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرِينَ﴾ [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا كُتُبًا مِّنْ قَبْلِكَ﴾ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الطَّرِيقِ وَالْمَرَاوِدِ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ؛ الْعَدُوُّ الَّذِي ذُكِرَ سَبْعَةً أَوْ خَمْسَةً، كَفَاءُ اللَّهِ بِأَنْ أَهْلَكَهُمْ بِمَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ أَهْلَكُوا جَمِيعًا بِعُقُوبَاتٍ مُّخْتَلِفَةٍ.

الآية ٩٦

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْتَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَبْتَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ لَيْسَ عَلَى الْجَعْلِ لِأَنَّهُمْ لَوْ جَعَلُوا لَكَانَ، لِأَنَّ كُلَّ مَجْعُولٍ كَائِنْ مَوْجُودٌ. وَلَكِنْ قَوْلُهُ ﴿يَبْتَلُونَ﴾ أَيِ يَزْعُمُونَ أَنَّ ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِنَّمَا فِي التَّسْمِيَةِ وَإِنَّمَا^(١٠) فِي الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلُوا الْقُرْمَانَ عِزِينَ﴾ [الحجر: ٩١] هُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ ﴿عِزِينَ﴾ وَلَكِنْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَذَا، لِأَنَّ اللَّهَ وَكُلَّ حِفْظَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَأَىٰ لَهُمْ خِطْفُونَ﴾ [الحجر: ٩] وَقَوْلِهِ^(١١): ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقْرَؤُنَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَيِ، فِي م: أَيِ اسْتَقَمَ كَمَا تَوْمَرُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَجْه. (٤) مِنْ م: فِي الْأَصْلِ: أَيِ. (٥) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ.

[فصلت: ٤٢] أَخْبِرَ أَنَّهُ يَحْفَظُهُ حَتَّى لَا يَأْتِيَهُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ. وَلَوْ قَدَرُوا عَلَى جَفَلِهِ ﴿عِصِينَ﴾ لَكَانَ قَدْ أَتَى الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ. دَلٌّ عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي قَالُوا، وَهُوَ عَلَى الْمَجَازِ.

وكذلك قوله: ﴿قَرَأَ إِلَهُ الْهِيمِ﴾ [الصافات: ٩١] وقوله: ﴿أَجْمَلُ الْآلَةِ إِلَهاً وَجِئاً﴾ [ص: ٥] فهو كُلهُ عَلَى الْمَجَازِ عَلَى مَا عِنْدَهُمْ: إِمَّا بِحَقِّ التَّسْمِيَةِ لَهَا أَنَّهَا آلَةٌ، وَإِمَّا بِصَرْفِ الْعِبَادَةِ إِلَيْهَا. ظَاهِرٌ هَذَا أَنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ ذَكَرَهُمْ أَنَّهُ كَفَاهُ عَنْهُمْ هُمُ الْكَفَرَةُ جَمِيعاً.

لَكِنْ يَحْتَمِلُ فِي الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ أَهْلُ / ٢٨٠ - ب/ التَّأْوِيلِ [الذين]^(١) كَانُوا عَلَى مَرَاصِدِ مَكَّةَ؛ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَنَسَبَهُ^(٢)، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَمَرُوا غَيْرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا دُونَهُ إِلَهاً، فَكَانَهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ، وَهُمْ قَالُوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ فَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوا مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ عَلَى إِضْمَارِ [كَانُوا، أَيِ الَّذِينَ]^(٣) كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ، وَإِنْ كَانَ فِي الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِ، فَهُوَ عَلَى ظَاهِرٍ مَا ذَكَرَ: يَجْعَلُونَ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ.

وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَلْمُوكَ﴾ وعيدٌ، أَيِ سَوْفَ يَلْعَمُونَ مَا عَمِلُوا مِنَ الْإِفْتِسَامِ وَالْعِصْيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وما قالوا مِنَ الْإِفْتِسَامِ وَالْعِصْيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ وَأَنْوَاعِ الْأَذَى الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيِ نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَهُوَ مُحْفُوظٌ عِنْدَنَا، نَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ [بذلك]. وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى^(٤) التَّصْبِيرِ عَلَى الْأَذَى وَالتَّسْلِي عَنْ ذَلِكَ وَتَرْكِ الْمَكَافَاتِ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ يَضِيقُ صَدْرُهُ مَرَّةً لِتَرْكِهِمُ الْإِجَابَةَ لَهُ وَمَرَّةً لِلْأَذَى بِاللِّسَانِ.

وَالثَّانِي: [عَلَى^(٥) عِلْمٌ مِنَّا بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ وَمِنْ ضَيْقِ صَدْرِكَ بِذلك. لَكِنْ أَنْشَأْنَاهُمْ، وَمَكَّنَاهُمْ^(٦) عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِذلك اِمْتِحَاناً مِنَّا إِيَّاكَ بِذلك وَإِيَاهُمْ.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَيِ صَلَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أَيِ مِنَ الْمُصَلِّينَ.

وقوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ﴾ هُوَ أَمْرٌ. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ بِأَمْرِ رَبِّهِ، فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ الْمَوْتِ مِنْ بَعْدِ قَوْلِهِ^(٧): ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إِنْ كَانَ الْحَمْدُ لَهُ، وَهُوَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿تَسْبِيحٌ﴾ أَيِ نَزَّهَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِ مَا قَالَتِ الْمُلْحِدَةُ فِيهِ؛ إِذِ التَّسْبِيحُ، هُوَ التَّنْزِيهُ فِي اللُّغَةِ.

[وقوله تعالى^(٨)]: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيِ بِنَاءِ رَبِّكَ، أَيِ نَزَّهَ [رَبِّكَ]^(٩) مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَاءً، تُثْنِيهِ عَلَيْهِ ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. أَيِ مِنَ الْخَاضِعِينَ؛ إِذِ السُّجُودُ هُوَ الْخُضُوعُ. أَوْ يَكُونُ أَمْرُهُ إِيَّاهُ بِالتَّسْبِيحِ عَلَى التَّسْلِي وَتَوْسِيْعِ صَدْرِهِ بِالَّذِي يَكُونُ مِنْهُمْ، أَيِ ﴿تَسْبِيحٌ﴾ رَبِّكَ مَكَانَ ذَلِكَ.

الآية ٩٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ﴾ يَحْتَمِلُ التَّوْحِيدَ، أَيِ وَحْدَ رَبِّكَ. وَكَذلك قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: كُلُّ عِبَادَةٍ ذُكِّرَتْ فِي الْقُرْآنِ، فَهِيَ^(١٠) تَوْحِيدٌ؛ بِأَمْرِهِ بِإِعْتِقَادِ الْإِخْلَاصِ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونسب. (٣) في الأصل: كان أي الذي، في م: كان أي الذين. (٤) في الأصل وم: لذلك فهو، في م: لذلك فهو على. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ومكنا. (٧) في الأصل وم: بقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فهو.

وَيَحْتَمِلُ الْعِبَادَةَ نَفْسَهَا؛ يَأْمُرُهُ بِالْعِبَادَةِ لَهُ شُكْرًا عَلَى مَا رُويَ فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ صَلَّى حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: بَلَى، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ [البخاري ١١٣٠]

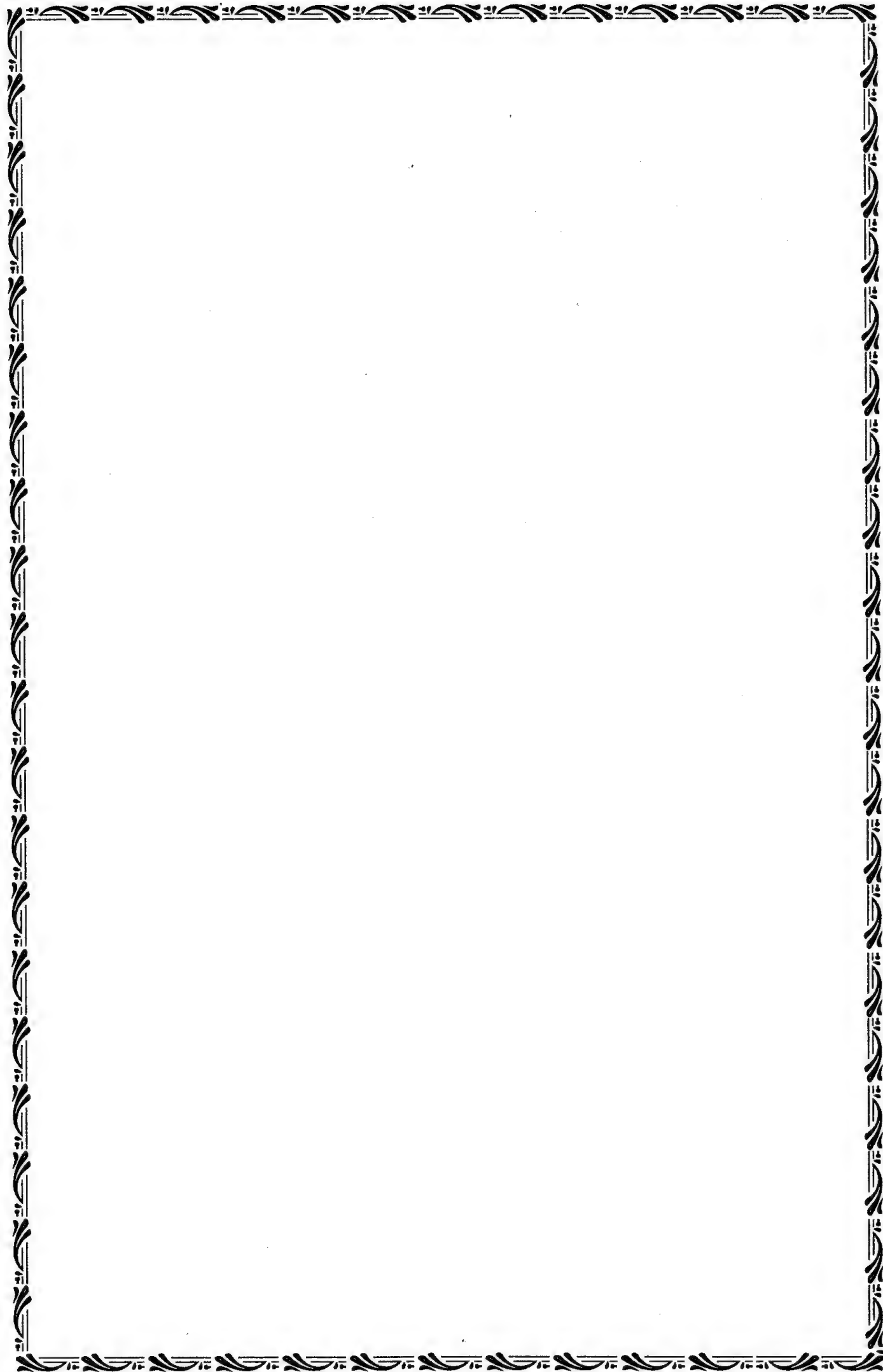
وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي ما تَيَقَّنْتَ بِهِ، وهو الموقن بِهِ. وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] أي مَنْ يَكْفُرْ بِالْمُؤْمَنِ بِهِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، لَأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يُكْفَرُ بِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْيَقِينُ لَا يَأْتِيهِ [ولكن يَأْتِي] ^(١) الموقن بِهِ.

وكذلك ما ذَكَرَ: الصَّلَاةُ أَمْرُ اللَّهِ، أي بِأَمْرِ اللَّهِ، وهو المأمور بِهِ، لَأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكُونُ أَمْرًا لِلَّهِ وَلَكِنْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وكذلك ما يَجِيءُ مِنْ هَذَا النَّحْوِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فِيهِمْ، وهو ما وَعَدَ مِنَ الْعَذَابِ فِيهِمْ؛ أَيِ يَتَيَقَّنُونَ بِذَلِكَ ^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَأُ.



(١) فِي م، وَلَكِنْ يَأْتِيهِ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: سُورَةُ النَّحْلِ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ الثَّلَاثُ آيَاتُ لَأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ.



سورة النحل

كلها مكية إلا ثلاث لأنها نزلت بالمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وجوه^(١):

أحدها: أن يُعَرَّفَ قوله: ﴿أَمْرٌ اللَّهِ﴾ [وإرادته، وما]^(٢) الذي استعجلوه، وأن ما استعجلوه الساعة والقيامة بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية [الشورى: ٨] ونحوه من الآيات.

والثاني^(٣): ﴿أَمْرٌ اللَّهِ﴾ رسوله الذي كَانَ يَسْتَنْصِرُ به أهل الكتاب على المشركين كقوله: ﴿وَكَاذِبًا بَيْنَ يَدَيْهِ يَسْتَنْصِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [البقرة: ٨٩] وكانَ يَتَمَنَّى مُشْرِكُو الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَسُولٌ كَسَائِرِ الْكَفَرَةِ كقوله: ﴿وَأَقْسُوا بِاللهِ جَهَدَ أَيْسُرِهِمْ﴾ الآية [فاطر: ٤٢] فلا تَسْتَعْجِلُوا ذهاب ما كُنْتُمْ تَتَمَنُّونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ أو شيء آخر، والله أعلم.

ثم إنه لم يُرَدِّ بقوله: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ﴾ وقوعه، ولكن قرينه، أي قُرْبَ آثارِ أمرِ الله كما يقال: أُنَاكَ الْخَيْرُ، وأُنَاكَ أَمْرٌ كَذَا على إرادة القُرْبِ لا على الوقوع.

وجائز أن يكون قوله: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ﴾ أي ظَهَرَتْ أَعْلَامُ اللهِ وَآثَارُهُ، وليس على إتيان أمره من مكانٍ إلى مكانٍ كقوله: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وَآثَارُهُ هو رسولُ الله ﷺ لأنه كَانَ به يَخْتُمُ النُّبُوَّةُ. فهو كَانَ إَعْلَامَ السَّاعَةِ على ما رُوِيَ عَنْهُ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» [البخاري ٦٥٠٣]. أشارَ إلى إِصْبَغِيهِ^(٤) لِقُرْبِهِمَا مِنْهُ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سُبْحَانُ هِيَ^(٥) كلمةٌ إِجْلَالٍ اللهُ يُجْرِيهَا على السُّنَنِ أَوْلِيَانِهِ على [تَبَرُّئِهِ مِمَّا]^(٦) قَالَتِ الْمَلْجِدَةُ فِيهِ وَتَعَالَى عَنْ جَمِيعِ مَا نَسَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَضْدَادِ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. سُبْحَانَ اللهِ، حَرْفٌ يُذَكِّرُ على إثر شيءٍ مُسْتَعْجِلٍ أو مُسْتَعْجَبٍ أو مُسْتَغْظَمٍ جواباً لِمَا ذَكَرَهُ على إثر وَصْفٍ وقول^(٧)، لا يَلِيقُ بِاللَّهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَنَحْوِهِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ على التَّزْيِيرِ مِمَّا^(٨) وَصَفُوهُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكَ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي بِالرُّوحِ الذي أَنْزَلَهُ على رُسُلِهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿بِالرُّوحِ﴾^(٩) الرَّحْمَةَ. وهو الذي بِهِ نَجَاةُ كُلِّ مَنْ رَجَمَهُ اللهُ، وَهَدَاهُ لِدِينِهِ، وهو ما ذَكَرَ حِينَ^(١٠) قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقيل: الرسالة والنُّبُوَّةُ وما ذَكَرَ رُوحاً لأنه بِهِ حَيَاةُ الدِّينِ كما سَمَّى الذي بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ رُوحاً^(١١).

وقال الْحَسَنُ: قوله: ﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي بِالْحَيَاةِ مِنْ أَمْرِهِ، وهو ما ذَكَرْنَا مِنْ حَيَاةِ الدِّينِ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي على مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَخْتَصَّ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَخْتَارَهُ، وهو مَشِيشَةُ الْإِخْتِيَارِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ يَصْلُحُ لِلذَّكَاءِ.

(١) في الأصل وم: وجهان. (٢) في الأصل: وأراد وما، في م: وأراد ما. (٣) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٤) في الأصل وم: إصبعين. (٥) في الأصل وم: هو. (٦) في الأصل وم: تبرئة ما. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) من م، في الأصل: فما. (٩) في الأصل: رسوله والرحمة والروح، في م: رسله والرحمة والروح. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: أرواحا.

وفيه دلالة اختصاصي/ ٢٨١ - /الله بعضهم على بغض، وإن كان غيره يصلح لذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَن أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ على هذا أجاب الرسل والأنبياء ﷺ جميعاً بالإنذار والدعاء إلى وخداثة الله وتوجيه العبادة إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَن أُنذِرُوا﴾ هو صلة ما تقدم من قوله: ﴿يُرِلَّ الْمَلَكَةُ﴾ ﴿أَن أُنذِرُوا﴾. ولا يوصل بما تأخر.

ثم يخرج على الإضمار، أي ﴿أُنذِرُوا﴾ وقولوا: إنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

الآية ٣ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قد ذكرنا قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ في غير موضع أنه لم يخلقهما وما فيهما عبثاً. إنما خلقهم لأمر كائن أو للمحنة والجزاء ونحوه.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يذكّرهم بـ ﴿نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ وَقُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ وَعِلْمَهُ﴾، لأنه لو اجتمع الخلائق كلها على أن يذكرها المعنى الذي به تصير النطفة نسمة وإنساناً ما قدروا عليه حين^(١) خلق النطفة إنساناً على أحسن تقويم وأحسن صورة.

وفيه نقض قول الدهرية حين^(٢) أنكروا خلق الشيء من لا شيء لأنهم لم يذكروا المعنى الذي خلق الإنسان من نطفة، فيلزمهم أن يقولوا يخلق الشيء من لا شيء، وإن لم يشاهدوا ذلك، ولم يذكرها.

وفيه دلالة البعث لأن من قدر على إنشاء الإنسان من النطفة، وليس فيها من آثار الإنسان شيء، يقدّر على البعث وإنشاء الأشياء من لا شيء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ قال بعضهم: الخصيم هو الذي يجادل بالباطل ﴿مُثِينٌ﴾ أي ظاهرة مجادلته بالباطل ومخاصمته. وقال بعضهم: الخصيم هو الجدل الذي يجادل في ما كان.

قال أبو عوسجة: الخصيم هو المخاصم والمخاصم، كلاهما خصيم. ويقال: فلان خصمي بين ظاهرة خصومته. والخصيم هو الفعيل، والفعيل قد يستعمل في موضع الفاعل والمفعول جميعاً. فكانه قال: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ أي متقطع عن الخصومة، بين انقطاعه، وهو ما ذكر من خصوميته في آية أخرى وانقطاع حجته حين^(٣) قال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ و ٧٨] فهذا احتجاج عليه. فإذا انقطعت حجته، بُهت الذي أنكّر قدرته على البعث لأنه^(٤) لم يتبها له جواب ما احتج عليه.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَالأَنَّمْ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ يختل قوله: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ على الظاهر أن خلق هذه الأشياء لنا ﴿فِيهَا دِفءٌ وَمَنْعٌ﴾ كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ويختل قوله: ﴿وَالأَنَّمْ خَلَقَهَا﴾ أي هو خلقها، ثم أخبر [أنها]^(٥) ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْعٌ﴾ يذكر أنواع المنافع والنعم التي أنعم علينا مفسرة مبيّنة واحدة بعد واحدة في هذه السورة وفي غيرها من السور. إنما ذكرها مجملة غير مشار^(٦) إلى كل واحدة منها على ما أشار إليها^(٧) في هذه السورة ليقوموا بشكروها^(٨)، وليعلموا قدرته على خلق هذه الأشياء لا من الأشياء.

ثم قوله: ﴿فِيهَا دِفءٌ﴾ قال بعضهم: الدفء نسل كل دابة، وقال بعضهم: ما يتنج منه.

وقال القتيبي: الدفء: ما استدفأت به. ويشبه أن يكون تفسير الدفء والمنافع التي ذكر^(٩) ما فسّر في آية أخرى، وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الآية

(١) وفي الأصل: رم. حيث. (٢) وفي الأصل: رم. حيث. (٣) وفي الأصل: رم. حيث. (٤) وفي الأصل: رم. حيث. (٥) ساقطة من الأصل: رم. (٦) وفي الأصل: رم: مشاركة. (٧) وفي الأصل: رم: ما. (٨) وفي الأصل: رم: بشكروها. (٩) وفي الأصل: رم: فكروا.

[النحل: ٨٠] جَعَلَ اللَّهُ فِي الْأَنْعَامِ مَا ذَكَرَ قَايَةً جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْأَذَى مِنَ السَّمَاءِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يَبِيحُ مِنَ الْأَنْفُسِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ [عَذْدُهَا، وَيَطُولُ أَمْدُهَا] ^(١) وَذَكَرَهَا.

وَجَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً مِنَ الرُّكُوبِ وَالشُّرْبِ وَالْأَكْلِ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [غافر: ٨٠] وَقَالَ: ﴿وَلَا لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَمَنَّةٌ تَشِيكُ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١] [وَقَالَ] ^(٢): ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٣٣].

الآية ٦

وَاخْبَرَ أَيْضاً أَنَّ فِيهَا جَمَالاً وَزِينَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَيْ جَمَالٍ يَكُونُ لَنَا فِيهَا؟ [قِيلَ] ^(٣): الْإِرَاحَةُ وَحِينَ السَّرْحِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: وَذَلِكَ أَنَّهُ أَغْجَبُ مَا يَكُونُ إِذَا رَاحَتْ عِظَامُ ضُرُوعِهَا طَوَالاً أَسْنَمَتْهَا ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ إِذَا سَرَحَتْ لِرَغِيهَا. أَوْ أَنَّ يَكُونُ الْجَمَالُ عِنْدَ الْإِرَاحَةِ وَالسَّرْحِ شُرْبُ الْبَانِيَا، وَقَرَى الضَّيْفُ فِي الْبَانِيَا فِي الرِّوَاكِ وَالْمَسَاءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسْرُونَ عِنْدَ الْإِرَاحَةِ وَالتَّسْرِيحِ، وَذَلِكَ السَّرُورُ يَظْهَرُ فِي وَجُوهِهِمْ، فَإِذَا ظَهَرَ زَادَهُمْ ^(٤) جَمَالاً وَحُسْنًا. وَهَكَذَا الْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ أَنَّهُمْ إِذَا سُرُوا يَظْهَرُ ذَلِكَ السَّرُورُ فِي وَجُوهِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ ^(٥) بِذَلِكَ جَمَالاً، وَإِذَا حَزَنُوا، وَأَصَابَهُمْ غَمٌّ، يُؤَثِّرُ ذَلِكَ الْغَمُّ نَقْصَاناً فِي خُلُقِهِمْ فَيَزْدَادُونَ ^(٦) قُبْحاً وَتَشْوِيهاً.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُمْ إِذَا أَرَا حُوا، أَوْ سَرَّحُوا، رَأَى النَّاسُ أَنَّ أَرْبَابَهَا أَهْلُ غِنًى وَأَهْلُ ثَرَوَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَا يَخْتَاجُونَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ لِغَيْرِ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ، فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ ذِكْرٌ عِنْدَ النَّاسِ وَشَرَفٌ، وَذَلِكَ جَمَالُهُمْ وَشَرَفُهُمْ، فِيهَا ظَاهِرٌ لِأَنَّ مَا يُسَيِّطُ وَيُفَرِّشُ، إِنَّمَا يَتَّخِذُ مِنْهَا وَمِنْ أَصَوافِهَا، وَكَذَلِكَ مَا يُلْبَسُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهَا، وَإِنَّمَا يُسَيِّطُ، وَيُفَرِّشُ، وَيُلْبَسُ، لِلتَّجَمُّلِ وَالتَّبَاهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَوْتَاقِلَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَانِيهِ إِلَّا بَشَرٌ الْأَنْفُسِ﴾ ذَكَرَ أَيْضاً مَا جَعَلَ فِيهَا لِلنَّاسِ مِنَ النِّعَمِ مَا تَحْمِلُ مِنَ الْأَثْقَالِ مِنْ مَكَانٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، مَا لَمْ يَكُنْ انْتِشَاهُنَّ، أَغْنَى الْأَنْعَامُ الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهَا تَحْمِلُ أَثْقَالَنا [وَلَا نَصِلُ] ^(٧) إِلَى ذَلِكَ بِدُونِهِ إِلَّا بِجَهْدٍ وَشِدَّةٍ.

وَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي هَذِهِ الْأَنْفُسِ حَوَائِجَ وَقَوَاماً بَأَنَّ لَا قَوَامَ لَهَا إِلَّا بِذَلِكَ. فَلَمَّا لَا يَظْهَرُ بِمَا بِهِ قَوَامُ النَّفْسِ إِلَّا فِي بَلَدٍ آخَرَ وَمَكَانٍ آخَرَ، فَلَوْ تَحَمَّلَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ تَلَفٌ نَفْسِيٍّ وَذَهَابٌ مَا بِهِ قَوَامُهُ. فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ لَنَا مَا يُحْمَلُ بِهِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ [فِي مَا] ^(٨) بِهِ قَوَامُ أَنْفُسِنَا وَحَاجَاتِنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَمُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيُّ مِنْ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ مَا جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الْأَنْعَامِ وَمَا ذَكَرَ، أَوْ ذَكَرَ لَتَسْرَحُوا عَلَى هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقَهَا لَكُمْ ^(٩) فِي الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا، وَذَكَرَ فِيهِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] وَذَلِكَ لَا يُوصَلُ إِلَى أَكْلِهِ إِلَّا بِالذَّبْحِ. فَمَا ^(١٠) يُوَكَّلُ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ.

وَذَلِكَ يَنْقُضُ عَلَى التَّوَيُّهِ قَوْلَهُمْ؛ أَنْكُرُوا ذَبْحَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُمْ يَتَأَلَّمُونَ بِالضَّرْبِ وَالذَّبْحِ وَالْقَتْلِ كَمَا تَتَأَلَّمُونَ أَنْتُمْ، فَمَنْ قَصَدَ قَصْدَ أَحَدِكُمْ بِالْقَتْلِ فَهُوَ سَفِيهٌ عِنْدَكُمْ غَيْرُ حَكِيمٍ وَلَا رَحِيمٍ، بَلْ مَوْصُوفٌ بِالْفَسَادِ وَالسَّفْوَةِ، فَاللَّهُ، سُبْحَانَهُ، مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ بِالذَّبْحِ وَالْقَتْلِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ مَا يُزِيلُ الرَّحْمَةَ وَالْحِكْمَةَ.

فَيُجَابُ لَهُمْ [بِوَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا ^(١١): أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ هَذَا الْبَشَرَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِلْمِخْتَةِ وَلِعَاقِبَةِ قَصْدِهَا: إِمَّا ثَوَاباً وَإِمَّا عِقَاباً، وَاخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ هَذِهِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَدَهَا وَيَطُولُ مَدَهَا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَزْدَادَ لَهُمْ. (٤) وَ (٥) وَ (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَزْدَادُ لَهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي م: مِمَّا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: فِيمَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِوَجْهٍ أَحَدٍ.

الاشياء لنا، وجعل لنا فيها منافع، تؤمل، وتُقصد. وقد تجد في الشاهد من هو موصوف بالرحمة والرافة على نفسه؛ يُجرَح نفسه الجراحات، وتحمل عليها الشدائد والمكروهات لمنافع، يقصدها^(١) وخير يأمله^(٢) في العاقبة، ثم لم يوصف بالسوء ولا بالخروج/ ٢٨١ - ب/ عن الحكمة والرحمة من الحجامه والاقتصاد وشرب الادوية الكريهة الشديدة ما لو لم يأمل ما قصد من النفع والعاقبة في العاقبة ما تحمل تلك المكروهات والشدائد. قدل ما وصفنا ان تحمل الأذى والألم والمكروه غير خارج عن الحكمة والرحمة، ولا الفعل بما فعل سفة إذا كان لمنافع تقصد في العاقبة وعاقبة تؤمل. فيبطل قول الشنوية: إن ذلك مما يؤمل الرحمة.

والثاني^(٣): أن هذه الأنعام والبهائم لم تخلق للمحنة وللجزاء في العاقبة، ولكن خلقت لمنافع البشر؛ فلهم الانتفاع بها مرة بلحومها ومرة بحمل أثقالهم^(٤) والانتفاع بظهورها مع ما ذكرنا أن تحمل المكروهات وأنواع الشدائد والألم، لا يخرج الفعل عن الحكمة، ولا يؤمل الرحمة والرافة إذا قصد به النفع في العاقبة، وطمع فيه الخير. وهذا يدل أنه أبيع لنا الانتفاع والذئع على غير جعل حقيقتها لنا حين^(٥) لم يبع لنا إتلافها، إذ لو كانت أصول الأشياء لنا لكان لا ينفع عن الإتلاف. قدل أنه أبيع لنا الانتفاع بها على غير جعل الحقيقة والأصول لنا. فيبطل قول من يقول: إن الأشياء في الأصل على الجمل والإباحة حتى يقوم ما يحظر.

قال أبو عبيد: «حيث ترعون» يقال فيه^(٦): أرخت الإبل أريحها إراحة، والإراحة عند العرب أن يصد الرعاء مواشيهم^(٧) بالليل إلى ماواها. ولهذا سمي ذلك الموضع المراح. وقوله: «ويبين ترعون» هو إخراجها إلى المرعى؛ يقال: سرحتها أسرحها سرحاً وسروحاً. وكذلك قال الفتي وأبو عوسجة. والدفع ما ذكرنا أنه من الاستدعاء.

الآية ٨

وقوله تعالى: «وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً» قوله: «وزينة» يتحمل وجهين:

أحدهما: أن الماشي هو دون الراكب، والمشي يورث نقصاناً في الوزن^(٨)، والركوب لا، وذلك زينة على ما ذكر في قوله: «ولكنم فيها جمال» [النحل: ٦].

والثاني: أن الراكب إذا نظر إلى الماشي سر بركوبه، فالسرور يظهر في وجهه وذلك يزيد في حسبه وجماله. وأصله ما ذكر الله «وَالْأَنْثَى خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ» الآية [وقال: ٩] «وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً» بين أنه لماذا خلق الأنعام، وما جعل فيها؟ وهو ما ذكر أنه جعل فيها الدفء والمنافع «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» وبين أنه لماذا خلق الخيل؟ وهو ما ذكر «لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً».

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن لحوم الخيل، فقراً: «وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا» ولم يقل لتأكلوها، ففكره أكلها لذلك.

وتمام هذا [في وجهين]:

أحدهما^(٩): أن الله ذكر الأنعام، وما ذكر من النعم والانتفاع بها، وبالع في ذكرها لأنه قال: «وَالْأَنْثَى خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» وقال: «ولكنم فيها جمال حيث ترعون ويبين ترعون» وقال: «هو الذي أرسل من السماء ماء لكر منه شراباً ومنه شجرة» [النحل: ١٠] وقال: «ينبت لكم به الزرع والزيتون والتخيل والأعناب ومن كل الثمرات» [النحل: ١١] وقال: «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً» [النحل: ١٤] إلى آخر ما ذكر. ذكر جميع ما ينتفع به من أنواع المنافع ذكراً شافياً غير مكفٍ. قدل ما ذكر في الخيل من الركوب وكذلك في البغال والحمير على أنه ليس فيها منفعة أخرى سوى ما ذكر، وهو الركوب؛ إذا خرج الذكر لها على المبالغة والاستقصاء ليس على الإكفاء. ولو كان هناك منفعة أخرى لذكر ما ذكر في غيره، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: تقصد. (٢) في الأصل وم: يتأمل. (٣) في الأصل وم: على. (٤) في الأصل وم: أثقالها. (٥) في الأصل وم: حيث.

(٦) في الأصل وم: منه. (٧) في الأصل وم: مواشيها. (٨) في الأصل وم: الوجه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: مِنَ الْأَشْيَاءِ أَشْيَاءٌ يُعْرِفُ خُبْنُهَا بِنَفَارِ الطَّبَاعِ، وَالصَّبِيَّانَ أَوَّلَ مَا يَتَلْعَوْنَ^(١) يَرْغَبُونَ فِي رُكُوبِهَا، لَا أَحَدٌ يَرْغَبُ فِي أَكْلِهَا إِلَّا مَنْ غَيْرَ طَبْعُهُ عَمَّا كَانَ مَجْبُوباً بِهِ، فَهُوَ يَرْغَبُ فِي أَكْلِهَا^(٢). وَأَمَّا مَنْ تَرَكَ وَطْبَعَهُ يَسْتَحْيِيهَا^(٣)، وَيَتَفَرَّ طَبْعُهُ عَنْ أَكْلِهَا^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وروي عن جابر [أنه]^(٥) قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، وَأَخَذُوا الْحُمُرَ الْأَهْلِيَّةَ، فَذَبَحُوهَا، فَحَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لُحُومَ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ وَلَحُومَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَكُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَكُلَّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ، وَحَرَّمَ الْخُلْسَةَ وَالثَّهْبَةَ.

وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ خلاف ذلك. قال: أَطْعَمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لُحُومَ الْخَيْلِ، وَنَهَانَا عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ [البخاري ٥٥٢٠].

وعن أسماء بنت أبي بكر [أنها]^(٦) قالت: نَحَرْنَا فَرَساً فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكَلْنَاهُ [البخاري ٥٥١٩].
وفي بغض الأخبار أن رسول الله ﷺ نهى عن لُحُومِ الْحُمُرِ، وَإِذْ لَنَا فِي لُحُومِ الْخَيْلِ. قلنا: قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا أَكَلُوهُ فِي الْحَالِ الَّتِي كَانَ يُؤْكَلُ فِيهَا الْحُمُرُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ إِنَّمَا نَهَى عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْخَيْلِ صَرِيحاً^(٧) فَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا أَكَلُوا لَحْمَ الْفَرَسِ فِي حَالِ الْإِبَاحَةِ، إِذْ لَمْ يَذْكُرُوا الْوَقْتَ.

وعَنِ الْحَسَنِ [أنه]^(٨) قال: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُونَ لُحُومَ الْخَيْلِ فِي مَغَازِيهِمْ، وَكَانَ الْحَسَنُ لَا يَرَى فِيهَا بَأْساً عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَقَوْلُ الْحَسَنِ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ لُحُومَ الْخَيْلِ فِي مَغَازِيهِمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ فِي حَالِ الْضَّرُورَةِ.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ: فِيهِ لِرَجُلٍ كَذَا أَوْ لِرَجُلٍ آخَرَ كَذَا وَعَلَى رَجُلٍ وَزَرٌ» [البخاري ٢٨٦٠] يُبَيِّنُ أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِغَيْرِ ذَلِكَ. وَلَوْ صَلَحَتْ لِلْأَكْلِ لَقَالَ: الْخَيْلُ لِأَرْبَعَةٍ وَلَقَالَ: وَلِرَجُلٍ طَعَامٌ.

وكما يُبَيِّنُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَغْلَ حَرَامٌ، وَهُوَ مِنَ الْفَرَسَةِ، فَلَوْ كَانَتْ أُمُّهُ حَلَالاً كَانَ هُوَ أَيْضاً حَلَالاً. وَلِأَنَّ حُكْمَ الْوَلَدِ حُكْمُ أُمِّهِ، لِأَنَّهُ مِنْهَا، وَهُوَ كَبَقِضِهَا. فَمَنْ حَرَّمَ الْبَغْلَ لَزِمَهُ أَنْ يُحَرَّمَ لَحْمَ الْفَرَسَةِ فِي حُكْمِ النَّظَرِ وَالْمَقَاسِ.

أَفَلَا تَرَى أَنَّهُ جُعِلَ حُكْمُ الْوَلَدِ حُكْمَ أُمِّهِ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ بِالْفَحْلِ؟ فَلَمَّا كَانَ لَحْمُ الْبَغْلِ حَرَاماً وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَحْمُ الْفَرَسَةِ كَذَلِكَ.

إِلَّا أَنْ أَبَا حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانَ لَا يُطْلِقُ تَحْرِيمَ أَكْلِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الشُّبْهَةِ [لَاخْتِلَافِ الْأَحَادِيثِ]^(٩) الْمَرْوِيَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ. لَكِنَّهُ ذَكَرَ الْكَرَاهَةَ لِلشُّبْهَةِ الَّتِي فِيهَا.

وكان أبو يوسف، رَحِمَهُ اللَّهُ، يُبِيحُ أَكْلِهَا.

وقد يَجُوزُ أَنْ يُحْتَجَّجَ لِأَبِي يُوسُفَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَوْلُودِ مِنَ الْفَرَسَةِ وَبَيْنَ وَلَدِ الْجِمَارَةِ الْوَحْشِيَّةِ، إِذَا تَرَى، عَلَيْهَا حِمَارٌ أَهْلِيٌّ، بَأَنَّ وَلَدَ الْجِمَارِ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ جِنْسِ أُمِّهِ، فَحُكْمُهُ حُكْمُهَا. وَالْبَغْلُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ أُمِّهِ، هُوَ مِنْ جِنْسٍ ثَالِثٍ. فَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ سَبِيلُهَا بِسَبِيلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَا لَا نَعْلَمُ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّفَ فِي عِلْمِ ذَلِكَ، أَوْ يَخْلُقُ مِنَ النَّعَمِ فِي مَا خَلَقَ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَنْتُمْ أَنَّهَا نَعَمٌ، أَوْ قَالَ: يَقُولُ قَوْمٌ: إِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئاً لَا يُطْلِعُ الْمُتَمَتِّحِينَ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيُّ عَلَى اللَّهِ بَيَانُ قَضْدِ السَّبِيلِ وَهُدَى يُبَيِّنُ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَيُبَيِّنُ [السَّبِيلَ مِنَ السُّبُلِ]^(١٠) الَّتِي تَفَرَّقَتْ عَنْ سَبِيلِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا يَكَانَهُ﴾ [الْقِيَامَةُ: ١٩].

الآية ٩

(١) في الأصل وم: بلغوا. (٢) في الأصل وم: أكله. (٣) في الأصل وم: يستحب. (٤) في الأصل وم: أكله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صحيحاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: والاختلاف والأحاديث. (١٠) في الأصل وم: من السبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَاذِبٌ﴾ أي عليه بيان ما يجوز منها: قَصْدُ السَّبِيلِ، يُعْذَلُ، وَيُجَارُ. أو يقال: وبالله يوصل إلى قَصْدِ السَّبِيلِ. وقال بعضهم ﴿وَعَلَّ اللَّهُ﴾ أي وبالله يوصل بِقَصْدِ السَّبِيلِ، وهي السَّبِيلُ التي ذَكَرْنَا. ﴿وَمِنْهَا جَاذِبٌ﴾ كقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال بعضهم: طريقُ الحقِّ والعدلِ لله، وقد يُسْتَعْمَلُ حُرُفٌ عَلَى مَكَانِ اللَّامِ كقوله تعالى^(١): ﴿وَمَا دُخِيَ عَلَى النَّصْبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنَّصْبِ، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وقوله^(٢) تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ/ ٢٨٢ - ١/ النَّاسُ رَبِّهِمُ الْآلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿وَمِنْهَا جَاذِبٌ﴾ وهي السَّبِيلُ الْمُتَفَرِّقَةُ عَنْ سَبِيلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: لو شاء أَكْرَمَ الْخَلْقِ كُلَّهُ بِاللُّطْفِ الَّذِي أَكْرَمَ أَوْلِيَاءَهُ، فَاهْتَدَوْا بِهِ، فَيَهْتَدُونَ.

والثاني: لو شاء أعطاهم جميعاً الحال التي يكون بها الإهتداء، وهو ما قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣] إلى آخر ما ذَكَرَ لِمَا لَا يَخْتَمِلُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مَعَ الْكُفَارِ لَكُفَرُوا جَمِيعاً، وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَالُ لِلْمُسْلِمِينَ لَا يُسْلِمُونَ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿مَرُّ اللَّيْلِ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ موصولٌ بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية: ٣] وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُفْلَةٍ﴾ [الآية: ٤] وقوله: ﴿وَالْأَنْثَى خُلِقَتْ﴾ [الآية: ٥] وقوله^(٣): ﴿وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْجَوَارِ وَالْحَمِيرِ﴾ [الآية: ٨] يقول: الذي خَلَقَ لَكُمْ مَا ذَكَرَ [مِنْ] ^(٤) الْأَشْيَاءِ ﴿مَرُّ اللَّيْلِ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ هذا يَخْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ لَنَا [نَم] ^(٥) أَخْبَرَ ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾.

ثم يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْهُ شَرَابٌ﴾ جميع ما يُشْرَبُ مِنَ الْأَشْرَبَةِ؛ إِذْ مِنْهُ تَكُونُ الْأَشْرَبَةُ وَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ. وَيَخْتَمِلُ ﴿مِنْهُ شَرَابٌ﴾ الْمَاءَ خَاصَّةً ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ الشَّجَرُ معروف؛ هو الذي يَغْلُو، وَيَرْتَفِعُ عَلَى الْأَرْضِ، لَا يُسَمَّى الْحَشِيشَ، وَمَا يَنْبَسِطُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يُسَمَّى حَشِيشًا^(٦). فظاهرُ هذا أَنْ يَرْجَعَ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ شَجَرًا ﴿فِيهِ ثَمَرٌ﴾ أَي تَزْرَعُونَ.

دَلَّ هَذَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِالشَّجَرِ الْمُتَبَسِّطِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَالْمُرْتَفِعِ عَلَيْهَا.

وقال القُتَيْبِيُّ: السَّائِمَةُ الرَّاعِيَّةُ، وكذلك قال أبو عَوْسَجَةَ. وقال أبو عُيَيْدَةَ: أَسْمَتْ سَائِمَتِي أَي رَعَيْتُهَا، وكذلك قوله: ﴿وَالْعَلِيلُ الْمُسَوِّمَةُ﴾ [آل عمران: ١٤] أَي الرَّاعِيَّةُ.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أَي يُنْبِتُ لَكُمْ بِالماءِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ^(٧) مِنَ السَّمَاءِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَجَمِيعَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ بِلُطْفِهِ [إِذْ هُوَ] ^(٨) لِقَاحُ كُلِّ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ [وَالْمُتَّفِقَةِ] ^(٩) لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنَ الدُّوَابِّ حِينَ^(١٠) لَمْ يَجْعَلِ اللَّقَاحَ شَيْءٍ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ، إِنَّمَا جَعَلَ لِقَاحَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ نَوْعِهِ، وَجَعَلَ فِي الْمَاءِ بِلُطْفِهِ سِرِّيَّةً تُوَافِقُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ عَلَى إِدْرَاكِ ذَلِكَ، وَإِنْ اجْتَهَدُوا، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ؛ يَغْرِقُونَ الْمَاءَ ظَاهِرًا، وَلَكِنْ لَا يَذَرُكَ مَا فِيهِ مِنَ اللَّطْفِ وَالسَّرِّيَّةِ الَّذِي بِهِ تَكُونُ حَيَاةُ كُلِّ أَحَدٍ^(١١) وَمُوَافَقَتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ أَنَّ فِيهِ آيَةً ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ لِمَاذَا؟ لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ آيَةٌ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بِالتَّفَكُّرِ يُعْرِفُ أَنَّهُ آيَةٌ لِمَاذَا؟ أَوْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي غَابَتْ عَنْ ظَاهِرِهَا؛ بِالتَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ تَذَرُكَ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ وَمَا ذَكَرَ، وَوَجَّهَ تَسْخِيرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَقَوْلِهِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: شَجَرًا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْزَلَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَاءَ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: حَيَاةَ.

لنا، وهو أن الله خلق هذه الأشياء، وجعل فيها منافع للخلق، تصل تلك المنافع إلى الخلق، شئ أم أبين، أجبن، أم كرهن.

جعل في النهار معاشاً للخلق وتقلباً فيه يتعيشون، ويتقلبون، وجعل الليل راحة لهم وسكناً، ينتفعون بهما شاءا، أم آتيا، وكذلك ما جعل في الشمس والقمر والنجوم من المنافع في إنضاج الفواكه والثمار وإدراك الزروع وبلوغها ومعرفة الحساب والسنين والأشهر ومعرفة الطرق والسلوك بها وغير ذلك من المنافع ما ليس في وسع الخلق إدراكه؛ ينتفع الخلائق بما جعل فيها من المنافع، شاءت هذه الأشياء، أم أبى. فذلك وجه تسخيرها لنا.

ويحتمل ما ذكر من تسخير هذه الأشياء لنا ما جعل في وسعنا استعمال هذه الأشياء والإنتفاع بها والحيل التي بها نقدر على استعمالها في حوائجنا.

ويحتمل تسخيرها لنا ما نتفع بهن؛ شئ، أم أبين بالطباع، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿سُحَّرَتْ بِأَمْرِئِهِ﴾ يحتمل وجهين: يحتمل أي بأمرة تنفع الخلائق، ويحتمل ﴿بأمرئِهِ﴾ أي كونها في الأصل هكذا بأن تنفع الخلق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال في الآية الأولى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جعل الله ﷻ التفكر سبيلاً للعقول إلى إدراك الغيبة بالحواس الظاهرة؛ إذ لا سبيل للعقل إلى إدراك ما غاب عنه إلا بالحواس الظاهرة^(١)، فجعل الحواس الظاهرة سبيلاً للعقول إلى إدراك المغيب عنها.

ذكر ﷻ في الآية الأولى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وذكر في الآية الثالثة: ﴿لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] وفي الرابعة: ﴿وَلَكُم تَفَكُّرُونَ﴾ [الآية: ١٤] فهو، والله أعلم كرره على مراتب، لأنه بالتفكير فيها يعقل، ويعلم، ثم بعد العلم والعقل والفهم يذكّر. وإذا تذكّر عند ذلك شكر نعمه.

ثم قوله، والله أعلم: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقوله^(٢) ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ما ذكر فيهما^(٣) دلالة واحداً لله تعالى ودلالة تديبه وعلمه وحكمته ودلالة بعث الخلائق ودلالة قدرته وسلطانه؛ لأن الليل والنهار آيتان الجارية والفراغة، ويذهبان بعمرهم، ويقتبان، شاؤوا، أم أبوا. فذلك آية سلطانه وقدرته ليعلم أن له السلطان والقدرة [لا]^(٤) لهم.

وفيها دلالة البعث لأنه إذا أتى هذا ذهب الآخر، حتى لا يبقى له أثر. ثم ينشئ مثله بعد أن لم يبق من الأول شيء ولا أثر. فالذي قدر على إنشاء النهار أو الليل بعد ما ذهب أثره، وتلاشى، قادر على إنشاء الخلق بعد ما يذهب^(٥) أثرهم.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم وما ذكر؛ لما اتسق هذا كله على سنن واحد وتقدير واحد على غير تفاوت فيها ولا تفاضل وعلى غير تقديم ولا تأخير، جرى كله على [سنن]^(٦) واحد وتقدير واحد وميزان واحد من غير تفاوت ولا^(٧) اختلاف. دل أنه على تدبير واحد خرج ذلك لا على الجفاف، وأن مدبر ذلك كله واحد؛ إذ لو كان تدبير عدد لخرج مختلفاً متفاوتاً. فدل أنه تدبير واحد لا عدد، وأنه على تدبير غير خرج، وجرى كذلك لا بنفسه، وأنه على حكمه وعلم جرى كذلك. فيدل على لزوم الرسالة والعبادة له، والله أعلم بتأويل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَّا لَكُم فِي الْأَرْضِ حَبْلًا أَلَسْتُمْ بِآيَاتِهِ أَصْنَافًا﴾ أي مختلفاً أصنافه وجواهره. يخبر ﷻ عن قدرته وسلطانه ونعمه التي أنعمها عليهم. أمّا سلطانه وقدرته فما خلق في الأرض، وأنبت فيها بالماء، لم يرجع إلى جوهر الأرض وجنسها، ولا إلى جوهر الماء وجنسه، وهما كالوالدين: الماء كالأب والأرض كالأم، فلم يرجع ما خرج منهما [إلى جنسهما ولا إلى جوهرهما]^(٨) كما كان في سائر الأشياء؛ رجع التوالد منها إلى جنس الوالدين وجوهرهما، بل رجع

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: لا يدركه العقل. (٢) في الأصل وم: فيه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ذهب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في م، الواو ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: من جنسهما ولا من جوهرهما، في م: من جنسهما ولا من جوهرهما.

التوالد والمنشأ من الأرض والماء إلى جنس البذر وجوهره لتعلم قدرته وسلطانه على^(١) إنشاء الأشياء بأسباب وبغير أسباب ومن شيء ومن لا شيء.

ويذكر نعمه حين^(٢) أخبر أنه خلق في الأرض من الأصناف المختلفة والجواهر المتفرقة ليستقروا بها.

ويختل قولهُ: ﴿مَخْلُوقَاتُ آلِهَةٍ﴾ من جنس واحد من شيء واحد لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وفي آية أخرى ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١] وفي آية أخرى ﴿لِكُلِّ مَكَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و ١٠] وفي آية أخرى^(٣) ﴿لِلْمُتَوَسِّلِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] وفي آية أخرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] فيختلج/٢٨٢ - ب/ أن يكون كله كناية عن المؤمنين؛ كأنه قال: إن في ذلك لآية للمؤمنين؛ إذ يجمع الإيمان جميع ما ذكر من التَّفَكُّر والتَّذَكُّر والعقل والإغْيَار والصَّبْر والشُّكْر وغيره.

ويختلج: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ و﴿يَتَقَلَّبُونَ﴾ و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لقوم همتهم الفكر والنظر في الآيات، ولقوم همتهم التفهم والإغْيَار فيها، لا لقوم همتهم العناد والمكابرة والإعراض عن النظر في الآيات والفكر فيها. وفي ذكر الآية للمفكرين والعاملين والمتذكرين لما منفعة الآية تكون لهؤلاء. وإن كانت الآيات لهم ولغيرهم فمَنَعَتْهَا لِمَنْ ذَكَرَ، والله أعلم.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْخِرُوا إِيَّاهُ مَا بَدَلَ لِخَلْقِ مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَمْوَالِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ وَاللُّؤْلُؤِ، وَبَدَلَ مَا فِيهِ مِنَ الدَّوَابِّ وَالسَّمَكِ وَغَيْرِهِ. فَلَوْلَا تَسْخِيرُ اللَّهِ إِيَّاهُ لِلْخَلْقِ وَتَغْلِيظُهُ إِيَّاهُمْ الْجِيلَ الَّتِي بِهَا يُوصَلُ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ النَّفِيسَةِ، وَإِلَّا مَا قَدَرُوا عَلَى اسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِ وَالْوَصُولِ إِلَيْهِ لِشِدَّةِ أَمْوَالِهِ وَإِفْرَاقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يختلج السمك خاصة، ويختلج السمك وما فيه من الدواب، من نوع ما لو كان برياً أكل من نحو الجواميس وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْخِرُوا مِنْهُ جَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ تختلج الجلية اللؤلؤ والمرجان الذي ذكر في آية أخرى حين^(٤) قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ثم يختلج قوله: ﴿جَلِيَّةً﴾ أي ما يتخذ منه جلية. وهذا جائز أن يسمى الشيء باسم ما يتخذ منه، وباسم ما يصير به في المتعقب، أو يسمى جلية لأنه زينة. ولا شك أن اللؤلؤ والمرجان هما زينة وجمال، وفي الخيل والبغال كذلك. فالزينة في اللؤلؤ والمرجان أكثر، والجمال فيه أظهر.

أخبر أنه جعل لنا الوصول إلى الثاني: قعر البحر، وهو ما ذكر من اللؤلؤ وأنواع الحلى، وما في بطن البحر، وهو ما ذكر من اللحم الطري، وما هو على وجه الماء، وهو السفن التي ذكر.

ووجه تسخيرِه [إيَّاهُ لنا]^(٥) الجيل والأسباب التي علمنا حتى نصل إلى ما فيه. فكانه قال: سخرت لكم البحر من أسفله إلى أعلاه. وفي ذلك دلالات:

أحدها: إباحة التجارة بركوب الأخطار لأن الغايص^(٦) في البحر يخطر^(٧) بنفسه وروحه. وكذلك راكب السفن. فلولا أنه مباح له طلب ذلك، وإلا ما ذكر هذا في منته؛ إذ هو يخرج مخرج ذكر الإمتنان، والله أعلم.

وقوله ﴿وَتَرَكْنَا الْفُلُوكَ مَوَاحِشَ فِيهِ﴾ قال الحسن والأصم: المَواخِرُ السفن المشحونات^(٨) الوافرة أحمالها وأثقالها؛ يذكُر منته التي من بها عليهم حين^(٩) جعل لهم السفن والفلك، تُحْمَلُ بها الأحمال الثقيل العظام في البحار، ما سِيلُهَا التَّسْفُلُ والإنحدار في البحر، فأمسكها فيه بالسفن العظام الثقيلة.

(١) في الأصل وم: إلى. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إيانا. (٦) من م، في الأصل: الغايطي. (٧) في الأصل وم: يخطر. (٨) في الأصل وم: المحشوات. (٩) في الأصل وم: حيث.

وقال بعضهم: ﴿مَوَاجِرَ﴾ أي جارية مقلبة مذبرة بريح واحدة في البحر، لأن ماء البحر راكد، فأجرى السفن فيه بالرياح حيث أرادوا، وقصدوا؛ إذ الأشياء قد تجري على مجرى الماء إذا كان له جريته، وأما إذا كان راكداً ساكناً فلا سبيل إلى ذلك. فيذكر عظيم منتهى قدرته على إجراء السفن في الماء الراكد بالريح.

وقال بعضهم: ﴿مَوَاجِرَ﴾ أي جوارى، تشق الماء شقاً، وتخرقه؛ يقال: مخرت السفينة، ومنه مخر الأرض، إنما هو شق الماء لها، وهو قول القتيبي. فذلك قال أبو عبيدة: إنه من شق السفن الماء. وقال أبو عوسجة: المواجه المستقبلة؛ يقال: استمخر الإنسان الريح إذا استقبلها. وقال أبو عبيدة: ﴿مَوَاجِرَ﴾ من الاستدبار؛ يقال: إذا أراد أحدكم البول فليستخمر الريح، أي يستدبرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَفْتُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يختل بالتجارة التي جعل فيها حيث جعل فيها قطع البحار إلى بلاد نائية بعيدة بالسفن ليستفوا ما به قوام أبدانهم وأنفسهم؛ إذ جعل بنيتهم بنية لا تقوم إلا بالأغذية، ولعلمهم لا يظفرون بما به قوام أبدانهم وبنيتهم في بلادهم، فيحتاجون إلى البلاد النائية البعيدة عنهم، فمن عليهم بذلك. كما من يقطع المفاوز والبادي بالدواب بقوله: ﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلِيِّهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧].

أو قال: ﴿وَلْيَسْتَفْتُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بما يستخرج منه ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جميع ما ذكر من ألوان النعم والمنافع من أول السورة إلى آخرها يستادي به شكره.

وفي قوله: ﴿وَلْيَسْتَفْتُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ دلالة بإحاطة التجارة وطلب الفضل بركوب الأخطار واختمال الشدائد حين^(١) أخبر أنه سخر البحر حتى أمكنهم ركوبه بالجيل والأسباب التي علمها لهم، لأن الغواص يخاطر^(٢) بروحه ونفسه، وكذلك راكب السفينة.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُبَدَّىٰ بِكُمْ﴾ أي ألقى في الأرض رواحي لتلا تמיד بكم، لأنها بسطت على الماء، فكانت تكفأ بأهلها كما تكفأ السفينة في الماء، فأنبتها بالجبال لتقر بأهلها.

لكن لو كان على ما ذكروا أنها بسطت على الماء لكانت لا تكفأ، ولا تضطرب، ولكنها تسرب في الماء، وتنهار فيه، لأن من طبعها التسفل والتسرب في الماء، إلا أن يقال: [إن الله^(٣) جعل بلطفه طبعها طبع ما يضطرب، وكفأ. فينذ ذلك يختل ما ذكروا، والله أعلم.

ولو قالوا: إنها بسطت على الريح لكان يختل ما قالوا، ويكون أشبه بقولهم، ألا ترى أن السراج في الآبار والسرور، لا يضيء، بل يطفأ، كلما أخرج؛ فيشبه أن يكون أنطفأؤه بريح، يكون في الأرض، وقد ذكرنا هذا في ما تقدم، والله أعلم بذلك.

وقال بعضهم: بسطت على ظهر الثور، فكانت تضطرب بتحريكه، فأساها بما ذكر، والله أعلم.

ثم قوله: ﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُبَدَّىٰ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ يخرج ذكر ذلك منه مخرج^(٤) الامتنان؛ ذكر النعمة لأن له أن يترك الأرض على ما خلقها، ولا يثبتها بالجبال لتמיד بأهلها، ويبيها^(٥) فلا يقدروا على القرار عليها والانتفاع بها. لكنه بفضل منتهى أثبتاها بالجبال ليقروا عليها، ويقدروا على الانتفاع بها.

وكذلك له ألا يجعل لهم فيها أنهاراً جارية، فتكون مياههم^(٦) من آبارها. وكذلك له أن يحوجهم بأنواع الحوائج، ثم لا يبين لهم الطرق والسبل التي تفضي إلى البلدان والأمكنة التي فيها تقضى حوائجهم. وكذلك بفضل جعل لهم في الأرض أنهاراً جارية، وأثبت الأرض بالرواسي ليقروا عليها. وذلك كله بمنه وقضيه.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يخطر. (٣) في الأصل: الله، في م: إنه. (٤) في الأصل وم: ذكر. (٥) من م، في الأصل تملها. (٦) من م، في الأصل: مياه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الطُّرُقُ والسُّبُلُ التي [تُقْضِي بِكُمْ] ^(١) إلى الحوائج. وَيَحْتَمِلُ ﴿تَهْتَدُونَ﴾ الهدى المعروف بما ^(٢) ذَكَرَ مِنْ نَعِيمِهِ وَمِثْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّيْنَسْ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هذا أَيْضاً يُخْرِجُ مُخْرَجَ ذِكْرِ الْمَنِّ وَالنَّعْمِ عَلَيْهِمْ، لَأَنَّهُ لَوْ مَا جَعَلَ اللَّهُ أَعْلَاماً فِي الْبَحَارِ وَالْبَرَارِ، يَغْرِفُونَ بِهَا السُّلُوكَ فِيهَا، لَمْ ^(٣) يَقْدِرْ أَحَدٌ مَعْرِفَةَ الطُّرُقِ فِي الْبَحَارِ وَالْبَرَارِ. ثُمَّ تَحْتَمِلُ الْأَعْلَامُ مَرَّةً يَطْغَمُ الْمَاءُ وَالْجِبَالُ التي جَعَلَ فِيهَا بِالرِّيَّاحِ، وَمَرَّةً تَكُونُ بِالنَّجْمِ؛ يَغْرِفُونَ يَطْغَمُ الْمَاءُ أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ يُقْضِي إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا، وَكَذَلِكَ يَغْرِفُونَ بِالْجِبَالِ وَالرِّيَّاحِ / ٢٨٣ - ١. يَغْرِفُونَ السُّبُلَ إِلَى حَوَائِجِهِمْ وَمَقْصُودِهِمْ، وَكَذَلِكَ بِالنَّجْمِ يَغْرِفُونَ الطُّرُقَ. فَالْأَعْلَامُ مُخْتَلِفَةٌ، بِهَا يَهْتَدُونَ الطُّرُقَ وَالسُّبُلَ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْأَعْلَامِ ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ وَالنَّجْمُ سَبَبُ اهْتِدَائِهِمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أحدهما: على الإحتجاج عليهم، أي لَا تَجْعَلُوا مَنْ لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَنْعِمُ، كَمَنْ هُوَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُنْعِمُ النِّعَمِ عَلَيْكُمْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَنْ ^(٤) صَرَفَ الْعِبَادَةَ وَالشُّكْرَ إِلَى غَيْرِ خَالِقِكُمْ وَغَيْرِ مُنْعِمِكُمْ جَوْرًا ^(٥) وَظُلْمًا.

والثاني: يُخْرِجُ مُخْرَجَ تَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ أَنَّهُمْ يَغْبُدُونَ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَالِقٍ، وَيَتْرَكُونَ عِبَادَةَ [مَنْ] ^(٦) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهًا:

أحدها: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ أَنْفُسَ نَعِيمِهِ التي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَأَعْيَنَهَا لَا تَقْدِرُوا عَلَى عَدِّهَا لِكثَرَتِهَا.

والثاني: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ وَإِنْ تَكَلَّفْتُمْ، وَاجْتَهَدْتُمْ كُلَّ جَهْدِكُمْ أَنْ تَقُومُوا لِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَا قَدَرْتُمْ عَلَى الْقِيَامِ لِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَضْلاً أَنْ تَقُومُوا لِلْكُلِّ.

والثالث: يُخْرِجُ عَلَى الْعِتَابِ وَالتَّوْبِيخِ، أي كَيْفَ فَرَعْتُمْ لِعِبَادَةِ مَنْ لَا يَخْلُقُ، وَلَا يَنْعِمُ [وَانْصَرَفْتُمْ] ^(٧) عَنْ عِبَادَةِ مَنْ خَلَقَ، وَأَنْعَمَ؟ وَكُنْتُمْ لَا تَقْدِرُونَ ^(٨) عَلَى إِحْصَاءِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ فَضْلاً أَنْ تَقُومُوا لِشُكْرِهِ.

وقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لَا تَعْرِفُوا كُلَّ النِّعَمِ، لِأَنَّ مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْخَلْقُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠] فَإِذَا لَمْ يَعْلَمُوهَا ^(٩) لَمْ يَقْدِرُوا إِحْصَاءَهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَنَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: إِنَّكُمْ وَإِنْ افْتَرَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَعَانَدْتُمْ حُجَجَهُ وَآيَاتِهِ، وَكَذَّبْتُمْ رُسُلَهُ، فَإِذَا اسْتَعْفَرْتُمْ، وَتُبُّنَا عَنْكُمْ كَانَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، يَغْفِرُ لَكُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ كَقَوْلِهِ ﴿إِنْ يَنْتَهِوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والثاني: ﴿لَنَفُورٌ﴾ أي يَسْتُرُ عَلَيْكُمْ مَا كَانَ مِنْكُمْ مَا لَوْ ظَهَرَ ذَلِكَ لَأَفْضَحْتُمْ، لَكِنَّهُ بِرَحْمَتِهِ سَتَرَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ. ﴿رَجِيمٌ﴾ بِالسُّتْرِ عَلَيْكُمْ.

أَوْ ذَكَرَ ﴿لَنَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ عَلَى إِثْرِ ذِكْرِ النِّعَمِ وَأَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ لِيَكُونُوا عَلَى مَا ذَكَرَ مِمَّا سَخَّرَ لَنَا أَذَلَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمْلِكُ مَا تُرِيدُونَ وَمَا تُلْمِزُونَ﴾ هَذَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ذَكَرَ هَذَا لِيَكُونُوا أَيْقَظَ وَأَحْذَرُ، لِأَنَّ فِي الشَّاهِدِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِ رَقِيباً حَافِظاً بِمَا يَفْعَلُ، كَانَ هُوَ أَرْقَبَ وَأَحْفَظَ لِأَعْمَالِهِ، وَيَكُونُ أَحْذَرُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ حَافِظٌ وَلَا رَقِيبٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَقْضِيهِمْ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَمَّا. (٣) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ. (٤) مِنْ (٥) فِي الْأَصْلِ: هَمَز. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: تَقْدِرُوا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْلَمُوا.

والثاني: ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْتَرُونَ﴾ مِنَ الْمَكْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ وَالْكَيْدِ لَهُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْإِخْرَاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْكُمْ مَا أَسْرَزْتُمْ، وَأَغْلَنْتُمْ. وَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى نَهَايَةِ الْوَعِيدِ وَالتَّغْيِيرِ.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ يُسْمُونَ^(١)] آلِهَةً، وربما كانوا يدعونهم عند الحاجة. وَيَحْتَمِلُ يَدْعُونَ يَعْبُدُونَ، أَيِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فهذا يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

الآية ٢١ وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ وَجَمِيعَ مَنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ، هُمْ ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، سَمَّى الْكَافِرَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ مَيْتًا، فَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ أَيْضًا ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيِ [لَا]^(٢) يَشْعُرُونَ مَتَى^(٣) يَبْعَثُونَ؟ أَيِ لَوْ شَعَرُوا [فِي]^(٤) هَذِهِ الدُّنْيَا مَا شَعَرُوا فِي الْآخِرَةِ، لَمْ يَعْمَلُوا مَا عَمِلُوا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ الْأَصْنَامَ الَّتِي عَبَدُوهَا هِيَ ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ، وَلَا تَسْمَعُ، وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَضُرُّ، كَالْأَمْوَاتِ^(٥) ﴿عَبَدُوا لِمَنِ الْعِبَادَةُ﴾ أَيِ لَيْسَ فِيهَا أَرْوَاحٌ، يُنْتَفَعُ بِهَا كَالْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ رَاجِعًا إِلَى الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، لِأَنَّهَا لَا تَشْعُرُ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَا تَشْعُرُ ذَلِكَ. لَكِنْهُمْ يَشْعُرُونَ حِينَ يُبْعَثُونَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ تُبْعَثُ الْآلِهَةُ، وَالَّذِينَ عَبَدُوهَا جَمِيعًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] وقوله: ﴿لَا تَخْشَوْنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [مِنْ دُونِ اللَّهِ] [الصافات: ٢٢ و٢٣].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَخْشَرُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَمَا يَشْعُرُونَ هُمْ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، أَيِ حِينَ يُبْعَثُونَ. [لَوْ شَعَرُوا]^(٦) ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مَا فَعَلُوا.

وَأِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ رَاجِعًا إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْمَلُوكِ الَّذِينَ عُبِدُوا دُونَ اللَّهِ يَكُنْ^(٧) تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿أَمْ تَوْفَّيْتُمْ لِمَنِ الْعِبَادَةُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيِ لَا يَشْعُرُونَ وَقَتَ يُبْعَثُونَ. وَإِنْ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الْأَصْنَامِ فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيِ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ. وَلَا^(٨) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أَنْ يَقَالَ ذَلِكَ فِي الْأَصْنَامِ؛ لِأَنَّ أُولَئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَخْلُقُونَ، وَإِنَّمَا يَقَالُ فِي^(٩) الْأَصْنَامِ: لَا تَسْمَعُ، وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تَنْفَعُ. فَدَلَّ أَنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالَّذِينَ عَبَدُوهُمْ.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ مَا يُبَيِّنُ إِبْطَالَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِأَمْثَالِهَا الْعِبَادَةُ لَهَا، وَنُصِبَهُمْ آلِهَةً. ثُمَّ ذَكَرَ مَا يُبَيِّنُ جَعْلَ الْإِلَهِ وَالرَّبُّوبِيَّةَ أَنَّهُ لَوْاحِدٌ وَأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِذَلِكَ دُونَ الْعَدَدِ الَّذِي عَبَدُوهُ^(١٠)، فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لَا الْعَدَدُ الَّذِي عَبَدَ أُولَئِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ لِلْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ وَالتَّوْبَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، لَمْ يَرَوْهُ أَهْلًا [لِخُضُوعِ أَمْثَالِهِمْ]^(١١) لِمَنْ لِيْلِهِ، أَوْ ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [عَلَى مَا دَعَتْهُمْ]^(١٢) الرُّسُلُ، لِأَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعًا دَعَوْا الْخَلْقَ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: أَيِ يَسْمُونَ، فِي م: يَدْعُونَ أَيِ يَسْمُونَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حِينَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَالْمَيْتِ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي م: وَمَا شَعَرُوا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ. (٨) الْوَاقِعَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٩) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: عَبَدُوهَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخُضُوعُ لِأَمْثَالِهِمْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ: إِلَى مَا أَدْعَتْهُمْ، فِي م: إِلَى مَا دَعَتْهُمْ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِمَا يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ مِنَ الْمَكْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ وَالْكِدِّ لَهُ ﴿وَمَا يَشَاءُ﴾ مِنَ الْمُظَاهَرَةِ عَلَيْهِ، أَوْ ﴿يَأْتِيَ مَا يَشَاءُ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَسْرَوْهَا ﴿وَمَا يَشَاءُ﴾ وَمَا أَغْلَنُوهَا. يُخَيِّرُ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَسْرَوْا، أَوْ أَغْلَنُوا.

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قَالَ الْأَصْمُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كَلِمَةٌ تَسْتَعْمِلُهَا الْعَرَبُ فِي إِيْجَابِ تَحْقِيقٍ أَوْ نَفْيِ تَحْقِيقٍ كَقَوْلِهِمْ: حَقًّا، وَلَعْمَرِي، وَ: وَإِنَّهُمُ اللَّهُ، وَتَحْوِو. وَقَالَ الْحَسَنُ: هِيَ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا، وَ: بَلَى، وَلَا بُدَّ، وَكُلُّهُ فِي الْحَاصِلِ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ، وَهُوَ وَعِيدٌ لِأَنَّهُ قَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيَ مَا يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ وَعِيدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ لِأَنَّهُ لَا يُجِبُ الْإِسْتِكْبَارَ، وَلَا يَلِيْقُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ أَشْكَالٌ وَأَمْثَالٌ، وَلَا يَجُوزُ لِكُلِّ ذِي مَثَلٍ أَوْ شَكْلٍ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى شَكْلِهِ، وَلِأَنَّهُ تَكَبَّرَ بَعْضُ عَلَى بَعْضٍ كَذِبٌ وَزُورٌ؛ إِذْ جَعَلَ [الْخَلْقَ] (١) كُلَّهُمْ أَمْثَالًا وَأَشْكَالًا. لِذَلِكَ كَانَ زُورًا وَكَذِبًا، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْكَذِبَ، وَالزُّورَ؛ وَجَعَلَهُ قِيحًا فِي الْمَقُولِ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي قَالَ الْإِتْبَاعُ لِلرُّؤَسَاءِ ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟﴾ قَالَ الرُّؤَسَاءُ أَنْزَلَ: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ جَوَابُ ٢٨٣ - ب/ سَوَالِهِمْ: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟﴾ مُفْرَدًا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ اللَّهَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] وَقَوْلِهِمْ (٢): ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا إِذَا سُئِلُوا ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟﴾ يَقُولُونَ (٣): ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي السُّؤَالِ زِيَادَةٌ قَوْلًا، أَوْ فِي الْجَوَابِ إِضْمَارٌ، فَيَكُونُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَاذَا يَزْعُمُ هَذَا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ رَبُّكُمْ ﴿قَالُوا﴾ عِنْدَ ذَلِكَ: يَقُولُ: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا إِلَهُ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ﴾ أَي قَالُوا: يَا أَيُّهَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ نَزَّلَ عَلَيْهِ. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟﴾ قَالُوا (٤): لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ شَيْئًا، إِنَّ مَا يَقُولُ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وَمِثْلُ هَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ.

وقوله تعالى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: أَحَادِيثُ الْأَوَّلِينَ، وَالْوَاحِدُ أُسْطُورٌ، وَهِيَ الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَلِفَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَفْئِدَةٌ﴾ [ص: ٧] أَي لَا أَضِلُّ لَهُ، وَأَضَلُّهُ الْكَذِبُ. وَهَكَذَا عَادَةُ الْكَافِرَةِ يَقُولُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ: أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَكَانُوا يَنْسِبُونَ مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ إِلَى السُّحْرِ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ سِحْرًا أَوْ أَحَادِيثَ الْأَوَّلِينَ كَانَ دَلِيلًا لَهُ. أَوْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِهْزَاءِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يُخْرَجَ قَوْلُهُمْ (٥) ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِهْزَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً؛ يَعْنِي الَّذِينَ قَالُوا لِلرُّسُلِ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُقْلَدُونَ رُسُلَهُمْ وَوَقَدَهُمُ الَّذِينَ بُعِثُوا لِلسُّؤَالِ (٦) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَحَمَلُوا أَوْزَارَهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ يُقْلَدُونَ الرُّسُلَ، وَيَقْتَدُونَ بِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ أُولَئِكَ يَقْتَدُونَ بِالرُّسُلِ، فَيَضِلُّونَ.

وَمِنْ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ سَتُّوا ذَلِكَ. وَهُوَ كَمَا رُوِيَ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وَزَرُهَا وَوَزَرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [مسلم ١٠١٧].

وَالثَّانِي (٧): يَحْتَمِلُ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ﴾ ظَمِعُوا الْإِسْلَامَ، إِذَا أَسْلَمُوا سَقَطَتْ تِلْكَ الْأَوْزَارُ عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ هُمْ (٨) لَمْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلُوا ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ وَلَكِنْ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَي لِيَصِيرُوا [حَامِلِي أَوْزَارِ] (٩) الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) في الأصل وم. فيقولون. (٤) في الأصل وم. فقالوا. (٥) من م. في الأصل: كقولهم.

(٦) في الأصل وم. عن السؤال. (٧) في الأصل وم. و. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم. حاطين لأوزارهم.

وقوله تعالى: ﴿يَغْتَرِبْ عَلَيْهِ﴾ أي يَسْقُوه ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي ساء ما يَحْمِلُونَ.

وقوله تعالى: ﴿يَغْتَرِبْ عَلَيْهِ﴾ أي لم يَعْلَمُوا أن تصير أوزارهم عليهم، أو لم يَعْلَمُوا ما يَلْحَقُ بِهِمْ.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [كانت ولم تزل] ^(١) عادة الكفرة بالمكر برسول الله والكيد لهم، وكذلك مكر كفار مكة برسول الله. يَذْكُرُ هذا، والله أعلم لرسوله ليضير على أذاهم كما صبر أولئك على مكر قومهم وتترك مكافاتهم إياهم كقوليه: ﴿قَاصِرٌ كَمَا صَبَرْنَا الْأَوَّلَ الْعَزِيزِ مِنَ الرَّسُولِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ثم مكرهم الذي كان يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: في ما جاءت به الرسل كانوا يتكلفون تلبيس ما جاءت به الرسل على قومهم.

والثاني: يرجع مكرهم إلى أنفس الرسل من الهم بقتلهم وإخراجهم من بين أظهرهم ونحوه.

فَحَوَتْ بذلك أهل مكة بصنيعهم لرسول الله أن ينزل بهم كما نزل بأولئك الذين مكرُوا بِرُسُلِهِمْ لئلا يُعَامِلُوهُ بِمِثْلِ معاملة أولئك رسلهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيتُهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ﴾ قال الحسن: هذا على التمثيل بالبناء الذي بُني على غير أساس؛ يَهْدِمُ، ولا يَعْلَمُ من أي سبب انهدم. فعلى ذلك مكرهم يَظْلُ، ويتلاشى كالبناء الذي بُني على غير أساس، ويشبه أن يكون على التمثيل من غير هذا الوجه؛ وهو أنهم قد مكرُوا، وأخكمُوا مكرهم بهم، فَيَتَحَصَّنُونَ بذلك كالبناء الذي يَتَحَصَّنُ به، فانبطل الله مكرهم، كقوليه: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا﴾ الآية [النمل: ٥٠]. وقوليه: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوَائِمِهِ﴾ هو ما ذكرنا من إبطال مكرهم الذي به كانوا يَتَحَصَّنُونَ كوقوع السقف الذي به يَتَحَصَّنُ من أنواع الأدى والشروع.

ويَحْتَمِلُ على التحقيق، وهو ما نزل بقوم لوط من الخسف وتقليب البنيان وإمطار [الحجر عليهم] ^(٢). وأما ما ذكر بعض أهل التأويل من الصرح الذي بنى نمرود وبنيائه ووقعه عليهم فلأن لا نعلم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كذلك كان يأتي العذاب الظلمة الكذبة من حيث لا علم لهم بذلك كقوليه: ﴿فَلَا تَحْذَرُهُمْ بَقْنَةً﴾ الآية [الأعراف: ٩٥].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيتُهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ﴾ هو من الإتيان. ومعلوم أنه لا يفهم من إتيانه الانتقال من مكان إلى مكان، ولكن إتيان عذابه؛ أصيب إليه الإتيان لما بأمره يأتيهم ومنه. فعلى ذلك لا يفهم من قوله: ﴿وَبَاءَ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوليه: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] الإتيان والانتقال ومجيئه من مكان إلى مكان. وقد ذكرنا هذا وأمثاله في غير موضع.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [أخبر أنه يوم القيامة يُخْزِيهِمْ] ^(٣) بعد ما عذبهم في الدنيا بقوله ﴿وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ قال أهل التأويل: يُعَذِّبُهُمْ. وكان الإخزاء، هو الإذلال والإهانة والفضح، يَذْلُهُمْ، ويُهِنُهُمْ، ويُفْضِحُهُمْ في الآخرة مكان ما كان منهم من الاستكبار والتجبر على النبي وأصحابه. وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] أي لا يَذْلُهُمْ، ولا يُهِنُهُمْ، لِتَوَاضُعِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَخَفَضِ جَنَاحِهِ لَهُمْ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكَ الَّذِينَ كُنتَ تُشْفِقُ مِنْهُمْ﴾ أي كُنتُمْ تُعَادُونَ أوليائي فيهم، أو تُعَادُونَني فيهم.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكَ﴾ لسن له بشركاء، ولكن أضاف إلى نفسه ﴿شُرَكَائِكَ﴾ على ما زعمتم في الدنيا [أنهم شركائي] ^(٤). وكذلك قوله: ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْإِنْسَانِ﴾ [الصافات: ٩١] أي إلى ما في رُغْمِهِمْ وَتَسْمِيَتِهِمْ إِيَّاهَا آلِهَةً.

(١) في الأصل وم: لم تزل كانت. (٢) في الأصل: البحر عليها، في م: الحجر عليها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أنها شركاءه.

وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ فِيهِمْ﴾ أي كنتم تخالفون فيهم، وتعادون؛ أي تخالفون المؤمنين في [عبادتكم إياها، وتقولون] ^(١): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وتقولون ^(٢): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونحوه. كانوا يخالفون المؤمنين، وكانوا يشاققون في ذلك. إلا أنه أضاف ذلك إلى نفسه لأنهم أولياؤه وأنصار دين الله. وأضاف إليه المخالفة لأنهم خالفوا أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُورُوا إِلَهُاتِهِمْ﴾ قال أهل التأويل: ﴿الَّذِينَ أُورُوا إِلَهُاتِهِمْ﴾ الملائكة الكرام الكاتبون، هم وغيرهم من المؤمنين مُحْتَمَلٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآخِرَىٰ لَأَثَرًا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي الذل والهوان والافتضاح وكل سوء على الكافرين. هكذا يُقَابَلُ كُلُّ مُعَانِدٍ وَمُكَابِرٍ فِي حُجَجِ اللَّهِ وَبِرَاهِينِهِ مَكَانَ اسْتِجَابِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ من بين يدي الله يوم الحساب إلى النار. وقال بعضهم: ﴿تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ وثت قبض أرواحهم ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ بالشرك والكفر بالله على تأويل الحسن، يكون قوله: ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ في الدنيا.

ويجوز أن يوصفوا بالظلم في الآخرة أيضاً بكذبهم فيها في قولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وأمثاله من الكذب حين ^(٣) يُنْكِرُونَ الإِشْرَاقَ فِي أَلُوْهِتِهِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ. كَانَ هَذَا الْإِنْكَارُ وَالْكَذِبُ مِنْهُمْ فِي أَوَّلِ حَالِهِمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ. فَإِذَا لَمْ يَنْفَعُهُمْ إِنْكَارُهُمْ طَلَبُوا الرَّدَّ إِلَى الدُّنْيَا أَوْ إِلَى حَالِ الْأَمْنِ لِيَعْمَلُوا غَيْرَ الَّذِي عَمِلُوا كَقَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ رُدُّهُ فَتَمَلَّ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَمَلَّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فَإِذَا لَمْ يُرَدُّوا، وَأَيُّسُوا عَنْ ذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ٢٨٤ - أ/ انْطَلَقَ اللَّهُ جَوَارِحَهُمْ حَتَّى تَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِمَا كَانُوا مِنْهُمْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْرَءُونَ، وَيَعْتَرِفُونَ بِذُنُوبِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قال بعضهم: يُسْلِمُونَ، وَيَسْتَسْلِمُونَ لأمر الله. ولكن لو كَانَ مَا ذَكَرُوا لَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ عَمَلَ السَّوْءِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾. وقال بعضهم: ﴿قَالُوا السَّيِّئُ﴾ الْإِسْتِخْرَاءُ ^(٤) وَالْخُضُوعُ وَالتَّضَرُّعُ.

وَيْشُبُّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿قَالُوا السَّيِّئُ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ؛ يُؤْمِنُونَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ ذَلِكَ، أَوْ سَلَّمُوا عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا رَأَوْا فِي الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ. فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فَقَالَ: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا وَعِيدٌ؛ يُخْبِرُ أَلَّا يَجُوزَ كَذِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يُحْتَمَلُ، كَمَا جَازَ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَنْظُرْ.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ﴾ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿أَيِ يَتَسَّ مَقَامَ الْمُتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ اللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: هَذَا قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ مُقَابِلَ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَبْرًا﴾:

قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿قَالُوا حَبْرًا﴾ أَيِ قَوْلُهُمُ الَّذِي قَالُوا: إِنَّهُ أَرْسَلَ بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ خَيْرٌ ^(٥). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿قَالُوا حَبْرًا﴾ حِكَايَةً عَمَّا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا ^(٦)، أَيِ أَنْزَلَ عَلَيْهِ رُبَّنَا خَيْرًا، وَإِذَا سَأَلُوا الْكَفَرَةَ قَالُوا: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ: وَقَوْلُهُمْ، فِي م: وَهَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْإِسْتِخْرَاءُ. (٥) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَخَيْرًا.

وجائز أن يكون أتباع المؤمنين سألوا كُبراءهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ﴾ مُقَابِلَ مَا كَانَ مِنْ كُبراء الكُفَرَةِ لِاتِّبَاعِهِمْ ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مِنَ النَّصْرِ لَهُمْ وَالظَّفَرِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴿وَلِلَّذِينَ خَبَرُوا﴾ لَهُمْ مِمَّا كَانَ أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا، أَيِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِمَّا أُوتُوا فِي الدُّنْيَا ﴿وَلِلَّذِينَ دَارَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قَالَ هَذَا لِلْمُؤْمِنِينَ مَكَانٌ مَا قَالَ لِلْكَافِرِينَ ﴿فَلْيَسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ثُمَّ نَعَتْ الدَّارَ الَّتِي وَعَدَ لِلْمُتَّقِينَ.

فَقَالَ: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَرَأَيْتَ لَوْ شَاءُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ دَرَجَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنَازِلُ الْأَبْرَارِ وَالصَّادِقِينَ أَيْكُونُ لَهُمْ مَا شَاءُوا؟ قِيلَ: لَا يَشَاءُونَ هَذَا؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا إِمَّا حَسَدًا وَإِمَّا تَمَنِّيًّا، فَلَا يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ حَسَدٌ؛ لِأَنَّ الْحَسَدَ هُوَ أَنْ يَرَى لِأَحَدٍ شَيْئًا، لَيْسَ لَهُ، فَيَحْسُدُهُ، أَوْ يَتَمَنَّى مِثْلَهُ. فَاهْلُ الْجَنَّةِ يَجِدُونَ جَمِيعَ مَا يَتَمَنَّوْنَ، وَيَخْطُرُ بِأَلْبَابِهِمْ، فَلَا مَعْنَى لِسُؤَالِهِمْ رَبَّهُمْ مَا لِيَعْرِيهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ظَاهِرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تُوَفَّقُوا لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ عَلَى تَأْوِيلِ الْحَسَنِ: ﴿تُوَفَّقُوا لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وَهُمْ طَيِّبُونَ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لَهُمْ ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾. وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ السَّلَامَ هُوَ تَحِيَّةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الَّذِينَ تُوَفَّقُوا لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يَقْبِضُهُمُ الْأَرْوَاحُ فِي الدُّنْيَا؛ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ، وَهُمْ طَيِّبُونَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ طَابَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَيَحْتَمِلُ السَّلَامُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: تُحَيِّهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالسَّلَامِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يُحَيِّي أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَالثَّانِي: السَّلَامُ يَكُونُ مِنْهُمْ أَمْنٌ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ٣٣ و٣٤ و٣٥ وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ ﴿فَأَمَّا لَهُمْ مَسَاجِدُ مَا عَمِلُوا وَمَعَاقِبُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [وَقَالَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا... فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ] ^(١) هَذَا الْحَرْفُ يُخْرِجُ عَلَى الْإِيَّاسِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ إِلَّا وَقْتُ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ وَقْتُ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ. أَيْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ، لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ إِيْمَانٌ اضْطِرَارِيٌّ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَعَدُوهَا﴾ [غافر: ٨٤] وَكَقَوْلِهِ ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلِي الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] يُؤْمِنُونَ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمْ بِأَسَ اللَّهِ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. يُخْبِرُ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ ذَلِكَ الْوَقْتُ، وَيُؤَيِّسُ ^(٢) رَسُولُهُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، لِيَرْفَعَ عَنْهُ مُؤَنَّةَ الدَّعَاءِ إِلَى الْإِيْمَانِ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَذَلِكَ فَعَلَ الْمُعَانِدُونَ وَالْمُكَابِرُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِ بُرْسُلِهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ لَهُمْ وَالْعِنَادِ وَتَرْكِهِمُ الْإِيْمَانَ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي ذَكَرَ كَمَا قَتَلَ قَوْمَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ لَكَ، يَا مُحَمَّدُ، وَالْعِنَادِ.

وَالثَّانِي ^(٣): يَحْتَمِلُ ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ هَكَذَا أَنْزَلَ الْعَذَابَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَ قَوْمِكَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَالْعِنَادِ مَعَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. و.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ﴾ بما عذبَهُمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حين^(١) وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا الَّذِي [وَضَعَهُ اللَّهُ، وَحِينَ]^(٢) صَرَفُوهَا عَنْ عِبَادَةِ مَنْ نَعَّمَهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَحَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، إِلَى مَنْ لَا يَنْفِكُ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ بِحَالٍ.

فَهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ^(٣) صَرَفُوهَا مِنَ الْحِكْمَةِ إِلَى غَيْرِ الْحِكْمَةِ، لَا لِلَّهِ. وَإِنَّ^(٤) اللَّهَ وَضَعَهَا حَيْثُ تَوْجِبُ الْحِكْمَةُ ذَلِكَ.

وَالظَلَمُ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ. فَهُمْ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا. فَأَمَّا اللَّهُ ﷻ فَقَدْ وَضَعَهَا فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَوْجِبُ الْحِكْمَةَ وَضَعَهَا.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: مَا يَنْظُرُونَ لِلْإِيمَانِ بَعْدَ الْحُجَجِ السَّمْعِيَّاتِ وَبَعْدَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّاتِ وَالْحُجَجِ الْحِسِّيَّاتِ إِلَّا تَزُولُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ السَّمْعِيَّاتِ وَالْعَقْلِيَّاتِ وَالْحِسِّيَّاتِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ^(٥). فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الْحُجَجَ الَّتِي تَقْهَرُهُمْ، وَتَضْطَرُّهُمْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يُؤْمِنُونَ. وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ تَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ. أَوْ يَقُولُ: مَا يَنْظُرُونَ بِإِيمَانِهِمْ إِلَّا الْوَقْتَ الَّذِي لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي تَخْرُجُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ. فَأَخْبَرَ أَنَّ إِيْمَانَهُمْ لَا يَنْفَعُهُمْ فِي ذَلِكَ [الْوَقْتِ]^(٦): ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ النَّبِيُّ﴾ وَهَلْ هُوَ حَرْفٌ اسْتِفْهَامٌ فِي الظَّاهِرِ، لَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ [مَا]^(٧): ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ النَّبِيُّ﴾ عَلَى مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: لِمَا قَدْ كَانَ مِنَ اللَّهِ مِنْ الْبَيَانِ: أَنَّ لَيْسَ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] أَيْ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ.

وَكَذَلِكَ/ ٢٨٤ - ب/ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَّى﴾ [النجم: ٢٤] أَمْ: هُوَ حَرْفُ شَكٍّ، وَمُرَادُهُ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى، وَأَمثَالُهُ لِمَا سَبَقَ مِنَ اللَّهِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَا قَدْ ذَكَرَ قَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ [الآية: ١٤٨]. وَيُخْتَمِلُ قَوْلُهُمْ هَذَا وَجْهًا:

أَحَدُهَا: قَالُوا ذَلِكَ عَلَى الْإِسْتِهْزَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوَفِ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

وَالثَّانِي: قَوْلُهُمْ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] أَيْ لَوْ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ نَعْبُدَهُ، وَلَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ، لَفَعَلْنَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ فَتْنَةٌ قَالُوا وَجِدْنَا عِلِيًّا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَكْرَمُنَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

وَالثَّالِثُ: قَالُوا: لَوْ لَمْ يَرْضَ اللَّهُ مِثْلَ ذَلِكَ [مَا تَرَكْنَا فَعَلْنَا]^(٨) ذَلِكَ، وَكَانَ^(٩) أَهْلَكُنَا.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ يُخْبِرُ رَسُولَهُ أَنَّكَ لَنْتَ بِأَوَّلِ مَبْعُوثٍ إِلَى أُمَّتِكَ، وَلَكِنْ قَدْ بَعَثَ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] يُصْبِرُهُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْمَكْرُوهِ وَالْأَذَى، أَيْ لَنْتَ أَنْتَ بِأَوَّلِ مَنْ يُصِيبُهُ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ رَسُولٌ^(١٠) قَبْلَكَ أَصَابَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِمْ مَا يُصِيبُكَ مِنْ أُمَّتِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ هُوَ عَلَى الْإِضْمَارِ، كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ وَقُلْنَا لَهُمْ: قُولُوا: ﴿أَنْتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ عَلَى ذَلِكَ كَانَ بَعَثَ الرَّسْلَ جَمِيعًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِالْإِضْمَارِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَجَعَلِ الْعِبَادَةَ لَهُ وَالنَّهْيَ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ دُونَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَقَالَ يَقْوَرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَاحِدًا^(١١).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَضَعَهَا اللَّهُ وَحَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) الرَّاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْدُقُوا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَيَفْرَقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩] وَالْإِعْرَاقُ الْإِهْلَاكُ. (١١) فِي الْأَصْلِ: لَكَ، فِي م: ذَلِكَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِدًا.

والطاغوث: قَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ مَنْ عُبدَ دُونَ اللَّهِ فَهُوَ طاغوثٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: الطَّاغُوثُ هُوَ الشَّيْطَانُ؛ أَضْيَفْتُ^(١) الْعِبَادَةَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] لِأَنَّ مَنْ يَتَعْبُدُ دُونَهُ يَتَعْبُدُ بِأَمْرِهِ، فَاضْيَفْتُ^(٢) لَذَلِكَ إِلَيْهِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا أَيْضاً فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ هذا يدلُّ أنه لم يردِّ بالهَدَى الْبَيَانَ عَلَى مَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ إِنْ قَدْ سَبَقَ مِنْهُ الْبَيَانُ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَمَا ذَكَرَ أَيْضاً: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.

وهذا يردُّ عَلَى الْمُعْتَرِجَةِ قَوْلَهُمْ حِينَ^(٣) قَالُوا: الْهُدَى وَالْبَيَانُ مِنَ اللَّهِ، لَكِنَّ الْهُدَى مِنْهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لَيْسَ هُوَ الْبَيَانُ، هُوَ مَا يُكْرِمُ بِهِ عَبْدَهُ، وَيُوفِّقُهُ لَدَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ لِاخْتِيَارِهِ الْهُدَى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أَيِ [لَزِمَتْهُ الضَّلَالَةُ لِاخْتِيَارِهِ إِيَّاهَا]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ: ﴿فَسِيرُوا﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ، وَلَكِنْ كَأَنَّهُ قَالَ: لَوْ سِرْتُمْ فِي الْأَرْضِ لَرَأَيْتُمْ ﴿كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بِالتَّكْذِيبِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَسِيرُوا﴾ كَأَنَّهُ عَلَى الْحِجَاجِ عَلَيْهِمْ: إِنْ سِرْتُمْ^(٥) فِي الْأَرْضِ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَثَارَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ لَيْسَ عَلَى السَّيْرِ نَفْسُهُ، وَلَكِنْ عَلَى التَّوْبِيلِ وَالنَّظَرِ فِي أَثَارِ أَوْلَئِكَ وَأُمُورِهِمْ أَنَّهُ يَمَّ تَزَلُّ بِهِمْ مَا تَزَلُّ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى مِنْهُمْ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: كَانَ يُحِبُّ، وَيَخْرُصُ عَلَى هُدًى قَرَابَاتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أَيِ لَا يَهْدِيهِمْ بِضَلَالِهِمْ وَتَتَّ ضَلَالِهِمْ، أَيِ لَا يَهْدِي وَتَتَّ اخْتِيَارِهِمُ الضَّلَالَ، وَلَا يَهْدِي مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ الضَّلَالَ، أَوْ لَا يُنْجِي مَنْ يُهْلِكُ مِنَ الضَّلَالِ. وَفِيهِ لُغَاتٌ ثَلَاثٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أَيِ لَا يَهْدِي مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ [أَنْ] يَهْدِيَهُ، وَلَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ، أَيِ لَا يَهْدِي مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لِاخْتِيَارِهِ الضَّلَالَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧ و...]. [وَقَوْلُهُ]^(٦): ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨ و...]. وَتَتَّ اخْتِيَارِهِمُ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ، أَوْ لَا يَهْدِي مَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَخْتَارُ الضَّلَالَ وَالظُّلْمَ، وَلَا يَهْدِي مَنْ يَلْزَمُ الضَّلَالَ وَتَتَّ لُزُومِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَتَّبِعُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ فَإِنْ قِيلَ لَنَا: مَا الْحِكْمَةُ وَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ قَسَمِهِمُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً تُتْلَى، وَذَلِكَ الْقَسَمُ الَّذِي أَقْسَمُوا كَانَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ عَلِمُوا ذَلِكَ، [لَيْسَ كَالْأَنْبِيَاءِ]^(٨) وَالْقِصَصُ الَّذِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ شَيْئاً^(٩) غَابَ عَنْهُ لَمْ يَشْهَدْهُ، فَاخْبَرَهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي ذَلِكَ إِبْثَاتُ رِسَالَتِهِ وَبُتُوْبِهِ؛ فَالْحِكْمَةُ وَالْفَائِدَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَجَعَلَهَا آيَاتٍ تُتْلَى لِيُعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا الْقَسَمُ الَّذِي أَقْسَمُوا لَيْسَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ إِبْثَاتِ الرِّسَالَةِ، وَمَنْ قَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهِ؟ قِيلَ: يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُ لَنَا لِنَعْلَمَ نَحْنُ عَظِيمَ سَفْوِ أَوْلَئِكَ وَقِلَّةَ عَقُولِهِمْ وَجَلَمَ الرِّسُولِ وَاحْتِمَالَ مَا اخْتَلَّ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ لِنَعْلَمَ نَحْنُ أَنَّ كَيْفَ نُعَامِلُ السُّفَهَاءَ وَأَهْلَ الْفَسَادِ وَالْعُصَاةَ مِنَ النَّاسِ عَلَى مَا عَامَلَ رُسُلُ اللَّهِ أَقْوَامَهُمْ مَعَ عَظِيمِ سَفْوِهِمْ وَقِلَّةِ عَقُولِهِمْ^(١٠)، فَهَذَا دَلِيلُ^(١١) فَائِدَةِ ذِكْرِ قَسَمِهِمْ فِي الْقُرْآنِ.

قَدْ تَكَلَّفَ أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ الْكُبْرَاءُ مِنْهُمْ فِي تَلْسِيسِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الَّتِي أَتَتْ بِهَا الرُّسُلُ مَرَّةً بِالْقَسَمِ الَّذِي ذَكَرَ حِينَ^(١٢) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُونَ، وَمَرَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى السُّحْرِ، وَمَرَّةً بِالْإِفْرَاءِ، وَمَرَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَنُونِ، وَفِي الْأَنْبِيَاءِ بَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ مِنْهُمْ^(١٣). يُرِيدُونَ بِذَلِكَ التَّلْسِيسَ عَلَى الْإِتْبَاعِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَضْيَفْتُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاضْيَفْتُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ: لَزِمَتْ الضَّلَالَةُ وَاخْتِيَارُهُ إِيَّاهُ، فِي م: لَزِمَتْ لَزُومَةُ الضَّلَالَةِ وَاخْتِيَارُهُ إِيَّاهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: سِيرُوا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) م، فِي الْأَصْلِ: كَالْأَنْبِيَاءِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: شَيْءٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: عَقْلُهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنَّا.

ثم البعث واجب بالعقل والحكمة وأخبار الرسل؛ إذ ليس خبر أضدق من أخبار الرسل وآثارهم، وهم ممن يقبلون الأخبار، فأخبار الرسل أولى بالقبول والتصديق من غيرهم^(١) لأن معهم آيات صدقهم ودلائل تحقيقهم.

وأما العقل فهو أن يكون هذا العالم وإنشاؤه للبقاء خاصة خارجاً^(٢) عن الحكمة؛ إذ كل عمل، لا يكون له عاقبة، عبث، وهو كما قال ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أخبر أنه إذا لم يكن رجوع إليه يكون خلقه إياهم عبثاً.

وأما الحكمة فهي أن الانتقام لأوليائه من الظلمة واجب بظلمهم، والإحسان لأهل الإحسان. فلو لم يكن البعث^(٣) والحياة بعد الموت لينتقم من الظالم لظلمه، ويجزي المحسن لأحسانه لذهبت فائدة الترغيب على الطاعة والإحسان ووعيد الظالم بالانتقام.

فالبعث واجب للوجوه التي ذكرنا، وكذلك^(٤) التفريق بين الألباء والأعداء، وقد جمعتهم في هذه الدنيا، وفي الحكمة التفريق بينهما تعظيماً وإجلالاً، إنما كانوا يُقسمون بالأصنام والأوثان التي عبدوها. فإذا خلّفوا بالله [لا يخلفون]^(٥) إلا لما يعظم من الأمر. فذلك جهد إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ قوله: ﴿بَلْ﴾ رد على قولهم: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ فقال: ﴿بَلْ﴾ يبعث. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿وَعَدَا﴾ أي وعداً به يبعثهم، فحق عليه أن يُنجز ما وعد، و﴿حَقًّا﴾ عليه أن يعد البعث والإنجاز له، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أنه نفى عنهم العلم لما لم يتفقهوا بعلمهم؛ فهو كما نفى عنهم السمع والبصر وغيرهما من الحواس لما لم يتفقهوا بها انتفاع ما لذلك كان خلقها، فنفى ذلك عنهم.

والثاني: نفى عنهم ذلك على حقيقة النفي، لأنهم لم ينظروا، ولم يتأملوا في الآيات والأسباب التي بها جعل لهم الوصول إلى العلم، فلم يعلموا. ثم لم يغدزهم/ ٢٨٥ - أ/ بحيلهم ذلك لما جعل لهم سبيل الوصول إلى علم ذلك بالنظر والتأمل في الآيات والحجج. لكنهم شغلوا أنفسهم في غيرها، ولم ينظروا في الأسباب التي جعلها سبيل الوصول إليه.

فهذا يدل أن من جهل أمر الله ونهيه يكن^(٦) مؤاخذاً به بعد أن جعل له الوصول إليه بالدلائل والإشارات، فلا تخرج مؤاخذته إياه وعقوبته بترك أمره عن الحكمة.

وأما في الشاهد من أمر عبده^(٧) شيئاً، ولم يعلمه ما أمره، ثم عاقبه بذلك فهو خارج عن الحكمة؛ إذ لا سبيل إلى الوصول [إلى ما]^(٨) أمر به إلا بالتصريح، ولم يكن منه تصريح إعلام، لذلك كان ما ذكر.

الآية ٢٩ أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَوْعَدَ لَهُمُ الرِّعَايَةَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَأَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ أي ليعلم [أتباع الذين كفروا]^(٩) أن الرؤساء [كانوا كاذبين، ولا كان الرؤساء]^(١٠) كاذبين عند أنفسهم، أو أن يكون قال ذلك لما ادعى أولئك الكفرة أن الآخرة لهم كقولهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ الآية [فصلت: ٥٠] فقال جواباً له: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي لا دعائهم الآخرة لأنفسهم.

ثم قوله: ﴿إِنِّي لَأَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ قال بعضهم: إنما اختلفوا في البعث؛ منهم من صدقه، ومنهم من كذب بقوله: ﴿إِنِّي لَأَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ ذلك، ويَحْتَمِلُ [قوله]: ﴿إِنِّي لَأَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ أي في الدين والمذهب لأنهم اختلفوا في الدين

(١) في الأصل وم: غيره. (٢) في الأصل وم: خارج. (٣) في الأصل وم: بعث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: وعيده. (٨) في الأصل وم: بما. (٩) في الأصل وم: اتباعهم. (١٠) من الأصل: كانوا كاذبين ولا كان الرؤساء منهم، في م: منهم كانوا. (١١) من م، في الأصل: فيه.

والمذهب، وكلُّ مَنْ ادَّعى ديناً ومذهباً حتى دعا غَيْرَهُ إلى دينِهِ ومذهبِهِ ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمْ﴾ المَحَقَّ مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِهِ والصادقَ مِنْهُمْ مِنْ الكاذِبِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ كُفْرَهُمْ بِالْبَعْثِ وَإِنْكَارَهُمْ وَكُفْرَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ أَوْ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ فِي إِنْكَارِهِمْ مَا أَنْكَرُوا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ^(١) يُخْبِرُ عَنْ سُرْعَةِ نَفَازِ أَمْرِهِ وَسَهُولَةِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَكُونُ أَسْرَعَ مِنْ لَحْظَةِ بَصَرٍ أَوْ لَمَحَّةِ عَيْنٍ.

وفيه دلالةٌ أَنَّ خَلْقَ الشَيْءِ، لَيْسَ هُوَ ذَلِكَ الشَيْءُ، لِأَنَّهُ غَيْرُ **﴿كُنْ﴾** عَنْ تَكْوِينِهِ **﴿فَيَكُونُ﴾** عَنِ الْكُونِ، وَكَذَا كُنِيَ عَنْهُ بِالشَّيْءِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ فَكُنِيَ عَنْهُ بِوُقُوعِ الْقَوْلِ عَلَيْهِ وَالتَّكْوِينِ. ثَبَتَ أَنَّ التَّكْوِينَ غَيْرُ الْمُكُونِ.

ثُمَّ لَا يَخْلُو مِنْ أَنَّ يَكُونُ التَّكْوِينُ [يَتَكْوِينُ] ^(٢) آخَرَ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، أَوْ لَا يَتَكْوِينُ. وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَهُمَا جَمِيعاً، وَمِمَّا وَجَّهَ الْحَدِيثِ. ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ مَوْصُوفٌ فِي الْأَزَلِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَالثَّانِي: مَنْ فَعَلَهُ كَسَبَ سُمِّيَ كَاسِباً، وَمَنْ فَعَلَهُ [مُخْتَصِصٌ] ^(٣) بِاسْمِ سُمِّيَ بِهِ. فَلَوْ كَانَ فَعَلَى اللَّهِ كُلِّيَّةُ الْخَلْقِ يُسَمَّى بِهِ، فَيُسَمَّى مِثْلًا مُتَحَرِّكًا سَاكِنًا طَلَبًا صَغِيرًا كَبِيرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَلِذَا كَانَ يَتَعَالَى عَنْ هَذَا، وَقَدْ سَمِيَ [نَفْسُهُ] ^(٤) فَاعِلًا مُمَيَّنًا مُحْيِيًا مُحَرِّكًا مُسْكِنًا جَامِعًا مُفَرِّقًا ثَبَتَ أَنَّ فِعْلَهُ هُوَ غَيْرُ مَفْعُولِهِ وَأَنَّهُ بِذَاتِهِ يَقْعَلُ الْأَشْيَاءَ لَا بِغَيْرِهِ. وَفِي ذَلِكَ لُزُومُ الْوَضْفِ لَهُ بِهِ فِي الْأَزَلِ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ كَانَ ظَلَمُهُمْ لِإِيَّاهُمْ عَلَى وَجْهِ:

مِنْهُمْ مَنْ ظَلَمَ بِالْإِخْرَاجِ مِنَ الدِّيَارِ وَالطَّرْدِ مِنَ الْبَلَدِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الْآيَةُ [الْمَمْتَحَنَةُ: ٩].

وَمِنْهُمْ مَنْ ظَلَمَ بِالْمَنْعِ عَنْ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَالْعَمَلِ لَهُ وَأَنْوَاعٍ مَا أَوْدُوا، وَظَلَمُوا بِإِظْهَارِهِمُ الْإِسْلَامَ وَإِجَابَتِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ وَاتِّبَاعِهِمْ لِإِيَّاهُ.

ثُمَّ وَعَدَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، فَقَالَ: ﴿لَنُيَوِّذَنَّهُمْ﴾ قِيلَ: لَنُعْطِيَنَّهُمْ، وَقِيلَ: لَنَرْزُقَنَّهُمْ، وَهُوَ وَاحِدٌ ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تَحْتَمِلُ الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا الْعِزَّ بَعْدَ الدُّلِّ وَالسَّعَةَ بَعْدَ الضَّيْقِ وَالشَّدَّةَ وَالْعَلْبَةَ وَالنَّصْرَ لَهُمْ بَعْدَ مَا كَانُوا مَقْهُورِينَ مَغْلُوبِينَ فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، وَالذِّكْرَ وَالشَّرَفَ بَعْدَ الْهَوَانِ. هَذِهِ الْحَسَنَةُ الَّتِي بَوَّأَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

وَالْمُهَاجَرَةُ الْمُقَاطَعَةُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَالَّذِينَ قَاطَعُوا أَرْحَامَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ وَمَكَاسِبَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، فَأَبْدَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَكَانَ الْأَرْحَامِ وَالْأَقَارِبِ إِخْلَاءً وَإِخْوَانًا وَمَكَانَ أَمْوَالِهِمْ أَمْوَالًا أُخْرَى وَكَذَلِكَ الدُّورَ وَكُلَّ شَيْءٍ تَرَكُوا هُنَاكَ، فَأَبْدَلَهُمْ مَكَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجْزَى الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَيُسْتَبْهَرُ أَنَّ يَكُونُ ذِكْرُ هَذَا عَنْ حَسَدٍ كَانَ مِنَ الْكُفْرَةِ لِلْمُهَاجِرِينَ لَمَّا انْزَلَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَوَّأَهُمْ فِيهَا، وَأَعَزَّهُمْ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ وَأَمْرَهُمْ، وَنَصَرَهُمْ. حَسَدُهُمْ أَهْلَ الْكُفْرِ بِذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَا تُجْزَى الْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ لَهُمْ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ.

وَيَحْتَمِلُ أَيْضاً قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجْزَى الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، فَيَخِفُّ عَلَيْهِمْ اخْتِمَالُ مَا أَوْدُوا، وَظَلَمُوا، وَيَهُونُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: عَلَى رَبِّهِمْ؛ يَتَّقُونَ فِي إِنْجَازِ مَا وَعَدَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُ يُنْجِزُ ذَلِكَ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿صَبَرُوا﴾ عَلَى أَمْرِهِ، أَوْ ﴿صَبَرُوا﴾ عَلَى الْهَجْرَةِ وَانْقِطَاعِ مَا دَهَبَ عَنْهُمْ وَفِرَاقِ مَا كَانَ لَهُمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا، والله أعلم، يكونُ على إثرِ أمرٍ كانَ مِنَ الكُفْرَةِ نَحْوُ ما قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا بُشِّرَاكَ بِرَسُولٍ﴾ [الإسراء: ٩٤] وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ﴾ [الفرقان: ٢١] ونحوه مِنْ كلامِهِمْ. فَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ أي إِلَّا بُشْرًا، أي لَمْ تُرْسِلْ مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ، فيكونُ قوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ كِنَايَةً عَنِ الْبَشَرِ أَوْ يَكُونُ^(١) قوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ أي لَمْ يَبْعَثْ مِنَ النِّسَاءِ رَسُولًا، إِنَّمَا بَعَثَ الرُّسُلَ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿تَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ، وَلَكِنْ لَوْ سَأَلْتُمْ أَهْلَ الذِّكْرِ لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْعَثِ الرَّسُولُ مِنْ قَبْلُ إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ؛ أَيِ اسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ، فَتَعْلَمُوهُمْ؛ أَيِ إِنْ كَانَ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ التَّقْلِيدِ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ، فَتَعْلَمُوهُمْ، وَلَا تَقْلُدُوا آبَاءَهُمْ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَ، وَلَكِنْ قَلَّدُوا أَهْلَ الذِّكْرِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ فَتَعْلَمُوهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ تَقْلِيدٍ، لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَظَرٍ وَتَفَكُّرٍ فِي الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ الَّتِي^(٢) أَتَتْ بِهَا الرُّسُلُ لِتُخْبِرَكُمْ أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا يُعْثُوا مِنَ الْبَشَرِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْكِتَابِ، فيكونُ عَلَى التَّقْدِيمِ الَّذِي ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أَيِ أَهْلِ الشَّرَفِ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لِيُبَيِّنُوا لَكُمْ الْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ لِأَنَّهُمْ يَأْتِفُونَ الْكِتَابَ وَالْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الذِّكْرِ جَمِيعَ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَالسُّؤَالُ عَنِ الرُّسُلِ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْبَشَرِ وَالرِّجَالِ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ قِيلَ: أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ وَمَا غَابَ عَنْهُمْ وَمَا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا لِيَعْصِيَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ جَمِيعَ مَا يُؤْتُونَ، وَمَا يَنْتَوُونَ، وَمَا يَجَلُّ، وَمَا يَحْرُمُ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ﴾ مَا حَرَّفُوا مِنْ كُتُبِهِمْ، وَبَدَّلُوهُ، وَغَيَّرُوهُ، فيكونُ فِيهِ آيَةٌ لِرِسَالَتِكَ، أَوْ يَكُونُ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْهِ كَالْمَنْزِلِ إِلَيْهِمْ حِينَ^(٣) ذَكَرَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قَوْلُهُ ﴿أَفَأَمِنَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ حَرْفُ اسْتِفْهَامٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ مُحْتَمَلٍ ذَلِكَ، وَهُوَ عَلَى إِيجَابٍ ذَلِكَ.

ثُمَّ هُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: عَلَى الْخَبَرِ أَنَّهُمْ قَدْ آمَنُوا مَكْرَهُ. وَالثَّانِي: عَلَى النَّهْيِ؛ أَيِ لَا تَأْمَنُوا/ ٢٨٥ - ب/ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] هَذَا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ آمِنِهِمْ مَكْرَ اللَّهِ، وَعَلَى النَّهْيِ إِلَّا يَأْمَنُوا. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي مَا أَوْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَأَمِنُوا لِلذَّكَاءِ، أَوْ [لَمَّا لَمْ يَعْرِفُوا]^(٤) اللَّهَ وَلَمْ يَعْرِفُوا حَقَّوهُ وَنِعْمَتَهُ وَنَقَمَتَهُ، فَأَمِنُوا لِلذَّكَاءِ.

وَأَمَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ، وَمَنْ عَرَفَ حَقَّهُ، وَعَرَفَ نَقَمَتَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَكْرُهُمُ السَّيِّئَاتِ هُوَ مَا مَكَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالُوا: أَصَابَهُمْ ذَلِكَ أَسَاءَتُهُمْ، وَمَا ظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ.

(١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَالرُّسُلَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: لَا يَعْرِفُونَ، فِي م: لَمَّا يَعْرِفُوا.

وقال بعضهم: مَكْرُهُمُ السَّيِّئَاتِ هو أعمالُهُمُ التي عَمِلُوها، وكلُّ ذلك قد كانَ منهم؛ كانوا مَكْرُوا برسولِ الله وأصحابِهِ، وكانوا ظاهروا عليهمَ عَدُوَّهُمْ، وقد عَمِلُوا أعمالَهُمُ الخبيثةَ السيئةَ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ يَوْمَ الْآزْمِ﴾ أي آمِنُوا حينَ ﴿مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ يَوْمَ الْآزْمِ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في الحالِ التي لا يكونُ لهمُ آمِنٌ، ولا^(١) خوفٌ.

الآية ٤٦ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيهِمْ﴾ قيل: في أسفارِهِمْ وفي تجاراتِهِمْ، لأنَّ الناسَ إنما يُسافرونَ، وَيَتَخَيَّرُونَ في البلدانِ في حالِ أَمْنِهِمْ.

الآية ٤٧ [وقوله تعالى]^(٢): ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّبٍ﴾ قال بعضهم: على تَفْزيعٍ، وقال [بعضُهُمْ]^(٣) على تَنْقِصٍ مِنَ الأموالِ وَغَيْرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَتَبْلُغَنَّكُمْ مِنِّي مِنَ الْتَوْبِ وَالْمُجْعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقال بعضهم: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّبٍ﴾ أَنْ يَأْخُذَ قَرْيَةً قَرْيَةً وَبَلَدَةً بَلَدَةً حتى يَأْتِيَ قَرِيباً مِنْهُمْ، ثم يَأْخُذَهُمْ؛ كُلُّمَا أَخَذَ قَرْيَةً كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ خَوْفٌ، فَذَلِكَ أَخَذَ بِتَخَوُّبٍ، وهو ما قال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ٣١] وَعَدَّ اللَّهُ حُلُولاً قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ، كَانَ يُخَوِّفُهُمْ حتى نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ؛ فَذَلِكَ أَخَذَ بِالتَّخَوُّبِ يُخَبِّرُ أَنَّ عَذَابَهُ لَا يُؤْمِنُ حُلُولُهُ، وَأَخَذَهُ إِيَّاهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ: فِي الْحَالِ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ آمِنٌ وَلَا خَوْفٌ، أَي لَمْ يُغْلَبْ هَذَا [على هذا]^(٤)، وَفِي الْحَالِ الَّتِي يَكُونُونَ آمِنِينَ فِي تَقْلِيهِمْ وَخَوَائِجِهِمْ وَفِي الْحَالِ الَّتِي يَكُونُونَ مُتَخَوِّفِينَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ رَحِيمٌ﴾ حينَ^(٥) لَمْ يَسْتَاصِلْكُمْ، وَلَمْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ لِرُسُلِهِ وَالْمُكَابَرَةِ وَالْمُعَانَدَةِ لِآيَاتِهِ وَحُجْجِهِ وَتَنْذِيرِهِ، وَلَكِنْ أَمْهَلْكُمْ، وَأَخَّرَ ذَلِكَ عَنْكُمْ أَوْ ﴿الرَّؤُوفُ رَحِيمٌ﴾ إِذَا^(٦) تَبَيَّنَ، وَرَجَعْتُمْ عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ، يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ، وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذَلِكَ.

الآية ٤٨ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَنْفَعِيهِمْ فَلِلَّهِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ قَالَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ قَدْ تَقَرَّرَ عَنْدهُمْ، وَبَيَّنَّ، أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ، وَيَخْضَعُ لَهُ. فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ عَلَى الْعِتَابِ: إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَمْ يَرْكَبْ فِيهِ الْعَقْلُ، وَلَمْ يُجْعَلْ فِيهِ الْفَهْمُ وَالسَّمْعُ، يَخْضَعُ لَهُ، وَيُسَبِّحُ لَهُ، وَأَنْتُمْ لَا تَخْضَعُونَ لَهُ مَعَ مَا رَكَّبَ فِيكُمْ الْعُقُولَ، وَجَعَلَ فِيكُمْ الْإِفْهَامَ وَغَيْرَهَا.

والثاني: عَلَى الْأَمْرِ؛ أَيِ اعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْجُدُ لِلَّهِ، وَيَخْضَعُ، وَقَدْ أَقَامَ لَهُمْ مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى ذَلِكَ مَا لَوْ تَأَمَّلُوا، وَتَفَكَّرُوا لَعَلِمُوا أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ يَخْضَعُ، وَيُسَبِّحُ.

والآ ظاهرُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَنْفَعِيهِمْ فَلِلَّهِ﴾ أَنْ يَقُولُوا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَنْ كَانَ الْخِطَابُ لِأَهْلِ مَكَّةَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ؟ لَكِنْ يُخْرِجُ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ الآيةَ لَمَّا اسْتَوْحَشَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مِمَّا^(٧) عَبَدَ أَوْلَئِكَ الْكُفَرَةُ الْأَصْنَامَ، وَعَظَّمُوا مَا قَالُوا فِيهِ، فَقَالَ لِذَلِكَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّ﴾ كَذَا.

وقوله^(٨) تعالى: ﴿يَنْفَعِيهِمْ فَلِلَّهِ﴾ قَالَ بعضُهُمْ: يُرِيدُ بِالظَّلَالِ شَخْصَ ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَالظَّلَالُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّخْصِ؛ كَمَا يُقَالُ: رَأَيْتُ ظِلَّ فُلَانٍ أَيِ شَخْصَهُ، وَقَالَ بعضُهُمْ: أَرَادَ بِالظَّلِّ الظَّلَّ نَفْسَهُ. لَكِنْ خُضُوعُهُ وَسُجُودُهُ يَكُونُ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. وَعَلَى تَأْوِيلٍ مَنْ يَجْعَلُ الظَّلَّ كِنَايَةً عَنِ الشَّخْصِ يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَقِيًّا خُضُوعاً وَسُجُوداً.

ثم مَعْنَى سُجُودِ^(٩) هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَوَاتِ، وَخُضُوعُهُمْ مِنْ قولِهِ: ﴿يَنْفَعِيهِمْ فَلِلَّهِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا﴾. وَمِنْ نَحْوِ

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدوج قبلها في الأصل: حيث. (٦) من م، في الأصل: فما. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: سجود. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث.

قوله: ﴿سَيَخْنِ بِالنَّيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] وقوله: ﴿يَجَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالْقَلْبِ﴾ [سبأ: ١٠] وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنسُجْ بِحُورِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] وأمثاله يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها: أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ ﷻ يُلْطِفُوهُ فِي سِيرَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَعْنَى تَعَلَّمَ السُّجُودَ لِلَّهِ وَالْخُضُوعَ لَهُ؛ وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي الرِّيحِ الَّتِي «تَجْرَى بِأَمْرِهِ رُفَّةً حَيْثُ أَصَابَ» [ص: ٣٦] أَخْبَرَ أَنَّهَا تَجْرِي بِأَمْرِهِ، دَلَّ أَنَّهَا تَعَلَّمُ أَمْرَ اللَّهِ وَقَوْلُهُ: «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَحُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَمَكُونُ» ﴿وَقَالُوا لِمَلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ و ٢١] أَخْبَرَ أَنَّهَا تَشْهَدُ، وَتَنْطِقُ، وَلَوْ أَنَّهَا [لا] ^(١) تَفْهَمُ، وَلَا ^(٢) تَعَلَّمُ الْخِطَابَ مَا ^(٣) خَوِطَبَتْ، وَإِنْ كَانَتْ مَوَاتًا. فَعَلَى ذَلِكَ تَسِيحُهَا وَخُضُوعُهَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَجْعَلُ فِي سِيرَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَا تَعَرَّفَ السُّجُودَ وَالتَّسِيحَ، وَتَفْهَمُهُ.

والثاني: يَكُونُ سُجُودُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَتَسِيحُهَا بِالتَّسْخِيرِ؛ جَعَلَهَا مُسَخَّرَاتٍ لَذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ تَعَلَّمْ هِيَ ذَلِكَ، وَلَمْ تَعْرِفْ، لَكِنْ جَعَلَهَا بِالْخَلْقَةِ كَذَلِكَ.

والثالث: أَنَّهُ جَعَلَ خَلْقَهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَالَّةً شَاهِدَةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالْوَهْبِيَّةِ؛ فَهِنَّ مُسَبِّحَاتُ اللَّهِ وَسَاجِدَاتُ اللَّهِ وَخَاشِعَاتُ لَهُ بِالْخَلْقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا دَالَّةً وَشَاهِدَةً عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالْوَهْبِيَّةِ.

هذا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى سُجُودِهِنَّ وَخُضُوعِهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُنَّ ذَخِرُونَ﴾ قبل: صَاحِرُونَ، ذَلِيلُونَ.

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: يَسْجُدُ لَهُ أَعْلَى الْخَلَائِقِ وَأَعْلَمُهُمْ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَيَسْجُدُ أَشَدَّ الْخَلْقِ وَأَضْلَبُهُ، وَهُوَ الْجِبَالُ وَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَيَسْجُدُ لَهُ أَيْضاً، وَيَخْضَعُ أَشَقَى ^(٤) الْخَلْقِ وَأَجْهَلُهُ، وَهُوَ الدَّوَابُّ وَغَيْرُهَا. وَأَنْتُمْ آيْتُمْ السُّجُودَ لَهُ وَالْخُضُوعَ، وَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ. فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ يَسْجُدُونَ [لِغَيْرِ اللَّهِ] ^(٥) يُخْبِرُ عَنْ سَفْوِ أَوْلَئِكَ فِي إِبَائِهِمُ السُّجُودَ لَهُ وَالْخُضُوعَ وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَلَيْهِ.

الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: خَوْفُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ خَوْفُ هَيْبَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ، لَا خَوْفَ نُزُولِ شَيْءٍ مِنْ تَقَاتِيهِ عَلَيْهِمْ، وَخَوْفَ غَيْرِهِمْ ^(٦) مِنَ الْبَشَرِ خَوْفَ نُزُولِ شَيْءٍ، يَضُرُّ بِهِمْ. وَكَذَلِكَ رَجَاؤُهُمْ وَطَمَعُهُمْ رَجَاءُ نَفْعٍ، يَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَرَجَاءُ ^(٧) الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَطَمَعُهُمْ رَجَاءُ رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ لَا رَجَاءُ نَفْعٍ، يَصِلُ إِلَيْهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ خَوْفُ الْعُقُوبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ، لِأَنَّهُمْ مُمْتَحَنُونَ؛ وَكُلُّ مُمْتَحَنٍ يَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ وَنَقَمَتَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ كَيْفَ أَوْعَدَهُمُ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ إِلَهٌُ مِنْ دُونِي﴾ [الأنبياء: ٢٩] وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿وَإِخْتِئِبْنِي رَبِّي أَنْ تَقُودَ الْأَنْسَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] خَافَ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ؟ وَمَنْ خَافَ ذَلِكَ يَخَفُ ^(٨) وَعِيدَهُ وَعَذَابَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ الْفَوْقُ وَالتَّخْتُ الْأَسْفَلُ وَنَحْوُهُ فِي الْأَمَكَةِ، وَالْمَجْلِسُ لَيْسَ فِيهِ فَضْلٌ عِزٌّ وَشَرَفٌ وَمَرْتَبَةٌ لِمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي كَانَ فَوْقَ هَذَا فِي الْمَكَانِ الْمَجْلِسِ تَحْتَهُ وَأَسْفَلَ مِنْهُ، فَلَا يَزِدَادُ لِهَذَا بِمَا صَارُوا فَوْقَهُ/ ٢٨٦ - أ/ عِزًّا وَشَرَفًا وَمَرْتَبَةً، وَلَا لِهَذَا بِمَا كَانَ تَحْتَهُ ذُلٌّ وَمَوَانُ ^(٩)، لِأَنَّهُ لَا يُفْهَمُ «مِنْ فَوْقِهِمْ» فَوْقَ الْمَكَانِ وَلَا تَحْتَهُ، لِأَنَّ مَنْ صَعِدَ الْجِبَالِ وَالْأَمَكَةَ الْمُزْتَفِقَةَ، لَا يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ.

وَإِذَا قِيلَ: فَلَانُ أَمِيرٍ [عَلَى الْعِرَاقِ] ^(١٠) أَوْ عَلَى خُرَاسَانَ، كَانَ فِي ذَلِكَ تَعْظِيمٌ، لِأَنَّهُ ذِكْرٌ بِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ وَنَفَازِ أَمْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ فِيهِمْ أَوْ أَطْلَاعِهِ عَلَى جَمِيعِ مَا يُسْرُونَ، وَيُضْمِرُونَ، وَيُعْلِنُونَ، وَيُظْهِرُونَ، وَعِلْمِهِ بِجَمِيعِ ^(١١) أَعْمَالِهِمْ. عَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْفَوْقُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) أدرج قبلها في الأصل: وانا، وأدرج قبلها في م: والا. (٤) في الأصل وم: أسفه.

(٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يخاف. (٩) في الأصل وم: وهو

ذل هذا. (١٠) من م، في الأصل: عراق. (١١) في الأصل وم: على جميع.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا يُوْمَرُونَ﴾ وصفهم الله ﷻ بِفَضْلِ طَاعَتِهِمْ لَهُ وَخُضُوعِهِمْ إِيَّاهُ، وهو ما قال: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ ﴿يَسْتَحِيرُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و ٢٠] وهو ما قال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] ومثله.

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ لا نَعْلَمُ الخطاب بهذا أنه لِمَنْ كَانَ الخطاب بهذا: الأهل مكة؟ فهم قد اتَّخَذُوا إِلَهًا بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَجْمَلُ آلَافَةٍ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الآية [ص: ٥] إِلَّا أَنْ يُخَاطَبَ الشُّنُوءَةُ وَالزَّنَادِقَةُ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بَاطْنَيْنِ، وَيُشِيرُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَإِنْ اتَّخَذُوا إِلَهًا فَإِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عِبَادٌ إِلَهَيْنِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَتَعْبُدُونَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ بِأَمْرِ الشَّيْطَانِ وَطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ، فَتَسَبَّ الْعِبَادَةُ لِمَا بِأَمْرِهِ يَتَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ؛ أَضَافَ الْعِبَادَةَ إِلَيْهِ. أو أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ ذِكْرِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْوَاحِدِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا، أَوْ لَا تَعْبُدُوا أَكْثَرَ مِنْ إِلَهٍ وَاحِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا مَا يَتَّبِعُونَ﴾ لا تخافوا^(١) الأصنام التي تعبدونها، فإنكم إن تركتم عبادتها لا تضرركم. **الآية ٥٢** وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وَلَهُ يَخْضَعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ كُلُّهُمْ عِبْدُهُ وَإِمَاؤُهُ. فكيف أشركتم عبيده في ألوهية الله تعالى وربوبيته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ رَاصِبًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: دَائِمًا، لِأَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا يَنْطَلُ، وَيَضِلُّ، وَيَبْقَى دِينُهُ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ رَاصِبًا﴾ أَي مُخْلِصًا مِنَ الْوَضْبِ وَالتَّعَبِ. وَتَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَي وَلَهُ دِينٌ، لَا يُوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَعَبٍ وَجَهْدٍ، فَاجْتَهِدُوا، وَاتَّعَبُوا، لِتُخْلِصُوا لَهُ الدِّينَ. هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَاصِبًا﴾ [أي^(٢) مُخْلِصًا].

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَكْفُرُ اللَّهُ تَكْفُورًا﴾ أَي مُخَالَفَةً غَيْرَ اللَّهِ تَكْفُورًا، أَي [خَافُوا مُخَالَفَةَ اللَّهِ، وَلَا تَخَافُوا]^(٣) مُخَالَفَةَ غَيْرِهِ. أَوْ يَقُولُ: وَلَا تَخَافُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَلَا تَتَّقُوا سِوَاهُ، وَلَكِنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وَاتَّقُوا نَفْسَهُ.

الآية ٥٣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّمَنَ قِيمَ اللَّهِ ثَمَّ إِذَا مَنَّ اللَّهُ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أَي تَتَضَرَّعُونَ. يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وَقِلَّةِ^(٤) عَقْلِهِمْ؛ إِنَّهُمْ يَغْلَمُونَ أَنَّهُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُلْكُهُ، وَأَنَّ مَا لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ مِنْهُ، وَأَنَّ مَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّدَةِ، هُوَ الْكَاشِفُ لَهُمْ وَالِدَافِعُ عَنْهُمْ.

الآية ٥٤ [وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَاقُ مَنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾]^(٥) ثم يكفرون، ويضربون شكرها منه إلى غيره في حال الرِّخَاءِ وَالسَّعَةِ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ فِي حَالِ الشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ، فيقول: أَنَا الْمُنْعِمُ عَلَيْكُمْ تِلْكَ النِّعَمَ، وَأَنَا الْمَالِكُ الْكَاشِفُ^(٦) عَنْكُمْ لَا الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا. وَكَيْفَ كَفَرْتُمْ فِي الرِّخَاءِ وَالسَّعَةِ، وَأَمَنْتُمْ فِي وَفْتِ الضِّيقِ وَالْبَلَاءِ.

كَانُوا يُخْلِصُونَ لَهُ الدِّينَ [فِي]^(٧) وَفْتٍ، وَيُشْرِكُونَ غَيْرَهُ فِي وَفْتٍ، فيقول: أَدِيمُوا إِلَيَّ الدِّينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ الَّذِينَ رَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] وَلَا تَتْرَكُوا الْإِيمَانَ فِي وَفْتٍ وَتُؤْمِنُوا بِهِ فِي وَفْتٍ وَكَذَلِكَ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ؛ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِرَبِّهِمْ فِي حَالِ الرِّخَاءِ وَالسَّعَةِ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ وَالشَّدَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَا اللَّهُ تَحْلِيلِينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَرَضَ الْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ لِهَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ مِنْ عَادَتِهِمُ الْإِيمَانَ فِي وَفْتِ الْبَلَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْخَوْفِ. فَقَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ مَعَهُمْ لِيَضْطَرُّوا إِلَى الْإِيمَانِ، فَيُؤْمِنُوا، وَيُدِيمُوا الْإِيمَانَ.

وَمُنْذُ قَرَضَ الْقِتَالَ مَعَهُمْ كَثُرَ الْإِسْلَامُ، فَدَخَلُوا فِيهِ فَوْجًا فَوْجًا، وَإِنْ [كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَدْخُلُونَ]^(٨) فِيهِ وَاحِدًا وَاحِدًا. وَفِيهِ دَلَالَةٌ إِبْرَائِيلَ رَسُولَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّمَنَ قِيمَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَمَّا عَرَفُوا، وَتَقَرَّرَ عَنْدهُمْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَخَافُونَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا تَخَافُوا وَلَكِنْ اتَّقُوا. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: غَفْلَةٌ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنِ الْكُشْفِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَدْخُلُ.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهَرُوا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أَنْ يَجْعَلُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ، وَانْعَمَ عَلَيْهِمْ، سَبَبَ تَكْفُرِهِمْ بِاللَّهِ.

والثاني: يَكْفُرُونَ بِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ وَصَرَفِهِمُ الشُّكْرَ عَنْهُ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارُهُ عَنْ سَفَهِهِمْ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا فِي الْبَشَرِ أَحَدًا، يُطَاعُ، وَيَخْضَعُ [إِلَيْهِ] ^(١) إِلَّا أَخَذَ رَجُلَيْنِ: دَافِعَ بَلَاءٍ عَنْهُ أَوْ جَارٍ نَفْعًا ^(٢) إِلَيْهِ. فَالْأَصْنَامُ الَّتِي عِبَدُوهَا لَيْسَ مِنْهَا دَفْعُ بَلَاءٍ وَلَا جَرُّ مَنَفَعَةٍ. فَلِمَاذَا يَعْبُدُونَهَا؟ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهَرُوا﴾ أَيِ الْقُرْآنِ.

وقوله تعالى: ﴿تَتَعَبَّوْا فَنُفِثَ قَوْلُكُمْ قَوْلَ الْكُفْرَانِ﴾ ^(٣) ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَا يُنْزِلُ بِكُمْ بِكُفْرَانٍ ^(٤) نِعْمَهُ وَصَرَفِ الشُّكْرِ عَنْهُ أَنَّهُ مُهْلِكُكُمْ وَمُنْزِلُ بَعْثٍ عَذَابِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَنَّكُمُ اللَّهُ فَلْيَتَّخِذُوا﴾ أَيِ تَضَرَّعُوا، مَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ تَضَرُّعَهُمْ ^(٥) إِلَى اللَّهِ إِذَا أَصَابَهُمُ الضَّرُّ وَالْبَلَاءُ، وَإِذَا انْكَشَفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ تَرَكَوْا ذَلِكَ التَّضَرُّعَ، أَيِ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ؟ فَكَيْفَ تَضَرَّعُونَ شُكْرَهَا إِلَى غَيْرِهِ فِي حَالٍ.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَحْسَبُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ وَغَيْرِهِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ، وَلَا يَعْلَمُونَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي ذَلِكَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ، وَجَعَلُوا لِأَيْدِيهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَحْسَبُونَ نَصِيبًا﴾ وَهُوَ الشَّيْطَانُ؛ أَيِ مَا يَجْعَلُونَ لِلْأَوْتَانِ فَذَلِكَ لِلشَّيْطَانِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَكَايَلُكَ الشَّيْطَانُ﴾ [مريم: ٤٤] وَلَا أَخَذَ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ، لَكِنَّهُمْ إِذَا عَبَدُوا الْأَوْتَانَ كَانَهُمْ ^(٦) قَدْ عَبَدُوا الشَّيْطَانَ لِأَنَّهُ هُوَ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا يَجْعَلُونَ لِلْأَوْتَانِ ذَلِكَ لِلشَّيْطَانِ لِمَا ذَكَّرْنَا، لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ، لَهُ نَصِيبٌ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَحْسَبُونَ نَصِيبًا﴾ أَيِ يَعْلَمُونَ أَنَّ لَيْسَ لَهَا نَصِيبٌ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهَا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ، أَيِ لَا نَصِيبَ لِلْأَوْتَانِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أَيْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ وَنَحْوُهُ، أَيِ يَعْلَمُ غَيْرَ الَّذِي تُتَبَتُّونَ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا قَوْلَهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ عَلَى الْقَوْلِ أَيْ وَيَقُولُونَ، وَإِلَّا لَا يَمْلِكُونَ جَعْلَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَأَشْتَقَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تَسْمِيَتَهُمُ الْأَصْنَامَ آلِهَةً.

وَيَحْتَمِلُ أُفْرَاؤُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَا قَالُوا: ﴿وَإِذَا قُمُوا فَحَسَتْ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] زَعَمُوا أَنَّهُ فَعَلَ آبَاؤُهُمْ، وَفَعَلَهُمْ ^(٧) كَانَ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَرِضَاهُ حِينَ ^(٨) تَرَكَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَذَلِكَ أُفْرَاؤُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَأَشْتَقَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ السُّؤَالُ الْجَزَاءُ؛ أَيِ تَاللَّهِ لَتُجْزَوْنَ ^(٩) عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ.

وَيَحْتَمِلُ السُّؤَالُ [سُؤَالٌ] ^(١٠) حُجَّةٌ [أَيْ يُسْأَلُونَ] ^(١١) عَلَى مَا ادَّعَوْا عَلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْرِ الْحُجَّةَ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ أَيِ يَقُولُونَ: اللَّهُ الْبَنَاتُ؛ يُخْبِرُ عَنْ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ/ب/ حِينَ ^(١٢) يَأْتُونَ، وَيَسْتَحْيُونَ مِنَ الْبَنَاتِ، ثُمَّ يَنْسِبُونَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، وَيُضَيِّفُونَهَا إِلَيْهِ. يُصَبِّرُ رَسُولَهُ عَلَى أَدَى الْكُفْرَةِ حِينَ ^(١٣) قَالُوا فِيهِ مَا قَالُوا: إِنَّهُ سَاجِرٌ، وَإِنَّهُ مُفْتَرٍ، وَنَحْوُهُ، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ وَيَقِينُ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ. فَمَنْ أَنْكَرَ رِسَالَتَهُ أَوَّلَى بِالصَّبْرِ عَلَى قَوْلِهِ وَالْجِلْمِ مِنْهُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: نفع. (٣) في الأصل وم: من كفران. (٤) في الأصل وم: يتضرعون. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: وفعلوه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ليسألون. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث.

[وقوله تعالى^(١): ﴿سُحُوتٌ﴾ كلمة تنزيه عما قالوا فيه، وحزف تعجيب حين^(٢) تَسُبُّوا إلى الله ما يَكْرَهُونَ لأنفسهم.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال بعضهم: قول العرب: قُبِحَ الله وجهك، و: سَوَّدَ الله وجهك، ليس على إرادة السواد والفُحج، ولكن على إرادة ما يَكْرَهُونَ.

وقال الحسن: قوله ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي مُتَغَيَّرًا مِنَ الْعَمِّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي حزين، وهكذا العُرف في الناس أنه إذا اشتدَّ بهم الحزن والغم يظهر ذلك في وجوههم قُبْحًا وسوادًا.

الآية ٥٩

[وقوله تعالى^(٣): ﴿يَتَوَرَّعُونَ مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُنُ عَلَىٰ هُوبٍ﴾ يَذْكُرُ فيه كيف يَضَعُ به؟ أينسكُنُه على هوانٍ، يَضُرُّ به، ويُسِيءُ ضَحَبَتُهُ ﴿أَرَأَيْتُمْ فِي الثَّرَابِ﴾ وهو حَيٌّ، فيقول: إن ربي اختار البنات، فأبعث بها إلى ربي، فإنه أحقُّ بها. وهي^(٤) المروودة التي قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] وإنما كانوا يَضَعُونَ ذلك خشية إِمْلَاقِ كقولهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَكُونُوا﴾ [الإسراء: ٣١]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في جعلهم لله ما كرهوا لأنفسهم أو في قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] أو في قولهم: ﴿هَذَا اللَّهُ يَرْغِبُهَا وَهَذَا يُشْرِكُ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] ونحوه، والله أعلم.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي جزاء السوء، وهو النار.

وقال الحسن: ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي صفة السوء التي وصفوا بها ربهم أنه اختار البنات ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفة الأعلى التي ليس لها شبهة، فإن تلك الصفة، هي صفته.

ويُشَبِّهُ أن يكون قوله لهم: ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ بما سَمَّاهُمْ مَرَّةً مَوْتَى ومَرَّةً فَسَقَةً ومَرَّةً هُمْ في الظلمات وامثاله. [وصفهم بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ]^(٥) بما أنكروا الآخرة؛ وذلك مما توجب الحكمة والعقل والشرعة، فلهم ذلك الوصف والمثل السوء بما أنكروا ما توجب الحكمة والعقل والشرعة.

ويَحْتَمِلُ مَثَلُ السَّوْءِ الثَّغْتِ وَالصَّفَةِ. فإن كان هو، هو على الشَّبَّ، فهو في الدنيا لِمَا شَبَّهَهُمْ في غير آية من القرآن بالشجرة الخبيثة وبالرَّمَادِ وَالزَّيْدِ وَالتَّرَابِ وَنَحْوِهِ. وإن كان على الثَّغْتِ وَالصَّفَةِ فهو في الآخرة، وهو ما ذَكَرَ: ﴿الَّذِينَ يُحْتَرِبُونَ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ إِنْ جَاءَهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي لأولياء الله المثل الأعلى، وهم المؤمنون لِمَا أَنَّ الله وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَيَاةِ وَالنُّورِ وَالْعَدْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَةِ، وذلك لله في الحقيقة. لكنّه يَفْضِلُهُ وَمَنْ وَصَفَهُمْ، وَسَمَّاهُمْ بِذَلِكَ، فَأُضِيفَ إِلَى اللَّهِ لِمَا يَفْضِلُهُ اسْتَوْجِبُوا لَا بِاسْتِحْقَاقٍ أَنْفُسِهِمْ.

وكذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، يَفْضِلُهُ بِاسْتَوْجِبُونَ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ الَّتِي سَمَّاهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي لأولياء الله المثل الأعلى؛ كأنه قال: لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ مُقَابِلَ مَا ذَكَرَ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال الحسن: ﴿الْعَزِيزُ﴾ بِالْعَلِّيَّةِ مِنْهُ فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا عَلَىٰ أَمْرِهِ^(٧)، وكلُّ شيءٍ دُونَهُ ذَلِيلٌ ﴿الْحَكِيمُ﴾ بِالْعَدْلِ مِنْهُ فِي كُلِّ قَضَاءٍ، وقد ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في هذا الموضع كأنه قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بنفسه لا بِخَلْقِهِ وَأُولِيَائِهِ كَمَا يَكُونُ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ؛ يَكُونُ عِزُّهُمْ بِخَدَمِهِمْ وَحَسَمِهِمْ، فإذا ذهبوا، أو عَصَوْهُ، يَصِيرُ مَقْهُورًا مَغْلُوبًا. فأما الله

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: لهم ذلك الوصف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: ما.

﴿فَهُوَ﴾ عزيرٌ بذاتِهِ. و﴿الْمَكِيدُ﴾ أي إنشاؤه العصاة منهم على علمٍ منه بذلك، لم يُخرج ذلك على غير الحكمة، والله أعلم.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَكِّيرٍ﴾ ذَلْ قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أَنْ لَهُ أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمْ، وَيُهْلِكُهُمْ بما كان منهم، لكنه بفضلِهِ تَرَكَهُمْ إلى المدة التي لهم، لأنه لو لم يكن له ذلك لم يكن للوعيد الذي أوعَدَ مَعْنَى.

وقال أبو زيد البلخي: إن الله بما أوعَدَ مِنَ الوَعِيدِ لَيْسَ يُوعَدُ لِمَصْرُوءٍ نَفْسِهِ وَلَا لِنَفْعٍ يَصِلُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ يُوعَدُ بِمَا تُرْجَى الْحِكْمَةُ. فَذَلَّ أَنْ الوَعِيدَ لَزِمَ وَاجِبٌ، وَنَحْنُ نَقُولُ: [يُوعَدُ] ^(١) بِمَا تُرْجَى الْحِكْمَةُ، وَقَدْ أَمْهَلَهُمْ بَعْدَ الوَعِيدِ. فَعَلَى ذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا أَدْخَلَهُمُ النَّارَ بِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْكَبَائِرِ.

ثم في قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ الآية دلالة نقض قول المعتزلة لأنهم يقولون: ليس لله أن يهلك قوماً، قد عَلِمَ منهم الإيمان في وَقْتٍ، أو يكون في أصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ؛ إِذْ قَدْ كَانَ يَمُنُّ أَوْعَدَ ذَلِكَ الوَعِيدَ مِنْ بَعْضِهِمُ الْإِيمَانَ، أو في أصْلَابِهِمْ مَنْ قَدْ آمَنَ، فَذَلَّ الوَعِيدُ لَهُمْ أَنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ مَنْ يَغْلَمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ؛ إِذْ لَا يُوعَدُ إِلَّا بِمَا لَهُ أَنْ يَفْعَلَ، لَكِنَّهُ يَفْضِلُهُ آخِرُهُ إِلَى وَقْتٍ دَلَالَةً أَنَّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ بِمَا لَيْسَ ذَلِكَ بِأَصْلَحَ لَهُمْ فِي الدِّينِ.

ثم اختلف في قوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ قال بعضهم: هذا للكفر خاصة، وقال بعضهم: لهم وللمؤمنين ولكل ^(٢) مُرْتَكِبٍ زَلَّةً؛ إِذْ مَا مِنْ أَحَدٍ ارْتَكَبَ زَلَّةً إِلَّا وَقَدْ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ [وَالْمُؤَاخَذَةَ بِهَا] ^(٣) لَكِنَّهُ يَفْضِلُهُ عَفَا.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَكِّيرٍ﴾ قال بعضهم: أراد بالدابة الدابة التي خلقها لهم، إذا أهلك الناس فقد أهلك الدواب؛ إِذْ خَلَقَهُ إِيَّاهَا لَهُمْ. وقال بعضهم قوله ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَكِّيرٍ﴾ أي على ظهر الأرض من دابة لأن الدواب إنما تعيش بالذي يعيش الناس، فإذا هلكوا هلكت الدواب أيضاً، لما ذهب سبب عيشها.

وجائز أن يكون أراد بالدابة البشر، أي ما تركهم بظلمهم، ولكن يهلكهم، وسماهم دابة [لأنه ذكرهم] ^(٤) في موضع الظلم. وإن كان سماهم في غير موضع بالأسماء الحسنة فقد ^(٥) سماهم في موضع آخر دابة حين ^(٦) قال: ﴿وَمَا مِنْ ذَكِّيرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وَلَا شَكَّ أَنَّ الْبَشَرَ دَخَلُوا فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ.

فعلى ذلك جائز دخولهم في الأخرى؛ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مَا ذَكَرَ مِنَ الدَّابَّةِ الْبَشَرَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، فَإِنَّمَا يَكُونُ هَلَاكُهُمْ بِقَطْعِ نَسْلِهِمْ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ، أَكْثَرُهُمْ وَلِدُوا مِنَ الْأَبَاءِ الظَّالِمَةِ، فَإِذَا أَهْلِكَ آبَاؤُهُمْ لَمْ يُولِدِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءَ، فَيَكُونُ هَلَاكُهُمْ لَا يَظْلَمُ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ يَقْطَعُ النِّسْلَ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِتِلْكَ الدَّابَّةِ الدَّوَابَّ نَفْسَهَا، فَلِأَنَّ الدَّوَابَّ إِنَّمَا أُنْشِئَتْ لِلْبَشَرِ وَلِمَنَافِعِهِمْ، فَإِذَا أَهْلِكَ [الدَّابَّةُ: الْبَشَرُ] ^(٧) أَهْلِكَ الْمُنْشَأَ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَنْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ دلالة [نقض] ^(٨) قول المعتزلة لأنهم يقولون: يجعل الله للخلق أجلاً، ثم يجيء كافرٌ، فيقتله دون بلوغ الأجل الذي جعله الله حين ^(٩) أخبر أنهم ﴿لَا يَسْتَنْجِرُونَ سَاعَةً﴾ بعد الأجل المضروب لهم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ قَبْلَ ذَلِكَ. وَهُمْ يَقُولُونَ: بَلْ يَسْتَقْدِمُهُ كَافِرٌ، فَيَقْتُلُهُ، فَذَلِكَ سَرَفٌ فِي الْقَوْلِ.

وهذا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: لَا يَتَأَخَّرُ الْأَجَلُ الَّذِي جَعَلَ لَهُمْ سَاعَةً، وَلَا يَتَقَدَّمُ عَنْ ذَلِكَ.

والثاني: لَا يُجَابُ فِي التَّأخِيرِ وَلَا فِي التَّقْدِيمِ.

(١) في الأصل وم: هو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بذلك والمواخظة به. (٥) في الأصل وم: لأنه إذا ذكر. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: الدواب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ﴾ كانوا يجعلون لله أشياء، يكرهونها^(١) لأنفسهم من نحو البنات ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ﴾ [النحل: ٥٧] ويكرهون لأنفسهم البنات، ويجعلون ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠ والرعد: ٣٣] من عبيده، وهم كانوا يكرهون لأنفسهم الشركاء من عبيدهم.

وامثالهُ/ ٢٨٧-١/ كقولهِ: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨] يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وَسَرَفِهِمْ فِي [مَا]^(٢) يُخْبِرُ عَنْ جُلْمِهِ حِينَ^(٣) لَمْ يَسْتَأْصِلْهُمْ، وَلَمْ يُهْلِكْهُمْ، بِمَا قَالُوا فِي اللَّهِ مِنْ عَظِيمِ الْقَوْلِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يُمِهُلُهُمْ [لَا]^(٤) لِقِفْلَةٍ وَلَا سَهْوٍ، وَلَكِنْ بِحِلْمٍ، لِأَنَّ حِلْمَ^(٥) الْخَلْقِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَلَا يُعَجَّلُ بِالْعُقُوبَةِ؛ إِذْ لَوْ أَرَادَ إِهْلَاكَهُمْ لَأَهْلَكَهُمْ سَاعَةً قَالُوا ذَلِكَ، وَلَا يُمِهُلُهُمْ يَعِشُونَ، لَكِنْ أَخَّرَ لَذَلِكَ الْيَوْمَ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي يجعلون لأولياء الله ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم لأنهم يقولون: إن لهم الحُسنى في الآخرة، وهي الجنة، وإن للمؤمنين النار بقوله: ﴿وَلَكِنْ تُجِزُّ الْكَافِرِينَ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَصِفُ آلَيْنَهُمُ الْكَذِبَ﴾ قال أبو بكر الأصم: يقولون: إنا [على]^(٦) دين الله، وعلى الحق بعبادتنا، ويقولون: ﴿أَنْتَ لَهُمُ النَّسِيُّ﴾ يغنون البنين، لأنهم كانوا يضيفون البنات إلى الله، وتُسببون البنين إلى أنفسهم، فذلك الحُسنى الذي ذكروا.

وقال بعضهم: ﴿أَنْتَ لَهُمُ النَّسِيُّ﴾ أي الجنة كقوله: ﴿وَلَكِنْ تُجِزُّ الْكَافِرِينَ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

ثم كذبهم في قولهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَّهُمُ النَّارُ﴾ ليس لهم الحُسنى على ما زعموا، ولكن النار. وقد ذكرنا قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ في ما تقدم^(٧).

كَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ فِرْقًا: مِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى الْإِشْرَاقَ فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ كَمَا كَانَ [لَهُمْ]^(٨) اشْتِرَاكَ فِي نِعَمِ الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

ومِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى الْآخِرَةَ لأنفسهم كما كانت لهم الدنيا. فجائز أن يكون قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ وَنَصِفُ آلَيْنَهُمُ الْكَذِبَ أَنْتَ لَهُمُ النَّسِيُّ هم الذين ادَّعَوْا الحُسنى، وهي الجنة، لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ هو من الفُرط، وهو السُّبْقُ والتَّفَدُّمُ، كَأَنَّ الْآيَةَ فِي الرُّسَاءِ؛ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ سَابِقُوا أَتْبَاعِهِمْ إِلَى النَّارِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرُجْنَهُنَّ﴾ [الأعراف: ٣٩] الْأُولَى هُمُ الْمَتَّبِعُونَ، وَأَخْرَاهُمُ الْإِتْبَاعُ.

وقال بعضهم: مُعْجَلُونَ إِلَيْهَا بَيْنَ يَدَيِ أَتْبَاعِهِمْ. وقال بعضهم: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أي مُتْرَكُونَ مُنْشِيُونَ فِي النَّارِ. وقال بعضهم: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ مُبْعَدُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

لَكِنَّ هَذِينَ لَيْسَا بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ، إِذْ كُلُّ مَنْ فِي النَّارِ، فَهُوَ مُنْشِيٌّ، مُتْرَكٌ فِيهَا، مُبْعَدٌ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وقال بعضهم: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ مُدْخَلُونَ فِيهَا. وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا.

الآية ٦٣

وقوله تعالى: ﴿ثَالِثًا لَّكَ أَمْرٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقِسْمُ مِنْهُ إِتْبَاءً. لَكِنْ كَانَ عَنْهُ إِنْكَارٌ كَانَ مِنْهُمْ لِلرَّسَالَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَقْسَمَ بِقَوْلِهِ ﴿ثَالِثًا لَّكَ أَمْرٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وَأَكَّدَ بِمَا أَنْكَرُوا الرِّسَالَةَ بِالْقِسْمِ الَّذِي ذَكَرَ، فَقَالَ: ﴿ثَالِثًا لَّكَ أَمْرٌ مِّن قَبْلِكَ﴾. يَا مُحَمَّدُ.

وقوله^(٩): ﴿ثَالِثًا لَّكَ أَمْرٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَى [أُمِّيَّتِكَ]^(١٠) ﴿فَرَيْنَ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْلَهُهُمْ﴾ كَمَا زَيْنَ لَأُمِّيَّتِكَ. ﴿فَهُوَ﴾ كَانَ ﴿وَلِيَّهُمْ﴾ يَوْمَئِذٍ كَمَا هُوَ وَلِيٌّ لَأُمِّيَّتِكَ الْيَوْمَ. يُضَبَّرُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكْرَهُونَ ذَلِكَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحِلُّ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) كَانَ ذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقوله تعالى: ﴿فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَهْلَهُمْ﴾ يقول: ليس هؤلاء بأول من زين لهم الشيطان أعمالهم، ولكن كان في الأمم الماضية من زين لهم الشيطان أعمالهم، فيكذبون رسلهم. فقلت أنت بأول مكذب، بل كان لك شركاء في التكذيب ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ في الدنيا لأن الدين هو دار الولاية بينهم كقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَهْلُ الْبَقَرَةِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأما في الآخرة فيصرون أعداء كقوله: ﴿الْأَحْزَابُ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا السُّعُوتُ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] وقوله: ﴿قَالَ فَيْتُ رَبَّنَا مَا خَلَقْتُمْ﴾ الآية [ق: ٢٧] ونحوه. ولا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونُوا أَوْلِيَاءَ فِي الْآخِرَةِ؛ ثُمَّ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ فَذَلِكَ عِلَامَةُ الْعِدَاوَةِ. وقال بعضهم: قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ في الآخرة، أي أولى بهم، فيَقْرَنُ^(١) بهم كقوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي صاحبهم كقوله: ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] وكقوله: ﴿قَالَ فَيْتُ رَبَّنَا مَا خَلَقْتُمْ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الآية ٦٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الكتاب التي كانت من قبلهم، لأنهم اختلفوا في كتبهم؛ فمنهم من بدل، ومنهم من غير، وحرّف. فيقول، والله أعلم: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في كتبهم لأن هذا الكتاب، أنزله مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ^(٢). يبين هذا الكتاب ما اختلفوا في كتبهم^(٣) الحق من الباطل.

وقال بعضهم: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في الرسل والأديان وفي^(٤) المنزل عليه؛ اختلفوا في ذلك كله، فبين^(٥) لهم الحق من الباطل في جميع ما اختلفوا فيه بالكتاب الذي أنزل عليه؛ إذ فيه أنباء الأمم الماضية، وهو لم يشهد بها، ولم يختلف إلى من يخبره عنها، ثم أنبأهم على ما كانت، فدل أنه إنما عرّف [ذلك بالله، ومنه نزل ذلك]^(٦).

وفيه دلالة أن الحوادث التي علم الله أنهم يتتلون بها إلى يوم القيامة أنه جعل لهم سبيل الوصول إلى بيانها في الكتاب إِمَّا بَيَانًا كِنَايَةً وَإِمَّا بَيَانًا تَصْرِيحًا حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الآية حين^(٨) لم يدعهم في الاختلاف وعلى غير بيان. فعلى ذلك حين علم أنهم يتتلون بالحوادث التي ليس لها منصوص في الكتاب، ولا يُحْتَمَلُ إِلَّا يُبَيِّنَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَيَدْعُهُمْ خِيَارًا. لكن البيان على وجهين: بيان تصريح يعقل بديهًا بالعقل، وبيان كناية يذكّر بالنظر والتأمل والاستدلال.

وأصله في قوله: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي لإيضاح لهم الحق في ما اختلفوا فيه لأنهم اختلفوا في الحق في ذلك، لأن كل فريق منهم ادّعى أنه هو الحق، وأن الذي هو عليه الحق، وأن غيره على باطل. فاجبر أنه أنزل الكتاب عليه ليبين لهم الحق في ما اختلفوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَىٰ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جعل الله تعالى رسوله وكتابه ﴿وَهَذَىٰ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم آمنوا بهما، وصدقوا بهما، وقبلوهما، فصار ذلك لهم هُدًى وَرَحْمَةً وَنُورًا. وأما من كذّبهما، ولم يقبلهما فهو عذاب عليهم وعسى، وهو كقوله: ﴿فَالْمَا الْذِيكَ مَا سَأَلْتُمْ إِيَّانَا وَهَرَّ يَتَّبِعُونَ﴾ ﴿وَالْمَا الْذِيكَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] وهو ما ذكر، وهو عليهم عسى.

الآية ٦٥

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَرَ بِهِ الْآرْضَ بِدَمْتِهَا يَذْكُرُ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ حِينَ^(١) أَخْبَرَ أَنَّهُ يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيُخْضِ بِهِ الْأَرْضَ، وَهِيَ مَيْتَةٌ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا نَبَاتًا وَزُرُوعًا وَأَشْجَارًا. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَىٰ هَذَا [فهو قادر]^(٢) عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ إِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْإِحْيَاءِ: الْأَنْفُسِ [والنبت]^(٣). فَمَنْ قَدَّرَ عَلَىٰ أَحَدِهِمَا قَدَّرَ عَلَىٰ الْآخَرِ [إن في ذلك] في ما ذكر ﴿لَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ قال بعضهم: ﴿لَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ.

(١) في الأصل وم: فيقرون. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) في الأصل وم: كتابهم. (٤) الواو ساقطة في الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يبين. (٦) في الأصل وم: له. (٧) في الأصل ذلك، في م: بالله ومنه نزل ذلك. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لقادر. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: ﴿لَا يَلْقَوْنَ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات والحجج. وأما مَنْ لم يَسْمَعْ فلا يكون له آية.

واضله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يَتَفَعَّلُونَ بِسَمَاعِهِمْ، و﴿لَا يَلْقَوْنَ يَفْقَهُونَ﴾ [النحل: ٦٧] أي يَتَفَعَّلُونَ بِعَقُولِهِمْ. واضله أن هذا كله، يصير آية للمؤمنين على ما ذكر كله، لأنهم هم العاقلون عن الله: ما أمرهم به، ونهاهم عنه، وهم يَسْمَعُونَ آيَاتِهِ وَمَوَاعِظَهُ. وكله كناية عن المؤمنين، والله أعلم.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى لَكُوفِي الْآتِنَةِ لَبِيبَةً﴾ والعبرة الآية، أي أنشأ لكم أنعاماً [فيها الآية، وهو] ^(١) صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أنزل من السماء ماء، وأنشأ الأنعام، لكم فيه الآية؛ أنشأ، جلّ، وعلا، في الأنعام لبناً غذاءً لأولادها ^(٢) في الوقت الذي لا تَحْتَمِلُ الغِذاءَ بالعَلَفِ، وجعل لأربابها الانتفاع بذلك اللبن [وفي الأشياء] ^(٣) التي لا يؤكل لحمها لم يجعل لأربابها الانتفاع بما يفضل من اللبن، لم يجعل لها فضل لبن / ٢٨٧ - ب.

وقوله تعالى: ﴿شَفِيفًا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ذكره بالتذكير. فظاهره أن يُذَكَّرَ بالتانيث، لأنه إنما يريد به الأمهات التي يَدُرُّ منها اللبن، أو جماعة من الذكّران منها. فكيف ما كان فهو يُذَكَّرُ بالتانيث، لكن بعضهم يقولون: ذكّر باسم التذكير على إرادة الأصل الذي به كان اللبن، وهو الفحل.

وهذا يدل إلى أبي حنيفة وأصحابه، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، لِقَوْلِهِمْ فِي لَبَنِ الْفَحْلِ: إنه يُحَرَّمُ.

وقال بعضهم: ذكّر باسم التذكير على إرادة الجنس والجوهر من بين الأجناس والجواهر دون التعدد والجماعة. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِ قَرْنَيْ بَنَاتِ خَالِصًا سَابِقًا لِلشَّرِيبَيْنِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه معنى استخراج اللبن من بين قَرْنَيْ وَدَمٍ؛ وذلك أن العلف إذا وَقَعَ في الكُرْشِ، فيَجْعَلُ الْفَرْثَ أَسْفَلَهُ، والدَّمُ أَعْلَاهُ، واللَّبَنُ بَيْنَ ذَلِكَ، ثم يُسَلِّطُ الْكَبَدَ عَلَيْهِمْ، فيَجْلِي الدَّمُ في العروقي، واللَّبَنُ في الضَّرْعِ، ويبقى الْفَرْثُ في الكُرْشِ كما هو.

وقال بغض الفلاسفة: إن العلف إذا وَقَعَ فيه يصير منه قَرَشًا، ثم يصير منه دَمًا، ثم يصير لبنًا خالصًا، فهو كالنُظْفَةِ التي وَقَعَتْ في الرِّجَمِ تصير عِلْقَةً، ثم تصير مُضَغَّةً مَأْكُولَةً. فعلى ذلك اللَّبَنُ الذي ذكّر، والله أعلم.

ويَحْتَمِلُ ما قال بعض الفلاسفة: إن العلف، يصير قَرْنًا ثم دَمًا لَبْنًا، وَيَحْتَمِلُ أن يكون مَجْرَى اللَّبَنِ بَيْنَ ما ذكّر من الْفَرْثِ والدَّمِ. فأَيُّ الرَّجْهَيْنِ كَانَ، فيه اللَّطْفُ الذي ذكّرنا. وَوَجْهُ ذِكْرِ هَذَا، والله أعلم، على الإِثْنَيْنِ.

الآية ٦٧

وكذلك ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ أنه يُلَفِّفُهُ أَخْرَجَ اللَّبَنُ الصَّافِي أَضْفَى الْأَشْيَاءِ وَالطَّهْفَا ^(٤) مِنْ خُبْثِ الْأَشْيَاءِ وَاجْتَدَرَهَا ^(٥) في رأي العين.

فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى حِفْظِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِمَّا ذَكَرَ بِهَا حِجَابٌ، يُذَرِّكُ، أو حَاجِزٌ، يُعْرِثُ، [فهو قادر] ^(٦) على إنشاء الأشياء من لا شيء؛ لأن الخلاق، لو اجْتَمَعُوا على أن يُذَرِّكُوا ^(٧) السبب الذي به كان حِفْظُ هَذَا مِنْ هَذَا أو امْتِنَاعُهُ عَنِ الْخَلْقِ بِالْخُبْثِ ما أَدْرَكُوا ذَلِكَ.

وكذلك ما يَخْرُجُ مِنَ النَّخِيلِ وَالْكُرْمِ الثَّمَرَاتُ الطَّيِّبَةُ وَالْأَعْنَابُ الْحُلُوةُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرَى أَنْتَرُ ذَلِكَ فِيهَا، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يُذَرِّكُوا السببَ الذي كان به الْأَعْنَابُ وَالثَّمَرَاتُ. دَلَّ أنه قادر على إنشاء الأشياء من لا شيء، إذ هي خَشَبَةٌ يَابِسَةٌ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿نَنخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال بعضهم: السَّكْرُ ما يَحْرُمُ مِنْهُ، وَالرِّزْقُ ما يُؤْكَلُ ثَمَرًا وَزَيْبًا وَنَحْوَهُ. وقال بعضهم: السَّكْرُ خَمْرُ الْأَعَاجِمِ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ ما يَنْبَدُونَ، وَيُخَلِّلُونَ، وَيَأْكُلُونَ.

وروي في بعض الأخبار أنه حَرَّمَ السَّكْرَ، ولم يُفَسِّرِ الآية. وفي الأخبار أنه بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، وأمره أن ينهاهم عن تَبْيِذِ السَّكْرِ.

(١) في الأصل وم: فيه الآية هو. (٢) في الأصل وم: الأولاد. (٣) في الأصل وم: في الأشياء. (٤) في الأصل وم: والطهفة. (٥) في الأصل وم: واكدره. (٦) في الأصل وم: لقادر. (٧) من م، في الأصل: يدرك.

وعن عبد الله [أنه]^(١) قال «إن أولادكم على الفطرة فلا تشقوهم السكر، فإن الله تعالى لم يجعل في حرام شفاء» [بنحو البيهقي في الكبرى ٥/١٠] وليس بين فقهاء الأمصار في تحريم السكر وفصح البئر ونقيع الزبيب إذا سكر كثيرها، ولم يطلخ، اختلاف أنها حرام. وقد ذكرنا هذا في سورة البقرة^(٢).

[وقوله تعالى]^(٣): «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

وقال القتيبي: القُرْثُ ما في الكرشي، لأن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه قُرْثُ في الكرشي، وخلص من الدم لبناً سائغاً أي سهلاً في الشرب، لا يشجى به شارب، ولا يقص، وكذلك قال أبو عوسجة: أسفته، أي أدخلته في خلقي حملاً.

وقوله تعالى: «تَتَذَكَّرُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِيقًا حَسَنًا» أي تتخذون منه ما يحرم أكله «وَرِيقًا حَسَنًا» ما يحل^(٤) منه كقوله: «قَدْ أَرَبَتْهُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَرْقٍ» الآية [يونس: ٥٩] أو يخرج على تذكير النعم في الوقت الذي كان السكر خللاً، أي «تَتَذَكَّرُونَ مِنْهُ سَكْرًا» ما تشربون «وَرِيقًا حَسَنًا» سوى الشراب.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى آلِ الْفُلِّ أَنْ آتِنِي مِنْ لِبَاسٍ يَبُوءُكَ» إلى آخر ما ذكر. قال بعضهم: أوحى أي^(٥) قذف في قلبها أن افعل ما ذكر. والوحي هو القذف، سمي بذلك لسرعة وقوعه ونفاذه في القلوب من غير أن يشعر الملقى فيه والمقدوف في قلبه أن أحداً فعل ذلك، والقاء فيه؛ وهو ما مكّن الله للشيطان من الوسوسة في القلوب من غير أن يعلم الموسوس إليه والمقدوف في قلبه أن أحداً دعاه إلى ذلك، أو زينه إليه^(٦)، وكذلك ما يلهم الملائكة بني آدم من غير أن يعلموا^(٧) أن أحداً دعاهم^(٨) إلى ذلك، أو القاء في قلوبهم.

فهذا كله يراد على من ينكر الشيطان والملائكة، وهم طائفة من الملحدة؛ يقولون: إن الشهوات والأمانى التي جعلت في أنفسهم هي التي تحثهم^(٩)، وتنجيهم على ذلك لا الشيطان. فيقال لهم: إن الإنسان قد يناله أشياء من غير أن كان منه تمكر في ذلك أو أمانى أو سابق تدبير، فذلك يدل أن غيراً ألقى ذلك في قلبه، وقذفه^(١٠) لأعمال الأمانى والشهوات، وهذا أيضاً يدل على لطف الله في البشر أنه يوفقهم على الطاعات، ويحثهم عليها من غير أن يعلموا أن يغيبوا^(١١) في ذلك صنعا. وكذلك الخذلان في المعاصي وأنواع الأجرام التي يختسبونها.

ثم يختل قوله: «وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى آلِ الْفُلِّ» أي النخل وغيرها من البهائم وجهين:

أحدهما: يختل أنه أنشأ هذه البهائم على طبائع تعرف بالطبع مصالحها ومهلكها ومعايشها وما به قوام أبدانها وأنفسها وما به فسادها وصلاحتها من غير أن تعلم أن أحداً يدعوها^(١٢) إلى ذلك أو يشير إليها أو يأمر، وينهى. لكنها^(١٣) بالطبع تعرف ذلك، وتعلم [أشياء تعلمها]^(١٤) بالطباع من غير أن تعلم أن أحداً علمها^(١٥) ذلك من نحو الوز يسبح في الماء بالطبع من غير أن يعلم أنه يسبح^(١٦). وكذلك الطير الذي يطير في الهواء من غير أن يعلم بالطيران. فعلى ذلك يختل فهم هذه البهائم وعرفاتها ما ذكرنا من المصالح والمهلك من غير أن تعلم أنها تعرف ذلك، والله أعلم.

والثاني: يختل أن يكون الله ﷻ خلق^(١٨) هذه الأشياء بالذي تقف^(١٩) على المخاطبات والأمر والنهي، وتعرف^(٢٠) ذلك ما لا يعرف مثله البشر.

الآ ترى أن البشر لا يعرف المهلك والمصالح إلا بالتعلم؟ والبهائم، وإن صغر [حجمها، تعرف ذلك]^(٢١) حتى تتوكل المهلك، وترغب^(٢٢) في المصالح؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) وذلك في تفسير الآية: ٢١٩. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) من م، في الأصل: يحمل. (٦) من م، في الأصل: أو. (٧) في الأصل وم: ذلك. (٨) في الأصل وم: علموا. (٩) في الأصل وم: دعاه. (١٠) في الأصل وم: تبعثهم. (١١) في الأصل وم: وقذف. (١٢) في الأصل وم: علموا أن ينير. (١٣) في الأصل وم: يدعوهم. (١٤) في الأصل وم: لكنه. (١٥) في الأصل وم: من نحو أشياء يعلمن أشياء. (١٦) في الأصل وم: علمن. (١٧) في الأصل وم: تسبيح. (١٨) في الأصل وم: خلقه. (١٩) في الأصل وم: يقفون. (٢٠) في الأصل وم: ويعرفون. (٢١) في الأصل وم: ذلك تعرف. (٢٢) في الأصل وم: وترغب.

ومما يدل أن هذه الأشياء مما تفهم الأمر والنهي والمخاطبات قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا لِمَلَكُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ و ٢١].

ألا ترى أنهم فهموا الخطاب حين^(١) ردوا عليهم الجواب بقوله: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ؟﴾ فذلك ما ذكرنا، والله أعلم، الوحي والقذف لكل البهائم لا النخل خاصة لما ذكرنا من معرفتها الممالك والمصالح وما به معاشها وغذاؤها [وما به]^(٢) فسادها وملاكها حتى تعرف^(٣) ذلك من غير أن تعلم.

والبشر لا يعرف إلا بالتعلم، فهو، والله أعلم، لوجهين:

أحدهما: للبعث: إن البشر امتحنوا بالتعليم، فذلك امتحان لهم. والبهائم لا يحسن عليهم، فعرفوا ذلك على غير تعلم.

والثاني: ^(٤): كان للبشر فضل بغض على بغض في العلم بالتعلم؛ إذ البهائم يستوي صغيرها وكبيرها في معرفة ذلك. وفي بني آدم [التفاضل والتفاوت]^(٥) بالتعلم، والله أعلم.

فإن قيل: فإذا كان البهائم كلها مشتركة في ذلك الإلهام والوحي فما معنى تخصيص النخل في الذكر من غيرها من البهائم؟ قيل: يختص تخصيص النخل بالذكر، والله أعلم/ ٢٨٨ - أ/ لما أن هذه الأشياء غير النخل، لا تغطي تلك المنافع التي جعلت فيها، ولا تبدل للبشر إلا بالرياضة. والنخل تغطي ذلك لهم، وتبدل من غير تعلم ولا رياضة، والله أعلم.

الآية ٦٩ ثم قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُوا مِنْ لَدُنْكُمْ يُؤْتِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [ونحوهما، ظاهره أمر]^(٦) لكن حقيقة تمكين وتسهيل نحو قوله: ﴿سِيرُوا فِي﴾ كذا في الظاهر أمر، وفي^(٧) الحقيقة تمكين وتيسير.

ثم في هذه الآية وفي قوله: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ وفي ما سبق من الآيات، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُنَظِّرُكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦] وفي قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] دلالة فذرت على إنشاء الأشياء من لا شيء ودلالة علمه وتدبيره، لأنه أخرج من هذه الجواهر المختلفة أشياء من غير جوهرها وجنسها ما لم يكن شيء مما أكل منها هذه البهائم من الجواهر التي أخرج منها، من نحو العسل الذي أخرج من الفواكه التي أكلت واللبن من العلف الذي أكل والعصير والسكر والأعقاب من الكروم، إذ ليس شيء خرج منها من جنس ما أكل ولا من جوهر ما سقي.

دل أنها بغير علم قادرة^(٨) على إنشاء الأشياء من لا شيء ولا سبب.

وفيه دلالة علمه وتدبيره وحكمته لأن إنشاء ذلك اللبن في البطن على غير جوهر ما تناولت ومن خلاف لونه في تلك الظلمات، دل أن علمه غير مقدّر بعلم الخلق وأن حكمته غير مقدرة بحكمة الخلق، وكذلك قدرته غير مقدرة بقدره الخلق.

ثم قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قيل: طرق ربك ذللاً وقيل: مطبعة، وقيل: من الدل أي الرفق واللين كقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُنِيبِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨] [من الدل]^(٩) ومن الرفق واللين. وهذا يخرج على وجهين:

أحدهما: دللت سبل ربها [والثاني: ^(١٠) سهل السلوك فيها حتى تسلك كيف شاءت.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ الشَّجَرِ رِمًا بَرِشُونَ﴾ قيل: مما يبنون، ويتخذ من العرش، وهو الذي يتخذ من الخشب. وقوله

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: مما. (٣) في الأصل وم: يعرفن. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يتفاضل ويتفاوت. (٦) في الأصل وم: ونحوه ظاهرة. (٧) الروا ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنه بغير علم قادر. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: و.

تعالى: ﴿تَخْتَلِفُ أَلْوَنُهُ﴾ قال الحسن: الشَّهْدُ والعَسَلُ. وقال^(١) بعضهم: مُخْتَلِفٌ في الطَّعْمِ، وقيل: في الألوان: الأبيض والأحمر والأصفر.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ قال بعضهم: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ كُلِّ دَاءٍ حَتَّى الْقُرُوحِ وَكُلِّ شَيْءٍ. وقال بعضهم: قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ دَاءٍ دُونَ دَاءٍ. وقال بعضهم: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي فِي الْقُرْآنِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ لِلدِّينِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [لِلْأَجْسَادِ]^(٢). وَإِنْ أَرَادَ هَذَا فَهُوَ ظَاهِرٌ، لَأَشْكُ أَنْ فِيهِ ذَلِكَ الشِّفَاءُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لِلدِّينِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ فِيهِ، يُذَرِّكُ، وَيُوصِلُ إِلَى ذَلِكَ الشِّفَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ قال بعضهم: مِنْ نَوْعٍ مَا تَأْكُلُ النُّحْلُ. وقال بعضهم: مِنْ جَمِيعِ الشَّجَرَاتِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْجِبَالِ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ: الْقُرْآنُ وَالْعَسَلُ هُمَا الشِّفَاءُ، إِنَّ الْقُرْآنَ شِفَاءُ الدِّينِ، وَالْعَسَلُ شِفَاءُ الْأَبْدَانِ.

وقال بعضهم مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ: إِنَّ الْوَحْيَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى وَجْهِ: مِنْهَا وَخِي النَّبُوءَةُ؛ فَهوَ إِسْرَافُ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وَمِنْهَا وَخِي الْإِشَارَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكُرْسِيِّ رَبِّكَ وَعَشِيًّا﴾ [مریم: ١١] وَمِنْهَا وَخِي الْإِلْهَامُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَى إِلَهُكَ أَرْسُلَ مَوْسَى﴾ [القصص: ٧] وَقَوْلُهُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وَنَحْوُهُ، وَمِنْهَا وَخِي الْإِسْرَارُ كَقَوْلِهِ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢].

وقال بعضهم: إِنَّ أَصْلَ^(٤) الْوَحْيِ عِنْدَنَا، هُوَ أَنْ يُقَالِيَ الْإِنْسَانُ إِلَى صَاحِبِهِ شَيْئًا لِيَلْسِتَارِ وَالْإِخْفَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ بِالْإِيمَاءِ وَالْحُطِّ. وَأَصْلُ الْوَحْيِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ سُمِّيَ بِهِ لِسُرْعَةِ وَقْوَعِهِ وَقُدْفِهِ فِي الْقَلْبِ.

وقال أبو بكر: تَأْوِيلُ الْوَحْيِ الَّذِي يُوحَى إِلَيْهِ، وَيُرْسَدُهُ. وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ أَرْشَدَ كُلَّ دَابَّةٍ سِوَى الْإِنْسَانِ إِلَى مَضْلَحَتِهَا وَالْهَرَبِ عَنْ مَهْلِكِهَا وَمَثَلِهَا بِمَا قَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ كَمَا أَرْشَدَ الْإِنْسَانَ إِلَى مَا يُصْلِحُهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ بِالْعِلْمِ. فَمَثَلُ اللَّهِ تَعَالَى تَعْلِيمَهُ لِكُلِّ دَابَّةٍ مَا فِيهِ مَضْلَحَتُهَا وَمَنْفَعَتُهَا بِمَا دَبَّرَهَا عَلَيْهِ كَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَوْلِ وَالْبَيَانِ، فَقَالَ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] أَيْ أَرْشَدَهَا، وَذَلِكَ بِفِطْرَتِهَا ﴿أَنْ تَخْذِي مِنْ أَلْبَالِ يُؤْتَا مِنَ الشَّجَرِ﴾ بَيُوتًا فِيهَا ﴿وَمِمَّا يَقَرُّونَ﴾ يَعْنِي وَاتَّخِذِي مِمَّا بَيْنِي الْإِنْسَانُ لِمَسْكَنِهِ^(٥)، وَقَالَ: الْعَرِيشُ الْحِطَانُ الَّتِي لَا سَمَاءَ لَهَا، بِفِطْرَتِهَا تَتَخَذُ خَلَايَاهَا، وَكُلُّ^(٦) ذَلِكَ لِمَنَافِعِ الْخَلْقِ.

[وَالثَّانِي]^(٧): ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ وَالشَّجَرَاتُ مُخْتَلِفَةُ الطَّعْمِ وَالْمَنْظَرِ وَالْمَسْمُومِ ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ﴾ وَهُوَ مَا سَبَّلَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الرِّزْقِ وَالْمَأْوَى ﴿ذُلًّا﴾ قَالَ: يَقُولُ^(٨): ذُلٌّ لَكَ كُلُّ شَيْءٍ ﴿قَدَرَهُ لِرِزْقِكَ وَمَسْلَكَكَ﴾، وَذَلِكَ فِي ظَلَبٍ مَا سَبَّلَ لَكَ لَبَنِي آدَمَ، وَجَعَلَهُ^(٩) سَبَبًا لِمَنَافِعِهِمْ، وَصَغَّرَ قَدْرَكَ لِيُرِيَهُمْ بِذَلِكَ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ عَلَى مَا شَاءَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ خَالِفَهُمْ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ^(١٠) وَأَنَّهُ الْقَدِيرُ عَلَى مَا يَعْذُهُمْ مِنَ الْبَغْيِ وَالنَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ يَقُولُ: الْجِنْسُ وَاحِدٌ، ثُمَّ هُوَ ضُرُوبٌ كَالْأَلْوَانِ: التَّمْرُ وَالْعِنَبُ وَسَائِرُ الشَّجَرِ فِي مَذَاقِهِ وَمَشَامِئِهِ وَمَنْظَرِهِ، وَكُلُّهُ عَسَلٌ ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لِمَنَافِعِهِمْ وَمَلَائِكَتِهِمْ، [وَفِيهِ مَا]^(١١) أَذَاهُ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ؛ مِنْ ذَلِكَ فِيهِ شِفَاءٌ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ، يَعْلَمُونَ بِمَا يُشَاهِدُونَ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يَقُولُ: لَعِبْرَةٌ وَدَلِيلًا وَبُرْهَانًا ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي مَا يُشَاهِدُونَ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال في قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ [النحل: ٦٧] يَقُولُ: وَلَكُمْ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ أَنَّ النَّخْلَ أَجْذَاعُ^(١٢) خَشَبٍ، لَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ قَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَكُونُ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَصَل. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِمَسْكَنِهِمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِي كُلِّ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (٩) فِي الْأَصْلِ: وَجَعَلَهَا. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهَا. (١٢) فِي م: أَجْذَعُ.

طَنَمَ فِيهَا [وَالْكُرُومَ أَيْضًا، وَمَا فِيهِمَا] ^(١) مِنْ سَعَفٍ وَوَرَقٍ، لَا عَسَلَ فِيهَا، وَلَا عِنَبٌ. فَأَخْرَجَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فِيهَا ^(٢) عَسَلٌ، وَفِيهَا ^(٣) تَمَرٌ وَزَيْبٌ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ مَا تَلَذُّذُونَ مِنَ الشَّرَابِ.

وَقَالَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ. وَالسَّكْرُ كُلُّ مَا اسْكُرْهُمُ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَيْضًا رِزْقًا حَسَنًا أَيْ طَيِّبًا، وَهُوَ مَا تَأْكُلُونَ مِنْهَا سِوَى مَا تَشْرَبُونَ، وَتَكْسِبُونَ بِهَا أَمْوَالًا كَثِيرَةً، مَنِ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّكْرُ: كُلُّ شَيْءٍ حَرَّمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِهَا مِنَ الشَّرَابِ: الْخَمْرُ مِنَ الْعِنَبِ، وَالسَّكْرُ مِنَ التَّمْرِ. وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا أَحَلَّ مِنْ ثَمَرِهَا: الزَّيْبُ وَالتَّمَرُ وَالنَّبِيذُ، وَقَالَ: السَّكْرُ مَا اسْكُرَّ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ أَشْبَاهُهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وَدَلِيلًا وَبَيِّنًا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٤)، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي لَمْ يَعْجَزْ عَمَّا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ مِنْ خَشَبٍ يَابِسٍ يَقْدِرُ أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَى، وَيَخْلُقَ مَا يَشَاءُ وَمَا عَرَفَهُ الْخَلْقُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الطُّفَةِ الْوَلَدُ وَمِنَ الْمَاءِ وَالْأَشْجَارِ الْفَوَاكِهُ وَمِنَ الْعَلْفِ اللَّبَنُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَحْدُثُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَتِلْكَ أَسْبَابُهَا مَا لَمْ يُدْرِكْ كَوْنُ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ فِيهَا [وَلَا يُرَى، وَلَا] ^(٥) يُعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَعْلِيمٍ مِنْ هُوَ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، لِأَنَّهُ عِلْمُ ذَلِكَ لَوْ [مَا] ^(٦) كَانَ بِتَعْلِيمٍ، لَوْ اجْتَهَدُوا كُلَّ اجْتِهَادٍ ^(٧)، لَمْ يُدْرِكُوا حَدُوثَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ مِمَّا ذَكَرْنَا وَلَا كَوْنَهَا مِنْهَا.

دَلَّ أَنَّ الَّذِي عَلَّمَهُمْ، هُوَ عَالِمٌ بِذَاتِهِ. فَإِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عَالِمًا ^(٨) بِذَاتِهِ، وَإِنْ كَانُوا لَمْ يُشَاهِدُوا إِلَّا عَالَمًا بِغَيْرٍ. فَعَلَى ذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِنْشَاءِ الْأَشْيَاءِ مِنْ لَا شَيْءٍ، وَإِنْ كَانُوا لَمْ يُعَايِنُوا فِي الشَّاهِدِ شَيْئًا إِلَّا مِنْ شَيْءٍ.

وَفِيهِ أَنَّ مَا يَحْدُثُ، وَيَكُونُ مِنَ اللَّبَنِ بِالْعَلْفِ الَّذِي يُؤْكَلُ، أَوْ الطَّعَامِ الَّذِي يُتَنَاوَلُ، أَوْ الْفَوَاكِهِ وَالثَّمَرِ الَّتِي تَخْرُجُ، لَيْسَ تَكُونُ بِنَفْسِ الْمَاءِ أَوْ بِنَفْسِ الطَّعَامِ وَالْعَلْفِ، وَلَكِنْ بِاللُّطْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَسْقِي ذَلِكَ الْمَاءَ الشَّجَرَ وَالتَّخْلَ فِي حَالٍ ثُمَّ لَا يَكُونُ فِيهِ التَّمَرُ، وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ تُعْلَفُ فِي حَالٍ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ.

الآية ٧٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُمْسِكُكُمْ مِنْ بَرٍّ﴾ ٢٨٨ - ب/ إِنْ أَزَلَّ الْعُمَرُ لَكُمْ لَا يَمْلِكُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿فَبِإِنْ قِيلَ لَنَا: مِثْلُ لَنَا عَلَيْنَا فِي ذِكْرِ خَلْقِنَا ثُمَّ تَوْفِيهِ إِيَّانَا وَرَدُّنَا﴾ ^(٩) إِلَى الْحَالِ الَّتِي هِيَ ^(١٠) حَالُ الْجَهْلِ حَتَّى [لَا] ^(١١) تَعْلَمَ شَيْئًا. قِيلَ: ذِكْرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَحْتَمِلُ ^(١٢) وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: يُذَكِّرُهُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ ثُمَّ هُوَ يَمْلِكُ رَدُّكُمْ إِلَى الْحَالِ الَّتِي لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَفِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ تَقْلُبُونَ. فَكَيْفَ عَبَدْتُمْ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ الَّتِي لَا تَمْلِكُ ^(١٣) شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَشْرَكْتُمُوهَا فِي الْوَهْيَةِ وَعِبَادَتِهِ؟

وَالثَّانِي ^(١٤): يُذَكِّرُ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ بِخَلْقِهِمُ الْقَنَاءَ، لَكِنْ لِأَمْرِ آخَرَ، فَصَدَّ بِخَلْقِهِمْ، هُوَ ^(١٥) مَا ذَكَرَ فِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ وَتَسْخِيرِ مَا ذَكَرَ لَهُمْ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَالنِّعَمِ الَّتِي أَنْشَأَ لَهُمْ وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي سَخَّرَهَا لَهُمْ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: قَوْلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وَكُنْتُمْ نُطْفًا أَمْوَاتًا، فَاحْيَاكُمْ ﴿ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ أَطْفَالًا وَشِوْخًا ﴿وَيُمْسِكُكُمْ يُمْسِكُ﴾ إِنْ أَزَلَّ الْعُمَرُ يَقُولُ: يَرُدُّهُ بَعْدَ قُوَّةٍ وَعِلْمٍ وَتَدْبِيرِ الْأُمُورِ إِلَى الْخَرَفِ وَالْجَهْلِ بَعْدَ الْعِلْمِ لِيَتَبَيَّنَ لِخَلْقِهِ أَنَّ الْعُمَرَ وَالرِّزْقَ لَيْسَ بِهِمَا رَبٌّ، وَقَوِي، لِأَنَّهُمَا ثَابِتَانِ، ثُمَّ يُبْلَى، وَيَفْنَى بِهِمَا، وَيَرْجِعُ إِلَى الْجَهْلِ، وَلَكِنْ بِالْطُّفْلِ مِنَ اللَّهِ وَتَدْبِيرِ مَنْهُ لَا بِالْأَغْذِيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِمَا دَبَّرَ فِي خَلْقِهِ مِمَّا يُدْرِكُونَ بِهِ قُدْرَةَ خَالِقِهِمْ وَتَضَرِيقَهُ الْأُمُورَ بِمَا يَكُونُونَ بِهِ حُكَمَاءَ وَعُلَمَاءَ. إِنَّ الَّذِي دَبَّرَهَا حَكِيمٌ ﴿يَدِيرُ﴾ عَلَى مَا شَاءَ.

وَالْحِكْمَةُ فِي مَا ذَكَرَ مِنْ تَفْرِيقِ الْأَجَالِ [لِلْأَمْرَيْنِ]:

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم. فِيهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا يَنْبَهُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَلَا يَدْرِي لَا، فِي م: وَلَا يَرَى لَا. (٥) ساقطة من الأصل وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: جِهْدُ هُوَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِعَالِمٍ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرَدَهُ لَنَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ. (١٠) ساقطة من الأصل وَم. (١١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: تَمْلِكُونَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ.

أَحْذَرُهُمَا: ^(١) لِيَكُونُوا أَبَدًا خَائِفِينَ رَاجِعِينَ، لَأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ أَجَالُهُمْ وَاحِدَةً [لَأَمْنُوا، وَتَعَاطَوْا] ^(٢) الْمَعَاصِيَ عَلَى أَمْنٍ لِّمَا يَلْعَمُونَ وَقَتَ نَزُولِ الْمَوْتِ بِهِمْ.

والثاني: لِيَعْلَمُوا أَنَّ التَّدْبِيرَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَمُلْكُهُمْ لِغَيْرِهِمْ لَا لَهُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ التَّدْبِيرَ وَالْأَمْرَ، لَوْ كَانَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَخْتَارُ مِنَ الْحَالِ مَا هُوَ أَقْوَى وَآكَدُ.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: يَذْكُرُ هَذَا مُقَابِلَ مَا أَشْرَكُوا خَلْقَهُ وَعِبَادَهُ فِي الْوُحْيِيِّ وَعِبَادَتِهِ. يَقُولُ: ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ وَالْأَمْوَالِ حَتَّى بَلَغُوا السَّادَةَ وَالْمَوَالِي، فَلَا تَرْضَوْنَ ^(٣) أَنْ يَكُونَ عِبِيدُكُمْ وَمَمَالِكُكُمْ شُرَكَاءَ فِي مُلْكِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ عِبِيدُهُ وَمَمَالِكُهُ شُرَكَاءَ؟ إِلَى هَذَا يَذْهَبُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

وقال أبو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أَغْنَى بَعْضُكُمْ، وَافْقَرُ بَعْضًا، وَجَعَلَ مِنْكُمْ أَحْرَارًا [وَمِنْكُمْ] ^(٤) عِبِيدًا ﴿فَمَا لِلَّذِينَ فَضَّلُوا بِالْغِنَى وَالْمُلْكِ﴾ ^(٥) ﴿بِرَأْيِ رِزْقِهِ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنْ عِبِيدِهِمْ. فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ: أَنْ يَسْتَوِيَ الْمَوْلَى وَعَبْدُهُ فِي مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ.

يقول: فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ بِمَنْزِلَتِهِ فِي مَا يَمْلِكُ سَوَاءً. فَإِذَا رَأَيْتُمْ أَنَّكُمْ ذَلِكَ نَقْصًا بِكُمْ، لَوْ فَعَلْتُمْ، فَكَيْفَ زَعَمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَشْرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحْبَابٍ حَتَّى أَشْرَكْتُمْ وَمَا مَلَكَتُكُمْ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِثْنَانِ فِي الْعِبَادَةِ وَفِي مَا آتَاكُمْ مِنْ رِزْقٍ، فَقُلْتُمْ: ﴿هَكَذَا اللَّهُ يَرْزُقُهُمْ وَهَكَذَا لِشُرَكَائِكُمْ﴾؟ [الأنعام: ١٣٦].

[وقوله تعالى] ^(٦): ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يَقُولُ: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، فَأَشْرَكُوا غَيْرَ اللَّهِ فِيهَا، وَجَحَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ بِهَا عَصَوْا، وَبِهَا كَفَرُوا. ثُمَّ الزَّمَهُمُ النَّظَرُ فِي الْفَضْلِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَى عَيْنِ الْفَضْلِ الَّذِي كَانَ مِنَ اللَّهِ لَا إِلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا تِلْكَ الْفَضَائِلَ بِاسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا نَالُوا ^(٧) بِفَضْلِ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ. فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا فِي مَا أَنْكَرُوا مِنَ أَفْضَالِ اللَّهِ وَاخْتِصَاصِهِ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ وَالسَّعَةِ وَالْمُلْكِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالسُّلْطَانِ، وَإِنْ كَانُوا جَمِيعًا [مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ] ^(٨).

فَإِذَا لَمْ تُتَكْرَرِ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِخْتِصَاصِ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ فَكَيْفَ أَنْكَرْتُمْ ذَلِكَ الْفَضْلَ وَالْإِخْتِصَاصَ بِالرَّسَالَةِ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ؟

فَلِذَلِكَ قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ ﴿أَمَرَ يَقِيمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَنْ قَسَمَاتِهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]. أَخْبَرَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ يَنَالُ مَا يَنَالُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَغَيْرِهَا لَا بِالِاسْتِحْقَاقِ وَالِاسْتِجَابِ [الذي] ^(٩) كَانَ مِنْهُمْ، أَوْ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَأْتُونَ أَنْ يُشْرَكُوا عِبِيدُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ فِي مُلْكِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلَهُمْ مِنْهُمْ مَنَافِعُ مِنَ الْخِدْمَةِ وَالْإِعَانَةِ فِي الْأُمُورِ، فَمَا بِاللَّهُمْ يُشْرِكُونَ أَحْبَارًا وَخَشَبًا، لَا مُنْفَعَةَ لِأَحَدٍ مِنْهُمَا فِي الْوُحْيَةِ وَالْوُجُوبِيِّتِ وَفِي عِبَادَتِهِ؟ ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ؟﴾

وَعَلَى تَأْوِيلِ الثُّبُوتِ أَفَبِغَضِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ يَجْحَدُونَ أَنَّهُ لَا يُفَضَّلُ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ بِالرَّسَالَةِ، أَوْ يَجْحَدُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ، فَيَضْرِبُونَ نِعْمَةً إِلَى غَيْرِهِ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدُوهَا، فَقَالُوا: ﴿وَهَكَذَا لِشُرَكَائِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أَوْ يَضْرِبُونَ شُكْرَ نِعْمِهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَهِيَ الْإِثْنَانُ الَّتِي عَبَدُوهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَقَّةً﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: الْحَقَّةُ الْخِدْمُ وَالْمَمَالِكُ، فَهُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ عَلَى تَأْوِيلِ هَؤُلَاءِ. يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وَخِدْمًا مِنْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. يامنون، ويتعاطون. (٣) في الأصل وم. ترضون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. والتملك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. قالوا. (٨) في الأصل وم. في الجنس. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جَنَسِكُمْ، لَأَنَّهُ ذَكَرَ فِي مَا تَقَدَّمَ: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى الْآخَرِ﴾ الآية [النحل ٧١] يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَهُ وَفَضْلَهُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جَنَسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وَخَدَمًا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ؛ يَسْتَمْتِعُونَ بِالْأَزْوَاجِ، وَيَسْتَعْدِمُونَ الْخَدَمَ وَالْمَمَالِكَ، وَهُمْ مِنْ جَنْسِهِمْ وَجَوْهَرِهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ فَضْلَهُ وَمِثَّتْ عَلَيْهِمْ.

أَوْ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ الآية [النحل: ٥٨] كَانُوا يَأْتَفُونَ مِنْهُمْ، وَقَدْ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْبَنَاتِ أَزْوَاجًا تَسْتَمْتِعُونَ بِهِنَّ حَتَّى لَا تَضَيُّرُوا عَنْهُنَّ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْبَنَاتِ الْبَنِينَ الَّذِينَ تَرْغَبُ أَنْفُسُكُمْ فِيهِمْ، مَا لَوْلَا الْبَنَاتُ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ الْأَزْوَاجُ اللَّاتِي^(١) تَسْتَمْتِعُونَ بِهِنَّ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْبَنُونَ الَّذِينَ تَرْغَبُونَ فِيهِمْ وَالْأَنْصَارُ وَالْأَعْوَانُ وَالْخَدَمُ الَّذِينَ تَرْغَبُونَ فِيهِمْ.

يُبَيِّنُ، وَيَذَكِّرُ تَنَاقُضَهُمْ فِي الْأَنْفَقَةِ مِنْهُمْ، يَأْتَفُونَ مِنْهُمْ، وَمِنْ الْبَنَاتِ يَكُونُ مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ^(٢). فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ النِّسَاءَ يَصِرْنَ كَالْمُلُكِ لِلْأَزْوَاجِ، وَيَصِرْنَ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ فِي حَقِّ مُلْكِ الْإِسْتِغْنَاعِ كَالْمَمَالِكِ فِي حَقِّ مُلْكِ الرِّقَابِ.

ثُمَّ جَعَلَ ﷻ التَّنَاسُلَ فِي الْخَلْقِ عَلَى التَّفَارِقِ وَتَقْلُبُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؛ يَتَقَلَّبُهُمْ أَوَّلًا كَذَلِكَ لِيَكُونَ أَذْكَرَ لِتَذْيِيرِهِ وَانْظَرِ فِي آيَاتِهِ وَدَلَالَاتِهِ. وَلَوْ شَاءَ لَأَنْشَأَ الْخَلْقَ كُلَّهُ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَفْنَاهُمْ بِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَذَلِكَ مَا جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْزَاقَ وَأَنْوَاعَ الثَّمَرَاتِ، لَوْ شَاءَ لَأَخْرَجَ لَهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، لَكِنَّهُ أَنْشَأَ لَهُمُ الْتَفَارِقَ لِيَذَكَّرَ لَهُمُ النَّظَرَ فِي آيَاتِهِ وَتَذْيِيرَهُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَذْعَى إِلَى الْمَرْغُوبِ وَاحْذَرِ لِلْمَرْهُوبِ وَكَذَلِكَ مَا رُدَّدَ مِنَ الْأَنْبَاءِ وَالْقِصَصِ وَالْمَوَاعِيدِ وَذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ لِيَتَعَنَّهُمْ، وَيَحْثُثُهُمْ عَلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَتَذْيِيرِهِ، وَيُرَغِّبُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي الْمَرْغُوبِ، وَيُحَذِّرُهُمْ عَنِ الْمَخْذُورِ وَالْمَرْهُوبِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وَقَوْلُهُ^(٣) فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَوَأْتَا أَنْفُسَهُمَا﴾ [التَّحْرِيم: ٦] وَقَوْلُهُ^(٤): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٢٩] وَنَحْوَهُ ذَكَرَ الْأَنْفُسَ فِي كُلِّهِ.

ثُمَّ لَمْ يَفْهَمْ أَهْلُ الْخِطَابِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ٢٨٩ - أ / مَعْنَى وَاحِدًا وَشَيْئًا وَاحِدًا، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ وَاحِدًا، وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ غَيْرٍ مَا فَهِمُوا فِي آخَرٍ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ لَا تُفْهَمُ الْحِكْمَةُ وَالْمَعْنَى فِي الْخِطَابِ بِحَقِّ ظَاهِرِ اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ، وَلَكِنْ بِدَلِيلِ الْحِكْمَةِ الْمَجْعُولَةِ فِي الْخِطَابِ. وَمِنْ اغْتِنَقَدَ فِي الْخِطَابِ الظَّاهِرِ حَسَمَ بَابِ طَلَبِ الْحِكْمَةِ فِيهِ وَالْمَعْنَى، لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْمُرَادَ مِنْهُ الظَّاهِرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَيْنَ وَحَدَّةً﴾ هو ما ذَكَرْنَا ﴿وَحَدَّةً﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَفْدَةُ: الْأَخْتَانِ. وَرُويَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الْحَفْدَةُ: وَلَدُ الْوَلَدِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﷺ: الْحَفْدَةُ: الْأَخْتَانِ. وَرُويَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الْحَفْدَةُ الْأَصْهَارُ [وَالْأَصْهَارُ]^(٥) وَالْأَخْتَانِ عَنْدَهُ وَاحِدٌ. وَقِيلَ: الْحَفْدَةُ الْأَعْوَانُ وَالْأَنْصَارُ. يَذَكِّرُ لَهُمْ^(٦) التَّنَاقُضَ فِي مَا يَأْتَفُونَ مِنَ الْبَنَاتِ، أَنْ كَيْفَ يَأْتَفُونَ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ يَكُونُ لَهُمْ^(٧) الْأَعْوَانُ وَالْأَنْصَارُ وَالْأَخْتَانِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْحَفْدَةُ بَنُو الْبَنِينَ، وَقَالَ أَيْضًا: الْحَفْدَةُ الْأَعْوَانُ، وَالْحَافِذُ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ وَفِي الْعَمَلِ؛ يَقُولُ: حَفْدٌ يَحْفِذُ أَيَّ خَدَمٍ وَاجْتَهَدَ. وَقَوْلُهُ: وَإِلَيْكَ نَسْعَى، وَنَحْفِذُ أَيَّ نَجْتَهِدُ.

وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: الْحَفْدَةُ الْخَدَمُ وَالْأَعْوَانُ؛ يَقَالُ: هُمْ بُنُونَ وَخَدَمٌ، وَقَالَ: أَصْلُ الْحَفْدَةِ مُدَارَكَةُ الْخَطْوِ، وَالْإِسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الْخَدَمُ، فَقِيلَ: هُمْ^(٨) حَفْدَةٌ [وَاحِدُهُ حَافِذٌ]^(٩)، وَقَالَ: وَمِنْهُ يُقَالُ فِي دَعَاءِ الْوَثَرِ: وَإِلَيْكَ نَسْعَى، وَنَحْفِذُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِنَّ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: هُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِدُهُمَا حَافِذَةٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَأَصْلُ الْحَفْدِ الْعَمَلُ، وَقَالَ: وَمِنْهُ الْحَرْفُ فِي الْقُوتِ: نُحْفِدُ، أَي نَعْمَلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَزَقْنَاكَ مِنْ أَلْطِيبَاتِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّيِّبَاتُ الْخَلَائِثُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّيِّبَاتُ أَي كُلُّ مَا طَابَ، وَلَانَ، وَلَطَفَ. وَرَزَقَ غَيْرُكُمْ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ كُلِّ مَا حَسَنٌ. وَحِينَ^(١) يَذْكُرُ لَهُمْ مَنَّةَ عَلَيْهِمْ وَنِعْمَةَ عَلَيْهِمْ يَسْتَأْذِي بِذَلِكَ شُكْرَهُ.
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَيَا لَيْطِيلَ يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيْ الشَّيْطَانُ يُصَدِّقُونَ، وَجُيُوبُهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ مِنَ الْإِنْفِقِ مِنَ الْبَنَاتِ
 ﴿وَيَنْصَتِ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أَي هَذِهِ الْبَنَاتُ لَكُمْ نِعْمَةٌ: فَكَيْفَ تَكْفُرُونَهَا؟ فَقَالَ: ﴿أَفَيَا لَيْطِيلَ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي أَيْ الشَّيْطَانُ إِلَى مَا دَعَاكُمْ
 ﴿وَيَنْصَتِ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أَي بِمُحَمَّدٍ ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بِالْإِسْلَامِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُ: ﴿أَفَيَا لَيْطِيلَ يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: تُقِرُّونَ بِأَنَّكُمْ عِبِيدُ الْأَحْجَارِ، تَذِلُّونَ لَهَا، وَتَعْبُدُونَهَا ﴿وَيَنْصَتِ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يَقُولُ: وَبِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَمَا حَوَّلَكُمْ وَرَزَقَكُمْ تَكْفُرُونَ بِهِ، وَكَانَ الشُّكْرُ أَوْلَى بِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
الآية ٧٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فائدة: ذَكَرَ هَذَا لَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّا نَسْتَعِجُ بَعْضَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَهْوَانِنَا^(٢)، وَلَا نَكِلُ أُمُورَنَا^(٣) إِلَى مَنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا، فَتَعْبُدُهُ. يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ مِنْ عِبَادَتِهِمْ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ وَالرِّزْقِ [لثلاث]^(٤) نَعْمَلُ نَحْنُ وَمِثْلُ صَنِيعِهِمْ يَمُنُّ دُونَ اللَّهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ، أَي يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ مَا ذَكَرَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ شَيْئًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا شَيْئًا.

الآية ٧٤ [وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(٥): ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أَي لَا تَتَّخِذُوا لِلَّهِ أَمْثَالَ مِنْ الْخَلْقِ وَأَشْبَاهًا فِي السُّمِّيَّةِ وَعِبَادَتِهِ، أَوْ لَا تَقُولُوا لِلَّهِ: إِنَّ لَهُ أَشْبَاهًا وَأَمْثَالَ، أَوْ يَقُولُوا: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَمْثَالَ، أَوْ يَقُولُوا: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَمْثَالَ فِي الْعِبَادَةِ وَأَشْبَاهًا فِي تَسْمِيَّتِهَا آلِهَةً عَلَى عِلْمِ مَنْكُمْ أَنْ^(٦) مَا يَكُونُ لَكُمْ إِنَّمَا يَكُونُ بِاللَّهِ لَا بِالْأَصْنَامِ الَّتِي تَجْعَلُونَهَا أَمْثَالَ لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ وَالْأَلوهِيَّةِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ [قَوْلُهُ]^(٧): ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أَي فَلَا تَضْرِبُوا لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْأَمْثَالَ، فَإِنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ مَحَلَّ أَوْلِيَائِهِ وَمَكَانَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَتْلُو أَنْ لَا مِثْلَ لَهُ مِنَ الْخَلْقِ وَلَا شِبْهَ﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ. أَوْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا بِهِ صَلَاحُكُمْ وَهَلَاكُكُمْ.

الآية ٧٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ رِزًّا وَجَهْرًا﴾ ضَرَبَ الْمَثَلَ بِهَذَا مِنْ^(٨) وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ مَنْ لَا يَقْدِرُ، لَا يَمْلِكُ أَنْ يُنْفِقَ فِي الشَّاهِدِ عِنْدَكُمْ لَيْسَ كَمَنْ يَمْلِكُ، وَيَقْدِرُ أَنْ يُنْفِقَ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿مَنْ يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّيِّعِ﴾ [هود: ٢٤] أَي لَيْسَ يَسْتَوِي الْبَصِيرُ وَالْأَعْمَى، وَالْأَصَمُّ وَالسَّمِيعُ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يَسْتَوِي مَنْ يَمْلِكُ الْإِنْفَاقَ وَالْإِنْعَامَ عَلَى الْخَلْقِ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ، وَمَنْ^(٩) لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ الْبَاطِلُ.

وَالثَّانِي: ضَرَبَ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ: إِنَّ الْكَافِرَ لَا يُنْفِقُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ [وَلَا فِي خَيْرَاتِهِ]^(١٠) وَالْمُؤْمِنُ يُنْفِقُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَخَيْرَاتِهِ. فَلَيْسَ بِسَوَاءٍ: مَنْ أَنْفَقَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ كَمَنْ لَا يُنْفِقُ شَيْئًا:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِأَهْوَانِنَا. (٣) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ب. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كَمَنْ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ م.

أخذهما: يكونُ ضَرْبٌ مَثَلُ الإِلَهِ الْحَقِّ وَالْمَعْبُودِ الْحَقِّ بِالْمَعْبُودِ الْبَاطِلِ.

والثاني: [يكونُ ضَرْبٌ] ^(١) مَثَلُ الْمُؤْمِنِ بِالْكَافِرِ.

ثم في الآية وجوهٌ مِنَ الدلائلِ.

أخذها: أَنَّ القدرةَ لَا تُفَارِقُ الْفِعْلَ حِينَ ^(٢) قَالَ: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ جَعَلَ مُقَابِلَ الْفِعْلِ الْقُدْرَةَ. فَلَوْ كَانَتْ تُفَارِقُ الْفِعْلَ لَكَانَ ذَكَرَ مُقَابِلَ الْقُدْرَةِ مِثْلَهَا [أَوْ] ^(٣) مُقَابِلَ الْفِعْلِ فِعْلًا مِثْلَهُ. فَلَمَّا ذَكَرَ مُقَابِلَ الْقُدْرَةِ الْفِعْلَ [ذَلَّ] ^(٤) أَنَّهُ لَا تُفَارِقُ الْفِعْلَ.

والثاني ^(٥): أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ حَقِيقَةَ الْمُلْكِ حِينَ ^(٦) ذَكَرَ ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وَإِنْ قَدَّرَ مَا يَمْلِكُ، إِنَّمَا يَمْلِكُ بِإِذْنِ مَنْ لَهُ الْمُلْكُ. وَكَذَلِكَ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ، لَا يَمْلِكُونَ حَقِيقَةَ الْإِمْلَاقِ، إِنَّمَا حَقِيقَةُ الْمُلْكِ فِي الْأَشْيَاءِ لِلَّهِ، وَإِنْ قَدَّرَ مَا يَمْلِكُونَ إِنَّمَا يَمْلِكُونَ بِالْإِذْنِ عَلَى قَدَرٍ مَا أُذِنَ لَهُمْ.

والثالث ^(٧): أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ الْإِنْفَاقَ وَالتَّصَدُّقَ حِينَ ^(٨) قَالَ: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ ثُمَّ قَالَ فِي مَنْ يَمْلِكُ: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ﴾ دَلَّ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ الْإِنْفَاقَ وَالْهَبَةَ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ مَثَلًا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِثْرِ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ ^(٩) عَرَفَ رَسُولُهُ النَّعْمَ وَأَنْوَاعَ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ عَرَفَهُ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ الْحَمْدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَمْدُ ثَنَاءٌ؛ اخْبِرَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ، لَا يَعْلَمُونَ [حَمْدَ اللَّهِ وَثَنَاءً] ^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ أَيِّ مِنْ أَوْلِيَائِنَا أَوْ مِنْ أَوْلِيَائِ دِينِنَا، وَذَلِكَ جَائِزٌ سَائِعٌ فِي اللُّغَةِ.

ثم قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ نَفْيَ الْعِلْمِ عَنْهُمْ لِمَا لَمْ يَتَّبِعُوا بِمَا عَلِمُوا، أَوْ عَلَى حَقِيقَةِ النَّفْيِ لِمَا لَمْ يَنْظُرُوا فِي الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ، وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا فِيهَا، فَلَمْ يَعْلَمُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. قَالُوا: هَذَا الْمَثَلُ كَالْأَوَّلِ يَحْتَمِلُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي الْأَوَّلِ.

أخذهما: الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ: شَبَّهَ الْكَافِرَ بِالْمَمْلُوكِ الْأَبْكَمِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ لَا يَأْتِي الْمَوْلَى بِخَيْرٍ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ.

وشَبَّهَ الْمُؤْمِنَ بِالَّذِي يَأْتِي الْمَوْلَى بِكُلِّ خَيْرٍ وَنَفْعٍ؛ يَقُولُ: هَلْ اسْتَوَى هَذَا مَعَ هَذَا عِنْدَكُمْ؟ لَا يَسْتَوِي.

فعلى ذلك لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ الَّذِي لَا يَعْمَلُ شَيْئًا مِنْ طَاعَةٍ، وَلَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ طَاعَةِ اللَّهِ، وَيَأْتِي/ ٢٨٩ - ب/ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَيَأْمُرُ بِكُلِّ عَدْلٍ ^(١١).

والثاني: ضَرَبَ مَثَلُ الإِلَهِ الْمَعْبُودِ الْحَقِّ بِالْمَعْبُودِ الْبَاطِلِ بِقَوْلِهِ ^(١٢): ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ مَنْ أَنَاكُمْ بِكُلِّ نِعْمَةٍ وَكُلِّ خَيْرٍ، وَيَأْمُرُ بِكُلِّ عَدْلٍ، وَمَنْ ^(١٣) هُوَ ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُجِيبُ، وَهُوَ عِيَالٌ عَلَى مَنْ يَعْبُدُهُ، وَيَخْدُمُهُ. هَلْ يَسْتَوِي هَذَا مَعَ ذَلِكَ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْبَتَّةَ.

غَيْرَ أَنَّ الْمَثَلَ هَهُنَا ضَرَبَ بِالَّذِي لَا يَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ. ذَكَرَ مُقَابِلَ الْأَبْكَمِ الَّذِي لَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ.

وفي الأولِ ضَرَبَ الْمَثَلَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ الْإِنْفَاقَ بِالَّذِي يَمْلِكُ الْإِنْفَاقَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وفيه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لانه. (١٠) من م، في الأصل: حمد الله وثناء. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: ممن هو أبكم. (١٢) في الأصل وم: يقول. (١٣) في الأصل وم: ممن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِدٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هو على الحقّ المُستقيم، وهو المعبود بالحقّ.

قال أبو عوسجة: الكلّ العيال، وكذلك قال غيره من أهل الأدب. وقال بعضهم: الكلّ الفقير، وهو واحد. والابنم الأخرس، وهو الذي لا ينطق البتّة. وقالوا: ﴿وَمَنْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ﴾ بالتوحيد.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدها]^(١): ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ السُّؤالِ عَنِ السَّاعَةِ وَعَنْ وَقْتِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْ قِيَامُهَا﴾ لَوَقْتُ قِيَامِهَا ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لَا يَعْلَمُ غَيْرُهُ.

والثاني: والله عِلْمُ ما غَيْبَ أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ، أي ما غَيْبَ بعضهم مِنْ بَعْضِ، فذلكَ ليسَ بِمُغَيَّبٍ عَنِ اللهِ، بل ما غابَ عَنِ الخَلْقِ وما ظَهَرَ لَهُمْ، فذلكَ اللهُ كُلُّهُ ظاهراً بِمَحَلٍّ واحدٍ، وهو كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُنْفِرُ﴾ [النحل: ١٩].

والثالث: قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لَهُ عِلْمُ ما فِي سِرِّيَّةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الظَّاهِرَةِ ما لَا سَبِيلَ لِلخَلْقِ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانُوا هَذِهِ الْأَجْسَامَ وَالْأَشْيَاءَ الظَّاهِرَةَ، وَتَقَعُ حَوَاسُّهُمْ عَلَيْهَا، لَا يَعْلَمُونَ ما سِرِّيَّتُهَا؟ مِنْ نَحْوِ الْمَاءِ الَّذِي فِي حَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ وَنَحْوِ النَّطْفَةِ الَّتِي يُخْلَقُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ، لَا يَعْلَمُونَ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ يَصِيرُ إِنْسَاناً. وَمِنْ نَحْوِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ، يَعْلَمُونَ، وَيَرَوْنَ^(٢) ظَوَاهِرَ الْحَوَاسِّ، وَلَكِنْ لَا يُذَكِّرُونَ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ يُسْمَعُ، وَبِهِ يُبْصَرُ، وَبِهِ يُعْقَلُ، وَيُنْفَهُمْ.

[والرابع]^(٣) يقول، والله أَعْلَمُ: [والله عِلْمُ]^(٤) ما غابَ عَنِ الخَلْقِ ما فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَجْسَامِ الْمَرْتَبَةِ، أَوْ يَقُولُ: اللهُ مُلْكٌ ما غابَ عَنِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُلْكٌ ما لَمْ يَغَيَّبْ عَنْهُمْ، وَظَهَرَ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩] كَأَنَّهُ قَالَ، والله أَعْلَمُ: اللهُ الْعِلْمُ الَّذِي غَيْبَ عَنِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ، وَهِيَ السَّاعَةُ، لَمْ يُظْلِعْ عَلَيْهَا غَيْرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْأَنْفَسِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ وَأَيْسَرُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ؛ إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ أَيْسَرَ وَأَهْوَنُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ لِأَنَّهُ يَلْمَحُ بِبَصَرِهِ، فَيُبْصِرُ بِهِ بِلَحْظَةٍ ما بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَهُوَ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةٍ عَامٍ.

يقول: مَنْ قَدَّرَ أَنْ يُنْشِئَ فِي خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ ما يُبْصِرُهُ بِلَمَحَةِ الْبَصَرِ مَسِيرَةَ خَمْسِ مِائَةٍ عَامٍ [فهو قادر]^(٥) عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ وَبَعْثِهِمْ بَعْدَ الْفَنَاءِ، بَلْ هُوَ أَقْرَبُ؛ أَيِ إِعَادَتِهِ إِيَّاهُمْ أَسْرَعَ وَأَقْرَبُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ.

وقال بعضهم: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ أَيِ ما وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ لَيْسَ بَيْنَ وَقْتِ قِيَامِهَا وَبَيْنَ كَوْنِهَا ﴿إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ﴾ لِأَنَّ لَيْسَ شَيْءٌ عِنْدَ النَّاسِ أَسْرَعَ وَأَهْوَنُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ لِأَنَّ دُكْرُنَا أَنَّهُ يَلْمَحُ، وَلَا يُشْعَرُ بِهِ لِسُرْعَتِهِ وَلِخَفَاتِهِ عَلَيْهِ. فَذَكَرَ هَذَا عَلَى التَّمْثِيلِ لَيْسَ عَلَى إِرَادَةِ حَقِيقَةِ الْوَقْتِ بِقَدْرِ لَمَحِ الْبَصَرِ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي السَّرْعَةِ، وَذَكَرَ أَقْصَى ما يَقَعُ فِي الْأَوْهَامِ، وَيُتَصَوَّرُ، مِنْ نَحْوِ ما قَالَ: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْفَكَالَ دَرَّةٍ خَيْرًا يَرُوءُ﴾ ﴿وَمَنْ يَمْلِكُ مِنْفَكَالَ دَرَّةٍ شَرًّا يَرُوءُ﴾ [الزلزلة: ٧ و ٨] وَقَالَ: ﴿مَا يَمْلِكُوكَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] [وَقَالَ]^(٦): ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الاسراء: ٧١] [وَمَا قَالَ]:^(٧) ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ١٢٤] وَأَمثالُهُ كُلُّهُ يُذَكِّرُ عَلَى التَّمْثِيلِ، لَيْسَ عَلَى التَّحْقِيقِ؛ أَيِ ما يَعْمَلُ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ يَرُهُ شَرًّا كَأَنَّهُ أَوْ خَيْرًا. وَكَذَلِكَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَنَقِيرًا، أَيِ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً. وَكَذَا ﴿مَا يَمْلِكُوكَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أَيِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً، لِأَنَّ الْقِطْمِيرَ لَا يُمْلِكُ. فَإِنَّمَا يُذَكِّرُ لِهَذَا وَأَمثالِهِ عَلَى التَّمْثِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا.

أَوْ يَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ﴾ أَيِ لَيْسَ ما بَيْنَ السَّاعَةِ وَبَيْنَكُمْ مِمَّا مَضَى مِنَ الْوَقْتِ إِلَّا قَدَرٌ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. ويريدون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم. لقادر.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

البَصَرِ؛ أي لم يَبْقَ مِنْ وَقْتِ قِيَامِهَا وَمَا مَضَى إِلَّا مَا ذَكَرَ مِنْ لَمَحِ البَصَرِ أو أَقْرَبَ مِمَّا ذَكَرَ عَلَى الإِسْتِقْصَارِ لِمَا^(١) بَقِيَ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عَلَى الْبَغْثِ وَالْإِعَادَةِ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وظَاهِرُ الْآيَةِ يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَرِلةِ قَوْلَهُمْ لِإِنْكَارِهِمْ خَلْقَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعَلَى قَوْلِهِمْ هُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَلْفِ أَلْفِ شَيْءٍ.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا^(٢): يَذْكُرُ بِهَذَا قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ سُرْعَةِ الْقِيَامَةِ وَالْعِلْمِ بِهَا وَالْحِكْمَةِ الَّتِي جَعَلَ فِي الْبَغْثِ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ خَلَقَ الْوَلَدَ فِي ظُمَامٍ ثَلَاثٍ، وَجَعَلَ غِذَاءَهُ بِغِذَاءِ الْأُمّهَاتِ وَيَقْوَاهُمْ ثُمَّ تَقَلَّبَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؛ مَا لَوِ اجْتَهَدَ الْخَلَائِقُ أَنْ يَعْلَمُوا اغْتِذَاءَهُ بِغِذَاءِ الْأُمّهَاتِ وَتَقَلُّبَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَمِنْ جَوْهَرٍ إِلَى جَوْهَرٍ لَمَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ.

فَيَذُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا، وَعَلِمَ هَذَا فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ قَدَرَ عَلَى الْبَغْثِ وَإِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ الْفَنَاءِ، وَعَلِمَ مَا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ. وَيُذَكِّرُنَا نِعْمَهُ وَمِنَّةَ عَلَيْنَا فِي بُلُوغِنَا إِلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي صِرْنَا إِلَيْهَا بَعْدَ مَا كُنَّا مَا ذَكَرَ.

وَالثَّانِي: يَذَكِّرُنَا [أَنَّا كُنَّا]^(٣) بِالْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ لِنَعْلَمَ أَنَّهُ صَبَّرَنَا فِي الْبُطُونِ بِلا اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ مِنَّا وَلَا عَوْنٍ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ فَمَنْ قَدَرَ عَلَى جَعْلِ السَّمْعِ حَتَّى تُسْمَعَ الْأَصْوَاتُ، وَيُمَيَّزَ بَيْنَهَا، وَجَعَلَ^(٤) الْبَصَرَ وَالْتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْوَانِ الْأَجْسَامِ وَالْفَوَادِ لِيَفْهَمَ، وَيُعْقِلَ مَا لَهُ، وَمَا عَلَيْهِ، مَا لَا يُذَكِّرُ^(٥) مِثْلَهُ مَا بِهِ يَسْمَعُونَ، وَيُبْصِرُونَ، وَيَعْقِلُونَ، وَمَا بِهِ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ مَا ذَكَرْنَا. فَمَنْ قَدَرَ عَلَى [هَذَا كُلِّهِ قَدَرَ عَلَى^(٦)] إِنْشَاءِ الْخَلْقِ بَعْدَ الْفَنَاءِ وَالْإِعَادَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ عَلَى إِنْشَاءِ قَوْلِهِ ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ. فَذَلِكَ يَذُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَسْبَابِ الْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ، وَبِهَا يَوْصَلُ إِلَى الْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ. فَمَنْ أُعْطِيَ أَسْبَابَ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ فَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ لَهُ الْعِلْمُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هُوَ حَرْفُ شَكٍّ فِي الظَّاهِرِ؛ ذِكْرُهُ^(٧)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُ، لَا كُلُّ النَّاسِ يَشْكُرُونَ نِعْمَهُ، أَوْ لِكَيْ يُلْزِمَهُمُ الشُّكْرَ.

الآية ٧٩

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَي مَنْ قَدَرَ عَلَى إِمْسَاكِ الطَّيْرِ، وَهِيَ أَجْسَامٌ كَثِيرٌ مِنْ الْأَجْسَامِ فِي الْهَوَاءِ بِلا إِعَانَةٍ بِالْأَسْفَلِ وَلَا تَعَلُّقٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَعْلَى [فَهُوَ قَادِرٌ]^(٨) عَلَى إِنْشَاءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِمْ بَعْدَ الْفَنَاءِ.

أَوْ يَقُولُ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى﴾ اللَّطْفِ الَّذِي جَعَلَ فِي الطَّيْرِ وَالْحِكْمَةَ الَّتِي أَنْشَأَ فِيهَا حَتَّى قَدَرَتْ عَلَى الْإِسْتِمْسَاكِ فِي الْهَوَاءِ وَالطَّيْرَانِ فِي الْجَوِّ مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ جَمِيعاً أَنْ يُذَكِّرُوا^(٩) ذَلِكَ اللَّطْفَ أَوْ تِلْكَ الْحِكْمَةَ مَا قَدَرُوا عَلَى إِدْرَاكِهِ.

وَفِي ذَلِكَ نَقُضُ قَوْلَ الْمُعْتَرِلةِ، لِأَنَّ الطَّيْرَانَ فَعَلَ الطَّيْرُ. ثُمَّ إِضَافَةٌ^(١٠) / ٢٩٠ - أ / ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ حِينَ^(١١) قَالَ: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ دَلَّ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ فِي ذَلِكَ صُنْعاً وَفِعْلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ يَكُونُ آيَةً لِمَنْ آمَنَ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمُشْتَفَعُ^(١٢).

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْتُمْ كُنْتُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَدْرِكُونَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لِقَادِرٍ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَدْرِكُوهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَصَاف. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْمُشْتَفَعُ.

قال أبو عوسجة: لَمَحَ البَصَرُ سُرْعَةَ النَّظَرِ، وَجَوَّ السَّمَاءِ هَوَاؤُهَا، وَيُقَالُ: بَطَّنَ السَّمَاءَ، وَيُقَالُ: جَوَّفَ السَّمَاءَ، وَيُقَالُ: الْجَوُّ مَا اظْمَأَنَّ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ظاهرُ هذا أنه قد جعلَ لنا مِنَ البيوتِ أيضاً ما ليس بسكنٍ، لأنه قال: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو ما ذَكَرَ في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور: ٢٩] وهو كالمساجِدِ والرباطاتِ وغيرِها.

ورُشِبَ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْرِفُوا عَظِيمَ مَنِّهِ وَنِعْمِهِ حِينَ ^(١) جَعَلَ الْأَرْضَ بِمَحَلٍّ، يَقْرُونَ عَلَيْهَا، وَيُمْكِنُ لَهُمُ الْمَقَامُ بِهَا بِالرَّوَاثِيِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُ أَثْبَتَهَا ^(٢) فِيهَا بَعْدَ مَا كَادَتْ تَمِيدُ بِهِمْ، وَلَا [يَقْرُونَ عَلَيْهَا] ^(٣).

اخْتَبَرَ أَنَّهُ [جَعَلَ] ^(٤) فِيهَا رَوَاثِي، أَوْ أَنْ يَكُونَ ﴿مِنْ﴾ حَرْفُ صَلَةٍ، أَيِ جَعَلَ لَكُمْ بُيُوتًا تَسْكُنُونَ فِيهَا.

ثم قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ سَخَّرَ الْأَرْضَ حَتَّى قَدَرْتُمْ عَلَى اتِّخَاذِ الْمَسَاكِينِ فِيهَا، تَسْكُنُونَ فِيهَا.

والثاني: ^(٥): جَعَلَ لَكُمْ بُيُوتًا أَيِ عَلَّمَكُمْ ^(٦) مَا تَبْنُونَ فِيهَا مِنَ الْبُيُوتِ، مَا لَوْلَا تَغْلِيمُهُ إِيَّاكُمْ مَا تَقْدِرُونَ عَلَى بِنَاءِ الْبُيُوتِ فِيهَا، يَذْكُرُ مَنِّهُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي هذه الآياتِ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ ونحوه دلالةٌ تَقْضِي قولَ الْمُعْتَزِلَةِ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ جَعَلَ بُيُوتًا سَكَنًا، وَالسَّكَنُ فِعْلُ الْعِبَادِ. ذَلَّ أَنْ لِلَّهِ فِي فِعْلِهِمْ صُنْعًا.

[وقوله تعالى] ^(٧): ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أَيِ مِنْ صُوفِهَا، لَكِنَّهُ أَضَافَهَا إِلَى الْجُلُودِ لِمَا مِنَ الْجُلُودِ يُخْرَجُ [الصوف] ^(٨)، وَمِنْهَا يُجَزُّ، وَيُؤْخَذُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَمِنْ أَسْوَافِهَا﴾ وَهُوَ صُوفُ الْقَتَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وَهُوَ صُوفُ الْإِبِلِ ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْمَغْزِ.

[وقوله تعالى] ^(٩): ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قِيلَ: لِيَوْمِ سَفَرِكُمْ وَسِيرِكُمْ ﴿رَبِّدَمَ إِيَّاكُمْ﴾ وَلِيَوْمِ إِقَامَتِكُمْ.

قَالَ [بَغِضَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ] ^(١٠): فِي الْمِضَرِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي السَّفَرِ حِينَ التَّرْوِيلِ.

وَالجَعْلُ فِي هَذَا يَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾

أَحَدُهُمَا: عَلَى التَّخْيِيرِ لَهُمْ.

والثاني: عَلَى التَّعْلِيمِ. ذَكَرَ فِي الْبُيُوتِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْمَدَرِ السُّكْنَى حِينَ ^(١١) قَالَ: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْبُيُوتِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْجُلُودِ وَالْأَوْبَارِ وَالْأَشْعَارِ. فَكَأَنَّهُ تَرَكَ ذِكْرَهُ فِي هَذَا لِذِكْرِهِ فِي الْأَوَّلِ ذِكْرَ تَصْرِيحٍ، وَذَكَرَ فِي الثَّانِي: ذِكْرَ دَلَالَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَنثَاكُم﴾ قِيلَ: الْأَنثَاكُ وَالرَّيَاشُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمَالُ، وَقِيلَ: مَا يَتَّخَذُ مِنَ الثِّيَابِ وَالْأَمْنَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَنَّا إِلَىٰ جَنِّ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿إِلَىٰ جَنِّ﴾ إِلَى وَقْتِ يَتَلَىٰ ذَلِكَ الْأَنثَاكُ، أَوْ ﴿إِلَىٰ جَنِّ﴾ وَقْتِ فَنَائِهِمْ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالًا﴾ لَا يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ظِلَالًا﴾ الْبُيُوتَ الَّتِي ذَكَرَ، وَهِيَ تَقْلُطُهُمْ، وَيَحْتَمِلُ الْأَشْجَارَ ﴿وَرَعَعَلْ لَكُمْ مِنْ الْأَجْبَالِ أَكْشَنًا﴾ وَهِيَ الْغَيْرَانُ وَالْبُيُوتُ الَّتِي تَتَّخَذُ فِي الْجِبَالِ لِتَقْيِيهِمْ عَنِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ قِيلَ: الْقُمُصُ وَالْدُرُوعُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَثْبَتَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: تَقَرَّبَهَا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي م: تَسْكُنُونَ فِيهَا ثُمَّ قَوْلُهُ ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أَيِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ بَعْضُ، فِي م: بَعْضُهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

ثم ذَكَرَ أَنَّ مَا ذَكَرَ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْأَكْنَافِ وَالسَّرَابِيلِ ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ وَتَقِيكُمْ أَيْضاً بَأْسَ الْعَدُوِّ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ مَا ذَكَرَ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ذَكَرَ أَنَّهَا تَقِي مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ جَمِيعاً. فَكَانَ فِي ذِكْرِ أَحَدِهِمَا ذِكْرُ الْآخَرِ ذِكْرَ كِفَايَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ لِيُذَكِّرَهُمُ الْإِسْلَامَ أَوْ حُجَّتَهُ. ثُمَّ تَحْتَمِلُ النِّعْمَةُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَتَحْتَمِلُ الرِّسُولَ.

وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكُمْ ثُلُوثٌ﴾ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِنَّمَا ذَكَرَهَا^(١) لِهَذَا الْحَرْفِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَمَلَكُمْ ثُلُوثٌ﴾ وَمَا ذَكَرَ ﴿وَلَمَلَكُمْ ثَنُوثٌ﴾ [النحل: ١٤ و ٧٨] وَذَكَرَ^(٢) ﴿لَمَلَكُمْ ثَنُودٌ﴾ [النحل: ١٥] تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَحْرُفُ كُلُّهَا وَاحِداً. وَتَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى غَيْرِ الْآخَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٢ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِجَابَةِ لَكَ وَعَمَّا تَذَعُّوهُمْ إِلَيْهِ ﴿فَإِنَّا عَلَيْكَ بَأْسٌ مُبِينٌ﴾ أَي لَيْسَ عَلَيْكَ [إِجَابَتُهُمْ، إِنَّمَا عَلَيْكَ]^(٣) التَّبْلِيغُ إِلَيْهِمْ وَالْبَيَانُ لَهُمْ.

الآية ٨٣ وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ تَحْتَمِلُ النِّعْمَةُ ههنا مُحَمَّدًا ﷺ كَانُوا ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠] وَمَا ذَكَرَ ﴿يَجِدُونَهُ مَكْنُودًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَيَحْتَمِلُ ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ وَمَا ذَكَرَ عَرَفُوهَا أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ ﴿يُنْكِرُونَهَا﴾ بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَصَرْفِهِمْ شُكْرَهَا إِلَى غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مَعَ مَا يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُهُمْ، وَأَنَّ مَا لَهُمْ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يَتَّبِدُونَ الْأَصْنَامَ، فَتَكُونُ عِبَادَتُهُمْ دُونَ اللَّهِ كُفْرَانًا نِعْمَةَ اللَّهِ.

وقال أبو عَوَسَجَةَ: ﴿يَوْمَ ظَمَيْنَكُمْ﴾ يَوْمَ سِيرِكُمْ، ظَمَنَ يَظْمُنُ سَارَ، وَالسَّرَابِيلُ: الْقُمُصُ، يَقُولُ: ﴿تَقِيكُمْ﴾ أَي تَسْتُرُكُمْ.

وقال الْقُتَيْبِيُّ: ﴿ظِلَالًا﴾ أَي ظِلَالِ الشَّجَرِ وَالْجِبَالِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَمَلَكُمْ ثُلُوثٌ﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فِي قَوْمٍ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا ذَكَرَ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ وَالْأَفْضَالِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ، لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ إِلَّا بِنِعْمَتِهِ.

وقال بعض أهل التَّأْوِيلِ: سُمِّيَتْ سُورَةُ النِّحْلِ سُورَةَ النِّعَمِ لِمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ النِّعَمِ وَأَنْوَاعِ مَنَافِعِ الْخَلْقِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

الآية ٨٤ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: شَهِيدُهَا أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ مِنْ نَحْوِ مَا ذَكَرَ مِنْ شَهَادَةِ جَوَارِحِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ نَقْبِذُ عَتِيقَهُمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَآدْبِهِمْ وَأَرْبَابَهُمْ﴾ الْآيَةُ [النور: ٢٤] وَقَوْلُهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَبَلَدُهُمْ﴾ الْآيَةُ [فصلت: ٢٠] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ نَخْبِذُ نَحْيَتَهُمْ أَخْبَارَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٤] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ إِنْكَارِهِمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا.

وقال بَعْضُهُمْ: شَهِيدُهَا رَسُولُهَا الَّذِي يُعْتَبَرُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ إِلَيْهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وَالنَّذِيرُ، هُوَ الرِّسُولُ الْمُبْعُوثُ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ أَيْضاً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ١٤١] وَكَقَوْلِهِ^(٤): ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

أَخْبَرَ أَنَّهُ يَجِيءُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ شَهِيداً عَلَى أَوْلَئِكَ، وَأَنَّ^(٥) الرِّسَالَ قَدْ بَلَغُوا الرِّسَالَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم. وقال. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم.

أَرْسِلْ إِلَيْهِمْ وَلَسْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [الأعراف: ٦] وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ الآية [المائدة: ١٠٩] وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [فصلت: ٤٧] يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى قومهم، ويسأل قومهم عما أجابوا الرسل. إلى هذا يذهب بعض أهل التأويل، والله أعلم.

وجميع^(١) ما ذكر في القرآن من مجيئه وإنباؤه ونحوه جائز أن يكون ذلك البعث. تفسير ذلك كله قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ كذا. من ذلك قوله^(٢): ﴿وَبِآيَةِ رَبِّكَ وَالْمَلَكِ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله^(٣): ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿كَذَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] فهو البعث، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الحسن: لا يؤذن لهم بالإغتيال، لأنه لا عذر لهم، وهو ما قال: ﴿مَنْذَرٌ لَا يُطِيعُونَ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتدروا^(٤) [المرسلات: ٣٥ و ٣٦] لأنه، لا عذر لهم، واعتذارهم لا ينفع لهم شيئا؛ إذ اغتذارهم من نحو قولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَشْكُونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٣١]. ونحو هذا مما لا ينفعهم ذلك، فلا يؤذن لهم لذلك^(٥) ولا هم يستغثون.

قال الحسن: ولا هم يقالون. وكذلك قال في قوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَعِينُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَيْنِ﴾ [فصلت: ٢٤]. أي من المقالين، لا يقالون عما كان منهم. وقال/ ٢٩٠ - ب/ بعضهم: لا يؤذن، ولا يمكن لهم من التوبة والرجوع عما كانوا، لأن ذلك الوقت ليس، هو وقت التوبة والرجوع كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ الآية [غافر: ٨٤] وقوله^(٦): ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥] ونحوه.

[وقوله تعالى^(٧): ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ العتاب في الخلق، هو تذكير ما كان من الفرط ليرجع عما كان منه، وذلك في الآخرة، لا يَحْتَمِلُ. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا يؤذن لهم بالكلام كقوله: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أو لا يؤذن للشفعاء أن يشفعوا للذين كفروا، ويؤذن للشفعاء أن يشفعوا للمؤمنين.

الآية ٨٥ وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي وقعوا فيه. دليله ما ذكر ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ [في وجهين: أحدهما: ^(٨) دل هذا [أنه] لم يرد به رؤية العذاب، ولكن الوقوع فيه ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ لأنه يَدُومُ، ولا تخفيف مما يدوم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يُمهَلُونَ من العذاب.

والثاني: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ بما^(٩) استحقوا، واستحقوا، واستوجبوا. أو [ما]^(١٠) ذكرنا أنه لا يكون لعذابهم انقطاع.

الآية ٨٦ وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ قال الحسن: قوله: ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي قرناءهم وأولياءهم من الشياطين كقوله: ﴿أَخْشَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَذْرَبَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وكقوله: ﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا﴾ الآية [فصلت: ٢٥] وكقوله^(١١): ﴿فَقَفَّضْ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكقوله^(١٢): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ [الذين]^(١٣) كانوا لهم في الدنيا، فهم شركاؤهم الذين^(١٤) ذكر، وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ على هذا التأويل؛ كنا ندعوك وإياهم ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ قَالُوا قَالُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلُ أي يقولون لهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقال بعضهم: قوله^(١٥): ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ الأصنام التي عبدوها ﴿قَالُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلُ﴾ [إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ] أي يكذبونهم. وهو ما ذكر: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] يكذبونهم في ما قالوا، ويخبرون أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم.

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم. وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم. عما. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم. وقوله. (١١) في الأصل وم. وقوله. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم. الذي. (١٤) في الأصل وم. قولهم.

وقال بعضهم: [قوله^(١)]: ﴿شُرَكَاءُهُمُ﴾ الملائكة الذين عبدوهم كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتَلَاءُ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَكُمْ^(٢)﴾ قالوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِشَانَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبا: ٤٠ و ٤١].

أخبروا أنهم إنما عبدوا الجِنَّ بأمرهم، ولم يعبدوهم. أو يكون شركاؤهم رؤساءهم الذين انقادوا لاتباعهم، ويختلج الأصنام وما دُكر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَالْقُوا إِلَهُهُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ هو ما ذكرنا؛ يقولون لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي يكذبونهم في ما يزعمون، ويدعون.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلََّ﴾ أي يخضعون كلهم لله يومئذ، ويخلصون له الدين، ويسلمون له الأمر والألوهية ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل عنهم ما طمعوا بعبادتهم الأصنام والأوثان التي عبدوها من الشفاعة وغيرها كقولهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] بطل عنهم ما طمعوا، ورجوا من عبادة أولئك من الشفاعة لهم والقربة إلى الله.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِذِ انْتَبَهَوْا عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ قال بعضهم: هؤلاء كانوا رؤساء الكفرة وقادتهم، ضلوا هم بأنفسهم، وأضلوا أتباعهم، فلهم العذاب الدائم بكفرهم بأنفسهم، وزيادة العذاب بإضلال غيرهم. وهو كقوله: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وكقوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٣] أخبر أنهم يحملون أوزارهم وأثقالهم وأوزار الذين أضلوهم، ومنعوهم عن الإسلام. فعلى ذلك قوله: ﴿إِذِ انْتَبَهَوْا عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ بما أضلوا أتباعهم، وسعوا في الأرض بالفساد، وهو قول أبي بكر الأصم.

وقال بعضهم: إن عذابهم كلما أراد أن يقتل، ونصبت^(٣) الجلود، زيدت لهم بتبديل الجلود [النار، وكلما]^(٤) أراد أن تحمد [النار]^(٥) زيد لهم سعيها^(٦) كقوله: ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقوله: ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ ذَنَبُهُمْ سَمِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] فذلك هو الزيادة في العذاب.

ويحتمل غير هذا، وهو أن عذاب الكفر دائم أبداً، فيزداد لهم عذاباً بما كان لهم في الكفر سوي الكفر أعمالاً وتساوئ، كما يغنى، ويتجاوز عن المؤمنين بما كان منهم من المساوي كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦] مقابل ما كان يغنى عن المؤمنين المساوي يرا^(٧) لاهل الكفر على عذاب الكفر لمساوئهم.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: زِدْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ.

وأصله أن جزاء الآخرة من الثواب والعذاب على المضاعفة لأنه دائم، لا انقطاع له، ما ذكرنا من الزيادة والفوق وغيره على المضاعفة.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ يَحْمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي من البشر. ويحتمل ما ذكرنا من شهادة الجوارح عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ هو ما ذكرنا: يشهد الرسول عليهم بالتبليغ، ويشهد لمن أجابه، وأطاعه، وعلى [مَنْ رَدَّهُ، وكَذَّبَهُ]^(٨) بالرد والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ما ذكر في هذه السورة، لأنه ذكر فيها جميع أصناف النعم

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ﴾ وهذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ١٦٥. (٣) في الأصل وم: ينضج. (٤) في الأصل وم: نارها كلما. (٥) ساقطة من الأصل وم (٦) في الأصل وم: سعيها. (٧) في الأصل وم: زيد. (٨) في الأصل وم: كذبه.

وجواهرها ووجوب الأسباب التي بها يوصل إليها، وذكر فيها ما سخر لهم من أنواع الجواهر، وفيها^(١) ذكر ما وعد، وأوعد، وأمر، ونهى، وذكر ما خل بالاعداء وما ظفر أوليائه^(٢) وفيها^(٣) ذكر سلطانه، وذكر سفة الكفرة وعنادهم، وذكر ما يؤتى، ويتقى. فذلك تبيان كل شيء.

أو أن يكون في الكتاب تبيان كل شيء؛ إذ في القرآن ما ذكرنا من الأمر والنهي والوعيد وأخبار الأمم الماضية وأمثالهم وجميع ما يؤتى، ويتقى؛ ففيه تبيان كل من الوجه الذي ذكرنا.

أو أن يكون أنزل عليه الكتاب [تبياناً]^(٤) لكل ما دعا به الرسل، وجاءت به الرسل والكتب جميعاً؛ [إذ]^(٥) في هذا الكتاب جميع ما أتى به الرسل والكتب من الأمر والنهي والوعيد والوعيد كقوله: ﴿وَمَهِّمْنَا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ثم اختلف في ذلك البيان. قال بعضهم: تختل الآيات وجهين:

أحدهما: الخصوص على الأصول دون الفروع كذكر الكمال [للدين، لأن ذلك وصف الدين، وقد يقع له الكمال]^(٦) بالكتاب والسنة، وهذا للكتاب. فلم يجز التقصير عن الإشتمال عما لزمته الحاجة في أمر الديانة، لذلك^(٧) ذكر أن الكتاب تبيان لكل ما وقعت إليه حاجة في أصول الدين من الإيمان وأنواع العبادات والأحكام مع الحدود والحقوق ومكارم الاخلاق وانتظام^(٨) صلة الرحم وعشرة الإخوان وصحبة الجيران ونحو ذلك.

فتشتمل هذه الجملة على أصول الدين، وما وراءها يكون موكولاً إلى بيان الرسول ليبقى الكتاب بما شرط له تلاوة ودلالة^(٩).

والوجه الثاني: أن يكون تبياناً لكل شيء منتظماً لما فيه [من]^(١٠) جملة ومبهم ومشكله ولبیان الرسول جملة وتفسير مبهمه وإيضاحه ودلالته على مشكله؛ إذ^(١١) السُنُّ كلها بيان للكتاب لازيماً بغض ينغص.

ثم قد تختل الآيات التي فيها ذكر البيان والتفصيل وجوهاً غير الوجهين اللذين ذكرتهما:

أحدهما: أنه تبيان كل شيء، ظهر فيه التنازع بين أهل الأديان، ألزمتهم الضرورة فيه إلى البيان، فجعل الله الكتاب تبياناً، ألزمتهم بالتدبر والعلم بأنه من عند الله بخروجه عما وسع القوم عن نوع ما ذكر فيه من الحجج والأدلة وبما أغجزهم/ ٢٩١ - أ/ عن الطمع في تأليف مثله ونظمه ليعرفوا أن الله قد أعانهم في ما مسئتهم^(١٢) الحاجة، والجأتهم الضرورة إلى [من]^(١٣) يطلعهم على الحق في ما لو أهملوا عن ذلك لتولد منه العداوة والعناد، فأنعم الله عليهم به، وبين فيه جميع ما بهم إليه من الحاجة لدوام الأخوة.

والثاني: أن يكون فيه تبيان كل شيء بالطلب من عنده. وبالبحث فيه الظفر به بكل ما ينزل بهم من الحاجات إلى الأبد، فيكون هو أصل ذلك. لكن باختلاف^(١٤) الأسباب، يوصل إلى حقيقة^(١٥) العلم به. وذلك نحو ما جعل الماء حياة لكل شيء، ووصف أن في السماء رزق جميع الخلق، فإنه أنزل من السماء اللباس والرياش. وأخبر أنه خلقنا من تراب، ثم أخبر أنه خلقنا جميعاً من نفس واحدة على رجوع كل ما ذكرنا باختلاف الأسباب والتولد إليه، والله أعلم. وذلك كما قال أهل الكلام في جعل المحسوسات أدلة لكل غائب؛ جعلها الله أدلة توصل إليه بالتأمل والنظر، فيكون المحسوس مبيناً من ذلك دالاً على اختلاف الدرجات في هذا البيان مع ما قد جعله الله كذلك. حتى إن في الفلاسيقة من تكلف استخراج كليات أمور العالم العلوي والسفلي وما على ذلك مدار ما عليه من المحسوس. فمثله أمر القرآن، والله الموفق.

والثالث: أن يكون فيه بيان على الرمز والإشارة مرة، وعلى الكشف ثانياً. فما كان منه على الرمز، فهو مطلوب في

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: بهم وفيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل، ولعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ وَبَيْتَكُمْ﴾ [المائدة: ٨]. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: تنتظم. (٨) أدرج بعدما في الأصل وم: الوجه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال و. (١١) من م، في الأصل: مست. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: باختلافهم. (١٤) من م، في الأصل: الحقيقة.

المعاني وطريق الرسول إلى ما في تلك المعاني من الأمور مُخْتَلِفَةً. منها ما يَقَعُ بِمَعُونَةِ الْوَحْيِ مِنْ غَيْرِ الْكِتَابِ عَلَى اخْتِلَافِ وَجْهِ الْوَحْيِ مِنْ إِرْسَالٍ عَلَى لِسَانِ مَلِكٍ أَوْ رُؤْيَا أَوْ إلهَامٍ.

وَالْتَأَمُّلُ فِي ذَلِكَ وَالِاسْتِدْلَالُ بِمَا قَدْ أَوْضَحَهُ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللَّهِ لِلْحَقِّ فِي ذَلِكَ وَعِصْمَتِهِ عَنِ الزَّيْغِ أَوْ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمَاءِ فِي حَقِّ التَّفَاهُمِ لِقَوَامِضِ الْأُمُورِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُظَلِّغَ عَلَيْهِ نَبِيَّهُ.

فَإِنَّ لُطْفَ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِمَا عَامَلَ بِهِ الْأَخْيَارَ يَجَلُّ عَنِ اخْتِمَالِ الْعِبَارَةِ أَوْ تَصْوِيرِهِ فِي الْأَوْهَامِ نَحْوُ كِتَابَةِ الْحَفْظَةِ وَقَبْضِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَرْوَاحَ الْخَلْقِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ كُلِّهِ حَدُّ اللَّطِيفِ الَّذِي يَفْجَرُ الْبَشَرَ عَنِ الْإِحَاطَةِ [بِهِ] ^(١).

فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ تَبْيَانِ كُلِّ شَيْءٍ مَعَ مَا يَحْتَمِلُ الرَّجُوعَ بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ إِلَى أَغْلَبِ الْأُمُورِ أَوْ أَعْمَمِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وَغَيْرِهِ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَالْأَصْلُ عِنْدَنَا أَنَّ لَيْسَ لِلْبَيَانِ عَدَدٌ، يَجِبُ حِفْظُ الْعَدَدِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ قَوْمٌ أَنَّهُ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ. إِنَّمَا هُوَ أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا يَبِينُ هُوَ.

وَالثَّانِي: مَا يَبِينُ غَيْرُهُ. لَكِنَّ الْوُجُوهَ ^(٢) الَّتِي بِهَا يَقَعُ مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِّ بِالْبَيَانِ: أَصْلُهَا ^(٣) الْوَاقِعُ تَحْتَ الْحَوَاسِّ، إِذِ الْبَيِّنُ الَّذِي مَنْ جَحَدَ حُرْمَ أَوَّلِ دَرَجَاتِ الْبَيَانِ [وَمُنِعَ عَنْ فَهْمِ الْمَجْهُودِ] ^(٤) وَكَفَى كُلًّا مَوْنَةً خُصُومَتِهِ، ثُمَّ غَيْرُهُ مِمَّا يَصِيرُ بِالتَّأَمُّلِ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي جُعِلَتْ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَإِنْ بَعْدَ، أَوْ قَرُبَ بِدَلِيلِهِ كَالْمَخْسُوسِ؛ إِذِ التَّأَمُّلُ فِي الْأَسْبَابِ هُوَ سَبَبُ الْوُصُولِ إِلَى مَا غَابَ كَاسْتِعْمَالِ الْحَوَاسِّ فِي مَا يَشْهَدُ. فَمَنْ أَرَادَ الْقَطْعَ عَلَى حَدِّ أَوْ شَيْءٍ اخْتِاجَ ^(٥) إِلَى دَلِيلٍ فِيهِ.

وَأَصْلُ الْبَيَانِ حَقِيقَةُ هُوَ الظُّهُورُ، وَأَسْبَابُ إِظْهَارِ الْأَشْيَاءِ مُتَفَاوِتَةٌ. وَعَلَى ذَلِكَ مَقَادِيرُهَا مِنَ الظُّهُورِ، وَجُمْلَتُهُ ارْتِفَاعُ التَّوَاتُرِ عَنِ الْقُلُوبِ، وَتَجَلِّي حَقَائِقِ الْأُمُورِ لَهَا عَلَى قَدْرِ الْعُقُولِ فِي الْإِدْرَاكِ، وَمَا يَتَجَلَّى لِلْقُلُوبِ عَلَى مَقَادِرٍ مَا يَحْتَمِلُ مِنَ الظُّهُورِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهْدَى رَحْمَةً﴾ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿يَبِينَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿وَهْدَى رَحْمَةً﴾ كُلُّهُ وَاحِدٌ: الرَّحْمَةُ وَالْهُدَى وَالْبَيَانُ، وَبِرَحْمَتِهِ وَبِهْدَاةِ تَبْيِينِ لَهُمْ، وَيَتَضَحُّ. لَكِنْهُمْ قَالُوا: الْبَيَانُ لِلنَّاسِ كَافَّةً؛ يَتَبَيَّنُ، وَيَتَضَحُّ إِلَّا مَنْ عَانَدَ، وَكَابَرَ، وَالْهُدَى وَالرَّحْمَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً عَلَى مَا ذَكَرَ: ﴿وَهْدَى رَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ خَاصَّةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ. قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فِي مَا بَيْنَ النَّاسِ، أَيِ يَأْمُرُ بِالْحُكْمِ فِي مَا يَبِينُهُم بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَمَا كَلَّفَهُمُ بِالطَّاعَةِ لَهُ. أَوْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ إِلَى النَّاسِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَالْإِحْسَانُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ؛ أَيِ يُعَامِلُ رَبَّهُ بِالْعَدْلِ، لِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ، وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَجَاوِزَةِ عَنِ الْعَدْلِ حَتَّى يَكُونَ فِي حَدِّ الْإِحْسَانِ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَضَعَهُ إِلَى خَلْقِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَضَعُونَهُمْ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ مُحْسِنًا إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَلَا يَكُونُ مُحْسِنًا.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٦): ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ أَيِ إِعْطَاءِ ذِي الْقُرْبَى الصَّدَقَةَ مِنْ غَيْرِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ﴿وَبَيْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ﴾ هِيَ الْمَعَاصِي، أَيِ نَهَى عَنِ الْمَعَاصِي كُلِّهَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ هُوَ مَا تَعَبَّدَهُمْ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ جَعَلَ سَبَبَ عَظْفِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ صِلَةُ الْقَرَابَةِ وَالْأَرْحَامِ ﴿وَبَيْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ﴾.

(١) ساقطة من الأصل رم. (٢) في الأصل رم: الوجه. (٣) في الأصل رم: أصله. (٤) في الأصل رم: عن فهم الجحود عنه أن الجحود.

(٥) في الأصل رم: يحتاج. (٦) ساقطة من الأصل رم.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿يَأْتُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتوحيد ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ أي أداء الفرائض، وهو قول ابن عباسٍ وقَتَادَةُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: قَوْلُهُ: ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ هو في ما يَبْتَغِيهِمْ؛ يُحْسِنُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴿وَرَأَيْتَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ صَلَوةُ الْأَرْحَامِ ﴿وَيَتَنَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي الزنى ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ أي السَّكْرِ ﴿وَالْبَغْيِ﴾ مَظَالِمُ النَّاسِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُنْكَرُ مَا لَا يُعْرَفُ فِي الشَّرَائِعِ وَالسُّنَنِ. وَيُقَالُ: الْمُنْكَرُ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ، وَالْبَغْيُ الْإِسْطِطَالَةُ وَالظُّلْمُ.

ثُمَّ تَجِبُ [مَعْرِفَةُ] ^(١) حَقِيقَةُ الْعَدْلِ مَا [هوَ؟ هُوَ] ^(٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَضَعُ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ: التَّوْحِيدُ وَغَيْرُهُ؛ تُجْعَلُ الرُّبُوبِيَّةُ وَالْأَلُوْهِيَّةُ لِلَّهِ، لَا يُشْرَكَ ^(٣) فِيهَا غَيْرُهُ، وَلَا تُصَرَّفُ ^(٤) إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُضَافُ ^(٥). بَلْ تُنْسَبُ الرُّبُوبِيَّةُ وَالْأَلُوْهِيَّةُ إِلَى اللَّهِ وَالْعُبُودَةُ إِلَى الْعِبَادِ، وَلَا تُضَافُ الْعُبُودَةُ إِلَى اللَّهِ، وَلَا الرُّبُوبِيَّةُ وَالْأَلُوْهِيَّةُ إِلَى الْعِبَادِ. فَذَلِكَ الْعَدْلُ وَوَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ: الرُّبُوبِيَّةُ فِي مَوْضِعِهَا، وَالْعُبُودَةُ فِي مَوْضِعِهَا. هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى الْعَدْلِ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ فَهُوَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ جَبْرِيلَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِحْسَانِ حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَقَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَمَنْ يَعْمَلْ لِآخَرٍ بِحَيْثُ يَرَاهُ، وَيَنْظُرْ إِلَيْهِ [يَكُنْ أَبَدًا طَالِبًا]» ^(٦) رِضَاهُ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ وَإِخْلَاصُهُ لَهُ وَطَالِبًا ^(٧) مَرْضَاتِهِ فِيهِ. [البخاري ٥٠].

فَهُوَ يَخْتَمِلُ وَجْهًا ثَلَاثَةً؛ أَعْنَى الْإِحْسَانَ:

أَحَدُهَا: مَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْمَلُ لِلَّهِ ^(٨) كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَذَلِكَ فِي مَا يَبْتَغِيهِ وَيَتَنَّى رِيبَهُ.

وَالثَّانِي: فِي مَا يَبْتَغِيهِ وَيَتَنَّى الْخَلْقَ، وَهُوَ أَنْ يُحِبَّ لَهُمْ كَمَا ^(٩) يُحِبُّ لِنَفْسِهِ فِي مَا أُذِنَ لَهُ فِي ذَلِكَ.

أَوْ نَقُولُ عَلَى الْإِطْلَاقِ: يُحِبُّ لَهُمْ كَمَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ فَإِنْ عَوِضَ بِالْقِتَالِ وَالْحُرُوبِ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَذَلِكَ بِالَّذِي لَا نُحِبُّ لَأَنْفُسِنَا، وَنُحِبُّ لَهُمْ، قِيلَ: فِي ذَلِكَ طَلَبُ نَجَاتِهِمْ، وَتَخْلِيصُهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ الْأَبَدِيِّ. وَذَلِكَ مِمَّا نُحِبُّ لَأَنْفُسِنَا، وَنُحِبُّ لَهُمْ، قِيلَ: فِي ذَلِكَ طَلَبُ نَجَاتِهِمْ، وَتَخْلِيصُهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ الْأَبَدِيِّ. وَذَلِكَ مِمَّا نُحِبُّهُ نَحْنُ لَأَنْفُسِنَا: أَنْ يَسْعَى أَحَدٌ فِي نَجَاةِ أَحَدِنَا مِنَ الْمَهْلَكَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وَلَيْسَ فِي الظَّاهِرِ رَحْمَةٌ، لَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ رَحْمَةٌ حِينَ ^(١٠) يَخْلِيهِمُ الْقِتَالُ عَلَى الْإِسْلَامِ، إِذَا كَانَ قَبْلَ نَضْبِ الْقِتَالِ وَالْحُرُوبِ مَعَهُمْ لَمْ يُسَلِّمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ؟ فَلَمَّا نُصِيبَتْ الْحُرُوبُ مَعَهُمْ وَالْقِتَالُ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا. فَصَارَ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ رَحْمَةً، وَإِنْ كَانَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ فِي الظَّاهِرِ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ.

وكَذَلِكَ هَذَا/ ٢٩١ - ب/ الْمَصَائِبُ وَالْبَلَايَا الَّتِي يَجِلُّ بِالْخَلْقِ، هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ. وَلِذَلِكَ عَذَّهَا، وَسَمَّاَهَا بَعْضُ النَّاسِ لِمَا تُعْقِبُ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعْمَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَرَأَى ذَلِكَ مِنْهُ حَقًّا وَعَدْلًا، وَرَأَى حَالَ الضَّرَاءِ وَالسَّرَّاءِ مِنْهُ، فَهُوَ يُقَلِّبُ نَفْسَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، تَتَصَرَّفُ بِهِ مِنَ الشَّدَةِ وَالضَّيْقِ. فَإِذَا رَأَى نِعْمَةً مَا تَعَقَّبَ عَنِ الْخَيْرِ وَالنَّعْمِ فِي الْعَاقِبَةِ. فَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: ذَلِكَ نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ.

وَأَمَّا فِي ظَاهِرِ الْحَالِ فَلَا، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ يَنْزِلُ بِأَحَدٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِ، كَانَ فِي ذَلِكَ خِصَالٌ أَرْبَعٌ:

أَحَدُهَا: تَكْفِيرُ مَا كَانَ أَرْتَكَبَ مِنَ الْمَعَاصِي. وَالثَّانِيَةُ ^(١١): مَعْرِفَةُ الْعُبُودَةِ وَمُلْكِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ. وَالثَّلَاثَةُ ^(١٢): مَا يَغْتَفِرُ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعْمِ [الدَّائِمَةِ. وَالرَّابِعَةُ: ^(١٣) مَعْرِفَةُ النَّعْمِ: مِنَ الشَّدَةِ يَعْرِفُ النَّعْمَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: شريك. (٤) في الأصل وم: يصرفها. (٥) في الأصل وم: يضيف. (٦) في الأصل وم: يكون أبداً طالب. (٧) في الأصل وم: وطلب. (٨) في الأصل وم: له. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: الثاني. (١٢) في الأصل وم: الثالث. (١٣) في الأصل وم: الدائم والرابع.

والثالث^(١): الإحسانُ إلى نفسه، فهو^(٢) أن يحفظها عما فيه هلاكها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ الفحشاء [هي مما يُنكر، ويُفحش من الشر، والمنكر^(٣) هو الشيء الغريب [الذي]^(٤) لا يُعرف. ألا ترى إلى قول إبراهيم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾؟ [الحجر: ٦٢] سمأهم منكربين لما لا يعرفهم. فالمنكر ما يفعل مما^(٥) مما هو معروف بالخير والصلاح [يسبب الزلات، فيكون ذلك منه]^(٦) غريباً؛ إذ لم يُعرف بذلك. فذلك منه غريب^(٧).

والفحشاء ما تكون من أهل الفساد والشرور، وذلك مما يُنكر، ويُفحش ذلك منهم، والبغى هو الظلم. ويختل أن يكون هذا كله المنكر والفحشاء والبغى، وكله واحد: الفحشاء هي المنكر، والفحشاء هي البغى، والمنكر هو الفحشاء والبغى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَمُطِّكُم﴾ قال بعضهم: أي ينهاكم عما ذكر كله ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتهون عنه.

وقال بعضهم: والموعظة، هي التي تليق القلوب القاسية، وتضربها إلى طاعة الله. وقد ذكرنا.

الآية ٩١

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يختل [أمره بوفاء]^(٨) العهد التي يعطي بعضهم لبعض؛ أمرهم بوفاء ذلك، ونهاهم عن نقضها، والزمهم وفاء عهد الله، وإن لم يعاهدوا في ذلك. لكنه ذكر وفاء العهد إذا عاهدوا، ونهى عن النقض، لأن ترك وفاء ما عاهدوا ونقض ما أعطوا على ذلك شرطاً أقيح وأوحش مما لم يعاهدوا. وهو كقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

ترك الوفاء ونقضه بعد قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أوحش وأفحش من نقضه، إذا لم يكن لهم عهد سابق وشرط متقدم. وهذا، والله أعلم، معنى أمره بوفاء العهد إذا عاهدوا، وإن كان وفاء العهد لازماً لهم، وإن لم يعاهدوا.

إن جعل الله البشر بحيث يقبلون الحكمة والمحنة، وجعل بنييتهم وخلقتهم بحيث يقدرون على القيام بذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا﴾ [الآية] [الأحزاب: ٧٢] أي إني خلقتهم وبنييتهم، أي لم يجعل خلقه هذه الأشياء وبنييتها تختل ذلك ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي خلقته وبنييته تختل ذلك والقيام به^(٩).

ويختل أن تكون العهود التي أمر بوفائها إذا عاهدوا على الإيمان التي يُقسمون بها حين^(١٠) قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ذكر الإيمان، ونهى عن نقضها. ثم لا يختل أن يكون النهي عن النقض في الإيمان التي يَأْتُمُّ بها المرء إذا حلف لأنه نهى عن نقضها، ولو كان يَأْتُمُّ بعقدها لكان لا ينهى عن نقضها، لأن الإيمان التي يَأْتُمُّ بها المرء إذا حلف ينقضها، أو لا يؤمر بوفائها وحفظها.

ثم ذكر فيه ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولم يُبح نقض اليمين [وإن]^(١١) لم يؤكدها إذا لم يكن في الوفاء بها إنم. لكنه ذكر التوكيد لأن النقض بعد ذلك أقيح وأفحش من النقض على غير التوكيد على ما ذكر من القبح والفحش في بعض العهود بعد ما عاهدوا. وقال بعضهم: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هو حلفهم بالله لأن مشركي العرب كانوا لا يُقسمون بالله لما يعظم من الأمر، ويَجِلُّ. وذلك آخر أقسامهم. وكذلك قال بعض أهل التأويل في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩ والنحل: ٣٨] هو قسمهم بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَمَلْتُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْدًا﴾ قيل: كانوا يخلفون في ما بينهم على جعل الله كفيلاً عليهم. وقيل: الكفيل هو الشهيد الحافظ. وهكذا يؤخذ الكفيل في ما يؤخذ ليحفظ المال والنفس.

(١) في الأصل رم: وأما. (٢) في الأصل رم: وهو. (٣) في الأصل رم: هو ما يكبر يفحش من الشيء هو المنكر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل رم: من. (٦) في الأصل رم: من الزلات فيكون ذلك منهم. (٧) في الأصل رم: يعرفوا بذلك فذلك منهم. (٨) في الأصل رم: أمرها بوفائها العهد. (٩) في الأصل رم: بها. (١٠) في الأصل رم: حيث. (١١) من م، في الأصل: و.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ من الوفاء بما عاهدوا أو النقض.

الآية ٩٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ ائْتَنَكُرُ دَخَلًا يَتَنَكَّمُ أَنْ تَكُونَ أُمَّهُ مِنْ أَرْثٍ مِنْ أُمَّهُ﴾ اختلف في تاويل الآية [قال بعضهم: الآية^(١)] نزلت في مخالفة أهل الكفر بعضهم بعضاً؛ وهو أن يترك بعضهم بعضاً، وينصر، ويؤمن بعضهم بعضاً [ويخلفوا على ذلك ويقسموا]^(٢) فإن هلكوا في ذلك أي في نصر بعضهم بعضاً، ثم إذا رأوا الكثرة والغلبة مع غير الدين حالفوا، نقضوا ذلك، ورجعوا إلى الدين معهم الكثرة والغلبة، فنهوا عن ذلك.

وقال بعضهم: الآية في الذين يكونون بعد رسول الله وأصحابه لما علم أنه يكون [منهم]^(٣) خوارج وأهل اختلاف في الدين، فربما كانت الكثرة والغلبة لهم على أهل العدل. فنهى من عاهد أهل العدل، وبايعهم أن يترك، ليكثرهم وغلبتهم، الكون مع أهل العدل وإعانتهم ونقض ما عاهدوا. ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُكَ اللَّهُ بِهِ﴾ وقوله^(٤) هذا يدل أنه في أهل الإسلام.

وقال بعضهم: الآية في أهل النفاق: إنهم كانوا يقسمون ﴿وَاللَّهُ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٦] كانوا يرون من أنفسهم الموافقة لهم والنصر والعون لهم على أعدائهم، ويخلفون على ذلك. ثم إذا رأوا الكثرة مع الكثرة والغلبة وقلة المؤمنين تحولوا إلى أولئك، ونقضوا إيمانهم، وكانوا معهم، كقوله: ﴿إِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ يَسْتَوْزِعُوا عَلَيْكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤١].

ويحتمل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي لا تكونوا في نقض العهود والمواثيق كالمرأة التي تنقض غزلها من بعد قوتها.

وجائز أن يكون غير هذا: يقول: ولا تظنوا في الله أنه يكون في إنشاء الخلق كالمرأة التي تنقض غزلها من بعد قوتها. فلو لم يكن بعت لكان يكون في إنشاء الخلق كالمرأة ﴿كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وقد عرفتم فتح ذلك. فعلى ذلك إنشاء الخلق إذا لم يكن بعت يكون في الفحش ما ذكر.

ثم ضرب الله مثل من أعطى العهد والمواثيق، ووعد الأيمان في ذلك، ثم نقض ذلك، بامرأة تغزل، تنقض ذلك الغزل ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ يقول، والله أعلم: كما لم تنتفع هذه المرأة بغزلها إذا نقضته^(٥) من إبراهيم إياه، كذلك لا ينتفع، ولا يوثق بمن أعطى العهد، ثم نقض. يقول: فلا هي تركت الغزل تنتفع به، ولا هي تركت القطن والكتان كما هو، فكذلك الذي يعطي العهد، ثم ينقضه؛ فلا هو حين أعطاه وفى به، ولا هو ترك [العهد]^(٦) فلم يعطه، ونحوه.

ثم اختلف في تلك المرأة: قال بعضهم: هي امرأة من قريش حمقاء بمكة، كانت إذا غزلت نقضته.

وقال بعضهم: هذا على التمثيل: يقول، والله أعلم: أي لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبراهيم لقلتم: ما أحق هذا فعلى ذلك من أعطى العهد والميثاق/٢٩٢-١/ ثم نقض، فهو كذلك.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ ائْتَنَكُرُ دَخَلًا يَتَنَكَّمُ﴾ قال أبو بكر الأصم: الداخل الذي لا يصح، ولا يستقيم، يقال: هذا مذخور أي غير صحيح. وقال غيره: ﴿دَخَلًا﴾ أي خديعة ومكر، يتخدع بعضكم بعضاً، وهو قول أبي عوسجة أيضاً. وقال القتيبي: ﴿دَخَلًا يَتَنَكَّمُ﴾ أي خيانة ووغولاً ﴿يَتَنَكَّمُ﴾ أي فريق ﴿مِنْ أَرْثٍ مِنْ أُمَّهُ﴾ فريق.

وقال أبو عوسجة ﴿أَنْكَا﴾ هي جمع نكت، والنكت من الخيل خيوط، تنكت، ثم تظرق، وتصير صوفاً، ثم من بعد ذلك تفتل. قال: والمظرق قضيب، يضرب به الصوف حتى ينش، وتلين كما يندف القطن، يقال: طرقت الصوف،

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويخلفون على ذلك، ويقسمون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال.

(٥) في الأصل وم: نقضت. (٦) ساقطة من الأصل وم.

أَطْرَفُهُ طَرَفًا، أَي ضَرْبَةً، وَيُقَالُ: نَفَسْتُهُ، أَنْفَسْتُ نَفْسًا أَي فَرَّقْتُ بَيْنَهُ، فَتَفَرَّقَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿كَالْمُهِنِ الْمَفْقُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وَيُقَالُ: حَبْلٌ مُثْنَى إِذَا كَانَ ذَا طَاقَيْنِ، وَمَثْلُوثٌ، وَمَرْبُوعٌ، وَمُخْمُوسٌ، وَمَسْدُوسٌ، وَمَسْبُوعٌ وَمُثْمُونٌ [وَمُسْوَعٌ^(١)] وَمَغْشُورٌ.

وَقَالَ الْقَتَّابِيُّ: الْأَنْكَاثُ مَا نُقِصَ مِنْ غَزَلِ الشَّعْرِ وَغَيْرِهِ، وَاحِدُهَا: نِكْثٌ. يَقُولُ: لَا تُؤَكِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ الْإِيمَانَ وَالْعُهُودَ، ثُمَّ تَنْقُضُوا ذَلِكَ، وَتَخْتَنُوا، فَتَكُونُوا كَامْرَأَةٍ غَزَلَتْ، وَنَسَجَتْ، ثُمَّ نَقَضَتْ ذَلِكَ، فَجَعَلَتْهُ أَنْكَاثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الْمَشِيئَةُ ههنا مَشِيئَةُ الْقَهْرِ وَالْقَسْرِ، أَي لَوْ شَاءَ لَجَبَّرَهُمْ، وَقَهَّرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، فَأَمَنُوا جَمِيعًا. وَهَذَا فَاسِدٌ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ بِالْقَهْرِ وَالْجَبْرِ إِيمَانٌ، لِأَنَّهُ لَا صُنْعَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ، فَيَبْطُلُ تَأْوِيلُهُ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُثَبِّتَ إِيمَانٌ فِي تِلْكَ الْحَالِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: تَأْوِيلُ^(٢) قَوْلِهِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لِأَنْزَلْ لَهُمْ آيَةً حَتَّى يُؤْمِنُوا جَمِيعًا [كَتِلَكَ الْآيَةُ، وَهِيَ قَوْلُهُ^(٣)] ﴿إِنْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى نَفْسٍ مِّنْ سَمَاءٍ مَّا ظَنَنْتُمْ أَن نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

لَكِنْ عِنْدَنَا لَيْسُوا يُؤْمِنُونَ، وَيَخْضَعُونَ لِلآيَةِ، وَلَكِنْ بِمَا شَاءَ لَهُمْ ذَلِكَ. وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَحْمِلَهُمُ الْآيَةُ عَلَى الْإِيمَانِ، شَاوُوا، أَوْ أَبَوْا. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الْحَشْرِ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْآيَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَتْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ رَئِيفًا كَمَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢ و ٢٣] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ، وَقَدْ يَمْنَعُهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْكُذْبِ. ذَلَّ أَنْ الْآيَةَ لَيْسَتْ تَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا تَضْطَرُّهُمْ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ لَوْ شَاءَ لَأَمَنُوا بِالْإِخْتِيَارِ، فَيَبْطُلُ تَأْوِيلُهُ.

ثُمَّ الْآيَةُ تَحْتَمِلُ عِنْدَنَا وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بظَاهِرِ السَّبَبِ الَّذِي لَوْ^(٤) أَعْطَاهُمْ لَأَمَنُوا لَهُ [كَقَوْلِهِ تَعَالَى^(٥)]: ﴿وَلَوْ لَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الْآيَةُ [الزخرف: ٣٣] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ مَا يَرْغَبُ النَّاسُ فِي الْكُفْرِ، فَيَكُونُونَ كُفْرًا كُلُّهُمْ، وَلَا جَعَلَ سَقَفَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَمَعَارِجَهُمْ مِنْ فِضَّةٍ. فَلَوْ أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ بَعِينَهُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا يَحْمِلُ أَهْلَ الْكُفْرِ عَلَى تَرْكِ الْكُفْرِ وَالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بِلُطْفٍ مِنْهُ ﴿يَنْشِئُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعَلِّمَ أَنْ أَحَدًا أَلْقَى ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَحْوِ مَا يُمَكِّنُ لِلشَّيْطَانِ عَدُوًّا لِلَّهِ حَتَّى يَقْدِفَ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَيُلْقِي وَسَاوِسَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا دَعَا إِلَى ذَلِكَ، أَوْ أَلْقَى فِي^(٦) قُلُوبِهِمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا وَسَّوَسَ إِلَى آدَمَ ﷺ لِيَتَنَاوَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا رَبُّهُ، لَوْ عَلِمَ أَنَّهُ إِبْلِيسُ لَمَّا أَجَابَهُ؟ وَكَذَلِكَ مَا مَكَّنَ لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ تَثْبِيتِ قُلُوبِ الَّذِينَ آمَنُوا وَالْقَاءِ أَشْيَاءَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَالْهَامِيهِمْ^(٧)، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، أَوْ أَلْقَى أَحَدٌ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ.

فَمَنْ مَلَكَ تَمَكِينَ عَدُوِّهِ وَمَلَائِكِيهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا يَمْلِكُ شَرْحَ الصِّدْرِ لِلْإِسْلَامِ وَالدَّعَاءِ إِلَى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ أَحَدًا فَعَلَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عَلَى قَوْلِ الْحَسَنِ عَلَى الْحُكْمِ لِذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ﴿يُضِلُّ﴾ بِالنَّهْيِ مِنْ نَهَى، ﴿وَيَهْدِي﴾ بِالْأَمْرِ. لَكِنَّ هَذَا فَاسِدٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بِالنَّهْيِ مُضِلًّا، وَبِالْأَمْرِ هَادِيًّا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تأويله. (٣) في الأصل وم: لتلك الآية كقوله. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إلى. (٧) في الأصل وم: ويلهمونهم.

لَكَانَ مُضِلًّا لِلنَّبِيَّاءِ وَالرُّسُلِ لَأَنَّهُ قَدْ نَهَاهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مُضِلُّونَ. فَمَنْ قِيلَ: لَمْ يُضِلَّ^(١) مَا ذَكَرْتَ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَرْكَبُوا الْمَنَاهِي، قِيلَ: الْإِزْيَابُ فَعَلُهُمْ، فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِفَعْلِهِمْ ذَلِكَ، فَذَلَّ أَنْ مَا ذَكَرْنَا فَاسِدٌ. وَعَلَى قَوْلِهِمْ يَكُونُ بِالنَّهْيِ عَاصِيًا مُضِلًّا. وَعِنْدَنَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيِ يَخْلُقُ فَعَلَ الضَّلَالِ مِنْهُمْ، أَوْ يُضِلُّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى، وَيُخْذِلُهُ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَشْتَكَيَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هو ظاهر.

الآية ٩٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا. وقوله تعالى: ﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَقْدَمُ ذِكْرُهَا فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ نَزَلَ ﴿قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ وَهُوَ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ.

وعِنْدَنَا مَا ذَكَرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ ﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ﴾ بِالْخَوْفِ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أَوْ بَعْدَ مَا كَانُوا آمِنِينَ، لَأَنَّهُمْ بِلِيَامَانِهِمْ كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَيَنْقُضُهُمُ الْعَهْدَ وَالْإِيمَانَ يَخَافُونَ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ﴾ كِنَايَةً عَنِ الْخَوْفِ [وقوله ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾] كِنَايَةٌ عَنِ الْآمِنِ، أَيِ صَارُوا خَائِفِينَ يَنْقُضُ الْعُهُودَ وَالْإِيمَانَ بَعْدَ مَا كَانُوا آمِنِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَذُقُوا أَلْسُوَ مَا مَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: يَذُوقُونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْقَهْرِ، وَيَحْتَمِلُ فِي الْآخِرَةِ بِمَا صَدَّوْا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَاسْتَبَدُّوْا بِهِ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴿وَلَكَرْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٩٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْعُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: عَهْدُ اللَّهِ دِينُ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَهْدُ اللَّهِ الَّذِي عَاهَدَ إِلَيْهِمْ. وَيَحْتَمِلُ عَهْدُ اللَّهِ مَا أَغْطَوْا مِنَ الْعَهْدِ وَالْإِيمَانِ، أَيِ [لَا]^(٤) تَنْقُضُوهَا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دَائِمٌ بَاقٍ، وَهَذَا زَائِلٌ قَائِمٌ، أَوْ مَا يَجْزِي بِوَفَاءٍ مَا عَاهَدَ^(٥) خَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ هَذَا، أَيِ [مَا]^(٦) يَجْزِيكُمْ بِوَفَاءٍ مَا ذَكَرَ مِنَ الْعَهْدِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٦

وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْءٌ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أَيِ مَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَاتَّسَبَّحْتُمْ بِنَقْضِ الْعُهُودِ وَالْإِيمَانِ يَنْفَدُ، وَيَفْتَنُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْجَزَاءِ وَالثَوَابِ بِعَهْدِ الْوَفَاءِ بَاقٍ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ عَلَى مَا أَمَرُوا بِهِ، وَنُهِوا عَنْهُ، وَصَبَرُوا عَلَى وَفَاءِ الْعَهْدِ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ﴾ أَيِ الْجَزَاءِ الَّذِي نَجْزِيهِمْ عَلَى الصَّبْرِ أَحْسَنَ مِنْ وَفَاءِ الْعَهْدِ. أَوْ يَجْزِيهِمْ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلُوا، أَيِ يَجْعَلُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وَقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَّبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٧

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا زَكَرْنَا أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ [فِي قَوْلِهِ]^(٧): ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فِي الدُّنْيَا.

فَمَنْ قَالَ: ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ هِيَ الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ يَكُنْ^(٨) تَأْوِيلُهُ: مَنْ يَكُنْ عَمَلُهُ فِي الدُّنْيَا صَالِحًا يُحْيِيهِ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا. وَالْأَفْظَاهُ قَوْلُهُ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ إِنَّمَا هُوَ عَلَى عَمَلٍ وَاحِدٍ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ظَاهِرُهُ عَلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ. لَكِنَّ الْوَجْهَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا: مَنْ يَكُنْ عَمَلُهُ فِي الدُّنْيَا صَالِحًا يَفْعَلُ مَا ذَكَرَ، وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَيِ مَا تُؤْتِينَا فِي الدُّنْيَا ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَوْ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْخَتْمِ بِهِ، أَيِ مَنْ خَتَمَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ يُحْيِيهِ اللَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الْجَنَّةِ ٢٩٢ - ب/ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كَذَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَضُرُّ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُخْذِلُهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالثَّبُوت. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَهْدُوا. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ.

وقال الحسن: الحياة الطيبة هي الجنة لأن في الدنيا ما ينقص حياتها.

وقال بعضهم: الحياة الطيبة في الدنيا. فتأولوه: من يكن همّه وجهده العمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ أي نُؤَقِّقُهُ، ونُسِرُهُ للخيرات والعمل والطاعات، وهو ما روي [عنه ١١] أنه قال: «كُلُّ مُسَيِّرٍ لِمَا خُلِقَ [مسلم ٢٦٤٩] وكقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَثَقًا﴾ ﴿وَمَدَّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَنَسِيْبُهُ لِيُشْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و ٦ و ٧] وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونحوه.

فذلك هو الحياة الطيبة في الدنيا حين^(٢) يسر عليه العمل الصالح، ووقَّفه للطاعات والخيرات.

وقال بعضهم: قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي قنع في الدنيا بما قسم الله له، ورزقه، ورزقي به ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ﴾ في الدنيا ﴿حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ بما أزال عنه همّ طلب الفضل وعَمَهُ وذَلَّةُ جِزْصِهِ عليه، لأن أكثر هُموم الناس في الدنيا وذُلُّهم لما لم يرزوا بما قسم الله لهم، ولم يقنعوا به، فهو يخشى ﴿حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ لما عَصِمَ عن ذلك والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على تأويل من قال: الحياة الطيبة في الدنيا. وقال بعضهم: ﴿حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ الرزق الحلال، وقوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ما ذكره هؤلاء. وقال بعضهم: ﴿حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ الرزق الحلال، وقوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرنا.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ كقوله^(٣) في آية أخرى ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وكقوله^(٤) في آية أخرى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] فيجب أن يتعوذ من همزاته على ما أمر رسول الله ﷺ أو عند نزغ الشيطان على ما ذكر. لكنه إذا تعوذ منه تعوذ من همزاته ونزعاته.

فإن قيل: كيف خص قراءة القرآن بالتعوذ منه دون غيره من الأذكار والعبادات والأعمال الصالحة؟ قيل: قد يتعوذ منه دون غيره أيضاً في غيره من العبادات والأذكار بقولهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إذ لا يفتتح شيء إلا به. فذلك تعوذهم به، لكن التعوذ في هذا تعوذ بالكناية^(٥)، والتعوذ في قراءة القرآن بالتصريح؛ وذلك لأنه^(٦) حجة وبرهان وطقن للأعداء في ما هو حجة في نفسه أكثر من الأفعال التي فعلوها.

ألا ترى [أن الشيطان كان يلقن أولياءه]^(٧) أنه ﴿ميسر﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وأنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وأنه ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَسْرٌ﴾؟ [النحل: ١٠٣] ونحوه، وهو^(٨) قوله: ﴿وَالَّذِينَ الشَّيْطَانُ لَيُوْحِنُ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّاهُمْ لِيَجْذِلُوْكَ﴾ [الأنعام: ١٢١] كانوا يطلبون الطعن في القرآن لأنه حجة وبرهان، ولم يشتغلوا في طعن فعل من الأفعال أو ذكر من الأذكار. فعلى ذلك يجوز أن يكون التعوذ منه في ما هو حجة بالتصريح، وفي غيره بالكناية^(٩)، والله أعلم.

ثم في هذه الآية وفي غيرها من قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ لم يفهم أهلها منها [التعوذ]^(١٠) على ظاهر المخرج، ولكن فهموا على مخرج الحكمة، لأن ظاهر المخرج أن يفهم التعوذ بعد الفراغ^(١١) من القراءة.

وكذلك يفهم من الأمر بالقيام إلى الصلاة الوضوء بعد القيام إليه. ثم [لم]^(١٢) يفهموا في هذا ونحوه هذا، ولكن فهموا إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله. وكذلك فهموا من قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا كذا، ولم يفهموا كل قيام، إنما فهموا قياماً دون قيام، أي إذا [أردتم]^(١٣) القيام إلى الصلاة، وأنتم محدثون، وفهموا من قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وفهموا من قوله: ﴿فَإِذَا طُمِئِنَّتْ قُلُوبُكُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣]

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: بكناية.

(٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم: أنه كان يلقنهم أعني الشيطان أولياءه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: بكناية.

(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فراغه. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وكذلك فهموا من قوله: ﴿وَإِذَا قُضِيَتْ شَأْيُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] الفراغ منها. دل أن الخطاب لا يوجب المراد والفهم على ظاهر المخرج، ولكن على مخرج الحكمة والمغنى.

واصل التعمُّد هو الإغتراف بالله من وساوس عدوِّه وكيدِهِ.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال بعضهم: ليس له سبيل على الذين آمنوا. وقال بعضهم: السلطان الحجة، أي ليس له حجة على الذين آمنوا. وقال بعضهم: أي ليس له ملك على الذين آمنوا، ملك القهر والعلية.

الآية ١٠٠

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ لكن ليس له ملك القهر على الذين يتولَّونه أيضاً. إنما يتبعونه بإشارات منه طوعاً. قد دل أن تأويل الملك لا يصح في السلطان أو الحجة.

ثم يختل قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالقرآن، لأنه ذكره^(٢) على إثر ذكر القرآن. ويختل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّيهِمْ﴾ فهما واحد في الحاصل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ﴾ حجة أو سبيله ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ يتخذونه^(٣) ولياً، فيطيعونه في كل أمره وجميع إشاراته وما يليق^(٤) إليهم.

واصله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برَبِّهِمْ ﴿وَعَلَى رَبِّيهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جميع أحوالهم وساعاتهم، أي [لا]^(٥) سلطان له، ولا سبيل على من آمن بربه، وتوكل عليه.

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ إبليس؛ يتبعونه، ويغفلونه برَبِّهِمْ. ويختل ﴿بِهِمْ مُشْرِكُونَ﴾ برَبِّهِمْ. والتوكل هو الإغتراف عليه وتفويض الأمر إليه في كل حال: الشراء والضراء، وفي كل وقت: الضيق والسعة. فذلك التوكل عليه.

الآية ١٠١

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ الآية يختل وجهين:

أحدهما: ما قاله أهل التأويل على التناسخ: أن يبدل آية مكان آية، وهو على تبديل حكم آية بحكم آية أخرى لا على رفعها^(٦) عنها.

والثاني: قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي بدلنا حجة بعد حجة وآية بعد آية لرساليه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ كلما أتاهم حجة على إثر حجة وآية بعد آية يقولون ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ينسبون إليه الافتراء أنه افتري. وكذلك كانت عادتهم المعاندة والمكابرة كقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤] وكقوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَقْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] ونحوه من الآيات؛ كلما [أتاهم بحجة]^(٧) وآية بعد آية كانوا يستقبلونه بالكذب لها ونسبة رسول الله ﷺ إلى الافتراء من نفسه، ويزدادون^(٨) بذلك كفرًا.

وهو ما قال ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُهَا هِيَ هِيَ﴾ [التوبة: ١٢٤ و ١٢٥] أخبر أنه كان يزاد أهل^(٩) الإيمان بما ينزل عليهم من سورة إيماناً، ويزاد أهل^(١٠) الشرك رجساً وكفراً إلى كفرهم.

[وهو]^(١١) مثل هذا. ولو كان يختل حرف ﴿وَإِذَا﴾ مكان: لو كان أقرب، ويكون تأويله، ولو أنزلنا حجة بعد حجة، وآية على إثر آية جديدة ما^(١٢) آمنوا، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَى اللَّهِ الْتَبَعْنَا وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١] وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية [الرعد: ٣١] أي لو أن هذا القرآن قرآن ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ ما آمنوا بهناؤهم. فعلى ذلك الأول.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يلقون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أتى بهم حجة. (٨) في الأصل وم: ويزداد لهم. (٩) في الأصل وم: لأهل. (١٠) في الأصل وم: لأهل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فما.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ بالسؤال أي بَدَلْنَا آيَةً بالسؤال مكان آية ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرِيدُ﴾ به صلاحهم وغير صلاحهم، أو أن يكون ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرِيدُ﴾ من تثبيت قلوب الذين آمنوا كقولوه: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢] أو أن يكون ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرِيدُ﴾ جبريل على رسوله جواباً لقولهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ وكقولوه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] أي ليس بمفترٍ، ولكن نَزَّلَهُ جبريلُ مِنْ رَبِّهِ.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي عليهم أي بالحق الذي يَنْغُضُهُمْ/ ٢٩٣ - ١/ على بغضٍ. والحق في الأقوال هو^(١) الصدق، وفي الأفعال صواب ورشد، وفي الأرحام عذل وإصابة. والحق هو الشيء الذي يُحَمَّدُ عليه صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا تفسيرُ قوله: ﴿قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَّادَتُهُمْ إِنِّتَا﴾ [التوبة: ١٢٤] لأنه أخبر أنه ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فذكر من زيادة الإيمان، هو التثبيت الذي ذكر ههنا، قوله: ﴿قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَّادَتُهُمْ إِنِّتَا﴾ وذكر قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ مقابل قوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ رِجْسَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لِيُعْلَمَ أَنَّ الزيادة التي ذكر في سورة التوبة هي ما ذكر ههنا من التثبيت والطمانينة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً﴾ أي هَذَى مِنَ الْجَهَالَاتِ وَالشُّبُهَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَرِضُ لَهُمْ أَوْ مِنَ الضَّلَالَةِ وَيُثَرِّى لِلْمُسْلِمِينَ وقال في آية أخرى ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] لِيُعْلَمَ أَنَّ الإيمان والإسلام واحد.

الآية ١٠٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ هُمْ لَمْ يَقُولُوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ولكن كانوا يُنْصَوْنَ واحداً فلاناً، لكن الخبر من الله على ذكر البشر.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ لِسَانَ ﴿الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانُ عَصْرٍ ثِيثٍ﴾؟ ذَلَّ أَنَّ الْبَشَرَ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ كَانَ مَنْصُوصاً عَلَيْهِ مُشَاراً إِلَيْهِ حِينَ^(٢) قَالَ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانُ عَصْرٍ ثِيثٍ﴾ ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي﴾ وَلِسَانُ النَّبِيِّ عَرَبِيٌّ. فَكَيْفَ قَهَمَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ وَهَذَا مِنْ هَذَا؟ وَلِسَانُ هَذَا غَيْرُ لِسَانِ هَذَا. وَمَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّهُ كَانَ يَخْلِسُ إِلَى غِلَامٍ، يُقَالُ لَهُ كَذَا، وَهُوَ يَهُودِيٌّ، يَقْرَأُ التَّوْرَةَ، فَيَسْتَمِعُ إِلَى قِرَائَتِهِ، وَكَانَ يُعَلِّمُهُ الْإِسْلَامَ حَتَّى اسْلَمَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ قَرِيشٌ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾. وَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُ الْإِسْلَامَ، فَاسْلَمَ، فَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ قَهَمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِنْهُ لِسَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِسَانَهُ غَيْرُ لِسَانِهِ عَلَى مَا أَخْبَرَ؟ لَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ حِينَ^(٣) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] ثُمَّ يَقُولُونَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ فنقول، والله أعلم، إنه كيف عَلَّمَهُ هَذَا الْقُرْآنَ، وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مِنْ لِسَانِهِ إِلَّا سِيراً مِنْهُ، فَانْتَمَ لِسَانُكُمْ عَرَبِيٌّ، لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا بِآيَةٍ. فَكَيْفَ قَدَّرَ عَلَى مِثْلِهِ مَنْ لَا يَفْهَمُ لِسَانَهُ، وَلَا كَانَ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ. يُخْرِجُ ذَلِكَ عَلَى الْاِخْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ.

وَيَعْدُ فَإِنَّ فِي قَوْلِهِمْ ظَاهِرَ التَّنَاقُضِ، لَأَنَّهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ثُمَّ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ فَالَّذِي عَلَّمَهُ غَيْرُهُ، لَيْسَ بِمُفْتَرٍ، إِنَّمَا يَكُونُ الْإِفْتِرَاءُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ. فَهُوَ ظَاهِرُ التَّنَاقُضِ.

وقوله تعالى: ﴿عَصْرٍ ثِيثٍ﴾ يَحْتَمِلُ مُبَيِّنٌ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، أَوْ مُبَيِّنٌ لِلْحَقُوقِ الَّتِي لَهَا عَلَيْهِمْ وَمَا لِيَنْغُضِيَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، أَوْ مُبَيِّنٌ أَنَّهُ^(٤) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَزَلَ، لَيْسَ بِمُفْتَرٍ.

وهذه الآية تُرَدُّ عَلَى الْبَاطِنِيَّةِ قَوْلُهُمْ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَلْفَ هَذَا الْقُرْآنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَذَا اللَّسَانِ. فَلَرَّ كَانَ عَلَى مَا ذَكَرُوا مَا كَانَ لِأَوَّلِكَ ادِّعَاءُ مَا ادَّعَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ.

(١) من م، في الأصل: هذا. (٢) في الأصل: وم: حيث. (٣) في الأصل: وم: حيث. (٤) أدرج قبلها في الأصل: وم: أي بين.

وقوله تعالى: ﴿يَلْحِذُوا لِيَتِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَمِيلُونَ إِلَيْهِ، وهو قول أبي عَوَسَجَةَ وَالْقُتَيْبِيِّ. قالوا: الإلحاض الميلُ، ولذلك سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحْدًا لِمِيلِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الْقَبْرِ. وقال الكيساني: هو مِنَ الرُّكُونِ إِلَيْهِ، أي يركنون.

الآية ١٠٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُ، وَاللَّهُ، مَنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، فهو ليس بِمُهْتَدٍ عِنْدَ اللَّهِ. وقال أبو بكر: ﴿لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ﴾ بتكذيبهم الآيات، فهو كُلُّ خَبَالٍ عَلَى كُلِّ مَنْ يُشْكِلُ، وَيُخْفِي؛ أي مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ فهو غَيْرُ مُهْتَدٍ، وَمَنْ يَظُنُّ هَذَا. وقول أبي بكر أيضاً: مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يَهْدِيهِ فهذا ^(١) فاسدٌ، خَبَالٌ كُلُّهُ.

وأصله عندنا قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ﴾ [لِعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَانِدُونَ آيَاتِ اللَّهِ، وَيُكَابِرُونَهَا، وَيُكَذِّبُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهَا آيَاتٌ وَأَنَّهَا حَقٌّ. أو قَالَ ذَلِكَ [فِي قَوْمٍ] ^(٢) عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] ^(٣) يَمُوتُونَ عَلَيْهِ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ لَا يَهْدِيهِ.

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لا الذين يؤمنون بها، وَصَدَّقُونَهَا ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذين كَذَّبُواهَا ﴿هُمْ﴾ الْكَافِرِينَ.

الآية ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما ^(٤): ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ فِي زَعْمِ الْمُكْرَهِ لِأَنَّهُ أَكْرَهَهُ بِهِ؛ فِي زَعْمِهِ [أَنَّهُ] ^(٥) كَافِرٌ بِاللَّهِ لِطَلَبِهِ ذَلِكَ مِنْهُ، وهو كقولِهِ: ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْإِيمَانِ﴾ [الصافات: ٩١] فِي زَعْمِهِمْ [أَنَّهَا آلِهَةٌ، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ] ^(٦) وكقولِهِ: ﴿وَأَنْظَرْ إِلَيْكَ إِلَهَكَ﴾ [طه: ٩٧] سَمَاءُ إِلَهًا لِأَنَّهُ [إِلَهٌ] ^(٧) فِي زَعْمِ السَّامِرِيِّ.

والثاني: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ شَارِحاً صَدْرَهُ بِالْكَفْرِ، فهو ^(٨) الْكَافِرُ بِهِ. وَأَمَّا مَنْ أَظْهَرَ الْكُفْرَ بِلِسَانِهِ بِالْإِكْرَاءِ، وَقَلْبُهُ مُعْتَقِدٌ بِالْإِيمَانِ عَلَى مَا كَانَ مُظْمَئاً بِهِ، فهو ليس بكافرٍ.

وأصله أَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ مَذْهَباً وَدِيناً فَإِنَّهُ يَعْتَقِدُهُ بِخَصَالٍ ثَلَاثٍ:

أحدها: يَقْلُدُ آخَرَ لَمَّا رَأَى أَنْبَصَرَ وَأَخَذَقَ وَأَعْلَمَ فِيهِ، وهو لَا يَتْلُغُ ذَلِكَ، فَيَقْلُدُهُ لِفَضْلِ بَصَرِهِ وَعِلْمِهِ فِيهِ وَرَأْيِهِ.

والثاني: يَعْتَقِدُهُ ^(٩) لِلشُّبْهَةِ لِمَا يَرَى عِنْدَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ، فَيَعْتَقِدُهُ لَتِلْكَ الشُّبْهَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

والثالث: يَتَضَيَّعُ لَهُ الْحَقُّ، فَيَعْتَقِدُهُ.

فهذه الوجوه الثلاثة يَعْتَقِدُ مَنْ يَعْتَقِدُ [دِيناً وَمَذْهَباً. فَأَمَّا أَنْ يَعْتَقِدَ] ^(١٠) الْإِنْسَانُ مَذْهَباً مَجَاناً عَلَى الْجُزْأِ [فلا، فإذا] ^(١١) كَانَ إِظْهَارُ كُفْرٍ هَذَا لِإِكْرَاءٍ مِنْ أَكْرَهَةٍ لَمْ يَصِرْ كَافِراً.

وأصله أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْكَفَرَ إِنَّمَا يَكُونَانِ بِالْإِخْتِيَارِ. فَالْإِكْرَاءُ يُزِيلُ الْإِخْتِيَارَ الْخِيَارَ الْكُفْرَ. لِذَلِكَ يَبْقَى عَلَى الْإِيمَانِ عَلَى مَا كَانَ لِمَا لَمْ يُوْجَدْ مِنْهُ اخْتِيَارُ الْكُفْرِ.

فإن قيل: أليس أمرنا أَنْ نُقَاتِلَ أَهْلَ الْكُفْرِ لِيُسْلِمُوا، وَذَلِكَ إِسْلَامٌ بِإِكْرَاءٍ، وَعَلَى ذَلِكَ نَطَقَ الْكِتَابُ، وهو قوله: ﴿تَقَاتِلُوهُمْ أَوْ بُسِّلُوهُمْ﴾ [الفتح: ١٦] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري ٢٥] ثم إذا اسْلَمَ لِخَوْفِ السَّيْفِ كَانَ إِسْلَامُهُ إِسْلَاماً فِي الظَّاهِرِ؟ مَا مَنَعَ كَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ، فَاجْرَى كَلِمَةُ الْكُفْرِ، فَكَانَ ^(١٢) كُفْرُهُ كُفْراً فِي الظَّاهِرِ، فَيُحْكَمُ بِحُكْمِهِ كَمَا حُكِمَ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى الْإِكْرَاءِ، فَمَا الْفَرْقُ فِيهِ؟

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: لقوم. (٣) ساقطة من م. (٤) أدرج قبلها في الأصل: ذكر من كفر بالله، وأدرج قبلها في م: حيث ذكر كفر بالله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لأنهم لم يكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فلانا إذا. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

قيل: كذلك كان يحيى، إلا أن الله تعالى عفا عباده عن ذلك، فأبقاهم على الإيمان وحكمه، وإن أظهروا بلسانهم كلام الكفر بعد أن تكون قلوبهم مطمئنة بذلك فضلاً منه ونعمة.. وإلا القياس أن يحكم الكفر إذا تكلم بكلام الكفر. وأما الطلاق والعناق والتكاح [ونحو ذلك فظاهراً^(١)] على ما تكلم به عامل واقع؛ لأن الطلاق والعناق ونحوهما مما تعلق بالكلام نفسه لا غيره، فهو، وإن أكره على ذلك فهو مختار للتكلم به، قاصد^(٢) له؛ لأن المكره لو أحب أن يستعمل لسانه بالتكلم بما ذكر ما قدر عليه. دل أنه على الاختيار يتكلم.

وأما البيع والشراء [ونحوهما فلم يتعلقا^(٣)] بالكلام نفسه، إذ قد يكون الأخذ والتسليم دون التكلم به. لذلك عمل الإكراه في إبطاله [وإبقى المكره^(٤)] على الإيمان وحكمه، وإن أظهر بلسانه كلام الكفر بعد أن يكون قلبه مطمئناً بذلك. وعلى ذلك ما روي عن نبي الله ﷺ حين^(٥) قال: «وُضِعَ عَنْ أَمْتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» [ابن ماجه ٢٠٤٥] وذلك في الكفر، ليس في غيره، لأن الإكراه على الكفر كان ظاهراً يومئذ ولم يكن في غيره من طلاق وغيره. وأما قتالنا إياهم ليسلّموا فهو يختل [وجهين]:

أحدهما^(٦): على المجازاة كقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُوا الْمُشْرِكِينَ لَكُمْ كَأْفٌ مِّمَّا يُفْتَلُونَكُمْ كَأْفٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فنقاتلهم ليظهروا على الإسلام، وإن لم تُعرف حقيقته على المجازاة.

والثاني: قبلنا منهم الإسلام على الإكراه لنقربهم^(٧) ٢٩٣ - ب/ في ما بين المسلمين، فيرون الإسلام، ويتعلمون منهم حقيقته.

الآ ترى أنه قال: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ سَمَاهُنَّ مومنات، ثم أمرنا بامتحانهن بقوله: ﴿فَأْتِجُوهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠] فإنما يُمتَحَنُ لِيُظْهَرَ حَقِيقَةُ إِيْمَانِهِنَّ، وإلا لم [يكن]^(٨) للامتحان معنى لولا ذلك.

وأضله أن الله جعل حقيقة الإيمان والكفر بالقلب دون اللسان وغيره من الجوارح، لأن غيره من الجوارح يجوز استعماله^(٩) بالإكراه. وأما القلب فإنه لا يملك أحد سواه استعماله، وذلك لفضله ومثله [وقوله تعالى^(١٠)]: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ فهو كافر به إن كان ذلك على الإكراه لما ذكرنا أنه باختياره^(١١) الكفر ينشئ له الصدر لما لا يعمل^(١٢) الإكراه على القلب ﴿فَعَلَيْهِنَّ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُنَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ظاهر.

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي ذلك الغضب والعذاب ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختل وجهين:

أحدهما: ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ جُحُوداً وَإِنْكَاراً. وإلا نفس الاستحباب قد يكون من المومنين، فلا يزول عنه اسم الإيمان كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّكْرُ﴾ مَأْتُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلى قوله ﴿أَرْضِيْشُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] فلم يزَلْ عنهم اسم الإيمان باختيارهم واستحبابهم الحياة الدنيا. فدل أن الأول على الجُحُودِ لَهُ وَإِنْكَارِ، وهذا على الميل إليه دون الجُحُودِ.

والثاني^(١٣): أن يكون كذلك لما لم يروا الآخرة كائنة، لا محالة، ظناً ظنوا لعلها كائنة كقولهم: ﴿إِنْ نَقُتْ إِلَّا عُنَا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وأما أهل الإسلام، لم يكونوا فيها ظانين شاكين، ولكن متحققين مستيقنين، فاستحقوا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وقت اختيارهم الكفر، وأن الله لا يهدي القوم المختارين الكفر على الإيمان. وقال ذلك ليقوم، علم الله أنهم يختارون الكفر، وأنهم يموتون على الكفر، فلا يهديهم.

(١) في الأصل وم: ونحوه ظاهر. (٢) في الأصل وم: قاصداً. (٣) في الأصل وم: ونحوه لم يتعلق. (٤) في الأصل وم: وأبقاهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وجوها. (٧) في الأصل وم: لنقروهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: استعمالها. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الهاء ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يعلم. (١٣) في الأصل وم: أو.

الآية ١٠٨ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَتَتَذَكَّرُ بِهِمُ الطَّبْعُ هُوَ التَّغْطِيَةُ؛ تَغْطِي ظُلْمَةُ الْكُفْرِ نُورَ الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ وَنُورَ الْبَصَرِ؛ كَانَ لِكُلِّ أَحَدٍ نُورَيْنِ وَبَصَرَيْنِ: ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، يُبْصِرُ بِهَا جَمِيعاً إِذَا ذَهَبَ أَحَدُهُمَا، أَوْ عَمِيَ، صَارَ لَا يُبْصِرُ كَمَنْ يُبْصِرُ بِبَصَرِ الظَّاهِرِ، إِنَّمَا يُبْصِرُ بِنُورِ بَصَرِهِ وَنُورِ الْهَوَاءِ: إِذَا دَخَلَ فِي أَحَدِهِمَا أَتَتْ ذَهَبَ الْإِنْفَاعُ، وَصَارَ لَا يُبْصِرُ شَيْئاً. فَعَلَىٰ ذَلِكَ. لِلْقَلْبِ بَصَرٌ خَفِيٌّ، وَبَصَرٌ ظَاهِرٌ: الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ. فَإِنَّمَا يُبْصِرُ بِهِمَا. إِذَا غَطَّتْ ظُلْمَةُ الْكُفْرِ بَصَرَ الْقَلْبِ صَارَ لَا يُبْصِرُ شَيْئاً.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ ﴿فَإِنَّمَا لَا تَمَنَّى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَمَنَّى الْقُلُوبُ أَلَيْسَ فِي السُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أَخْبَرَ أَنَّ الْأَبْصَارَ الظَّاهِرَةَ لَمْ تَعَمْ، وَلَكِنْ عَمِيَتْ ﴿الْقُلُوبُ أَلَيْسَ فِي السُّدُورِ﴾؟ هَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى طَبْعِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ يَخْتَمِلُ: غَافِلِينَ^(١) عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ، وَيَحْتَمِلُ: غَافِلِينَ^(٢) عَمَّا يَحُلُّ بِهِمْ يَكْفُرِيهِمْ وَتَكْذِيبِيهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجَهُ.

الآية ١٠٩ وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا مَا قِيلَ فِيهِ: لَا بُدَّ، وَ: حَقًّا^(٣) وَقِيلَ: هُوَ حَرْفٌ وَعَبِيدٌ. ﴿لَا جَرَمَ أَتَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُمْ، وَاللَّهُ، خَسِرُوا الْجَنَّةَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ، خَسِرُوا أَهْلَهُمْ وَمَنْزِلَهُمْ الَّذِي كَانَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ قَذَفُوها فِي النَّارِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: خَسِرُوا النِّعَمَ الدَّائِمَةَ الْبَاقِيَةَ بِالزَّائِلَةِ الْفَانِيَةِ، وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ^(٤) قُتِلُوا، وَأَسِرُوا فِي الدُّنْيَا.

الآية ١١٠ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ قِيلَ: عُذِّبُوا عَلَى الْإِيمَانِ بِمَكَّةَ ﴿ثُمَّ جَنَّهُدُوا﴾ مَعَ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَصَكَّرُوا﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَنصُورُ رَجِيئاً﴾ قِيلَ: مِنْ بَعْدِ الْفِتْنَةِ ﴿لَنَنصُورُ رَجِيئاً﴾ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ ﴿رَجِيئاً﴾. ذَكَرَ [إِنَّكَ رَبَّكَ] مَرَّتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: [٥] قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [وَالثَّانِيَةِ: قَوْلُهُ: [٦] ﴿إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَنصُورُ رَجِيئاً﴾ قِيلَ: مِنْ بَعْدِ الْفِتْنَةِ، فَيَجِيءُ أَنْ يُكْتَفَى [بِوَاحِدَةٍ، يَقُولُ] [٧] ﴿لَنَنصُورُ رَجِيئاً﴾ مُوَصَّلاً بِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ﴾ فَعَلُوا مَا ذَكَرَ. لَكِنَّهُ ذَكَرَهُ^(٨) مَرَّتَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [الطَّوِيلُ الْكَلَامُ. وَيَحْتَمِلُ] [٩] ﴿لَنَنصُورُ﴾ لَهُمْ؛ يَعْنِي لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا، وَعُذِّبُوا، وَلَيَغْيِرُهُمْ.

ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، خَرَجُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَدْرَكَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لِيَرُدُّوهُمْ، فَقَاتَلُوهُمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَجَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الْآيَةَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيْضاً فِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ الْآيَةَ [الْعَنْكَبُوتُ: ١ و: ٢].

وَأَكْثَرُهُمْ قَالُوا: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] إِنَّمَا نَزَلَ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى ذَلِكَ حَاجَةٌ، إِنَّمَا الْحَاجَةُ فِي مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحُكْمِ بِهِ وَالْحِكْمَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١١ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿تُجَادِلُ﴾ أَيْ تُخَبِّرُ عَنْ نَفْسِهَا عَمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ رَهِيئةٌ بِمَا كَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ حَتَّى يَكُونَ طَائِرًا فِي عُنُقِهِ. وَلَكِنْ لَيْسَ فِي مَا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ مُجَادَلَةً؛ الْمُجَادَلَةُ الْمُخَاصَمَةُ، كَانَهَا تُخَاصِمُ عَنْ نَفْسِهَا مِنْ اِزْتِكَابِ أَشْيَاءَ وَدَعْوَى أَشْيَاءَ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِ آيَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ جَهَنَّمَ تَزْفَرُ زَفْرَةً حَتَّى لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا وَقَدْ جَثَا بِرُكْبَتَيْهِ خَوْفًا مِنْهَا. فَعِنْدَ ذَلِكَ تُجَادِلُ، وَتُخَاصِمُ كُلُّ نَفْسٍ عَنْ نَفْسِهَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: غَافِلُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: غَافِلُونَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ذَكَرَ مَا قِيلَ فِيهِ لَا بُدَّ حَقًّا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ مَرَّتَيْنِ أَحَدَهُمَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالُوا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِوَاحِدٍ يَقُولُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ.

وَيُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ مُجَادِلْتَهُمْ عَلَى غَيْرِ هَذَا؛ وهو ما ذَكَرَ ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَ رَمَاهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَيُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا لَبِئْسَ مَا لَكُمُ يَا مَعْشَرَ الْفَالِغِينَ﴾ [فصلت: ٢٠ و ٢١] فتلك مُجَادِلَتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ، وكقولوه: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكذلك ما ذَكَرَ فِي الْمُنَافِقِينَ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْخَلِفُونَ لَكُمَا يُخَلِّفُونَ لَكُمَا﴾ الآية [المجادلة: ١٨] وذلك كُلُّ مُجَادِلَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ.

أو أَنْ يُقَالَ: ﴿يُجَدِّلُ﴾ لَكِنْ لَا يُفَسِّرُ مَا تِلْكَ الْمُجَادَلَةُ؟ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا تِلْكَ الْمُجَادَلَةُ؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَقَّ كُفْرَ نَفْسٍ تَا عَمِلَتْ وَهْمٌ لَا يُظْلِمُونَ﴾ أَي تَوَقَّرْ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ، وَلَا يُنْقِصُونَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا يُزِدَادُونَ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ.

وهذه الآية تُرَدُّ عَلَى الْمُعْتَرِجَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِالتَّخْلِيدِ لِصَاحِبِ الْكِبِيرَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿وَتَوَقَّ كُفْرَ نَفْسٍ تَا عَمِلَتْ﴾ مِنْ سَوْءٍ، وَتَوَقَّرْ مَا عَمِلَتْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ.

الآية ١١٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ اخْتَلَفَ فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَفِي نَزُولِهَا: قَالَ بَعْضُهُمْ: ضَرْبَ الْمَثَلِ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَفِيهَا نَزَلَتْ بِفِرْيَاتٍ؛ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُمْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ يُحَذِّرُ أَهْلَ مَكَّةَ بِتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ نَزَلَ الْعَذَابُ بِهِمْ كَمَا نَزَلَ بِأَوَائِلِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ضَرْبَ الْمَثَلِ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ [إِذْ نَزَلَ الْعَذَابُ] ^(١) بِأَهْلِ مَكَّةَ؛ يُحَذِّرُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لِئَلَّا يُكْذِبُوا مُحَمَّدًا كَمَا كَذَّبَ أَهْلُ مَكَّةَ، فَيَحُلُّ بِهِمْ مَا ^(٢) حَلَّ بِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِالتَّكْذِيبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قِيلَ: هِيَ مَكَّةُ، وَهَكَذَا كَانَتْ مَكَّةُ؛ أَهْلُهَا كَانُوا آمِنِينَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مُطْمَئِنِّينَ، يَأْتِيهِمْ رِزْقُهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَيَحْتَمِلُ قَرْيَةً أُخْرَى غَيْرَهَا [كَأَنَّ أَهْلَهَا] ^(٣) عَلَى مَا ذَكَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ أَي كَفَرْتَ بِالشُّكْرِ لِأَنْعَمِ اللَّهِ، أَي لَمْ يَشْكُرُوهَا، لَيْسَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ اللَّبَاسُ هُوَ مَا يَسْتُرُ وَجْهَ الْجَوَاهِرِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ سَمَّى اللَّيْلَ ﴿لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧ والنبل: ١٠] لِأَمَّا سَتَرُ وَجْهَ الْأَشْيَاءِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْجُوعُ، يَرْفَعُ السَّتْرَ وَاللَّبَاسَ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الْجُوعِ؛ لِأَنَّ الْجُوعَ إِذَا اشْتَدَّ غَيَّرَ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَزَفَعَ يَسْرَهُ. وَالْخَوْفُ: مَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ جُوعٌ حَتَّى أَكَلُوا الْكِلَابَ وَالْحَيْتَ وَالْعِظَامَ الْمُخْتَرِقَةَ. وَالْخَوْفُ: ذَكَرَ أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ/ ٢٩٤ - ١/ شَهْرَيْنِ؟» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] وَقِيلَ: الْخَوْفُ: الْقَتْلُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَعَدًا﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ: أَرَعَدَ الرَّجُلُ إِذَا أَصَابَ مَا لَا أَوْ عِشَاءَ مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ وَكَدٍّ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ ﴿رَعَدًا﴾ أَي كَثِيرًا وَاسِعًا.

الآية ١١٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ أَي [مِنْ] ^(٤) أَنْفُسِهِمْ، مِنْ نَسَبِهِمْ وَحَسَبِهِمْ، يَغْرِفُونَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿يَغْرِفُونَهُ كَمَا يَغْرِفُونَ أَنْبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٥): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بِالتَّكْذِيبِ حِينَ ^(٦) وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ ﴿ظَالِمُونَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. أَخْبَرَ أَنَّهُ بَعَثَ الرَّسُولَ مِنْ جَنْسِهِمْ وَمِنْ حَسَبِهِمْ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِهِمْ لَمْ تَظْهَرْ لَهُمُ الْآيَةُ مِنْ غَيْرِ الْآيَةِ، وَلَا الْحُجَّةُ مِنَ الشُّبْهَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَلَى غَيْرِ الْمُتَعَادِ وَالطُّوْقِ عَرَفُوا أَنَّهُ آيَةٌ، وَأَنَّهُ حُجَّةٌ؛ إِذْ لَا يَغْرِفُونَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِمْ نَزَلَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَمَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانُوا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِهِمُ الْخَارِجِ عَنِ الْمُعْتَادِ وَالطَّوْقِ [وَيَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِهِمْ]^(١) وكذلك يُعْرِفُ صِدْقُ مَنْ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مِنْ كَذِبِهِ، وَلَا يُعْرِفُ إِذَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ.

الآية ١١٤

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَلَالُ وَالطَّيِّبُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْحَلَالُ؛ كَانَهُ قَالَ: كُلُوا مِمَّا أَحَلَّ لَكُمْ اللَّهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّكِمُوا مَا مَلَابَتْ لَكُمْ مِنَ السَّاءِ﴾ [النساء: ٣].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَلَلًا طَيِّبًا﴾ أَي حَلَالًا، يَطِيبُ لَكُمْ مَا تَتَلَذَّدُونَ بِهِ [لَأَنَّ مِنَ الْحَلَالِ مَا لَا تَتَلَذَّدُ بِهِ]^(٢) وَلَا تَسْتَطِيبُ، بَلْ تَكْرَهُهُ. [وَيَحْتَمِلُ]^(٣) قَوْلُهُ: ﴿طَيِّبًا﴾ تَسْتَطِيبُهُ^(٤) أَنْفُسُكُمْ، وَتَتَلَذَّدُ بِهِ، لَا مَا تَسْتَخْبِثُ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ غِذَاءَ الْبَشَرِ مَا هُوَ أَطْيَبُ وَالَّذِ، وَجَعَلَ لِلْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ مَا هُوَ أَحَبُّ وَأَخْشَنُ لِأَنَّ مَا هُوَ أَطْيَبُ أَدْعَى لِلشُّكْرِ لَهُ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ لَا تَبِعَةَ عَلَيْكُمْ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ [أَنَّهُ]^(٥) قَدْ يَرِزُقُ مَا يَحْبُبُ، وَلَا يَحِلُّ، عَلَى مَا يَخْتَارُهُ حِينَ^(٦) شَرَطَ فِيهِ الْحَلَالَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ﴾ الشُّكْرُ لَهُ عَلَيْهِمْ لَازِمٌ، وَإِنْ لَمْ يَعْْبُدُوا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [الأنفال: ١] طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ وَاجِبَةٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. أَوْ يَقُولُ: وَجْهًا شُكْرَ نِعْمِهِ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ عَابِدِينَ^(٧) لَهُ بِجَهَةٍ؛ أَيِ أَفْعَلُوا الْعِبَادَةَ لَهُ وَالشُّكْرَ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا.

الآية ١١٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ﴾ أَيِ حَرَّمَ أَكْلَ الْمَيْتَةِ وَمَا ذَكَرَ، كَانَهُ قَالَ هَذَا، وَذَكَرَ عَلَى إِثْرِ تَحْرِيمِهِمْ أَشْيَاءَ أَحَلَّ لَهُمْ نَحْوَ مَا حَرَّمَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَشْيَاءَ أَحَلَّ لَهُمْ مِنَ الزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ وَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَمَا ذَكَرَ، فَقَالَ: لَمْ يُحَرِّمْ ذَاكَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا حَرَّمَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمَ وَلَحْمِ الْخَيْزِرِ وَنَحْوَهُ عَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُخَرَّجَ تَأْوِيلُهُ، وَإِنَّمَا عَلَى الْإِتِّدَاءِ فَإِنَّهُ يَتَعَدَّى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ عَلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَهُوَ الشُّبْحُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَلَا عَاوٍ﴾ عَلَيْهِ^(٨).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ يَسْتَحِلُّهُ فِي دِينِهِ ﴿وَلَا عَاوٍ﴾ وَلَا مُتَعَدٍّ فِي أَكْلِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مُفَارِقَ لِجَمَاعَتِهِمْ مُشَاقٌّ لَهُمْ ﴿وَلَا عَاوٍ﴾ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ^(٩). وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ وَأَقَابِيلَهُمْ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُهُ عِنْدَنَا ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ عَلَى الْمُسْلِمِينَ سِوَى دَفْعِ الْإِهْلَاكِ عَنْ نَفْسِهِ ﴿وَلَا عَاوٍ﴾ مُتَعَدٍّ وَمُتَجَاوِزٍ اضْطِرَارَّهُ. وَلَا يَحْتَمِلُ مَا قَالَهُ بَعْضُ النَّاسِ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ عَلَى النَّاسِ وَلَا مُتَعَدٍّ عَلَيْهِمْ لِوُجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ الْبَغْيَ عَلَى النَّاسِ فِي حَالِ الْاضْطِرَارِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالْحَالُ مَا ذَكَرَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ، وَإِنْ كَانَ بَاغِيًّا عَلَى مَا ذَكَرُوا [لَوْ]^(١٠) لَمْ يُبَحِّ لُهُ التَّأَوُّلُ مِنَ الْمَيْتَةِ، يَكُونُ بَاغِيًّا عَلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَأَوَّلْ مَلَكَتْ نَفْسُهُ، فَيَصِيرُ بَاغِيًّا عَلَى نَفْسِهِ. فَدَلَّ أَنَّهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

الآية ١١٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يَحْتَمِلُ: أَيِ: لَا تَعُودُوا إِلَى مَا وَصَفْتُمُ السُّنَّتُكُمُ مِنَ الْكَذِبِ ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وَ^(١١) لَا تَقُولُوا الْكَذِبَ الَّذِي [تَصِفُ]^(١٢) السُّنَّتُكُمُ ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ]^(١٣) قَالَ: لَا تَقُولُوا لِمَا أَخْلَلْتُمُوهُ ﴿هَذَا حَلَلٌ﴾ وَلِمَا حَرَّمْتُمُوهُ ﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ رِزْقِي﴾ [يونس: ٥٩].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِهِ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَسْتَطِيبُ لَهُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَابِدُونَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَفْهِمُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَنْ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وفي هذه الآية دلالة الآيسع لأحد أن يقول: هذا مما أحله الله، وهذا مما حرّمه الله إلا بإذن من الله ومن يقل^(١) بأن الأشياء في الأصل على الإباحة أو على الحظر فهو مُفْتَرٍ بذلك على الله الكذب لأن الله لم يأذن له أن يقول ذلك، بل نهاه عن ذلك مما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِنَقْرَأْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ أي: تكونون^(٢) مُفْتَرِينَ على الله الكذب إذا قلتم هذا. فإن قيل: كيف سَمَّاهُم مُفْتَرِينَ على الله بِتَسْمِيَتِهِمُ الحرام حلالاً والحلال حراماً؟ قيل: لأن التحليل والتحريم والأمر والنهي رُبُوبِيَّةٌ، فإذا حرّموا شيئاً أحله الله، وأحلّوا شيئاً حرّمه الله، فكأنهم على الله افتروا أنه حرّم، أو أحلّ، أو حرّموا هم، أو أحلّوا، فاضافوا ذلك إلى الله تعالى أنه هو الذي حرّم، أو أحلّ، فقد افتروا على الله لأن من أحل شيئاً، حرّمه الله، أو حرّم شيئاً، أحله الله، فقد كفّر. وليس من انتفع بالمحرّم، أو ترك الانتفاع بالمحلّل كافراً^(٣)، إنما يصير أتماً مُجْريماً، وكذلك تارك الأمر ومُرْتَكِبُ النَّهْيِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في تحليل ما حرّم الله عليهم وفي تحريم ما أحله وقولهم: ﴿وَاللَّهُ أَعَزُّ مِنَّا﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْلِحُونَ﴾ أي ﴿لَا يَقْلِحُونَ﴾ وهم مُفْتَرُونَ على الله، وأما إذا انتزعوا [أنفسهم]^(٤) من الإفتراء، وتابوا، أفلحوا. أو ﴿لَا يَقْلِحُونَ﴾ في الآخرة إذا كانوا مُفْتَرِينَ على الله في الدنيا.

الآية ١١٧ ثم قوله تعالى: ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ على الابتداء. وإنما سَمِيَ قليلاً، والله أعلم، لوجوه:

أحدها: أن متاع الدنيا على الزوال والانقطاع. فكل ما كان على شرف الزوال والانقطاع فهو قليل كما قيل: كل آت قريب لما يأتي، لا محالة. فعلى ذلك: كل زائل مُقْطَع قريب.

والثاني: سَمِيَ قليلاً لما هو مشوب بالآفات والأحزان وأنواع البلايا والشدائد، فهو قليل في الحقيقة.

والثالث^(٥): سَمَّاهُ قليلاً لما أن متاع الدنيا قليل عمّا وعد في الآخرة؛ فمتاعها من متاع الآخرة قليل، لما ليس فيها الوجهة التي ذكرنا، والله أعلم.

الآية ١١٨ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو ما قصّ في سورة الأنعام، وهو قوله ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُعُومَهُمَا﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الآية: ١٤٦] وقوله: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية [النساء: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ما حرّمنا عليهم لأننا إنما حرّمنا عليهم تلك الطيبات عقوبة لهم وجزاء لِبَغْيِهِمْ، وهو ما قال في سورة النساء، وهو قوله ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية [الآية: ١٦٠] وهو ما قال ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أخبر أنه إنما [حرّم]^(٦) عليهم ذلك بظلم كان منهم عقوبة وجزاء لِبَغْيِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في ذلك.

أو يكون قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ لأنهم عبّده وإماءه، ولله أن يمتحن عباده وإماءه بتحريم مرة وتحليل ثانياً، ولكن ظلّموا أنفسهم حين^(٧) وجّوها إلى غير ما ليكها، أو صرّفوا شكر ما أنعم عليهم إلى غيره.

الآية ١١٩ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾: [عمل السوء بجهالة]^(٨) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن الفعل فعل جاهل وسفيه، وإن لم يجهل يقل^(٩) لمن عمل السوء: يا جاهل، يا سفيه.

والثاني: جعل ما يحلّ به بعمله السوء ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ إلى آخره يَجِيءُ أن يكون في الآية إضمار، لم يذكره^(١٠)، لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ ثم كرّر ذلك

(١) في الأصل وم: يقول. (٢) في الأصل وم: تكونوا. (٣) في الأصل وم: كفرا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أي عمل السوء بجهالة و. (٩) في الأصل وم: يقال. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم.

الْحَرَفَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ ذَكَرَ لَهُ جَوَاباً^(١)، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للذين عملوا السوء بجهالة ﴿مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ فظاهر الكلام أن يقول: ثم/ ٢٩٤ - ب/ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا ﴿مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ على ما ذكرنا في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية [النحل: ١١٠] لكن يُخْرِجُ عَلَى الْإِضْمَارِ أَوْ عَلَى التَّكَرُّارِ عَلَى إِرَادَةِ التَّأَكِيدِ أَوْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِكْتِفَاءِ بِجَوَابِ ذِكْرِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ^(٢): ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] هذا، والله أعلم، جواب. أي إِنَّ رَبَّكَ بَعْدَ التَّوْبَةِ ﴿لَعَفُورٌ رَجِيمٌ﴾ فهو قَبْلُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلِ السُّوءِ. وَالْعَرَبُ قَدْ تَكَرَّرَ أَشْيَاءٌ عَلَى إِرَادَةِ التَّأَكِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٠

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: الْأُمَّةُ الَّذِي يُغْلِبُ النَّاسَ الْخَيْرُ، وَالْقَانِتُ الْمُطِيعُ لِلَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أُمَّةً قَانِتًا﴾ أَي مُؤْمِنًا وَحَدَهُ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ كَفَّارٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أَي إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي كُلِّ خَيْرٍ كَقَوْلِهِ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانَ إِمَامًا أَي سُنَّةً يُقْتَدَى بِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَمَاءُ أُمَّةٍ [لِمَا كَانَ كَالْأُمَّةِ]^(٣) وَالْجَمَاعَةُ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى^(٤) الْأَعْدَاءِ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مُنْفَرِدًا وَحَدَهُ [كَانَ قِيَامُهُ عَلَى]^(٥) الْأَعْدَاءِ وَالْأَكَابِرِ مِنْهُمْ كَالْجَمَاعَةِ وَالْعَدُوِّ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أَي مَجْمَعٌ كُلِّ خَيْرٍ وَكُلِّ طَاعَةٍ لِمَا عَمِلَ هُوَ مِنَ الْخَيْرِ عَمَلِ الْجَمَاعَةِ، وَاجْتَمَعَ فِيهِ كُلُّ خَيْرٍ، فَسَمَاءُ^(٦) أُمَّةٍ لِهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا. أَوْ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُ الْأُمَّةِ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثَرِهِ ﴿قَانِتًا لِلَّهِ خَائِفًا﴾ وَالْقَانِتُ: قِيلَ: الْمُطِيعُ، وَالْقُنُوتُ كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ سُئِلَ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]^(٧) عَنْ أَفْضَلِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «طَوَّلُ الْقُنُوتِ» [مسلم ٧٥٦/١٦٤] أَي طَوَّلُ الْقِيَامِ. فَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْقَانِتُ لِلَّهِ فِي كُلِّ مَا تَعَبَّدَهُ، وَأَمَرَهُ بِهِ.

وقيل: ﴿أُمَّةً﴾ أَي دِينًا لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢ و...]. أَي دِينُكُمْ دِينًا وَاحِدًا.

وقوله تعالى: ﴿خَائِفًا﴾ قِيلَ: [الْحَنِيفُ]^(٨) الْحَاجُّ، وَقِيلَ: الْحَنِيفُ الْمُسْلِمُ، وَقِيلَ: الْمُخْلِصُ، وَفِيهِ [عَلِيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]^(٩) كُلُّ ذَلِكَ؛ كَانَ حَاجًّا مُسْلِمًا مُخْلِصًا لِلَّهِ.

وَأَصْلُ الْحَنِيفِ^(١٠) الْمَيْلُ أَي كَانَ مَائِلًا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَمَا تَعَبَّدَهُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ هَذَا^(١١) لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَا ادَّعَى كُلُّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ، وَانْتَسَبَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ إِلَيْهِ، فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، وَاخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧].

وَالثَّانِي: ذَكَرَ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و: ٧٧ و: ٧٨] لِأَنَّهُ هُوَ قَالَ^(١٢) ذَلِكَ عَنْهُ عَلَى ظَاهِرٍ مَا نَطَقَ، وَكَانَ^(١٣) ذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ إِشْرَاكَ، فَبَرَأَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَاخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ إِشْرَاكَ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُحَاجَّةِ خَرَجَ ذَلِكَ مِنْهُ مُحَاجَّةً قَوْمِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ جَنَّاتٍ مَانِعَاتٍ إِتْرَاهِيَةَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢١

وقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أَي [لِلم] ^(١٥) يَضْرِفُ شُكْرَ نِعَمِهِ إِلَى غَيْرِ الْمُنْعِمِ بَلْ صَرَفَ شُكْرَهَا إِلَى مُنْعِمِهَا. وَالشُّكْرُ فِي الشَّاهِدِ هُوَ الْمَكَافَأَةُ، وَلَا يَبْلُغُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ الْمَرْتَبَةَ الَّتِي يُكَافِئُ اللَّهُ فِي أَضْعَافٍ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ، وَلَا يَقْتَرِفُ أَحَدٌ عَنْ آدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ^(١٦) فَضْلًا أَنْ يَقْتَرِفَ لِمُكَافَاتِهِ.

لَكِنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ وَمَنْهُ سَمَّى ذَلِكَ شُكْرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ شُكْرًا كَمَا ذَكَرَ الصَّدَقَةُ الَّتِي يَتَصَدَّقُ بِهَا الْعَبْدُ إِقْرَاضًا

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: جَوَاب. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: ثُمَّ قَالَ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ فِي الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: مَعَ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: فَكَانَ قِيَامُهُ مَعَ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: فَسَى. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: هَذِينَ. (١١) فِي الْأَصْلِ رَم: هَذِينَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ رَم: كَانَ. (١٣) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ رَم: شَبَه. (١٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٦) فِي الْأَصْلِ رَم: عَلَيْهِ.

كما سَمَّى تَسْلِيمَهُ نَفْسَهُ وَبَذَلَهَا^(١) لِأَمْرِ اللَّهِ شِرَاءً، وَإِنْ كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ، وَلَا يَطْلُبُ الْمَرْءُ فِي الْعُرْفِ الْقَرْضَ مِنْ عَبْدِهِ، وَكَذَلِكَ الشِّرَاءُ. لَكِنَّهُ يُلْطَفُ عَامِلَ عِبَادَةٍ مُعَامَلَةً مَنْ لَا مُلْكَ لَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ فِي تَسْمِيَةِ الشُّكْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَجَبْتُهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لِرِسَالَتِهِ وَتَوْثِيهِ أَوْ اجْتِبَاءَهُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ الْقَوْمِ، وَجَعَلَهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيماً﴾ [الأنعام: ١٦٦].

الآية ١٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الثَّناء الْحَسَنَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ يَقُولُونَ، وَيَرْضَوْنَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَيَّ مَا آتَاهُ اللَّهُ إِلَّا حَسَنَةً عَلَى مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أَيَّ مَا تَأْتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً آتِنَا كُلَّهَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿حَسَنَةً﴾ إِنَّمَا هِيَ اسْمُ حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عِنْدَ قَبْضِ رُوحِهِ أَيَّ عَلَى الْحَسَنَةِ قَبْضِ رُوحَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لِنَصِيبٍ﴾ أَيَّ لَمْ يُنْقِضْ مَا آتَاهُ فِي الدُّنْيَا عَمَّا يُؤْتِيهِ فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الثَّبُوتُ وَالرَّسَالَةُ. أَوْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَبَيِّنِ الْحَسَنَةَ الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهُ آتَاهَا إِيَّاهُ، لَكِنَّهُ [خَصَّهُ بِهَا]^(٢) كَمَا هُوَ خُصٌّ فِي قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ» [البخاري ٦٣٥٧] قَدْ كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ مَعْنَى، خَصَّ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣٣ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِكَ أَنْتَجِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ أَيَّ دِينَ إِبْرَاهِيمَ وَسَبِيلَهُ. وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ، يَوْمَ التَّوْبَةِ، فَرَأَى بِهِ إِلَىٰ مَنَى، فَعَلَّمَهُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا، وَأَرَاهُ إِيَّاهَا^(٣)، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أَنْتَجِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فَتَحَنَّنَ أَمْرَنَا أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُ فِي الْحَقِّ وَفِي غَيْرِهِ.

وَأَضَلَّ الْمِلَّةَ الدِّينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ» [الترمذي ٢١٠٨] أَيَّ أَهْلَ دِينَيْنِ.

الآية ١٣٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتِلَافُهُمْ فِي^(٤) ذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَتَفَرَّغُوا فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا لِلْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَيَتَزَعَّوْا فِيهِ عَمَلَ دُنْيَاهُمْ، فَقَالُوا: تَتَفَرَّغُ يَوْمَ السَّبْتِ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ يَوْمَ السَّبْتِ شَيْئاً. فَقَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ: انظُرُوا إِلَىٰ مَا يَأْمُرُكُمْ نَبِيُّكُمْ، فَخَذُوا بِهِ، فَذَلِكَ اخْتِلَافُهُمْ، فَجَعَلَ لَهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَىٰ مَا سَالُوا، فَاسْتَحَلُّوا فِيهِ الْمَعَاصِيَ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلَ فِيهِ عِقَاباً لَهُمْ.

وقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أَيَّ إِنَّمَا لُعِنُوا^(٥) فِي السَّبْتِ، فَمُسِيخُوا قِرْدَةً ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وَكَانَ اخْتِلَافُهُمْ أَنَّهُ حَرَّمَ بَعْضُهُمْ، وَاسْتَحَلَّهُ بَعْضٌ.

وقَالَ أَبُو بَكْرٍ: اخْتِلَافُهُمْ كَانَ فِي تَكْذِيبِ الرِّسْلِ وَالْأَنْبِيَاءِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّقَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَ، فَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ عِقَاباً، أَوْ يَكُونُ اخْتِلَافُهُمْ مَا سَالُوا مُوسَىٰ مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَةِ وَالْأَسْئَلَةِ الْوَحْشِيَّةِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ. حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥] وَكَقَوْلِهِمْ^(٦): ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وَنَحْوَهُمَا^(٧) بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ [مَا]^(٨) كَانَتْ لَهُمْ فِيهَا كِفَايَةٌ.

فَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ اخْتِلَافُهُمْ الَّذِي ذَكَرَهُ^(٩) ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَذَلَهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: خَصَّ بِهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِيَّاهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَعَنَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

أَحَدُهُمَا: إِنَّمَا جَعَلَ [السَّبَبَ مِخْنَةً] ^(١) عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، أَي عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا فِيهِ حِينَ ^(٢) قَالَ: ﴿يَمَّا كَانُوا يَسْأَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

والثاني: إِنَّمَا جَعَلَ عقوبة السبب على الذين اعتدوا فيه دون الذين اختلفوا فيه؛ لأن فريقاً منهم، قد نهوهم عن ذلك، وفريقاً قد اعتدوا، فأهلك الذين اعتدوا دون الذين نهوهم.

وقوله تعالى: ﴿اٰخْتَلَفُوْا فِيْهِ﴾ عُرِيبُوا فِيهِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يحكم بينهم بالجزاء، ويحكم بما بين لهم المحق من المبطل، خيب فريقاً، وأنجى فريقاً. فكيف قال: ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الآية ^(٣)؟ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِالْجَزَاءِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

الآية ١٢٥

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ قيل: دين ربك ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَيِ ادْعُهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِالْقُرْآنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ ٢٩٥ - أ / بِالْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ، أَيِ ادْعُهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِالْحُجَجِ وَالْبِرَاهِينِ، أَيِ الزِّمْمِ دِينَ اللَّهِ بِالْحُجَجِ وَالْبِرَاهِينِ حَتَّى يُقِرُّوا بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَيِ عِظْهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الَّتِي وَعَظَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكِتَابِ.

وقال أبو بكر: أَيِ ذَكَرْهُمْ النِّعَمَ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ ﴿وَحَدِّدْ لَهُمْ بِآلَتِي مِنْ أَحْسَنَ﴾ أَيِ جَادِلْهُمْ أَحْسَنَ الْمُجَادَلَةِ بِلِسَانِ الْقَوْلِ وَخَفِضِ الْجَانِبِ وَالْجَنَاحِ، لَعَلَّهُمْ يَقْبَلُونَ [دين الله] ^(٤) وَيَخْضَعُونَ لِرَبِّهِمْ.

وكذلك اختلفوا في قوله: ﴿وَإِذَا عَلَّمْتَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿لَمَّا تَأْتِيَكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٨١].

قَالَ الْحَسَنُ: الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَاحِدٌ اسْمٌ مُثْنًى، وَهُوَ الْقُرْآنُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابُ هُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ سَمَاعُ الْوَحْيِ، وَالْحِكْمَةُ وَحْيُ الْإِلَهَامِ، وَهُوَ السُّنَّةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابُ هُوَ التَّنْزِيلُ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ الْمَعْنَى الْمَوْدَعُ فِيهِ.

فَمَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَاحِدٌ، وَهِيَ الْقُرْآنُ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ الْقُرْآنُ. وَمَنْ يَقُولُ عَنْهُمَا غَيْرُ [واحد] ^(٥) يَقُولُ ههنا: إِنَّ الْحِكْمَةَ الْحُجَّةُ وَالْبِرْهَانُ: إِمَّا مِنْ جِهَةِ الْإِلَهَامِ وَإِمَّا مِنْ جِهَةِ الْإِنْتِزَاعِ مِنْ الْكِتَابِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ الَّتِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [الآية: ٦٩] يَعْنِي مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتَتَذَكَّرُوا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَرٍ بَنًا خَالِصًا سَائِبًا وَلَسْرِيًّا﴾ [الآية: ٦٦] وَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ الْخُشْبِ الْيَاسَةِ الْأَعْنَابِ وَأَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ وَنَحْوِهِ [الآيات: ١٠ و ١١]. وَذَلِكَ كُلُّهُ بِحِكْمَتِهِ، أَيِ ادْعُهُمْ إِلَى دِينِهِ، وَذَكَرْهُمْ بِهَذَا، وَهُمْ يَقْرُونَ بِهِ لِيَقْبَلُوا دِينَهُ، وَيَخْضَعُوا لِأَمْرِهِ.

[وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ] ^(٦): ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وَذَلِكَ كُلُّهُ مُسْتَحْسَنٌ فِي الْعَقْلِ وَتَوْجِيهِ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ وَمَا ذَكَرَ مِنْ إِيْنَاءِ ذِي الْقُرْبَى الصَّدَقَةَ مُسْتَحْسَنٌ فِي عَقْلِ كُلِّ أَحَدٍ، وَالْإِنْتِهَاءُ أَيْضاً عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ مُسْتَحْسَنٌ، مُسْتَفْبِحٌ أَرْكَابُهُ وَإِتْيَانُهُ؛ كَأَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ جَمِيعاً؛ كَأَنَّهُ قَالَ: ادْعُهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِالْعِلْمِ جَمِيعاً حَتَّى يَنْجَعَ ذَلِكَ فِيهِمْ، أَوْ ادْعُهُمْ بِاللِّبَنِ وَخَفِضِ الْجَنَاحَ مَرَّةً بِالْعَنْفِ وَالْخُسُوفَةِ ثَانِيًا، فَيَكُونُ وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يُعْطِيكُمْ لِمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَدِّدْ لَهُمْ بِآلَتِي مِنْ أَحْسَنَ﴾ يَحْتَمِلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَيِ جَادِلْهُمْ بِالَّذِي يَقْرُونَ عَلَى مَا يُنْكِرُونَ، وَهُوَ مَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مِخْنَةُ السَّبَبِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: دِينُهُمْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ذَكَرَ: ﴿أَمَّا نَسُوتُ﴾ الآية [النحل: ١٧] وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ رَبِّقًا﴾ [النحل: ٧٣] وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية [النحل: ٧٥] وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٧٦] وقوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأَى مِنْهُمُ عَلَى مَا مَلَكَتْ﴾ الآية [النحل: ٧١] ونحو هذا [أمر أن^(١)] يُجَادِلُهُمْ بِأَحْسَنِ الْمَجَادَلَةِ بِالَّذِي يَقْرُونَ أَنَّهُ كَذَلِكَ عَلَى الَّذِي^(٢) يُنْكِرُونَ لِيُزَيِّمَهُمُ الْقَبُولَ وَالْخُضُوعَ لَهُ.

ثم في الآية دليلٌ تعليم المناظرة في الدين وكيفية المعاملة بعضهم لبعض فيها حين^(٣) قال: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ﴾ التي عنده بالقرآن أو غيره مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْمَرْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّلْهُمْ بِأَلْفَى مِنْ أَحْسَنَ ﴿هَكَذَا يَجِبُ أَنْ يُنَاطَرَ بِعَظْمِهِمْ بِأَلْوَجْهِ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى.

وعلى ذلك ما ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مُنَاطَرَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَعَ الْفِرَاعَةِ وَالْأَكَابِرِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتَعْجَبُونَنِي فِي اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨٠] وَمُنَاطَرَةَ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ، حِينَ^(٤) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الشعراء: ٢٣ و: ٢٤] وَمَا قَالَ: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿فَأَلْفَنِي عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٣١ و ٣٢] وَمَا ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَتُوسَى﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩ و: ٥٠] وَأَمثَالُهُ مِمَّا يَكْثُرُ. فَهَذِهِ مُنَاطَرَةُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ مَعَ الْفِرَاعَةِ وَالْأَعْدَاءِ. فَكَيْفَ الْمُنَاطَرَةُ بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ؟ فَهَذَا كُلُّهُ يَرُدُّ عَلَى مَنْ يَأْتِي الْمُنَاطَرَةَ فِي الدِّينِ، وَيَتَمَنَّعُ عَنِ التَّكَلُّمِ فِيهِ وَالِاخْتِجَاجِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فِي الْآيَةِ نَسَبَتْهُمْ إِلَى الضَّلَالِ إِشَارَةً وَكِنَايَةً لَا تَضْرِيحًا لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ مُضْطَرَحًا: إِنَّكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ عَنْ سَبِيلِهِ لِحَسَنِ مُعَامَلَتِهِ الَّتِي عَلَّمَ رَسُولُهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُعَامِلَهُمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الْقَبُولِ وَأَمِيلُ إِلَى الْقُلُوبِ^(٥) وَأَخَذُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى وَهَارُونَ حِينَ أَرْسَلَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيًّا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾؟ [طه: ٤٤]

الآية ١٢٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ اخْتَلَفَ فِي سَبَبِ نُزُولِ ذَلِكَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: [نَزَلَ]^(٦) فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ أَنَّ نَفَرًا مِنْهُمْ قَدْ [مُتَّلَ بِهِمْ]^(٧) يَوْمَ أُحُدٍ مِثْلَةَ سَيْفَةٍ مِنْ قِطْعِ الْأَذَانِ وَتَجْدِيعِ الْأَنْوَابِ وَبَقَرِ الْبُطُونِ وَنَحْوِهِ، فَقَالَ [رَسُولُ اللَّهِ]^(٨) «لَيْتَنِي أَدَاثُنَا اللَّهُ مِنْهُمْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا وَكَذَا» [بَنَحْوِهِ زَادَ الْمَسِيرَ ٣٧٠/٤] فَأَرَادُوا أَنْ يُجَازُوا ذَلِكَ، فَانْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الْآيَةَ.

وَفِيهِ الْإِشَارَةُ لَهُمْ بِالتَّضَرُّ وَالظُّفْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ الظُّفَرُ بِهِمْ كَيْفَ يَقْدِرُونَ عَلَى مُعَاقِبَةٍ مِثْلِ مَا عُوقِبُوا؟ دَلَّ أَنَّهُ عَلَى الْإِشَارَةِ لَهُمْ بِالتَّضَرُّ وَالظُّفْرِ بِهِمْ.

وَفِيهِ دِلَالَةٌ جَوَازِ اخْتِذِ مَنْ لَمْ يَتَوَلَّ الْقَتْلَ وَالْأَخْذَ وَالضَّرْبَ لِمَا لَعَلَّهُمْ لَا يَظْفَرُونَ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا ذَلِكَ، لَكِنْ يُؤْخَذُ^(٩) إِخْوَانُهُمْ بِهِمْ لِمَا بِمَعُونَةٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَعَلُوا [ذَلِكَ]^(١٠) وَيَكُونُ فِيهِ دَلِيلُ اخْتِذِ قِطَاعِ الطَّرِيقِ بِالْقَتْلِ وَالْقَطْعِ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي تَوَلَّى ذَلِكَ بَعْضًا مِنْهُمْ لِمَا أَنْ مَنْ تَوَلَّى ذَلِكَ إِنَّمَا تَوَلَّى بِمَعُونَةٍ مَنْ لَمْ يَتَوَلَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ الْقَتْلُ مَعَ الْكُفْرَةِ قَتْلَ مُجَازَاةٍ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَنَلَّوْهُمْ فَانْكُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وَمِثْلَهُ.

فَإِذَا كَانَ عَلَى الْمُجَازَاةِ أَمْرٌ آلا يَتَجَاوَزُوا عُقُوبَتَهُمْ، وَلَكِنْ بِمِثْلِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقِتَالُ مَعَهُمْ لَا قِتَالَ مُجَازَاةٍ فَإِنَّهُمْ يُقْتَلُونَ جَمِيعًا إِذَا أَبَوْا الْإِسْلَامَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَتِّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] وَقَوْلِهِ ﷺ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» [البخاري ٢٥] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَقُتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُوا﴾ [الفتح: ١٦].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الذين. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: القبول.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: مثلوا. (٨) في الأصل وم: أصحابهم. (٩) أدرج قبلها في م: لا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: لا، ولكن الآية نزلت في أهل الإسلام وحكمه في القصاص والقطع في ما دون النفس والجراحات. أمر ألا يتجاوزوا حدودهم^(١) كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرَتْمْ﴾ على ما ذكر ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ودل قوله: ﴿وَلَيْنَ صَبْرَتْمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ على أن الآية في القصاص لا في الحرب، لأنه في الحرب لا يقال: اضرب، ولا يكون الصبر خيراً. دل أنه في غير المحاربة، والله أعلم.

الآية ١٣٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿وَمَا صَدْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [يختل وجهين:

أخذهما]^(٢): أي وما توفيقك على الصبر إلا بالله كقول شعيب: ﴿وَمَا تَرْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الآية [هود: ٨٨].

والثاني: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَدْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي تركك القصاص لأمر الله حين^(٣) أمرتك به لا لضعف أو عجز فيك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قال بعضهم: إنه كان يحزن، ويضيق صدره لِمَكَانِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ كقوله: ﴿لَتَلَكَّ بَنَجٌ فَتَكُ الْآيَكُوتُ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لذلك على التسلي والتخفيف لا على التهي عن ذلك.

ويختل قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ٢٩٥ - ب/ على المؤمنين الذين قتلوا، واستشهدوا لأنهم مستبشرون فرحون ﴿يَمَّا أَنَّهُمْ أَتَوْا مِنَ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠] أي لا تحزن عليهم، وهم [في ما]^(٤) ذكر، أو لا تحزن على المؤمنين، ولا يضيق صدرك مما يمتكرك بك أولئك الكفرة؛ إذ كانوا يمتكرون برسول الله وبأصحابه، ويؤذونهم. أخبر ألا يضيق صدرك لذلك.

وقال بعضهم: نزلت في أمر حمزة سيد الشهداء، وإنه مثل [يو]^(٥) وجرح جراحات عظيمة، فاشتد على النبي، فقال: «لئن ظفرتنا بأولئك لتفعلن كذا، ولتفعلن كذا» [الطبراني في الكبير ١١٠٥١] فنزلت الآية ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

لكن إن ثبت هذا فإنه يكون في الوقت الذي كان يؤخذ غير^(٦) القاتل والجراح بالقتل؛ وذلك قد كان في الابتداء. ألا ترى أنه قال: ﴿لَهُوَ بِالْأَمْرِ وَالْعَمَلِ وَالْقَبْدِ وَالْقَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] كانوا هموا أن يأخذوا الحر بالعبد والذكر بالأنثى حتى نزل هذا؟ فصار منسوخاً به بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] ولو كان يؤخذ غير القاتل بالقصاص لم يكن فيه حياة.

أو إن قاتلوا في الحرب مع الكفرة، فذلك يختل لأنه في الحرب، لهم أن يقتلوا الكل، وألا يتركوا واحداً منهم.

دل أنه يخرج على أحد وجهين:

[أخذهما]^(٧): على النسخ الذي ذكرنا.

والثاني^(٨): على التهي عن أخذ أكثر من حقه كقوله: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤].

الآية ١٣٨

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ مخالفة الله ورسوله بالنصر لهم والعون، فإن الله ناصرهم ومعينهم عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ في العمل والتوحيد، أو يقول: إن الله مع الذين اتقوا محارم الله وارتكاب مناهيه بالنصر لهم والمعونة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ إلى نعم الله بالقيام بالشكر لها، والله تعالى أعلم.

(١) في الأصل وم: حقوقهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: فيها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو.

[سورة بني إسرائيل مكية^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سُبْحَانَ كَلِمَةُ إِجْلَالِ اللَّهِ عَنِ الْكَفَاءِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الشُّرَكَاءِ وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا قَالَتِ الْمُعْطَلَّةُ فِيهِ، وَظَنَّتِ الْمَلَايِدَةُ بِهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالْحَاجَاتِ وَالْآفَاتِ وَجَمِيعِ مَعَانِي الْخَلْقِ.
وروي في بغض الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩١ و...]. فقال^(٢): «هو تنزيه الله عن كل سوء» [بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢/٩].

ومعنى قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا هو، والله أعلم، كَانَهُ ذَكَرَ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى أَنْ يَسْرِى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ [الموتى]^(٣) بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَغْلِبُكَ حِفْظُ رَسُولِهِ وَالتَّضَرُّعُ لَهُ وَإِظْهَارُ آيَاتِ بُرُوءِهِ وَرِسَالَتِهِ وَقَطْعُ حِيلِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ وَالْمُخَالِفِينَ.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ سَمَاءُ أَقْصَى، وَهُوَ الْأَبْعَدُ، مِنْ قَصَى بَقْصَى، فَهُوَ قَاصٍ؛ كَانَهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَمَسْجِدُهُ بِالْمَدِينَةِ وَمَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَسَمَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى.
وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قِيلَ: سَمَاءُ^(٤) مُبَارَكًا لِكثْرَةِ أَنْزَالِهِ وَخَيْرَاتِهِ وَسَعْيِهِ. وَقِيلَ: سَمَاءُ^(٥) مُبَارَكًا لِأَنَّهُ مَكَانُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَقَامُهُمْ، فَبُورِكَ فِيهِ بِرَبِّكَتِهِمْ وَبُغْنِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّيْكُمْ مِنْ آيَاتِنَا الْحِسِّيَّةِ بَعْدَ مَا أَرَيْنَاهُ^(٦) الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ الْحِسِّيَّةَ أَكْبَرُ فِي قَطْعِ الشُّبْهِ وَرَفْعِ الْوَسَاوِسِ مِنَ الْعَقْلِيَّةِ، إِذْ لَا يَشْكُ أَحَدٌ فِي مَا كَانَ^(٧) سَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ الْجِسِّ وَالْبَيَانِ، وَقَدْ تَغْتَرِضُ الشُّبْهُ^(٨) وَالْوَسَاوِسُ فِي الْعَقْلِيَّاتِ لِأَنَّهُ لَا يَشْكُ أَحَدٌ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هُوَ، فَاحْبَبَ ﷺ أَنْ يُرَى رَسُولُهُ آيَاتِ حِسِّيَّةٍ تَضْطَرُّ [الْمُتَعَتِّتِينَ إِلَى]^(٩) قَبُولِهَا وَالْإِيمَانِ وَالْإِقْرَارِ لَهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَا يَغْلَمُونَ أَنَّ مَا كَانَ يُخْبِرُهُمْ مِنْ أَخْبَارٍ حِينَ^(١٠) قَالَ: إِنَّهُ رَأَى غَيْرَ فُلَانٍ وَأُمُورًا يَغْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا عَنْ مُشَاهَدَةٍ وَعِيَانٍ، لِأَنَّهُ كَانَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّاتِ قَالُوا: أَنَّهُ سِخَرٌ، وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي كَانَتْ فِي كُتُبِهِمُ الْمَتَقَدِّمَةِ قَالُوا ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...]. وقالوا^(١١): ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] لَيْسَ ذَلِكَ عَمَلُ سِخَرٍ وَلَا إِفْكًا وَلَا أَفْتِرَاءً وَلَا أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ عَلَى مَا نَسَبُوهُ إِلَى السِّخَرِ مَرَّةً وَآلَى الْإِفْكِ وَالْإِفْتِرَاءِ ثَانِيًا، وَنَحْوُهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَي مَنْ قَدَّرَ عَلَى مَا ذَكَرَ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. ثُمَّ رُويَ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَأَنَّهُ غُرِجَ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى رَأَى إِخْوَانَةَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ قَبْلَهُ وَمَا ذَكَرَ فِيهَا. فَنَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ الصَّدِيقُ، رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، إِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ فَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِلَّا^(١٢) نَقُولُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِي الْآيَةِ: إِنَّهُ أَسْرَى بِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَلَا نَزِيدُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ فَلَا تَسَعُ الشَّهَادَةُ لَهُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كُلُّ كِتَابٍ [مِنْ كِتَابِ] ^(١٣) اللَّهُ هُدًى لِمَنْ اسْتَهْدَى وَرُشْدٌ لِمَنْ اسْتَرْشَدَ وَبَيَانٌ ^(١٤) لِمَنْ اسْتَوْضَحَ لِأَنَّهُ دَعَتْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: دَعَتْ إِلَى

(١) من م، في الأصل: ذكر أن سورة بني إسرائيل وهي مكية. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: سعى. (٥) في الأصل وم: سعى. (٦) في الأصل وم: أراه. (٧) أدرج قبلها في الأصل: أن. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ربما. (٩) في الأصل وم: المنصفين على. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) من م، في الأصل ولا. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وبيانا.

مَعَالِي الْأُمُورِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَصَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَنَهَتْ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ مَسَاوِي الْأَعْمَالِ وَعَنْ سَفَايِفِ الْأُمُورِ وَدَنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ وَرَدَاءَتِهَا.

ذَكَرَ أَنَّهُ جَعَلَ الْكِتَابَ ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لِأَنَّ مَنَفْعَةَ الْكِتَابِ حَصَلَتْ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اسْتَهْدَوْا بِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ هُوَ هُدًى لِّمَنِ اسْتَهْدَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ أَي مُتَعَمِّدًا، أَي قُلْنَا لَهُمْ، أَوْ ذَكَّرْنَا لَهُمْ فِيهِ، أَوْ أَمَرْنَاهُمْ فِيهِ ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ أَي مُتَعَمِّدًا مَوْكُولًا. الْوَكِيلُ، هُوَ مَوْكُولُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، مُتَعَمِّدٌ فِي الْأَحْوَالِ عَلَيْهِ، قَائِمٌ فِي جَمِيعِ مَا وَكِّلَ إِلَيْهِ بِالتَّوْبِعِ وَالتَّقْضَلِ.

الآية ٢ [وقوله تعالى] ^(١): ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهًا]:

أَحَدُهَا: ^(٢) قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي بِالذُّرِّيَّةِ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ؛ أَي كَانُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَمَنْ حَمَلَ مَعَهُ، وَهُمْ بَشَرٌ؛ قَالَ ذَكَرَ هَذَا لِإِنْكَارِهِمْ بَعَثَ الرِّسَالَ مِنَ الْبَشَرِ حِينَ ^(٣) ﴿قَالُوا أَأَمَّتْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]

وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ غَيْرُهُ: أَي مِنْ ذُرِّيَّةٍ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أَي هَؤُلَاءِ [الكفرة] ^(٤) مِنْ ذُرِّيَّةٍ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فَكَيْفَ خَالَفُوا آبَاءَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الْهُدَى، وَتَابَعُوا غَيْرَهُمْ.

وَالثَّالِثُ ^(٥): يَذْكُرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّسَالَ مِنْ ذُرِّيَّةٍ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ / ٢٩٦ - / وَهُمْ بَشَرٌ فَكَيْفَ أَنْكَرُوا الرِّسَالَ مِنَ الْبَشَرِ.

وَالرَّابِعُ ^(٦): هُوَ عَلَى النَّدَاءِ وَالذُّعَاءِ يَا ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فِي السَّفِينَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ زَمَانِ الطُّوفَانِ. لَا تَتَذَكَّرُوا ﴿مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾. قِيلَ: رَبًّا وَإِلَهًا، وَقِيلَ: شَرِيكًا.

وَأَصْلُهُ مَا ذَكَّرْنَا: أَنَّ الْوَكِيلَ، هُوَ الْمُتَعَمِّدُ.

[وقوله تعالى] ^(٧): ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يَعْنِي نُوحًا. سَمَاهُ شَكُورًا لِأَنَّهُ كَانَ يَذْكُرُ رَبَّهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الشُّكُورُ هُوَ الَّذِي يَتَنَغَّى مَرْضَاةَ مُنْعِمِهِ، وَيَجْتَنِبُ مَسَاسِطَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الشُّكُورُ، هُوَ الْمُطِيعُ لِلَّهِ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا مَعْنَى الشُّكْرِ أَنَّهُ اسْمُ الْمَكَافَاةِ. أَوْ يُقَالُ كَانَتْ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ عِبَادَةً شُكْرًا. لَا عِبَادَةً اسْتِغْفَارًا؛ أَي كَانَ شَكُورًا فِي عِبَادَتِهِ لَا مُسْتَغْفِرًا.

الآية ٤ [وقوله تعالى]: ﴿وَقَمَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكُتُبِ لَنُفِيدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَمَيْنَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ، وَأَخْبَرْنَاهُمْ، وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿فِي الْكُتُبِ لَنُفِيدَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَضَيْنَا عَلَيْهِمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ. فَكَيْفَ مَا كَانَ فِيهِ نَقْضُ قَوْلِ الْمُعْتَرِلَةِ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ ^(٨)، وَأَعْلَمَهُمْ، عَلَى تَأْوِيلٍ مِنْ زَعَمَ أَنَّ الْقَضَاءَ هُنَا هُوَ الْإِعْلَامُ وَالْإِخْبَارُ لَهُمْ.

يُقَالُ لَهُمْ: كَانَ أَخْبَرَهُمْ، وَأَعْلَمَهُمْ، لِيَصْدُقَ فِي خَبَرِهِ أَوَّلًا. فَإِنْ كَانَ أَخْبَرَهُمْ لِيَصْدُقَ فِي خَبَرِهِ فَذَلِكَ مِنْهُ حُكْمٌ أَنَّهُمْ ﴿لَنُفِيدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ الْقَضَاءِ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ فَهُوَ ظَاهِرٌ، وَهُوَ مَا نَقُولُ: إِنَّ كُلَّ فَاعِلٍ فَعَلًا طَاعَةً كَانَتْ أَوْ مَعْصِيَةً كَانَ بِحُكْمِهِ، ثُمَّ مَنْ سَأَلَ آخَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ أَنَهَا كَانَتْ بِقَضَاءِ اللَّهِ فَلَا يَجِبُ أَنْ يُجَابَ لَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِنَعْمٍ أَوْ لَا إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ ^(٩) مَا يُرِيدُ بِالْقَضَاءِ وَمَا يَفْهَمُ مِنْهُ، لِأَنَّ الْقَضَاءَ يَتَوَجَّهُ إِلَى [وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا ^(١٠): يَرْجِعُ إِلَى الْخَلْقِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أَي خَلَقَهُنَّ.

[وَالثَّانِي: إِلَى] ^(١١) الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَفَّيْ رُبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوهُ إِلَّا إِنَاءً﴾ [الإسراء: ٢٣] أَمْرُ رَبِّكَ [القَضَاءُ وَالْحُكْمُ] ^(١٢) كَقَوْلِهِ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَائِمٌ﴾ [طه: ٧٢] أَي احْكُمْ مَا أَنْتَ حَاكِمٌ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.

(٦) في الأصل وم: ثم قال بعضهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في م: أخبر أنه. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (١٠) في

الأصل وم: وجوه. (١١) في الأصل وم: والقضاء. (١٢) في الأصل وم: والقضاء بالحكم.

ولم يُعْرِفِ الْقَضَاءَ الْحَمْلَ وَالِدَفْعَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُ، فَلَا يُجَابُ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا أَنْ يُبَيَّنَ^(١) مَا أَرَادَ بِالْقَضَاءِ. فَإِنْ أَرَادَ بِالْقَضَاءِ الْحُكْمَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُقَالُ: نَعَمْ كَانَ بِقَضَائِهِ وَحُكْمِهِ. وَلَيْسَ فِي مَا قَضَى، وَحُكْمَ، دَفْعُهُ فِي الْمَعْصِيَةِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَصَوْا رَبَّهُمْ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جَالُوتَ، فَقَتَلَهُمْ، وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَسَلَبَ^(٢) أَمْوَالَهُمْ، فَكَانُوا كَذَلِكَ زَمَانًا، ثُمَّ تَابُوا، وَرَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ. ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ دَاوُدَ، فَقَتَلَ جَالُوتَ، وَاسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ يَدَيْهِ، وَرَدَّهُمْ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ. ثُمَّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ بَخْتَنَصَّرَ، فَفَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ جَالُوتَ، ثُمَّ تَابُوا. فَبَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَعَثَ أَوَّلًا بَخْتَنَصَّرَ، ثُمَّ فَلَانًا وَفَلَانًا، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِهِمَا بِمَا نَحْنُ عَلَيْكُمْ عِبَادًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عُدُّكُمْ﴾ إِلَى الْعِصْيَانِ ﴿عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٥ - ٨] إِلَى الْعُقُوبَةِ.

وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ سِوَى مَا فِيهِ مِنْ وَجْهِ الْحِكْمَةِ وَالِدَلَالَةِ:

أَحَدُهَا: دَلَالَةُ إِثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَمَّا كَانَ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِمَ مَا فِي كُتُبِهِمْ، وَلَا اخْتَلَفَ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَكَانَ عَلَى مَا أَخْبَرَ. دَلٌّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ بِمَا أَخْبَرَهُ فِي كِتَابِهِ.

وَالثَّانِي^(٣): أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمٌ بِنَفْسِ الْكُفْرِ إِهْلَاكَ اسْتِصَالٍ حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ مَعَ الْكُفْرِ السُّعْيُ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ وَالْعِنَادِ لِلآيَاتِ.

[وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ]^(٤) لَيْسَ عَلَى اللَّهِ حِفْظُ الْأَصْلَحِ لَهُمْ وَإِعْطَاؤُهُ [إِيَّاهُمْ]^(٥) فِي الدِّينِ حِينَ^(٦) لَمْ يُؤْمِنْتُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ تَرَكْتُمْ حَتَّى عَصَوْا رَبَّهُمْ، ثُمَّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ قَتَلَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى دِينِهِ، وَهُوَ كُفْرٌ. فَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ إِعْطَاءُ الْأَصْلَحِ لَأَمَاتَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَذَلِكَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي الدِّينِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَعْلَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ قِيلَ: لَنَجْرُونَ جَرَاءً عَظِيمَةً، وَقِيلَ: وَلَنُفْهَرُونَ، وَلَنُغْلِبَنَّ غَلْبَةً كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أَيْ قَهَرَ، وَغَلَبَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا أَمْلَهُمَا شَيْعًا يَسْتَضِيعُ لَمِائَةً نِتْمًا﴾ [القصص: ٤] ثَبَتَ أَنَّهُ عَلَى الْغَلْبَةِ وَالْقَهْرِ.

وَقِيلَ: الْعُلُوُّ، هُوَ الْعُتُوُّ وَالْجَرَاءُ وَالتَّكَبُّرُ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

الآية ٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا أَمْلَهُمَا شَيْعًا يَسْتَضِيعُ لَمِائَةً نِتْمًا﴾ أَيْ جَاءَ وَغَدُ هَلَاكَ مَنْ عَصَى مِنْهُمْ أَوَّلًا، وَخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ، وَكَفَرَ بِهِ، ﴿بِمَا نَحْنُ عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ: ﴿بِمَا نَحْنُ عَلَيْكُمْ﴾ لَيْسَ عَلَى بَعَثِ الْوَحْيِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ عَلَى التَّخْلِيَةِ، أَيْ خَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِ ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ أُولَى بَطْشٍ شَدِيدٍ وَقُوَّةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّاطِطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] أَيْ سَلَّطْنَا عَلَيْكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا نَحْنُ عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ [أَنَّهُ]^(٧) بَعَثَ عَلَيْهِمْ عِبَادًا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَإِنَّمَا بَعَثَهُمْ لِحِزَاءِ إِسَاءَتِهِمْ وَلِسَوْءِ صَنِيعِهِمْ، وَذَلِكَ شَرٌّ، يُفَعَّلُ بِهِمْ. دَلٌّ أَنَّ لِلَّهِ صُنْعًا فِي جَمِيعِ فِعْلِ الْعِبَادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَاسُوا خَلْدًا إِلَيَّ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جَاسُوا: مِنَ التَّجَسُّسِ، أَيْ يَتَجَسَّسُونَ أَخْبَارَهُمْ، وَيَسْمَعُونَ أَحَادِيثَهُمْ، وَهُمْ جُنُودٌ، جَاوَزُوا مِنْ فَارِسَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَجَاسُوا﴾ أَيْ قَتَلُوا النَّاسَ فِي الْأَرْضِ وَفِي الطَّرِيقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَاثَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أَيْ [وَعَدًا]^(٨) الَّذِينَ قَالَ [لَهُمْ]^(٩): ﴿لَنُقِيدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وَعَدًا كَانَتْ مَفْعُولًا، أَيْ كَانَ وَعْدًا مَوْعُودًا مَفْعُولًا كَانَتْ، إِذِ^(١٠) الْوَعْدُ لَا يَأْتِي، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدًا مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١] أَيْ مَوْعُودًا مَأْتِيًا، وَكَذَلِكَ مَا أَشْبَهَ هَذَا.

(١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ أَنْ. (٥) سَاقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) سَاقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي العَلْبَةَ والهلاك عليهم ﴿وَأَنذَرْنَاكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر رجالاً منكم. قيل: ذلك وعداً^(١)، ثم إذا عَصَوْا ثانياً، وكَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، سَلَطَ اللهُ عليهم قوماً آخرين، فَدَمَرُوا عليهم. فذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: ١٠٤ و ٧] الهلاك والتدمير، أي موعود الآخرة ﴿يُسْخَرُوا وَيُؤْمَرُونَ﴾ [الإسراء: ٧].

ثم وَعَدَ لَهُمُ الرَّحْمَةَ إِنْ تَابُوا، وَرَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] ثم أَوْعَدَهُمُ الْعَوْدَ إِلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى الْمَعَاصِي عُدْنَا عَلَيْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ.

ثم قول أهل التأويل: إِنَّهُ سَلَطَ عَلَيْهِمْ بِخُتُصَرِّ وَجَالُوتَ ثُمَّ فُلَانًا وَفُلَانًا، فَذَلِكَ لَا يُغَلِّمُ إِلَّا بِالْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ سِوَىٰ أَنَّهُ بَعَثَ عَلَيْهِمْ ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فَلَا يُزَادُ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخَبَرِ سِوَىٰ أَنَّهُ ذَكَرَ هَذَا لَنَا. وفيه وَجْهَانِ^(٢) مِنَ الْحِكْمَةِ:

أحدهما^(٣): مَا ذَكَرْنَا مِنْ إِبْطَالِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ وَمِنْ صِدْقِ رَسُولِهِمْ حِينَ^(٤) حَذَرَهُمُ الْعُقُوبَةُ بِعُضَيَانِهِمْ. فَكَانَ كَمَا قَالَ.

والثاني^(٥): تَحْذِيرُنَا عَنْ مِثْلِ صَنِيعِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِذَلِكَ أُولَىٰ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وقال الْقُتَيْبِيُّ: ﴿فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ﴾ أي عاثوا بَيْنَ الدِّيَارِ، وَافْسَدُوا، وَيُقَالُ: جَاسُوا، وَاجْتَنَسُوا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدُّوْلَةَ، وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي عُدْدًا.

وقال أبو عَرَسَةَ: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ هو مِنَ الْخُرُوجِ وَالنَّفَرِ؛ وَمَعْنَاهُ: أَكْثَرَ عُدْدًا.

وقال أبو عُبَيْدَةَ: ﴿فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ﴾ مَعْنَاهُ: أَي فَقَتَلُوا فِي دِيَارِهِمْ.

وقال قتادة: النَّفِيرُ الْمُقَاتِلَةُ الَّذِينَ يُسْتَنْفَرُونَ لِلْقِتَالِ، أَي لَوْ اسْتَنْفَرْتُمْ أَنْتُمْ، وَاسْتَنْفَرْنَا أَوْلَئِكَ كُنْتُمْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ. ثم جاء قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ﴾

وَمَعْلُومٌ^(٦) أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِهِمْ هَذَا اللَّفْظُ: ﴿بِمَا عَلَيْنَاكُمْ﴾ ﴿فَجَاسُوا﴾ عَلَى الْإِيتِدَاءِ، وَلَكِنْ كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا لَيَبْتَغْنَ عِبَادًا أُولَىٰ بِأَسٍ شَدِيدٍ، يَتَجَسَّسُونَ، أَوْ يَجْتَسِسُونَ.

لكنه خَاطَبَ بِهِذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [الَّذِينَ]^(٧) كَانُوا بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْ كَانُوا هُمْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا ذَكَرَ، لَكِنْ لِمَا فَعَلَ أَوَائِلُهُمْ خَاطَبَ هَؤُلَاءِ لِمَا كَانُوا/ ٢٩٦ - ب/ يَفْتَخِرُونَ بِأَوَائِلِهِمْ، وَيَقُولُونَ هُمْ ﴿أَبْتَلُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوْهُ﴾ [المائدة: ١٨] فَيَذْكُرُ هَؤُلَاءِ نِعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَىٰ أَوْلَئِكَ، وَيُحَذِّرُهُمْ صَنِيعَهُمْ، وَهُوَ مَا خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشِيَنَّ لَنَا نَوْمًا لَّكَ﴾ [البقرة: ٥٥] وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشِيَنَّ لَنَا نَعِيرٌ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِدْ﴾ [البقرة: ٦١] وَنَحْوِهِ.

خَاطَبَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَاتَبَهُمْ عَلَىٰ صَنِيعِ أَوْلَئِكَ وَفَعْلِهِمْ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ لِمَا [لَمْ يَرْضُوا]^(٨) بِصَنِيعِ أَوْلَئِكَ، وَتَحْذِيرًا عَنْ مِثْلِ صَنِيعِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لَا لِلَّهِ، إِذِ الْيُكْمُ تَرْجِعُ مَنَفْعُهُ ذَلِكَ، وَأَنْتُمْ تُجْزَوْنَ^(٩) وَعَلَىٰ ذَلِكَ ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أَي فَعَلَيْهَا كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [الآية [فصلت: ٤٦] أَي عَلَيْهَا ضَرَرٌ^(١٠) ذَلِكَ. وَعَلَىٰ ذَلِكَ جَمِيعُ [مَا]^(١١) أَمَرَ الِ عِبَادَةَ مِنَ الْأَعْمَالِ، أَوْ نَهَاةً عَنْهَا؛ إِنَّمَا أَمَرَ، وَنَهَىٰ لِمَنَفْعَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلِحَاجَتِهِمْ لَا لِمَنَفْعَةِ لَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أَي إِلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تُسَيَّوْنَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أَي جَاءَ وَعْدُ مَوْعِدِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْعُقُوبَةُ بِعُضَيَانِهِمْ وَتَكْذِيبُهُمْ رُسُلَ اللَّهِ.

(١) من م، في الأصل: وعدا. (٢) في الأصل: وجوه. (٣) في الأصل: أحدهما. (٤) في الأصل: حيث. (٥) في الأصل: وفيه.

(٦) الواو ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل: رضوا. (٩) في الأصل: وتحزنون. (١٠) في م: ضرورة.

(١١) من م، ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ بالتَّغْيِيرِ وتبديل الدين ﴿لِيَسْتَوُوا بِجُوهَكُمْ﴾ يَوَافِقِينَ على الجماعة، وبواو واحدة^(١) على الواحد: لِيَسْوَهُمْ وجوهكم، ولم يُبين من يسوء وجوههم كما ذكر في الوعد الأول ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشَاءً عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] فهم يسوءون وجوهكم.

ومن قرأ بالنون^(٢): لِيَسْوَهُمْ ﴿وَجُوهَكُمْ﴾ أضاف إلى نفسه لما يأمره ما كان يفعل ويتسلطوا إياهم عليهم.

وقال بعضهم: ذكر الوجه هنا كناية عن الحزن والهَم والإهانة لهم كما يقال في السرور: أَكْرَمَ وجهه، أي أدخل فيه سروراً، أو ذكر الوجه لما بالوجه يظهر ذلك التغير والقبح، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في ظاهر الآية أن يدخل الأولون المسجد في المرة الثانية كما دخل الأولون في المرة الأولى لأنه قال: ﴿كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لكن يتحمل ليدخل عباد آخرون المسجد في المرة الثانية كما دخل الأولون في المرة الأولى. وقال بعضهم: المسجد هنا: الكنيسة والبيعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَسْتَوُوا مَا عَلِمُوا تَنْبِيْرًا﴾ أي ليهلكوا ما علموا به، أي ما غلبوا به، وقهروا، أي الأسباب التي عصوا بها.

وقال أبو عوسجة: ﴿مَا عَلِمُوا﴾ أي ليفسدوا ما ملكوا، والثبائر الفساد؛ يقال: علوت الشيء، أي ملكته.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿عَنَى رَيْكُؤُاْ أَن رَّيْمُكُمْ﴾ يتحمل أن يكون ذلك لأولئك الذين تقدم ذكرهم، وفيهم نزل ما نزل: يَرْحَمُهُمْ إن تابوا. ونُسبته أن يكون على الابتداء ﴿عَنَى رَيْكُؤُاْ أَن رَّيْمُكُمْ﴾ بمحمد ﴿وَأَن عُدَّتُمْ عِدَّتًا﴾ أي ﴿وَأَن عُدَّتُمْ﴾ إلى التكذيب والعصيان ﴿عِدَّتًا﴾ إلى العقوبة والقتال إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحِمْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ قيل: سجيناً؛ لا يخرجون منها. وقيل: مخبئاً وحصيماً؛ يخصرون فيها.

والله أعلم.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ على معنى التأنيث في قوله: ﴿لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قيل بوجوه: قيل ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي﴾ لليلة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الليل وأغدلها. واليلة هي الدين دين الله.

وقال بعضهم: يهدي إلى الأمور التي هي أغدل الأمور وأضوبها. وقيل: يهدي إلى السبيل التي هي أقوم السبل وأغدلها. يتحمل هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرناها.

وجائز أن يكون قوله: ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي للأعمال الصالحة وللخيرات لأن الأعمال الصالحة، قوامها

يو. ثم قوله: ﴿يَهْدِي﴾ يتحمل وجهين:

أحدهما^(٣): يُبين. والثاني: يدعو. فهو يهدي الكل لِيُاسْتَهْدُوا، لكن خص هؤلاء لما [أَنَّ الْمُنْفَعَةَ]^(٤) تكون لمن ذكر. وقد ذكرنا أن هذا القرآن وغيره من كتب الله هدى ورحمة، يدعو إلى ثلاث خصال: إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومصالحها، وينهى عن مساوي الأعمال وداني الأمور وسوء الأخلاق ودناءتها. فهو هدى ورحمة على ما أخبر لمن استهدى به، ورشد لمن استرشد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ﴾ البشارة المطلقة إنما جعل للمؤمنين الذين عملوا الصالحات، لم يذكر للمؤمنين خاصة على غير العمل الصالح، فالمسألة فيهم غير المسألة في^(٥) هؤلاء.

وفيه دلالة أن اسم الإيمان قد يستحق بدون العمل الصالح حين يشترط فيه العمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَمْ أَجْرُ كَبِيرًا﴾ سماء كبيراً لكبير خطره عند الله كما سمي النار عظيماً لِعَظَمِ خطره عنده، أو سماء كبيراً لأنه أكبر ما يقصد إليه، ويرغب فيه، وهو ثواب الجنة. والنار أعظم ما يُحذَرُ بها، ويرهب منها.

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/٣٠٨. (٣) في الأصل وم: يحتمل. (٤) في الأصل وم: منفعة. (٥) في الأصل وم: و.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ آغْنَيْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إنكارهم البعث وكفرهم به، هو الذي حملهم على تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله لتسلم لهم شهواتهم في الدنيا، لأن الرسل جميعاً، دعوهم إلى ترك شهواتهم في الدنيا، ورغبوهم بما يوجب لهم الثواب في الآخرة [وَحَذَّرُوهُمْ مِنَّا] ^(١) يوجب العقاب، فأنكروا الآخرة والبعث رأساً لتسلم لهم الدنيا. فذلك الذي حملهم على إنكار الرسل وتكذيبهم إياهم.

ألا ترى أنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] أي بالقرآن [أو بمحمد، أي] ^(٢) إيمانهم بالبعث حملهم على الإيمان بالقرآن والرسول، وتكذيبهم الآخرة حملهم على تكذيب الرسل، والله أعلم؟

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ قال بعضهم: إذا غضب الإنسان يدعو على نفسه وولديه وأهله، ويلعن كذعائه عليهم بالخير؛ لذلك انتصب قوله ﴿دُعَاءُهُ﴾.

وقال الحسن: إن الإنسان يتضائق صدره وقلبه بأذى شيء، يكرهه، فيلعن على نفسه وأهله، فلا يجيبه الله، ثم يدعو بالخير، فيعطيه، أو نخوه من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ هذا يختل وجهين:

أحدهما: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ على العلم منه بذلك كذعائه بالخير على العلم منه بذلك.

والثاني: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ لو أجيب فيه على الجهل منه والغفلة كذعائه بالخير لو أجيب في ذلك.

ثم إن كان ذلك الإنسان هو الكافر، فهو يدعو على الاستهزاء بكفره: ﴿فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا جِسَارًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] وكذلك قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ونحوه.

وإن كان مسلماً فهو يدعو بالشَّرِّ على نفسه وأهله عند الغضب على علم منه أنه [منه] ^(٣) ويدعو أيضاً بالشَّرِّ على السَّهْو والغفلة منه نحو ما يسأل الأموال والنكاح، ولعل ذلك شرُّه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ قال بعضهم: هذا لآدم لأنه لما خلقه الله، فتفتح الروح في بغض جسده، هم أن يقوم، فسماه عجولاً. لكن كل الإنسان خلق في الطبع من الأصل عجولاً. ألا ترى أنه لا يصبر على أمر واحد ولا على شيء واحد، وإن كان نعمة لم يصبر عليها، ولكن يمل عنها، وكذلك في أذى شدة وبلاء إذا بلي به، لم يصبر/ ٢٩٧ - أ/ عليها. فابداً يريد الانتقال من حال إلى حال؟

ألا ترى أن قوم موسى قد أكرمهم الله بكرامات من أنزال المَنَّ والسَّلوى عليهم من غير كد ولا جهد ولا مؤنة وكذلك اللباس، ثم لم يصبروا على طعام واحد، فسألوا ربهم الثَّوم والبَصَل ونحوه على طبع الإنسان ملولاً عجولاً؟

ألا ترى أن الله مكَّن في باطنه، وجعل في [وسعه رياضة] ^(٤) نفسه، وصرفها إلى أحد الوجهين الذي يُحمد ^(٥) عليه، ولا يُذم؛ وهو أن يروضها، ويعودها على الصَّبر والحكمة ^(٦) والوقار، ويصرف تلك العجلة إلى الخيرات والطاعات التي يُحمد ^(٧) عليها المرء بالعجلة؟ وإلا ففي ظاهر الخلق والطبع منشأ على العجلة وما ذكر.

ألا ترى أنه قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ خَالِقٌ﴾ [الأنشراح: ١٩-٢٢] وهو ما ذكرنا، والله أعلم؟ لكن بما امتحنه من الأمر والنهي والترغيب في الموعود والترهيب صبره بحيث يملك [إخراج نفسه] ^(٨) عما طبع، وأنشئ إلى حال أخرى بالرياضة التي ذكرنا.

ألا ترى أنه ذكر الهَلَع والجَزَع، ثم استثنى [إلا المصلين] ^(٩) [المعارج: ٢٢] وعلى ذلك خلق الله الخلق على همم

(١) في الأصل وم: وحذرهم عما. (٢) في الأصل: وبمحمد، في م: أو بمحمد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: سعة رياضية، في م: سعة رياضة. (٥) في الأصل وم: يجهد. (٦) في الأصل وم: الحكم. (٧) من م، في الأصل: يحمل. (٨) في الأصل وم: إلا كذا. (٩) في الأصل وم: إخراجة. (١٠) في الأصل وم: إلا كذا.

مُخْتَلِفَةً وَأَطْوَارٍ مُتَشَتِّتَةً، لَمْ يَخْلُقْهُمْ جَمِيعاً فِي مَعَانِي الْأُمُورِ وَمَعَاطِمِ الْجَرَفِ وَأَرْفَعِ الْأَسْمَاءِ، بَلْ طَبَعَهُمْ عَلَى أَطْبَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْعُبُ فِي مَعَالِي الْأُمُورِ وَالْجَرَفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ الرَّغْبَةُ فِي الدُّونِ مِنَ الْأُمُورِ وَالْجَرَفِ: فِي الْحِجَامَةِ وَالذَّبَابَةِ وَالْحِيَائَةِ وَنَحْوِهَا؛ وَكَذَلِكَ فِي الْأَسْمَاءِ، وَمِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَلَوْ كَانَتْ هِمَّتُهُمْ هِمَّةً وَاحِدَةً لَذَهَبَتِ الْمَنَافِعُ وَالْمَعَارِفُ جَمِيعاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ اختلف فيه: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، أَيْ جَعَلْنَا فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ [آيَةً] ^(١) أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَضَافَ الْآيَةَ إِلَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ حِينَ ^(٢) قَالَ: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وَحِينَ ^(٣) قَالَ أَيْضاً: ﴿لِنَمْلِكُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥] وَإِنَّمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ بِالْقَمَرِ؟

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ أَيْضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ الْآيَةُ [يونس: ٥]؟ إِنَّمَا أَضَافَ مَعْرِفَةَ عَدَدِ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ إِلَى الْقَمَرِ. دَلٌّ أَنَّهُ بِالْقَمَرِ يُعْلَمُ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ عَلِيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَغَيْرِهِمَا ^(٤) مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. وَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْمَحْوِ الَّذِي ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ مَا قَالُوا فِي مَحْوِهِ، وَهُوَ السَّوَادُ الَّذِي يُرَى، وَالنَّقْصَانُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ فِي آخِرِهِ.

وقال بعضهم: مَحَى تِسْعَةً وَسِتِّينَ ^(٥) جُزْءاً مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ هَؤُلَاءِ.

وَأَمَّا الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرِ وَهَؤُلَاءِ فَهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ فِي الْآيَةِ ذِكْرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، إِنَّمَا ذَكَرَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَاخْبِرَ أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَتَيْنِ، فَهَذَا كَذَلِكَ آيَتَانِ، وَبِهِمَا يُعْلَمُ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ؛ لِأَنَّهُ بِالْأَيَّامِ يُعْرَفُ ذَلِكَ.

فَأَمَّا الشُّهُورُ فَإِنَّهَا ^(٦) إِنَّمَا تُعْرَفُ بِالْقَمَرِ، لَا تُعْرَفُ بِالْأَيَّامِ. وَيَكُونُ [تَأْوِيلُ قَوْلِهِ] ^(٧): ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أَيْ جَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ فِي الْإِبْتِدَاءِ مَمْحُوءَةً مُظْلِمَةً ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مُضِيئةً فِي الْإِبْتِدَاءِ، لَيْسَ أَنْ كَانَتْ جَمِيعاً مُبْصِرَتَيْنِ مُضِيَتَيْنِ، ثُمَّ مَحَى آيَةَ اللَّيْلِ، وَأُبْقِيَتْ آيَةُ النَّهَارِ مُضِيئةً. وَلَكِنْ أَنْشَأَ آيَةَ اللَّيْلِ فِي الْإِبْتِدَاءِ مُبْصِرَةً، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْأَنْبَاءُ كَيْفَ نُفِيتَ﴾ ﴿وَالْأَلْبَابُ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٨، ١٩] أَيْ أَنْشَأَهُمَا فِي الْإِبْتِدَاءِ كَذَلِكَ، لَا إِنَّ السَّمَاءَ، كَانَتْ مَوْضُوعَةً، فَرَفَعَهَا، وَكَذَلِكَ الْجِبَالَ، كَانَتْ مَبْسُوطَةً، ثُمَّ نَصَبَهَا، وَلَكِنْ أَنْشَأَهُمَا فِي الْإِبْتِدَاءِ كَذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أَيْ جَعَلَهُمَا ^(٨) فِي الْإِبْتِدَاءِ: هَذَا مُظْلِمًا مَمْحُوءًا وَهَذَا مُبْصِرًا مُضِيئًا.

[وقوله تعالى: ^(٩) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ هُمَا آيَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ، بَلْ مُتَضَادَّتَانِ، تُضَادُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا صَاحِبَتَهَا؛ إِذَا ^(١٠) كُلُّ وَاحِدَةٍ تَنْسَخُ الْأُخْرَى حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ. وَهُمَا آيَتَانِ دَالَّتَانِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْمَا فِعْلٌ عَدِيدٌ لَكَانَ إِذَا أَتَى هَذَا عَلَى هَذَا، مَنَعَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلْآخِرِ سُلْطَانٌ أَوْ أَمْرٌ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَلٌّ أَنَّهُ صُنِعَ وَاحِدٌ.

وفيهما دلالةٌ بتدبيره حين ^(١١) جَرَّيَا عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ وَمَقْدَارٍ وَاحِدٍ عَلَى غَيْرِ تَفَاوُتٍ يَكُونُ فِيهِمَا وَتَفَاضُلٍ أَوْ تَغْيِيرٍ عَلَى مَا كَانَ، وَمَضَى. دَلٌّ أَنَّهُ عَنْ تَدْبِيرٍ خَرَجَا، وَكَانَا كَذَلِكَ.

وفيه دلالةٌ عَلَيْهِ وَجُحْمَتِهِ لَمَّا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَوْ كَانَ اللَّيْلُ سَرْمَدًا لَذَهَبَتْ ^(١٢) مَنَفَعَةُ اللَّيْلِ نَفْسِهِ. وَلَوْ كَانَ النَّهَارُ سَرْمَدًا لَذَهَبَتْ مَنَفَعَةُ النَّهَارِ رَأْسًا.

وفيه دلالةٌ الْبَغْتِ لِأَنَّهُ يُثْلِفُ أَحَدَهُمَا إِذَا جَاءَ الْآخَرُ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرُ الْبَتَّةِ، ثُمَّ يُعِيدُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ غَيْرُ الْأَوَّلِ.

ثم قوله تعالى ﴿آيَتَيْنِ﴾ وَالْآيَةُ عَلَامَةٌ، وَعَلَامَتُهُمَا، لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالتَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِيهِمَا. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يُفْهَمُ مُرَادُ مَا فِي الْقُرْآنِ وَالْمَعْنَى الْمَوْدِعِ ^(١٣) فِيهِ إِلَّا بِالتَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِيهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وغيرهم. (٥) في الأصل وم: وستون.

(٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) في الأصل وم: قوله تأويل. (٨) في الأصل وم: جعلها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل: واحد منهما صاحبتها إذا، في م: واحدة منهما صاحبتها إذا. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: ذهب. (١٣) من م، في الأصل: الموعود.

وفيهما دلالة نقض قول أصحاب الطبايع وأصحاب النجوم والذفرية وجميع الملاحدة:

أما نقض قول أصحاب الطبايع فما ^(١) ذكرنا من أساق مجراها على سنن واحد وأمر واحد، دل أنه بالتدبير صار ^(٢) كذلك لا بالطبع.

وأما نقض قول أصحاب النجوم [فهي] ^(٣) مسخرة لمنافع الخلق، ومغلوبة؛ يغلبها ضوء الشمس ونور القمر حتى لا ترى، دل أنه، لا تدبير لها، وأن التدبير لغيرها.

والرد ^(٤) على غيرهم من الملحدة ما ذكرنا من اتصال منافع هذا بهذا، دل أنه ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يختل الفضل الذي ذكر الرزق والمعاش الذي ذكر في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ [النبا: ١١] ويختل أنواع فضل تكون في الدين ﴿وَلَتَعْلَمُوا أَنَّ الْيَنِينَ وَالْحَسَابَ﴾ هو ما ذكرنا أنه بهما يعرف.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ يختل التفصيل تفصيل آية من أخرى، أي لم يجعلهما آية واحدة على ما ذكر. وقال الحسن: [فصل، أي] ^(٥) بين ما أمر عباده، ونهاهم، أي بين، وفصل ما يؤتى وما ^(٦) يتقى، و: ﴿فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي فصله تفصيلاً، لم يتركه مبهماً، بل بين غاية البيان.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ اختلف في قوله: ﴿طَلِبَهُ﴾ قال بعضهم: طائر شقاوته وسعادته وورقه وعيشه. وقال بعضهم: عمله الذي عمل من خير أو شر. وقال بعضهم: خطه ونصيبه من عمله، وهو جزاؤه، ونحو ذلك، [ذلك] ^(٧) كله يرجع إلى معنى واحد، لأنه إنما يسعد [الإنسان] ^(٨) ويشقى بعمله الذي يعمل وكذلك بجزء ^(٩) عمله.

ولذلك قال الحسن في تأويل قوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا مِغْرَتَانَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] أي بأعمالنا التي عملناها، ثم تخرج تسمية العمل وما ذكرنا طائراً لوجهين:

أحدهما: على وجه التفاضل والطيرة؛ كانوا يتفألون، ويتطهرون بأشياء: بالطائر وغيره، ويقولون: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له بكذا من الشر على طريق القال والطيرة، فحاطبهم على ما يستعملون، وأخبر أن ذلك يلزم أغناهم، وهو ما قال الله تعالى: ﴿يَطِيرُوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّن مَّعَةٍ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقوله ^(١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قَالُوا لَا هَٰذَا بَشَرٌ نِّحْنُوهُ فَادْعُوا آلَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقوله أيضاً ﴿قَالُوا أَتُحِبُّونَ آلَكَ وَيَمْنَعُكَ﴾ الآية [النمل: ٤٧] ونحوه.

والثاني: سمي الأعمال التي عملوها طائراً لما أن الذي تتولد منه تلك الأعمال كالطائر، وهو الهمة؛ أولاً: يخطر [ببال الإنسان شيء، وفي] ^(١١) الإحطار لا صنع له فيه، ثم يهتم، ثم تبتت الهمة على الإرادة، ثم الإرادة تبتت على الطلب والعمل. فالحمة التي في النفس التي تتولد منها الأعمال كالطائر، فسماه لذلك باسمه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ يختل [وجهين]:

أحدهما ^(١٢): أن يكون العنق كناية عن النفس، أي الزمناه نفسه. وذلك جائز؛ يقال: هذا لك علي، وفي عنقي.

والثاني: ٢٩٧ - ب/ [أن يكون] ^(١٣) ذكر العنق كما يقول الرجل لآخر إذا أراد التخلص [من] ^(١٤) عمل: قلذتك هذا العمل، وجعلته في عنقك، أي تكون أنت المأخوذ به أتما إن كان في ذلك شر، وأنت المأجور به الماثب إن كان فيه خير. والمعنى في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي لا يؤخذ غيره بعمله وشقاوته، ولكن هو المأخوذ به، وهو

(١) في الأصل وم: لما. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أي فضل. (٦) في الأصل وم: مما. (٧) في م: فذلك، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وكقوله. (١١) في الأصل وم: بياله شيئاً ففي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

ما قال: ﴿مَنْ آفَتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].. هذه الآيات الثلاث، معناها واحد، وهو ما ذكرنا: ألا يؤخذ غيره بعمله^(١)، ولا تحمّل نفس خطيئة أخرى ولا وزرها، ولكن كل نفس، هي تحمّل خطيئة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ هذا يحتمل وجهين: أحدهما: أي يجعل ما ألزم عنقه ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾.

والثاني: أي يجعل ما ألزم عنقه ﴿كِتَابًا﴾.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ كُنْ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا قيل: شهيداً، وقيل: كافياً وحاسباً، وهو واحد، لأن المؤمن بما سبق من صالحاته، يقف فيها، لا يقطع القول فيها لرجائه في رحمته، ولخوفه من مساوئه فلا يشهد على نفسه بالمقوية. وأما الكافر فإنه يشهد على نفسه بالنار لما لم يكن له ما يطمع [في]^(٢) رحمته.

وقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي نخرج ﴿لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ فيقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ كُنْ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا. وفي ذلك لطف عظيم بقراءة كتابه بأي لسان كان لأنه لم يبين بأي لسان يكتب، ثم يتذكر جميع ما عمل في عمره، وقد ينسى الرجل عملاً، يعمل في أدنى مدة، لكن هنا يتذكر في ساعة وزهلة ما كان عاملاً فيه.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿مَنْ آفَتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي من افتدى إلى ما جعل الله عليه من أنواع النعم، وقام بأداء شكرها، فإنما فعل ذلك لنفسه، لأنه هو المستفيد^(٣) به، أو يقول: من اختار الهدى، وأجابه إلى ما دعاه مولاه ﴿فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي فإنما اختار ذلك لنفسه، لأنه هو المستفيد^(٤) به، وهو الساعي في فكالك رقبته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ مَدَّ﴾ أي من ضل، أي اختار الضلال ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما يرجع عليها ضرره، وهو ما ذكر: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلَعَلَّهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لِأَنْفِكَ وَإِنْ أَسَأْتَ فَكَانَتْ لِنَفْسِكَ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ مَدَّ﴾ عن ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إلى نفسه يرجع ضرر ضلاله على نفسه كقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ هو ما ذكرنا، أي لا تحمّل نفس خطيئة أخرى، ولا تأثم بوزر أخرى [ذكر هذا، والله أعلم، لوجهين:

أحدهما]^(٥): أن أمر الآخرة خلاف أمر الدنيا لأن في الدنيا قد تؤخذ نفس مكان أخرى، وتحمّل^(٦) نفس مؤنة أخرى، وفي الآخرة لا تؤخذ نفس بدل أخرى.

والثاني: قد يتبرع بعض عن بعض يتحمّل المؤنات والقيام في فكايها [في الدنيا]^(٧) وأما في الآخرة فلا يتبرع بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يحتمل: ما كنا معذبين تغذّب استئصال في الدنيا إلا بعد دفع الشبه ورفعها عن الحجج من كل وجه وبعد تمايها، وإن كانت الحجة قد لزمتهم بدون بغث^(٨) الرسل ليدفع عنهم عذرهم من كل وجه.

ويحتمل^(٩) أن يكون قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إفضالاً منه ورحمة، وإن كان العذاب قد يلزمهم، والحجة قد قامت عليهم. والعذاب الذي كانوا يعذبونه^(١٠) في الدنيا ليس، هو عذاب الكفر، لأن عذاب الكفر دائم أبداً،

(١) في الأصل وم: بعمل آخر. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) من م، في الأصل: المشفع. (٤) من م، في الأصل: المشفع. (٥) في الأصل وم: والله أعلم ذكر هذا. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: البعث. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: يعذبونهم.

لا انقطاع له، وهذا مما ينقطع، وينفصل. لكن يُعَذَّبُونَ بأشياء كانت منهم من العناد ودفع الآيات. وأما عذاب الكُفْرِ فهو في الآخرة أبداً، لا ينقطع.

وفي الآية دلالة أن حُجَّة التوحيد قد لَزِمَتْهُمْ، وقامت عليهم بالعقل حين^(١) قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلو لم تَلَزِمْهُمْ لَكَانَ الرسلُ إذا دَعَوْهُمْ إلى ذلك يقولون^(٢): مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَنْ نَعْتَكُم إلينا؟ فإذا لم يكن لهم هذا الإحتجاج دلَّ أن الحُجَّةَ قامت عليهم.

لكن الله بِفَضْلِهِ أراد أن يدفع الشبهة عنهم، ويقطع عنهم عُذْرَهُمْ برسولٍ يبعث إليهم لما أن أسباب العلم بالأمور ثلاثة: فمنها ما يُعَلِّمُ بظاهر الحواس بالبدئية، ومنها ما يُفَهِّمُ بالتأمل والنظر، ومنها ما لا يُعَلِّمُ إلا بالتعليم والتثبي.

وقال القشيري: ﴿وَنُخْرِجُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وهو ما ذكرنا: أي^(٣) نُخْرِجُ بِذَلِكَ الْعَمَلِ كِتَابًا.

وقال أبو عوسجة: أي نكتب ما عمل، ثم نقلده^(٤) في عُقْبِهِ، فنجى به يوم القيامة.

وقال أبو عبيدة: طائرُه حظه. وقال غيره من المفسرين: ما عمل من خير أو شر الزمان في عُقْبِهِ.

وقال القشيري: وهذان المعنيان يحتاجان إلى بيان. والمعنى في ما أرى، والله أعلم: أن لكل امرئ حظاً من الخير والشر، وقد قضاه الله، فهو لا يَزِمُ عُقْبَهُ، والعرب تقول: إن كل ما لزم الإنسان، قد لزم عُقْبَهُ، وهو لارم، طائر [في]^(٥) عُقْبِهِ، وهذا لك علي، وفي عُقْبِي، حتى أخرج منه. وإنما قيل لِلْحَظِّ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ: طائر لقول العرب ما ذكرنا: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له الطائر بكذا من الشر على وجه القول والطيرة على مذهبيهم في تسمية الشيء بما كان له سبباً، وهو ما ذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ التعذيب يكون على وجوه ثلاثة:

أحدها^(٦): يُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً بِتَعَذُّيبِ امْتِحَانٍ وَابْتِلَاءٍ بِأَجْرِمَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالْمُحْسِنَاتِ وَالْمُحْسِنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونحوه؛ فيكون تنبيهاً وتذكيراً لهم لا تكفيراً.

والثاني: يُعَذِّبُ تَعَذُّيبَ الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ، وهو تعذيب إهلاك واستئصال؛ فهو عقوبة لهم وموعظة للمتقين وعبرة لغيرهم، وهو الذي يأتي على إثر وعيد.

والثالث: عذاب الموعود في الآخرة؛ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فِي الدُّنْيَا.

والأشبه أن يكون ما ذكر من التعذيب، وهو تعذيب استئصال، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ فِتْرَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ وَاحِدًا^(٧)، ثم [من]^(٨) قرأ بالتثنية [فإنه]^(٩) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا مِنَ الْإِمَارَةِ وَالتَّسْلِيطِ عَلَيْهِمْ أَيْ أَمَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَسَلَّطْنَا مُتْرَفِيهَا، أَيْ أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ، وَسَلَّطْنَا مُتْرَفِيهَا: فَسَاقَهَا وَمُسْتَكْبِرِيهَا.

والثاني: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا أَيْ أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ وَمُنْعِمِيهِمْ. يَذْكُرُ لَهُمْ هَذَا لِقَوْلِهِمْ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوعًا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا﴾ [الزخرف: ٢٣] وقولهم: ﴿وَحَنَّا أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ الآية [سبل: ٣٦] كانوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ لَأَنَّهُمْ قَدْ أَنْعَمُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِكَثْرَةِ^(١٠) أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ إِلَّا بَعْدَ مَا كَثُرَ عَدَدُهُمْ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، لَمْ يُهْلِكْهُمْ^(١١) فِي حَالِ الْقِلَّةِ وَالضِّيقِ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: يَقُول. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: نَقْلَد. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَحَدُهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ح ٣١٣/٣. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: وَأَكْثَرُوا. (١١) فِي الْأَصْلِ رَم: يَهْلِكُوا.

الْحَسَنَةَ حَقَّ عَقَابِهَا [الأعراف: ٩٥] أَي كَثُرُوا، وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُجِّحَ بِمَا أُوْتُوا لَعْنَتُهُمْ بَعَثَهُ إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] لم يأخذ بالعذاب الأَمَمَ الخالية إِلَّا في حالِ كَثْرَتِهِمْ وَأَمْنِهِمْ. وَعِزَّتِهِمْ بِالسَّعَةِ. يُحَذِّرُ هَؤُلَاءِ لئَلَّا يَغْتَرُّوا بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَعَدَدِهِمْ.

وَمَنْ قَرَأَ^(١): ﴿أَتَرَكْنَا مَثَرِيهَا﴾ بالتَّخْفِيفِ فهو مِنَ الْأَمْرِ، أَي أَمَرْنَا عِظَمَاءَهُمْ وَكِبَرَاءَهُمْ طَاعَةَ الرَّسْلِ^(٢) وَالْإِجَابَةَ إِلَى مَا دَعَوْهُمْ^(٣) إِلَيْهِ/ ٢٩٨ - أ/ حتى إِذَا عَصَوْا رُسُلَهُ، وَتَرَكُوا إِجَابَتَهُمْ عَلَى الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَهْلِكُهُمْ^(٤) لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْصِلِ الْأَمَمَ الْخَالِيَةَ إِلَّا بَعْدَ عِنَادِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَمُكَابَرَتِهِمْ فِي دَفْعِهَا وَتَكْذِيبِهَا، لَا يَهْلِكُهُمْ فِي أَوَّلِ مَا كَذَّبُوا آيَاتِ اللَّهِ وَخَالَفُوا رُسُلَهُ.

وقوله تعالى: ﴿مَثَرِيهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَثَرُ الْمَكْرُمُ وَالْمُسْتَكْبِرُ، وَكُلُّهُ وَاحِدٌ. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِرَادَةَ غَيْرُ الْمُرَادِ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِتَقَدُّمِ الْإِرَادَةِ عَنْ وَقْتِ الْإِهْلَاكِ. دَلَّ أَنَّهَا غَيْرُهُ. وَفِيهِ أَنَّهُ أَرَادَ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَهْلِكُهُمْ^(٥)، وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْعِنَادُ، لَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ هَلَاكَهُمْ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْهُمْ غَيْرَ سَبَبِ الْهَلَاكِ. فَهَذَا يُرَدُّ قَوْلُ الْمُعْتَرِضِ: إِنَّ الْإِرَادَةَ، هِيَ الْمُرَادُ، وَإِنَّهُ لَمْ يُرَدِّ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ سَبَبِ الْهَلَاكِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ بِمَا أَرَادَ إِهْلَاكَهُمْ؛ وَجَبَ عَلَيْهِمْ. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ بِمَا أَخْبَرَ عَنِ الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿فَدَرَرْنَا تَدْرِيهَا﴾ أَي أَهْلَكْنَاهَا إِهْلَاكًا.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِيبًا يَدْخُلُ عِبَادِهِ خَيْرًا بِبَصِيرَةٍ﴾ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَبِيرُ وَالْبَصِيرُ وَاحِدًا. وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ: الْخَبِيرُ الْعَالَمُ بِأَعْمَالِهِمْ وَالْبَصِيرُ بِمَصَالِحِهِمْ وَمَعَاشِيهِمْ وَبِجَزَائِهِمْ؛ يُقَالُ: فَلَانٌ بَصِيرٌ فِي أَمْرِ كَذَا، وَفُلَانٌ أَبْصَرَ مِنْ فُلَانٍ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿يَدْخُلُ عِبَادِهِ﴾ هُوَ^(٦) مَكْرَهُمُ الَّذِي كَانُوا يَمْكُرُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِمَكْرِهِمُ الَّذِي يَمْكُرُونَ بِكَ﴾.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَالِجَةَ عَجَلًا لَمْ يَفْلَحْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ يَخْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةَ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ مِنْ نَحْوِ الْإِنْفَاقِ وَالصَّدَقَاتِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ^(٧) وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ وَالذِّكْرَ فِي الدُّنْيَا، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ أَرَادَ بِمَا يَقَعُلُ ذَلِكَ ﴿عَجَلًا لَمْ يَفْلَحْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

وَالثَّانِي: يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَةَ﴾ أَي لَا يُرِيدُ بِهَا إِلَّا جَمْعَ الْأَمْوَالِ وَسَعَتَهَا ﴿عَجَلًا لَمْ يَفْلَحْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا كُلُّ مَنْ أَرَادَهَا يُعْجَلُ لَهُ ذَلِكَ، وَلَا مَا أَرَادَ يُعْجَلُ لَهُ ذَلِكَ. وَلَكِنْ إِنَّمَا يُعْجَلُ [اللَّهُ مَا أَرَادَ]^(٨) وَلَمْ يَأْتِ أَرَادَ؛ إِذْ لَا كُلُّ مَنْ أَرَادَ شَيْئًا يُعْطَى لَهُ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا يُعْطَى فِي الْآخِرَةِ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالِجَةَ﴾ فَقَالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَذْذُورًا﴾ أَي مَذْمُومًا بِمَا يُسَمَّى بِأَسْمَاءِ قَبِيحَةٍ ذَنِيئَةٍ مَذْمُومَةٍ عِنْدَ الْخَلْقِ، أَوْ يُذَمُّ، وَيُلَامُ فِي النَّارِ ﴿مَذْذُورًا﴾ مَطْرُودًا مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَمِنْ الْخَيْرَاتِ أَوْ مُبْعَدًا عَنْ رَحْمَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿مَذْمُومًا﴾ عِنْدَ نَفْسِهِ يَوْمئِذٍ، أَوْ مَذْمُومًا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ وَالْخَلْقِ جَمِيعًا.

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وَجْهَانِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الرَّسُولُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: دَعَاهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَهْلِكُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَهْلِكُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْأُمُور. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا أَرَادَ اللَّهُ.

أخذهما: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِإِهْلَاكِ إِيَّاهُم مَوْتَهُنَّ بِأَجَالِهِنَّ، يَقُولُ: هُمُ كَانُوا عَدَدًا قَلِيلًا زَمَنَ نُوحٍ، ثُمَّ كَثُرُوا حَتَّى صَارُوا قُرُونًا، ثُمَّ مَاتُوا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ

والثاني: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِهْلَاكُ ههنا إِهْلَاكُ اسْتِثْصَالٍ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أخذهما: أَنَّهُنَّ^(١) قَدْ اسْتَوَرَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ أَعْنِي [الْأَوْلِيَاءَ وَالْأَعْدَاءَ]^(٢) وَفِي الْحِكْمَةِ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُنَّ^(٣) وَالتَّفْرِيقُ، فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ [أُخْرَى يُفَرِّقُ بَيْنَهُنَّ]^(٤) فِيهَا، وَيُمَيِّزُ.

والثاني: قَدْ أَهْلِكُوا جَمِيعًا. وَفِي الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ إِنْشَاءُ الْخَلْقِ لِلْإِنْفَاءِ خَاصَّةً بِمَا عَاقِبَتْهُ تَقْصُصُ عَبَثٍ بَاطِلٍ، فَذَلَّ أَنْ هُنَالِكَ دَارًا أُخْرَى هِيَ الْمَقْصُودَةُ حَتَّى صَارَ خَلْقُ هَؤُلَاءِ حِكْمَةً، وَفِيهِ الْإِزَامُ الْبَغْثُ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلًا لَمْ يَهَيِّأْ مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ وَهُوَ كَافِرٌ بِرَبِّهِ مُكْذِبٌ بِالْآخِرَةِ ﴿عَجَلًا لَمْ يَهَيِّأْ مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِرَبِّهِ مُصَدِّقٌ بِالْآخِرَةِ ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بِهَا ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أَيَّ مَجْزِيًّا مَقْبُولًا.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا نُنْزِلُ الْهَاقِلَةَ هَاقِلَةً هَاقِلَةً﴾ أَيِ [الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، نُعْطِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ]^(٥) أَيِ لَا نَحْرِمُ مِنَ الْعَاجِلَةِ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ. يُخْبِرُ أُولَئِكَ الْكَافِرَةَ بِكُفْرِهِمْ بِالْآخِرَةِ أَنَّهُ لَيْسَ يُعْطَى الدُّنْيَا وَسَعَتْهَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالْآخِرَةِ، وَلَكِنْ يُعْطَى مَنْ كَفَرَ بِهَا، وَمَنْ آمَنَ بِهَا لَثَلَا يَحْمِلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى حُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَطَلَبِ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ فِيهَا عَلَى كُفْرِهِمْ بِالْآخِرَةِ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿كَلَّا نُنْزِلُ الْهَاقِلَةَ هَاقِلَةً هَاقِلَةً﴾ أَيِ يُعْطَى الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُكَ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أَيِ رِزْقُ رَبِّكَ وَقَضَاؤُهُ مَحْظُورًا. قَالَ بَعْضُهُمْ: مَخْبُوسًا وَمَمْنُوعًا.

وقال بَعْضُهُمْ: مَحْظُورًا أَيِ مَنْقُوصًا، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ، أَيِ لَا يَنْقُصُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جَزَائِهِمْ.

وَرُويَ فِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا عَلَى نِيَّةِ الْآخِرَةِ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ عَلَى نِيَّةِ الدُّنْيَا» [كَتَرِ الْعَمَالِ ٦٠٥٦]

وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ الْعَبْدُ، هَمُّهُ الْآخِرَةُ، كَفَى اللَّهُ لَهُ فِي صَنْعَتِهِ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ. وَإِنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا أَفْسَى اللَّهُ عَلَيْهِ صَنْعَتَهُ، وَجَعَلَ قَفْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَلَا يُنْسِي إِلَّا فَقِيرًا، وَلَا يُضِيحُ إِلَّا فَقِيرًا» [بَنَحْوِهِ التِّرْمِذِيُّ ٢٤٦٥]

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلًا لَمْ يَهَيِّأْ مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾ وَأَمَّا مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ لِلْآخِرَةِ فَهُوَ لَيْسَ بِمَذْمُومٍ، فَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ [الْآيَةُ [هُود: ١٥]] وَقَوْلُهُ: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُغْوٌ وَلَهُوٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٠] [الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ]^(٩). وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ، فَهُوَ لَيْسَ بِلَعِبٍ، وَلَهُوٍ، لِأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُنْشَأْ لِنَفْسِهَا وَإِنَّمَا أُنْشِئَتْ لِلْآخِرَةِ. فَمَنْ رَأَاهَا لَهَا، وَارَادَهَا لِنَفْسِهَا، فَهُوَ لَعِبٌ وَلَهُوٌ، وَمَنْ رَأَاهَا لِلْآخِرَةِ، فَهُوَ لَيْسَ بِلَعِبٍ وَلَا لَهُوٍ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فِي الدُّنْيَا فِي الرِّزْقِ وَفِي الْخَلْقَةِ يَكُونُ بَعْضُهُمْ أَعْمَى، وَبَعْضُهُمْ بَصِيرًا، وَيَكُونُ أَصَمًّا، وَيَكُونُ سَمِيعًا وَنَحْوَهُ. فَعَلَى مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا عَلَى التَّفَاوُتِ وَالتَّفَاضُلِ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ كَذَلِكَ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ عِنْدَ اللَّهِ لَا فِي الضِّيْقِ وَالسَّعَةِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُونَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ^(١٠) قَالَ: ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْوَلِيَّ وَالْعَدُوَّ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَيْنَهُمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَفْرِيقُ بَيْنَهُمَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، نُعْطِي هَذَا وَهَذَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ﴿٢١﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَكْثَرَ، وَلَا أَوْسَعَ. دَلَّ أَنَّهُ عَلَى الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ لَا عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُونَ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مِثْرَهُ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا^(١)]: قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّ التَّنْفِي فِي مِثْلِ هَذَا الْخَطَابِ لِرَسُولِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَوْهُومٍ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْعِصْمَةِ الَّتِي عَصَمَهُ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ فِي ذَاتِهِ لَمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ الْعِصْمَةَ إِنَّمَا يُنْتَفَعُ بِهَا مَعَ التَّنْهِ وَالْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمْرُ وَالتَّنْهِ مَا اخْتَجِبَ إِلَيْهَا، أَوْ خَاطَبَهُ بِوَعْدٍ عَلَى إِرَادَةِ غَيْرٍ عَلَى مَا يُخَاطَبُ بِهِ مَلُوكُ الْأَرْضِ الْأَقْرَبُ إِلَيْهِمْ وَالْأَعْظَمُ وَالْأَخْطَرُ مِنْهُمْ دُونَ خَسَائِسِ النَّاسِ وَرَدِّ إِلَيْهِمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُخَاطَبُ كَلًّا فِي نَفْسِهِ، لَيْسَ أَنْ يُخَصَّ رَسُولُهُ بِذَلِكَ. وَلَكِنْ كُلُّ مَوْهُومٍ ذَلِكَ مِنْهُ.

وَالثَّلَاثُ^(٢): يَحْتَمِلُ أَنْ يُخَاطَبَ بِهِ [كُلُّ إِنْسَانٍ]^(٣) كَقَوْلِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الانفطار: ٦٠ و. ٦١] وَقَوْلِهِ^(٤): ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١ و. ٢٢] لَيْسَ إِنْسَانٌ أَحَقُّ بِهَذَا الْخَطَابِ مِنْ إِنْسَانٍ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ.

[وَالرَّابِعُ: يَحْتَمِلُ أَنْ] ^(٥) يُخَاطَبَ رَسُولُهُ / ٢٩٨ - ب / لِيَعْلَمَ مَنْ دُونَهُ أَنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ، وَإِنْ عَظَّمَ قَدْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَازْتَفَعَ مَحَلَّهُ وَمَنْزِلَتَهُ مُحَابَاةً فِي الدِّينِ، لِأَنَّ الرِّسَالَ هُمْ الْمُكْرَمُونَ عَلَى اللَّهِ الْمُعَظَّمُونَ عِنْدَهُ. فَإِذَا لَمْ [يَعْفَ عَنْهُمْ]^(٦) فِي هَذَا لَمْ يَعْفَ عَنْهُمْ^(٧) دُونَهُمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِثْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ نُفَخِ بِهِ نُفْخَةٌ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وَهُمْ أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ^(٨) وَصَفَهُمْ أَنَّهُمْ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] فَعَلَى ذَلِكَ الرِّسَالُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ عَلَى إِثْرِهِ: ﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَلْفُظْنُ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَبَوَيْهِ كَانَ ضَالِّينَ، فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُخَاطَبَ رَسُولُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٤] دَلَّ أَنَّهُ خَاطَبَ بِهِ كُلَّ مُحْتَمِلٍ ذَلِكَ وَمَوْهُومٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا﴾ أَيِ ذَلِيلًا مَقْهُورًا؛ لِأَنَّ الْخِذْلَانَ هُوَ ضِدُّ النَّصْرِ وَالْعَوْنِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنْ يَصْرُوكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ذَكَرَ الْخِذْلَانَ مُقَابِلَ النَّصْرِ؟ فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تَعَذُّوْا﴾ أَيِ مَقْهُورًا ذَلِيلًا غَيْرَ مَنْصُورٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَضَى: حَكَمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَضَى مَهْنًا: أَمَرَ، أَيِ أَمَرَ ﴿رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَضَى رَبِّكَ: وَصَى رَبِّكَ. وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا كَانَا يَقْرَأْنَ: وَوَصَّى رَبِّكَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَعَهْدَ رَبِّكَ.

وَقَالَ الْفَتَّيْ: ﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ﴾ أَيِ خَتَمَ رَبِّكَ، وَهُوَ مِنَ الْقَرْضِ وَالْإِلْزَامِ، أَيِ قَرْضِ رَبِّكَ، وَالزَّمَّ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وَكَذَلِكَ حَكَمَ، وَهُوَ أَشْبَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَقِصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟﴾ [الأحزاب: ٣٦] دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقِصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ مَعْنَاهُ: أَيِ قَرْضِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَحَكْمًا أَمْرًا.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَقَفَّيْ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قَرْضٌ وَحُكْمٌ وَأَمْرٌ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إِلَّا إِلَهَ الْمَعْبُودِ الْحَقِّ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، لَا تَعْبُدُوا دُونَهُ أَحَدًا.

وَقَدْ أَبَانَ لَنَا أَنَّهُ هُوَ إِلَهُ الرَّبِّ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لَا الَّذِينَ يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ بِوُجُوهِ ثَلَاثَةٍ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. (٣) في الأصل وم. (٤) في الأصل وم. (٥) في الأصل وم. أو يقول. (٦) في الأصل وم. يعفونهم. (٧) في الأصل وم. من. (٨) في الأصل وم. حيث.

أَحَدُهَا: عَجَزُ الْعُقُولِ وَجَهَالَتُهَا عَنْ ذَلِكَ كُنْهِيَّةِ الْعُقُولِ وَمَاهِيَّتِهَا^(١)؛ لَأَنَّ الْعُقُولَ لَا تَعْرِفُ كُنْهِيَّةَ^(٢) أَنْفُسِهَا وَلَا مَاهِيَّتِهَا، وَتَعْرِفُ مَحَاسِنَ الْأَشْيَاءِ وَمَقَابِحَهَا. فَقَدْ عَرَفَتِ الْأُلُوهِيَّةَ لِلَّهِ وَحُسْنَ الْعِبَادَةِ لَهُ وَقُبْحَهَا لِغَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَوْجَدُ فِي جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنْ آثَارِ أُلُوهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ شُكْرًا لَهُ. وَعَلَى ذَلِكَ جَعَلَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ عِبَادَةً شُكْرًا لَهُ لِمَا فِيهَا مِنْ آثَارِ أُلُوهِيَّتِهِ.

وَالثَّلَاثُ: السَّمْعُ، أَنْبَأَنَا أَنَّ لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا أُلُوهِيَّةَ لِسِوَاهُ دُونَهُ. فَذَلِكَ مَعْنَى [مَا]^(٣) قَرَضَ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَمَرَهُمْ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

وَتَأْوِيلُ حُكْمِ رَبِّكَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لِمَا أَنْشَأَ فِي خَلْقِهِ كُلِّ أَحَدٍ آثَارَ وَخَدَائِثِهِ وَشَهَادَةَ رُبُوبِيَّتِهِ اسْتِحْقَاقَ الْعِبَادَةِ لَهُ. فَذَلِكَ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: قَضَى [أَي]^(٤) حَكَمَ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: قَضَى، أَيْ أَمَرَ رَبِّكَ، وَكَلَّفَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فَيَكُونُ فِيهِ أَمْرٌ بِالْعِبَادَةِ لَهُ، وَالتَّهْنِئَةُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَمَرَ رَبِّكَ أَنْ اْعْبُدُوهُ، وَنَهَاكُمُ أَنْ تَعْبُدُوا غَيْرَهُ.

ثُمَّ الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، يَجُوزُ أَنْ يُطَاعَ غَيْرُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، لِأَنَّ الطَّاعَةَ، هِيَ الْإِثْمَارُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] أَيْ اتَّبِعُوا.

وَأَمَّا الْعِبَادَةُ، فَهِيَ الْإِسْتِسْلَامُ وَالْخُضُوعُ لَهُ وَالشُّكْرُ لَهُ، وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ لِسِوَى اللَّهِ، أَوْ يَكُونُ فِي الْعِبَادَةِ مَعْنَى لَا يَذَرُكَ كَمَعْنَى الرَّحْمَنِ، لَا يَذَرُكَ حِينَ^(٥) لَمْ يُجَوزْ تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ بِهِ. فَعَلَى [ذَلِكَ]^(٦) هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَقَرَضَ عَلَيْكُمُ إِحْسَانًا، وَحَكَمَ الْإِحْسَانَ لِلْوَالِدَيْنِ. ثُمَّ الْإِحْسَانُ فِي عَرَفِ النَّاسِ هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ وَمَعْرُوفٌ يَصْنَعُهُ [الْمَرْءُ]^(٧) إِلَى غَيْرِهِ. هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ فِي الْعَرَفِ وَاللُّغَةِ.

لَكِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، هُوَ الشُّكْرُ؛ لَا مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْإِحْسَانِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ النَّاسِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤] لِأَنَّ الشُّكْرَ، هِيَ الْمُكَافَأَةُ وَالْجَزَاءُ لِمَا أَنْعَمَ وَصُنِعَ مِنَ الْمَعْرُوفِ.

فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَإِنْ ذُكِرَ الْإِحْسَانُ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تُشْكِرُوا بِهِ سُبْحَانَكَ﴾ [النساء: ٣٦] وَفِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْكِرُوا بِهِ سُبْحَانَكَ﴾ [النساء: ٣٦] وَفِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤] فَالْمُرَادُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الشُّكْرُ لِهَذَا لِمَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان: ١٤] وَالشُّكْرُ، هُوَ الْمُكَافَأَةُ.

أَمَرَهُ أَنْ يَكْفِيَهُمَا لِهَذَا، وَيُجَازِيَهُ بَعْضَ مَا كَانَ مِنْهُمَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ وَالْبِرِّ وَالْعَطْفِ عَلَيْهِ وَالْوَقَايَةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ فِي الْبَطْنِ وَبَعْدَ مَا خَرَجَ مِنَ الْبَطْنِ حَتَّى كَانَ يُؤْثِرَانِيهِ عَلَى نَفْسَيْهِمَا^(٨) فِي السُّرُورِ، وَيَجْعَلَانِ نَفْسَيْهِمَا [وَقَايَةً لَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَخْذُورٍ، فَأَمَرَ الْوَلَدَ أَنْ يَشْكُرَ لِوَالِدَيْهِ جَزَاءً وَمُكَافَأَةً لِمَا كَانَ مِنْهُمَا إِلَيْهِ وَمِمَّا ذَكَرْنَا].

[ذَكَرَ هَذَا فِي الْحَالِ الَّتِي عَجَزَا هُمَا عَنِ الْقِيَامِ لِأَمْرِ نَفْسَيْهِمَا^(٩)] وَالْحَوَائِجُ لَهُمَا. وَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُمَا إِذَا كَانَا قَادِرِينَ لِحَوَائِجِ نَفْسَيْهِمَا^(١٠) وَمَنَافِعِهَا يَبْرَأَانِ وَلَدَهُمَا، وَيُحْسِنَانِ إِلَيْهِ، فَيَحْمِلُ بَرُّهُمَا وَإِحْسَانُهُمَا إِلَيْهِ عَلَى الطَّاعَةِ لَهُمَا فِي الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا عَلَى الْمُجَازَاةِ.

وهكذا الْمَعْرُوفُ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّهُ إِذَا بَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَتَعَثَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُكَافَأَةِ لِيَدُومَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَالْأَيُّ يَقْطَعُ. لِذَلِكَ ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الْإِحْسَانَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ فِي [الْحَالِ]^(١١) الَّتِي هِيَ حَالُ ضَعْفٍ وَعَجْزٍ حِينَ^(١٢) قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَا بَيْنَهَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَيْفِيَّة. (٣) م، ساقطة من الأصل. (٤) م، ساقطة من الأصل. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسَهُمَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ: أَنْفُسَهُمَا. (١١) ساقطة من م. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسَهُمَا. (١٣) م، ساقطة من الأصل. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

الْكِبَرِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ۖ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَ الْحَالَ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، وَهُوَ حَالُ طُفُولِيَّتِهِ وَصِبَرِهِ، أَنْ كَيْفَ رَبَّيَاهُ، وَبِرَّاهُ، وَعَظَمًا عَلَيْهِ، وَلَا نَا لَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا حَتَّى لَمْ يَسْتَغْدِرْهُ مِنْهُ شَيْئًا مِمَّا يَسْتَغْدِرُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَلَمْ يُبْعِدْهُمَا عَنْهُ مَا يُبْعَدُ الْخَلْقَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى وَالْحُبْثِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُعَامِلَهُمَا إِذَا بَلَغَا الْحَالَ الَّتِي كَانَ هُوَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّغَبِ وَالْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ بِالْحَوَائِجِ عَلَى مَا كَانَ هُوَ، وَبَلَغَا الْمَبْلَغَ الَّذِي يَسْتَغْدِرُ مِنْهُمَا، وَيُبْعَدُ عَنْهُمَا، إِلَّا يَسْتَغْدِرُ مِنْهُمَا، وَلَا يَتَّبَعِدُ عَنْهُمَا كَمَا لَمْ يَسْتَغْدِرْهُمَا مِنْهُ ۖ «فَلَا تَقُلْ لِمَسَاءٍ أَوْيَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا» ۖ عِنْدَ السُّؤَالِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ كَمَا لَمْ يَفْعَلَا هُمَا لَهُ، بَلْ يَلِينُ، وَيَذِلُّ، كَمَا لَنَا هُمَا لَهُ، وَخَضَعَا. وَهُوَ مَا قَالَ: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّعُكُمْ» ۖ [النحل: ٧٠] وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: «خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» [الروم: ٥٤].

أَخْبَرَ أَنَّهُ يَرُدُّ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعِلْمِ إِلَى الْحَالِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا وَحَالِ الضَّغَبِ وَالْجَهْلِ حِينَ^(١) قَالَ: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» ۖ [النحل: ٧٨] وَقَالَ: «خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» ۖ [الروم: ٥٤] فَقَالَ: «فَلَا تَقُلْ لِمَسَاءٍ أَوْيَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا» ۖ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا تَقُلْ لِمَسَاءٍ أَوْيَ» ۖ هُوَ كُنَايَةٌ عَنْ إظهارِ الْكَرَاهَةِ لِهَمَا فِي التَّوَجُّهِ «وَلَا تَنْهَرُهُمَا» ۖ أَيِ لَا تُعْتَفِيَا فِي الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلَا هُمَا بِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «أَوْيَ» الْمُرَادُ مِنْهُ هُوَ «أَوْيَ» لَا غَيْرُهُ «وَلَا تَنْهَرُهُمَا» ۖ أَيِ لَا تُعْتَفِيَا، وَلَا تَتَحَسَّنْ. لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَوَّلَ حَالِ الْإِسْتِغْفَالِ وَالْكَرَاهَةِ مِنْهُ وَآخِرَهَا، أَيِ لَا تَقُلْ لِهَمَا: أَفْ عَلَى مَا يَسْتَغْفِلُ النَّاسُ شَيْئًا، وَيَكْرَهُونَهُ فِي أَوَّلِ حَالٍ، يَرَوْنَ شَيْئًا مُسْتَقْفَلًا مَكْرُوهًا، يَقُولُونَ: أَفْ، أَيِ لَا تَقُلْ: أَفْ لئَلَّا يُحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى الْعُتْفِ وَالْحُسُونَةِ وَالتَّهْنِ.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى ٢٩٩ - أ/ قَالُوا فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» ۖ [النور: ٣٠] قَالَ بَعْضُهُمْ: «يَبْعَثُوا مِنْ آبَائِهِمْ» ۖ لِيَحْفَظُوا^(٢) فُرُوجَهُمْ، لِأَنَّ النَّظَرَ بِالْبَصَرِ [يَحْمِلُ الْمَرْءَ]^(٣) عَلَى الزَّنى فِي الْفَرْجِ، وَمِنْهُ يَكُونُ بَذُّ الْفُجُورِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «يَبْعَثُوا مِنْ آبَائِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» ۖ ذَكَرَ أَوَّلَ حَالٍ وَآخِرَهَا لِيَمْتَنِعُوا عَنْ كُلِّ ذَلِكَ.

[قَعَلَى ذَلِكَ]^(٤) قَوْلُهُ: «فَلَا تَقُلْ لِمَسَاءٍ أَوْيَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا» ۖ ذَكَرَ أَوَّلَ الْحَالِ وَآخِرَهَا: [فَأَوَّلُهَا: «أَوْيَ» وَآخِرُهَا: «وَلَا تَنْهَرُهُمَا»]^(٥) أَيِ لَا تُظْهِرْ فِي وَجْهِكَ مِنَ الْكَرَاهَةِ وَالْإِسْتِغْفَالِ [لئَلَّا يُحْمَلَ]^(٦) ذَلِكَ عَلَى الْعُتْفِ وَالْإِنْتِهَارِ.

فَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: «أَوْيَ» أَفْ لَا غَيْرُ فَنَفِيهِ حُجَّةٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي قَوْلِهِ: إِذَا نَفَعَ الْمُصَلِّي فِي مَوْضِعِ سُجُودِهِ، فَهُوَ^(٧) كَلَامٌ، يَقْطَعُ صَلَاتَهُ [لأنَّ اللَّهَ تَعَالَى]^(٨) قَالَ: «فَلَا تَقُلْ لِمَسَاءٍ أَوْيَ» ۖ أَيِ لَا تَتَكَلَّمْ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» [بَعْدَمَا]^(٩) نَهَاهُ أَنْ يَقُولَ لِهَمَا «أَوْيَ» وَنَهَاهُ أَنْ يَنْهَرُهُمَا. فَإِذَا امْتَنَعَ عَنِ الْأَفْ وَالتَّهْنِ قَالَ^(١٠) بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلًا لَيِّنًا لَطِيفًا.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: يُقَالُ: نَهَرْتُهُ [وَأَنْتَهَرْتُهُ نَهْرًا]^(١١) وَهُوَ الْحَشِينُ مِنَ الْكَلَامِ، يُشْبِهُ^(١٢) الرَّعِيدَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرِ الْكَيْسَانِيُّ: الْكَرِيمُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى آخِرِ نِعْمَةٍ، وَيُهْنِتُهُ بِتَرْكِ الْأَذَى وَالْمَنْ كَقَوْلِهِ: «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» [البقرة: ٢٦٤] وَقَالَ غَيْرُهُ فِي وَصْفِ السَّخِيِّ: هُوَ^(١٣) الَّذِي يَبْذُلُ مَا اخْتَوَى عَلَيْهِ لِمَنْ اخْتِاجَ إِلَيْهِ [وَيَقْطَعُ طَمَعَهُ]^(١٤) عَمَّا اخْتَوَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ. وَشُبِّهَ أَنْ يَكُونَ الْكَرِيمُ قَرِيبًا مِنْهُ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْوَالِدَيْنِ كَالْمَجْبُولِينَ الْمَطْبُوعِينَ عَلَى الْبِرِّ لِأَوْلَادِهِمَا وَالشَّفَقَةَ عَلَيْهِمْ، وَلَا كَذَلِكَ الْأَوْلَادُ، فَكَيْفَ يُشْبِهُ بِرَّ مَنْ كَانَ مَجْبُولًا بِهِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ بِرَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِطَبِيعِهِ؟ قِيلَ: لِذَلِكَ ذَكَرَ هَذَا فِي الْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدَيْنِ، وَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِيَحْفَظُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْمِلُهُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالثَّانِي: (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَحْمِلَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (١١) فِي م: وَأَنْتَهَرْتُهُ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: شَبَّهَهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَطَعَ طَمَعَهُ.

لأنَّ ما يَفْعَلُ الوالدانِ مِنَ البرِّ والإحسانِ إلى الوَلَدِ يَفْعَلَانِ بِطَئِعٍ، والوَلَدُ لا لِذَلِكَ كَانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أَعْلَمُ. ولهذا لم يَجْعَلْ، ولم يَشْرَعْ قَتْلَ الوالِدِ بَوَلَدِهِ، إِذِ الْقِصَاصُ حَيَاةٌ بَيْنَهُمْ، وَشَرَعَ قَتْلَ الوَلَدِ بِوَالِدَيْهِ؛ إِذْ فِي الوالِدَيْنِ مِنَ الشَّفَقَةِ والرَّحْمَةِ ما يَنْتَعِ قَتْلَ الوَلَدِ، وَلَيْسَ فِي الوَلَدِ ذَلِكَ، فَجَعَلَ فِي قَتْلِ الوَلَدِ وَالِدَهُ فِي الْقِصَاصِ، ولم يَجْعَلْ فِي قَتْلِ الوالِدَيْنِ وَلَدَهُمَا. فَعَلَى ذَلِكَ هذا فِي البرِّ والإحسانِ.

فإن قيل: ما الْحِكْمَةُ فِي ما قَرَنَ اللهُ مِنْ شُكْرِ والِدَيْهِ شُكْرَهُ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ [كقوله] ^(١) «أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَاكَ؟» [لقمان: ١٤] قيل: لَأَنَّهُ بِهِمَا كَانَ نَمَاؤُهُ مِنْ أَوَّلِ حَالِهِ إِلَى آخِرِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ التَّغْذِيَةِ وَالتَّزْيِينِ وَالْوَقَايَةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَالْحِفْظِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَشَرٍّ.

وفي الآية دليل لقول أبي حنيفة حين ^(٢) قَالَ فِي الْمُكَاتِبِ: إِذَا اشْتَرَيْتِ وَالِدَهُ أَوْ أُمَّهُ صَارَ مُكَاتِبًا، وَإِذَا اشْتَرَيْتِ [أخوه أَوْ ذُو] ^(٣) رَجِمَ مَحْرَمٌ مِنْهُ لَمْ يَصِرْ مُكَاتِبًا لِأَنَّ الْآبَ وَالْأُمَّ يَصِيرَانِ كَذَلِكَ بِحَقِّ الْجَزَاءِ وَالشُّكْرِ. فَعَلَيْهِ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْأَخُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَارِمِ بِحَقِّ الْمَعْرُوفِ، فَمُلْكُهُ لَا يَخْتَمِلُ ذَلِكَ.

والخطابُ مِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ رَسُولِهِ، فَالمرادُ مِنْهُ غَيْرُهُ. لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُذْرِكْ وَالِدَيْهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أُرْسِلَ [فِيهِ إِلَيْهِمْ] ^(٤) وَخَاطَبَهُ بِمَا خَاطَبَ. دَلٌّ أَنَّهُ أَرَادَ بِالْخُطَابِ غَيْرَهُ. كُلُّ [ذَلِكَ] ^(٥) مُخْتَمِلٌ ذَلِكَ وَمَوْهُومٌ مِنْهُ. وَأَمْرُهُ أَنْ يُعَامِلَهُمَا بِالْمُعَامَلَةِ الَّتِي ذَكَرَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: «وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ» يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْجَنَاحُ كِنَايَةً عَنِ الْيَدَيْنِ، لِأَنَّ الْيَدَيْنِ فِي الْإِنْسَانِ بِمَوْضِعِ الْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ، وَجَنَاحُ الطَّائِرِ إِدَاةٌ، فَكَانَهُ قَالَ: اخْفِضْ، وَاخْضَعْ لَهُمَا يَدَيْكَ كَمَا أَمَرَهُ أَنْ يَخْضَعَ لَهُمَا بِلسانِهِ بِقَوْلِهِ: «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» أَيِ اخْضَعْ لَهُمَا قَوْلًا وَفِعْلًا. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْجَنَاحُ كِنَايَةً عَنِ النَّفْسِ، أَيِ اخْضَعْ لَهُمَا بِجَمِيعِ النَّفْسِ وَالْجَوَارِحِ.

وقوله تعالى: «الَّذِي» يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الذَّلِيلِ نَفْسُهُ، أَيِ كُنْ لَهُمَا كَالْمُسْتَعِينِ الْمُخْتَاجِ إِلَيْهِمَا لَا كَالْمُعِينِ لَهُمَا قَاضِي الْحَاجَةِ، وَلَكِنْ ذَلِيلًا كَالْمُسْتَعِينِ [بِالْآخِرِ] ^(٦) رَافِعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «الَّذِي» كِنَايَةً عَنِ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْقَلْبِ، أَيِ اخْضَعْ لَهُمَا بِرَحْمَةِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ جَمِيعًا.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: «أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» [المائدة: ٥٤] أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» [الفتح: ٢٩] وَذَكَرَ مُقَابِلَ الذَّلِيلِ فِي تِلْكَ الْآيَةِ الرَّحْمَةَ [وَفِي هَاتَيْنِ مُقَابِلَ الذَّلِيلِ الْعِزَّةَ وَمُقَابِلَ الشَّدَّةِ الرَّحْمَةَ] ^(٧). فَعَلَى ذَلِكَ يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «جَنَاحَ الذَّلِيلِ» كِنَايَةً عَنِ الرَّحْمَةِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: أَنْ اخْضَعْ لَهُمَا بِالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ جَمِيعًا عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: «فَلَا تَقُلْ لِمَا آفَى وَلَا تَنْهَرْهُمَا» وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» قَالَ بَعْضُهُمْ: «رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» وَيَخْتَمِلُ أَنْ [يَكُونَ] ^(٨) عَلَى الْإِضْمَارِ، فَيَكُونُ، وَاللهُ أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ قَالَ: رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَجِمَانِي، وَرَبَّيَانِي صَغِيرًا.

وقول أهل التاويل: إِنَّ هَذَا مَنْسُوخٌ، نَسَخَهُ قَوْلُهُ: «مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ» [التوبة: ١١٣] بَعِيدٌ. وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ. فَالرَّحْمَةُ الَّتِي ذَكَرَ تَكُونُ فِي الْكَافِرِينَ سُؤَالَ الْهِدَايَةِ لَهُمْ وَجَعْلِهِمْ أَهْلًا لِلرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ كَقَوْلِ نُوْحٍ لِقَوْمِهِ: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا» أَيِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، فَيَهْدِيكُمْ، فَيَغْفِرَ لَكُمْ مَا كَانَ مِنْكُمْ «إِنَّهُ كَانَ» لَمْ يَزَلْ «غَفَّارًا» إِذْ لَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَيَعِدُّهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ اسْتَغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ لِأَيُّو.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أخاه أو ذا. (٥) في الأصل وم: إليه. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: من الآخر. (٨) في الأصل وم: في هذا مقابل العزة الشدة. (٩) ساقطة من الأصل وم:

أو أن يكون من الرِّحْمَةِ التي يَتَرَاخَمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالشَّفَقَةُ التي تَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ كما يَتَرَاخَمُ لِلصَّغَارِ^(١) وَالضَّعْفَاءِ ثم مِثْلُ هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ التي أَمَرَ الْوَلَدُ أَنْ يُعَامِلَ آبَاؤُهُ يُلْزِمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ أَنْ يُعَامِلَ^(٢) النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. غَيْرَ أَنَّ هَذَا فِي مَا بَيْنَ النَّاسِ، لَيْسَ يَفْرَضُ لَازِمٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ بِحَقِّ الشُّكْرِ وَالْجَزَاءِ لِهَمَا بِمَا كَانَ مِنْهُمَا إِلَيْهِ مِنَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَحَقِّ التَّزْيِينِ وَالتَّعْلِيمِ^(٣) حَقَّهُمَا وَجَلِيلُ قَدْرِهِمَا وَخُصُوصِيَّتُهُمَا، وَهُوَ كَمَا قَالَ^(٤) لِرَسُولِهِ: ﴿وَلْيُخْفِضْ جَنَاحَكَ لِنِ أَيْمَانِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وَلَا فَقَدْ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَرَاخُمٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلَى مَا ذَكَرَ رُحْمَاءَ بَيْنَهُمْ [الفتح: ٢٩] وَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿زَيْكُو أَتْلُو بِنَا فِي نُؤِيكُو﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿زَيْكُو أَتْلُو بِنَا فِي نُؤِيكُو﴾ مِنْ إِسْرَارِ الْمَحَبَّةِ لِهَمَا وَالْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ. وَقَالَ [بَعْضُهُمْ]^(٥): قَوْلُهُ ﴿زَيْكُو أَتْلُو بِنَا فِي نُؤِيكُو﴾ أَيِ أَغْلَمَ [بِمَا تَعْلَمُهُ]^(٦) نُفُوسُكُمْ، وَهُوَ كَمَا قَالَ عِيسَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَتْلُو مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أَيِ تَعْلَمُ مَا تَعْلَمُهُ^(٧) نَفْسِي ﴿وَلَا أَتْلُو مَا فِي نَفْسِكَ﴾ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّقْدِيرِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿زَيْكُو أَتْلُو بِنَا فِي نُؤِيكُو﴾ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَنَّى﴾ الْآيَةُ، أَيِ رَبُّكُمْ أَغْلَمَ بِمَا فِي ضَمِيرِكُمْ مِنَ الْإِسْتِغْذَارِ إِيَّاهُمَا وَالْإِسْتِغْثَالِ وَالْكَرَاهَةِ إِذَا بَلَغَا^(٨) الْمَبْلَغَ الَّذِي ذَكَرَ. وَلَكِنْ لَا تُظْهِرُ ذَلِكَ لِهَمَا، وَلَا تُوَافِقُ ظَاهِرَكَ بِاطْنِكَ، أَوْ أَنْ يَقُولَ ﴿زَيْكُو أَتْلُو بِنَا فِي نُؤِيكُو﴾ فَلَا تُرَاوُوا^(٩) النَّاسَ، وَلَا تُضَرِّفُوا مَا فِي ضَمِيرِكُمْ إِلَى مَنْ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، يُخَاطِبُ الْكُلَّ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ لَا يَجْعَلُ مَا فِي قَلْبِهِ لِيُغَيِّرَهُ، بَلْ يُخْلِصُ لَهُ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿زَيْكُو أَتْلُو بِنَا فِي نُؤِيكُو﴾ أَيِ مَا تَعْلَمُهُ^(١٠) أَنْفُسُكُمْ وَتُدَبِّرُهُ^(١١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أَيِ تَصِيرُوا صَالِحِينَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿تَكُونُوا﴾ إِنَّمَا هُوَ فِي حَادِثِ الْوَقْتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ كَانُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ عَفْوًا﴾ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّكُمْ كَانُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ عَفْوًا﴾ لِلْأَوَابِينَ وَلِمَنْ يَشَاءُ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْأَوَابِ: قَالَ بَعْضُهُمُ الْأَوَابِ الرَّجَاجُ الثَّوَابُ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَوْسَجَةَ. قَالَ الْقَتِيبِيُّ: الْأَوَابِ الثَّابِتُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَهُوَ مِنْ أَبٍ يَوُوبُ، أَيِ يَرْجِعُ، وَهُمَا وَاحِدٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمُ: الْأَوَابِ الْمُطِيعُ، وَقِيلَ: الْمُسَبِّحُ، وَنَحْوُهُ.

وقال أبو عَوْسَجَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيُخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرِّحْمَةِ﴾ أَيِ لِنِ لِهَمَا، وَارْتَفَقَ بِهِمَا، ذَكَرَ بَرَّ الْإِنْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ وَلُظْفُهُ بِهِمَا^(١٢) قَوْلًا وَفِعْلًا.

وليس في ظَاهِرِ الْآيَةِ ذِكْرُ الْبِرِّ بِالْمَالِ/ ٢٩٩ - ب/ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمَا. فَيُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ دَاخِلًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَاكُلُونَ مِنْ مِثْلِهِ شَيْئًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أَوْ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ لِمَا أَنَّ مَالَ^(١٣) الْوَلَدِ مَالُ لِهَمَا.

أَلَا تَرَى إِلَى مَا رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ [أَنَّهُ]^(١٤) قَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ أَبُوهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالًا، وَإِنَّ لِي أَبًا، وَلَهُ مَالٌ، وَإِنَّ أَبِي يَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ مَالِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لَا يَبُكُّ»؟ [ابن ماجه: ٢٢٩٢] أَوْ لَا تَرَى أَيْضًا أَنَّهُ أَضَافَ بُيُوتَ الْوَلَدِ إِلَيْهِمَا حِينَ^(١٥) قَالَ: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] مَعْنَاهُ بُيُوتُ أَبَائِكُمْ.

وقال بَعْضُهُمْ^(١٦) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّكُمْ كَانُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ عَفْوًا﴾ إِنَّهُ [يَغْفِرُ تَرْكَ]^(١٧) صَلَاةِ الضُّحَى. وَيُزَوِّي فِي ذَلِكَ خَبْرًا [عَنْ]^(١٨) زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ [أَنَّهُ]^(١٩) قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَوْمٍ، وَهُمْ يُصَلُّونَ الضُّحَى، فَقَالَ: «صَلَاةُ الضُّحَى إِذَا رَمَضَتْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الصَّغَارُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يُعَامِلُهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالتَّعْلِيمُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يُقَالُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا تَفْعَلُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: تَفْعَلُهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَلَغَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرُونَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: تَفْعَلُهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتُدَبِّرُهَا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِيَّاهُمَا. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَالُ. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضٌ. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الفَصَالُ مِنَ الضَّحَى، [بنحوه مسلم ٧٤٨] وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [أنه^(١)] قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِثَلَاثٍ: أَمَرَنِي أَنْ أَصُومَ ثَلَاثًا فِي كُلِّ شَهْرٍ وَالْأَنَامَ إِلَّا عَلَى وَثَرٍ وَأَنْ أَصَلِّيَ رَكَعَتَيِ الضَّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْوَائِينَ» [التمهيد ١٤١/٨] وَرُوِيَتْ^(٢) أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَى صَلَاةِ الضَّحَى وَفِعْلِهَا وَأَنَّهُ صَلَّى هُوَ رَكَعَتَيْنِ وَأَرْبَعًا وَسِتًّا وَثَمَانِيًا مَا يَكْتُمُ ذِكْرُهَا، وَيَطُولُ، وَمَنْ صَلَّاهَا فَإِنَّمَا صَلَّاهَا عَلَى سَبِيلِ التَّطَوُّعِ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ اللُّزُومِ الْوَاجِبِ أَوْ السَّنَةِ الْمُؤَكَّدَةِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّاهَا مَرَّةً، فَكَانَتْ كَصَلَاةِ اللَّيْلِ، يُذَكِّرُ فَاعِلُهَا الْفَضْلَ.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْيَتِيمَ وَالَّذِينَ يَحْتَضِرُ الْوَيْلَ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي وَقَضَى أَنْ تُؤْتِيَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَمَنْ ذَكَرَ، أَي فَرَضَ، وَحَتَمَ، وَحَكَمَ عَلَى اخْتِلَافٍ مَا قَالُوا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] أَمَرَ ﷺ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالشُّكْرِ لِهَمَا وَصِلَةِ ذِي الْقُرْبَى فَرِيضَةً وَمَنْ ذَكَرَ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿حَقُّهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ الْحَقُّ فَرِيضَةٌ، وَهُوَ الزَّكَاةُ حِينَ^(٣) جَعَلَ ذَلِكَ صِلَةً مَا هُوَ فَرَضَ، وَهُوَ الشُّكْرُ لِلَّهِ وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ وَشُكْرَ الْوَالِدَيْنِ جَزَاءً لِمَا كَانَ مِنْهُمَا إِلَيْهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ذَلِكَ فَرَضٌ لَازِمٌ. فَعَلَى ذَلِكَ صِلَةٌ هَؤُلَاءِ. إِنْ صَلَّيْتُمْ فَرِيضَةً لِمَا جَاءَ مِنَ الْمَوَاعِيدِ الشَّدِيدَةِ فِي قَطْعِ الرَّجْمِ وَالتَّوْبِغِيبِ فِي صَلَاتِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ذَلِكَ الْحَقُّ نَفْلٌ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا يُبْذَرُ بُذِيرًا﴾ [وقال: ^(٤)] ﴿وَلَا يَسْطَرَّ كُلُّ الْبَسِطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وَقَالَ: ﴿وَأَمَّا تُعْرَضَنَّ عَنْهُمْ آيَةُ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨] فَلَا يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ آيَةُ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فِي الْفَرَضِ. دَلَّ أَنَّهُ فِي النَّفْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْذَرُ بُذِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّبْذِيرُ وَالْإِسْرَافُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ فِي الْإِنْفَاقِ وَالْحَقْوِ، وَالْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْمُحَقِّ وَغَيْرِ الْمُحَقِّ.

رُويَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ التَّبْذِيرِ، فَقَالَ إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّبْذِيرُ هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي مَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ. وَيَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُتْرَكُ الْإِنْفَاقُ عَلَى الْمُحَقِّ [وهو ذوا^(٥)] الْقُرْبَى، وَيُنْفَقُ عَلَى الْإِجْنَبِيِّينَ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبُذِيرَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أَي كَانُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيَاطِينِ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أَي كَفُورًا لِرَبِّهِ.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُعْرَضَنَّ عَنْهُمْ آيَةُ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [رُويَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ^(٦)] قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسْأَلُ، فَيَقُولُ: مَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّهُمْ لَسِتُّعَةُ آيَاتٍ، إِلَّا صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾» [بنحوه البخاري ٢٥٠٨] أَي عِذْمُهُمْ أَنَّهُ سَوْفَ يَأْتِي الرِّزْقُ.

وَعَنِ^(٧) ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه^(٨)] قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا تُعْرَضَنَّ عَنْهُمْ﴾ إِذَا سَأَلُوكَ، وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ، انْتَظَرْتَ رِزْقًا مِنَ اللَّهِ، يَا بَنِيكَ ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ يَكُونُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، شِبْهَ الْعِدَّةِ. وَأَمثالُ هَذَا، قَالُوهُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَأَمَّا تُعْرَضَنَّ عَنْهُمْ﴾ إِعْرَاضَ الْإِجَابَةِ فَذَلِكَ يَكُونُ بِالِاسْتِثْقَالِ وَالِاسْتِخْفَافِ مَرَّةً، أَوْ لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ يُعْطِيهِمْ ثَانِيًا. لَكِنْ لَا يُعْرَفُ أَنَّ الْإِعْرَاضَ، كَانَ لِلِاسْتِثْقَالِ وَالِاسْتِخْفَافِ أَوْ لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُعْطِيهِمْ، [فَأَمَرَهُ اللَّهُ^(٩)] أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ لَيْسَ لِلِاسْتِثْقَالِ وَالِاسْتِخْفَافِ، وَكَذَلِكَ تَرُكُ الْإِجَابَةِ لَهُمْ، وَلَكِنْ لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ لَيْسَ لِلِاسْتِثْقَالِ وَلَا لِلِاسْتِخْفَافِ، وَلَكِنْ لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُعْطِيهِمْ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقد يروى. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: وغير المحق. (٦) في الأصل وم: عن الحسن. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فأمر.

اجتمع أهل التأويل أن هذا الإعراض، هو السؤال، لأنه كان يُعرض عنهم لا يتغاضوا ما يُعطيه؛ فذلك الإعراض يُرجع منفعة إلى السؤال. ثم اختلفوا في قوله: ﴿تَسْوَرًا﴾ قال بغضهم: عذمهم عذة حسنة إذا كان ذلك أعطيتك.

وقال بغضهم: أي عذمهم خيراً. وقال بغضهم: قل لهم قولاً ليناً وسهلاً. وقال أبو عوسجة ﴿تَسْوَرًا﴾ أي حسناً، وهو من التيسير^(١) ونحوه. ذلك قالوا، أي اردد عليهم رداً حسناً ليَقَعَ عندهم أن الإعراض إنما ليس عندك^(٢) شيء، لا يوجب آخر.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ في الإنفاق إذا كان عندك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [لا لتلا يلومك]^(٣) من رجاك، ولكن لما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية [الفرقان: ٦٧] أمر الله تعالى أن يُنفقوا نفقة، ليس فيها سرف ولا إقتار، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه وغيره.

وقال بغضهم: لا تُنسيك عن النفقة في ما أمرك ربك به من الحق ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ في ما نهاك عنه [فتنعد ملوماً تحسراً]^(٤) وقال بغضهم: هذا نهى عن البخل والسرف. فليكن كان هذا نهياً عن [البخل] كان قوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٥) نهياً عن الجود، ولا يَحْتَمِلُ أن ينهى [الله تعالى أحداً]^(٦) عن البخل والجود لأنهما غريزتان طبيعيتان، ولا ينهى [الله تعالى أحداً]^(٧) عما سبيله الطبع والغريزة، ولكن ما ذكرنا، والله أعلم، من كف اليد وقبضها عن الإنفاق في الحق والمحق وبسوطها في غير الحق وذو الحق.

وقال أبو بكر الأصم: دل قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أن قول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أنهم لم يريدوا حقيقة اليد، ولكن [أرادوا]^(٨) التضييق والتقييد. وكذلك لم يرد بقوله ﴿بَلْ يَدَايَ مَبْسُوتَتَانِ﴾ حقيقة بسط اليد، ولكن^(٩) أراد التوسيع في الرزق والتكثير. ألا ترى أنه قال: ﴿يَبْقَىٰ كَيْفَ بَيِّنًا﴾؟ [المائدة: ٦٤]

ثم يَحْتَمِلُ الخطاب في هذه الآيات الوجوه الثلاثة التي ذكرنا في ما تقدم:

أحدها: أنه خاطب رسوله بذلك كله، وأشرك^(١٠) فيه قومه، وفي القرآن كثير مما^(١١) خاطب رسوله بأشياء، فأشرك^(١٢) قومه في ذلك.

والثاني: [أنه]^(١٣) خاطب كلاً في نفسه نحو ما ذكرنا في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الإنفطار: ٦] وقوله^(١٤): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١ و...]. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقوله^(١٥): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وقوله^(١٦): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْتَّائِينَ﴾ [الناس: ١] ونحوه من الخطاب؛ خاطب كل أحد في نفسه، إذ لا يَحْتَمِلُ أن يُخاطب في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ رسوله^(١٧) خاصة، ولا يُخاطب غيره. بل الخطاب به كل الناس وكل إنسان.

والثالث: [أنه]^(١٨) خاطب رسوله على إرادة غيره على سبيل الخصوصية له نحو ما يُخاطب ملوك الأرض خواصهم وأغفلهم من رعييتهم على إرادة ذلك الخطاب غير المخاطبين. فعلى ذلك يَحْتَمِلُ هذا، أو يكون خاطب بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ غيره ممن يُنسبك، ويُخاطب بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ رسول الله لأن رسول الله ﷺ لا يَحْتَمِلُ أن يكون ما ذكر، وقد يَحْتَمِلُ البسط. لذلك كان ما ذكر، والله أعلم.

وقوله تعالى ٣٠٠ - /: ﴿فَتَنَعَّدَ مَلُومًا تَحْسَرًا﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿مَلُومًا﴾ عند نفسك وعند الناس [وعند الله]^(١٩) تلوم نفسك بأنك لم أنفقت؟ وعند الناس ما لم تجد ما تنفق عليهم وعند الله إذا^(٢٠) أنفقت في غير حق ﴿تَحْسَرًا﴾ قال الفتي:

(١) في الأصل وم: التفسير. (٢) في الأصل وم: عنده. (٣) في الأصل وم: فيلومك. (٤) في الأصل وم: فتعند كذا. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أحد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ممكن. (١٠) في الأصل وم: وشارك. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: فيشارك. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: و. (١٧) في الأصل وم: رسول الله. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أيضاً.

أَي يَحْسُرُكَ الْعَظِيَّةُ، وَيَقْطَعُكَ، كَمَا يَحْسُرُ السَّمَرُ الْبَعِيرُ مُنْقَطِعًا. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: هُوَ مِنَ الْحَسْرَةِ، وَهِيَ النَّدَامَةُ؛ يُقَالُ: حُسِرَ الرَّجُلُ، فَهُوَ مَحْسُورٌ، وَقَالَ: التَّبْذِيرُ الْفَسَادُ، وَقَالَ^(١) «مَلُومًا» أَي مَحْزُونًا.

الآية ٣٠: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [يَتَحَمَّلُ وَجْهًا]:

أَحَدُهُمَا: ^(٢) هُوَ يُوسِعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يُوسِعُ، وَهُوَ يَقْتَرُ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يُضَيِّقُ، وَيَقْتَرُ، أَي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لَا إِلَى الْخَلْقِ، لِيَقْطَعُوا الرِّجَاءَ مِنَ الْخَلْقِ، وَيَرَوْا ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ، لَا يَرَوْنَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: ذَكَرَ هَذَا لِيُذَيِّمَ^(٣) الْفَضْلَ لِمَنْ ذَكَرَ الْفَضْلَ [وَقَدْ بَيَّنَّاهُ لَهُمْ حِينَ^(٤)] قَالَ: «أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا» [الإسراء: ٢١].

وَمِنْ^(٥) النَّاسِ مَنْ قَالَ: بَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ صِلَةُ قَوْلِهِ: «وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ» [الإسراء: ٢٩] يَقُولُ: وَاللَّهِ أَعْلَمُ. إِنَّكَ إِنْ مَنَعْتَهُ، وَحَرَمْتَهُ، وَكَانَ فِي تَقْدِيرِهِ التَّضْيِيقُ وَالتَّقْيِيرُ، لَمْ يَنْفَعْهُ بَسْطُكَ وَلَا تَوْسِيعُكَ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ التَّوَسِيعَ وَالبَسْطَ وَالتَّضْيِيقَ وَالتَّقْيِيرَ مِنَ اللَّهِ.

أَوْ^(٦) ذَكَرَ هَذَا لِيَقْطَعُوا الرِّجَاءَ مِنَ الْخَلْقِ، وَيَنْظُمُوا فِي رَحْمَتِهِ وَقُضِيِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَمِيرُهُ خَيْرًا بِصِيرًا﴾ أَي عَالِمًا بِأَعْمَالِهِمْ «بَصِيرًا» بِمَصَالِحِهِمْ وَمَالِهِمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، أَوْ يَكُونُ الْخَبِيرُ وَالْبَصِيرُ وَاحِدًا. أَوْ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمَ أَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ [مِنْ إِنْشَائِهِمْ^(٧)] الْخِلَافَ لَأَمْرِهِ وَالرَّدَّ وَالتَّكْذِيبَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِعْلُهُ وَانْشَاؤُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ عَنِ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّهُ لَا مَنَفْعَةَ لَهُ فِي طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ وَاتِّمَارِهِمْ، وَلَا مَضَرَّةَ وَلَا تَبِعَةَ فِي خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ، بَلِ الْمَنَفْعَةُ وَالْمَضَرَّةُ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِمْ. لِذَلِكَ كَانَ إِنْشَاؤُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ حِكْمَةً، وَمِنْ مَلُوكِ الْأَرْضِ [سَفَهًا وَجَهْلًا]^(٨)، لِأَنَّهُ مَا يُرْسِلُونَ مِنَ الرُّسُلِ، وَيَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَيَسْعَوْنَ، لِمَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ وَلِدَفْعِ مَضَارِهِمْ. فَإِذَا فَعَلُوا شَيْئًا يَضُرُّهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِالضَّرَرِ كَانَ ذَلِكَ سَفَهًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣١: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُونُوا عِزًّا لَكُمْ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصْمُ: إِنَّ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الْبَنَاتِ، وَيَقْتُلُونَ الْبَنِينَ إِذَا صَارُوا بِحَيْثُ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ، وَيَقْتُلُونَ الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ إِذَا بَلَغُوا أَرْذَلَ الْعُمُرِ فَتَهَى اللَّهُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَنِ الْإِسْتِنَانِ بِسُنَّتِهِمْ، وَأَمَرَ أَنْ يُبَيَّرُوا الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ إِذَا بَلَغُوا ذَلِكَ الْمَبْلَغَ، وَهُوَ مَا قَالَ: «وَالْأَوْلَادُ إِنْ سَكَنُوا إِمَّا يَكُونُوا عِزًّا لَكُمْ أَوْ كَلَامًا» [الإسراء: ٢٣] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

وَفِي قَتْلِ مَا كَانُوا يَقْتُلُونَ مِنَ الْبَنَاتِ قَطْعُ التَّشَاسُلِ وَالتَّوَالِدِ الَّذِي كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِنْشَاءِ هَذَا الْعَالَمِ؛ ذَلِكَ إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا، وَفِي قَتْلِ الْبَنَاتِ قَطْعُ ذَلِكَ وَذَهَابُ الْمَقْصُودِ مِنْ إِنْشَائِهِ.

ثُمَّ قَالَ: «ثُمَّ نَزَّوْنَهُمْ وَإِنَّا نَكْرَهُ» أَي هُمْ لَا يَأْكُلُونَ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ، بَلْ لِكُلِّ مِنْكُمْ رِزْقٌ عَلَى جِدَّةٍ، لَيْسَ فِي بَقَائِهِمْ نُقْصَانٌ فِي رِزْقِكُمْ، وَلَا فِي قَنَائِهِمْ زِيَادَةٌ، بَلْ كُلُّ يَأْكُلُ رِزْقَهُ.

أَوْ لَا تَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ أَنْشَأَ لَهُمْ رِزْقًا، لَا شِرْكَاءَ لَكُمْ فِيهِ؟ وَهُوَ مَا أَنْشَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ، وَلَا تَنْتَفِعُونَ أَنْتُمْ بِهِ، فَظَهَرَ أَنَّ كُلًّا يَأْكُلُ رِزْقَهُ، لَا يُدْخِلُ بَعْضُ فِي رِزْقِ بَعْضٍ نُقْصَانًا.

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا» لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ فِي قَتْلِهِمْ قَطْعُ مَا بِهِ قَصْدُ إِنْشَاءِ هَذَا الْعَالَمِ وَفَنَاءُهُ.

أَوْ يَقُولُ: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا» فِي الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ.

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ خَطَابُ مَا خَاطَبَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ وَالزُّنَى وَقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ لِيُوجِّهِينَ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيُذَيِّمَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَتَبَيَّنُ لَهُمْ حَيْثُ. (٥) هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الثَّالِثُ.

(٦) هَذَا هُوَ الْوَجْهُ الرَّابِعُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْشَاءَهُمْ مِنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: سَفَهًا وَجَهْلًا.

أحدهما: ما كَانَ للعربِ [من] ^(١) أفعالٍ وعاداتٍ السيئةِ مما تَخْرُجُ على السُّفُوِّ والقُبْحِ في العَقْلِ خارجةً عن الحِكْمَةِ، تنهاهم عن ذلك.

والثاني: ذَكَرَ هذا، ونَهَى لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ قد يَكُونُ في خَلْقِهِ مَنْ ^(٢) يَفْعَلُ ذلكَ خَشْيَةً ما ذَكَرَ، وتَحْيِلُهُمْ ذلكَ على ما ذَكَرَ، واللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي في العَقْلِ كَانَ وَقْتُ ما كَانَ فَاحِشَةً، لَأَنَّ في إِبَاحَةِ الزُّنَى ذَهَابَ المَعَارِفِ التي بها يُوصَلُ إلى الحِكْمَةِ والعِلْمِ، أو ﴿كَانَ فَحِشَةً﴾ في الحِكْمَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؟ دَلَّ قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ على أَنَّ هُنَاكَ فَحْشَاءً قَبْلَ الأَمْرِ في الحِكْمَةِ أو في العَقْلِ حتى قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إذ لو لم يَكُنْ لَكَانَ قَالَ لَا يَأْمُرُ، فَحَسَبُ.

وفي إِبَاحَةِ قَتْلِ الأنفُسِ ذَهَابُ ما بِهِ قُصِدَ إنْشَاءُ هذا العالمِ. أَخْبَرَ ^(٣) أَنَّهُ ﴿كَانَ خَطَنًا كَبِيرًا﴾ وهو ما يَغْضَمُ في العَقْلِ، وَذَكَرَ في الزُّنَى [أَنَّهُ] ^(٤) فَاحِشَةٌ، وهو ما يَفْحُشُ في العَقْلِ والحِكْمَةِ، وَذَكَرَ في قَتْلِ النفسِ الإسْرَافَ، وَقَالَ: فلا تُسْرِفُ ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ ^(٥) والإسْرَافُ هو المُجَاوِزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لَهُ.

وَيَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أي لَا تَرْزُقُوا فَإِنَّهُ ﴿كَانَ فَحِشَةً﴾ وَيَحْتَمِلُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ الأسبابَ التي يُوصَلُ بها إلى الزُّنَى.

الآية ٣٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والْحَقُّ ما رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَجِلُّ ذَمُّ أَمْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: كَفَرُ بَعْدَ إِسْلَامٍ أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ أَوْ قَتَلَ نَفْسَ بَغِيرِ حَقٍّ» [بِنَحْوِهِ النَّسَائِيُّ ٤٠٥٩] حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَ النَّفْسِ بَغِيرِ حَقٍّ، إِذْ فِي إِبَاحَتِهِ ذَهَابُ ما قُصِدَ مِنْ إنْشَاءِ العالمِ، وفي التَّحْرِيمِ حَيَاةُ الأنفُسِ، وفي إِبَاحَةِ الزُّنَى ذَهَابُ المَعَارِفِ وَجِهَاتُهَا، وفي تَحْرِيمِهَا حَيَاةُ المَعَارِفِ وَبِقَاوُهَا والْوَصُولُ إلى الحِكْمَةِ والعِلْمِ التي يَطْلُبُ بَعْضُ مِنْ بَعْضٍ، إِذْ لَا يُعْرِفُ أَهْلُ الحِكْمَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَنفي ذلكَ ذَهَابَ العِلْمِ والحِكْمَةِ.

وفي القَتْلِ على الدينِ إِذَا اسْتَبَدَّلَهُ حَيَاةُ الدينِ، لِأَنَّ مَنْ تَفَكَّرَهُ قَتَلَ نَفْسَهُ إِذَا تَرَكَ الدينَ؛ أَعْنِي دينَ الإسلامِ، وَرَجَعَ عَنْهُ.

[وفي الزُّنَى] ^(٦) لَمْ يَتَرَكَ دينَهُ الإسلامَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ رَجَمَهُ بِالزُّنَى امْتَنَعَ عَنِ الزُّنَى، وَتَرَكَهُ.

وَمَنْ تَفَكَّرَ أَنَّهُ يُقْتَلُ إِذَا قَتَلَ غَيْرَهُ امْتَنَعَ عَنِ قَتْلِهِ. وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فَإِنَّ قِتْلَ فِي المَرْأَةِ إِذَا ارْتَدَّتْ عَنِ الإسلامِ: إِنِّهَا لَا تُقْتَلُ، قِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي قَتْلِهَا حَيَاةُ الدينِ، لِأَنَّ النِّسَاءَ اتِّبَاعُ الرِّجَالِ فِي الدينِ، لِأَنَّهُمْ يُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِ أَزْوَاجِهِمْ، وَيَصِرُونَ ذِمَّةً بِذِمَّةِ الْأَزْوَاجِ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ فِي قَتْلِهَا حَيَاةٌ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ فُلَانًا اسْلَمَ مَعَهُ كَذَا وَكَذَا نِسْوةً، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والْحَقُّ ما ذَكَرْنَا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ بِالإِسْلَامِ أَوْ بِالذِّمَّةِ بِإِعْطَاءِ الجِزْيَةِ. [وقوله تعالى] ^(٧): ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ما ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا﴾ قِيلَ: ﴿سُلْطَانًا﴾ أي تَسَلَّطًا وَقَهْرًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿سُلْطَانًا﴾ أي حُجَّةٌ على القَتْلِ في ما يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْقِصَاصَ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ [جَعَلَ] ^(٨) لَوْلِيَّ القَتِيلِ ﴿سُلْطَانًا﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ أَيَّ وَلِيٍّ. فَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ مِنَ الْوَلِيِّ الَّذِي يَخْلُفُ المَيِّتَ فِي التَّرَكَةِ، وَهُوَ الْوَرِثَةُ، إِذْ هُوَ حَقٌّ كَغَيْرِهِ ^(٩) مِنَ الْحَقُوقِ، فَذَلِكَ إِلَى الْوَرِثَةِ، فَعَلَى ذَلِكَ حَقُّ الدِّمِّ، فَكَانَهُ قَالَ: وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا أي حُجَّةً في ما يَسْتَوْجِبُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) هذه قراءة الكسائي وهشام وحزمة وغيرهم، وقراءة الجمهور «فَلَا تُسْرِفُ» انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٢٠. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: كغير.

وفي ظاهر هذه الآية دلالة: أن للواحد من الورثة القيام باستيفاء الدَّم؛ إذ لو كان لكل الاستيفاء لدخل في ذلك الإسراف الذي ذُكر: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ إذ لو ضربه كل الورثة لصاروا^(١) في ذلك مثله، وقد مُيعوا عن ذلك فإذا كان ما ذُكرنا كان في ذلك دلالة لقول أبي حنيفة، رحمه الله، حين^(٢) قال: إن الورثة إذا كان بعضهم صغاراً، وبعضهم كباراً، فَلِلْكِبَارِ^(٣) أن يقوموا بالاستيفاء دون أن ينظروا بلوغ الصغار/ ٣٠٠ - ب/ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ قال بعضهم: لا يقتل غير القاتل^(٤)؛ وذلك إذ كان من عادة العرب قتل غير القاتل. وقال بعضهم: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ الأول حين^(٥) قتل نفساً بغير حق، فذلك إسراف كما قال: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَكَاوٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ رَجْعَيْنِ:

أحدهما^(٦): أن يكون خاطب به ولي القاتل، فقال: لا تُسْرِفَ في القتل أي [لا]^(٧) تُجاوِزِ الحد الذي جُعِلَ له على ما روي [عن رسول الله ﷺ]^(٨) «إِذَا قَتَلْتَ فَاحْسِنِ الْقَتْلَ» [بنحوه مسلم ١٩٥٥].

والثاني: [أن يكون]^(٩) خاطب به القاتل؛ يقول له: لا تقتل فإنه إسراف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ قال بعضهم: إن المقتول كان منصوراً بالولي بقوله: ﴿فَقَدْ جَمَعْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ وَيَحْتَمِلُ بالمسلمين، أي على المسلمين والحكام وغيرهم دفع ذلك القتل عنه.

هذا على تأويل من يتأول في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ قتل غير القاتل وليه، أو يزاد في جراحاته، أو يُمَثَّلُ تمثيلاً^(١٠)، يقول: اخذوا ذلك فإن على المسلمين دفع ذلك عنه، أو «كَانَ مَنصُورًا» في الآخرة.

وفي ظاهر هذه الآية دلالة أن القصاص واجب بين الأحرار والعبيد وبين أهل الإسلام وأهل الذمة، لأن الله ﷻ قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فكانت أنفس أهل الذمة والعبيد داخلة في هذه الآية لأنها مُحَرَّمَةٌ. وفيه ما ذُكرنا أن الكبير من الورثة يقتل^(١١)، وإن كان فيهم صغار.

وروي أن الحسن بن علي عليه السلام قتل قاتل أبيه فلاناً، وفي الورثة صغار، لم يذكرها يومئذ.

ويَحْتَمِلُ أن يكون: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ في ظاهر هذا أن القاتل، هو كان منصوراً، إذ^(١٢) لم يقل: هو منصور؛ فجائز أن يقول: كان منصوراً قبل قتل هذا، إذ^(١٣) كان على المسلمين نصره، فلما قتل كان غير منصور إلا أن يقال: إن الولي صار منصوراً، وذلك جائز.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] يَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنْ نَفْسِ الزَّنى، وَيَحْتَمِلُ [النَّهْيُ عَنْ]^(١٤) أسباب الزنى من نحو القُبلة والمس وغيره على ما ذكر [رسول الله ﷺ]^(١٥) «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيَكْذِبُهُ» [مسلم ٢٦٥٧].

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قوله: ﴿أَحْسَنُ﴾ هو أفعَل، فإن كان في الأشكال^(١٦) فهو على غاية الحسن، وإن كان في الجوهرين فهو على طلب الحسن كقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] أي اتبعوا^(١٧) ما هو طاعة؛ كأنه قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا﴾ ما هو خير له وحسن، وهو ما قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: ٦] يقول: لا تأكلوا إسرافاً وبداراً، ولكن اقربوا ما هو خير له. وإن كان على طلب الغاية من الحسن فهو ما قاله أبو حنيفة، رحمه الله، إذا قرب مال اليتيم لمنفعة نفسه فلا يقربه إلا لمنفعة حاضرة لليتيم، لا

(١) في الأصل وم: لصار. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قاتل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: مثلاً. (١١) في الأصل وم: قتله. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: إذا. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) من م، في الأصل: الإنكار. (١٧) في الأصل وم: اتبع.

يَقْرَبَ مَالَهُ لِمَنْفَعَةٍ مَرْجُوَّةٍ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ حَاضِرَةٌ. وَقَدْ ذَكَرْنَا تَأْوِيلَهُ وَمَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ بِقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ [الآية: ١٥٢].

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ اخْتَجَّ لَهُ، لِأَنَّهُ أَنْ يَبِيعَ مِنْ غَيْرِهِ بِعِثْلِ قِيَمَتِهِ. قَدْ أَلَّ أَنْ ذَكَرَ الْخَيْرَ لَهُ إِذَا كَانَ يَبِيعُ مِنْ نَفْسِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَمْشَرٌ﴾ كَانَهُ عَلَى الْإِضْمَارِ، أَيْ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْوَجْهِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لَهُ وَأَنْفَعُ، وَهُوَ الْحِفْظُ لَهُ، وَطَلَبُ الرِّيحِ وَالنَّمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أَيْ حَتَّى يَسْتَحْكَمَ عَقْلُهُ، وَيَسْتَدِيرَ فِي مَالِهِ وَأَمْرِهِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الْأَمْرُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى الْوَصِيِّ، إِنْ كَانَ، وَلَكِنْ بِإِذْنِهِ يَبِيعُ، وَيَشْتَرِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿بِالْعَهْدِ﴾ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ بَيْنَ النَّاسِ، أَمْرُهُمْ^(١) بِوَفَاءِ الْعَهْدِ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ نَحْوِ مَا قَالَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَمْدُدُوا إِلَآ إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ﴾ [الإسراء: ٢٣] إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، أَيْ وَأَوْفُوا بِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ ﴿كَانَ مَسْئُولًا﴾ يُسْأَلُ عَنْهُ: وَفَاءً كَانَ ذَلِكَ أَوْ نَقْضًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أَيْ نَاقِضُ الْعَهْدِ كَانَ مَسْئُولًا

ثُمَّ إِنَّ الْعَهْدَ عَلَى وَجْهِ: أَحَدُهَا: عَهْدُ [الْخَلْقَةِ، وَالثَّانِي: [الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ عَلَى السُّنَنِ الرَّسَلِ، وَالثَّلَاثُ^(٢) الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَ النَّاسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أَمْرٌ بِتَوْفِيرِ الْكَيْلِ إِذَا كَالُوا ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسَنَةً﴾ وَالْوَزْنُ إِذَا وَزَنُوا لَهُمْ، وَإِيفَاءُ حَقُوقِهِمْ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيِزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أَنْ عَادَتْهُمْ إِذَا كَالُوا، أَوْ وَزَنُوا، يَبْخَسُونَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَمْ يُوفُوا حَقُوقَهُمْ، فَتَنَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَوْعَدَهُمْ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْلَقِينَ﴾ [الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ] ﴿وَزَادَا كَالُومَةً أَوْ وَزَنُومَةً يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ و ٢ و ٣].

ذَكَرْتُ تَخْصِصَ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَا بِهِمَا تُجْرَى عَامَّةُ مُعَامَلَةِ النَّاسِ، فَأَمَرَهُمْ بِإِيفَاءِ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: لِخَوْفِ الرُّبَا لِأَنَّ الْكَيْلَ وَالْوَزْنَ، هُمَا اللَّذَانِ يَكُونَانِ دَيْنًا فِي الدِّمَّةِ، فَإِذَا أُخِذَ شَيْءٌ مِنْهُمَا أُخِذَ عَمَّا كَانَ دَيْنًا فِي الدِّمَّةِ؛ فَإِنْ نَقَصَ، أَوْ زَادَ، فَيَكُونُ رَبًّا. لِذَلِكَ خُصَّ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ يُؤَمَّرُ بِالْإِيفَاءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسَنَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْقِسْطُ حَرْفٌ أُخِذَ مِنَ الْكِتَابِ السَّالِفَةِ، لَيْسَ بِمَعْرُوفَةٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْعَدْلُ أَيْ زِنُوا بِالْعَدْلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْمِيزَانُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيِزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْقِسْطُ الْقَبَاطُ. فَكَيْفَ مَا كَانَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِتَوْفِيرِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ [وإيفاء الحقوق]^(٤) وَالنَّهْيِ عَنِ الْبَخْسِ وَالنُّقْضَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ مَا ذَكَرَ مِنْ تَوْفِيرِ الْكَيْلِ وَإِيفَاءِ الْحَقُوقِ خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا لِمَا فِيهِ أَمْنٌ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عَاقِبَةٌ فِي الْآخِرَةِ. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِذَا عَمِلُوا بِهَا خَيْرٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيْ عَاقِبَةٌ.

الآية ٣٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قِيلَ: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أَيْ لَا تَقُلْ، وَقِيلَ: لَا تَرْمِ، وَقِيلَ: لَا تَتَّبِعْ. فَكَيْفَ مَا كَانَ فِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْقَوْلِ وَالرَّمْيِ فِي مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ؛ وَلَا تَرْمِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، وَلَا تَقُلْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفَوَادَ كُلَّ أَوَّلِيكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا. قَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ أَوَّلِيكَ؛ يَعْنِي السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفَوَادَ، يُسْأَلُ عَنْهَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْرًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: خَلْقَةً أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَإِيفَاءُ لِحَقُوقِهِمْ، فِي م: وَإِيفَاءُ لِحَقُوقِهِمْ.

عَمِلَ صَاحِبُهُ قَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُغْلَقُ أَيْدِيهِمْ وَتُعْصِئُ أَرْجُلُهُمْ﴾ الآية [يس: ٦٥] وقوله: ﴿سَهَّدَ عَلَيْهِمْ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَحَلُولَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٠] يُسأل هؤلاء عما عَمِلَ صَاحِبُهَا، فَيَسْأَلُونَ عَلَيْهِ.

وقال بعضهم: هو عن كل أولئك كان مسؤولاً؛ أي يُسأل المرء عما استعمل هذه الجوارح؟ وفيه^(١) استعملها؟

وقال بعضهم: قوله: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ يعني الخلائق جميعاً ﴿كَانَ عَنْهُ﴾ يعني عما ذكر من السمع والبصر والفؤاد ﴿مَسْئُولًا﴾. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم. ومنهم من قال في شهادة الزور.

فإن احتج يحتج بهذا في إبطال القياس والاجتهاد، فيقول: إذا قاس الرجل، فقد قال ما ليس له به علم.

لكن ليس كذا لأن أصحاب رسول الله ﷺ قد تكلموا في الحوادث/ ٣٠١ - /أ/ بأرائهم، وشاوروا في أمورهم، وولي أبو بكر، رضوان الله تعالى عليه، الخلافة بغير نص من الرسول عليها، وجعلها عمر شورى بينهم، ولم يزو ذلك عن النبي ﷺ ولا نقول: إنهم فعلوا ذلك بغير علم، ولا قالوا ما لم يعلموا، فدل ما ذكرنا أن معنى قول الله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ليس يَدْخُلُ فِيهِ الاجتهاد في الأحكام ونسبته الفرع الحادث بالأصل المنصوص عليه، والله أعلم.

وقال القتيبي: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي يتأخر في الثبات إلى حال الرجال، ويقال: ثماني عشرة سنة، وقال: أشدُّ التيم غير أشد الرجل في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] والأشدُّ ما ذكرنا من استحكام عقله وتدريبه إلى أن يأخذ بالتقصان، وهو إذا جاوز أربعين، يأخذ في التقصان، وإلى أربعين يكون على الزيادة والنماء.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ أي ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بأسباب العلم، وهو ما ذكر من السمع والبصر.

وجائز أن يكون ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ يُسأل عن شكر هذه الأشياء، أو يُسأل عما امتحن بهذه الأشياء.

وفي قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْمِيزَانِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ دلالة جواز الاجتهاد لأنه أمر بإيفاء الكيل والوزن، ولا يقدر على ذلك إلا بالاجتهاد الكايل والوزان لأن كيل الرجل يزيد على كيل غيره، وتنقص، وربما كان الرجل الشيء، ثم يعيد كيله هو بنفسه، فيزيد، وتنقص، ولا يكاد يستوي الكيلان، وإن كانا من رجل واحد. وإنما التكليف^(٢) الاجتهاد في كيله، وترك التعمد للزيادة أو النقصان. فإذا فعل ذلك فقد وفر الكيل، وأدى الواجب. وهذا عندنا أصل الاجتهاد والاستحسان لأن الكايل إنما يجتهد في توقيفه الحق، ولا يعلم يقيناً أنه وفر ما كان عليه من الكيل الذي سميء في العقد.

فعل ذلك الاستحسان؛ إنما هو اجتهاد العالم في اختيار أحسن ما يقدر عليه إذا لم يكن للحادثة أصل يؤديها عليه، ويثبتها به، والله أعلم.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْآزْمِ مَرَمًا﴾ ليس التهي عن التهي [نفسه إنما التهي]^(٣) ليلمشي المرح. ثم التهي عن الشيء، يوجب ضده، وكذلك الأمر بضده، وكذلك الأمر. ثم إن التهي عن الشيء، يوجب الأمر بضده، وهما تهي عن المرح، فيكون أمراً بما ذكر ﴿وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ أَلَيْكَ يَتُوسَّلُونَ عَلَىٰ الْآزْمِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال بعضهم: ﴿مَرَمًا﴾ بظراً وأشراً، وقيل: متعظماً متكبِّراً بالخلاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخِرَّقَ الْأَرْضَ وَلَٰكِن تَبْلُغُ لِبَالًا طُولًا﴾ قال بعضهم: ذكر خرق الأرض وبلوغ الجبال طولاً لأن من الخلائق من يخرق الأرض ويدخلها، وتبلغ طول الجبال، وهم الملائكة، ثم لم يتكبروا على الله، ولا تعظموا عليه ولا على رسوله، بل خضعوا له. فمن لم يبلغ في القوة والشدة ذلك أخرى أن يخضع له، ويتواضع، ولا يتكبر.

(١) في الأصل وم: وأنه فيم. (٢) في الأصل وم: تكليف. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا لِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْعَوْنَ فِي إطفاءِ هذا الدين وقهرِ رسولِ الله ﷺ فيقولون: كما لم يَنْتَهَيْ لَكُمْ خَرْقُ الْأَرْضِ وَيُلَوِّغَ الْجِبَالُ طَوْلًا لَمْ يَنْتَهَيْ لَكُمْ إطفاءُ دينِ الله وقهرُ رسوله، وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِنْ فِي سُوءِ بَيِّنَةٍ إِلَّا حَكْمٌ مِّنَّا﴾ [غافر: ٥٦] أو يَذْكُرُ هَذَا، فيقولون^(١): إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ بِكِبْرِكَ وَعَظَمَتِكَ مَرْتَبَةَ الرُّؤَسَاءِ وَالْقَادَةِ وَمَنْزِلَتَهُمْ. عَلَى هَذَا التَّمَثِيلِ يَحْتَمِلُ أَنْ يُخْرِجَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوْ يَقُولَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ﴾ أَي لَا تَقْدِرُ أَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ، مَا فِيهَا مِنَ الْكُنُوزِ وَالْمَنَافِعِ، فَتَنْتَفِعَ بِهَا، وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالُ طَوْلًا، فَتَنْتَفِعَ بِمَا فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ مِنَ الْمَنَافِعِ. وَكَيْفَ تَتَكَبَّرُ، وَتَتَمَرَّحَ عَلَى غَيْرِكَ، وَهُوَ مِثْلُكَ فِي الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ؟

وَأَضَلُّ الْكِبَرِ أَنْ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْآفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْحَوَائِجِ لَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَى مِثْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ أَي كُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ، فِي هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بِالْعَقْلِ ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مَسْخُوطًا. وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَنَهَايَهُ عَنْهُ، لَمْ يَكُنْ أَمْرًا أَدَبٍ وَلَا نَهْيًا أَدَبٍ، وَلَكِنْ أَمْرٌ حَتْمٌ وَحُكْمٌ حِينَ^(٢) ذَكَرَ أَنَّ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إِذْ لَوْ كَانَ أَدَبًا لَمْ يُكْرَهْ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا^(٣) ذُكِرَ فِي مَكْرُوهٍ عِنْدَ رَبِّكَ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] وَيَتْرَكُونَ غَيْرَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٩

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أَي ذَلِكَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ فِي هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنَ الْحِكْمَةِ، لَيْسَ مِنَ السَّعْوِ، أَي مَا أَمَرَ فِيهَا، هُوَ حِكْمَةٌ، وَمَا نَهَى عَنْهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحِكْمَةُ هُنَا الْقُرْآنُ لِقَوْلِهِ^(٤): ﴿ذَلِكَ﴾ أَي ذَلِكَ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ، هُوَ حِكْمَةٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحِكْمَةُ الْإِصَابَةُ، أَي ذَلِكَ الَّذِي ﴿أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ صَوَابٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أَي مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَأَمَرَ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ، مِنَ الْحِكْمَةِ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ؛ يَقُولُ: حُكْمُهُ وَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، لَا وَضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، إِذْ عَصَمَهُ، وَاخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْهُ ذَلِكَ لَفَعِلَ^(٥) بِهِ مَا ذَكَرَ. فَمَنْ هُوَ دُونَهُ أَحَقُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهِ مَا ذَكَرَ، وَهُوَ مَا قَالَ فِي الْمَلَانِكَةِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، فَلَنُكْرِبْنِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] إِنَّهُ عَصَمَهُمْ حَتَّى أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿لَا يَسْتَفِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمُوتُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا لَمْ يَوْصَفْ أَنَّهُ لَا يَسْبِقُ بِالْقَوْلِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ عِنْدَ اللَّهِ أَوْ عِنْدَ نَفْسِكَ أَوْ عِنْدَ الْخَلْقِ ﴿مَدْحُورًا﴾ مُبْعَدًا مَظْرُودًا مِنْ رَحْمَتِهِ فِي النَّارِ. أَوْ خَاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَرَادَ بِهِ غَيْرَهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْصَرُّكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَأَخَذَ مِنَ الْآلِهَةِ إِنْتِزَاعًا﴾ يُخْبِرُ عَنْ سَفْوِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ الْبِنَاتِ وَالْبَنُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ فِيهِ أَبْنَاءَ سَبَّحْتَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ حِينَ^(٦) وَصَفُوا اللَّهَ بِالْوَالِدِ^(٧)، قَرَأُوا أَنَّ مَا يَكُونُ لَهُ الْوَلَدُ يَكُونُ لَهُ الْبِنَاتُ، فَقَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ قَوْلًا غَاطِيًا﴾ لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا الْعَظِيمِ مَا قَالُوا فِي اللَّهِ، فَلَمْ يَضْرِبْ لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ مَثَلًا لِمَا لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مَثَلٌ يُضَرَّبُ، لِأَنَّهُ ضَرَبَ مَثَلًا مَا قَالُوا بِالْوَلَدِ لَهُ بِإِنْفِطَارِ السَّمَاءِ وَانْشِقَاقِ الْأَرْضِ وَخُرُورِ الْجِبَالِ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَغَيْرُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ [مريم: ٩٠] أَخْبَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَمَا ذَكَرَ كَادَتْ تَنْقَلِبُ عَنْ وَجْهِهَا لِعَظِيمِ مَا قَالُوا فِي اللَّهِ مِنَ الْوَلَدِ.

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: فيفعل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: بالولد. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقال في الشريك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١] فهذا غاية ما ذَكَرَ مِنَ الأمثالِ لِمَنْ قَالَ لَهُ بِالْوَلَدِ والشريك.

فليس وراء هذا [مثل] ^(١) يَذْكُرُ لِمَنْ قَالَ لَهُ بالنبات، ولكن قال: ﴿إِنَّمَا تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لم يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ لَأَنَّ الَّذِي قَالُوا لَهُ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ نَهَايَةَ فِي السَّعَى والسَّرَفِ فِي الْقَوْلِ، تعالى الله عما يَقُولُ الظالمونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

أو يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فِي عَقُولِكُمْ لَوْ تَفَكَّرْتُمْ، وَتَذَبَّرْتُمْ، لَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَا قُلْتُمْ فِي اللَّهِ عَظِيمٌ.

قال أبو عوسجة: ﴿أَفَأَصْنَعُكُمْ رَبُّكُمْ﴾ أَيِ أَعْطَاكُمْ رَبُّكُمْ. يُقَالُ: أَضْفَيْتُهُ: أَغْطَيْتُهُ، وَأَصْفَاكُم أَيِ اخْتَارَكُم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾

الآية ٤١

قال الحسن: قوله ﴿صَرَّفْنَا﴾ يَقُولُ: بَيَّنَّا / ٣٠١ - ب/ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ بِمُكَذِّبِي الرِّسْلِ مِنَ الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ ﴿أُمَّةً قَالِمَةً﴾ [آل عمران: ١١٣] ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ مَا نَزَلَ بِهِمْ، فَيَنْتَهُوا عَنْ تَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ ﴿إِلَّا تَوْرًا﴾ أَيِ تَكْذِيبًا لِلرِّسْلِ.

وقال بعضهم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أَيِ بَيَّنَّا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ وَالْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا جَمِيعٌ مَا يُؤْتَى وَمَا يُتَّقَى وَمَالَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبِرُوا، فَيُؤْمِنُوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ الْقُرْآنُ إِلَّا تَبَاعُدًا مِنَ الْإِيمَانِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَرْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الْآيَةُ [الإسراء: ٣٩]

وقال بعضهم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ مِنَ الْمَوَاعِيدِ الشَّدِيدَةِ أَنَّهُ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ بِصُنْعِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ، لَكِنْ ^(٢) لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآخِرَةِ، وَلَمْ ^(٣) يَزِدْهُمْ ذَلِكَ الْوَعْدُ ﴿إِلَّا تَوْرًا﴾.

وبَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَوَاعِظَ الْكَبِيرَةَ مَا لَوْ نَظَرُوا فِيهَا، وَتَأَمَّلُوا، لَكَانَتْ تَمَنُّعُهُمْ، وَتَرْجُؤُهُمْ عَنْ مِثْلِ صُنْعِهِمْ. لَكِنْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَيْهِ بِالتَّعْظِيمِ، وَلَكِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِ بِالِاسْتِهْزَاءِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ. لِذَلِكَ أَضِيفَتْ زِيَادَةُ النُّفُورِ إِلَيْهِ، أَوْ أَضَافَتْ ذَلِكَ إِلَيْهِ لَمَّا أَخَذُوا بِنُزُولِهِ الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ لَهُ، فَأَضَافَتْ ذَلِكَ إِلَيْهِ لَمَّا أَزَادَ لَهُمُ التَّكْذِيبُ، وَحَدَّثَ لَهُمُ الْكُفْرُ إِذَا تُرِكَ كَمَا كَانَ [أَهْلًا] ^(٤) الْإِسْلَامَ يَزِيدُ لَهُمُ الْإِيمَانُ وَالْيَقِينُ إِذَا نَزَلَ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أَيِ لِيَشْرَفُوا كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أَيِ شَرَّفُكُمْ. أَوْ ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ مَا نَسُوا، وَتَرَكُوا، وَعَفَلُوا عَنْهُ.

ثم قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنْزَلَهُ لِيُلْزِمَهُمُ الذِّكْرَ، أَوْ لِيَكُونَ عَلَيْهِمُ [الذِّكْرُ، أَوْ لِيَأْمُرَهُمْ] ^(٥) بِالذِّكْرِ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ الْآيَةُ [الذاريات: ٥٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] أَوْ لِيُلْزِمَهُمُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ، أَوْ لِيَأْمُرَهُمُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، أَوْ أَرْسَلَ، وَخَلَقَ، لِمَنْ عَلِمَ مِنْهُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ أَيِ لِيَكُونَ لَهُمُ الذِّكْرُ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَخْتَمِلُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ، وَيَجْعَلَ لَهُمْ بَيَانًا ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ثُمَّ لَا يَكُونَ، وَلَكِنْ مَا ذَكَّرْنَا لِيَكُونَ لَهُمُ الذِّكْرُ، وَقَدْ كَانَتْ، لَكِنْ لَمْ تَنْفَعْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا تَوْرًا﴾ لَيْسَ الْقُرْآنُ بِالَّذِي يَزِيدُهُمْ نُفُورًا، وَلَكِنْ لَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِسْتِخْفَافِ وَالِاسْتِهْزَاءِ زَادَ لَهُمْ بِذَلِكَ نُفُورًا عَنْهُمَا وَتَكْذِيبًا، وَإِلَّا الْقُرْآنُ، لَا يَزِيدُ إِلَّا هُدًى وَرُشْدًا عَلَى وَضْفِهِ.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلًا دُونَِ اللَّهِ سَبِيلًا﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْآيَةُ فِي الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، أَيِ لَوْ كَانَتْ هِيَ آلِهَةٌ مَعَهُ كَمَا يَقُولُونَ ﴿إِذَا لَأَبْتَغُوا﴾ التَّقَرُّبَ وَالرُّلْفَى ﴿إِلَّا دُونَِ اللَّهِ سَبِيلًا﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: ليأمر، في م: ليأمرهم.

وقال بعضهم: لو كانت لهم عقول لابتغث، وأنكرن لها من الطاعة والعبادة؛ إذا لابتغث ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ بالطاعة له والعبادة، وهو ما قال في الملائكة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]

لكن الأشبه أن يكون الله تعالى ألا يقول في الأصنام مثل هذا لو كان معه آلهة، إنما هي خشب. لكن قال فيها ما قال: لا تسمع، ولا تفعل، ولا تبصر، وما ذكر في آية أخرى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهَا قَلْبٌ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وما قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ تَعْبُدُ﴾^(١) من ذو الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الآية [الحج: ٧٣] مثل هذا أن يقال في الأصنام.

وأما ما ذكر: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾^(٢) الآية فمعلوم^(٣) أنها ليست من أهل الابتغاء إلا أن يقال ما ذكر بعضهم، أي لو كان الأصنام التي تعبدها آلهة على ما تزعمون ﴿إِذَا لَبِثْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ويتخذونهم معبوداً.

وأما^(٤) في التثوية الذين يقولون بالعدد الذين لهم تدبير، أو الذين يقولون يقدم المعالم وأصوله فهو يخرج على وجوه.

فنقول، والله أعلم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي إذن لأظهروا دلالة ربوبيتهم وألوهيتهم بإنشاء^(٥) الخلق كما أظهر الله سبحانه ألوهيته وربوبيته بإنشاء الخلق، ولم يظهر ممن يدعون لهم ألوهية إنشاء شيء من ذلك. فدل أنه ليس هنالك إله غيره.

وقال بعضهم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِثْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [أي صاروا كهو]^(٦) يعني الله، أي في الإنشاء والإفناء والتدبير، ومنعوه عن إنفاذ الأمر له في خلقه والمشيئة له فيهم واتساق التدبير. فإن لم يكن ذلك منهم فإنه^(٧) لا إله معه سواه، ويكون كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١]

وقال بعضهم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَزْعُمُونَ﴾ إذا لَبِثْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا في القهر والغلبة على ما عرف من عادة ملوك الأرض أنه يسعى كل منهم في غلبة غيره وقهر آخر، ونصائبه [العداء]^(٨) كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّ بِكُلِّ شَيْءٍ بِمَا خَلَقَ وَلَلَّا بِبَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] أي غلب، وقهر، وناصب.

ويحتمل غير هذا؛ وهو أن يمنع كل منهم أن يكون الله الواحد بالخلق دلالة ألوهيته وربوبيته وجهة الاستدلال له بذلك. فإذا لم يمتنعوا ذلك دل أنه [لا]^(٩) ألوهية لسواه، وهو الأول بعينه.

وقال بعض أهل التأويل: لعرفوا فضله ومرتبته عليهم، ولابتغوا ما يقربهم إليه، وقيل: ولابتغيت الحوائج إليه. وهذا هو الذي ذكرناه بدءاً من طلب الطاعة له.

الآية ٤٣ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْهُ نَزَّ نَفْسُهُ، وَبَرَّأَهَا عَمَّا يَقُولُ الْمُلْحِدَةُ فِيهِ، وَصِفُونَهُ^(١٠) بالشركاء والأشباه والولد وما لا يليق به. فقال: ﴿سَبِّحْهُ وَقُلْ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

الآية ٤٤ ثم قال: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَلَمْ يَخْلُقْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ فِيهِمْ﴾ ثم يحتمل ما ذكر [وجوهاً]:

أحدها^(١١): جعل الله تعالى في خلقه السموات والأرض وما ذكره دلالة على وحدانيته وألوهيته وشهاده^(١٢) له أنه واحد، لا شريك له، ولا شبيه. فإن كان على هذا يدخل^(١٣) فيه كل شيء ذو الروح وغيره، فيكون قوله ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ للكفرة^(١٤) خاصة. وأما أهل الإسلام [فإنهم]^(١٥) يفقهون ذلك.

والثاني: جعل^(١٦) الله في سرية هذه الأشياء ما ذكر من التسبيح والتثنية، لكن لا نفقه نحن ذلك، ولا نعبه على ما أخبر

(١) في الأصل وم: يدعون، وهي قراءة أبي عمرو ويعقوب والحسن وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح/٤/١٩٦. (٢) في الأصل وم: يقولون، وهي قراءة أبي عامر ونافع وأبي عمرو وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح/٣/٣٢٤. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: بما أنشأ. (٦) في الأصل: إلى صاروا كهؤلاء، في م: أي صاروا كهؤلاء. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ووصفوه. (١١) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (١٢) في الأصل وم: وشاهدة. (١٣) في الأصل وم: فدخل. (١٤) في الأصل وم: الكفرة. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ادراج قبلها في الأصل وم: أنه.

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ وهي لا تعرف أيضاً أن ذلك تسييح على ما جعل في الجوارح والأعضاء تسييحاً وعبادة له، وإن كانت هي، لا تعرف ذلك أنها تسيح.

والثالث: [جعل الله]^(١) صوت هذه الأشياء تسييحاً له حقيقة على معرفة هذه الأشياء أنه تسييح، وإن كان لا يعرف ذلك إلا خواص من الناس، وهم الأنبياء، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا غَفُورًا﴾ الجلم هو ضد السفه، وهو الخلم، ليس يعجول، أي لا يغفل بالعقوبة ﴿غَفُورًا﴾ إذا تابوا، أو ﴿غَفُورًا﴾ حين^(٢) ستر عليهم فضائلهم. الجلم ما ذكرنا ضد السفه، والعجلة: ذكر ههنا على إثر ما ذكر منهم من القول الوحش فيه والعظيم: أنه حليم ليغلموا أنه عن جلم، لم يأخذهم بالعقوبة عاجلاً، و﴿غَفُورًا﴾ ليغلموا أنهم، وإن أعظموا القول فيه، يغفر لهم، ويتجاوز عنهم، إن رجعوا، وتابوا.

فإن قال لنا ملحد: إنكم تصفون ربكم بالجلم والرحمة ثم يقولون: إنه يعذب أبداً الآبدية في النار بكفر كان إيمان كافراً^(٣) فأتى تكون فيه رحمة أو جلم؟

قيل: إنكم لا تعرفون ما الجلم؟ وما الرحمة؟ ولو عرفتم ما قلتم ذلك، ولو لم يعذب على الكفر أبداً الآبدية لم يكن حليماً، ولكن [يكون]^(٤) سفيهاً. وكذلك الرحمة. وليس خروج الشيء على غير موافقة الطبع بالذي يخرج صاحبه عن حد الحكمة والرحمة. فأنتم إنما تصورتم الحكمة والرحمة على موافقة طبائعكم وليس كذا.

وكذلك يقال للمعتزلة حين^(٥) قالوا: إنه لا يفعل إلا ما هو أضلح لنا في الدين لأنه جواد، فلو منع الأضلح والأخير لم يكن ٣٠٢ - أ/ جواداً موصوفاً بالجود، وإنما قدزتم، وقلتم، على ما وافق طبائعكم وأنفسكم، ولو^(٦) عرفتم حقيقة الجود ما قلتم ذا، ولا خطر على بالكم شيء من ذلك^(٧). وإنما على الله أن يختار لكل ما علم منه أنه يختار، ويؤثر؛ لأنه لا يجوز أن يختار الولاية لمن علم منه أنه يختار [عداوته، وكذلك لا يجوز أن يختار]^(٨) العداوة لمن علم منه أنه يختار ولايته.

وليس على الله تعالى حفظ الأضلح لإحدى بل عليه حفظ ما توجه الحكمة والربوبية.

وفي ذكر تسييح^(٩) من ذكر من جميع الموات على إثر ما ذكر من قول أولئك الكفرة من وصف الله تعالى بالولد والشركاء [وتخويهما وجوه]^(١٠):

أخلفا: ذكر سفيهم أنهم مع ادعائهم العقل والعلم والتمييز والسؤدد، وصفوا الله بالذي لا يليق به وما يسقط الألوهية والربوبية عنه على زعمهم. فالذين ليس لهم شيء من ذلك التمييز والفهم والعقل تزهوه عن ذلك كله، وبرؤوه عن جميع ذلك.

الثاني: ذكر تسييحهم [على إثر ذلك ليغلم أن لا حاجة إلى تسييحهم]^(١١) ولا منقعة له في ذلك، إذ يسبح له جميع الخلائق سيواهم. بل منقعة تسييحهم ترجع إليهم.

والثالث: ذكر [تسييحهم]^(١٢) لإثبات الرسالة للرسل، لأنهم ذكروا تسييح الموات، ولا يفهم ذلك، ولا يغفل إلا بوحي من السماء. فذلك يدل على الرسالة.

فعلی هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرنا يجوز ذكر تسييح ما ذكر على إثر ذكر ما ذكر.

وكذلك ذكر سجود الموات يخرج على هذه الوجوه التي ذكرنا، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: أنه جعل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل وم: وقوله. (٧) من م، في الأصل شيء (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل: من. (١٠) في الأصل وم: يخرج على. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ يَنْتَظِرُونَ وَيَنْتَظِرُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قال بعضهم: إن الكفرة كانوا يمتنعون رسول الله عن تبليغ الرسالة إلى الناس وقراءة ما أنزل إليهم من القرآن عليهم، وقد أمر بتبليغ الرسالة، فأنزل الله عليه هذه الآية، فأنشأ الله سبحانه وتعالى حجاباً مستوراً، ومكن له التبليغ إليهم بالحجاب الذي ذكر^(١).

ثم اختلف في ذلك الحجاب: قال بعضهم: شغلهم في أنفسهم بأمور وأشغال حتى بلغ إليهم. ومنهم من يقول: ألقى في قلوبهم الرعب والخوف حتى لم يقدروا على منع ذلك. ومنهم من يقول: صيرهم بحيث كانوا لا يرونه، ويستمعون قراءته وتلاوته، ولم يقدروا على أداها به والصبر عليه، فبلغهم.

وجائز أن يكون ما ذكر من الحجاب، هو حجاب الفهم؛ وذلك أنهم كانوا ينظرون إليه بالاستخفاف والاستهزاء به، فحجبوا عن فهم ما فيه، وهو كقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنِّ الْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٦] يدل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٥] والإسراء: ٤٦ والكهف: ٥٧].

ثم قال الحسن في قوله: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ أي طبع على قلوبهم حتى لا يؤمنوا. ومذهبه في هذا أنه يقول: إن للكفر حداً، إذا بلغ الكافر ذلك الحد طبع على قلبه، فلا يؤمن أبداً، واستوجب بذلك العقوبة والإهلاك بالذي كان منه^(٢). إلا أن الله بفضل إبقائهم لما علم أنه يلد منهم من يؤمن، أو يقيهم لمنافع غيره، وإلا قد استوجب الإهلاك^(٣). فيقول الحسن: أضاف ذلك إلى نفسه لما استوجبوا هم بفعلهم.

وقال أبو بكر الأصم: أضاف ذلك إليه لأنهم اتبعوا عن اتباع الرسل، وتكبروا عليهم، فاستكبروا.

لكن نقول له: الاستكبار الذي ذكرت فعلهم، لا فعل الله، فما معنى إضافة ذلك إليه؟ فهو خيال وفراغ عما يلزمهم في مذهبه.

وقال جعفر بن حبيب: في الآية إضمار لما هم أضافوا ذلك إليه أنه هو جعل ذلك، وهو ما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا أَكِنَّةٌ﴾ [فصلت: ٥] ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلَّتْ﴾ [البقرة: ٨٨] ونحوه من الخيال؟ فلو جاز صرف هذه الآيات إلى ما ذكروا من الخيال لجاز صرف الكل إلى مثله. فهذا بعيد.

ولكن عندنا أن إضافة ذلك إلى نفسه تدل على أن له فيه صنعا وفعلًا، وهو أن يخذلهم باختيارهم ما اختاروا، أو أضاف ذلك إليه لما خلق ظلمة الكفر في قلوبهم، وهذا معروف في الناس؛ أي إن من اعتقد الكفر يضيق صدره، ويخرج قلبه، حتى لا يبصر غيره؛ وهو ليس يفتقد الكفر لثلا يبصر غيره، ولا يهتدي إلى غيره، لكن لا يبصر غيره، فبدل هذا أنه يصير كذلك لصنع له فيه.

وكذلك من اعتقد الإيمان يبصر بنوره أشياء؛ وهو ليس يفتقد الإيمان ليبصر بنوره أشياء غابت عنه، دل أنه بغيره أدرك ذلك.

فكذلك المعروف في الخلق أن من اعتقد عداوة آخر يضيق صدره بذلك، وكذلك من اعتقد ولاية آخر ينشرح صدره له بأشياء. فهذا كله يدل أن لغير في ذلك فعلًا، وهو ما ذكرنا من الخذلان والتوفيق، أو خلق ذلك منهم، والله أعلم، فيدخل في ما ذكرنا في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية [الأنعام: ٢٥] والإسراء: ٤٦ والكهف: ٥٧].

وأضله أن ما ذكر من الحجاب والغلاف والأكنة إنما هو على العقوبة لهم لعنادهم ومكابرتهم الحق لأنهم كلما ازدادوا عناداً وتمرداً ازدادت قلوبهم ظلمة وعمى، وهو ما ذكر في غير آية حين^(٤) قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الآية [الصف: ٥] وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا وَرَكَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [النسوة: ١٢٧] وقال: ﴿كَلَّا بَلْ كَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَاءٌ كَاوًا يَتَكَيَّسُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

(١) أدرج بعضنا في الأصل: ثم ذكر. (٢) في الأصل: منهم. (٣) في الأصل: وم: الهلاك. (٤) في الأصل: وم: حيث.

أَخْبَرَ أَنْ مَا رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِكَسْبِهِمْ الَّذِي كَسَبُوا، وَأَزَاعَ قُلُوبَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمُ الرِّبَّ، وَصَرَفَ قُلُوبَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمُ الْإِنْصِرَافَ. فَقُلِيَ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الْحِجَابِ وَالْأَكِنَّةِ عَلَيْهَا بِمَا كَانَ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ قُلْ عَلَىٰ أَذُنِهِمْ تَقْرَأُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الشَّيْطَانُ، إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ، وَلَّى عَنْهُ، وَأَعْرَضَ، وَقَرَّ مِنْهُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿وَمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَزَعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٢٠٠] وفصلت: [٣٦] وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ الْذِيكَ أَتَقُولُ إِذَا مَسَّاهُمْ طَلَبْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٢٠١]

وقال بعضهم: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَذُنِهِمْ تَقْرَأُ﴾ [مهم] (١) الْإِنْسُ، أَي وَلَوْ عَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلُوا نَحْوَ أَصْنَائِهِمُ الَّتِي عَبْدُوهَا. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ يَحْتَمِلُ: [وَإِذَا ذَكَرْتَ وَحْدَانِيَّةَ رَبِّكَ وَالْوَحْيِيَّةَ وَرَبِّيَّةَ] (٢) وَإِذَا ذَكَرْتَ دَلَالَةَ رِسَالَتِكَ أَوْ دَلَالَةَ الْبَغْيِ؛ يَحْتَمِلُ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَكَبِّرِينَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَهَا.

[وقوله تعالى] (٣): ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَذُنِهِمْ تَقْرَأُ﴾ يَحْتَمِلُ الْهَرَبَ وَالْإِعْرَاضَ، وَيَحْتَمِلُ الْكِنَايَةَ عَنِ الْإِنْكَارِ وَالتَّكْذِيبِ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَكَلُوا مِنَّا مِنَّا بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ كَانَهُمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَى الْقُرْآنِ إِمَّا لِمَا يَسْتَحْلُونَ نَظْمَهُ وَوَصْفَهُ، أَوْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْعَجِيبَةِ، أَوْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ لِيَجِدُوا مَوْضِعَ الظَّنِّ فِيهِ.

فَإِنْ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ لِلْوَجْهَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ فَإِذَا [هوَ] (٤) مَوْضِعُ الْخِلَافِ وَالتَّنَازُعِ، وَهُوَ مَا يَذْكُرُ فِيهِ مِنْ دَلَالَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَدَلَالَةِ الرِّسَالَةِ وَدَلَالَةِ الْبَغْيِ. عِنْدَ ذَلِكَ كَانُوا يُؤَلِّقُونَ الْأَدْبَارَ نَافِرِينَ لِإِنْكَارِهِمْ.

وَإِنْ كَانَ الْإِسْتِمَاعُ لَطَلَبِ الظَّنِّ فَهُوَ مُحْتَمَلٌ أَيْضًا.

وَاخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَكَلُوا مِنَّا مِنَّا بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ قِيلَ: كَانُوا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ لِيَكْذِبُوا عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئَنَّا لَمُهْطُونَ﴾ ﴿عَنِ الَّذِينَ وَعَىٰ أَثْمَالُ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦ و ٣٧] كَانُوا يُسْرِعُونَ إِلَى اسْتِمَاعِ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَكْذِبُوا عَلَيْهِ.

وقال بعضهم: كَانُوا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ لِيَجِدُوا مَوْضِعَ الظَّنِّ فِيهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَمِعُوا إِلَيْهِ لِيُرُوا الضَّعْفَ وَالْإِتْبَاعَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَقْطَعُونَ فِيهِ بَعْدَ مَا اسْتَمِعُوا إِلَيْهِ، وَعَرَفُوهُ عِنْدَهُمْ أَنَّ الظَّنَّ كَانَ فِي مَوْضِعِ الظَّنِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ قِيلَ: أَيِ يَتَنَاجَوْنَ فِي مَا بَيْنَهُمْ: أَنَّهُ مَسْحُورٌ، وَأَنَّهُ مَجْنُونٌ، وَأَنَّهُ كَاهِنٌ. ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مَا أَسْرَوْا فِيهِ، وَتَنَاجَوْا بَيْنَهُمْ، لِيَذْلُكُهُمْ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ بِاللَّهِ، وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ وَلَا مَسْحُورٍ، وَلَكِنْ قَالُوا ذَلِكَ لَهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنَ السُّحْرِ وَالْجُنُونِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ / ٣٠٢ - ب/ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ بِالْمَجَانِينِ وَالسُّحَرَاءِ وَالْكَهَنَةِ ﴿فَصَلُّوا﴾ وَضَرَبُوا لَكَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَزْجُرُ النَّاسَ، وَتَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِقْتِدَاءِ بِكَ مِمَّا وَصَفُوا لَهُ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ مِنَ السُّحْرِ وَالْجُنُونِ وَالْكَهَانَةِ. فَذَلِكَ كَانَ يَمْنَعُهُمْ عَنِ إِجَابَةِ مَا أَرَادَ إِجَابَتَهُ وَالْإِقْتِدَاءَ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَطِيعُونَ إِلَى مَا قَصَدُوا مِنْ مَنَعَ النَّاسِ عَنْكَ وَصَدُّهُمْ سَبِيلًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَطِيعُونَ إِلَى الْمَكْرِ بِهِ وَالْكَيْدِ لَهُ سَبِيلًا لِأَنَّهُمْ قَصَدُوا بِهِ ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: [لَا يَسْتَطِيعُونَ] (٥) إِلَى مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: لَا يَجِدُونَ إِلَى الْهُدَى وَالْإِيمَانِ سَبِيلًا لِمَا طَلَبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَجَعَلَهَا فِي أَكِنَّةٍ وَغُلْفٍ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إِلَى الْإِخْتِجَاجِ عَلَى الْحُجَجِ وَالذَّلَالَةِ الَّتِي أَقَامَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْبَغْيِ ﴿سَبِيلًا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا عِظَمًا لَوَقَّانَا لَوَقَّانَا لَمَبْسُوتُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أَي إِذَا كُنَّا عِظَمًا بِالْيَةِ نَاجِرَةً ﴿وَقَقْنَا﴾

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

قِيلَ: تَرَابًا، وَقِيلَ: غُبَارًا. وَقِيلَ: ﴿رَدُّنَا﴾ أَيِ بَالِيَةٍ حَتَّى إِذَا فُتِّتْ تَنَكَّسَتْ، وَدَهَبَتْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً﴾^(١) ﴿قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرُّ غَايِرَةٍ﴾ [النازعات: ١١ و ١٢] أَيِ غَيْرِ كَاتِبَةٍ.

قَالُوا ذَلِكَ كُلُّهُ إِنكَارًا لِلْبَغْثِ وَاسْتِهْزَاءً بِهِ: إِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ، وَيُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَهَذَا كَانَهُمْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ كَوْنِ ذَلِكَ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِذَلِكَ. وَالْجَهْلُ بِهِ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِمَا ذَكَرَ.

أَنْكَرَ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى الْبَغْثِ كَمَا أَنْكَرَ الْمُفْتَزِلَةُ قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَلَيْسَ لَهُمُ الْإِخْتِجَاجُ عَلَى أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ بِالْإِنْشَاءِ^(٢) الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّكُمْ تُقَرُّونَ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْخَلْقِ^(٣) الْأَوَّلِ وَتُنْكِرُونَ خَلْقَ أَفْعَالِهِمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ الْإِخْتِجَاجُ.

الآيَتَانِ ٥٠ و ٥١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قَالَ بَغْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَيِ لَوْ كُنْتُمْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا يُمَيِّتُكُمْ^(٤). لَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ الْمَوْتَ؛ إِذْ كَانُوا يُشَاهِدُونَ الْمَوْتَ، فَلَا يُحْتَمِلُ الْإِنْكَارَ. وَلَكِنْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَغْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ مَا صَارُوا تُرَابًا وَرُفَاتًا، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ بِحَيْثُ لَا تُبْعَثُونَ، وَلَا تُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ لَكُنْتُمْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا لَمْ تَكُونُوا بَشَرًا، لِأَنَّ الْحِجَارَةَ وَالْحَدِيدَ وَنَحْوَ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْتَحَنٍ وَلَا مَامُورٍ بِشَيْءٍ وَلَا مُنْهَى عَنْ شَيْءٍ.

وَأَمَّا الْبَشَرُ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُنْشَأُوا إِلَّا لِلِامْتِحَانِ بِأَنْوَاعِ الْمَحْنِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ. فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِمْتِحَانِ. فَإِذَا امْتَحِنُوا بِأَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنَ الْبَغْثِ لِلْجَزَاءِ وَالْعِقَابِ. فَإِذَا لَمْ تَكُونُوا مَا ذَكَرَ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُبْعَثُونَ، وَتُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِكُمْ.

عَلَى هَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُضَرَفَ تَأْوِيلُهُمْ لَا إِلَى مَا قَالُوا. وَإِلَّا ظَاهِرُ مَا قَالُوا، وَتَأْوَلُوا لَا يُحْتَمَلُ لِمَا لَا أَحَدٌ أَنْكَرَ الْمَوْتَ. وَيُحْتَمَلُ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أَيِ لَوْ كُنْتُمْ مَا ذَكَرَ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ أَشَدَّ مَا يَكُونُ مِنَ الْخَلْقِ لَقَدَّرَ أَنْ يُنْشِئَكُمْ بَشَرًا مِنْ ذَلِكَ. فَكَيْفَ إِذَا كُنْتُمْ بَشَرًا فِي الْإِبْدَاءِ؟ [إِنَّهُ قَادِرٌ]^(٥) أَنْ يُعِيدَكُمْ بَشَرًا عَلَى مَا كُنْتُمْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ فِي الْإِبْدَاءِ مِنْ مَاءٍ وَتُرَابٍ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ مِنْ آثَارِ الْبَشَرِ مِنَ الْعِظَامِ وَاللَّحْمِ وَالْعَصَبِ وَالْجِلْدِ وَغَيْرِهَا.

فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى إِنْشَاءِ هَذَا قَدَّرَ عَلَى إِنْشَاءِ الْبَشَرِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ مَا صَارَ تُرَابًا وَرُفَاتًا. عَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُتَأَوَّلَ. وَوَجْهٌ آخَرُ [هُوَ]^(٦) أَنْ يُقَالَ: ظَنَنْتُمْ^(٧) أَنْ لَوْ كُنْتُمْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ مَا ذَكَرَ لَبَعَثْتُمْ، فَكَيْفَ تَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا يَبْعَثُكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تُرَابًا وَرُفَاتًا أَوْ كَلَامًا^(٨) نَحْوَهُ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ذَكَرُوا هَذَا وَكُلَّ مَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِهِمْ^(٩) عَلَى مَا ذَكَرَ ﴿فَسَيُتَوَلَّوْنَ مِنْ يُبَيْدَاتٍ﴾ اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ بِهِ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إِنَّهُمْ قَالُوا مَا قَالُوا اسْتِهْزَاءً بِهِ وَسُخْرِيَةً؛ فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَائَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُحَاجُّوهُمْ مُحَاجَّةَ الْعُقَلَاءِ وَالْحُكَمَاءِ مَعَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَإِنْ كَانُوا قَالُوا مَا قَالُوا سَفَهًا وَاسْتِهْزَاءً.

وَعَلَى ذَلِكَ عَامِلُهُمْ اللَّهُ، وَإِنْ كَانُوا سَفَهَاءَ فِي قَوْلِهِمْ مُسْتَهْزِئِينَ، وَكَذَلِكَ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُعَامِلُوا قَوْمَهُمْ أَحْسَنَ الْمُعَامَلَةِ لَهُؤُلَاءِ حِينَ^(١٠) قَالَ: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي مِنْ أَحْسَنٍ﴾ [النحل: ١٢٥] وَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِيَسْأَلِي بِقَوْلُوا أَلَّتِي مِنْ أَحْسَنٍ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ لِتُحَاجَّ بِمَا هَؤُلَاءِ [حَاجَّ]^(١١) وَتَعْلَمَ أَنَّ كَيْفَ الْمُعَامَلَةَ لَهُؤُلَاءِ؟ إِذْ قَدْ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ عَلَى بَغْيِهِمْ وَإِحْيَائِهِمْ حُجَجًا كَافِيَةً مَا لَمْ يُعْتَجِجَ إِلَى مِثْلِ هَذَا. لَكِنَّهُ ذَكَرَ هَذَا لِمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: نَاحِرَةٌ وَهِيَ قِرَاءَةُ حِمَزَةٍ وَالْكَسَانِي وَعَاصِمٌ وَغَيْرُهُمْ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَةِ ج ٨/ ٥٦. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِإِنْشَاء. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: خَلَق. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَمَيِّتُكُمْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: ظَنُّوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: صُدُورَكُمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وكان الذي حملهم على إنكار ذلك وجهين^(١) من الإغتيار:

أحدهما^(٢): أنهم لم يروا من الحكمة إمامتهم ثم الإخياء على مثل ذلك؛ إذ لو كان^(٣) يُخَيِّبُهُمْ ثانياً لكان لا يُمَيِّتُهُمْ كَتَفْضِ البناء على قصد بناء مثله.

والثاني: لما رأوا أقواماً قد ماتوا منذ [أمد]^(٤) طويل، ثم لم يُعْتَنُوا.

فيقال لهم: إنه قد تأخر كونكم وإنشاؤكم، ثم لم يدل تأخركم على أنكم لا تكونون. فعلى ذلك لا يدل تأخر البعث على أنه لا يكون.

وأما جواب الأول فإنه يقال لهم: إنكم تقولون أنه أنشأكم أول مرة، وأنه يُمَيِّتُكُمْ، فليس من الحكمة الإنشاء^(٥) ثم الإمامة لأنه يكون كمن بنى بناء للنفوس والإفناء. فإذا كان حكمة كان الثاني: أيضاً حكمة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مِنْ يَحْيِيهِ﴾ أي الذي فطركم أول مرة. أي يُعِيدُكُمْ الذي خلقكم أول مرة، ولم تكونوا شيئاً على ما ذكرنا. وإعادة الشيء [بمعرفته ابتدائه]^(٦) إنما يتكلمون تعلم ابتدائه الصناعات ومعرفتها، ثم يعرفون [الإعادة بمعرفة الابتدائه]. فدل أنها^(٧) أهون وأيسر، وهي^(٨) ما قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الزوم: ٢٧] أي في عقولكم ذلك أهون وأيسر.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ زُؤُسُهُمْ﴾ أي يُحَرِّكُونَ رؤوسهم استهزاء به ومزواً ﴿وَيَقُولُونَ سَتَىٰ هُوَ﴾ على الاستهزاء أيضاً، أي لا يكون.

وقوله تعالى: ﴿سَتَىٰ هُوَ﴾ قال: قالوا ذلك جهلاً به وإنكاراً، وإلا لو علموا أنه كائن، لا محالة، لكانوا لا يقولون ذلك، بل يخافون كما خاف الذين آمنوا به.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وعسى من الله واجب، أي يكون، لا محالة.

وقوله: ﴿قَرِيبًا﴾ أي كائناً. القريب يقال على الكون أي كائناً، ويقال على القريب والبعيد. كذلك يقال على الإنكار رأساً، ويقال على الاستبعاد كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ﴿وَرَوْنَهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦٠ و٧] أي هم لا يرونه كائناً، ونراه نحن كائناً كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] كانوا يستعجلون بها لما لم يكونوا يرونه كائناً، والمؤمنون يرونه كائناً، والله أعلم.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ يختل هذا الدعاء والإجابة دعاء الخلق وإجابة الخلق لما كانت خلقهم، تُعْظَمُ رَبُّهُمْ، وتُحْمَدُ في كل وقت، وتثنى، على ما ذكرنا في غير آية من القرآن.

ويختل دعاء القول وإجابة القول والعمل لما كانوا عابثوا قُدْرَتَهُ وعَظَمَتَهُ أجابوا له بحمده وثنايه كقوله: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] ونحوه.

أو أن يكون قوله ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يوم القيامة كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] وقوله ﴿مُهْطِعِينَ إِلَىٰ دُعَاؤِهِمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣].

أخبر أنهم يُجِيبُونَ داعيهم يرمئذ، ويثنون على الله، ويحمّدونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الحسن قوله: ﴿وَتَقْلُتُونَ﴾ أي وتعلمون، وتثقفون أنكم ما لستم في الدنيا إلا قليلاً. وكذلك قال قتادة: أي يستحقرون الدنيا، ويستصغرونها لما عابثوا القيامة وأهوالها.

ثم من أنكر عذاب القبر احتج بظاهر هذه الآية حين^(٩) قال: ﴿وَتَقْلُتُونَ﴾ [إلا قليلاً] وقال^(١٠) ﴿لَيْسَ يَوْمًا﴾ [المؤمنون: ١١٣].

(١) في الأصل: وم. وجوه. (٢) في الأصل: وم. أحدهما. (٣) في الأصل: وم. كانوا. (٤) ساقطة من الأصل: وم. (٥) في الأصل: وم. إنشاء. (٦) في الأصل: وم. ومعرفة. (٧) في الأصل: وم. إعادة بمعرفة ابتدائه فدل أنه. (٨) في الأصل: وم. وهو. (٩) في الأصل: وم. حيث. (١٠) في الأصل: وم. وقوله.

ومثله قالوا في العذاب والشدة، لم يكونوا يستقصرون، ويستقصرون المقام فيه؛ إذ كل من كان في عذاب وبلاء وشدة يستعظم ذلك، ويستكثره^(١)، ولا ينساه أبداً.

هذا المعروف / ٣٠٣ - / عند الناس. فإذا هم استقلوا ذلك، واستقصروه، حتى ﴿قَالُوا لَيْتَنَا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ﴾ [المؤمنون: ١١٣] وقال^(٢): ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] والمؤمنون: ١١٤ وقال^(٣): ﴿مَسِيرًا﴾ [الأنحزاب: ١٤].

دل ذلك أنهم لم يكونوا في عذاب وبلاء، ويتأولون قوله: ﴿لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ﴾ [غافر: ٤٦] على التقديم والتأخير، يقولون: تأويله: ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يغرضون عليها غدراً وعشىاً، ليس على ألا يكون لهم عذاب في ما بين ذلك، ولكن على ما في الجنة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا نِكَاحٌ وَعِشْيَا﴾ [مریم: ٦٢].

ومن يقول بالعذاب في القبر: قوله: ﴿وَنُظَلُّونَ إِنْ لَيْتُنَا إِلَّا لَيْلًا﴾ في الدنيا، أو يقول^(٤): ذلك في وقت، وهو ما بين التفخيتين. كذلك يقولون: إنه يرفع عنهم العذاب ما بين الفجوة الأولى والثانية، وهذا اختيال.

ويقال أيضاً: ليس في استغلالهم المقام والإستقصار ما يدل على أن لم يكن لهم عذاب في القبر لأن العرف في الناس أنهم كانوا في بلاء وشدة ونوع من المرض، ثم نزل بهم ما هو أشد من ذلك وأعظم، فاستقصروا ما كانوا هم فيه، ونسوا ذلك.

ألا ترى أنهم إذا علموا الجنة ونعيمها نسوا ما كان لهم من النعم في الدنيا؟ ولا شك أنه قد كان لهم نعيم في الدنيا. فعلى ذلك العذاب.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَرَوَّانًا﴾ [الإسراء: ٤٩] قال: رُفَاتًا مُتَكَسِّرَةً، وَقَفَّتُهُ، أَي كَسَرْتُهُ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ فِي: ﴿أَكَنَّةً﴾ [الإسراء: ٤٦] جَمْعُ كَنَانٍ، مِثْلُ غَطَاوٍ وَأَغْطِيَةٍ ﴿وَلَا تُهْمُ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧] أَي مُتَنَاجُونَ، يُسَارُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: أَنَّهُ مَخْنُونٌ وَأَنَّهُ سَاحِرٌ كَاهِنٌ، وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

وقال بعضهم: كَانَ نَجْوَاهُمْ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ حِينَ قَالُوا: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ﴾ الآية [الآية: ٣] فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ [الإسراء: ٤٧] أَي مَا تَتَّبِعُونَ ﴿إِلَّا زُجْلًا مَسْجُورًا﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿مَسْجُورًا﴾ أَي قَدْ سَجَرَ بِهِ، وَقَدْ يَتَنَاقَضُ قَوْلُهُمْ. وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ تَنَاقُضِ قَوْلِهِمْ^(٥) فِي مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَسَادِيَ يَقُولُوا يَا أَيْ هِيَ أَحْسَنُ﴾ بِخَبَرِ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيْ هِيَ أَحْسَنُ﴾ الْوَجْهَ الثَّلَاثَةَ:

أَحَدُهَا: الدَّعْوَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنَّوْظِ الْحَسَنَةِ﴾ [التحل: ١٢٥] فَالثَّانِيَةُ لِلدَّعْوَةِ، كَانَهُ قَالَ: ادْعُوا لَهُمُ الدَّعْوَةَ الَّتِي عَلَى إِضْمَارِ الدَّعْوَةِ، وَجَائِزٌ عَلَى إِضْمَارِ الْحَسَنَةِ، أَي قُلْ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لَهُمُ الْحَسَنَةُ، هِيَ أَحْسَنُ، أَوْ عَلَى إِضْمَارِ الْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ، وَلَا فَظَاهِرُهُ أَنْ يَقُولَ: قُولُوا^(٦) الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ.

وَالثَّانِي: عَلَى إِضْمَارِ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُنَاطَرَةِ مَعَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَحْدِثُ لَهُمْ يَا أَيْ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التحل: ١٢٥] أَمْرٌ رَسُولُهُ أَنْ يُجَادِلَهُمْ أَحْسَنَ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ مَعَهُمْ.

وَالثَّلَاثُ: فِي حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَهُمْ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى، فَامْرَهُمْ أَنْ يُحْسِنُوا مُعَامَلَتَهُمْ، وَيُصَفِّحُوا عَنْهُمْ [كَقَوْلِهِ^(٧)]: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الشَّحِيحِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وَكَقَوْلِهِ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وَكَقَوْلِهِ^(٨) ﴿وَالْعَظِيمِينَ الْأَعْيُنَ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٤] وَنَحْوَهُ مِنَ الْآيَاتِ أَمْرَهُمْ أَنْ يُعَامِلُوا أَوْلَئِكَ أَحْسَنَ الْمُعَامَلَةِ، وَلَا يُكَافِتُوهُمْ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ، وَلَكِنْ يَغْفِرُونَ عَنْهُمْ، وَيُصَفِّحُونَ لِمَا لَعَلَّهُمْ يَكُونُونَ أَوْلِيَاءَ وَ﴿حِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] عَلَى مَا أَخْبَرَ، وَيَصِيرُونَ إِخْوَانًا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ هَذَا فِي حَقِّ وَأَمَانٍ مِنْ جَهَةِ الْحُكْمَةِ، وَهِيَ^(٩) أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنشَأَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَسْتَكْثِرُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُوا.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُوا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ.

هذا اللسان، وجعله ترجماناً بين الخلق، به يفهم بعضهم من بعض، وبه تُفْقَى حوائج^(١) بعضهم من بعض، وبه قوام معاشهم ومعاملتهم^(٢)، وبه تغت الرسل والكتب جميعاً، فإذا كان كذلك فالواجب ألا يستعمل إلا في الخير والحكمة، ولا يتلق به إلا ما هو أحسن وأصوب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفسد بينهم، ويؤسوس إليهم، ويُعْدي بعضهم على بعض ليفسد بينهم، وذلك دأبه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي كان الشيطان منذ كان للإنسان عدواً مظهر^(٣) عداوته ﴿فَبَيْنَا﴾ جعل الله تعالى الشيطان بحيث يؤسوس إليهم، ويدعوهم إلى أشياء يظنون أن ذلك خير لهم، وأبدأ يلقي إليهم ما يقع لهم، ويحبب إلى كل مذهباً، يقع عنده أنه^(٤) الحق فيقصد بذلك الإفساد وإلقاء العداوة بينهم. أبدأ هذا دأبه وشأنه؛ يُجبر كلاً إلى جهة، ويرى كل أحد جهة غير الجهة التي أرى الآخر، والله أعلم.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿زَيْكُرْ أَغْلَرْ يَكُرْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ﴿زَيْكُرْ أَغْلَرْ يَكُرْ﴾ بمصالحكم ومفاسدكم^(٥) [وما يضلح لكم في الدنيا والآخرة.

والثاني: ﴿زَيْكُرْ أَغْلَرْ يَكُرْ﴾ بما^(٦) تُسِرُّون وما تُعلنون [وما تعلمون وتعلنون، وإلا فلا شك أنه أعلم بنا منا وقوله ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُ أَرِ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبُكُمْ﴾ [اخْتَلَفَ فيه وجهين:

أحدهما: [٧] قال بعضهم: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُ﴾ فيحيمكم من أذى هؤلاء ﴿أَرِ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبُكُمْ﴾ فيسلطهم عليكم.

والثاني: [وقال بعضهم: ٨] ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُ﴾ فيهديكم إلى دينه، ويوفقكم لسيبيله ﴿أَرِ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبُكُمْ﴾ يترككم، ويخذلكم، ولا يهديكم إلى سبيله، ولا يوفقكم لدينه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُ﴾ يَحْتَمِلُ الرَّحْمَةُ في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فهو^(٩) أن يوفقهم على الطاعة، ويعينهم على ذلك. وفي الآخرة ينجيهم، ويدخلهم الجنة.

[وقوله تعالى: ﴿أَرِ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبُكُمْ﴾ ١٠] في الدنيا، هو أن يخذلهم، ويتركهم، على ما يختارون، وفي الآخرة يُعَذِّبُهُمْ في النار الذي اختاروا في الدنيا.

وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ قال بعضهم: أي لم نجعلك حفيظاً على ردهم وإجابتهم وعلى صنيعهم.

وقال بعضهم: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ثقيلاً بأعمالهم، أي لا تؤاخذ أنت بصنيعهم كقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقوله: ﴿فَأَنْتَ تَوَلَّوْنَا فَإِنَّا عَلَيْهِ مَا حِجْلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمْلَةٌ﴾ [النور: ٥٤]

وقال بعضهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي مسلطاً عليهم وقاهراً لهم.

الآية ٥٥

وقوله ﴿وَرَبُّكَ أَغْلَرْ يَمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذكرنا أنه أعلم بمصالحهم ومفاسدهم وما يُسِرُّون وما يُعلنون^(١١).

ويَحْتَمِلُ غير هذا جواباً لقوله^(١٢): ﴿وَرَبُّكَ أَغْلَرْ يَمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

يقول، والله أعلم، ﴿وَرَبُّكَ أَغْلَرْ يَمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي أعلم بمن يضلح للنبوة والرسالة وبمن لا يضلح، ومن هو أهل لها، أو يقول: ﴿وَرَبُّكَ أَغْلَرْ يَمَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي على علم بما يكون منهم، أنشأهم لا عن جهل، أو ﴿أَغْلَرْ﴾ بهم من أنفسهم، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: الحوائج. (٢) في الأصل وم: ومعادهم. (٣) في الأصل وم: ظاهراً. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) من م، في الأصل: وما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من م. (٨) ساقطة من م. (٩) الفاء ساقطة من م. (١٠) في م: وأما التعذيب. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَلْنَا بِعَصَى الْيُونَنَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ مثل هذا لا يكون إلا في نازلة. لكنه لم يذكر النازلة التي عندها نزلت. ثم اختلف في ما ذكر من تفضيل بعضهم على بعض.

قال بعضهم: ﴿وَلَقَدْ فَتَلْنَا بِعَصَى الْيُونَنَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إنه أعطى كلاً^(١) شيئاً، لم يُعط غيرهُ من نحو ما ذكر أنه كَلَّمَ موسى، واتَّخَذَ إبراهيمُ خليلًا، وأعطى عيسى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وهو روح منه، وكَلِمَتُهُ، وأعطى سليمان ملكاً، لا ينبغي لأحد من بعده، وأعطى داود زبوراً، وأعطى سيدنا محمداً أن يبعثه إلى الناس كافة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومثله.

وقال بعضهم: فَضَّلَ بعضاً على بعض في الدرجة والمنزلة والقدر عنده.

فالأول يكون التفضيل في الآيات والحجج، والثاني: في أنفسهم في المنزلة والقدر؛ ويَحْتَمِلُ ما ذكر من تفضيل بعض على بعض في الآيات والحجج، ويَحْتَمِلُ في كثرة الأتباع يُفَضَّلُ بعضهم على بعض بكثرة الأتباع.

والثالث: يُفَضَّلُ بعضهم على بعض في القيام بشكر ما أنعم عليه ويصبر ما ابتلاه به.

وعلى قول المعتزلة لا يكون لأحد فضيلة عند الله إلا باستحقاق منه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ جميع كتب الله زبور، لأن الزبور هو الكتاب. وقد ذكرنا أنا لا نذري لأية نازلة ذكر هذا، ولا يَحْتَمِلُ ذكر مثله على الابتداء والإتيان، لكن فيه أن التفضيل والمنزلة إنما يكون من عند الله، ومن عنده يُستَفَادُ، لا يتدبر من أنفسهم واستحقاق حين^(٢) قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمُ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] لثلاث يرى أحد الفضل والمنزلة لنفسه بأسباب منه، ولكن من عند الله.

وقال الأصم في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَلْنَا بِعَصَى الْيُونَنَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يقول^(٣): يُخَاطَبُ به أهل الكتاب: أن أوائلكم كانوا يرون لبعضهم على بعض فضلاً في الدنيا والآخرة، ثم إن أولئك المفضلين كانوا يتبعون الرسل لما رأوا لهم من الفضل والخصوصية، فما بالكم يا أهل مكة لا تتبعون محمداً [وأنتم ترون له]^(٤) فضائل وخصوصية ما لا ترون ذلك لأنفسكم ولا لأحد سواه، أو كلاماً^(٥) نحو هذا، والله أعلم.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ وفي سورة سبأ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَقَالُوا ذُرُّهُ﴾ الآية [الآية: ٢٢] فيشبه أن تكون الآية عندما نزلت البلايا والشدائد على ما قاله أهل التأويل، فأمرُوا عند ذلك أن يطلبوا كشف ذلك/ ٣٠٣ - ب/ عنهم من الذين يعبدون دونه، فيقول لهم: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنها آلهة دونه، يكشفون عنكم ما نزل بكم.

ويشبه أن يكون لا على نازلة، ولكن على تبين سفة أولئك حين^(٦) قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأن عبادتهم إياها لا تقربهم إلى الله زلفى كقوله: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُشْفَعِينَ قُلْ أَوْلُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] أخبر أنهم لا يملكون ما^(٧) يظلمون بعبادتهم إياها.

أو أن يذكر هذا لقطع ما يزجون من دون الله من كشف ضر عنهم ودفعه أو جر نفع إليهم وسوق خير على ما أخبر أنه، لا يملك أحد سواه كقوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ﴾ الآية [فاطر: ٢] وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكُمُ اللَّهُ فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ لَأَقُولَ بَشَرًا مَا حَبَشَكُمُ مِنْكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٧] أخبر أنه لو فتح هو رحمة لا يملك أحد دونه إمساكه، ولو أنسك هو لا يملك أحد إرساله دونه، ولو مس [الإنسان]^(٨) ضر لا يملك أحد كشفه، وإن أراد خيراً لا يملك أحد دفعه وردّه.

(١) من م، في الأصل: كل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بقوله. (٤) في الأصل وم: وقد ترون. (٥) في الأصل وم: وكلام. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: ولا. (٨) ساقطة من الأصل وم.

هذا تذكير، والله أعلم للمسلمين لئلا يرجوا أحداً من الخلاق دون الله، ولا يخافوا أحداً سواه.

ثم صرّف أهل التأويل تأويل الآية إلى الملائكة. لكن الآية تختص كل معبود دون الله: الملائكة والجن والأصنام التي عبدوها.

الآية ٥٧

وأما الآية الثانية التي [تليها: فظاهرها^(١)] في الملائكة والجن، وهو قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي أولئك الذين يعبدون من دونه يبتغونهم إلى ربهم الوسيلة^(٢) ﴿إِيَّاهُمْ أَقْرَبُ رَحْمَةً وَيَخَافُونَ عَذَابَهُمُ﴾ الآية. واختلف فيه.

منهم من صرّفها إلى الملائكة، ومنهم من صرّفها إلى الجن، وهو قول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، يقول: إن قوماً من العرب كانوا يعبدون الجن، ثم أسلم الجن، فبقي أولئك [الذين]^(٣) كانوا يعبدونهم بعد إسلامهم. فيقول: أولئك الذين تدعون من دونه يبتغون إلى ربهم الوسيلة، فكيف تعبدونهم؟

ومن قال: إنها في الملائكة اختلفوا في قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ قال الحسن: يرجون محبته ورضاه، ويخافون عذابه، أي خوف الهيبة والجلال والعظمة لا خوف عذاب النار ونقمته، لأن الله عصمهم من أن يرتكبوا ما يوجب لهم النقمة والعذاب حين^(٤) قال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] وقال: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]

وقال في قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَنْتَهِمْ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ﴾ فذلك تجزيه جهنم^(٥) [الأنبياء: ٢٩] هذا إخبار أنهم لو قالوا ذلك لفعل بهم^(٦) ما ذكر، ليس على أن يقول أحد منهم ذلك.

وقال أبو بكر رضي الله عنه ثوابه ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ثوابه ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ نقمته حين^(٧) قال: فإيه من الوعيد ما قال ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَنْتَهِمْ﴾ الآية؛ فقد أثبت لهم الوعيد فيه. لكن ثوابه ما يتلذذ به، وعذابه ما يتألم^(٨) به، ويتوجع.

ومنهم من يقول من أهل التأويل: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أي جنته. لكن هذا يشبه أن يكونوا يرجون صُحبة أهل الجنة كقولهم: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ الآية [الرعد: ٢٣ و ٢٤]

وجائز عندنا صرّف قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ إلى الأصنام التي عبدوها من دونه أيضاً، ويكون تأويله ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾ أي [لو مكّن]^(٩) لهم من العبادة والطاعة، ورغب فيهم من أسبابه لكانوا كما ذكر، وهو كقولهم: ﴿لَوْ أَرَادْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ أي لو مكّن له، ورغب فيه ما رغب في البشر، ومكّن لهم ﴿لَوَإِنَّهُمْ خَشِعُوا لَفُصِّحُوا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] على ما ذكر من سقو أولئك الذين عبدوا دون الله:

يقول: كيف تعبدون من لو مكّن [لهم]^(١٠) من العبادة والطاعة لكانوا يبتغون بذلك الوسيلة إلى ربهم؟ أو كيف تعبدون من هو بطاعة ربه يبتغي الوسيلة إليه؟ إن كانت الآية في الملائكة؛ كأنه يذكر سقو أهل مكة حين^(١١) سألوا العذاب بقولهم^(١٢): ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحوه، وأهل السماء والأرض جميعاً يخدرون عذابه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ما ذكر، ليس هو بأمر، وإن كان ظاهره أمراً، ولكن إخبار عن عجز ما يدعون من دونه وتعجز ما ذكر من كشف الضر ودفعه والتحويل. وكذلك قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَاباً أَوْ حِجَاباً﴾ [الإسراء: ٥٠] ليس هو بأمر، إنما هو إخبار عن قدرته أنه لا يُعجزه شيء، وإن بدلتكم أصلب الأشياء وأعظمها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَفْتِ الْمُسْرِ عَنْكُمْ﴾ أي دفعه وردّه ﴿وَلَا تَحِيلُوا﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

(١) في الأصل وم: تتلوها ظاهرها. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) أدرج قبلها في الأصل: لم. (٧) من م: في الأصل: لم يكن. (٨) ساقطة من الأصل وم: (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بقوله.

أخضعنا: فلا يملكون تحويل^(١) ذلك القصر إلى غيركم ولا تصرفه، والثاني: ﴿وَلَا تَوْبِلَا﴾ من الأشد والأثقل إلى الأخف والأيسر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي يحذره أهل السماء وأهل الأرض.

[الآية ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا مَنْ قَبْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال أبو بكر الصم: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا مَنْ قَبْلُ﴾ مبيتها، وقد يستعمل الهلاك في موضع الموت كقوله ﴿إِنْ أَمْرًا فَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] أي مات. ويقال أيضًا: ملك فلان أي مات.

فعلى ذلك يقول: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ قَبْلُ﴾ أي مبيتها ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وكقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿أَوْ مُعَذِّبُهَا﴾ [أي متقيمها] ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

فعلى تأويله يصح على جميع القرى والمدن، ليس [على] ^(٣) قرية دون قرية ولا [على مدينة دون] ^(٤) مدينة، ولكن على الكل ما أخبر من إهلاك الكل بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقوله ^(٥) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

ويحتمل ما ذكر من إهلاك القرية إهلاك الأهل من بعد إهلاكها ^(٦) على ما فعل بكثير من القرى.

وجائز أن يكون يهلك الأهل، وتبقى القرية على حالها، ثم تهلك بنفسها قبل يوم القيامة، والله أعلم: على تأويل أبي بكر بفعل ذا أو ذا: إما يميتهم موتًا بأجلهم، أو يعذبهم عذاب إهلاك.

وقال الحسن: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ قَبْلُ﴾ أي مبيتها على ما قال أبو بكر ﴿أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: إذا قامت الساعة قبل يوم القيامة كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨] وقوله: ﴿ذَلْزَلَتِ السَّاعَةُ عَنْ عِلِّيِّينَ﴾ [الحج: ١] تقوم على شرار الناس، فيكون ما ذكر من التعذيب لأولئك الذين يقوم بهم الساعة على قوله.

وقال قتادة: هذا قضاء من الله كما نسمع، ليس منه بد: إما أن يهلكها بموت كقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وإما أن يهلكها بعذاب مستاصل إذا تركوا أمره، وكذبوا رسله، وهو ما ذكرنا من الانتقام.

وقال بعضهم: يثبت [أهل] ^(٧) القرية بأجلهم، وأما القرية الظالمة، فيأخذها بالعذاب الذي ذكر، فهو في القرون الماضية، إن احتمل ذلك.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا مَنْ قَبْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هو أن يهلك رؤساء [أهل الكفرة] ^(٨) وقادتهم، فيصير الذين كلهم دينًا واحدًا، أي هو الإسلام على ما قال بعض أهل التأويل في قوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا إِلَّا نَاقِي الْأَرْضِ نَفْثًا مِنْ طَرَفَيْهَا﴾ [الرعد: ٤١] قالوا: هو أن يهلك أهل الكفر ^(٩)، فيجعل ملك أهل الكفر لأهل الإسلام، فذلك نقصانها من أطرافها، لا يزال ينقص أهل الكفر قرية فقرية وبلدة فبلدة حتى تصير الأرض كلها لأهل الإسلام.

وهو ما روي عن نبي الله ﷺ أنه قال: «رُوي لي الأرض، فأريت مشارفها ومغاربها، ومينع ملك أمي ما روي لي منها» [مسلم: ٢٨٨٩] فذلك، والله أعلم، تأويل قوله: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا مَنْ قَبْلُ﴾ أي يهلك أهل الكفر.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا مَنْ قَبْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على ما أخبر أنه كان يُفني جميع من كان على وجه الأرض، ويجعل الأرض مستوية ^(١٠) / لا بناء فيها ولا ارتفاع حين ^(١١) قال: ﴿كُلُّ مَنْ

(١) في الأصل وم: تحويل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: مدينة دون، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: إهلاكهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل أهل الكفرة، في م: الكفر. (٩) من م، في الأصل الكفرة. (١٠) في الأصل وم: حيث.

عَلَيْهَا قَائِمٌ [الرحمن: ٢٦] وَقَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وَقَالَ: ﴿وَسَيَبْقَىٰ ظِلُّهَا يَوْمَئِذٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وَقَالَ: ﴿وَسَيَبْقَىٰ ظِلُّهَا يَوْمَئِذٍ﴾ [طه: ١٠٦ و ١٠٧] فَذَلِكَ إِهْلَاكُهَا وَتَغْذِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ مَكْتُوبًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ مَكْتُوبًا، أَيِ مَا مِنْ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ إِلَّا وَكَانَ فِيهِ ﴿كُلُّ مَنَ عَلِيمًا قَائِمًا﴾ [الرحمن: ٢٦] وَفِيهِ^(١): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿مَسْطُورًا﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ يَمْنَعُهُ مِنْ إِنْزَالِ [الكتب]^(٢) إِلَّا تَكْذِيبُ الْأَوَّلِينَ بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا شَيْءٌ فِي مَا يُكَذِّبُ الْأَوَّلُونَ بِالْآيَاتِ مَا يَمْنَعُ إِنْزَالَهَا عَلَى هَؤُلَاءِ؟ قِيلَ: كَأَنَّهُ عَلَى الْإِضْمَارِ، أَيِ [مَا]^(٣) مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا عَلِمْنَا أَنَّ الْآخَرِينَ، يُكَذِّبُونَ بِهَا كَمَا كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ. فَإِنْ قِيلَ: عَنْ هَذَا يُسْأَلُ: أَنْ عَلِمَهُ بِتَكْذِيبِ الْآخَرِينَ كَعِلْمِهِ بِتَكْذِيبِ الْأَوَّلِينَ، ثُمَّ لِمَ يَمْنَعُ عِلْمَهُ بِتَكْذِيبِ الْأَوَّلِينَ إِيَّاهَا إِنْزَالَهَا، كَيْفَ مَنَعَ عِلْمَهُ بِتَكْذِيبِ الْآخَرِينَ ذَلِكَ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ أُرْسِلَ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَ الْكُتُبُ^(٤) عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ الرُّسُولَ وَالْكِتَابَ؟ ثُمَّ لِمَ يَمْنَعُ عِلْمَهُ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ مِنْهُمْ عَنْ إِرْسَالِ الْآيَاتِ، وَلِمَ يَمْنَعُ عِلْمَهُ بِتَكْذِيبِ الرُّسُولِ عَنْ بَعَثِ الرُّسُولِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ؟

قِيلَ: إِنَّهُ قَدْ مَضَى مِنْ سُئُوبِهِ إِذَا أَنْزَلَ الْآيَاتِ عَلَى إِبْرِئِيلَ سُوَالٍ؛ أَعْنِي سُوَالِ الْآيَاتِ، فَكَذَّبُوهَا، أَهْلَكُوهُمْ. هَكَذَا مَضَتْ سُنَّتُهُ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى.

ثُمَّ قَدْ سَبَقَ مِنْ وَغْدِهِ الْآيَةُ هَذِهِ الْآيَةُ إِهْلَاكُ تَغْذِيَةٍ وَاسْتِثْنَاءٍ فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا عَلَى مَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فَرَحِمْتُهُ أَنْ مَنْ عَلَيْهِمْ بِإِبْقَائِهِمْ وَإِزَالَةِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَاسْتِثْنَاءِهِمْ. فَكَأَنَّهُ قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا مَا سَبَقَ مِنْ وَغْدِنَا وَرَحْمَتِنَا إِلَّا نُهْلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ إِهْلَاكُ اسْتِثْنَاءٍ وَتَغْذِيَةٍ. فَذَلِكَ الْوَعْدُ وَالرَّحْمَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا مَنَعَنَا عَنْ إِرْسَالِ الْآيَاتِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَهَا إِذَا أَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِمْ.

وَقَدْ مَضَتْ السُّنَّةُ مَتَا عَلَى الْإِهْلَاكِ إِذَا أَنْزَلْنَا الْآيَاتِ عَلَى إِبْرِئِيلَ سُوَالِهِمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ التَّكْذِيبُ مِنْ بَعْدِ، ثُمَّ سَبَقَ الْوَعْدُ لَهُؤُلَاءِ إِلَّا يُهْلَكُوا فِي الدُّنْيَا إِهْلَاكُ تَغْذِيَةٍ رَحْمَةً مِنْهُمْ لِمَنْ عَلَى مَا أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْهُ^(٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وَاضْلُهُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ عَلَى إِبْرِئِيلَ رَسَالَتِهِ الرُّسُلَ آيَاتٍ كَافِيَةً وَحُجَجًا مِنْ بَعْدِ إِنَّمَا سَأَلُوا سُوَالِ تَعَنُّتٍ وَتَعَرُّدٍ لَا سُوَالِ اسْتِشْرَافٍ وَاسْتِثْنَاءٍ. فَإِذَا كَانَ سُوَالُهُمُ الْآيَاتِ سُوَالِ عِنَادٍ وَتَعَنُّتٍ أَهْلَكُوا إِذَا كَذَّبُوهَا، وَلَمْ يَنْظُرُوا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَرْسَلْنَا مَلَكَ لَفَعِيَ الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وَقَوْلِهِ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وَنَحْوَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ عِيسَى ﷺ سَأَلُوهُ أَنْ يُسْأَلَ رَبُّهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ لَتَكُونَ لَهُمْ آيَةً مِنْهُ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ مَا يَفْعَلُ بِهِمْ إِذَا كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ سُوَالِ تَعَنُّتٍ وَتَعَرُّدٍ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَنْكُرْ﴾ [المائدة: ١١٥]

هَكَذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي مَنْ سَأَلَ الْآيَاتِ سُوَالِ تَعَنُّتٍ وَعِنَادٍ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي مَنَعَ عَنْ إِرْسَالِ الْآيَاتِ عَلَى إِبْرِئِيلَ السُّوَالِ وَإِهْلَاكِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْإِسْلَامِ مِنْ نَسْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ سَبْيِهِمْ وَإِبْقَاءِ النَّاسِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْكِتَاب. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْسَل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا نَقُودُ الثَّاقَةَ مُبِيرَةً﴾ قيل: آية لرسالة صالح. وقال بعضهم: مُبَصَّرَةٌ^(١) أي مُعَايِنَةٌ، يُعَايِنُونَهَا أنها آية من الله لهم حين^(٢) رآوها مُخَالِفَةً لِنُوقِهِمْ، وهو ما قال: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣ وهوود: ٦٤] ﴿فَقَلَّمُوا بِهَا﴾ أي كَذَّبُوا بِهَا، وَجَحَدُوا بِهَا، ثُمَّ عَقَرُوهَا بَعْدَ عَلِيمِهِمْ أنها آية من الله لهم حين^(٣) رآوها، وعَايَنُوهَا خِلَافًا لِنُوقِهِمْ خَارِجَةً عَنْ نُوقِ الْبَشَرِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَرْسِلُ إِلَّا رُسُلًا﴾ قال ابن عباس والحسن وغيرهما: المَوْتُ الذريع أي السريع. وقال بعضهم: ﴿وَمَا تَرْسِلُ إِلَّا رُسُلًا﴾ للناس. فإن لم يؤمنوا بها عُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا، أَوْ يَقُولُ: ﴿وَمَا تَرْسِلُ إِلَّا رُسُلًا﴾ مَقْرُونَةٌ بِالسُّؤَالِ سُؤَالِ التَّعْتِثِ، فَكَذَّبُوهَا ﴿إِلَّا رُسُلًا﴾ لِلْهَلَاكِ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي سَأَلُوهَا، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَرْسِلُ إِلَّا رُسُلًا﴾ عَلَى إِثْرِ السُّؤَالِ بِهَا ثُمَّ التَّكْذِيبِ لَهَا ﴿إِلَّا رُسُلًا﴾ لِمَنْ تَأَخَّرَ مِمَّنْ سَأَلَ مِثْلَهَا، فَكَذَّبَ، أَوْ كَلَامًا^(٤) نَحْوَهُ.

وَتَحْتِمِلُ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرَ كَسُوفَ الشَّمْسِ وَخُسُوفَ الْقَمَرِ وَغَيْرَهُ ﴿وَمَا تَرْسِلُ إِلَّا رُسُلًا﴾ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الإحاطة بالشيء تكون بالوجوه الثلاثة:

أحدها: بِالْعَلَبَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] أَيْ أَخَذَهُمُ الْهَلَاكُ وَالْعَلَبَةُ، وَقُدِرَ عَلَيْهِمْ.

والثاني: الإحاطة بِالْعِلْمِ بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَاثَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ وَنُحِيطَ﴾ [النساء: ١٢٦] أَيْ عَالِمًا وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أَيْ لَا يَعْلَمُونَ.

والثالث: الإحاطة بِالْمَعْرُوفَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ مِنْ إِحَاطَةٍ بِغَضِيقِهِمْ بَغْضًا، فَذَلِكَ لَا يُحْتَمَلُ فِي اللَّهِ ﷻ فَهُوَ عَلَى الرَّجْهِينِ الْأَوَّلَيْنِ عَلَى إِحَاطَةِ الْعِلْمِ بِهِمْ أَوْ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ وَالْعَلَبَةِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ^(٥) قَالَ بَعْضُهُمْ: أَحَاطَ بِأَعْمَالِهِمْ: بِمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ وَبِمَا لَا يَصْلُحُ لَهُمْ وَمَا يَصْلُحُ^(٦) وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٥٥]

وقال بعضهم: إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْكُرُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِهِ، وَيَمْنَعُونَهُ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَبْكُوكَ الْذِّينَ كَذَّبُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] يَقُولُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَيْ قَدْ عَلِمَ بِمَكْرِهِمْ بِكَ، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِمَكْرِهِمْ بِكَ، بِمَكْرِكَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، وَكَلَّفَكَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، لَكِنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَعْصِمَكَ مِنْهُمْ، وَيَمْنَعَكَ عَنْهُمْ حَتَّى تُبَلِّغَ الرِّسَالَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]

كَانَ ﷻ يَتَعَتُّ الرِّسْلَ، وَيُكَلِّفُهُمْ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا يَكُونُ مِنْ قَوْفِهِمْ مِنَ الْمَنْعِ وَالْمَكْرِ بِرَسُولِهِ، لَكِنَّهُ عَصَمَهُمْ، وَمَكَّنَ لَهُمْ، حَتَّى بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ إِلَيْهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ بِالْعِلْمِ أَوْ الْقُدْرَةِ وَالْعَلَبَةِ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلِهَةَ آلِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا نَسْتًا لِلنَّاسِ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَاهُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا الْمَنَامِ، وَلَكِنْ كَانَتْ [رُؤْيَا]^(٧) يَقْظَةً، وَرُؤْيَا غَيْرَ مُعَايِنَةٍ بِالْتِي تَنَامُ [الْعَيْنُ]^(٨) لَا بِالَّذِي يَنَامُ [الْقَلْبُ]^(٩) مِنْهُ [لأنه رُوي]^(١٠) عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَنَامُ عَيْنَايَ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي» [البخاري ٣٥٦٩] فَإنَّهُ أَرَاهُ مِنَ الرُّؤْيَا بِالْعَيْنِ الَّتِي كَانَتْ لَا تَنَامُ، لَا رُؤْيَا قَلْبٍ وَعِلْمٍ.

(١) هذه قراءة قتادة، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٢٧. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) في الأصل: اختلف، في م: أحاط. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: لا ندرى.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هِيَ رُؤْيَا مَنَامٍ. وَرُوي^(١) أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ رَأَى قَوْمًا عَلَى مَنَابِرَ، فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُعْطُونَ مَا لَا، فَذَلِكَ فَتْنَةٌ لَهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّهُ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنًا، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ. فَلَمَّا كَانَ عَامُ الْحَدِيثِ، وَصُرِفَ عَنِ السَّيِّئِ، ارْتَابَ بَعْضُ النَّاسِ فِي رُؤْيَاهُ، فَذَلِكَ فَتْنَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى مَا أَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ. ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ ج ١٥/١١٢ [لَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُ مَتَى يَدْخُلُ فِيهِ؟ وَقَدْ وَعَدَ ٣٠٤ ب/ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ آمِنًا، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الفتح: ٢٧]

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(٢)]: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فَتْنَةً لِّلْفَلِيلِينَ﴾ وَالْفِتْنَةُ الْبَحْثَةُ الشَّدِيدَةُ. فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَاهَا فِي [الْإِسْرَاءِ إِلَى^(٣)] بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا أَخْبَرَ مِنَ الْآيَاتِ، لَا يَتَوَهَّمُ مِثْلُ ذَلِكَ بِتَعْلِيمٍ بَشَرٍ وَلَا بِسُخْرِ، فَذَلِكَ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَأَى، فَتْنَةٌ لَهُمْ، وَمِخْنَةٌ فِي التَّصَدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ فِي الْخَبَرِ الَّذِي أَخْبَرَ مِنَ الْآيَاتِ، لَا يَتَوَهَّمُ مِثْلُ ذَلِكَ بِتَعْلِيمٍ بَشَرٍ. فَإِنْ كَانَ عَلَى رُؤْيَا مَنَامٍ فَهُوَ فَتْنَةٌ لِّمَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَيِ كَانَتْ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا فَتْنَةً لَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فَتْنَةً لِّلْفَلِيلِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ عَجْرَجٍ فِي أَمَلٍ لِّلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٣ و ٦٤]

وَوَجْهٌ فَتْنَتُهَا لَهُمْ مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَقُولُ: إِنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، وَالنَّارُ مِنْ طَبْعِهَا أَنْ تَأْكُلَ الشَّجَرُ^(٤)، فَكَيْفَ يَكُونُ فِي النَّارِ الشَّجَرَةُ، وَهِيَ [لا]؟ تَأْكُلُهَا؟ وَلَكِنْ لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ شَجَرَ النَّارِ، يَكُونُ مِنَ النَّارِ، وَشَرَاتِئُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَكَذَلِكَ طَعَامُهُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِذَا كَانَ مِنَ النَّارِ لَمْ يَأْكُلْهَا النَّارُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الرُّؤُومُ الرُّبْدُ وَالثَّمَرُ، فَكَيْفَ يَكُونُ فِيهَا ذَلِكَ؟ قَدَّعُونَ بِذَلِكَ الْكَذِبَ عَلَيْهِ فِي مَا يُخْبِرُهُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، فَتِلْكَ الشَّجَرَةُ، كَلَّمَتْ فَتْنَةً لَهُمْ وَمِخْنَةً فِي تَصَدِيقِ رَسُولِ اللَّهِ وَتَكْذِيبِهِ. وَسُمِّيَ مَلْعُونَةً؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَرَبَ سَمَّتْ كُلَّ ضَارٍ مُؤَدٍّ مَلْعُونًا، فَذَلِكَ سُمِّيَتْ شَجَرَةُ الرُّؤُومِ مَلْعُونَةً إِذْ^(٥) كَانَتْ ضَارَّةً لِأَهْلِهَا مُؤَدَّةً.

قَالَ الْحَسَنُ: سُمِّيَتْ مَلْعُونَةً لِّمَا لَعِنَ أَهْلُهَا بِهَا، فَسُمِّيَتْ بِاسْمِ أَهْلِهَا، وَهُوَ كَمَا سُمِّيَ النَّهَارُ مُبْصِرًا وَالنَّهَارُ لَا يُبْصِرُ، وَلَكِنْ يُبْصِرُ بِهِ، فَسُمِّيَ بِاسْمِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

وَأَضْلُ اللَّعْنِ الطَّرْدُ، فَطَرَدَ مِنْهَا كُلَّ خَيْرٍ وَنَفَعَ، فَهِيَ مَلْعُونَةٌ، وَهِيَ^(٦) كَقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ ٣٦] أَضَاعَ الْإِضْلَالَ إِلَى الْأَصْنَامِ [الَّتِي^(٧) لَا صُنْعَ لَهَا فِي ذَلِكَ، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ضَلُّوا بِهِنَّ، فَكَانَهَا أَضْلَتْهُمْ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَعَرَّفْتُمُ اللَّيْلَةَ الدِّيَارَ﴾ [الأنعام: ١٣] أَيِ اغْتَرَوْا بِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ أَيِ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ. وَإِلَّا الشَّجَرَةُ لَا تَكُونُ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْمَصَائِبِ وَغَيْرِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الحديد: ٢٢] وَالْمَصَائِبُ، لَا تَكُونُ فِي الْكِتَابِ، لَكِنْ ذُكِرَتْ فِيهِ وَتَوَفَّيْتُمْ^(٨) بِمَا ذَكَرْنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا، لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِسْتِخْفَافِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، فَزَادَهُمْ مَا ذَكَرَ. وَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَهُدًى، لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ وَالتَّجْبِيلِ.

الآية ٦١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَادْعَا فُلَانًا لِّلْبَيْعَةِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾ قَوْلُهُ: ﴿أَسْجُدُ﴾ أَيِ لَا أَسْجُدُ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتُهُ مِن صَلَافِ طِينٍ فَهَلْ مَسْنُونٌ﴾ [الحجر: ٢٣] قَدْ هَذَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَسْجُدُ﴾ مَعْنَاهُ: أَيِ لَا أَسْجُدُ.

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: سير. (٤) في الأصل وم: الشجرة. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) من م، في الأصل: إذا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ذَكَرَ فِي قِصَّةِ إِبْلِيسَ الْفَاطَا مُخْتَلِفَةً: مَرَّةً ﴿قَالَ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] وَقَالَ ^(١) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وَنَحْوُهُ.

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ لَا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ. هَذَا مِنْ هَذَا عَلَى مَا ذَكَرَ فِي قِصَّةِ آدَمَ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ حِينَ ^(٢) قَالَ مَرَّةً ﴿كُنْ لِي مِمَّنْ خَلَقْتُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩ و. ٦٠] وَقَالَ مَرَّةً ﴿يَا بَنِي آدَمَ: اذْهَبُوا إِلَى الْأَنْعَامِ: ٢٠ و. ٢١] وَمَرَّةً ﴿يَا سُلَيْمَانَ﴾ [الحجر: ٢٦ و. ٢٧] وَنَحْوُهُ.

وَذَلِكَ إِخْبَارٌ عَنْ أَحْوَالٍ تَغَيَّرَتْ فِيهَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِغَيْرِ هَذَا اللَّسَانِ، فَذَكَرَ هَهُنَا بِالْفَاطَا مُخْتَلِفَةً وَالزِّيَادَةَ وَالتَّفْصِيلَ لِأَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْفَاظِ لَا يُغَيِّرُ الْمَعْنَى.

الآية ٦٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ قَدْ أَقَرَّ إِبْلِيسُ لِعَنَهُ اللَّهُ بِالْفَضِيلَةِ لِآدَمَ وَالْإِكْرَامِ لَهُ: إِمَّا مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ، وَإِنْ ادَّعَى لِنَفْسِهِ الْفَضِيلَةَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْخَلْقَةِ بِأَنَّهُ نَارِيٌّ، وَهُوَ طِينِيٌّ، حِينَ ^(٣) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ قَدْ أَقَرَّ إِبْلِيسُ لِعَنَهُ اللَّهُ بِالْفَضْلِ عَلَيْهِ وَالْإِكْرَامِ إِمَّا لِبَطَاعَتِهِمْ لَهُ، أَوْ لِمَا جَعَلَهُ رَسُولًا إِلَى خَلْقِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَبِئْسَ آخِرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لِأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [آل فِلسَافٍ] ^(٤) لِأَنَّهُ لَمَّا يَطْلُبُ التَّأخِيرَ وَالتَّوْبَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ طَالِبٌ نِعْمَةٍ مِنْهُ وَمِنَّةً، فَيَقُولُ مُقَابِلَ مَا يَطْلُبُ مِنَ النِّعْمَةِ: لَعَنَ أَغْطِيَنِي ذَلِكَ لِأَعْطَيْتَنِي، إِنَّمَا يَذْكُرُ مُقَابِلَ طَلَبِ النِّعْمَةِ الطَّاعَةَ لَهُ وَالشُّكْرَ عَلَى مَا قَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] إِنَّمَا يُقَابِلُ يَطْلُبُ النِّعْمَةَ الطَّاعَةَ لَهُ. وَأَمَّا مُقَابِلَةُ الْمَغْصِيَةِ فَلَا تُعْرَفُ.

ثُمَّ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿لَبِئْسَ آخِرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ عَلَى وَجْهَيْنِ

أَحَدُهُمَا: عَلَى التَّأَكِيدِ: يَقُولُ: أَيُّ إِنَّكَ ﴿لَبِئْسَ آخِرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لِأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [آل فِلسَافٍ]

[وَالثَّانِي]: ^(٥) عَلَى التَّمْنَى مِنْهُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: التَّأخِيرَ وَاخْتِيَاكَ ذُرِّيَّتَهُ وَسُؤَالَهُ إِيَّاهُمَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾: قَالَ بَعْضُهُمْ: لِأَخْنِيَّتِهِمْ، وَلَأَحِيطَنَّ بِهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ ^(٦) لِأَخْنِيَّتِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَلَأَخْلِيَنَّكُمْ وَلَأُكَيِّبَنَّكُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَأَخْنِيكَ﴾ لِأَسْتَنْزِلَنَّ، وَقِيلَ: لِأَسْتَوْلِيَنَّ.

وَقَالَ الْفَتَّيُّ: ﴿لَأَخْنِيكَ﴾ أَيُّ لِأَسْتَأْصِلَنَّكُمْ، وَيُقَالُ: هُوَ مِنْ حَنَكَ الدَّابَّةَ، حَنَكَ دَابَّتَهُ، يَخْنِكُهَا حَنْكًا، إِذَا شَدَّ فِي حَنْكِهَا الْأَسْفَلَ حَبْلًا، يَقْوَدُهَا بِهِ. وَقَالَ الْفَتَّيُّ: أَيُّ لِأَقْوَدَنَّكُمْ كَيْفَ شِئْتُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿لَبِئْسَ آخِرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لِأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ كَانَ سَأَلَ رَبَّهُ التَّأخِيرَ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى حِينَ ^(٧) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُفْعَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤ و. ١٥] ثَمَّ اللَّعِينُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] إِنَّهُ لَا يَنَالُهُ الرَّحْمَةُ فِي الْإِيمَانِ بِهِ حِينَ ^(٨) ذَكَرَ اللَّعْنَةَ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَاللَّعِينُ هُوَ الْمَظْرُودُ عَنْ رَحْمَتِهِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَأَلَ رَبَّهُ النَّظَرَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِيُغَوِّزَ عِبَادَهُ. وَقَدْ عَلِمَ اللَّعِينُ أَنَّ طَاعَةَ خَلْقِهِ لَهُ، لَا تَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَعِضْيَانُهُمْ، لَا تَنْقُصُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا. لِذَلِكَ قَالَ: ﴿لَأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [وَقَالَ] ^(٩) ﴿وَلَأَغْرِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] [وَقَالَ] ^(١٠) ﴿وَلَأَخْلِيَنَّكُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وَمَا ذَكَرَ.

الآية ٦٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ مَن يَعْلَمُ مِنْهُمْ﴾ مَعَ إِحْسَانِي إِلَيْهِمْ وَإِنْعَامِي عَلَيْهِمْ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ ذَرَّةٍ مُّؤْتَرَةً﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ.

الآية ٦٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ هذا يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: على التَّمَكُّنِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ والإِقْدَارِ على ما ذَكَرَ؛ أي مَكَّنَ لَهُ ذَلِكَ، وَأَفْذَرَ عَلَيْهِ لِجَذَلَانِهِ إِيَّاهُ لَمَّا عَصَى رِبَّهُ، وَتَرَكَ أَمْرَهُ بِالسَّجُودِ جَوْرًا مِنْهُ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿وَأَنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِنْ يَوِّرَ الَّذِينَ﴾ [الحجر: ٣٥] مَكَّنَ لَهُ ذَلِكَ لِيُتِمَّ لَهُ اللَّعْنَةُ وَالْجَذَلَانُ.

والثاني: قَالَ ذَلِكَ لَهُ عَلَى التَّوَعُّدِ وَالتَّهْدِيدِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ [لَهُ هَذَا]^(٢) عَلَى أَمْرِ وَعِيدٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَبْعَكَ يَنْهَهُ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ ذَكَرَ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾؟ فَيُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ مُخْرِجَ الْوَعِيدِ لَهُ لِمَنْ تَبِعَهُ، وَاجَابَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] لهذا، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَمْرًا فَهُوَ وَعِيدٌ. فَقُلِيَ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ وَلِمَنْ تَبِعَكَ كَذَا. أَوْ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّمَكُّنِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْإِقْدَارِ عَلَى ذَلِكَ لِيُتِمَّ لَهُ الْجَذَلَانُ وَاللَّعْنُ الَّذِي لَعَنَهُ.

وَأَلَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَأْمُرُهُ بِمَا ذَكَرَ إِذْ يُخْرِجُ الْأَمْرُ بِمَا ذَكَرَ مُخْرِجَ السَّفْوَةِ وَالْأَمْرِ بِالْفَحْشَاءِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيُنْهَى عَنِ الْفُرْقَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] فَلَوْ حُمِلَ هَذَا عَلَى الْأَمْرِ لَكَانَ أَمْرًا بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

فَذَلَّ أَنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا/ ٣٠٥ - أ/ أي^(٣) عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ وَالْإِيَّاسِ عَنْ أَنْ يَمْلِكَكَ أَوْ يَقْدِرَ عَلَيْهِمْ بِمَا ذَكَرَ إِلَّا مَنْ اخْتَارَ مِنْهُمْ أَتْبَاعَهُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ الآية [الحجر: ٤٢] وَالْإِسْرَاءُ: ٦٥ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: أَيِ اسْتَخِفَّ، [وَأَسْتَخَفَّ]^(٤) الرَّجُلُ وَالرَّجَالَةُ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ أَيِ اسْتَخِفَّ [أَيِ دَعَا، فَاجَابَهُ، فَاطَاعَهُ، وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾]^(٥) [الزخرف: ٥٤] فَاطَاعُوهُ، أَيِ أَمَرَهُمْ، فَاطَاعُوهُ، أَيِ دَعَاهُمْ، فَاجَابُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجوهًا ثَلَاثَةً:

أحدهما: عَلَى الصَّوْتِ؛ يَكُونُ لَهُ صَوْتُ، يَدْعُو^(٦) النَّاسَ بِهِ، فَتَسْمَعُ ذَلِكَ الصَّوْتَ النَّفْسُ الْخَفِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِي هَذِهِ النَّفْسِ الظَّاهِرَةِ الْكَثِيفَةِ، وَلَا تَسْمَعُهُ النَّفْسُ الظَّاهِرَةُ، عَلَى مَا تَخْطُرُ أَشْيَاءُ بِالْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ بِهِ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ مِنْ أَيْنَ [جَاءَ؟ وَمِنْ أَيْنَ]^(٧) هَيَّجَانُهُ؟ وَعَلَامَ يَقْذِفُ؟ وَيُؤَسِّسُ أَشْيَاءَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ، وَيُطَّلِعَ عَلَيْهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَوْتُ يَدْعُو النَّاسَ بِهِ، وَإِنْ كُنَّا، لَا نَسْمَعُهُ، لَكِنَّهُ يُسْمَعُ النَّفْسُ الْخَفِيَّةُ بِمَا يُسْمَعُ النَّفْسُ الظَّاهِرَةُ، وَبِهَا تُبْصِرُ؛ أَعْنِي بِالنَّفْسِ الْخَفِيَّةِ. أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ يَرَى أَشْيَاءَ، وَيَكُونُ فِي أَقْصَى الدُّنْيَا، وَنَفْسُهُ الظَّاهِرَةُ مُلْقَاةٌ هَهُنَا. فَذَلِكَ كُلُّهُ بِالنَّفْسِ الْخَفِيَّةِ.

والثاني: عَلَى التَّمَثِيلِ، لَيْسَ عَلَى تَحْقِيقِ الصَّوْتِ [لَكِنْ ذَكَرَ الصَّوْتَ]^(٨) لِمَا بِالصَّوْتِ يُرْسِلُ الْإِعْلَامَ إِلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَبِهِ يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ الْبَعْدِ، فَذَكَرَ الصَّوْتَ لَهُ مَكَانَ الْوَسْوَاسَةِ الَّتِي تُؤَسِّسُ لِلنَّاسِ أَشْيَاءَ مِنْ بَعْدِ، وَتَدْعُوهُمْ بِهِ إِلَى مَعَاصِي اللَّهِ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠] مِنْ بَعْدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ هُنَاكَ تَقَرُّبٌ مِنْهُ.

والثالث: عَلَى إِضَافَةِ عَمَلٍ كُلِّ عَاصٍ مِنْ نَحْوِ الْغِنَاءِ وَالْمَزَامِيرِ وَغَيْرِهِ، أَوْ يُضَافُ عَمَلُ كُلِّ طَائِعٍ وَكُلِّ ضَالٍّ إِلَيْهِ؛

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِهَذَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَدْعُوهُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

أَضِيفَ ذَلِكَ إِلَيْهِ كَمَا أَضَافَ مُوسَى حِينَ^(١) قَالَ: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] وَقَالَ^(٢): ﴿وَمَا أَسْئِنُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ حَقِيقَةً، وَلَكِنْ قَالَ ذَلِكَ، وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ لِمَا بَأْمَرَهُ وَدَعَايِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ. وَقَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿يَصَوِّرُكَ﴾ أَيِ بِدَعَائِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ بَيْتَكَ وَرَجْلَكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَجْلِبْ أَيِ اجْمَعْهُمْ، وَيُقَالُ: أَجْلَبْتُهُمْ أَيِ اعْتَنَيْتُهُمْ أَيْضًا. وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَوْسَجَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَيْتَكَ وَرَجْلَكَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ لَهُ خَيْلٌ وَرَجَالَةٌ وَجُنُودٌ مِنْ جَنَسِهِ وَجَوْهَرِهِ، يَجْلِبُهُمْ بِهِمْ، وَإِنْ كُنَّا، لَا نَرَاهُمْ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَرْتَكِبُ هُوَ وَفِيْلُهُ﴾ [آية: الأعراف: ٢٧] فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَيْلٌ وَرَجَالَةٌ وَجُنُودٌ، لَا نَرَاهُمْ نَحْنُ، وَهُمْ يَرَوْنَا.

وَالثَّانِي: عَلَى مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ عَلَى التَّمثِيلِ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ الْخَيْلَ وَالرَّجُلَ لِمَا بِالْخَيْلِ وَالْمَشْيِ يَصِلُ بَعْضُ إِلَى بَعْضٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي الْبُعْدِ وَالْقَرَبِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الصُّوَرِ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ أَضَافَ كُلَّ خَيْلٍ رَاكِبٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَوْ كُلَّ مَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الصُّوَرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَيْتَ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ قَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: ﴿مَوْفُورًا﴾ أَيِ مُوَفَّرًا. وَقَالَ غَيْرُهُ: وَافِرًا.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْتَ أُخْرَتَيْنِ إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ دَلَالَةٌ تَقْضِي قَوْلَ الْمُعْتَرِضِ لِأَنَّ إِبْلِيسَ سَأَلَ رَبَّهُ التَّأْخِيرَ وَالْإِبْقَاءَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا أَعْطَاهُ ذَلِكَ لَهُ وَتَى^(٣) لَهُ مَا وَعَدَ، وَأَبْقَاهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: إِنَّهُ يَجِيءُ عَبْدًا، فَيَقْتُلُهُ، فَيَنْتَعِمُ عَنْ وِفَاءٍ مَا وَعَدَ وَالْإِبْقَاءَ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي وَقَّتَ لَهُ، فَهُوَ أَغْرَفَ بِرَبِّهِ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] وَهُمْ يَقُولُونَ: لَمْ يُغْوِهِ. فَهُوَ أَغْرَفَ بِهِ مِنْهُمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلَادِ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: مُشَارِكَتُهُ فِي الْأَمْوَالِ هِيَ أَنْ [يَجْعَلُوا لَهُ]^(٤) الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامِيَّ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ. وَأَمَّا الْأَوْلَادُ فَلِإِنَّهُمْ هَوْدُوهُمْ وَنَصَرُوهُمْ، وَمَجَسَّوهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مُشَارِكَتُهُ فِي الْأَمْوَالِ هِيَ أَنْ يَكْتَسِبُوهَا مِنْ خَبِيثٍ وَحَرَامٍ، وَيُنْفِقُوهَا فِي مِثْلِهِ وَفِي مَا لَا يَجِلُّ، وَأَمَّا الْأَوْلَادُ فَهُمْ^(٥) مَا وَلَدُوا مِنَ الزَّوْنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمْوَالُ مَا كَانُوا يَذْبَحُونَ لِآلِهَتِهِمْ، وَيَجْعَلُونَهَا^(٦) مِنْ الْحَزَبِ وَالْأَتْمَكِ [الأنعام: ١٣٦] وَالْأَوْلَادُ مَا وَلَدُوا مِنَ الزَّوْنِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِلَةً مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَسْتَفِيزَ مِنْ أَسْطَقَمَتِ يَتْمُ بِصَوْنِكَ وَأَلْبَيْتَ عَلَيْهِمْ بَيْتَكَ وَرَجْلَكَ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ حَتَّى تُشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

ثُمَّ مَعْنَى الْمُشَارَكَةِ لَهُ فِي مَا ذَكَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادَ لِلَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً لِمَا هُوَ أَنشَأَهَا، وَخَلَقَهَا. فَحَقِيقَةُ الْمُلْكِ لَهُ بِمَا ذَكَرْنَا. وَظَاهِرُ الْإِنْتِفَاعِ لِعَبْدِهِ، إِذْ هَذَا كُلُّهُ لِلَّهِ بِحَقِّ الْمِخْنَةِ يَمْتَنِعُهُمْ، وَحَقُّ الْإِنْتِفَاعِ لَهُمْ، إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ شَيْئًا لِمَنْتَفَعَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وَلَكِنْ يَخْلُقُ لِمَنْفَعَةٍ أَنْفُسِهِمْ لِيَمْتَنِعَهُمْ بِهَا.

وَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ [شَرَائِعَ، وَشَرَعَ إِبْلِيسُ لَهُمْ]^(٧) شَرَائِعَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فَإِذَا صَرَفُوا ذَلِكَ إِلَى مَا شَرَعَ [لَهُمْ إِبْلِيسُ دُونَ مَا شَرَعَ]^(٨) اللَّهُ فَقَدْ أَشْرَكُوهُ فِيهَا، وَكُلُّ مَا أَطِيعَ فِيهَا مِمَّا سَنَّ^(٩) لَهُمْ إِبْلِيسُ، وَشَرَعَ لَهُمْ، فَذَلِكَ شِرْكُهُ فِيهَا.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَوْلَادَ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا تُطَلَّبُ لِأَحَدِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ: إِمَّا لِلْإِسْتِثْنَاءِ بِهِمْ فِي حَالِ الْوَحْشَةِ، وَإِمَّا لِلْإِسْتِثْنَاءِ بِهِمْ وَالْعَوْنِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَإِمَّا لِلذِّكْرِ بَعْدَ الْوَفَاةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفِي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجْعَلُونَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَجْعَلُونَهَا. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

وكذلك الأموال يَطْلُبُ منها ما ذكرنا: الانتفاع بها في حال الحياة، وإما للمعونة على الأعداء والدُّخْرِ بَعْدَ المَوْتِ لخيرات يترونها. فإذا صَرَفَها إلى ما أمرهم إبليسُ اشركوه فيها، ومُشَارَكَةُ إِيَّاهُمْ^(١) في الأموال متى يأمرهم، ويدعوهم إليه، فيطعون، ويُجيبونه. في ذلك، والله أعلم، مُشَارَكَةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَهُمْ﴾ قال عامة أهل التأويل: أي وَعَدَهُمْ أَنْ لَا جَنَّةَ، وَلَا نَارَ، وَلَا بَعَثَ، أي^(٢) يعدُّهم بخلاف ما وَعَدَهُمُ اللهُ، وخَوَّفَهُمْ، على ضِدِّ ما خَوَّفَهُمُ اللهُ، ما كَانَ مِنَ اللهِ وَعْدٌ خَوْفٌ يَكُونُ مِنْهُ وَعْدٌ رَجَاءٌ، وهو ما قَالَ: ﴿إِنَّكَ اللهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدُ الْفُتَى وَوَعْدُكُمْ فَانْتَحَبْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أَخْبَرَ أَنْ مَا وَعَدَهُ، قد أَخْلَفَ. فذلك تأويل قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي كَذِبًا وباطلاً لانه يَخْرُجُ كُلُّهُ على خِلَافِ مَا وَعَدَ.

الآية ٦٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ بِحَتْمِ قَوْلِهِ: ﴿سُلْطَانٌ﴾ وجوها ثلاثة:

أحدها: القُدْرَةُ والقَهْرُ. والثاني: في الحجّة والبرهان. والثالث: الولاية.

فأما القُدْرَةُ والقَهْرُ فليس له عليهم ذلك لأنه يجعل له قُدْرَةُ القَهْرِ عليهم، شاؤوا، أو أبوا. وكذلك ليس له عليهم الحجّة في ما يدعوهم إليه، ويأمرهم به، كقوله يوم يقوم [الحساب]^(٣): ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] وأما سُلْطَانُ الْوِلَايَةِ فَإِنَّ لَهُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ اخْتَارَ أَتْبَاعَهُ وَقَوْلُهُ كقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ أَخْلَصُوا إِلَى ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ بِحَتْمِ قَوْلِهِ: ﴿سُلْطَانٌ﴾ أي حُجَّةً، لأنهم إنما يَتَقَفُونَ أَمْرَ اللهِ بِحُجَّتِهِ، فلا يَتَّبِعُونَ الشَّيْطَانَ بِأَمَانِيهِ التي يُثْبِتُ عليهم، أو يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ مِنَ الْحُجَّةِ وَالْمُلْكِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ﴾ عليهم سُلْطَانُ الْوِلَايَةِ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ وَكَيْلًا﴾ عاصماً، يَعْصِمُكَ عَنْ تَمَرُّبِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، وناصراً، يَنْصُرُكَ عَلَى مَكَائِدِهِ، أو مُفَرِّعاً، تَفَرِّعُ إِلَيْهِ، أو مُعْتَمِداً، تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، والله أعلم.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ، يُجْرِي، وَيُسِيرُ، وَيَسوقُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ.

قال الحسن: أي سَحَرَ الْفُلْكَ، أو السَّقَنَ لنا في الْبَحْرِ، والدُّوَابَّ/ ٣٠٥ - ب/ في الْبَرِّ لِنَقْطَعَ بها الْبَحَارَ وَالْمَفَاوِزَ وَالْبَرَارِي لِنَصِلَ بِذَلِكَ إِلَى حَوَائِجِنَا التي جُعِلَتْ لنا في الْبِلَادِ الْبَاطِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ الْبَعِيدَةِ، وكذلك قال في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] أي سَحَرَ لنا ذلك.

ونحن نقول كذلك؛ سَحَرَ لنا ذلك، ونحن نقول كذلك؛ سَحَرَ لنا ما ذكر، إِلَّا أَنْ إِضَافَةَ ذَلِكَ إِلَيْهِ عَلَى قَوْلِنَا [هو]^(٤) أَنْ أَعْمَلْنَا مَخْلُوقَةً لَهُ.

ثم يَذْكُرُ فِيهِ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ وَعِلْمَهُ حِينَ^(٥) خَلَقَ الْخَشَبَ، وَجَعَلَ فِيهِ^(٦) مَعْنَى يَقْرُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ مَعَ ثِقَلِهِ، وَمِنْ طَبْعِ الشَّيْءِ الثَّقِيلِ التَّسَرُّبُ فِي الْمَاءِ وَالتَّسْفُلُ فِيهِ، وَلِأَنفُسِهِمُ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ^(٧) [لَا] يَقْرُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ دُونَ ذَلِكَ فِي الثَّقَلِ، تَسْفُلُ، وَتَسْرُبُ. أو جَعَلَ ذَلِكَ بِطَبْعِهِ بحيث يَقْرُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَلَا يَسْرُبُ فِيهِ لَطْفًا مِنْهُ.

فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى إِنْشَاءِ مَا يَقْرُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ لِمَعْنَى، جَعَلَهُ فِيهِ، لَا تَقْلَهُ نَحْنُ، أو يُلْطِفُوهُ، [فهو قادر]^(٨) عَلَى إِنْشَاءِ هَذَا الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ بَعْدَ فَنَائِهِ وَذَهَابِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَقُولُ الْخَلَائِقِ، لَا تُدْرِكُ ذَلِكَ، وَأَفْهَامُ النَّاسِ تَعْجُرُ عَنْ دَرْكِهِ، فَكَمَا قَدَّرَ عَلَى إِنْشَاءِ مَا هُوَ طَبْعُهُ التَّسَرُّبُ فِي الْمَاءِ وَالتَّسْفُلُ فِيهِ بحيث يَقْرُ، وَيَرْكُدُ عَلَى الْمَاءِ، يَقْدِرُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَحِينَ^(٩) قَدَّرَ عَلَى تَسْكِينِ الْأَمْوَاجِ فِي الْبَحْرِ لِيُعْبَرَ فِيهَا، وَخَلَقَ رِيحاً فِيهَا لِيَجْرِيَ السُّفُنُ كَمَا تَجْرِي فِي الْمَاءِ الْجَارِي. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذَا يَقْدِرُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا [مِنْ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْفَنَاءِ].

(١) في الأصل وم: إياه. (٢) في الأصل وم: لكن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: فيها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) في الأصل وم: وحيث.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَيْنَا أَعْرَضْتُمْ﴾ عَنْ وِفَاءِ مَا عَاهَدْتُمْ وَإِنجَازِ مَا وَعَدْتُمْ لَأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَيْنَ أَجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] فَأَعْرَضُوا عَنْ هَذَا الْوَعْدِ، وَلَمْ يُوفُوا ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ لِيَنعِمَ رَبُّهُ؛ يَذْكُرُ سَفَهُهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: عبادتهم مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ الرِّخَاءِ، وَلَا يَذْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ فِي حَالِ الشَّدَّةِ.

والثاني: أَنَّ الشَّاهِدَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَى آخَرٍ نِعْمَةً، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، يَشْكُرُ لَهُ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ. وَإِذَا حَلَّ بِهِ بَلَاءٌ وَشِدَّةٌ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ يَدْعُو عَلَيْهِ، وَيَلْعَنُهُ.

فَمُعَامَلَةُ أُولَئِكَ الْكَافِرَةِ مَعَ اللَّهِ عَلَى خِلَافِ مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: يُخْلِصُونَ لَهُ الدُّعَاءَ فِي حَالِ الشَّدَّةِ وَالْبَلَاءِ، وَيَكْفُرُونَ^(١) نِعْمَةً فِي حَالِ الرِّخَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ نَبْخِيفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ عَلَى مَا خَسَفَ قَوْمًا فِي الْبَرِّ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ عَلَى مَا أَرْسَلَ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْحَضَبِاءِ، وَهِيَ الْحَصَى، فَاهْلَكَهُمْ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ نَاصِرًا، يَنْصُرُكُمْ، أَوْ مُتَعَمِّدًا [تَعْتَمِدُونَ]^(٢) عَلَيْهِ.

الآية ٦٩

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ فِيهِ نَارًا أُخْرَى﴾ أَيْ يُخَوِّجَكُمْ إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَى ﴿فَيُفَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أَوْ يَذْكُرْ هَذَا: أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى إِنشَاءِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقُلُوكِ وَإِجْرَائِهَا فِي الْبَحْرِ وَتَسْكِينِ أَمْوَاجِهِ وَدَفْعِ أَمْوَاجِهِ عَنْكُمْ قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ فِي الْبَرِّ وَإِعَادَتِكُمْ فِي الْبَحْرِ ثَانِيًا وَإِعْرَاقِكُمْ فِيهِ.

وفي قوله: ﴿يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] دَلَالَةٌ أَنَّ لِلَّهِ فِي فِعْلِ الْعِبَادِ صُنْعًا، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الْبَحْرِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُجْرُونَ الْقُلُوكَ فِيهِ. ثُمَّ أَضَافَ الْإِجْرَاءَ إِلَى نَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ السَّيْرَ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَهُ فِيهِ صُنْعًا وَفِعْلًا. وقوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ إِيمًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يِيمًا﴾ أَيْ مَنْ يَتَّبِعُنَا بِدِمَائِكُمْ، وَيُطَالِيْنَا بِهَا.

وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: التَّبِيعُ الْكَفِيلُ، وَيُقَالُ الْمُتَقَاضِي فِي مَوْضِعٍ آخَرَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ مَنْ اتَّبَعَهُ، أَيْ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِعَةً، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وقال الْقُتَيْبِيُّ: الْحَاصِبُ الرِّيحُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُا تَحْصِبُ أَيْ تَرْمِي بِالْحَضَبِاءِ، وَهِيَ الْحَصَى الصُّغَارُ، وَالْقَاصِفُ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَقْصِفُ الشَّجَرَ، أَيْ تَكْثِرُهَا. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْقَاصِفُ الشَّدِيدَةُ مِنَ الرِّيحِ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ كَرَّمَهُمْ بِأَن خَلَقَهُمْ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَتَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وَقَوَّيْنَاهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَأَحْسَنِ قَامَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

وَكَرَّمَهُمْ بِأَن رَكَّبَ فِيهِمُ الْعُقُولَ الَّتِي بِهَا يَعْرِفُونَ الْكَرَامَاتِ مِنَ الْهَوَانِ، وَيَعْرِفُونَ بِهَا الْمَحَاسِنَ مِنَ الْمَسَاوِي وَالْجُحْمَةَ مِنَ السَّقَمِ وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ

وَكَرَّمَهُمْ/٣٠٦- أ/ بِأَن جَعَلَ لَهُمْ لِسَانًا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ^(٣) الْجُحْمَةُ وَكُلُّ خَيْرٍ، وَبِهِ^(٤) يَتَوَصَّلُونَ إِلَى ذَلِكَ الْجُحْمَةِ وَجَمْعِهَا.

وَكَرَّمَهُمْ بِأَن جَعَلَ أَرْزَاقَهُمْ أَطْيَبَ الْأَرْزَاقِ، وَجَعَلَ لِغَيْرِهِمْ مَا حُبَّتْ مِنْهَا وَمَا فَضَّلَ مِنْهُمْ.

وَكَرَّمَهُمْ بِأَن جَعَلَ جَمِيعَ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]

وَكَرَّمَهُمْ بِأَن سَخَّرَ لَهُمْ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ كَقَوْلِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي [الْأَرْضِ]﴾^(٥) [الحج: ٦٥].

وَجَعَلَ بَنِي آدَمَ هُمُ الْمَقْصُودُونَ بِخَلْقِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَنَحْوِهِ.

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) (٤) في الأصل وم: بها. (٥) في الأصل وم: السموات والأرض جميعاً منه.

وَكَرَّمَهُمْ حِينَ^(١) جَعَلَهُمْ بَحِثُ يَتَهَيَّأُ لَهُمْ اسْتِغْمَالُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَاسْتِغْمَالُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاسْتِغْمَالُ الْبَحَارِ وَالْبَرَارِي وَجَمِيعِ الصَّعَابِ وَالشَّدَائِدِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ مَا لَا يَتَهَيَّأُ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْخَلَائِقِ ذَلِكَ.

فَذَلِكَ تَفْضِيلُهُمْ. وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ لِأَنَّهُ كَرَّمَ آدَمَ لِأَنَّهُ اسْتَجَدَّ مَلَائِكَتَهُ لَهُ، وَبَعَثَهُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ حِينَ^(٢) قَالَ يَكَادُمُ أُنْيَتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ [البقرة: ٣٣] فَلَمَّا كَرَّمَ آدَمَ صَارَ بَنُوهُ مُكْرَمِينَ أَيْضًا. وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ^(٣) الْأَبَّ يَصِيرُ مَشْتُومًا بِشَيْءِ ابْنِهِ. وَمَا قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: إِنَّ فَضْلَ بَنِي آدَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْدَّوَابِّ حِينَ أَكَلُوا، وَشَرِبُوا هُمُ بِأَيْدِيهِمْ، وَسَانَرُ الدَّوَابِّ يَأْكُلُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ. هَذَا الَّذِي ذَكَرُوا، هُوَ مِنَ التَّفْضِيلِ. إِلَّا أَنَّ ذِكْرَهُ لَهُ خَاصَّةٌ، لَيْسَ فِيهِ كَثِيرُ حِكْمَةٍ وَفَضْلٍ. لَكِنْ فَضْلُهُمْ، وَكَرَّمَهُمْ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ وُجُوهِ الْكَرَامَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ﴾ هَذَا تَفْسِيرُ مَا ذَكَرَ مِنْ تَكْرِيمِ بَنِي آدَمَ وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ مُسَخَّرَيْنِ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى مَا فِي بَاطِنِ الْبَحْرِ وَظَاهِرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَالِ وَالْمَنَافِعِ، وَكَذَلِكَ الْبَرُّ، سَخَّرَ لَهُمْ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى مَا فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ وَظَاهِرِهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ جَعَلَهُمْ بَحِثُ يَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْبَرِّ مَا لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْخَلَائِقِ قَضَاءَ الْحَوَائِجِ مِنْ وَرَائِهِمَا.

وَذَلِكَ مَعْنَى تَفْضِيلِهِمْ الَّذِي ذَكَرَ. ثُمَّ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وَهُوَ تَفْسِيرُ تَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ وَكَرَامِهِ حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنْ تَكْرِيمِ بَنِي آدَمَ وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ، هُوَ مَا جَعَلَ فِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْأَتْقِيَاءِ وَالْأَخْيَارِ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مُوسَى قَالَ: ﴿لِقَوْمِيهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنْ جَعَلَ أَرْزَاقَهُمْ وَغِذَاءَهُمْ مَا بَلَغَ فِي الطَّيِّبِ غَايَتَهُ؟ وَلَا كَذَلِكَ غِذَاءُ غَيْرِهِمْ مِنَ الدَّوَابِّ وَرِزْقُهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ مَا فِيهِ مِنْ أَذَى وَخُبْثٍ وَخُسْرَةٍ مِنَ التَّخَالُفِ وَغَيْرِهَا، وَفِي الطَّيِّبِ وَالتَّضْجِ حَتَّى يَبْلُغَ فِي الطَّيِّبِ وَاللِّبَنِ غَايَتَهُ؟ وَأَمَّا غَيْرُهُمْ^(٥) مِنَ الدَّوَابِّ فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ كَمَا هُوَ نَبَأٌ غَيْرُ مَطْبُوحٍ وَلَا نَضِيجٍ، وَفِيهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْأَذَى [الكثير].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(٦): ﴿وَنَضَلَّاهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّوِيلِ^(٧): ﴿وَنَضَلَّاهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا عَلَى الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَصْحَابِهِمْ غَيْرِ الْمَلَائِكَةِ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَنَضَلَّاهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّوَابِّ تَفْضِيلًا﴾ بِالْأَكْلِ بِالْأَيْدِي وَجَعَلَ رِزْقَهُمْ مِنْ غَيْرِ رِزْقِ الدَّوَابِّ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مِمَّنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ لِمَا لَمْ يُرْسَلْ إِلَى الْجِنِّ رَسُولٌ مِنْهُمْ، وَلَا أُنْزِلَ كِتَابٌ عَلَى جِدَّةٍ، وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَهُمْ مِمَّا يَفْضَلُ مِنَ الْعِظَامِ وَالسَّرَقِينَ وَغَيْرِهِ عَلَى مَا ذَكَرَ. فَذَلِكَ وَجْهُ تَفْضِيلِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي تَفْضِيلِ الْبَشَرِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ فَإِنَّا لَا نَتَكَلَّمُ فِي [ذَلِكَ لَا تَأَنَّا]^(٨) لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ. فَلَا مُرَّ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فِي تَفْضِيلِ هَؤُلَاءِ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عَلَى هَؤُلَاءِ، لَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا جَائِزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَشْرَ الْبَشَرِ وَأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَمْ يَغْضُوا اللَّهَ طَرَفَةً عَيْنٍ، فَيُقَالُ: هُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَلَكِنْ إِنْ كَانَ، لَا بُدَّ، فَإِنَّمَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَأَتَقَى الْخَلَائِقِ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَتَكَلَّمُ حِينَئِذٍ بِتَفْضِيلِ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ، فَهُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، لَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي م: غَيْرِهِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فَإِنَّهُ قَالَ. (٨) فِي الْأَصْلِ: ذَلِكَ، فِي م: شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾ قال الحسن: «هذا صلة قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحُذُوبِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢] فيقال (١): أي يوم ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾

ثم اختلف في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾ قال بعضهم: ندعو بملامتهم أي بدينهم الذي دانوا به، ودُّبُوا عنه، ويدعى كل بدينه الذي دان به، ودَّب عنه.

وقال بعضهم: أي برؤسائهم وأئمتهم الذين أضلُّوهم، أي يدعى الاتباع بأئمتهم ورؤسائهم الذين أضلُّوا، حتى يلوم بعضهم على بعض، ويلعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض كقوله: ﴿إِذَا تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية [البقرة: ١٦٦] وقوله: ﴿وَيَلْمِزُ الْمُحْسِنِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَفْضَلُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا آلَآلَ أَنْتُمْ لَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٣١] يدعى الاتباع بالمشروعين.

وقال بعضهم: يدعى كل أناس يداعيهم الذي دعاهم: إن كان رسولا فبالرسول، وإن كان شيطانا فبالشيطان، وهو قريب مما ذكرنا.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾ يكتب الملائكة أعمالهم فيه. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾ يكتبهم الذي أنزل عليهم. يدعى كل بما ذكر ليعلّموا أن الحجة قد قامت عليهم، وأوجب لهم العذاب باتباعهم ما اتبعوا بلا حجة ولا برهان. وحاصل أقاويل هؤلاء يرجع إلى وجوه ثلاثة:

أحدها: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ﴾ ندعو إمام كل أناس: [إن] (٢) كان إمامهم في خير أو شر، فيجزي له جزاؤه، ثم يكلف هو دعاء أتباعه إلى ما أهداهم من الثواب والعقاب.

والثاني: يدعى كل إمام ورئيس في خير أو شر باتباعه الذين يتبعونه في ما يدعونه إليه: [كل] (٣) رسول يدعى بقوميه الذين أتبعوه (٤)، وكل رئيس وشيطان [بمن] (٥) استتبعهم.

والثالث: إمامهم كتابهم الذي كتب أعمالهم [التي كسبوا] (٦) كقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُرًّا﴾ [الإسراء: ١٣] ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَرَادَ كِتَابَ بَيْبِنِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْقَهُونَ كِتَابَهُ﴾ كلهم قد يفرون كتابهم. غير أن المؤمنين إذا نظر في الكتاب فرح به، واستبشروا بما فيه، فسهل عليه القراءة، وهانت، لما كان يتبع حجاج الله.

وأما الكافر، إذا نظر في الكتاب حزن، واغتم به، فعسر عليه قراءة كتابه، وهو كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كِتَابَ بَيْبِنِهِ فَيَقُولُ هَٰذَا أَرَادَ كِتَابَهُ﴾ [إِنْ عَلَنَ آتٍ مِّنْ حِسَابَةٍ] [الحاقة: ١٩ و ٢٠] وكقوله (٧): ﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ كِتَابَ بَيْبِنِهِ فَيَقُولُ بَلَيْتَ لَرَأَيْتُ كِتَابَهُ﴾ [وَلَرَأَىٰ أَتَىٰ مَا فِي حِسَابَةٍ] [الحاقة: ٢٥ و ٢٦] لأنه اتبع بلا حجة.

أو يكون المؤمن إذا نظر في كتابه، ورأى (٨) سيئاته مغفورة كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلَ عَنْهُمْ آمَنَ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] فرح بذلك. والكافر رأى سيئاته باقية عليه وحسناته، قد بطلت، حزن بذلك، واغتم (٩) لذلك قال ما قال، والله أعلم.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هُدًى أَعْيَنَ قَهْرِي الْأَخِرَةِ آمَنَ وَأَسْلَ سَبِيلًا﴾ قال بعضهم: «ومن كان في هُدًى الدنيا أعين» عن توحيد الله والإيمان به مع كثرة آياته ودلالاته (١٠) على وحدانيته فهو عن الإيمان بالآخرة والبغث بعد الموت أعين.

(١) في الأصل وم: فيقول. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: اتبعوه. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: الذي كتبوا. (٧) في الأصل وم: ويقول الكافر. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم: (٩) من م، في الأصل: واغتم. (١٠) في الأصل وم: ودلالاته.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى» الدُّنْيَا «أَعْمَى» عَنِ الْحَقِّ «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» عَنْ حُجَجِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا عَمِيَ عَنِ الْحَقِّ فَهُوَ عَنْ حُجَجِهِ أَعْمَى، فَتَكُونُ «وَمَنْ» بِمَعْنَى عَنْ؛ إِذِ الْآيَاتُ وَالذَّلَالَاتُ عَلَى وَخَدَائِيَّةِ اللَّهِ أَكْثَرُ وَأَظْهَرُ مِنَ الذَّلَالَةِ عَلَى الْبَغْثِ وَالْآخِرَةِ؛ إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ أَثَرُ وَخَدَائِيَّتِهِ وَذَلَالَةِ الْوَهْيَةِ، وَلَا كَذَلِكَ الْآخِرَةُ، فَهُوَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا أَشَدُّ عَمَى.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَمِيَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، لِأَنَّ الدُّنْيَا مَعَا يُقْبَلُ فِيهَا الْإِيمَانُ، وَفِي ٣٠٦ ب/الْآخِرَةِ لَا يُقْبَلُ، وَهُوَ مَا قَالَ: «وَجِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» [سبأ: ٥٤] أَيْ «وَجِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ كَمَا قِيلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ، أَيْ كَمَا حِيلَ بَيْنَ أَشْيَائِهِمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ بَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ قَرِيباً مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّ مَنْ عَمِيَ عَنِ الرُّشْدِ وَالْحَقِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِحُجُلِهِ بِهِ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ عَلَيْهِ بِالرُّشْدِ وَالْحَقِّ أَشَدُّ عَمَى، أَوْ كَلَامُ نَحْوِ هَذَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَمِيَ قَلْبُهُ فِي الدُّنْيَا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّوْحِيدِ لَهُ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى الْوَحْيِ وَالْحَوَاسِّ كَقَوْلِهِ: «لَمْ يَخْتَرِقْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بِصِيرًا» [طه: ١٢٥] وَكَقَوْلِهِ: «وَتَحْتَرَّمُ بِرَمَ الْقَيْنَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عَمِيًا وَكُفًا وَمُسَا» [الْإِسْرَاءُ: ٩٧] مَا ذَكَرَ: ذَاهِبَةً حَوَاسُّهُمْ، لِمَا تَرَكُوا الْإِنْتِفَاعَ بِهَا فِي الدُّنْيَا لِمَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْحَوَاسُّ، وَنُشِبَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى» بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» أَيْ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ أَيْضاً كَقَوْلِهِ: «ثُمَّ لَوْ فَكَّنْهُمْ لَآتَيْنَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُتَشَكِّكِينَ» [الْأَنْعَامُ: ٢٣] وَنَحْوَهُ: يَقْتَرُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَيَكْذِبُونَ كَمَا كَذَبُوا فِي الدُّنْيَا، وَكَقَوْلِهِ: «أَوْ تَرُدُّهُ فَنَقْلِ قَدَرٍ لَّيْزَى كُنَّا نَمْلِكُ» [الْأَعْرَافُ: ٥٣] نَحْمُ أَخْبَرْنَا عَنْهُمْ فَقَالَ^(١): «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [الْأَنْعَامُ: ٢٨].

وَقَالَ قَتَادَةُ: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ» الدُّنْيَا «فِي مَا أَرَاهُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالنَّجْمِ» «أَعْمَى» فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ «الْغَايَةِ» الَّتِي لَمْ يَرَهَا «أَعْمَى» وَأَضَلَّ سَبِيلًا، وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ» [النَّعْمَ «أَعْمَى» عَنْ^(٢)] أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» عَنْ حُجَجِهِ، وَيُقَالُ عَنْ دِينِ اللَّهِ «وَأَضَلَّ سَبِيلًا» يَعْنِي الْكَافِرَ، عَمِيَ عَنْهَا، وَهُوَ يُعَايِنُهَا، فَلَا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، فَيَشْكُرُ رَبَّهَا «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» يَقُولُ: عَمَّا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ مِنْ أَمْرِ الْبَغْثِ وَالْجَزَاءِ «وَأَضَلَّ سَبِيلًا» وَأَخْطَأَ طَرِيقًا. وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَّا نَكْثَ» دَلَّ عَلَى هَذَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ الْكُفْرَةِ شَيْءٌ لِمَنْ الدَّعَاءُ إِلَى شَيْءٍ^(٣) يَصِيرُ مُفْتِنًا لِمَنْ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَادَةُ الْكُفْرَةِ [يَكَادُونَ يَضْلُونَ]^(٤) وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيَفْتِنُونَهُ^(٥) عَنِ الَّذِي أُوتِيَ إِلَيْهِ، وَيَضْرِبُونَهُ^(٦) عَنْهُ، كَقَوْلِهِمْ: «أَنْتَ بِشَرِّهِمْ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ» [يُونُسُ: ١٥] هَكَذَا كَانَتْ عَادَتُهُمْ؛ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْإِفْتِرَاءَ عَلَى اللَّهِ وَالضَّلَالَ عَلَى وَجْهِ الْمَكْرِ بِهِ لَا ضَلَالَ عَلَى وَجْهِ الْمَكْرِ بِهِ لَا ضَلَالَ تَضْرِيحَ وَكُفْرَ تَضْرِيحَ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى^(٧): يُوْدِي ذَلِكَ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ؛ يَرِيدُونَ الْمُسَاعَدَةَ لَهُمْ فِي بَعْضِ مَا هُمْ فِيهِ بِمَا كَانُوا يَرَوْنَهُ مِنَ الْمَوَاقِفَةِ لَهُ وَالْمُسَاعَدَةِ.

لَكِنَّ اللَّهَ عَصَمَ رَسُولَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْهُ بِالْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ وَبِالْعُقُولِ كَقَوْلِهِ: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا ضَلَّكُمُ مِنْهُ مِنْ بَيْنِهِمْ» [النِّسَاءُ: ٦٥] أَخِيرَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى «لَا يُحَكِّمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا» [النِّسَاءُ: ٦٥] قَضَى. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا يَجُزَّ^(٨) أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ حَرَجٌ مِمَّا قَضَى بِهِ، وَكَقَوْلِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذِرُونَ اللَّهَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ: أَعْمَى النَّعْمَ أَعْمَى، فِي م، ساقطة من الأصل. (٣) فِي م، ساقطة من الأصل. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَادُوا أَنْ يَضْلُوا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفْتِنُوهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: يَضْرِبُونَهُ. (٧) الْبَاءُ ساقطة من الأصل وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجُوزُ.

وَرَسُولُهُ لَتَنَّهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿الاحزاب: ٥٧﴾ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا يُجْزَ (١) أَنْ يُؤْذَى، وَتَلَحُّقَهُ (٢) اللَّغْنَةُ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية [الاحزاب: ٣٦] فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا يُجْزَ (٣) أَنْ تَكُونَ [لَهُ] (٤) الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١] وَأَمَثَالُهُ مِمَّا يَكْثُرُ عَدُّهَا (٥).

وكذلك العقول تشهد أنه كان معصوماً. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ، وَيُرِيلَ عَنْهُ الْعِصْمَةَ بِتَأْوِيلِ، يَتَأَوَّلُهُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ، أَوْ بِحَدِيثٍ، يَزِيهِ، فَإِنَّا لَا نَقْبَلُ تَأْوِيلَهُ وَلَا خَبْرَهُ (٦) الَّذِي رَوَى، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَذَبٌ.

ويجوز أن يكون في خبره الذي روى معنى آخر سواه، فليس له أن يزوي إلا بالمعنى الذي كان فيه.

فتأويل أهل التأويل أنه ألقي عليه الشيطان، وَلَقَنَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ وَنَوَازِلَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَةِ [النجم: ١٩ و ٢٠] تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى، شَفَاعَتُهُنَّ تُرْتَجَى.

وقال بعضهم: لَا نَدْعُكَ تَسْتَلِمُ الْحَجَرَ إِلَّا أَنْ تَسْتَلِمَ الْهَتْنَا، وَنَحْوَهُ.

إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَايِدُ خَيَالٍ؛ إِنَّهُ كَانَ لَا يَحُومَ حَوْلَ أَضْغَانِهِمْ فِي حَالِ صِغَرِهِ، وَلَا رَأَوْهُ دَنَا مِنْهَا حَتَّى لَمْ يَطْمَعُوا بِذَلِكَ (٧) الْإِسْتِيلَامَ بَعْدَ مَا أُوجِي إِلَيْهِ، وَصَارَ رَسُولًا؟ وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرُوا أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ بَعْضَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَنْهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَتْبَاعِهِ (٨)، فَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، فَتَنَزَلَ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الذِّينِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَايِدُ خَيَالٍ؛ لَا يُحْتَمِلُ مَا تَوَهَّمُوا فِيهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَالْأَلُو عَرَفُوهُ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ مَا تَوَهَّمُوا فِيهِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ وَالْمَعُونَةِ. ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ عَادَتَهُمْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُ عَنْ ذَلِكَ.

الآية ٧٤

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ ظَاهِرُ (٩) الْآيَةِ يُرَدُّ جَمِيعَ مَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، يَقُولُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾

أَخْبَرَ أَنَّهُ، وَقَدْ ثَبَّتَهُ، فَلَمْ يَرْكَنْ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَّتَهُ، فَلَمْ يَكْدُ يَرْكَنْ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ سَمَّى ذَلِكَ شَيْئاً سِيراً. وَلَوْ كَانَ مَا قَالَ أَوْلَتْكَ لَكَانَ شَيْئاً كَبِيراً عَظِيماً، بَلْ يَتَلَعَّ الكُفْرَ، دَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَا ذَكَرُوا.

وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ﴾ وَكَادَ، هُوَ حَرْفٌ [بِمَعْنَى] (١٠) قَارَبَ أَنْ يَرْكَنْ كَقَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ السَّعَوَاتُ﴾ أَيِ تَقَارِبُ (١١) أَنْ ﴿يَنْفَعَكَرَنَّ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ رَكَنَ إِلَيْهِمْ. فَقَوْلُهُمْ فَايِدُ لِلْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ وَمَا قَالُوا كَثِيراً عَظِيماً [لِلْوُجُوهِ: أَخْذَهَا] (١٢): يُخَافُ أَنْ يَتَلَعَّ الكُفْرَ.

وَالثَّانِي: قَالَ ﴿كِدْتَ﴾ وَهُوَ حَرْفٌ تَقَارِبُ.

وَالثَّالِثُ: ذَكَرَ عَلَى الشَّرْطِ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ فَلَمْ يَرْكَنْ لِمَا ثَبَّتَهُ، وَهُوَ مَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَلَوْتُمْ أَنْ كَانُوا يَطْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وَمَا ذَكَرْنَا فِي قِصَةِ يَوْسُفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ هَمَّ، وَلَا فِيهِ أَنَّهُ، رَكَنَ، لِأَنَّهُ خَرَجَ عَلَى الشَّرْطِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أَيِ هَمَّتْ، لَكِنَّهُ هَمَّ بِهِ هَمَّ خَطَرٍ، خَطَرُهُ إِبْلِيسُ.

كَذَلِكَ فِي قِصَةِ يَوْسُفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ غَزَمٍ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ خَطَرٍ [الآية: ٢٤].

وَقَالَ غَيْرُهُ: أَرَادُوا مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَجْلِساً عَلَى حِدَّةٍ لِيُسْلِمُوا، فَهَمَّ بِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لِجَرِّصِهِ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَإِشْفَاقِهِ عَلَيْهِمْ. فَمِثْلُ هَذَا يَجُوزُ الْفِعْلُ. إِلَّا أَنَّ الرُّسُلَ لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئاً، وَإِنْ صَغُرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. أَلَا تَرَى أَنَّ يُونُسَ لَمَّا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجُوزُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا تَلَحُّقَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجُوزُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَدَدُهَا. (٦) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَتْبَاعُهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَظَاهِرُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَارَبَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

خَرَجَ مِنْ عِنْدِ قَوْمِهِ مُغَاضِبًا عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْهُ عَاتَبَهُ رَبُّهُ مُعَاتِبَةً عَظِيمَةً حِينَ^(١) قَالَ: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسِينَئِرِينَ﴾ ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِمْ إِنْ يَوْمَ يُنْعَثُونَ﴾؟ [الصافات: ١٤٣ و ١٤٤].

ومثل هذا لو فعله غيره من دونه^(٢) كانَ ممدوحاً محموداً في ذلك. فهذا يدلُّ على أنَّ الأنبياء لم يكنْ لهم صنْعُ شيء، وإنْ قُلْ، إلا بإذنِ الله، والله أعلم.

الآية ٧٥ وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَاقَيْتَكَ ضَمَّتْ الَّتِي ضَمَّتِ الْجَبَّةَ وَضَمَّتِ الْمَمَاتِ﴾ أي ضمَّتْ عَذَابَ الْحَيَاةِ وَضَمَّتْ عَذَابَ الْمَمَاتِ.

وقال أبو عوسجة: ﴿ضَمَّتِ الْحَيَاةَ﴾ [أي مثل الحياة]^(٣) عَذَابُ [الدنيا]^(٤) ﴿وَضَمَّتِ الْمَمَاتِ﴾ عَذَابُ الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ قيل: ناصراً، ينصرك، وشافعاً، يشفعك إلينا والله أعلم.

الآية ٧٦ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: قوله: ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ أي لَيَقْتُلُوكَ، أو لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا بِالْقَتْلِ. وقد كانوا هموا قتلَهُ، لكنَّ عَصَمَهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ/ ٣٠٧ - أ/ يَعْصِيكَ مِنْ آلَائِهِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا يَلْعَنُوكَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هكذا كانت سنة الله في الأمم الخالية؛ إنهم إذا قتلوا نبيَّهُمْ لم يَلْبَثُوا بَعْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَهْلِكُوا.

وقال بعضهم: هو على الإخراجِ نفيهِ، إلا أنَّ الله ﷻ أَخْرَجَهُ إِخْرَاجَ هِجْرَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَقَضِيهِ، أي لا يَهْلِكُ هذه الأمة إهلاكاً اسْتِثْصَالٍ. فلو كانوا هُمُ أَخْرَجُوهُ لَأَسْتَوْجَبُوا بِهِ الْإِهْلَاقَ لِمَا كَانَ مِنْ سُنَّتِهِ فِي الْأَوَّلِينَ إِهْلَاقَهُمْ إِذَا أَخْرَجُوا رَسُولَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ.

وقال بعضهم: هو على حَقِيقَةِ الإخراجِ مِنْهُمْ؛ أَخْرَجُوا رَسُولَ اللهِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَقَعَلُوا ذَلِكَ، فلم يَلْبَثُوا بَعْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ، وهو ما قال: ﴿وَكُلٌّ مِنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] ففيه دلالة أنهم أَخْرَجُوهُ، وأنهم أَهْلَكُوا بِذَلِكَ. وكذلك كانت سنة الله في الرُّسُلِ إِذَا قَعَلَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

وقال أهلُ التأويلِ في قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ أي يَسْتَفِزُّوكَ مِنْ أَرْضِ الْمَدِينَةِ حَيْثُ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ.

قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ: إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ لَيْسَتْ بِأَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، إِنَّمَا أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ أَرْضُ الشَّامِ، فَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا رَسُولًا فَاخْرُجْ إِلَيْهَا، فَخَرَجَ الرَّسُولُ، ﷺ مُتَوَجِّهاً إِلَى الشَّامِ، فَعَسَكَرَ عَلَى رَأْسِ أَمِيَالٍ لِيَنْسَابَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ، فَتَزَلَّ بِهِ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

لكنْ ذَكَرْنَا أَنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ، لَا يُحْتَمَلُ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرِجَ رَسُولُ اللهِ مِنْ أَرْضِ الْمَدِينَةِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ بِقَوْلِ أَوْلَئِكَ الْيَهُودِ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنَ اللهِ إِذْنٌ لَهُ فِي ذَلِكَ. هَذَا، لَا يُحْتَمَلُ، وَلَا يُتَوَهَّمُ مِنْهُ ذَلِكَ. وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وُسْبِيهِ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي كَادُوا يَفْتِنُونَكَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ لَكَ ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ لَا لِأَنَّهُمْ^(٥) كَانُوا يَظْمَعُونَ يَفْتِنُونَكَ، وَيُضِلُّوهُ عَنِ الَّذِي أَوْحِيَ إِلَيْهِ عَلَى التَّضَرُّيعِ وَالْإِنصَاحِ، وَلَكِنْ عَلَى جِهَةِ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ عَلَى قَوْلِ الْحَسَنِ: السُّنَّةُ فِي الْأَمْرِ الَّتِي^(٦) قَبْلَهُ أَنَّهُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: دُونَهُمْ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَغَيْرِهِ قَالَ: ﴿ضَمَّتِ الْحَيَاةَ﴾ أَي مِثْلَ الْحَيَاةِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي.

إِذَا قَتَلُوا الرَّسُولَ أَهْلَكُوا؛ وَغُذِّبُوا؛ وَعَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ: السُّنَّةُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَخْرَجُوا الرَّسُولَ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بَعْدَهُ الْإِهْلَاكُ. وَعَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ: عَلَى الْإِخْرَاجِ نَفْسِهِ.

وهؤلاء قد أَخْرَجُوا رَسُولَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ بقوله: ﴿إِلَّا نُنصِرَهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ﴾ الآية [الثوبه: ٤٠] وقوله: ﴿وَكُلٌّ مِنْ قَرَبَةٍ مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ مِنْ قَرْنِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] لكنهم غُذِّبُوا تَعَذِّيبَ رَحْمَةِ وَإِهْلَاكِ رَحْمَةٍ، لَا إِهْلَاكِ اسْتِصْصَالٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لعذابنا تحويلاً.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ الْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْأَمْرَ بِالذَّوَامِ عَلَيْهَا وَالذَّوْمُ بِهِ، أَيْ الزَّمْ بِهِ، وَإِذْفِهَا، أَوْ اسْمُ الثَّمَامِ وَالْكَمَالِ، أَيْ أَتَمَّهَا، وَأَكْمَلَهَا، بِالشَّرَاطِيطِ الَّتِي أَمَرَتْ بِهَا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أَفْعَلَهَا. وَلَمْ يُهْمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الْإِنْتِصَابُ عَلَى مَا يُنْصَبُ الشَّيْءُ، وَيُقَامُ بِهِ. فَدَلَّ أَنَّهُ لَا يُهْمُ مِنَ الْخُطَابِ ظَاهِرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿لَذُلُّوكَ الشَّمْسِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَذُلُّوكَ الشَّمْسِ﴾ زَوَالُهَا ﴿إِلَّا غَسَقَ اللَّيْلُ﴾ أَيْ إِلَى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أَيْ صَلَاةَ الْفَجْرِ. فَيَقُولُ النَّاسُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ جَمِيعاً لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَوَّلَ مَا يَجِبُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَهُوَ ^(١) الظُّهْرُ إِلَى مَا يَنْتَهِي، وَهُوَ ^(٢) الْفَجْرُ فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ﴿إِلَّا﴾ لَا تَكُونُ غَايَةً، وَلَكِنْ تَكُونُ كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذُّلُّوكِ الشَّمْسِ﴾ وَغَسَقَ اللَّيْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَذُلُّوكَ الشَّمْسِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ذُلُّوكَ الشَّمْسِ زَوَالُهَا ﴿إِلَّا غَسَقَ اللَّيْلُ﴾ أَيْ إِلَى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: فِيهِ ذَكَرَ صَلَاةَ النَّهَارِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ ذُلُّوكَ الشَّمْسِ، وَهُوَ زَوَالُهَا ﴿إِلَّا غَسَقَ اللَّيْلُ﴾ وَغَسَقَ اللَّيْلِ هُوَ بَدْءُ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، فَدَخَلَ فِيهِ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ. فَعَلَى تَأْوِيلِ هَذَا يَكُونُ حَرْفُ ﴿إِلَّا﴾ غَايَةً، لَا تَدْخُلُ صَلَاةُ اللَّيْلِ فِيهِ.

ثُمَّ تَخْصِيصُ الْخُطَابِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، يَكُونُ كَأَنَّهُ قَالَ: أَقِمِ لَهُمُ الصَّلَاةَ. [فَإِنْ] ^(٣) كَانَ هَذَا فَفِيهِ دَلَالَةٌ صَحِيحَةُ صَلَاةِ الْقَوْمِ بِصَلَاةِ الْإِمَامِ وَتَعْلُقُ صَلَاتُهُمْ بِصَلَاةِ الْإِمَامِ حِينَ ^(٤) قَالَ: أَقِمِ لَهُمُ الصَّلَاةَ. وَلَوْ كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يُقِمُ صَلَاةَ نَفْسِهِ لَكَانَ لَا يَقُولُ: أَقِمِ لَهُمُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنْ يَقُولُ: صَلِّ الصَّلَاةَ، فَدَلَّ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿لَذُلُّوكَ الشَّمْسِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلَّذِي تَذَلُّكَ لَهُ الشَّمْسُ كَقَوْلِهِ ﴿يَنْفَرُوا ظُلُمَةً﴾ الآية [التحل: ٤٨]

وَالثَّانِي: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ لِلزُّوْفِ الَّذِي يَلِي ذُلُّوكَ الشَّمْسِ [إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَأَقِمِ قُرْآنَ الْفَجْرِ أَيْ صَلَاةَ الْفَجْرِ] ^(٥) ثُمَّ تَخْصِيصُ الْفَجْرِ لِمَا ذَكَرَ حِينَ ^(٦) قَالَ: ﴿إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَأَنَّ مَشْهُودًا﴾ فَالتَّخْصِيصُ ^(٧) لِقُرْآنِ الْفَجْرِ لِأَنَّهُ مَشْهُودٌ، وَالْفَرْضِيَّةُ بِهَا لِقَوْلِهِ: ﴿أَقِمِ قُرْآنَ الصَّلَاةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا ثُمَّ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَأَنَّ مَشْهُودًا﴾ أَيْ لَمْ يَزَلْ فِي عِلْمِ اللَّهِ ﴿كَأَنَّ مَشْهُودًا﴾ أَوْ صَارَ مَشْهُودًا ثُمَّ قَوْلُهُ ^(٨): ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ وَصَلَاةَ الْفَجْرِ.

وَأَمَّا ذَكَرَ صَلَوَاتِ النَّهَارِ، فَدَخَلَتْ ^(٩) صَلَاةُ اللَّيْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا فَتَجَعَّدَ بِهِ﴾ لَكُنْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ التَّجَعَّدَ بَعْدَ النَّوْمِ، وَقَدْ يَكُونُ النَّوْمُ قَبْلَ فَعْلِ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَلَا يَصِحُّ هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ذُلُّوكَ الشَّمْسِ غَرْبُهَا، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِيهِ ذَكَرَ صَلَوَاتِ اللَّيْلِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ بَدْءَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَذَلِكَ بِالْغُرُوبِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ لِأَنَّهُ ^(١٠) هُوَ آخِرُ مَا نَتَهَى [بِوَا] ^(١١) ظُلْمَةُ اللَّيْلِ [وَلَا يَكُونُ] ^(١٢) تَبْقَى ظُلْمَةُ اللَّيْلِ إِلَى وَقْتِ الْفَرَاغِ مِنَ الْفَجْرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: وَمِنْ (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: وَمِنْ (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: الصَّلَاةُ.

(٦) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ (٧) الْقَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: قَالَ (٩) فِي الْأَصْلِ رَم: فَدَخَلَ (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: إِنَّ.

(١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم: (١٢) فِي الْأَصْلِ رَم: لِأَنَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يستعمل هذا وجهين:

أحدهما: القرآن يكون كناية عن صلاة الفجر، كأنه قال: اقرأ الصلاة ﴿يَذْكُرُكَ السَّيِّئُ﴾ وأقم أيضاً صلاة الفجر لأنه نسق على الأول.

والثاني: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي قراءة^(١) الفجر، أي أقم قراءة الفجر.

ويجوز أن يقال: القرآن مكان القراءة كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ قَالَتْ قَدْ أَتَيْتُ قُرْآنَكُمْ﴾ [القيامة: ١٨] أي قراءة.

ثم من الناس من احتج بفرضية القراءة في الصلاة بهذا لأنه نسق على الأول على ما ذكرنا، كأنه [قال]^(٢): وأقم القراءة. ومنهم من يقول: إنما حث على قراءة الفجر دون غيرها من الصلوات لما طول القراءة فيها لتفصيلها عن الأربع لأنه لم يجعل غيرها من الصلوات ركعتين، فحث على قراءتها لهذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال عامة أهل التأويل: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار [أي حرس الليل]^(٣) وحرس النهار، وعلى ذلك رويت الآثار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي قراءة الفجر، تشهد بها^(٤) ملائكة الليل وملائكة النهار. على هذا حملة أهل التأويل، وعلى ذلك رويت الأخبار. وألا جاز أن يقال فيه [وجه]^(٥) آخر، وهو أن تشهد القلوب والأسماع^(٦) والعقول، لأن ذلك الوقت، هو وقت الفراغ عن جميع الأشغال والموانع التي تشغل عن الاستماع والفهم عنه ما لا يكون ذلك الفراغ لغيرها من الصلوات من صلاة المغرب والعشاء لأنها بقراب من الأشغال والحوائج. ألا ترى أن الجهر بالقراءة إنما يجعل في الأوقات التي هي أوقات الفراغ عن الاشتغال، وهي المغرب والعشاء؟ ثم وقت الفجر هو أخلى وقت عن غيره لأنه بعد فراغ النوم وقبل هجوم وقت التغلب، فالقراءة [فيه أسمع، والقلوب أشهد له]^(٧). لكن أهل التأويل صرفوا ذلك إلى ما ذكرنا، والله أعلم.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال بعضهم: النافلة الغنمة كقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١] أي الغنائم/٣٠٧- ب/ وقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي غنمة لك تغنم بها غنائم، أو كلاماً^(٨) نحو هذا.

وقال الحسن: قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [أي خالصة لك]^(٩) وخلوصه له [هو أنه]^(١٠) لا يغفل هو عن شيء منها في حال من الأحوال، وغيره من الناس يغفلون فيها عن أشياء.

وقال بعضهم: ذكر أنه نافلة لك لأنه كان مغفراً له؛ فما يعمل يكون له نافلة. وأما غيره فإن ما يعمل من الخيرات، يكون كفارة لذنبه^(١١)، فلا يكون له نافلة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال [بعضهم]^(١٢): ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ نحمد عاقبته بالتعجب، أي يبعثك ربك مقاماً تحمد أنت [تلك]^(١٣) العاقبة جزاء تهجدك في الدنيا. وقال بعضهم: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ما يحمده كل الخلائق الأولون والآخرون. وقال بعضهم: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ هو مقام الشفاعة، والله أعلم، أي تشفع لأهلك^(١٤) وأهل العيضان منهم.

وجائز أن يكون هو صلة ما تقدم من قوله: ﴿فَتَقَعِدْ مَدْمُومًا تَحْذَرُ﴾ [الإسراء: ٢٢] وقوله: ﴿فَتَقَعِدْ مَدْمُومًا تَحْذَرُ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقوله: ﴿فَتَقَعِدْ مَدْمُومًا تَحْذَرُ﴾ [الإسراء: ٣٩] وما سمع من المواعيد؛ لما سمع هذا، وقرع سمعه ذلك، أخافه، وأفرغه، فنزل قوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ إن عبدت الله، وأطعته في جميع أموره ونواهي، وأقمت له الصلاة والصيام.

(١) من م، في الأصل: قرآن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: تشهد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والسمع. (٧) في الأصل وم: فيها والقلوب أشهد لها. (٨) في الأصل وم: كلام. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وهو أن. (١١) في الأصل وم: لذنبهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) اللام ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ ظاهرُ هذا الخطابِ يكونُ لرسولِ الله ﷺ حين^(١) أمره أن يَدْعُوَ مِمَّا ذَكَرَ، وقد عَرَفَ هو ما أَمَرَهُ مِنَ الدَّعَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ فلا حاجة، تَقَعُ لَنَا إِلَى أَنْ نَطْلُبَ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِيُغَيِّرَ فِي ذَلِكَ اشْتِرَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكَلَّفَ فِيهِ، وَنَطْلُبُ الْمُرَادَ مِنْهُ.

وقد تَكَلَّمَ أَهْلُ التَّوَابِلِ فِي ذَلِكَ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَمَرَ أَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدَّعَاءِ ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ فِي الْمَدِينَةِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أَيْناً عَلَى زَعَمِ الْيَهُودِ ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ ﴿مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أَيْناً عَلَى زَعَمِ كُفَّارِ مَكَّةَ ظَاهِراً عَلَيْهِمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ عَلَيْهِمْ، فَفَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ، وَاجَابَهُ؟

وقد ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ حَرْفَ السُّلْطَانِ، يَتَوَجَّهُ إِلَى وَجُوهِ ثَلَاثَةٍ: يَكُونُ مَرَّةً عِبَارَةً عَنْ حُجَّةٍ قَاهِرَةٍ غَالِبَةٍ، وَيَكُونُ [مَرَّةً]^(٢) عِبَارَةً عَنْ وَلَايَةٍ نَائِذَةٍ غَالِبَةٍ، وَيَكُونُ [مَرَّةً]^(٣) عِبَارَةً عَنِ الْيَدِ الظَّاهِرَةِ الْغَالِبَةِ أَيْضاً. وَقَدْ كَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمِيتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْكُفْرَةِ ذَلِكَ كُلُّهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ فِي مَكَّةَ لِيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنِّي قَدْ بَلَّغْتُ الرِّسَالَةَ ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ مِنْهَا ﴿مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لِيَعْلَمَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ أَنِّي نَصِرْتُ، وَبَلَّغْتُ مَا أُمِرْتُ بِهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: أَخْرِجْنِي مِنْ مَكَّةَ ﴿مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وَأَدْخِلْنِي فِي الْجَنَّةِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ فِي مَا حَمَلْتَنِي مِنَ الرِّسَالَةِ وَالتَّوْبَةِ وَمَا أَمَرْتَنِي بِهَا لِأَوْذِيهَا عَلَى مَا أَمَرْتَنِي وَأَبْلَغَ الرِّسَالَةَ إِلَى الْخَلْقِ عَلَى مَا كَلَّفْتَنِي، ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أَيِ أَخْرِجْنِي مِمَّا كَلَّفْتَنِي سَالِماً، لَا تَبِعَةً عَلَيَّ، أَوْ كَلَاماً^(٤) نَحْوَهُ.

وَأَصْلُهُ كَانَهُ أَمْرُهُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ الصَّدَقَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَفِي جَمِيعِ مَا يَتَعَبَّدُهُ بِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي أَمْرٍ أَوْ الْخُرُوجِ مِنْهُ؛ إِذْ لَا يَخْلُو الْعَبْدُ مِنْ هَذَيْنِ مِنَ الدُّخُولِ فِي أَمْرٍ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ. سَأَلَهُ الصَّدَقَ فِي كُلِّ حَالٍ وَكُلِّ دُخُولٍ وَكُلِّ خُرُوجٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ فِي الرِّسَالَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: حُجَّةً مِنْهُ، وَقَدْ أَقَامَهَا عَلَى الْكُفْرَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أَيِ اجْعَلْ فِي قُلُوبِ النَّاسِ هَيْبَةً لِيَهَابُونِي، وَقَدْ كَانَ فِي الْهَيْبَةِ بِحَيْثُ هَابُوهُ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ السُّلْطَانُ الَّذِي يَنْصُرُونَ بِهِ الدِّينَ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ وَالْأَحْكَامَ وَنَحْوَهُ.

وقيل: السُّلْطَانُ هُوَ إِقَامَةُ الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ، وَهُوَ تَقْسِيمُ الْوَلَايَةِ، لِأَنَّهُ بِالْوَلَايَةِ مَا يُقِيمُهَا، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوَلَايَةِ وَإِقَامَةِ الْأَحْكَامِ.

ثُمَّ قِيلَ فِي الصَّدَقِ وَالْإِخْلَاصِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِخْلَاصُ هُوَ أَلَّا يَجْعَلَ [الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ] ^(٥) بِقَلْبِهِ نَصِيْباً لِأَحَدٍ سِوَاهُ، وَالصَّدَقُ [إِنْ جَعَلَ فَلَ] ^(٦) يَجِدُ لِدُنْكَ لَذَّةً.

الصَّدَقُ عِنْدَنَا أَنْ يَجْعَلَ الْفَضْلَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، لَا يَجْعَلَ لِنَفْسِهِ شَيْئاً مِنَ الْفَضْلِ. وَعَلَى ذَلِكَ يَلْزَمُهُ الشُّكْرُ لِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ خَيْرَاتِهِ.

وعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ] ^(٧) قَالَ: لَمَّا مَكَرَ كُفَّارُ [مَكَّةَ] ^(٨) بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُثْبِتُوهُ، أَوْ يَقْتُلُوهُ، أَوْ يُخْرِجُوهُ، أَرَادَ^(٩) اللَّهُ تَعَالَى بَقَاءَ أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا مُهَاجِراً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَعَلَّمَهُ مَا يَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ وَعَدَهُ اللَّهُ [بِأَنْ يَنْزِعَ] ^(١٠) مُلْكَ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَيَجْعَلَهُ لَأُمَّتِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الشَّيْء. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ جَعَلَ لَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَارَادَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَنْزِعَنَّ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ قال بعضهم: جاء الحق، وهو الإسلام، وقيل: جاء الحق القرآن، وقيل: جاء الحق أي محمد. أو يقول: جاء آثار الحق، فذهب الباطل وآثاره، أو جاء حُجَج الحق وبراهينه، وذهب شبه الباطل وتمويهاته. والحق يَحْتَمِلُ ما ذُكِرنا مِنَ الإسلام ورسول الله.

وقوله تعالى: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي ذهب، وبطل غيرُه مِنَ الأديان وغيره مِنَ المذاهب وعبادة الأصنام ونحو ذلك.

قالوا: واصله أن الناس كانوا في حيرة وتيه قبل بعث الرسول لما كانوا فقدوا دين الله وسبيله منذ كان رفع عيسى من الأرض إلى السماء، لا يجدون سبيل الله، ولا يهتدون إلى شيء، حيارى، حزانى، حتى بعث الله محمداً ليدعوهم إلى دين الله، ويبين لهم سبيله الذي كان يتمسك به الأنبياء من قبليه ويخرجهم من تلك الحيرة التي كانوا فيها، ففعل ﷺ فذلك الذي قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الذي فقدوه، فسروا بذلك ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي ذهب، واضمحَلَّ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي ذاهباً مُضْمِجاً، لا يُجدي خيراً، ولا يُغيبُ لاهله نفعاً، والحق هو الذي يُغيب، ويُجدي نفعاً لاهله.

ثم قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ لم يفهم أهل الخطاب بمجيء الحق الإتيان من مكان إلى مكان ولا بذهاب الباطل على ما يفهم من مجيء فلان وذهاب فلان، بل فهموا من مجيء الحق ظهوره وعلوه، وفهموا من زهوق الباطل وذهابه فناءه واضمحلاله وتلاشيته.

وعلى ذلك لم يفهموا من مجيء الأعراض ما فهموا من مجيء الأجسام والأجساد. فعلى ذلك لا يجب أن يفهموا من قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] الإتيان من مكان إلى مكان، وكذلك لا يفهم من قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٤...]. استواء الخلق ولا من نزوله نزول الخلق على ما لم يفهم مما أضيف إلى الأعراض من الأفعال ما فهموا من الأجساد والأجسام، بل فهموا من الآخر.

فعلى ذلك لا يفهم مما أضيف إلى الخلق، بل يتعالى عن أن يشبه الخلق، أو يشبهه الخلق في معنى من المعاني أو في وجه من الوجوه، بل هو كما وصف نفسه [يقول] ^(١) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّيَ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ كان الآية نزلت في ابتداء الأمر حين ^(٢) قال: ﴿وَنَزَّلَ﴾ ولم يقل: ونزلنا ﴿مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ وجائز أن يكون قوله: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ نفس القرآن، وهو ما ذكرنا.

ويَحْتَمِلُ المواعيد التي في القرآن من وقائع، تكون عليهم، وكان في ذلك شفاء للمؤمنين كقوله: ﴿فَتَلَوْتُمْ بِمِزَانِ اللَّهِ يُأْنِيبُكُمْ﴾ / ٣٠٨ - أ / الآية [التوبة: ١٤] أو نقول بأنه يجوز: ففعل بمعنى فعلنا، وذلك كثير في القرآن.

ثم قوله: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شفاء للمستشفين في الدنيا، ورحمة لمن تمسك به، وعمى وخسارة وظلمة لمن أغرض عنه، ونظر إليه بعين الاستخفاف والاستيغال.

وأما من نظر إليه بعين التعظيم والإجلال فهو له شفاء ورحمة.

وإن كان القرآن نفسه [كان] ^(٣) شفاء ونوراً. وهكذا في الشاهد: أن من أبصر شيئاً إنما يبصر بنور البصر وبنور الهواء بارتفاعه ^(٤) ما يَسَّرُ الثَّوَرَيْنِ جميعاً، لأنه إذا كان أغشى ^(٥) البصر لم يبصر شيئاً، وإن كان نور الهواء متجلياً، وكذلك لا تبصر شيئاً إذا كان نور البصر متجلياً بعد أن سترت الظلمة نور الهواء.

فإن كان ما ذكرنا أنه لا يبصر في الشاهد شيئاً إلا بنورين: نور البصر ونور الهواء، فالكافر لم يبصر نور القرآن وشفاءه لما سترت الظلمة نور قلبه، والمؤمن أبصر نوره وشفاءه بنور إيمانه. وهكذا الأدوية فإنها لا تُجدي نفعاً، وإن كانت نافعة

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: بارتفاع. (٥) في الأصل وم: عمى.

شافية في نفسها، إلا بقبول الطبيعة، لأن الطبع إذا لم يقبلها، وإن كانت شافية نافعة، لم تنفع صاحبها، ولم يكن له^(١) شفاء، وصارت كأنها في الأصل كانت عساة غير شافية فعلى ذلك القرآن، وإن كان في نفسه شفاء ونوراً، وصار للكافر عسى وحساراً، كأن لا شفاء فيه، ولا رخصة لما سترت ظلمة الكفر نوره، فصار كالزائد له رجس وطغياناً ونفوراً، وهو ما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ والله أعلم.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعِزَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأْتِيهِمْ بَغْثَةٌ أَنْ يَكُونَ النِّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرَ، هُوَ مُحَمَّدٌ لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي حَيْرَةٍ وَعَمَى، لَا يَجِدُونَ السَّبِيلَ إِلَى دِينِ اللَّهِ، ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَعَلَّ بَأْسَهُمْ يَدِيرُ﴾ أَهْدَى مِنْ أَهْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَوَلَّوْا﴾ [فاطر: ٤٢] فذلك [هو] الإعراض الذي ذكرنا، والله أعلم. فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَيُبَيِّنَ سَبِيلَهُ، فَذَلِكَ مِنْهُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَتَبَاعَدُوا عَنْهُ.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ إِذَا وَشَّعَ عَلَيْهِ الرُّزْقُ وَالْقِيَسُ أَعْرَضَ عَنِ الدَّعَاءِ لَهُ، وَتَبَاعَدَ بِجَانِبِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا سَهْوَةَ الشَّرِّ كَانَ يَتَوَسَّسُ﴾ أَي يَتَسَاءَلُ مِنَ الْخَيْرِ أَلَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَصْلًا. وَهَكَذَا كَانَتْ عَادَتُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُخْلِصُونَ الدَّعَاءَ لَهُ إِذَا مَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ، وَيُكْفَرُونَ بِهِ إِذَا انْجَلَى ذَلِكَ لَهُمْ، وَانْكَشَفَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ﴾ الْآيَةَ [العنكبوت: ٦٥] وَقَوْلِهِ^(٢): ﴿وَلَا تَسْتَعِزَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأْتِيهِمْ بَغْثَةٌ﴾ وَأَمثَالِهِ.

وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِرْقًا أَرْبَعَةً: مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَذْهَبُهُمْ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُخْلِصُونَ لَهُ الدَّعَاءَ فِي حَالِ الشَّدَّةِ، وَيُكْفَرُونَ فِي حَالِ الرِّخَاءِ. وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ فِي حَالِ الرِّخَاءِ وَالنِّعْمَةِ، وَيُكْفَرُ فِي حَالِ الشَّدَّةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَتَأْتِي مَنْ يَبْعُدُ اللَّهُ عَنْ حَرْفٍ﴾ الْآيَةَ [الحج: ١١] وَهُمْ أَهْلُ التَّفَاقُقِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُكْفَرُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا كَقَوْلِهِ^(٣):

وَالْفِرْقَةُ الْمُرَابَعَةُ هُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، يُؤْمِنُونَ بِهِ فِي حَالِ الرِّخَاءِ وَفِي حَالِ الشَّدَّةِ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا.

عَلَى هَذَا كَانُوا فِي الْأَصْلِ، وَعَلَى هَذَا يَجِيءُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا سَهْوَةَ الشَّرِّ كَانَ يَتَوَسَّسُ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ كَقَوْلِهِ: ﴿حَسْبُكَ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا آيَاتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] فَيَكُونُ إِيَّاسُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا.

لَكِنْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ صَرَفُوا إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْخَيْرِ مِنَ الْآلِ^(٤) [يَعُودُ إِلَيْهِمْ].

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ لَسْنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ أَيُّ سَبَبٍ كَانَ هَذَا حَتَّى قَالَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ هَذَا بِسَبَبٍ كَانَ مِنْهُمْ ابْتِدَاءً، لَكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ^(٥) قَالَ هَذَا عَلَى الْإِيَّاسِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ لِمَا لَمْ يَزِدْهُمْ دَعَاؤُهُ إِيَّاهُمْ وَكَثْرَةُ تِلَاوَةِ آيَاتِهِ عَلَيْهِمْ وَإِقَامَةُ حُجَجِهِ عَلَيْهِمْ إِلَّا عِنَادًا وَانْكَارًا. فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أَي عَلَى دِينِهِ وَطَرِيقَتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوهُ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] فَهُوَ كُلُّهُ عَلَى الْإِيَّاسِ مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَقَبِلُوا دِينَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أَي رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ مَنَّا عَلَى الْهُدَى وَمَنْ لَيْسَ، أَوْ مَنْ^(٦) مِمَّا أَهْدَى سَبِيلًا نَحْنُ أَوْ^(٧) أَنْتُمْ؟

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الشَّاكِلَةُ: الْحَاضِرَةُ^(٨)، أَي عَلَى نَاحِيَّتِهِ. وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: ﴿شَاكِلَتِهِ﴾ أَي عَلَى خَلِيقَتِهِ. وَقَالَ قُطْرُبٌ: عَلَى طَرِيقَتِهِ، وَكَانَ هَذَا أَشْبَهَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَى نَيْتِهِ. وَقِيلَ: عَلَى دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ. وَقِيلَ: عَلَى جَدِيلَتِهِ وَمِنَاجِيهِ. وَكُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ: أَي كُلٌّ يَعْمَلُ^(٩) بِمَا هُوَ الشَّيْبَةُ بِهِ وَمَا هُوَ يُشْبِهُهُ، لِأَنَّ الشَّكْلَ هُوَ مَا يُشْبِهُ الشَّيْءَ؛ يُقَالُ: هَذَا شَكْلُ هَذَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: بَيَّاضٌ فِي الْأَصْلِ، وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَعِزَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأْتِيهِمْ بَغْثَةٌ أَنْ يَكُونَ الشَّرُّ كَانَ يَتَوَسَّسُ﴾. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) مِنَ م، فِي الْأَصْلِ: الْحَاضِرَةُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمَلٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِهِ﴾ على قول من يقول: على خلقه [التي] ^(١) خلق عليه، لأنه خلق على ما علم منه ^(٢) يختار، ويؤثر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] قيل: ذاهباً باطلاً، لا يجدي لأهله نفعاً، لأنه يتلاشى، ولا يبقى، والحق يجدي لأهله نفعاً، ويبقى. وعلى ذلك ضرب الله مثل الحق بالشئ الذي يبقى، وضرب مثل الباطل بالذي لا يبقى ولا يثبت، فقال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَذَهَبَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وقد ذكرنا في موضعه ضرب مثل الباطل بالزبد، وهو يتلاشى، ولا يثبت به. فعلى ذلك الباطل.

وضرب مثل الحق بالماء، وهو يبقى في الأرض، وينفع الناس، وضرب مثل الباطل أيضاً بالشجرة الخبيثة التي اجتمعت من فوق الأرض، ولا يكون لها قرار بقولها: ﴿وَسَّيْلٌ كَمَثَلِ خَيْثٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٦] وضرب مثل الحق بالشجرة الطيبة الثابتة في الأرض ذات القرار والثبات بقوله: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَشْلَاهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] فهو على ما وصفها: الحق ثابت باق، وله قرار، ينفع أهله، والباطل يرى، ثم يتلاشى، ولا بقاء.

الآية ٨٥ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَلْزِمُونَكَ مِنَ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [اخْتَلَفَ فِيهِ:]

قال أبو بكر الأصم: الروح القرآن ههنا كقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢] وكذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْمَكْتُوبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ^(٣) أي من تدبير ربي، ما لم ياجتمع الخلاف ما قدروا على مثله.

فإن قيل: كيف سألوا عن القرآن، وهم لم يقرؤوا بالقرآن؟ قيل ^(٤): سمّوه قرآناً وروحاً على ما عنده؛ أغني عند رسول الله كقوله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِي فِي الْأَمْوَالِ﴾ [الفرقان: ٧] وهم لم يكونوا أقرؤا أنه رسول، ولكن سمّوه رسولاً لما عند نفسه وزعمه [أنه] ^(٥) رسول، أي ما لهذا الذي يزعم أنه رسول يأكل الطعام؟ فعلى ذلك قوله: ﴿وَيَسْتَلْزِمُونَكَ مِنَ الرُّوحِ﴾ وهو الذي به حياة الأبدان من هلاك الضلال، أي من تمسك به نجا من هلاك الضلال.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي بأمر ربي ينزل.

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه] ^(٦) قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من خلق ربي [ما لم ياجتمع الخلاف ما قدروا على مثله] ^(٧) وهما ^(٨) واحد.

وقال بعضهم: الروح هو الملك، وإنما سألوه عنه كقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] يعني الملك.

وقال بعضهم: إنما سألوه عن الروح المعروف الذي به حياة الأبدان، لكنه لم يجبههم، فوكل أمره ^(٩) إلى الله لما لا يُذكر ذلك، لو بين لهم وأمثاله.

وروي عن أبي يوسف، رحمه الله، أنه كان ينهى عن الخوض ^(١٠) في الكلام، ويخرج بظاهر هذه الآية حين ^(١١) سألوه عن الروح، فلم يجبههم، ولكن فوض أمره إلى الله، وما سئل عن الأحكام إلا وقد بين لهم كقوله: ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] وقوله ^(١٢): ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية [الأنفال: ١] وقوله ^(١٣): ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ عَنِ الْيَمِينِ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقوله ^(١٤): ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله ^(١٥): ﴿يَسْتَلْزِمُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفَيِّضُكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنه، (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م. (٨) أدرج قبلها في الأصل: فإن قيل. (٩) من م، في الأصل: أمر. (١٠) من م، في الأصل الحق. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

ومثل هذا ما سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْكَامِ إِلَّا وَقَدْ أَجَابَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ بَيَانًا شَافِيًا، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ بِالتَّكَلُّمِ فِي الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَحَدِّثْ لَهُمْ﴾^(٢) الْآيَةُ [النحل: ١٢٥] وَقَوْلِهِ^(٣): ﴿فَلَا تُنَادِرُوا فِيهِمْ﴾^(٤) الْآيَةُ [الكهف: ٢٢] وَنَحْوُهُ فَكَيْفَ نَهَى عَنِ الْخَوْضِ فِي الْكَلَامِ؟

لَكِنْ أبا يوسفَ إِنَّمَا نَهَى / ٣٠٨ - ب/ عَنِ الْخَوْضِ فِي الْكَلَامِ الَّذِي لَا يُذَرِّكُ، وَلَا يَزِيدُ الْخَوْضُ فِيهِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا نَحْوَ مَا رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَفَكَّرُوا فِي الْمَخْلُوقِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ» [أبو نعيم في الحلية ٦٦/٦ و ٦٧] لِأَنَّهُ لَا يُذَرِّكُ. فَالتَّفَكُّرُ فِي مَا لَا يُذَرِّكُ، لَا يَزِيدُ إِلَّا عَمًى وَحَيْرَةً وَتِيهًا. وَأَمَّا الْخَوْضُ فِي الَّذِي يُذَرِّكُ، وَيُعْقِلُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْهَ عَنْ مِثْلِهِ. وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ إِباحَةِ التَّكَلُّمِ فِي الدِّينِ وَالْخَوْضِ فِي الْكَلَامِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَدِّثْ لَهُمْ يَأْتِي مِنَ أَحْسَنُ﴾ الْآيَةُ [النحل: ١٢٥] وَنَحْوُهُ.

قَالَ الشَّيْخُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَا تُفَسِّرُ الرُّوحَ: مَا هُوَ؟ لِمَا لَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِالرُّوحِ، وَهُمْ قَدْ عَلِمُوا مَا أَرَادُوا، أَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا سَأَلُوا ذَلِكَ عَمَّا فِي كُتُبِهِمْ لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ فِي مَا يَدَّعِي مِنَ الرِّسَالَةِ لِمَا عَلِمُوا أَنَّ غَيْرَ الرَّسُولِ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيُّ مَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ مَصَالِحُكُمْ، وَمَا جَاءَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا.

وقال بعضهم: أَيُّ مَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا، وَهُوَ هَكَذَا: أَنَّا لَمْ نُؤْتَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا عِلْمَ ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ وَبَادِيهَا، لَمْ نُؤْتَ عِلْمَ بَوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ وَحَقَائِقِهَا. وَذَلِكَ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْبَصَرَ، يَنْصُرُ، وَالسَّمْعُ، يَسْمَعُ، وَاللِّسَانُ، يَنْطِقُ، وَالْيَدُ تَقْبِضُ، وَتَأْخُذُ، وَالرَّجُلُ، تَمْشِي، وَالْعَقْلُ، يُذَرِّكُ. لَكِنْ لَا نَعْلَمُ الْمَعْنَى الَّذِي جُعِلَ فِيهِ؛ بِهِ يَسْمَعُ، وَبِهِ يَنْصُرُ، وَبِهِ يَنْطِقُ، وَبِهِ يَأْخُذُ، وَبِهِ يَمْشِي، وَبِهِ يُذَرِّكُ.

وَكذلك نَعْرِفُ هَذِهِ الْجَوَاهِرَ الَّتِي تُشَاهِدُهَا، وَنُعَايِنُهَا، بِأَنَّ هَذَا حِمَارٌ، وَهَذَا ثَوْرٌ، وَهَذَا كَذَا. وَلَكِنْ لَا نَعْرِفُ الْمَعْنَى الَّذِي صَارَ [فِيهِ]^(٥) هَذَا حِمَارًا، وَهَذَا ثَوْرًا. وَكَذلك كُلُّ [الْجَوَاهِرِ وَالْأَجْنَاسِ]^(٦) فَلَا نَعْرِفُ مِنَ الْعِلْمِ الَّتِي أَنْشَأَهَا اللَّهُ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهَا: ظَوَاهِرُهَا، وَأَمَّا الْحَقَائِقُ فَلَا.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنَدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الرُّوحَ الَّذِي سَأَلُوهُ عَنْهُ هُوَ الْوَحْيُ، وَالْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَقَوْلِهِ: ﴿لَيْنَ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] لِمَا خَرَجَ ذِكْرُهَا عَلَى إِثْرِ سُؤَالِ الرُّوحِ، فَذَلَّ أَنْهُ مَا ذَكَرْنَا.

وَقَدْ ضَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَرِيبَانِ الْحَشَوِيَّةُ وَالْمُعْتَرِلَةُ. أَمَّا الْحَشَوِيَّةُ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ وَالْكَلامَ هُوَ صِفَةُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ لَمْ يَزَلْ بِهِ مَوْصُوفًا، وَإِنَّهُ لَا يُزِيلُهُ. ثُمَّ يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ فِي الْمَصَاحِفِ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَفِي الْقُلُوبِ. فَقَوْلُهُمْ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ صِفَتَهُ، لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَصَاحِفِ أَعْنَى الْقُرْآنِ، وَيُقَالُ: هَذَا حِكَايَةٌ عَنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمُعْتَرِلَةُ فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ خَلْقَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ. فَعَلَى رَغْمِهِمْ^(٧) يَكُونُ الْقُرْآنُ وَالْكَلامُ مَا يُكْتَبُ، وَيُتَبَّ، وَيُتَمَحَّى، وَذَلِكَ فِعْلُ الْعِبَادِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: أَعْمَالُهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ. فَذَلِكَ تَنَاقُضٌ فِي الْقَوْلِ بَيِّنٌ.

وَعَلَى قَوْلِنَا: مَا ذَكَرَ مِنَ الذَّهَابِ وَالْمَجْيِءِ؛ كُلُّهُ عَلَى الْمَجَازِ، أَيْ الْمَوَافَقَةِ لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ كَمَا يُقَالُ: سَمِعْتُ كَلامَ فُلَانٍ وَقَوْلَ فُلَانٍ وَنَحْوَهُ. فَذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى الْمَجَازِ لَا عَلَى التَّحْقِيقِ، لِأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ قَوْلَ فُلَانٍ حَقِيقَةً وَلَا كَلامَهُ وَلَا حَدِيثَهُ، وَلَكِنْ يَسْمَعُ صَوْتًا، يَفْهَمُ بِهِ قَوْلَهُ وَكَلامَهُ وَحَدِيثَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، يَذْهَبُ بِالَّذِي يُسْمَعُ، وَيُكْتَبُ. أَمَّا حَقِيقَةُ ذَلِكَ فَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: جَوَاهِرُ وَأَجْنَاس. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: زَعَم.

وبعد فإنه، قد أضيف المَجِيءُ إلى الذي لا يُعْرَفُ منه ذلك.

ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أن يكون صِلَةً قوله: ﴿وَنَسْتُلْزِمَنَّكَ مِنَ الرَّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّ﴾ ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ حتى لا يَظْهَرُ به. وإلا كان رسول الله ﷺ يَعْلَمُ أنه لو شاء لَذَهَبَ بالذي أوحى إليه، وقادر عليه، وله رَفْعُهُ. وكذلك يَعْرِفُ هذا كلُّ مُؤْمِنٍ.

وإن كانت الآية على الابتداء فهو يُخْرِجُ على ذِكْرِ المِنَّةِ والرَّحْمَةِ، أي له أن يَرْفَعَ هذا الذي أوحى إليه لِيَعْلَمُوا أن إبقاء النبوة والوحي فَضْلٌ منه وَرَحْمَةٌ. وكذلك الوحي إليه في الابتداء وَبَعَثَهُ رسولا إليهم [فَضْلٌ وَاحْتِصَاصٌ لا اسْتِحْقَاقٌ منه واستِجَابٌ] ^(١) كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] وقوله: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٣] أَخْبَرَ أن النبوة له وما أَرْسَلَ إليه [اختِصَاصٌ منه وَفَضْلٌ وَاسْتِحْقَاقٌ] ^(٢) منه.

فَعَلَى ذلك إبقاء النبوة والوحي رَحْمَةٌ وَفَضْلٌ ^(٣) منه.

وفيه دلالة تَقْضِي قولِ الْمُعْتَرِلةِ مِنْ وَجوه:

أحدها: ما قالوا: [إن الله لا يَخْتَارُ] ^(٤) أحداً لرساليه ونبوتيه إلا مَنْ كَانَ مُسْتَحَقّاً لها ومُسْتَوْجِباً لذلك؛ وقد أَخْبَرَ أنه بِفَضْلِهِ واختِصَاصِهِ أَرْسَلَهُ رسولا، وَبِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ أَبْقَاهَا، وَتَرَكَّهَا، بَعْدَ ما أَوْحَى إليه، وأَرْسَلَهُ رسولا.

والثاني: فيه أنَّهُ له أن يَفْعَلَ ما ليس هو بِأَصْلَحَ لهم في الدين حين أَوْعَدَ لهم بِرَفْعِ ما أَوْحَى إليه، وأَرْسَلَهُ، وإِذَا بِهِ إِثْمًا، ولا يُوعَدُ إِلَّا بما له أن يَفْعَلَ ما أَوْعَدَ، إذ لا يُوعَدُ بما ليس له الْفِعْلُ في الحكمة. ثم لا شَكَّ أن يُقَالَ: النبوة وتَرْكُ ما أَوْحَى إليه أَصْلَحَ لهم مِنْ رَفْعِهَا وتَرْكِهَا إِثْمًا خُلُوعًا عَنْ ذَلِكَ. دَلَّ أنه قد يَفْعَلُ ما ليس هو بِأَصْلَحَ لهم في الدين.

والثالث ^(٥): أنه يُكَلِّفُ خَلْقَهُ التوحيد والإيمان، وإن لم يُزِيلْ رسولا، ولا أَوْحَى إليه وَخِيًا، لأنه مَعْلُومٌ أنه لو لم يُزِيلْ الرسول، ولا كانوا مُكَلَّفِينَ في أنفسهم لكان خَلْقُهُ إِثْمًا عَنَّا لِيَتْرَكَهُمْ سُدىً، فَذَلَّ أنهم مُكَلَّفُونَ بِتوحيده ومعرفة، وإن لم يرسل، ولا أَوْحَى حين ^(٦) أَخْبَرَ أن بَعَثَ الرسلَ وإِبقاها فَضْلٌ منه وَرَحْمَةٌ بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [فَضْلُهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا].

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي إبقاء النبوة والوحي رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ، وَفَضْلُهُ أَيْضًا في إبقاء ذلك

[كبير].

والرابع ^(٧): أن الحِفْظَ والنَّسيانَ، وإن كانا مِنَ العبد، فَلِلَّهِ فِيهِمَا صُنْعٌ، به يَحْفَظُ حين ^(٨) قَالَ: ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أَخْبَرَ أنه لو شاء لَذَهَبَ بِالمَحْفُوظِ في القَلْبِ، ونَسِيَهُ. دَلَّ أنَّهُ له قُدْرَةٌ في فِعْلِ العبد.

وفي قوله: ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وَجْهٌ آخَرُ ^(٩) مِنَ الْحِكْمَةِ، وهو أن يَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ أنَّ الْفَضْلَ كُلَّهُ مِنَ اللَّهِ لَنَلَّا يَرُدُّوا لَأَنْفُسِهِمْ فِي ذَلِكَ فَضْلاً وَمَعْنًى، وإِلَيْهِ يُضَيِّفُونَ ^(١٠) جميع ما يجري على أيديهم مِنْ أفعالِ الْخَيْرِ والطاعة، والله أَعْلَمُ.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ آلِ اللَّهِ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ يُشَبِّهُ أن يكون هذا

صِلَةً قوله: ﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

ثم [قوله تعالى] ^(١١): ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ آلِ اللَّهِ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ما قَدَّرُوا عليه، وقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ أي به كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي ليس هو شَيْئاً ^(١٢)، إذ لا يَمِثِلُ لَهُ.

(١) في الأصل وم: فضلاً واختصاصاً لا استحقاقاً منه واستجابة. (٢) في الأصل وم: فضلاً. (٣) في الأصل وم: أن لا يختار الله. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: كبرياً وفيه. (٧) في الأصل وم: شي. (٨) في الأصل وم: الخماس. (٩) من م، في الأصل: يصنعون. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: شي. (١٢)

فَدَلَّ أَنْ قَوْلَهُ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ﴾ أَي لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْتُوا بِهِ بَعْدَ مَا عَرَفُوهُ، وَهَاتِيئَهُ. فَلَا أَنْ لَا يَقْدِرُوا عَلَى إِيَابِهِ ابْتِدَاءً قَبْلَ أَنْ يَنْظُرُوا فِيهِ، وَيَعْرِفُوا^(١) أَمْثَالَهُ أَشَدَّ وَابْعُدَ، إِذْ عَظُمَ الشَّيْءُ وَتَصَوَّرَتْ^(٢) بَعْدَ مَا عَايَنُوا الْأَشْيَاءَ وَالصُّوَرِ أَهْوَنَ وَائْسَرَ مِنْ تَصَوُّرِهَا^(٣) قَبْلَ أَنْ يُعَايِنُهَا، وَيُشَاهِدُوهَا^(٤).

وَجَائِزٌ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُبَعُوثًا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ جَمِيعًا حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ [مُبَعُوثًا إِلَى الْقَرِيبَيْنِ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ]^(٦) لِذِكْرِهِمَا مَعْنًى وَفَائِدَةً.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ [فِي] الْجِنِّ مِنْ لِسَانِهِ لِسَانُ الْعَرَبِ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ [ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ]^(٧) يَذْكُرُ أَوَّلَكَ.

ثُمَّ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ [الْإِنْسُ مَعَ الْإِنْسِ، وَالْجِنُّ مَعَ الْجِنِّ، أَوْ الْإِنْسُ مَعَ الْجِنِّ، أَوْ] هَوَاءٌ مَعَ هَوَاءٍ. ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ﴾.

وَقَالَ بَعْضُ / ٣٠٩ - / أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ لَهُمْ: إِنَّهُ ﴿يَسْخَرُ﴾ [الْمَائِدَةُ: ١١٠ ر. ١] وَقَوْلُهُمْ^(٨): ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وَقَوْلُهُمْ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَيْلٌ أَنْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] وَمِثْلِهِ. يَقُولُونَ^(٩): إِنْ الْإِفْكُ وَالسَّخَرُ وَمَا ذَكَرْتُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ هَدِيدٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَاخْبَرَ أَنَّهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ.

وَالدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَطْمَعِ أَحَدٌ مِنْهُمْ [فِي] ذَلِكَ إِلَّا سَفِيهٌ، أَظْهَرَ اللَّهُ سَفَاهَهُ وَكَذِبَهُ فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ قَالَ: ﴿قَدْ سَفِهْنَا لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ [رَأَاهُ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَانْظُرْ عَلَيْنَا جِسَارَةً مِنَ السَّكَاةِ] [الأنفال: ٣١ و ٣٢] لَمْ يَسَالِ التَّوْفِيقُ إِنْ كَانَ هُوَ حَقًّا، وَلَكِنْ سَأَلَ الْعَذَابَ ﴿أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آسِرٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

دَلَّ أَنَّهُ كَانَ سَفِيهًا غَايَةَ السَّفَاهَةِ بِقَوْلِهِ^(١٠): ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ ثُمَّ ارْتَابَ فِيهِ، وَشَكَّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ وَلَا لَمْ يَطْمَعِ، وَلَمْ يَحْطَرِ بِبَالٍ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ التَّكَلُّفَ لِذَلِكَ. دَلَّ أَنَّهُ آيَةٌ مُعْجِزَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ قِيلَ: مِثْلَ نَظْمِهِ وَرَضْفِهِ، وَقِيلَ: مِثْلَ حَقِّهِ وَصِدْقِهِ. وَيَحْتَمِلُ: مِثْلَ حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ. وَيَحْتَمِلُ: مِثْلَ إِحْكَامِهِ وَإِقَانِهِ. يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ﴾ هَذِهِ الرُّجُوعُ الْخَمْسَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿يَسْخَرُ﴾ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا أَي بِالَّذِي رَفَعَ، وَذَهَبَ بِهِ عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بِالسَّخَرِ ذَهَبَ بِهِ، وَرَفَعَ ﴿لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ﴾ أَي لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِيَابِهِ.

وَإِنْ كَانَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ فَهُوَ عَلَى الْمِثْلِ، أَي لَا يَقْدِرُوا عَلَيْهِ بَعْدَ مَا قَرَعَ سَمْعَهُمْ هَذَا. فَلَوْ كَانَ فِي وَسْعِهِمْ هَذَا لَفَعَلُوا لِيُخْرِجَ قَوْلُهُمْ صِدْقًا وَقَوْلَ الرَّسُولِ كَذِبًا. فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَكَلَّفُوا، دَلَّ أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّهُ آيَةٌ مُعْجِزَةٌ خَارِجَةٌ عَنْ وَسْعِهِمْ.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا أَيِّ بَيِّنَةٍ﴾ وَيَحْتَمِلُ: صَرَّفْنَا. قَرَفْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَي ذَكَرْنَا لِلنَّاسِ مَثَلًا عَلَى إِبْرَ مَثَلٍ، وَمَثَلًا بَعْدَ مَثَلٍ، مَا لَوْ تَفَكَّرُوا فِيهِ، وَتَأَمَّلُوا لَعَرَفُوا صِدْقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَذِبَ أَنْفُسِهِمْ وَسَفَاهَتَهُمْ، وَلَعَرَفُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْمُحَقَّقَ مِنَ الْمُبْطِلِ. وَلَكِنْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهِ، وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا، وَعَانَدُوا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَرَفُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصَوَّرَتْ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ لا يريدُ كُلَّ الأمثالِ، ولكن ما ذَكَرَ^(١) مِنْ كُلِّ مَثَلٍ؛ وَتَفَكَّرُوا لَكَانَ لَهُمْ مُعْتَبَرًا. وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يَكُونُ ما ذَكَرَ مِنْ تَصْرِيفِ الأمثالِ وَضَرْبِهَا لِلنَّاسِ وَجُوهَ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: ضَرْبُ الْمَثَلِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ لِمَنْ^(٢) شَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنْ مُكَذِّبِهِمْ وَمُصَدِّقِهِمْ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ مَاذَا خَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ مِنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ نَقَمَتِهِ وَعَذَابِهِ؟ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ تِلْكَ سُنَّتُهُ فِي الْمُكَذِّبِينَ مِنْهُمْ، وَذَكَرَ أَنَّ سُنَّتَهُ تِلْكَ، لَا تَحُولُ، وَلَا تَبْدُلُ، وَهِيَ غَيْرُ مُحَوَّلَةٍ وَلَا مُبَدَّلَةٍ لِوَاحِدَةٍ مِنَ الْأَمَمِ.

وَالثَّانِي: يَخْتَمِلُ تَصْرِيفُ الْأَمْثَالِ، هُوَ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ، وَذَكَرَ مَا بِهِ صَلَاحُ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وَصَلَاحُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، مَا لَوْ تَأَمَّلُوا فِيهَا، وَتَفَكَّرُوا، أَذَكَّرُوا ذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُ: يَكُونُ تَصْرِيفُ الْأَمْثَالِ الَّتِي ذَكَرَ دَعَاءُهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَسَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

إِلَى هَذِهِ الرُّجُوهِ الثَّلَاثَةِ يُصَرِّفُ جَمِيعُ ما ذَكَرَ مِنَ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يَخْتَمِلُ ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بِالْأَمْثَالِ الَّتِي ضَرَبَهَا فِي الْقُرْآنِ، وَصَرَّفَهَا لَهُمْ. أَوْ يَقُولُ: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بِنِعَمِ اللَّهِ فِي صَرْفِ الشُّكْرِ إِلَى غَيْرِهِ، أَوْ ﴿كُفُورًا﴾ فِي وَخْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَالْوَهْيَةِ.

الآيتان ٩٠ و ٩١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بَلُورًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ جَمِيعًا مِنْ فَرِيقٍ وَاحِدٍ. وَبِجَوِّزِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كُلِّ فَرِيقٍ سُؤَالٌ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْفَرِيقِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] كَانَ مِنْ كُلِّ [فَرِيقٍ]^(٣) غَيْرُ مَا كَانَ مِنَ الْآخَرِ؛ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ: كُونُوا هُودًا تَهْتَدُوا، وَمِنَ النَّصَارَى: كُونُوا نَصَارَى تَهْتَدُوا. فَعَلَى ذَلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلُ كَذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ الْمُحَالَةِ الْفَاسِدَةِ وَجُوهٌ:

أَحَدُهَا: سُؤَالُهُ بِمَا كَانَ يَعِدُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ الْجَنَّةَ وَالْأَنْهَارَ الْجَارِيَةَ وَالْبَسَاتِينَ الْمُثْمِرَةَ، إِنَّ هُمْ، تَابُوا، وَاجَابُوا، وَكَانَ يُوعِدُهُمُ الْعُقُوبَاتِ، إِنَّ تَرَكُوا إِجَابَتَهُمْ، مِنْ إِسْقَاطِ السَّمَاءِ كِسْفًا كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] سَالُوهُ ذَلِكَ اسْتِغْجَالًا مِنْهُمْ عَلَى الْإِسْتِهْزَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

[وَالثَّانِي]^(٤): أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَّمُوا مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ، لَا كِتَابَ لَهُمْ، هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ الْفَاسِدَةَ الْمُحَالَةَ الَّتِي عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ فِيهَا، لِيَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا، فَإِنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ لِيَرَى [السَّفَلَةَ مِنْهُمْ وَالْأَتْبَاعَ أَنْ لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجَابَهُمْ لَتَمَادَوْا^(٥) فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، وَلَبَقُوا^(٦) عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

[وَالثَّلَاثُ]^(٧): أَنْ يَكُونَ الرُّؤَسَاءُ مِنْهُمْ وَالْقَادَةُ سَالُوهُ عَنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا^(٨) يُجِيبُهُمْ لِيَرَى أَتْبَاعَهُمْ وَسَفَلَتَهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ حَاجُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاعْتَزَّضُوا لِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ لئَلَّا يَنْظُرُوا إِلَى حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ لِيَبْقَى لَهُمُ الرِّئَاسَةُ وَالْمَنَافِعُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ، وَلَا يَذْهَبُ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

الآيتان ٩٢ و ٩٣ ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ أَسْئَلَتَهُمُ الَّتِي سَالُوهَا سُؤَالٌ تَعْتَبٌ وَعِنَادٌ، لَا سُؤَالٌ اسْتِشْرَاحٌ وَحَاجَةٌ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرْنَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) فِي الْأَصْلِ: فَيَتَمَادُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَيَبْقُونَ. (٧) فِي الْأَصْلِ: أَوْ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

تَسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَاً أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِبَلًا ﴿١١﴾ وَقَوْلِهِمْ^(١): «أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتِّ مِنْ زُخْرِي أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ».

دل هذا كله أن سؤالهم إياه كله سؤال مُعَانَدَةٍ، لا سؤال استرشاد واستهداء، لأنه لو كانوا يسألون ما يسألون سؤال استرشاد واستهداء لكانوا لا يسألون إسقاط السماء عليهم؛ إذ لا منفعة لهم في ذلك، وإن في سؤالهم الجنة منفعة. يذكُر سفة القوم وتعتنهم وسوء معاملتهم رسول الله ﷺ.

ثم الحكمة والفائدة [في سؤالهم]^(٢) قرآنًا يثلى إلى يوم القيامة ليُعرف المتأخرون معاملته السفهاء، إذا بلوا بهم، أن كيف يعاملونهم حتى يعاملوهم بمثل^(٣) معاملته رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: «قَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أمره أن يُنَزَّهَ رَبُّهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ إِيحْيَا عَلَيْهِ وَالْحُكْمُ، والذي سألوه إِيحْيَا^(٤) منهم على الله.

وفي قوله: «قَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» يُنَزَّهَ رَبُّهُ عَنْ أَنْ يَمْلِكَ سِوَاهُ مَا سألوه مِنْ إِيحْيَا الْجَنَّةِ، وغير ذلك مما^(٥) ذَكَرَ فِي الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أي هل كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا كَغَيْرِي^(٦) مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مِنَ الْبَشَرِ، فلم يسألوا هُم بِمِثْلِ الَّذِي تَسْأَلُونَنِي أَنْتُمْ مِنَ الْأَسْئَلَةِ.

أو إن تسألوا ذلك فلن تجابوا كقولهِ: «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ» [البقرة: ١٠٨] أو يكون قوله: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أي ليس للرسول أن يعترض على الرُّسُلِ بِشْيءٍ. إنما على الرسول تبليغ ما أُرْسِلَ، وأمر بتبليغي. أو يقول: إني لا أمليكم عما تسألونني سوى تسبيح ربي وتزييده.

وقوله تعالى: «قَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ» أي تعاضم ربي، وتعالى، عن أن يكون لِعِبَادِهِ عَلَيْهِ إِيحْيَا^(٧) ٣٠٩ - ب/ واختيار. وقال أبو عوسجة والفتيبي: النبيون العيون، والنيابيع جنع، والكشفة القطعة، والكشف جنع. وقال غيرهما^(٨): الكشف بالجزم عذاب. و«كسفا» مثل قطعاً، والله أعلم.

الآية ٩٤ وقوله تعالى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى» أي إذ جاء الرسول بالهدى «إِلَّا أَنْ قَالُوا أَمَّا اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» وقال في سورة أخرى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَرَسَّغُوا فِيهِمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» [الكهف: ٥٥] لكن هذا على الإياس من إيمانهم: إنهم لا يؤمنون إلا عند معاينتهم بأمر الله. والإيمان في ذلك الوقت، لا يقبل، ولا يتفهمهم.

وأما قوله: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَمَّا اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» فيخرج مخرج الاحتجاج: لو شاء الله أن يؤمن لأنزل ملائكة كقولهِ: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً» [فصلت: ١٤] ففيه موضع الشبهة لهم أن يقولوا: هو بشر [ونحن بشر، فليس هو]^(٩) أولى بالرسالة إلينا من أن نكون نحن رُسُلًا إليه. فذلك موضع الشبهة، فاجابهم لذلك لما استنكروا، واستبعدوا بعث الرسول إليهم من جواهرهم وجنسيهم.

الآية ٩٥ فقال: «قَدْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَدُونَ مَطْمَئِنِّينَ» أي مقيمين ساكنين فيها «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» ثم اخْتُلِفَ فِيهِ [بوجوه]:

أحدهما^(١٠): «لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ» أي لو كان سكان الأرض ملائكة، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، أكان لهم أن يقولوا: أبعث الله ملكاً رسولاً؟ أي أبعث الله إلينا [رسولاً]^(١١) من جواهرنا؟ أي ليس لهم أن يقولوا ذلك.

(١) في الأصل وم: وقوله. (٢) في م: في جمل سفهم، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: يعاملون، في م: يعاملونهم. (٤) في الأصل وم: احتكامهم. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: كغيره. (٧) في الأصل وم: غيره. (٨) في الأصل وم: فليس هذا. (٩) في الأصل وم: قال بعضهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ إِذَا كَانَ سُكَّانُهَا الْبَشَرُ؛ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: أَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا مِنْ جَوْهَرِنَا رَسُولًا؟

والثاني: لو كانت الأرض مكان الملائكة، وهم سُكَّانُهَا لَكَانَ لَهُمْ^(١) أَنْ يَقُولُوا ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِنَا. فَمَا إِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ مَكَانَ الْبَشَرِ، وَهُمْ سُكَّانُهَا، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُنْكِرُوا بَعَثَ الرَّسُولِ مِنْهُمْ وَمِنْ جَوْهَرِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلَائِكَةَ وَلَا مَنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِهِمْ، وَيَعْرِفُونَ مَنْ كَانَ مِنْ جَوْهَرِهِمْ.

فَبَعَثَ الرَّسُولَ مِنْ جَوْهَرِهِمْ أَوَّلَىٰ بِهِمْ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِهِمْ.

[والثالث]^(٢): لو كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ وَبَشَرٌ، فَعَرَفُوا الْمَلَائِكَةَ، لَكَانَ لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَا عَرَفُوهُمْ^(٣).

فَمَا إِذَا كَانَ سُكَّانُ الْأَرْضِ لَيْسُوا إِلَّا بَشَرًا، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذَٰلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا قَوَى الْمَلَائِكَةِ وَلَا قَوَى الْجِنِّ، وَقَدْ عَرَفُوا قَوَى الْبَشَرِ، فَيَعْرِفُونَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ مِنَ التَّمْويهَاتِ إِذْ عَرَفُوا [قِيَامَهُمْ، وَلَمْ يَعْرِفُوا]^(٤) قَوَى الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، فَلَا يَعْرِفُونَ مَا أَقَامُوا أَنَّهَا آيَاتٌ وَحُجَجٌ، أَوْ كَانَ ذَٰلِكَ بِقِيَامِهِمْ، وَيَعْرِفُونَ ذَٰلِكَ مِنَ الْبَشَرِ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ اخْتِمَالٍ وَسُعيِهِمْ وَقِيَامِهِمْ.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُمْ أَقْرَبُوا بِرِسَالَةِ الْبَشَرِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِخَبَرٍ مِنَ الْبَشَرِ [بوجود الْمَلِكِ]^(٥) فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُنْكِرُوا رِسَالَةَ الْبَشَرِ.

واضِلُّهُ مَا قَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلَائِكَةَ وَمَنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِهِمْ، فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا، فَكَانَ فِي ذَٰلِكَ تَلَيُّسٌ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا أَخْبَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَفَىٰ مَا أَقَامَ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى رِسَالَتِي وَأَنِّي رَسُولُ إِلَيْكُمْ، إِذْ كَانَ ذَٰلِكَ مِنْ قَوْلِ كَانَ مِنَ الْكُفْرَةِ مِنْ إنْكَارِ الرِّسَالَةِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ عَلَى الْإِيَّاسِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ [الشورى: ١٥]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾ يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَنَّهُ عَنْ عِلْمٍ بِإِجَابَتِهِمْ وَرَدِّهِمْ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ^(٦) رَسُولًا لَا عَنْ جَهْلِ بِأَحْوَالِهِمْ. . . وَلَيْسَ فِي مَا يَفْعَلُونَ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَ، وَلَا يُجِيبُونَ رُسُلَهُ، خُرُوجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي إِجَابَتِهِمْ مَنَفَعَةٌ لِلرَّسْلِ وَلَا رَدِّهِمْ ضَرَرٌ لَهُ. وَإِنَّمَا^(٧) الْمَنَفَعَةُ فِي الْإِجَابَةِ لَهُمْ، وَفِي الرَّدِّ الضَّرَرُ عَلَيْهِمْ. لِذَٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي بَعَثِ الرَّسْلِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِالرَّدِّ خُرُوجٌ^(٨) عَنِ الْحِكْمَةِ، لِأَنَّ فِي الشَّاهِدِ أَنَّ مَا يَبْعَثُ الرَّسُولَ لِمَنَفَعَةٍ يَتَأَمَّلُ [أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ، أَوْ تَذْفَعَ ضَرَرًا]^(٩) عَنْهُ. فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَرُدُّ رِسَالَتَهُ وَلَا يُجِيبُ^(١٠)، كَانَ فِي وَقْتِ [بَعَثِ الرَّسُولِ]^(١١) بَعْدَ عِلْمِهِ بِالرَّدِّ خُرُوجٌ^(١٢) عَنِ الْحِكْمَةِ. أَوْ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾ عَلَى الْوَعِيدِ، وَكَذَٰلِكَ أَمَثَلُهُ.

وإِنْ اخْتَجَّ عَلَيْنَا بَعْضُ الْمُعْتَزَلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [الإسراء: ٩٤] يَقُولُونَ لَهُ: مَنَعَنَا الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ؛ إِذْ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَنَّ مَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ فِعْلٍ [أَوْ مَعْصِيَةٍ]^(١٣) أَوْ طَاعَةٍ فَإِنَّمَا يَفْعَلُ بِقَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ. فَيَكُونُ لَهُمُ الْإِخْتِجَاجُ عَلَيْهِ بِأَنْ يَقُولُوا: مَنَعَنَا قَضَاؤُكَ وَتَقْدِيرُكَ.

لَكِنْ هَذَا فَاسِدٌ، لِأَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ هُمْ مَا يَفْعَلُونَ عِنْدَ وَقْتِ فِعْلِهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ قَضَى ذَٰلِكَ وَقَدَّرَ، وَلَوْ جَارَ لَهُمْ هَذَا الْإِخْتِجَاجُ، لِأَنَّهُ كَذَٰلِكَ قَضَى، وَقَدَّرَ، فَإِذَا كَانُوا هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ لَا يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ، لِأَنَّهُ كَذَٰلِكَ قَضَى عَلَيْهِمْ، وَقَدَّرَ، لَمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ يَقُول. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْرِفُوهُمْ. (٤) م، م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ مَلِكٌ. (٦) م، م، فِي الْأَصْلِ: إِلَيْهِ. (٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: خُرُوجًا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَصِلَ إِلَيْهِ أَوْ دَفَعَ ضَرَرَ. (١٠) م، م، فِي الْأَصْلِ: يَجِبُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعَثَ الرَّسُولَ إِلَيْهِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: خُرُوجًا. (١٣) م، م، فِي الْأَصْلِ: مَعْصِيَةٍ.

يَكُنْ لَهُمُ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، لَأَنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ لَمْ يَضْطَرُّهُمُ إِلَى ذَلِكَ، وَلَا قَهَرُهُمْ عَلَيْهِ. بَلْ كَانَ غَيْرُهُ مُنْكَتَبًا لَهُمْ. لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، لَأَنَّ الْإِخْتِجَاعَ^(١) يَهْذَأُ؛ أَعْنِي بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ [لَوْ كَانَ]^(٢) لَكَانَ لَهُمُ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ أَيْضًا بِالْعِلْمِ، إِذْ لَاشْكُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ بِمَا عَلِمَ مِنْهُمْ ذَلِكَ. إِذْ يَقْدِرُونَ أَنْ يَفْعَلُوا غَيْرَ الَّذِي عَلِمَ مِنْهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنِ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَخْتَارُ ذَلِكَ، وَيُؤَيِّرُهُ عَلَى ذَلِكَ^(٣).

دَلَّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِشَيْءٍ لِمَا قَضَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَدَّرَ. وَإِذَا كَانُوا هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، لَا يَفْعَلُونَ وَقَتَ فِعْلِهِمْ لِمَا كَذَلِكَ قَضَى عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَكُنِ الْإِخْتِجَاعُ لَهُمْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، إِذِ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ لَمْ يَمْنَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِمَا لَا يُضْطَرُّونَ إِلَى ذَلِكَ. وَإِنَّمَا قَضَى عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَكُنِ الْإِخْتِجَاعُ لَهُمْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، إِذِ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ لَمْ يَمْنَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِمَا لَا يُضْطَرُّونَ إِلَى ذَلِكَ وَإِنَّمَا قَضَى ذَلِكَ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ، وَيَخْتَارُونَ ذَلِكَ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَّرْنَا. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَضَى فِي الشَّاهِدِ عَلَى آخَرٍ إِنَّمَا يَقْضِي لِمَا سَبَقَ مِنْهُ الْعِلْمُ بِهِ.

الآية ٩٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدَّ إِلَهُهُ مُتَسَدِّدًا﴾ أَيِ^(٤) مَنْ وَقَفَّ اللَّهُ لِقَبُولِ مَا كَانَ [لَهُ]^(٥) مِنَ الْهُدَى، وَعَصَمَهُ عَمَّا وَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَهُوَ الْمُتَسَدِّدُ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ مَنْ عَقَلَ الْهُدَى ﴿وَمَنْ يُضِلَّهُ﴾ أَيِ مَنْ خَذَلَهُ، وَلَمْ يَنْصِفْهُ حَتَّى يَقْبَلَ مِنَ الشَّيْطَانِ مَا جَاءَ مِنْ وَسَاوِسِهِ، فَهُوَ ضَالٌّ ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ يَهْدُونَهُمْ لَدِينِهِمْ، وَيُؤَقِّنُونَهُمْ. أَوْ لَنْ نَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ، وَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ رُجُومِهِمْ عُنِيَٰ وَيُكَا وَصْنًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: يُحَاسِبُونَ حَتَّى يَتَعَلَّمُوا سُوءَ صَنِيعِهِمْ الَّذِي صَنَعُوا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ [عَلَىٰ]^(٦) مَا ذَكَرَ غَمِيًّا وَبُكْمًا وَصْنًا، أَوْ كَلَامًا^(٧) نَحْوَ هَذَا.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ رُجُومِهِمْ﴾ [الفرقان: ٣٤] مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ رُجُومِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوَّةٌ أَلْعَذَابِ﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٢٤] إِنَّمَا يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ لِمَا تَكُونُ أَيْدِيهِمْ مَغْلُولَةً إِلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُنِيَٰ وَيُكَا وَصْنًا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ [وَجْهًا]:

أَخَذَهَا: سَمَاهُمْ^(٨) غَمِيًّا وَبُكْمًا وَصْنًا لِذَهَابِ مَنَافِعِ هَذِهِ الْحَوَاسِّ وَلَذَاتِهَا فِي الْآخِرَةِ، لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ ذَهَابِهَا، لَكِنْ حَالِ بَيِّنَتِهَا^(٩) وَبَيِّنِ الْإِنْفِصَاحِ بِهَا مَا ذَكَرَ ﴿لَهُمْ مِنْ قُوفٍ غُلَّ﴾ الْآيَةُ [الزمر: ١٦] فَبَلَكَ الظُّلُّ تَحَوُّلَ بَيِّنَتِهَا وَبَيِّنِ رُؤْيَا الْأَشْيَاءِ.

[وَالثَّانِي]^(١٠): سَمَاهُمْ فِي الدُّنْيَا غَمِيًّا وَبُكْمًا وَصْنًا، لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ ذَهَابِ [أَعْيُنِ الْحَوَاسِّ]^(١١)، وَلَكِنْ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَسْتَغْمِلُوا فِي مَا أَمَرُوا فِي اسْتِغْمَالِهَا، نَقَى ذَلِكَ عَنْهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ.

[وَالثَّالِثُ]^(١٢): يَحْتَمِلُ عَلَى حَقِيقَةِ ذَهَابِ أَعْيُنِ هَذِهِ الْحَوَاسِّ عَقُوبَةً لِمَا لَمْ يَسْتَغْمِلُوا / ٣١٠ - أ / فِي الدُّنْيَا لِمَا لَهُ خُلِقَتْ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَأْوَنَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أَيِ مَقَامُهُمْ جَهَنَّمُ، وَإِلَيْهَا يَأْوُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ قَالَ [بَعْضُهُمْ]^(١٣): يَحْمَدُ لَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذْهَبَ وَجَعٌ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ يَزْدَادُ لَهُمْ سَعِيرًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ﴾ أَيِ نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ، وَسَكَنَتِ النَّارُ ﴿زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ أَيِ نَعُودُ بِنَارٍ عَلَى مَا كَانَتْ، وَجُعِلَتْ تَلْتَهَبُ، وَتَسْتَعِيرُ كَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ﴾ [النساء: ٥٦].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقَضَاءُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَمِ الْعِبَارَةُ التَّالِيَةُ: لِحَاجِزِ ذَلِكَ لَهُمْ بِالْعِلْمِ وَنَحْوِهِ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَوَاجِهُنِ أَحَدُهُمَا: أَسْمَاهُمْ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بَيْنَهُمَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْيُنُهَا. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال بغضهم: وذلك أن النار إذا أكلتهم، فلم يبق منهم غير العظام، وصاروا فحمًا، سكنت النار، فهو الحَبْوُ^(١)، ثم بدلوا جلوداً غيرَها جُددًا لها، فتكون وقوداً لها، والله أعلم، وكلُّه واحد.

وقال بعضهم: ﴿كَلَّمَا حَبَّتْ﴾ أي كلما أحرقتهم النار، فصاروا رماداً، خلِقوا لها خلقاً جديداً، فتعاودهم النار، فتحرقتهم. وذلك قوله: ﴿زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ وهو قول الله: ﴿لَا بَقِيَ لَكَ نَذْرٌ﴾ [المذثر: ٢٨] لا يُبقي منهم شيئاً إذا أخذت حتى تحرقهم.

الآية ٩٨ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي ذلك الذي ذَكَرَ جزاؤهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا رُفِقْنَا لَوْنَا لَمَبُوتُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

الآية ٩٩ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أولم يعتبروا، أولم ينظروا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَشَاءَ﴾ هذا الإغتيارُ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: إنكم تقررون أن الله هو خالق السموات والأرض [وخالقكم، فخلق السموات والأرض]^(٢) على الابتداء، وخلق سائر الخلائق على الابتداء بلا احتذاءٍ تَقَدَّمَ، وسبق، أعظم وأكبر ممن هو دونه. فمن قدر على إنشاء ذلك فهو على إنشاء أمثالكم وإعادةكم أقدَر. وإعادة الشيء في عقولكم أهون وأيسر من ابتدائه.

والثاني: تعلمون أنه خلق السموات والأرض، وخلقكم أيضاً، فلم يخلقهما للفناء خاصة؛ إذ خلق الشيء للفناء خاصة لا لعاقبة عبثٍ ولعبٍ. فدل أن خلقكم، وخلق السموات والأرض لعاقبة، وهي البعث. وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه كائن، لا محالة.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جواباً لما استعجلوا من العذاب، فقال: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا﴾ لا يتقدم عنه، ولا يتأخر، أو أن يكون قوله: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الموت الذي به تنقضي آجالهم. لكنه^(٣) لم يخلقهم للموت خاصة، ولكن للعاقبة كما ذكرنا.

وقال القتيبي: ﴿حَبَّتْ﴾ أي سكنت [يقال: حَبَّتْ] إذا سكنت لَهَا [تخبر]. فإذا سكنت لَهَا] ^(٤) ولم يطفئ الجمر قلت: حَمَدَتْ تَحْمَدُ حُمُوداً. فإذا طِفِئَتْ، ولم يبق منها شيء، قيل: حَمَدَتْ تَهْمَدُ هُمُوداً. وقوله تعالى: ﴿زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي ناراً تَسْعَرُ، أي تَلْهَبُ.

وقال أبو عوسجة: السعير النار؛ يقال: سَعِرَتِ النارُ إذا أوقدتها، ويقال: نارٌ مسعورة أي موقودة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ أي كفراً بالبعث. الظالمون ههنا، هم الكافرون لولو قال: فأبى الكافرون^(٥) إِلَّا ظَلَمُوا^(٦) كان واحداً.

الآية ١٠٠ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ تَحْتَمِلُ الآية وجوهاً:

قال^(٨) بعضهم: هي صلة ما تَقَدَّمَ مِنْ أَسْئَلَتِهِمْ، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بَيُوتًا﴾ ^(٩) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَسَىٰ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾ [الإسراء: ٩٠ و ٩١ و ٩٣] وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكُمُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨] كانوا يسألون هذه الأشياء على التَّعَنُّتِ والعناد والاستهزاء. فأخبر أنه، وإن أعطاهم ما سألوا، لا يَنْفِقُوا، بل يَمْسِكُوا^(١٠) عن الإنفاق.

وَمِنْ سُئُوهُ أَنْهُ إِذَا أَعْطَاهُمْ مَا سَأَلُوا عَلَى السُّوَالِ، فَتَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهِ وَالْوَفَاءَ، أَهْلَكَهُمْ^(١١).

فأخبر أنهم يسألون سؤالَ تَعَنُّتٍ لا سؤالَ ما يتوسعون به.

(١) في الأصل وم: الخبت. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لكنهم. (٤) ساقطة من م. (٥) و (٦) من م، ساقطة من الأصل.

(٧) في الأصل وم: ظلموا ما. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: ينفقون بل يمسكون. (١٠) في الأصل وم: إنهم يهلكون.

وفي الآية إثبات الرسالة، وهو ما بين عن بُخْلِهِمْ وإِمْسَاكِهِمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ.

وقال بعضهم: قوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ في قوم خاص، عليم الله أنهم لو أعطوا ما سألوا لفعلوا ما ذكّر، لا في كل منهم. وهو كقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] في قوم، عليم الله أنهم لا يؤمنون. فعلى ذلك الأوّل.

ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ ضَمَّنُوا اللَّهَ الْإِنْفَاقَ وَالتَّوَسُّعَ، وَعَاهَدُوا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ: إِنْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ مَا عَاهَدُوا، وَضَمَّنُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا كُنَّا أَفْئِدَةً مِنْ فَضْلِهِ لَتَنَصَّدَّقَنَّ وَلَتَكُونُنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الآية [التوبة: ٧٥]

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِخْبَاراً مِنْهُ عَنْ طَبِيعِ الْخَلْقِ وَعَادَتِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَجَمَعُوا، يَزْدَادُ لَهُمْ بِذَلِكَ جِرْصٌ عَلَى جَمْعِهَا وَيُبْخُلُ عَلَى التَّوَسُّعِ وَالْإِنْفَاقِ لِمَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ الْجَمْعِ وَالِاسْتِكْبَارِ هَذَا الْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُنْسِكُونَ عَنِ الْإِنْفَاقِ وَالتَّوَسُّعِ إِذَا مَلَكَوا مَا ذَكَّرَ عَنْ طَبِيعِ الْإِنْسَانِ بِالْبُخْلِ وَالتَّضْيِيقِ عِنْدَ الْاسْتِكْبَارِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صِفَةً كُلِّ كَافِرٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ جَرُوعًا] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْغِنَى مَرُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و ٢٠ و ٢١] تَكُونُ عَادَتُهُ^(١) الْبُخْلُ وَالْجَزَعُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ.

وجائز أن يكون هذا صفة كل إنسان في الابتداء؛ هكذا يكون، ثم بالامتحان والتجربة يصيرون أشقياء صابرين. أو يكون يُخْبِرُ أَنَّهُمْ لَوْ مَلَكَوا، وَأَعْطُوا جَمِيعَ مَا يُزْرَقُونَ فِي عُمْرِهِمْ عَلَى التَّفَارِقِ بِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ مَجْمُوعاً لَأَمْسَكُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْفَقْرِ فِي آخِرِ عُمْرِهِمْ؛ إِذْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَى مَا يَنْتَهَوْنَ مِنْ أَجَالِهِمْ، فَيَحْتَمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْبُخْلِ وَالِإِمْسَاكِ.

أَوْ يَذَكِّرُ لِمَا أَنَّهُ جَبَلَهُمْ، وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى الْإِمْسَاكِ وَالْمَنْعِ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ؛ [الآ] تَرَى الضَّيَّانَ وَالصَّغَارَ مِنَ الْأَوْلَادِ يَنْتَعُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ؟

هَذَا مَعْرُوفٌ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا جَبَلَهُمْ، وَأَنْشَأَهُمْ هَكَذَا لِيَمْتَحِنَهُمْ بِالْجُودِ وَالتَّوَسُّعِ وَالْبُخْلِ وَالتَّضْيِيقِ، وَإِلَّا كَانُوا فِي أَضْلٍ خَلَقْتَهُمْ وَابْتَدَأَ نَشَأَتِهِمْ^(٢) عَلَى مَا ذَكَّرْنَا أَشْيَةً بَخْلَاءَ، وَهُوَ مَا أَخْبَرَ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ جَرُوعًا] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْغِنَى مَرُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و ٢٠ و ٢١] ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] أَنْشَأَهُمْ [جَرُوعًا] عِنْدَ الْآلَمِ وَالْمَصَائِبِ غَيْرِ صَابِرِينَ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ أَنْشَأَهُمْ [عَجُولًا] لَا يَصْبِرُونَ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ وَلَا حَالٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ امْتَحَنَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَتَرَكَ الْجَزَعَ وَالْعَجَلَةَ.

فعلى ذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أَي طَمِعاً بِخَيْلٍ مُمَسِكَاً مَضِيقاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ [بِالْإِمْتِحَانِ وَاعْتِيَادِ جَلَاوِيهِ]^(٤).

الآية ١٠١

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فِي مَا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَأَمْرُهُ أَنْ يُحَاجَّ فِرْعَوْنَ، وَإِلَّا كَانَتْ آيَاتُ مُوسَى ﷺ أَكْثَرَ مِنْ نِسْعٍ؛ كَأَنَّهُا تَبْلُغُ عَشْرِينَ، وَتَزْدَادُ عَلَيْهِ؛ إِذْ كَانَ فِي عَصَاهُ أَرْبَعٌ مِنَ الْآيَاتِ: إِحْدَاهَا: حِينَ^(٥) ضَرَبَ بِهَا الْبَحْرَ ﴿فَانْفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]. [وَالثَّانِيَةُ حِينَ ضَرَبَ بِهَا الْحَجَرَ] ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَبَّاتًا﴾ [البقرة: ٦٠] وَالثَّالِثَةُ: حِينَ^(٦) أَلْقَاهَا ﴿فَإِذَا هِيَ ثُبَاطٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] وَالشَّعْرَاءُ: [٣٢] وَالرَّابِعَةُ: حِينَ^(٧) تَلَفَّتْ جِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُلُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وَأَمْثَالُهَا^(٨)، فَإِنَّهَا تَبْلُغُ إِلَى مَا ذَكَّرْنَا. لَكِنَّهُ ذَكَّرَ نِسْعَ [الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ]^(٩) الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحَاجَّ بِهَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: عَادَتُهُمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: أَنْشَأُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَاعْتِيَادَ ذَلِكَ وَخِلَافَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: وَحَيْثُ كَانَ يُضْرَبُ بِهَا الْحَجَرُ فَيَنْفَجِرُ مِنْهُ عَيُونًا وَحَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: فَصَارَتْ ثُعْبَانًا وَحَيْثُ كَانَتْ تَلْقَفُ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: وَأَمْثَالُهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ: آيَاتٍ، فِي م: آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَنْتِ﴾ أنها من عند الله جاءت، وأنها ليست من البشر، وأنها سماوية، أو ﴿يَسْتَنْتِ﴾ أي^(١) مبيّنات ما تبين صدق موسى في جميع ما يخبر، ويقول، ويبين عدله في حكمه وفعله؛ لأن في آيات الرسل يحتاج إلى هذا: أن تبين للناس صدقهم في قولهم وعدلهم في حكمهم لأنهم يذعون إلى عبادة الله والطاعة له. وذلك بوجه^(٢) على كل عقل وطبع سليم. فالحاجة إلى الآيات ليست إلا لصدقهم/ ٣١٠ - ب/ وعدلهم في حكمهم.

ثم اختلف في الآيات. قال بعضهم: العصا واليد والحجر والطمس والخمس التي ذكر في سورة ﴿التص﴾^(٣) وهي^(٤) قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالْعَصَا وَالدَّمَ﴾ [الآية: ١٣٣].

وقال بعضهم: الخمس التي ذكر في سورة ﴿التص﴾ والعصا والموت الذي أرسل عليهم واليد البيضاء وانفلاق البحر.

وقال بعضهم: إنما الخمس التي ذكر في سورة ﴿التص﴾ واليد وحل العقدة التي بلسانه، وفي العصا آيتان.

وقال ابن عباس رضي الله عنه والسنون ونقص من الثمرات.

ثم منهم من يجعل السنين ونقصاً من الثمرات آية واحدة [ومنهم]^(٥) من يجعلها آيتين. وكذلك العصا: منهم من يجعلها^(٦) آية واحدة، ومنهم من يجعلها^(٧) آيتين. ومنهم من يعد الطمس، ومنهم لا من يعد.

ونحن نجعل العصا آية واحدة، والسنين ونقصاً من الثمرات آية واحدة، والطمس آية، والخمس التي ذكرت في سورة ﴿التص﴾ فتكون ثمانين، وتكون التاسعة قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لأنه ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أنها آيات، ولم يكذب [فرعون، ولم يستقبله بشيء يكذبه]^(٨) في قوله، وهو ما قال: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتُوا أَنفُسَهُمْ ظُلماً وَعُلُوّاً﴾ [النمل: ١٤] أخبر أنهم جحدوا بها بعدما استفتوا أنها آيات، وأنها آيات وحجج ظلماً وعلواً.

وما روى صفوان بن عسال المرادي أنه قال: إن يهوديين أتيا إلى رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع الآيات^(٩) التي ذكر أنه أتاه موسى، فقال رسول الله ﷺ: «لا تشرِكوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا بيريء إلى ذي سلطان، فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا مخصنة، ولا تفروا من الرّخيف، وعليكم خاصة يا يهود ألا تغدوا في السبت. قال: فقَبِلَا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ، وقالَا: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ، فقال ﷺ: فما يمنعكما أن تسليما؟ قالَا: إنا إن أسلمنا يقتلنا اليهود، [أحمد ٤/ ٢٣٩].

فإن ثبت هذا الخبر عنه فلا يجوز أن يتعدى إلى غيره من التاويل.

وقوله تعالى: ﴿فَنَسَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ يعني موسى، صلوات الله على نبينا وعليه.

قال بعضهم: أمر رسولنا ﷺ أن يسأل بني إسرائيل الآيات التسع التي كانت في كتبهم على التفرير عندهم [ليعلموا]^(١٠) أنه إنما عرف ذلك بالله، وأنه رسول [لأنه كان يعرف]^(١١) تلك الآيات في كتبهم بغير لسانه، وكان لا يحط بيده، ولا كان اختلف إلى أحد منهم ليعرف ذلك. فدل أنهم علموا أنه إنما عرف ذلك بوحي السماء.

وقال بعضهم: ليس هو على الأمر أن يسألهم ذلك. ولكن لو سألتهم لأخبروك عنها كقوله: ﴿فَنَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَتَّبِعُنِي مَسْحُوراً﴾ في عقلك، أي سحرت، والمسحور هو المغلوب في العقل. وقولهم متناقض لأنهم قالوا مرة: ساحر، ومرة: مسحور. فالساحر هو الذي يبلغ بالبصيرة غايته، والمسحور المغلوب.

(١) من م، في الأصل: أو. (٢) من م، في الأصل: يوجب. (٣) الأعراف. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يجعل. (٧) في الأصل وم: يجعل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: آيات. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لما علموا أنه كان.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ قوله: ﴿عَلِمْتَ﴾ بالنَّضْبِ والرَّفْعِ عَلِمْتُ جميعاً قد قرنا^(١). وامْكُرْ أَنْ يَكُونَ قَالَ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال في آيةٍ أُخْرَى لَمَّا أَقَامَهَا عَلَيْهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ يَبْصُرُ^(٢) بِهَا الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ مَنْ لَمْ يُعَانِدْ، وَلَمْ يَكَايِرْ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعُوتَ مَسْحُورًا﴾ قَالَ مُوسَى ﷺ لِفِرْعَوْنَ ﴿مَسْحُورًا﴾ مُقَابِلَ مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ حِينَ^(٣) قَالَ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ بِمُؤَسَّسِ مَسْحُورًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَسْحُورًا﴾ هَالِكًا، وَقِيلَ: مَلْعُونًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مُبْدَلًا.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعُوتَ مَسْحُورًا﴾ أَيِ تَدْعُو عَلَى نَفْسِكَ بِالثُّبُورِ، وَهُوَ الْهَلَاكُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا أَلْفَايَتْهَا مَكَانًا صَبَقًا مُفْرَيْنَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] أَيِ هَلَاكًا. وَالظُّلُّ يَكُونُ فِي مَوْضِعِ الظَّنِّ، وَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ الْعِلْمِ.

الآية ١٠٣

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الْأَرْضِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ، وَيَسْتَخْفِيَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَيِ أَرْضِ مِصْرَ، لَكِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا خَرَجُوا طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَ مُوسَى بِإِخْرَاجِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْجِنَا إِلَى مَوْعِدٍ أَنْ نَبِيدَ﴾ [الشعراء: ٥٢] فَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: فَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَالْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا. إِلَّا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَسْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٣٧] أَرَادَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ، وَإِلَّا قَدْ كَانُوا هُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ أَرْضِهِ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ هُوَ مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَنبَتْنَاهُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَقِيًّا وَعَدَّوْا﴾ الآية [يونس: ٩٠].

الآية ١٠٤

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبِيَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيِ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿أَتَكُونُوا الْأَرْضَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿أَتَكُونُوا الْأَرْضَ﴾ أَرْضَ مِصْرَ الَّتِي^(٤) كَانَ يَسْكُنُ فِرْعَوْنُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَتَكُونُوا الْأَرْضَ﴾ أَرْضَ الشَّامِ وَالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَتَكُونُوا الْأَرْضَ﴾ لَيْسَ فِي أَرْضٍ دُونَ أَرْضِ، وَلَكِنْ اسْكُنُوا أَيِ أَرْضٍ شِئْتُمْ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا آمِنِينَ، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ عَلَى مَا أَرَادَ^(٥) أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا بِالْقَتْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ الآية [الشعراء: ٥٩] وَالدُّخَانُ: [٢٨] وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ. وَعَلَى^(٦) هَذَا قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ بَعَثَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ: ﴿جِئْنَا بِكَ لَيُبَيِّنَ﴾ أَيِ جَمِيعًا مُجْتَمِعِينَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا عَلَى مَا تَفَرَّقُوا.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي حَيَاةَ عِيسَى وَنَزُولَهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿جِئْنَا بِكَ لَيُبَيِّنَ﴾ أَيِ جَمِيعًا مُتْتَرَعِينَ^(٧) مِنَ الْفَرَى ههنا وَههنا، وَلُفُّوا جَمِيعًا، وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ.

وَأَمَّا عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فَلَانْتَهَمَ قَالُوا: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿جِئْنَا بِكَ لَيُبَيِّنَ﴾ أَيِ جَمِيعًا: أَنْتُمْ وَفِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ حَتَّى يَرَوْا كِرَامَاتِكُمْ الَّتِي أَكْرَمْتُمْ بِهَا، وَيَرَوْا هَوَانَهُمْ.

الآية ١٠٥

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ رِيبًا لِقَوْلِهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ حُكْمًا وَأَنْبَاءً، وَأَنْبَاؤُهُ صِدْقٌ وَحَقٌّ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿صِدْقًا﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴿وَعَدْلًا﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْحُكْمِ الْعَدْلِ، وَالْأَنْبَاءُ [الصَّدَقُ] أَنْزَلَهُ. وَيُقَالُ: الصَّدَقُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ^(٨) وَالْعَدْلُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْحَقُّ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٤٠. (٢) أدرج قبلها في الأصل رم: ما. (٣) في الأصل رم: حيث. (٤) في الأصل رم: الذي. (٥) في الأصل رم: أرادوا. (٦) من م، في الأصل: وقال. (٧) في الأصل رم: انتزع. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَقُّ نَزَّلٌ﴾ أي بذلك الحق الذي دام، وقر فيكم، أو كلام نحو هذا. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَالْحَقُّ أَنْزَلَتْهُ﴾ أي بالحق الذي لِيَغْضِبَهُمْ على بعض ﴿وَالْحَقُّ نَزَّلٌ﴾ أي بذلك الحق الذي لله على خلقه دام، واستقر، بالحق الذي لِيَغْضِبَهُمْ على بعض ثَبَت، واستقر. وأصله أن قوله: ﴿وَالْحَقُّ أَنْزَلَتْهُ وَالْحَقُّ نَزَّلٌ﴾ الحق اسم كل محبوبٍ مَحْمُودٍ، والباطل اسم كل مكروهٍ ومذموم. فمن اتبعه صار محبوباً محموداً، ومن خالفه، وترك اتباعه صار مذموماً. أو يكون قوله: ﴿وَالْحَقُّ نَزَّلٌ﴾ أي لم يأتِ التفسير والتبديل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أخبر أنه لم يُرْسَلْ إِلَّا لِلْبَشَارَةِ وَالنَّذَارَةِ. لكن هذا في حق الرسالة، لم يُرْسَلْ إِلَّا لِهَٰذَيْنِ / ٣١١ - أ / اللذين ذُكِرَ، وإلا قد كان امتحنه في نفسه بِمَحَنٍ كثيرة، فلم يكن في جميع الأوقات مشغولاً بهذين خاصّة، لكنه في حق الرسالة لم يُرْسَلْ إِلَّا لِإِشَارَةِ وَنَذَارَةٍ؛ أي لم يُرْسَلْكَ حَافِظاً وَلَا وَكِيلاً وَلَا مُسَلِّطاً عَلَيْهِمْ. بل أَرْسَلْتُكَ لِتَبْلِغَ الرِّسَالَةَ إِلَيْهِمْ.

ثم البشارة والنذارة، هما (١) أمران، يكونان في عواقب الأمور: البشارة، تكون عاقبة كل محبوب، والنذارة عاقبة كل فاعل مكروه ومذموم.

ثم لقائل أن يقول (٢) في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ البشارة لمن أجابه في ما أمره به، ودعاه إليه، والنذارة لمن ارتكب ما نهى عنه. فكيف لا دل هذا على أن التَّهْنِئَةَ يوجب الحظر والتحريم [حين الحق] (٣) النذارة بازدياد ما نهى عنه؟ قيل: إن النذارة عاقبة كل مكروه ومذموم، والبشارة عاقبة كل محبوب ومحمود (٤)، فيكون ذلك في الآداب وغيرها. ولأن الرُّسُلَ لم يَبْعَثُوا إِلَّا لِتَنْبِيهِ مَنَّاكِرَ وَفَوَاجِشَ، ظَهَرَتْ فِي الْخَلْقِ [كَالشَّرِكِ] (٥) وَغَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاجِشِ وَالْمَنَّاكِرِ، لَمْ يَبْعَثُوا لِصَفَائِهِمْ، ظَهَرَتْ فِيهِمْ. ثم أدخل (٦) الصفات والآداب في ما أَرْسَلَ بَعَا. وإلا كان سبب إرسالهم الكبائر والفواجش.

فإذا كان ما ذكرنا كان في التَّهْنِئَةِ نَهْيٌ آدَبٍ وَنَهْيٌ حُثْمٍ وَحُكْمٍ. وَبَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ يَغْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَمَا عَفَا عَنْهُ لَمْ يُلْحَقْ فِيهِ النَّذَارَةُ وَالْوَعِيدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٦

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُمْ فُتُوحًا﴾ بالتخفيف والتثنية (٧) ﴿فُتُوحًا﴾ بالتخفيف أي أحكمتها، وثبتنا حتى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال بعضهم: فُتُوحًا أي (٨) قَطَعْنَا فِي الْإِنْزَالِ سُورَةَ قُورَةَ وَآيَةَ فَآيَةَ عَلَى مَا أَنْزَلْ ﴿لِيَقْرَأَ عَلَى الْقَائِلِينَ عَلَى مَكِّيٍّ﴾. فهو، والله أعلم، لوجود

أحدهما: ما ذكر [في] (٩) قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] فأخبر أنه إنما أنزله بالتفريق ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لأن ذلك أثبت في القلب وأيسر في الحفظ.

والثاني: أنزله بالتفريق على قدر النوازل لِتَجَدَّدَ لَهُمُ الْبَصِيرَةُ، وتزداد لهم الحجة بعد الحجة. ولو كان جملة لم يكن لِتَجَدَّدَ لَهُمْ ذَلِكَ، ولا تزداد لهم البصيرة.

والثالث (١٠): أن يكون أنزله بالتفريق لِتَنْبِيهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فِي كُلِّ وَفْتٍ، وَيَعْظُمُ فِي كُلِّ حَالٍ؛ إِذْ ذَلِكَ أَثَبَّ لَهُمْ وَأَوْعَظَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُتَزَلًّا جُمْلَةً وَاحِدَةً.

ألا ترى أن الآية إذا دامت تكون في التَّنبِيهِ أَقْلًا، وإذا كانت مُتَقَطَّعَةً فِي الْأَوَاقَاتِ كَانَتْ أَخْوَفَ وَأَثَبَ نَحْوَ كَسُوفِ الشَّمْسِ بِاللَّيْلِ صَارَ بِالْإِدْوَامِ غَيْرَ مَخُوفٍ وَلَا مُنَبِّئٍ لَهُمْ لِلدَّوَامِ، وكسوفها بالنهار صار تنبيهاً لِلانْقِطَاعِ؟ فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: وهما. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) في الأصل وم: حيث الحق. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: دخل. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٤٢. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

الآية ١٠٧

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَرَىٰ بِهِ أَزْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرُ هذا خُرُجُ على التَّخْيِيرِ، لكنَّ المراد منه يُخْرِجُ على حَتْمِ المَوَاعِظِ وتأكيد الوعيد وتغليظه. وكذلك قوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ظاهره على التَّخْيِيرِ، لم يفهموا منه ما خُرِجَ ظاهره، لكن فهموا منه تأكيد الوعيد وحَتْمِ الوَعِظِ. وهكذا المعروف في الشاهد أن إنساناً لو أَمَرَ آخرَ بأمرٍ، ووَظَّظَ أمراً، فلم يَنْجَعْ فيه، يقول له: إِنْ شِئْتَ فافْعَلْ، وَإِنْ شِئْتَ لَا تَفْعَلْ، على ما لو فَعَلْتَ، أو لم تَفْعَلْ، فإنما ضَرَّرَ ذلك عليك، إِنْ تَرَكْتَهُ. وَنَفَعُهُ يَرْجِعُ إِلَيْكَ لو فَعَلْتَ.

فَعَلَى ذلك قوله: ﴿قُلْ مَا يَرَىٰ بِهِ أَزْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ فلا ضَرَرَ علينا في تركيكم الإيمانَ به، ولا يَرْجِعُ نَفَعُهُ إلينا لو آمَنْتُمْ به، إنما نَفَعُهُ لَكُمْ، وضَرَرُهُ عَلَيْكُمْ. إِنْ شِئْتُمْ فَعَلْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوا. فهو كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وكقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ مِثْلًا لِنَفْسِهِ﴾ الآية [فصلت: ٤٦] ونَحْوُ ذلك مما يُخْبِرُ أن كلَّ مَنْ عَمِلَ خَيْرًا فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا فَعَلَى نَفْسِهِ ضَرَرٌ ذلك فهذا يَنْقُضُ على أصحابِ الظواهر حين^(١) قالوا: يُفْهَمُ مِنَ الْخِطَابِ ظَاهِرُهُ، لَا يَتَعَدَّى عَنْ ظَاهِرِهِ حِينَ^(٢) لَمْ يَجِبْ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَا يَرَىٰ بِهِ أَزْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ التَّخْيِيرُ لكن فهموا الوعيد التوكيد وحَتْمِ المَوَاعِظِ.

فإن قيل: ما الحكمة في لزوم الأمر وإفتراضه إذا كان ما يأمرنا وينهانا لِمَنَافِعِ أَنْفُسِنَا [ودفع الضرر عن]^(٣) على أنفسنا ومن لم يعمل في الشاهد لِنَفْسِهِ فلا لائمه عليه، ولا مؤاخذه؟

قيل: في الحكمة أن يَفْرَضَ علينا السَّعْيُ في فكاك أنفسنا ودفع الهلاك عن أنفسنا، وفي أمره إيانا أمر بالسَّعْيِ في فكاك أنفسنا ودفع الهلاك عنها. وحاصل أمره ونهيهِ يكون لِمَنَفَعَةٍ لَنَا، لا له. وكذلك الضَّرَرُ.

وعلى ذلك يُخْرِجُ [قوله]^(٤): ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ الآية [النحل: ١١٨] وعلى ذلك يُخْرِجُ دعاء آدم ﷺ وَغَيْرِهِ: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وهذا أيضاً يَنْقُضُ على أصحابِ الظواهر لأنه لا كُلُّ مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ مِنْهُمْ يَخِرُّ لِلْأَذْقَانِ على ما خُرِجَ ظاهره. فَذَلَّ أَنْ الْإِعْقَادَ لَيْسَ بِالظَاهِرِ على ما قَرَعَ السَّنْعَ ولكن على ما تَوَجَّهَ الْحِكْمَةُ.

ثم قوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ على التَّمْثِيلِ، لَيْسَ على حَقِيقَةِ السُّجُودِ، ولكن على الْإِثْقَادِ لِمَا سَمِعُوا وَالْخُضُوعَ لَهُ وَالذَّلَّةَ على ما ذَكَّرْنَا مِنَ التَّمْثِيلِ في قوله: ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] لَيْسَ على حَقِيقَةِ الْإِنْقِلَابِ على الْأَعْقَابِ، ولكن على التَّمْثِيلِ: الرَّجُوعِ وَتَرْكِ الْعَمَلِ، فَعَلَى ذلك الْأَوَّلِ، وكقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] على تَرْكِ الْعَمَلِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ السُّجُودُ كِنَايَةً عَنِ الصَّلَاةِ، أَيِ يُصَلُّونَ لِلَّهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ على حَقِيقَةِ السُّجُودِ: خَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَّجُهُ، وهو كَسُّجُودِ سَحَرَةٍ فِرْعَوْنَ حِينَ عَايَنُوا آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَّجَهُ، وهو كقوله: ﴿قَالَ لِي السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦] فَعَلَى ذلك يَحْتَمِلُ سُجُودُ هَؤُلَاءِ، والله أعلم.

الآية ١٠٨

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ عما قَالَتِ الْمَلْحَدَةُ فِيهِ ﴿إِنْ كَانُوا وَعَدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي قد كان مَوْعُودُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا. وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] [وقوله]^(٥): ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي كان [ما]^(٦) يأمر الله كائنًا ومَفْعُولًا، أي قد كان مَأْتَا^(٧) وَعْدُهُ مَفْعُولًا، وهو ما ذَكَّرْنَا: كَانَ وَعْدُ اللَّهِ مَفْعُولًا.

الآية ١٠٩

وقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فإن كان التأويل من السجود الصلاة ففيه دليل لقول أبي حنيفة،

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: والضرر على. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ياباه.

رَحِمَهُ اللهُ، إِنَّ الْمُصَلِّيَّ إِذَا بَكَى فِي صَلَاتِهِ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ وَإِشْفَاقًا أَوْ سُورًا عَلَى مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَكْرَمَهُ [فِي] (١) دِينِهِ لَمْ تَفْسُدْ صَلَاتُهُ. وَإِذَا كَانَ الْبُكَاءُ لِلتَّسْلِي مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا تَفْسُدْ صَلَاتُهُ.

وَأَضْلَهُ أَنَّ الْبُكَاءَ إِذَا كَانَ لِلَّهِ فَلَا يُفْسِدُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا كَانَ لِلدُّنْيَا أَوْ لِحَاجَةٍ نَفْسِهِ فَهُوَ يُفْسِدُ.

وقوله تعالى: ﴿زَيِّدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي يزيده ما يتلى عليهم مِنَ الْقُرْآنِ (٢) خُشُوعًا وَخُضُوعًا لَهُمْ أَوْ الْآيَاتِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ الدَّائِمُ فِي الْقَلْبِ.

الآية ١١٠

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقَى﴾ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ لَا تَعْرِفُ الرُّسُلَ وَالْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِمَا، وَكَانَتْ لَا تَعْرِفُ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ وَلَا التَّسْمِيَةَ بِهِ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ لِمَا لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ إِلَّا (٣) بِأَلْسِنِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَبِالْكِتَابِ (٤) الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ. فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِالرُّسُلِ، وَلَا عَرَفُوا الْكِتَابَ، حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْإِنْكَارِ وَالْجُحُودِ لِأَسْمَائِهِ، وَلِذَلِكَ ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] وَاسْمُهُ لِمَا ذَكَرْنَا أَوْ أَنْ يَكُونُوا أَنْكَرُوا اسْمَ الرَّحْمَنِ لِمَا لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ مَاخُوذٌ مِنَ الرَّحْمَةِ.

وَأَمَّا اللَّهُ فَهُمْ يُسَمُّونَ كُلَّ مَعْبُودٍ إِلَهًا. وَعَلَى ذَلِكَ سَمَّوُا الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا إِلَهَةً، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَيُسَمُّونَ اللَّهَ [إِلَهًا] (٥) لِمَا هُوَ الْمَعْبُودُ/ ٣١١-ب/ عَنْهُمْ. وَرَجَعَتْ عِبَادَتُهُمُ الْأَصْنَامَ إِلَى اللَّهِ حِينَ (٦) رَعَمُوا ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] كَانُوا يَطْلُبُونَ بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ.

لِذَلِكَ أَنْكَرُوا غَيْرَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ. عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يُنْكِرُوا لشيءٍ وَاحِدٍ اسْمَيْنِ وَأَكْثَرَ، وَعَرَفُوا أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَسْمَاءِ وَكَثْرَتَهَا لَا يُوجِبُ اخْتِلَافَ الْمُسَمَّى بِهِ، وَلَا يُوجِبُ (٧) عِدَادًا مِنْهُ، وَأَنَّ مَا قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يَدْعُو حَتَّى الْآنَ إِلَى عِبَادَةِ وَاحِدٍ، فَالْسَّاعَةَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اثْنَيْنِ وَأَكْثَرَ؟ إِنَّمَا قَالُوا عَلَى التَّعْتُّتِ وَالْعِنَادِ. وَإِلَّا قَدْ عَرَفُوا لشيءٍ وَاحِدٍ اسْمَيْنِ، لَكِنْهُمْ أَنْكَرُوا لِلَّهِ ذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَا تَعْتُّتًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا. عَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ تَأْوِلَ الْآيَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي تَخْصِيصِ ذِكْرِهِ بِهِذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: وَجْهٌ تَخْصِيصُهُمْ لِأَنَّهُمَا اسْمَانِ مَخْصُوصَانِ لَهُ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى غَيْرُهُ بِهِذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ. وَأَمَّا غَيْرُهُمَا مِنَ الْأَسْمَاءِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى غَيْرَهُ بِهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: خَصَّ بِذِكْرِهِمَا لِأَنَّهُمَا اسْمَانِ مُعْظَمَانِ عِنْدَ الْخَلْقِ مَا لَمْ يَجْعَلْ لِغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَسْمَاءِ مِنَ التَّعْظِيمِ مَا جَعَلَ لَهُذَيْنِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: خَصَّ بِالذِّكْرِ هَذَيْنِ لِأَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ الْأَسْمَاءِ أَسْمَاءُ أُخِذَتْ عَنْ صِفَاتِهِ، وَأَمَّا هَذَانِ فَهِيَمَا لَيْسَا أَخْذًا عَنْ صِفَاتِهِ (٨).

وَقَالَ الرَّجَاجُ: الرَّحْمَنُ هُوَ مَاخُوذٌ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ إِلَّا أَنَّهُ النِّهَايَةُ فِي الرَّحْمَةِ، لِأَنَّهُ فَعْلَانٌ، وَهُوَ كَمَا (٩) يُقَالُ: غَضَبَانٌ إِذَا انْتَهَى غَضَبُهُ غَايَتَهُ، وَقَوْلُهُ (١٠): ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٢] كِلَاهُمَا مِنَ الرَّحْمَةِ إِلَّا أَنَّ الرَّحْمَنَ فَعْلَانٌ وَالرَّحِيمَ هُوَ النِّهَايَةُ مِنَ وَصْفِ الرَّحْمَةِ لِمَا ذَكَرْنَا، وَغَيْرُهُ مِنَ الْخَلَاقِ لَا يَتَلَفَعُونَ فِي الرَّحْمَةِ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ. لِذَلِكَ خَصَّ بِالذِّكْرِ الرَّحْمَنَ دُونَ الرَّحِيمِ.

وَهَذَا كُلُّهُ وَاحِدٌ، لَيْسَ فِيهِ خِلَافٌ. وَأَضْلَهُ مَا ذَكَرْنَا: لَا يَشْتَرِكُ غَيْرُهُ فِي هَذَيْنِ، وَيَجُوزُ فِي غَيْرِهِمَا (١١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقَى﴾ أي أَسْمَاؤُهُ (١٢) الَّتِي يُسَمَّى بِهَا كُلُّهَا الْحُسْنَى، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا قَبِيحًا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: القرائن. (٣) في الأصل وم: إما. (٤) في الأصل وم: وإما بالكتب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أوجب. (٨) في الأصل وم: صفتة. (٩) في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: ولا قوله. (١١) في الأصل وم: غيره. (١٢) من م، في الأصل: أسماء.

أو يكون قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْفُسُخُ﴾ أي كل [الأعمال الصالحة والأمور الحسنة]^(١) له، أي تُنسب إليه، وتُضاف، ولا يجوز أن يُضاف، وتُنسب إليه ما قُبِحَ منها، وسُمِحَ.

وأصله ما ذكرنا: إليه يُنسب كل حسن وكل صالح على الإشارة والتسمية به، وهو ما نذكر: التَّجَيَّاتُ لله والصلوات الطَّيِّبَاتُ إلى آخِرِهِ، وتُنسب إليه كل طيب وكل حسن. وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْفُسُخُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: له أسماء حسنة، يُسمى بها. والثاني: أن كل حسن، يُسمى به غيره، فهو راجع إليه في الحقيقة، وهو مُسمى به، وكل حسن منسوب إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ يَٰهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ اختلف أهل التأويل في ذلك: قال بعضهم: قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي لا تجعل صلاتك في مكان غيظاً للمشركين ﴿وَلَا تُخَافُ يَٰهَا﴾ أي ولا تُسر عن أصحابك، فتخفي عليهم، لكن ابتغِ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقال بعضهم: لا تجعل كل صلاتك في جماعة ﴿وَلَا تُخَافُ يَٰهَا﴾ ولا [تجعلها]^(٢) كلها في غير جماعة ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ولكن اجعل بعضها بالجماعة وبعضها لا بالجماعة.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ يَٰهَا﴾ أي لا تجاوز الحد في الأمور والأعمال التي أمرتُك بها، ولا تُقصرها عن الحد الذي حدَّدت لك فيها، ولكن ابتغِ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ مُرَاةٌ للناس ﴿وَلَا تُخَافُ يَٰهَا﴾ أي لا [تجعل بها الإخفاء]^(٣).

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ يَٰهَا﴾ أي لا تجهز بجميع الأذكار التي في الصلاة أو بجميع القراءات التي فيها، ولا تخاف في الكل، ولكن [أقر]^(٤) بعضها بالجهر وبعضها بالمخافة.

وقال بعضهم: إنه [عليه السلام]^(٥) كان يجهر في صلاته بحيث يسمعه المشركون فيؤذونه، فأمره ألا يجهرها لئلا يؤذوه ﴿وَلَا تُخَافُ يَٰهَا﴾ كل المخافة [فلا يسمع أصحابك، ولا يأخذوا]^(٦) قراءتك.

وقال بعضهم: ذلك في الدعاء إلى الله وتوحيده في حق التبليغ والمسألة وأمثاله.

ولكن لا يجوز أن يقطع التأويل في هذا وأمثاله، فيقال: أنه كان كذا إلا بخبر منه ثابت، لأن الخطاب به خطاب له. فقطع التأويل فيه والقول على شيء واحد شهادة على الله وعلى رسوله، ولا تجعل الشهادة على الله ولا على رسوله إلا بالإحالة أنه أراد ذلك، والله أعلم.

الآية ١١١

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ ذكر في هذه الآية جميع ما تقع به الحاجة إلى التوحيد، لأن من نفى التوحيد، وأنكره، إنما نفى لأحد الوجوه التي ذكر. منهم من قال له بالولد، وهم اليهود والنصارى، ومنهم من قال له بالشريك، وهم مشركو العرب، ومنهم من قال له بالولي والعون من الدل، وهم الشيعة [وغيرهم حين]^(٧) قالوا: أنشأ هذا النور لئلا يستعين على التخلص من وثاق الظلمة.

فتره نفسه، وبرأها عن جميع ما قالوا فيه، ونسبوا إليه؛ لأن الولد في الشاهد إنما يطلب إما للتلهي وإما للاستيناس، والله يتعالى عن أن تقع له الحاجة إلى ذلك، ويتعالى عن أنه يكون له شريك، لأن الشركاء في الشاهد إنما تتخذ للمعونة والقوة^(٨) بهم على بغض وماليهم^(٩) وما هم فيه.

(١) في الأصل وم: أعمال صالحة وأمور حسنة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعجب بها للإخفاء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يسمع أصحابك فيأخذوا. (٧) في الأصل وم: وغيرها حيث. (٨) في الأصل وم: والتقوى. (٩) الراو ساقطة من م.

وَالْوَلِيُّ مِنَ الدَّلِّ: إِنَّمَا [يَتَّخِذُ] ^(١) فِي الشَّاهِدِ لِلِاسْتِنصَارِ وَالِاسْتِعَانَةِ عَلَى أَعْدَائِهِ. وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ تَقَعَ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

فَنَقَى عَنْهُ جَمِيعَ مَعَانِي الْخَلْقِ وَجَمِيعَ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ، وَيُضَافُ، وَيَصِفُونَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَبْكَرُ﴾ أَي صِفَةٌ بِمَا ^(٢) وَصَفَ نَفْسَهُ، وَانْفِ عَنْهُ مَعَانِي الْخَلْقِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَعْظِيمُهُ وَتَكْبِيرُهُ. أَوْ اغْرِفَهُ بِمَا ذَكَرَ؛ فَإِذَا عَرَفْتَهُ هَكَذَا فَقَدْ عَظَّمْتَهُ وَكَبَّرْتَهُ.

وَالْوَلَدُ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا يَتَّخِذُ، وَيُطْلَبُ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: لِلتَّسْلِي بِهِ وَالِاسْتِثْنَاءِ عَنْ وَخْشَةٍ.

[وَالثَّانِي:] ^(٣) لِحَاجَةٍ تُحْسِنُ، فَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى قَضَائِهَا.

[وَالثَّالِث:] ^(٤) لِدَلِّ يَخَافُهُ مِنْ عَدُوِّ لَهُ، فَيَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

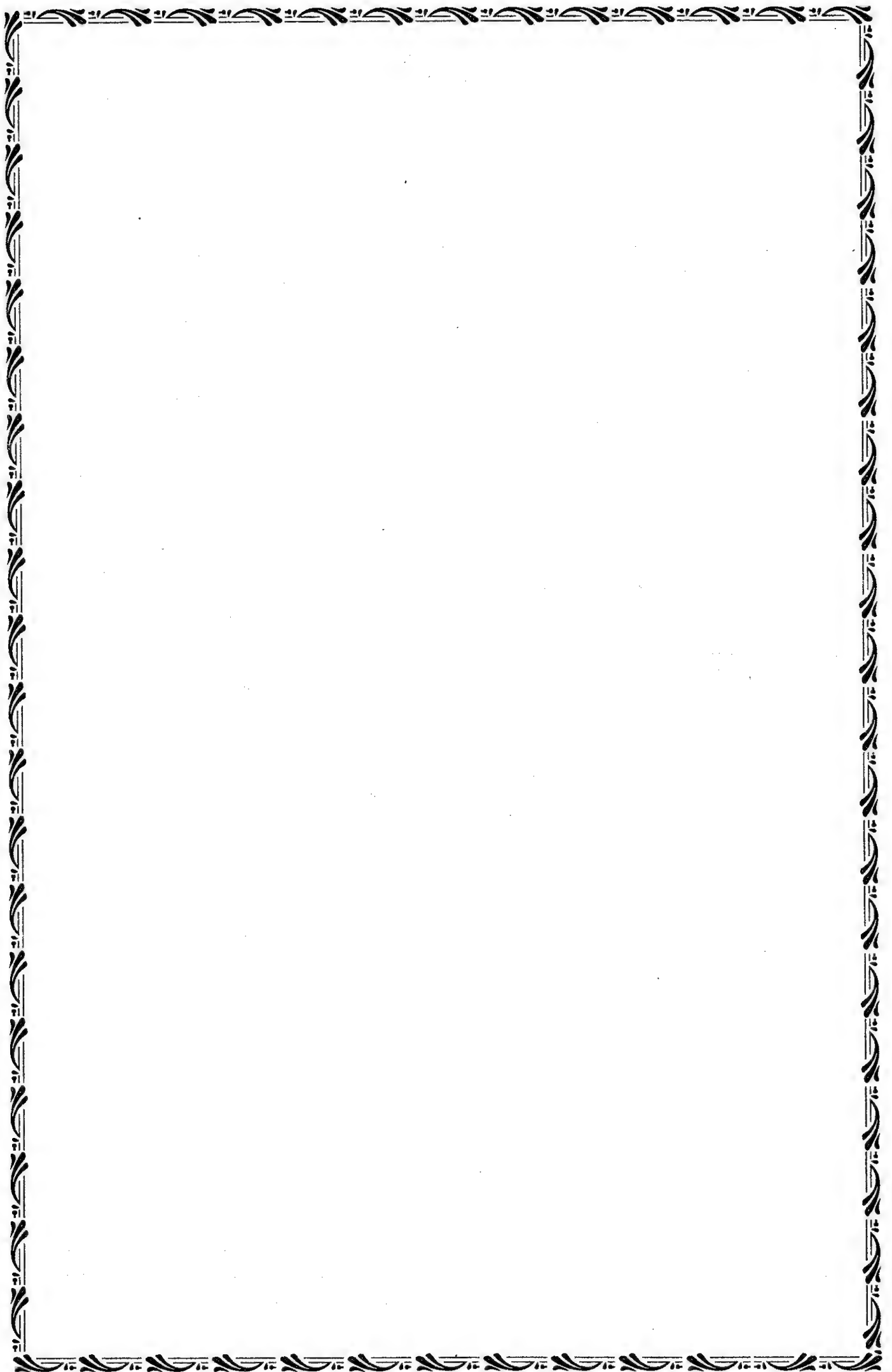
وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ أَي لَمْ يَتَّخِذِ الْوَلِيَاءَ لِيَتَعَزَّزَ بِهِمْ مِنَ الدَّلِّ. بَلْ إِنَّمَا [يَتَّخِذُ النَّاسُ] ^(٥) أَوْلِيَاءَ رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا لِيَتَعَزَّزُوا بِهِمْ بِذَلِكَ، وَيَكُونُوا عَظَمَاءَ.

وَذَكَرَ ﴿لَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا﴾ وَقَدْ خَلَقَ الْأَوْلَادَ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ فِي خَلْقِهِ ^(٦) الشَّيْءَ مَا يَضْلُحُ أَنْ [يَتَّخِذَهُ لِنَفْسِهِ وَلَدًا] ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَا تَقَوْلُهُ الْمَعْتَزِلَةُ لَكَانَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ عَلَى قَوْلِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ لِأَحَدٍ مِنَ الْكَفَرَةِ الْمُلْكَ لَهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لِأَوْلِيَائِهِ. فَعَلَى قَوْلِهِمْ صَارَ الْفِرَاعَةُ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْمُلْكِ حِينَ ^(٨) لَمْ يَكُنْ مَا أَرَادَ هُوَ، وَكَانَ مَا أَرَادُوا هُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: بها. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: اتخذ. (٦) في الأصل وم: خلق. (٧) في الأصل وم: يتخذ لنفسه. (٨) في الأصل وم: حيث.



سورة الكهف

مَكِّيَّةٌ (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ تاويل الحمد ههنا وفي أمثاليه، /٣١٢- أ/ والله أعلم، أن^(٣) حقَّ الحمد الذي منه وَصَلَتْ إلى كلِّ أحدٍ نِعْمُهُ، أي إنها، وإن وَصَلَتْ على أيدي مَنْ وَصَلَتْ، فإنَّ حقَّ الحمد والثناء له في تلك النعم^(٤)، وإن حَمِدَ مَنْ دُونَهُ؛ إذْ مِنْهُ ذَلِكَ لا مِنْ الذي وَصَلَتْ على يديه، وإنَّ الذي وَصَلَتْ على يديه كالمُسْتَعْمِلِ لَهُ، فَحَقَّ الْحَمْدُ والثناء لَهُ لا لِمَنْ^(٥) دُونَهُ.

أو أن يكونَ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قولوا: لَهُ الْحَمْدُ والثناء، لأنه في جميع ما ذَكَرَ الْحَمْدُ لَهُ الْحَقُّ بِهِ شيئاً: إمَّا قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ، وإمَّا نِعْمَتَهُ التي أَنْعَمَ على الْخَلْقِ كقولِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ١] وقولِهِ^(٦) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [فاطر: ١] وقولِهِ^(٧) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] وقولِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] ونَحْوَهُ^(٨).

ما ذَكَرَ الْحَمْدَ لِنَفْسِهِ والثناء إِلَّا ذَكَرَ على إثْرِهِ إمَّا^(٩) قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ وإمَّا نِعْمَتَهُ. فما كَانَ المذكورُ على إثْرِهِ النِّعْمَةُ فهو يَسْتَأْذِي بِهِ شُكْرَهُ وَحَمْدَهُ. وإن كَانَ الْمُتْلِقُ بِهِ الْقُدْرَةَ وَالسُّلْطَانَ فَيُخْرِجُ الْقَوْلَ مِنْهُ مَخْرَجَ الْأَمْرِ بِالتَّعْظِيمِ لَهُ وَالْهَيْبَةِ وَالْإِجْلَالِ، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ ﴿قِيَمًا﴾ أي لم يَجْعَلْهُ عِوَجًا. وَيَجُوزُ زِيَادَةُ اللام في مثله كقولِهِ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] أي رَدِفَكُمْ. هذا جائزٌ في اللغة. ثم قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ ﴿قِيَمًا﴾ يُخْرِجُ^(١٠) على وجهين:

أحدهما: على التقديم والتأخير على ما قاله أهل التأويل، أي أنزَلَ على عَبْدِهِ الْكِتَابَ قِيَمًا، ولم يَجْعَلْهُ عِوَجًا. والثاني: على زيادته: بل؛ كأنه قال: ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ بل جَعَلَهُ قِيَمًا. على أحد هذين الوجهين يُخْرِجُ، والله أعلم.

ثم قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ ﴿قِيَمًا﴾: إذا لم يكن عِوَجًا كَانَ قِيَمًا، وإذا كَانَ قِيَمًا كَانَ غَيْرَ عِوَجٍ، في كلِّ واحدٍ مِنَ الْحَرْفَيْنِ يَغْنِي الْآخَرُ، لأنَّ^(١١) مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ تَكَرَّرَ الْكَلَامُ وَإِعَادَتُهُ على التأكيد كقولِهِ: ﴿مُحَمَّدٌ غَيْرُ مُسْتَفْعَتٍ﴾ [النساء: ٢٥] [فإذا كُنَّ مُخَصَّنَاتٍ لم يَكُنَّ مُسَافِحَاتٍ]^(١٢) وإذا كُنَّ مُسَافِحَاتٍ لم يَكُنَّ مُخَصَّنَاتٍ: حَرْفَانِ مُؤَدِّيَانِ مَعْنَى واحدًا، إلا أنه كَرَّرَ لِمَا ذَكَرْنَا [أَنَّ]^(١٣) مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ التَّكَرُّارُ. وكذلك ما ذَكَرَ ﴿يُثِيرُ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ البأسُ، هو الشَّدِيدُ، والشَّدِيدُ، هو البأسُ، هما واحدٌ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

(١) أدرج قبلها في الأصل: قال أهل التأويل: سورة الكهف. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل: أي. (٤) في الأصل: ومن: النعمة. (٥) في الأصل: ومن. (٦) في الأصل: ومن. (٧) في الأصل: ومن. (٨) أدرجت في الأصل: ومن قبل هذه الآية. (٩) في الأصل: ومن: ما. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: أي لم يجعله عوجاً وهو. (١١) في الأصل: ومن: إلا أن. (١٢) ساقطة من الأصل: ومن. (١٣) ساقطة من الأصل: ومن.

ثم اختلف في قوله: ﴿قَسَمًا﴾ قال بعضهم: القِيمُ الشاهد، أي القِيمُ على الكُتُبِ والشاهدُ عليها في الزيادة والتقصان وفي التفسير والتخريف، يُبَيِّنُ ما زادوا فيها، وما نقصوا، وما حَرَفُوهُ، وما غَيَّرُوهُ، كقوله: ﴿تَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٧٩] وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] وقوله: ﴿وَلَا يَنْهَرُ لَعْنًا﴾ الآية [آل عمران: ٧٨] كانوا يُحَرِّفُونَ نَظْمَهُ وَرَضْفَهُ.

ومنهم من كان يُحَرِّفُ أحكامَهُ. فهذا القرآنُ شاهدٌ وقِيمٌ في بيان ما فعلوا.

وقال بعضهم: قوله: ﴿قَسَمًا﴾ أي ثابتاً قائماً أبداً، لا يُبدَلُ، ولا يُغيَّرُ، ولا يَزْدَادُ، ولا يَنْقُصُ، وهو على ما وصفه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وهو على ما وصفت الحَقَّ بالثبات والقيام، والباطل بالذهاب والتلاشي كقوله: ﴿كَذَلِكَ يَفْتَرِي اللَّهُ الْهَوَى وَالْبَطِلَ﴾ الآية [الرعد: ١٧] وما وصفت الكلمة الطيبة بالثبات والقيام لها، والخبيثة بالزوال والتغيير والذهاب. فعلى ذلك هذا القرآنُ لأنه حقٌّ.

وقال بعضهم: ﴿قَسَمًا﴾ أي مُستقيماً. وتأويلُ المُستقيمِ المُستوي المُوافِقُ، أي يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، ويُوافِقُ أَوَّلُهُ آخِرَهُ، وآخِرُهُ أَوَّلُهُ، أي لم يَخْرُجْ مُخْتَلِفاً، وهو على ما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي^(١) لو كان من عند غير الله على ما قال أولئك الكفرة لكان خَرَجَ مُخْتَلِفاً مُتَنَاقِضاً، يَنْقُضُ أَوَّلُهُ آخِرَهُ، وآخِرُهُ أَوَّلَهُ.

فإن لم يكن دَلٌّ أنه من عند الله نَزَلَ، ولو كان على ما يقول^(٢) أصحابُ العموم والظاهر أيضاً لم يكن ﴿قَسَمًا﴾ ولا مُستقيماً، بل لَخَرَجَ^(٣) مُخْتَلِفاً مُتَنَاقِضاً، لأنهم يَعْتَقِدُونَ على العموم والظاهر، ثم يَخْضَرُونَ بدليل، هو^(٤) مُخْتَلِفٌ.

وأصله قِيمٌ بالحُجَجِ والبراهين على أي تأويل كان، وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي أنزله على عبده لِنُنْذِرْكُمْ بَأْسًا شَدِيدًا، أي لِنُنْذِرَ بِنَاسٍ شَدِيدٍ، والبأسُ العذاب.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أنزله على عبده الكتاب ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي من عنده.

والثاني: لِنُنْذِرَ^(٥) الكفار بَأْسًا شَدِيدًا، يَنْزِلُ مِنْ عِنْدِهِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فيه دلالة أنه قد يكون المؤمنون يَسْتَحِقُّونَ^(٦) اسمَ الإيمان، وإن لم يَعْمَلُوا الصالحات حين^(٧) ذَكَرَ المؤمنين، ثم ذَكَرَ الأعمالَ الصالحات. خَصَّ المؤمنين بِعَمَلِ الصالحات، لكنَّ البشارة المَطلَقة إنما تكون للمؤمنين الذين عَمِلُوا الصالحات لأنه لم يَذْكُرِ البشارة المَطلَقة في جميع القرآن إلا^(٨) للمؤمنين الذين عَمِلُوا الصالحات.

ثم المؤمنون الذين عَمِلُوا غير الصالحات في مَشِيقَةِ الله؛ إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عَذَّبَهُمْ بِقَدْرِ عَمَلِهِمْ الذي كانوا عَمِلُوا، وإن شاء قابلَ سَيِّئَاتِهِمْ بِحَسَنَاتِهِمْ؛ فإن فَضَّلَتْ حَسَنَاتُهُمْ على سَيِّئَاتِهِمْ بَدَّلَ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ على ما أَخْبَرَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] هُمْ في مَشِيقَةِ الله على ما ذَكَرَ، وليست لهم البشارة المَطلَقة التي للمؤمنين الذين عَمِلُوا الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ لا سُوءَ فيه، ولا قُبْحَ.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ دون قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] كبيراً في الذِّكْرِ، لكنه صار مِثْلَهُ بقوله: ﴿مَلَائِكَةٍ فِيهِ أَبْدًا﴾ لا يَخْرُجُونَ مِنْهُ أَبَدًا، وَهُمْ مُقِيمُونَ فِيهِ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يقولون. (٣) في الأصل وم: يخرج. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: لينذرهم. (٦) في الأصل وم: ويستحقون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: لا.

الآية ٣

[وقوله تعالى: ﴿تَكِينٌ فِيهِ أَدَا﴾^(١) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿تَكِينٌ فِيهِ أَدَا﴾ أي لا تأخذهم سامة ولا ملالة فيه، فيريدوا^(٢) التحوّل منه إلى غير ما يكون في الشاهد أنه يسأم المرء، ويمل من طعام، وإن كان رفيقاً، ويرغب في ما دونه، وهو ما قال: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً﴾ [الكهف: ١٠٨].

والثاني: ﴿تَكِينٌ فِيهِ أَدَا﴾ لأن حُرِفَ الخُروج والِرّوال عن النعمة يُنْغَصُ النعمة على صاحبها، وهو ما قال: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَدَا﴾ [النساء: ٥٧...]. وقال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨...].

الآيتان ٤ و ٥

وقوله تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أي يعلمون أنه لم يتخذ ولداً، ولكن يقولون ذلك على العلم منهم كذباً وزوراً كقوله: ﴿وَتَدْعَوْنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [غافر: ٤١ و ٤٢] أي أشرك [به]^(٣) ما أعلم منه [أنه]^(٤) ليس هو بشريك له، وكقوله: ﴿قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس: ١٨] أي أتتبعون الله بما يعلم أنه ليس على ما يقولون.

والثاني: يَحْتَمِلُ قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي عن جهلهم يقولون من الولد والشريك لا عن علم تقليداً لأبائهم، لأنهم ليسوا بأهل كتاب يُعْرَفُونَ به، ولا كانوا يؤمنون بالرُّسل وأسباب العلم وهذين الكتاب والرُّسل. فما قالوا إنما قالوا عن جهل لا عن علم، وكذلك آبائهم. فإن كان على هذا ففيه دلالة أن من قال شيئاً عن جهل فإنه مؤاخَذ به حين^(٥) قال: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي كَبُرَتْ وَعَظُمَتْ تلك الكَلِمَةُ [التي]^(٦) قالوها على من عَرَفَ الله حق المعرفة حتى كادت السموات والأرض تنشق لعظم ما قالوا في الله كقوله: ﴿تَكَاذُ الشَّكْرُوتُ يَنْفَطِرْنَ مِنَّةً﴾ [الآية [مريم: ٩٠]

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُوكَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً.

ثم تكلّم أهل الأدب في نصبِ ﴿كَلِمَةً﴾ قال بعضهم: انتصبت على المضدر أي كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمُ التي قالوها ﴿كَلِمَةً﴾ كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال فطرب: هو على الوصف كما يقال: بش رجلًا، ونعم رجلًا على الوصف به^(٧)، وذلك جائز في اللغة. فعلى ذلك هذا.

وقال الخليل: إنما انتصبت لأنها نعت لاسم مُضْمَرٍ [هو]^(٨) معرفة، وهو بمنزلة قوله: ﴿سَلَامَةً مَثَلًا﴾ [الأعراف: ١٧٧] وإنما كان نعتاً لاسم مُضْمَرٍ لأنه قال: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فهذا القول فريّة. فتأويله: كَبُرَتْ الفريّة كَلِمَةً. وقد قيل: كَبُرَتْ المقالة كَلِمَةً، وهو ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي كَبُرَتْ كَلِمَةً تكلّموا بها. أو يقول: ٣١٢ - ب/ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَكَلَّمُونَهَا.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَ بَخَّ نَفْسَكَ عَلَيَّ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ كقوله^(٩) في آية أخرى:

﴿لَمَّا كَبَخَّ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢] أخبر أنه فاعل ما ذكر، ولم يقل له: افعل، أولاً تفعل في هذا، فيشبه أن يكون النهي ما ذكر في آية أخرى، وهو قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨] ولهذا قال بغض الناس: إن في قوله: ﴿فَلَمَّا كَبَخَّ نَفْسَكَ﴾ نهياً عن الحزن عليهم.

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) في الأصل وم: فيريدون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: كما. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال.

وعندنا ليس يخرج على النهي ولكن على التسلي.

ثم اختلف في قوله: ﴿إِنْ لَرُّ يَوْمِئِذَا يَهْدَىٰ أَسْفَا﴾ في الأسف قال بعضهم: الأسف هو النهاية في الغضب كقوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَوْفَيْنَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قال أهل التأويل: آسفونا: أغضبونا.

وقال بعضهم: الأسف هو النهاية في الحزن كقوله: ﴿يَتَأَسَّفُونَ عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] أي يا حزني.

ويختل أن يكون منه الحزن إشفافاً عليهم أن تثلث أنفسهم في النار بتركهم الإيمان، أو كانت نفسه تغضب عليهم بتركهم الإجابة والقول في الله، سبحانه، على ما قالوا فيه. وكلاهما يجوز: إذ إذا كان ذلك لله كادت نفسه تثلث حزناً عليهم إشفافاً منه، أو كادت تثلث غضباً عليهم.

وفيه دلالة أنه لم يكن يُقاتل الكفرة للقتل والإتلاف^(١)، ولكن كان يُقاتلهم ليُسليموا حتى^(٢) كادت نفسه تثلث إشفافاً عليهم^(٣)؛ فلا يختل أن يكون يُقاتلهم للقتل، وفي القتل ترك الشفقة. ولكن كان يُقاتلهم ليضطرهم القتال إلى الإسلام، فيُسليموا، فلا يهلكون.

وفيه تذكير للمسلمين وتنبية لهم من وجهين:

أحدهما: ما أخبر عن عظيم محل الذنوب في قلبه؛ ففعل ذلك يؤذيه، فيلحقهم اللعن كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧] وفي ذلك زجر عن ارتكاب ما يسوؤه ويؤذيه.

والثاني: تعليم منه لأمتيه أن كيف يعاملون^(٤) الكفرة وأهل^(٥) المناكير منهم؟ يُقاتلونهم في الظاهر، ويضمرون الشفقة لهم في القلب على ما فعل بهم رسول الله ﷺ وعاملهم.

وقوله تعالى: ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفَا﴾ سُمي القرآن حديثاً، وهو ما قال ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] سمّاه بأسام: قصصاً وحديثاً وذكراً وروحاً وأمثالها^(٦).

والنهاية في الحزن والغضب للأنبياء أنفسهم؛ تقوم لهذين. وأما غيرهم من الخلائق فلا تختل أنفسهم إلا لأحدهما: إذا كان الحزن ذهب الغضب وإذا كان جاء الغضب ذهب الحزن. فالأنبياء ﷺ هم المخصوصون بهذا.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ اختلف في ما أخبر أنه جعل للأرض زينة:

قال بعضهم: كل ما على وجه الأرض من النبات والشجر والإنسان وغيره هو زينة لها ﴿لِيَبْلُوهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فإن كان التأويل على هذا فيكون قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] القيامة؛ يعني جميع ما على وجه الأرض يبقى^(٧) قاعاً صَفْصَفاً، وذلك إخبار عن القيامة.

وقال بعضهم: ﴿زِينَةً﴾ هو النبات الذي^(٨) عليها، وما جعل لهم من الرزق ليبلوهم بما جعل لهم من الأرزاق بالامر والنهي والعبادات وغيرها^(٩)، لم يجعل ذلك النبات عليها وتلك الأرزاق مجاناً^(١٠)، ولكن ليختبرهم، ويبتليهم بأنواع الامتحان. فإذا كان كذلك ففيه دلالة أن ليس لأحد أن يتناول^(١١) مما عليها إلا بإذن [أربابها]^(١٢) ولا يقدم على شيء منها إلا بأمر من أربابها.

وقال أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أهلها، جعل ذلك ليبلوهم. ذكر ههنا أنه جعل ما على الأرض ليبلوهم ﴿أَهْلُهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وقال في آية أخرى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ثم من الناس من يجمع بين الآيتين، فيقول: جعل الحياة للآيتلاء والموت للجزاء، فيستدل على ذلك بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِيَبْلُوهُمْ﴾ بالزينة والحياة لا بالضيق والموت.

(١) في الأصل وم: والتلف. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وفيه. (٤) في الأصل وم: يعامل. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وأمثاله. (٧) في الأصل وم: فيبقى. (٨) في الأصل وم: التي. (٩) في الأصل وم: وغيره. (١٠) من م، في الأصل مجازاً. (١١) من م، في الأصل: يتناول. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

والله لم يأمره^(١) بذلك، أو قال، ولم يستثن، فَيَحْسِبُ اللهُ الْوَحْيَ عَنْهُ، ولا يُخْبِرُهُمْ في الوقت الذي قال: إنه يُخْبِرُهُمْ، فيظهر كذبه عندهم بعدما اختاره لرساليته، واضطفاؤه لموضع وخيه، ثم يكذبه في ما أخبر. هذا فاسد مُحَالٌ غير مُحْتَمَلٍ ما توهموا به على الله وعلى رسوله. لقد^(٢) كان من كفار مكة الشقي في منيع/٣١٣-أ/ رسول الله ﷺ عن تبليغ الرسالة إلى الناس والخيلولة عن الدعاء إلى ما أمر أن يدعوهم واستقبال حججه وبراهينه بتمويهاتهم، وقد ذكر في غير قصة وخبر أنهم سألوا اليهود عنه وعن بنيهم^(٣): هل تجدون [بغته في كتبكم]^(٤)؟ إذ لم يكونوا أهل كتاب، يعلمون ذلك، فاحتاجوا إلى من يعلمهم، ويخبرهم عنه^(٥)، فسألوا يهود المدينة عنه وعن خبره، فقالوا: نجد بغته^(٦) في كتابنا كما تقولون. فهذا وقت خروجه وأوانه.

فقالوا لهم: حدثونا بشيء، لا يعلمه إلا نبي. فقالوا: سلوه عن ثلاث خصال، فإن أجابهن فهو نبي، وإلا فهو كذاب. أسألوه عن أصحاب الكهف، وأسألوه عن ذي القرنين فإنه كان ملكاً، وكان من أمره كذا وكذا، وأسألوه عن الروح. فإن أخبركم فهو نبي، وإن لم يخبركم فهو كذاب. فسألوه، فأخبرهم عن ذلك. وفي بعض القصص أسألوه عن الروح فإن أخبركم عنه فهو ليس نبي، فإن لم يخبركم، ولكنه وكل أمره إلى الله، فهو نبي.

ثم قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيعِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا﴾. يستعمل أن يكون الخطاب به، وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به غيره على ما خاطبه به في غير آية من القرآن، والمراد به غيره.

ويستعمل أن [يكون]^(٧) الخطاب له، والمراد هو. وإن كان هو المخاطب بهذا فإنه يستعمل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ إلى آخره وجهين.

أحدهما: يقول: قد حسبت أن أنباءهم وأخبارهم كانت من آياتنا لرسالتك وتبوتك عجباً. فيكون الحساب على هذا التأويل في موضع العلم واليقين. كأنه قال: قد علمت أن أنباء أصحاب الكهف وأخبارهم آية عجيبة لرسالتك.

والثاني: إخبار عن أحوالهم وتقلبيهم من حال إلى حال. فإن كان على هذا فيكون الحساب في موضع الحساب، كأنه قال: قد حسبت أن أحوالهم وتقلبيهم كان من آياتنا عجباً. هذا إن كان الخطاب به لرسول الله ﷺ [والمراد به هو]. وأما إذا كان المراد^(٨) به غيره فإنه يجوز على الحساب والظن وغيره، والله أعلم.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي انضمت [واختلفت في الكهف]^(٩) قال بعضهم: الكهف: الغار في الجبل. وقيل: الفضاء. وقيل: الملجأ. ولكن قد ذكرنا أنا لا نذري ما الكهف؟ وما الرقيم؟ ذلك بلسانهم، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

والفتية^(١٠) اسم الأحداث منهم والشبان، لا اسم المشيخة، ثم يكون [اسم]^(١١) الأحرار، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [قال الحسن: ﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾]^(١٢) أي حسنة ﴿وَمَتَّى لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي تيسيراً^(١٣). وهو ما ذكر في قوله: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ. وَمَتَّى لَكُمْ مِن أَمْرِكُمْ بِرَفْقًا﴾ [الكهف: ١٦] فهذا ليس بدعاء. إنما هو تلقين وإلهام منه إياهم، فيكون تفسيراً للأول.

وقال بعضهم: قوله: ﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رزقاً، لأنهم يفارقون قومهم لكفرهم ليسلم لهم دينهم الذي هم عليه، وهو الإسلام، وقد عرفوا أنه [تسع المفارقة]^(١٤) الناس طلباً لسلامة الدين، ولكن لم يعرفوا أنه [تسع مفارقة الناس]^(١٥) قومهم وما به قوام أنفسهم إلى مكان حال عن ذلك، فسألوا ربهم الرزق إشفاقاً على أنفسهم بقولهم: ﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رزقاً ﴿وَمَتَّى لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي احمل جميع أمورنا على الصواب والرشد على ما ذكرنا أنهم عرفوا سعة المفارقة

(١) من م، في الأصل: يأمرهم. (٢) في الأصل وم: قد. (٣) في الأصل وم: نعت. (٤) في الأصل: نعت في كتبهم، في م: نعت في كتبكم. (٥) من م، في الأصل: عن. (٦) في الأصل وم: نعت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وأما إذا كان الخطاب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وهم الفتية. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يسيراً. (١٤) في الأصل وم: يسمع مفارقة. (١٥) في الأصل وم: يسمع.

للدين، ولكن لم يعرفوا سعة تلك^(١) إذا كان فيها^(٢) خوف مَلَكَ أَنْفُسِهِمْ، فَسَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُحْمِلَ أَمْرَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الرَّشِيدِ وَالصَّوَابِ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ﴾ نِعْمَةٌ وَسَعَةٌ ﴿وَعِيتَى لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ مِنْ أَمْرِ دِينِنَا صَوَابًا؛ يَقُولُ: ﴿إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ﴾ دِينًا ﴿وَعِيتَى لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [صَوَابًا]^(٣).

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿فَقَرَرْنَا عَلَىٰ عَادَاتِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الضَّرْبُ عَلَى الْأَذَانِ هُوَ الْمَخُورُ مَخُورَ الْأَسْمَاعِ، وَيُقَالُ: اضْرَبْ عَلَى حَدِيثٍ كَذَا: امْتَحُهُ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ مَخُورَ الْأَسْمَاعِ وَجْهَيْنِ: أَخَذَهُمَا: مَخُورَ الْأَرْوَاحِ الَّتِي بِهَا تَخَيُّ الْأَنْفُسُ، فَيَكُونُ كِتَابَةً عَنِ الْمَوْتِ.

وَالثَّانِي^(٤): مَخُورَ أَرْوَاحِ الْأَسْمَاعِ الَّتِي تُسْمِعُ لَا الْمَوْتِ. فَلَمَّا قَالَ: ﴿وَتَحَسَّبَهُمْ أَنْفَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨] دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ مَخُورَ أَرْوَاحِ الْأَسْمَاعِ لَا مَخُورَ الْأَرْوَاحِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْأَنْفُسِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَسَّعُ بِأَيْتِلٍ﴾ [الأنعام: ٦٠].

الآية ١٢ وقوله تعالى: مِنْ رُقُودِهِمْ ﴿ثُمَّ بَشَّرْتَهُمْ﴾ أَي لِنَعْلَمَ مَا قَدْ عَلِمْنَاهُ غَائِبًا شَاهِدًا، إِذْ كَانَ عَالِمًا بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ^(٥).

وَتَأْوِيلُهُ مَا ذَكَّرْنَا: لِنَعْلَمَ الْخَلْقُ شَاهِدًا، كَمَا عَلِمَ هُوَ غَائِبًا، أَوْ لِنَعْلَمَ الْمُخْطِئُ مِنْهُمْ مِنَ الْمُصِيبِ، أَوْ مُحَالٌ وَضَعُهُ بِالْعِلْمِ بِالْمُخْطِئِ، وَلَا مُخْطِئٌ، ثُمَّ وَبِالْمُصِيبِ، وَلَا مُصِيبٌ^(٦). فَلِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ الْمُخْطِئُ مِنَ الْمُصِيبِ وَالْمُصِيبُ مِنَ الْمُخْطِئِ، إِذَا كَانَ. وَأَصْلُهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ كَانًا عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ.

وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَتَى الْفَرِيقَيْنِ أَحْسَنَ لِمَا لَيْثًا أَمَدًا﴾ [اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ]^(٧) ﴿أَتَى الْفَرِيقَيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مُشْرِكِيهِمْ وَمُؤْمِنِيهِمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الْمَلِكُ وَالْفَتِيَّةُ.

[ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي لَبِثِهِمْ]^(٨) إِذْ بَعُثُوا: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَيْسَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

ولكن لَسْنَا نَذَرِي مَنْ ﴿أَتَى الْفَرِيقَيْنِ﴾ وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ سِوَى أَنَا ذَكَّرْنَا قَوْلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿عَمَّنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [قَالَ بَعْضُهُمْ: ^(٩) الْحَقُّ فِي النَّبَأِ الصَّدَقُ، وَالْحَقُّ فِي الْأَحْكَامِ الْعَدْلُ، وَفِي الْأَفْعَالِ الصَّوَابُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَقُّ هَهُنَا، هُوَ الْقُرْآنُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي فِي الْحَقِّ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، أَي نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ﴿وَوَبَّيْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هَذَانِ الْحَرْفَانِ، مَعْنَاهُمَا وَاحِدًا: الزِّيَادَةُ وَالرَّبْطُ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُؤَدِّي مَعْنَى صَاحِبِهِ: زِيَادَةُ الْهُدَى [وَتَثْبِيتُهُمْ]^(١٠) عَلَى الْهُدَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: هُوَ التَّثْبِيتُ وَالرَّبْطُ كَذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ عَلَى التَّجْدِيدِ وَالْإِبْتِدَاءِ لِأَنَّ^(١١) لِلْإِيمَانِ حُكْمَ التَّجْدِيدِ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ إِذْ هُوَ يَكُونُ مُتَكَرِّرًا جَائِدًا لِلْكَفْرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَهُوَ مُجَدَّدٌ لِلْإِيمَانِ كَذَلِكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ. فَإِنْ شِئْتَ حَمَلْتَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالزِّيَادَةِ عَلَى مَا كَانَ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالتَّجْدِيدِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿زَادْنَاهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] وَالتَّوْبَةُ: [١٢٥].

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [إِنَّ مِنْ جِحْمِ اللَّهِ أَنْ مَنْ اهْتَدَى زَادَهُ اللَّهُ هُدًى]^(١٢) كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ يَكُونُ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَّة. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِلُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُم اخْتَلَفُوا فِي مَلْتَهُمْ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي ثَبَاتُهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ. (١٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

لكن هذا لو كان على ما ذكر لكان لا يجوز أن يكفر إذا اهتدى مرة [لأنه]^(١) لا يزال يزيد له هدى. فإذا لم يكن دل أنه لا يصح ذلك، والوجه فيه ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا نَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ بِالصَّحِجِّ وَالْبَرَاهِينِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ بِالنَّهْوِ إِلَى الْكَهْفِ حِينَ انْضَمُّوا إِلَيْهِ، أَوْ قَامُوا لِلدِّينِ، أَوْ قَامُوا مِنْ عِنْدِ أَوْلَئِكَ الْكُفْرَةِ ﴿نَقَالُوا﴾ مَا ذَكَرَ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيُّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَرَبُّ مَا فِيهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أَيُّ لَنْ نُسَمِّيَهُمْ آلِهَةً عَلَى مَا سَمَّى قَوْمُهُمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي عَبَدُوهَا آلِهَةً.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ نُسَمِّيَتُهُمْ^(٢) آلِهَةً عَلَى زَعْمِهِمْ وَعَلَى مَا عِنْدَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَهَ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١] وقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] لا يجوز أن يُسَمَّى الْأَنْبِيَاءُ الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا آلِهَةً، وَهِيَ لَيْسَتْ بِآلِهَةٍ. وَلَكِنْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى زَعْمِهِمْ وَعَلَى مَا عِنْدَهُمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أَيُّ لَنْ نَعْبُدَ. فَإِنْ كَانَ عَلَى الْعِبَادَةِ فِيهِ إِضْمَارٌ، أَيُّ لَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ كَفَعْلِ قَوْمِنَا. وَلَوْ فَعَلْنَا ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أَيُّ جَوْرًا وَظُلْمًا.

الآية ١٥

[وقوله تعالى]^(٣): ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يَعْبُدُونَهَا ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أَيُّ هَلَا يَأْتُونَ عَلَى تَسْمِيَتِهِمْ آلِهَةً أَوْ^(٤) اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهَا بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ؟ ٣١٣ - ب/

ثُمَّ حَرْفٌ هَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَاضِي، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى الْمَاضِي [فهو]^(٥) عَلَى الْإِنْكَارِ، أَيُّ لَمْ يَكُنْ، وَإِنْ كَانَ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ فَهُوَ عَلَى السُّؤَالِ، أَيُّ ائْتُوا بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ أَيُّ بَأْنِهَا^(٦) آلِهَةً كَمَا أَتُوا هُمْ بِأَنَّ^(٧) اللَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبُّ مَا فِيهِمَا.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أَيُّ أَسْمَانَهُمْ. وَالْأَمْدُ، هُوَ الْغَايَةُ. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ أَلْهَمْنَاهُمْ الصَّبْرَ، وَبَنَيْنَا قُلُوبَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿شَطَطًا﴾ أَيُّ غُلُوءًا. يُقَالُ: شَطَّ عَلَيَّ إِذَا غَلَا فِي الْقَوْلِ.

وقوله تعالى: أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً. وَقَدْ ذَكَرْنَا تَأْوِيلَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ عليه السلام وَإِذَا اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ]:

أَحَدُهُمَا^(٨) عَلَى الْقِرَاءَةِ الظَّاهِرَةِ ﴿وَمَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَيُّ وَإِنْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَلَا تَعْتَزِلُوا عِبَادَتَهُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ أَيْضًا، وَيَرْوَنَهُ مَعْبُودًا. فَكَانَهُمْ قَالُوا: وَإِذَا اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَالَّذِينَ [مَا]^(٩) يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَلَا تَعْتَزِلُوا لَهُمْ^(١٠). وَهُوَ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لِقَوْمِهِ حِينَ^(١١) ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥ و ٧٦] اسْتَشْنَى عِبَادَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَيْنِ عِبَادَةِ مَا^(١٢) يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ رَجَاءً أَنْ تَنْفَعَهُمْ عِنْدَهُ، أَوْ تَقْرُبَ عِبَادَتُهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى وَأَمَّا هَلَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ أَيُّ وَإِذَا اعْتَزَلْتُمُوهُمْ فَأُورُوا إِلَى الْكَهْفِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْبُدُونَ هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهَ، يَعْنِي أَصْحَابَ الْكَهْفِ.

وَالثَّانِي: مَا ذَكَرْنَا: وَإِذَا اعْتَزَلْتُمُوهُمْ، وَمَا يَعْبُدُونَ هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهَ، وَإِنْ كَانُوا فِي الظَّاهِرِ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فسومهم. (٣) في الأصل وم: ثم قالوا. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الباء ساقطة من الأصل. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فتاويل الآية. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تعزلوه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: من.

وتأويلُ قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وإذا اغترلتموهم وجميع ما يعبدون من دون الله. ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْهُمْ لَيْسَ عَلَى الْقَوْلِ وَالتَّنْقِيطِ، وَلَكِنْ أَلْقِيَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقُذِفَ، أَنَّهُمْ إِذْ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ، وَبَايَنُوهُمْ ^(١) ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ فِي قَوْمِهِمْ مَنْ قَدْ آمَنَ سِوَاهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ بَايَنْتُمْ، وَفَارَقْتُمْ [قَوْمَكُمْ] ^(٢) ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. فَلَا تُعَدُّوا ^(٣) مِنْهُمْ، فَلَعَلَّهُمْ يُلْحَقُونَكُمْ، وَيُظَلِّبُونَ لِقَاءَكُمْ، فَلَا يُعَدُّوا ^(٤) مِنْهُمْ. وَنُشِبَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. لَمَّا عَزَمُوا أَنْ يُفَارِقُوا قَوْمَهُمْ اغْتَرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تَفَارِقُونَ قَوْمَكُمْ إِلَى مَكَانٍ، وَلَيْسَ مَعَكُمْ شَرَابٌ وَلَا طَعَامٌ، فَتَهْلِكُونَ أَنْفُسَكُمْ، فَدَعَوْا وَسَاوَسَهُ بِقَوْلِهِ عليه السلام ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ. وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا﴾.

ثُمَّ قَوْلُهُ ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَخْلُقْ لَكُمْ رَبُّكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا﴾ بِالرَّاءِ [تُنْشِرُهَا] ^(٥) [البقرة: ٢٥٩] أَيْ كَيْفَ نَخْلُقُهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ﴾ أَيْ يَنْسُطُ، وَالنَّشْرُ هُوَ الْبَسْطُ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يَحْتَمِلُ الرِّزْقَ، وَيَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ يَذْفَعُ الْهَلَاكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ. وقوله تعالى: ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا﴾ أَيْ مَا تُرْفَقُونَ بِهِ، وَتَنْتَفِعُونَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَوَسَجَةَ، وَهُوَ مِنَ الرِّقِّ [والمرق] ^(٦) أَيْضاً مِثْلُهُ، لِأَنَّهُ يَنْتَفِعُ [بِهِ] ^(٧).

وَقَالَ الْقُشَيْبِيُّ: ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْقًا﴾ مَا يُرْتَفَقُ بِهِ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْمِرْقُ مَا ارْتَفَقَتْ بِهِ. فَأَمَّا فِي الْيَدَيْنِ فَهُوَ مِرْقٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى النَّاسَ إِذَا طَلَعَتِ تَرْوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ كَانَتْ لَا تُصِيبُهُمْ لَا عِنْدَ طُلُوعِهَا وَلَا عِنْدَ غُرُوبِهَا، لِأَنَّ الْكَهْفَ كَانَ مُسْتَقْبِلَ بَنَاتِ النَّعْشِ، لَا تُصِيبُهُ الشَّمْسُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا. وَلَكِنْ كَانَ ثَمَّةَ حِجَابٍ وَسَتْرٍ يَحْجُبُ الشَّمْسَ عَنْ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِمْ. لَكِنْ هَذَا لَا يَصِحُّ، لِأَنَّ اللَّهَ عليه السلام جَعَلَ لَهُمْ ذَلِكَ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ وَكَرَامَةٍ مِنْ كَرَامَاتِهِ. فَلَيْسَ فِي مَا لَا تَقَعَ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ بِحِجَابٍ أَوْ سِتْرٍ كَبِيرٍ آيَةً وَمِثَّةً. إِنَّمَا الْآيَةُ فِي مَا تَقَعَ الشَّمْسُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ تَذْفَعُ عَنْهُمْ ضَرَرَهَا وَأَذَاهَا. فَإِذَا كَانُوا بِحَيْثُ لَا تُصِيبُهُمُ الشَّمْسُ. فَأَذَاهَا وَضَرَرَهَا أَيْضاً لَا يُصِيبُهُمْ. فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ كَبِيرٌ آيَةً وَحِكْمَةً؛ إِذْ لَيْسَ فِي مَا تُصِيبُ الشَّمْسُ ضَرَرَ أَوْ أَذًى، وَلَكِنْ يَذْكُرُ لُظْفَهُ حِينَ ^(٨) مَنَعَ ضَرَرَ الشَّمْسِ وَأَذَاهَا عَنْهُمْ مَعَ إصَابَةِ الشَّمْسِ إِيَّاهُمْ وَوُقُوعِهَا عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿تَرْوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ يَمِينُهُمْ أَوْ يَمِينُ الْقِبْلَةِ. وَكَذَلِكَ ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ شِمَالُ هَؤُلَاءِ أَوْ شِمَالُ الْقِبْلَةِ. فَأَمَّا يَمِينُ الْجَبَلِ أَوْ الْغَارِ عَلَى مَا قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْجَبَلِ يَمِينٌ وَلَا شِمَالٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَجْوَةُ الظَّلُّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفَجْوَةُ الْفَضَاءُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ سَعَةُ الْمَكَانِ. يُخْبِرُ عليه السلام عَنْ لُظْفِهِ وَمِثَّتِهِ أَنَّهُ قَدْ حَسَرَهُمْ إِلَى غَارٍ كَانُوا يَسْعُونَ فِيهِ حَيْثُ ^(٩) يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ. وَالْغَارُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْجِبَالِ لَا هَكَذَا يَكُونُ، بَلْ يَكُونُ ضَيْقًا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ هَذَا يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ يُنْكِرُ جَزَيِ الْآيَاتِ عَلَى يَدَيِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ فِي أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَدَدًا مِنَ الْآيَاتِ، كُلُّهَا خَارِجَةٌ عَنْ اخْتِمَالٍ وَسُعِ الْخَلْقِ وَعَادَتِهِمْ لِمُفَارَقَةِ قَوْمِهِمْ لِسَلَامَةِ دِينِهِمْ [وفيه وجوه] ^(١٠) أَخَذَهَا: مَا أَخْبَرَ أَنَّهُ ضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ، وَأَنَامَهُمْ نَوْمًا ^(١١) خَارِجًا عَنْ طَبْعِ الْخَلْقِ وَعَادَتِهِمْ، وَهُوَ ثَلَاثُ مِئَةِ سَنَةٍ. ثُمَّ ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِنَبِّأَهُمْ لَبَّائِهِمْ﴾ [الكهف: ١٩] عَلَى مَا أَخْبَرَ عليه السلام.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبَايَنُوا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: تَعَبَدُوا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْبُدُوا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَاصِمٍ وَأَبَانَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ «تُنْشِرُهَا» بِالزَّيِّ. انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ح ١/ ٢٠٠. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَتَّى. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَوَعًا.

والثاني: لم تَبَلْ ثِيَابُهُمْ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْمُدَّةِ وَمِثْلِ الْمَكَانِ، وَلَمْ تَنْغَيِّرْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَالُوا حِينَ بُعِثُوا: ﴿لَيْشَأَ يَوْمًا أَرْبَعُونَ يَوْمًا﴾ [الكهف: ١٩] وَلَوْ كَانَتْ ثِيَابُهُمْ بِالْيَةِ أَوْ مُتَغَيِّرَةً لَمْ يَسْتَقْبِلُوا، وَلَا اسْتَقْصَرُوا كُلَّ هَذَا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ فَرَعُوا إِلَى الطَّعَامِ، وَلَمْ يَفْرَعُوا إِلَى الشِّيَابِ حِينَ^(١) قَالُوا: ﴿فَأَبْقِئُوا آمَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩] وَلَوْ كَانَتْ ثِيَابُهُمْ بِالْيَةِ أَوْ مُتَغَيِّرَةً لَكَانَ فَرَعُهُمْ إِلَى الشِّيَابِ كَهَوِّهِ إِلَى الطَّعَامِ، وَهُوَ أَوْلَى.

والثالث: مَا أَخْبَرَ مِنْ تَرَاوُرِ الشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَقَرَضَهَا لِثِيَابُهُمْ ذَاتَ الشَّامِلِ.

والرابع: دَفَعَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ عَنْهُمْ إِذْ مِنْ طَبْعِهِمَا الْإِهْلَاكُ وَالْإِفْسَادُ إِذَا اشْتَدَّ، وَكَثُرَ.

والخامس: مَا ذَكَرَ مِنْ تَقْلِيلِ ثِيَابِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّامِلِ وَحِفْظِهِ ثِيَابَهُمْ عَنْ أَنْ تُفْسِدَهُمُ الْأَرْضُ، وَتَأْكُلَهُمْ؛ إِذْ مِنْ طَبْعِ الْأَرْضِ ذَلِكَ عِنْدَ امْتِدَادِ الْوَقْتِ.

والسادس: مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْهَيْبَةِ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ [رَسُولُ اللَّهِ]^(٢) وَأَطْلَعَ حِينَ^(٣) قَالَ: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ خَوْفًا مِمَّا تَرَى فِيهِمْ مِنَ الْأَهْوَالِ. هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَيْفَ لِمَنْ دُونَهُ؟

والسابع: حِفْظُهُ ثِيَابَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ حَتَّى لَمْ يَطْلُعْ، وَلَمْ يَغْتَرَّ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ.

والثامن: إِبْقَاؤُهُمْ أَحْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ مِئَةِ سَنَةٍ بِلاَ غِذَاءٍ، وَالْأَنْفُسُ لَا تَبْقَى بِلاَ غِذَاءٍ بِدُونِ ذَلِكَ [الْوَقْتِ]^(٤). وَذَلِكَ بِاللَّطْفِ. وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ مِمَّا يَكْثُرُ عَدُّهَا وَإِخْصَاؤُهَا، كُلُّهُ مِنْ آيَاتٍ عَظِيمَةٍ خَارِجَةٍ عَنْ وَسْعِ الْخَلْقِ وَعَادَتِهِمْ.

فَذَلِكَ لَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ دِينَ اللَّهِ [عَلَى دِينِ]^(٥) قَوْمِهِمْ، وَبِمُفَارَقَتِهِمْ لِأَيَّامِهِمْ لِيَسْلَمَ لَهُمْ دِينُهُمْ؛ إِذِ الْعَلَبَةُ فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ الْكُفْرُ، فَأَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ بِالْكَرَامَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

فَلَا تُنْكِرُ أَنْ يُعْطِيَ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ قُطْعَ مَسِيرَةٍ أَيَّامَ يَوْمٍ أَوْ بِسَاعَةٍ أَوْ الْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَتَحْوِ ذَلِكَ. لَيْسَ بِمُسْتَعْبَدٍ وَلَا مُسْتَنْكَرٍ.

وقول/ ٣١٤ - أ/ أَهْلِ التَّوِيلِ: إِنَّهُمْ كَانُوا كَذَا، وَالْكَلْبُ كَذَا [وَأَسَامِيهِمْ كَذَا]^(٦) وَعَدَدُهُمْ كَذَا، وَنَحْوُهُ، فَذَلِكَ مِمَّا لَا يُغْلَمُ إِلَّا بِخَبَرِ الصَّدِّيقِ وَقَوْلِ الْحَقِّ. وَقَدْ نَهَى رَسُولُهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢] وَهُوَ مَا ذَكَرَ هَوْلًا^(٨)، كُلُّهُ مِنَ الْإِسْتِفْتَاءِ الَّذِي نَهَى رَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ، [وَاللَّهُ أَعْلَمُ]^(٩).

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿تَرَاوُرٌ﴾ تَمِيلُ، وَتَرَاوُرٌ مِثْلُهُ ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ أَيِ تَدْعُهُمْ عَلَى شِمَالِهَا، أَيْ إِنَّ الشَّمْسَ لَا تُصِيبُهُمْ طَالِعَةً وَلَا غَارِبَةً عِنْدَ طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا. وَيُقَالُ: قَرَضْتُهُ: تَرَكْتُهُ، أَقْرَضْتُهُ قَرْضًا. وَيُقَالُ: قَرَضْتُ مَوْضِعَ كَذَا^(١٠)، أَيْ جَاوَزْتُهُ، وَتَرَكْتُهُ خَلْفِي. وَيُقَالُ: قَرَضْتُهُ، أَيْ قَطَعْتُهُ بِمِقْرَاضٍ. وَتَرَاوُرٌ يَتَرَاوُرُ، أَيْ عَدَلَ، وَمَالَ. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أَيِ سَعَةٍ، وَفَجْوَاتٌ جَمْعٌ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْبِنَاءُ وَمَا ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ، أَوْ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ رَسُولِهِ وَنُبُوَّتِهِ، أَوْ مِنْ آيَاتِ كَرَامَاتِهِ لِلْفَتَى وَلِمَنْ اخْتَارَ دِينَ اللَّهِ، وَأَثَرُهُ عَلَى غَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَرَاوُرٌ، وَتَقَرُّضُهُمْ، كِلَاهُمَا وَاحِدٌ؛ وَهُوَ أَنْ تَمِيلَ عَنْ كَهْفِهِمْ، فَتَدْعُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴿وَإِذَا عَزَمْتَ تَقَرُّضُهُمْ﴾ أَيْ تَدْعُهُمْ ﴿ذَاتَ الشَّامِلِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أَيِ زَيْقَةٍ^(١١) مِنَ الْكَهْفِ.

وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: الزَّيْقَةُ^(١٢) قَدَّرَ مَا يَصْلُحُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ بَيْنِ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) أَدْرَجْتَ فِي م بَعْدَ كُلِّهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: عِلْمُهُ: مَدْرَجَةٌ قَبْلَ عَنِ ذَلِكَ. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: كَذَلِكَ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: زَائِفَةٌ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الزَّائِفَةُ.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَيَهَيِّئْ لَكَ﴾ أي يُبَوِّئْ لَكُمْ كقولهم: ﴿يُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢١] أي تُهَيِّئْ، [وقوله^(١)]: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] الرشيدُ الصالح، قال مقاتل ﴿رَشَدًا﴾ أي مَخْرَجًا [وقوله^(٢)]: ﴿وَيَهَيِّئْ لَكَ مِنْ أَمْرِكَ مِرْقًا﴾ [الكهف: ١٦] قال ابن عباس عليه السلام: غداء تأكلونه، وهو ما ذكرنا: كلُّ ما يترَفَّقُ به، ويقال: مَخْرَجًا.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنَبَّهُمْ أَتْقَاكُمْ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قال بعضهم: لأنهم كانوا مُفْتَحَةً [لَهُمْ]^(٣) الأُغْيُنُ والأبصارُ كالإيقاظ^(٤). وقال بعضهم: ﴿وَنَحْنَبَّهُمْ أَتْقَاكُمْ﴾ لأنهم كانوا يَتَقَلَّبُونَ في رُقُودِهِمْ [ذات]^(٥) اليمين والشمال كما يَتَقَلَّبُ اليَقْظَانُ يَمِينًا وَشِمَالًا.

وقال بعض أهل التأويل: إنما كان يَتَقَلَّبُهُمْ ذات اليمين وذات الشمال لِيُدْفَعَ عَنْهُمْ أذى الأرضِ وَضَرَرُهَا لئلا يَفْسُدُوا، وَيَتَلَاشُوا، وإن كان الله قادراً أن يَدْفَعَ عَنْهُمْ الأذى وَضَرَرُ الأرضِ لا يَتَقَلَّبُ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، وإن كانَ مِمَّا يَفْعَلُ مَنْ لا يَمْلِكُ دَفْعَ الأذى بما ذكرنا. فأما مَنْ كانَ قادراً بِذَاتِهِ مُسْتَعِيناً عَنِ الأسبابِ التي بها يُدْفَعُ [الضَّرَرُ]^(٦) فَغَيْرُ مُحْتَمَلٍ. وقوله على التعليل منه إياهم: أن كيف يَتَقَيُّ الأذى؟ وكيف يُدْفَعُ الضَّرَرُ. فإذا لم يَكُنْ بِمَشْهَدٍ مِنَ الخَلْقِ فلا مَعْنَى لَهُ.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَنَحْنَبَّهُمْ أَتْقَاكُمْ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لأنهم كانوا في مَكَانِ الرِّيْبَةِ واللصوصِ مِمَّا لا يَأْوِي إِلَيْهِ إِلَّا هَارِبٌ مِنْ رِيْبَةٍ وَشَرٍّ أَوْ قاصِدٌ رِيْبَةً وَطالِبٌ غَثَرَةٍ وَمَكَابِرَةٍ. لم يكونوا في مَكَانٍ يُسَلِّمُ فِيهِ، وَرُقُودٌ، ولا يُخْتَارُ للنومِ مثله. فقال: ﴿وَنَحْنَبَّهُمْ أَتْقَاكُمْ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ إما كانوا في مَكَانٍ لا يُنَامُ فِيهِ للخوفِ، كأنهم أيقاظٌ، وَهُمْ رُقُودٌ، والله أعلم. ولكن لا نَذْرِي لَأَيِّ مَعْنَى ذَكَرَ أَنَّهُ يَحْسَبُ النَّاظِرُ إِلَيْهِمْ كأنهم أيقاظٌ، وَهُمْ رُقُودٌ. وإذا لم يَبَيِّنِ اللهُ ذَلِكَ فلا يُقَسَّرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْلُبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ هو ما ذكرنا [أَنَّ الثَّوَمَ]^(٧) قد يَتَقَلَّبُونَ في نومِهِمْ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، وَذَكَرَ التَّقْلِيْبَ. وجائز أن يكونَ إما ذَكَرَ بعضهم مِنْ دَفْعِ أذى الأرضِ وَضَرَرِهَا، أَوْ ذَكَرَ فِعْلَهُ لِمَا لَهُ فِي تَقْلِيْبِهِمْ صُنْعٌ وَفِعْلٌ، والله أعلم، وقوله ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ إِذْ لا تَفْهَمُ مِنْ ذَاتِ الشَّيْءِ غَيْرَ ذَلِكَ أَوْ شَيْئاً آخَرَ سِوَاهُ، لَأَنَّهُ ذَكَرَ ذَاتَ الْيَمِينِ، فَهُوَ الْيَمِينُ، وَالشِّمَالُ نَفْسُهُ لا غَيْرَ. فَعَلَى ذَلِكَ في قولنا: عالمٌ بِذَاتِهِ لا يَفْهَمُ غَيْرَهُ عِلْمُهُ، أي عالمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال بعضهم: الوَصِيدُ، هو فِئَاءُ البابِ. وقال بعضهم: الوَصِيدُ هو عَتَبَةُ البابِ. قال القشيري: الوَصِيدُ الفِئَاءُ، ويُقالُ عَتَبَةُ البابِ، وهذا أعجَبُ لأنهم يقولون: أوصِدْ بابك أي أغْلِقْهُ [ومنه قوله^(٨)]: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي مُطَبَقَةٌ.

وأصله أن تَلَصَّقَ البابُ بِالْعَتَبَةِ إِذَا أَغْلَقْتَهُ. فإذا كانَ الوَصِيدُ هو عَتَبَةُ البابِ ففيه أن الكَلْبَ كانَ داخلَ بابِ الغارِ، وإن كانَ الفِئَاءُ ففيه أَنَّهُ كانَ خارجَ بابِ الغارِ. وفيه أيضاً [أنه]^(٩) أبقي الكَلْبَ ثلاثَ مئةَ سَنَةٍ على ما أَبْقَاهُمْ، وإن لم يَكُنْ مِنْ جَوْهَرِهِمْ، بَلْظَفِهِ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَئِلَيْتَ مِنْهُمْ رُجْعًا﴾ قال بعض أهل التأويل: وذلك لأنَّ^(١٠) شُعُورَهُمْ قد طالَتْ، وأظفارُهُمْ قد ائْتَدَتْ، وَعَظْمَتُ. فكانوا بحالٍ يُرْغَبُ عَنْهُمْ، وَيُهَابُ. لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ لأنهم ﴿قَالُوا لَيْسَآ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] فلو كانوا على الحالِ التي ذكروا مِنْ تَطَاوُلِ الشعورِ وائْتِدَادِ الأظفارِ وَتَغْيِيرِ أحوالِهِمْ لم يكونوا ليقولوا: ﴿لَيْسَآ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. إِذْ لو نَظَرُوا في أَنْفُسِهِمْ مِنْ تَغْيِيرِ الأحوالِ لَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لم يَلْبَثُوا ما ذَكَّرُوا مِنْ الوَقْتِ. دَلَّ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لِلْخَوْفِ وَالْهَيْبَةِ لا لِلذَّلِكِ.

وقال بعضهم: لأنهم كانوا في مَكَانِ الرِّيْبَةِ، في ما لا يُؤْوَى إِلَيْهِ مِثْلُهُ إِلَّا لِحُوفٍ أَوْ رِيْبَةٍ أَوْ طَلَبِ رِيْبَةٍ، لا يَأْوِيهِ إِلَّا هَذَا^(١١) هَارِبٌ مِنْ شَرٍّ أَوْ طالِبٌ شَرٍّ إلى آخِرِ ما ذَكَّرْنَا؛ إِذْ مَنْ أَقامَ في مَهَابٍ وَمَكَانٍ مَخُوفٍ يُهَابُ مِنْهُ، وَيُخَافُ. أو أن

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كاليقظان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: ومنها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل وم: هذين.

يكونوا بحيث يُهابون، ويُخاف منهم، لئلا يَدْتُوَ منهم أحدٌ، ولا يَقْرُبَ، فلا يُوقِظُهُمُ أحدٌ، لِيَقْبُوا إلى المدة التي أراد الله أن يَتَّقُوا فيها. وكذلك يَحْتَمِلُ هذا المعنى في تَقْلِبِ اليَمِينِ والشَّمالِ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿لَوْ أَطْلَقْتُ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّيْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ ذلك الخوف وتلك الهيبة هيبة الدين على ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ» [الطبراني في الكبير ١١٥٠٦] وذلك لدينه وحقيقته أمره. فعلى ذلك جائز أن يكون ما ذَكَرَ مِنْ هَيْبَةِ أحوالِهِمْ لِدِينِهِمْ الذي اختاروا مِنْ بَيْنِ [دين] ^(١) قومِهِمْ، وفَارَقُوهُمْ، لِيَسْلَمَ دينُهُمْ، إلى مكان، لا طَعَامَ فيه، ولا شَرَابَ، وذلك لِحَقِيقَةِ ما اختاروا مِنْ الدين. كَانَ ذلك لِمَعْنَى لَمْ يُطْلِعِ اللهُ رَسولَهُ على ذلك، فلا نَفْسُرُ، والله أعلم.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي كما أَنبَأَكُمْ مِنْ أَنبَاءِهِمْ ^(٢) وَقَصَصِهِمْ [كذلك بَعَثْنَاهُمْ] ^(٣) أو كما ضَرَبَ على آذَانِهِمْ، وَأَنَامَهُمْ سِنِينَ، كذلك يَبْعَثُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِيسَاءِ آلِهِمْ﴾ بَعَثْنَاهُمْ لِمَا عَلِمَ ما يكون منهم، وهو التَّسَاوُلُ، وهكذا جميع ما يَخْلُقُ، وَيُنشِئُ؛ إِنَّمَا يَخْلُقُ وَيُنشِئُ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُمُ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ذَرَأْنَاهُمْ لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُمْ، وهو عَمَلُ أَهْلِ جَهَنَّمَ. وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦] مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَعْبُدُهُ، وَيَعْمَلُ ^(٤) بِوَعْمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، خَلَقَهُ لذلك.

هكذا كُلُّ ما يَخْلُقُ؛ إِنَّمَا يَخْلُقُ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ؛ إِذْ يُخْرِجُ الْفِعْلُ لذلك مُخْرَجَ الْعَجْزِ وَالْجَهْلِ بِالْعَوَاقِبِ. فإذا كَانَ اللهُ عَالِمًا بما كَانَ، وَيَكُونُ، وَيَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ فِعْلُهُ عَبَثًا، لَمْ يُجْزِ أَنْ يَخْلُقْ شَيْئًا لِغَيْرِ ما عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ.

وهكذا في الشَّاهِدِ: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا/ ٣١٤ - ب/ أو فَعَلَ فِعْلًا لِغَيْرِ ما عَلِمَ [ما يَكُونُ مِنْهُ] ^(٥) فهو عَابَثٌ أو جَاهِلٌ بعَوَاقِبِهِ، وبالله العِصْمَةُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَيْسَ بِيَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ﴾ قال بعضهم: تأويله ما ذَكَرَ ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ لَنُغْلِقَنَّ لِلْمُزَيَّنِّ أَصْحَى لِمَا لَبِئْتُمْ أَمْدًا﴾ [الكهف: ١٢] قالوا ذلك لِمَا لَمْ يَرَوْا في أَنفُسِهِمْ أَثَارًا وَأَعْلَامًا تَدُلُّ على طُولِ الْمُكُثِّ وَالْمُقَامِ فِيهِ. ثُمَّ تَذَكَّرُوا أحوالَهُمْ وما يَرَى النَّائِمُ في نَوْمِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ. عَرَفُوا أَنَّ ذلك الْقَدْرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِثْلُ مَنْ مِنَ الْعَجَائِبِ التي رَأَوْا، لا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ في يَوْمٍ أو بَعْضِ يَوْمٍ. فعند ذلك وَكَلُّوا الأَمْرَ إلى اللهِ، فقالوا: ﴿رَبِّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾.

وأما الذي أَمَاتَهُ يَمَّةٌ عامٍ لَمَّا بَعَثَهُ قَطَعَ القول في ذلك، ولم يَكِلِ الأَمْرَ إلى اللهِ، حين ^(٦) ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالَ لَبِئْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] لَأَنَّهُ كَانَ مَيِّتًا. وَالْمَيِّتُ لا يَرَى شَيْئًا، ولم يَكُنْ في نَفْسِهِ أَثَارٌ تَدُلُّ على ذلك، فَقَطَعَ القول فيه، ولم يَكِلِ الأَمْرَ إلى اللهِ. وأما النَّائِمُ فَإِنَّهُ يَرَى في نَوْمِهِ أَشْيَاءَ، [يَعْرِفُ أَنَهَا] ^(٧) لا تَكُونُ في وَقْتٍ قَصِيرٍ، لذلك وَكَلُّوا الأَمْرَ إلى اللهِ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّخُوا أَمْدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ فيه أَنَّهُمْ لَمَّا فَارَقُوا، ومعهم زَادٌ، وهو الْوَرِقُ، أَمَرَ بِعضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يَبْعَثَ [أَحَدُهُمْ] ^(٨) بِالْوَرِقِ، لِتَأْتِيَهُمْ بِالطَّعَامِ. وفيه أَنَّهُ أَضَافَ الْوَرِقَ إِلَيْهِمْ، ولا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ حين ^(٩) قال: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ وفيه دلالة جَوَازِ الْمُتَاهَذَةِ في الْأَسْفَارِ وَغَيْرِهَا إِذَا كَانَ ذلك الْوَرِقُ يَبْعَثُهُمْ. وفيه دلالة جَوَازِ الْوَكَالَةِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِمُبْدَعَةٍ، وَلَكِنْ كَانَتْ في الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وهي مُتَوَارِثَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ آيَاتُ أَزْكَى طَعَامًا﴾ اخْتَلَفَ فيه:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أنبأكم. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: ويعلم. (٥) في الأصل وم: أنه يكون. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: فيعرفه أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَذْكَى طَعَامًا﴾ أَيِ أَحَلُّ طَعَامًا لِأَنَّهُ بَغَضَ أَهْلَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، يَذْبَحُونَ لِلْأَصْنَامِ وَيَأْسُمُ تِلْكَ الْاِثْنَانِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا. فَأَمَرُوهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِحَلَالٍ يَحِلُّ أَكْلُهُ وَالتَّائُلُ مِنْهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَذْكَى﴾ أَرْحَصُ وَأَكْثَرُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَكَانٍ، لَا يَذَرُونَ مَتَى يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَطَلَبُوا الْأَكْثَرَ لِشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَكْفِي لَوْفَتْ مَقَامِهِمْ وَنَحْوِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَذْكَى طَعَامًا﴾ أَيِ أَطْيَبُ وَأَجُودُ لِأَنَّ الطَّيِّبَ أَزِيدُ لِلْعُقُولِ وَأَصْلَحُ لِلنَّفْسِ وَأَنْفَعُ.

وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ أَرْزَاقَ الْبَشَرِ مَا هُوَ أَطْيَبُ وَأَلْيَنُ لِمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي الْعُقُولِ وَالْفُهُومِ^(١)، وَجَعَلَ لِيَغْيِرَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ كُلِّ خَشِينٍ خَبِيثٍ لِمَا لَيْسَ لَهُمْ عَقُولٌ نَحْتَاجُ إِلَى مَا يَزِيدُ لَهَا فِيهَا. وَأَصْلُ الزَّكَاةِ الثَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ لَكَ بِهَا عِلْمٌ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْسَ لَكَ بِهَا عِلْمٌ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهَا﴾ أَيِ وَلَيْسَ لَكَ بِهَا عِلْمٌ أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهَا لِثَلَاثِ شَعْرَةٍ^(٢) أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الَّذِينَ فَارَقُوهُمْ لِدِينِهِمْ. أَوْ أَمْرُهُ بِاللَّطْفِ أَيِ بِالسَّمَاةِ وَالسَّهْوَةِ فِي الشَّرَاءِ لِمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحَ الْبَيْعَ وَالشَّرَاءَ» [بَنَحْوِهِ التِّرْمِذِيُّ ١٣١٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أَنَّهُ فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَأَنَّهُ مِنْ قَوْمٍ كَذَا، فَيَعْرِفُوا^(٣) أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، أَوْ لَا يُشْعِرَنَّ بِمَكَانِكُمْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ.

الآية ٢٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يَقْتُلُوكُمْ، أَوْ مَا أَرَادُوا بِهِ ﴿أَوْ يُبْعِدُوكُمْ فِي مَلْتَمِهِمْ﴾ أَيِ فِي دِينِهِمْ الْكُفْرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَقِيلُوا إِذَا بَكَدَا﴾ أَيِ مَا دُمْتُمْ فِي مَلْتَمِهِمْ وَدِينِهِمْ. هَذَا كَانَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا النَّفْيَةَ. وَإِلَّا لَوْ أَغْطَوْهُمْ بِلِسَانِهِمْ، وَلَمْ يُغْطَوْهُمْ بِقُلُوبِهِمْ، لَكَانُوا قَدْ أَفْلَحُوا، أَوْ عَرَفُوا النَّفْيَةَ. إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ النَّفْيَةُ، وَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ فِيهَا، أَوْ هِيَ رُخْصَةٌ [رَخَّصَهَا اللَّهُ]^(٤) لَهُمْ. وَالْأَفْضَلُ أَلَّا يُعْطَى ذَلِكَ، وَلَا يُظْهَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَمَا أَخْرَجَ الْمَنْعُوتَ لِشُرَاءِ الطَّعَامِ مِنَ الْكَهْفِ مَعَ الْوَرِقِ الْمُتَقَدِّمِ ضَرْبُهَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ إِعْلَامِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَنِ النَّفْيَةِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ أَظْلَعْنَا عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَمَا أَغْلَمَ عَنْ أَنْبَاءِ النَّفْيَةِ وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ وَقَصَصِهِمْ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ أَظْلَعْنَا عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ كَمَا ضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ [وَأَنَامَهُمْ مَدَّةً طَوِيلَةً]^(٥) ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا وَعَدَ لَهُمُ الرَّسُلُ عَنْ اللَّهِ حَقٌّ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي إِظْلَاعِهِمْ عَلَيْهِمْ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَظْلَعَ اللَّهُ الْمَلِكَ الَّذِي هَرَبُوا مِنْهُ وَأَهْلَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا أَنَامَهُمْ، لَكِنْ جِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَوْلَئِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَظْلَعَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُبَيِّمَهُمْ، فَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، فَسَدُوا بَابَ الْكَهْفِ، فَبَقُوا هُنَاكَ، ثُمَّ أَنَامَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ، فَهَلْكَ ذَلِكَ الْمَلِكُ، وَانْقَرَضَتْ تِلْكَ الْقُرُونُ، ثُمَّ وَلِيَ مَلِكٌ آخَرُ مُسْلِمٌ صَالِحٌ، ثُمَّ أَظْلَعَ ذَلِكَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا ذَلِكَ قَدْ قَالُوا، فَلَا نَذْرِي كَيْفَ كَانَتْ الْقِصَّةُ؟ وَفِي ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنَّهُ أَظْلَعَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ مَا أَنَامَهُمْ، وَبَعَثَهُمْ. وَلَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ أَنَّهُ مَنْ أَظْلَعَ عَلَيْهِمْ؟ الْمَلِكُ الْأَوَّلُ أَوِ الثَّانِي: أَوِ الْقَوْمُ أَوْ غَيْرُهُمْ؟ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْطَعَ فِيهِ الْقَوْلُ: إِنَّهُ فَلَانٌ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ ذُكِرَتْ^(٦) فِي الْقُرْآنِ حُجَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَوْ قُطِعَ الْقَوْلُ عَلَى شَيْءٍ، أَوْ زِيدَ، أَوْ نُقِصَ عَمَّا كَانَ فِي كُتُبِهِمْ خَرَجَتْ مِنْ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً لَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْفُهُومُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَشْعُرُونَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَعْرِفُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: رَخِصَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما^(١): يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يُخْبِرُونَ قَوْمَهُمْ أَنْ تَفْرَأَ يَهْرُبُونَ مِنْ مَلِكِهِمْ إِشْفَاقًا عَلَى دِينِهِمْ، وَيَلْتَجِثُونَ إِلَى الْكَهْفِ، فَيَتَأَمُّونَ كَذَا وَكَذَا^(٢) سَنَةً، ثُمَّ يَنْبَغُثُونَ. فَاتَّكَذَّبَهُمْ قَوْمُهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا قَوْمَهُمْ مِنْ أَنْبَاءِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَنْ مَا وَعَدَ الرُّسُلُ، وَأَخْبَرَهُمْ مِنْ نَبَأِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ حَقٌّ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ الْبَغْثَ وَالسَّاعَةَ، وَالرُّسُلُ يُخْبِرُونَ أَنَّهُمْ يَنْبَغُثُونَ، فَاطَّلَعَ عَلَى أَوْلَئِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْبَغْثَ وَالْقِيَامَةَ حَقٌّ؛ لِأَنَّ الْأَعْجُوبَةَ فِي إِبْقَاءِ أَنْفُسِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِي نَوْمِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ بِلَا غِذَاءٍ يَتَغَذَّوْنَ وَلَا طَعَامٍ يَطْعَمُونَ وَلَا شَيْءَ يَقُومُ بِهِ الْأَنْفُسُ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَجَمْعِ الْعِظَامِ النَّاخِرَةِ الْبَالِيَةِ فَلَا^(٣) تَكُونُ دُونَهُ لِمَا لَمْ يَرَوْا الْأَنْفُسَ تَبْقَى أَيَّامًا بِلَا غِذَاءٍ فَضْلًا أَنْ تَبْقَى سِنِينَ كَثِيرَةً ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ. فَبَغْثَ هَؤُلَاءِ لِيَعْلَمَ مَنْ أَنْكَرَ الْبَغْثَ [أَنْ]^(٤) مَنْ قَدَّرَ عَلَى إِبْقَاءِ الْأَنْفُسِ مَدَّةً مَدِيدَةً طَوِيلَةً بِلَا غِذَاءٍ تَغْتَذِي قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَبَعْثِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ.

أَوْ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَّرْنَا بَدَأَ أَنَّ الرُّسُلَ السَّالِفَةَ كَانَهُمْ أَخْبَرُوا قَوْمَهُمْ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَكَذَّبُوهُمْ، فَاطَّلَعَ اللَّهُ نَبَاهُمْ وَخَبَّرَهُمْ لِيَعْلَمَ أَوْلَئِكَ أَنَّ الَّذِي أَخْبَرَهُمُ الرُّسُلُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ وَالْقِصَصَ الْمُتَقَدِّمَةَ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ وَدَلَالَةً فِي إِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ. فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْطَعَ الْقَوْلُ فِي شَيْءٍ لَمْ يُبَيَّنْ فِيهِ، وَلَمْ يُوضَّحْ، وَلَمْ يُفَسَّرْ، لِمَا يُخَافُ فِيهِ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ أَوْ^(٥) الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصَانُ عَلَى مَا ذَكَرَ فِيهِ لِمَا لَعَلَّهَا تَخْرُجُ مُخَالِفَةً لِمَا ذُكِرَتْ فِي كُتُبِهِمْ، فَلَا تَكُونُ لَهُ حُجَّةٌ وَلَا دَلَالَةٌ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ عَلِمُوا أَنَّ مَا أَخْبَرَهُمُ الرُّسُلُ، وَيُخْبِرُونَهُمْ، إِنَّمَا هُوَ اخْتِرَاعٌ مِنْهُمْ، لَا وَعْدَ مِنَ اللَّهِ وَخَبَرٌ عَنْهُ؟ قِيلَ: عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ بِوُجُوهٍ.

أَحَدُهَا: مَا رَأَوْا مِنَ الدَّرَاهِمِ الَّتِي كَانَتْ فِي يَدَيِ الْمُبْعُوثِ بِشَرَاءِ الطَّعَامِ مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَقَدِّمِ، وَإِنْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الدَّرَاهِمُ/ ٣١٥ - ١/ مِنْ كَثَرِ أَصَابِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لَا مِنْ دَرَاهِمِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ. فَإِذَا صَدَّقُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ فِي مَا أَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ دَرَاهِمِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَتَصْدِيقُ الرُّسُلِ أَوَّلَى، وَخَبَرُهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُصَدَّقَ.

وَالثَّانِي: عَلِمُوا لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ أَنَامَهُمْ مَدَّةً طَوِيلَةً خَارِجَةً عَنِ الْعَادَةِ، وَحَفِظَهُمْ مِنْ كُلِّ ضَرَرٍ^(٦) وَأَذَى وَفَسَادٍ، وَأَبْقَاهُمْ مِنْ غَيْرِ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّ الْأَنْفُسَ لَا تَبْقَى، وَلَا يَقُومُ بِغَيْرِ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ بِدُونِ تِلْكَ الْمَدَّةِ بِكَثِيرٍ فَضْلًا أَنْ تَبْقَى إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْمَدَّةِ. فَعَلِمُوا إِنْ مَنْ قَدَّرَ عَلَى جَفْظِ مَا ذَكَّرْنَا وَإِبْقَائِهِمْ لِقَادِرٌ عَلَى الْبَغْثِ وَالْإِحْيَاءِ، وَلَا يَعْجَزُ^(٧) عَنْ شَيْءٍ يُرِيدُ كَوْنَهُ، وَأَنَّهُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ.

وَالثَّالِثُ: عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ أَنَامَهُمْ وَقَتًا طَوِيلًا وَحَفِظَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ، وَأَخْيَاهُمْ، وَأَنَّهُ لَمْ يُنْهَهُمْ، وَلَمْ يُبْعَثْهُمْ إِلَّا لِإِعَاقِبَةٍ تُتَأَمَّلُ وَحِكْمَةٍ تُفْقَضُ. فَعَلَى ذَلِكَ إِحْيَاءُ الْخَلْقِ وَإِمَاتَتُهُمْ، لَيْسَ إِلَّا لِإِعَاقِبَةٍ تُتَأَمَّلُ وَحِكْمَةٍ [وَاللَّهُ أَعْلَمُ]^(٨).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْتَرِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ لَسْنَا نَذِرُ فِي مَاذَا تَنَازَعُوا فِي أَمْرِهِمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا آتُوا عَلَيْهِمْ بِنَبِيٍّ﴾ [يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ]^(٩) تَنَازَعُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي بِهِ التَّجَوُّزُ إِلَى الْكَهْفِ.

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ تَنَازُعُهُمْ فِي الْبِنَاءِ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ. وَيَحْتَمِلُ فِي عَدِيدِهِمْ وَنَحْوِهِ.

وَلَكِنْ لَا نَقْطَعُ الْقَوْلَ فِيهِ إِذْ وَكَلُوا^(١٠) أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ حِينَ قَالُوا: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كذا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ولا.

(٦) من م، في الأصل: ضرب. (٧) في الأصل وم: يعجزه. (٨) من م، في الأصل: فعلى ذلك. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: وكل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَسَخَدَتْ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ يَحْتَمِلُ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ عَلَيْهِمْ إِكْرَامًا لَهُمْ وَإِعْظَامًا لِيَذْكُرُوهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ عَلَى قُرْبٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُمْ مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ [وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَتَّخِذُوا أَنْفُسَهُمْ مَسْجِدًا لِلْعِبَادَةِ^(١)] لِيَعْبُدُوا اللَّهَ عَلَى قُرْبٍ مِنْهُمْ لِيَنَالُوا مِنْ بَرَكَاتِهِمْ [وَنَحْوِ ذَلِكَ]^(٢)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ عَدَدُهُمْ سَبْعَةً، وَالثَّامِنُ الْكَلْبُ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي الثَّلَاثِ وَالْخَمْسِ ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أَيِ قَذْفًا بِالْغَيْبِ وَظَنًّا. وَقِيلَ: تَرْجَمَةُ بِالْغَيْبِ، أَيِ بِلَا عِلْمٍ. وَلَمْ يَذْكُرْ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبُهُمْ﴾.

وكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَقَالَ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِينَ اسْتَشْنَاهُمُ اللَّهَ، وَكَانُوا سَبْعَةً، وَالثَّامِنُ الْكَلْبُ. لَعَلَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ ظَنًّا وَاسْتِدْلَالًا بِالذِّكْرِ، أَوْ كَانَ سَمَاعًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرِ وَغَيْرُهُمَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ ثُمَّ اسْتَشْنَى قَلِيلًا مِنْ عِبَادِهِ، فَلَا نَعْلَمُ بَأْنَ أَوَّلِكَ الْقَلِيلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ مِنْهُمْ، فَلَا نَذْرِي مَنْ هُمْ؟ وَلَا كَمْ عَدَدُهُمْ؟ وَبِهِ نَقُولُ نَحْنُ، وَهُوَ مَا قَالَ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ نَهَى رَسُولُهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا لِمَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ غَيْرَ مُبَيِّنٍ فِي كُتُبِهِمْ فَلَا يُظْلِعُ رَسُولُهُ خَوْفَ التَّكْذِيبِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي وَفْقِهِمْ: قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ فِي مَا بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ بَغْيِ مُوسَى، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَأَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِمَا^(٣)، وَهَذَا أَشْبَهَ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَالُوا عَنْهُمْ أَهْلَ التَّوْرَةِ، وَهُمْ الْيَهُودُ. فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ عِيسَى، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٤) بِالْإِنْجِيلِ.

وَقَالَ^(٥) أَهْلُ التَّوِيلِ: كَانَتْ أَسَامِيهِمْ [كَذَا، وَعَدَدُهُمْ كَذَا، وَلَيْسَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَسَامِيهِمْ وَعَدَدِهِمْ]^(٦) حَاجَةً. وَلَوْ كَانَتْ لَتَوَلَّى اللَّهُ بَيَانَ ذَلِكَ فِي الْكُتُبِ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أَيِ ظَنًّا بِالْغَيْبِ، أَيِ يَقُولُونَ بِالظَّنِّ، وَقِيلَ: قَذْفًا بِالظَّنِّ عَلَى غَيْرِ اسْتِيقَانٍ، وَهُمَا وَاحِدٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الْكَهْفُ: ٢٤] يَحْتَمِلُ الْخِطَابُ بِهِذَا كُلِّ النَّاسِ، لَيْسَ أَحَدٌ أَوَّلَى بِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرَجَ التَّعْلِيمِ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ الْجِرَاءِ مَعَ الْكُفْرَةِ ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ وَكَذَلِكَ الْإِسْتِفْتَاءُ، وَكَذَلِكَ عَلَّمَهُمْ، وَأَدَبَهُمْ إِلَّا يَعِدُوا عِدَّةً إِلَّا وَالثَّنَاءُ بِهَا مُلْحَقٌ.

وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْهُ مَا ذَكَرَ مِنَ الْجِرَاءِ وَالْإِسْتِفْتَاءِ وَالْوَعْدِ بِغَيْرِ ثُنْيَا، وَلَكِنْ خَاطَبَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَتَأَدَّبَ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ بِذَلِكَ الْأَدَبِ. وَهُوَ مَا خَاطَبَ بِهِ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّرِكَينَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٤ و. ١٥]. وَنَحْوُهُ مِنَ الْخِطَابَاتِ^(٧) الَّتِي خَاطَبَ بِهَا [لَا لِأَنَّهُ]^(٨) كَانَ مِنْهُ ذَلِكَ، أَوْ كَانَ فِيهِ مَا ذَكَرَ، وَلَكِنْ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوُجُوهِ فِي مَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ فِي أَمْرِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، أَيِ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إِلَّا قَدَّرَ مَا كَانَ فِي كُتُبِهِمْ؛ فَإِنَّكَ لَوْ مَارَيْتَهُمْ بِمَا لَيْسَ فِي كِتَابِهِمْ كَذَبُوكَ، وَلَكِنْ [مَا]^(٩) قَدَّرَ مَا فِي كُتُبِهِمْ.

هَذَا [إِنْ]^(١٠) كَانَ عَلَى الْمَسْأَلَةِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ الْمَسْأَلَةِ فِي غَيْرِ أَمْرِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى ابْتِدَاءِ الْمُحَاجَّةِ وَالْجِجَاعِ فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ يَتَّخِذُونَ مَسْجِدًا لِلْعِبَادَةِ أَنْفُسَهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَؤُلَاءِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يُؤْمِنُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَدَدُهُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخِطَابُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَخَاطَبَهُ بِهَا إِلَّا أَنْ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

أخذهما: أي لا ثمار فيهم إلا بما هو أظهر، ويعرفون ذلك ظاهراً من نحو ما يعرفون أن الأصنام التي عبدوها لا تنفع، ولا تضر، ولا تبصر، ولا تسمع، ونحو ذلك مما يعرفون أنها كذلك.

والثاني: لا تحتاجهم بطائف الحكمة ورفائقيها، ولكن بشيء محسوس ظاهر من الآية بما يلطف، ويدق، على ما يحتاجهم الأنبياء بآيات حسيات.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ دلالة أنه لا يسع النظر في كتب^(١) الفلاسفة إلا على جهة العرض لما فيها على كتاب الله، فيأخذ بما يوافقه، ويترك الباقي.

الآيتان ٢٣ و ٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لو كان فهم الخطاب على ظاهر ما خرج لكان في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نهى عن العدة بالثبأ. فإن لم يفهم هذا، ولكن فهموا ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٢) على إضمار القول؛ دل أن الخطاب ليس يُحمَلُ على ظاهر المخرج، ولكن على ما توجه الحكمة. والدليل ثم نهى [عن عدة لا]^(٣) يستثنى فيها. وقاس بعض الناس الإيمان على العدا، فيقول: إذا حلف فإنه يلزمه أن يستثنى فيها. وذلك فاسد لأن الإيمان تُخرج على تعظيم الرب وإجلاله، فلا يجوز أن يؤمر بالثبأ فيها، لأن الثبأ نقض ذلك التعظيم.

وكذلك ما روي [عن رسول الله ﷺ أنه قال: ^(٤) «إِذَا حَلَفْتُمْ فَاعْلَمُوا بِاللَّهِ» [بنحوه مسلم ٣/١٦٤٦] «وَلَا تَخْلِفُوا بَابَانَكُمْ وَلَا بِالطَّوَاغِيَتِ» [مسلم ١٦٤٨] نهى عن الحلف بغير الله لما في الحلف به تعظيم لذلك الشيء. وأما العدة فإنما هي إضافة الفعل إلى نفسه، وهو لا يملك حقيقة^(٥) لذلك أمر أن يلحق الثبأ فيه لئلا يلحقه الخلف في الوعد، إذا لم يفعل ما وعد. وعلى ذلك ذكر من الأنبياء أنهم إذا وعدوا استثنوا فيه كقول موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ الآية [الكهف: ٦٩] ثم إذا لم يصبر لم يعاتبه بترك الصبر، ولو كان حلفاً لعاتبه^(٦) كما عاتب صاحب موسى [موسى حين^(٧)] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]

وقد ظهر من الأنبياء والرسل الإيمان والاقسام^(٨)، ثم لم يذكر عن أحد منهم الثبأ في ذلك. دل أن الثبأ في العدا لازمة، وفي الإيمان لا.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ دلالة ألا يكون شيء إلا بمشيئة الله حين^(٩) نذبه إلى الثبأ. ثم إذا خرج على غير ما وعد، يلحقه^(١٠) الخلف في الوعد، دل أنه قد شاء ذلك، وأنه إذا لم يشأ شيئاً لم يكن، لأنه لو كان [الحادث شيئاً لم يشأه]^(١١) هو، أو شاء شيئاً، فلم يكن، لم يكن لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ معنى إذا كان ما لم يشأ هو، ولم يكن ما هو شاء. دل [أن ما]^(١٢) شاء هو كان، وما لم يشأ لم يكن. ٣١٥ - ب/

وفيه أنه قد شاء كل طاعة وخير من العبد. فلو لم يشأ ما ليس بطاعة لكان لا يستثنى. وقد علم أنه قد شاء ذلك. فدلث ثبأه على أنه قد يشأ ما ليس بطاعة إذا علم أنه يختار ذلك. وذلك [نقض]^(١٣) على المعتزلة.

فإن قيل: إنما أمر بالثبأ في العدة لما لعله سيموت قبل أن يفعل ما وعد، أو تذهب عنه القدرة، فيعجز عما وعد، قيل: إن الأوهام لا ترجع إلى ذلك، بل الإمكان مشروط فيه، وإن لم يذكر. فعلى ذلك في العدا والإيمان وغيرها.

وجائز أن يكون المراد بهذا الخطاب غير النبي، وهو الأشبه، لما لا يَحْتَمِلُ أن يكون النبي ﷺ يعد عدة، ولا يذكر الثبأ لما لا يعرف ألا يكون شيء إلا بمشيئة الله وإرادته.

(١) في الأصل وم: كتاب. (٢) في الأصل: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في م: إلا أن تقولوا: إن شاء الله. (٣) في الأصل وم: إن عدة ولا.

(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حقيقة. (٦) في الأصل وم: لعاقبه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: والقسم.

(٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (١١) في الأصل وم: شيئاً لم يشأ. (١٢) في الأصل: أنه إن، في م أنه.

(١٣) ساقطة من الأصل وم.

وأما غير النبي فجانز إلا يعرف ذلك. لذلك كان غيره أولى بما^(١) يخرج منه على التعريف لهم أو التعليم^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا ذكرته بغير ما نسيته فاذكره كقوله: ﴿وَأَيُّا بُيُوتَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِى نَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] فعلى ذلك هذا.

والثاني: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي [اذكر]^(٣) الثنيا في آخر الكلام ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ [في أوله]^(٤) أعني الثنيا. إذ المُسْتَحَبُّ أَنْ يَسْتَنْفِي فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ عَلَى التَّبَرُّكِ كقوله ﴿وَأَيُّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] اسْتَشْنُوا أَوَّلًا ثُمَّ وَعَدُوا. فهو المُسْتَحَبُّ. فكانه قال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ الثنيا في آخر كلامك ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ في أوله. وهو الثنيا.

وهذا يرد على أصحاب الظاهر، لأن ظاهر الكتاب أن يخاطبهم بذكره إذا نسوا، ولا يجوز أن يخاطب أحد^(٥) في حال نسيانه. فإذا لم يفهم من هذا هذا دل أنه لا يفهم على ما خرج ظاهره، ولكن على ما يصح، ويوجب الحكمة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ قال بعضهم: إن ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي﴾ الآية هي أوضح على دلالة رسالتي وأخذ مما تسألونني من أمر أصحاب الكهف؛ لأنهم كانوا^(٦) يسألونه عن خبرهم، فيستدلون على رسالته وصدقته، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي﴾ الآية [الأنعام: ١٦١] على دلالة رسالتي [التي هي]^(٧) أوضح مما تسألونني وأخذ للقلوب، إذ كانت له آيات حسيات على رسالته.

وقال الحسن: قوله: ﴿وَقُلْ عَسَى﴾ عسى من الله واجب؛ أي قد هداني ربي الرشاد والصواب. وأما غيره من أهل التأويل فيقولون^(٨): إنه وعد لأولئك أن يخبرهم غدا عما يسألون، وقال: ﴿عَسَى أَنْ﴾ يُرْشِدُنِي رَبِّي لِأَسْرَعَ مِنْ هَذَا الميعاد الذي وعدت، والله أعلم.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسِّرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ قال بعضهم: هو صلة قول أولئك الذين قالوا: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبٌ﴾ الآية [الكهف: ٢٢] مع قوله: ﴿وَلْيَسِّرُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ ما ذكر. فأمرة أن يقول لهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ الآية [الكهف: ٢٦].

وقال بعضهم: هو قول الله أخبر أنهم ليسوا ما ذكر من المدة ﴿وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾ قال: تسع سنين لكن ليس فيه بيان أنه أراد تسع سنين أو تسعة أشهر أو تسعة أيام، فلا نذري أراد بذلك ذا أو ذا.

فالأمر فيه إلى الله على ما أمر رسوله أن يقول لهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
فإن قيل في قوله: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ ألا قال: ثلاث مئة سنة كما يقال: ثلاث مئة رجل وثلاث مئة درهم ونحوه؟ قال بعض أهل الأدب: إنه لم يضيف ثلاث مئة إلى سنين، ولكنه أراد تمام الكلام لقوله: ثلاث مئة. لذلك نونها^(٩).
ثم أخبر ما تلك [ثلاث المئة]^(١٠)، فقال: سنين على القطع من أول القطع، والله أعلم.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو ما ذكرنا أنه جعل علم مدة لئيبهم إلى الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوها ثلاثة:

أحدها: له علم ما غاب عن أهل السموات وأهل الأرض كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ النَّبِيُّ وَالشَّهَادَةُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

والثاني: له علم ما غيب، وأسر أهل السموات والأرض بعضهم من بعض.

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: العلم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وله. (٥) في الأصل وم: أحدا. (٦) في الأصل وم: قالوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نون فيها. (١٠) في الأصل وم: الثلاث مئة.

والثالث: لَهُ عِلْمٌ غَيْبٍ مَا شَاهَدَ^(١) أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، لَأَنَّ فِي [مَا]^(٢) شَاهَدُوهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَعَايَنُوهَا، غَيْباً وَسِرِّيَّةً لَمْ يَعْلَمُوهُ مِنْ نَحْوِ الشَّمْسِ شَاهَدُوهَا، وَعَرَفُوا أَنَّهَا شَمْسٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ صَلَاحُ الْأَشْيَاءِ وَمَنَافِعُهَا، وَكَذَلِكَ الْقَمَرُ. وَإِنَّمَا شَاهَدُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْرِفُوا الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ، صَارَتْ نَافِعَةً لِلْأَشْيَاءِ^(٣).

وَكَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْعَقْلُ وَنَحْوُهَا^(٤) مِنَ الْحَوَاسِّ عَرَفُوا هَذِهِ الْحَوَاسِّ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، وَلَكِنْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ يَسْتَمِعُونَ، وَيُبْصِرُونَ، وَيَفْهَمُونَ، فَيَقُولُ: لَهُ عِلْمٌ مَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي شَاهَدْتُمُوهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْبِئْ بِهِ، وَأَسْمِعْ﴾ هَذَا كَلَامٌ يَتَكَلَّمُ عَنِ النَّهَايَةِ وَالْغَايَةِ وَالْبَلَاغِ^(٥) مَنِ الْوَصْفِ. وَيُقَالُ: أَكْرَمَ بِهِ مِنْ فُلَانٍ، إِذَا كَانَ بَلْغُ الْكَرَمِ بِهِ غَايَتَهُ. وَكَذَلِكَ يُقَالُ: أَحْسَنَ بِهِ مِنْ فُلَانٍ، إِذَا بَلْغَ فِي الْحُسْنِ غَايَتَهُ. وَنَحْوُهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْبِئْ بِهِ، وَأَسْمِعْ﴾ هُوَ وَصَفَ لَهُ عَلَى النَّهَايَةِ كَمَا يُقَالُ: مَا أَغْلَمَهُ، وَمَا أَبْصَرَهُ، وَمَا أَكْرَمَهُ، وَمَا أَحْسَنَهُ فِي الْعِلْمِ، إِنَّهُ يَعْلَمُ مَا غَابَ [عَنِ الْخَلْقِ وَمَا شَاهَدُوا] مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَفْعَلُونَ وَ﴿وَأَسْمِعْ﴾ بِهِ مِنْ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَتَقَوَّمُونَ، أَيَّ يَعْلَمُ مَا غَابَ^(٦) عَنْهُمْ مِمَّا لَمْ يَفْعَلُوا، وَلَمْ يَقُولُوا: فَالَّذِي قَالُوهُ، وَقَعَلُوهُ أَحَقُّ أَنْ يَعْلَمَ. يُحَذِّرُهُمْ عَنِ أَفْعَالِهِمْ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ يَحْتَمِلُ: وَلَا يُشْرِكُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ أَحَدًا. وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أَيَّ الْحُكْمِ لَهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ دُونَهُ حُكْمٌ، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ طَلَبُ حُكْمِ اللَّهِ فِي مَا يَحْكُمُونَ. أَوْ لَا يُشْرِكُ فِي تَقْدِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ الَّذِي يُدَبِّرُ فِي خَلْقِهِ أَحَدًا. وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي﴾ قِسْمَتِهِ الَّتِي يَقْسِمُ بَيْنَ الْخَلْقِ أَحَدًا ﴿وَلَا يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ﴾ أَيَّ فِي مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَدَعَتِ الْخَلْقَ إِلَيْهِ ﴿أَحَدًا﴾.

الآية ٣٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿كِتَابَ رَبِّكَ﴾ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ؛ أَيَّ بَلَّغَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَثَلُو كَقَوْلِهِ: ﴿بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وَهُوَ جَمِيعُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَثَلِ. وَيَحْتَمِلُ: ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ أَيَّ أَثْلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فِيهِ أَنْ الْقُرْآنَ مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِتِلَاوَتِهِ.

نَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ﴾ فَرِيضَةً ضَيَّعْنَاهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَ رَسُولَهُ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ. ثُمَّ مَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي أَقْصَى الدُّنْيَا وَأَبْعَدَ أَطْرَافِهَا لَمْ يَقْدِرْ رَسُولُهُ أَنْ يَتَوَلَّى التَّبْلِيغَ بِنَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ بَعْدَ وَقَاتِهِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّى تَبْلِيغَهُ^(٧).

فَكَانَ [الْقِيَامُ بِتَبْلِيغِ ذَلِكَ]^(٨) يُلْزِمُ الْمُسْلِمِينَ وَأَيَّمَّتْهُمْ^(٩)، فَضَيَّعُوا ذَلِكَ.

وَلِهَذَا مَا رَخَّصَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِدُخُولِ الْمُسْلِمِينَ دَارَ الْحَرْبِ لِلتَّجَارَةِ وَدُخُولِ أَوْلَئِكَ دَارَ الْإِسْلَامِ لِلتَّجَارَةِ أَيْضاً لِيَنْتَهِي إِلَيْهِمْ خَبَرُ هَذَا الدِّينِ حَيْثُ عِلْمٌ أَنَّهُ يَكُونُ أَمْنَةً فِي آخِرِ الزَّمَانِ، لَا يَهْتَمُّونَ لِدِينِهِ، وَلَا يَتَوَلَّوْنَ تَبْلِيغَ مَا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ، وَيَضَيِّعُونَ أَمْرَهُ، فَتَلْزَمُهُمْ حُجَّةُ اللَّهِ. وَإِلَّا مَا الْحَاجَةُ فِي تِلْكَ التَّجَارَةِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي يَتَجَرَّوْنَ فِيهَا؟ وَلَكِنْ مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا مُبَدَّلَ لِسُنَّتِهِ؛ إِذْ سُنَّتُهُ فِي الْمُكَذِّبِينَ الْإِهْلَاكُ، [وَفِي]^(١٠) الْمُصْذِقِينَ النِّجَاةُ. وَهَذِهِ سُنَّتُهُ، وَإِنْ أَمَكَّنْ تَعَجُّيلُهَا وَتَأْخِيرُهَا. فَأَمَّا سُنَّتُهُ فَهِيَ لَا تَبْدَلُ، وَلَا تَحْوُلُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] [وَقَوْلِهِ]^(١١): ﴿فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ مَا وَعَدَ، وَأَوْعَدَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدَلُ، وَلَا يَحْوُلُ؛ إِذْ وَعَدَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَلِلْكَافِرِينَ الْعَذَابَ. فَذَلِكَ لَا يَبْدُلُ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَشْهَد. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَصْلَحَتَهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِبْلَاج. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِتَبْلِيغِهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ الْقِيَامُ. (٩) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: بِتَبْلِيغِهِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال/ ٣١٦- أ/ بعضهم: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتَيْهِ﴾ وهي القرآن، لا يَبْدَلُ، ولا يَتَغَيَّرُ، ولا يُزَادُ، ولا يُنْقُصُ، كقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقال بعضهم: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتَيْهِ﴾ لِحُجُوجِهِ وَبَرَاهِينِهِ التي جعلَ لدينه، وأقامَ له. ذلك يَلْزِمُ الإسلامَ ودينَهُ إِلَّا مَنْ قَصَرَ عليه في العبادة، أو كانَ المَقَامُ عليه الحُجَّةَ مُعَانِداً مُكَابِراً. وأما مَنْ لم يكن [فيه] ^(١) هذانِ المَعْنَيَانِ يَسْلَمُ، لا مُحَالَةً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا﴾ هذا الخطابُ، وإن كانَ في الظاهرِ لرسولِ الله، فهو يُخْرِجُ مُخْرَجَ التَّنْبِيهِ على ما ذكرنا في غير آيةٍ مِنَ القرآن. وقوله تعالى: ﴿مَثَلًا﴾ قال بعضهم: مُذْخَلًا، ولذلك سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحْدًا لِمَا يَدْخُلُ فيه. وقال بعضهم: مَلْجَأً، والله أعلم.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ، فيكونُ فيه الأمرُ بالجلوسِ لهم بالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّاتِ لِلتَّذْكِيرِ وَتَعْلِيمِ الْعِلْمِ على ما تَعَارَفَ النَّاسُ الْجُلُوسَ لِلنَّاسِ لذلك في هذينِ الْوَقْتَيْنِ؛ إذ ذَانِكَ الْوَقْتَانِ خَالِيَانِ عَنِ الْأَشْغَالِ التي تَشْغَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ: الْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ لِمَا لم يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ صَلَاةً وكذلك بَعْدَ الْعَصْرِ لِلذِّكْرِ الذي ذَكَّرْنَا وَتَعْلِيمِ ما يَحْتَاجُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ.

أو أن يكونَ ذلك كِنَايَةً عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ لِمَا جاءَ لهما مِنْ فَضْلِ وَوَعْدٍ ^(٢) لم يَجِئْ في غيرهما مِنَ الصَّلواتِ نَحْوُ ما ذَكَرَ ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وأما ما رُوِيَ في الْعَصْرِ مِنَ الْوَعْدِ [فهو] ^(٣) «مَنْ فَاتَهُ الْعَصْرُ فَكَانَ مَاتَ أَمَلُهُ وَمَالُهُ» [مسلم ٢٠١/٦٢٦] ونَحْوُ أمرٍ يُصْبِرُ نَفْسَهُ على حِفْظِ هَذَيْنِ لِمَا ذَكَّرْنَا مَعَ ذِكْرِ.

أو أن يكونَ لا على إرادةِ غَدَاةٍ أَوْ عَشِيٍّ، ولكنْ بِالْكُونِ مَعَ اتِّبَاعِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَالصَّبْرُ مَعَهُمْ.

وقال أهلُ التَّأْوِيلِ: ذَكَرَ هَذَا لِأَنَّ رُؤْسَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ سَأَلُوهُ أَنْ يَظْهَرَ اتِّبَاعَهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَتَّخِذَ لَهُمْ مَجْلِسًا. فَتَزَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقالوا في قوله: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتَيْهِ﴾ نَزَلَ فِي أَصْحَابِ الْكَهْفِ. يَقُولُ: وَاخْبِرْهُمْ مَا سَأَلُوكَ مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ أَخْبَارِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَا تَزِدْ ^(٤)، وَلَا تُنْقِصْ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ فِي أَمْرِهِمْ نَزَلَ هَذَا فَرَسُولُ اللَّهِ كَانَ لَا يُخْبِرُهُمْ إِلَّا مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ. وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا ^(٥)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَدْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ قِيلَ: وَلَا تَتَعَدَّ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ. وَقِيلَ: لَا تُضَرِّفْ، وَلَا تَرْفَعْ عَيْنَيْكَ عَنْهُمْ [ولا] ^(٦) تُجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ﴿زُيْدُ زِينَةِ الدُّنْيَا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِنْ كَانَ عَلَى تَأْوِيلِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَهُمْ مَجْلِسًا دُونَ أَوْلَئِكَ فَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿زُيْدُ زِينَةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُ تَرِيدُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مِنْكَ مَجْلِسًا عَلَى حِدَةٍ، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ.

وَالثَّانِي: لَوْ فَعَلْتَ مَا سَأَلُوكَ كَانَ فَعْلُ ذَلِكَ فَعْلًا مَنْ يَرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْمَجْلِسَ الَّذِي يَخْضُرُهُ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤْسَاءُ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ تَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى قَوْلِنَا ظَاهِرٌ؛ نَحْنُ نَقُولُ عَلَى مَا نَطَقَ ظَاهِرُ الْآيَةِ: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيُ مَنْ خَلَقْنَا ظُلُمَةً الْكُفْرِ يَكْفُرُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، أَوْ خَدَلْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ الَّذِي فَعَلُوا.

(١) ساقطة من الأصل رم. (٢) الواو ساقطة من الأصل رم. (٣) ساقطة من الأصل رم. (٤) في الأصل وم: تزيد. (٥) من م، في الأصل: ذكر. (٦) ساقطة من الأصل رم.

وَأَمَّا الْمُعْتَرِلَةُ فَإِنَّهُمْ قَدْ تَحَيَّرُوا فِيهِ، وَتَاهُوا، وَكَثُرُوا التَّوِيلَاتُ فِيهِ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ صَرَفَ الْقِرَاءَةَ عَنْ وَجْهِهَا، فَقَالَ ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ﴾ أَغْفَلْنَا بِنَضْبِ اللَّامِ، وَقَالَ^(١): قَلْبُهُ يَرْفَعُ الْبَاءَ؛ مَعْنَاهُ: أَي مَنْ غَفَلَ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا، عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَرِلَةِ، عَلَى صَرْفِ الْفِعْلِ إِلَى الْقَلْبِ. وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٢) [الفرق: ٢] لِيَصِحَّ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، وَيُسْتَقِيمَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَي لَا تُطِيعْ مَنْ وَجَدْنَا قَلْبَهُ غَافِلًا، وَقَالَ: وَذَلِكَ مُسْتَقِيمٌ فِي اللُّغَةِ. يُقَالُ: [قَاتَلْنَاهُمْ فَمَا أَجَبْتَانَهُمْ]^(٣) أَي مَا وَجَدْنَاهُمْ جُبْنَاءَ، وَيُقَالُ: فَسَأَلْنَاهُمْ، فَمَا أَبْخَلْنَاهُمْ، أَي مَا وَجَدْنَاهُمْ بُخْلَاءَ، وَنَحْوُهُ مِنَ الْكَلَامِ، وَهُوَ تَأْوِيلُ الْجُبَانِيِّ فِي مَا أَظُنُّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أَي مَنْ خَلَيْنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَغْفُلُ [عنه]^(٤) وَهُوَ كَمَا يُقَالُ لِمَنْ خَلَى عَبْدَهُ حَتَّى أَفْسَدَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ؛ يُقَالُ: سَلَّطْتَ عَبْدَكَ عَلَى النَّاسِ، وَهُوَ لَمْ يُسَلِّطْهُ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّهُ يُقَالُ لَهُ لِمَا قَدَّرَ عَلَى مَنْعِهِ عَنْ ذَلِكَ وَالْحِيلُولَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا فَعَلَ، أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَيْهِ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَي خَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا فَعَلُوا، وَلَمْ نَمْنَعَهُمْ؛ وَهُوَ تَأْوِيلُ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى تَغْيِيرِهِ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي أَعْطَاهُمْ مِنَ السَّعَةِ وَالْغِنَى وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا. فَتِلْكَ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ هِيَ الَّتِي حَمَلَتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَأُضِيفَ إِلَيْهِ ذَلِكَ لِذَلِكَ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وَهُوَ تَأْوِيلُ أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أَي خَذَلْنَاهُمْ، وَطَبَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ لِلْكَافِرِ حَذًّا، إِذَا بَلَغَ [الكافر]^(٥) ذَلِكَ الْحَذَّ يَحْذُلُهُ، وَيَطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يُؤْمِنُ أَبَدًا، فَيُقَالُ: خَذَلَهُ فِي أَوَّلِ حَالِ كُفْرِهِ، فَهُوَ قَوْلُنَا. وَإِنْ قَالَ لَا فِي أَوَّلِ حَالِهِ، وَلَكِنْ بَعْدَ زَمَانٍ، فَهُوَ كَافِرٌ مُرَفَّقٌ^(٦) وَمُؤْمِنٌ مَخْذُولٌ عَلَى قَوْلِهِ. فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِمَّا قَالُوا.

ثُمَّ الْجَوَابُ لِلأَوَّلِ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ صَرْفِ التَّنْزِيلِ عَنْ وَجْهِهِ وَظَاهِرِهِ. فَلَوْ جَارَ لَهُمْ ذَلِكَ [جَارًا]^(٧) لَيَغْيِرَهُمْ صَرْفُ جَمِيعِ الْآيَاتِ عَنْ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ، وَذَلِكَ بَعِيدٌ مُحَالٌ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ الْجُبَانِيِّ: أَي وَجَدْنَاهُمْ كَذَا، فَإِنَّمَا يَسُوعُ لَهُ هَذَا إِذَا كَانَ جَمِيعُ حُرُوفِ أَفْعَلٍ يُخَرِّجُ عَلَى مَا يَقُولُهُ فِي اللُّغَةِ. فَأَمَّا أَنْ يُقَالَ فِي بَعْضٍ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ.

وَبَعْدُ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا ذَكَرَ لَكَانَ يَقُولُ: وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْتَهُ عَنْ ذِكْرِنَا، أَي وَجَدْتُهُ غَافِلًا عَنْ ذِكْرِنَا، لِأَنَّهُ نَهَى عَنْ أَنْ يُطِيعَ مَنْ وَجَدَهُ غَافِلًا. فَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَنْ [وَجَدَهُ اللَّهُ غَافِلًا. إِنَّمَا يَعْلَمُ مَنْ]^(٨) وَجَدَهُ^(٩) بِنَفْسِهِ غَافِلًا.

فَأَمَّا إِذَا ذَكَّرْنَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّهْيِ عَمَّا ذَكَرَ مَعْنَى. فَذَلِكَ أَنْ تَأْوِيلُهُ فَاسِدٌ وَخَبَالٌ، وَأَنْ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ لِمَعْنَى يَكُونُ مِنَ اللَّهِ.

وَأَمَّا جَوَابُ تَأْوِيلِ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ أَنَّهُ عَلَى التَّخْلِيلِ وَالتَّسْلِيلِ فَهُوَ إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ قَالَ: سَلَّطْتَ عَبْدَكَ عَلَى كَذَا عَلَى الذَّمِّ لَا عَلَى الْمَدْحِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِي اللَّهِ عَلَى الذَّمِّ، وَيُضَافُ إِلَيْهِ أَيْضًا ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِأَبِي بَكْرٍ حِينَ^(١١) قَالَ: إِنَّمَا أَضَافَ ذَلِكَ إِلَيْهِ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ؛ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ، وَيُضَافُ عَلَى الذَّمِّ: إِنَّكَ أَغْطَيْتَ كَذَا حَتَّى فَعَلَ كَذَا. فَأَمَّا أَنْ يُقَالَ عَلَى الْمَدْحِ فَلَا. فَيَبْطُلُ قَوْلُهُ وَتَأْوِيلُهُ.

فَذَلِكَ إِضَافَةُ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ مَعْنَى تَسْتَقِيمُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ. وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ خَلْقِ الظُّلَمَةِ فِي قُلُوبِهِمْ بِكُفْرِهِمْ الَّذِي اخْتَارُوا وَخَذَلُوا بِهِ إِيَّاهُمْ لِمَا اخْتَارُوا، وَأَثَرُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَاذِبٌ كَذِبٌ﴾ [قَوْلًا] أَي ضَيَاعًا وَهَلَاكًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿قَوْلًا﴾ أَي خُسْرَانًا وَخَسَارًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ٣/ ٣٦١. (٢) مِنْ شَرِّ مَا خُلِقَ بِالتَّنْوِينِ وَالتَّجْنِيسِ لِلْمَجْهُولِ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ٨/ ٢٧٧. (٣) فِي الْأَصْلِ: فَاتَيْنَاهُمْ فَمَا أَوْجَبْنَاهُمْ، فِي م: قَاتَلْنَاهُمْ فَمَا أَوْجَبْنَاهُمْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مُوَفَّقٌ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَدَهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يُقَالُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقال أبو عوسجة ﴿فُرطاً﴾ هو من التفريط. وقال غيره: ﴿فُرطاً﴾^(١) في القول ليس كما قال: إنا رؤوس من مضر إن تسلم يسلم الناس بعدنا على ما ذكر في بعض القصص. وقال أبو عبيدة^(٢): ﴿فُرطاً﴾ أي ندماً.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كأنه على الإضمار، أي قل قد جئتكم بالحق من ربكم. أو يقول: قل لهم: قد تعلمون أني قد جئتكم من الآيات والحجج على ما أذعوكم إليه ما لا تخشع بئني^(٣)، ويخرج عن وسعي وطاقتي. وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ يخشع^(٤) هذا وجوهاً:

أحدها: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ إنما يعمل لنفسه، ليس يعمل لأحد سواه، كقوله^(٥): ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله: ٣١٦ - ب/ ﴿إِن أَحْسَنْتَ حَسَنَةً لِأَنْفِكَ﴾ الآية [الإسراء: ٧] فعلى ذلك يقول، والله أعلم.

والثاني: يقول: إني بلغت الرسالة إليكم، فلا أكرهكم أنا على الإسلام، ولا أحد سواي ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ ﴿فَمَنْ آمَنَ فَإِنَّمَا يُوْمِنُ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيتِهِ. وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّمَا يُكْفِرُ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيتِهِ لَا يُكْرَهُ عَلَى ذَلِكَ.

والثالث: أن الإيمان والكفر قد بين الله لهما العواقب: [عاقبة من اختار الإيمان؟] و[عاقبة من اختار الكفر؟] وهو ما قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْفَالِغِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ إلى آخر ما ذكر.

وقال للمؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ الآية [الكهف: ٣٠ و ٣١] يقول: قد بين لكل واحد منهما عاقبته. فمن شاء اكتسب لنفسه في العاقبة الجنان وما فيها من النعيم، ومن شاء اكتسب ما ذكر في العاقبة من النار وأنواع العذاب. فذلك كله يخرج على الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْفَالِغِينَ﴾ وقت دخولهم النار ﴿نَارًا﴾ وهو في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ يخشع هذا وجهين:

أحدهما: على إرادة حقيقة السرادق.

والثاني: على التمثيل، أي تحيط بهم النار فلا يقدرون على الخروج منها على ما يمنع السرادق من الخروج في الدنيا ودفع الحر والبرد.

فإن كان على حقيقة السرادق فهو، والله أعلم، على ما جعل الله لهم من أنواع ما كانوا يتفاحرون في الدنيا به من اللباس والطعام والشراب وغير ذلك يجعل لهم [الطعام]^(٨) في الآخرة من ذلك النوع من النار، وهو ما ذكر ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِن قُطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وما قال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن صَرِيرٍ﴾ [الغاشية: ٦] والشراب ما ذكر ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّكَدَرٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] و﴿مِنْ غُلِيلٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وغير ذلك من النوع الذي كانوا يتفاحرون به في الدنيا، ويمنعهم عن الإيمان، جعل لهم في الآخرة من ذلك النوع من النار، وبويعابهم. فعلى ذلك جائز أن يكونوا يتفاحرون به في الدنيا بالسرادق، إذا خرجوا في السفر، فيعاقبهم الله في النار بذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَفِضُوا يَفَاقُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ تخشع استغاثتهم^(٩) ما ذكر في الآية ﴿أَن يَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] فيغاثون ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وتخشع أن يظلبوا في النار الماء بعد ما طعموا فيها منها. فيغاثون بالمهل.

ثم المهل: قال عامتهم: المهل هو دودي الزيت أو العكر^(١٠). لكنهم اختلفوا في معنى التشبيه به: قال بعضهم: شبهه به لغلظه، لأن الشيء الغليظ يكون الصق وأخذ من غيره. وقال بعضهم: شبهه به لساوئه.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: عبيد. (٣) في الأصل وم: بلتي. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٥) من م، في الأصل: بقوله. (٦) في الأصل وم: إنما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: العصير.

وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرٍ: تَشْبِيهُهُ بِهِ لِكَثْرَةِ تَلَوْنِهِ مِنَ الْحُمْرَةِ وَالصُّفْرِ وَالسَّوَادِ وَنَحْوِهِ لِشِدَّتِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ النَّفْسُ كَالْهَلِيلِ﴾ [المعارج: ٨] لِتَلَوْنِهِ لِشِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَوْلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ الْوَجُوهُ بِنَسِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي ساءت النارُ مُرْتَفَقًا. اِخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُجْتَمَعُ، أَيْ بِنَسِ الْإِجْتِمَاعِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَجْلِسًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِنَسِ الْمَنْزِلِ النَّارِ، قُرْنَاؤُهُمْ فِيهَا الْكُفَارُ وَالشَّيَاطِينُ.

الآية ٣٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَذْنٍ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

وقال بعضهم: لَيْسَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَلَكِنْ مَا ذَكَرَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ مِنْهُمْ. ثُمَّ بَيَّنَّ مَا لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَذْنٍ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الشَّرَادِقُ الْبِنَاءُ الَّذِي يُبْنَى مِنَ الْكِرْبَاسِ^(١) شِبْهُ الدَّارِ وَالْحُجْرَةِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أَيْ مُتَكِّيًا وَمَنْزِلًا. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الشَّرَادِقُ الْحُجْرَةُ الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ الْفُسْطَاطِ، قَالَ: وَهُوَ الدُّخَانُ يُحِيطُ بِالْكَفَارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الظِّلُّ ﴿ذِي تِلْكَ شَمْرٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وَالْمُهْلُ دُرْدِيُّ الزَّيْتِ، وَيُقَالُ: مَا أَذِيبَ مِنَ الشَّحَاسِ وَالرَّصَاصِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أَيْ مَجْلِسًا. وَأَصْلُ الْإِزْتِقَاقِ الْإِتْكَاءُ عَلَى الْمِرْقَفِ.

الآية ٣١ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَذْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِدَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يَذْكُرُ ثَوَابَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَرَكُوا شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا لَهَا ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ قَالُوا: الْإِسْتَبْرَقُ الدِّيَابُجُ الْغَلِيظُ، وَالسُّنْدُسُ هُوَ الرِّقِيُّ، وَالْغَلِيظُ مِنْهُ لَا يُلْبَسُ. لَكِنَّهُ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ مَا يُلْبَسُ وَبَيْنَ مَا يُبْسَطُ، فَذَكَرَ اللَّبْسَ كَمَا يُقَالُ: أَطْعَمْتُ فَلَانًا طَعَامًا وَشَرَبَا، وَالشَّرَابُ لَا يُطْعَمُ. وَقِيلَ: إِنَّ الْإِسْتَبْرَقَ، هُوَ الرِّقِيُّ مِنَ الدِّيَابِجِ بِلُغَةِ قَوْمٍ. فَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرَ فَكَأَنَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِأُولَئِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَرَائِكُ الشَّرُرُ فِي الْحِجَالِ، وَالْأَرِيكَةُ السَّرِيرُ فِي الْحَجَلَةِ. وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَرَائِكُ الشَّرُرُ عَلَيْهَا حِجَالٌ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْأَرَائِكُ [جَمْعُ الْأَرِيكَةِ، وَهِيَ^(٢)] الْوِسَادَةُ ﴿وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قِيلَ: مَنْزِلًا.

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّهُ وَعَدَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَا كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ تَرْغَبُ فِيهِ فِي الدُّنْيَا لِيَتْرَكُوا ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا لِلْمَوْعُودِ فِي الْآخِرَةِ. وَكَذَلِكَ حَذَّرَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَشْيَاءَ تَنْفَرُ [مِنْهَا]^(٣) أَنْفُسُهُمْ وَطِبَاعُهُمْ فِي الدُّنْيَا لِيَحْذَرُوا مَا يَسْتَوْجِبُونَ الْمَوْعُودَ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ لَهُمْ مَثَلًا زَكَاةٍ جَلَلًا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَثَلُ، كَانَ فِي الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَكُتُبِهِمْ.

سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ، وَلِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا يَدْعُو^(٤) عَلَى مَا سُئِلَ هُوَ عَنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَنَبِيِّهِ وَأَنْبَاءِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَأَخْبَارِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُ، إِذْ عَلِمُوا أَنَّ تِلْكَ الْأَنْبَاءَ وَالْقِصَصَ لَا تُعْلَمُ، وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا مَنْ عَلِمَ كِتَابَ اللَّهِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ اللَّهِ، وَهُوَ لَمْ يَعْرِفْ تِلْكَ الْكُتُبَ لِأَنَّهُ كَانَتْ بِغَيْرِ لِسَانِهِ، وَلَمْ [يُرْأَ أَنَّهُ]^(٥) اِخْتَلَفَ إِلَى مَنْ يَعْرِفُهَا لِيَتَعْلَمَ مِنْهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: الْكَبْرِيسُ، فِي م، الْكَبْرِيسُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَدْعُو. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرُودُ.

ثم أنبأهم على ما كان في كُتُبِهِمْ. فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ^(١) إِنَّمَا عَرَفَ بِاللَّهِ وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِي مَا يَدْعُو^(٢) مِنَ الرِّسَالَةِ. على هذا يجوز أن يُقال، والله أعلم، فيكون في ذلك آية لِرِسَالَتِهِ وَتُبُوتِهِ. أو أن يكون قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلى آخره أي اضرب لِلْمُعْتَبِرِينَ وَالْمُتَوَسِّمِينَ مَثَلِ رَجُلَيْنِ، هذا سبيلُهُمَا؛ يَرْغَبُ أَحَدُهُمَا فِي الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَيُظَلِّبُهَا، لَا يَرَى غَيْرَهَا. وَالْآخَرُ يَرْغَبُ فِي الزَّهْدِ فِيهَا وَتَرْكِ الطَّلَبِ لَهَا، وَيَرْغَبُ^(٣) فِي الْآخِرَةِ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا أَوْ مَا ذَكَرْنَا مِنْ ضَرْبٍ مِثْلِهِ وَمَثَلِ أَوْلَئِكَ فَهُوَ عَلَى الْإِنْبَاءِ، فَيُخْرِجُ عَلَى الْإِغْتِيَارِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَا ذَكَرَ تَنْبِيهًا وَإِقَاطًا. وَإِنْ كَانَ عَلَى السُّؤَالِ عَمَّا كَانَ فَهُوَ لَيْسَ عَلَى الْإِغْتِيَارِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِنْبَاءِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ آيَةُ لِرِسَالَتِهِ وَتُبُوتِهِ.

ثم قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أَي بَيْنَ الْجَنَّتَيْنِ.

الآية ٣٣ [وقوله تعالى]: ﴿كُنَّا لِنَنْتَبِهَنَّ إِنَّا أَكَلْنَاهَا﴾ أَي حَمَلْنَاهَا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا أَكَلْنَاهَا، خَرَجَهُ^(٤) عَلَى اسْمِ وَاحِدٍ، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْنَى عَلَى التَّثْنِيَةِ. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِكَ: كُنَّا الْمَرْأَتَيْنِ صَالِحَةً / ٣١٧-١/ وَكُنَّا صَالِحًا، وَفِيهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ.

كِلَانَا شَاعِرٌ مِنْ حَيٍّ صَدِيقٍ وَلَكِنْ الرَّحَى تَنَلُّو التُّفَالَا

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظَلِرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي لَمْ تُنْقِصْ مِنْ ثَمَرِهَا شَيْئًا.

وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ أَي أَجْرَيْنَا بَيْنَهُمَا مِيَاهًا جَارِيَةً.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿وَكَاكَ لَمْ نَمُرْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ ثَمَرًا^(٥) بِالرَّفْعِ فَهُوَ كُلُّ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنَ الْجِنَانِ وَغَيْرِهَا.

وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ فَهُوَ عَلَى الثَّمَرِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الثَّمَرُ بِالنَّصْبِ هُوَ^(٦) الثَّمَرُ، وَالثَّمَرُ بِالرَّفْعِ هُوَ^(٧) جَمِيعُ الثَّمَارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يُكَلِّمُهُ، أَوْ يُجِيبُهُ، أَوْ يُنَازِعُهُ، وَيُنَازِرُهُ ﴿إِنَّا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخُطَابُ مِنْهُ عَلَى الْإِنْبَاءِ، فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ صَاحِبِهِ لَهُ وَعِيدٌ وَتَخْوِيفٌ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ مَا ذَكَرَ. أَوْ أَنْ يَكُونَ قَالَ: يُغْثِيَنِي رَبِّي فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ خَيْرًا مِنْهَا. فَقَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أَي قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا، وَفَضَّلَنِي عَلَيْكَ، فَيَفْضُلُنِي أَيْضًا فِي الْآخِرَةِ عَلَيْكَ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] أَي [إِنْ]^(٩) كَانَ مَا تَزْعُمُ صِدْقًا أَنَا نُبَعْتُ، وَنُرَدُّ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَّا عَلَى الْإِنْبَاءِ لَا يَصِحُّ.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَي ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿لِنَفْسِهِ﴾ بَدَنَهُ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ﴾ الْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ فِي النَّفْسِ^(١٠)؛ يَسْتَعْمِلُهَا فِي مَا يُسْتَعْمَلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا أَطُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ ﴿مَا أَطُنُّ﴾ أَي مَا أَوْقِنُ^(١١)، وَمَا أَعْلَمُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الظَّنُّ لِأَنَّهُ صَاحِبُهُ كَانَ يُنَازِرُهُ فِيهِ، فَاضْطَرَبَ فِي قَنَائِهَا وَقِيَامِ السَّاعَةِ، فَشَكَّ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ مَا دَامَتْ نَفْسُهُ، أَوْ كَانَهُ لَمْ يُشَاهِدِ الْهَلَكَ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَقَالَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. **الآية ٣٦** وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ لَأَكِيدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أَي لَوْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي عَلَى مَا تَزْعُمُ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: والرغبة. (٣) في الأصل وم: والرغبة. (٤) في الأصل وم: خرج. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٣/ ٣٦٣. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج بعدها في م: به. (١١) في الأصل وم: أوفق.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ سَأِجِبْهُ وَهُوَ مُخَوِّدٌ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أي صَحَّحَكَ وَتَوَمَّكَ رَجُلًا.

جائز أن تكون مُحَاجَّتُهُ إِيَّاهُ في هذه لإنكارِهِ الْبَعْثِ؛ أي أَكْفَرْتَ، وأنكَرْتَ قدرةَ الله على الْبَعْثِ والإِعادَةِ، وهو خَلَقَ أَصْلَكَ مِنْ تُرَابٍ، وَخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ؟ فانت إذا مِتَّ، وَهَلَكْتَ، تَصِيرُ تَرَابًا أو ماءً. فإذا قَدَّرَ على خَلْقِ أَصْلِكَ مِنْ تُرَابٍ وَخَلْقِ نَفْسِكَ مِنْ ماءٍ [فهو قادرٌ] ^(١) على إِعادَتِكَ وَبَعْثِكَ بَعْدَ ما صِرْتَ تَرَابًا أو ماءً.

أو تكون مُحَاجَّتُهُ في إنكارِ حِكْمَةِ الله، فيقول: خَلَقَ أَصْلَكَ مِنْ تُرَابٍ، وَخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم سَوَّاكَ، وَصَحَّحَكَ. فإذا لم يَبْعَثْكَ، وَيُعْذِّكَ ^(٢)، كَانَ [خَلَقَ أَصْلَكَ وَخَلَقَكَ] ^(٣) بِما ذَكَرَ عَبَثًا غَيْرَ حِكْمَةٍ؛ إذْ مَنْ بَنَى بِناءً ثم نَقَضَهُ على غَيْرِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ كَانَ في بِنَائِهِ في الْإِبْتِدَاءِ عَابَثًا تَائِهًا سَفِيهاً غَيْرَ حَكِيمٍ. فَعَلَى ذَلِكَ خَلْقُكَ وَخَلْقُ أَصْلِكَ مِنْ غَيْرِ إِعادَةِ مِنْ بَعْدِ [مَوْتِكَ يَكُونُ سَفْهًا] ^(٤) على غَيْرِ حِكْمَةٍ. وهو ما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الآية [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ على غَيْرِ رجوعٍ إِلَيْهِ عَبَثًا.

أو تكون مُحَاجَّتُهُ في تَسْفِيهِهِ إِيَّاهُ في عِبَادَتِهِ غَيْرَ الله؛ يقول: أَكْفَرْتَ نَعَمْ ^(٥) الذي خَلَقَ أَصْلَكَ مِنْ تُرَابٍ، وَخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم سَوَّاكَ صَحيحاً، فَصَرَفْتَ نِعْمَةَ إِلَى غَيْرِهِ، وَعَبَدْتَ غَيْرَهُ.

على هذه الوجوه الثلاثة تَحْتَمِلُ ^(٦) مُحَاجَّتُهُ إِيَّاهُ؛ إمَّا في إنكارِ قُدْرَتِهِ على ^(٧) بَعْثِهِ وإِعادَتِهِ [وإمَّا في إنكارِهِ الْحِكْمَةَ في الْبَعْثِ وإمَّا في] ^(٨) إنكارِهِ نِعْمَةَ وَصَرَفِهِ الشُّكْرَ إِلَى غَيْرِهِ، والله أَعْلَمُ.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ كَانَهُ قَالَ: لَكُنَّ الذي خَلَقَ أَصْلَكَ مِنْ تُرَابٍ، وَخَلَقَ نَفْسَكَ ^(٩) مِنْ نُطْفَةٍ هو رَبِّي ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. وقال الخليل: لَكُنَّا: إِنما هو على تَأْوِيلٍ لَكُنِّي أَنَا أقول: هو الله رَبِّي كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخْلُوكَ﴾ [يوسف: ٦٩] إِنَّهُمْ حِينَ الْفَوْا الْأَلْفَ مِنْ أَنَا أَثْبَتُهَا بَعْدَ النُّونِ، والله أَعْلَمُ.

الآية ٣٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [أي هَلَّا إِذَا دَخَلْتَ جَنَّتَكَ] ^(١٠) نَظَرْتُ إلى ما أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ، وَفُتِمَتْ بِشُكْرِهِ دُونَ أَنْ اسْتَنْغَلْتَ [بِمَا رَزَقْتَهُ، وَنَظَرْتُ إلى قِلَّةِ ذَاتِ حَالِي وَيدِي، وَاسْتَنْغَلْتُ] ^(١١) بِالْإِفْتِخَارِ عَلَيَّ؟

وكذلك قال [في قوله]: ^(١٢) ﴿إِنْ تَرَوُنَّ أَنَّ أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا﴾

الآية ٤٠

ثم ذَكَرَ طَمَعَهُ وَرَجَاءَهُ على رَبِّهِ وَخَوْفَهُ حِينَ ^(١٣) قَالَ: ﴿فَقَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ^(١٤) يُرْسِلَ على جَنَّتِكَ حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ.

قال أهلُ التَّأْوِيلِ: الْحُسْبَانُ الْعَذَابُ. إِلَّا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْأَصَمَّ قَالَ: عَذَابًا على حَسَابٍ ما عَمِلُوا؛ وَذَلِكَ جَزَاؤُهُ في الْكَفَرَةِ، وهو ما ذَكَرَ في الْجَنَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَهْلَكَهُمَا حِينَ ^(١٥) قَالَ: ﴿ذَوَاتِ أَكْثَلٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾ الآية [سبا: ١٦ و ١٧]

وقال أبو عوسَجَةَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عَذَابًا، وَالْحُسْبَانُ الصَّغَارُ مِنَ النَّبْلِ، وَالْحُسْبَانَةُ وَاجِدُهَا ^(١٦)، وَالْحُسْبَانُ جَمْعُ، وَالْأَوَّلُ الْعَذَابُ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَصَيِّحُ صَيْدًا رَلَقًا﴾ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿صَيْدًا رَلَقًا﴾ الذي لَيْسَ عَلَيْهِ نَبْتُ، وَ ﴿رَلَقًا﴾ أي مُسْتَوِيًا ^(١٧). وقال الْقُتَيْبِيُّ: الصَّيْدُ الْأَمْلَسُ الْمُسْتَوِي، وَالرَّلَقُ الذي تَرُلُّ عَنْهُ الْأَقْدَامُ.

(١) في الأصل وم: لقادر. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: و. (٣) في م: خلقت وخلق أصلك. (٤) في الأصل وم: يكون سفيهاً. (٥) في الأصل وم: نعمه. (٦) في الأصل وم: وتحتمل. (٧) في الأصل وم: في. (٨) من م، في الأصل: أو. (٩) في الأصل وم: أصلك. (١٠) ساقطة من م. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: واحدة. (١٧) في الأصل وم: تسوية.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿أَزْ يُصْبِحُ مَآءًا غَوْرًا﴾ هذا يُخْرِجُ على وجهين.

أحدهما: يقول: ﴿وَرِيْسِلَ عَلَيْنَا حِسَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذاباً، فتصير صعيداً زلِقاً املَسَ.

والثاني^(١): يذمب بمانها، فتَهْلِكُ بذهاب الماء؛ إذ هلاك البساتين يكون بذهاب الماء مرة وبالعذاب النازل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ مَلَبًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ مَلَبًا﴾ أي تصير بحال لا تستطیع له طلباً.

والثاني^(٢): لن تستطیع له وجوداً.

وقال في قوله: ﴿إِن تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ بالنصب^(٣)، لأن الكلام منيبي على قوله: ﴿إِن تَرَىٰ﴾ وجعل ﴿أَنَا﴾

صلة. وأما قوله ﴿أَنَا أَكْثَرُ﴾ [الكهف: ٣٤] فوصف ﴿أَنَا﴾ أكثر، فازنق.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي أهلك بشمره ﴿فَأَصْبَحَ يَبَيبُ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ﴾ هكذا كانت عادة الناس

أنهم إذا أصابهم خسران أو مصيبة يقبلون أكفهم بغضها^(٤) على بغض على الندم والحسرة على ما فات.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَاقِبَتِهِ عَلَىٰ عُرُوشِهِمَا﴾ قيل: ساقطة على عروشها. ويَحْتَمِلُ خاوية: ذاهبة بركتها^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَلْتَفِتُنَّ لِأَشْرِكٍ لِّدِينِهِمْ﴾ إن كان هذا القول في الدنيا فذلك منه توبة، لأن التوبة، هي التدامة على ما

كان منه. وقال بعضهم: هذا القول منه في الآخرة، فإن كان في الآخرة فإنه لا ينفعه ذلك، والله أعلم. وهكذا كل كافر يؤمن في الآخرة [لا ينفعه ذلك]^(٦).

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ هذا، والله أعلم، مقابل ما قال: ﴿أَنَا

أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] أي لم يُغْنِهِ عن عذاب الله ما ذكر من النضر، ولا قدر أن يقوم بنفسه منتصراً بالمال الذي ذكر.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ قال بعضهم: عند ذلك، وقال بعضهم: أي ههنا ولاية الله. ثم

اختلف في تلاوته وتأويله.

قرأ بعضهم ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ﴾ بالفتح. كذلك ذكر في حرف ابن مسعود: هنالك الولاية لله الغفور وهو الحق بالرفع، وفي

حرف حفصة: وهنالك الملك والولاية لله الغفور ذي الرحمة.

وقرأ بعضهم: الولاية ﴿لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [بالكسر، أي الملك لله الحق]^(٧). والولاية بالنصب من الموالاة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لا ينبغي أحد إلا تولى الله، وآمن به، وعلم أنه حق، والولاية بالكسر من الإمارة والملك على

ما ذكر في حرف حفصة.

وفي حرف أبي: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [أي الولاية لله]^(٨) ٣١٧ - ب/ وهو الحق. وقرأ ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾

بالخفص. وقرأ ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾^(٩) الله.

وذكر هذا المثل لرسول الله، والله أعلم، لأن فيه دلالة رسالته وحجة توحيد الله وقدرته وسلطانيته.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي ثواب هذا المؤمن منها أفضل ثواباً في الآخرة وأفضل عاقبة من عقبى ذلك

الكافر.

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) وقرأها عيسى بن عمر بالضم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣١٧. (٤) في الأصل وم: بعضهم. (٥) في الأصل وم: البركة. (٦) في الأصل وم: لكن لا ينفع. (٧) في الأصل وم: أي الولاية الحق لله. انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٦٩. ثم انظر الحاشية (٧) المتعلقة بالآية ٧٢ من سورة الأنفال ج ٤/ ١٠٢. (٨) في الأصل وم: بقرأ الولاية لله. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/ ٣٧٠.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] يَغْنِي لَأَهْلِ مَكَّةَ ﴿مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ أَخَوَيْنِ^(١) مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: أَحَدُهُمَا مُسْلِمٌ، وَالْآخَرُ كَافِرٌ، وَهُمَا الرَّجُلَانِ اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ: ﴿قَالَ قَائِلٌ لِمَنْ هُنَّ إِنِّي كَأَن لِي فَرِيقٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَطَاعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْمَجِيرِ﴾ [الآيات: ٥١ - ٥٥] تَصَدَّقَ الْمُسْلِمُ مِنْهُمَا بِمَالِهِ [وَطَلَبَ الْآخِرَةَ]^(٢) وَطَلَبَ الْآخَرَ بِالدُّنْيَا.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ: كَانَ^(٤) أَخَوَيْنِ، وَرِثَا عَنْ أَبِيهِمَا مَالًا، فَاقْتَسَمَاهُ. فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَالْتَمَسَ^(٥) بِمَالِهِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَتَصَدَّقَ^(٦) بِهِ، وَطَلَبَ الْآخِرَةَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ هَوَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا لَخَيْرَةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا أَنَّرَلْنَاهُ مِنْ آسْمَاءَ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي ضَرْبِ هَذَا الْمَثَلِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ضَرْبَ هَذَا لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ لِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ فَنَاءَ الدُّنْيَا وَهَلَاكَهَا لِأَنَّهُ لَا تَبِيدُ أَبَدًا، فَيَقُولُ: إِنَّ الَّذِي يُعَايِنُونَ مِنْ [فَنَائِهَا مَا]^(٧) ذَكَرَ مِنَ النَّبَاتِ وَغَيْرِهِ، وَهَلَاكُهُ هُوَ جُزْءٌ مِنْهَا. فَإِذَا اخْتَمَلَ جُزْءٌ مِنْهَا الْفَنَاءَ وَالْهَلَاكَ فَعَلَى ذَلِكَ الْكُلُّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَجْهُ ضَرْبِ هَذَا الْمَثَلِ هُوَ^(٨) أَنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا وَطَلَبَهَا إِذَا ظَفَرُوا بِالدُّنْيَا وَطَمِعُوا بِالْإِنْتِفَاعِ بِهَا وَالِاسْتِمْتَاعِ بِهَا كَمَا طَمِعَ الزَّرَّاعُ بِالظَّفَرِ بِذَلِكَ الزَّرْعِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ بِالزَّرْعِ وَالْوُصُولِ إِلَى مَقْصُودِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ الدُّنْيَا يُحَالُ بَيْنَ أَهْلِهَا وَطَالِبِيهَا وَيَتَنَاهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَجْهُ ضَرْبِ مَثَلِ الدُّنْيَا بِمَا ذَكَرَ مِنَ النَّبَاتِ لِلتَّزْيِينِ وَالتَّخْيِينِ لِأَهْلِهَا كَالنَّبَاتِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ يُعْجَبُ^(٩) أَهْلُهَا، وَتَتَزَيَّنُّ لَهُمْ، ثُمَّ يَفْسُدُ، وَيَصِيرُ مَوْفًا. فَعَلَى ذَلِكَ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿كَثَلٌ غَيْثٌ أَغْبَبَ الْكَفَّارَ بَنَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠] هَكَذَا، وَمَا فِيهَا، كُلُّهُ مَشُوبٌ بِالْآفَاتِ وَالْفُسَادِ.

وَفِي هَذَا الْمَثَلِ وَجُوهٌ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالذَّلَالَةِ:

أَحَدُهَا: الْعَظَمَةُ وَالِاغْتِيَارُ لِلْمُتَفَكِّرِينَ وَالْمُعْتَبِرِينَ، وَالْحُجَّةُ عَلَى الْمَعَانِدِينَ وَالْمُكَابِرِينَ فِي إِنْكَارِهِمْ إِحْدَاثَ الْعَالَمِ وَمُخْدِنَهَا وَإِنْكَارِهِمْ فَنَاءَ الْعَالَمِ وَإِنْكَارِهِمْ الْبَعْثَ. أَمَّا إِحْدَاثُ الْعَالَمِ لَمَّا عَايَنُوا حَدُوثَ أَشْيَاءَ مِنْهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ. فَعَلَى ذَلِكَ الْكُلُّ. وَأَرَاهُمْ أَيْضًا فَنَاءَ أَشْيَاءَ مِنْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ. ثُمَّ حَدَثَ مِثْلُهَا. فَإِذَا ظَهَرَ هَذَا فِي بَعْضِ مِنْهَا فَكَذَلِكَ الْكُلُّ. فَإِذَا ظَهَرَ حَدُوثُهُ وَفَنَائُهُ لَا بُدَّ مِنْ قَاصِدٍ يُخْدِنُهَا.

وَالثَّانِي^(١٠): دَلَالَةُ الْبَعْثِ بِمَا أَرَاهُمْ تَجَدُّدَ وَإِحْدَاثَ^(١١) هَذِهِ الْأَنْزَالِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهَا وَالْعَوْدَ عَلَى مَا كَانَ بَعْدَ فَنَائِهَا. فَعَلَى ذَلِكَ إِعَادَةُ الْعَالَمِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ فِي إِنْشَاءِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ. وَذَلِكَ أَوَّلَى بِالْإِعَادَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ إِذْ هُمْ الْمَقْصُودُونَ فِي خَلْقِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

وَبَعْدَ فَإِنَّهُمْ قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَلْقَ الشَّيْءِ وَفَنَاءَهُ لِلْهَلَاكِ خَاصَّةً مِنْ غَيْرِ مَقْصُودٍ وَعَاقِبَةٍ عَبَثٍ، لَيْسَ بِحِكْمَةٍ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْثٌ وَلَا إِعَادَةٌ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِ إِيَّاهُمْ حِكْمَةٌ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ خَلْقُهُ لِلْفَنَاءِ وَالْهَلَاكِ خَاصَّةً.

وَالثَّلَاثُ^(١٢): فِي قَوْلِهِ ﴿كَلَّمَ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ آسْمَاءَ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ وَتَدْبِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَخْتَلِطُ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ. وَالْمَاءُ مِنْ طَبْعِهِ إِفْسَادُ النَّبَاتِ إِذَا اخْتَلَطَ بِهِ. فَإِذَا لَمْ يُفْسِدْهُ^(١٣) أَحْيَاةُ الْإِحْتِلَاطِ. دَلَّ أَنَّ فِي الْمَاءِ مَعْنًى، بِوَيْحَا النَّبَاتِ، لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ غَيْرُهُ. دَلَّ أَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: آخَرَيْنِ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٥) وَالْأَوَّلُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ: فَنَائِهَا، فِي م: فَنَاءَ مَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَحْبِبُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَحَدَّثَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَفْسُدُ وَلَكِنْ.

والتدبير هو ما جعل منافع السماء مُتَّصِلَةً بِمَنَافِعِ الْأَرْضِ مَعَ بُعْدِ مَا بَيْنَهُمَا. دَلَّ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِوَاحِدٍ عَلِيمٍ مُدَبِّرٍ قَادِرٍ بِذَاتِهِ، وَأَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِحْدَاثِ وَالْإِفْنَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ وَالْبَعْثِ، وَاللَّهُ الْمُؤَقِّتُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ قيل: كسيراً مكسوراً ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ هو مُفْتَعِلٌ مِنَ افْتَدَرَ^(١).

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ كَانَ هَذَا ذِكْرًا عَلَى مَقْصُودِ النَّاسِ أَنَّ مَنْ كَانَ قَصْدُهُ فِي الدُّنْيَا كَثْرَةُ الْمَالِ وَالْبَنِينَ فَهُوَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْفَانِي وَالذَّاهِبُ عَلَى مَا ذَكَرَ. وَمَنْ كَانَ مَقْصُودُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْخَيْرَاتِ وَالْآخِرَةِ فَهُوَ ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أَبَدًا.

ثم اختلف في ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَوْلُهُ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾^(٢): «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٣) قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» [أحمد ٧٥/٣] وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ، قَالُوا: مِنْ عَدُوِّ حَضَرْنَا؟ قَالَ: خُذُوا جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُنَّ الْمُقَدَّمَاتُ وَالْمُؤَخَّرَاتُ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» [النسائي في الكبرى ١٠٦٨٤].

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: «خُذْهُنَّ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ فَإِنَّهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهِنَّ كُنُوزُ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَذَكَرَ: سُبْحَانَ اللَّهِ إِلَى آخِرِهِ» [بنحوه ابن ماجه ٣٨١٣] فَإِنَّ ثَبَتَ هَذِهِ الْأَخْبَارُ فَهِيَ الْأَصْلُ، لَا يَجُوزُ غَيْرُهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ. فَأَيُّهُمَا كَانَ فِيهِ مَعْنَى الْآخِرِ. وَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَجْمَعُ أَنْوَاعَ الْخَيْرَاتِ وَالْعِبَادَاتِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ «سُبْحَانَ اللَّهِ» هُوَ تَتْلِيَةُ الرَّبِّ عَنْ كُلِّ آتَةٍ وَعَيْبٍ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ هُوَ الثَّنَاءُ لَهُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَلَّتْ مِنْهُ إِلَى الْخَلْقِ، وَجَعَلَتْهُ^(٤) مُسْتَحِقًّا لِلْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ لَهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ.

وَأَنَّ «وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هُوَ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، وَلَا^(٥) يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ «وَاللَّهُ أَكْبَرُ» هُوَ الْإِجْلَالُ لَهُ عَنْ كُلِّ مَا قَبْلَ فِيهِ، وَتَقْيُّ كُلِّ مَعَانِي الْخَلْقِ عَنْهُ، [وَأَنَّ]^(٦) «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» هُوَ التَّيَرُّي وَفَقَطُ الطَّمَعِ عَنْ دُونِهِ، وَتَفْوِضُ الْأُمُورِ بِكُلِّيَّتِهَا إِلَيْهِ، وَالتَّسْلِيمُ لَهُ.

فَكُلُّ حَرْفٍ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ يَجْمَعُ فِي الْحَقِيقَةِ كُلَّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالْخَيْرَاتِ لِمَا ذَكَرْنَا. وَكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ أَيْضًا تَجْمَعُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ [لِأَنَّ الْمُصَلِّيَّ]^(٨) يَسْتَعْمِلُ كُلَّ جَارِحَةٍ فِيهَا فِي كُلِّ حَالٍ مِنْهَا. فَهِيَ تَجْمَعُ جَمِيعَ الْعِبَادَاتِ.

وَالْأَصْلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أَنَّهَا كُلُّ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَكَرَ، وَوَصَفَ الْحَقَّ بِالْبَقَاءِ وَالثَّبَاتِ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَوَصَفَ الْبَاطِلَ بِالْظُلَانِ وَالتَّلَاشِي وَالذَّهَابِ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَذَهَبَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَبَيَّنَّكَ فِي الْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ [الرعد: ١٧]. وَقَوْلُهُ^(٩): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الْآيَةُ [إبراهيم: ٢٤] وَأَمثَالُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ هِيَ بَاقِيَةُ ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ذُوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أَيْ خَيْرٌ مَا يَأْمُلُونَ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أَيْ يَابِسًا بَالِيًا. وَقَالَ الْفَتَّي: وَمِنْهُ سُمِّيَ الرَّجُلُ هَاشِمًا.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ أَيْ تَطِيرُ بِهِ. وَقَالَ الْفَتَّي: أَيْ تَسِفُهُ كَقَوْلِهِ ﴿فَقُلْ بِسْمِهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ]^(١٠) قَالَ: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ذُوَابًا﴾ أَيْ خَيْرٌ: مَا يُثَابُ النَّاسُ عَلَيْهِ ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ٣١٨ - أ / أَيْ خَيْرٌ: مَا يَأْمُلُ النَّاسُ عَنْ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَدَّرَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَعَلَهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنْ لَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ يُدَكِّرُهُمْ، جَلٌّ، وَعَلَا، بِشِدَّةٍ^(١) أحوال ذلك اليوم وأفراجه حين^(٢) صار أثبت شيء رأوا في الدنيا، وتكسر أضلُب شيء رأوا في الدنيا، وهو الجبال لِشِدَّةِ أحوال ذلك اليوم وأفراجه. وقال في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥٤]. وقال في آية أخرى: ﴿وَكُنَّ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وقال في آية أخرى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وقال في آية أخرى: ﴿هَبَاءَ مُتَشَوِّبَةٍ﴾ [الفرقان: ٢٣] وأمثاله.

يُدَكِّرُهُمْ بِشِدَّةٍ^(٣) أحوال ذلك اليوم وأفراجه حين^(٤) صار أثبت شيء في الدنيا وأشدُّ على الوصف الذي ذكره [ومن دون]^(٥) هذه الأحوال والأفراغ التي ذكر لا تقوم أنفس البشر في الدنيا. فقيامها بمثل هذه الأحوال التي ذكر أخرى ألا تقوم.

ألا ترى أن موسى، صلوات الله عليه، كان أشدَّ الناس وأقوى البشر، ثم لم تقوم نفسه لاندكالك الجبل حتى صعب^(٦)؟ إلا أن الله حكَّم أن الإهلاك يومئذ بغد ما أحياهم، ولأ كانت أنفسهم لا تقوم بدون ما ذكر من الأحوال.

ثم ما ذكر من أحوال الجبال يكون ذلك في اختلاف الأحوال والأوقات، يكون في ابتداء ذلك اليوم ما ذكر أنها تسير وأنهم يزونها جامدة، وهي ليست بجامدة، ثم تصير كئيباً مهيلاً، ثم تصير كالعهن المنفوش في وقت، ثم تصير هباءً متشوراً، يكون على الأحوال التي ذكر على اختلاف الأحوال والأوقات على قدر الشدة والهول، والله أعلم.

ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] بِشِدَّةِ ذلك اليوم [وجهن]:

أخذهما: [٧] تترأى كأنها جامدة، وهي تمرُّ مَرَّ السَّحَابِ، وقد يترأى في الشاهد مثله للهول والفرع.

والثاني: تترأى لإزدحام الجبال واجتماعها، وقد يترأى في الشاهد السائر كالجامد والسائر للكثرة والإزدحام مثل عسكر عظيم يسير، يراه الناظر إليه كأنه ساكن لا يسير. فعلى ذلك هذا، والله أعلم.

ثم يَحْتَمِلُ أن تكون هذه الأحوال التي ذكر لأهل الكفر والعصاة منهم. فاما أهل الإيمان والإحسان يكونون في أمن وعافية من تلك الأحوال كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ الآية [نصبت: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهرة، ليس عليها بناء ولا شجر ولا جبال ولا حجر ولا شيء؛ تصير مُسْتَوِيَةً على ما ذكرنا ﴿فَاعَا مَنصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِصْمًا وَلَا أُمْتًا﴾ [طه: ١٦ و ١٧] وَيَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي يكون أهلها بارزين له كقوله: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُقَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي يَجْمَعُهُمْ جميعاً كقوله: ﴿قُلْ لِكِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿لَتَجْمَعُوْنَ إِيَّائِي يَوْمَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩ و ٥٠].

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ قال بعضهم: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ جميعاً، ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ لِلْحِسَابِ. وقال بعضهم: يُعَرَّضُونَ على مقامهم، أي يُعَرَّضُ كُلُّ فَرِيقٍ على مقامه، أي يُبْعَثُ كقوله: ﴿وَأَنزَلَتْ لِبَنَةِ السُّعْيَيْنِ﴾ ﴿وَوَرِثَتِ الْجُمُعُ الْفَارِيزِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ و ٩١].

ويَحْتَمِلُ معنى العرض في ذلك اليوم^(٨)، وإن كانوا في جميع الأحوال والأوقات في الدنيا والآخرة مغروضين عليه [أنه]^(٩) عالم بإحوالهم لما يُقَرَّرُونَ له جميعاً يومئذ مُنْكَرُهُمْ ومُقرُّهُمْ بالعرض والقيامة كقوله: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾

(١) في الأصل وم: عن شدة. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: بدون. (٦) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُقَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: القوم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

[إبراهيم: ٢١] [وقوله: ^(١) ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] أي ^(٢) الأمر في جميع الأوقات لله. وكذلك هم بارزون له في جميع الأوقات. لكنه خص ذلك اليوم بالإضافة إليه بما يُقرون له جميعاً في ذلك اليوم باللوهية له والمُلْك، ويُعرفون حقيقة. فعلى ذلك هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

[أخذها: ^(٣)] يَحْتَمِلُ ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ بالإجابة والإقرار لنا كما أجابت ^(٤) خَلَقْتُمْ في أَوَّلِ خَلْقِنَا إِيَّاهَا في الدنيا.

والثاني: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًى﴾ كما قلنا في الدنيا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُجْعَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦] [وقلنا: ^(٥) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣. و. .] [وقلنا: ^(٦) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الجنات: ٢٧].

والثالث: ما قاله أهل التأويل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًى﴾ [الأنعام: ٩٤] بلا أنصار ينصرونكم ولا أعوان يعينونكم على ما كنتم في الابتداء، وقال بعضهم: كما خرجتم من بطون أمهاتكم غراً وحفاة، ليس معكم مال يمانعكم ولا أنصار ينصرونكم ^(٧). وهو ما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ جَعَلَ لَكَ مَوْعِدًا﴾ هذا يدل أن تلك الأحوال التي ذكر إنما تكون للعصاة ومن أنكر البعث حين ^(٨) قال: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ جَعَلَ لَكَ مَوْعِدًا﴾ يعني القيامة. وهذا يدل أن الأحوال والأفراع التي ذكر في الآية الأولى تكون للعصاة والفسقة من خلقه دون المؤمنين.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قيل: الحساب. ويَحْتَمِلُ الكتاب الذي كتبه الملائكة؛ وُضِعَ ذلك الكتاب في أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين وجلين. وقال بعضهم: لما نظروا في الكتاب، قرأوا من أعمالهم الخبيثة فيه، عند ذلك خافوا مما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من الأعمال ^(٩) السَّيِّئَةِ ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي حفظها، ﴿وَلَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من الحسنات والسيئات ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي لا يترك شيئاً مما يجزى [بها الإنسان وما لا يجزى بها] ^(١٠) ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي حفظها.

[وقوله تعالى] ^(١١): ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿حَاضِرًا﴾ في الآخرة محفوظاً غير فائت ^(١٢) عنه شيء ولا غائب منه.

وقال بعضهم: إنما هو قول الملك، يقول لهم ذلك كقوليه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ [ق: ١٨] أي حفيظ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْلُرُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي يجزي كلاً على قدر عمله، لا يزيد على قدر عمله، ولا ينقص منه، أي لا ينقص المؤمن من حسناته، والكافر لا يترك له سيئة.

الظلم هو في الشاهد وضع الشيء [في] ^(١٣) غير موضعه؛ يقول: ﴿وَلَا يَطْلُرُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي لا يكون بما يجزي كلاً على عمله ظالماً واضعاً شيئاً [في] ^(١٤) غير موضعه.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوْا فَلَنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدًا لِآدَمَ﴾ ذكر الله، قصة آدم وإبليس في غير موضع من القرآن على

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أجاب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ينصرونكم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: أعمال. (١٠) من م، في الأصل وم: به. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ثابت. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الرِّبَاةِ وَالنُّقْصَانِ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ [ذلك، وَكَرَّرَ لَهَا] ^(١) كَذَلِكَ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مُكَرَّرًا مُعَادًا، فَذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ حِينَ ^(٢) عَلِمُوا أَنَّهُ كَانَ لَا يَغْرِثُ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ. أَوْ أَنَّ مَا كَرَّرَهُ لِحَاجَاتٍ كَانَتْ لَهُمْ وَلِقَوَائِدَ تَكُونُ لَهُمْ فِي التَّكْرَارِ لَهُمْ لِيَكُونَ لَهُمْ عِظَةٌ وَتَنْبِيْهُاً فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكُلِّ حَالٍ، وَقَدْ يُكَرَّرُ الشَّيْءُ، وَيُعَادُ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالتَّنْبِيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ اِخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ مِنَ الْجِنِّ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْجَانِّ الَّذِينَ ^(٣) يَعْمَلُونَ فِي الْجَنَانِ، فَتُسَبِّحُ إِلَيْهِمْ ^(٤).

وقال بعضهم: إِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلَةً، يُقَالُ لَهَا: الْجِنُّ، فَكَانَ إِبْلِيسُ مِنْهَا، فَتُسَبِّحُ إِلَيْهَا. وقال الحسن: مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَطُّ طَرَفَةً عَيْنٍ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْجِنِّ كَمَا قَالَ اللَّهُ، فَهُوَ أَضَلُّ ^(٥) الْجِنِّ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَصَى رَبَّهُ مِنَ الْجِنِّ [كَمَا] ^(٦) أَنَّ آدَمَ هُوَ أَضَلُّ الْإِنْسِ، وَهُوَ أَبُوهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ إِبْلِيسُ، هُوَ أَبُو الْجِنِّ.

وقال بعضهم: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أَي صَارَ مِنَ الْجِنِّ، وَكَذَلِكَ [قَالَ تَعَالَى] ^(٧) ﴿كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤ وص: ٧٤] وَفَتْ عِضْيَانِهِ رَبَّهُ وَإِبَائِهِ السُّجُودَ لآدَمَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ قِيلَ: عَنَّا، وَعَصَى. وَأَضَلُّ الْفِسْقِ الْخُرُوجُ، أَي خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: ﴿فَفَسَقَ﴾ أَي خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ. يُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا.

وقوله تعالى: ٣١٨ - ب/ ﴿أَفَنَسْخَدُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ارَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ مِنْ دُونِ نَفْسِهِ. فَكَانَهُ قَالَ: ﴿أَفَنَسْخَدُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أَرْبَابًا وَالْهَيْةَ مِنْ دُونِي ﴿وَعَمَّ لَكُمْ عَذُوبٌ﴾ وَلَيْسُوا بِالْهَيْةِ وَلَا أَرْبَابٍ. فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَتَّخِذَ الْعَدُوُّ رَبًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ ارَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ أَي مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِي. فَكَانَهُ قَالَ: ﴿أَفَنَسْخَدُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِي﴾ ﴿وَعَمَّ لَكُمْ عَذُوبٌ﴾ أَي كَيْفَ تَتَّخِذُونَ الْأَعْدَاءَ أَوْلِيَاءَ، وَتَتْرُكُونَ مَنْ هُمْ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَا تَتَّخِذُونَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْتَقِلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أَي بَشَسَ مَا اسْتَبَدَّلُوا بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ أَنْ عَبَدُوا إِبْلِيسَ، وَأَطَاعُوهُ، فَبَشَسَ ذَلِكَ لَهُمْ بَدَلًا؛ أَي مَا اتَّخَذُوا أَعْدَاءَهُمْ أَوْلِيَاءَ بَدَلًا عَنْ الْوَهْيَةِ وَرُبُوبِيَّتِهِ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَ هَذَا لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ حِينَ ^(٨) قَالُوا [إِنَّ] ^(٩) الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْأَصْنَامَ الَّتِي عَبَدُوهَا [هِيَ آلِهَةٌ، وَهِيَ] ^(١٠) شُرَكَاءُهُ. فَيَقُولُ: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ وَلَا كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ، وَلَا آمَنُوا بِرَسُولٍ. فَكَيْفَ عَرَفُوا مَا قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْأَصْنَامُ آلِهَةٌ وَشُرَكَاءُهُ؟ !

وَأَسْبَابُ الْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ هَذَا: إِمَّا الْمُشَاهَدَةَ، وَإِمَّا الرُّسُلَ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَاحِدٌ مِمَّا ذَكَرْنَا فَكَيْفَ عَرَفُوا رَبَّهُمْ؟ وَبِمَ عَلِمُوا قَالُوا فِي اللَّهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشُّرَكَاءِ؟ وَإِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا تُخَافِيهِمْ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ وَأَرْبَابًا، وَهُوَ صِلَةٌ مَا قَالَ: ﴿أَفَنَسْخَدُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَعَمَّ لَكُمْ عَذُوبٌ﴾ الْآيَةَ. وَفِيهِ وَجُوهٌ مِنَ التَّأْوِيلِ:

أَحَدُهَا ^(١١): ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي مَا اسْتَخَضَرْتَهُمْ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَا خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُمَا، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَيْضًا أَشْيَاءَ.

(١) فِي الْأَصْلِ: كَذَلِكَ وَكَرَّرَ، فِي م: كَذَلِكَ وَكَرَّرَ لَهَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَهْلُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهَا آلِهَةٌ وَأَنَّهَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ.

والثاني^(١): ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ ما أعلمتُهم تدبيرَ خَلْقِ السموات والأرض، ولا تدبيرَ خَلْقِ أنفسهم. فكيف قالوا ما قالوا في الله من الدعوى؟

والثالث: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ أي ما استعنتُ بهم في خَلْقِ السموات والأرض ولا في خَلْقِ أنفسهم. فكيف أشركوا في ألوهيتي وروبيتي؟ وما استعنتُ بهم في ذلك، والله أعلم.

وقد استدل كثير من المتكلمين بهذه الآية على أن خَلْقَ الشيء، هو غير ذلك الشيء، لأنه قال: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ وقد شهدوا السموات والأرض، وشهدوا أنفسهم، حتى قال: ﴿وَقَدْ أَنْفَسُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الذاريات: ٢١] ثم أخبر أنه لم يشهدهم خَلْقَ السموات والأرض [ولا^(٢)] خَلْقَ أنفسهم [وأنَّ خَلْقَ السموات والأرض غير خَلْقِ أنفسهم وخلق أنفسهم غير خَلْقِ السموات والأرض]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِينَ عَصَدًا﴾ [يَحْتَمِلُ وَجُوهًا]:

أخذها^(٤): قال بعضهم: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِينَ عَصَدًا﴾ عن الإيمان والهدى ﴿عَصَدًا﴾ أعواناً لديني.

والثاني: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِينَ﴾ عبادي ﴿عَصَدًا﴾ ينصُر ديني، أو يعون أوليائي.

[والثالث: ما]^(٥) قال بعضهم: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِينَ﴾ الذين أضلُّوا بني آدم ﴿عَصَدًا﴾ عوناً في ما خلقت من خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم، وهو إبليس وذريته.

[والرابع: ^(٦)] ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِينَ عَصَدًا﴾ أولياء، إنما أتخذهم أعداء، وما كنتم لآولي المضلين عَصَدًا على أوليائي كقوله: ﴿لَا يَأْتِيَالْ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ونحوه. وكلُّه قريبٌ بغضه من بغض.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ^(٧) نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ قال: ﴿شُرَكَائِيَ﴾ على رَغْبِهِمْ، وإلا لم يكن لله شركاء. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ يعني دعوا الأصنام التي عبدوها ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾.

قال أبو بكر الأصم: لم يجيبوهم في وقت، وقد أجابوهم في وقت آخر، وهو ما قالوا: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٢٩]. ولكن قوله: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لما كانوا يعبدونها في الدنيا، وإنما كانوا يعبدونها ظمناً أن يكونوا شفعاء وأنصاراً كقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وكقولهم^(٨): ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وكقولهم: ﴿وَأَعِزُّوهُم مِّنْ ذُلِّ اللَّهِ إِلَهُ الْعَالَمِينَ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [كلاً] [مريم: ٨١ و٨٢] فيكون قوله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ما ظمِعوا بعبادتهم الأصنام من الشفاعة والنصرة ودفع ما حلَّ بهم عنهم والمنع عن عذاب الله، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا﴾ أي بين أولئك الأصنام موبقاً. قال بعضهم: مهلكاً. وقال بعضهم: الموبق الذي يفرق بينهم وبين آلهتهم في جهنم. وقال بعضهم: نهر فيها. وقال بعضهم: جعلنا وصلتهم في الدنيا الذي كان بين المشركين وبين الأصنام موبقاً أي مهلكاً.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿فَطَلَّوْا أَنَّهُمْ مُّؤَفَّقُوهُمْ﴾ أي علموا، وأيقنوا أنهم داخلوها: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي لم تقدر الأصنام التي عبدوها أن تضرب النار عنهم. قال أبو عبيدة: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي مغدلاً.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ قد ذكرنا، وبيّنا، في غير موضع.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) في الأصل: غير السموات والأرض وغير أنفسهم، في م: الخلق السموات والأرض وخلق أنفسهم غير السموات والأرض وغير أنفسهم. (٤) ساقطة من الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: نقول وهي قراءة حمزة والأعمش وغيرهما، انظر معجم القراءات القرآنية ٣/ ٣٧٥. (٨) في الأصل وم: و.

أخذهما: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل صفة كقوليه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧] أي الصفات العليا .
والثاني: المثل هو الشبيه كقوليه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فإن كان التأويل الشبيه فكأنه يقول، والله أعلم، ﴿وَلَقَدْ مَرْقَنَّا﴾ أي بَيَّنَّا في هذا القرآن ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل ما بهم حاجة إلى معرفة ما غاب عنهم؛ جعل لهم شبيها مما شاهدوا، أو عَرَفُوا، ليتعرفوا به ما غاب عنهم.

وإن كان تأويل المثل الصفة فكأنه يقول: وَلَقَدْ بَيَّنَّا في هذا القرآن من كل ما يؤتى وما يتقى صفة، يعرفون بها ما لهم وما عليهم، وما يأتون، وما يتقون^(١)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ قال أهل التأويل: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ يعني الكافر ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي جدالاً كقوليه: ﴿وَيَحْدِثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦].

ورسبه أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي جوهراً الإنسان ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ من غيره^(٢) من الجواهر، لأن الجن لما عُرِضَ عليهم القرآن والآيات قبلوها على غير مُجَادَلَةٍ ذَكَرَتْ حين^(٣) قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ الآية [الجن: ١] وكذلك الملائكة لم يُذَكِّرْ منهم الجدال ولا المُحَاجَّةَ في ذلك.

وقد ظهر [من]^(٤) جوهراً الإنسان المُجَادَلَاتِ والمُحَاجَّاتِ في الآيات والحُجُجِ .

من ذلك قوله: ﴿هَآأَنْتُمْ مَكُولَاءٌ حَنَجَجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية [آل عمران: ٦٦] وقوله^(٥): ﴿وَيَحْدِثُ لَهُمْ يَأْتِي مِنْ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُحْدِثُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِي مِنْ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله: ﴿وَيَحْدِثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦] وأمثال هذا. ولذلك احتج إلى إنزال كثرة الآيات لكثرة ما ظهر منهم من المُجَادَلَةِ. وفيه الإذن بالمُجَادَلَةِ والمُحَاجَّةِ في الذين على الوصف الذي ذُكِرَ، والله أعلم.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي لم يمنع الناس أن يؤمنوا إلا التعتُّ والتعناد لأنه قد أكثر عليهم من الحجج والآيات ما [لو]^(٦) لم يعاندوا، ولا كذبوا، لالتزموا^(٧) الإيمان بها والتضديق. لكن الذي منعهم عن الإيمان ما ذكرنا من عنادهم وتعتُّبهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ﴾ الاستيصال والإهلاك. فيقول: لا يؤمنون إلا في ذلك [الوقت]^(٨). والإيمان لا ينفعهم في ذلك الوقت كقوليه: ﴿قَلَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾ [غافر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [وقبلاً مُقَابَلَةً. وقيل: قِبَلًا]^(٩) أي عياناً جهاراً. قال أبو عبيدة: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي [عياناً وقبلاً: استئنافاً، وقال]^(١٠) مُجَاهِدٌ ﴿قُبُلًا﴾ [فجاءة، وقال:]^(١١) قِبَلًا. وقال أبو عوسجة قُبَلًا [أي مُوَاجِهَةً وكذلك ﴿قُبُلًا﴾]^(١٢) وقال القتيبي: ﴿قُبُلًا﴾ أي مُقَابَلَةً وِعِيَانًا^(١٣) والله أعلم.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي لم تُرْسِلْهُمْ إِلَّا بِمَا^(١٤) يوجب لهم البشارة والنذارة، إنما أرسلوا للأمر والنهي ليأمروا الناس بالطاعة طاعة الله، وينهَوْهُمْ عن معاصيه. لهذا، والله أعلم، أُرْسِلُوا بِالْبِشَارَةِ لِمَنْ اتَّبَعَ أَمْرَهُمْ، وانتهى عما^(١٥) نهوا عنه/ والنذارة لِمَنْ ارْتَكَبَ مَا نَهَوْا عَنْهُ. فتكون البشارة لِلْمُتَّبِعِينَ لهم في أمرهم، والنذارة لِلْمُتْرَكِّينَ المنهى عنه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْدِثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَيَحْدِثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ما نسبوه إلى السحر والكهانة والإفك وغيره. به يُجَادِلُونَهُ، وهو باطل. أو أن يكونوا عَرَفُوا أنَّ ما يُجَادِلُونَهُمْ به، ويُحَاجُّونَهُمْ باطل وأن ما

(١) في الأصل وم: يسبقون. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل وقولهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لا لتزمهم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل: مقابلة استئنافاً قال، في م: مقابلة استئنافاً وقال. انظر غريب القرآن للسجستاني ص ٢٩٣ ومعجم القراءات القرآنية ج ٣/٣٧٦ و٣٧٧ وانظر الحواشي المتعلقة بهذه الكلمة من الآية ١١١ من سورة الأنعام. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٣/٣٧٦. (١٤) و(١٥) في الأصل وم: ما.

يَدْعُوهُمْ الرُّسُولُ إِلَى اللَّهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَنُورٌ. لَكِنْ يُعَانِدُونَهُ، وَيُجَادِلُونَهُ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ^(١) عَلَى بَاطِلٍ كَقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَمِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٢] عَرَفُوا أَنَّهُ نُورٌ لَكِنَّهُمْ عَانَدُوهُ فِي الْمُجَادَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ بِالْبَاطِلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ﴾ أي لِيُطْلُوا بِهِ الْحَقَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنِّي وََمَا أَذِيرُوا هُزُؤًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: آيَاتُهُ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَغَيْرُهُمَا^(٢) ﴿وَمَا أَذِيرُوا﴾ [وما أُنْذِرُ] الرُّسُلُ، هُوَ الْقُرْآنُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنِّي وََمَا أَذِيرُوا هُزُؤًا﴾ الْقُرْآنَ وَالْحُجَجَ الَّتِي أَقَامَهَا، وَمَا أَمَرُوا بِهِ غَيْرَ الْقُرْآنِ، وَهِيَ^(٤) الْمَوَاعِيدُ، هُزُؤًا. وَقَالَ [صَاحِبُ] ^(٥) هَذَا التَّوِيلِ: تَأْوِيلُ الْأَوَّلِ بَاطِلٌ، لَا يَصِحُّ لِأَنَّهُ قَالَ عَلَى إِنْوَ ^(٦) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَّبِّهِ فَاعْتَرَسَ عَنْهَا﴾ يَقُولُ: هَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ أَرَادَ بِالْآيَاتِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ لَا مَا ذَكَرَ.

وَجَائِزٌ أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَعْمَلُوا بِآيَاتِهِ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا، نَسَبَهُمْ إِلَى الْهُزُؤِ بِهَا وَالشُّخْرِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَهْزُؤُوا بِهَا وَهِيَ كَمَا^(٧) سَمَّاهُمْ غَنِيًّا وَبُكْمًا وَضَمًّا، لِمَا لَمْ يَتَّبِعُوا بِهِذِهِ الْحَوَاسِّ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا فِي مَا جُعِلَتْ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ. فَإِذَا كَانَ، فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ نَحْتَمِلُ مُجَادَلَتَهُمْ إِيَّاهُمْ مَا قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ وَكِهَانَةٌ، وَإِنَّهُ إِفْكٌ وَشِغْوٌ، وَنَحْوُهُ. أَوْ أَنْ تَكُونَ مُجَادَلَتُهُمْ قَوْلَهُمْ ﴿أَتَيْتَ اللَّهَ بِشُرَكَاؤَلَا﴾ [الإسراء: ٩٤] وَقَوْلَهُمْ: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِنَ الْمُجَادِلَاتِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَّبِّهِ فَاعْتَرَسَ عَنْهَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَّبِّهِ﴾ أَي وَعِظَ بِالْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فِي الرُّسُلِ مِنَ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: أَي لَا أَحَدٌ أَظْلَمَ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّنْ وَعِظَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، فَاعْتَرَسَ عَنْهَا، مَا لَوْ اتَّعَظَ بِمَا وَعِظَ كَانَ بِهِ نَجَاتُهُ.

أَوْ أَنْ يَكُونَ تَذَكُّرُهُ بِآيَاتِ رَبِّهِ، وَهُوَ مَا أَقَامَ مِنْ حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ عَلَى تَرْجِيهِهِ وَرِسَالَةِ الرُّسُولِ، فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَلَمْ يُصَدِّقْهَا: أَي لَا أَحَدٌ أَظْلَمَ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ، وَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَسَ عَنْهَا﴾ يَحْتَمِلُ الْإِعْرَاضُ عَنْهَا فِي الْإِنْتِدَاءِ؛ أَي لَمْ يَقْبَلْهَا، وَلَمْ يَكْتَرِثْ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيهَا. أَوْ اغْتَرَضَ عَنْهَا بَعْدَ مَا عَرَفَهَا أَنَّهَا آيَاتٌ وَأَنَّهَا حُجَجٌ تَعْتَنَّا وَعِنَادًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْتَى مَا قَدَّمْتُ يَدَايَ﴾ يَحْتَمِلُ أَي نَسِي مِنَ الْخِيَانَةِ وَالشُّرْكِ. أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَيْتَى مَا قَدَّمْتُ يَدَايَ﴾ مَوْصُولًا بِالْأَوَّلِ؛ أَي [لَا]^(٨) أَحَدٌ أَظْلَمَ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّنْ وَعِظَ، وَجُعِلَ لَهُ سَبِيلُ التَّخَلُّصِ وَالنَّجَاةِ مِمَّا قَدَّمْتُ يَدَايَ، فَلَمْ يَتَّعِظْ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إِنَّ الْكُفْرَ مُظْلِمٌ؛ إِذَا أَتَى بِهِ إِنْسَانٌ، يَسْتُرُ عَلَى نُورِ الْقَلْبِ وَعَلَى نُورِ كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُ، وَالْإِيمَانُ مُنِيرٌ يُنِيرُ الْقَلْبَ، وَيُنِيرُ كُلَّ جَارِحَةٍ مِنْهُ وَغَضْوٍ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُبْصِرُ بِنُورَيْنِ ظَاهِرَيْنِ بِنُورِ نَفْسِهِ وَبِنُورِ ذَلِكَ الشَّيْءِ. فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدُهُمَا ذَهَبَ الْإِنْتِفَاعُ بِالْآخَرِ.

وَالْإِيمَانُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ مُنِيرٌ، وَفِي الْقَلْبِ نُورٌ. فَإِذَا اجْتَمَعَ التُّورَانِ مَعًا قَعِنَدَ ذَلِكَ انْتَفَعَ بِهِ [الإنسان]^(٩) فَجَعَلَ يَفْقَهُ، وَيَتَعَقَّلُ الشَّيْءَ بِنُورِ الْقَلْبِ وَبِنُورِ الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنْهُ مِنَ الْأَذْنِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ؛ جَعَلَ يُبْصِرُ الْحَقَّ بِهِ، وَيَتَعَبَّرُ بِهِ، وَيَسْتَمِيعُ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ.

وَالْكَفْرُ مُظْلِمٌ، يَمْنَعُ، وَيَسْتُرُ عَلَى نُورِ الْجَوَارِحِ [فَيَجْعَلُ الْإِنْسَانَ]^(١٠) لَا يُبْصِرُ، وَلَا يَتَعَبَّرُ، وَلَا يَسْتَمِيعُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) في الأصل به، في م: ما أُنْذِرُ به. (٤) الراو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فجعل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

بالحق؛ وهو ما ذكرنا أن الإنسان إنما يُبصر الشيء بثور العين وبثور الهواء. فإذا ذهب أحدهما صار لا يُبصر شيئاً. فعلى ذلك ما ذكرنا.

وفي الآية دلالة نقض قول المعتزلة لأنه لا يخلو الكفر من أن [يكون] ^(١) مظليماً قبيحاً بنفسه أو بالله تعالى. فإن قيل: [بنفسه] ^(٢) صار كذلك قيل: لئن جاز حدوث الأشياء بأنفسها ^(٣)، إذ لا فرق بين أن يكون الشيء مظليماً قبيحاً ذمياً وبين أن تكون الأشياء بأنفسها على ما كانت، فإنه يظل بنفسه مظليماً قبيحاً.

ثبت أن الله هو الذي جعله ^(٤) مظليماً قبيحاً. وهو ما نقول نحن: إن الله خلق فغل الكفر من الكافر مظليماً قبيحاً، وخلق فغل الإيمان من المؤمن مثيراً حسناً، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ هذا في قوم مخصوصين، عليم الله أنهم لا يؤمنون أبداً. هذا لا يختل في جميع الكفار؛ إذ من الكفار من قد آمن.

وقال الحسن: هو في القوم ^(٥) الذين جعل على قلوبهم الغطاء والظن؛ إذ من قوله: إِنَّ لِلْكَافِرِ حَذًّا، إذا بلغ الكافر ذلك الحد طبع على قلبه، فلا يؤمن أبداً.

وقال بعضهم: [هو] ^(٦) في قوم، عادتهم العناد والمكابرة وتكذيب الآيات والحجج. فأخبر أنهم لا يؤمنون أبداً ليناديهم. وأصله ما ذكرنا، والله أعلم.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يختل أن يكون على وجهين:

أحدهما: ﴿الْغَفُورُ﴾ حين ^(٧) ستر عليهم، ولم يعاقبهم وقت عصيانهم. و﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يقبل توبتهم، إذا تابوا.

والثاني: ﴿الْغَفُورُ﴾ إذا استغفروا، وتابوا. و﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يزحمهم، ويتجاوز عنهم ما سبق لهم من الذنوب.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَأْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَ لَاحِلَ لِمُ الْعَذَابِ﴾ في الدنيا ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ قال الحسن: جعل الله لكل أمة، يهلكون هلاكهم، موعداً واجلاً كقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] وقال في آية أخرى: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وجعل موعده هذه الأمة الساعة، وهو قوله: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦].

وقال بعض أهل العلم: أهلك الله كل أمة كذبت رسولها لتتعتظ الأمة التي تأتي بعدها. وجعل هلاك أمة محمد بالساعة لأنه ليس بعدها أمة تتعتظ به.

وقوله تعالى: ﴿لَن يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾ قيل: ملجأ. وقال القتيبي: يقال: لا وألث نفسك، أي لا نجت، ويقال: وائل فلان إلى كذا: لجا.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ فيه دلالة نقض قول المعتزلة لأنهم يجعلون المهلك هالكا قبل أجله. وقد أخبر ^(٨) لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا لا يتقدم، ولا يتأخر، طرفة عين.

وفي قوله: ﴿مَا قَدَّمَت يَدًا﴾ [الكهف: ٥٧] ذكر تقدم اليد، وإن لم يكن لليد صنع في ذلك لما في العرف الظاهر إنما يتقدم، ويؤخر باليد، وكذلك ما ذكر من الكسب ﴿فِيمَا كَسَبَتْ آيَاتِكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لأن في الشاهد إنما يُكتسب باليد، ونحوه. فهو يرد على أصحاب [الظواهر] ^(٩) أن الخطاب على مخرج الظاهر حين ^(١٠) لم يفهم من ذكر اليد نفسها، ولكن فهم غير اليد.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَتْ مَرْسَىٰ لِنَفْسِهِ لَا أَمْرٌ حَتَّىٰ أَتِلْغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ قال أهل التاويل: ﴿لَا

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بنفسها. (٤) في الأصل وم: جعل. (٥) في الأصل وم: قول.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: حيث.

أَبْرَحَ أَي لا أزال حتى أبلغ كذا. فَإِنْ كَانَ عَلَىٰ هَذَا فَهُوَ ظَاهِرٌ، وَلَا^(١) حَرْفُ الْبَرَّاحِ عَنِ الْمَكَانِ، أَي لا أَبْرَحُ الْمَكَانَ ﴿حَتَّىٰ أَتِلُّ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وهو كانه على الإضممار، أَي لا أَبْرَحُ أُسِيرُ مَعَكَ حَتَّى أَتِلُّ كذا؛ كانه سَبَقَ مِنْ قَتْلِهِ أَنَّهُ يَسِيرُ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَكَانَ دُونَهُ عَلَىٰ مَا يَقُولُ الْخَادِمُ لِمَوْلَاهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسِيرَ لِحَاجَةٍ: أَنَا أُسِيرُ، وَأَنَا أَذْهَبُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ ﴿مُوسَىٰ لِقَتْنِهِ لَا أَبْرَحَ﴾ أَي لا أَفَارِقُكَ، وَأُسِيرُ مَعَكَ ﴿حَتَّىٰ أَتِلُّ﴾ مَا ذَكَرَ، أَي أَمُرْتُ بِذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمَاءُ فَتَىٰ لِأَنَّهُ كَانَ خَادِمَهُ يُخْدِمُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمَاءُ فَتَىٰ لِأَنَّهُ يَتَّبِعُهُ، وَيُضَحِّبُهُ، لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ الْعِلْمَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ٣١٩ - ب/ أَي مُلتَقَى الْبَحْرَيْنِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قِيلَ: زَمَانًا وَدَهْرًا. وَقِيلَ: الْحُقُبُ ثَمَانُونَ سَنَةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ بِلُغَةِ قَوْمٍ سَنَةٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى التَّمَثِيلِ عَلَىٰ مَا يَتَّعَدُّ. وَقِيلَ: سَبْعُونَ سَنَةً وَنَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أَضَافَ النَّسْيَانَ إِلَيْهِمَا، وَإِنْ كَانَ الَّذِي نَسِيَهُ، هُوَ قَتْلُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَضَافَ النَّسْيَانَ إِلَيْهِمَا عَلَى التَّرْكِ لِأَنَّهُمَا فَارَقَا ذَلِكَ الْمَكَانَ، وَتَرَكََا الْحَوْتَ فِيهِ. وَإِنَّمَا أَضَافَ النَّسْيَانَ إِلَيْهِمَا لِمَا تَرَكَاهُ جَمِيعًا فِيهِ، وَفَارَقَاهُ، وَإِنْ كَانَ الْفَتَى، هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ دُونَ مُوسَى [حِينَ^(٢)] قَالَ: ﴿وَمَا أَسْئَلُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] وَكُلُّ مَنْسِيٍّ مَتْرُوكٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَضَافَ إِلَيْهِمَا [النَّسْيَانَ]^(٣) لِمَا كَانَ مِنْهُمَا جَمِيعًا النَّسْيَانُ؛ نَسِيَ الْفَتَى أَنْ [يُذَكِّرَ مُوسَى، وَيُخْبِرَهُ عَنْ حَالِ الْحَوْتَ أَنَّهُ]^(٤) سَرَبَ فِي الْبَحْرِ، وَنَسِيَ مُوسَى^(٥) أَنْ يَسْتَحْذِرَهُ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ مِنْهُمَا جَمِيعًا النَّسْيَانُ؛ عَنِ الْفَتَى الْإِخْبَارُ وَالتَّذْكِيرُ، وَعَنْ مُوسَى الْإِسْتِخْبَارُ عَنْ حَالِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَضَافَ ذَلِكَ إِلَيْهِمَا لِمَا نَسِيَا مَكَانَ الرَّجُلِ الَّذِي أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ، وَيَقْتَنِسَ مِنْهُ الْعِلْمَ. فَهُوَ عَلَى الْجَهْلِ يُخْرِجُ الْعُلَمَاءَ^(٦) هَذَا التَّأْوِيلَ، أَي جَهْلًا مَكَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿سَرَبًا﴾ أَي دَخَلَ فِي الْبَحْرِ كَمَا يَدْخُلُ فِي السَّرْبِ. وَالسَّرْبُ، هُوَ دَاخِلُ الْأَرْضِ، يُقَالُ بِالْفَارِسِيَّةِ: سَمَّهَجٌ^(٧). وَقَالَ الْفُتَيْبِيُّ: ﴿سَرَبًا﴾ أَي مَذْهَبًا وَمَسْلَكًا. وَقَالَ^(٨) أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْحَوْتَ كَانَ مَشْوِيًا، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ظَرِيًّا. وَلَكِنْ لَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَوْتَ أَنَّهُ كَانَ مَشْوِيًا أَوْ ظَرِيًّا حَاجَةٌ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَهُ مَشْوِيًا أَوْ ظَرِيًّا فِي أَي حَالٍ كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يَعْنِي مَكَانَهُ قَالَ لِقَتْنَاهُ: ﴿قَالَ لِقَتْنُهُ مَا إِنَّا غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنْ لَا بَأْسَ لِلرَّجُلِ إِذَا أَصَابَتْهُ مَشَقَّةٌ وَجْهَدَ أَنْ يَذْكُرَ أَصَابَتِي كَذَا، وَلِلْمَرِيضِ [أَنْ]^(٩) يَقُولَ: بِي مِنَ الْمَرَضِ كَذَا، وَلَا يُخْرِجُ ذَلِكَ مُخْرَجَ الشَّكْوَى وَالْجَزَعِ مِنَ اللَّهِ حِينَ^(١٠) قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ تَعَبًا وَجْهَدًا.

الآية ٦٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الْغُرَّةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخَوْتَ وَمَا أَسْئَلُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنْ أَذْكُرَ لَهُ. قَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَكُنْ نَسِيَهُ، وَلَكِنْ تَرَكَهُ مُتَعَمِّدًا مُضَيِّعًا. وَإِنَّمَا أَضَافَ إِلَى الشَّيْطَانِ؛ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي [عَلَى ذَلِكَ]^(١١) حَتَّى تَرَكْتُ ذِكْرَهُ لَكَ.

وَكَذَلِكَ يَقُولُ^(١٢) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ آدَمَ: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] أَي ضَيَّعَ أَمْرَهُ، وَتَرَكَهُ. وَنَحْوُهُ مِنَ الْمُحَالِ لِأَنَّهُ^(١٣) لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَتَرَكَ ذِكْرَهُ^(١٤) عَمْدًا. وَالشَّيْطَانُ إِنَّمَا يَنْسَى بِالْحِيلُولَةِ فِي مِثْلِ هَذَا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَفِي النَّعَمِ إِذَا كَثُرَتْ، وَاتَّسَعَتْ عَلَى إِنْسَانٍ، فَيَنْسَى فِي مِثْلِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا. (٢) فِي الْأَصْلِ: حَيْث. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ: يَذْكُرُهُ وَيُخْبِرُهُ أَنْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عِلْمًا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمَجٌ، وَالسَّمَجُ: سَهْلٌ لِينٌ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْبُلْدَانِ ج ٣/ ٢٤٦. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْل. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْحَسَنِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَكِنْ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يَذْكُرَ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ سَيِّدُهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: عَجِبَ موسى مِنَ الْفَتَى أَنْ كَيْفَ يَنْسَى أَنْ يُذَكِّرَهُ، وَقَدْ اخْتَجَ إِلَى أَنْ يَتَحَمَّلَ مَوْتَهُ عَظِيمَةً فِي حَمْلِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَجِبَ موسى مِنْهُ حِينَ يَسِّرُ لَهُ الْمَاءَ وَأَثَرُهُ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ثُمَّ ذَكَرَ موسى بِخَبَرِ الْحَوْتِ، وَمَا صَنَعَ، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ أَنِّي نَطْلُبُ مِنْ حَاجَتِنَا مِنَ الظَّفَرِ بِذَلِكَ الرَّجُلِ، يَقُولُ ذَلِكَ لِفَتَاهُ. ثُمَّ فِي الْآيَةِ وَجوهٌ مِنَ الْغَرَائِبِ.

أَخَذَهَا: أَنْ يَلْزَمَ الْإِنْسَانُ طَلَبَ الْعِلْمِ وَاقْتِيَّاسَهُ؛ إِذْ كَانَ بِهِ وَبِالنَّاسِ حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وَإِنْ بَعُدَتِ الشُّقَّةُ، وَتَأَى الْمَوْضِعُ حِينَ^(١) قَالَ موسى ﴿لَا أَنْبِئُكَ حَقِّ أَتْلَعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

وَالثَّانِي^(٢): أَنْ لَا بَأْسَ لِاثْنَيْنِ أَنْ يُسَافِرَا؛ إِذْ لَا كُلُّ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ يَكُونَانِ شَيْطَانَيْنِ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْوَاحِدَ شَيْطَانٌ، وَالْاِثْنَيْنِ شَيْطَانَانِ، وَلَكِنْ وَاحِدًا^(٣) دُونَ وَاحِدٍ، وَاثْنَيْنِ دُونَ اثْنَيْنِ.

وَالثَّالِثُ^(٤): أَنَّهُ لَا يُسَافِرُ إِلَّا بِالزَّادِ، إِذْ^(٥) تَزَوَّدَ موسى وَالْفَتَى بِالْحَوْتِ^(٦) الَّذِي ذَكَرَ حِينَ خَرَجَا إِلَى حَيْثُ أَمَرَ موسى أَنْ يَخْرُجَ فِي مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ.

فَأَمَّا أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا جَمِيعًا: إِنَّهُ أَمَرَ موسى أَنْ يَأْتِيَ الْخَضِرَ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ الْعِلْمَ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لِلْخَضِرِ، إِنَّمَا فِيهِ ذِكْرُ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وَالرَّابِعُ^(٨): أَنَّ الثُّنْيَا إِنَّمَا يَلْزَمُ فِي كُلِّ فِعْلٍ مُسْتَقْبَلٍ مِمَّا يُشْكُ فِيهِ، وَيُرْتَابُ. فَأَمَّا مَا كَانَ سَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ الْوَحْيِ وَالْيَقِينِ فَإِنَّهُ لَا يُسْتَنْتَى فِيهِ: حِينَ^(٩) قَالَ موسى لِفَتَاهُ: ﴿لَا أَنْبِئُكَ حَقِّ أَتْلَعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] قَالَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ ثُنْيَا لَأَنَّهُ [أَمْرُهُ]^(١٠) أَنْ يَأْتِيَهُ. وَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُؤْمَرَ بِالِاتِّبَانِ فِي مَكَانٍ، ثُمَّ هُوَ يُشْكُ أَنَّهُ لَعَلَّهُ لَا يَأْتِيهِ. لِذَلِكَ قَطَعَ الْقَوْلَ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ ذَلِكَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] قَطَعَ الْقَوْلَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ثُنْيَا لَأَنَّهُ عَلِمَ بِالْوَحْيِ أَنَّهُ لَا يَضِيرُ عَلَى مَا يَرَى مِنْهُ.

وَأَمَّا موسى فَإِنَّهُ قَدْ اسْتَنْتَى فِي مَا وَعَدَ أَنَّهُ يَضِيرُ لَأَنَّهُ أَضَافَ إِلَى حَادِثٍ مِنَ الْأَوَاقَاتِ عَلَى الشُّكِّ مِنْهُ أَنَّهُ يَضِيرُ، أَوْ لَا يَضِيرُ، وَعَلَى الْإِزْتِيَابِ لَيْسَ عَلَى الْيَقِينِ. فَقَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] مِمَّا ذَكَرْنَا.

وَالْخَامِسُ^(١١): أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا اخْتَلَفَ إِلَى عَالِمٍ يَفْتَنِيهِ مِنْهُ الْعِلْمُ، وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ، فَرَأَى مِنْهُ مَنَاقِيرَ وَمَظَالِمَ تُلْزِمُهُ أَنْ يُفَارِقَهُ^(١٢)، وَلَا يَتَعَلَّمَ [مِنْهُ الْعِلْمَ]^(١٣) كَصَنِيعِ موسى بِصَاحِبِهِ لَمَّا رَأَى مِنْ خُرْقِ السَّفِينَةِ وَقَتْلِ الْغُلَامِ وَغَيْرِهِ مِمَّا كَانَ مُنْكَرًا وَظُلْمًا فِي الظَّاهِرِ، وَإِنْ كَانَ مَا فَعَلَ، هُوَ فِعْلُ الْأَمْرِ، كَرِهَ موسى صُحْبَتَهُ، وَنَدِمَ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ، حَتَّى جَعَلَهُ عَلَى عِلْمٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

فَهَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى الرَّجُلِ إِذَا رَأَى مَنَاقِيرَ مِنَ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْعِلْمُ وَمَظَالِمَ أَنْ يُفَارِقَهُ، وَلَا يَأْخُذَ مِنْ عِلْمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِخْتِيَارَ وَالْمُسْتَحَبَّ فِي الثُّنْيَا أَنْ يَكُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْكَلَامِ، لِأَنَّ موسى ابْتَدَأَ بِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ لَمْ تَدْرِكْهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ، أَوْ نَسِيَ، يَسْتَنْتِي فِي آخِرِهِ، فَيَعْمَلُ عَمَلَهُ فِي دَفْعِ الْخُلْفِ فِي الْوَعْدِ وَالْكَذِبِ. وَعَلَى هَذَا تَأَوَّلَ بَعْضُ النَّاسِ قَوْلَهُ: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أَيِ اسْتَنْتِي فِي آخِرِهِ إِذَا نَسِيتَ فِي أَوَّلِ كَلَامِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْحَوْتِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِيهِ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَقَالُ ق. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

ثم هذه القصص والأنباء التي ذكرت لرسول الله ﷺ على إثر سؤال كان منهم على ما ذكرنا في قصة أصحاب الكهف وغيرها من القصص، أو على غير سؤال. ولكن كانت في كتبهم، فذكرت^(١) له ليُعلم أنه إنما عرفت ذلك بالله تعالى. ثم اختلف أهل التأويل في السبب الذي أمر موسى ﷺ على طلب العلم من عند ذلك الرجل ويغني إليه. قال بعضهم: ذلك أن موسى، قام خطيباً في قومه، فخطب خطبة، لم يخطب قط مثلها، فاعجبته ذلك، فوقع عنده أن ليس أحد أعلم منه، فأخبر أن في مجمع البحرين رجلاً أعلم منك، فأمر بالمصير إليه والتعلم منه. وقال بعضهم: لا، ولكن موسى قد أُعطِيَ التوراة، وفيها علوم كثيرة، فظن أنه ليس أحد أعلم منه، فأخبر أن في مجمع البحرين عبداً من عبادنا أعلم منك، فأمر بالمصير إليه والتعلم منه. فإن كان على ما ذكر أهل التأويل من السبب، فيخرج الأمر بالمصير إليه والتعلم منه مخرج العقوبة له والعتاب لما خطر به إليه، ووقع في وهيمه ما وقع.

وجائز أن يكون الأمر له بالمصير إليه والتعلم منه ابتداءً من الله تعالى إياه بتعلم العلم من غير سبب كان [من]^(٢) موسى على ما يؤمر المرء بتعلم العلم ابتداءً من غير سبب من الله يمتحنه بها، نحو ما أمر موسى بالمصير إلى طور سيناء، وأعطِيَ هنالك التوراة في الألواح على غير سبب كان منه. ولكن ابتداءً من الله يمتحنه بها^(٣). فعلى ذلك يختل أمره له بالمصير إلى ما أمر والتعلم منه ابتداءً / ٣٢٠ - / منحة، امتحنه بها.

وقول أهل التأويل: إن صاحب موسى الذي أمر موسى بالمصير إليه والتعلم منه الخضر، وفناه الذي كان يصحبه، ويتبعه، يوشع بن نون. فذلك لا يعلم إلا بالسمع والخبر عن يوحى إليه، فيعلمه بالوحي. وأما من أخبر ذلك، وقاله لا عن وحي فلا يعلم ذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة. إنما الحاجة إلى ما أودع فيه من أنواع الحكمة والعلوم.

وأما ما ذكروا أنه فلان، وأنه كان في موضع كذا في البحر، وأن موسى قال [له]^(٤) كذا، وهو قال لموسى كذا، فإن سبيل معرفة ذلك السمع. فإن ثبت السمع فيه، وإلا لم يجب أن يذكر فيه أكثر مما ذكر في الكتاب لأن هذه الأنباء والقصص التي ذكرت في القرآن إنما ذكرت لتكون آية لرسالة نبينا محمد ﷺ.

فلو قيل فيها ما لم يذكر في كتبهم من الزيادة والنقصان لكان ذلك سبباً لإكذابه لا تصديقه على ما يدعو^(٥) من الرسالة.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أي فقد الحوت هو ما كنا نبغي؛ إذ كان ذلك علماً لوجود مكان ذلك الرجل.

وقوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال بعضهم: أي رجعا عودهما على بذيهما. وقال^(٦) بعضهم: أي رجعا يقصان طريقهما وآثارهما الذي مشيا فيه، يطلبان المكان الذي فقد الحوت فيه، إذ ذلك المكان هو مكان وجود^(٧) ذلك الرجل الذي أمر موسى بالمصير إليه.

وقال بعضهم: اقتضا أثر الحوت في الماء. لكن الأول أشبه لأن في الآية ذكر آثارهما لا ذكر أثر الحوت.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَاِ الَّذِي رَحِمَهُ مِنْ عِنْدَنَا﴾ يختل قوله: ﴿رَحِمَهُ مِنْ عِنْدَنَا﴾ التوبة حين^(٨) قال لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] لا يختل أن يقول له هذا إلا على علم وحي، وحين^(٩) قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] أخبر أنه لم يفعل^(١٠) ما فعل عن أمر نفسه، ولكن [عن]^(١١) أمر الله، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: فذكر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: به. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يدعي. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: علم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: يفعل. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿رَحْمَةً مِنِّي عَيْنًا﴾ كُلَّ خَيْرٍ وَكُلَّ بَرَكَةٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، أَوْ أَنْ يَكُونَ رَحْمَةً الْقَلْبِ وَشَفَقَةً الَّتِي كَانَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ السَّفِينَةِ بِخَرْقِهَا وَقَتْلِ ذَلِكَ الْعُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ إِشْفَاقًا مِنْهُ عَلَى وَالِدَيْهِ أَوْ عَلَى النَّاسِ وَإِقَامَةً الْجَوَارِ الَّذِي ^(١) كَادَ أَنْ يَنْقُضَ، فَأَقَامَهُ، وَأَمثالُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ هو ظاهرٌ.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ في قوله: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ﴾ دلالةٌ أنه كَانَ عَلَى سَفَرٍ، وَلَمْ يَكُنْ مُقِيمًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَمَنْ يَتَعَلَّمُ مِنْ آخَرٍ عِلْمًا فَإِنَّهُ يَتَّبِعُهُ حَيْثُ يَذْهَبُ هُوَ فِي حَوَائِجِهِ، لَا يُؤَمَّرُ بِالْمُقَامِ ^(٢) حَيْثُ يَقِيمُ الْمُتَعَلِّمُ ^(٣) لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ يَحْتَمِلُ أَيَّ ارْتِشَادِيٍّ إِلَى مَا عُلِّمْتَ أَوْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ مِنَ الرُّشْدِ

وَالصُّوَابِ.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بِمَا تَرَى مِنْهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يُخْرِجُ فِي الظَّاهِرِ مَخْرَجَ الْمَنَاقِبِ، أَوْ يَقُولُ: إِنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَالرَّسُولُ إِذَا رَأَى مُتَكَرِّرًا فِي الظَّاهِرِ لَا يَسْغُرُ لَهُ تَرْكُ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ وَالتَّغْيِيرِ حِينَ ^(٤) قَالَ لَهُ:

الآية ٦٨

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أَيَّ مَا لَمْ تَعْلَمْ عِلْمًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٩

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ [تَكُونَ] ^(٥) الثُّنْيَا مِنْهُ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: عَلَى الصَّبْرِ الَّذِي وَعَدَ، وَعَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. وَنُشِبَ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَغْدِ الصَّبْرِ خَاصَّةً دُونَ قَوْلِهِ ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عَهْدٌ مِنْهُ، وَالثُّنْيَا لَا تُسْتَعْمَلُ فِي الْعُهُودِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ إِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَشِيرَ فِيهِ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿إِنِ اتَّبَعَتْنِي فَلَا تَتَّبِعْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ مِمَّا تُنْكِرُهُ نَفْسُكَ، وَتُكْرَهُهُ ﴿حَتَّىٰ أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أَنِّي ^(٦) لِمَاذَا قَعَلْتُ مَا قَعَلْتُ؟

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ هَذَا الْكَلَامُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ.

[أَخْرَقْتُهَا] ^(٧) عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ، أَيَّ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ أَوْ لِتَعْيِيهَا؟

[وَالثَّانِي: عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ، أَيَّ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ أَوْ لِتَعْيِيهَا؟] ^(٨) أَوْ لِمَاذَا؟

وظاهر ^(٩) هَذَا الْحَرْفِ اسْتِفْهَامٌ لَوْلَا قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَوَّلِ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ وَالرَّدُّ فَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ظَاهِرًا، أَيَّ جِئْتَ شَيْئًا عَظِيمًا ^(١٠) شَدِيدًا. [وَأِنْ كَانَ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ فَهُوَ عَلَى الْإِضْمَارِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا فَلَتَيْنِ خَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا فَلَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا] ^(١١).

وَأِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى الْإِنْكَارِ فَهُوَ كَمَا يُقَالُ لِمَنْ يَبْنِي بِنَاءً، ثُمَّ يَتْرُكُ الْإِنْفَاقَ عَلَيْهِ فِي عِمَارَتِهِ: بَنَيْتَ لِتُخْرَبَ، أَوْ لِتُهْدَمَ، وَكَمَا يُقَالُ لِمَنْ زَرَعَ زَرْعًا، ثُمَّ تَرَكَ سَقِيَهُ: زَرَعْتَ لِتُفْسِدَهُ، وَنَحْوُهُ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يُبَيِّنْ [سَبَبًا] ^(١٢) لِذَلِكَ، وَلَمْ يَزِرْغْ لِمَا ذَكَرَ، وَلَكِنْ لِمَا كَذَلِكَ يَصِيرُ فِي الْعَاقِبَةِ إِذَا تَرَكَ سَقِيَهُ أَوْ عِمَارَةَ مَا بَنَى.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴿أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وَبَعْدَ [ذَلِكَ] ^(١٣) لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ الْخَرَقَ مُغْرِقٌ أَهْلَهَا، وَقَدْ يَجُوزُ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْقِيَامُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَتَعَلِّمُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١٠) أُدْرِجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ: إِمْرًا أَيْ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُغْرَقٍ. قِيلَ: إِنَّمَا أَخْبَرَ عَمَّا يَوُولُ الْأَمْرُ فِي الْعَاقِبَةِ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْخَرَقِ أَنْ يُغْرَقَ فِي [آخِرِ الْأَمْرِ]^(١) وَهُوَ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَمْرِ الْبِنَاءِ وَالزَّرْعِ: بَنِيَتْ لِشَحْرَبَ، وَزَرَعَتْ لِتُقَيْسَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِنَاؤُهُ وَزِرَاعَتُهُ لِذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى لِصَاحِبِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ هذه الآية على الْمُعْتَزِلَةِ لَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ دَلٌّ أَنَّهُ كَانَ يَخْتَاجُ إِلَى اسْتَطَاعَةِ، تَقَارُنِ الْفِعْلِ، لَا تَتَقَدَّمُ الْفِعْلُ، فَيَكُونُ بِهَا الْفِعْلُ. وَإِلَّا قَدْ كَانَتْ لَهُ سَبَابٌ، لَوْ لَمْ يُؤْثِرْ غَيْرَهُ، لَا اسْتَطَاعَ الصَّبْرَ مَعَهُ. دَلٌّ أَنَّ اسْتَطَاعَةَ الْفِعْلِ [لَا تَتَقَدَّمُ]^(٢) وَلَكِنْ تَقَارَنُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّمَا يُقَالُ هَذَا لِلْإِسْتِثْقَالِ وَالْبُغْضِ، لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ نَفْيِ الْإِسْتَطَاعَةِ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ فَيُقَالُ لَهُ: هُوَ كَمَا يُقَالُ: لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْكَ نَظَرَ الرَّحْمَةِ، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ نَاطِرًا لِمَا ذَكَرَ، فَهُوَ غَيْرُ نَاطِرٍ إِلَيْهِ نَظَرَ رَحْمَةٍ وَشَفَقَةٍ، فَهُمَا سَوَاءٌ، وَهُوَ مَا يَقُولُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٣

وقوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا الْكَلَامُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: عَلَى التَّغْرِيبِ مِنَ الْكَلَامِ؛ أَيْ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا لَوْ نَسِيتُ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ^(٣) قَالَ: ﴿نَظَرْتُ نَظْرَةً فِي النَّجُورِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨ و ٨٩] أَيْ^(٤) سَأْسَقَمُ.

وَالثَّانِي: عَلَى حَقِيقَةِ النِّسْيَانِ نَسِيَ لِقَوْلِهِ^(٥): ﴿فَلَا تَتَلَوْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ [الكهف: ٧٠] بَعْدَهَا وَمَا رَأَى مِنَ الْمَنَاقِبِ فِي الظَّاهِرِ. هَكَذَا كَانَتْ عَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ حُزْنًا وَغَضَبًا عَلَى مَا رَأَوْا، فَلَا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَ مَا قَالَ لَهُ.

[وَالثَّالِثُ: مَا]^(٦) قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَى التَّضْيِيعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُرْفِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَشْرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تُكَلِّفْنِي مِنْ أَمْرِي مَا يَغْسِرُ عَلَيَّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِرْهَاقُ هُوَ الشَّدَّةُ وَالتَّعَبُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تُرْفِقْنِي﴾ أَيْ لَا تَفْتِنِي ﴿عَشْرًا﴾.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُكَ حَتَّىٰ إِذَا لَبِيتُ غَلَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ يَغْيِرُ نَفْسٍ يَحْتَمِلُ هَذَا الْكَلَامُ أَيْضًا وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(٨): عَلَى الْإِنْكَارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ وَالسُّؤَالِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي الْأَوَّلِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾ أَوْ بِحَقٍّ؟ أَوْ لِمَاذَا؟ أَوْ عَلَى الْإِنْكَارِ وَالرَّدِّ عَلَى مَا رَأَى فِي الظَّاهِرِ قَتَلَ نَفْسٍ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْوَجْهَ الَّذِي بِهِ يَجِبُ الْقَتْلُ.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ هُوَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا عَلَى الْإِنْكَارِ ظَاهِرٌ، وَعَلَى الْإِسْتِفْهَامِ وَالسُّؤَالِ عَلَى الْإِضْمَارِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً يَغْيِرُ نَفْسٍ﴾ فَلَنْ قَعَلْتَ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أَيْ مُنْكَرًا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُكْرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿نُكْرًا﴾ أَخْبَرُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿إِسْرًا﴾ لِأَنَّهُ فِيهِ مُبَاشَرَةُ الْقَتْلِ وَإِهْلَاكُ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَهُوَ أَخْبَرُ. وَلَيْسَ فِي نَفْسِ الْخَرَقِ إِهْلَاكٌ، وَإِنَّمَا هُوَ سَبَبُ الْإِهْلَاكِ. وَقَدْ يَجُوزُ أَلَّا يُهْلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿إِسْرًا﴾ أَخْبَرُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿نُكْرًا﴾ لِأَنَّهُ فِيهِ إِهْلَاكٌ جَمَاعَةً، وَهَهُنَا إِهْلَاكٌ وَاحِدَةً، فَهُوَ دُونَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْآخِرَةُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) اُدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ زَاكِيَّةٌ وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعِ وَابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٣/ ٣٨٥. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ما ذُكِّرْنَا فِي الْأَوَّلِ.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ ٣٢٠ - ب/ قَدْ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿فِي تَرْكِ الْمُصَاحَبَةِ﴾ عَذْرًا ﴿لِمَا قُلْتَ لِي﴾: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ سَمَىٰ قَرْيَةً، وَهِيَ كَانَتْ مَدِينَةً. أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿وَأَنَا لِلْجِدَارِ فَكَانَ لِلْمُتَمَيِّنِينَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] دَلَّ أَنَّهَا كَانَتْ مَدِينَةً. وَالْعَرَبُ قَدْ تُسَمِّي الْمَدِينَةَ قَرْيَةً. وقوله تعالى: ﴿اسْتَظْلَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوْجًا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: كَانَ الْجِدَارُ كَهَيْئَةِ عِنْدَ النَّاطِرِ أَنَّهُ يَنْقُطُ.

وقال أبو بكرٍ الأصم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ الْإِرَادَةُ صِفَةُ كُلِّ فَاعِلٍ لَهُ حَقِيقَةُ الْفِعْلِ، أَوْ لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةُ الْفِعْلِ بَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ الْفِعْلُ. أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ يُقَالُ [عَنِ الْجِدَارِ] ^(١) سَقَطَ، وَإِنْ كَانَ، فِي الْحَقِيقَةِ [لَمْ] ^(٢) يَنْقُطْ؟

وعندنا أنه إنما يُقَالُ ذَلِكَ لِقُرْبِ الْحَالِ وَعِنْدَ الْإِشْرَافِ عَلَى الْهَلَاكِ وَالسَّقُوطِ. أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ: إِنِّي ^(٣) أَرَدْتُ أَنْ أَمُوتَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَهْلِكَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَسْقُطَ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ وَلَا السَّقُوطَ، وَلَكِنَّهُ يَذْكُرُ ذَلِكَ لِإِشْرَافِهِ عَلَى الْهَلَاكِ وَقُرْبِ الْحَالِ إِلَيْهِ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِرَادَةِ؟ فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أَيِ اشْرَفَ، وَقُرْبَ، عَلَى حَالِ السَّقُوطِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ مُوسَى يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لِشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَى الطَّعَامِ لثَلَا تَقَعَ لَهَا حَاجَةٌ إِلَى أَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ؛ إِذْ قَدْ وَقَعَ لَهَا إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ حِينَ ^(٤) قَالَ: ﴿اسْتَظْلَمَ أَهْلُهَا مَرَّةً﴾، فَلَمْ يُطْعِمُوهُمَا بُخْلًا مِنْهُمْ، فَارَادَ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا لثَلَا تَقَعَ لَهَا حَاجَةٌ إِلَيْهِمْ ثَانِيًا.

وَالثَّانِي: قَالَ لَهُ ذَلِكَ: لَمَّا لَمْ يَرَ أَهْلَ تِلْكَ الْبَلَدَةِ أَهْلًا لِيَضَعَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ، لِمَا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْبُخْلِ وَالضَّنَّةِ فِي الْإِطْعَامِ، حِينَ ^(٥) اسْتَظْلَمَهُمْ، فَلَمْ يُطْعِمُوهُمَا بُخْلًا مِنْهُمْ، وَضَنَّةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ فِي بَغْضِ الْقِصَّةِ أَنَّ الْجِدَارَ الَّذِي أَقَامَهُ صَاحِبُ مُوسَى، كَانَ طَوْلُهُ خُمْسَ مِثْقَالِ ذِرَاعٍ، وَقَامَتْهُ مِثْقَالُ ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهُ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، أَوْ نَحْوَهُ. وَتَحْتَهُ طَرِيقُ الْقَوْمِ. لَكِنْ لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ، إِنَّمَا الْحَاجَةُ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحِكْمَةِ وَالْفَوَائِدِ.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَائِنُكَ يَتَأَوَّلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أَيِ سَائِنُكَ بَيَانٌ مَا قُلْتَ لَكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. ثُمَّ بَيَّنَّهُ، وَفَسَّرَهُ لَهُ.

الآية ٧٩

فَقَالَ: ﴿أَنَا السَّيِّئَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَمْشُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أَيِ اجْعَلْهَا مَعِيبَةً. وَقَالَ ^(٦): ﴿وَكَانَ رَأْيُهُمْ مَلِكٌ﴾ ذَكَرَ فِي بَغْضِ الْحُرُوفِ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

فَعَلَى ذَلِكَ التَّأْوِيلِ فِيهِ ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أَيِ اجْعَلْهَا مَعِيبَةً لثَلَا يَأْخُذَهَا ذَلِكَ الْمَلِكُ غَصْبًا؛ إِذْ كَانَ لَا يَأْخُذُ إِلَّا [كُلًّا] ^(٧) سَفِينَةً صَالِحَةً صَحِيحَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفُلُكُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ اخْتَلِفَ فِي سَبْرِ ذَلِكَ الْغُلَامِ. [قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ الْغُلَامُ] ^(٨) كَبِيرًا بِالْعَمَاءِ. وَالْعَرَبُ قَدْ تُسَمِّي الرَّجُلَ الْبَالِغَ الَّذِي لَمْ يَلْتَحِ بَعْدَ، أَوْ لَمْ تَسْتَوْ لِحِيَّتُهُ غُلَامًا لِقُرْبِهِ لَوْفَتِ الْبُلُوغِ. وَلِذَلِكَ ^(٩) قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَفَتُلْكَ نَفْسًا رَكِيَةً يَغْتَرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤] وَالصَّغِيرُ مِمَّا لَا يُقْتَلُ إِذَا قُتِلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ. فَلَوْ كَانَ صَغِيرًا لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِ مُوسَى ﴿أَفَتُلْكَ نَفْسًا رَكِيَةً يَغْتَرِ نَفْسٍ﴾ [مَعْنَى] ^(١٠).

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: لِلْجِدَارِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَمَ: إِنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَ: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَ: قَوْلُهُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَكَذَلِكَ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ.

وهو كما روي عن رسول الله ﷺ [أنه قال: ^(١) «إِنْ إِيْمَانَكُمْ يَخِقُّ دِمَاءُكُمْ»] أي إيمانكم يخفق دماءكم ^(٢) [إذ ظهر منهم الدم. وبقوله: «لولا الإِيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»] [البخاري: ٤٧٤٧] إذا ظهر منها الرئي. فعلى ذلك قوله: «أَنْتَكَ نَفْسَا زَكِيَّةٌ بِغَيْرِ نَفْسٍ» لو كانت مُحْتَمِلَةً الْقَتْلَ بِالنَّفْسِ، والله أعلم.

ثم اختلف في سبب قتل الغلام. قال بعضهم: قتلَهُ لِكُفْرِهِ؛ كَانَ كَافِرًا، وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: «فَخَشِيتَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا» دَلَّ هَذَا أَنَّهُ كَانَ بِالْعَاقِبَةِ كَافِرًا، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا لَمْ يَلْحَقْ وَالِدَيْهِ مِنْهُ الطُّغْيَانُ وَالْكُفْرُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا قَتَلَهُ لِأَنَّهُ كَانَ لِيَصْأَ قَاطِعَ الطَّرِيقِ [يَقْطَعُ الطَّرِيقَ] ^(٣) عَلَى النَّاسِ، وَيَأْخُذُ أَمْوَالَهُمْ.

وعلى قول من يقول: إِنَّهُ كَانَ صَغِيرًا قَتَلَهُ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ بَلَغَ [بَلَغَ] ^(٤) كَافِرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ السَّبَبِ الَّذِي قَتَلَهُ حَاجَةٌ، وَلَا أَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ حِينَ قَالَ: «وَمَا قَتَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» [الكهف: ٨٢] وَلَكِنْ إِنَّمَا قَتَلْتُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، اللَّهُ أَنْ يَأْمُرَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ بِقَتْلِ الصَّغِيرِ عَلَى مَا لَهُ أَنْ يُمِيتَهُ وَعَلَى مَا يَأْمُرُ مَلِكُ الْمَوْتِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْخَلْقِ. فَعَلَى ذَلِكَ لَهُ أَنْ يُمِيتَهُ عَلَى يَدَيِ آخَرٍ، وَأَنْ يَقْبِضَ رُوحَهُ؛ إِذْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَخَشِيتَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا» لَيْسَ، هُوَ الْخَوْفُ، وَلَكِنْ: الْعِلْمُ؛ أَيِ عَلِمْنَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ أَبِي.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ اخْتَجَّ عَلَى قَتْلِهِ وَاهْلَاكِهِ بِمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَلْحَقُ أَبُوَيْهِ مِنْهُ الطُّغْيَانُ وَالْكُفْرُ، وَقَدْ تَرَكَ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ يَعِيشُونَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى الطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ، وَيُرْهِقُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالْفَوَاحِشِ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الظُّلُمَةُ الَّذِينَ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ إِلَّا كُلُّ شَرٍّ وَجَوْرٍ عَلَى النَّاسِ مِنْ تَرْكِهِمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ. فَمَا مَعْنَى الْإِخْتِجَاجِ فِي قَتْلِهِ وَاهْلَاكِهِ بِمَا ذَكَرَ مِنْ إِرْهَاقِ [الْوَالِدَيْنِ بِالطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ] ^(٥)؟

قِيلَ: لِهَذَا جَوَابَانِ:

[أَحَدُهُمَا] ^(٦): أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ يَمْتَحِنُ الْبَشَرَ بِمَعَانٍ وَعِلَلٍ وَأَشْيَاءَ، تَحْمِلُهُمْ تِلْكَ الْمَعَانِي وَالْأَشْيَاءُ عَلَى الرِّغْبَةِ وَالْجَنَاحِ فِي مَا امْتَحَنَهُمْ، وَإِنْ كَانَ لَهُ الْإِمْتِحَانُ لَا عَلَى تِلْكَ الْمَعَانِي وَالْعِلَلِ نَحْوُ مَا امْتَحَنَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ بِثَوَابٍ وَجَزَاءٍ ذَكَرَ لَهُمْ فِيهَا لَوْ فَعَلُوا، وَإِنْ كَانَ لَهُ الْإِمْتِحَانُ بِذَلِكَ عَلَى غَيْرِ ثَوَابٍ وَلَا جَزَاءٍ. وَكَذَلِكَ الْعُقُوبَاتُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْبَحْنِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلَى.

وَالثَّانِي: ذَكَرَ هَذَا لِيُطَبِّقَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ إِحْسَانًا مِنْهُ إِلَيْهِمْ وَإِنْعَامًا عَلَيْهِمْ؛ إِذْ لَهُ أَنْ يُمِيتَهُمْ صِغَارًا وَكِبَارًا. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ» الْآيَةَ [الشورى: ٢٧] وَقَدْ وَسَّعَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» الْآيَةَ [الزخرف: ٣٣] وَقَدْ جَعَلَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْخَلْقِ ذَلِكَ. لَكِنْ هَذَا لِمَا لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لِلْكَلِّ. فَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَفْعَلْ إِحْسَانًا مِنْهُ وَإِفْضَالًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَارْزُقْنَا أَنْ يَبْدُلَهُمَا رُحْمًا حَتَّى يَنْتَهَى ذُرِّيَّتُهُمْ وَرُحْمًا» قَالَ بَعْضُهُمْ: «حَتَّى يَنْتَهَى ذُرِّيَّتُهُمْ» أَيِ صِلَاحًا «وَأَقْرَبَ رُحْمًا» وَأَبْرَ بِوَالِدَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «حَتَّى يَنْتَهَى ذُرِّيَّتُهُمْ» أَيِ عَمَلًا «وَأَقْرَبَ رُحْمًا» أَيِ وَاحِسَنَ مِنْهُ بِرَأِ الْوَالِدَيْنِ. وَقَالَ ^(٧) أَبُو عَوَسَجَةَ: «رُحْمًا» مِنَ الرَّجَمِ وَالْقَرَابَةِ. وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: «رُحْمًا» أَيِ رَحْمَةً وَعَظْفًا. وَذَكَرَ أَنَّهُمَا قَدْ أُعْطِيَا خَيْرًا مِنْهُ، أَيِ خَيْرًا مِنَ الْقَتِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: حَيْثُ قَالَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهُمَا عَصِمُوا مِنِّي أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا» [البخاري: ٢٥] (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي م: كَانَ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الطُّغْيَانُ وَالْكُفْرُ بِالْوَالِدَيْنِ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْكَنْزُ. قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ مَالاً كَنْزَهُ أَبُوهُمَا. وَقَالَ^(١) ابْنُ عَبَّاسٍ: حَفِظَ بِصِلَاحِ أَبِيهِمَا وَمَا ذُكِرَ مِنْهُمَا صِلَاحاً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ الْكَنْزُ صُحُفًا^(٢) فِيهَا عِلْمٌ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ: لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عِلْماً لِأَنَّ الْعِلْمَ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ فِيهِ، فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُحْفَظَ ذَلِكَ دُونَ النَّاسِ. فَإِنْ ثَبَتَ، وَحُفِظَ مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ فَهُوَ مَالٌ وَعِلْمٌ.

وروي عن ابن مالك [أنه]^(٣) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ تَحْتَ الْجِدَارِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَتَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. عَجِبْتُ لِمَنْ آتَقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ/ ٣٢١- أ/ يَفْرَحُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ آتَقَنَ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ؟ وَعَجِبْتُ لِمَنْ آتَقَنَ بِزَوَالِ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبِهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَظْمِنُ إِلَيْهَا؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» [السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٢١] فَإِنْ حُفِظَ هَذَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبِهِ مَالٌ وَعِلْمٌ، لِأَنَّ اللَّوْحَ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا يَكْثُرُ، وَيَعْظُمُ قَدْرُهُ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي نِعْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَإِحْسَاناً عَلَيْهِمَا؛ إِذْ كَانَ لَهُ الْآلُ يَحْفَظُ ذَلِكَ لَهُمَا، وَلَا يُوصِلُهُ إِلَيْهِمَا عَلَى مَا لَمْ يُعْطِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ. لَكِنَّ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَيْهَا فَضْلٌ وَإِنْعَامٌ وَرَحْمَةٌ عَلَيْهِمَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ أَي تَأْوِيلُ مَا قُلْتُ لَكَ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]

نَمْ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى حِينَ^(٤) أُمِرَ بِالذَّهَابِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ وَالِاتِّبَاعَ لَهُ وَالصُّحْبَةَ مَعَهُ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ الْعِلْمَ، فَلَمْ يَسْتَفِذْ مِنْهُ إِلَّا عِلْمَ مَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ وَسَبَبَ حُلِّ ذَلِكَ لَهُ؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ بِإِنْكَارِ مَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ فِي الظَّاهِرِ مُنْكَرَةٌ. لَكِنْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اسْتِفَادَ مِنْهُ عُلُوماً كَثِيرَةً مِثْلَ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لَنَا ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقول أهل التأويل: اسْمُ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ صَاحِبُ مُوسَى خَشْنُونًا^(٥)، وَلَا أُدْرِي مَاذَا؟ وَوَالِدَاهُ اسْمُهُمَا كَذَا، لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِمْ حَاجَةٌ، وَكَذَا اسْمُ الْغُلَامَيْنِ الْيَتِيمَيْنِ صَاحِبِي الْجِدَارِ: أَضْرَمُ وَصَرِيمُ، وَلَا أُدْرِي مَاذَا؟ وَلَا حَاجَةٌ بِنَا إِلَى ذَلِكَ.

وقولهم: كَانَ صَاحِبُ مُوسَى خُضْرًا، وَإِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ خُضْرًا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قُرْوَةٍ بِيضَاءٍ، فَاخْضَرَّتْ، فَذَلِكَ أَيْضاً مِمَّا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْخَبَرِ عَنِ الْوَحْيِ وَخِي السَّمَاءِ، فَلَا تَقُولُ فِيهِ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْكِتَابُ [وَمَا قِيلَ]^(٦) فَإِنَّهُ يُخْرِجُ ذِكْرَهُ مُخْرَجَ الشَّهَادَةِ عَلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ حَصُولِ النَّفْعِ لَنَا فِي [عَمَلِ ذَلِكَ] أَوْ غَيْرِهِ. وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ إِلَّا ذِكْرُ عَبْدِ ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] وَذِكْرُ الْغُلَامِ^(٧) وَذِكْرُ الْفَتَى وَذِكْرُ غُلَامَيْنِ ﴿يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] وَأَمثَالُهُ؛ يُقَالُ مَا فِيهِ، وَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ مَخَافَةَ الشَّهَادَةِ عَلَى اللَّهِ بِالْكَذِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿وَسْتَلُونَا عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ هُوَ عَنْ خَبَرِ ذِي الْقُرْنَيْنِ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿وَسْتَلُونَا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: سَأَلُوكَ.

وَالْخَبَرُ الَّذِي رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجَهَنِّيُّ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً؛ لِأَنَّهُ رَوَى أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ جَاؤُوا بِالصُّحُفِ وَالْكِتَابِ، فَقَالُوا لِي: اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِنَدْخُلَ^(٨) عَلَيْهِ، فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَاخْبَرْتُهُ بِمَكَانِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِي وَلَهُمْ؟ يَسْأَلُونَ عَمَّا لَا أَعْلَمُ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، لَا عِلْمَ لِي إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي. ثُمَّ قَالَ: أَبْلِغْنِي وَضُوءًا [أَتَوْضَأُ بِهِ]^(٩) فَتَوَضَّأَ. ثُمَّ قَامَ إِلَى مَسْجِدٍ فِي بَيْتِهِ، فَرَكَعَ [رَكَعَتَيْنِ]. فَمَا^(١٠) أَنْصَرَفَ حَتَّى بَدَأَ لِي السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَذْهَبْ،

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مصحفاً. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) انظر الوجه الثالث من باب غلام في كتابنا (وجوه القرآن) للضريح الحيري. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: الغلامين. (٨) في الأصل وم: لندخلن. (٩) من م، في الأصل: أو توضع. (١٠) في الأصل وم: فيه ركعتين فلما.

فَادْخُلْهُمْ وَمَنْ وَجَدْتَ مِنْ أَصْحَابِي، فَاذْخُلْتُهُمْ. ^(١) فلما رَأَاهُم النَّبِيُّ قَالَ لَهُمْ: إِنْ شِئْتُمْ أَخْبَرْتُكُمْ عَمَّا تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ. [السيوطي في الدر المنثور ج ٥/٤٣٧] فهذا إِنْ ثَبَتَ [فإنه] ^(٢) يَدُلُّ أَنْهَ نَزَلَ عَلَيْهِ نَبَأُ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَخَبَرُهُ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ.

وَأَمَّا أَهْلُ التَّوِيلِ [فقد] ^(٣) قالوا جميعاً: إِنَّهُ سُئِلَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ خَبَرُهُ، ثُمَّ نَزَلَ مِنْ بَعْدِ السُّؤَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ الْحَسَنُ: كَانَ نَبِيًّا. دَلِيلُهُ مَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا يَدَّا الْفَرِيقَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُدَبِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَنْجِدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] قَالَ: هَذَا تَحْكِيمٌ مِنَ اللَّهِ إِيَّاهُ فِي مَا ذَكَرَ، وَلَا يُؤَلِّي الْحُكْمَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَبِيًّا.

وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَإِنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ: كَانَ نَبِيًّا أَوْ مَلِكًا؟ فَقَالَ: لَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا.

وَقَالَ غَيْرُهُمْ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُ كَانَ مَلِكًا. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الْخَبَرُ الَّذِي رَوَى عَفِيَّةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ خَبَرِهِ وَنَبِيِّهِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَامًا مِنَ الرُّومِ، أُعْطِيَ مُلْكًا، فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ كَذَا عَلَى مَا ذَكَرَ فِي الْخَبَرِ.

الآية ٨٤

وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ أَنَّهُ كَانَ مَلِكًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ ﴿إِنَّمَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾؟ [أَي مَلَكْنَا لَهُ الْأَرْضَ] ^(٤) جُمْلَةً. ذَكَرَ تَمَكِينَ الْأَرْضِ لَهُ جُمْلَةً، يَصْنَعُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، لَمْ يَخْصُصْ لَهُ نَاجِيَةٌ مِنْهَا دُونَ نَاجِيَةٍ. وَلَيْسَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ نَسْجُدْ لَهُمْ حَرَمًا مَبِينًا﴾ [القصص: ٥٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ههنا خَصَّصَ مَكَانًا لَهُمْ دُونَ مَكَانٍ. وَأَمَّا فِي ذِي الْقَرْنَيْنِ فَذَكَرَ ^(٥) التَّمَكِينَ لَهُ فِي الْأَرْضِ، لَمْ يَخْصُصْ نَاجِيَةً مِنْهَا دُونَ نَاجِيَةٍ؛ فَهُوَ أَنْ مَلَكَّهُ، وَمَكَّنَ [لَهُ] ^(٦) الْأَرْضَ كُلَّهَا.

وَقَوْلُ الْحَسَنِ: إِنَّهُ ^(٧) عَلَّمَهُ، وَوَلَّى لَهُ الْحُكْمَ، فَهَذَا لَا يَدُلُّ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا؛ لِأَنَّ الْمُلُوكَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ الْجِهَادَ وَالْعَزَّوْنَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَبْتَنَّا لَنَا مَلِكًا نُفَعِّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟ [البقرة: ٢٤٦] إِنَّ الْمُلُوكَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ الْجِهَادَ وَالْعَزَّوْنَ وَالْقِتَالَ فِي ذَلِكَ [الزَّمَانِ] ^(٨) مَعَ الْعَدُوِّ، فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَقَوْلِهِ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُنَبِّئُهُ﴾ [الكهف: ٨٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً أَلْحَسُّنَ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُتْرَا﴾ [الكهف: ٨٨] ^(٩) يَخْتَمِلُ هَذَا مِنْهُ إِلَهَامًا ^(١٠) مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ تَعْلِيمَ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ فِيهِ أَوْ كَانَ مَعَهُ نَبِيٍّ، فَأَخْبَرَ لَهُ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ: قَالَ بَعْضُهُمْ: عِلْمُ الْمَنَازِلِ أَيْ ^(١١) مَنَازِلِ الْأَرْضِ وَمَعَالِمِهَا وَأَتَارِهَا. وَقَالَ [بَعْضُهُمْ] ^(١٢): الْعِلْمُ وَالْفُؤَّةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِعْطَاءُ السَّبَبِ الَّذِي بِهِ صَلَاحٌ مَا مَكَّنَ لَهُ، وَمَلَّكَ لَهُ [مِمَّا تَقَعُ] ^(١٣) الْحَاجَةُ إِلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ السَّبَبُ، كَانَ أَنْعَامًا، كَانَ عَلَيْهَا يَحْمِلُ الْحَشَبُ، فَيَتَّخِذُ مِنْهُ سَفِينَةً إِنْ اسْتَقْبَلَهُ بَحْرٌ، فَيَغْبِرُ بِهَا، ثُمَّ يَقْضُضُهَا، وَيَحْمِلُ الْحَشَبُ عَلَى الْأَنْعَامِ، وَيَغْبِرُ الْبَرُّ عَلَى الدَّوَابِّ. فَذَلِكَ السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَ.

وَأَصْلُهُ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ آتَاهُ الَّذِي بِهِ صَلَاحٌ مَا مَكَّنَ، وَمَلَّكَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ مَا ذَلِكَ السَّبَبُ؟ فَلَا نَدْرِي مَاذَا أَرَادَ بِذَلِكَ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٨٥ و ٨٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْبَى الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَنَبٍ حَتَّىٰ﴾ ﴿وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَنَبٍ حَتَّىٰ﴾ كَانَهُ أَرَادَ، وَطَلَبَ أَنْ يَعْرِفَ أَنهَا أَيْنَ تَغْرُبُ؟ حِينَ ^(١٤) قَالَ: ﴿حَتَّىٰ﴾ وَفِيهِ لَفْتَانِ ^(١٥): حَتَّىٰ وَحَامِيَةٌ. قَالُوا: مَنْ قَرَأَهَا حَامِيَةً أَرَادَ فِي عَيْنِ حَارَّةٍ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿حَتَّىٰ﴾ مَهْمُوزَةً بِغَيْرِ الْفِ أَرَادَ الْحَمَاءَ، وَهِيَ الطِّينَةُ السُّودَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَدَهَا عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانُوا كُفَّارًا وَمُؤْمِنِينَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا. فَقَالَ فِي الْكُفَّارِ: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُدَبِّبَ﴾ وَهُوَ الْقَتْلُ. وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَإِنَّمَا أَنْ تَنْجِدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] لَيْسَ عَلَى التَّخْيِيرِ، وَلَكِنْ عَلَى الْحُكْمِ فِي كُلِّ فَرِيقٍ عَلَى جِدَّةٍ. وَقَالَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاذْخُلْهُمْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَهُ. (٤) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِنْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَهَام. (١٠) فِي الْأَرْضِ وَم: أَنْ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٩/٤.

بعضهم: كانوا كلهم كفاراً، فيكون تأويله: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَدَّبَ﴾ إذا لم يجيبوك، ﴿وَلَئِنْ أَنْ تَنَحَّدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إذا أجابوك، وآمنوا بالله.

الآيتان ٨٧ و ٨٨ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ غَيْرُ الْمُنْكَرِ﴾ هذا [ما ذكرنا]^(١) أنه حكّم بذلك بتعليم نبيّ كان معه، أو حكّم بذلك لما كان عَرَفَ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْكُفَّارِ: الْقَتْلُ. والإهلاك، وفي المؤمنين: الثَّركُ والإحسان، أو ألهم بذلك إلهاماً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَتَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُتْرَكَ﴾ أي عارفاً. وقال بعضهم: ﴿يُتْرَكَ﴾ معروفاً وقال بعضهم: اليسر هو اسم كل خير وبركة، والله أعلم بذلك.

الآية ٨٩ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ سَبَّأٌ﴾ أي بلاغاً لإحاجته. وقال غيره: ما ذكرنا من السبب الذي به ملك طريق المغرب والمشرق، وبه بلغ ما بلغ، والله أعلم.

ثم اختلفوا في ما سُمِّيَ ذا^(٢) القرنين لأنه دعا قومَهُ إلى توحيد الله والإيمان به، فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنَيْهِ الْإِيمَانِ، ثم غاب ما شاء الله. وفي بعض/ ٣٢١ - ب/ الأخبار مات، ثم حَضَرَ، فَدَعَاهُمْ ثَانِيًا، فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنَيْهِ الْإِسْرِ، فَبَقِيَ عَلَيْهِ لِذَلِكَ [اثر، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ]^(٣) ذا القرنين، لا أن كان له [قرنان كَقَرْنَيْ الثَّورِ]^(٤) وقال بعضهم: سُمِّيَ ذا القرنين لأنه كان له ذَوَابْتَانِ؛ أعني صَفِيرَتَانِ. وقال بعضهم: سُمِّيَ ذا^(٥) القرنين لأنه بَلَغَ قَرْنَيْ الشَّمْسِ مَغْرِبَهَا وَمَطْلِعَهَا. وقال بعضهم: سُمِّيَ ذا القرنين لأنه عاش حياة قَرْنَيْنِ، والله أعلم بذلك. وليس لنا إلى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ.

الآية ٩٠ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ النَّهْرِ﴾ بالسبب الذي ذَكَرَ أَنَّهُ أَعْطَاهُ [إِيَّاهُ لَمَّا]^(٦) بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴿وَجَدَهَا تَقْلَعُ مِنْ قَوْرِ لَدَىٰ جَبَلٍ لَّهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾. قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ تِلْكَ الْأَرْضَ تَمِيدُ، وَتَمِيعٌ، لَا تَقِيرُ، وَلَا تَسْكُنُ، وَ^(٧) لَا تَحْتَمِلُ الْبِنَاءَ وَالْحَجَرَ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ طَلَعَتْ عَلَيْهِمْ، لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِنَاءٌ وَلَا سِتْرٌ، تَهَوَّرُوا فِي الْبَحَارِ. فَإِذَا ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ خَرَجُوا.

وقال ابن عباس: إِنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ كَانَتْ حَرَارَتُهَا أَشَدَّ عِنْدَ طُلُوعِهَا مِنْ غُرُوبِهَا، فَتَحْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى لَا يُبْقِيَ لَهُمْ ثَوْبًا^(٨) وَلَا بِنَاءً وَلَا خَشَبًا^(٩) وَلَا غَيْرَهُ إِلَّا أَخْرَقَتْهُ.

الآية ٩١ وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كذلك أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَبَأِ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَخَبَرَهُ عَلَى مَا كَانَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أَغْطَيْنَا لَهُ مِنَ السَّبَبِ حَتَّى بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ كَمَا بَلَغَ مَغْرِبُهَا بِالسَّبَبِ الَّذِي ذَكَرَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَذَلِكَ﴾ قِيلَ لَهُ فِي الْمَطْلِعِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَدَّبَ وَلَئِنْ أَنْ تَنَحَّدَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] كَمَا قِيلَ لَهُ فِي الْمَغْرِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: [هو]^(١٠) صِلَةُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ أي عَنْ عِلْمِ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هو على الابتداء، ليس على الربط والصلة على الأول؛ أي قد أحطنا علماً^(١١) بما لديه.

الآيتان ٩٢ و ٩٣ [وقوله تعالى:]^(١٢) ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ سَبَّأٌ﴾ ما ذكرنا في بُلُوغِهِ مَغْرِبَهَا وَمَطْلِعَهَا، أي أَغْطَيْنَا لَهُ مِنَ السَّبَبِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ﴾ فِي بَعْضِ الْقَرَاءَاتِ السَّدَيْنِ، بِالرَّفْعِ^(١٣) فَإِنَّ كَانَ بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ فَرْقٌ فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ السَّدَانِ بِالرَّفْعِ الْجَبَلَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا هُنَاكَ. وَالسَّدَيْنِ بِالنَّصْبِ هو بِنَاءُ ذِي الْقَرْنَيْنِ. وَإِنْ لَمْ يَحْتَمِلِ الْفَرْقُ فَهُوَ مَا بَنَى هُوَ، أَوْ مَكَانُ^(١٤) فِي

(١) في الأصل وم: ذو. (٢) في الأصل وم: ذو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: قرن كقرن. (٥) في الأصل وم: ذو.

(٦) في الأصل وم: كما. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ثوب. (٩) في الأصل وم: خشب. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

(١١) في الأصل وم: علمنا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: بالنصب، انظر معجم القراءات القرآنية ج ١٣/٤. (١٤) في الأصل وم: مكانا.

الْخَلْقَةِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ السَّدُّ. قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْمَنْقَذُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ طَرَفَيْ الْجَبَلِ الَّذِي كَانَ مُحِيطًا بِالْأَرْضِ، يَدْخُلُ فِيهِ بِأَجْرٍ وَمَاجِرُ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ. فَسَدَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الْمَنْقَذَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ كَانَا جَبَلَيْنِ أَخَذَهُمَا: سِتْرٌ^(١) بَيْنَ يَاجُوجَ.

والثاني: بَيْنَ مَاجِرَ. فَسَدَّ [ذُو الْقَرْنَيْنِ]^(٢) ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ؟.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَّ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: كَانُوا يَفْقَهُونَ مَا بِهِ صَلَاحٌ مَعَاشِيَهُمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ. وَلَكِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ وَنَحْوَهُ.

الآية ٩٤ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَفْقَهُونَ قَوْلًا مِنْ غَيْرِ كَلَامِهِمْ وَلِسَانِهِمْ. وَلَكِنْ يَفْقَهُونَ بِلِسَانِهِمْ وَكَلَامِهِمْ. وَذُو الْقَرْنَيْنِ كَانَ يَعْرِفُ الْأَلْسُنَ كُلَّهَا، فَفَقَّهُوا هُمْ [مِنْهُ]^(٣)، وَفَقَّهَ هُوَ مِنْهُمْ حِينَ^(٤) ﴿قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجَ وَمَلْجُوجَ مُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا﴾ أَيْ جُعَلًا: أَجْرًا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

الآية ٩٥ ﴿وَقَالَ﴾ هُوَ ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فَيَمُّ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْهُمْ، وَفَقَّهُوا أَيْضًا مِنْهُ مَا ذَكَرْنَا. فَذَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ بِلِسَانٍ غَيْرِهِمْ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الْقَوْلِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ كَثِيرًا، لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فَهَرِ يَتَكَلَّمُ عَلَى الْقُرْبِ لَا عَلَى الْبُعْدِ رَأْسًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجَ وَمَلْجُوجَ مُفِيدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا﴾^(٥) جُعَلًا وَأَجْرًا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ عَلَى تَأْوِيلٍ، يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ لِأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ نَبِيًّا حِينَ^(٦) قَالَ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ [الكهف: ٨٤]

وَعَلَى قَوْلٍ غَيْرِهِ يَكُونُ ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّبَبِ الَّذِي أَعْطَانِي، وَأُبْلَغَ بِهِ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَمَطْلَعَهَا ﴿خَيْرٌ﴾ مِمَّا تَذْكُرُونَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أَيْ بِمَا اتَّفَقُوا بِهِ ﴿أَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَمْدًا﴾ أَيْ سَدًّا.

الآية ٩٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أَيْ قِطْعَ الْحَدِيدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَأَلَهُمُ الْحَدِيدَ لِأَنَّ الْمَكَانَ مَكَانَ الْحَدِيدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْحَدِيدَ كَانَ أَلْتَيْنِ لَهُمَا مِنَ اللَّيْنِ أَوْ الْقِطْرِ. وَلَكِنْ لَا يُغْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّمْعِ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنَ بَيْنَ الصَّطَفَيْنِ﴾ أَيْ بَلَغَ ذَلِكَ السَّدُّ رَأْسَ الصَّدَفَيْنِ، وَهُمَا جَبَلَانِ، وَسَوَّى بَيْنَهُمَا^(٧)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أَيْ أَصَبَ عَلَيْهِ قِطْرًا: قِيلَ: نُحَاسًا، وَقِيلَ: رَصَاصًا. ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَنْسُطُ الْحَدِيدَ صَدْرًا، ثُمَّ يَنْسُطُ الْحَطَبَ فَوْقَهُ صَدْرًا، ثُمَّ حَدِيدًا فَوْقَ الْحَطَبِ حَتَّىٰ بَلَغَ رَأْسَ الْجَبَلَيْنِ، وَسَوَّى بَيْنَهُمَا^(٨) عَلَى هَذَا السَّبِيلِ. ثُمَّ أَذِيبَ الْقِطْرُ، فَصَبَّ فِيهِ، فَجَعَلَ الْقِطْرُ يَخْرُقُ الْحَطَبَ، وَيُذِيبُ الْحَدِيدَ حَتَّىٰ دَخَلَ الْقِطْرُ مَكَانَ الْحَطَبِ، وَصَارَ مَكَانَهُ، فَالْتَزَقَ الْقِطْرُ بِالْحَدِيدِ. عَلَى هَذَا ذُكِرَ أَنَّهُ بَنَى ذَلِكَ السَّدَّ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانَ الْقِطْرُ لَهُ كَالْمِلَاطِ لَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أَيْ يَغْلُوهُ؛ يَعْنِي عَلَى ذَلِكَ السَّدِّ ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَقْبَأُوا﴾ فِي أَسْفَلِهِ وَلَا يُزَادُ عَلَى الْمَذْكُورِ فِي الْكِتَابِ فِي هَذِهِ الْأَنْبَاءِ وَالْقِصَصِ خَوْفًا [مِنْ الشَّهَادَةِ]^(٩) عَلَى اللَّهِ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ نَذَكَّرُ بِمِقْدَارِ مَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ، لَا تَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ. وَفِي الْكِتَابِ الْقُدْرُ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: سِتْرًا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: خَرَجًا وَمِي قِرَاءَةً حَمِزَةً وَالْكَسَاةَ وَغَيْرَهُمَا، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤/ ١٤. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِيَمَاءٍ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: بِيَمَاءٍ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِيَمَاءٍ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بِيَمَاءٍ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلشَّهَادَةِ.

قَالَ الْقَتْبِيُّ: يُقَالُ لِلْجَبَلِ السَّدُّ، وَزُبُرٌ^(١) قَطْعٌ، وَالْقَطْرُ النَحَاسُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أَي يَغْلُوهُ؛ يُقَالُ: ظَهَرَ فَلَانُ السَّطْحِ إِذَا عَلَا. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ، وَقَالَ: السُّدَيْنِ: نَاجِيَتِي الْجَبَلِ، وَالرُّذْمُ السَّدُّ، وَالصَّدْفَيْنِ هُوَ مِثْلُ السُّدَيْنِ ﴿أَنْفِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ أَي أَصْبِ عَلَيْهِ نُحَاسًا.

الآية ٩٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ [يَكُونَ]^(٢) السَّدُّ الَّذِي بَنَى، وَحَالٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ^(٣)، مِنْهُ رَحْمَةٌ، أَي بِرَحْمَتِهِ كَانَتْ تِلْكَ الْحِيلَةُ، أَي^(٤) كَانَ ذَلِكَ مَنَّةً وَنِعْمَةً^(٥) مِنَ اللَّهِ، وَالرَّحْمَةُ هِيَ النِّعْمَةُ؛ أَي هَذَا السَّدُّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّي عَلَيْكُمْ. ثُمَّ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: ذَكَرَ أَنْ ذَلِكَ كَانَ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ، إِذَا قَرَعَ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَ فِي الْإِبْتِدَاءِ حِينَ سَأَلُوهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ السَّدَّ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى نَفْسِهِ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿فَأَعِثُّونِي يَقُولُ لِمَنْ يَنْتَكِرُ بَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ فَذَلِكَ أَنَّ مَا فَعَلَ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَأَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ صُنْعًا.

وَالثَّانِي: فِيهِ أَنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ بِالْخَلْقِ مَا لَيْسَ هُوَ بِأَصْلَحَ لَهُمْ فِي الدِّينِ، لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو: إِنَّمَا أَنْ كَانَ الْأَوَّلُ لَهُمْ أَصْلَحَ فِي الدِّينِ، ثُمَّ فَعَلَ الثَّانِي: [فَلَا يَكُونُ الثَّانِي: أَصْلَحَ لَهُمْ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا^(٧) أَنْ كَانَ الْأَصْلَحُ]^(٨) لَهُمْ فِي الدِّينِ الثَّانِي: فَالْأَوَّلُ لَمْ يَكُنْ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أَي ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وَهُوَ الْمَوْعُودُ، لِأَنَّ الْوَعْدَ لَا يَجِيءُ؛ فَكَانَهُ قَالَ: مَوْعُودُ رَبِّي، وَهُوَ خُرُوجُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، أَوْ فَتْحُ ذَلِكَ السَّدِّ ﴿جَمَلَهُ دَكَّاءً﴾ أَي كَسْرًا أَوْ هَذَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا. [وَقَوْلُهُ^(٩) ﴿جَمَلَهُ دَكَّاءً﴾ أَي هَذَا، وَسَوَاءٌ بِالْأَرْضِ.

وَقَالَ الْقَتْبِيُّ: ﴿جَمَلَهُ دَكَّاءً﴾ أَي الصَّفَقَةَ بِالْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ هَذَا وَعْدٌ، وَالْأَوَّلُ مَوْعُودٌ.

الآية ٩٩

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَزَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي بَعْضٍ﴾ أَي يَجُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَتَوَجَّعُ فِي بَعْضٍ﴾ عِنْدَ السَّدِّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ يَمُوجُونَ عِنْدَمَا^(١٠) فَتَحَ ذَلِكَ السَّدَّ. أَوْ يَذْكُرُ هَذَا لِكَثْرَتِهِمْ وَازْدِحَامِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَنَجَّيْنَاهُمْ أَجْمَعًا﴾ ظَاهِرُهُ عَلَى الْمَاضِي، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْمُسْتَقْبَلُ، أَي يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَجْمَعُهُمْ جَمِيعًا. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ: يَذْكُرُ الْمَاضِي بِحَرْفِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْمُسْتَقْبَلُ بِحَرْفِ الْمَاضِي / ٣٢٢ - /.

الآية ١٠٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَرَّضَهَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَزَقْنَا الْجَبِينِ لِقَآؤَيْنِ﴾ [الشعراء: ٩١]

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ الْعَرَضُ كِنَايَةً عَنِ التَّعْذِيبِ بِهَا بَعْدَ مَا أَدْخَلُوا فِيهَا كَقَوْلِهِ: ﴿الْكَافِرُ يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا عَذَابًا وَعِشَابًا﴾

[غانر: ٤٦]

الآية ١٠١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَلَاظٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ ظُلُمَةَ الْكُفْرِ تَنْتَرُّ، وَتَحْجُبُ نُورَ الْقَلْبِ، وَنُورَ كُلِّ حَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفَوَادِ وَغَيْرِهِ؛ إِذْ لِكُلِّ حَاسَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْحَوَاسِّ نُورٌ وَضِيَاءٌ فِي سِرِّيَّتِهَا، لَا تُبْصِرُ، وَلَا تَسْمَعُ الْحَقَّ وَالْحُجَّةَ إِلَّا بِنُورَيْنِ جَمِيعًا نُورِ الظَّاهِرِ وَنُورِ السَّرِيَّةِ وَالْبَاطِنِ.

فَالْكُفْرُ يَنْتَرُّ، وَيُعْطِي ذَلِكَ النُّورَ [فَيَجْعَلُ صَاحِبَهُ]^(١١) لَا يُبْصِرُ الْحَقَّ، وَلَا يَنْظُرُ الْعِزَّ، وَلَا يَتَفَكَّرُ، وَلَا يَتَجَلَّى لَهُ الْحَقُّ بِنُورِ الظَّاهِرِ.

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدما في الأصل وم: فذلك. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في م: أو. (٨) من م، في الأصل: أصلح. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عنده في. (١١) في الأصل وم: فجعل.

وللإيمان نورٌ وضياءٌ يُبَصِّرُ [صَاحِبَهُ] ^(١) به، وَيُسْمِعُ، وَيَرْفَعُ ^(٢) له غطاء كل شيء حتى يَتَجَلَّى له الحق، وَيَعْرِفُ به حَسَنَ [كل حَسَنٍ] ^(٣) ويُفْهِمُ كل قَبِيح. فهو كما يرى الإنسان الشيء بنور بَصَرِهِ وينور الهواء. فإذا دَقَبَ أَحَدُهُمَا صارَ بحيث لا يُبَصِّرُ، ولا يَرَى شيئاً. فعَلَى ذلك إنما يَعْرِفُ الشيء، وتَظْهَرُ له حَقِيقَتُهُ بنورين بنور القلب وبنور الحواس. فإذا غَطَّت ظُلُمَةُ الكُفْرِ نورَ القلب صارَ لا يُبَصِّرُ شيئاً، ولا يَعْتَبِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَنْطِقُ بالحق. والإيمان يُنَوِّرُ ذلك [القلب، ويضيئه، فيَجْعَلُهُ] ^(٤) يُبَصِّرُ كل شيء، وَيَتَجَلَّى له الحق من الباطل، وَيَعْرِفُ ^(٥) الآيات من التَّوْحِيدَات، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَنَعًا﴾ فيه وجهان من الدلالة:

أحدهما: أنه نفى عنهم استِطَاعَةَ السَّمْع، وقد كان لهم السَّمْع. فدلَّ أن الاستِطَاعَةَ التي هي استِطَاعَةُ الفِعْلِ تَقْتَرِنُ بالفعل، لا تَقْدُمُ، ولا يَتَأَخَّرُ [حين] ^(٦) قال: ﴿وَكَاثُرًا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَنَعًا﴾ وكذلك قولُ صاحب موسى حين ^(٧) قال له ﴿إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨ و ٧٢ و ٧٥] في [ثلاثة] ^(٨) مواضع، فدلَّ ما نفى عنه الفعل إنما تَقَارَنُ الفعل، لا تَحْتَمِلُ التَّقْدُمَ والتَّأَخُّرَ ^(٩).

والثاني: فيه دلالة أن هنالك استِطَاعَةً، هم يَسْتَفِيدُونَ بما وَعَدَ اللهُ، وَيَسْتَوْجِبُونَ به، فَضَيَعُوهَا بِاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِهَا حين ^(١٠) عُوتِبُوا، واستَوْجَبُوا ذلك العتاب والتوبيخ بالتضييع الذي كان منهم. فلو لم يَكُنْ [ذلك منهم] ^(١١) لم يكن للعتاب والتوبيخ الذي عُوتِبُوا، وَوُبِّخُوا مَعْنَى.

قال قوم: إنما نفى عنهم ذلك لِإِسْتِثْقَالِ الذي كان منهم. وقد يقال مثله على المجاز لِإِسْتِثْقَالِ دُونَ الحقيقة؛ يقول الرجل لآخر: ما أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْكَ لِكَذَا، وهو ناظر إليه. لكن قد ذَكَرْنَا أنه على الوجه الذي قال: لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْكَ، وهو ناظر إليه، غَيْرَ مُسْتَطِيعِ النظر إليه، وهو نَظَرٌ رَحِمَةً وَشَفَقَةً.

وقال بعضهم: هو على الطَّنِيع، وهو قول الحَسَنِ. وقال بعضهم: إنما نفى ذلك عنهم لِإِمْا لم يَتَنَفَّعُوا به كما نفى عنهم ^(١٢) السَّمْعَ والبَصَرَ والنُّطْقَ لِإِمْا لم يَتَنَفَّعُوا به، ليس على أنهم لم يَكُنْ لهم تلك الحواس. فعَلَى ذلك ما نفى عنهم مِنَ الاستِطَاعَةِ لِإِمْا لم يَتَنَفَّعُوا بها، ليس على أنها ليست قبل هكذا. نفى عنهم ذلك لَمَّا عَمُوا، وَصَمُّوا عَنْ ذلك، والله أعلم.

الآية ١٠٢ وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها] ^(١٣) قال بعضهم: قوله: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عِبَدُوا فِي الدُّنْيَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّسُلَ، وَاتَّخَذُوهُمْ مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ أَنْ يَكُونُوا لَهُمْ آلِهَاتٌ فِي الْآخِرَةِ، وَيَتَوَلَّوْنَ شَفَاعَتَهُمْ، يَشْفَعُونَ لَهُمْ، وَيَنْصُرُونَ. كلا لن ^(١٤) يصيروا لهم آلِهَاتٍ كَقَوْلِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولهم ^(١٥): ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

والثاني: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ الْمُخْلِصِينَ ﴿دُونِ آلِهَاتٍ﴾ وَيَتَوَلَّوْهُمْ ^(١٦)؛ أي لا يَقْدِرُونَ على أَنْ يَتَّخِذُوا آلِهَاتٍ مِنْ دُونِي، وقد ^(١٧) كانوا يدعون المؤمنين إلى دينهم والتَّوَلَّيْ لَهُمْ، وهو ما قال: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ] [النحل: ٩٩ و ١٠٠].

والثالث: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ أَنْ مَا عِبَدُوا، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِي آلِهَاتٍ أَنِي أَمَرْتُهُمْ بِذَلِكَ، وَأَذْنْتُ لَهُمْ حين ^(١٨) قالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ونحوه ^(١٩). كلا إنه [ما أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وما] ^(٢٠) أَذْنُ لَهُمْ فِي ذلك.

وَمَنْ قَرَأَ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ عَلَى الْجَزْمِ ^(٢١) فهو على إسقاط ألفِ الاستِثْقَالِ؛ يَغْنِي فَحَسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فهو يُخْرِجُ على وجوه ثلاثة:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ويُبَصِّرُ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويضيء. فجعل. (٥) في الأصل وم: وعرفوا. (٦) في الأصل: حيث. (٧) في الأصل: حيث. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: إن. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: ويتولونهم. (١٧) من م، في الأصل: و. (١٨) في الأصل وم: حيث. (١٩) من م، في الأصل: ونحو. (٢٠) في الأصل وم: أمرهم بذلك أو. (٢١) هي قراءة ابن كثير وغيره، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ١٩.

أَحْذَرُهَا: فَحَسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاتَّخَذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ مَا أَعْتَدْنَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ كَقَوْلِهِ^(١): ﴿حَسِبْتُمْ أَنَّهُمْ يَسْمَلُونَ﴾ الآية [المجادلة: ٨].

والثاني: فَحَسِبُ^(٢) الَّذِينَ كَفَرُوا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ؛ أَي أَمَا كَفَاهُمْ ذَلِكَ؟ وما حَانَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى عِبَادَتِي وَالْوَهْيَتِي؟ وَقَدْ أَقَمْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ عَلَى ذَلِكَ.

والثالث: فَحَسِبُ^(٣) لَهُمْ مِنَ الذَّلِّ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿نُزُلًا﴾ هُوَ النُّزُولُ، وَهُوَ كَالنُّزْلِ^(٤). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْمُنْزِلُ وَالْأَنْزَالُ، أَي يَأْكُلُونَ فِيهَا النَّارَ، فَيَكُونُ مَا كُلُّهُمْ وَمَشْرَبُهُمْ مِنَ النَّارِ. قَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: النُّزْلُ مَا يَتَقَدَّمُ لِلضَّيْفِ وَلِأَهْلِ الْعَسْكَرِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ سَدَّ سَعْيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا خَرَجَ عَلَى مُقَابَلَةِ قَوْلِ مَنْ كَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُفْرَةِ وَجَوَابَ لَهُمْ؛ وَهُوَ أَنَّ الرُّؤَسَاءَ مِنْهُمْ كَانُوا يُوسِعُونَ الدُّنْيَا عَلَى بَعْضِ أَتْبَاعِهِمْ، وَيُخْسِنُونَ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ صَارَ أُولَئِكَ الْأَتْبَاعُ أَتْبَاعًا لِرَسُولِ اللَّهِ، وَدَخَلُوا فِي دِينِهِ، فَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَذَهَبَتْ الْمَنَافِعُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ مِنْهُمْ، فَغَيَّرَهُمْ بِذَلِكَ أُولَئِكَ الْكُفْرَةُ، وَوَيَّخَوْهُمْ، عَلَى مَا اخْتَارُوا مِنَ الدِّينِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ حَقًّا لَأَتَّسَعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا كَمَا اتَّسَعَتْ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ مَا دَامُوا عَلَى دِينِنَا أَوْ كَلَامِ نَحْوِ هَذَا فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الآية.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْإِتِّدَاءِ فِي أَهْلِ الصَّوَامِعِ مِنْهُمْ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ اغْتَزَلُوا النِّسَاءَ، وَحَسَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَجَهَدُوا^(٥) هُمْ فِيهَا، وَحَمَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الشَّدَائِدَ وَالْمَشَقَّةَ. فَأَخْبَرَ^(٦) أَنْ هَؤُلَاءِ أَخْسَرُ أَعْمَالًا وَأَضَلُّ^(٧) سَبِيلًا مِنَ الَّذِينَ طَلَبُوا الدُّنْيَا وَالرَّائِسَةَ فِيهَا، وَلَمْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْكُفْرِ سَوَاءً. وَالْأَخْسَرُ هُوَ الرَّضْفُ بِالْخُسْرَانِ عَلَى^(٨) النَّهَايَةِ وَالْغَايَةِ.

وجائزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ أَفْعَلُ فِي مَوْضِعِ فَاعِلٍ^(٩). هَذَا فِي اللَّغَةِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢ و غافر: ١٠] أَي كَبِيرٌ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ سَدَّ سَعْيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿سَدَّ﴾ أَي ذَلُّوا لِعِبَادَتِهِمُ الَّتِي عَبَدُوا: تِلْكَ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ، وَخَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرَجُ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩] [أَي] أَذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ.

والثاني: ﴿سَدَّ سَعْيَهُمْ﴾ الَّذِي سَعَوْا فِي الدُّنْيَا بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَقَالُوا^(١٠): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَنَحْوُهُ.

فَصَلَّ مَا أَمَلُوا فِي الْآخِرَةِ بِسَعْيِهِمْ فِي الدُّنْيَا^(١١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهَا عِبَادَتُهُمُ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدُوهَا﴾ ﴿أَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ بِمَا أَنْفَقُوا عَلَى أُولَئِكَ، وَوَسَّعُوا ﴿سُنْعًا﴾ أَي خَيْرًا أَوْ مَعْرُوفًا؛ أَي لَيْسَ [ذَلِكَ بِصُنْعٍ، وَلَا]^(١٢) خَيْرٍ.

وفيه دلالة أنهم يُؤَاخِذُونَ بِفَعْلِهِمُ الَّذِي فَعَلُوا، وَإِنْ جَهِلُوا الْحَقَّ. وَهَكَذَا قَوْلُنَا: إِنَّ مَنْ فَعَلَ فِعْلًا، وَهُوَ جَاهِلٌ، فَإِنَّهُ يُؤَاخِذُ بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبِيلُ الْوَصُولِ إِلَى الْحَقِّ بِالطَّلَبِ وَالتَّعَلُّمِ حِينَ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهَا عِبَادَتُهُمُ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدُوهَا﴾.

الآية ١٠٥ ثُمَّ أَخْبَرَ مَنْ هُمْ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بِحُجَجِهِ وَبِرَاهِينِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: بِدِينِهِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِمْ. (٢) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ: مِنَ النَّزْلِ، فِي م: مِنَ النَّزُولِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَهَدُوهَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَضْلَهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَعَلَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٠) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْآخِرَةُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ ذَلِكَ بِصُنْعٍ لَا.

الآية ١٠٦

الآية ١٠٧

الآية ١٠٨

الآية ١٠٩

(١) في الأصل وم: ما قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الفردوس. انظر سنن ابن ماجه ح ٤٣٦/٢ رقم الحديث/٣٤٩٦. (٧) في الأصل وم: نحو. (٨) من م، في الأصل: فليكتب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: خارجا.

والثاني: أَنْ يَعْرِفُوا قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ وَإِحَاطَةَ عِلْمِهِ بِالْخَلَائِقِ وَمَا أَنْشَأَ، فَيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا فَهُوَ عَلَى الْبَغْيِ الَّذِي أَنْكَرُوا أَقْدَرُ، وَمَنْ أَحَاطَ بِعِلْمِهِ بِمَا ذَكَرَ فَهُوَ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ [أَعْلَمَ] ^(١) وَأَعْرِفَ، لِيَكُونُوا عَلَى الْحَذَرِ أَيْدًا فِي كُلِّ وَقْتٍ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَكَلَّاتِ رَبِّي﴾ حُجَجَهُ وَأَيَاتِهِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرَبوبيَّتِهِ؛ أَيِ لَوْ كُتِبَ ذَلِكَ لَبَلَغَ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ. وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْقُرْآنَ فَالتَّوِيلُ مَا ذَكَرْنَا بَدْءًا أَنَّهُ خَرَجَ كَانَ عَلَى الْجَوَابِ وَالْمُقَابَلَةِ لِقَوْلِ كَانَ مِنْهُمْ [وَيَحْتَمِلُ] ^(٢) مَا قَالَهُ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرٍ: إِنَّ كَلِمَاتِهِ خَلَقَهُ أَوْ الْبَيَانُ عَنْ خَلْقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ مِّدَّا﴾ هَذَا لَيْسَ عَلَى التَّحْدِي، وَلَكِنْ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالْإِبْلَاحِ. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا نَفَذْتَ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] ذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ مِّدَّا﴾ أَنْ لَيْسَ لِذَلِكَ الْمَدِّ حَدٌّ وَلَا نِهَآيَةٌ. وَلَكِنْ ذَكَرَ عَلَى التَّعْظِيمِ لَهُ وَالْإِبْلَاحِ.

وفيه دلالة أَنْ لَيْسَ لِمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْعُلُومِ نِهَآيَةٌ وَلَا غَايَةٌ تُدْرِكُهُ الْخَلَائِقُ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ شَيْءٌ، فَيَعْمَلُ بِهِ. وَفِيهِ أَنْ لَيْسَ الْأَمْرُ بِتَعْلَمِ الْعِلْمِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْعِلْمِ نَفْسُهُ، وَلَكِنْ الْمَقْصُودُ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا يُعْلَمُ؛ إِذْ لَيْسَ لِلْعُلُومِ نِهَآيَةٌ وَلَا حَدٌّ، يَبْلُغُ ذَلِكَ الْبَشَرُ. فَذَلِكَ أَنَّهُ لِمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١٠ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَمْرُهُ أَنْ يُخَيِّرَهُمْ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ. ثُمَّ يَكُونُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ وَجُوهٌ مِنَ الْمَعْنَى.

أَخَذَهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ آيَاتٍ خَارِجَةً عَنْ وَسْعِ الْبَشَرِ وَطَوْقِهِمْ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُخَيِّرَهُمْ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَا يَسْأَلُونَهُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَخْرُجُ عَنْ وَسْعِ الْبَشَرِ وَطَوْقِهِمْ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ التَّحَكُّمُ عَلَى اللَّهِ وَالتَّخَيُّرُ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ. إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ؛ إِنْ شَاءَ أَنْزَلَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَنْزِلْ، وَأَنَا لَا أَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

والثاني: ذَكَرَ هَذَا لِيَعْرِفُوا أَنَّهُ إِذَا جَاءَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي لَا يَحْتَمِلُ وَسْعُ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهَا: أَنَّهُ إِنَّمَا أَنَا بِذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ ذَاتِ نَفْسِي، إِنْ عَلِمُوا أَنَّ وَسْعَ الْبَشَرِ لَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَنَّهُمْ بِذَلِكَ إِنَّمَا أَنَا بِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ عَلَى مَا يَقُولُ.

والثالث: أَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذَا: إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ لئَلَّا يَحْمِلَهُمْ قَرْطُ حُبِّهِمْ [إِيَّاهُ اتِّخَاذَهُ] ^(٣) إِلَهًا رَبًّا عَلَى مَا اتَّخَذَ قَوْمُ عِيسَى عِيسَى إِلَهًا رَبًّا لِقَرْطِ حُبِّهِمْ إِيَّاهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فَإِنْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ فَهُمْ يُنْكِرُونَ الْبَغْيَ، وَلَا يَرْجُونَهُ. لَكِنُّهُ يَكُونُ ذَكَرَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ لَأَنَّهُمْ عَرَفُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَدِيمَ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ وَنِعْمِهِ ^(٤) عَلَيْهِمْ. فَأَمُرُوا أَنْ يَعْمَلُوا ^(٥) الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِيَسْتَدِيمُوا بِذَلِكَ الْإِحْسَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَيَحْمِلَهُمُ الْعَمَلُ عَلَى التَّوْحِيدِ بِاللَّهِ وَالْإِقْرَارِ بِالْبَغْيِ.

وَأَنَّ كَانَتْ الْآيَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أَيِ ثَوَابِ رَبِّهِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ لِيُثَابَ عَلَيْهِ؛ إِذِ الثَّوَابُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ دُونَ غَيْرِهِ.

وفيه مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْعِلْمِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالْعِلْمُ ^(٦) مِمَّا لَيْسَ لَهُ نِهَآيَةٌ، فَالْأَمْرُ بِطَلَبِ مَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ لِلْعَمَلِ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ يَحْتَمِلُ حَقِيقَةَ الْإِشْرَاقِ فِي الْعِبَادَةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ عَلَى مَا أَشْرَكَ أَوْلَئِكَ: أَشْرَكُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ الَّتِي عَبَدُوهَا فِي عِبَادَتِهِ وَالْوَهْيِيَّةِ. وَيَحْتَمِلُ الْمُرَاةَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى مَا يُرَائِي بَعْضُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي بَعْضِ مَا يَعْمَلُونَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخَيْرَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ.

(١) ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعمل.

(٦) من م، في الأصل: والعمل.

سورة مريم

وهي مكية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله^(٢) تعالى: ﴿كَهَيَّعَ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ. وقيل: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ. وعلى ذلك رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: يَا كَهَيَّعَ اغْفِرْ لِي.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصْمُ: لَا يَصِحُّ هَذَا مِنْ عَلِيٍّ لِأَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي يُدْعَى بِهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حُرُوفٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ افْتَتَحَ بِهَا السُّورَةُ. فَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا، وَهُوَ الْأَوَّلُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكَافُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ: كَافٍ^(٣)، وَالْهَاءُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ: هَادٍ^(٤)، وَالْعَيْنُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ: عَالِمٌ، وَالصَّادُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ: صَادِقٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْكَافُ مِنْ كَرِيمٍ، وَالْهَاءُ مِنْ هَادٍ، وَالْيَاءُ مِنْ حَكِيمٍ، وَالْعَيْنُ مِنْ عَلِيمٍ، وَالصَّادُ مِنْ صَادِقٍ. وَقَالَ الرَّبِيعُ [بْنُ أَنَسٍ]^(٥) الْيَاءُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكَاوِرُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وَقَالَ/ ٣٢٣ - أ/ الْكَلْبِيُّ: هُوَ ثَنَاءٌ، أَثْنَى اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: كَافٍ هَادٍ عَالِمٌ صَادِقٌ؛ يَقُولُ: كَافٍ لِحَقِّهِ، هَادٍ لِعِبَادِهِ، وَعَالِمٌ بِرَبِّيَّةٍ وَبِأَمْرِهِ، صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ كِتَابًا إِلَّا وَلَهُ فِيهِ سِرٌّ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. سِرُّ الْقُرْآنِ فَوَاتِحُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَفْسِيرُهُ^(٦) مَا ذَكَّرَ عَلَى إِثْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَأَمْثَالُ هَذَا قَدْ أَكْثَرُوا فِيهِ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا الْوَجْهَ فِي الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَّرِيًّا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

الآية ٢

أَحَدُهُمَا: عَلَى الْأَمْرِ؛ أَيِ اذْكُرْ لَهُمْ رَحْمَةً ﴿رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَّرِيًّا﴾ بِالْإِجَابَةِ لَهُ عِنْدَ سُؤَالِهِ الْوَلَدَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَيْسَرَ مِنَ الْوَلَدِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَيَكُونُ فِيهِ دَلَالَةٌ رَسَالَتِهِ حِينَ ذَكَرْ لَهُمْ رَحْمَةً رَبِّهِ عَلَى عَبْدِهِ زَكَّرِيًّا، وَأَخْبَرَهُمْ عَلَى مَا فِي كُتُبِهِمْ. وَالثَّانِي: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَّرِيًّا﴾ أَيِ هَذَا ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ لِعَبْدِهِ زَكَّرِيًّا فِي دَعَائِهِ. وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَكُونُ الذِّكْرُ هُوَ الْقُرْآنَ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ ذِكْرًا فِي غَيْرِ آيَةٍ^(٧) مِنَ الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ حَافِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَدَّاءَ حَافِيًّا﴾ فِي قَلْبِهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْطَلِقَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَدَّاءَ حَافِيًّا﴾ عَنْ قَوْمِهِ وَمَنْ حَضَرَهُ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: اخْفَاءُ، وَأَسْرَهُ مِنْهُمْ، إِخْلَاصًا لِلَّهِ تَعَالَى وَإِصْفَاءً لَهُ. وَالثَّانِي: اخْفَاءُ، وَأَسْرَهُ مِنْهُمْ، حَيَاءً أَنْ يَعْيَبُوهُ أَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ فِي وَقْتِ كِبَرِهِ وَإِيَابِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أَيِ ضَعُفَ، وَرَقٌّ ﴿وَأَسْتَعْلَ الرَّأْسُ سَكِينًا﴾ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَقَدَّمَ زَكَّرِيًّا مَا حَلَّ بِهِ مِنَ الْكِبَرِ وَبَلُوغِهِ الْوَقْتِ الَّذِي لَا يُطْمَعُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْوَلَدَ؛ أَيِ بَلَغَتْ الْمَبْلَغَ الَّذِي ضَعُفَ [فيه]^(٨) بَدَنِي وَرَقٌّ عَظْمِي. ثُمَّ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ؛ لَيْسَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَا يَعْرِفُ قُدْرَةَ اللَّهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى هَبَةِ الْوَلَدِ وَإِنْشَائِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ: الْكِبَرِ

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَقَوْلُهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَافِي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هَادِي. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ابْنُ الرَّبِيعِ بِنِ أَنْس. (٦) الْهَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: آي. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَالضَّعْفِ وَالسَّبَبِ وَبَغْيِ السَّبَبِ. لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ يَسْعُ، وَيَضْلُحُ سُؤَالَ الْوَلَدِ وَهَيْئُهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ بَلَعَهُ^(١)، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي لَا يَظْلَعُ فِيهِ الْوَلَدُ فِي الْأَغْلَبِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزَيْلٌ لَّيَّ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الآية: ٣٧] فَعِنْدَ ذَلِكَ عَرَفَ زَكَرِيَّا أَنَّهُ يَسْعُ دُعَاءُ هَبْهُ الْوَلَدِ وَسُؤَالُهُ فِي وَقْتِ الْإِبَاسِ حِينَ^(٢) رَأَى عِنْدَ مَرْيَمَ فَاهِكَةَ الشَّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَفَاهِكَةَ الصَّيْفِ فِي الشَّتَاءِ غَيْرَ مُتَغَيِّرَةٍ عَنْ حَالِهَا. فَسَأَلَ عِنْدَ ذَلِكَ رَبَّهُ الْوَلَدَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَتَالِكْ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [الآية: ٣٨] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ كُنْتُ تُعَوِّدُنِي الْإِجَابَةَ فِي دُعَائِي^(٣) إِيَّاكَ فِي مَا مَضَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ لَمْ يَكُنْ دُعَائِي مِمَّا يَحْبِبُ عِنْدَكَ^(٤)، وَهُمَا وَاحِدٌ؛ ذَكَرَ مِثْلَهُ الَّذِي كَانَ مِنْهُ إِلَيْهِ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: خَافَ مَوَالِيَهُ أَنْ يَرِثُوا مَالَهُ. فَأَمَّا عِلْمُهُ وَتَبَوُّهُ فَمِمَّا يُورَثُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: هَذَا لَا يَصِحُّ؛ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَخَافَ زَكَرِيَّا وَرِاثَةَ [مَوَالِيهِ مَالَهُ]^(٥) فَيَسْأَلَ رَبَّهُ لِذَلِكَ الْوَلَدِ لِيَرِثَ مَالَهُ. وَلَكِنْ كَانَهُ خَافَ أَنْ يُضَيِّعَ مَوَالِيَهُ دِينَهُ وَسُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ الْوَلَدَ لِيَقُومَ مَقَامَهُ فِي حِفْظِ دِينِهِ وَسُنَّتِهِ. وَقَالَ: لَا يَحْتَمِلُ وَرِاثَةَ الْمَالِ لِمَا رُوِيَ مِنَ الْخَبَرِ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ. مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً» [التمهيد ١٧٥/٧] فَلَا يَخْلُو هَذَا مِنْ أَحَدٍ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ كَانَ هَذَا فِي الْمَالِ لَهُ خَاصَّةٌ دُونَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِمَّا أَلَمْ^(٦) يَكُنْ زَكَرِيَّا نَبِيًّا. فَدَلَّ هَذَا أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ وَرِاثَةَ الْمَالِ. فَدَلَّ أَنَّهُ عَلَى الْعِلْمِ: أَنْ يُضَيِّعَ الْمَوَالِيَ عِلْمِي مِنْ وَرَائِي.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ وَسُؤَالُهُ الْوَلَدَ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنْ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ الرُّضِيَّ الطَّيِّبَ لِيَذْكُرَ هُوَ بِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِالْأَعْمَالِ وَالصَّنْعِ الَّذِي كَانَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ، وَيُدْعَى لَهُ لِئَلَّا يَنْقُطَ ذِكْرُهُ وَدُعَاءُ الْخَلْقِ لَهُ. وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي الْخَلْقِ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ بِالْخَيْرَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي حَالِ حَيَاتِهِمْ، إِذَا كَانَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ، فَعَلَى ذَلِكَ سُؤَالُ زَكَرِيَّا الْوَلَدَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاَنَ آسَرَاتِي عَاقِرًا﴾ أَيِ لَا تَلِدُ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِي﴾ أَيِ يَلِي أَمْرِي. وقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مَا ذَكَرْنَا ﴿يَرِثُنِي﴾ مَالِي ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ الثَّبُوءَ، وَقَالَ [بَعْضُهُمْ]^(٧): ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وَارثًا ﴿يَرِثُنِي﴾ مَكَانِي وَجُورَتِي ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ الْمُلْكُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا مُلُوكًا، وَكَانُوا إِخْوَانَهُ، وَهُوَ كَانَ جَبْرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ. وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿يَرِثُنِي﴾ مَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالدِّينِ وَغَيْرِهِ ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كَانُوا إِخْوَانَهُ، فَفِيهِ أَنَّ ذَوِي الْأَرْحَامِ يَرِثُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِثْلَ يَحْيَى مِنْ قَبْلُ فِي الْفَضْلِ وَالْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ عَمِلَ بِخَطِيئَةٍ، أَوْ هَمَّ بِهَا غَيْرُ يَحْيَى ابْنِ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ لَمْ يَهَمْ بِخَطِيئَةٍ، وَلَا عَمِلَ بِهَا» [أحمد ٢٥٤/١].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أَيِ لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ يَحْيَى. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [أَيِ تَوَلَّى اللَّهُ تَسْمِيَةَ يَحْيَى، لَمْ يُولَ تَسْمِيَتَهُ]^(٨) غَيْرُهُ، وَسَائِرُ الْخَلَائِقِ تَوَلَّى أَهْلُوهُمْ تَسْمِيَتَهُمْ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آسَرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ: عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ زَكَرِيَّا اسْتَوْهَبَ رَبَّهُ الْوَلَدَ، فَأَجَابَهُ، وَبَشَّرَهُ، فَقَالَ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وَطَلَبَ مِنْهُ الْآيَةَ لِذَلِكَ. فَقَالَ: ﴿أَجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [مريم: ١٠] فَمَا عَابَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا وَبَّحَهُ، وَلَكِنْ رَجَمَهُ، أَوْ كَلَامًا^(٩) نَحْوَ هَذَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بَلَغَ هُوَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ دَعَانِكَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَالِهِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَامٌ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا [أَمْرُهُ أَنْ يُنْسِكَ لِسَانَهُ وَيُعْتِقِلَهُ] ^(١) عَقُوبَةً لِّمَا سَأَلَ مِنَ الْآيَةِ.

هؤلاء كُلُّهُمْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْهُ [زَلَّةً] ^(٢). إِلَّا أَنْ الْحَسَنَ قَالَ: لَمْ يَجِبْهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا عَاقِبَةُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ ذَكَرَ [ذَلِكَ رَحْمَةً مِنْهُ] إِلَيْهِ. وَغَيْرُهُ يَجْعَلُ ذَلِكَ عَقُوبَةً لِّمَا كَانَ مِنْهُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُخْرِجَ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ مَا قَالُوا؛ وَهُوَ أَنْ قَوْلَهُ: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي غُلَمٌ﴾ أَيِ عَلَى أَيِّ حَالٍ يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ؟ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا؟ أَوْ أَرَدُ إِلَى ^(٣) شَبَابِي؛ فَفِي تِلْكَ الْحَالِ يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ. فَذَلِكَ مِنْهُ اسْتِخْبَارٌ وَاسْتِغْلَامٌ عَنِ الْحَالِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ، لَيْسَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِنْشَاءِ الْوَلَدِ فِي حَالِ الْكِبَرِ وَيَسَبِّبُ وَبِلا سَبَبٍ.

وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلَهُ حِينَ ^(٤) ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَوْ تِلْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] أَيِ قَبْلُ أَنْ تَخْلُقَكَ لَمْ تَكْ شَيْئًا وَطَلَبَ الْآيَةَ وَالْعَلَامَةَ بَعْدَ مَا بَشَّرَ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَمَّا بَشَّرَ بِالْوَلَدِ لَعَلَّهُ أَشْكَلَ عَلَيْهِ بِأَنَّ تِلْكَ [البشارة] ^(٥) بِشَارَةٌ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَطَلَبَ مِنْهُ الْعَلَامَةَ لِيَعْرِفَ أَنَّ تِلْكَ بِشَارَةٌ مُلْكٍ وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ: ﴿فَنَادَاهُ الْمَلَكُكَ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَنْشُرُكَ يَنْحَى مُعَذِّقًا﴾ [آل عمران: ٣٩] فَطَلَبَ الْآيَةَ يُخْرِجُ مِنْهُ عَلَى اسْتِغْلَامٍ بِشَارَةِ الْمُلْكِ وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ لَا أَنَّهُ [لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ اللَّهَ] ^(٦) قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ فِي كُلِّ حَالٍ. هَذَا لَا يُظَنُّ بِأَضْعَفِ مُؤْمِنٍ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ يُظَنُّ بِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؟

[والثاني] ^(٧): أَنْ يَكُونَ طَلَبَ الْآيَةَ مِنْهُ لِيَعْرِفَ وَثَقَ حَمْلُهَا الْوَلَدَ وَوَقْتُ وَقُوعِهِ فِي الرَّحِمِ لِيَسْبِقَ لَهُ السَّرُورُ بِحَمْلِهِ عَن وَقْتِ الْوِلَادِ وَعَن وَقْتِ وَقُوعِ بَصَرِهِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾ لَأَنِّي أَخْلُقُ بِسَبَبٍ وَيُعَيِّرُ سَبَبٍ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وَأَنْتَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أَيِ ثَلَاثَ لَيَالٍ بِأَيَّامِهَا عَلَى مَا قَالَهُ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ [آل عمران: ٤١] ذَكَرَ ههنا ثَلَاثَ لَيَالٍ وَفِي تِلْكَ الْآيَةِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. وَالْقِصَّةُ وَاحِدَةٌ.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْغُرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا/٣٢٣- ب/ بِكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ قِيلَ: أَوْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَقِيلَ: كَتَبَ لَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ بِالشَّفَافَةِ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ [آل عمران: ٤١] وَالرَّمْرُ هُوَ تَحْرِيكُ الشَّفَةِ وَالْإِيمَاءُ بِهَا.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿وَكَاثَبَ أَمْرًا قِيَّامًا عَاقِرًا﴾ عَاقِرٌ وَعَقِيمٌ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا تَلِدُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قَالَ: هُوَ أَشَدُّ الْكِبَرِ سِنًا ^(٨) [وقوله] ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْغُرَابِ﴾ ^(٩) قَالَ: إِنْ شِئْتَ قَضَرًا أَوْ دَارًا.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿عِتِيًّا﴾ أَيِ يُبْسَأُ، وَيُقَالُ: عِتِيًّا وَعِتِيًّا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَيُقَالُ: مَلِكٌ عَاتٍ إِذَا كَانَ قَاسِي الْقَلْبِ غَيْرَ لَيِّنٍ، وَقَوْلُهُ ^(١٠) ﴿سَوِيًّا﴾ أَيِ سَلِيمًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ أَوْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَتَبَ لَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ سَبِّحُوا بِكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أَيِ صَلَّوْا لِلَّهِ ﴿بِكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فَإِنْ كَانَ التَّسْبِيحُ هُوَ الصَّلَاةُ فَفِيهِ أَنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فِي خَتَمِ اللَّيْلِ. وَيَحْتَمِلُ التَّسْبِيحُ نَفْسَهُ وَالتَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ وَالدُّعَاءُ بِالْعَدَوَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَمْسَكَ لِسَانَهُ وَاعْتَقَلَهُ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَلَى. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي م: لَمْ يَعْرِفْ قُدْرَةَ اللَّهِ أَنَّهُ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ: شَيْئًا، فِي م: شَيْئًا، أَيِ كَثَرِ الشَّيْءِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَيَّنُ حُذِّ الْكِتَابِ يَقُولُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: خَذِ الْكِتَابَ بِمَا قَوَّى اللَّهُ، وَأَعَانَكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَذِ الْكِتَابَ، وَاضْبِرْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حُذِّ الْكِتَابِ يَقُولُ﴾ أَيِ بَيْعًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: الْجَدُّ هُوَ الْإِنْكِمَاشُ فِي الْعَمَلِ، وَالْقُوَّةُ، هِيَ اخْتِمَالُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ.

وفيه دلالة نَقْضِ قول الْمُعْتَزِلَةِ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَنَّ الْقُوَّةَ تَقْدَمُ الْفِعْلَ، ثُمَّ لَا تَبْقَى وَقْتَيْنِ. فَيَكُونُ عَلَى قَوْلِهِمْ أَخَذَ بِغَيْرِ قُوَّةٍ، وَقَدْ أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ بِقُوَّةٍ. فَقَوْلُهُمْ^(١) عَلَى خِلَافٍ مَا نَطَقَ بِهِ ظَاهِرُ الْكِتَابِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْهَكْمَ سَيِّئًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْهَكْمَ﴾ أَيِ التَّبَوُّةِ فِي حَالِ صِبَاهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَنَاهُ اللَّهُ الْفَهْمَ وَاللُّبَّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ. فَكَيْفَ مَا كَانَ فِيهِ فَسَادُ مَذَهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْصُ أَحَدًا بِتَبَوُّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْبِقَ مِنَ الْمُخْتَصِّ لَهُ مَا يَسْتَوْجِبُ ذَلِكَ الْإِخْتِصَاصَ، وَيَسْتَحِقُّهُ.

فَمَا الَّذِي كَانَ مِنْ يَخْيَى فِي حَالِ صِبَاهُ وَطُفُولِيَّتِهِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ التَّبَوُّةَ؟ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْحُكْمِ أَنَّهُ أَنَاهُ؟ فَدَلَّ ذَلِكَ [عَلَى أَنَّ^(٢)] الْإِخْتِصَاصَ مِنْهُ يَكُونُ لِمَنْ كَانَ إِفْضَالًا مِنْهُ وَإِنْعَامًا وَرَحْمَةً لَا بِاسْتِحْقَاقٍ مِنَ الْمُخْتَصِّ لَهُ وَاسْتِجَابَةٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿يَتَخَيَّنُ حُذِّ الْكِتَابِ يَقُولُ﴾ دلالة أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا حِينَ^(٣) كَانَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنَاهُ الْكِتَابَ.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ هُوَ [مَبْنِيٌّ]^(٤) عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْهَكْمَ سَيِّئًا﴾ وَأَتَيْنَاهُ حَنَانًا وَرِزْقًا أَيْضًا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعَطُّفًا مِنْ لَدُنَّا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ رَحْمَةٍ مِنْ لَدُنَّا، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَنَانُ الْمَحَبَّةُ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: حَنَانُكَ وَحَنَانِيكَ كِلَيْهِمَا يَغْنِي رَحْمَتُكَ. وَقَالَ: أَضْلُهُ مِنَ التَّحْنُنِ وَهُوَ التَّرْحُمُ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: أَصْلُهُ مِنْ حَنِينٍ النَّاظِقِ عَلَى وَلَدِهِمَا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزْقًا وَكَانَ نَبِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَرَزْقًا﴾ أَيِ صَدَقَةٍ، تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى زَوْجَتَيْهِ وَزَوْجَتَيْهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يُرْجَى مِنْ بَيْتِهِمَا الْوَلَدُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَرَزْقًا﴾ أَيِ صَلَاحًا وَمَا يَنْمُو بِهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ.

وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الزَّكَاةُ اسْمُ كُلِّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، وَهُوَ كَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى^(٥). كَانَهُ قَالَ: أَعْطَيْنَاهُ كُلَّ بَرٍّ وَخَيْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَكَانَ نَبِيًّا﴾ عَنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] أَيِ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ، وَتَعَاوَنُوا أَيْضًا عَلَى دَفْعِ الشُّرُورِ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ هُوَ [مَبْنِيٌّ أَيْضًا]^(٦) عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْهَكْمَ سَيِّئًا﴾ وَأَتَيْنَاهُ الْبِرَّ بِوَالِدَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ بَلْ كَانَ خَاضِعًا لِلَّهِ ذَلِيلًا مُطِيعًا. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَجْبِرُ النَّاسَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وَقَالَ أَهْلُ النَّوِيلِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ أَيِ قِتَالًا، أَيِ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَقْتُلُ عَلَى الْغَضَبِ، وَيَضْرِبُ عَلَى الْغَضَبِ.

وَاضْلُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ كَانَ عَلَى ضِدِّ مَا ذَكَرَ خَاضِعًا لِلَّهِ مُطِيعًا لَهُ عَلَى مَا ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَزْنِكِبْ ذَنْبًا، وَلَا هَمَّ بِهِ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ يَحْتَمِلُ السَّلَامُ عَلَيْهِ الْوَجُوهَ الثَّلَاثَةَ:

أَحَدُهَا: اسْمُ^(٧) كُلِّ بَرٍّ وَخَيْرٍ، أَيِ عَلَيْهِ كُلُّ بَرٍّ وَخَيْرٍ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي ذَكَرَ.

وَالثَّانِي: السَّلَامُ هُوَ الشَّاءُ؛ أَتَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْآخِرَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَوْلُهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنَ التَّقْوَى.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) أَدْرَجَ قَبْلَهَا: فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ.

[والثالث^(١)]: أن يكون قوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ أي السَّلامَةُ عليه في هذه الأحوال التي يكون للشيطان في تلك الأحوال الإغتراض والتَّزَعُّع فيها؛ لأنه وَقَّتْ الْوِلَادَةَ يَغْتَرِضُ، وَيُقَسِّدُ الْوَلَدَ، إِنَّ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ، وكذلك عند الموت يَغْتَرِضُ، وَيَسْعَى فِي إِفْسَادِ أَمْرِهِ. فَأَخْبَرَ أَنْ يَخْشَى كَانَ سَلِيمًا سَالِمًا عَنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ مَحْفُوظًا عَنْهُ حَتَّى لَمْ يَزْنِكَبْ خَطِيئَةً، وَلَا هَمَّ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله: ﴿يَوْمَ يَمُوتُ﴾ دلالة أن الموت والقَتْل سَوَاءٌ، وإن [كانا في الحقيقة مُخْتَلِفَيْنِ]^(٢) لأنه ذَكَرَ فِي الْقِصَّةِ أَنْ يَخْشَى قَتْلَ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَوْتَ، فَذَلَّ أَنْهُمَا وَاحِدٌ.

فهذا يَرُدُّ عَلَى الْمُعْتَرِجَةِ حِينَ^(٣) قَالُوا: إِنَّ الْمَقْتُولَ مَيِّتٌ قَبْلَ أَجَلِهِ.

وفيه أن قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَمَاتَهُ﴾ [البقرة: ١٥٤] نَهَانَا أَنْ نُسَمِّيَهُمْ أَمْوَاتًا فِي جِهَةِ لَيْسَ فِي الْجِهَاتِ كُلِّهَا حِينَ^(٤) سَمَى يَخْشَى مَيِّتًا، وَهُوَ كَانَ شَهِيدًا عَلَى مَا ذَكَرَ أَنَّهُ قُتِلَ.

وفي^(٥) قوله: ﴿وَوَاتَيْنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيحًا﴾ اسْتِذْلَالٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، حِينَ^(٦) وَقَفَ فِي أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا عَلِيمَ لِي بِهِمْ، وَلَمْ [يَقْطَعْ فِيهِمْ]^(٧) الْقَوْلَ لِمَا يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ^(٨) وَالتَّمْيِيزِ وَالْفَهْمِ فِي حَالِ صِبْغِهِمْ حَتَّى يَعْرِفُوا خَالِقَهُمْ وَمُنْشَأَهُمْ عَلَى مَا أُعْطِيَ يَخْشَى وَعِيسَى فِي حَالِ صِبَاهُمَا الْحُكْمَ وَالْفَهْمَ وَالْمَعْرِفَةَ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ صَلَوةٌ قَوْلِهِ: ﴿ذَكَرَ رَحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ وَكِيزًا﴾ [مريم: ٢] أَيِ اذْكُرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ مَرْيَمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَادْكُرْ نَبَأَ مَرْيَمَ وَقُصَّتْهَا فِي الْكِتَابِ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْبَأْتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَيِ نَحْوِ الْمَشْرِقِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَنْبَأْتُ مِنْ أَهْلِهَا﴾ إِذْ بَلَّغْتُ مَبْلَغَ النِّسَاءِ، فَارَقْتُ أَهْلَهَا، وَانْتَبَذْتُ مِنْهُمْ لَمَّا بَقِيَ بَصَرُ غَيْرِ ذِي الرَّحِمِ عَلَيْهَا، وَالْأَيُّهَا أَحَدٌ، لَا [يَجِلُّ لَهُ]^(٩) النَّظَرُ إِلَيْهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَيِ جَلَسْتُ فِي الْمَشْرِقَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي الشَّتَاءِ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتَجَبَتْ مِنْ دُونِهِمْ بِالْعَنِيَّةِ عَنْهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَيِ سِتْرًا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ مِنَ الْجَبَلِ حِجَابًا وَسِتْرًا، أَيِ جَعَلَتْ الْجَبَلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَهْلِهَا فَلَمْ يَرَهَا أَحَدٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قَالَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ: هُوَ رُوحُ عِيسَى أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى مَرْيَمَ فِي صُورَةِ بَشَرٍ ﴿فَنَمَتَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وَقَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جِبْرِيلُ. وَقَدْ سَمَى اللَّهُ جِبْرِيلَ رُوحًا فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ [كَقَوْلِهِ]^(١٠): ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] [وقوله تعالى]^(١١): ﴿فَنَمَتَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ بِهِ أَثَرُ غَيْرِ الْبَشَرِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ لَا عَيْبَ فِيهِ، وَلَا نُقْصَانَ، بَلْ كَانَ سَوِيًّا صَحِيحًا كَامِلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ وَإِنَّمَا يَتَعَوَّذُ بِالرَّحْمَنِ مِنَ الْفَاجِرِ وَالْفَاسِقِ.

قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ مَفْصُولٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالَتْ إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ فَيَكُونُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ. كَانَهَا قَالَتْ: إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا لَا يَنَالُنِي مِنْكَ سُوءٌ، وَلَا يَمَسُّنِي شَرٌّ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ [أَيِ مَا كُنْتُ نَفِيًّا، أَيِ حِينَ^(١٢) دَخَلْتُ عَلَيَّ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ وَلَا اسْتِثْمَارٍ مَا كُنْتُ نَفِيًّا]. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا﴾ أَيِ وَقَدْ كُنْتُ نَفِيًّا^(١٣) فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ كَانَهُ دَخَلَ عَلَيْهَا عَلَى صُورَةِ بَشَرٍ، عَرَفَتْهُ بِالنَّفَى وَالصَّلَاحِ. فَكَانَهَا قَالَتْ: قَدْ كُنْتُ عَرَفْتُكَ بِالنَّفَى وَالصَّلَاحِ، فَكَيْفَ دَخَلْتُ عَلَيَّ بِلَا إِذْنٍ وَلَا أَمْرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ مُخْتَلَفًا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَقَعُ فِيهِمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَعْرِفَةُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْلُحُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (١٢) فِي م: حَيْثُ. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقد يجوز أن يُستعمل إن مكان ما ومكان قد، وفي القرآن كثير، والله أعلم.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ هو على الإضمار، كأنه قال: إنما أنا رسول ربك بالقول بأن أهب لك غلاماً زكياً، أي أرسلني إليك بهذا القول، وهو قوله: ﴿لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وفي خريف ابن مسعود: إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً. وقوله تعالى: ﴿زَكِيًّا﴾ أي صالحاً طاهراً من جميع الشرور.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ إن قالت لم يمسسني بشر يغلم أنه / ٣٢٤ - / لم يمسها بشر: لا [تقي ولا غير تقي]^(١). لكن كأنها قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ نكاحاً ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ولا بغياً. فمن أنى يكون لي ولد؟ كأنها لم تعرف الولد إلا بسبب. لذلك قالت: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟﴾

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي أخلق بسبب وبلا سبب. وقوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ﴾ أي خلق الشيء بسبب وبغير سبب هيئ علي. وقال بعضهم: قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾ للأنبياء الذين كانوا من قبل: إنه يخلق ولداً بلا أب ولا أم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ مَائَةً لِلنَّاسِ﴾ أي نجعل ولادة بلا أب على ما أخبر الأنبياء من قبل آية للناس ليرسالتهم لأنهم أخبروا أنه يولد بلا أب^(٢)، فكان ما أخبروا. فدل ذلك أنهم إنما عرفوا ذلك بالله، فيكون ذلك آية لصدقهم، ويكون قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي ذلك الخبر الذي أخبر الأنبياء من قبل، والوعد الذي وعد لهم [كان]^(٣) أمراً مقضياً كانتاً. وقال أهل التأويل في قوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ مَائَةً لِلنَّاسِ﴾ أي نجعل عيسى آية للناس حين^(٤) ولد بلا أب، وكلم الناس في المهد [وفي]^(٥) غير ذلك من الآيات التي كانت فيه.

وجائز أن يكون آية للناس للبحث لأنه أنشأه بلا أب ولا سبب، وهم إنما أنكروا البعث لما لم يُعابنوا الولد بغير أب أيضاً، ثم كان. فعلى ذلك البعث؛ إذ لا فرق بينهما، لأن من قدر على إنشاء الولد بلا أب قادر^(٦) على الإحياء بعد الموت، بل هو أولى.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا لِلْخَلْقِ لِأَنَّ مِنْ اهْتَدَىٰ، وَاتَّبَعَهُ، كَانَ لَهُ بِهِ نَجَاةٌ، وَهُوَ مَا قَالَ اللَّهُ ﷻ لِرَسُولِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وعلى ذلك جميع الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله إلى خلقه؛ كان ذلك^(٧) رحمة منه إلى خلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كان أمراً كانتاً. وعلى التأويل الذي ذكره أبو بكر الأصم في قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلَنَجْعَلَنَّ مَائَةً لِلنَّاسِ﴾ يكون قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كان وعداً وخبراً معلوماً على [ما]^(٨) أخبر الأنبياء عن نبي عيسى وأمه.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ دل هذا على أن الولادة لم يكن على إثر الحمل، ولكن كان بين الولادة وبين الحمل وقت. لكن لا يعلم ذلك الوقت إلا بخبر عن الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قال بعضهم: تباعدت به حياء من أهلها. وقال بعضهم: انفردت به مكاناً قصياً متباعداً.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جَنْبِ النَّحْلِ﴾ قال الفتي: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي جاء بها من المجيء، والجاها إليها. يقول: جاءت بي الحاجة إليك، وأجاءتني الحاجة. والمخاض هو الحمل، ودل قوله: ﴿فَإِنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا

(١) في الأصل وم: تقياً ولا غيره. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ولا أم. (٣) ساقطة من الأصل وم: (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) في الأصل وم: ولا أم قدر. (٧) في الأصل وم: كانه. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

فَصَيَّا^(١) أَنْ النَّحْلَةَ الَّتِي الْجَاهَا الْمَخَاضُ إِلَيْهَا يَابِسَةٌ عَلَى مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّوِيلِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا انْتَبَذَتْ مَكَانًا قَصِيًّا، وَتَبَاعَدَتْ حَيَاءً مِنْ أَهْلِهَا. فَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ النَّحْلَةُ رَطْبَةً ذَاتَ ثِمَارٍ لَكَانَ النَّاسُ بِأَدْنَى^(٢) إِلَيْهَا، وَيُقِيمُونَ عِنْدَهَا، فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَأْوِيَ إِلَيْهَا مَرْيَمَ، وَعِنْدَهَا مَا وَى النَّاسِ، ثُمَّ التَّجَاوَزَ إِلَى النَّحْلَةِ لِتَسَانَدَ إِلَيْهَا، وَتُسْتَعِينَ بِهَا عَلَى مَا تَقَعُ الْحَاجَةُ لِلنِّسَاءِ وَفَتْ الْوِلَادِ إِلَى شَيْءٍ تَسْتَعِينُ بِهِ عَمَّا يَنْزِلُ بِهِنَّ مِنَ الشَّدَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي يَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿يَلَيْتَنِي يَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ أَي وَكُنْتُ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا ذُكِرَ: ﴿يَلَيْتَنِي يَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ لَا أَذْكَرُ بَعْدَ الْمَوْتِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ ذُكِرَ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَهْلِ شَرَفٍ وَكَرَمٍ وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الثَّبُوءِ، فَتَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ لئَلَّا تُذْكَرَ بِسُوءِ بَعْدِهَا، وَلَا تُقَذَّفَ.

وقال أهل التَّوِيلِ: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ أَي حِيضَةً مُلْقَاةً. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو غَوْسَجَةَ: النَّسِيُّ الْحَيْضُ. قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُ: لَا يَحْتَمِلُ هَذَا لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَتْ قَدْزَرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَتَمَنَّى مَا ذُكِرَ. لَكِنَّ الْإِنْسَانَ رُبَّمَا يَتَمَنَّى الْأَمْرَ الْعَظِيمَ إِذَا اشْتَدَّ بِهِ الْأَمْرُ نَحْوَ مَا يَتَمَنَّى الْمَوْتُ فِي بَغْضِ الْوَقْتِ لِعِظَمِ مَا يَحُلُّ بِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ غَيْرُ مُنْكَرٍ هَذَا مِنْ مَرْيَمَ أَنْ تَتَمَنَّى مَا ذُكِرَ أَهْلُ التَّوِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾، وقوله^(٣): ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: نَادَاهَا مَلَكٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَادَاهَا ابْنُهَا عِيسَى. قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُ: لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي نَادَاهَا مَلَكًا، لِأَنَّهُ قَالَ ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ وَلَوْ كَانَ مَلَكًا لَنَادَاهَا مِنْ فَوْقِهَا. لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، لِأَنَّ الْمَلَكَ إِنَّمَا يُنَادِي مِنْ حَيْثُ يُؤْمَرُ: مِنْ تَحْتٍ، وَمِنْ فَوْقٍ.

وقال بعض أهل التَّوِيلِ: نَادَاهَا جِبْرِيلُ مِنْ تَحْتِ الْوَادِي: ﴿أَلَا نَحْنُ قَدْ جَعَلْنَا رُبَّكَ نَحْلًا سَرِيًّا﴾. وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ ابْنُهَا عِيسَى لِأَنَّهُ كَانَتْ تَحْزَنُ أَنْ تُشْتَمَ، وَتُقَذَّفَ بِهِ. فَعِيسَى إِذَا تَكَلَّمَ، وَصَارَ بِذَلِكَ الْمَحَلِّ تُسَرُّ هِيَ بِذَلِكَ لِمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْفِي عَنْهَا بَعْضَ مَا طُعِنَتْ بِهِ، وَقُدِّفَتْ.

وَيَحْتَمِلُ حُزْنُهَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهَا كَانَتْ حَزِنَتْ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى وَلَدِهَا لِأَنَّهُ أَقَامَتْ فِي مَكَانٍ، لَا مَاءَ فِيهِ، وَلَا طَعَامَ. فَخَافَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَوَلَدِهَا الْهَلَكَ. فَحَزِنَتْ لِذَلِكَ. فَبَشَّرَتْ حِينَ^(٤) قَالَ لَهَا: ﴿أَلَا نَحْنُ قَدْ جَعَلْنَا رُبَّكَ نَحْلًا سَرِيًّا﴾ أَمَّنَّهَا عَنِ الْخَوْفِ الَّذِي كَانَ.

ثم السَّرِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّوِيلِ هُوَ الْجَدُولُ، وَهُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ النَّحْلَ سَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا غِيَّا﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ لَزُومِ الْكَسْبِ لِأَنَّهُ أَمَرَ مَرْيَمَ أَنْ نَهَرَ النَّحْلَةَ لِتَسَاقَطَ عَلَيْهَا الرُّطْبُ. وَلَوْ شَاءَ لَسَقَطَ مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ يَكُونُ مِنْهَا لِتَجَنُّبِ هِيَ. وَذَلِكَ عَلَيْهَا^(٥) أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ عَلَى مَا كَانَ رِزْقُهَا عِنْدَ مَا كَانَتْ مُؤْتَتْهَا عَلَى زَكْرِيَّا.

وفيه دلالة أَلَا يَسَعُ لِلْمَرْءِ الْمَسْأَلَةُ مَا دَامَ بِهِ أَذْنَى قُوَّةٍ يَقْدِرُ عَلَى قُوَّتِهِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ زَكْرِيَّا كَانَ أَفْضَلَ مِنْهَا، وَأكْبَرَ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ حِينَ^(٦) رَزَقَهَا عِنْدَ مَا كَانَتْ فِي عِيَالٍ زَكْرِيَّا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ كَانَ مِنْ زَكْرِيَّا وَلَا مُؤَنَّةٍ. فَلَمَّا فَارَقَتْ زَكْرِيَّا أَمَرَهَا بِالْكَسْبِ.

وفيه دلالة أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ يَجُوزُ أَنْ يُجَرِّبَهَا عَلَى غَيْرِ أَيْدِي الْأَنْبِيَاءِ حِينَ^(٧) جَعَلَ لِمَرْيَمَ نَحْلَةً يَابِسَةً رَطْبَةً، تُثْمِرُ رُطْبًا، وَحِينَ^(٨) جَعَلَ مِنْ تَحْتِهَا سَرِيًّا أَي نَهْرًا جَارِيًّا، وَحِينَ^(٩) رَزَقَهَا عِنْدَ مَا كَانَتْ فِي عِيَالٍ زَكْرِيَّا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ أَحَدٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِادُون. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

فذلك يُشبهُ آياتِ الأنبياءِ والرُّسلِ ويُقارَنُها . وهذه المِحْنُ التي امْتَحَنَ بها مَرْيَمَ ، في الظاهرِ عَظِيمَةٌ عندَ الناسِ ، وفي الباطنِ مِنْ أَعْظَمِ كَرَامَاتِهِ إِلَيْهَا ، لَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى اضْطَفَاها على نِسَاءِ الْعَالَمِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ اللَّهَ اسْتَطَاعَ وَلَهْرَكِ وَأَسْطَاعَكَ عَلَى نِسَاءِ الْمَكَلِكِ﴾ [آل عمران : ٤٢] وَسَمَّاها صِدِيقَةً بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَتَتْهُ صِدِيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] وذلك لَا يُسَمَّى إِلَّا مَنْ بَلَغَ مِنَ الْبَشَرِ فِي الصَّدَقِ [والصبرِ غَايَتَهُمَا] ^(١) وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقال بعضهم في قوله : ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي مِنْ تَحْتِ النَّخْلَةِ .

الآية ٢٦

وقوله تعالى : ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَرَاقِي عَيْنًا﴾ أي كُلِي الرُّطْبَ الذي يَتَساقَطُ عَلَيْكَ ، واشْرَبِي مِنَ السَّرْيِ الذي جَعَلَ تَحْتِكَ ﴿وَرَاقِي عَيْنًا﴾ أي وارِضِي مَكَانَ مَا حَزَنَتْ عَلَيْهِ ، وَخَفِئَ عَلَى نَفْسِكَ وَعَلَى وَلَدِكَ ، أَوْ طِيبِي نَفْسًا .
وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ : ﴿صَوْمًا﴾ أي صَمْتُاً وَسُكُوتًا . وكذلك رُويَ في بَعْضِ الحُرُوفِ ؛ وهو في حَرْفِ أَيْ ^(٢) .

ثم قوله : ﴿فَقُولِي﴾ ليسَ على القولِ نَفْسِهِ ، ولكنه إشارةٌ أشارَتْ إِلَيْهِمْ : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا ففیه دلالةٌ أَنَّ الإِشارةَ إِذَا كَانَتْ مُعْلِمَةً مُفْهِمَةً الْمُرَادَ تَعْمَلُ عَمَلٌ ^(٣) القولِ نَفْسِهِ والكلامِ . ولذلك وَقَعَ الطَّلَاقُ بالإِشارةِ والنِّكاحِ وَكُلُّ عَقْدٍ مِنَ الْآخَرِ وَغَيْرِهِ إِذَا كَانَتْ الإِشارةُ / ٣٢٤ - ب/ مَفْهُومَةً مَعْلُومَةً .

وقال بعضهم : قوله : ﴿فَقُولِي﴾ هو على حَقِيقَةِ الْقَوْلِ ، أي أَمَرْتُ أَنْ تَقُولِ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فَكَانَ نَذَرُهَا الصَّوْمَ لِلرَّحْمَنِ بَعْدَ هَذَا . إِلَى هَذَا يَذْهَبُ الْحَسَنُ .

الآية ٢٧

وقوله تعالى : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي بِعِيسَى ﴿قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ قال أبو بكرٍ الْأَصَمُّ : لَقَدْ قَرِيبٌ عَظِيمًا مِنَ الْأَمْرِ . لكنه يُخْرِجُ تَأْوِيلَهُ : قَرِيبٌ مِنَ التَّقْدِيرِ ؛ يُقَالُ : قَرَى أَي قَدَّرَ ، وقال بعضهم : لَقَدْ افْتَرَيْتَ ^(٤) عَظِيمًا ، وهو قَدْ ذُفِّ صَرِيحٌ ^(٥) بِالزُّنَى كَقَوْلِهِ : ﴿يَقْتَرِبُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ [المتحة : ١٢] .

وقال بعضهم : ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ كُلُّ قَائِمٍ [مِنْ] ^(٦) عَجَبٍ أَوْ مِنْ عَمْدٍ ^(٧) فهو فَرِيٌّ . وهو ههنا : عَجَبٌ فَرِيٌّ . هذا أَقْرَبُ ، إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ كَلَامُهُمْ عَلَى تَضَرُّعِ الْقَذْفِ . ثم لِتَضَرُّعِ الْقَذْفِ مَسَاحٌ وَوَجْهٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الآية ٢٨

وقوله تعالى : ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ قال بعضهم : كَانَتْ أُخْتُ هَارُونَ بِنُ عِمْرَانَ أَخِي مُوسَى . وعلى ذلك رُويَ خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ ثَبِتَ فَهُوَ هُوَ . وقال بعضهم : لا ، ولكن كَانَ لَهَا أَخٌ مِنْ أَبِيهَا ، يُقَالُ لَهُ : هَارُونَ بْنُ مَائَانَ ، لذلك نَسَبُوهَا إِلَيْهِ ؛ فَقَالُوا : ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ وقال بعضهم : إِنَّ هَارُونَ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا نَائِكًا فِيهِمْ ، فَشَبَّهُوهَا بِهِ ، وَنَسَبُوهَا إِلَيْهِ لِصَلَاحِهَا وَنُسُكِهَا . وإنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُسَمُّونَ ^(٨) كُلَّ صَالِحٍ هَارُونَ حُبًّا لِهَارُونَ . لذلك سَمَّوها ، وَنَسَبُوهَا إِلَى هَارُونَ لِنُسُكِهَا وَصَلَاحِهَا .

وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَنِيًّا﴾ أي مَا كَانَ أَبُوكَ مَا ذَكَرَ وَلَا أُمُّكَ وَلَا أَنْتِ ، فَمِنْ أَيْنَ كَانَ لَكَ هَذَا . هذا تَضَرُّعٌ مِنَ الْكَلَامِ لَيْسَ بِتَضَرُّعٍ ، فهو مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى التَّعَجُّبِ لَيْسَ عَلَى تَضَرُّعِ الْفِرْيَةِ وَالْقَذْفِ لَهَا .

الآيتان ٢٩ و ٣٠

وقوله تعالى : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمَةِ صَبِيًّا﴾ ^(٩) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي آتَانِي عِلْمَ الْكِتَابِ ، وَلَا تُفَسِّرُ أَيُّ هُوَ؟ الْإِنْجِيلُ أَوِ التَّوْرَةُ أَوْ غَيْرُهُ؟ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ فهذا يدلُّ أَنَّ الْكِتَابَ غَيْرُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .

الآية ٣١

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ هذا يدلُّ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَلَيْسَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم : وَالصَّبْرُ لَهُ غَايَةٌ . (٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم : وَقَالَ . (٣) مِنْ م ، فِي الْأَصْلِ : عَلَى . (٤) مِنْ م ، فِي الْأَصْلِ : افْتَرَيْتُمْ . (٥) فِي الْأَصْلِ وَم : تَضَرُّعٌ . (٦) فِي الْأَصْلِ وَم : عَمَلٌ . (٧) فِي الْأَصْلِ وَم : يَسْمَى . (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم .

كما قال أهل التأويل: إنه تكلم بهؤلاء الكلمات، ثم لم يتكلم بعد ذلك إلى [إن] ^(١) بلغ المبلغ الذي يتكلم الصبيان، لأنه أخبر أنه جعله نبياً، وجعله مباركاً، فلا يُحتمل أن يكون نبياً، ولا يتكلم، ولا يدعو الناس إلى ^(٢) دين الله، وأي بركة تكون فيه إذا لم يتكلم بكلام خير. فدل ذلك أنه ليس على ما قالوا هم. والبركة هي اسم كل خير وصلاح، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْصِنِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يَحْتَمِلُ الصَّلَاةَ الْمَعْرُوفَةَ وَالزَّكَاةَ الْمَعْرُوفَةَ. وَتَحْتَمِلُ الصَّلَاةَ النَّثَاءَ لَهُ وَالِدَعَاءَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَحْتَمِلُ الزَّكَاةَ كُلَّ مَا تَزَكُو بِهِ النَّفْسُ، وَتُضْلَعُ، وَتُثْمَرُ، مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

فإن كان الأول الصلاة المفروضة والزكاة المعروفة فهو على تعليم الناس؛ كأنه قال: أوصاني أن أعلم الناس الصلاة، وأعلمهم [عن حكم] ^(٣) الزكاة، إذ لم يكن يملك عيسى ما تجب فيه الزكاة، فهو يُخْرِجُ على إعلام الناس عن حكم الزكاة، أو على ^(٤) المواساة؛ فذلك مما قل، وكثر سواء. وإن كان الثاني فهو وغيره من الناس في ترك الزكاة سواء، والله أعلم.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أي وجعلني براً بوالدي، صلة لقوله: ﴿وجعلني نبياً﴾ ﴿وجعلني مباركاً﴾ وجعلني براً بوالدي ﴿ولم يجعلني جباراً شقيماً﴾ قد ذكرنا في قصة يحيى.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ هذا أيضاً قد ذكرناه في قصة يحيى غير أن الله تعالى هو مُسَلِّمٌ على يحيى في تلك الأحوال، وهنا ذكر أن عيسى مُسَلِّمٌ على نفسه. وذكر في بغض القصة أن عيسى ويحيى، عليهما الصلاة والسلام، التقيا، فقال يحيى لعيسى: أنت خير مني، فقال عيسى: بل أنت خير مني، سلم الله عليك، وسلمت أنا على نفسي، والله أعلم.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي ذلك عيسى ابن مريم، ليس على ما قالت النصارى وغيرهم: إنه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة على ما قالوا، ولكن عيسى ابن مريم عبد الله كما أقر هو بالعبودية حين ^(٥) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]. ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أن يكون ذلك الذي أنبأهم من نبي عيسى ﴿قَوْلِكَ أَلْحَقِي الَّذِي فِيهِ يَتَوَدَّنَ﴾ أن يكون هؤلاء الكفرة حين ^(٦) أنكروا أنه ليس على ما أنبأهم من نبيه، أي الذي يشكون فيه، هو قول الحق، والله أعلم.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ نزهة نفسه عن أن يتخذ ولداً لأنه لا تقع [له] ^(٧) الأسباب التي لها يتخذ الولد، ويطلب ^(٨). أو يقول: إن اتخاذاً الولد يسقط الألوهية، لأن الولد في الشاهد يكون شكل الأب وشبيهاً له، فلا يحتمل أن تكون الألوهية لمن يشبه الخلق، لأن الولد في الشاهد إنما يتخذ، ويطلب لأحد وجوه ثلاثة: إما لوجوه تأخذه، فيستأنس به، وإما لحاجة تمسه، فيستغني به في [دفعها، وإما] ^(٩) لوجوه يخاف من أعدائه، فيستصير به.

فلذا ^(١٠) كان الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يتعالى عن ذلك، وله من سرعة نفاذ ما ذكر في قوله: ﴿إِذَا فَعَلْتَ أَمْرًا فَإِنَّا نَفْعِلُ لَهْ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فما له من سرعة نفاذ الأمر ما ذكر لا تقع له الحاجة إلى الولد في معنى من المعاني ولا وجوه من الوجوه ﴿وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قول أهل التأويل: إنه نفخ في جيب مريم أو أنفها أو في غيره، وغير ذلك من القصص التي ذكرها مما ليس في الكتاب ذكرها، فلا يجوز أن يقال ذلك إلا بخبر عن الله تعالى أو عن أوحى إليه فإنه لم يعلم صدقه ولا ثبوته، فيذكر مقدار ما في الكتاب، لا يزاود على ذلك، ولا ينقص، لأن هذه الأنباء لما ذكرت لرسول الله لتكون آية لرساليه ونبوتها لأنها كانت مذكورة في الكتب المتقدمة، وكان هنالك من يعرفها، ذكرت ^(١١) له هذه الأنباء على ما كان في كتبهم ليعلّموا أنه إنما عرف ذلك بالله. فلو زيد فيه، أو نقص، لكانت غير دالة على ذلك.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) في الأصل: أي. (٤) في الأصل: من. (٥) في الأصل: من. حيث. (٦) في الأصل: من. حيث. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) أورد بعدها في الأصل: من. منه. (٩) في الأصل: من. دفعه. (١٠) من م، في الأصل: فاذا. (١١) في الأصل: من. فذكرت.

قَالَ الْفُتَيْيُّ: الصَّوْمُ الإِمْسَاكُ «سَوْمًا» أَي صَمْتًا. «فَرِيًّا» أَي عَظِيمًا عَجَبًا. وَالبَغْيُ: يُقَالُ: امْرَأَةٌ بَغْيٌ، وَنِسْوَةٌ بَغَايَا أَي فَاجِرَاتٍ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ.

الآية ٣٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَيْكَ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكَ فَأَعْبُدُوهُ» إِنَّهُمْ كَانُوا يَغْرِفُونَ [أَنْ] (١) اللَّهَ، هُوَ رَبُّهُمْ حِينَ (٢) قَالُوا: «مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» [الزمر: ٣] وَنَحْوَهُ. فَكَانَ عِيسَى قَالَ لَهُمْ: ارْجِعُوا إِلَى عِبَادَةِ الَّذِي تَغْرِفُونَ أَنَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، وَاتَّركُوا [عِبَادَةَ مَنْ] (٣) تَغْرِفُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِرَبِّكُمْ.

الآية ٣٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» اخْتَلَفَ فِيهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتَلَفَ الَّذِينَ تَحَرَّبُوا فِي عِيسَى فِي حَيَاتِهِ؛ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ سَاحِرٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ كَاهِنٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَذَا مِنْ هَذَا النَّحْوِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتَلَفَ الَّذِينَ تَحَرَّبُوا فِي عِيسَى بَعْدَ مَا رُفِعَ [مِنْ] (٤) بَيْنِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ اللَّهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَأَمَّا مَا قَالُوا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى مَا وَصَفُوهُ، وَقَالُوا فِيهِ. لَكِنَّهُمْ عَانَدُوا، وَكَاتَبُوا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» الَّذِينَ تَحَرَّبُوا، وَاخْتَلَفُوا / ٣٢٥ - أ/ فِي رَسُولِ اللَّهِ لَمَّا بُعِثَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَإِنَّهُ كَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ، وَإِنَّهُ مُفْتَرٍ، وَإِنَّهُ كَذَّابٌ، وَنَحْوُ مَا قَالُوا فِيهِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ مَا يَقُولُ هُوَ يُوَافِقُ كِتَابَهُمْ وَأَنَّ كِتَابَهُ مُصَدِّقٌ لِكِتَابِهِمْ وَأَنَّهُ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ هُمْ بِهِمْ، لَكِنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى الْمُعَانَدَةِ وَالْمُكَابَرَةِ. فَقَالَ أَصْحَابُ هَذَا التَّوِيلِ: التَّوِيلُ وَالْوَعِيدُ [لِلَّذِينَ تَحَرَّبُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ] (٥) وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالتَّوِيلُ لِكُلِّ كَافِرٍ. مَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا وَلَهُ ذَلِكَ التَّوَعِيدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مِنْ مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ» وَصَفَ ذَلِكَ الْيَوْمَ لِمَا فِيهِ؛ مَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَشَهِدُهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ وَالْمَلَائِكَةُ، فَهُوَ مَشْهَدٌ عَظِيمٌ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَصَفَهُ بِالْعَظَمِ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِأَمْرِ عَظِيمٍ، وَهُوَ ذَلِكَ الْيَوْمُ.

الآية ٣٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَسْمِعْ يَوْمَ رَبِّهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا» قَالَ الْحَسَنُ: يَكُونُونَ سُمْعَاءَ [وَبُصْرَاءَ فِي الْآخِرَةِ، لَيْسُوا] (٦) عَلَى مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا [عُمِيًّا بَكْمًا صُمًّا] (٧) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أَسْمَعَهُمْ، وَمَا أَبْصَرَهُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَصِحُّ هَذَا [لِأَنَّ هَذَا] (٨) لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْهُزْوَ وَالْتَعَجُّبِ، وَلَكِنْ تَأْوِيلُهُ (٩) يَسْمَعُونَ مَا قَالُوا، وَيُبْصِرُونَ مَا عَمِلُوا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «أَسْمِعْ يَوْمَ رَبِّهِمْ وَأَبْصِرْ» أَي أَسْمِعْ بِحَدِيثِهِمْ [وَأَعْلِمْ بِهِمْ] (١٠) وَأَبْصِرْ، كَيْفَ نَصْنَعُ بِهِمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَكِنَّ الظَّالِمِينَ الْقِيَمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أَي فِي حَسْرَةٍ بَيِّنَةٍ أَوْ فِي هَلَاكِ بَيِّنَةٍ. وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٣٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْقَسْرَةِ» قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّوِيلِ: الْحَسْرَةُ، هِيَ أَنْ يُصَوِّرَ الْمَوْتُ بِصُورَةٍ كَثِيرٍ أَمَلًا، فَيُذْنَعُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَنْظُرَ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ، فَيَنْدَمَ أَهْلُ النَّارِ، وَتَكُونَ لَهُمْ الْحَسْرَةُ لِمَا كَانُوا يَظْمَعُونَ الْمَوْتَ [وَيَتَأَسَّوْنَ بِهِ] (١١) تِلْكَ الْحَسْرَةُ الَّتِي ذَكَرَ. لَكِنْ هَذَا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِخَبَرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ. فَإِنْ ثَبَتَ شَيْءٌ عَنْهُ فَهُوَ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَالْحَسْرَةُ لَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا قَالَ: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ» [البقرة: ١٦٧] وَقَوْلُهُ: «وَبَحَّرَكُنَّ عَلَى مَا قَرَّرْتُ فِي جَنِّبِ اللَّهِ» [الزمر: ٥٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَبَحَّرَكُنَّ عَلَى مَا قَرَّرْنَا فِيهَا» [الأنعام: ٣١] وَنَحْوُهُ كُلُّ عَمَلٍ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ لَهُمْ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي الْآخِرَةِ وَتَدَامَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِذَا فُتِنَ الْأَثَرُ» أَي إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ «وَمِمَّنْ فِي غَفْلَةٍ» أَي هُمْ كَانُوا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.

(١) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعِبَادَةُ لِمَنْ. (٤) ساقطة من الأصل وَم. (٥) ساقطة من الأصل وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ: فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ، فِي م: وَبُصْرَاءَ فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمِي بِكُمْ صَم. (٨) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (٩) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَعْلَمَهُمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ: يَتَأَسَّوْنَ الْمَوْتَ فِي م: يَتَأَسَّوْنَ مِنْهُ.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ هذا، والله أعلم، كناية عن فناء الخلق جميعاً وبقاء الخالق، فذلك معنى الوراثة، والله أعلم. وعلى ذلك سُمي الوارث في الشاهد وراثاً لأنه باقٍ بعد فناء موزنيه، والله أعلم.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال الحسن: هو صلة ﴿كَهَيِّمَ﴾ ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [الآيتان: ١ و ٢] يقول وأذكر رحمة ربك إبراهيم، وكذلك يجعل جميع ما ذكر في هذه السورة من نحو هذا صلة ذلك، كأنه ذكر ﴿كَهَيِّمَ﴾ في كل ذلك، لأنه يجعل تفسير ﴿كَهَيِّمَ﴾ في كل ذلك على ما ذكر على إثره، وكذلك [يقول^(١)] في جميع الحروف المقطعة: إن تفسيرها ما ذكر على إثرها.

وأما غيره من أهل التأويل فإنه يقول: وأذكر لهم نبأ إبراهيم وقصته في الكتاب، وأذكر لهم^(٢) في الكتاب نبأ موسى وخبره^(٣) والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ذِيًّا ضَلِيلًا﴾ الضليق إنما يقال لمن كثر منه ما يستحق ذلك الاسم، وكذلك الشديد إنما يُشدُّ إذا كثر الفعل منه،^(٤) وصار كالعادة له والطبع، فكانه سمي بهذا لما لم يكن يجعل بين ما ظهر له من الحقوق والفعل وبين وفائها وأدائها نظرة ولا مهلة، بل كان يقي بها، ويؤديها كما ظهر له. لذلك سماه، والله أعلم، وفيما بقوله: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] وقوله^(٥) في آية أخرى: ﴿وَلِإِسْمَاعِيلَ إِذْ وَفَّى﴾ [البقرة: ١٢٤] سماه وفيما [لما]^(٦) كانت عادته القيام بوفاء [ما]^(٧) ظهر له، وإتمام ما ابتلاه ربه، والله أعلم.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا ابْنَتِي لِمَ تَبْعِي مَا لَا يَسْمَعُ﴾ إذا دعوته ﴿وَلَا يَبْصُرُ﴾ لو عبثته ﴿وَلَا يَفْقَهُ﴾ عَنكَ شَيْئاً إذا احتجت إليه. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي لا يجيب لو دعوته، واحتجت إليه ﴿وَلَا يَبْصُرُ﴾ حاجتك إذا احتجت إليه ﴿وَلَا يَفْقَهُ﴾ عَنكَ شَيْئاً أي لا ينصرك.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا يَفْقَهُ﴾ عَنكَ شَيْئاً من عذاب الله في الآخرة. [كانه]^(٨) يقول: كيف لا تعبُد من إذا دعوته سمع، وإذا دعوته أبصر^(٩) ونصرك إذا احتجت إليه، وسألته، والله الموفق.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْنِي إِلَىٰ قَدِّ جَنَّتِي مِنْ أَلِيلَةٍ مَا لَمْ يَأْتِكُ﴾ أي من البيان ما يحل بك بعد الموت إذا مت على ما أنت عليه ما لم يأتك ذلك مني ﴿فَأَتَيْتَنِي﴾ إلى ما أَدْعُوكَ إليه من دين الله ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي ديناً عادلاً سويّاً قيماً، لا عوج فيه. فهذا يدلُّ منه أنه قد أوجي [إليه]^(١٠) في ذلك الوقت.

ويشبه أن يكون عرف ذلك استدلالاً منه واجتهاداً على غير وحي كقوله: ﴿هَذَا رَبِّيَ هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وكل ذلك كان له من الله ألا تَرَى أنه قال في آخروها ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ هم لم يكونوا يعبدون الشيطان عند أنفسهم. ولكن تحمّل إضافة عبادتهم إلى الشيطان [وجهين]:

أحدهما^(١١): أن الأصنام التي عبدوها كانت لا تأمرهم بالعبادة، ولا تدعوهم إليها، ثم عبدوها بأمر الشيطان وبدعائه إياهم، فأضاف ذلك إليه للأمر الذي كان منه بذلك.

والثاني: ذكر أن الشيطان كان ينطق من جوف الصنم، فعبدها لإكلامه، فكانهم عبدوا الشيطان، والله أعلم.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يَسْكَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ أَخَافُ﴾ أي أعلم أن

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت في الأصل وم: واذكر. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وذكره. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أبصر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وجوها أحدها.

يَمَسُّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ لَوْ دُمْتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَخَشَعْتُ بَو. فَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ [الخوفِ على] ^(١) الْعِلْمُ فَهُوَ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ يُخْرَجُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مَوْضِعِ الْخَوْفِ؛ أَيِ اخَافَ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ لَمْ تُنْجِزْ وَعْدَكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أَيِ قَرِيبًا مِنَ الْعَذَابِ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهَيْئِ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ رَاغِبًا عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا.

أحدهما: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عَنْ دِينِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أَيِ لَأَقْتُلَنَّكَ.

والثاني: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عَنْ دَعَاكَ إِيَّايَ إِلَى دِينِكَ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أَيِ لَأَطْرُدَنَّكَ.

والثالث ^(٢): ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عَنْ قَذْفِ آلِهَتِنَا وَسَبِّهَا وَذُخْرِهَا بِسُوءِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أَيِ لَأَشْتُمَنَّكَ مَكَانَ شَتْمِكَ وَقَذْفِكَ آلِهَتِنَا. فَالرَّجْمُ يَشْتَمِلُ عَلَى هَذِهِ الرُّجُوءِ الثَّلَاثَةِ: الْقَتْلَ وَالطَّرْدَ وَالشَّتْمَ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْقَتْلِ فَهُوَ مُقَابِلُ الدِّينِ، أَيِ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عَنْ دِينِكَ لَأَقْتُلَنَّكَ. وَإِنْ كَانَ عَلَى الطَّرْدِ مُقَابِلُ الدَّعَاءِ، أَيِ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عَنْ دَعَاكَ إِلَى مَا تَدْعُو لَأَطْرُدَنَّكَ. وَإِنْ كَانَ عَلَى الشَّتْمِ فَهُوَ مُقَابِلُ الشَّتْمِ، أَيِ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عَنْ شَتْمِكَ آلِهَتِنَا لَأَشْتُمَنَّكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْجَرْنِي مَلِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: طَوِيلًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَفْرًا. فَإِنْ كَانَ مَلِيًّا أَيِ بَعِيدًا فَهُوَ عَلَى بُعْدِهِ مِنْهُ، أَيِ ابْتَدَأَ مِنِّي، وَتَبَاعَذَ مِنِّي [دَارًا وَمَقَامًا] ^(٣) وَإِنْ كَانَ عَلَى الذَّفْرِ وَالطَّوْلِ فَهُوَ يُخْرَجُ [عَلَى الْآ] ^(٤) تُكَلِّمُنِي أَبَدًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ كَلَّمَهُ بِكَلَامِ السَّدَادِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ/ ٣٢٥ - ب/ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] هُوَ أَنْ يَقُولُوا لَهُمْ كَلَامَ السَّدَادِ، لَيْسَ عَلَى [أَنْ] ^(٥) تُسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ عَلَى حَقِيقَةِ السَّلَامِ الْمَعْرُوفِ، لَكِنَّهُ يُخْرَجُ عَلَى الْإِضْمَارِ، أَيِ سَلَامٌ عَلَيْكَ إِذَا اسْلَمْتِ. وقوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ إِذَا اسْلَمْتِ عَلَى نَحْوِ مَا قُلْنَا. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لِيُوقِّفَكَ عَلَى السَّبَبِ الَّذِي تَسْتَوْجِبُ بِهِ الْإِسْتِغْفَارَ، وَتَكُونُ أَهْلًا لِلِاسْتِغْفَارِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنْ حَفِيَّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ بَرًّا لَطِيفًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَفِيًّا﴾ [أَيِ] ^(٦) عَالِمًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ عَوْدَنِي الْإِجَابَةِ إِذَا دَعَوْتُهُ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْحَفِيُّ الْعَالِمُ بِالْأَمْرِ، وَيُقَالُ: حَفِي الرَّجُلُ يَخْفَى إِذَا سَارَ بِلَا نَغْلٍ وَلَا خُفٍّ، وَجَمْعُهُ حُفَاةٌ، وَاحْتَفَى يَحْتَفِي أَيِ إِذَا احْتَفَى حَشِيشًا.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْإِعْتَزَالُ هَهُنَا: الْهِجْرَةُ ^(٧) إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمُفَارَقَتُهُ إِيَّاهُمْ مُفَارَقَةُ الْمَكَانِ وَالِدَارِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْبَنَسُهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] فَقَوْلُهُ ﴿فَنَجِّنَسُهُ﴾ النِّجَاجُ بِالْفَرَاقِ مِنْهُمْ.

وقوله: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيِ وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيْضًا. فَفِيهِ إِخْبَارٌ عَنِ اعْتَزَالِهِ عَنْهُمْ بِالِدَارِ وَالْمَكَانِ وَعَنْ فَعْلِهِمْ أَيْضًا، اعْتَزَلَهُمْ عَنِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَيِ ادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ شَقِيًّا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. داره ومقامه. (٤) في الأصل وم. أي لا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. اعتزال هجرة.

والثاني: ﴿أَلَا أَكُونُ بِدَعَاؤِ رَبِّي شَاقِيًا﴾ أي خائباً مردوداً الدعاء، والله أعلم

الآية ٤٩ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ اغْتَزَلَ الدارَ والمكانَ بالهجرة إلى الأرض المباركة التي ذَكَرَ أَنَّهُ نَجَّاهُ، وَاغْتَزَلَ أيضاً ضَيَعَهُمُ الذي كانوا يَصْنَعُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كقولهِ^(١) في آية أخرى ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] ذَكَرَ الْهِبَةَ لِأَنَّ الْوَلَدَ هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ؛ خَلَقَهُ عَلَى الْإِفْضَالِ مِنْهُ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يُعْطِي لَا عَنْ حَقِّ كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِ. فَذَلِكَ فَائِدَةُ ذِكْرِ الْوَلَدِ هِبَةً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نِسَاءَ﴾ هو ظاهر؛ وَهَبَ لَهُ مَا ذَكَرَ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ.

الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّحْمَةُ ههنا هي الثُّبُوءُ، أي وَهَبْنَا لَهُمْ الثُّبُوءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّحْمَةُ النُّعْمَةُ أي مِنْ نِعَمِيهِ وَهَبَ لَهُمْ مَا وَهَبَ مِنَ الثُّبُوءِ وَغَيْرِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ هِيَ الْكُتُبُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ؛ فِيهَا أَنْبَاءُ صِدْقِهِمْ وَفَضْلِيهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ؛ هِيَ ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هُمْ وَأَوْلَادُهُمُ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ رُسُلًا؛ يُذَكِّرُونَ، وَيُعْظَمُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ [لَأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ^(٢) يُذَكِّرُونَ، وَيُعْظَمُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ]^(٣) لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ [عليه السلام] كَانُوا مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ لَدُنْهُ إِلَى لَدُنْ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَهُمْ كَانُوا ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لِأَنَّهُمْ^(٥) يُذَكِّرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ وَبِكُلِّ بَرَكَةٍ وَيُنَمِّنُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هُوَ مَا آمَنْتَ^(٦) جَمِيعَ الْأَدْيَانِ بِهِ، أَعْنِي بِإِبْرَاهِيمَ، وَدَانُوا جَمِيعاً بِهِ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ تَخْصِيصُ إِبْرَاهِيمَ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالْبَرَكَةِ عَلَيْهِمُ وَالنَّسَاءِ عَلَى قَوْلِ قَوْمٍ حِينَ^(٧) قَالُوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» [البخاري ٦٣٥٧].

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقولهِ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ عَلَى قَوْلِ الْحَسَنِ: صَلَّةٌ قَوْلُهُ: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] أَيِ أَذْكُرُ رَحْمَةً رَبِّكَ مُوسَى.

وعَلَى قَوْلِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَيِ أَذْكُرُ لَهُمْ نَبَأَ مُوسَى وَقِصَّةَ فِي الْكِتَابِ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ مَخْلَصًا﴾ وَمُخْلَصًا: قَدْ قُرِئَ بِالنُّصْبِ وَالْخَفْضِ جَمِيعاً. قَالَ بَعْضُهُمْ ﴿مَخْلَصًا﴾ أَخْلَصَهُ اللَّهُ، وَاضْطَفَا، وَاخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ، وَقَوْلُهُ ﴿مَخْلَصًا﴾ بِالْخَفْضِ^(٨) أَخْلَصَ عِبَادَتَهُ وَتَوْحِيدَهُ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّسُولُ هُوَ الَّذِي يُنْبِئُ، وَيُخْبِرُ عَنِ التَّأْوِيلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّسُولُ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيَ وَالْكِتَابَ، وَالنَّبِيُّ هُوَ الَّذِي يُنْبِئُ لَا عَنْ لِسَانِهِ.

وَأَصْلُ النَّبِيِّ هُوَ الَّذِي يُنْبِئُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ. وَسُمِّيَ نَبِيًّا لِإِحْتِمَالِ خِصَالٍ فِيهِ كَالصَّدِيقِ؛ لَا يُسَمَّى بِهِ إِلَّا بَعْدَ اجْتِمَاعِ كُلِّ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَمْ يَنْفَرَدْ بِكُلِّ خِصْلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخِصَالِ سُمِّيَ صَادِقًا. فَإِذَا [اجْتَمَعَتْ تِلْكَ]^(٩) سُمِّيَ صَدِيقًا.

فَعَلَى ذَلِكَ النَّبِيُّ؛ سُمِّيَ نَبِيًّا لِاجْتِمَاعِ خِصَالٍ، وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي [خَبَرِ الرُّوْيَا]^(١٠): «الرُّوْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ» [التمهيد ٢٨١/١]، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ ٢٢٦٣، وَالبخاري ٦٩٨٩ جزء من ستة وأربعين] «وَالصَّفَتْ الْحَسَنُ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(١١) فَهَذَا يُدَلُّ أَنَّ النَّبِيَّ إِنَّمَا سُمِّيَ نَبِيًّا لِاجْتِمَاعِ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ فِيهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الصَّدِيقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ: رَسَلًا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٤) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَمَ آمَنَ مِنْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَابْنِ كَثِيرٍ وَغَيْرِهِمَا، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤/٤٩. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: اجْتَمَعَتْ ذَلِكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: الْخَبَرُ الرُّوْيَا، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١١) فِي الْمَوْطَأِ ٢/ ٩٥٤ وَ ٩٥٥: الْقَصْدُ وَالتَّوَدُّ وَحَسَنُ السَّمْتِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ فَإِنْ كَانَ الْأَيْمَنُ مِنَ الْيُمْنِ وَالْبَرَكَةُ فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: وَنَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْمُبَارِكِ الْمَيْمُونِ^(١).

وكذلك رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَنَانِي رَبِّي مِنْ جَبَلِ طُورِ سِينَاءَ، وَأُظْلِعَ مِنْ جَبَلِ سَاعُورَا، وَأُظْهِرَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. وَمَعْنَاهُ: أَنَانِي وَخِي رَبِّي مِنْ جَبَلِ طُورِ سِينَاءَ، وَأُظْلِعَ مِنْ جَبَلِ سَاعُورَا، أَيِ أَتَى وَخِي عَيْسَى مِنْ جَبَلِ سَاعُورَا، وَأَتَى وَخِي مُحَمَّدٍ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ؛ فَهُوَ عَلَى الْيُمْنِ يُمْنِ الْجَبَلِ وَبَرَكَتِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ يَمِينُ الْجَبَلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَمِينُ مُوسَى. وَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: هَذَا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْخَبَرِ، وَلَا تُفَسِّرُهُ أَنَّهُ مَاذَا أَرَادَ بِهِ؟ مَخَافَةُ التَّغْيِيرِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي مَوْضِعِ الْإِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ زَادُوا، أَوْ نَقَصُوا عَلَى مَا فِي كُتُبِهِمْ يَبْطُلُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْتُهُ يَمِينًا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: هُوَ تَقْرِبُ الْمَنْزِلَةَ وَالْقُدْرَ وَالْفَضْلَ. هَذَا مَعْرُوفٌ، وَهُوَ اسْتَلَمَ. ﴿يَمِينًا﴾ مِنَ الْمُنَاجَاةِ، أَيِ نَاجَاهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُظْلِعْ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَهُ^(٢)، وَسَمَّى مُوسَى. فَهَذَا لِأَنَّهُ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ، وَسَلَّمَهَا^(٣) لَهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْمُصَلِّي أَيْضًا مُنَاجِيًا رَبَّهُ عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: «انْظُرْ مَنْ تُنَاجِي» [بَنَحْوِ الْمَوْطَأِ: ٨٠/١] حِينَ^(٤) قَرَعَ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ الْأَشْغَالِ، وَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ، فَسَمَّى لِذَلِكَ ﴿يَمِينًا﴾ مُنَاجِيًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٥٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ عَلَى قَوْلِ الْحَسَنِ هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ [مَرِيَم: ٢] أَيِ أَذْكُرْ لَهُمْ رَحْمَةَ رَبِّكَ إِسْمَاعِيلَ. وَعَلَى قَوْلِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، أَيِ أَذْكُرْ لَهُمْ نَبَأَ إِسْمَاعِيلَ. وَقُصَّتْ فِي الْكِتَابِ عَلَى الْإِحْتِجَاجِ لَهُ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ وَالْقِصَصَ كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ، فَأُخْبِرَ رَسُولُهُ عَنْ تِلْكَ الْأَنْبَاءِ وَالْقِصَصِ عَلَى مَا كَانَتْ لِيُخْبِرَهُمْ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَهَا بِاللَّهِ لِيَذِلُّ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى نُبُوَّتِهِ^(٥) وَرِسَالَتِهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي إِسْمَاعِيلَ: قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الَّذِي قَالُوا ﴿أَمَتٌ لَنَا مَلِكًا نُنْتِزِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخَبَرِ عَنِ اللَّهِ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: سَمَاءُ صَادِقِ الْوَعْدِ [لأنه وَعَدَ]^(٦) رَجُلًا/٣٢٦ - ١/ أَنْ يُعَيِّمَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْتَظِرَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَقَامَ مَكَانَهُ أَبَامًا، يَنْتَظِرُهُ لِلْمِعَادِ حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ.

لَكِنْ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ إِسْمَاعِيلَ يَبْعُدُ عِدَّةً، وَلَا يَسْتَنْبِي. وَقَدْ نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ فَاعِلٌ كَذَا غَدًا حَتَّى يَسْتَنْبِي، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و ٢٤]. وَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أَيِ صَدِيقًا؛ وَالصَّدِيقُ هُوَ الْقَائِمُ بِوَفَاءِ كُلِّ حَقٍّ، ظَهَرَ لَهُ، لِأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ، يَتَّقِدُ فِي أَصْلِ إِيْمَانِهِ طَاعَةَ رَبِّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، يَاْمُرُ بِهِ، وَالْإِنْتِهَاءَ عَنْ كُلِّ نَهْيٍ، يَنْهَاهُ، وَوَفَاءَ كُلِّ حَقٍّ عَلَيْهِ. فَسَمَاءُ ﴿صَادِقِ الْوَعْدِ﴾ لِقِيَامِهِ بِوَفَاءِ كُلِّ حَقٍّ، ظَهَرَ لَهُ، وَتَجَلَّى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أَيِ قَوْمَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنْ كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ الصَّلَاةُ الْمَعْرُوفَةُ، وَالزَّكَاةُ [الزَّكَاةُ]^(٧) الْمَعْرُوفَةُ، فَفِيهِ أَنَّهُمَا كَانَتَا فِي الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ. وَإِنْ كَانَتِ الدُّعَاءُ وَالشَّاءُ وَمَا بِهِ تَزَكُّو الْأَنْفُسَ، وَتَصْلُحُ، فَهُوَ^(٨) عَلَى جَمِيعِ الْخِلَاقِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ظَاهِرٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْيَمْنِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرُهُمَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسَلَّمَهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: النُّبُوَّةُ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَهُوَ.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو ما ذكرنا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ قد ذكرناه أيضاً.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال الحسن: ﴿وَرَفَعْنَاهُ﴾ أي نَرَفَعُهُ في الجَنَّةِ، وقال أهل التاويل: رَفَعَهُ إلى السماء الرابعة [وهو ميت، أو كلاماً] ^(١) نَحْوَ هذا.

ولكن عندنا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ رَفَعُهُ إِيَّاهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ، وَالرَّفْعَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ جَمِيعاً عَلَى [ما] ^(٢) ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا لَمْ لِسَانَ صِدِّيقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي بالنبوة والرحمة التي ذَكَرَ فِي مَا تَقَدَّمَ. وَالرَّحْمَةُ هِيَ النِّعْمَةُ.

فَهَذَا يَرُدُّ قَوْلَ أَهْلِ الْإِعْتِزَالِ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَخُصُّ اللَّهُ أَحَدًا بِالنَّبُوَّةِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِفْضَالِ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، وَيَسْتَوْجِبُهُ. فَاجْتَبَاهُ اللَّهُ أَنَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ إِنْعَامٌ وَإِفْضَالٌ عَلَيْهِمْ.

[وقوله تعالى] ^(٣): ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أيضاً، وَمِنْ ذُرِّيَةِ ﴿وَأِسْرَءِيلَ﴾ أَي يُعْقَبُونَ، وَمِنْ ذُرِّيَةِ مَنْ هَؤُلَاءِ التَّوْحِيدِ، وَاجْتَبَاهُ لِلرَّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَاطِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هَذَا فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿إِذَا نُنَاطِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ﴾ الْقُرْآنِ بَعْدَ مَا آمَنُوا ﴿خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي أُولَئِكَ [الَّذِينَ] ^(٤) ذَكَرَ أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ؛ كَانَتْ لَهُمْ آيَاتُ فِي كُتُبِهِمْ؛ فِيهَا سُجُودٌ إِذَا تُلِيَتْ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا﴾ لِلَّهِ ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. أَوْ أَنْ يَكُونَ لَا عَلَى حَقِيقَةِ السُّجُودِ، وَلَكِنْ عَلَى الْخُضُوعِ لَهُ وَالْقَبُولِ لِحُجَجِهِ وَبِرَاهِينِهِ الَّتِي تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ. أَوْ أَنْ يَكُونُوا لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ إِذَا رَأَوْا آيَاتِ اللَّهِ وَسُلْطَانَهُ، وَلَكِنْ وَقَعُوا سُجَّدًا ^(٥) عَلَى مَا أَخْبَرَ عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمْ الْآيَاتِ حِينَ قَالَ: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠، والشعراء: ٤٦] وَقَالَ ^(٦): ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] لَيْسَ أَنْ سَجَدُوا لَهُ، وَلَكِنْ يَلْقَوْنَ سُجَّدًا لِمَا لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمْ الْآيَاتِ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿وَبُكِيًّا﴾ فِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ: بُكِيًّا وَبُكِيًّا وَبُكِيًّا ^(٧)، وَهُوَ جَمَاعَةُ الْبَاكِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] يُقَالُ: فَلَانٌ نَجِيٌّ فَلَانٍ، أَي مَوْضِعُ [سِرِّهِ] ^(٨).

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا نُنَاطِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أَنْ يَكُونَ كِتَابَةً عَنِ الصَّلَاةِ، وَصَفَهُمْ ۖ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكُونُونَ فِي الصَّلَاةِ خَاشِعِينَ بَاكِينَ.

الآية ٥٩

وقوله ^(٩) تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَاقِيهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ أَي خَلَفَ مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ

بِالصَّلَاةِ لِلَّهِ وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ فِيهَا وَالْبُكَاءِ ﴿خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي جَعَلُوهَا لَغِيْرَ اللَّهِ وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كَانُوا يَغْبُدُونَهَا. فإِذَا جَعَلُوهَا، وَصَرَفُوهَا إِلَى غَيْرِ الَّذِي يُصَلِّي أُولَئِكَ، فَقَدْ أَضَاعُوهَا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ لِلْأَصْنَامِ الصَّلَاةَ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي أُولَئِكَ لِلَّهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ هِيَ آخِرُ مَا يُتْرَكُ، وَيَضِيعُ، لِأَنَّهُ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قَالَ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَا الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ قُرْءَةٍ، أَوَّلُهَا الْأَمَانَةُ، وَآخِرُهَا الصَّلَاةُ» [بنحوه أحمد ٢٥١/٥].

[وقال بعض أهل التاويل: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾] ^(١٠) إِضَاعَتُهَا تَأْخِيرُهَا عَنْ مَوَاقِيتِهَا، لَا أَنْ تَرْكُوهَا أَضْلًا، فَهَذَا فِي أَضْلِ الْإِسْلَامِ، إِنْ ثَبَتَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ أَي آثَرُوا الشَّهَوَاتِ عَلَى الْعِبَادَاتِ، وَجَعَلُوا الشَّهَوَاتِ، هِيَ الْمُعْتَمَدَةُ دُونَ الْعِبَادَاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهَوِيَّتْ فِيهَا أَوْ كَلَام. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: سَجُودًا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/٥٠. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَفَّيْنَاهُمْ نِعْمَتًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَنِي وَاوٍ فِي جَهَنَّمَ. لَكِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِلَّا بِالْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: وَاوٍ فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَنِي الْعَذَابُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَنِي الشَّرُّ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سَمَى جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا بِالْغَوَايَةِ بِاسْمِ أَعْمَالِهِمْ عَنَّا. وَيَجُوزُ تَسْمِيَةُ الْجَزَاءِ بِاسْمِ سَبِّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَرَّزْنَا سَيِّئَتَهُ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وَنَحْوُهُ.

الآية ٦٠

ثُمَّ اسْتَشْنَى، فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عَنِ الشَّرِّ ﴿وَوَآمَنَ﴾ بِاللَّهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أَي لَا يُنْقَصُونَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي حَالِ إِيْمَانِهِمْ^(١) لِمَكَانٍ مَا عَمِلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ، بَلْ يُبَدَّلُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ عَلَى [مَا]^(٢) أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وَقَالَ فِي آيَةٍ [أُخْرَى]^(٣): ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يَغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا، وَانْتَهَوْا عَنِ الشَّرِّ، لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١

ثُمَّ بَيَّنَّ أَيَّ جَنَّةٍ؟ فَقَالَ: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا ﴿بِالْغَيْبِ﴾.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ إِيْمَانُهُمْ بِالْغَيْبِ، أَي بِاللَّهِ: آمَنُوا بِهِ بِالْخَبَرِ، وَإِنْ لَمْ يَرَوْهُ. وَيَحْتَمِلُ الْغَيْبُ الْجَنَّةَ، أَي صَدَّقُوا بِهَا، وَإِنْ لَمْ يَرَوْهَا [وَيَحْتَمِلُ الْغَيْبُ الْبَعْثَ]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ لِأَنَّهُمْ قَدْ آمَنُوا﴾ أَي كَانُوا مُرْعَوْدَةً آتِيًا. وَلَكِنْ ذَكَرَ مَا تَبَيَّنَ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ آمَنَ قَدْ أُتِيَتْهُ، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ مَا تَبَيَّنَ.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ إِنْ شَاءَ﴾ كَقَوْلِهِ^(٥) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ وَلَا تَأْنِيًا﴾. ﴿إِلَّا فِيهَا سُلَالَاتٌ﴾ [الواقعة: ٢٥ و ٢٦] أَي لَا يَسْمَعُونَ بَاطِلًا وَمَا يَكْرَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَغْضٍ، وَلَا [مَا]^(٦) يُؤْثِرُ بَعْضُهُمْ بَغْضًا. ﴿إِلَّا سُلَالَاتٌ﴾ وَالسَّلَامُ كَأَنَّهُ اسْمُ كُلِّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا نِكَاحٌ وَعَشْيَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ أَطْيَبَ الْعَيْشِ وَأَحَبَّهُ إِلَى الْعَرَبِ الْعَدَاءُ وَالْعِشَاءُ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ الْعَدَاءُ وَالْعِشَاءُ. وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ إِلَى الْعَجَمِ لِبَاسُ الْحَرِيرِ وَاللُّؤْلُؤُ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣ و فاطر: ٣٣].

وَيَقُولُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ بُكْرَةٌ وَلَا عِشْيٌ وَلَا لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، وَلَكِنْ يُؤْتَوْنَ عَلَى مَا يُحِبُّونَ مِنَ الْبُكْرَةِ وَالْعِشْيِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: عَلَى مَقَادِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾ لَيْسَ عَلَى تَخْصِيصٍ وَثَبَتْ دُونَ [وَقْتُ]^(٨) وَلَكِنْ [فِي]^(٩) الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا: فِي كُلِّ وَقْتٍ يُحِبُّونَ، وَيَسْتَهْوُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] [وَقَوْلِهِ]^(١٠): ﴿وَتَذَكَّرُ فِيهَا مَنَاسِكُكُمْ﴾ [الواقعة: ٢٠].

وَيُخْرِجُ ذِكْرَ الْبُكْرَةِ وَالْعِشْيِ [عَلَى]^(١١) أَنَّ زَمَانَ الْجَنَّةِ يَكُونُ شِبْهَ الْبُكْرَةِ مِنْ وَقْتِ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ وَمِثْلُ الْوَقْتِ [الَّذِي]^(١٢) يَكُونُ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى أَنْ يُظْلَمَ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنْ ظِلَّهُ مَمْدُودٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُظِلُّ مَتَدُورٌ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الآية ٦٣

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾]^(١٣) أَخْبَرَ أَنَّ تِلْكَ الْجَنَّةَ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّ فِيهَا كَذَا هِيَ الَّتِي

(١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْلَمَهُمْ. (٢) م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالنَّارِ وَالْبَعْثُ بِالْغَيْبِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٦) م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) م، ساقطة من الأصل. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ.

﴿ثَوْرٌ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَاقِيًا﴾. يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ وَغَدُ الْجَنَّةِ لِلْبَشَرِ كُلِّهِمْ بِشُرُوطٍ^(١)، شَرَطَ عَلَيْهِمْ؛ إِنْ وَقُوا بِهَا فَلَهُمُ الْجَنَّةُ جَمِيعًا، وَإِنْ لَمْ يَقُوا بِهَا فَلَا. فَمَنْ وَقَى وَفَى بِشُرُوطِهِ^(٢) الَّتِي / ٣٢٦ - ب/ شَرَطَ؛ يَجْعَلُ الَّذِي كَانَ وَغَدَ لِلَّذِي يَقَى^(٣)، إِذَا وَقَى بِذَلِكَ. فَهُوَ الْمِيرَاثُ الَّذِي ذَكَرَ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرَجُ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] الْفِرْدَوْسُ^(٤)، وَالْوَارِثُ هُوَ الْبَاقِي عَنِ الثَّوْرِ وَالْخَلْفَ عَنِ الْمَيْتِ.

وقوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِ خَلْفٍ﴾ [مريم: ٥٩]. قَالَ بَعْضُهُمْ: الْخَلْفُ بِالْجَزْمِ يُسْتَعْمَلُ فِي مَوْضِعِ الدَّمِّ، وَالْخَلْفُ بِالْتَحْرِيكِ وَالتَّضْبِيحِ فِي مَوْضِعِ الْمَذْحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمَا سَوَاءٌ، وَيُسْتَعْمَلَانِ جَمِيعًا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [هذا الكلام منه لا يكون إلا عن سؤالٍ كَانَ مِنْهُ، كَانَهُ قَدْ كَانَ اسْتَبْطَأَ نَزُولَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾]^(٥).

ثُمَّ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ؛ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ، فَيَجْعَلُ ذَلِكَ آيَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ، تَتْلَى.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مُوصُولٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لَأَنَّهُمَا جَمِيعًا كَانَا يَعْلَمَانِ أَنَّ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ. فَذَلِكَ أَنَّهُ مُوصُولٌ بِالْأَوَّلِ.

وَجِهَةُ الصَّلَاةِ بِالْأَوَّلِ هُوَ أَنْ يُقَالَ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لَا تَتَقَدَّمُ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا تَتَأَخَّرُ، وَلَا تَعْمَلُ شَيْئًا إِلَّا بِأَمْرِهِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

وَأَمَّا [أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَقَدْ] ^(٦) اِخْتَلَفُوا فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ وَهُوَ الْآخِرَةُ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْحَالُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الْآخِرَةُ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ مَا بَيْنَ التَّخْتَيْنِ، وَأَمْثَالُ هَذَا.

لَكِنَّ الَّذِي ذَكَرْنَا بَدْءًا أَوْلَى وَأَشْبَهُ، إِذْ هُوَ عَلَى الصَّلَاةِ بِالْأَوَّلِ لَا يَتَقَدَّمُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَعْمَلُ شَيْئًا إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هَذَا يُخْرَجُ عَلَى وَجْهِ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: مَا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ جَبْرِيلَ قَدْ كَانَ اخْتَبَسَ عَنْهُ زَمَانًا، فَقَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: قَدْ وَدَّعَهُ رَبُّهُ، وَقَلَّاهُ، فَتَزَلَّ: ﴿وَالصَّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ ﴿وَمَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الصَّحَى: ٢١ و ٣] عَلَى مَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ، فَيُخْرَجُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ عَلَى التَّرْكِ أَيِ مَا كَانَ رَبُّكَ تَرَكَكَ كَمَا^(٧) قَالَ أَوْلَئِكَ مِنَ التَّوْدِيْعِ وَالْقَلْيِ.

[وَالثَّانِي]^(٨): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ كَمَلُوكِ الْأَرْضِ، يُطَلَّبُ خَدْمَتُهُمْ وَخَوْلَتُهُمْ وَفَتْ سَهْوِ لَهُمْ وَحَالَةَ غَفْلَتِهِمْ، فَيَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ وَحَوَائِجَ مَنْ يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الْقِيَامُ بِهَا. أَيِ مَا كَانَ رَبُّكَ بِالَّذِي يَسْهُو لَهُمْ، وَيَغْفُلُ كَمَلُوكِ الْأَرْضِ.

وَالثَّلَاثُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لِتَأْخِيرِ نَزُولِ عَنْ وَقْتِ التَّزْوِيلِ، بَلْ أَتَزَلَّ عَلَيْكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ وَقْتُ التَّزْوِيلِ. فَهَذَانِ الرَّجْهَانِ يُخْرَجَانِ عَلَى السَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ، وَالْأَوَّلُ عَلَى التَّرْكِ.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاسْجُدْ لِعِزَّتِهِ﴾ أَيِ أَضْمِرْ نَفْسَكَ عَلَيْهَا وَعَلَى طَاعَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أَيِ مَا تَعْلَمُ لَهُ شَرِيكًا، تَسْتَعِزُّ بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ. إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا رَاحَةَ لَكَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا، اسْمُهُ اللَّهُ سِوَاهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ مَثَلًا وَشَبِيهًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِشْرَاطِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ يَف. (٣) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: الْآيَةُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ.

الآية ٦٦ وقوله تعالى: ﴿وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ آوَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ هذا الكلام يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: على إنكار البعث ﴿لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ أي ما أُخْرِجُ حَيًّا.

والثاني: على الهُزء؛ والهُزء جواب ما قال لهم أهل الإسلام: إنكم تُبْعَثُونَ، وتُخَيَّرُونَ، فقالوا عند ذلك على الهُزء بهم والشُّخْرية.

الآية ٦٧ ثم ذكروهم بذل حالهم حين^(١) لم يكونوا شيئاً، فخلَقَهُمْ، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فإن قَدَّرَ على خلقه في الابتداء، ولم يك شيئاً، كان على إحيائه وبُعْثِهِ بعد ما كان شيئاً أَقْدَرَ.

الآية ٦٨ ثم أفسم أنهم يُبْعَثُونَ، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي لنَجْعَلَنَّهُم والشياطين الذين أضلَّوهم كقولهِ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ عَلَّمُوا وَآزَوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الصافات: ٢٢ و ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَضْرِبَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَا﴾ قال بعضهم: ﴿جِثَا﴾ جماعات كقولهِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا﴾ [الزمر: ٧١] وقال بعضهم: ﴿جِثَا﴾ على الركب لأن أقدامهم لا تحملهم^(٢) لشدة هول ذلك اليوم.

الآية ٦٩ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ قال بعضهم: الشِيعَةُ الصَّنْفُ، أي من كل صنف [وقال بعضهم: الشِيعَةُ الاتباع كقولهِ: ﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾^(٣) وَمَذَا مِنْ عَدُوِّيَّ﴾ [الفصص: ١٥] أي من أتباعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثَا﴾ أي تَمَرُّداً وعِناداً. والعاتي هو القاسي المتمرِّد في عتوه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ﴾ أي لنُخْرِجَنَّ أي نُبْدَأ بِمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ تَمَرُّداً وعِناداً، وهُم القادة والرؤساء منهم، فيُقَدِّفُونَ في النار أولاً، ثم الأمثل على المراتب التي كانوا في الدنيا.

الآية ٧٠ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَعْلَمَنَّ الَّذِينَ هُم أَوَّلًا بِمَا سَيَلَّا﴾ أي اعْلَمُ بِمَنْ هُمْ^(٤) أولى بها صِلًا، أي يُضَلَّى بالنار، وهُم القادة والكفرة كقولهِ^(٥) ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قال أبو عوسجة: الغي الشرُّ ﴿جِثَا﴾ [مريم: ٦٨] قال: جماعات، والجاني هو البارک على رُكْبَتَيْهِ، والشِيعَةُ الصَّنْفُ مِنَ النَّاسِ.

وقال الفُتَيْي: ﴿جِثَا﴾ جَمْعُ جَاثٍ، وفي التفسير جماعات.

وقال قتادة في قولهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَيَّا﴾ [مريم: ٦٥] قال: لا سَمِيَّ لَهُ، ولا عَذْلَ، ولا يَمْلَ؛ كُلُّ خَلْقٍ يُقَرُّ لَهُ، وَيَعْرِفُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ خَالِقُهُ.

وقال بعضهم: لا يُسَمَّى أَحَدٌ بِاسْمِهِ؛ يعني بالله. وقال بعضهم: بالرحمن.

الآية ٧١ وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنْكُرَ إِلَّا وَأَرَدَهُمَا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قال بعضهم: الآية في الكفرة خاصة، واستدل بأول الآية بقولهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨، ...] إلى آخر ما ذُكِرَ. والمؤمنون لا يُخْشَرُونَ مع الشياطين، ولكن إنما يُخْشَرُ الكفار مع الشياطين كقولهِ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ عَلَّمُوا وَآزَوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [الصافات: ٢٢ و ٢٣]. ويكون قولهُ ﴿ثُمَّ تَتَّبِعِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾ على ابتداء منع الورود عليها والنجاة منها.

وقال بعضهم: الآية في المؤمنين والكافرين جميعاً. لكن اختلف في الورود، وقال بعضهم: الورود الحضور دون الدخول لأن الله ﷻ أخبر أن مَنْ أَدْخَلَ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجَهُ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]. وقال بعضهم: الورود الدخول فيها، واستدل بقولهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: تعمل. (٣) في م: والشِيعَةُ الاتباع كقولهِ ﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقوله.

وَرُدُّوهُمْ ﴿[الأنبياء: ٩٨] وبقروله: ﴿بِقَدْمُ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَرْدَهُمُ النَّارُ﴾ الآية [هود: ٩٨] يقول: يدخل الفريقان جميعاً فيها، لكنها تصير جامدة وبزداً على المؤمنين على ما صارت ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى الْإِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ثم تصير حارةً مخرقةً لِلْكَافِرِ وَالظَّالِمَةِ.

قَالَ الْحَسَنُ: لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَدْخُلَ أَهْلُ الْإِيمَانِ النَّارَ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ، أَمَّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ أَوْ حُزْنٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]... فلو كانوا يدخلون النار لكان لهم خَوْفٌ وَحُزْنٌ. وقد أُخْبِرَ أَنْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، دَلَّ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ.

وجائز أن يكونوا واردين جميعاً داخلين فيها، لا دخول تعذيب فيها وعقاب، لأنه ذَكَرَ أَنَّ مَرَّهُمْ جَمِيعاً عَلَى الصُّرَاطِ لِحَبْثِهِمْ كَالسُّطْحِ لِلدَّارِ. وَمَنْ خَلَفَ إِلَّا يَدْخُلُ دَاراً، فَتَسَوَّرَ بِسُورِهَا، أَوْ صَعِدَ سَطْحاً مِنْ سَطُوحِهَا، حَيْثُ، وَيَصِيرُ دَاخِلًا فِيهَا. فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنَّهُمْ إِذَا مَرُّوا عَلَى الصُّرَاطِ نَجَا أَهْلُ الْإِيمَانِ، فَمَرُّوا بِهِ، وَزَلَّتْ أَفْدَامُ الْكَافِرِ فِيهَا. فَكَانَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعاً يُوصَفُونَ بِالدُّخُولِ عَلَى ٣٢٧ - أ/ الْوَجْهِ الَّذِي وَصَفْنَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَرُودُ الْمُسْلِمِينَ الْمَرُورُ بِهِمْ عَلَى الْجِسْرِ بَيْنَ أَظْهُرِهَا، وَوُرُودُ ﴿الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «الزَّالْوَانُ وَالزَّالَاتُ»^(٢). وَمَا ذَكَرَ الْحَسَنُ أَنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا يَكُونُ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَدْخُلُهُمْ فِيهَا غَيْرَ جِهَةِ الْعُقُوبَةِ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ أُخْبِرَ أَنَّهُ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَصْحَابَ النَّارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] ثم لَا يَكُونُ لَهُمْ خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ؟ وَهُمْ مِمَّا أُوْعِدُوا بِهَا إِذَا خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَعَصَوْهُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، فَلَهُ مَيزَانٌ خِزْيَةٍ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩]. وَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا أَطْلَعُوا عَلَيْهَا، لَا شَكَّ أَنَّهُمْ يَخَافُونَ، وَيَحْزَنُونَ، وَيَسْوَأُوهُمْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْخَوْفِ، ثُمَّ فِي الْآخِرَةِ لَا.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا يَرِدُونَهَا، وَيَدْخُلُونَهَا، وَلَا يُخَفِّفُهُمْ ذَلِكَ، وَلَا يُحْزِنُهُمْ، وَلَا يَسْوَأُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَاً مَقْضِيًّا﴾ أَيُ قَضَاءٍ وَاجِبَاتِهِمْ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (٣) ﴿ثُمَّ تَنبِيءُ الَّذِينَ أَتَقَوَّا الشُّرْكَ أَوْ الْفَوَاحِشَ﴾ وَتَذَرُ الْفَالِطِينَ فِيهَا جِنًّا عَلَى رُكْبَتِهِمْ.

الآية ٧٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ مَا بَيْنَنَا بَيْنَهُمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا.

الآية ٧٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَبَاتًا﴾ كَانَ هَذَا مِنَ الْكُفَرَةِ؛ خَرَجَ جَوَابُ مَا اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِالْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرُوا جِجَاباً^(٤) عَلَيْهِمْ، فَيَقُولُونَ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ لِلَّهِ فَقَدْ وَسَّعَ عَلَيْنَا الدُّنْيَا، وَضَيَّقَ عَلَيْكُمْ، فَعَلَى ذَلِكَ يَوْسَعُ الْآخِرَةَ عَلَيْنَا كَمَا فَعَلَ فِي الدُّنْيَا؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَالِيَنَا فِي الدُّنْيَا، وَيُعَادِيَنَا فِي الْآخِرَةِ. وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُمْ: ﴿عَنْ أَكْثَرِ أَمْوَالٍ وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فَظَنُّوا أَنَّهُ لَمَّا وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَحْسَنَ لَهُمُ النَّدَى وَالْمَجْلِسَ، كَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ:

﴿وَكَمْ أَفْلَكًا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ أَخْبَرَهُمْ بِمَا عَرَفُوا هُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ السَّعَةِ وَالرِّزْقِ، ثُمَّ أَهْلِكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسَالَ وَعِصْيَانِهِمْ رَبَّهُمْ.

الآية ٧٤

فَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْكُفَرَةُ لَكَانُوا لَا يَهْلِكُونَ، فَيَلْزَمُهُمْ بِمَا ذَكَرَ أَنْ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، وَضَيَّقَ عَلَيْهِ^(٥) الْآخِرَةَ، إِنَّمَا يَكُونُ بِحَقِّ الْمِخْنَةِ لَا بِحَقِّ الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ. وَأَمَّا الثَّوَابُ وَالْجَزَاءُ فَهُوَ حَقُّ الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجِدْلَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَكَ﴾ قِيلَ: الْمَتَاعُ وَالْمَالُ ﴿وَرِيًّا﴾ أَيُ مَنْظَرًا^(٦).

(١) الواو ساقطة من الأصل رم. (٢) روى هذا الحديث ابن كثير في تفسيره عن عبد الرحمن بن زيد، انظر المختصر ج ٢/ ٤٦٢. (٣) ساقطة من الأصل رم. (٤) في الأصل رم: حجاباً. (٥) في الأصل رم: على. (٦) في الأصل رم: منتظراً.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي خيراً وسعة في الدنيا ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ هو العذاب والهلاك وعذبهم رسول الله في الدنيا ﴿وَلِمَّا نَسَاءَةً﴾ القيامة.

وقوله تعالى: ﴿تَسْتَبَلُّونَ مِنَ الْمُنَادِي وَتَوَكَّنَّا وَأَصْفَحْ جُنْدًا﴾ هذا يدل أن قولهم ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أرادوا الخدم والحواشي حين^(١) قال ﴿وَأَصْفَحْ جُنْدًا﴾.

قال أبو عوسجة: ﴿حَتَّىٰ مَقْصِيًّا﴾ [مريم: ٧١] أي واجباً ﴿نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أي مجلساً، والأنديّة^(٢) جمع، والأثاث المتاع ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ [مريم: ٧٤] منظرأ ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩] أي نطيل عذابه.

وقال الفتي: ﴿نَدِيًّا﴾ أي مجلساً؛ يُقال للمجلس: ندي وناد، ومنه قيل: دار الندوة التي كان المشركون يجلسون، ويتشاورون في رسول الله، والأثاث المتاع، والرئي المنظر والشارة^(٣) والهيئة، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي يمد له في ضلاليته ﴿وَنَرِيثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أي نريثه المال والولد الذي قال: ﴿لَأُورِثَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] أي لا شيء معه.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ جميع ما ذكر الله ﷻ، من زيادة الهدى^(٤) وابتداء الهداية (فهو إنما يزيد له الهداية)^(٥) ويهديه ابتداء إذا كان من العبد رغبة في ذلك وبغية وطلب.

إذا كان مهتدياً يزيد له الثبات^(٦) على ما كان عليه في وقت رغبته وطلبه منه. وإن^(٧) لم يكن مهتدياً يهديه ابتداء هداية في وقت رغبته وقبوله. على هذا يخرج عندنا ما ذكر بحق الزيادة أو بحق الابتداء.

ويحتمل قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أي يوفقهم إذا اهتدوا، وعرفوا وحدانية الله بأنواع^(٨) الخيرات والطاعات.

وقالت المعتزلة: [الهداية الأولى]^(٩) البيان، وهي هداية عامة، والهداية الثانية هي شرح الصدر لها والتوفيق، وهي هداية خاصة، تكون في وقت ثان بحق الثواب.

فعلى رغبهم يحيى ألا يكفر أحد بعد ما هداه الله مرة أبداً؛ لأنهم يقولون: إذا [اهتدى أحد، وقيل]^(١٠) هدايته مرة، يوقفه، ويشرح صدره في الوقت الثاني، فهو أبداً يكون على الهداية والإيمان. فإذا وجد عن كثير ممن اهتدوا مرة الكفر من بعد دل أن تاريلهم فاسد، وأن التأويل ما ذكرنا نحن أنه يزيد لهم الهداية وقت رغبته وطلبه الهداية، إن كان بحق الزيادة أو بحق الابتداء، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا خَيْرٌ مِنْكَ نَوَآءً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ يحتمل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا خَيْرٌ مِنْكَ نَوَآءً﴾ الأمور الباقية التي لها البقاء، أي ما يبقى لكم عند الله خير مما ينطّل، لأن الله ﷻ وصف الحق والخير بالبقاء والمكث، ووصف الباطل بالذهاب والتلاشي بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الآية [الرعد: ١٧] وقوله^(١١) في آية: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] [وقوله في آية]^(١٢): ﴿وَمَثَلٌ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٦] وقوله^(١٣) في آية: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَقَّى الْأَبْطُلُ إِنَّ الْأَبْطُلَ كَانَ زَهُوًّا﴾ [الإسراء: ٨١] أي ذاهباً.

فيُسببه أن يكون قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا خَيْرٌ مِنْكَ نَوَآءً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي الأعمال التي لها البقاء خير لكم عند الله ثواباً من التي^(١٤) ليس لها البقاء. ويحتمل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا خَيْرٌ مِنْكَ نَوَآءً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي ما أبقى لكم في الآخرة من الثواب خير لكم مما أعطى لكم في الدنيا؛ لأن هذا فإن، وذلك باقي، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: والآية. (٣) في الأصل وم: والبشارة. (٤) في الأصل وم: الهداية. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: الشباب. (٧) في الأصل وم: أو إن. (٨) في الأصل وم: الأنواع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: اهتدوا وقبلوا. (١١) و(١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) في الأصل وم: الذي.

الآيتان ٧٧ و ٧٨ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [أَطْلَعَ الْقَيْبَ أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا] ^(١) قَالَ بَعْضُهُمْ: هذا القول قاله العاص بن وائل السهمي لما حاجه أهل الإيمان في أمر الآخرة أنها لهم دون الكفرة، فقال لهم عند ذلك: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ في الآخرة، إن كان ما تقولون أنتم حقاً: إنما نُبْعَثُ، ونُحْيَا، ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ ^(٢) كما أُوتيت في هذه الدنيا.

وقال الحسن: قال هذا القول ^(٣) الوليد بن المغيرة، وهو ما قال الله تعالى: ﴿ذَرَوْا مَنَ خَلَقْتَ وَجِيدًا﴾ ﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مِّنْ دُونِهَا﴾ ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ ﴿وَمَهَّدْتَ لَهُ تَهِيْدًا﴾ ﴿ثُمَّ بَطَحَ أَنْ أَرِيدَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ [المدر: ١١ - ١٦].

الآية ٧٩ وكان يظنم أن يَرَادَ ^(٤) له في الدنيا أبداً، فقال ﷺ: ﴿كَلَّا﴾ رداً على ذلك. وقال مهنا: ﴿أَطْلَعَ الْقَيْبَ﴾ إنه يكون له في الآخرة؛ ذلك على التأويل الأول، أو في الدنيا في وقت آخر: ذلك على تأويل الحسن أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا أي له بذلك عند الله عهد.

[وقوله تعالى] ^(٥) ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ ^(٦) على ما ادَّعَوْا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سنحفظ ﴿وَنَسُجِّدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مِثْلًا﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿وَنَسُجِّدُ لَهُ﴾ أي نزيد له ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ في كل يوم كقوليه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقال بعضهم: ﴿وَنَسُجِّدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مِثْلًا﴾ أي نَعْدُب [بلا انقطاع] ^(٧) له، والله أعلم.

الآية ٨٠ وقوله تعالى: ﴿وَنَرِيْتُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال بعضهم: أي نرته المال والولد الذي قال: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ﴾ [مريم: ٧٧] أي الله ما يقول بأنه له من المال وغيره، لا له. وقال بعضهم: قوله: ﴿وَنَرِيْتُهُ مَا يَقُولُ﴾ إنه يُعْطَى في الجنة ما يُعْطَى المؤمنون، فَنَرِيْتُهُ عنه، ونُعْطِيهِ غَيْرَهُ.

وجائز إضافة الوراثة إليه على إرادة أوليائه، أي ﴿وَنَرِيْتُهُ﴾ ذلك أوليائه. وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَا فِرْدًا﴾ في الآخرة، ولا شيء معه، ولا أهل كقوليه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرْدًا﴾ [الأنعام: ٩٤]. ويختل قوله: ﴿وَبَيْنَا فِرْدًا﴾ في وقت، لا شيء معه، ولا أهل / ٣٢٧ - ب/ ولا ولد على تأويل من يقول في قوله: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ في الدنيا، والله أعلم.

ثم اختلف أهل التأويل في العهد الذي ذكر أن له ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨] قال: بعضهم: شهادة أن لا إله إلا الله في الدنيا. وقال بعضهم: [تقديم العمل الصالح] ^(٨) وقال بعضهم: الصلاة، وهو قول مقاتل.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه [أنه] ^(٩) قال: ﴿أَرَأَيْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [فإن الله يقول يوم القيامة: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدِي عَهْدٌ] ^(١٠) فليتب، فليل: كيف هو؟ قال [أن تقول:] ^(١١) اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك لا تكليني إلى عمل، يُقَرِّبُنِي مِنَ الشَّرِّ، ويُبَاعِدُنِي مِنَ الْخَيْرِ، وإني لا أثق إلا بِرَحْمَتِكَ، فاجعله لي عندك عهداً، تُؤَدِّيهِ إِلَيَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. ويرفع ابن مسعود هذا إلى رسول الله ﷺ، والأول كأنه أشبه، إن ثبت الخبر.

الآيتان ٨١ و ٨٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً يَكُونُوا هَمًّا عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ فإن كان على حقيقة العز فهو في القادة منهم والمتبوعين الذين عبدوا تلك الأصنام ليعتزوا بذلك، ولا يذلوا ^(١٢)، وتدوم لهم الرئاسة التي كانت لهم في الدنيا. فظنوا أنهم إن آمنوا تذهب تلك الرئاسة والمأكلة عنهم.

ويختل قوله: ﴿يَكُونُوا هَمًّا عِزًّا﴾ أي نصراً ومنعة. فإن كان هذا فهو في الرؤساء منهم والاتباع في الدنيا والآخرة.

(١) و (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: قول. (٤) في الأصل وم: أزيد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: رداً. (٧) من م، في الأصل: بالانقطاع. (٨) في الأصل وم: قدم عملاً صالحاً. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يذلون.

أَمَّا مَا طَمِعُوا بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ [فهو] ^(١) النَّصْرُ فِي الْآخِرَةِ، وهو كقولهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقولهم ^(٢): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] طَمِعُوا بِعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ النَّصْرَ وَالشَّفَاعَةَ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا [فقد] ^(٣) ظَنُّوا أَنَّ إِلَهَتَهُمُ الَّتِي [اتَّخَذُوهَا، وَعَبَدُوهَا، تَنْصُرُهُمْ] ^(٤) فِي الدُّنْيَا حِينَ ^(٥) قَالُوا: ﴿إِنْ تَنَزَّلُ إِلَّا أَنْعَزَنَكَ بَعْضُ إِلَهِنَا يَسُورٌ﴾ [هود: ٥٤] فَكَيْفَ مَا كَانَ فَقَدْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مَا طَمِعُوا: عِزًّا كَانَ أَوْ نَصْرًا.

يَقُولُ: ﴿كَلَّا﴾ لَأَنَّهُمْ أَذَلُّوا [أَنْفُسَهُمْ لِحَشَبِ] ^(٦) وَحَنُوا ظُهُورَهُمْ لَهَا. فَكَفَى بِذَلِكَ [ذُلًّا وَصَغَارًا].

وقوله تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: سَيَكْفُرُونَ عِبَادَ الْأَصْنَامِ فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ عَبَدُوهَا ^(٧) فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ مَا كَفَرُوا وَمَا عَبَدُوهَا كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنَّا يَفْقَهُنَّ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ ^(٨) رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. يُنْكِرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَنْ يَكُونُوا أَشْرَكَوا فِيهِ غَيْرُهُ ^(٩)، أَوْ عَبَدُوا دُونَهُ.

وقال غيره مَنْ أَهْلِ التَّوَابِلِ: سَيَكْفُرُونَ الْمَعْبُودُونَ بِالْعَابِدِينَ، وَيَتَّبِعُونَ مِنْهُمْ، وهو كقوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقوله: ﴿فَالْقَوَىٰ إِلَىٰ إِلَهِهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] وَنَحْوُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿صِدًّا﴾ أَيَّ عَوْنًا. وَتَاوِيلُ الْعَوْنِ هُوَ أَنْ تُلْقَى الْأَصْنَامُ مَعَهُمْ فِي النَّارِ، فَيُخْرَقُونَ فِيهَا مَعَهُمْ، فَيَزِدَادُ لَهُمْ عَذَابًا، وَكَانَتْ [عَوْنًا] ^(١٠) عَلَى إِحْرَاقِهِمْ. فَعَلَى هَذَا يُخْرَجُ.

وقول مَنْ ^(١١) يَقُولُ: الضَّدُّ الْبَلَاءُ [هو أن] ^(١٢) يَكُونُوا بَلَاءَ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وهو ما قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فَإِذَا صَارُوا حَصَبًا كَانُوا بَلَاءَ وَعَوْنًا عَلَى إِحْرَاقِهِمْ.

وقال بعضهم: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ أَيَّ قُرْنًا فِي النَّارِ؛ [لِيُخَاصِمَ] ^(١٣) بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيُكَذِّبُ ^(١٤) بَعْضُهُمْ بَعْضًا. فَذَلِكَ كُلُّهُ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ مَا طَمِعُوا مِنْهَا لِأَنَّهُمْ عَبَدُوهَا فِي الدُّنْيَا رَجَاءً أَنْ يَكُونُوا لَهُمْ شَفَاعَةً فِي الْآخِرَةِ وَنُصْرًا، فَكَانُوا لَهُمْ عَلَى صِدِّ ذَلِكَ أَعْدَاءً.

وقال ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ أَيَّ حُسْرَةً، وَكُلُّهُ وَاجِدٌ.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزَمُهُمْ أَزًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أَيَّ سَلَطْنَا عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الدُّنْيَا يَتَلَوَّنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقال بعضهم: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ أَيَّ قَيَّضْنَاهُمْ لَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقْيِضْ لَمْ يَنْبَغِ لَهُ قَيْضٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] فهما في الحقيقة واحدة؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَرْسَلَهُمْ اتَّصَلُوا بِهِمْ [وَإِذَا اتَّصَلُوا بِهِمْ] ^(١٥) قَيَّضُوا، وَقُرِنُوا بِبَعْضِهِمْ بِيَعِضٍ.

وقال الحسن وأبو بكر الأصم وغيرهما: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَيَّ خَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَلَمْ نَمْنَعُهُمْ مِنْهُمْ مِمَّا ^(١٦) ذَكَرَ.

لَكِنْ لَوْ كَانَ تَاوِيلُ الْإِرْسَالِ التَّخْلِيَّةَ، وَتَاوِيلُ التَّقْيِضِ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيُتَخَصِّصَ الْكُفَّارُ بِذَلِكَ مَعْنَى ^(١٧) إِذْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ مِنَ التَّخْلِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِنْ كَانَ تَاوِيلُ التَّخْلِيَّةِ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْهُمْ [وَأَنَّهُ خَلَّى] ^(١٨) بَيْنَهُمْ.

فَذَلَّ [أَنْ] ^(١٩) تُتَخَصِّصَ الْكُفَّارُ بِهَذَا وَآمَالُهُ لَيْسَ هُوَ التَّخْلِيَّةُ [بِلِ غَيْرِهَا] ^(٢٠) وَأَنْ تُتَخَصِّصَ هَؤُلَاءِ بِهَذَا وَآمَالُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَلْ طَمِعَ اللَّهُ عَلَيْهَا يَكْفُرُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] [وقوله] ^(٢١) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥]... وَنَحْوِهِ، وَأَنَّ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: اتخذوها وعبدوها ينصرونهم، في م: عبدوها ينصرونهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: لأنفسهم الخشب. (٧) في م، عبدوها. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وغيره. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: ومن (١٢) في الأصل وم: أي. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، في الأصل: ويخاصم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ما. (١٧) في الأصل وم: المعنى. (١٨) في الأصل وم: ولم يخل. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل وم: لا غير. (٢١) ساقطة من الأصل وم.

هنالك^(١) من الله معنى في الكفار، ليس ذلك في المؤمنين، وفي المؤمنين معنى ليس ذلك في الكافرين. وهو، والله أعلم: إذا علم في المؤمنين الرغبة والإجابة وفَقَّههم على ذلك، وهداهم. وإذا علم من الكفار خلاف ذلك وصدَّه خذلهم، وأضلهم. فذلك تخصيصه إياهم بما ذكر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تَوَزَّهُمْ أَزْأًا﴾ قال بعضهم: تزعجهم إزعاجاً. وقال بعضهم: تشلهم شلاً، وتغريهم إغراء. وقال الحسن: تحركهم تحريكاً. وقال بعضهم: تقدمهم إقداماً إلى الشر. وقال بعضهم: تأمرهم أمراً. وقال بعضهم: توقيهم إيقاعاً، ونحوه، وكله واحد.

الآية ٨٤ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْبِلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تكافئهم على أذاهم إياك، ولا تعاقبهم ﴿إِنَّمَا تَعْدُ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي أنفاسهم [التي]^(٢) يتنفسون في الدنيا، فهي معدودة، تنقضي آجالهم عن قريب، فلا تكافئهم على ذلك وما يستقبلونك بالمكروه والسوء.

ثم وجه ما ذكر من إرسال الشياطين عليهم والتكئين لهم من الوسوسة في الصدور، أعني صدور المؤمنين، والترغ في ردعهم من غير أن يملِكوا القهر والقسر على ذلك، وما جعلهم بمحل، لا نراهم نحن، وهم يزونا، على ما أخبر: ﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فهو، والله أعلم^(٣) أن من علم بحضريته وقربه عدواً له، يراقبه، ويطلب الفرصة عليه، يكون أخذراً وأهيباً له ممن لا يعلم ذلك ولا كان يقربه وحضريته عدواً. وعلى ذلك ما جعل الله من الحفظة والكرام الكائنين، صلوات الله عليهم، على بني آدم رقباء عليهم في قليل ما يفعلون، ويتفوهون، وكثيره^(٤)، وإن كان قادراً على حفظ ذلك عليهم والتذكير لهم، واحداً بعد واحد شيئاً على إثر شيء. وذلك لما ذكرنا أن من علم أن عليه رقيباً، يراقبه، ويكتب عليه كل قليل أو كثير كان أخذراً وأهيباً ممن لم يعلم ذلك على نفسه رقيباً، والله أعلم.

الآية ٨٥ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أي الذين اتقوا مخالفة أمر الله في كل ما لا يغلب عليهم، لأن المؤمنين لا يرتكب المعصية إلا لعلية شهوة أو لعلية رجاء إلى مغفرة ربهم ونحوها^(٥) أو توبة يضيرها بعد^(٦) ارتكابها. على هذا يكون ارتكاب المؤمن مخالفة ربهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ أي إلى^(٧) ما وعد لهم الرحمن من الثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَفْدًا﴾ الوفد في الشاهد هم أهل الكرامة والمنزلة؛ يبعثون لأمر. فكأنه ذكر أن المتقين يخشون، وهم مكرمون معظمون، ولهم منزلة عند الله وقدر، والله أعلم.

الآية ٨٦ وقوله تعالى: ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ الوارد هو طالب الماء، والورد الجمع. فكأنه قال: وسوق المجرمين إلى جهنم عطاشاً طلاب الماء على ما قاله أهل التأويل. والمجرم: قال أبو بكر الأصم: هو الوثاب في المعصية. وأصل الإجماع الإكتساب، ولهذا^(٨) قال بعض الناس في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ سِتْرَانِ قَوِي﴾ [المائدة: ٢ و ٨] أي يكسبكم. وأصله هو/ ٣٢٨ - / كَسِبَ الْإِثْمَ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فيه أنهم إنما يساقون على كثر منهم؛ إذ ذكر في الكافرين السوق، وذكر في المؤمنين الجنح والحشر.

الآية ٨٧ وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ الشفاعة إنما تكون في من استوجب العذاب والعقوبة. فأمّا من، لا عقوبة عليه، مغفور الذنب، فإنه لا معنى لها [فيه]^(٩) فهو يرد على المعتزلة مذهبهم: أن صاحب الكبيرة، لا يغفر له،

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٤) في الأصل وم: وكثيرهم. (٥) في الأصل وم: ونحوه. (٦) في الأصل وم: بقدر. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: ولها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وصاحب الصغيرة مغفور له. فالشفاعة التي ذَكَرَ لا تَخْلُو: إما أن تكون لأهل الكباير، فيُغْفَرُ لَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ، فيَبْتَطِلَ قولُهُمْ، وإما^(١) لأهل الصغائر فَلَهُ تَغْذِيهِمْ. فكيف ما كان فهو يَرُدُّ قولُهُمْ: إنه^(٢) لا معنى لِدُكْرِ الشَّفَاعَةِ فِي الْمَغْفُورِينَ.

وقالوا: إِنَّ الشَّفَاعَةَ فِي الشَّاهِدِ أَنْ تُذَكَّرَ مُحَاسِنُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ آخِرِ لَيَعْرِفَ مُحَاسِنَهُ وَمَنَاقِبَهُ، لَتَكُونَ لَهُ مَثْرَلَةٌ وَقَدْرٌ عِنْدَهُ. لَكِنْ مِثْلُ هَذَا يَجُوزُ لِمَنْ^(٣) يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَلَا يَعْرِفُ مُحَاسِنَهُ، فَأَمَّا اللَّهُ ﷻ هُوَ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، يَعْلَمُ حَالَ كُلِّ أَحَدٍ، فَلَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلَاةُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا.

وَأَصْلُ الْعَهْدِ هُوَ أَنْ يُشْتَرَطَ عَلَيْهِ شَرْطُ الْوَفَاءِ حَتَّى بِمَا شَرِطَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْوَفَاءُ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَنَهَى عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ.

لَكِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ قَالُوا أَيْضًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فَهُوَ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ يُخْرِجُ عَلَى الْإِضْمَارِ حِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾: أَنْ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أَي عَظِيمًا مُنْكَرًا. أَوْ يَكُونُ^(٥) لَمَّا قَالُوا ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ عَظِيمًا مُنْكَرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٩٠ و ٩١

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَنْزِعُ لِلْجِبَالِ هَذَا﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِثْلُ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْعَظِيمِ مِنَ الْأُمُورِ وَالنَّهَايَةِ مِنَ الضِّيقِ وَالشَّدَةِ عَلَى التَّمْثِيلِ. يَقُولُ الرَّجُلُ لِآخَرٍ: أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَنَحَوَهُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ^(٦) فِي الضِّيقِ وَالشَّدَةِ.

فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا: ذَكَرَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ^(٧) وَالنَّهَايَةِ فِي الْعَظِيمِ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي قَالُوا [فِي اللَّهِ]^(٨) سُبْحَانَهُ، ثُمَّ جَعَلَ مِثْلَ مَا قَالُوا فِي الْعَظِيمِ [فِي اللَّهِ]^(٩) بِمَا يَعْظُمُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ فِي الْعُقُولِ. وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ انْفِطَارِ السَّمَوَاتِ وَانْشِقَاقِ الْأَرْضِ وَهَذَا الْجِبَالِ، وَهُنَّ أَصْلُبُ الْأَشْيَاءِ وَأَشَدُّهَا لَيَعْرِفُوا عِظَمَ مَا قَالُوا فِيهِ. وَهَكَذَا تُعْرَفُ الْأُمُورُ الْغَائِبَةُ الَّتِي سَبِيلُ مَعْرِفَتِهَا الْإِسْتِذْلَالُ بِالْمَحْسُوسَاتِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْمُشَاهَدَاتِ مِنْهَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ انْشِقَاقِ الْأَرْضِ وَهَذَا الْجِبَالِ وَانْفِطَارِ السَّمَاءِ عَلَى حَقِيقَةٍ مَا ذَكَرَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا، وَإِنْ لَمْ يُشَاهِدْ ذَلِكَ مِنْهَا، وَلَمْ يُحَسَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا بَجَلْ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَقَالَ قَائِلُونَ: ذَكَرَ هَذَا فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَمَا ذَكَرَ بِمَا قَالُوا تَعْظِيمًا لَذَلِكَ وَإِنْكَارًا.

الآية ٩٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أَي مَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا.

الآية ٩٣

[وقوله تعالى]^(١٠): ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِيْ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وَفِي الشَّاهِدِ لَا أَحَدٌ يَتَّخِذُ الْوَلَدَ مِنْ عِبِيدِهِ. فَكَيْفَ يَنْبَغِي [لِمَنْ]^(١١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّهُمْ عِبِيدُهُ، أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا مِنْ عِبِيدِهِ؟ أَوْ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وَأَسْبَابُ الْأَوْلَادِ الَّتِي بِهَا يَتَّخِذُ الْوَلَدَ لَيْسَتْ فِيهِ، لِأَنَّ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا يَتَّخِذُ الْوَلَدَ لِثَلَاثٍ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

فَإِنْ كَانَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَنْبَغِ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ الْوَلَدَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَوْلُهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يَكُونُوا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الْإِبْلَاح. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: اللَّهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: اللَّهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: اللَّهُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (١١) فِي م: لَهُ. سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقال بعضهم في قوله: ﴿إِلَّا مَآئِ الرِّحْنِ عَذَابٌ﴾ في الآخرة. أي كُلُّهُمْ يَقْرُونَ بِالْعُبُودَةِ لَهُ يَوْمَئِذٍ.

الآية ٩٤ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَا وَعَدَّكُمْ عَذَابٌ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَا وَعَدَّكُمْ عَذَابٌ﴾ مِنْ عَدِّ أَنْفُسِهِمْ وَإِحْصَائِهِ، أَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، أَوْ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْوَعِيدِ، أَنْ يُحْصِيَ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ بِمَا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا يُرَاقِبُونَ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وقوله^(١): ﴿كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الانفطار: ١١].

قال أبو عروسة: الضُّدُّ الْخَضْمُ، والإدُّ السُّوقُ الشَّدِيدُ، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي شديداً، والوردُ أي يوردهم إِيَّاهَا، أي يذخلهم. وقال: الوردُ النَّصِيبُ مِنَ الْمَاءِ، وقوله: ﴿هَذَا﴾ أي صوتاً يهتد، أي يهتد.

الآية ٩٥ [وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ مَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي واحداً، ليس معه مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ]^(٢).

الآية ٩٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهًا:

أحدها: خاطب أهل مكة: إنكم إذا آمنتم، وعملتُم الأعمال الصالحات، يَرْفَعُ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ التَّبَاغُضِ وَالتَّعَادِي، فَيُبَدِّلُ مَكَانَهُ الْمَحَبَّةَ وَالْمَوَدَّةَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أَخْبَرُ أَنَّهُمْ صَارُوا بِالْإِيمَانِ إِخْوَانًا مُؤَلَّفَةً قُلُوبُهُمْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ.

والثاني: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ فِي الْجَنَّةِ، أي يَنْشُرُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ وَغَشٍّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

والثالث: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ فِي قُلُوبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَخْيَارِ وَأَصْحَابِ الدِّينِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِنْسَانِ لِدِينِهِ وَلِخُلُوصِ عَمَلِهِ لَلَّهِ وَصَفَائِهِ لَهُ لَا إِلَى الدُّنْيَا وَمَا تُخَوِّيه يَدُهُ.

وجائز أن يكون على ما رَوَتْ^(٣) الْأَخْبَارُ، إِنَّ ثَبَّتْ: رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، [أَنَّهُ]^(٤) قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى: أَخْبِيْتُ فَلَانًا، فَأَجَبْتُهُ» [البخاري ٣٢٠٩] وكذلك هذا فِي الْبُغْضِ.

وقال كَعْبٌ: وَجَدْتُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ مَحَبَّةٌ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ حَتَّى يَكُونَ بِذُوقِهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ يُنْزِلُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ ثُمَّ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ فِي الْبُغْضِ. ثُمَّ قَالَ: وَكَذَلِكَ وَجَدْتُ فِي الْقُرْآنِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ يُجِبُّهُمْ، وَيُحِبُّهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، فِي صُدُورِهِمْ.

فَعَلَى هَذَا، إِنَّ ثَبَّتْ، يَجِبُ أَنْ يَخَافَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا رَأَى النَّاسَ [لَا يُجِبُونَهُ]^(٥) أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ سُوءِ عَمَلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: [يَسِّرْنَا لَهُ]^(٦) تَبْلِيغَ الرِّسَالَةِ عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى بَلَّغَهَا إِلَى الْفَرَاغَةِ مِنْهُمْ وَالْأَكَابِرِ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتُلُونَ مَنْ يُخَالِفُهُمْ، وَيَسْتَفْلِحُهُمْ بِغَيْرِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَيُعَاقِبُونَهُ^(٧) عَلَى ذَلِكَ. يَسَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَّغَهَا إِلَى أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَقَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ قَدَّرُوا عَلَى إِهْلَاكِهِ حِينَ^(٨) أَخْبَرَ أَنَّهُ عَصَمَهُ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال بَعْضُهُمْ: يَسَّرَهُ عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى قَدَّرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِهِ وَالتَّنْقِطِ لِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قال أبو بكرٍ الْأَصَمُّ: هَذَا لَا يُحْتَمَلُ لِأَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِلِسَانِهِ وَلِسَانُ الْعَرَبِ: فَلَا يُحْتَمَلُ إِلَّا يَقْدِرُوا عَلَى التَّكَلُّمِ بِلِسَانِهِمْ. وَقَالَ قَاتِلُونَ: يَسَّرَهُ عَلَى لِسَانِهِ حِينَ^(٩) جَعَلَهُ بِحَيْثُ يَحْفَظُونَهُ، وَيَقْرَؤُونَهُ عَنْ ظَهْرِ قُلُوبِهِمْ، لَيْسَ كَسَائِرِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّتِي^(١٠) كَانُوا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى حِفْظِهَا وَقِرَاءَتِهَا^(١١) عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الرواء ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: رويت. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: يسرناه. (٧) في الأصل وم: ويعاقبون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أنهم.

(١١) في الأصل وم: والقراءة.

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ كقوله ^(١) في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا/ ٣٢٨ - ب/ نُذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وقوله ^(٢) في آية أخرى: ﴿لَنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] وقوله في آية أخرى: ﴿لَيَكُونَنَّ لِلطَّالِفِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ^(٣) مرة ذكر النذارة للناس جميعاً، ومرة للذين ظلموا خاصة، ومرة للذين اتبعوا الذِّكْرَ.

والأصل في النذارة [والإشارة] ^(٤) أن الإشارة إذا كانت خاصة لأحد فهي له على شرط [الدوام على ذلك أبداً، وفيها] ^(٥) النذارة له، إن لم يدُمْ. وكذلك النذارة الخاصة لأحد لدوام ذلك ^(٦) مُلْتَزِمًا. فإن تاب، وَرَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَهُ فِيهَا الْبِشَارَةُ.

على هذا تكون البشارة الخاصة، والنذارة الخاصة تكون في كل واحدة منهما أخرى.

وأما البشارة المطلقة فهي بشارة لا تكون فيها النذارة، وكذلك النذارة المطلقة لا تكون فيها البشارة. على هذه الأقسام تُخَرَّجُ البشارة والنذارة، والله أعلم.

الآية ٩٨

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَفْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ نَحْشُ مِنْهُمْ بَيْنَ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ يُخَوِّفُ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ بِأَهْلَاقِهِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي الدُّنْيَا بِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسَالَ لثَلَا يُكْذِبُوا مُحَمَّدًا كَمَا كَذَّبَ أُولَئِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَيَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ كَمَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ.

يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿هَلْ نَحْشُ مِنْهُمْ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ أَيِ هَلْ تَرَى؟ وَتُبْصِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا؟ أَيِ لَا تَرَى، وَلَا تُبْصِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ قِيلَ: صَوْتًا، وَقِيلَ: ذِكْرًا، أَيِ لَا يُذَكِّرُونَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ إِلَّا بِسُوءٍ.

يُحَذِّرُ أَهْلَ مَكَّةَ لثَلَا يُكْذِبُوا رَسُولَهُمْ كَمَا كَذَّبَ [الَّذِينَ] ^(٧) مِنْ قَبْلِهِمُ الرِّسَالَ، فَيَكُونُوا ^(٨) كَمَا كَانَ أُولَئِكَ، وَيَصْبِرُوا ^(٩) مِنْهُمْ.

قَالَ الْقَتَّابِيُّ: اللَّهُ جَمَعَ أَلَدَّ، وَهُوَ الْخَصْمُ الْجَدُلُ، وَالرُّكْزُ الصَّوْتُ الَّذِي لَا يُفْهَمُ.

وَقَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: الْأَلَدُّ، هُوَ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ. ﴿هَلْ نَحْشُ﴾ هَلْ تَرَاهُ ﴿رِكْزًا﴾ أَيِ ذِكْرًا. وَالرُّكْزُ أَيْضًا الصَّوْتُ، وَقَالَ ﴿هَذَا﴾ صَوْتًا إِذَا انْهَدَمَتْ.

وَقَالَ أَبُو مُعَاذٍ: وَلِلْعَرَبِ فِي الْبُشْرَى ثَلَاثُ لُغَاتٍ: بَشَرٌ بِهِ بِالْخُفْيَةِ، فَأَنَا أَبْشَرُهُ. وَبَشَرْتُهُ بِالشَّدِيدِ، فَأَنَا مُبْشَرُهُ. وَأَبْشَرْتُهُ، فَأَنَا مُبْشِرُهُ، وَالرَّجُلُ مَبْشُورٌ، وَمُبَشَّرٌ، وَمُبَشَّرٌ.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَهُمْ بِآيَةِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ قَرَدًا﴾ أَيِ وَحْدَةٍ، لَيْسَ مَعَهُ مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ قَالَ صُمًّا صُمَّ آذَانِ الْقُلُوبِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فُجَارًا. وَقِيلَ: عُوجًا عَنِ الْحَقِّ. وَأَصْلُهُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُونَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَارُوا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَارُوا.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله^(١) تعالى: ﴿طه﴾ قال [بعض أهل]^(٢) التأويل قوله ﴿طه﴾ يا رجلُ بالتَّبْطِيطِ، وقال بعضهم: بالسُّرْيَانِيَّةِ، وقيل: يا فلانُ، وقيل: هو اسمٌ من أسماء الله، وقيل: حرفان^(٣) من أسمائه، ونحو ذلك قد ذكرنا القول في الحروف المقطعة في ما تقدّم في غير موضع.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا نَزَلَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَلَا أَمْرٍ، لكنه^(٤) لم يبيّن السَّبَبَ [الذي]^(٥) بِهِ نَزَلَ هَذَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهُ وَجْهًا: اخذها: مَا حَمَلَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمُؤَنِ الْعِظَامِ، وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ. فَتَنَزَّلَ: ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي لِتَشْعَبَ بِهِ نَفْسَكَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] أي تَشْعَبُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى؟﴾ [طه: ١١٨].

والثاني: أَنَّهُ لَمَّا كَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنَعَهَا عَنْ جَمِيعِ مَا تَهْوَاهُ مِنَ اللَّذَاتِ، فَقَالَ أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ: إِنَّهُ شَقِيٌّ [حينَ رَأَوْهُ لَمْ]^(٦) يُعْطِ نَفْسَهُ شَيْئًا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَائِهَا.

والثالث: أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لَمَّا رَأَوْهُ أَنَّهُ دَعَا الْفِرَاعِيَّةَ وَالْجَابِرَةَ إِلَى دِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الْخِلَافَ، وَاسْتَقْبَلَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ. وَكَانَتْ عَادَتُهُمْ قَتْلُ^(٧) وإهلاك مَنْ يُظْهِرُ لَهُمُ الْخِلَافَ، فَخَاطَرُوا بِذَلِكَ. قَالُوا: إِنَّهُ شَقِيٌّ حِينَ^(٨) يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ. فَقَالَ: ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ عَلَى مَا يَقُولُ أَوْلَئِكَ، بَلْ أُنزِلَ عَلَيْكَ لِتَسْعَدَ حِينَ^(٩) أَخْبَرَ أَنَّهُ عَصَمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَمُصُّكَ مِنَ الْآثَامِ﴾ [المائدة: ٦٧].

أو أَلَّا يَفْسَرَ، وَلَا يُذَكَّرَ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَالسَّبَبُ الَّذِي بِهِ نَزَلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَبَيِّنْ. وَلَا حَاجَةَ بِنَا [إِلَّا]^(١٠) إِلَى مَعْرِفَةِ مَا ذَكَرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا نَذْكُرْهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ أي مَا أُنزِلَ لَهُ لِتَسْعَدَ، وَأُنزِلَ لَهُ لِتُذَكَّرَ بِهِ مَنْ يَخْشَى كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ مَنْ أَتْبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١].

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَذْكُرْهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ أي عِظَةً لِمَنْ يَتَّقِي مَا بِهِ يُخْشَى. وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ كُلَّ مُؤْمِنٍ لِأَنَّهُ^(١١) كُلُّ مُؤْمِنٍ يَتَّقِيهِ فِي أَصْلِ إِيْمَانِهِ الْخَشْيَةَ مِنْهُ وَالِاتِّقَاءَ مِنْ نَقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى﴾ كَانَ هَذَا نَزَلَ عَلَى إِثْرِ قَوْلِ قَالَهُ أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ، وَهُوَ مَا قَالُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَإِنَّهُ مُفْتَرٍ، وَإِنَّهُ شَاعِرٌ، وَإِنَّهُ ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وَنَحْوَهُ. فَقَالَ جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى﴾ لَيْسَ كَمَا يَقُولُ أَوْلَئِكَ: إِنَّهُ سَاحِرٌ^(١٢)، وَإِنَّهُ مُفْتَرٍ، وَإِنَّهُ^(١٣) ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ بَشَرٌ﴾ بَلْ ﴿تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قَالَ الشَّيْخُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، الْقَوْلُ بِالْكَوْنِ عَلَى الْعَرْشِ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بِمَعْنَى كَوْنِهِ بِذَاتِهِ أَوْ فِي كُلِّ الْأَمَكَةِ، لَا يَغْدُو مِنْ إِحَاطَةِ ذَلِكَ بِهِ، أَوْ الْإِسْتِواءُ أَوْ مُجَاوِزَتُهُ عَنْهُ أَوْ إِحَاطَتِهِ.

(١) من م، في الأصل: وقوله. (٢) في الأصل: بعضهم من. (٣) في الأصل: حروف. (٤) من م، في الأصل: لمن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: حيث رآه، في م: حين رآه لم. (٧) في الأصل: القتل. (٨) في الأصل: حيث. (٩) في الأصل: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: لم. (١٢) في الأصل: سحر. (١٣) في الأصل: وم. و.

فَإِنْ كَانَ [على الوجه^(١)] الْأَوَّلُ: فهو إذن محدودٌ مُحَاطٌ بِهِ مَقْصُوصٌ عَنِ الْخَلْقِ، إذْ هو دُونُهُ. ولو جازَ الوصفُ لَهُ بذاتِهِ بما تُحِيطُ بِهِ الْأَمَكَةُ [لَجَازَ بِمَا]^(٢) تُحِيطُ بِهِ الْأَوَاقِثُ، فَيَصِيرُ مُتَنَاهِياً بِذَاتِهِ مَقْصُوراً عَنْ خَلْقِهِ.

وإنْ كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي: فلو زِيدَ فِي الْخَلْقِ لَا يَنْقُصُ أَيْضاً، وَفِيهِ مَا فِي الْأَوَّلِ.

ولو كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الثَّالِثِ فهو الْأَمْرُ الْمَكْرُوهُ الدَّالُّ عَلَى الْحَاجَةِ وَعَلَى التَّقْصِيرِ مِنْ أَنْ يُنْشِئَ مَا لَا يُفْضَلُ عَنْهُ مَعَ مَا يُدْمُ ذَا مِنْ فِعْلِ الْمَلُوكِ، أَوْ يُفْضَلُ عَنْهُمْ مِنَ الْمَقَاعِدِ شَيْئاً. /٣٢٩- /

وَيَعْدُ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَجَزِئَةً بِمَا كَانَ بَعْضُهُ فِي ذِي إِبْعَاضٍ، وَيَغْضُهُ يُفْضَلُ عَنْ ذَلِكَ. وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ وَصْفِ الْخَلَائِقِ، وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

وَيَعْدُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الِازْتِفَاعِ إِلَى مَا يَغْلُو مِنَ الْمَكَانِ لِلْجُلُوسِ شَرَفٌ وَلَا عُلوٌّ وَلَا وَصْفٌ بِالْعِظَمَةِ وَالْكِبَرِيَاءِ كَمَنْ يَغْلُو السُّطُوحَ أَوْ الْجِبَالَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الرُّفْعَةَ عَلَى مَنْ دُونَهُ عِنْدَ اسْتِواءِ الْجَوْهَرِ، فَلَا يَجُوزُ صَرْفُ تَأْوِيلِ الْآيَةِ إِلَيْهِ. بَلْ فِيهَا ذِكْرُ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ، إِذْ ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ ﴿لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَصَفَهُ بِالْعِظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ. فَكَذَلِكَ عَلَى تَعْظِيمِ الْعَرْشِ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ مَنْ نُورٍ أَوْ جَوْهَرٍ، لَا يَتَلَعَّاهُ عِلْمُ الْخَلْقِ.

وَإِضَافَةُ الْإِسْتِواءِ إِلَيْهِ لِيُوجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى تَعْظِيمِهِ بِمَا ذَكَرَ عَلَى إِثَرِهِ، ذَكَرَ سُلْطَانَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ وَقُدْرَتَهُ وَخَلْقَهُ مَا ذَكَرَ.

وَالثَّانِي: عَلَى تَخْصِيصِهِ بِالذِّكْرِ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ وَأَجَلُهُ عَلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ إِضَافَةِ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ إِلَى أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ كَمَا يُقَالُ: ثُمَّ لِفُلَانٍ مُلْكٌ بَلَدٌ كَذَا، أَوْ اسْتَوَى عَلَى مَوْضِعٍ كَذَا لَا عَلَى خُصُوصٍ ذَلِكَ فِي الْحَقِّ. وَلَكِنْ مَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ لَهُ مُلْكٌ ذَلِكَ قَدْ دُونَهُ أَحَقُّ بِهِ.

وعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الْآيَةُ [المائدة: ٣] بِمَا صَارَتْ لَهُ أُمُّ الْقُرَى، وَأَيُّسَ الدِّينِ^(٣) كَفَرُوا مِنْ دِينِهِمْ. وَكَذَا مَا ذَكَرَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَى الْفَرَاغَةِ إِلَى أُمِّ الْقُرَى لَا بِتَخْصِيصِ ذَلِكَ وَلَكِنْ بِذِكْرِ عِظَمِ الْأَمْرِ.

فَمِثْلُهُ أَمْرُ الْعَرْشِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٣] وَقَوْلِهِ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] عَلَى لُحُوقِ غَيْرِهِمْ^(٤) بِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْمَنْعِ بِوَصْفِ الْمَكَانِ؛ إِذْ هُوَ أَغْلَى الْأَمَكَةِ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَلَا تَقْدِيرُ الْعُقُولِ شَيْئاً. فَأَشَارَ إِلَيْهِ لِيُعْلَمَ عُلوُّهُ عَنِ الْأَمَكَةِ وَتَعَالِيهِ عَنِ الْحَاجَةِ. وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الْآيَةُ [المجادلة: ٧].

وَالنَّجْوَى لَيْسَتْ مِنْ نَوْعِ مَا يُضَافُ إِلَى الْإِسْرَارِ، فَأَخْبَرَ بِعُلُوِّهِ عَنِ الْأَمَكَةِ وَتَعَالِيهِ عَنْ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، ثُمَّ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَرْبَبُ إِلَهٍ مِنْ خِلِّ الرَّبِّدِ﴾ [ق: ١٦] أَيْ بِالسُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ، وَبِالْوَهْيِ فِي الْبِقَاعِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا أَمَكَةُ الْقَادَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ بِقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٦] وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]. ثُمَّ بِعُلُوِّهِ وَجَلَالِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]...^(٥) وَقَوْلِهِ^(٦): ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]... فَجَمَعَ فِي هَذِهِ الْأَحْرَفِ مَا فَرَّقَ فِي تِلْكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ بِكُلِّ مَا سُمِّيَ بِهِ، وَوُصِفَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ بِذَاتِهِ، لَا بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَكَذَلِكَ عِزُّهُ وَشَرَفُهُ وَمَجْدُهُ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنِ الْأَشْيَاءِ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَرِيدُ بِالْعَرْشِ الْمُلْكَ؛ إِذْ هُوَ اسْمُ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَغَلَا، حَتَّى سُمِّيَتْ بِهِ السُّطُوحُ وَرُؤُوسُ الْأَشْجَارِ وَالْإِسْتِواءُ قَبْلَ فِيهِ بِأَوَجٍ ثَلَاثَ^(٧):

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بمجاز. (٣) من م في الأصل: الذي (٤) في الأصل وم: غير. (٥) في م: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في م: ثلاثة.

أخذها: الاستيلاء كما يقال: استوى فلان على كورة كذا بمعنى استولى.

والثاني: العلو والارتفاع كقوله: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاقِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقوله: ﴿إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] أي علوتم.

والثالث: الثمام كقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [الفصص: ١٤] أي تم، واستقر.

وقد قيل: بالقصد؛ وإلى ذلك وجه بعض أهل الأدب قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩].. [بمعنى خلق على التمثيل بفعل الخلق في ما يتلو فعلهم فعلاً أن يكون بالقصد، وإن كان لا يقال له القصد، ولا قوة إلا بالله.

ثم الوجه في ذلك لو كان [الاستواء بمعنى الاستيلاء والإنفراد بالملك]^(١) أنه مستول على جميع خلقه، وعلى هذا التأويل المحمول غير هذا لذل على الأمرين قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] بمعنى الملك العظيم، وفيه إثبات عروش غيره. فذلك يحتمل، ما يحتمل، وتحت به الملائكة، والله الموفق.

وأما على تأويل الثمام والعلو فهو أن الله تعالى قال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ رَبٌّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت: ٩] فأخبر بخلق ما ذكر في ستة أيام على التفريق، ثم أجملها في موضع، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾ [الأعراف: ٥٤] بمعنى خلق الممتحن من خلق الأرض والسموات؛ فيهم ظهر تمام الملك، وعلا، وارتفع؛ إذ هم المقصودون من خلق ما بينا. فذلك تم معنى الملك، وعلا؛ إذ وصل إلى الدين لهم خلقوا.

وقد قيل ذا في خلق البشر خاصة بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية [البقرة: ٢٩] وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] ونحوه.

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنه أن البشر خلق اليوم السابع؛ فيه الثمام والعلو؛ إذ خلق لهم كل شيء، وهم لعبادة الله، ولحق بهم الجن بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] لكن المقصود البشر؛ إذ تسخير ما ذكر كله إنما^(٢) يرجع إلى منافعهم. والله الموفق.

والأصل عندنا في ذلك أن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فتنى عن نفسه شبه خلقه، وقد بينا أنه في فعله وصفته متعال عن الأشياء، فيجب القول [في قوله]^(٣) ﴿الْحَزَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥] على ما جاء به التنزيل، إذ^(٤) ينفي عنه شبه الخلق لما أضأت إليه إذ لزم القول في الله بالتعالي عن الأشياء ذاتاً وفعلًا، لم يجوز أن يفهم من الإضافة إليه المفهوم من غيره في الوجود، والله الموفق. وقد ذكرنا هذا في غير موضع من القرآن.

الآية ٦ وفي قوله: ﴿لَمَّا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ الوصف له بالسلطان والقدرة والملك على ما ذكرنا.

الآية ٧ وفي قوله: ﴿وَلَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وأخفى الوصف له بالعلم في الغيب والسر والعلانية جميعاً ليكونوا أبدأ على خدر وخوف وقظة في جميع أفعالهم وأقوالهم وفي^(٥) الأول ليضربوا ظمعتهم ورجاءهم من الخلق إلى خالقهم، وآلا يطمع، ولا يرجى غيره.

ثم اختلّف في قوله: ﴿وَلَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وأخفى قال بعضهم ﴿الْيَرَّ﴾ ما أسررت به إلى غيرك، ﴿وَأَخْفَى﴾ ما أضمرته، وأخفيت في نفسك، لم تيسره إلى أحد. وقال^(٦) قائلون: ﴿الْيَرَّ﴾ ما أسررت به، وحدت نفسك ﴿وَأَخْفَى﴾ ما علم الله أنه كائن يكون، ولم يكن بعد، ولم تعلم به. وقال قائلون: ﴿الْيَرَّ﴾ ما أسرته في نفسي ﴿وَأَخْفَى﴾ ما خطر في قلبي، وهو لا يضبطه، ونحو ذلك.

(١) في الأصل وم: على الاستيلاء والعزيم الملك. (٢) في الأصل وم: ذكرت اما. (٣) في الأصل وم: لا. (٤) في الأصل وم: و. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

واضلَّهُ: أَنْ^(١) قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْخَفَى﴾ [على الإضمار]^(٢) كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ﴾ أَوْ نَسِرَ ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْخَفَى﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَصَمُّ: أَي مَنِ^(٣) وَحَدَّ اللَّهُ بِأَسْمَائِهِ قُلَّةَ الْحُسْنَى، وَهِيَ الْجَنَّةُ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآيتان ٩ و ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ ظَاهِرُ هَذَا سُؤَالٌ وَاسْتِفْهَامٌ، لَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الْإِيجَابُ. قَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو بَكْرِ: قَوْلُهُ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أَي لَمْ يَأْتِكَ حَدِيثُ مُوسَى، وَسَيَاتِيكَ. ثُمَّ اخْبَرَهُ، وَأَعْلَمَهُ بِحَدِيثِهِ وَنَبِيِّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أَي قَدْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى لِتُخَيِّرَهُمْ عَمَّا فِي كُتُبِهِمْ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً لِثُبُوتِكَ وَرِسَالَتِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لِأَقْلَبِهِ أَمْكَنُوا إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا﴾ قِيلَ رَأَيْتُ ﴿نَارًا لَعَلِّي إِلَيْكُمْ مِنْهَا يَقْبَلُونَ﴾ لَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ أَنَّ مُوسَى فِي أَيِّ حَالٍ كَانَ، وَفِي أَيِّ وَقْتٍ. لَكِنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بَيَانٌ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا قَالَ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] هَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ كَانَ فِي حَالِ السَّيْرِ وَالسَّفَرِ رَأَى / ٣٢٩ - ب/ ذَلِكَ، وَقَالَ^(٤): ﴿لَعَلِّي إِلَيْكُمْ مِنْهَا يَخْبَرُ أَوْ جَذَرْتُ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وَهَذَا^(٥) يَدُلُّ أَنَّهُ كَانَ فِي وَقْتِ الشَّتَاءِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]. قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿لَعَلِّي إِلَيْكُمْ مِنْهَا يَقْبَلُونَ﴾ الْقَبْسُ النَّارُ، وَالْأَقْبَاسُ النَّيرانُ، وَيُقَالُ: قَبَسٌ يَقْبِسُ قَبْسًا، أَي جَاءَ بِالنَّارِ، وَيُقَالُ: أَقْبَسْتَنِي نَارًا، وَاقْتَبَسْتُ أَيْضًا: تَعَلَّمْتُ، وَهَذَا مِنْ ذَاكَ، لِأَنَّ الْعِلْمَ ضَوْءٌ. وَيُقَالُ: أَقْبَسْتُكَ عِلْمُتُكَ، وَاقْتَبَسْتُ النَّارَ أَوْ الْعِلْمَ.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿مَأْسُتٌ نَارًا﴾ أَبْصَرْتُ، وَيَكُونُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: عَلِمْتُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ مَأْسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أَي عَلِمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ هَذَا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْتَقْبَلَتْهُ الطُّرُقُ، فَلَمْ يَعْلَمْ الطَّرِيقَ الَّذِي لَهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ: ﴿أَوْ أَمِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أَي مَنْ يَدُلُّنِي، وَيُرْشِدُنِي عَلَى الطَّرِيقِ، [أَوْ أَنْ]^(٦) كَانَ قَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ، وَعَدَلَ عَنْهُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ مَا قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ١١ و ١٢

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْتَمَّاهُ نَادَى يَوْمَئِذٍ يَمُوسَى﴾ أَي يَدَاءُ وَخِي ﴿يَمُوسَى﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا أَمَرَهُ أَنْ يَخْلَعَ نَعْلَيْهِ لِأَنَّهُمَا كَانَا مِنْ جِلْدٍ مَيْتَةٍ. وَقَالَ قَائِلُونَ: أَمَرَهُ بِنَزْعِ نَعْلَيْهِ لِمَسِّ قَدَمَاهُ بِرَكَّةِ ذَلِكَ الْوَادِي، أَوْ يُصِيبُهُ مِنْ يَمِينِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرَهُ بِذَلِكَ لِلتَّوَاضُعِ وَالْخُضُوعِ لَهُ، لِأَنَّ لَيْسَ النَّعْلَ يُخْرَجُ مُخْرَجَ الْمَبَاهَاةِ. فَأَمَرَ بِذَلِكَ لِيَكُونَ اخْضَعُ لَهُ وَكَثُرَ تَوَاضُعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَفْسَرَ ذَلِكَ أَنَّهُ لِمَاذَا أَمَرَهُ بِذَلِكَ، إِذْ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ لَا لِمَعْنَى، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَقُولَ: أَمَرَهُ لِهَذَا، أَوْ لَعَلَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ لِمَعْنَى آخَرَ، أَوْ لَا لِمَعْنَى، فَيُخْرَجُ ذَلِكَ مُخْرَجَ الشَّهَادَةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِينَ طَوًى﴾ الْمُقَدَّسُ الْمُطَهَّرُ. وَلَعَلَّهُ سَمَّاهُ مُطَهَّرًا لِمَا لَمْ يُغْبَذْ عَلَيْهِ سِوَاهُ وَدَوْنَهُ، أَوْ سَمَّاهُ مُطَهَّرًا لِمَعْنَى خَصَّ بِهِ لِفَضْلِ عِبَادَةٍ أَوْ غَيْرِهَا عَلَى مَا خَصَّ بِقَاعًا بِفَضْلِ عِبَادَةٍ تَقَامُ فِيهَا مِنْ نَحْوِ الْمَسَاجِدِ وَالْحَرَمِ وَغَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿طَوًى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ وَطًى الْأَرْضِ، أَي وَطًى الْوَادِي الْمُبَارَكِ حَافِيًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿طَوًى﴾ قَدْ قُدِّسَ مَرَّتَيْنِ. وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿طَوًى﴾ يَقُولُ: يَطْوِي مَسِيرَهُ. نَحْوُ هَذَا قَدْ قَالُوا. لَكِنَّ الْأَضْوَابَ الَّتِي يُقَسَّرُ إِلَّا بَعْدَ حَقِيقَةٍ [مَعْرُوفَةٍ بِهِ، لِأَنَّ أَنْبَاءَهُ]^(٧) كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ، ذُكِرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ لِتَكُونَ لَهُ [حُجَّةٌ وَدَلَالَةٌ]^(٨) عَلَى رِسَالَتِهِ عَلَيْهِمْ؛ فَنَفِي التَّنْسِيرِ خَوْفُ دُخُولِ الْغَلْطِ فِيهِ وَالتَّغْيِيرِ^(٩). فَإِذَا تَغَيَّرَ لَمْ يَصِرْ لَهُ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى رِسَالَتِهِ. كَذَلِكَ كَانَ الشُّكُوتُ عَنْهُ أَوَّلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ. (٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي آيَةٍ أُخْرَى (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهَذَا. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَالَّذِي، فِي م: وَأَنْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ لِأَنَّهُ أَنْبَاءُ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَغْيِير.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ إنا بالرسالة والنبوة، وإما بأشياء أخرى كقوله: ﴿وَأَسْطَفْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] وقوله^(١) في آية أخرى ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا﴾ [مريم: ٥١] أخلصه الله لنفسه بأشياء.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْ لِمَا يُحْسِنُ﴾ هذا يدل أن النداء الذي نُودي كان نداءً وحي، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١]

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ فهو ظاهر. كذلك أمر رُسُلُهُ أَوَّلَ مَا أَمَرَهُمْ^(٢) بذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ لتكون ذاكرة لي، لأن أكثر ما يذكُر المؤمن^(٣) ربه إنما يذكُر في الصلاة، لأن الصلاة من أولها إلى آخرها: ذكركلله. لذلك سُمِّيَتْ^(٤) الصلاة مناجاة الرب.

وتَحْتَمِلُ^(٥) أن يكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي لِتَذَكُرَنِي بها يا موسى. وقال قائلون: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ إذ أنت نَسِيتَ إذا ذَكَرْتَهَا. وعلى هذا رَوَيْتِ الأخبارُ عن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك، وقرأ هذه الآية، إن تَبَيَّنَتْ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي أقيم الصلاة لِتَسْتَوْجِبَ بها ذِكْرِي. وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي لِتَذَكُرَنِي فيها.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الحسن: ﴿أَكَادُ﴾ صِلَةٌ؛ كأنه قال: إن الساعة آتية أخفيها. وفي حرف أبي بن كعب: إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي. ثم يَحْتَمِلُ قوله: من نفسي وجهين:

أحدهما: أخفيها من خلقي، ولا يجب أن يفهم من نفسه ذاته بالإضافة إليه كما لم يفهم من قوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقوله: ﴿مِنْ رُوحِكَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وهو أخفى من الناس ذاته، ولكن فهم منه خلقه. فعلى ذلك لا يفهم من قوله: من نفسي ذاته. هذا يَحْتَمِلُ، والله أعلم.

والثاني: أن يكون قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ من نفسي أي من اختيار عبادي، أي أخفيها من اختيار عبادي مع عظيم قدرهم ومنزلتهم عندي: من نحو الملائكة والأنبياء والرسل. إن من عادة ملوك الأرض أنهم لا يَكْتُمُونَ سرايرهم من خواصهم، بل يَظْهِرُونَهُمْ على ذلك. فأخبر ﷺ، والله أعلم، أنه أخفاها من خواص عبادِهِ وأخبارِهِمْ. فكيف من دونهم؟ فتكون^(٦) إضافته إياهم إلى نفسه لِعِظَمِ قَدْرِ أولئك وفضل منزلتهم كقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] والله لا يَنْصُرُ، ولكن إن تَنْصُرُوا دين الله يَنْصُرْكُمْ، أو إن تَنْصُرُوا أولياء الله يَنْصُرْكُمْ. وكذلك قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] والله لا يُخَادِعُ، ولكن يُخَادِعُونَ أولياء الله، ونحوه.

فعلى ذلك: قوله: ﴿أُخْفِيهَا﴾ من نفسي أي من خواصي وأخبار خلقي، والله أعلم.

هذا على إسقاط قوله: ﴿أَكَادُ﴾ وجعله صِلَةً. وأما على إثبات ﴿أَكَادُ﴾ فهو على وجهين:

أحدهما: يقال: كادَ أرادَ، أي أريدُ [أن]^(٨) أخفيها، وهو معروف باللغة.

والثاني: كادَ؛ يقال: قاربَ، وهو سائغ في اللغة، جارٍ كادَ على إرادة مقارَبة [كقولهم]^(٩): كادَتِ الشمسُ أن تَطْلُعَ، أو تَغْرُبَ، أي قاربت [وقول من قال:]^(١٠) كِدْتُ أن أسقطَ، أي قاربتُ [وهو]^(١١) لا يريدُ السقوط. فإذا كان على هذا فهو قال ذلك، والله أعلم، على التَّعْظِيمِ لها؛ أي قاربَ أن يُخْفِيَهَا مِنْ نَفْسِي، فكيف من غيره؟

وقال ابن عباس قريباً من هذا: أي ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ من نفسي، فكيف أغلُبها لكم؟ أي لا أظهرُ عليها أبداً غيري، فكانه استَجَارَ الإخفاء في مَوْضِعِ الإظهار [وهو سائغ جارٍ في اللغة]^(١٢) نحو ما قالوا في قوله: ﴿وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: أمروا. (٣) في الأصل: المرور في م: المؤ. (٤) في الأصل وم: سمي. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: فكيف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ولا. (١٢) في الأصل وم: باللغة.

[يونس: ٥٤ و سبأ: ٣٣] أي أظهروا. فَعَلَى مَا كَانَ الْإِسْرَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِظْهَارِ وَالْكَتْمَانِ^(١) رَأَوْا الْإِخْفَاءَ مُسْتَعْمَلًا فِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: «أَخْفِيَا» أي أظهِرْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِيُخْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» أي لِهَذَا أَخْفِيَهَا^(٢) «لِيُخْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» لأنها لو كَانَتْ ظَاهِرَةً يُعَابِثُهَا كُلُّ أَحَدٍ، وَيَعْلَمُهَا لَمَا كَانَ ذَلِكَ جَزَاءً. وَلَكِنْ كَانَ دَفْعًا، لِأَنَّهُ يُعَابِثُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَا^(٣) نَزَلَ بِهِذِهِ النَّفْسُ بِمَا سَعَتْ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَمْتَنِعُ هُوَ عَنْهُ. وَإِذَا رَأَى كُلُّ أَحَدٍ ثَوَابَ هَذَا بِسَعْيِهِ يَرْغَبُ فِي مِثْلِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِحَقِّ الدَّفْعِ لَا بِحَقِّ الْجَزَاءِ. فَاخْتَرَّ أَنَّهُ أَخْفَاهَا لِلْجَزَاءِ وَالْمِخْتَةِ، لَا لِلدَّفْعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا» أي عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا «مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا» يَعْنِي السَّاعَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

«فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا» بِأَسْبَابِ الْقَاهَا إِلَيْكَ. وَقَدْ يَمْتَنِعُ الْإِنْسَانُ عَنِ الشَّيْءِ بِأَسْبَابٍ تَغْتَرِضُ وَشُبُهَاتٍ تَسْتَقِيلُ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَنَعِهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالْإِنْصَاحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ أَيْ لَا يَصُدُّكَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا / ٣٣٠ - أ / يَعْنِي السَّاعَةَ «فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا» فِي التَّكْذِيبِ بِهَا بِالشُّبُهَاتِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي ذَكَرْنَا «فَقَرَدْنَا» أَيْ فَتَهَلَّكَ لَوْ صَدَّكَ عَنْهَا.

فَالْخِطَابُ، وَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ فَهُوَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي مَا خَاطَبَ رَسُولُهُ

الآيتان ١٧ و ١٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْثُلُكَ» «قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا» الْآيَةُ. كَانَ مُوسَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَفْهَمْ مُرَادَهُ بِسْوَائِهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: «وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْثُلُكَ» أَنَّهُ يَسْأَلُهُ عَنْ اسْمِهَا، أَوْ يَسْأَلُهُ عَمَّا لَهُ فِيهَا. فَجَابَ لِأَمْرَيْنِ جَمِيعًا عَنْ اسْمِهَا وَعَمَّا لَهُ فِيهَا حِينَ^(٤) قَالَ: «قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَمْشِي بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِيَ يَمِينًا مَقَارِبُ أُخْرَى».

ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُ: كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي يَدِهِ عَصَا، لَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقَرَّرَ^(٥) عِنْدَهُ أَنَّهَا^(٦) عَصَا لَا حَيَّةٌ، لِيُرِيَّ لَهُ مِنْهَا آيَةً، فَيَعْلَمَ ذَلِكَ، أَوْ إِنَّهُ^(٧) يَرِيدُ بِذَلِكَ تَنْبِيْهُهُ وَإِقَاطَهُ لِيَعْلَمَ أَنَّهَا^(٨) وَفَتْ مَا أَخَذَهَا عَصَا، فَيَعْلَمَ أَنَّهَا صَارَتْ كَذَا بِالْآيَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لَهُ [لَا] أَنَّهَا كَانَتْ يَوْمَئِذٍ كَذَلِكَ حَيَّةٌ^(٩)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ١٩ و ٢٠

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(١٠): «قَالَ أَتَيْتُهَا بِمُوسَى» «فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى» [لِيَحْتَمِلُ جَعْلَهَا حَيَّةً تَسْعَى أَنَّهُ]^(١١) أَرَادَ الْآيَةَ لَهُ مِنْهَا لِمَا أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ كَانُوا أَهْلَ بَصَرٍ وَجَذْقٍ فِي ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ السُّحْرِ، فَاحَبَّ أَنْ يُرِيَهُمُ الْآيَةَ وَالْعَلَامَةَ مِنَ النَّوعِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ فِيهِ بَصَرٌ وَخِذَاقَةٌ لِيَعْلَمُوا بِخُرُوجِهَا عَنْ وَسْعِهِمْ وَطَوَقِهِمْ أَنَّهَا آيَةٌ وَعَلَامَةٌ سَمَاقِيَّةٌ وَرُبُوبِيَّةٌ لَا بَشَرِيَّةٌ؛ إِذِ الْأَعْلَامُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ آيَاتٍ وَأَعْلَامًا لِرُسُلِهِ عَلَى رِسَالَتِهِمْ إِنَّمَا جَعَلَهَا خَارِجَةً عَنْ وَسْعِ الْبَشَرِ وَطَوَقِهِمْ لِيَعْلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهَا سَمَاقِيَّةٌ لَا بَشَرِيَّةٌ [مِنْ سِحْرِ أَوْ كِهَانَةٍ]^(١٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢١

وَقَوْلُهُ: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَظْ سَعِيدَ مَا سَبَرْتَهَا الْأَوَّلَى» عَلَى مَا كَانَتْ فِي الْحَالَةِ الْأُولَى عَصَا. كَانَ مُوسَى خَافَ حِينَ صَارَتْ حَيَّةً، وَهُوَ مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: «فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِكًا» [النمل: ١٠ والقصاص: ٣١] فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: «خُذْهَا وَلَا تَحْفَظْ» وَاخْبِرَهُ أَنَّهُ يُعِيدُهَا عَصَا عَلَى مَا كَانَتْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ: «وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْثُلُكَ» دَلَالَةٌ أَنَّ الْعَصَا إِنَّمَا تُمَسِّكُ بِالْيَدِ الْيُمْنَى.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: «فَقَرَدْنَا» أَيْ تَهَلَّكَ؛ يُقَالُ: أَزْدَاهُ أَهْلَكَهُ، وَيُقَالُ: تَرَدَّى الرَّجُلُ إِذَا وَقَعَ فِي الْبُيْرِ أَوْ مِنْ فَوْقِ حَائِطٍ،

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: فعلى ذلك. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: لما. (٣) في الأصل وم: بما. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: يقرن. (٦) في الأصل وم: أنه (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل حية. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ثم يحتمل جعلها حية تسمى ثم جعلها حية و. (١٣) في الأصل وم: سحراً ولا كهانة.

وَيُقَالُ: رَذِيْتُهُ، أَيِ الْبَسْتُهُ الرَّدَاءَ، وَارْتَدَيْتُ، أَيِ لَبَسْتُ الرَّدَاءَ، وَتَرَدَّيْتُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللَّهِ﴾ أَيِ اسْتَعَيْنَ بِهَا عَلَى الْمَشْيِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَهْلُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أَيِ أَضْرِبْ الشَّجَرَةَ حَتَّى يَنْتَثِرَ وَرَقُهَا [فَتَأْكُلُهُ غَنَمِي] ^(١) وَالْهَشُّ الْكَرِيمُ، وَالْبَشْرُ مِنَ الْبَشَاشَةِ. وَقَالَ: وَالْمَارَبُ الْحَوَائِجُ وَالْإَرْبُ أَيْضاً الْحَاجَةُ، وَالْأَرَابُ جَمِيعٌ، وَيُقَالُ: أَرَبْتُ الشَّيْءَ: قَسَمْتُهُ، وَجَعَلْتُهُ إِرْباً أَقْسَاماً ^(٢) أَيِ جَزَيْتُهُ أَجْزَاءً. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَلِكُ يَمِينُكَ يَمْوَسَّى﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُخْبِرَ الْمُسْتَخْبِرَ عَمَّا يَسْتَخْبِرُ عَلَى الْإِجَابَةِ لَهُ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُسْتَخْبِرَ لَهُ عَنْ ذَلِكَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ رَبَّهُ كَانَ أَعْلَمَ بِمَا فِي يَدِهِ مِنْهُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ اسْتَخْبِرْ عَمَّا فِي يَدِهِ رَبُّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهَا ^(٣) مِنِّي. وَلَكِنَّه قَالَ: هِيَ عَصَايَ إِجَابَةً لَهُ وَتَعْظِيماً لِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْمُكُمْ يَذَكُ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٍّ مِثْلَهُ أُخْرَى﴾ وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَذَكُ فِي جَنِيحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ [النمل: ١٢] وَكَانَ فِي هَذَا تَفْسِيرُ الْأَوَّلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ قَالَ عَائِمَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ أَيِ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، كَانَهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْبَيَاضَ فِي الْإِنْسَانِ، إِذَا اشْتَدَّ بِهِ حَتَّى يُخَالِفَ سَائِرَ بَدَنِهِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْبَرَصِ. لِذَلِكَ قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ أَيِ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ بَكَ ﴿مِثْلَهُ أُخْرَى﴾ سِوَى آيَةِ الْعَصَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ أَيِ مِنْ غَيْرِ آفَةٍ وَعَيْبٍ بَكَ وَادَى، لِأَنَّ التَّغْيِيرَ إِذَا وَقَعَ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَيْبٍ وَآفَةٍ، تَحُلُّ بِهِ. وَآخِرُ أَنَّ ذَلِكَ الْبَيَاضَ لَيْسَ لَآفَةٍ بَكَ، وَلَا عَيْبٍ فِي بَدَنِكَ، وَلَا فِيهِ آدَى وَلَكِنْ آيَةٌ لِنَرِيهَا مِنْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِزَيْنِكَ مِنْ مَائِنَتَا الْكِبَرَى﴾ قَالَ قَائِلُونَ: الْآيَةُ فِي الْيَدِ أَكْبَرُ مِنَ الْعَصَا، لِأَنَّ السَّحْرَةَ ^(٤) أَوَّلُكَ كَانُوا أَهْلُ بَصَرٍ وَعِلْمٍ فِي السَّحْرِ فِي الْعِصَى؛ فَخُرُوجُ عَصَا مُوسَى عَمَّا اخْتَمَلَ وَسُعُّهُمْ، وَمَا بِهِ فِيهِ بَصَرٌ وَعِلْمٌ يَذَلُّ عَلَى أَنَّ مَا آتَى مُوسَى لَيْسَ هُوَ بِسَحْرِ، وَلَكِنْ آيَةٌ مِنْ اللَّهِ؛ لِأَنَّ فَضْلَ بَصَرِ الرَّجُلِ وَعِلْمُهُ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِمُجَاوَزَتِهِ فِي ذَلِكَ [عَنْ أَهْلِ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ] ^(٥) لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ فِي ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ عَصَا مُوسَى.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لِزَيْنِكَ مِنْ مَائِنَتَا الْكِبَرَى﴾ الَّتِي ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ مَائِنَتَا مُوسَى شَيْءَ مَائِنَتَيْ يَنْتَوِي﴾ الْآيَاتُ ^(٦) الْكِبَرَى هِيَ الشَّعْخُ الَّتِي ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ إِذْ كَانَ لِمُوسَى آيَاتٌ سِوَى الشَّعْخِ، لَكِنْ الشَّعْخُ هِيَ أَكْبَرُ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَا عَلَى تَخْصِيصِ آيَةٍ دُونَ آيَةٍ بِالْكِبَرِ وَالْعِظَمِ، وَلَكِنْ [عَلَى] ^(٧) وَضْفِ الْكُلِّ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُرِيهِمْ مِنْ مَائَةٍ إِلَّا مِئَةً أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] وَهُوَ عَلَى وَضْفِ آيَاتِهِ كُلِّهَا بِالْعِظَمِ وَالْكِبَرِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَذَرُونَ إِلَهُهُمْ أَزَبٌ لَكُمْ تَقَعًا﴾ [النساء: ١١] هُوَ عَلَى إِبْثَابِ التَّقَعِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ [مِنْهُمْ] عَلَى مَا فِي الْآخِرِ ^(٨) فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ لَظَنُ الْفُلْطَيْنِ، هُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحُدُودِ الَّتِي جُعِلَتْ. وَكَذَلِكَ كَانَ فِرْعَوْنُ، قَدْ تَعَدَّى، وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى ادَّعَى لِنَفْسِهِ الرُّبُوبِيَّةَ حِينَ ^(٩) قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

الآية ٢٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصَرِفْ لِي صَدْرِي﴾ إِنَّ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ. [وَذَكَرَ لِمُحَمَّدٍ أَنَّهُ شَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ] ^(١٠) بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَخْرُجْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَرَدَكَ﴾ [الشرح: ١: ٢] ثُمَّ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ شَرَحَ صَدْرِهِمْ لِشَيْءٍ مَا حَمَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ ثِقَلِ الثُّبُوتِ وَالرَّسَالَةِ، لِشَيْءٍ صَدْرُهُمْ لِلذِّكْرِ، وَيَقْدِرُوا عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ وَالْوَفَاءِ بِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ سَأَلَهُ شَرَحَ صَدْرِهِ لِمَا كَانَ الرُّسُلُ يَغْضَبُونَ اللَّهَ عِنْدَ [تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ إِيَّاهُمْ] ^(١١) حِينَ يَدْعَوْنَهُمْ ^(١٢) إِلَى دِينِهِ، وَيَخْزَنُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَيَمْنَعُهُمْ غَضَبُهُمْ وَحُزْنُهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَعْبِقُوا صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُوا لِسَانِي﴾ الْآيَةُ

(١) فِي الْأَصْلِ: فَتَأْكُلُهُ غَنَمِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَقْسَامًا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ: سَحْرَةٌ، سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّوْعُ وَعِلْمٌ. (٦) أَدْرَجَ فِي الْأَصْلِ قَبْلَهَا: فِي. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ: مِنْهَا عَلَى مَا فِي الْآخِرَةِ فِي م: مِنْهَا عَلَى مَا فِي الْآخِرِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) مِنْ م سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَكْذِيبُهُمْ قَوْمَهُمْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: دَعَوْهُمْ.

[الشعراء : ١١ و ١٢] أَخْبَرَ أَنَّهُ يَخَافُ عِنْدَ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ ضِيقَ صَدْرِهِ وَثِقَلَ لِسَانِهِ، فَسَأَلَهُ لَذَلِكَ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ، وَيُطْلِقَ لَهُ لِسَانَهُ.

وَيَحْتَمِلُ مَا قَالَهُ بَغْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أَي لِيِّنْ لِي قَلْبِي، لِأَنَّ الرِّسْلَ^(١) قَدْ امْتَحَنُوا فِي حَالِ وَاحِدَةٍ بِشَيْئَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ: بِالْغَضَبِ لِلَّهِ عِنْدَ تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَالرَّافِقَةِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةَ بِمَا حَلَّ بِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ مِنَ الْعَذَابِ. فَهَذَا^(٢) أَمْرَانِ مُتَضَادَّانِ خَصَّ الرِّسْلَ بِهَا. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ لِيَتَسَبَّحَ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً: الْغَضَبِ لَهُ وَالرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَذَكَّرُ فِي آنِ يَوْمِ﴾ يَحْتَمِلُ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَالْقِيَامَ بِهَا، أَوْ سَأَلَهُ التَّيْسِيرَ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَنَهَاهُ عَنْهُ.

الآيتان ٢٧ و ٢٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْهَلْ عُنُقَهُ مِنَ لِسَانِي﴾ بِفَتْحِ الْقَوْلِ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ يَكَلُّ^(٣) لِسَانَهُ، وَيَثْقُلُ حَتَّى يَمْنَعَهُ عَنِ التَّلْقِي بِهِ، فَيُظَنُّ / ٣٣٠ - ب/ ذَلِكَ اللَّعِينُ أَنَّهُ صَارَ كَذَلِكَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ سَأَلَ ذَلِكَ لَأَقِفَ كَانَتْ بِلِسَانِهِ، كَانَتْ تَمْنَعُهُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهِ. فَسَأَلَهُ أَنْ يَحُلَّ تِلْكَ الْآفَةُ الرَّبُّوبِيَّةَ^(٤) الَّتِي كَانَتْ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ أَخَذَ بِلُحْيَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَطَمَهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَاقِبَهُ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَقُولُ. فَأَتَى بِطُشْتٍ مِنْ حُلِيِّ، فَهَمَّ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنَ الْحُلِيِّ، فَأَهْوَى جَنَابِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْجَمْرِ فَأَخَذَهُ، وَجَعَلَهُ فِي فِئِهِ. فَبَلَكَ الرَّبُّوبِيَّةَ^(٥) الَّتِي سَأَلَهُ أَنْ يَحُلَّهَا لِيَذَلَّ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْوَحْيِ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٢٩ و ٣٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْهَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَمَلِي﴾ هَذِهِ آيَةُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ أَخَاهُ مَعَهُ وَزيراً لَهُ، يُشَاوِرُهُ، يَسْتَحْمِلُ عَنْهُ بَغْضَ مَا حُمِّلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَثْقَالِ؛ إِذْ قِيلَ: الْوَزِيرُ هُوَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ عَنِ الْمَلِكِ بَغْضَ ثِقَلِ مَا حُمِّلَ.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿أَشْدَدُ بِهِ أَزْرَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قُوَّتِي ظَهَرِي، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَشْدَدُ بِهِ أَزْرَى﴾ أَي غَوْنِي، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي حَرْفِ حَفْصَةٍ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: أَشْدَدُ^(٦) بِهِ أَزْرَى عَلَى الْخَبَرِ مِنْ مُوسَى.

الآية ٣٢

وكذلك فِي قَوْلِهِ: وَأَشْرِكُهُ^(٧) وَأَشْرِكُهُ فِي آنِ يَوْمِ وَأَمَّا قِرَاءَةُ عَامَّةِ الْقُرَّاءِ فِيهِ^(٨) عَلَى الدَّعَاءِ وَالسُّؤَالِ.

وَقَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: ﴿أَشْدَدُ بِهِ أَزْرَى﴾ أَي ظَهَرِي، وَيُقَالُ: أَزْرَتُهُ، فَصِرَتْ لَهُ وَزيراً. وَأَصْلُ الْوِزَارَةِ مِنَ الْوِزْرِ، وَهُوَ الْجَمْلُ؛ كَانَ الْوَزِيرُ يَحْتَمِلُ عَنِ السُّلْطَانِ بَغْضَ الثَّقَلِ، وَيَرْفَعُهُ عَنْهُ؛ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ، وَيُقَوِّتَهُ بِهِ فِي مَا حَمَلَهُ، وَأَنْ يُشْرِكُهُ فِي مَا قَلَّدَهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْقِيَامِ بِهَا. فَأَجَابَهُ اللَّهُ لَذَلِكَ حِينَ^(٩) قَالَ: ﴿سَتَشُدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]

الآيتان ٣٣ و ٣٤

وقوله تعالى: ﴿كَيْ سَمِعَكَ كَيْراً﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَيْراً يَحْتَمِلُ ﴿كَيْ سَمِعَكَ كَيْراً﴾ بِالْجَمَاعَةِ لِأَنَّ الصَّلَاةَ بِالْجَمَاعَةِ تَضَاعَفَتْ عَلَى الصَّلَاةِ وَحْدَةً، أَوْ أَنْ يُعِينَ بَعْضُنَا [بَعْضاً]^(١٠) عَلَى التَّسْبِيحِ لَكَ وَالتَّذَكُّرِ وَنَحْوِهِ.

الآية ٣٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أَي إِنَّكَ بِضَعْفَيْنَا وَعَجَزْنَا فِي مَا حَمَلْتَنَا، وَقَلَّدْتَنَا بِصِيراً عَالِماً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوتِي﴾ أَي أُعْطِيتَ مَا سَأَلْتَ. وَكَانَ سَأَلَهُ أَشْيَاءَ، فَأُوتِيَ. فَقَوْلُهُ ﴿سُؤْلَكَ﴾ وَسُؤَالُكَ وَمَسْأَلَتُكَ لُغَاتٌ^(١١) ثَلَاثٌ، كُلُّهَا وَاحِدٌ.

الآيات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَا مَا يُوحَى ﴿وَأَنْ أَتُوبَ فِي النَّابِوتِ﴾

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: اللِّسَانُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَذَلِكَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْمِلُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الرَّبُّوبِيَّةُ وَالرَّبُّوبِيَّةُ مُصَدَّرُ صِنَاعِي ل: الرَّبُّوبِيَّةُ وَهِيَ الْعُقْدَةُ الْمُحْكَمَةُ. (٥) فِي الْأَصْلِ: الْبُوبِيَّةُ انْظُرِ الْحَاشِيَةَ السَّابِقَةَ. (٦) انْظُرِ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٧٩. (٧) انْظُرِ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٨٠. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) انْظُرِ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٨٠.

الآية. يُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ الْمِئْتَةُ حِينَ أَنْجَاهُ فِي مَا ابْتُلِيَ بِالْبَرْدِ وَاشْتِيَاءِ الطَّرِيقِ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا لَمَلَّيْتُ مَائِكُمْ مِنْهَا عَجَبٍ أَوْ جَذَافٍ مِنْ نَارٍ لَمَلَّيْتُكُمْ تَصَلُّوْا﴾ [القصص: ٢٩] فَمِئْتُكَ الْمِئْتَةُ الْآخَرَى، أَوْ أَنْ تَكُونَ الْمِئْتَةُ الَّتِي ذَكَرَ هِيَ^(٢) مَا أَنْجَاهُ اللَّهُ [حِينَ قَتَلَ]^(٣) ذَلِكَ الْقَبِيضِيَّ، فَاشْتَدَّ لَهُ ذَلِكَ الْخَوْفُ حَتَّى بَلَغَ الْإِيَّاسَ. فَمِئْتُكَ الْمِئْتَةُ الَّتِي ذَكَرَ. أَوْ مَا ذَكَرَ مِنَ الْوَحْيِ إِلَى أُمِّهِ ﴿أَنْ أَتَذْبِيهِ فِي النَّابِئِينَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ﴾ مَعَ التَّبَوُّةِ ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ ثُمَّ بَيَّنَّ النُّعْمَةَ حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا بُوحِيَ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ. وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. وَإِلَّا قَدْ كَانَ مِنْهُ إِلَهُ مِنَ الْمَنِيِّ مَا لَا يُخْصَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْكَلَامُ فِي مَا أَلْهَمَ أُمُّهُ، وَأَلْقَى فِي رَوْعِهَا أَنْ تَقْذِفَهُ فِي الْبَحْرِ أَنْهُ يَسْعُ لَهَا^(٥) أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ، وَيَجْلُ، أَوْ لَا، إِذْ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ مِثْلُ هَذَا نَحْوُ مَا ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٤٨] فَلَمْ يَعْرِفُوا وَفَتْ مَا كَلَّمَهُمْ بِهِذَا هُوَ شَيْطَانٌ أَوْ غَيْرُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ يُلْقِيَ الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا. فَكَيْفَ وَسِعَ لَهَا أَنْ تَعْمَلَ مَا عَمِلَتْ^(٦) مِنَ الْأَخْطَارِ؟ [لَوْ لَا أَنْ]^(٧) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ الْإِلَهَامُ، وَمَا أَلْقَى إِلَيْهَا آيَةً وَمَعْنَى عَرَّثَتْ بِذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، أَوْ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَفَعَ الْحِجَابَ وَالْمَوَانِعَ مِنْ قَلْبِهَا،^(٨) وَصَارَ لَهَا ذَلِكَ كَالْعِيَانِ، أَوْ صَارَتْ كَالْمُضْطَّرَّةِ إِلَى ذَلِكَ، فَوَسَّعَ لَهَا ذَلِكَ لِمَا ذَكَرْنَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ قَالَ عَائِمَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً فِي قَلْبِ امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ حِينَ^(٩) قَالَتْ: ﴿فَرَّثْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَنْقُلُوهُ﴾ الْآيَةُ [القصص: ٩] وَلَكِنْ أَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً فِي قَلْبِ امْرَأَتِهِ وَقَلْبِ فِرْعَوْنَ أَيْضاً حَتَّى كَانَ أَشْفَقَ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبَّهُمْ بَعْدَ مَا كَانَ يَقْتُلُ الْوِلْدَانَ بِسَبَبِهِ لِحَبْدِهِ، وَيُظْفَرُ بِهِ؛ يُذَكِّرُهُ رَحْمَتَهُ عَلَيْهِ وَمِثَّتَهُ لَهُ، وَهِيَ^(١٠) الْمِئْتَةُ الَّتِي ذَكَرَ حِينَ^(١١) قَالَ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنُصْنَعَنَّ عَلَى عَيْنَيْكَ﴾ وَالصُّنْعُ هُوَ فِعْلُ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ، أَيْ لَنُصْنَعَنَّ إِلَيْكَ الْمَعْرُوفَ وَالْإِحْسَانَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى عَيْنَيْكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ [عَلَى عَيْنَيْكَ]^(١٢) عَلَى حِفْظِي؛ يُقَالُ: عَيْنُ اللَّهِ عَلَيْكَ، أَيْ كُنْ فِي حِفْظِ اللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِيُتَرَى عَلَى عَيْنِي، أَيْ عَلَى عِلْمِي وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

الآية ٤٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَنَبَّأ أَخُوكَ فَقَوْلْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أَيْ مَن يَضُمُّهُ [وَمِنْهُ]^(١٣) يُسَمَّى كَافِلُ الْيَتِيمِ الَّذِي يَضُمُّهُ، وَيَحْفَظُهُ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] أَيْ يَضُمُّهَا، وَيَحْفَظُهَا. فَمَا يَدُلُّ أَنَّهُ كَانَ عَنْدهُمْ مِنْ أَحَبِّ [النَّاسِ إِلَيْهِمْ]^(١٤) وَأَشْفَقَهُمْ عَلَيْهِ [حِينَ قَالَتْ]^(١٥) ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ حِينَ^(١٦) قَالَ لَهَا: ﴿إِنَّا رَأَوُنَا إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧] وَعَدَهَا^(١٧) أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهَا، فَرَدَّهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أَيْ يَذْهَبَ حُزْنُهَا الَّذِي كَانَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ حَزِينَةً يَطْرُقُهَا إِيَّاهُ فِي الْيَمِّ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ الْآيَةُ؟ [القصص: ١٠] هَذَا يَدُلُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أَيْ يَذْهَبَ حُزْنُهَا الَّذِي كَانَ لَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَقَّلْتَ نَفْسًا فَتَجِدَنَّكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْغَمُّ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ نَجَّاهُ مِنْهُ هُوَ الْخَوْفُ الَّذِي كَانَ بِهِ يَقْتُلُ ذَلِكَ الْقَبِيضِيَّ حِينَ^(١٨) قَالَ: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾ [الشعراء: ١٤] وَالْقَصَصُ: ٣٣] وَقَالَ^(١٩): ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] وَتَحَوُّهُ. أَوْ نَجَّاهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْغُمِّ إِذْ كَانَ لَهُ غُمٌّ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَتَّى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِهَذَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلِمَتْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَبْلِهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَتُعْدَى. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِ النَّاسُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالَ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَدَهَا. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ.

وفي الآية دلالة أن لا قصاص يجب في شبه العمد، وإن كان الضرب بشيء لا نجاة فيه، لأن موسى ﷺ كانت له قوة أربعين نفراً على ما ذكر. فإنما لظلمة ظلمة ﴿فَقَعْنَ عَلَيْهِ﴾ ثم قوله^(١): ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] هذا يدل أنه كان لا يحل له قتله. ثم قوله^(٢): ﴿فَفَرَجَ بَيْنَا حَافِيًا يَرْجَى قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] سمأهم ظلمة. فلو كان يحل القتل، وجب القصاص، لكان لا يسئهم ظلمة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّا قُتُوبًا﴾ قال بعضهم: ﴿قُتُوبًا﴾ هو جمع فتنة، أي فتناك فتونا، هو مضدر الفتنة، أي ابتليناك ابتلاء أي بلاء. والفتنة في البلاء والشدائد والعموم التي ذكر أنه نجا منها. ويختلج النعم والخيرات، إذ لم يكن الأنبياء في جميع الأوقات في البلاء. ولكن كانوا في وقت في بلاء وشدوة، وفي وقت آخر في نعمة وخير أو فتنة: بهما جميعاً على ما أخبر: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْغَمِّ وَالْفَقْرِ فَتَنًا وَابْتَلَانًا تَرْجُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَبَّثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هذا، والله أعلم من السنة التي ذكر حين^(٣) قال: ﴿وَلَقَدْ مَتَّأ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْشُونَ﴾ قال بعضهم: بالنسبة والرسالة. وقال بعضهم على موعود أو ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ وقت المجيء. فكيف ما كان ففيه أن مجيء العبد وذهابه وجميع سعيه يكون بقدر من الله وتقدير منه. وفيه أنه يجعل الأمور ٣٣١ - ١/ بأسباب، وإن كان يجعل^(٤) بغير أسباب.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿رَأْسُطُنُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخترتك، واضطفتك لرسالتي ونبوتي. فذكر لنفسه لأنه يأمره [أن]^(٥) يقوم بأداء ذلك.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَوْكَ بَيَاتِي﴾ هو ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تضعفا [في الدعاء]^(٦) إلى ديني وتوحيدي. وفي حَرْف عبد الله بن مسعود: ولا نهيا^(٧) في ذكري: في البلاغ إلى فرعون ﴿إِنَّهُ طَعَنَ﴾ أمرهما ألا يقصرا، ولا يفتخرا في تبليغ الرسالة إليه والدعاء إلى دينه حين^(٨) قال: ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فَرَعُونَ إِنَّهُ طَعَنَ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتًا﴾ [طه: ٤٣ و ٤٤].

قال أبو عوسجة: ﴿وَلَتَضَعَنَّ عَلَى عَيْقٍ﴾ أي ترمى بعيني. وسئل عن العين، فقال: العين العلم ههنا، والعين في غير هذا المال. والعين الأديم المنحرق. والعين المضدر من عان يعين، فهو عاين، والمفعول به مغيون إذا أصابه يعين. والعين الحقيقة كقولك: هذا يعينه، أي بحقيقته. قال: والعينة السلف ومثله. وقوله: ﴿وَأَسْجَعُ الْفُلُكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] المؤمنين [٢٧] أي بعيننا. وقوله^(٩) ﴿عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمه، ويضمته.

وقال أبو عوسجة: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْشُونَ﴾ أي وقت المجيء ﴿رَأْسُطُنُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخلصك لنفسي ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تقصرا، ولا تنجزا. والله أعلم.

الآيتان ٤٣ و ٤٤ وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَيَّ فَرَعُونَ إِنَّهُ طَعَنَ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتًا﴾ لأن القول اللين يكون أقر وأثبت في القلوب من القول الحزين البارد وخاصة في الملوك والرؤساء؛ إذ طباعهم لا تحتلج ذلك، ولا ينجع فيهم، بل أكثر صوليتهم على من دونهم إنما يكون عند استغبالهم بالخلاف وبما يكرهون. فأمر رسول^(١٠) موسى وهارون. أن يقولوا له قولاً لئناً، ولطفاً معاملة، ليكون [ذلك]^(١١) أقرب وأثبت في قلبه وأنجع. ولذلك قال: ﴿لَمَلُّهُ يَذْكُرُ أَوْ يَنْسِي﴾ قال الحسن: كل لعل [من الله هو]^(١٢) على الإيجاب، لأنه قد تذكّر، وخشي حين^(١٣) قال: ﴿لَيْسَ كُفْتُ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٤] وحين^(١٤) قال: ﴿قَالَ أَمْسَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] لكن لم ينفعه إيمانه في ذلك الوقت لأنه إيمان دفع واضطرار.

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ادراج قبلها في الأصل: ان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣٣/١٠. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: رسوله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: هو من الله فهو. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: حيث.

وقال بعضهم: ﴿لَمْ يَذْكُرْ أَوْ يَخْتَلِ﴾ في علومكم. فإن كان على هذا فهو يَحْتَمِلُ الشكَّ. وإن كان على الأول فهو على الإيجاب، لا يَحْتَمِلُ^(١) الشكَّ.

ثم اختلف في القول اللين. قال ابن عباس: هو^(٢) قول الله: ﴿نَقُلْ مَلَكًا إِنَّكَ أَنْ تُرَكِّبَ﴾ ﴿وَأَمَّا إِلَهُ رَبِّكَ فَتَخَفْ﴾ [النازعات: ١٨ و ١٩] فَوَحَّدَ. قال: هذا القول اللين.

وعن الحسن: ﴿قَوْلًا لِنَا﴾ أي قولاً حقاً؛ قولاً له: إن لك معاداً، إن لك مرجعاً. وقال بعضهم: ﴿قَوْلًا لِنَا﴾ قول: لا إله إلا الله. وقال بعضهم: أي لينا^(٣) ونحوه. وأصله: ما ذكرنا^(٤) بدياً.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقِرَّ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَ﴾ قال أهل السوابل: ﴿أَنْ يُقِرَّ عَلَيْنَا﴾ أَنْ يُجْعَلَ^(٥) بالمقوية من قبل أَنْ يَسْمَعَ حُجَّتَنَا ﴿أَوْ أَنْ يَطَّعَ﴾ بِقِتْلِنَا بعد ما يَسْمَعُ الْحُجَّةَ مِنَّا.

وجائز أن يكون أحد هذين في الفعل والآخر في القول: ﴿أَنْ يُقِرَّ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَ﴾ أيهما كان، لأنه قال في الجواب لهما:

الآية ٤٦ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي أسمع ما يقول لكما، وأرى ما يفعل بكما. فهذا يدل، والله أعلم، أن قوله: ﴿أَنْ يُقِرَّ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَ﴾ يرجع أحدهما إلى القول والآخر إلى الفعل لأنه قال في وقت: ﴿ذُرِّيَّةً أَقْتَلَ مُوسَى وَلِدَعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦] ونحوه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا﴾ يَحْتَمِلُ على نفي الخوف والأمن منه كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] ليس على النهي عن الحزن. فعلى ذلك الأول.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا﴾ في النصير والمعونة لكم والذب عنكم والدفع أسمع ما يقول، وأرى ما يفعل. وقد كانت كل يئة إليهما النصير والمعونة لهما والدفع عنهما.

الآية ٤٧ وقوله تعالى: ﴿فَأَنبِئَا قَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ يشبه أن يكون قوله ﴿وَلَا نَبِئَا فِي ذِكْرِي﴾ هذا، أي لا تضغفا في تبليغ الرسالة. ولكن قولاً ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ فأرسل معاً بين إسرائيلا لا يَحْتَمِلُ أن يكون أول ما أنبأه قالا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَا بَيْنَ إِسْرَئِيلَ﴾ بل قد سبق منهما الدعاء إلى توحيد الله والإقرار له بالألوهية والرؤية. فإذا ترك الإجابة فعند ذلك قالا له ﴿فَأَرْسِلْ مَعَا بَيْنَ إِسْرَئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: كأنه كان يمنع بني إسرائيل عن الإسلام، وهم أرادوا الإسلام، فقالا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَا بَيْنَ إِسْرَئِيلَ﴾ تمنعهم عن الإسلام. وكان يستغيبهم [فأمرهم أن يستنقذاهم]^(٨) من يديهم بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنُنَّا عَلَى أَنْ عَدَّتْ بَيْنَ إِسْرَئِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. ألا ترى أنه قال: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ؟﴾

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي^(٩) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَنْتَ الْمُدَيِّقُ﴾ هذا يدل أنه لا يبدأ بالسلام على أهل الكفر، ولكن بأهل الإسلام. وفيه أن نجية أهل الإسلام هو السلام لا قول الناس: أطال الله بقاءك، ونحوه.

الآية ٤٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ كأنه قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَنْتَ الْمُدَيِّقُ﴾ والعذاب ﴿عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ والسلام هو اسم كل خير وبر.

(١) في الأصل وم: يحصل. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: لينا. (٤) من م في الأصل: ذكره. (٥) في الأصل وم: يجعل. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) في الأصل وم: فأمره أن يستنقذهم. (٩) في الأصل وم: كقوله. (١٠) في الأصل وم: وهو.

وقال القُتَيْبِيُّ: «أَنْ يَفْرَطَ عَلَيْنَا» أَي يُعَجِّلْ، وَيَتَقَدَّمَ؛ قالوا: الْفَرَطُ التَّقَدُّمُ وَالسَّبْقُ. وفي الخبرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوَاضِ» [مسلم: ٢٢٨٩] وهو مِنَ السَّبْقِ. وكذلك قال أبو عَوَسَجَةَ: «أَنْ يَفْرَطَ عَلَيْنَا» أَي يُعَجِّلْ؛ يُقَالُ: فَرَطَ يَفْرُطُ فَرَطًا أَوْ عَجَلَ. وقال: «وَلَا نَبْيَا فِي ذِكْرِي» أَي لَا تُقْصِرُوا، وَلَا تَنْبِئَا فِي الْبَلَاغِ «وَأَسْطَنَتْكَ لِنْفِي» أَي اسْتَخْلَصَتْكَ لِنَفْسِي [فإذا لم يُفْهَمْ مِنْ قَوْلِهِ «لِنَفْسِي»] ^(١) ذَاتَهُ كَيْفَ يُفْهَمْ «وَلِنَصْنَعِ عَلَى عَيْنِي» مَا لَمْ يُفْهَمْ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ هَذَا وَأَمثَالُهُ فِي وَهْمٍ إِلَّا مَنْ اغْتَقَدَ التَّشْبِيهَ، وَلَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ. وَإِلَّا لَوْ عَرَفَ رَبُّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَكَانَ لَا يُتَصَوَّرُ فِي وَهْمِهِ تَشْبِيهَ الْخَلْقِ بِهِ وَلَا تَشْبِيهَهُ بِخَلْقِهِ «سَبَحْتَهُ وَتَنَلَّى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا» [الإسراء: ٤٣].

الآيتان ٤٩ و ٥٠

وقوله تعالى: «قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَهُوسُفُ» «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» وقال في آيةٍ أُخْرَى: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» «قَالَ رَبُّ الْمَسْكُونَاتِ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» الآية [الشعراء: ٢٣ و ٢٤] وقال في آيةٍ أُخْرَى ^(٢) «قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا» [الشعراء: ٢٨]

سأله عَنْ مَا هِيَ، فأجابه موسى عَنْ أَنَارِ صُنْعِهِ فِي خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّ مَا ذَكَرَ. لَمْ يُجِبْهُ عَمَّا سَأَلَهُ مِنْ مَا هِيَ وَكَيْفِيَّتِهِ حِينَ ^(٣) «قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَهُوسُفُ» فَجَوَّابُهُ عَنِ الْمَاهِيَةِ: «رَبُّنَا» فَلَا نَ وَأَنَّهُ كَذَا. ففِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ اللَّهَ، لَا يُعْرِفُ مِنْ جِهَةِ الْمَاهِيَةِ وَالْكَيْفِيَّةِ؛ إِذْ لَا مَا هِيَ لَهُ، وَلَا كَيْفِيَّةٌ، إِذْ هُمَا أَوْصَافُ الْخَلْقِ؛ فَاللَّهُ، سُبْحَانَهُ، يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَوْصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ.

ثُمَّ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» وجوهاً:

أَحَدُهَا: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» [صُورَتُهُ وَهَيْئَتُهُ. والثاني: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» جَنَسَهُ وَشَكْلَهُ. والثالث: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» مَعَاشَهُ وَقَوَامَهُ. والرابع: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» مَا يَكُونُ بَعْدَ الْفَنَاءِ صُورَةً مَا قَدْ كَانَ ^(٤) لِيُعْلَمَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ.

وقوله تعالى: «ثُمَّ هَدَى» [هُوَ مَبْنِيٌّ] ^(٥) عَلَى قَوْلِهِ: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ».

فَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ: ^(٦) «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» صُورَتَهُ وَهَيْئَتَهُ فَقَوْلُهُ: «ثُمَّ هَدَى» لِلنَّجَاةِ. وَإِنْ كَانَ [تَأْوِيلُ] ^(٧) «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ جَنَسَهُ وَشَكْلَهُ» فَقَوْلُهُ: «ثُمَّ هَدَى» ^(٨) لِلنَّسْلِ. وَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ: ^(٩) «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» مَا بِهِ مَعَاشُهُمْ وَقَوَامُهُمْ فَقَوْلُهُ: «ثُمَّ هَدَى» ^(١٠) لِمَا يَتَعَيَّشُونَ بِهِ، وَيَقُومُونَ بِهِ، وَهَدَاهُمْ ^(١١) لِمَا يَصْلُحُ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٥١ و ٥٢

وقوله تعالى: «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» «قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ» قال بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا سَأَلَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَنِ الْقُرُونِ الْأُولَى لِأَنَّهُ سَمِعَ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ حِينَ قَالَ: «يَقُولُ إِني أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْرِ الْأَخْرَابِ» [غافر: ٣٠] وَلَمْ يَكُنْ لِمُوسَى بِهِمْ عِلْمٌ، فَوَكَّلَ عِلْمَهُمْ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ التَّوْرَةَ، فَبَيَّنَ لَهُ فِيهَا أَمْرَهُمْ.

وقال بَعْضُهُمْ: سَأَلَ / ٣٣١ - ب/ فِرْعَوْنُ مُوسَى ذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى أَخْبَرَ أَنَّهُ يُبْعَثُ، وَخَوْفُهُ عَلَى ذَلِكَ. فعِنْدَ ذَلِكَ: «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» لَمْ يَبْعَثُوا مِنْهُ أَهْلِكُوا، فَقَالَ لَهُ مَا قَالَ.

وقال بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» أَهْمُ فِي الْجَنَّةِ، أَمْ فِي النَّارِ؟ فَقَالَ: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي»

وقال بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا سَأَلَهُ عَنْ أَعْمَالِهِمْ: فَمَا أَعْمَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى؟ فَقَالَ: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي» أَي أَعْمَالُهُمْ «عِنْدَ رَبِّي» [وقوله تعالى: «فِي كِتَابٍ» كَقَوْلِهِ] ^(١٢) «كِتَابَ مَرْئُومٍ» [المطففين: ٩ و ١٠] وقوله: «سَائِقٌ وَنَبِيٌّ» [ق: ٢١]

وقوله تعالى: «فِي كِتَابٍ» قال بَعْضُهُمْ: الْكِتَابُ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ. وقال بَعْضُهُمْ: فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ صُورَةً مَا قَدْ كَانَ مَعَاشَهُ وَقَوَامَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّائِيل. (٧) ساقطة من الأصل وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ هَدَاه. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ هَدَاه. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَدَاه. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي.

[وقوله تعالى^(١): ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ هما واحد [أي^(٢)] لا يَضِلُّ، ولا ينسى ذلك الكتاب.
[وقرئ^(٣): لا يَضِلُّ^(٤) مَنْ خَتَمَ بِالْهُدَى، وقرئ^(٥): لا يَضِلُّ رَبِّي] في^(٦) ذلك الكتاب الذي ذَكَرَ لَأنه^(٧) يَرْجِعُ
إلى قوله: ﴿لَا يَضِلُّ وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ١٢٣]

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ هو على قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]
[وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فراشاً ﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَذْكُرُ نِعْمَهُ الَّتِي
أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ؛ يقول: جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَحِثُ تَفْتَرِشُونَ، وَتَتَعَيَّشُونَ فِيهَا، وَتَقْرُونَ عَلَيْهَا، بَعْدَ مَا كَادَتْ تَمِيدُ بِكُمْ ﴿وَسَلَّكَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طُرُقًا تَسْلُكُونَ فِيهَا، وَتَخْتَلِفُونَ إِلَى الْبُلْدَانِ النَّاتِيَةِ فِي حَوَائِجِكُمْ وَمَا بِهِ مَعَاشِكُمْ وَقِيَامُكُمْ مَا لَوْلَا ذَلِكَ مَا
قَامَ مَعَاشُكُمْ، وَلَا قُضِيَتْ حَوَائِجُكُمْ.

[وقوله تعالى^(٨): ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي الماء ﴿أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ما به مَعَاشُكُمْ وَقِيَامُكُمْ وَقِيَامُ
أَنْعَامِكُمْ عَلَى اخْتِلَافٍ مَا جَعَلَ لِكُلِّ دَابَّةٍ مِنْ ذَلِكَ قُرْتًا وَغِذَاءً، لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ لِغَيْرِهَا، لِأَنَّ مِنَ الدَّوَابِّ مَا يَأْكُلُ النَّبَاتَ،
وَمِنْهَا مَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ وَنَحْوَهُ.

الآية ٥٤

[وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ في ما به قِيَامُكُمْ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لَأُولِي
الْعُقُولِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لِلَّذِينَ يَتَنَاهَوْنَ عَمَّا نُهُوا عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَآيَاتٍ﴾ لِأُولِي الْوَرَعِ. وَأُولُو
النُّهَى، هُمُ أَهْلُ الْعُقُولِ، لِأَنَّهُ بِالْعَقْلِ يُنْهَى، وَبِهِ يُؤَمَّرُ. فَذَلِكَ آيَاتٌ لَهُمْ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْقَسْبِيُّ: ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [لَأُولِي
الْعُقُولِ، وَقَالَ: التَّهْنِئَةُ الْعَقْلُ.

وقال بعضهم: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١] أي ما حالها؟ يُقَالُ: أَصْلَحَ اللَّهُ بِأَنَّكَ أَيَّ حَالِكَ.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُفُوسٌ مُّبْدِيَةٌ﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَفِيهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: مِنْهَا خَلَقْنَا أَصْلَكُمْ، وَهُوَ خَلَقَ آدَمَ. لَكِنَّهُ أَضَافَ خَلَقْنَا إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَخْلُقْنَا مِنْهَا كَمَا أَضَافَ الْإِنْسَانَ إِلَى
النُّطْفَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ مِنْهَا، لَكِنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا أَصْلُ الْإِنْسَانِ. فَقَلَى ذَلِكَ إِضَافَةً خَلَقَ أَنْفُسَنَا إِلَى الْأَرْضِ.
وَالثَّانِي: نَسَبْنَا إِلَيْهَا لِأَنَّ مِنْ أَوَّلِ مَا تَنَشَأُ إِلَى آخِرِ مَا نَنْتَهِي إِلَيْهِ يَكُونُ قِيَامُنَا وَمَعَاشُنَا مِنَ الْخَارِجِ مِنَ الْأَرْضِ. فَتَنَسَّبَ
خَلَقْنَا إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] وَاللِّبَاسُ عَلَى مِثْلِهِ مَا هُوَ [الم] ^(٩) يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ. لَكِنَّهُ
أَضَافَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ بِأَسْبَابٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَصْلُهُ ^(١٠) مِنْهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ أَنَّ الْمَلَكَ يَنْطَلِقُ، فَيَأْخُذُ مِنْ تَرَابٍ ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي يُدْفَنُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، فَيَذَرُهُ عَلَى النُّطْفَةِ الَّتِي
قَضَى اللَّهُ مِنْهَا الْوَلَدَ، فَيَخْلُقُ مِنَ التُّرَابِ وَالنُّطْفَةِ. فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِضَافَةِ إِلَيْهَا. لَكِنَّ هَذَا سَمْعٌ ^(١١)، لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالْخَبَرِ. فَإِنْ
بَيَّنَّ فَهُوَ هُوَ، وَإِلَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ رَأْيًا.

وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُفُوسٌ مُّبْدِيَةٌ﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَفِيهَا نُفُوسٌ مُّبْدِيَةٌ﴾ إِذَا مِتُّمْ، أَيْ تُقْبَرُونَ فِيهَا، فَيُخْرِجُ مُخْرَجَ الْإِمْتِنَانِ
عَلَيْهَا. وَذَلِكَ لَنَا خَاصَّةٌ دُونَ غَيْرِنَا مِنَ الْحَيَوَانِ لِثَلَا يَتَأَذَى بِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُكَ فَاعْبُدْ﴾ [عبس: ٢١] أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَفِيهَا
نُفُوسٌ مُّبْدِيَةٌ﴾ أَيْ تَصِيرُونَ تَرَابًا إِذَا مِتُّمْ، فَيُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، أَيْ [إِنَّ] ^(١٢) مَنْ قَدَّرَ عَلَى أَنْ صَيَّرَ الْإِنْسَانَ تَرَابًا بَعْدَ أَنْ لَمْ
يَكُنْ تَرَابًا لِقَادَرٍ عَلَى أَنْ يُصَيِّرَ إِنْسَانًا عَلَى مَا كَانَ بَعْدَ مَا صَارَ تَرَابًا، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أَيْ مِنْهَا
نَبْعَثُكُمْ، وَنُنشِئُكُمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٨٥. (٤) أدرج بعدها
في الأصل وم: ﴿رَبِّي﴾. (٥) انظر المرجع السابق. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ليس أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم.
(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل
وم: وأصل. (١٤) في الأصل وم: سمعتي. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٦ وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ ولم يُره جميع آياته، إنما أراه بغض آياته. لكن إن كان المراد منها الإعلام له فقد أعلم الآيات كلها لأنه إذا أراه آية واحدة أو بعض الآيات فَرُؤِيَّةُ آية واحدة أو ^(١) بغضها تدل على إعلام غيرها من الآيات. فهو على الإعلام قد أعلمه كلها. وهو ما قاله موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] عَلِمَ اللعين أنها الآيات، وليست ^(٢) بسخر. أو أن يكون يريد بالآيات كلها الآيات التي أرسلها إلى موسى، فقد أراه تلك ^(٣) ﴿كُلَّهَا فَكَذَّبَ﴾ بتلك الآيات ﴿وَأَنَّ﴾ أن يصدقها، ويقبلها، فيسلم.

الآية ٥٧ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ قد عَلِمَ اللعين [أنه] ^(٤) لم يَجْهَنَّهُم لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، ولكنه يريد منهم الإسلام، لكنه أراد أن يُعرِّف قومه عليه كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥] فهذا إغراء منه قومه.

الآية ٥٨ وقوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ. فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ قال بعضهم ﴿سُوًى﴾ المكان الذي نحن فيه أو ^(٥) غير هذا المجلس. وقال بعضهم: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ عدلاً؛ لا نُخْلِفُ نَحْنُ [ولا] ^(٦) أنت ذلك المكان. وقال بعضهم: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي منصفاً.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي وسطاً بَيْنَ قَرِيبَيْنِ. وقال الكِسَائِيُّ: سُوًى وسُوًى، يريد به سواء، وهما لَعْنَتَانِ ^(٧). إلا أنه يُقرأ ﴿سُوًى﴾ وقال أبو عبيدة: هو مِثْلُ ﴿طُوًى﴾ ^(٨) [طه: ١٢ و النازعات: ١٦] وهو النصف.

الآية ٥٩ وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ قال بعضهم: يوم عاشوراء. وقال بعضهم: يوم العيد. وقال بعضهم: يوم سُرُوبِهِمْ. لكننا لا نعلم ذلك، وليس بنا إلى معرفة ذلك حاجة؛ وهم قوم قد عَرَفُوا ذلك حين ^(٩) رَضُوا بذلك، ولم يَتَنَازَعُوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُحًى﴾ يَبْنُوا اليوم، وَيَبْنُوا الوقت، وهو وَفَتْ الصُّحَى ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُحًى﴾ وقال بعضهم: أي نهاراً جهاراً كقولِهِ: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا صُحًى﴾ [الأعراف: ٩٨] نهاراً؛ يعني جهاراً.

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أي أَقْبَلَ على أمرِهِ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ ليس على الإعراض عما دَعَا إِلَيْهِ ﴿ثُمَّ أَنْ﴾ بهم، وهو كقولِهِ ^(١٠): ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أَقْبَلَ على السَّكَنِ ﴿لِيُقَيِّدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥] بالقَسَادِ.

الآية ٦١ وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أحدهما: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ في ما بان لكم الحق، وظَهَرَ لَكُمْ الْحُجَّةُ بِاتِّخَاذِكُمْ فِرْعَوْنَ إِلَهًا، لأنكم إذا اتَّخَذْتُمْ دُونَهُ سِوَاهُ إِلَهًا، ولا إلهَ غَيْرُهُ، فقد افترىتم عليه.

والثاني: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ في ما بان لكم الحق، وظَهَرَ لَكُمْ الْحُجَّةُ، فلا تَفْتَرُوا على الله كَذِبًا بِقَوْلِكُمْ: إنه سِخْرٌ، وإنه كَذِبٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْجُدْ بِطَاعَةٍ﴾ بِرَفْعِ الْبَاءِ وَنَضْبِهَا ^(١١) جميعاً. قال أبو معاذ: يُقَالُ: أَسَحَّتهُ، وَسَحَّتهُ، وَفَهَرَهُ، وَافَهَرَهُ. وقال أهل التأويل: أي يُهْلِكُكُمْ، وَيُسْتَأْصِلُكُمْ بِعَذَابٍ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلك العذاب في الدنيا؛ أوعدهم بعذاب، يأتِيهِمْ إذا افترؤا على الله كَذِبًا بَعْدَمَا بانَ الْحَقُّ، وظَهَرَ لَهُمْ بِالْبُرْهَانِ ^(١٢) وَالْحُجَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْئَرِي﴾ في الدنيا والآخرة.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٨٦. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٧٢ (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: كقولِهِ. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٨٨. (١٢) في الأصل وم: البرهان.

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي السَّحْرَةَ في ما بينهم سراً من فرعون. فذلك قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ من فرعون.

الآية ٦٣ [وقوله تعالى^(١)]: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ﴾ يعنون موسى وهارون. وقال بعضهم: ﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ من موسى وهارون. فَنَجَّوَاهُمْ أَنْ قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَالْأَشْبَهُ هَذَا أَنَّهُمْ اغْتَرَلُوا قَوْمَهُمْ ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ / ٣٣٢ - أ / عَنْهُمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ أَنَّهُمَا كَذَا.

ثم قوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ﴾ بالالف^(٢). قال أبو عبيدة: هذه لغة قوم من العرب [تقول: مَرَزْتُ برجلان]^(٣) ورأيت رجلان. فهو على تلك اللغة. وقال بعضهم: إن هذه الألف، لا تَسْقُطُ في الوجدان بحال؛ يقال: مَرَزْتُ بهذا، ورأيت هذا، ونَحْوُهُ. فهو كالأصل، لا يَحْتَمِلُ السَّقُوطَ في الأحوال كلها في الوجدان والثنية. وقال بعضهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ﴾ أي: نَعَمْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ، وتلك لغة قوم أيضاً؛ يقولون: إِنْ كَانَ نَعَمْ كقول القائل في آخر بيت: فَقُلْتُ: إِنَّهُ^(٤)، أي: نَعَمْ. وقال بعضهم: لا، ولكن هذا خطأ من الكاتب، فقال: إني أرى فيه خطأ، فيَقُومُهَا الْعَرَبُ بِالسِّيْتِهَا، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ هذا القول إنما أخذوا من فرعون حين^(٥) قال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾ الآية [الأعراف: ١١٠] وقوله أيضاً حين^(٦) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٥٧] عَلِيمٌ فِرْعَوْنُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسِحْرٍ، لكنه أراد أن يُغَيِّرَ قَوْمَهُ عَلَيْهِ لئلا يَتَّبِعُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِلَى﴾ اختُلف فيه. قال الحسن: قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِلَى﴾ أي بعيشكم أمثل العيش، لأنهم كانوا جبابرة وفراعنة، وكان^(٧) بنو إسرائيل لهم خدماً وخولاً، يَسْتَعْمِلُونَهُمْ، وَيَسْتَعْمِلُونَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ، فَكَانَ تَعِيشُهُمْ بِهِمْ. فقال: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِلَى﴾ أي يَذْهَبَا بِدِينِكُمْ وَمَذْهَبِكُمْ الْأَمْثَلِ؛ لأنه يقول: إِنَّ الذي يَدْعُوهُمْ هُوَ إِلَهُهُ، هُوَ الرِّشَادُ، وَإِنَّ الذي يَدْعُوهُمْ مُوسَى إِلَهُهُ، هُوَ بَاطِلٌ، وَإِنَّهُ سِحْرٌ وَفَسَادٌ كقولِهِ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَّهُ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] وقولِهِ^(٨) ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وقولِهِ^(٩) ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ بَيْنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ونَحْوُهُ: يَدْعِي أَنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَهُهُ، هُوَ الرِّشَادُ، وَأَنَّ الذي يَدْعُو مُوسَى إِلَهُهُ السِّحْرُ وَالْفَسَادُ.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِلَى﴾ أي خياريكم وأشرافكم والأمثل منكم. قال القتيبي: قوله: ﴿يَسْحَرُكُمْ﴾ أي يُهْلِكُكُمْ، وَيَسْأَلُكُمْ، يُقَالُ: سَحَرَهُ اللهُ، وَأَسَحَتْهُ، وَقَالَ: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِلَى﴾ أي الأشراف، ويُقَالُ: هَؤُلَاءِ طَرِيقَةُ قَوْمِهِمْ، أي أشرافهم، وَاشْتِقَاقُ^(١٠) الطَّرِيقَةِ مِنَ الشَّرِيفِ، وَيُقَالُ: أَرَادَ بِسُتَيْتِكُمْ وَدِينِكُمْ. وَالْمُثْلَى مُؤْتٌ أَمْثَلٌ، وَمِثْلُ كُبْرَى وَكَتَبَى ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي حيلتكم. وقال أبو عوسجة: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِلَى﴾ أي بدِينِكُمُ الْأَفْضَلِ، وَهُوَ مِنَ الْأَمْثَلِ.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ حَزَفُ الْإِجْمَاعِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْعَزْمِ مَرَّةً، وَالْإِجْمَاعُ ثَانِيًا. أَمَا فِي الْعَزْمِ فَمَا ذُكِرَ فِي الْخَبَرِ: «لَا صَوْمَ لِمَنْ لَمْ يُجْمَعْ رَأْيُهُ مِنَ اللَّيْلِ» [أبو داود ٢٤٥٤] أي لِمَنْ لَمْ يَغْزَمْ عَلَى [مَا رَوَى فِي خَبَرٍ آخَرَ]^(١١): «لَا صَوْمَ لِمَنْ لَمْ يَغْزَمْ مِنَ اللَّيْلِ» [الترمذي ٧٣٠] وَأَمَا الْإِجْمَاعُ فَظَاهِرٌ.

(١) في الأصل وم: فقال لهم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٨٩. (٣) في الأصل وم: يقال: مررت. (٤) القائل هو الشاعر عبيد الله ابن قيس الرقيات، والبيت:

وَسَقَلْنِ شَبِيبٌ قَدْ عَلَا كَ وَقد كِبِرْتُ فَسَقَلْتُ إِنَّهُ

انظر الديوان ص ٢١٢

(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم حيث. (٧) في الأصل وم: وكانوا. (٨) أدرج بعدها في الأصل: لأن. في الأصل وم: وحيث قال. (٩) في الأصل وم: وحيث قالوا. (١٠) الوار ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: روى الخبر. انظر جنة المرباب ج ٢/ ٣٦٥.

فَإِنْ كَانَ عَلَى الْاجْتِمَاعِ فَكَانَهُ قَالَ: فَاجْتَمِعُوا عَلَى عَمَلٍ وَاحِدٍ، لَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ. [وَأِنْ كَانَ^(١)] عَلَى الْعَزْمِ: فَهُوَ^(٢) اغْزَمُوا شَيْئاً وَاحِداً، واقصِدُوا أمراً واحداً لكي تغلبوا.

[وقوله تعالى^(٣)]: ﴿ثُمَّ انْتَرَوْا صَفًّا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: جَمِيعاً غَيْرَ مُتَّفَقِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ثُمَّ انْتَرَوْا صَفًّا﴾ أَيِ الْمُصَلَّى الَّذِي كَانَ مَوْعِدَ الْاجْتِمَاعِ، وَهُوَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَقْلَقَ﴾ قِيلَ: مَنْ غَلَبَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٤] أَيِ غَلَبَ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ اسْتَقْلَقَ﴾ مَنْ طَلَبَ الْعُلُوَّ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْعَدَ بِمَا وَعَدَ فِرْعَوْنُ لِلسَّحَرَةِ مِنَ الْأَجْرِ إِذَا كَانُوا مِنْهُمُ الْغَالِبِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ^(٤) لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَائِزِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَيَنْ الْمَغْرِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣ و ١١٤]، فَذَلِكَ هُوَ مَا طَلَبُوا مِنْهُ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ بِذَلِكَ. هَذَا إِذَا كَانَ الْقَوْلُ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وقال أبو عبيدة: ﴿ثُمَّ انْتَرَوْا صَفًّا﴾ أَيِ مُصَلَّى، وَالصَّفُّ الْمُصَلَّى، وَقَالَ: حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ آتِيَ الصَّفَّ الْيَوْمَ الْمُصَلَّى. وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: ﴿صَفًّا﴾ أَيِ جَمِيعاً، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّوِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ اسْتَقْلَقَ﴾ أَيِ غَلَبَ^(٥).

الآيتان ٦٥ و ٦٦ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشُورَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَإِذْنٍ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَمَعَهُمْ يُحْيِلُ إِلَيْهِ﴾ إِلَى مُوسَى ﴿مِنْ مِيعَدِهِمْ أَنَّهُ تَتَى﴾.

الآية ٦٧ [وقوله تعالى^(٦)]: ﴿فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أَيِ رَقَعَ فِي قَلْبِهِ الْخَوْفُ، وَخَافَ إِذْ صَنَعَ الْقَوْمُ مَا صَنَعُوا مِنَ السَّحْرِ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ الْخَوْفُ مِنْهُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: خَافَ عَلَى مَا طَلَعَ الْبَشَرُ عَلَيْهِ مِنْ خَوْفِ الطَّنْبِ لَا خَوْفَ غَلَبَةٍ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿مَا يَحْشُرُ بِهِ السَّحَرُ إِنْ أَنَا سَيِّئُ الْمَقْدُورِ﴾ [يونس: ٨١] كَانَ يَعْلَمُ ﷺ أَنَّ تَمْغِيبَاتِ السَّحْرِ لَا تُبْطِلُ حُجَجَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ. فَذَلِكَ أَنَّهُ خَافَ خَوْفَ الطَّنْبِ وَالْجَبَلَةِ لَا خَوْفَ الْفَقْرِ وَالْعَلَةِ.

[والثاني: ^(٧)]: أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ لَمَّا أَخَذَ سِحْرَ أُولَئِكَ أَغْيَرَ النَّاسَ خَافَ مُوسَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يُبْصِرُوا مَا جَاءَ مِنْهُ مِنَ الْآيَةِ وَالْبُرْهَانِ.

وقال بعضهم: خَافَ أَنْ يُشْكُوا فِيهِ، فَلَا يُتَابَعُوا، وَيُشَكَّ فِيهِ مَنْ تَابَعَهُ، وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا قَرِيباً مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٨ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْآخِرُ﴾ أَيِ الْغَالِبِ. فَإِنْ كَانَ الْخَوْفُ الَّذِي ذَكَرَ خَوْفَ طَّنْبٍ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْمَرْءُ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ عَلَى تَسْكِينِ الْقَلْبِ وَتَثْبِيئِهِ. وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَهُوَ عَلَى الْبِشَارَةِ لَهُ وَالْإِخْبَارِ عَلَى [أَلَّا يَمْنَعَ أُولَئِكَ السَّحَرَةَ]^(٨) عَنْ أَنْ يُبْصِرُوا مَا [تَأْتِيهِمْ بِهِ]^(٩) أَنْتَ مِنَ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّ سِحْرَ أُولَئِكَ إِنَّمَا صَارَ بَعْدَ الْقَوْلِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَكَذَلِكَ عَصَا مُوسَى إِنَّمَا صَارَتْ آيَةً وَحُجَّةً بَعْدَ مَا أَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ. لَمْ تَكُنْ وَفَتْ كَوْنَهَا فِي يَدِهِ كَذَلِكَ حِينَ^(١٠) قَالَ: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أَيِ تَلَقَّسَ، وَتَنَاكَلَ ﴿مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحَرٍ وَلَا يَقْلِبُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَدَ﴾ بِسِحْرِهِ. وَلَا قَدْ أَفْلَحَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَيْنَ أَتَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَيْثُ كَانَ وَحَيْثُ وَحُوتَ لُغَتَانِ، وَهُوَ قَوْلُ الْكِسَائِيِّ.

الآية ٧٠ وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ لَأَنَّهُمْ عَرَفُوا حَقِيقَةَ مَا أَتَى بِهِ^(١١) مُوسَى فَقَالُوا أَنَّهُ آيَةٌ، لَيْسَ بِسِحْرِ، فَأَمَنُوا إِيمَانًا، لَمْ يَزْتَابُوا فِيهِ قَطُّ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَعَاصِمٍ وَغَيْرِهِمَا انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٢/ ٣٨٨. (٥) أَدْرَجْتَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ فِي الْأَصْلِ وَم فِي نَهَايَةِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٦٣ سَهْراً. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يَمْنَعَ سِحْرَ أُولَئِكَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: تَأْتِي بِهِمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِمْ.

وهذا يدل أن كل ذي بصير وعلم في شيء يكون أبصر وأعلم في ذلك الشيء من غيره [لا ترى أنهم^(١)] لم ينظروا لما رآوا ما أتى به موسى، وعابنوا وقتاً ينظرون^(٢) فيه؟ بل لسرعة معرفتهم ذلك لم يملِكوا أنفسهم، بل ألقوا على وجوههم على ما أخبر حين^(٣) قال: ﴿فَالْيَقِ السَّحَرَةُ مُجَدًّا﴾ [وقال: ^(٤) ﴿وَالْيَقِ السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾] [الأعراف: ١٢٠ والشعراء: ٤٦] وقال القتيبي: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ أي أضمر خوفاً. وقال غيره: وَقَعَ فِي قَلْبِهِ [حين رأى ما كان^(٥)]. وقال أبو عوسجة: ﴿يُحِيلُ إِلَيْهِ﴾ أي يظن؛ يقال: يُحِيلُ إِلَيَّ، أي يُريني فهمي وعلمي أن هذا الشيء كذا وكذا. ﴿فَأَوْحَسَ﴾ أي أحسَّ ﴿وَلَقَفَ﴾ وتلقم واحداً.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ مَادَدَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدُكُمْ الَّذِي عَلَنَكُمُ السِّحْرَ﴾ قال بعضهم: يغني موسى. وقال بعضهم: كئيب السحرة الذي علم السحر. وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنهَا﴾ [٣٣٢ - ب/ الآية [الأعراف: ١٢٣] قد علم فرعون أن ذلك ليس بسحر ولا مكر، مكروا به. لكنه أراد أن يموت على قومه، ويُنسب عليهم أمر موسى وما جاء [بـ] ^(٦) من الآيات والحجج لأنه هو الذي رباه، ونشأ بين ظهرائيه وأهله. فعلم أنه لم يتعلم السحر من أحد لما فارقه، وخرج من عندهم إلى مدين، لم يكن هناك [ساحراً] ^(٨) يتعلم منه السحر. لكنه أراد التثوية والتليس على قومه. وكذلك أهل مكة حين^(٩) نسبوا رسول الله إلى السحر والكهانة والإفتراء والجنون وغيره علموا أنه ليس بساحر ولا كاهن ولا مجنون ولا مفتر لأنه نشأ بين أظهرهم صغيراً، لم يؤخذ عليه كذب قط على أحد من الخلائق، فكيف على الله تعالى؟ ولا رآه اختلف إلى أحد من السحرة والكهنة في تعلم ذلك. لكنهم أرادوا التثوية والتليس على الناس لئلا يتبعوه إلى ما دعاهم إليه من دين الله وتوحيده.

ثم الرسل، صلوات الله تعالى عليهم، لو لم يكن معهم الآيات المعجزة ولا الحجج النيرة كانت أنفسهم وما عليه طبعوا من السيرة الحسنة والأخلاق الكريمة الجميلة وما اختاروا من الأمور العظيمة الرفيعة دالة على رسالتهم ونبوتهم. فكيف وقد جاؤوا بالآيات المعجزة والبراهين المنيرة؟ وما طبع السحرة من السيرة المذمومة والأخلاق الدنيئة والأمور الخسيسة يدل على كذبهم وأفعالهم. فكيف أشكل عليهم معرفة^(١٠) السحر من الرسالة والتثوية من الحجج؟ لكنهم أرادوا بذلك ما ذكرنا من التثوية على قومهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْطَعِ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَحْ﴾ يشبه أن يكون ذلك الوعيد منه في وقتين. أوعدهم أولاً بقطع اليد والرجل من خلاف على الإبقاء رجاء أن ينتهوا عما اختاروا. فإذا لم ينتهوا عنه فعند ذلك أوعدهم بالقتل والصلب، إذ في القتل والصلب إتلاف ما دونه من الجوارح. فإن كان على هذا ففيه أن كل حذ، يراد به الإبقاء [فإنه لا يؤتى على الجوارح كلها، والقطع في السرقة قد يراد به الإبقاء لذلك لا يؤتى على الجوارح كلها، وكذلك [حذ^(١١)] قطاع الطريق؛ إذ يراد به الإبقاء^(١٢)] لم يزد على قطع اليد والرجل من خلاف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّا شَدِيدُ عَذَابٍ وَأَبْقَى﴾ لو ذاق اللعين شيئاً من عذاب ربّه لم يقل مثل هذه المقالة، ولولا ما عرفت من جلم ربّه، وإلا لم يتجاسر أن يتكلم بمثل هذا، ويوعدهم أن عذابه أشد من عذاب الله.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي لن نُؤْثِرَكَ بالرؤيوية والعبادة لك والطاعة على ما جاءنا من البينات على رؤيوية الله وألوهيته وعبادته.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قال بعضهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أيضاً على الذي خلقنا. لكن غيره أشبه؛ وهو أن قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ على القسم أي بالذي فطرنا؛ كأنهم أياسوه عن العود^(١٣) إلى عبادته وخدمته.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ينظروا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث أتى كان. (٦) في الأصل وم: يقول. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: معجزة. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: العود.

وقوله تعالى: وقوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَائِلٌ﴾ ليس على الأمر، لكن الإياس عن ذلك؛ أي أنك وإن فعلت بنا ما أوعدت فإننا ﴿لَنْ نُؤْذِرَكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَقِضُ هَذِهِ لَلْبَيِّنَةِ الذِّنْيَا﴾ أي إنما نقضي في هذه الحياة الدنيا.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا آتَيْنَاكَ لِيُفْضِرَ لَنَا خُطْبَانًا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يحتَمِلُ قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ والله خير مغبود، وثوابه ﴿وَأَبْقَى﴾ أبقى من ثواب غيره. أو أن يكون هذا جواب قوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ فيقول [السحرة] (١): عذاب الله [أشد] (٢) وأبقى، والله أعلم.

قال أبو عوسجة: ﴿جُدُّع النَّخْلِ﴾ [سوق النخل وأصولها] (٣).

الآيتان ٧٤ و ٧٥ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي أَصْلُ هَذَا، والله أعلم، أَنْ مَنْ قِيلَ مِنَ اللَّهِ حَيَاتُهُ بِالشُّكْرِ، وَطَيَّبَهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ طَيَّبَ اللَّهُ حَيَاتَهُ وَعَيْشَهُ فِي الْآخِرَةِ. وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ حَيَاتُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالشُّكْرِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَفَرَ بِهَا، وَخَبَثَهَا، وَتَبَحَّهَا بِالْأَعْمَالِ الْفَاسِقَةِ الْخَبِيثَةِ الدُّنْيَا، خَبِثَتْ حَيَاتُهُ وَعَيْشُهُ (٤) فِي الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الَّتِي﴾ هي ما ترتفع، وتعلمو. والدَّرَكَاثُ ما تَسْقُلُ، وتُثْقِلُ فِي الْأَرْضِ. والدَّرَجَاتُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ لِاخْتِيَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الرَّفِيعَةِ الْعَالِيَةِ. فَعَلَى مَا اخْتَارُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ الرَّفِيعَةِ [الْعُلُويَّةِ] (٥) ﴿لَهُمُ﴾ (٥) فِي الْآخِرَةِ مُقَابِلُ ذَلِكَ ﴿الدَّرَجَاتُ الَّتِي﴾. وَأَمَّا الدَّرَكَاثُ فَهِيَ لَاهِلُ الْكُفْرِ مُقَابِلُ مَا اخْتَارُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ الدُّنْيَا الْخَبِيثَةِ، وَأَخْرَاهُمْ كَيْثُ مَنْ زَرَعَ بُذُورَ (٦) الشُّكِّ لَمْ يَخْصُدْ بَرًّا قَطُّ.

الآية ٧٦ وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي ذلك الذي ذَكَرَ جَزَاءُ مَنْ أَصْلَحَ عَمَلَهُ، وَأَنَامَهُ. وَالزَّكَاةُ هِيَ التَّمَاءُ فِي اللُّغَةِ.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ إِنْ مَوْسَى أَنْ أُنْزِلَ بِبَيْتِكَ﴾ وهو السَّيْرُ بِاللَّيْلِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَضْرَبَ لَهمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي اضْرَبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَيَصِيرُ (٧) لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَابَسًا كَقَوْلِهِ ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ الْآيَةُ [الشعراء: ٦٣]

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا غَتًّا﴾ أي لا تخاف لُحُوقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَلَا تَخْشَى غَرَقَ الْبَحْرِ. لَيْسَ عَلَى النَّبِيِّ، وَلَكِنْ عَلَى رَفْعِ الْخَوْفِ عَنْهُ، وَالْأَمْنِ عَنِ أَنْ يَذَرِكَهُمْ، وَيَلْحَقَهُمْ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ﴿قَالَ أَسْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؟ [الشعراء ٦١ و ٦٢]

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ دَلَّ قَوْلُهُ ﴿بِجُنُودِهِ﴾ عَلَى أَنَّ كَانَ مَعَهُ جُنُودٌ لَا جُنْدٌ وَاحِدٌ. وَأَمَّا الْعَدَدُ فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَذَا وَكَذَا أَلْفًا، وَقَوْمُ مُوسَى كَذَا وَكَذَا أَلْفًا. فَذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْخَبَرِ، وَلَيْسَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةٌ. وقوله تعالى: ﴿فَنَشِيبُهُمْ مِنْ أَلَمٍ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي مِنَ الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَسْأَلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا﴾ هَدَاهُ اللَّهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَسْأَلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا﴾ هَدَاهُمْ حِينَ (٨) قَالَ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وَقِيلَ: ﴿وَأَسْأَلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ نَفْسَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٦] أَي مَنْ آمَنَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ بِالْإِيمَانِ تَزَكَّى الْأَعْمَالُ، وَتَنَمَّوْا، وَيُؤْجَرُ.

وقال الْقُتَيْبِيُّ: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أَي لِحَافًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أَي لِحَقِّهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ساق النخل وأصله. (٤) أدرجت في الأصل وم بعد: الآخرة. (٥) في الأصل وم: العلوة فلهم. (٦) في الأصل وم: بذر. (٧) في الأصل وم: اجعل. (٨) في الأصل وم: حيث.

الآية ٨٠

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ إِسْمُكَ الَّذِي اسْتَنْصَرْتَنِي فِي الْوَحْيِ﴾ هذا خبرٌ يُخْبِرُ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ عَلَى أَوَائِلِهِمْ وَأَبَائِهِمْ [ورِخاطب] ^(١) مَنْ خَصَّرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَادُ بَنِي إِسْرَائِيلَ] ^(٢) يُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ بِمَا أَنْعَمَ، وَمَنْ عَلَى أَوْلَئِكَ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ يَوْمَئِذٍ.

وفيه تذكيرُ النِّعَمِ وَالْمِنَّةِ عَلَى الصَّحَابَةِ فِي أَوَاخِرِ أُمُورِهِمْ لِأَنَّهُ أَمَّنَّهُمْ ^(٣) فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَلِيَأْسِئَهُمْ مِنْ عَوْدِ هَؤُلَاءِ إِلَى دِينِهِمْ. وفيه تذكيرٌ لَنَا فِي مَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا، وَمَنْ [فِي] ^(٤) أَوَائِلِ أُمُورِنَا وَآخِرِهَا. لَيْسَ التَّذْكِيرُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَّةً. وَلَكِنْ لَنَا وَلِكُلِّ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَاهُ الْطَّيْرَ الْآيَمْنَ﴾ لَسْنَا نَدْرِي أَيُّ الْآيَمَنِ؟ [أَمْ] ^(٥) اسْمُ ذَلِكَ الْجَبَلِ، أَمْ ^(٦) سَمَاءُ الْآيَمَنِ ^(٧) لِيُؤْمِنُوا وَبَرَكْتِهِ؟ وَقَالَ ﷻ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا مُرُودٌ مِنْ شَيْطَانِ الْوَاقِعِ الْآيَمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] وَسَمَاءُ الْآيَمَنِ [لأنه] ^(٨) مِنْ يَمِينِ مُوسَى ﷺ فَإِنَّ كَانَ هُوَ مِنَ الْيَمِينِ وَالْبَرَكَةُ فَهُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ بُو كَانَ بَدْءُ وَخِي مُوسَى ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَ﴾ يُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ مَا وَسَّعَ عَلَى أَوَائِلِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ / ٣٣٣ - / ١/ وَاخْصَبَهُمْ لِيَسْتَأْدِيَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ. وَذَلِكَ تذكيرٌ لَنَا وَلِيَمْنٍ وَسَّعَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، إِذْ لَمْ يَزَلْ عَلَيْنَا يُوسِّعُ الرِّزْقَ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِنَا إِلَى آخِرِهِ.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا] ^(٩) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أَي مِنْ حَلَالَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فففيه دلالةٌ أَنَّ [مِنْ الرِّزْقِ] ^(١٠) مَا لَيْسَ بِحَلَالٍ.

والثاني: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أَي مَا تَطِيبُ بِهِ أَنْفُسَكُمْ. فففيه دلالةٌ أَنَّهُ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَخْتَارَ ^(١١) مِنْ الْأَطْعِمَةِ مَا هُوَ أَطْيَبُ إِنْ كَانَ عَلَى مَا تَسْتَطِيبُ بِهِ الْأَنْفُسَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْمَرُوا بِهِنَّ﴾ الطَّغْيَانُ هُوَ الْمُجَاوِزَةُ عَنِ الْحُدُودِ الَّتِي جُعِلَتْ، أَي لَا تَطْمَرُوا فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَتَجْعَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَا جَعَلَ، وَتَجَاوِزُونَ عَنِ الْقَدْرِ الَّذِي جَعَلَ.

وقوله تعالى: ﴿فَيُجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ بِرَفْعِ الْحَاءِ وَالْخَفْضِ ^(١٢) جَمِيعًا؛ يَجِلُّ أَي يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ غَضَبِي، وَيَحُلُّ بِالرَّفْعِ يَجِبُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ قِيلَ: هَوَى هَلَكَ؛ أَي مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ عَذَابِي فَقَدْ هَلَكَ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: هَوَى أَي هَلَكَ؛ يُقَالُ: هَوَتْ أُمُّهُ، أَي هَلَكَتْ. وَقِيلَ: ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ أَي سَقَطَ فِي النَّارِ؛ يُقَالُ: هَوَى فِي مَوْضِعٍ كَذَا.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَفَنَّا لَيْنَ تَابٍ وَءَامَنَ وَحَمِلَ صَلَاةً ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَفَنَّا لَيْنَ تَابٍ﴾ [وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا] ^(١٣) ﴿لَفَنَّا لَيْنَ تَابٍ﴾ عَنِ الشُّرْكِ وَرَجَعَ عَنْهُ ﴿وَأَمَنَ﴾ بِتَوَحِيدِهِ ﴿وَحَمِلَ صَلَاةً﴾ فِي مَا بَيَّنَّ ذَلِكَ ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ فِي حِفْظِ أَمْرِهِ، وَانْتَهَى عَمَّا نَهَى.

والثاني: ﴿لَفَنَّا لَيْنَ تَابٍ﴾ عَنْ جَمِيعِ الْمَنَاهِي ﴿وَأَمَنَ﴾ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَ ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ [أَي] ^(١٤) مَا دَامَ عَلَى ذَلِكَ، وَبَيَّنَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَمْزُئِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مُوسَى ﷺ خَرَجَ بِنَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ إِلَى

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م في الأصل: أمهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: هو. (٦) في م: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يرزق. (١١) من م في الأصل: المختار. (١٢) انظر معجم الفراءات القرآنية ج ٤/ ١٠٠. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل: وقوله: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أما، في م: وقوله: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي ما.

الْجَبَلِ لِيَأْخُذَ التَّوْرَةَ، فَعَجَّلَ حَتَّى خَلَفَهُمْ وَتَرَكَهُمْ وَرَاءَهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّى﴾ وقال بعضهم: لم يَخْرُجْ بِقَرِيرٍ، ولكن خَرَجَ وَحْدَهُ، وَتَرَكَ قَوْمَهُ، فَاصَابَهُمْ مَا أَصَابَ مِنَ الْإِفْتِنَانِ بِالْعِجْلِ الَّذِي اتَّخَذَهُ السَّامِرِيُّ.

الآية ٨٤ وقوله تعالى: ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ هذا على التأويل الأول، أي هُمْ يَجِئُونَ عَلَى أَثَرِي، وعلى التأويل الثاني: أي تَرَكْتُهُمْ عَلَى دِينِي وَسَبِيلِي، وهو قولُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي فِي مَا دَعَوْتَنِي إِبَاحَةً وَطَاعَةً فِي مَا أَمَرْتَنِي لِتَرْضَى. هذا على التأويل الذي قال: إنه خَرَجَ وَحْدَهُ، وعلى التأويل الذي يقول إنه خَرَجَ بِقَرِيرٍ، يقول، والله أعلم: ﴿وَعَجَلْتَ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ إذ لم يَكُنْ لِي سَبَبٌ وَلَا مَانِعٌ^(١) يَمْنَعُنِي عَنِ الْإِسْرَاعِ إِلَى مَا دَعَوْتَنِي، وَأَمَرْتَنِي.

وهكذا عِنْدَنَا أَنَّ مَنْ لَزِمَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَفَرَضُهُ لَزِمَهُ الْإِسْرَاعُ وَالْعَجَلَةُ إِلَى الْقِيَامِ [بِأَدَائِهِ، إِذَا]^(٢) لم يَكُنْ هُنَاكَ سَبَبٌ يَمْنَعُهُ عَنِ التَّعَجُّلِ لَهُ وَالْقِيَامِ بِهِ، والله أعلم.

الآية ٨٥ وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَدْوِكَ﴾ الْفِتْنَةُ هِيَ الْمِخْنَةُ الَّتِي فِيهَا شِدَائِدٌ وَبَلَايَا. وَمَعْنَى الْإِفْتِنَانِ هُنَا هُوَ مَا افْتَتَنُوا^(٣) بِالْعِجْلِ الَّذِي اتَّخَذَهُ السَّامِرِيُّ؛ جَعَلَهُ جَسَداً بَدَمٍ وَلَحْمٍ عَلَى مَا ذَكَرَ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، وَجَعَلَ لَهُ خَوَاراً. فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِفْتِنَانِ مِنْ إِيَاهُمْ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّمُ السَّامِرِيُّ﴾ أَضَافَ الْإِضْلَالَ إِلَى السَّامِرِيِّ لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبَ إِضْلَالِهِمْ حِينَ^(٤) اتَّخَذَ لَهُمُ الْعِجْلَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَقَالَ: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨] فَأَضَافَ الْإِضْلَالَ إِلَى لِيَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ دُعَايِهِ [إِيَاهُمْ]^(٥) إِلَيْهِ وَالسَّبَبُ الَّذِي كَانَ مِنْهُ. وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ^(٦) إِضْلَالٌ أَحَدٍ. وَأَضَافَ الْإِفْتِنَانِ إِلَى نَفْسِهِ لِيَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ جَعْلِ الْعِجْلِ [جَسَداً نَيَّاباً مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ وَرُوحَانِيًا]^(٧) فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى إِجْرَاءٍ مَا أَجْرَى عَلَى يَدَيِ السَّامِرِيِّ مَعَ ضَلَالِهِ مِنَ الْآيَةِ؟ قِيلَ: هُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ لَوْ ادَّعَى لِنَفْسِهِ الرِّسَالَةَ لَكَانَ لَا يَنْتَهِي لَهُ ذَلِكَ. لَكِنَّهُ إِنَّمَا ادَّعَى أَنَّهُ إِلَهٌ، وَأَنَارَ الْعُبُودِيَّةَ فِيهِ ظَاهِرَةً قَائِمَةً، يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِلَهِ.

وَأَمَّا الرِّسَالَةُ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُشْتَبِهَ عَلَى النَّاسِ، وَتُلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَيَمْنَعُ اللَّهُ ﷻ مَنْ لَيْسَ بِرَسُولٍ إِذَا ادَّعَى الرِّسَالَةَ إِقَامَةَ دَلَالَةِ الرِّسَالَةِ لِاشْتِبَاهِهَا عَلَى النَّاسِ.

وَأَمَّا الْأُلُوهِيَّةُ فَلَا [يَمْنَعُهُ اللَّهُ عَنْ إِجْرَاءٍ]^(٨) ذَلِكَ لِأَنَّا نَارَ الْعُبُودَةِ وَأَعْلَامَ الْعَجْزِ فِيهَا ظَاهِرَةٌ يَعْرِفُهَا^(٩) كُلُّ أَحَدٍ. وَهَكَذَا مَنْ أَتَى قَرْبَتَهُ، لَمْ يَبْلُغْهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ، فَقَرَأَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، يُقَدِّرُهُ اللَّهُ عَلَى قِرَائَتِهِ. فَلَوْ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ لَمْ [يَمْنَعُهُ اللَّهُ]^(١٠). لِأَنَّا نَارَ الْعَجْزِ عَنْ إِيَابَانٍ مِثْلِهِ ظَاهِرَةٌ، وَفِي الرِّسَالَةِ لَا، لِذَلِكَ افْتَرَقَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٦ وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيْسَاءً﴾ الْأَيْسَفُ هُوَ النَّهْيَةُ فِي الْغَضَبِ وَالنَّهْيَةُ فِي الْحُزَنِ. وَهَكَذَا جَبَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى نَهَايَةِ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَالْأَيْسَفِ لَهُ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْخِلَافَ لِلَّهِ وَالتَّكْذِيبَ لَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿تَلَكَّ بَنَجٌ تَسَكَّ﴾ الْآيَةُ [الشعراء: ٣] وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَلَمْ يَعْزِبْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ عَلَى تَأْوِيلِ الْحَسَنِ ﴿وَعَدًّا حَسَنًا﴾ هُوَ الثَّوَابُ الَّذِي وَعَدَ لَهُمْ بِالذِّينِ وَالسَّبِيلِ [حِينَ]^(١١) ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤] أَي عَلَى دِينِي وَسَبِيلِي. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أَي عَدْلًا وَصِدْقًا حِينَ^(١٢) وَعَدَ لَهُمْ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ [رَأْسٍ]^(١٣) أَرْبَعِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً عَلَى مَا ذَكَرَ ﷻ ﴿أَفْطَالَ عَلَيْهِمْ كُمْ﴾ عَلَى تَأْوِيلِ الْحَسَنِ ﴿أَفْطَالَ عَلَيْهِمْ كُمْ﴾ عَهْدُ مَا وَعَدَ لَكُمْ مِنْ دُونِ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى دِينِهِ وَسَبِيلِهِ حَتَّى نَبِيتُمْ ذَلِكَ. وَعَلَى تَأْوِيلٍ مِنْ قَالَ: إِنَّ الْوَعْدَ هُوَ مَا وَعَدَ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ رَأْسٍ كَذَا؛ يَقُولُ: أَفْطَالَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ؟ وَمَضَى وَغَدِي؟ حَتَّى فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْنَى. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَدَاءٍ فَإِذَا. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَتَنْتُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم أَحَدٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: جَسَدَانِي مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ وَرُوحَانِي. (٨) مِنَ الْأَصْلِ يَمْنَعُ عَنْ جِزَاءٍ فِي. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْنَعُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُعَلَّ عَلَيْكُمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أم تَعَمَّدْتُمْ الخلافَ فَيَجِلُ ﴿عَلَيْكُمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَأَخْلَقْتُمْ مُوَعِدِي ﴿يَخْتَلِ الْمَوْعِدُ الْوَجْهَيْنِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمَا فِي مَا مَضَى.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مُوَعِدَكَ يَمْلِكُنَا﴾ بِرَفْعِ الْمِيمِ وَكُسْرِهِ^(١). فَمَنْ قَرَأَ يَمْلِكُنَا بِرَفْعِ الْمِيمِ أَيْ بِسُلْطَانِنَا وَطَاقِنَا، أَيْ لَمْ تَفْعَلْ بِسُلْطَانِنَا وَطَاقِنَا. وَمَنْ قَرَأَ يَمْلِكُنَا بِكُسْرِ الْمِيمِ [أَيْ بِمَا]^(٢) مَلَكْتَ أَيْدِينَا.

وقال الكيساني: مَنْ قَرَأَ يَمْلِكُنَا فَمَعْنَاهُ^(٣) بِسُلْطَانِنَا، وَمَنْ قَرَأَ يَمْلِكُنَا بِكُسْرِ الْمِيمِ وَنَضَبِهِ فَمَعْنَاهَا مَا مَلَكْتَ أَيْدِينَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حُمَلَاءُ أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ﴾ قِيلَ انْقَالَا ﴿مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ﴾ أَيْ مِنْ حُلِيِّ الْقَبِيْطِ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أَيْ قَذَفْنَا مَا حَمَلْنَا مِنْ حُلِيِّهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَكَ الْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أَيْ كَذَبَكَ قَذَفَ مَا حَمَلَ السَّامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّهِمْ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿فَكَذَّبَكَ الْقَى السَّامِرِيُّ﴾ مَا أَخَذَ مِنْ قَبْضَتِهِ مِنْ أَمْرِ الرِّسُولِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَمْرِ الرِّسُولِ فَسَبَّحْتُهَا﴾ [طه: ٩٦]

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ أَيْ عِجْلًا جَسَدُهُ جَسَدٌ عِجْلٍ، وَلَيْسَ هُوَ بِعِجْلٍ فِي الْحَقِيقَةِ.

وقال بعضهم: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ لَا يَتَعَيَّشُ كَمَا يَتَعَيَّشُ الْعِجْلُ الْمَوْلُودُ مِنَ الْبَقَرِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ هَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا قَالَهُ السَّامِرِيُّ.

وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَنَسِيَ السَّامِرِيُّ حِينَ^(٤) قَالَ لَهُمْ ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾﴾ [هَذَا الْقَوْلُ]^(٥) فَيَكُونُ الشَّيْءُ ٣٣٣ - ب/ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ التَّضْيِيعُ وَالتَّرْكَ. كَأَنَّهُ قَالَ: ضَيَّعَ السَّامِرِيُّ بَعْدَ مَا عَلِمَ، وَعَرَفَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَنَسَبَ الْإِلَهِيَّةَ إِلَى الْعِجْلِ.

وقال بعضهم: إِنَّ السَّامِرِيَّ لَمَّا قَالَ ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ نَسِيَ هَذَا حِينَ^(٦) خَرَجَ فِي طَلَبِ غَيْرِهِ. وَلَا يَخْتَلِ أَنْ يَقْبَلُوا هَذَا الْقَوْلَ مِنْهُ، وَيَجْعَلُوا الْعِجْلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ السَّامِرِيُّ إِلَهًا، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا اتَّخَذَهُ مِنْ حُلِيِّ حَمَلُوهَا^(٧) مِنَ الْقَبِيْطِ. لَكِنَّهُ كَانَ فِي عَقْدِهِمْ أَنَّهُ يَجُوزُ اتِّخَاذُ إِلَهٍ دُونَ الْإِلَهِ^(٨) رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعِبَادَةُ لَهُ رَجَاءٌ أَنْ تُقَرَّبَ عِبَادَتُهُمْ تِلْكَ الْإِلَهِ إِلَى اللَّهِ.

وعلى هذا كانوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ دُونَ اللَّهِ كَقَوْلِهِمْ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَقَوْلِهِمْ^(٩): ﴿مَتَوَلَّاءَ شُعْرَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. وَلِذَلِكَ^(١٠) ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ الْإِلَهِ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وَلِذَلِكَ^(١١) مَا اتَّخَذَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ مِنْ آلِهَةٍ عِبْدُوهَا دُونَهُ.

الآية ٨٩

فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ ااعْتِقَادَهُمْ^(١٢): ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ أَلَا يَرَوْنَ أَنَّ لَا أَذْنَ فِي عِبَادَةٍ مِنْ [لَا]^(١٣) يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْقَوْلُ [وَلَا]^(١٤) يَمْلِكُ التَّنْفِيعَ وَالضَّرَّ. فَكَيْفَ إِذَنْ فِي عِبَادَةٍ مَنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِبَدَائِلِ رَبِّكُمْ الْأَخْنَنِ﴾ يُذَكِّرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِهِذَا رَسُولُهُ أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ، وَجَحَدُوا بِرِسَالَتِكَ، لَمْ يُكْذِّبُواكَ لِجَهْلِهِمْ بِالرِّسَالَةِ، وَلَكِنْ^(١٥) لِنَعْتِيهِمْ وَعِنَادِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ، وَأَنبَاهُ

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٨٧. (٢) في الأصل وم: معناها، وهو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حملوه. (٧) في الأصل وم: إله. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: وكذلك. (١٠) في الأصل وم: وكذلك. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: فقال. (١٢) ساقطة من الأصل وم: (١٣) من م، في الأصل: ولكنهم.

مِنْ قَوْلِ هَارُونَ لِقَوْمِهِ لَمَّا عَبْدُوا الْعِجْلَ حِينَ قَالَ ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ فَكَانَهُ يُؤْيِسُهُ مِنْ إِيْمَانِ أَوْلَئِكَ لِعِبَادِهِمْ، وَهُوَ قَالَ: ﴿أَنْتُمْ مَوَدَّةٌ أَنْتُمْ مَوَدَّةٌ أَنْتُمْ مَوَدَّةٌ أَنْتُمْ مَوَدَّةٌ أَنْتُمْ مَوَدَّةٌ﴾ [البقرة: ٧٥]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ بِخَتْلٍ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿فُتِنْتُمْ﴾ أَي صِرْتُمْ مَفْتُونِينَ بِصَوْتِهِ وَخَوَارِهِ أَوْ بغيرِهِ.

والثاني: ﴿فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أَي ضَلَلْتُمْ بِهِ أَي بِالْعِجْلِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَاهُ﴾ أَي أَجَبُوا لِي إِلَى مَا أَدْعُوكُمْ بِهِ ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أَي مَا أَمَرُكُمْ بِهِ.

الآية ٩١ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوَدَّةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أَي لَنْ نَرَاكَ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ ﴿عَاكِفِينَ﴾ مُقِيمِينَ ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوَدَّةً﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أَي لَنْ نَفَارِقَ عِبَادَتَهُ.

الآية ٩٢ ثم قال موسى ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّ قَوْلَ هَارُونَ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أَرَادَ بِهِ الضَّلَالَةَ حِينَ^(١) قَالَ لَهُ مُوسَى ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾.

الآية ٩٣ ﴿أَلَا تَتَّبِعْتِ أَفْعَصْتِ أَمْرِي﴾ بِخَتْلٍ أَي مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا؛ أَلَا صِرْتَ إِلَى مَا كُنْتُ صِرْتُ أَنَا، وَقَدْ عَلِمْتُ إِلَى أَيْنَ صِرْتُ أَنَا. أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّبِعْتِ﴾ أَي أَلَا تَتَّبِعْ دِينِي وَسُنَّتِي وَكَانَتْ سُنَّتُهُ وَمَذْهَبُهُ الْقِتَالُ وَالْحَرْبُ مَعَهُمْ إِذَا ضَلُّوا وَتَرَكُوا دِينَ اللَّهِ.

الآية ٩٤ فَاغْتَدَرِ إِلَيْهِ هَارُونَ، فَقَالَ ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ هَذَا أَيْضاً يُخْرِجُ أَيْضاً عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إِنْ أَتْبَعْتُكَ، وَصِرْتُ إِلَى مَا صِرْتَ أَنْتَ ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لَأَنَّكَ لَوْ نَهَيْتَهُمْ عَمَّا اخْتَارُوا مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَبَيَّنتَ لَهُمُ السَّبِيلَ، لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَكَ. فَحِينَ^(٢) لَمْ تَفْعَلْ فَأَنْتَ الَّذِي فَرَّقْتَ بَيْنَهُمْ.

والثاني: عَلَى تَأْوِيلِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَتَّبِعْتِ﴾ ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لَوْ قَاتَلْتَهُمْ، وَنَصَبْتَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ، صَارُوا قَرِيبَيْنِ. فَإِذَا تَفَرَّقُوا أَفْتَتَلُوا، وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ، وَتَفَانَوْا. فَتَرَكْتَ الْقِتَالَ لِمَا أَطْمَعُوهُ الْإِيْمَانَ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِمْ مُوسَى، وَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ. فَلَعَلَّ سُنَّتَهُ فِي الْقِتَالِ مَعَ مَنْ لَمْ يَطْمَعْ مِنَ الْإِيْمَانِ.

هَذَا عَلَى تَأْوِيلِ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ هَارُونَ اغْتَدَرَهُمْ لَمَّا عَبْدُوا الْعِجْلَ مَعَ عَشْرَةِ آلَافٍ نَفَرٍ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلٌّ عَلَى مَا ذُكِرَ.

وَأَمَّا الْحَسَنُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: كُلُّهُمْ قَدْ عَبْدُوا الْعِجْلَ إِلَّا هَارُونَ. فَعَلَى قَوْلِهِ: لَا يُحْتَمَلُ الْحَرْبُ وَالْقِتَالُ مَعَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ قِيلَ: هُوَ مَا قَالَ ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أَنَّهُ^(٣) كَانَ لَهُ الشَّعْرُ، فَكُنِيَ بِالرَّاسِ عَنِ الشَّعْرِ.

الآية ٩٥ وقوله تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِعِي﴾ قَالَ الْحَسَنُ: مَا حُجَّتُكَ يَا سَامِرِيُّ عَلَى مَا فَعَلْتُ؟ وَلَا حُجَّةَ كَانَتْ لَهُ قَطُّ.

وقال غيره: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ مَا شَأْنُكَ؟ وَمَا أَمْرُكَ؟ وَالْخَطْبُ هُوَ الشَّأْنُ وَالْأَمْرُ فِي اللُّغَةِ. وَتَأْوِيلُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ: فَمَا شَأْنُكَ؟ أَي مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى صَنِيعِكَ الَّذِي صَنَعْتَ؟

الآية ٩٦ ثم قوله تعالى: ﴿يَعُذُّ بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا بِهِ﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ جَمِيعاً^(٤). ثُمَّ يَبَيِّنُ مَا الَّذِي بَصُرَ هُوَ مَا لَمْ يَنْصُرُوا هُمْ، فَقَالَ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَحَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَانَ. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/١٠٧.

أما عامة أهل التأويل فإنهم يقولون: إنه قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنْ أَثَرِ فَرَسٍ جَبْرِيلَ، فَنَبَذَهَا. وليس في الآية ذِكْرُ التُّرَابِ ولا ذِكْرُ الْفَرَسِ ولا أَنَّ ذَلِكَ الرُّسُولَ جَبْرِيلُ أو غَيْرُهُ. وَشِبْهُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَبَضَهُ هُوَ تُرَابٌ مِنْ أَثَرِ الْفَرَسِ عَلَى مَا قَالَه أَهْلُ التَّأْوِيلِ. وقد ذُكِرَ فِي حَرْفِ آيَةٍ: فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرُّسُولِ.

فإن ثَبِتَ مَا قَالُوا، وَإِلَّا لَمْ نَزِدْ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَالْقَبْضَ كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ لِيُخْتَجَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَى أَوْلَئِكَ لِيُغَيِّرُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى. فلو زِيدَ، أو نُقِصَ عَمَّا فِي كُتُبِهِمْ لَذَهَبَ مَوْضِعُ الْإِخْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ، بَلْ يُوجِبُ ذَلِكَ شِبْهَ الْكُذِبِ عَلَيْهِمْ. لِذَلِكَ وَجِبَ جَفْظُ مَا حُكِيَ فِي الْكِتَابِ مِنَ الْأَنْبَاءِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ مَخَافَةَ الْكُذِبِ إِلَّا أَنْ يَثْبُتَ شَيْءٌ يُذَكِّرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُقَالُ، وَإِلَّا فَالْكَفُّ أَوْلَى لِمَا ذُكِرْنَاهُ فِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ وَقِتَادَةَ: فَقَبِضْتُ قَبْضَةً بِالصَّادِ. وَالْقَبْضَةُ [بِالصَّادِ]، هُوَ الْأَخْذُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَالْقَبْضَةُ [بِالضَّادِ] ^(١) هُوَ بِالْكَفِّ. فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَصِحَّ الْحَرْفَانِ جَمِيعًا، لِأَنَّ الْأَخْذَ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ دُونَ الْكَفِّ هُوَ ^(٢) خَيْرٌ، يُخْبِرُ عَمَّا فِي كُتُبِهِمْ. فَلَمَّا أَنْ يَكُونُ ذَا، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَا جَمِيعًا، فَلَا يُحْتَمَلُ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أَخَذَهُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى الْكَفِّ. فَجِئْتِذِ يَكُونُ تَمَّ بِمَرَّتَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ هَذَا يُحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: أَيِ كَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي: أَنْكَ مَنَى تَأْخُذُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ، فَتَنْبِذُهَا فِي الْحُلِيِّ، يَخِي.

[وَالثَّانِي] ^(٣): أَنْ يَكُونَ سَوَّلْتُ لَهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا كَانَتْ عَادَتُهُمْ وَطَبِيعَتُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَغْبُدُونَ [إِلَهًا] ^(٤) لَا يَرُونَهُ، وَلَا يَقَعُّ بَصَرُهُمْ عَلَيْهِ حِينَ ^(٥) ﴿قَالُوا يَتُوسَى أَجْمَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَكُمْ آلِهَةٌ﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٣٨] وَقَالُوا ^(٦) ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥] فَقَالَ ^(٧): ﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أَنْ أَتَّخِذَ لَهُمْ عَجَلًا يَرُونَهُ، فَيَغْبُدُونَهُ، أَوْ ﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أَنْ فِي أَخْذِ قَبْضَةٍ مِنْ أَثَرِ الرُّسُولِ نَبَأٌ عَظِيمًا أَوْ قَالَ ذَلِكَ اغْتِدَارًا لَجَمِيعٍ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٧ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَلَّا قَازِحَةً فَانْطَرِكْ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ لَا تَزَالُ تَقُولُ: لَا مِسَاسَ، لَا تَقُولُ غَيْرَهُ عُقُوبَةً لَهُ وَجَزَاءً لِيَصْنِيعَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لَا ^(٨) تَمْسَنِي، وَلَا أَمْسُكَ، أَيِ لَا تَمْسَنِي أَبَدًا. أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ لِمَا عَلِمَ مُوسَى ٣٣٤ - ١/ مِنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ يَحْتَمَلُ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لِعَذَابِكَ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ يَحْتَمَلُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَٰهَ الْإِلَٰهِ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَٰهَ الْإِلَٰهِ الَّذِي﴾ تَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَهٌ، لِأَنَّ مُوسَى سَمَّى ذَلِكَ، وَهُوَ كَمَا قَالَ: ﴿فَرَاغَ إِلَٰهَ الْإِلَٰهِمْ﴾ [الصَّافَاتُ: ٩١] الَّتِي فِي رُغْبِهِمْ إِلَهَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿ظَلْتَ﴾ يُقَالُ بِالنَّهَارِ، وَفِي اللَّيْلِ يُقَالُ: بَاتَ.

وقوله تعالى: ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ فِي ^(٩) هَذَا إِبْثَاتُ آيَةِ لِمُوسَى حِينَ ^(١٠) قَالَ ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ وَالْعِجْلُ الَّذِي هُوَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ لَيْسَ مِنْ طَبْعِ النَّارِ إِحْرَاقُهُ، وَكَذَلِكَ الْحُلِيِّ وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، لَيْسَ مِنْ طَبْعِ [النَّارِ] ^(١١) إِحْرَاقُهَا حَتَّى تَصِيرَ رَمَادًا. وَلَكِنْ مِنْ طَبْعِهَا الْإِذَابَةُ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهَا ^(١٢) مُحْرِقَةٌ. فَذَلِكَ أَنَّهُ آيَةٌ.

وَفِي قَوْلِهِ ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ لُغَتَانِ: ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ بِرَفْعِ النَّوْنِ، وَهُوَ التَّحْرِيقُ بِالنَّارِ، وَلَتُحْرِقَنَّهُ ^(١٣) بِنَضْبِ النَّوْنِ وَهُوَ الْقَطْعُ بِالْمِيزَةِ. وَمَنْ قَرَأَ ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ بِرَفْعِ النَّوْنِ وَالتَّشْدِيدِ يَقُولُ: مَا كَانَ لَحْمًا وَدَمًا، فَاحْرِقَ بِالنَّارِ، وَصَارَ رَمَادًا، ثُمَّ نُسِفَ فِي الْيَمِّ.

(١) فِي الْأَصْلِ: بِالضَّادِ، وَالْقَبْضَةُ هُوَ الْأَخْذُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ وَالْقَبْضَةُ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ١٠٨/٤. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهَو. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالَتْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفِي. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) مِنْ م: سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ١١٠/٤.

قال أبو معاذ: يا سبحان الله إن كنت أحرقت النار فما حاجتك إلى الجبر؟ لكنه أراد مقاتل أن يجمع القراءتين والتأويلين في قراءة واحدة.

لكنه عندنا لا يجوز أن يكون العجل من لحم ودم في إحدى القراءتين، وفي الأخرى من الحلي، لا لحم فيه، ولا دم، وتكون القراءتان جميعاً منزلتين. وما قاله مقاتل إنه حرق بالثار، ثم حرق بالجبر حسن، لأن النار لا تحرق العجل إذا كان لحماً ودماً، ولكنها تذيبه^(١)، فأبرد بالجبر. فعند ذلك نيف في اليم.

قال أبو معاذ: تقول العرب: نسفت [البراة أنيسها]^(٢) نسفاً إذا أخرجتها^(٣) المنسفة، فطيرت غبارها^(٤). ويقال في المشي: ما زلنا ننيف يومنا كله نسفاً أي نمشيه^(٥).

وقال أبو عوسجة «لننيسف» أي لنرمين به «نسفاً» أي رمياً. والنسف القلع من الأصل. وصرفه: نسفت ينسف نسفاً. وقال: «لن نرح عليه عكيد» [طه: ٩١] أي لا نزال. [وقال]^(٦): «لا يساس» أي لا يمسك أحد، ولا يؤذيك. وقال: «ظلت عليه لغة سوء، وإنما هو ظلت، وظللت.

وروي في حرف ابن مسعود «بصرت بما لم يصرأ به». إذ جاء الرسول «فقبضت قبضة» فالتقيتها، وفي حرف حفصة: إذ مر الرسول. وفي حرف أبي بن كعب: «فأت لك في الحيوة» أن لا يساس، ليس فيه أن تقول، وفي حرف حفصة: «فأت لك في الحيوة» الدنيا «أن تقول لا يساس» وقال بعضهم: تأويله: لا تماس، ولا يخالطونك.

قال أبو معاذ: المساس مضر ماسه مساساً ومماساً

كما يقال: ضاره ضراراً ومضارة، وساره ساراراً ومسارة، ومن قرأ: لا مساس كان كفيلاً: نزال ودراك.

وفي حرف ابن مسعود وأبي «وانظر إله إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً» وانظر كيف يفعل بإلهك «الذي ظلت» وقوله تعالى: «وكذلك سالت لي نفسي» قال بعضهم: شجعت. وظاهره: زنت لي نفسي.

وقيل: سمي السامري سامرياً لأنه كان من قبيلة، يقال لها: السامرة.

وقول هارون لموسى: «يبنتؤم» وكان أخاه لإبيه وأمو. وقيل: أراد بذلك أن يرفقه عليه، فيتركة.

الآية ٩٨

وقوله تعالى: «إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» جائر أن يكون موسى لما أحرق العجل، ونسفه في البحر، قال عند ذلك «إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ» لا إله إلا هو وسيع كل شيء، ولا يخفى عليه شيء. فيسبه أن يكون موسى ذكر هذا لهم لما أضمرها هم، وأسرأ حب العجل في قلوبهم على [ما]^(٧) أخبر الله عنهم بقوله: «وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم» [البقرة: ٩٣] فقال لهم «وسيع كل شيء» يعلم ما تسيرون وما تظهرون [أو]^(٨) لا يعلمون أنه [يعلم]^(٩) ما يسيرون وما يغيبون عن الخلق، ويكون عندهم كملوك الأرض يعلمون الظاهر من الأمور الحاضرة منها والغائب، فأخبر أنه يعلم الظاهر والباطن والسر والعلانية والحاضرة والغائبة، والله أعلم.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: «كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ» ليكون آية لرسالتك وتبوتك. أو يقول: كما قصصنا عليك هذا النبأ كذلك نقص عليك سائر الأنباء، والله أعلم.

وقوله تعالى: «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» قال أهل التأويل: الذكر ههنا القرآن، وهو الظاهر. ألا ترى أنه [قال]^(١٠) على إنره: «من أعرض عنه فإند» كذا؟ وجائر أن يكون قوله: «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» أي شرفاً وذكراً، يُذكر^(١١) بعده أبداً، ومن أثبته، وأجابه إلى ما دعاه، يصير مذكوراً به.

(١) في الأصل وم: تذيب. (٢) في الأصل وم: البرد انسفه. (٣) في الأصل وم: أخرجت. (٤) في الأصل وم: غبار. (٥) في الأصل وم: نمشي. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: تظهر أو ان يكونوا، في م: تظهرون أو أن يكون. (٩) ساقطة من الأصل وم: (١٠) ساقطة من الأصل وم: (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: هو.

الآية ١٠٠ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ الوزرُ الجمل، وسُمِّيَتِ الآثامُ جَمَلًا، لأنَّ الآثامَ تَنْقُضُ ظُهُورَ أصحابها في النار، وتُكْسِرُهَا كالجملِ يَنْقُضُ ظَهْرَ صَاحِبِهِ، وَيُكْسِرُهُ، وهو كما ^(١) ذَكَرَ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ^(٢) الآية أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [الشرح: ٢: ٣].

الآية ١٠١ وقوله تعالى: ﴿خَلِيلَيْنِ يَوْمَ﴾ أي في ذلك الوزر، أي لَنْ تُفَارِقَهُمْ أَوْزَارُهُمْ أَبَدَ الْآبِدِينَ. وقوله تعالى: ﴿وَسَاءَ لِمَنْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جِزَاءٌ﴾ جِزْلُ السَّوءِ جِزْلٌ يُورَدُ صَاحِبُهُ النَّارَ، بَشَسَ الْجِزْلُ جِزْلًا يُورَدُ صَاحِبُهُ النَّارَ. وَيُقَالُ: بَشَسَ مَا حَمَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ يَحْتَمِلُ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: ﴿أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي كَفَّرَ بِهِ، وَكَذَّبَهُ، وَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَيْهِ. وَالثَّانِي: ﴿أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي لَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ. وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا فِيهِ يَخَافُ أَنْ يَكُونَ فِي وَعِيدِ هَذِهِ الْآيَةِ.

الآيتان ١٠٢ و ١٠٣ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَنَحْنُ الْمُنْجِبِينَ يَوْمِزْ ذُرًّا﴾ ^(١) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا قِيلَ: يَتَسَاءَرُونَ بَيْنَهُمْ، وَيَتَكَلَّمُونَ فِي مَا بَيْنَهُمْ كَلَامًا خَفِيًّا ^(٢) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا. مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ إِنَّمَا يَقُولُونَ تَلْهَفًا وَتَحَرُّبًا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ قَلِيلٍ لِاسْتِقْلَالِهِمْ وَاسْتِصْغَارِهِمْ الدُّنْيَا؛ يَقُولُونَ: كَيْفَ كَانَ مَا كُلُّ هَذَا الْعَمَلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَلِيلِ؟ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ اللَّبِثِ الَّذِي قَالُوا ^(٣). قَالَ بَعْضُهُمْ: [ذَلِكَ] ^(٤) فِي الدُّنْيَا: اسْتَقْلَلُوا مَقَامَ الدُّنْيَا لَمَّا عَايَنُوا الْآخِرَةَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ فِي الْقُبُورِ. وَيَسْتَدِلُّ مَنْ يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ يَقُولُ لَأَنَّهُمْ اسْتَقْلَلُوا مَقَامَهُمْ فِي الْقُبُورِ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ عَذَابٌ فِي ذَلِكَ لَاسْتَغْظَمُوا ذَلِكَ، وَاسْتَكْبَرُوا، لِأَنَّ قَلِيلَ اللَّبِثِ فِي الْعَذَابِ يُسْتَغْظَمُ، وَيُسْتَكْبَرُ ^(٥)، لَا يُسْتَقْلَلُ، وَلَا يُسْتَحْقَرُ. فَلَمَّا اسْتَقْلَلُوا ذَلِكَ دَلَّ أَنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ فِي الْقُبُورِ.

وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِتَقْيِ الْعَذَابِ [فِي الْقَبْرِ] ^(٦) بقوله: ﴿يَوَلُّنَا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ [يس: ٥٢]. وَمَنْ يَقُولُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ يَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا قَالُوا فِي الْقَبْرِ؛ يَقُولُ: ذَلِكَ بَيْنَ التَّفَحُّتَيْنِ، يَقُولُ: هُمْ يُعَذَّبُونَ، وَيَكُونُونَ فِي الْعَذَابِ إِلَى التَّفَحَّةِ الْأُولَى، ثُمَّ يُرْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى التَّفَحَّةِ الثَّانِيَةِ. عِنْدَ ذَلِكَ يَرْتَدُّونَ، فَيَسْتَصْغِرُونَ مَقَامَهُمْ لِلنَّوْمِ؛ وَقَدْ يُسْتَصْغَرُ الْوَقْتُ الطَّوِيلُ، وَيُسْتَقْلَلُ فِي حَالِ النَّوْمِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ حِينَ قَالُوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وَهُمْ قَدْ أَقَامُوا ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ وَزِيَادَةً. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ [عَذَابُ الْقَبْرِ] ^(٧) عَذَابُ عَرْضٍ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ عَذَابُ عَيْنٍ كَقَوْلِهِ: ﴿أَنَارُ يُرْمَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] فَاسْتَصْغَرُوا عَذَابَ الْعَرْضِ، وَاسْتَقْلَلُوهُ عِنْدَ مُعَايَنَةِ عَذَابِ الْعَيْنِ.

وَمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ: تَحَاقَرَتِ الدُّنْيَا فِي أَغْيِيهِمْ وَمَقَامُهُمْ فِيهَا حِينَ/ ٣٣٤ - ب/ عَايَنُوا الْآخِرَةَ وَأَهْوَالَهَا. **الآية ١٠٤** وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتَ إِلَّا يَوْمًا﴾ قَوْلُهُ: ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾ قِيلَ أَغْفَلُهُمْ، وَقِيلَ: أَفْضَلُهُمْ ^(١) إِنْ لَبِثْتَ إِلَّا يَوْمًا. مَنْ كَانَ أَبْصَرَ وَأَعْلَمَ بِأُمُورِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا كَانَ أَكْثَرَ اسْتِخْفَافًا بِالدُّنْيَا وَاسْتِخْقَارًا لَهَا. وَفِي [حَرْفٍ] ^(٢) ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ﴾ عِيلَ عَلَيْهِمْ أَنْ ﴿يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾. قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: قَوْلُهُ: عِيلَ عَلَيْهِمْ أَيْ اسْتَبْتَهَ، وَخَفِيَ، وَفَاتَهُمْ عِلْمُهُ، وَقَالَ: وَمِنْهُ يُقَالُ: عَالَتْ الْفَرِيضَةُ. يَقُولُ: هَؤُلَاءِ إِذَا جَاوَزَتِ السَّهَامَ فَاشْكَلَ عَلَى الْفَارِضِ، وَاسْتَبْتَهَ، وَمِنْهُ قِيلَ: عِيلَ صَبْرِي.

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: ﴿وَنَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ سَوَالُهُمْ عَنْ أَحْوَالِ الْجِبَالِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمَّا بَيَّنَّ أَحْوَالَ النَّاسِ فِي السَّاعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ رَازِلَةٌ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ^(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٢) أَدْرَجَ فِي الْأَصْلِ وَم بَعْدَهَا: ذَلِكَ (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ: وَيَسْتَكْبَرُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ. (٦) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

أَرْصَعَتْ ﴿الآية [الحج: ٢١] وقوله^(١)﴾: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ [الآية [الحج: ٢] وَصَفَ لَهُمْ أَحْوَالَ الْخَلْقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَمْ يَصِفْ أَحْوَالَ الْجِبَالِ وَالْأَرْضِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَأَلُوهُ عَنْ أَحْوَالِ الْجِبَالِ، فَأَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿يَسِفُّهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ وَمَا ذَكَرَ أَيْضًا فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿هَبَاةٌ تُنْثَرُ﴾ [الفرقان: ٢٣] [وقوله^(٢)]: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ النَّبْثِ﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿[القارعة: ٤٥] وَنَحْوِهِ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآيتان ١٠٦ و ١٠٧

وقوله تعالى: ﴿يَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ قيل: لا وادياً ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ ولا رابية.

وقال بعضهم: العوجُ الازدياعُ، والامتُّ الهبوطُ. وقال بعضهم: العوجُ انحناءُ الأودية، والامتُّ التلالُ. وقيل: لا انخفاصاً ولا ازدياعاً [وقيل^(٣)]: والقاعُ الصَّفْصَفُ، هو تفسيرُ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [وقوله]: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ تفسيرُ قوله: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾^(٤).

الآية ١٠٨

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَعْيُنُ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا خلاف^(٥) له، ليس كالداعي في الدنيا؛ منهم مَنْ يُطِيعُهُ، وَبَعْضُهُمْ مِنْ لَا يُطِيعُهُ، وَلَا يُجِيبُهُ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ يُجِيبُونَ الدَّاعِيَ فِي أَيِّ حَالٍ كَانُوا؛ لَا يُخَالِفُونَهُ. وقوله تعالى: ﴿وَحُشِحَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ لا تَحْشَعُ الْأَصْوَاتُ، لَكِنْ تَنْخَفِضُ، وَتَلِينُ، عِنْدَ خَوْفِ أَهْلِهَا، وَتَرْتَفِعُ عِنْدَ الْأَمْنِ. أَوْ يَكُونُ خُشُوعُ الْأَصْوَاتِ كَنَايَةً عَنْهُمْ، أَيْ يَخْشَعُونَ، وَيَذَلُّونَ، لِشِدَّةِ قَزَعِهِمْ لِأَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قيل: الهمسُ الكلامُ الخفيُّ الذي لا تكادُ تَسْمَعُهُ. وقيل: وَقَعَ الْأَقْدَامُ وَتَقَلَّهَا، وَهُوَ تَحَرُّكُهَا.

قال أبو عَوَسَجَةَ: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٣] أَيْ أَخْفَى صَوْتَهُ^(٦)، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ أَنتَلْهُمُ مَطِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤] أَيْ أَفْضَلُهُمْ. فَأَمَّا ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ فَإِنَّ^(٧) الْقَاعَ الْأَرْضَ الصُّلْبَةَ الَّتِي لَا شَيْءَ فِيهَا، وَالصَّفْصَفُ الْمُسْتَوِيَّةُ، وَالصَّفَافِصُ جَمِيعُ، وَالْقِيَعَانُ جَمِيعُ الْقَاعِ وَعِوَجُ^(٨) وَ عَوْجٌ [وَاحِدًا]^(٩) ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ والامتُّ هو العوجُ، وَهُوَ الثَّلْثُ. وقوله ﴿وَحُشِحَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أَيْ سَكَنَتْ، وَالْهَمْسُ [الكلام]^(١٠) الْخَفِيُّ.

الآية ١٠٩

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ لَيْسَ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الشَّفَاعَةُ، فَلَا تَنْفَعُ، وَلَكِنْ لَا شَافِعَ لَهُمْ ﴿إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بِالشَّفَاعَةِ، إِذْ^(١١) لَا أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَضْلاً أَلَّا^(١٢) يُؤْذَنَ لِأَحَدٍ بِالشَّفَاعَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بِقَوْلِ الشَّفَاعَةِ ﴿وَقَالَ سَوَآكَا﴾ [النبا: ٣٨].

وَالثَّانِي: ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ﴾ [وَقَفُّهُ الرَّحْمَنُ]^(١٣) بِمَا يَسْتَوْجِبُ الشَّفَاعَةَ لَهُ ﴿وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾ وَسَأَلَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّهَادَةِ وَالتَّوْحِيدِ.

فَيَرْجِعُ أَحَدُ التَّأْوِيلَيْنِ إِلَى الشَّفَاعَةِ: أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إِلَّا مَنْ وَفَّقَ لَهُ الرَّحْمَنُ فِي الدُّنْيَا بِالتَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ الْإِخْلَاصِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ١١٠

وقوله تعالى: ﴿يَقُلُّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بَعْدَ مَا خُلِقُوا، أَوْ كَانُوا. أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مَا قَدَّمُوا مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ بَعْدِهِمْ أَوْ أَنْ يَكُونَ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَكَقَوْلِهِ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: اخْتِلَافٌ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: صَوْرَتُهُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَالَ. (٨) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ.

قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن الخير، أي يعلم ما يعملون من الخيرات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الشرور وما تبدوا وراء ظهورهم.

وجائز أن يكون المراد من البين والخلف الأحوال كلها، أي عالم بجميع أحوالهم وبكل شيء يكون منهم. وهو كقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْغُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. أي لا يأتيه الباطل البتة، لأنه ليس للقرآن بين ولا خلف، ولكن المراد ما ذكرنا فعلى ذلك الأول.

وجائز أن يكون المراد منه ليس البين ولا الخلف، ولكن [المراد]^(١) إخبار عن إحاطة علمه بهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ علمًا ﴿هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أحدهما: (٢)] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ علمًا، ولكن إنما يعرفونه على قدر ما تشهد لهم الشواهد من خلقه، لأن الخلق إنما يعرفون ربهم من جهة ما يشهد، ويدل لهم من الدلالات من خلقه. والإحاطة بالشيء إنما تكون بما كان سبيل معرفته الجس والمُشاهدات. فإما ما كان سبيل معرفته الاستدلال فإنه لا يحاط به العلم.

والثاني: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ علمًا، أي يعلمه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقوله:

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ] [الجن: ٢٦ و ٢٧].

الآية ١١١ [وقوله تعالى] (٣): ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قبل ﴿وَعَنْتِ﴾ ذلت، وخضعت ﴿الْوُجُوهُ﴾. وجائز أن يكون ذكر الوجوه كناية عن أنفسهم لما بالوجوه تظهر الدلالة والخضوع. فكأن بها عنهم.

فإن كان ما أخبر من خضوعهم وذللهم في الآخرة فهو على [ما] (٤) أخبر من خضوع الخلائق له في الآخرة. وإن كان بعضهم يتكبر في الدنيا، وإن كان [المراد] (٥) في الدنيا، فهو على خضوع الخلقة له؛ خضعت خلقة الخلائق كلهم له.

وقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قد ذكرنا تأويل الحي القيوم في ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي قد خاب من حمل الشرك. والظلم هنا الشرك. وقد خاب من حمل ما ذكر من الحمل والوزر، وهو ما ذكر في قوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [خالد بن الوليد] وَمَا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا. طه: ١٠٠ و ١٠١ أي خاب من حمل ذلك الحمل، والله أعلم.

وقال بعضهم في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ يعني الملائكة ﴿علمًا﴾ يقول لهم: لا يعلمون من كلامي إلا ما علمتهم إياه. فإن كان هذا في الملائكة خاصة فإنه لا يحتمل ما ذكرنا من التأويل في قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الشرور، وما تبدوا وراء ظهورهم لأنهم مطيعون لله، لا بغصوة طرفة عين، ويحتمل غيره من التأويلات التي ذكرنا، والله أعلم.

وقال بعضهم في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ قول: لا إله إلا الله، مسلمًا في الدنيا مؤمنًا حقًا. فذلك الذي رضي، والشفاعة تجل لهم. فإما غيرهم فلا يشفع [لهم] (٦) وهو ما ذكرنا في ما تقدم.

وقال بعضهم [في قوله: ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي عملت ﴿الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وقالوا في تأويل ﴿وَعَنْتِ﴾ عملت أي خضعت له بالعمل في الدنيا على ما ذكر بعضهم (٧) من الركوع والسجود والقيام وغيره. وهو في المؤمنين خاصة، ليس أن يكون تأويل قوله ﴿وَعَنْتِ﴾ أي عملت حقيقة، ولكن من الرجوع الذي ذكرنا. وإن كان التأويل في الآخرة فهو في الفريقين جميعاً، يذللون جميعاً، ويخضعون في الآخرة، وإن كان من بعضهم التكبر في الدنيا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم.

(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١١٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فيه دلالة / ٣٣٥ - أ / أنه يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْإِيمَانِ بدون الأعمال الصالحات حين^(١) قال: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وفيه أن الإيمان شرط في قبول الصالحات وجعلها طاعة لله حين^(٢) شرط الإيمان فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ الظلم ههنا على ما ذهبنا النقصان، لا ظلم الجور لأن الثواب على الأعمال بحق الإفضال لا بحق العدل. فإذا كان على هذا فيخرج قوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ﴾ أن يُقَصَّ من حسناته شيئاً أو يزيد في سيئاته شيئاً. ويجوز في اللغة ذكر الظلم على إرادة النقصان كقوله في ذكر الجنين: ﴿كُنَّا الْجَنَيْنَ مَا كُنَّا أَكْلَهَا وَلَمْ تَطْلُرْ بِنْتَهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] والجنة لا توصف بالظلم الذي هو ظلم جور. قدل أنه أراد بالظلم النقصان، أي لم تنقص، بل آتت ثمارها وافية وافرة.

وإن كان على الظلم الذي هو ظلم الجور فهو على النهي، أي لا تخف منه الظلم والجور.

الآية ١١٣

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي كما ذكرنا أن ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَا﴾ في القرآن العربي ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

حرف لعل في جميع ما ذكر في القرآن يحتمل وجهين:

أحدهما: على الوعد أنهم يتقون، فهو على الإيجاب.

والثاني: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي الزمهم أن يتقوا بما صرّف فيه من الوعيد.

وإن كان على الوعد والإيجاب منه فهو لمن علم أنهم يتقون. وإن كان على الإلزام، أي الزمهم فهو في الكل. ثم إن كان على الوعد فيخرج قوله: ﴿أَوْ يُخَذِّبُ لَمْ يَذْكُرْ﴾ فيكون كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَذْكُرُ أَوْ يَنْسَى﴾ [طه: ٤٤] إذا تذكّر خشي، وإذا خشي تذكّر. فعلى ذلك إذا اتقى فقد أخذ له الذكر، وإذا أخذ له الذكر اتقى. وإن كان الزمهم أن يتقوا فهو [على^(٣) أ. ر. ثم قال بعضهم: ﴿يَذْكُرْ﴾ أي عذاباً.

الآية ١١٤

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْكَلِمَةَ الْخَيْرَ﴾ مثل هذا إنما يذكّر^(٤) على نوازل كانت إما قولاً أو فعلاً. يقال: فتعالى الله عن ذلك. لكن لم تذكّر النوازل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ يحتمل ما قاله أهل التأويل: إن جبريل كان إذا أتاه بالسورة وبآلآي فيتلوها كلها^(٥)، فلا يفرغ جبريل من التلاوة حتى يتلوها^(٦) رسول الله ﷺ [ومن أولها^(٧)] مخافة أن ينساها. فانزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ فتقرأه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ﴾ يفرغ من تلاوته عليك، وقد أمته من النسيان بقوله: ﴿سُقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦] وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لَتَجْعَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

ثم أمره ﷺ أن يسأله أن يزيد له علماً [بقوله^(٨)] ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي لا تجعل بما ذكر من الوعيد لهم في القرآن من قبل أن يأتي وقته كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم: ٨٤]

[وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ﴾^(٩) من قبل أن يقضى إليك وحْيُهُ] جازئ ما قاله أهل التأويل: أنه كان يثلو مع تلاوة جبريل، فقال له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ إن ثبت عنه أنه كان يثلو مع تلاوة جبريل: وجازئ النهي من غير أن كان منه ما ذكر، والله أعلم، على ما نهى هو عن أشياء من [غير^(١٠)] أن كان منه ذلك.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م ساقطة من الأصل (٤) من م، في الأصل: يتذكر. (٥) في الأصل وم: عليها. (٦) في الأصل وم: يتكلم. (٧) في الأصل وم: بأولها. (٨) في الأصل وم: وكذلك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١١٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ نَنسِيَّ وَلَمْ يُخَذِّ لَمْ عَزَمًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وعامة أهل التأويل: إن قوله: ﴿نَنسِيَّ﴾ أي ضَيَّعَ، وترك، ليس نسيان السُّهُو، لأنه عَوِيتَ عليه، وعَوِيتَ به. ولا يُعَاتَبُ المرء على ما هو حقيقة السُّهُو والنسيان. فدلَّ أنه على التضييع والترك، ليس على النسيان والسُّهُو. إلى هذا يذهب هؤلاء. لكن يُفْبَحُ هذا: أن يُقال في آدم أو في نبيٍّ من أنبيائه أو في رسولٍ من رُسُلِهِ ﷺ إنه ^(١) ضَيَّعَ. والنسيان عندنا على قسمين [أحدهما] ^(٢): نسيان يكون عن غفلة منه وشغل، ما لولا ذلك الشغل منه والغفلة، لحفظه، وذكره، ولا ينساه. [والمُعَاتَبَةُ جَائِزَةٌ] ^(٣) على هذا النسيان؛ إذ لو كان تكلف لكان لا ينساه، ولا يقع فيه. [والثاني: نسيان] ^(٤) يقع فيه من غير سبب، كان منه، لا يملك دفعه. وذلك نسيان ما لا يُعَاتَبُ عليه، ولا يُعَاتَبُ به.

وهكذا الكلفة من الله تعالى والمحنة؛ إنه جائز أن يكلف، ويمتنح من لا يعلم، ولا يعقل الكلفة وقت تكليفه إياه بغد أن يحتمل عقله إدراك ذلك لو استعمله.

فأما من كان عقله لا يحتمل إدراك ما كلفه، وإن استعمله، واجهد نفسه فيه، فإنه لا يكلف البتة. فعلى ذلك النسيان الذي ذكر من آدم؛ جائز أنه لو تكلف لحفظه ^(٥) وذكره. فإنما عَوِيتَ ^(٦) لذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُخَذِّ لَمْ عَزَمًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أي منعا من الشيطان. وقال بعضهم: صبرا ونحوه. والعزم حقيقة القصد والقطع على الشيء، وهو ضد النسيان الذي ذكر. وقال بعضهم: العزم هو المحافظة على أمر الله والتمسك به.

الآية ١١٦

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي قال:

لولا صرَفُ ^(٧) أهل التأويل سجود ^(٨) الملائكة لآدم إلى حقيقة السجود، وإلا جائز أن يُصَرَّفَ الأمر بالسجود والخضوع له. والسجود هو الخضوع حين ^(٩) ﴿قَالَ يَكَادُمُ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] وقد يؤمر الإنسان بالخضوع لِمَنْ يتعلم منه العلم.

الآية ١١٧

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ليس شقاء الدين، ولكن تعب النفس والنصب في العمل.

الآيتان ١١٨ و ١١٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْبِرُ﴾ أي لا تُصيبك [الشمس] ^(١٠).

الآية ١٢٠

وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ مُّذْمُومَةٍ وَإِنَّكَ لَا تَبْقَىٰ﴾ أي لا يبقى.

الآية ١٢١

[وقوله تعالى] ^(١١): ﴿فَأَكَلَا مِنَّا فَدَنَّا سَوَاءَهُمَا وَطَفَعَا فِي جَهَنَّمَ نَارَهُمَا﴾ فدكرنا هذا في ما تقدّم.

قال أبو عوسجة: قوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ [طه: ١١١] أي ذلك؛ يقال: عنا يغتو غتوا. وقال: ﴿وَلَا مَصْرَا﴾ [طه: ١١٢] أي ظلما؛ مَصْنَعُهُ، ومَصْنَعُهُ مثله.

وقال أبو عبيدة: الهضم الثقصان، وقال: ﴿فَأَمَّا مَصْفَا﴾ [طه: ١٠٦] القاع الأرض التي يغلوها الماء، وهو قريب مما ذكرنا والله، أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ كلُّ مَنْ عَصَى رَبَّهُ فقد غَوَى. الغييان والغواية واحد.

(١) في الأصل وم: أن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجائز المعاتبة. (٤) في الأصل وم: ونسيان آخر. (٥) في الأصل وم: حفظه. (٦) في م: عوتب. (٧) في الأصل وم: قول. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٢٢

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجَبْتُهُ رُبُّهُ قَابَ عَلَيْهِ وَهَذَى﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا: أَخَذَهَا: اجْتَبَاهُ للتوبة وهداهُ لها. [والثاني:] ^(١) اجْتَبَاهُ رَبُّهُ للرسالة، وهداهُ لها. [والثالث:] ^(٢) اجْتَبَاهُ رَبُّهُ للدين، وهداهُ للتوحيد. وهذا جائزٌ عندنا [لأنَّ] ^(٣) للتوحيد والإيمان حُكْمَ التَّجَدُّدِ والحدوثِ في كلِّ وَقْتٍ وكلِّ سَاعَةٍ لآنه مأمورٌ بِتَرْكِ الْكُفْرِ وَتَقْبِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ. فإذا كَانَ مأمورًا بِتَرْكِ الْكُفْرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُنْهِيًا عَنْهُ كَانَ مأمورًا بِالْإِيمَانِ والتَّوْحِيدِ. فإذا كَانَ مَا ذَكَّرْنَا دَلَّ أَنَّ لِلْإِيمَانِ والتَّوْحِيدِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والحدوثِ، وفي كُلِّ وَقْتٍ. وإلاَّ ظاهرُ قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَجَبْتُهُ رَبُّهُ﴾ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ اجْتَبَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَاجْتَبَاهُ مِنْ بَعْدُ. لَكِنَّ الْوَجْهَ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ اجْتِبَائِهِ إِيَّاهُ للرسالةِ واجْتِبَائِهِ للتَّوْحِيدِ والطاعاتِ والخيراتِ ونَحْوِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَإِنَّا مِنْهَا جِمَاطٌ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وَقَالَ [فِي آيٍ أُخْرَى] ^(٤): ﴿أَفَإِنَّا﴾ [البقرة: ٣٦ و ٣٨ والأعراف: ٢٤] عَنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ. وَالْهَيْبُوطُ لَيْسَ هُوَ الْإِنْجِدَارُ وَالتَّسْفُلُ / ٣٣٥ - ب/ مِنَ الْمَكَانِ الْعَالِيِ الْمَرْتَفِعِ. إِنَّمَا هُوَ التَّرْوَلُ فِي الْمَكَانِ.

فجائزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَإِنَّا مِنْهَا جِمَاطٌ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أَرَادَ ذُرِّيَّتَهُمَا: ذُرِّيَّةَ آدَمَ وَذُرِّيَّةَ إِبْلِيسَ. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ يَغْنِي الدُّرُيَّةَ ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى﴾ فِي النَّارِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ الضَّنْكَ هُوَ الشَّدَّةُ وَالضِّيقُ. ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَتْ وَاسِعَةً عَلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ، وَلَا يَزُونَ لِنَفَقَتِهِمْ خُلْفًا وَلَا عَاقِبَةً، وَيَزُونَ ^(٥) الدُّنْيَا تَدُومُ. فَذَلِكَ يَمْنَعُهُمْ عَنِ التَّوَسُّعِ فِي الْإِنْفَاقِ خَوْفًا [مِنْ نَفَادِ] ^(٦) ذَلِكَ الْمَالِ وَيَقَاؤِ أَنْفُسِهِمْ لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ لَا يَزُونَ لِنَفَقَتِهِمْ خُلْفًا وَلَا عِوَضًا وَلَا عَاقِبَةً لَهَا، فَذَلِكَ الضَّنْكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ لِأَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ ^(٧) بِمَا أُعْطُوا مِنَ الْمَالِ، وَأُنْعِمُوا فِيهِ، لِأَنَّ تَوَسُّعَهُمْ يَكُونُ فِي مَغْصِبَةٍ، فَتَقَى عَنْهُمْ الْإِنْفَاقُ بِوَمَا نَقَى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَاللِّسَانَ بِاسْتِعْمَالِهِمْ هَذِهِ الْجَوَارِحَ فِي الْمَغْصِبَةِ عَلَى قِيَامِهَا لَمَّا ذَهَبَتْ مَنَافِعُهَا فِيهَا ^(٨).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ. لَكِنْ لَا يُقَالُ لِمَنْ فِي الْقَبْرِ: إِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا حَتَّى يُوصَفَ بِالضِّيقِ. وَعَذَابُ الْقَبْرِ سَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ السَّمْعُ. فَإِنْ ثَبَتَ السَّمْعُ. وَإِلَّا فَالتَّرْكَ أَوَّلَى.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ ﴿مَكَانًا سَيِّئًا مُقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَحْشُرُهُ أَعْمَى عَنْ حُجَّجِهِ فِي دِينِهِ. لَكِنْ مَتَى كَانَتْ لَهُ الْحُجَّجُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَغْمَى عَنْهَا فِي الْآخِرَةِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ عَمَى الْحَقِيقَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] فَهُوَ عَلَى حَقِيقَةِ عَمَى الْبَصَرِ، وَهُوَ أَشْبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٥

قَالَ مُجَاهِدٌ: قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ قَالَ: بَلَا حُجَّةَ لِي ﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ فِي الدُّنْيَا. لَكِنَّ الْأَشْبَهَ، هُوَ مَا ذَكَّرْنَا مِنْ حَقِيقَةِ ذَهَابِ الْبَصَرِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِلْكَافِرِينَ حُجَّةٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَقُولَ ﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ بَعْدَ مَا حُوسِبُوا، وَسَيَقُوا إِلَى النَّارِ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَغْمَى عَلَيْهِ الْبَصَرُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيُحْشَرُونَ عُمْيَانًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٢٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ آيَاتُكَ تُنْسَى﴾ أَي كَمَا أَتَتْكَ آيَاتُنَا، فَصَبَرْتَهَا كَالشَّيْءِ الْمُنْسِيِّ عَنْ رَحْمَتِهِ [لَمْ تَكْتَرِثْ إِلَيْهَا، وَلَمْ تَنْظُرْ فِيهَا، وَلَمْ تَرْغَبْ فِيهَا، كَذَلِكَ تُصِيرُ فِي النَّارِ كَالشَّيْءِ الْمُنْسِيِّ عَنْ رَحْمَتِهِ] ^(٩) لَا يَكْتَرِثُ إِلَيْكَ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ. أَوْ يَقُولُ: كَمَا ضَيَّعْتَ آيَاتِنَا الَّتِي أَتَتْكَ لِإِنجَاتِكَ كَذَلِكَ تُضَيِّعُ أَنْتَ، وَتُتْرَكُ فِي النَّارِ، لَا نَجَاةَ لَكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرِيدُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّفَادَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَغْصُونَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي الطَّاعَةِ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

الآية ١٢٧

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي كذلك نجزي كل من أسرف في الدنيا، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ليس أحد المخصوص بذلك دون غيره، ولكن كل من كان^(١) ضيعه في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَثَرُهُ﴾ كأنه قد سبق منه الوعيد لهم في عذاب. ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَثَرُهُ﴾ من العذاب الذي أوعدتم. وإلا فعلى الابتداء لا يقال هذا.

الآية ١٢٨

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ جميع ما ذكر في القرآن مثل هذا: [قوله]^(٢) ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦ و...]^(٣) [وقوله]^(٤) ﴿أَلَمْ يَسِّرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩ و...]^(٥) [وقوله]^(٦) ﴿أَلَمْ يَرْزُقُوا﴾ [الأنعام: ٦ و...]^(٧) وأمثاله. كله أنه قد بين لهم [ما]^(٨) وراء ذلك، أي قد بين لهؤلاء أنهم قد وافقوا أولئك الذين أهلكهم من القرون الماضية وما نزل بهم بتكذيبهم الرسل والآيات التي أتوا بها، وهم آمنون ﴿يَمُشُّونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾.

فكيف آمن هؤلاء من عذاب الله موافقتهم أولئك في جميع صنيعهم؟ أو يقول: أَلَمْ تَبَيِّنْ لَهُمْ سُتِّي في مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ من القرون الماضية بتكذيبهم الرسل وردهم الآيات، وهم كانوا آمنين في مساكنهم؟ فكيف آمن هؤلاء من عذابهم، وقد ساووا أولئك في جميع صنيعهم وفعلهم. وهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ قال بعضهم: أولو^(٩) النهى هم الذين انتهوا عما نهاهم الله عنه، وهم ذوو العقول. وقد ذكرنا هذا في غير موضع.

قال أبو عوسجة: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَرُهَا فِيهَا وَلَا تَضْحَكُ﴾ [طه: ١١٩] أي لا تظهر للشمس، والظما العطش، والضحى الحر، [وكذلك]^(١٠) قال أبو عبيدة.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَطَافُوا بِحِصْيَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١] ﴿وَطَافُوا﴾ وعلقا واحداً؛ يقال: علق يعلق علقة فهو عالق وطافق. وقال: يقال: من الخصف خصف الخف إذا انغلته، ونعلت الخف، وتسمى تلك [القطعة التي يخصف بها]^(١١) النعيلة، والتعايل جمع. وقال ﴿مَعِيشَةً سَنَكًا﴾ [طه: ١٢٤] أي ضيقة. قال أبو عبيدة: وكل ضيق منزل أو غيره فهو سنك.

الآية ١٢٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كِتْمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا رَجُلٌ مَسْمُومٌ﴾ هو على التقديم والتأخير، أي ﴿وَلَوْلَا كِتْمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وأجل مسمى لكأن العذاب لازماً لهم. يقول، والله أعلم: يلزم كل إنسان بما عجل، والأجل^(١٢) المسمى الساعة التي قال: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦].

وجائز أن يكون قوله على غير التقديم والتأخير، لكنه على الإضمار، أي ﴿وَلَوْلَا كِتْمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا رَجُلٌ مَسْمُومٌ﴾ ولكن سيلزيمهم إلى أجل مسمى، وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَرُ عَنْ أَجْلِ كِتْمَتِهِ﴾ [النحل: ٦١].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كِتْمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بما يكون بحق الإفضال أو توجيه الحكمة لكأن العذاب لازماً لهم. وحق الإفضال ما سبق منه الوعيد أنه يؤخره^(١٣). ولا يقال في من^(١٤) كان طريقه الإفضال: لم تقصصت؟ وأصل هذا: ﴿وَلَوْلَا كِتْمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا رَجُلٌ مَسْمُومٌ﴾ لولا ما سبق من وعده أنه لا يعذب هذه الأمة^(١٥) تعذيب إهلاك وقت تكذيبهم الرسل وردهم الآيات، ولكن يؤخره^(١٦) إلى أجل مسمى، وهو ما ذكرنا، وهو قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦].

الآية ١٣٠

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يصبر رسول الله على أذاهم بلسانهم من السب والنسبة إلى السحر

(١) من م، في الأصل: هذا. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لأولى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ما. (١٢) من م: ساقطة من الأصل. (١٣) الهاء ساقطة من الأصل وم.

والجُنُونِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَنَحْوِهِ، وَإِنْ كَانَ وَعْدُهُ^(١) أَنَّهُ يَغْصِمُهُ مِنْهُمْ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا عَلَى إِتْلَافِهِ وَإِهْلَاكِهِ، لَأَنْ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ مِنَ الْإِتْلَافِ وَالْإِهْلَاكِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ رِسَالَتِهِ، إِذْ بَعَثَهُ إِلَى الْفِرَاعَةِ وَالْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ كَانَتْ هِمَّتُهُمْ وَعَادَتُهُمْ قَتْلُ مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِي شَيْءٍ وَإِهْلَاكَ مَنْ يَسْتَقْبِلُهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ. فَذَلِكَ عَجَزُهُمْ عَنْ إِتْلَافِهِ وَإِهْلَاكِهِ وَحِفْظِ نَفْسِهِ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ لِآيَةٍ فِي نَفْسِهِ.

وَأَمَّا إِذَا هُمْ إِيَّاهُ بِاللِّسَانِ فَلَيْسَ^(٢) فِي حِفْظِهِ عَنْهُ آيَةٌ، لَأَنَّ ذَلِكَ مَا^(٣) كَانَ آيَةً. فَهَمْ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُؤْتِرُ نَفْصًا فِي نَفْسِهِ أَوْ شَيْئًا. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَالُوا فِي اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْوَلَدِ وَغَيْرِهِ؟ فَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ عَنْ إِذَا هُمْ بِلِسَانِهِمْ آيَةً. إِنَّمَا الْآيَةُ فِي مَا ذَكَرْنَا مِنْ حِفْظِ نَفْسِهِ مِنَ الْإِتْلَافِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿رَسِيخَ يَمْحَدِ رَبِّكَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: صَلَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ. وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِمْ هَذَا: صَلَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لِأَنَّهُ أَمْرُهُ أَنْ يُصَلِّيَ لَهُ^(٤) بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْرِ الْمَسْكُوَّةَ﴾ [هود: ١١٤ و.]. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و.]. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿رَسِيخَ يَمْحَدِ رَبِّكَ﴾ أَيَّ صَلَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي أَمَرَكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْرِ الْمَسْكُوَّةَ﴾ وَلَوْلَا صَرَفُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ / ٣٣٦ - / التَّسْبِيحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَالْأَجْوَزُ أَنْ يُصَرَّفَ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَذْكَارِ فِي كُلِّ وَقْتٍ. لَكِنْ صَرَفُوهُ إِلَى الصَّلَاةِ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَسَائِرِ الْأَذْكَارِ لَا تَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى مَعْنَى الذِّكْرِ قَوْلًا. فَهِيَ أَجْمَعُ وَاشْمَلُ لِذِكْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم قوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صَلَاةُ الْعَصْرِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [صلوة]^(٥) الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ مَآثِي أَلِيلٍ﴾ قَبْلَ: صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، فَهُوَ عَلَى التَّكَرُّرِ وَالْإِعَادَةِ تَأْكِيدًا كَقَوْلِهِ ﴿حَفِظُوا عَلَى الْمَسْكُوتِ وَالْمَسْكُوتِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] [ذَكَرَ الصَّلَوَاتِ كُلَّهَا]^(٦) ثُمَّ خَصَّ الصَّلَاةَ [الْوُسْطَى] بِالذِّكْرِ لِتَأْكِيدِ الْمَعْنَى^(٧) وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تَكَرُّرًا مِنْهُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ [لِتَأْكِيدِ الْمَعْنَى]^(٨) وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ لَيْسَ^(٩) عَلَى إِرَادَةِ وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَلَكِنْ يُرِيدُ بِهِ الْأَوْقَاتُ كُلَّهَا. وَعَلَى ذَلِكَ يُخْرَجُ قَوْلُ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْحَنُ﴾ بِالتَّضْبِ وَالرَّفْعِ جَمِيعًا^(١٠) أَي يَرْضِيكَ رَبُّكَ بِمَا عَمِلْتَ، أَوْ يَرْضَى بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أَي لَا تَرْغَبَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا تَرْكُنَنَّ إِلَى مَا مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْوَانِيهَا وَبُهِرَئِهَا. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٥].

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ عَلَى حَقِيقَةِ مَدِّ الْبَصَرِ، أَي لَا تَمُدَّنَّ بَصْرَكَ إِلَى أَغْيُنِ الدُّنْيَا وَإِلَى ظَاهِرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغُرُورِ وَالتَّزْيِينِ. وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الدُّنْيَا إِلَى مَا جُعِلَتْ الدُّنْيَا وَإِلَى مَا فِيهَا مِنْ سُمُومِهَا وَتَغْيِصِهَا عَلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا لِمَا فِيهَا مِنْ سُمُومِهَا وَتَغْيِصِهَا زَهَدًا^(١١) فِيهَا، وَرَغِبَ عَنْهَا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى عَيْنِهَا وَظَاهِرِ مَا هِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْغُرُورِ وَالتَّزْيِينِ لَا غَتَرَ بِهَا، وَرَغِبَ فِيهَا، وَرَكَّنَ إِلَيْهَا. وَمَنْ نَظَرَ إِلَى حَقِيقَةِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَجُعِلَتْ، عَلَى مَا ذَكَرْنَا زَهَدًا^(١٢) فِيهَا، وَرَغِبَ عَنْهَا.

ثُمَّ مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَمُدُّ بَصَرَهُ إِلَى الدُّنْيَا، أَوْ يَرْكُنُ إِلَيْهَا، وَيَرْغَبُ فِيهَا لَهَا. وَلَكِنْ^(١٣) إِنَّمَا هُوَ ابْتِدَاءُ نَهْيِ رَسُولِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّهُ لَوْ رَغِبَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ لِيَتَمَتَّعَ هُوَ بِهِ. إِنَّمَا يَرْغَبُ، وَيَتَنَاولُهُ لِيُوسَّعَ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) الغاء ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لو. (٤) من م، في الأصل: لله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: لمعنى، في م: بالذكر لمعنى. (٨) في الأصل وم: لمعنى. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: انه. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ١٢٠. (١١) من م، في الأصل: لذهب. (١٢) في الأصل وم: لزهد. (١٣) في الأصل وم: و.

والْفَقْرُ، ثم نَهَا عَنْ ذَلِكَ. فَدَلَّ أَنَّ الزُّهْدَ فِيهَا وَالرَّغْبَةَ عَنْهَا خَيْرٌ مِنَ الْإِخْذِ مِنْهَا وَالْوَضْعَ فِي [الْمُسْتَحْقِّينَ] ^(١) نَهَا عَنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَتَأَوَّلُهُ ^(٢) لِيَتَمَتَّعَ بِهِ، لِيُوسَّعَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَكِنْ [يَأْخُذُهُ لِيَضَعَهُ فِي الْمُسْتَحْقِّينَ لَهُ] ^(٣).

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ. قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِهِ: ﴿أَزْوَاجًا﴾ يَقُولُ: تَأْوِيلُهُ: لَا تَمُدُّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فَعَلَى تَأْوِيلِهِ: أَزْوَاجًا زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أَيِ الْوَنَاءِ وَأَصْنَافًا مِنَ النَّبَاتِ. فَذَلِكَ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَى غَيْرِ تَقْدِيمٍ، وَلَكِنْ عَلَى سِيَاقٍ مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ. فَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَأْوِيلُ الْأَزْوَاجِ أَيِ رِجَالًا مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَقْتَنِبَهُمْ فِيهِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَيِ لِيَنْبَتْلِيَهُمْ، وَنَحْتَبِرُهُمْ. وَكَأَنَّ الْفِتْنَةَ، هِيَ الْبَحْثَةُ الَّتِي فِيهَا شِدَّةٌ وَبَلَاءٌ. كَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا مَتَّعَهُمْ بِمَا مَتَّعَ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَمْتَحِنَهُمْ فِيهَا بِالشَّدَائِدِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٥٥].

وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وَقَالَ: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] فِي ^(٤) هَذِهِ الْآيَاتِ دَلَالَةٌ أَنَّ السَّعَةَ وَالضَّقَاقَ فِيهَا لَيْسَ لِفَضْلِ أَهْلِهِ وَلَا هَوَائِهِمْ. وَلَكِنْ إِنَّمَا هُوَ بَحْثَةٌ يَمْتَحِنُهُمْ، فَيَمْتَحِنُ [بَعْضُهُمْ] ^(٥) بِالسَّعَةِ وَالْغِنَى، وَبَعْضُهُمْ بِالشَّدَةِ وَالضَّقِيقِ. فَالْتَّكَلُّمُ بِأَنَّ هَذَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا [وهذا أَفْضَلُ مِنْ هَذَا] ^(٦) لَا مَعْنَى لَهُ مَعَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْبَيَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمُدُّنَّ عَيْنَيْكُمْ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ أَنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا وَتَرْكَ التَّأْوِيلِ مِنْهَا حَلَالٌ ^(٧) خَيْرٌ مِنَ التَّأْوِيلِ مِنْهَا [حَلَالًا وَوَضْعِهِ فِي مَوْضِعِهِ] ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَيِ مَا رَزَقَكَ رَبُّكَ مِنَ الثَّبَوَةِ وَالرَّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ لَهُ وَالْإِيمَانِ بِهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِمَّا مَتَّعَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْوَنَاءِ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَصْنَافِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَيِ حَظُّكَ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ فِي الْخَيْرِ فِي الْبَقَاءِ مِمَّا مَتَّعَ بِهِ هَؤُلَاءِ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا. وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ، فَاسْتَلَفَتْ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا ^(٩)، فَأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ إِلَّا أَنْ يَزَهْنَ دِرْعُهُ عَنْهُ، فَتَزَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمُدُّنَّ عَيْنَيْكُمْ﴾ الْآيَةُ تَعْرِيفٌ لَهُ عَنِ الدُّنْيَا. لَكِنْ لَسْنَا نَعْرِفُ [سَبَبَ] ^(١٠) نَزُولِ الْآيَةِ عَلَى مَا ذَكَرَ إِلَّا أَنْ يُثَبِّتَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ بِأَهْلِهِ قَوْمَهُ. وَقَدْ يُسَمَّى قَوْمُ الرُّسُلِ أَهْلَهُمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَهْلِ الَّذِينَ تَأَهَّلَهُمْ، وَكَانُوا فِي عِيَالِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْطِطِرْ عَلَيْهِمَا﴾ أَيِ دَاوِمٍ عَلَيْهِمَا، وَالزَّمَنُهَا. فَيُؤَنِّدُ أَنَّ الصَّلَاةَ قُرِصَتْ عَلَى الدَّوَامِ عَلَيْهَا وَاللُّزُومِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْأَلْ رِزْقًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا [تَسْأَلِ لِلخَلْقِ] ^(١١) رِزْقًا، بَلْ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أَيِ لِأَهْلِ التَّقْوَى كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [الأعراف: ١٢٨]

الآية ١٣٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ سَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَآيَةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ عَلَى رِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أَيِ قَدْ أَتَاهُمْ بَيِّنَةٌ عَلَى رِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ لِأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ بِغَيْرِ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ بِلِسَانِهِ فَضْلًا [عَنْ أَنَّهُ لَمْ] ^(١٢) يَعْرِفْ غَيْرَهَا مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى غَيْرِ لِسَانِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَقُّ حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَتَأَوَّلَهَا لَهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَأْخُذُهَا لِيَضَعُ فِي الْمَحْقِقِينَ لَهُمْ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ نَهَى. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْغَنَاءُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَلَالٌ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَلَالٌ وَوَضَعُهَا مَوْضِعَهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: طَعَامٌ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَسَأَلُ الْخَلْقَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ أَنْ.

ثم أَخْبَرَ عَنِ الْأَنْبَاءِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْكُتُبِ الْمُنْتَقَدِمَةِ عَلَى مَا كَانَتْ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَتْ تِلْكَ الْأَنْبَاءَ وَالْقِصَصَ الَّتِي كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى. فَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي السُّحُفِ الْأُولَى﴾ أَي قَدْ آتَاهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

الآية ١٣٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أَي مِّن قَبْلِ رَسُولِهِ ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ مِّن النَّاسِ مَن يَقُولُ: لَيْسَ لِلَّهِ أَن يُعَذِّبَهُمْ تَعَذِّيبَ إِهْلَاكِ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ رَسُولًا، وَيَخْتَجُّ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

وعندنا لَهُ أَن يُهْلِكَهُمْ بِعَذَابٍ قَبْلَ الرُّسُولِ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَقَامَ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ الْعَقْلِ مَا لَوْ تَأَمَّلُوا، وَنَظَرُوا فِيهِ، لَعَرَفُوا، وَادَّعَرُوا حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ^(١) إِهْلَاكُهُ إِيَّاهُمْ إِهْلَاكًا عَنِ بَيِّنَةٍ وَحُجَّةٍ. لَكِنَّهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ لَا يُهْلِكُهُمْ بِأَوَّلِ آيَةٍ يُرْسِلُهَا^(٢) عَلَيْهِمْ حَتَّى يُرْسِلَ الْآيَاتِ إِنْضَالًا مِنْهُ وَمِثَّةً. وَإِلَّا كَانَ لَهُ إِهْلَاكُهُمْ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَكُونُ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ [لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا] ^(٣) إِنَّمَا ذَلِكَ لِقَطْعِ ذَلِكَ الْقَوْلِ مِنْهُمْ لَا أَنَّ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ الْقَوْلُ وَالِإِخْتِجَاجُ بِذَلِكَ، وَلَئِنْ قَوْلُهُ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ [لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا] ^(٤) يُخْرِجُ مُخْرَجَ الْإِمْتِنَانِ أَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ قَبْلَ بَعَثِ الرُّسُلِ. فَذَلَّ أَنَّ لَهُ إِهْلَاكُهُمْ قَبْلَ بَعَثِ الرُّسُولِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِقَامَةِ حُجَّةِ الْعَقْلِ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٣٥

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ هَلَاكَ رَسُولِ اللَّهِ وَانْقِلَابَ / ٣٣٦ - ب / أَمْرِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَتَرَبَّصُ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ وَمَوَاعِيدُهُ فِيهِمْ.

قَالَ الْحَسَنُ: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ أَي تَرَبَّصُوا مَوَاعِيدَ الشَّيْطَانِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ مَوَاعِيدَ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [أَي^(٥) فَسَتَعْلَمُونَ فِي الْآخِرَةِ عِلْمَ عِيَانٍ] ﴿مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾^(٦) نَحْنُ أَوْ أَنْتُمْ.

وَفِي الدُّنْيَا لَوْ تَأَمَّلُوا، وَنَظَرُوا، لَعَلِمُوا عِلْمَ اسْتِدْلَالٍ وَإِدْرَاكِ ﴿مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ وَالصِّرَاطُ السَّوِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَدْلُ، وَقِيلَ^(٧): السَّوِيُّ الْقِيَمُ.

وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي: ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ وَمَنْ عَلَى الْهُدَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَكَانَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْسِلُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذَا. (٥) فِي م: قَوْلُهُ. (٦) مَن م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ.

سورة الأنبياء

كلها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قال الحسن: أي مُحَاسَبَتُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ﴾ ظاهره هذا أنه نَزَلَ في المُشْرِكِينَ لأنها نَزَلَتْ بمكة، وكان أكثر أهلها أهل شرك. لكن لأهل الإسلام في ذلك [حظٌ وشركٌ في ما وَصَفَهُم بِالْغَفْلَةِ عَنْ ذَلِكَ] ^(١) والإعراض عنه.

وأهل الإسلام قد يَغْفُلُونَ عن الحساب، إلا أن غَفْلَةَ أهل الكُفْرِ غَفْلَةٌ تكذيب، وإعراضهم إعراضٌ تكذيبٍ بالحساب والآيات التي أنزلها عليهم. وغَفْلَةُ أهل الإسلام ليست كذا؛ قد آمنوا بالحساب، وصدقوا بآياته، وعرفوها، لكنهم غفلوا عن الحساب لشهواتٍ مُكَنَّتْ فيهم، وَغَلَبَتْ شهواتهم، وأغفلتهم عنه [فهم من] ^(٢) هذه الجهة كأولئك. فاما من جهة الإيمان به والتصديق بالآيات فليسوا كأولئك.

ثم وصف الحساب والساعة بالقرْب والدُّنُو والإتيان كقوله: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَلَا أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقوله ^(٣): ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وأمثاله. هي قريبة كالمَأْتِيَةِ عند الله تعالى عَرَفَتْ جملة الأوقات، فهي في جملة ما عَرَفَتْ قريبة كالمَأْتِيَةِ.

وأما الخَلْق [فإنهم قد استبعدوها لأنهم] ^(٤) إنما يُقَدَّرُونَ ذلك بأجالهم وأعمارهم، وما جاوز أعمارهم فهو عندهم بعيد ليس بقریب. وهذا إنما يكون بعد ذهاب أعمارهم.

وقال قتادة: ذُكِرَ أنه لما نَزَلَتْ هذه الآية ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ والآية ^(٥): ﴿أَلَا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] قال ناسٌ من أهل الضلال: يزعم هذا الرجل أن الساعة قد أَقْرَبَتْ، فتنهوا قليلاً، ثم عادوا إلى أعمالهم ^(٦). وكذلك قالوا في قوله: ﴿أَلَا أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] تنهوا عنها. ثم لما تأخر ذلك عنهم عادوا إلى ما كانوا من قَبْلُ. هذا لأنهم فهموا من قُرْب الساعة وإتيان أمره وقتاً يُقْرَبُ، ومدةٌ تَدُنُو. فلما مضى ذلك وَقَعَ عندهم أن الخبرَ كَذِبٌ، فكذبوه لأنهم إنما قَدَّرُوهُ بأجالهم وما عَرَفُوا مُمَّ مِنَ الْقُرْبِ والدُّنُو.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ﴾ ما ذُكِّرْنَا مِنْ غَفْلَةٍ تكذيب وإعراضٍ تكذيبٍ بعد ما عَرَفُوا أنها آيات الله، والله أعلم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّبٍ﴾ قال بعضهم: ﴿مُخَدَّبٍ﴾ مُحَكَّمٌ أَخْكَمَةٌ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُ الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَوْ ^(٧) مِنْ خَلْفِهِ، وَأَخْكَمَةٌ لَمَّا أَغْجَرَ الخَلْقَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وقال بعضهم: ﴿مُخَدَّبٍ﴾ لأن الله أنزل هذا القرآن بالتفاريق، وأخذت إنزاله في كل وقتٍ على قَدْرِ الحاجة.

فعلَى ما نَزَلَ بالتفاريق أخذوا هم؛ أغنى الكُفْرَةَ تكذيبه وردَّه على ما ذُكِرَ ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ رِجْسَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ونحوه. فهو مُخَدَّبٌ مِنَ الوجوه التي ذُكِّرْنَا، لأن كلَّ موصوفٍ بالإتيان فهو مُخَدَّبٌ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: أعمارهم. (٧) في الأصل وم: ولا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ دل قوله: ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ أن استماعهم إياه استماعٌ استهزاء به.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمِيزُ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْثَّغِيرَ﴾ هذا الذي أسروا في ما بينهم ﴿هَذَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ﴾ هذا كان نجواهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمِيزُ قُلُوبُهُمْ﴾ قيل: غافلة قلوبهم عن الذكر ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الذي أسروه هو ما ذكرنا قولهم: ﴿هَذَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْثَّغِيرَ﴾ السحر.

وفي حرف ابن مسعود وأبي: وأسروا النجوى الذين كفروا منهم. وقال الكسائي: وفي بغض الحروف ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: وفي حرفنا ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى﴾ ثم أخبر عنهم خبراً مستأنفاً، فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ [المائدة: ٧١] ثم قال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وهذا على كلامين، والله أعلم.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يشبه أن يكون قوله: ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ القول الذي أسروا في ما بينهم ﴿هَذَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وقوله ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَالْثَّغِيرَ﴾ وقوله ﴿أَضَعْتُ أَحْلِيمَ بَلِّ أَفْتَرْتَهُ بَلِّ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الآية: ٥] وأمثال ما قالوا فيه، ونسبوه إليه، أي قل لهم: ربي يعلم ذلك القول منكم في السماء والأرض لئن تنهوا عن ذلك، لأن من يعلم في الشاهد أن أحداً يطلع على جميع ما يختاره من القول والفعل ترك ذلك، وامتنع عن الثبوت به والإقدام على ما يختاره، أو أن يكون قال ذلك على الابتداء والالتفاف أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لقلوبهم، العليم بأفعالهم.

الآية ٥

ثم أخبر عن سفيهم وقلة نظريهم في قولهم وكلامهم وحفظهم عن التناقض، فقال: ﴿بَلِّ قَالُوا أَضَعْتُ أَحْلِيمَ بَلِّ أَفْتَرْتَهُ بَلِّ هُوَ شَاعِرٌ﴾ في ما نسبوه إلى الشعر والسحر والإفراء وأنه أضغاث أحلام: تناقض في قولهم، لأن السحر هو غير الإفراء، والسحر غير أضغاث الأحلام، كل حرف من هذه الحروف التي نسبوها^(١) إليه يناقض الآخر، ويبطله. فدل أنهم إنما قالوا ذلك، ونسبوه إلى ما نسبوا متعنتين مكابرين لا عن معرفة وعلم قالوا ذلك. وتناقض^(٢) قولهم وكلامهم؛ إذ السحر لا يدوم، ولا يبقى في وقت آخر.

فإذا عرفوا، وعلموا أنه دائم، وبقي إلى آخر الدهر، وكذلك ما قالوا من أضغاث الأحلام والإفراء، أعني ما أنى رسول الله ﷺ [دام، وبقي، وأنه]^(٣) لو كان ما اتهم به سحراً كان ذلك آية وعلامة على صدقه ونبوته، لأن السحر لا يعرفه أحد إلا بالتعليم. فإذا رآوه نشأ بين أظهرهم، ولم يكن في قلوبهم سحر حتى يتعلم منه/ ٣٣٧ - ١/ ولا^(٤) اختلف إلى أحد من السحرة يتعلم منه السحر، ثم أتى به، كان^(٥) ذلك يدل على أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى.

فكيف وقد اتهم بالحجج الثيرة الواضحة والآيات المعجزة الخارجة عن وسع البشر وطوقهم؟ لكنهم كابروا، وعاندوا في ردها وتكذيبها، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْنِ يَأْتِرَ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ قد علموا علم حقيقة أنه قد اتهم بآيات وحجج ما لو تأملوا فيها، ولم يكابروا، لدلهم على صدقهم ورسالتهم، وقد عرفوا أنه صادق. لكنهم سألوا في قولهم: ﴿فَلْيَأْنِ يَأْتِرَ﴾ الآية التي تنزل عند المكابرة والعناد، وهي الآية التي نزلت في الأمم الخالية عند مكابرتهم الآيات والحجج، وهي إهلاكهم واستئصالهم؛ إذ من سئبه وحكمه في الأولين الإهلاك والاستئصال عند مكابرتهم الآيات والحجج. وسئبه وحكمه في هذه الأمة ختم النبوة بهم وإبقاء شريعة محمد، صلوات الله عليه، إلى الساعة.

وسئبه في الأمم الماضية نسخ شرائعهم واستبدال أحكامهم.

(١) في الأصل وم: نسبوه. (٢) في الأصل وم: إذ تناقض. (٣) في الأصل وم: بهم وبعد فانه. (٤) من م، في الأصل: ولما. (٥) في الأصل وم: لكان.

فَإِذَا كَانَ مَا ذَكَّرْنَا بِجَعَلٍ وَقَتٍ إِهْلَاكِهِمُ السَّاعَةِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذُنُوبَكُمْ رَاجِعٌ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ سَأَلُوا الْآيَةَ سُؤَالَ مُكَابَرَةٍ

وَعِنَادٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ أَتَاهُمْ بَآيَةٌ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ كَمَا لَمْ يُؤْمِنِ أُولَئِكَ الْمُتَقَدِّمُونَ، لَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالَ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ لَا سُؤَالَ اسْتِشْشَادٍ وَاسْتِثْبَاءٍ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ كَانَ هَذَا خَرَجَ جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿هَلْ مَنَدًا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّيْحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ كَذَا، وَجَوَابَ قَوْلِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وَجَوَابَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أَي بَشَرًا نُوحِي إِلَيْهِمْ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ؛ أَيِ الرِّسَالَةِ فِي الْأُمَمِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ كَانَتْ فِي الْبَشَرِ. لَمْ تَكُنْ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَّا كَانَتْ الرِّسَالَةُ إِلَى الْخَوَاصِّ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَهُمْ الرُّسُلُ. فَعَلَى ذَلِكَ لَا تُجْعَلُ الرِّسَالَةُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ تُجْعَلُ فِي الْبَشَرِ عَلَى مَا جَعَلَ فِي الْأُمَمِ الْأُولَى فِي الْبَشَرِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أَي [جَعَلْنَا الرِّسَالَةَ] ^(١) فِي الذَّكَوَرِ مِنْهُمْ، لَمْ يَجْعَلْهَا فِي النِّسَاءِ وَالْإِنَاثِ لِمَا لَمْ يَسْتَكْمِلْنَ شَرَائِطَ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ. فَكَانَ الْأَوَّلُ فِي بَيَانِ الْجِنْسِ؛ أَي لَمْ يَجْعَلِ الرِّسَالَةَ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ جَعَلَهَا فِي الْبَشَرِ. وَالثَّانِي فِي بَيَانِ اسْتِكْمَالِ شَرَائِطِ الرِّسَالَةِ وَاسْتِخْقَاقِهَا.

وَفِي خَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِيٍّ: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَهُ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ. فَعَلَى خَرْفِهِمَا كَانَهُ خَاطَبٌ بِهِ أُولَئِكَ الْكَافِرَةَ، أَيِ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَ مُحَمَّدٍ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ. وَفِي الْقِرَاءَةِ الظَّاهِرَةِ الْمَشْهُورَةِ يَكُونُ الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ، أَيِ قُلْ لَهُمْ: إِنَّهُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحِي ^(٢) إِلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا خَاطَبَ بِهِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِيُخْبِرُوهُمْ أَنَّهُ لَمْ تُجْعَلِ الرِّسَالَةُ فِيهِمْ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ إِلَّا فِي الْبَشَرِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا خَاطَبَ بِهِ مَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَ وَغَيْرَهُ بِمُحَمَّدٍ أَنْ سَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ أَيِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ لِيُخْبِرُوهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ^(٣) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. أَنْتُمْ أَنْتُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً. وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ فِي جَمِيعِ الرُّسُلِ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا جَعَلْنَاهُمْ ^(٤) أَجْسَادًا، لَا أَرْوَاحَ فِيهَا، لَا يَأْكُلُونَ، وَلَا يَشْرَبُونَ. وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُمْ أَجْسَادًا فِيهَا أَرْوَاحٌ، يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَمُتُّونَ فِي الْأَسْوَاقِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ مِنْ نَحْوِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُمْ بَشَرًا. وَحَاصِلُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَطْعَنُونَ الرُّسُلَ بِأَشْيَاءَ؛ مَرَّةً قَالُوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وَمَرَّةً طَعَنُوا الرُّسُلَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَنْكِحُونَ، وَيَمُتُّونَ فِي الْأَسْوَاقِ كَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿مَا لِي هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ فِي الْأَنْسَابِ﴾ [الفرقان: ٧] وَنَحْوَهُ. فَالْزَّمَمُ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَمُتُّونَ، وَيَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ حِينَ ^(٥) قَالَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا الرُّسُولُ الْمَبْعُوثُ إِلَيْكُمْ هُوَ كَسَائِرِ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ؛ هُوَ يَمْنُ يَأْكُلُ، وَيَشْرَبُ، وَيَنْكِحُ، وَهُوَ رَسُولٌ، وَإِنَّهُ بَشَرٌ كَسَائِرِ الرُّسُلِ. وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ. عَلَى هَذَا يُخْرَجُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ: جَعَلْنَا، فِي م: جَعَلَهَا. (٢) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ح ٤/ ١٣٠. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: جَعَلْنَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وهذه الآية ترد على الباطنية قولهم ومذهبهم، لأنهم يقولون: إن الرسالة لا تكون في الجوهر الكثيف الجسداني الذي يأكل، ويشرب، ويقنى، ويبس، إنما يكون في الجوهر البسيط الذي لا يأكل، ولا يشرب، ولا يقنى، ولا يبس. فآخبر الله أنه لم يجعلهم أجساداً^(١)، لا يأكلون الطعام، ولا يبيدون، بل جعلهم أجساداً يأكلون، ويموتون، بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ﴾ آخبر أنه وعد الرسل وعداً لكنه لم يبين ما كان ذلك الوعد الذي وعد رسله. لكن في آخرو بيان أن الوعد الذي وعدهم كان وعد إهلاك وتعذيب لأنه قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَآلَعْنَاهُ السَّرِيفِينَ﴾ دل قوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَآلَعْنَاهُ السَّرِيفِينَ﴾ أن الوعد كان وعد إهلاك. فنقول كان وعد الرسل الذين^(٢) من قبل من إهلاك من كذبهم، فكان كما وعد، وإن تأخر ذلك الموعد عن وقت الوعد. فعلى ذلك ما وعدكم محمد من العذاب فإنه نازل بكم، وإن تأخر نزوله، والله أعلم.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يحتل قوله: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ ما يذكركم ما تاتون، وتتقون، أو يذكركم ما لكم وما عليكم. وقال بعضهم: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ أي شرفكم وتبليغكم لو اتبعتم.

وقال الحسن في قوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه دينكم الذي أمسك عليكم به. وقال غيره: فيه شرفكم وتبليغكم لو اتبعتموه كقوله: ﴿وَأَنَّمْ لِّذِكْرِكَ لَوَقَافَةٌ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شرف لك.

الآية ١١ وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ قصمنا: أهلكنا. وأضل القضم الكسر. يخوف أهل مكة بتكذيبهم محمداً ما نزل بأولئك بتكذيبهم الرسل وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَدَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ قوله ﴿أَحَسُّوا﴾: قال بعضهم: علموا بالعذاب إذا هم منها يركضون أي يفرّون، ويهربون. وقال بعضهم: يكدون، وهو واحد.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي أنعمتم ﴿وَمَسْكِنِكُمْ﴾ مثل هذا يخرج مخرج الإستهزاء بهم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ قال بعضهم: تحاسبون. وقال بعضهم: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ الإيمان كما سئلتموه قبل نزول/ ٣٣٧ - ب/ العذاب. وقيل: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ عن قتل نبيكم لأنهم قتلوا نبيهم؛ تسألون فيم^(٣) تلتتموه؟

وقال بعضهم: كان هذا في نازلة، والله أعلم، تلتتموه الملائكة، وهم هاربون فارّون، فقالوا لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ استهزاء بهم.

وقال بعضهم: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ تفقهون.

وقال أبو عوسجة: ﴿أَسَخَّتْ أَحْلِمَ﴾ [الأنبياء: ٥] قال: الضغت ما لا تأويل له. ويقال: حلّم واحلام. ويقال: حلّم يحلّم حلماً فهو حالّم إذا رأى [حلماً أي]^(٤) شيئاً في النوم، واحتلّم يحلّم لا يكون مثل: حلّم يحلّم، ويقال من الحلّم حلّم [يحلّم]^(٥) حلماً فهو حلِيم. ويقال: حلّمته أي جعلته حلِماً. والإفراء الكذب، والشاعر إنما سمي شاعراً لأنه يشعر من الكلام ما لا يشعر به غيره. والقضم الكسر، والمراد منه الهلاك؛ قصم غيره، وانقصم بنفسه أي انكسر.

وقال: أحسوا، أي استيقنوا بعذابنا، ويقال: أحسنت، أي وجدت، وأحسنت، أي علمت، واستيقنت. يقال: أحسنت؛ قطعت، وتحسنت، أي تحبّرت، والمحنة الفرجون.

وقال: يركضون يهربون ﴿إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَمَلَكُمْ تَتَلَوْنَ﴾ أي أنعمتم، ومتعتم، والإتراف الإكرام.

(١) في الأصل وم: جسداً. (٢) من م، في الأصل: الذي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقال أبو غبيدة: يركضون يغدون، وقوله ﴿لَا تَرْجِعُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾ لعلكم تستلثون، ليس على الأمر، ولكن أي لو رجعتكم ﴿إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾. وكذلك ﴿نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [النمل: ٣٦، ١٠] ليس على الأمر، ولكن لو سیرتم ﴿فَانظُرُوا﴾ فعلى ذلك قوله: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي لو رجعتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتْلُونَ﴾ [عما أترفتكم فيه]^(١) من قبل. فيخرج ذلك مخرج الاستهزاء جزاء لصنيعهم، والله أعلم.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَنَيْنَا إِمَّا كَمَا ظَلَمِينَا﴾ يقررون يومئذ بالظلم، لكن لا ينفعهم ذلك، ويتدمون على سوء صنيعهم، فيطلبون العود إلى دنياهم كقولهم^(٢): ﴿يَقُولُ بَلِّغْنِي قَدَمْتُ لِحْيَتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي مازالت تلك أقوالهم: ﴿بَنَيْنَا إِمَّا كَمَا ظَلَمِينَا﴾ ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِثِينَ﴾ في النار في الآخرة، والله أعلم. و﴿حَصِيدًا﴾ أي هالكًا، وهو محصور. و﴿خَبِثِينَ﴾ كما يقال: خمدت النار إذا طفئت.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيمِينَ﴾ أخبر أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما [لتكونا]^(٣) سماء وأرضاً على ما هما عليه، ثم ثنائيان، وتبديان. ولكن خلقهما لعاقبة قصدها، وهي^(٤) أن يمتحن أهلها، لأن من عمل في الشاهد عملاً، لا يقصد به عاقبة يأمل، ويرجو أمراً، فهو في عمله عابث لا^(٥)، ولو كان على ما عند أولئك الكفرة بأن لا تبعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا ثواب، لكان إنشاؤها وما بينهما باطلاً لعباً كقولهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صير عدم الرجوع إليه خلقهم شيئاً باطلاً.

وقال الحسن: لم يخلقهما عبثاً، ولكن خلقهما لحكمة؛ من نظر إليهما دلالة^(٦) على وحدانيته منشيئهما وسلطانيه وقدرته وحكمته وعلى علمه وتدبيره.

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُم مَّا لَا تَحْتَسِبُ لَآتَيْنَاكُم مِّنْ نَّحْسٍ وَلَآ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُم مَّا لَا تَحْتَسِبُ﴾ أي زوجة. لكن هذا بعيد لأنه اختج عليهم على نفي الولد بنفي الصاحبة بقوله: ﴿أَنَّ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فلو لا أنهم أفروا، وعرفوا أن لا صاحبة له، وآلا لم يكن للاحتجاج عليهم على نفي الولد بنفي الصاحبة معنى، ويكون قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُم مَّا لَا تَحْتَسِبُ﴾ أي ولداً، لأن الناس يتلهون بالولد فسماء لهواً. لذلك قال: ﴿لَآتَيْنَاكُم مِّنْ نَّحْسٍ وَلَآ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُم مَّا لَا تَحْتَسِبُ﴾ وهذا^(٧) يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿لَآتَيْنَاكُم مِّنْ نَّحْسٍ﴾ بحيث لا يتلغ أنها مكم، ولا يذركه علمكم، لأن الولد يكون من جنس الوالدين ومن شكلهما، وسبيل معرفته وعلمه الاستدلال الحسي. فإذا لم يعرفوه^(٨) بالحسي، فكيف يعرفون من هو يكون منه لو كان؟.

والثاني: إن الغائب إنما يعرف بالاستدلال بالشاهد. فلو كان له الولد على ما تزعمون لكان لا يعرف لأنه لا صنع للولد في الشاهد، إذ هو الواحد المنفرد بإنشاء العالم، فتذهب معرفة الولد وإدراكه^(٩) لو كان على ما تزعمون. وقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُم مَّا لَا تَحْتَسِبُ﴾ ليس على أنه يحتمل أن يكون له الولد، أو أن يحتمل أن يتخذ ولداً، ولكن لو احتمل أن يكون لم يحتمل أن يذرك. وكذلك يخرج قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ليس على^(١٠) أنه يحتمل أن يكون فيهما آلهة ولكن لو احتمل أن يكون فيهما آلهة^(١١) لفسدتا.

الآية ١٨

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ يشبه أن يكون الحق الذي أخبر أنه يقدف على الباطل القرآن الذي أنزله على رسوله، والرسول نفسه، أو الآيات التي جعلها لوحدها والوحيته ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يبطل ذلك الذي قالوا في الله ما قالوا من الولد والصاحبة وغيره مما لا يليق به. فإذا هو زاهق، أي هو ذاهب متلاش.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كقولهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: لاغ. (٦) في الأصل وم: دالان. (٧) الوار ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يعرفوا هو. (٩) الوار ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الرُّبُوبُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ مِنَ الْوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ وَجَمِيعِ مَا وَصَفُوهُ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ.

الآية ١٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَأَنَّهُ ذَكَرَ جَوَاباً لِقَوْلِهِمْ وَرَدّاً عَلَى وَصْفِهِمْ إِيَّاهُ بِالَّذِي وَصَفُوهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، وَلَا أَحَدٌ فِي الشَّاهِدِ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ وَلَدًا مِنْ عِبِيدِهِ وَإِمَائِهِ. فَإِذَا لَمْ تَرَوْا هَذَا فِي الْخَلْقِ أَنْفَاءً مِنْ ذَلِكَ وَاسْتِنكَافاً فَكَيْفَ قُلْتُمْ ذَلِكَ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟ وَأَصَفْتُمْ إِلَيْهِ؟

أَوْ يُخْبِرُ غِنَاهُ عَنِ الْخَلْقِ بَأَنَّ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْوَلَدُ فِي الشَّاهِدِ إِنَّمَا يُطْلَبُ لِحَاجَةٍ تَسْبِقُ. فَإِذَا كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا بِذَاتِهِ بِمَا ذَكَرَ بَأَنَّ لَهُ كَذَا فَلَا^(١) حَاجَةَ تَقَعُ لَهُ إِلَى الْوَلَدِ. تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كَبِيرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا لِقَوْلِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ. فَاخْبَرَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا كَمَا وَصَفْتُمُوهُمْ^(٢)، وَلَكِنَّهُمْ عِبِيدٌ لِي، وَهُمْ^(٣) لَا يَسْتَرِيحُونَ عَنْ عِبَادَتِي، وَلَا يَقْتَرُونَ، وَلَمْ يَدْعُوا هُمْ الْوَهْيَةَ لِأَنْفُسِهِمْ. فَكَيْفَ نَسَبْتُمْ الْإِلَهِيَّةَ إِلَيْهِمْ، وَعَبَدْتُمُوهُمْ دُونِي؟ أَوْ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ: إِنَّكُمْ إِنْ اسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ عِبَادَتِي فَلَمْ يَسْتَكْبِرْ عَنْهَا مَنْ هُوَ أَرْفَعُ مَنَزَلَةً وَأَعْظَمُ قَدْرًا مِنْكُمْ.

الآية ٢٠

[وهو قوله تعالى]: ﴿يَسْتَحِيرُونَ أَلَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَقْرَءُونَ﴾ يُنْزِهُونَ اللَّهَ، وَيُبَيِّزُونَهُ عَمَّا وَصَفَهُ الْمُلْحِدَةُ مِنَ الْوَلَدِ وَجَمِيعِ مَا قَالُوا فِيهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ.

وهذه الآية تَنْقُضُ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَذْهَبَهُمْ حِينَ قَالُوا: إِنَّ الْأَعْمَالَ لِأَنْفُسِهَا مُتَعَبَّةٌ مُنْصِبَةٌ، وَلَوْ كَانَتْ الْأَفْعَالُ لِأَنْفُسِهَا مُتَعَبَّةً عَلَى مَا ذَكَرُوا لَكَانَ الْبَشَرُ وَالْمَلَائِكَةُ شُرَعَاءَ. فَلَمَّا اخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَغْيُونَ، وَلَا يَقْرَءُونَ، وَلَا تُعْبِدُهُمُ الْعِبَادَةُ دَلَّ أَنَّهَا صَارَتْ مُتَعَبَّةً لِصُنْعٍ غَيْرِ فِيهَا لَا لِأَنْفُسِهَا. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِي خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ: هُمْ يُنْكِرُونَ خَلْقَهَا، وَنَحْنُ نَقُولُ: هِيَ خَلَقَ اللَّهُ ﷻ كَسَبَ لِلْعِبَادِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَلَامًا كَافِيًا.

قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: ﴿فَيَذْمَعُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] أَي يَبْطُلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: يُهْلِكُهُ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ: ٣٣٨- / ضَرَبْتُ الرَّجُلَ، فَذَمَعْتُهُ إِذَا وَصَلَتِ الضَّرْبَةُ إِلَى الدِّمَاغِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ مَاتَ. فَكَذَلِكَ يَذْمَعُ الْحَقُّ الْبَاطِلَ، أَي يُهْلِكُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُوَ رَاقٍ﴾ أَي ذَاهِبٌ وَمَيِّتٌ. رَهَقَ إِذَا مَاتَ، وَمَلَكَ، وَالزَّاهِقُ فِي غَيْرِ هَذَا السِّمَنِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] أَي لَا يَغْيُونَ، وَمِنْهُ ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] وَمَحْسُورٌ أَيْضاً [وقوله^(٤)]: ﴿لَا يَقْرَءُونَ﴾ [الفتور^(٥)] الْإِعْيَاءُ أَيْضاً.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا إِلَهَهُ مِنَ الْأَرْضِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا﴾ اسْتِفْهَامٌ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْخَلْقِ، لَكِنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْإِيجَابِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: قَدْ اتَّخَذُوا إِلَهَهُ. وَهَكَذَا كُلُّ مَا خَرَجَ فِي الظَّاهِرِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ فَإِنَّهُ عَلَى الْإِيجَابِ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَأَمَّا الْخَلْقُ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَسْتَفْهَمَ بَعْضُ مِنْ بَعْضٍ لِمَا يَخْفَى عَلَى بَعْضِ أُمُورٍ بَعْضٍ، فَيُطْلَبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ يُشِيرُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ^(٦)] وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿هُمْ يُشِيرُونَ﴾ أَي يَخْلُقُونَ؟ أَيْ اتَّخَذُوا إِلَهَهُ، لَا يَخْلُقُونَ، كَقَوْلِهِ ﴿خَلَقْنَا كَلْبَيبًا﴾ [الرعد: ١٦] وَكَيْفَ اتَّخَذُوا إِلَهَهُ؟ لَا يَخْلُقُونَ، وَإِنَّمَا يُعْرِفُ الْإِلَهَ بِالْخَلْقِ، وَبِأَنَّهُ تَكُونُ فِي الْخَلْقِ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ هَؤُلَاءِ خَلَقَ كَيْفَ اتَّخَذُوا إِلَهَهُ؟ وَالثَّانِي: ﴿هُمْ يُشِيرُونَ﴾ أَي يَبْعَثُونَ؟ وَيُحْيُونَ؟ فَإِنْ كَانَ عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَيْفَ اتَّخَذُوا مَنْ لَا يَمْلِكُ الْبَعْثَ وَالْإِحْيَاءَ إِلَهَهُ؟

(١) الْغَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم. وَصَفْتُهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم. قَن. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم. حَيْث. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم. وَالْفَتْوَر. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَخَلَقَ الْخَلْقَ لِلْبَغْيِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يُخْرِجُ عَلَى غَيْرِ الْحِكْمَةِ فِي الظَّاهِرِ، لَأَنَّ مَنْ بَنَى فِي الشَّاهِدِ بِنَاءً لِلتَّقْضِ خَاصَّةً لَا لِمُعَاقِبَةٍ يَقْصِدُهَا^(١) بُو كَانَ غَيْرَ حَكِيمٍ فِي فِعْلِهِ عَابَثًا فِي بِنَائِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ خَلْقَ الْخَلْقِ لَا لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ عَبَثًا، فَيُخْرِجُ هَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(٢): ﴿أَيُّرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا﴾ أَيُّ قَدِ اتَّخَذُوا ﴿إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ؟﴾.

[وَالثَّانِي]^(٣): أَوَلَمْ يَتَّخِذُوا ﴿إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ هُمْ يَمْلِكُونَ النَّشْرَ أَوِ النَّشْرَ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَةَ: لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ لَفَسَدَتْ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أَي لَمْ يَكُونَا مِنَ الْأَصْلِ، لَأَنَّ الْعُرْفَ فِي الْمُلُوكِ أَنَّ مَا بَنَى هَذَا، وَأَثْبَتَهُ، يُرِيدُ الْآخَرَ نَقْضَهُ وَإِفْئَاءَهُ، فَلَمْ يَثْبِتَا، وَلَمْ يَكُونَا مِنَ الْأَصْلِ، لَوْ كَانَ لِعَدَدٍ.

وَالثَّانِي: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لَمْ تَكُنْ مَنَافِعُ إِحْدَاهُمَا مُتَّصِلَةً بِمَنَافِعِ الْآخَرَى لِلْخَلْقِ؛ إِنْ مَنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنَافِعَ مَا خَلَقَ هُوَ مِنْ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْآخَرَى. فَإِذَا اتَّصَلَتْ مَنَافِعُ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرَى. دَلَّ أَنَّهُ صُنْعٌ وَاحِدٌ وَتَدْبِيرٌ وَاحِدٌ لَا عَدَدٌ.

وَالثَّالِثُ: لَوْ كَانَ عَدَدًا لَكَانَ لَا يُخْرِجُ تَدْبِيرُهُمَا عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ فِي كُلِّ عَامٍ عَلَى سَنَتَيْنِ وَاحِدٍ. دَلَّ أَنَّهُ تَدْبِيرٌ وَاحِدٌ لَا عَدَدٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لِعَدَدٍ لَكَانَ يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يَتَّبِعْ عَلَى سَنَتَيْنِ وَاحِدٍ، وَلَا جَرَى عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ هُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا نَبَتْهُمْ عَلَى بَعْثِهِ﴾ [المؤمنون: ٩١] عَلَى مَا هُوَ مِنْ عَادَةِ مُلُوكِ الْأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْكِرُونَ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ، لَأَنَّ مَا يَفْعَلُ يَفْعَلُ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ مَنْ فَعَلَ فِي سُلْطَانٍ غَيْرِهِ وَمُلْكٍ غَيْرِهِ. فَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّنَاوُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالْإِبَاحَةِ مِنْ مَالِكِهِ. فَيَسْأَلُ قَوْلٌ مَنْ يَقُولُ هُوَ عَلَى الْإِبَاحَةِ وَالْإِبَاحَةِ فِي الْأَصْلِ.

وَالثَّانِي: لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِأَنَّهُ حَكِيمٌ بِذَاتِهِ، لَا يُخْرِجُ فِعْلُهُ عَنِ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّمَا يُسْأَلُ مَنْ يَحْتَمِلُ فِعْلُهُ السَّفَهَ. فَامَّا مَنْ لَا يَحْتَمِلُ فِعْلُهُ إِلَّا الْحِكْمَةَ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ السُّؤَالَ لَمْ فَعَلَتْ؟ وَلِمَاذَا فَعَلَتْ؟.

وَالثَّالِثُ: لَوْ اخْتَمَلَ السُّؤَالَ عَمَّا يَفْعَلُ لَاحْتِمَلِ الْأَمْرَ النَّهْيَ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا، وَلَا تَفْعَلَ كَذَا. وَذَلِكَ مُحَالٌ. وَلَوْ ثَبِتَ الْأَمْرُ فِيهِ لَكَانَ يُخْرِجُ سُؤَالُهُ سُؤَالَ حَاجَةٍ، لَأَنَّ مَنْ يَأْمُرُ مَنْ فَوْقَهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَمْرٌ سُؤَالِ حَاجَةٍ، وَمَنْ يَأْمُرُ مَنْ دُونَهُ فَيَكُونُ أَمْرُهُ أَمْرًا.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿أَيُّرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ لَزُومِ الدَّلِيلِ عَلَى النَّافِي، لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كَانَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: هَاتِ أَنْتَ الْبُرْهَانَ عَلَى مَا ادَّعَيْتَ مِنَ الْأُلُوهِيَّةِ، وَنَحْنُ نُنْكِرُ ذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ دَلَّ أَنَّ الدَّلَالََةَ تُلْزِمُ النَّافِي.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ نَبِيِّ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أَي هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ذِكْرٌ مِنْ نَبِيِّ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾^(٤). قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا الْقُرْآنُ فِيهِ ﴿ذِكْرٌ مِنْ نَبِيِّ مِنَ الْحَلَائِلِ وَالْحَرَامِ لَهُمْ﴾ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي أَي فِيهِ ذِكْرُ أَعْمَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَخْبَارِهِمْ وَمَا صَنَعَ اللَّهُ بِهِمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْصِدُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

او يكون قوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ تَقَى﴾ اي خَبِرَ مَنْ مَعِيَ ﴿وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ اي خَبِرَ مَنْ قَبْلِي، فيكون فيه دليلٌ رساليه لانه اخبر عن ابناء الأمم السالفة واخبارهم على ما ذكرت في كتبهم من غير ان يعلم ما في كتبهم [او] ^(١) يتعلم منهم، او ينظر [ما] ^(٢) كان منه فيها ليتعلموا انه إنما عرفت ذلك بالله.

وُشِبِهَ ان يكون تأويل قوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ تَقَى وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ ما ذكر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] اي ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ تَقَى﴾ وذكُر الرسل من قبلي ومن معهم، اي هذا الذكر أرسلني إلى من معي وأرسل الذين من قبلي إلى قويمهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَمَقَّ قَهْمُ مُعْرِضُونَ﴾ كذلك كانوا لا يعلمون الحق بإعراضهم عنه.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ اخبر انه لم يرسل رسولاً من قبل إلا بما ذكر من قبل ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

ثم يحتمل قوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ اي وحدوني في الألوهية؛ لا تصرفوا الألوهية إلى غيري، ولا تشركوا من دوني في الألوهية، او ان يكون قوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ اي فاضرفوا ^(٣) العبادة إلي، ولا تصرفوا العبادة إلى من دوني ^(٤)، والله أعلم.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ دل قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ انهم لم ينسبوا الولد إليه، ولا قالوا ذلك: إنه اتخذ ولداً على حقيقة الولاد، ولكن قالوا ذلك على الصفوة واضطفاء من اضافوا، ونسبوا إليه، لانه اخبر ان الذين قالوا: انهم ولده من نحو عيسى وعزير والملائكة، ليسوا كما وصفوا، ولكنهم عبادٌ مُكْرَمُونَ.

الآية ٢٧ ثم اخبر بما اكرمهم، فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَسْمَعُونَ﴾ اخبر انهم لا يتقدمون في قول ^(٥) ولا فعل إلا بإذن ^(٦) منه وأمر. او يكون قوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ اي لا يأمرون بشيء، ولا يتهنون عن شيء إلا بإذن من الله وأمر منه، والله أعلم.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذا قد ذكرناه في سورة طه [الآية: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ كقوله ^(٧) في آية أخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] فيكون تأويل قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ اي إلا لمن أذن له.

ثم يتوجه قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ إلى الشفيع، أي لا يؤذن لأحد بالشفاعة إلا من كان مرضياً مرتضى ديناً وعملاً. ويتوجه قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ إلى المشفوع له ﴿إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ عنه الرب مذنباً وعملاً حتى لم يدخل في عمله تقصير. ثم الشفاعة إنما جعلت ٣٣٨-ب/ في الأصل للتجاوز في ما دخل في العمل من التقصير. ثم لا يخلو الذي يشفع له إما أن يكون صاحب الصغيرة فيجوز أن يعذب عليها، وإما ^(٨) أن يكون صاحب كبيرة، ففيه دلالة التجاوز، والعفو عن صاحب الكبيرة لانا قد قلنا: إن الشفاعة إنما جعلت لمن منه التقصير في العمل. ففيه نقض قول المعتزلة لانهم يقولون: إن صاحب الصغيرة معفو عنه للصغيرة ^(٩) حتى لا يجوز أن يعذب عليها، وصاحب الكبيرة لا يجوز العفو عنه للتجاوز، بل هو معذب أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ هذا، والله أعلم، كانه صلة قوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٧] أي من خشية عذابه وهيبته لا يتقدمون بقول، ولا فعل، ولا أمر، ولا نهى خوفاً منه وهيبته، والله أعلم.

الآية ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهٌ مِنْ دُونِي فَلْنَمَحْضِبْهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَاطِلِينَ﴾ هذا كانه مقطوع عما سبق، وتقدم ذكره، غير موصول به، لأن ما سبق: هو القول منهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إلي. (٤) من م، في الأصل: دونه. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) من م، في الأصل: بأذنه. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: الصغيرة.

فلو كَانَ عَلَى اتِّصَالِهِ بِالْأَوَّلِ لَكَانَ يَقُولُ: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ: إِنِّي وَلَدٌ إِلَهُ لَأَنْهَمُ قَالُوا: ﴿أَتَتَّخِذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وَلَمْ يَقُولُوا: أَتَتَّخِذُ الرَّحْمَنُ إِلَهًا.

فلو كَانَ عَلَى الصَّلَاحِ بِالْأَوَّلِ وَالْجَوَابِ لَهُ لَكَانَ^(١) يُخْرِجُ عَلَى الْجَوَابِ لَهُمْ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ﴾ لَكِنْ كَانَهُمْ كَانُوا فِرْقًا: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿أَتَتَّخِذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ دُونَهُ الْمَلَائِكَةَ، وَاتَّخَذَهُمْ آلِهَةً، فَيُخْرِجُ هَذَا جَوَابًا لِدَلِيلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ﴾ مِنْ دُونِهِ، فَذَلِكَ تَجْزِيءُ جَهَنَّمَ^(٢) الْآيَةُ.

فَإِنْ قِيلَ لَنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَكُفِّرُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وَقَدْ عُبِدَ عِيسَى دُونَهُ، وَغُيِّبَتِ الْمَلَائِكَةُ دُونَهُ، فَيَكُونُونَ حَصْبُ جَهَنَّمَ عَلَى ظَاهِرٍ مَا ذَكَرَ. قُلْنَا: تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَكُفِّرُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ أَيِ إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِأَمْرِ الَّذِينَ عُبِدُوا، وَقَالُوا لَهُمْ: اغْبُدُونِي حَصْبُ جَهَنَّمَ. دَلِيلُهُ مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ﴾ مِنْ دُونِهِ، فَذَلِكَ تَجْزِيءُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِيءُ الظَّالِمِينَ^(٣) أَيِ الْمُشْرِكِينَ؛ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ هُنَا الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ.

ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ﴾ مِنْ دُونِهِ، لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِمَا وَصَفَهُمْ بِالطَّاعَةِ^(٤) لَهُ وَتَرْكِ الْخِلَافِ لَأَمْرِهِ. لَكِنَّهُ ذَكَرَ هَذَا لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، وَإِنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عِنْدَهُ، وَجَلَّتْ مَنْزِلَتُهُ، يَجْزِيءُ^(٥) بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَسْتَوْجِبُ لِدَلِيلِكَ.

وَلَكِنْ عِنْدَنَا الْمَغْصِيَّةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ [مُكِنَّةٌ مُخْتَلَمَةٌ، دَلِيلُهَا]^(٦): ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ﴾ مِنْ دُونِهِ، لِأَنَّهُ قَدْ مَدَحَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [الآية [التحریم: ٦] وَقَوْلِهِ^(٧): ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الآية [الأنبياء: ١٩] فَذَلِكَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُمْ مُخْتَارُونَ فِي ذَلِكَ غَيْرَ مَجْبُورِينَ^(٨) عَلَيْهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ﴾ مِنْ دُونِهِ، فَذَلِكَ تَجْزِيءُ جَهَنَّمَ^(٩) هُوَ إِبْلِيسُ؛ هُوَ كَانَ مِنْهُمْ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ: ﴿إِيَّاكَ﴾ مِنْ دُونِهِ، فَاغْبُدُونِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ يَرَى﴾ يُخْرِجُ عَلَى وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: أَنْ اغْلَمُوا، وَرَوُّا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا كَذَا.

وَالثَّانِي: لَوْ تَفَكَّرُوا، وَتَأَمَّلُوا، لَعَلِمُوا أَنَّهَا كَذَا.

وَالثَّالِثُ: عَلَى التَّأْوِيلِ: أَنْ قَدَّرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّهَا كَانَتَا كَذَا. وَكَذَلِكَ هَذَا فِي كُلِّ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾ إِلَى كَذَا. فَهُوَ كُلُّهُ يُخْرِجُ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ.

ثُمَّ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَتَحْتِهِ سُبُلًا يَوْمُوتُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠ إلى ٣٣] كُلُّ هَذَا كَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَانَهُ يَقُولُ: أَوَلَمْ يَرَوْا كَذَا؟ [أَوَلَمْ يَرَوْا مَا جَعَلْنَا لَهُمْ]^(١٠) مِنْ أَنْوَاعٍ مَا ذَكَرَ.

ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمْ يَكُونُ لُجُوه:

أَحَدُهَا: أَنْ يَذْكُرَ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ حِينَ^(١١) أَخْبَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا، فَفَتَقَ مِنْهُمَا أَرْزَاقَهُمْ.

[وَالثَّانِي:]^(١٢) ذَكَرَهُمْ أَنَّهُ جَعَلَ بِالسَّمَاءِ حَيَاتَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ بَحِيثًا تَقَرُّ بِأَهْلِهَا، وَتَسْكُنُ بِهِمْ، وَجَعَلَهَا مِهَادًا لَهُمْ وَفِرَاشًا بِالْجِبَالِ حَتَّى قَدَّرُوا عَلَى الْمَقَامِ بِهَا وَالْقَرَارِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهوَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الطَّاقَةُ. (٣) ادْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا كَانَ مُحْتَمَلًا دَلِيلُهُ. (٥) الْوَاقِعَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَجْبُولِينَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا جَعَلْنَاهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهوَ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الطَّاقَةُ. (١٢) ادْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا كَانَ مُحْتَمَلًا دَلِيلُهُ. (١٤) الْوَاقِعَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَجْبُولِينَ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا جَعَلْنَاهُمْ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهوَ. (٢٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الطَّاقَةُ. (٢١) ادْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٢٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا كَانَ مُحْتَمَلًا دَلِيلُهُ. (٢٣) الْوَاقِعَةُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

[والثالث: ^(١)] أَنَّهُ جَعَلَ فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّيَصْلُوا إِلَى حَوَائِجِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ الَّتِي جُعِلَتْ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ النَّائِيَةِ.
[والرابع: أَنَّهُ ^(٢)] ذَكَرَهُمْ نِعْمَةً أَيْضًا فِي حِفْظِ السَّمَاءِ عَنْ أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ عَلَى مَا أَخْبَرَ أَنَّهُ يُنْسِكُهُمَا هُوَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُنْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

[والخامس: ^(٣)] ذَكَرَهُمْ أَيْضًا نِعْمَةً فِي مَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَفِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنَ الْمَنَافِعِ:
يَسْتَأْذِي بِذَلِكَ كُلُّهُ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ. أَوْ تَذَكُّرُهُمْ بِهَذَا قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ، إِذْ مَنْ قَدَرَ عَلَى فَتْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلَ حَيَاةَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْمَاءِ وَإِمْسَاكِ السَّمَاءِ وَحِفْظِهَا عَنْ أَنْ تَسْقُطَ بِلا عَمَدٍ وَمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَقَطْعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسِيرَةَ خَمْسِمِئَةِ عَامٍ إِنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى كُلِّ مَا ذَكَرَ لَقَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ وَإِحْيَائِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ مَا صَارُوا تَرَابًا.

[والسادس: ^(٤)] أَنْ يَذَكِّرَهُمْ غِنَاهُ بِذَاتِهِ وَمُلْكِهِ. إِنَّ مَنْ كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ فَاتَى تَقَعُّ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى اتِّخَاذِ الْوَلَدِ أَوْ الشَّرِيكِ أَوْ الصَّاحِبَةِ رَدًّا عَلَى مَا قَالُوا: ﴿أَتَخَذُ الرَّحْمَنَ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦] وَمَا ﴿أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الأنبياء: ٢٤] وَنَحْوُهُ؟ وَبَيَّنَ فَسَادَ ذَلِكَ كُلُّهُ وَبُطْلَانَهُ حِينَ قَالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وَقَالَ: ﴿أَرِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَهَا﴾ [الأنبياء: ٢١] وَنَحْوُهُ. يَبَيِّنُ بِهَذَا كُلِّهِ فُسَادَ مَا ادَّعَوْا عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ اتَّخَذَ كَذَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَا رَفَقًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَتَقَّ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ. فَتَقَّ السَّمَاءَ، وَهِيَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ وَأَضْلَبُهَا، بِأَلْتَيْنِ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمَاءُ. وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ فَتَقَّهَا بِأَلْتَيْنِ شَيْءٍ، وَهُوَ النَّبَاتُ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا، وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ لُطْفِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَا رَفَقًا﴾ مُلْتَزِمَتَيْنِ، فَتَقَّيَهُمَا، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا هَوَاءً مَكَانًا لِلْخَلْقِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَتِ السَّمَاءُ وَاحِدَةً وَالْأَرْضُ كَذَلِكَ، فَجَعَلَ مِنَ السَّمَاءِ سَبْعًا [وَمِنَ الْأَرْضِ كَذَلِكَ سَبْعًا] ^(٥) فَكَذَلِكَ فَتَقَّهُ إِيَّاهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَاءُ نُظْفَةٌ، وَنُظْفَةُ الرِّجَالِ مِنْهُ يَخْلُقُ الْخَلَائِقَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الَّذِي خَلَقَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ حَيَاةَ كُلِّ شَيْءٍ؛ تُعْلَمُ حَيَاةُ خَلَائِقِ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ. وَلَكِنْ لَا تُعْلَمُ حَيَاةُ أَهْلِ السَّمَاءِ بِمَاذَا؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْأَرْضَ لَمْ يَكُنْ مِنْ طَبْعِهَا فِي الْأَصْلِ التَّسْفُلُ وَالتَّسْرُّبُ فِي الْمَاءِ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ النَّاسِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ طَبْعُهَا التَّسْفُلُ وَالتَّسْرُّبُ لَكَانَتِ الْجِبَالُ تُرِيدُ ^(٦) التَّسْفُلَ فِي الْمَاءِ وَالتَّسْرُّبِ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَلٌّ أَنَّ طَبْعَهَا كَانَ الْإِضْطِرَابُ وَالزَّوَالُ وَالتَّحَرُّكُ، وَالْمَيْدُ بِأَصْلِهِ ^(٧) فِي التَّسْفُلِ وَالتَّسْرُّبِ. وَلَكِنْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، فَأَثْبَتْنَا بِالْجِبَالِ، وَإِنْ كُنَّا نَشَاهِدُ بَعْضَ أَجْزَائِهَا تَسْفُلًا، وَتَسْرُّبًا.

وَهَذَا كَمَا نَقُولُ: إِنَّ بَعْضَ الْعَالَمِ مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ، وَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ مَكَانٍ، وَكُلُّ الْعَالَمِ لَا تَعَلُّقُ لَهُ بِهِ، وَلَا الْأَمْكَنَةُ أَخَذَتْ لَهَا. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَرْضُ. أَوْ إِنْ كَانَ ٣٣٩ - أ / طَبْعُهَا التَّسْفُلُ وَالتَّسْرُّبُ، جَعَلَهَا بِحَيْثُ تَقَرُّ، وَتَسْكُنُ بِشَيْءٍ، طَبْعُهُ ^(٨) التَّسْفُلُ أَيْضًا بِاللُّظْفِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْفِجَاجُ وَالسُّبُلُ وَاحِدٌ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي جَعَلَهَا فِي الْجِبَالِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفِجَاجُ السَّعَّةُ وَالْفُسْحَةُ، وَالسُّبُلُ الطَّرِيقُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفِجَاجُ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي فِي الْجِبَالِ، وَالسُّبُلُ هِيَ الَّتِي فِي الْمَقَاوِزِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: تَدِير. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَصْلِهَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: طَبْعُهَا.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَحْفُوظًا﴾ قال بعضهم: ﴿مَحْفُوظًا﴾ أي مخبوساً عن أن يسقط عليهم. وقال بعضهم: ﴿مَحْفُوظًا﴾ من الشياطين، أي صار محفوظاً منهم حتى لا يستمعوا كلام الملائكة بعد أن كانوا يستمعون من قبل، والله أعلم.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال بعضهم: الفلك السماء. وقال بعضهم: استدارة السماء. وقيل: الفلك: الجري والسرعة. وقيل: الفلك فلكة كفلكة المغزل، وهو دورانه، وكذلك فلكة الطاحون، وهو ما يدور به الطاحونة، وهي الحديدية التي تدور بها الطاحونة. وقالوا: إن الفلك هو استدارة. وكل شيء دار فهو فلك، وهو ما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال بعضهم: يَجْرُونَ. وقال بعضهم: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يَعْمَلُونَ^(١) وكذلك روي في حَرْف عبد الله [بن مسعود]^(٢): كل في فلك يعملون.

وظاهر الآية أن يكون هنالك [بحر أو نهر]^(٣) فيه تجري الشمس والقمر، وفيه تغربان، ومنه يطلعان، لأنه قال: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والسباحة هي المعروفة عند الناس، وهو ما يسبح المزة في بحر أو نهر. هذا ظاهر الآية، [على ذلك]^(٤) جاءت الأخبار.

روى عن ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه قال: «خلق الله بحراً دون سماء الدنيا، مقداره ثلاثة فراسخ، وهو موج مكفوف قائم في الهواء بأمر الله تعالى، لا تقطر منه قطرة، والبحور كلها ساكنة، وذلك البحر جارٍ في سرعة السهم. ثم انطبأ في الهواء مستو، كأنه حبل ممدود ما بين المشرق والمغرب، فتجري الشمس والقمر والحسن في ذلك البحر، فذلك قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والحسن هي التي تحسن بالنهار، وتجرى بالليل. والفلك دوران العجلة في لجة غمرة ذلك البحر.

وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو بدت الشمس من ذلك البحر لحرقت كل شيء في الأرض حتى الصخور. ولو بدا القمر من ذلك البحر لافتن به أهل الأرض كلهم، يتبدونه من دون الله إلا من عصمه الله».

وفي بعض الأخبار: «الفلك ماء مكفوف تجري فيه الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، كله دون السماء يدور به الفلك» ومثل هذا قد قيل فيه، والله أعلم بذلك.

وظاهر الآية في الخبر ما ذكرنا أن الشمس والقمر هما اللذان يجريان، ويسبحان في ذلك المكان. وعلى تأويل بغضهم أنهما على حالهما لا يجريان، لكن هو يجري، فيظهران، ويتدوان في وقت، ويختفيان في وقت آخر. ولو كانا هما اللذان يجريان لكانا على حالة واحدة، ويظهران في الأحوال كلها. لكن لا نعلم ذلك إلا بالخبر عن الله أنه كذلك، والله أعلم.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِنَشْرِ مِنَ الْقُلُوبِ ظِلَافًا إِنَّهُمْ مُخِلَّدُونَ﴾؟ كأن هذا خرج جواباً لقول أولئك الكفرة في رسول الله، صلوات الله عليه. والاشبه أن يكون ما أصابهم من الشدايد والفتن والهلاك كانوا يتشاءمون برسول الله ﷺ ويتظلمون به: إن ذلك إنما يصيبهم به، وقالوا: لولا هو ما يصيبنا من ذلك شيء. فقال جواباً لهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِنَشْرِ مِنَ الْقُلُوبِ ظِلَافًا﴾ بل حكمهم أن يموت الكل على ما أخبر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فإذا لم يكن لأحد من قبلك الخلد، بل كلهم قد ماتوا، كيف يتشاءمون بك؟ إن ذلك إنما يصيبهم بسببك وشؤمك ﴿أَنَّا إِنَّمَا يَخْلُدُونَ﴾ أي وإن ميت أنت، وأخرجت^(٥) من بينهم فلا^(٦) يخلدون هم فيها [لا أن]^(٧) من حكمهم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؟

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بحراً ونهراً. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وتخرج. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لأن.

الآية ٣٥ [وقوله تعالى^(١)]: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَلَّوْكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ قد ذكرنا تأويله في ما تقدّم في غير موضع.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلَّا مَرْوًا﴾ كان رسول الله ﷺ يذكّر آلِهَتَهُمْ^(٢) بسوء، ويعيها، فيَهْزَوْنَ به، مكان ما يعيب هو آلِهَتَهُمْ، ويقولون: ﴿أَمَئَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟﴾

ثم يَحْتَمِلُ أن يكون هذا من القادة منهم والرؤساء إغراء لاتباعهم عليه أنه يذكّر آلِهَتَكُمْ بسوء، أو أن يقول^(٣) بغضهم ليغض إذا ضلّوا عنه كقوله: ﴿وَإِذَا خَلَا بِغَضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُواكُمْ يَمَافَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَاثِرُونَ﴾ قال بعضهم: كانوا يقولون: لا نعرف ما الرحمن؟ فيكفرون باسم الرحمن. ويَحْتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ بِنِعْمَةِ الرحمن، وهو محمد ﷺ أي يكفرون بنِعْمَتِهِ، أو أن يذكّر هذا ليصبر رسوله، ويُعزّيه، على تكذيبهم: ليست أياديك إليهم بأكثر من أيادي الرحمن، فهم يكفرون به، ويكذبونه، ويقولون فيه ما يقولون. فاضرب أنت على أذاهم وما قالوا فيك، والله أعلم.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَلٍ﴾ كقوله^(٤) في آية أخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

قال الحسن: ﴿عَجُولًا﴾ أي ضعيفاً، وضعفه، هو أن يضيق صدره، ويُخرج عند [إصابته بأذى]^(٥) شيء حتى يَحْمِلَهُ ضيق صدره على أن يدعوه على نفسه وعلى مجيئه بالهلاك لضيق صدره، وذلك ليضعف^(٦) فيه.

وعندنا أنه خلقه عجولاً حتى لا يضير على حالة واحدة، وإن كانت الحالة حالة نعمة ورخاء حتى يمل منها، ويسأم، ويريد التحول إلى حالة هي دون تلك الحالة، ويرضى بشيء دونه.

لكنه، وإن خلقه على ما أخبر، جعل في وسعه رياضة نفسه حتى يصير صبوراً حليماً، وهو ما أخبر أن ﴿عَجُولًا﴾ إذا مسه الشر جرّوعاً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [الأنبياء: ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢] أخبر أنه خلقه هلوياً، ثم استثنى المضلّين. دلّ أنه بالرياضة يتحول عن الحالة التي خلقه إلى حالة أخرى، وهي حالة الحلم والصبر. وكذلك ما أخبر: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] كان كذلك في الابتداء. لكنه بالرياضة والعادة يصير سخياً جواداً. وكذلك ما قال: ﴿وَأُخْضِرْتُ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] ثم قال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩ والتغابن: ١٦] أخبر أن الأنفس الشحّ^(٧) أخضرت، ثم أخبر أن من ﴿يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ فله كذا.

دلّ بهذا كله أنه بالرياضة والعادة يَحْتَمِلُ التحول إلى حالة السخاء والجود^(٨) بعد ما كان شحيحاً قتوراً بخيلاً. فعلى ذلك ما ذكر من العجلة والهلع والجزع يَحْتَمِلُ [التحول]^(٩) بالرياضة والعادة إلى أن يصير حليماً صبوراً في الأمور غير ملول فيها.

وليس الميخنة إلا بالرياضة والعادة. فأمّره أن يروض نفسه، ويُعوّدها بالقيام بجميع ما أمّره الله، ويكفها عن جميع ما نهى عنه، فيعتاد اتباع أمره والإنهاء عن نهيه، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ يُشَبِّه أن يكونوا سألوا رسول الله ﷺ الآيات على رساليته أنه رسول، أو سألوا آيات على وخدائيه الله وربوبيته، فقال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ من الوجوه الذي يريد ربي، ويبيّن لكم ذلك لا من الوجوه الذي تريدون أنتم، وتسالونه.

وقال أهل التأويل: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ في ما نزل من العذاب فيهم وفي منازلهم ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ ٣٣٩ - ب / أنتم العذاب على من كان قبلكم من الأمم بتكذيبهم الرسل. فإن سافرتهم، وضربتهم في الأرض رأيتم آثار العذاب فيهم وفي

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: آلِهَتَكُمْ. (٣) من م، في الأصل: يقولوا. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: أصابه أدنى. (٦) في الأصل وم: لضعفه. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: أخضرت. (٨) في الأصل وم: والجواد. (٩) ساقطة من الأصل وم.

مناريلهم ﴿فَلَا تَسْتَعِجِلُون﴾ أنتم العذاب الذي يعد لكم الرسول؛ كان يخوفهم العذاب، ويعد لهم إياه [إن يكذبوه^(١)] في ذلك، فقال عند ذلك ما قال.

الآية ٣٨ [وقوله تعالى^(٢)]: ﴿وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقولون أيضاً: متى هذا الوعد الذي تعدنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بآنا نعدب؟

وجائز أن تكون الآية فيهم بتكذيبهم الساعة والقيامة وإنكارهم إياها. فقال: ﴿سَأُزَيِّكُم مَّا بَيْنِي﴾ التي تكون قبل وقوعها ﴿فَلَا تَسْتَعِجِلُون﴾ وقوعها ومجيئها^(٣).

دليله ما ذكر ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهم النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورهم وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهم بَغْتَةً﴾ الآية [الأنبياء: ٤٠].

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهم النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورهم وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لو يعلم الذين كفروا ما ينزل^(٤) بهم بوقوع القيامة حين^(٥) لا يملكون [كف النار]^(٦) ﴿عَنْ وُجُوهِهم النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورهم وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مما^(٧) يحيط بهم حتى لا يملكون هـم دفعها عن أنفسهم، ولا يملك ما اتخذوا أنصاراً وأعداء في الدنيا دفع ذلك أيضاً. وهو كقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفهم ظُلُلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ الآية [الزمر: ١٦] وقوله: ﴿أَفَمَن يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سَوَاءٌ أَلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهم بَغْتَةً﴾ أي فجأة، لا يعلم أهلها عن وقت وقوعها ﴿فَتَبْهَتُهُم﴾ قال أهل التأويل: ﴿فَتَبْهَتُهُم﴾ فتفجأهم. والبهتة كأنها خيرة. يقول: ﴿تَأْتِيهم بَغْتَةً﴾ فجأة، فتخبرهم، وهو ما أخبر: ﴿وَنَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهَآهُمْ سَكَرَىٰ﴾ [الحج: ٢] وذلك لخبيرتهم في أنفسهم، وهو^(٨) ما ذكر: ﴿إِنَّمَا يُخْرِجُهم لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢] يصيرون حيارى لشدّة أهوالها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أخبر أنهم لا يملكون دفعها إذا وقعت بهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ في وقوعها. إن من ابتلي بالبلايا في الشاهد فإنما يملك دفعها^(٩) عن نفسه إما بقوة نفسه وإما بأنصار وأعداء، ينصرونه، ويعينونه في دفعها^(١٠) عنه وإما بالتضرع والإبتهاال والاستسلاام كقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَضَرَّعُوا﴾ الآية [الأنعام: ٤٣] فأخبر ﴿أنهم﴾^(١١) لا يملكون دفعها بقوة أنفسهم ولا بأنصارهم الذين استنصروا بهم حين^(١٢) قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بالتضرع والاستسلاام.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه تضيير رسول الله على ما يستهزئ قومه به لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي لست أنت بأول رسول [من]^(١٣) الله، استهزأ به قومه.

وفيه^(١٤) تخويف أولئك باستهزائهم به بما نزل بأواويلهم باستهزائهم برسولهم.

وقوله تعالى: ﴿فَنَحَا يَالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قال أهل التأويل: حاق: نزل، ووجب، ووقع، وأمثاله. وقال بغض أهل المعاني: الحيق هو ما اشتمل على الإنسان من مكروه فغلبه^(١٥) كقوله: ﴿وَلَا يَحِثُّ أَلَمَكُرِ النَّاسِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. وقال بعضهم: حاق أي رجع عليهم، وأحاط بهم.

الآية ٤٢ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِإِلَهِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي من يحفظكم، ويخرسكم من عذاب الرحمن. وقيل: يدفع عنكم عذاب الرحمن. ثم هذا يخرج على وجهين:

(١) في الأصل وم: فكذبوه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ووجوبها. (٤) في الأصل وم: نزل. (٥) في الأصل وم: حتى. (٦) في الأصل وم: كفها. (٧) في الأصل وم: إنما. (٨) في الأصل وم: وهم. (٩) في الأصل وم: دفعه. (١٠) في الأصل وم: دفعه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أي يغلبه.

أخذهما: قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي لو سألتهم^(١) مَنْ يَكْلُوكُمْ مِنْ عَذَابِ الرَّحْمَنِ لَأَقْرَأُوا لَكَ أَنَّ الرَّحْمَنَ هُوَ الَّذِي يَكْلُوكُمْ^(٢)، وَيَحْفَظُهُمْ مِنْ عَذَابِ الرَّحْمَنِ، لَا الْآلِهَةُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا. وهو كقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله^(٣): ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ونَحْوُهُ، فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ، لَا الْآلِهَةُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا. قُلْ أَنْتَ^(٤) كَيْفَ عَذَلْتُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَعَبَدْتُمْ دُونَهُ مَنْ لَا يَكْلُوكُمْ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَكَيْفَ عَبَدْتُمْ مَنْ لَيْسَ هُوَ بِإِلَهِ؟ فَيُخْرِجُ عَلَى^(٥) الْإِخْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ وَلِزُومِ الْحُجَّةِ لَهُمْ ثَلَاثًا يَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والثاني: يُخْرِجُ عَلَى التذكير والتنبية لهم لأنهم كانوا يُنْكِرُونَ الرَّحْمَنَ، ويقولون: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ويقول^(٦): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فَيُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي كَيْفَ تُنْكِرُونَ الرَّحْمَنَ، وَتَكْفُرُونَ بِهِ، وَهُوَ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَنْ عَذَابِهِ؟ وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ.

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُ الرَّحْمَنِ مُعْرِضُونَ، أي مُنْكِرُونَ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ تَسْتَعْتِمُونَ مِنْ دُونِنَا﴾ أي لَيْسَ لَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِنَا، تَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِنَا، هُوَ عَلَى النَّفْيِ، أي لَيْسَ لَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِهِ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ اسْتِغْنَاءً. ثُمَّ يَبَيِّنُ مَوْضِعَ الْإِخْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مَا أَخْبَرَ عَنْ عَجْزِهِمْ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَنَصَّرُونَ﴾ أي لَا تَسْتَطِيعُ الْآلِهَةُ نَصْرَ أَنْفُسِهَا إِذَا أَرَادُوا بِهَا سُوءًا ﴿وَلَا هُمْ يَتَنَصَّرُونَ﴾ أي يُنَصِّرُونَ.

تأويله: كَيْفَ^(٩) عَبَدْتُمْ مَنْ دُونَهُ، وَاتَّخَذْتُمُوهُمْ آلِهَةً رَجَاءَ شَفَاعَتِهِمْ وَوَسِيلَتِهِمْ [حِينَ قُلْتُمْ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾] [الزمر: ٣] وَقُلْتُمْ^(١٠): ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨] فَإِذَا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ إِنْ أَصَابَهَا سُوءٌ، وَلَا يَضْحَكُهَا مَنْ يَدْفَعُ عَنْهَا السُّوءَ، فَكَيْفَ اتَّخَذْتُمْ آلِهَةً دُونَهُ؟ فَمَنْ كَانَ عَنْ دَفْعِ السُّوءِ عَنْ نَفْسِهِ وَنَصْرِهَا عَاجِزًا فَهُوَ عَنْ دَفْعِهِ عَنِ الْآخَرِ وَنَصْرِهِ أَجْزَلُ.

الآية ٤٤

ثُمَّ يَبَيِّنُ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْقَسْرُ﴾ وَلَمْ يَأْخُذْهُمْ^(١١) بِالْعُقُوبَةِ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا [وَمَا ظَنُّوا]^(١٢) أَنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْهُمْ وَأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثَرَكُنَا وَلَا آبَاءُكُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ادْعُوا رِضَا اللَّهِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ وَآبَاؤُهُمْ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّهُ، وَإِنْ تَرَكَهُمْ وَقْتًا طَوِيلًا، وَمَتَّعَهُمْ عَلَيْهِ^(١٣)، قَدْ نَقَصَ مَا^(١٤) كَانُوا يَمْلِكُونَ حِينَ^(١٥) غَلَبَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْلَاجِهِمْ، وَجَعَلَهُ مُلْكًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [ثم اختلف في تأويل هذا. قَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾]^(١٦) أَيِ اغْلَمُوا ﴿أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أَيِ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ إِلَى الْمَحْشَرِ. فَذَلِكَ نَقْصُهَا.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَلَّمَا بُعِثَ إِلَى أَرْضٍ^(١٧) ظَهَرَ عَلَيْهَا [وهو ما]^(١٨) قَالَ: ﴿تَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بِالظُّهْرِ عَلَيْهَا أَرْضًا فَارِضًا ﴿أَفَهُمُ الْفَلْسُوفُ﴾ أَيِ لَيْسُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿تَنْفُصُهَا﴾ بِذَهَابِ فَقَهَايِهَا وَخِيَارِ أَهْلِهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿تَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بِالْمَوْتِ. وَقَالَ: لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ تَنْقُصُ لَمْ يَوْجَدْ لِلرَّجُلِ مَجْلِسٌ يَجْلِسُ فِيهِ. وَنَحْوُ هَذَا قَدْ قَالُوا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: سَأَلْتُهُمْ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَكْلُوكُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) أُدْرِجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالُوا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوُهُ وَفِي يَقُولُهُمْ. (١٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَأْخُذُ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: عَمَّا. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٨) فِي الْأَصْلِ: الْأَرْضُ. (١٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٤٥

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ هذا، والله أعلم، يُخَرِّجُ على وجهين:

أحدهما: [أنه]^(١) خَرَجَ جواباً لقولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٤٥] إنهم كانوا يُنْكِرُونَ رسالته، ويقولون: إنه بشرٌ، كيف خُصَّ هو به؟ فيقول: إني لَسْتُ أُنذِرُكُمْ لَأَنِّي بَشَرٌ، ولكن ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ مِن الله، وأنتم مما لَا تَقْبَلُونَ بَشَارَةَ رَبِّي وَنَذَارَتَهُ.

والثاني: [أنه]^(٢) قَالَ ذَلِكَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْهُ فِي الْآيَاتِ [مَنْ]^(٣) النَّذَارَةُ الْمُرْسَلَةُ غَيْرَ مُضَافَةٍ إِلَى اللَّهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إني في مَا أُنذِرُكُمْ مِنَ النَّذَارَاتِ لَمْ أُنذِرْكُمْ مِنْ ذَاتِ نَفْسِي، وَلَكِنْ ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ مِنْ رَبِّي.

فَمَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إني في مَا أُنذِرُكُمْ بِالْأَصَمِ^(٤) الْمُتَقَدِّمَةِ وَالْأَنْبَاءِ الَّتِي أَخْبَرْتُكُمْ عَنْهَا مِمَّا لَمْ أَشْهَدْهَا، وَلَا أَنْتُمْ. بَلْ ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ فَذَلِكَ مَوْضِعُ الْإِخْتِجَاجِ / ٣٤٠ - أ / عَلَيْهِمْ فِي إِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الْفُسْرُ أَلْفَةً إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ هذا، والله أعلم، يقول: إِنَّ الْأَصَمَ^(٦) إِذَا أُرِيدَ أَنْ يُذْفَعَ عَنِ الْمَهَالِكِ لَا سَبِيلَ أَنْ يُذْفَعَ عَنْهَا، وَيُكْفَى بِالْدَعَاءِ وَالنَّدَاءِ. وَلَكِنْ إِنَّمَا يُكْفَى، وَيُذْفَعُ عَنِ الْمَهَالِكِ بِالْأَيْدِي وَالرَّاحَاتِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا كَثُرَ [دُعَاؤُهُ إِيَّاهُمْ]^(٧) إِلَى مَا بِهِ نَجَاتُهُمْ، فَأَبَوْا ذَلِكَ، وَلَمْ يُجِيبُوهُ، قَالَ^(٨) حِينَئِذٍ ذَلِكَ إِنَّكُمْ لَا تَسْمَعُونَ الدَّعَاءَ وَالنَّدَاءَ إِلَى مَا بِهِ نَجَاتُكُمْ، وَلَكِنْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ بِالْقَتْلِ وَالسَّيْفِ.

أَوْ يَقُولُ^(٩) ذَلِكَ: إِنَّكُمْ صُمٌّ عَنِ الْحَقِّ حِينَ لَا تَسْمَعُونَهُ [كَالْأَصَمِ، لَا يَسْمَعُ بِالسَّمْعِ، وَالْأَصَمُ]^(١٠) بِالْصَّمْعِ لَا يُذْعَى، وَلَا يُنَادَى، لِأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ. وَلَكِنْ يُذْعَى بِالْيَدِ وَالْإِشَارَةِ. فَعَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ صُمٌّ عَنِ الْحَقِّ، لَا تُدْعَوْنَ بِالنَّدَاءِ، وَلَكِنْ بِالَّذِي يُعْرَفُ الدَّعَاءُ، وَهُوَ الْيَدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [قَالَ الْحَسَنُ] ﴿نَفْحَةٌ﴾ أَي طَائِفَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ^(١١) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَفْثَةٌ مِنْ رَبِّكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عِقَابُهُ رَبِّكَ.

وَأَصْلُ النَّفْحَةِ الرَّمِيَّةُ، وَلِلذَلِكَ سُمِّيَتْ^(١٢) نَفْحَةُ الدَّائِيَةِ، أَي رَمِيَّتُهَا، وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ رَمِي الشَّرَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تَرَى يَنْكُرُ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

[وقوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾]^(١٣).

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيُوزِيَ الْفَيْسَةَ﴾ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَوَازِينَ هِيَ الْقِسْطُ، وَالْقِسْطُ هُوَ الْعَدْلُ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الَّتِي تَرَضُّعُ فِي الدُّنْيَا، وَتُعَرَّفُ بِهَا حَقُوقُ النَّاسِ فِي الْآخِرَةِ، الْعَدْلُ الَّذِي بِهِ تُعَرَّفُ حُدُودُ الْأَشْيَاءِ وَأَقْدَارُهَا، فَتَكُونُ الْمَوَازِينُ الْعَدْلُ مَا ذَكَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَطْلُمُ نَفْسٌ سَنِيًّا﴾ أَي لَا تُنْقِصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، أَوْ تُزَادُ عَلَى جَزَاءِ سَيِّئَاتِهِ. وَلَكِنْ يُؤْفَى كُلُّ جَزَاءٍ عَمَلِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ عَلَى الْإِضْمَارِ، أَي نَضَعُ الْمَوَازِينَ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْعَدْلِ؛ لَا نُظْفَفُ، وَلَا تُنْقِصُ، وَلَا نُخْسِرُ، كَمَا تَفْعَلُونَ فِي الدُّنْيَا. وَلَكِنْ نَعْدِلُ^(١٤)، وَلَا نُظْفَفُ، وَلَا تُنْقِصُ. وَلَكِنْ نُسَوِّي، وَنُسَوِّي مُسْتَوِيًّا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، لِأَنَّ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الشَّاهِدِ لَوُجُوهٍ: لِلْجَهَالَةِ أَوْ لِلْحَاجَةِ أَوْ لِلْجُبُورِ، فَيَحْمِلُهُ كُلُّهُ عَلَى الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، عَادِلٌ، فَلَا وَجْهَ لِلْخُسْرَانِ مِنْهُ وَالزِّيَادَةِ فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنَّا مِنْكُمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أَي أَتَيْنَا بِجَزَائِهَا، أَوْ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أَي بِعَيْنِهَا، لَا

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأمة. (٤) في الأصل وم: رسالتهم. (٥) في الأصل وم: الصم. (٦) في الأصل وم: دعاءهم. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٩) في الأصل وم: كالصم بالسمع والصم. (١٠) من م، في الأصل: وقال بعضهم: طائفة من عذاب ربك. (١١) في الأصل وم: سسى. (١٢) ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: العدل.

يفوته^(١) شيء، ولا يغيب عنه. وليس المراد من ذكر مقدار حبة ومقدار ذرة الذرة والحبة. ولكن ذكر على التمثيل، أي لا يقوت عنه شيء، ولا يغيب، ذلك المقدار من الخير والشر غير فائت عنه، ولا منسي، ولكن محفوظ محاسب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ لا تشغله كثرة الحساب وازدحامه، ليس كمن يحاسب آخر في الشاهد؛ إنه إذا كثر الحساب عليه، وازدحم، شغله ذلك عن حفظ الحساب، والله أعلم.

الآية ٤٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهو ما يفرق بين الحق والباطل وبين الشبه والواضح وبين ما يؤتى، ويتقى، وبين ما عليهم ولهم. والنور ما تتجلى به حقائق الأشياء، والضياء هو ما يظهر به حسن ما تجلى، واستنار. والروح^(٢) هو ما به حياة كل شيء. والقرآن سماء روحاً لأنه به حياة الدين. وسمى الماء حياة لأنه به حياة الأبدان. والمبارك هو ما ينال به [ويوصل إلى]^(٣) كل خير. والذكر هو ما يذكر ما لهم وعليهم. [وقوله تعالى]^(٤): ﴿وَذِكْرٌ﴾ قيل: هو الموعظة. والموعظة قيل: هي التي تليق القلوب، وتوسع الصدور، وتفسح، وتخشع بها الفؤاد.

وعلى هذا الوصف جميع كتب الله الذي وصف هذا القرآن بها، ثم بين أنها على الوصف الذي ذكر لمن؟ فقال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وإن كانت هي في أنفسها على الوصف الذي ذكر فإنها إنما تتجلى بها الشبه من الحقائق والحق من الباطل لمن قبلها، وأقبل نحوها، ونظر إليها بعين التعظيم والإجلال.

فأما من أغرض عنها فليست لهم على ما ذكر. لكن على ما أخبر بقوله: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٦]. ثم بين من المشرقون؟ فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [يختمل قوله: ﴿يَخْتَفُونَ رَبَّهُمْ﴾]^(٥) أي يخشون العذاب الموعود ﴿بِالْغَيْبِ﴾ في الآخرة، فيحذرون ما به يحل ذلك. وأما الكفار فإنهم^(٦) لم يخافوا العذاب الموعود، ولم يصدقوه. إنما يخافون العذاب المعين المشاهد. فأما العذاب الموعود في الغيب فلا يخافونه^(٧). ويختمل أيضاً قوله: ﴿يَخْتَفُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي يهابون ربهم، ويخافونه، وإن لم يروه لما رأوا من آثار سلطانهم وملكوته.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ يختمل هم من أهوال الساعة وأفزعها خائفون، أو أن يكون قوله: وهم من محاسبة أعمالهم مشفقون خائفون، فحاسبوا أنفسهم في الدنيا إشفاقاً على محاسبة أنفسهم في الآخرة.

الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ الذكر المبارك ما ذكرنا. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكْرِهُوا﴾ ظاهره، وإن كان استيفهاً فهو في الحقيقة إيجاب، كأنه قال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وتعرفونه أنه كذلك، فأنتم في هذا، له منكرونها، يذكر سقاهم، ويخبر عن عنايتهم.

الآية ٥١ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ قال^(٨) الحسن: ﴿رُشْدُهُ﴾ دينه وهداؤه. وقال غيره: ﴿رُشْدُهُ﴾ النبوة. وشبه أن يكون قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ حجبته وبراهينه التي حاج بها قومه على غير تعليم من أحد.

وفيه دلالة أن ليس كل رشد وهدي بياناً^(٩)، لأنه لو كان كله بياناً^(١٠) لم يكن لتخصيص إبراهيم بالرشد كثير معنى؛ إذ هو في ذلك وغيره من الكفرة والفراغة سواء. فدل قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أنه يكون من الله للمهتدين فضل صنع، ليس ذلك في الكافرين، وهو التوفيق والعصمة.

(١) من م، في الأصل: يفوت. (٢) في الأصل: روح. (٣) في الأصل: وم: ويصل إليه من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: وم: فإنه. (٧) في الأصل: وم: يخافون. (٨) في الأصل: وم: وقال. (٩) في الأصل: وم: بيان. (١٠) في الأصل: وم: بيان.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ قال بعضهم: من قبل الأوقات التي يُعطى البشر الرشدة، وهو حال الصغر، ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل محمد. وقال بعضهم: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ موسى وهارون. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قبل إيمان أهل الأديان كلها، لأن جميع أهل الأديان يَدْعُونَ أنهم على دين إبراهيم، فلا يَحْتَمِلُ أن يكون دينه ورُشْدُهُ الذي آتاه الله هو كل ذلك، بل إنما كان ذلك واحداً^(١). فَوَجِبَ النَّظَرُ فِيهِ والتأمل في ذلك لِيُظْهَرَ الدين الذي كان عليه إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا يَوْمَهُ عَلَيْهِنَ﴾ يَحْتَمِلُ قوله ﴿وَكُنَّا يَوْمَهُ عَلَيْهِنَ﴾ أي كنا بجميع ما يكون من إبراهيم عليهن.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَتَّخَذْتُمُوهَا ۖ أَنْتُمْ لَهَا عِبَادُونَ﴾ كأنه قال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَتَّخَذْتُمُوهَا﴾ ﴿أَنْتُمْ لَهَا عِبَادُونَ﴾ أي إنما يُعْبَدُ مَنْ يُعْبَدُ لِفِعْلٍ يكون من المعبود إلى مَنْ يُعْبَدُهُ. فاما أن يُعْبَدَ بما يُفْعَلُ بالمعبود فلا يَحْتَمِلُ. وهو ما قال إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٥ و٩٦] يُسْتَهْزَأُ بِهِمْ، وَيُعِيبُ عَلَيْهِمْ عِبَادَتَهُمْ^(٢) ما يَنْحِتُونَ بأيديهم، وَيَتْرَكُونَ عِبَادَةَ مَنْ خَلَقَهُمْ، وَخَلَقَ أَعْمَالَهُمْ.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ قد انقطع حجاجهم لما قال إبراهيم ما قال، وأظهر سَفَهَهُمْ، فَفَرَعُوا إِلَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ، ٣٤٠ - ب/ فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾.

الآية ٥٤

[وقوله تعالى]^(٣): ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لم يُنَكِرْ عليهم فِعْلَ آبَائِهِمْ وَعِبَادَتَهُمْ الأصنام، ولكن أقر لهم بِصَنِيعِ آبَائِهِمْ، ثم جَمَعَهُمْ وَآبَاءَهُمْ، وأخبر ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ بِعِبَادَةِ الأصنام.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا آجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ لما عَلِمُوا أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ لا يَقُولُ إِلَّا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ حُجَّةٌ وبرهانٌ ﴿قَالُوا آجِئْنَا﴾ بما تقول بِحُجَّةٍ ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ تَلْعَبُ بِنَا، وَتَهْزَأُ؟

الآية ٥٦

وأخبرهم^(٤) أنه جاءهم بالحق، وَبَيَّنَ لَهُمْ ذَلِكَ الْحَقَّ، فقال: ﴿بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ لا الأصنام التي تَعْبُدُونَهَا، أي رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي يُعَرِّفُ بِالذَّلَالَاتِ والبراهين وآثارِ الصَّنِيعَةِ فِي غَيْرِهِ لا الذي أَخَذْتُمْ أَنْتُمْ، وَأَتَّخَذْتُمُوهُ، والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وأنا على جميع ما قال، وكان منه مِنَ الْحِجَاجِ وإقامة الْحُجَجِ على أُلُوهِيَّتِهِ تعالى، وَتَسْفِيهِهِ أُولَئِكَ فِي عِبَادَةِ الأصنام مِنَ الشَّاهِدِينَ، أو مِنَ الشَّاهِدِينَ على خَلْقِهَا. ويجوز أن يُقَالَ: الشاهد المُبَيِّنُ، وأنا على ذلكم مِنَ الْمُبَيِّنِينَ، والله أَعْلَمُ.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ الأصنام، لا يُقْصَدُ إِلَيْهَا بِالْكَبِدِ، لكنَّ تَأْوِيلَهُ، والله أَعْلَمُ، لَأَكِيدَنَّ لَكُمْ فِي أَصْنَامِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ قال عامة أهل التأويل: إن إبراهيم إنما قال ذلك: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ عن الأصنام إلى عبيدكم، لأنهم كانوا يَخْرُجُونَ إلى عيدهم مِنَ الْعَدِ، فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي لَأَكِيدَنَّ لَكُمْ فِي أَصْنَامِكُمْ ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ عنها إلى عبيدكم.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ عَنِّي. وكانوا في ذَلِكَ الْوَقْتِ بِحَضْرَةِ الأصنام. ألا تَرَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عِبَادُونَ﴾؟ [و ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ ...]^(٥) فقال عند ذلك: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ عَنِّي.

على التأويل [الأول]^(٦) يكون تَوَلَّيَهُمُ الأدبار عن الأصنام إلى عيدهم. وعلى التأويل الثاني يكون تَوَلَّيَهُمُ الأدبار عن إبراهيم، والله أَعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) في الأصل وم: لعبادتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: وأخبره، في م: وأخبر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ جُدَادًا﴾ و﴿جُدَادًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قِطْعًا. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿جُدَادًا﴾ فُتَاتًا، وَكُلُّ شَيْءٍ، كَسَرْتُهُ، جَذَذْتُهُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلسُّوقِ جَذِيذٌ، وَالْجَذُّ هُوَ الْقِطْعُ، وَالْمَجْدُودُ الْمَقْطُوعُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُودَةٍ﴾ [هود: ١٠٨] أَيْ غَيْرَ مَقْطُوعٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّمْ تَمُوتْ﴾ لَمْ يَكْسِرْهُ^(١) لَمَّا لَمَّهٗمُ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ يَقُولُ: إِلَى الصَّنَمِ الْكَبِيرِ الَّذِي لَمْ يَكْسِرْهُ إِبْرَاهِيمُ، ﴿يَرْجِعُونَ﴾ مِنْ عِبَادِهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا لَمَّهٗمُ إِلَى الْحُجَّةِ يَرْجِعُونَ. وَقِيلَ: [إِلَى الصَّنَمِ، وَهُوَ^(٢)] أَحَجُّ الْقَوْلَيْنِ، أَيْ مِنَ الْحُجَّةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَمَّا لَمَّهٗمُ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ يَتَذَكَّرُونَ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿لَمَّا لَمَّهٗمُ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ يَرْجِعُونَ إِلَى مَا يُرِيدُ أَنْ يَكِيدَ لَهُمْ فِي أَصْنَامِهِمْ، لَأَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَكِيدَ لَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْأَصْنَامِ، فَرَأَوْهَا مَجْدُودَةً. وَالْكَيْدُ هُوَ الْأَخْذُ عَلَى الْأَمْنِ. وَكَذَلِكَ الْمَكْرُ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لَوْ تَأَمَّلُوا كَانُوا هُمُ الظَّالِمَةُ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَغْبِدُونَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ رَجَاءً مَنْفَعَةٍ تَكُونُ لَهُمْ حِينَ^(٣) قَالُوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَقَالُوا^(٤): ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَإِذَا رَأَوْهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْكُسْرِ وَالْقَطْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَدَفْعٍ مَنْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ كَيْفَ ظَمِعُوا مِنْهَا نَفْعًا أَوْ دَفْعَ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ [دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ فَهُوَ^(٥)] عَنْ دَفْعِهِ عَنْ غَيْرِهِ أَعْجَزُ.

فَهُمُ الظَّالِمَةُ فِي الْحَقِيقَةِ حِينَ^(٦) ظَمِعُوا النَّفْعَ وَدَفْعَ الضَّرْرِ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ. لَكِنْ قَالُوا ذَلِكَ سَفَهًا^(٧) مِنْهُمْ.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بِالْكَيْدِ لَهُمْ ﴿يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾.

وجائز أن يكون قوله: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بِالْعَدَاوَةِ، وَهُوَ حِينَ قَالَ: ﴿لَمَّا لَمَّهٗمُ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْمَلَائِكِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] أَخْبَرَ أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ عْبَدُوا الْأَصْنَامَ أَعْدَاءُ لَهُ؛ فَالْمَغْبُودُ الَّذِي عِبْدُوهُ يَكُونُ عَدُوًّا لَهُ أَيْضًا. فَاسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ الْقَوْلِ مِنْهُ أَنَّهُ هُوَ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا قَاتِلُوهُمْ إِنْهُمْ عَلَيْنَا نِجَاسٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ. وَقِيلَ: بِحَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ، وَهُوَ وَاحِدٌ.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا لَمَّهٗمُ يَشْهَدُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَشْهَدُونَ عُقُوبَتَهُ بِمَا فَعَلَ بِأَصْنَامِهِمْ، فَيَكُونُ نِكَالًا لَهُ وَرَجْرًا لِعَبِيدِهِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ [بِهَا مِثْلَ مَا فَعَلَ^(٨)] هُوَ. وَذَلِكَ [مَا^(٩)] ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وَالْعَنْكَبُوتُ: [٢٤] ﴿لَمَّا لَمَّهٗمُ يَشْهَدُونَ﴾ بِفِعْلِهِ الَّذِي فَعَلَ بِالْأَصْنَامِ. وَلَمْ يُرِيدُوا أَنْ يُعَاقِبُوهُ بِلَا بَيِّنَةٍ وَلَا حُجَّةٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَمَّا لَمَّهٗمُ يَشْهَدُونَ﴾ أَنَّهُ قَالَ لِأَلِهَتِهِمْ مَا قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٦٢ و٦٣

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿قَالَ بَلْ فَكَلَّمَكُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ﴾ اخْتَلَفَ فِي هَذَا؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا الْقَوْلُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ كَذِبٌ فِي الظَّاهِرِ فِي مَا أَرَادَ أَنْ يَكِيدَ لَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَهُ كَذِبًا، وَكَذَلِكَ مَا قَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وَكَانَ صَحِيحًا، وَقَوْلُهُ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و٧٧ و٧٨] وَمِثْلُ هَذَا قَالُوا: هَذَا فِي الظَّاهِرِ [كَذِبٌ، وَإِنْ لَمْ يَرِدْ هُوَ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ كَذِبًا].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يُرِيَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الْمُؤَافَقَةَ لَهُمْ فِي الظَّاهِرِ لِيَكُونُوا لِلْحُجَجِ أَسْمَعَ وَلِلْإِبْرَاهِيمِ أَقْبَلَ. فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَعَلَّ كَبِيرَهُمْ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا، أَوْ أَنْ يَقُولَ: اكْبُرُهُمْ^(١٠) فَعَلَ هَذَا بِهِمْ. وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و٧٧ و٧٨].

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَكْسِرُهُمْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) تَقَدَّمَ فِي الْأَصْلِ وَم عَلَى: ذَلِكَ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (١٠) فِي م: أَكْبَرُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ هَذَا، وَلَا فِيهِ كَذِبٌ فِي الظَّاهِرِ^(١) وَلَكِنْ قَالَ ذَلِكَ عَلَى الشَّرْطِ حِينَ^(٢) ﴿قَالَ بَلْ نَعْلَمُ كَيْدَهُمْ هَذَا تَتْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ عُلِّقَ فِعْلُهُ بِشَرْطِ النُّطْقِ. فَإِذَا كَانُوا لَا يَنْطِقُونَ لَمْ يَفْعَلْهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي سَافِرٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أَي سَافِئٌ، وَكُلُّ حَيٍّ يَسْفُمُ يَوْمًا. وقوله تعالى: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و٧٧ و٧٨] أَي لَيْسَ هَذَا رَبِّي. وَمِثْلُ هَذَا قَدْ قَالُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ بِاللَّامَةِ ﴿فَقَالُوا﴾ فِي مَا بَيْنَهُمْ ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ هَذَا يَخْتَمِلُ وَجُوهًا:

[أحدها: ^(٣) ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ حِينَ^(٤) تَسْبِئُ الْفِعْلَ بِهِذِهِ الْأَصْنَامِ وَالْكَسْرُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَقُلْتُمْ إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ، وَإِنَّمَا فَعَلَ بِهِمْ هَذَا كِبَرُهُمْ لِمَا وَقَعَ عَنْدهُمْ أَنَّ كِبَرَهُمْ هُوَ الَّذِي فَعَلَ بِهِمْ.

والثاني: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ حِينَ^(٥) اتَّخَذْتُمْ مَعَ كِبَرِهِمْ آخَرِينَ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّى غَضِبَ عَلَيْهِمْ، فَكَسَرَهُمْ. والثالث ^(٦): ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾ يَغْنُونَ الْأَصْنَامَ الْمَكْسُورَةَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ حِينَ^(٧) حَمَلْتُمْ الْكِبَرِ عَلَى كَسْرِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ.

وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَزِيدَ، أَوْ نَقْصُصَ فِي هَذِهِ الْأَنْبَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْكِتَابِ، أَوْ نَقْطَعَ عَلَى جِهَةٍ دُونَ جِهَةٍ، لِأَنَّهَا ذُكِرَتْ لِيُخْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ. فَلَوْ زِيدَ، أَوْ نَقْصُصَ، قُطِعَ عَلَى جِهَةٍ دُونَ [جِهَةٍ]^(٨)، وَذَهَبَ^(٩) الْإِخْتِجَاجُ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٥ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُكْسُوا عَنْ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ قوله: ﴿ثُمَّ لَنُكْسُوا عَنْ رُؤُسِهِمْ﴾ لِلتَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ^(١٠) ﴿قَالَ بَلْ نَعْلَمُ كَيْدَهُمْ هَذَا تَتْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] إِنَّمَا عُلِّقَ فِعْلُ الْكِبَرِ بِهِمْ إِنْ نَطَقُوا، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ / ٣٤١ - / يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فَكَيْفَ قُلْتَ: ﴿بَلْ نَعْلَمُ كَيْدَهُمْ هَذَا تَتْلُوهُمْ﴾؟ فَإِذَا كَانُوا لَا يَنْطِقُونَ لَمْ يَفْعَلْ كِبَرَهُمْ.

الآية ٦٦ [وقوله تعالى]^(١١): ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَخْتَجَّ عَلَيْهِمْ أَنْ كَيْفَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(١٢) مَا لَا يَنْطِقُ؟ وَلَكِنْ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟ قِيلَ: قَدْ كَانَ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ [مِنْ ذَلِكَ النُّوعِ حِينَ^(١٣) ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ؟ [الشعراء: ٧٢ و٧٣].

وَيُعَدُّ فَإِنَّهُ قَدْ اخْتَجَّ عَلَيْهِمْ^(١٤) بِعَجْزِهِمْ عَنِ النُّطْقِ حِينَ^(١٥) قَالَ: ﴿تَتْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. ثُمَّ قَالَ هَهُنَا ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ إِنْ عَبَدْتُمُوهُمْ ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إِنْ تَرَكْتُمْ عِبَادَتَهُ.

الآية ٦٧ [وقوله تعالى]^(١٦): ﴿أَنْتَ لَكُرٌّ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أَفْ هُوَ كَلَامٌ كُلُّ مُسْتَخِفٍّ بِآخِرٍ وَمُسْتَخْفِرٍ لَهُ فِي فِعْلِهِ. يَقُولُ ﴿أَنْتَ لَكُرٌّ﴾ فإِبْرَاهِيمُ حِينَ^(١٧) قَالَ [ذَلِكَ لَهُمْ إِنَّمَا قَالَ]^(١٨) اسْتَخَفُّوهُمْ بِهَيْمٍ وَبِمَا عَبَدُوهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ عِبَادَةَ مَنْ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ، لَا يَضِلُّ، وَلَا يَجِلُّ؟ وَفِي أَنْبَاءِ إِبْرَاهِيمَ خِصَالٌ لَيْسَتْ تِلْكَ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأَنْبَاءِ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ صَمًا كَانَ يُعْبَدُ دُونَ اللَّهِ إِلَّا وَقَدْ نَقَصَ ذَلِكَ.

والثانية: أَنَّهُ حَاجٌّ قَوْمَهُ أَوَّلًا فِي فَسَادِ مَذَاهِبِهِمْ وَفَسَادِ مَا اغْتَدَوْهُ، ثُمَّ يُعَدُّ ذَلِكَ أَقَامَ عَلَيْهِمْ حُجَجَهُ وَبِرَاهِينَهُ، لِأَنَّهُ قَالَ

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٨) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْهَبُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (١٢) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١٣) فِي م: حَيْث. (١٤) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٨) مِنْ م، ساقطة من الأصل.

هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦] وَقَالَ بَلْ تَعْلَمُونَ كَيْدَهُمْ هَذَا فَتَسْأَلُونَهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْفِقُونَ ﴿٧٧﴾ [الأنبياء: ٦٣] وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴿٧٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فلَمَّا أَرَاهُمْ فسادَ مذهبهم، فعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وَقَالَ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهْوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وهكذا الواجب على كل مُتَنَاطِرٍ أَنْ يَبْدَأَ أَوَّلًا بِإِظْهَارِ فَسَادِ مَذْهَبِ خَصْمِهِ. فإذا أَرَاهُ فسادَ مذهبِهِ فحينئذٍ يَذْكُرْ حُجَجَ مَذْهَبِهِ وَبَرَاهِينَ مَا يَغْتَفِدُ لِيَكُونَ لَهَا أَسْمَعٌ وَعِنْدَ إِقَامَتِهَا أَقْبَلُ.

والثالثة^(٢): أَنَّهُ لَمْ يَبْتَلِ نَبِيٍّ قَطُّ بِفِرْعَوْنَ مِثْلَ فِرْعَوْنِهِ وَلَا قَوْمٍ مِثْلَ قَوْمِهِ فِي السَّعْيِ وَالْبُغْضِ وَالْهَمِّ بِقَتْلِهِ فِي النَّارِ.

وجائزٌ أَنْ تَكُونَ خُصُوصِيَّتُهُ بِالْخَلْقَةِ^(٣) لِهَذِهِ الْخِصَالِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ هذا ظاهرٌ.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ جائزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا﴾ أَيْ جَعَلَهَا فِي الْخَلْقَةِ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ خَاصَّةً. وَأَمَّا عَلَىٰ غَيْرِهِ فَبِهِ عَلَىٰ مَا هِيَ فِي طَبْعِهَا مِنَ الْإِحْرَاقِ وَالْحَرِّ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ رِسَالَةِ إِبْرَاهِيمَ وَثُبُوتِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ عَلَىٰ مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ أَوْحَىٰ لَهَا: أَنْ ﴿كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

الآية ٦٩

لكنهُ إِنْ كَانَ عَلَىٰ هَذَا فَجَائِزٌ أَنْ يَجْعَلَ فِي سِرِّيَّتِهَا مَا تَفْهَمُ أَمْرَهُ، وَيُمْكِنُ فِيهَا مَا تَقْطُرُ ذَلِكَ، فَلَمْ تَحْرِقْهُ وَقَوْلُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهَا بَرَدَتْ حَتَّىٰ لَمْ يَتَّبِعْ بِهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالسَّمْعِ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ الْكَيْدُ هُوَ الْأَخْذُ مِنْ حَيْثُ الْأَمْنُ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا كَادُوهُ أَنْ حَبَسُوهُ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ جَمَعُوا عَلَيْهِ الْحَطَبَ مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِمَ هُوَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَوْقَدُوا عَلَيْهِ النَّارَ، أَوْ أَنْ أَخَذُوهُ مُحَاقَصَةً^(٤)، فَجَعَلُوهُ فِي الْمِنْخَبِ، ثُمَّ رَمَوْهُ فِي النَّارِ عَلَىٰ مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، أَوْ أَنْ يَكُونُوا كَادُوهُ كَيْدًا آخَرَ سِوَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ. فَتَحْنُ لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَخْسَرِينَ. وَأَمَّا خُسْرَانُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَلَا نَعْلَمُ مَا ذَلِكَ الْخُسْرَانُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا جُعِلَ فِي النَّارِ أَنْجَاءُ اللَّهِ مِنْهَا، وَجَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا، فَطَلَبُوهُ، وَبَعَثَ مَلَائِكُهُمْ إِلَى أَصْحَابِ الْمَنَاظِرِ، فَقَالَ: لَا يَمُرُّ بِكُمْ إِنْسَانٌ يَتَكَلَّمُ بِالسَّرْيَانِيَّةِ إِلَّا حَبَسْتُمُوهُ. قَالُوا^(٥): فَحَوَّلَ اللَّهُ لِسَانَهُ، [فَجَعَلَهُ يَنْطِقُ]^(٦) بِالْعِبْرَانِيَّةِ؛ فَمَرَّ بِهِمْ، فَغَيَّرَ عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ أَهْلِهِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أَيْ الْأَسْفَلِينَ، وَأَعْلَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْنِبْنَاهُ وَلُوطًا﴾ دَلَّ هَذَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ كَالْمُشْرِفِ عَلَى الْهَلَاكِ لِأَنَّ لُفْظَةَ النِّجَاجِ لَا تُقَالُ إِلَّا فِي مَا كَانَ هُنَالِكَ إِشْرَافٌ عَلَى الْهَلَاكِ. وَفِيهِ أَنَّ لُوطًا كَانَ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ هُوَ الْمُتَمَتِّحُ فِي ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ قُصْدَ إِهْلَاكِ الرُّسُلِ وَالْأَتْبَاعِ جَمِيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: بَرَكْتُهُ لِمَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَوَاوَيْنَهُمَا إِلَى نُبُوتِ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] كَثِيرَةُ الْمَيَاءِ وَالتَّنْبِتِ وَنَحْوُهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الثَّلَاثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْخَلْقَةِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مَغَافِضَةٌ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ.

(٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَرَكَتُهُ سَعَتْهُ عَلَى أَهْلِهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَرَكَتُهُ لَأَنَّهَا كَانَتْ مَكَانَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَصَارَتْ^(١) مُبَارَكَةً لِإِبْرَاهِيمَ وَلُوطًا، لِمَا بِهِمْ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ هُنَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَوْحَنَا لَهُ: إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ نَافِلَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: النَّافِلَةُ الْعَطِيَّةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: النَّافِلَةُ الْفَضْلُ.

وَأَصْلُ النَّافِلَةِ الْغَنِيمَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١] أَيِ الْغَنَائِمِ. وَالْوَلَدُ وَالْوَلَدُ فَضْلٌ مِنْهُ وَعَطِيَّةٌ وَغَنِيمَةٌ، لِأَنَّهُ سَمَّى الْوَلَدَ هِبَةً بِقَوْلِهِ: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكْرَ﴾ [الشورى: ٤٩] وَسَمَّى [الْوَلَدَ مُوَهَّبًا]^(٢) وَخَاصَّةً إِبْرَاهِيمَ [إِذَا]^(٣) لَمْ يَكُنْ يَقْطَعُ أَنْ يُوَلَّدَ لَهُ الْوَلَدُ، فَكَيْفَ يَقْطَعُ بَوْلِدَ^(٤) الْوَلَدِ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿صَالِحِينَ﴾ رُسُلًا، أَوْ ﴿صَالِحِينَ﴾ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَكُلِّ شَيْءٍ.

الآية ٧٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ قَادَةٌ فِي أَمْرِ الدِّينِ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَهْدُونَ﴾ أَيِ يَذْعُونَ النَّاسَ بِأَمْرِنَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أَيْ دَاعٍ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أَيِ يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى مَا بِهِ أَمْرُ اللَّهِ وَإِلَى دِينِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ﴾ أَنَّهُمْ كَانُوا رُسُلًا. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [فِعْلَ الْعِبَادَاتِ]^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ فِيهِ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ كَانَتَا فِي شَرَائِعِ الْمُتَقَدِّمِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَاذِبًا لَنَا عِدِينَ﴾ مُوَحِّدِينَ، أَوْ عَابِدِينَ لَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

الآية ٧٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا مَا لَبِثَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: حُكْمًا؛ يَعْنِي التَّبَوُّةَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حُكْمًا﴾ أَيِ الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ ﴿وَعِلْمًا﴾. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿حُكْمًا﴾ أَيِ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ أَيِ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ بِهِ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ.

وَمَنْ قَالَ: ﴿حُكْمًا﴾ هُوَ التَّبَوُّةُ قَالَ: لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا يَحْكُمُونَ بَيْنَ النَّاسِ بِالتَّبَوُّةِ. فَكَثُرُوا بِالْحُكْمِ عَنِ التَّبَوُّةِ. وَمَنْ قَالَ بِالْفَهْمِ فَهُوَ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بَعْدَ مَا فَهِمَ مِنَ الْخُصُومِ، وَإِلَّا حَاصِلُ الْحُكْمِ هُوَ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ أَيِ الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ يَحْكُمُ، أَوْ ﴿وَعِلْمًا﴾ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْسِ﴾ أَضَافَ عَمَلَ الْخَبَائِثِ إِلَى الْقَرْيَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقَرْيَةَ لَا تَعْمَلُ شَيْئًا، لَكِنْ مَعْنَاهُ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي﴾ كَانَ أَهْلُهَا يَعْمَلُونَ الْخَبَائِثَ. وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ حَفْصَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿الْفَبْسِ﴾ كُلُّ أَنْوَاعِ الْخُبْثِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْآيَاتِ وَاللُّوَاطَةِ وَغَيْرِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْرٍ فَسِقِينَ﴾ أَيِ كَانُوا قَوْمَ سَوْرٍ فِي أَفْعَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا ﴿فَسِقِينَ﴾ أَيِ خَارِجِينَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَارِكِينَ لَهُ. وَالْفِسْقُ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْأَمْرِ.

الآية ٧٥

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾]^(٦) لِأَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ يُدْخَلُ فِيهَا، وَيُذَرِّكُ^(٧). وَقَالَ بَعْضُهُمْ^(٨): ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ أَيِ نِعْمَتِنَا، وَنِعْمَتُهُ التَّبَوُّةُ كَقَوْلِهِ [عَنْ عِيسَى]^(٩): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] / ٣٤١ - ب / بِالتَّبَوُّةِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ أَيِ أَغْطَيْنَاهُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ بِرَحْمَتِنَا؛ إِذْ كُلُّ مَنْ أَصَابَ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّمَا يُذَرِّكُهُ بِرَحْمَتِهِ.

(١) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْوَلَدُ مُوَهَّبًا. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَيَتَرَكُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الْمَكِيدِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ، أو ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الْمَكِيدِينَ﴾ لَأَنَّهُ^(١) كَانَ يَفْعَلُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الصَّلَاحِ.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ إِثْرِهِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي نَدَائِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: نِدَاؤُهُ، هُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نِدَاؤُهُ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦٥] أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] وَأَمثَالُهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَانْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئَيْنَاهُ وَآهْلَهُ﴾ أَهْلُهُ أَتْبَاعُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَغَيْرِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ هُوَ الْغَرَقُ وَالْهَوْلُ الشَّدِيدُ الَّذِي كَانَ بِهِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْكَرْبُ الْعَظِيمُ هُوَ [مَا قَاسَى] ^(٢) مِنْ قَوْمِهِ، وَلَقِيَ مِنْهُمْ بِدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ مِثِّهِ وَخَمْسِينَ عَامًا وَمَا كَانُوا يَسْخَرُونَ بِهِ، وَيُؤْذِنُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَىٰ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَذَى الَّذِي قَاسَاهُ مِنْهُمْ، فَانْجَاهُ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وَفِي حَرْفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وَالتَّضَرُّ هُوَ اسْمٌ لِأَمْرَيْنِ: اسْمٌ لِلْمَنْعِ وَاسْمٌ لِلظَّفَرِ. فَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ مَعْنَاهُ مِنْ أَنْ يَقْتُلَهُ قَوْمُهُ، وَيُهْلِكُوهُ؛ وَالتَّضَرُّ الْمَنْعُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَأْمُرْ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] أَيْ لَا مَانِعَ لَهُمْ. وَمَنْ قَرَأَ: عَلَى الْقَوْمِ ^(٣) الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا أَيْ أَظْفَرْنَاهُ عَلَى قَوْمِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَتَصَرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وَقَدْ كَانَ لَهُ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا: الْمَنْعُ وَالظَّفَرُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ﴾ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ حَتَّىٰ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ. قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْكَرْبُ وَاحِدٌ، وَجَمْعُهُ كُرُوبٌ، وَهِيَ الْهُمُومُ وَالشَّدَائِدُ، وَالْكُرْبَةُ وَاحِدَةٌ، وَالْكُرُوبُ جَمِيعٌ، وَهُوَ مِثْلُ [جَمْع] ^(٤) الْكَرْبِ؛ قَالَ: وَالْأَكْرَابُ يَكُونُ لِلدَّلَاءِ، وَهِيَ جَمَاعَةُ الْكَرْبِ، وَهُوَ حَبْلٌ يُشَدُّ فِي عِرَاقِي الدَّلْوِ، وَعِرَاقِي الدَّلْوِ خَشَبَاتُ الدَّلْوِ، الْوَاحِدَةُ عِرْقُودَةٌ؛ قَالَ: وَالْكَرَابُ الْحَرَاثُ.

الآيتان ٧٨ و ٧٩

وقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُكَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَثَتْ فِيهِمْ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الْآيَةُ. قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: دَلَّ تَخْصِيصُ سُلَيْمَانَ بِالتَّفْهِيمِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ دَاوُدَ ذَلِكَ. وَيَذُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَجْهُ:

أَحَدُهَا: إِشْرَاحُهُ إِيَّاهُمَا جَمِيعًا فِي الْحُكْمِ وَالْعِلْمِ وَغَيْرِهِ حِينَ ^(٥) قَالَ: ﴿إِذْ يَمْكُكَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وَقَالَ: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] ذَكَرَ مَا كَانَا مُشْتَرَكَيْنِ فِيهِ، وَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالتَّفْهِيمِ. فَذَلَّ التَّخْصِيصُ بِالشَّيْءِ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَالْإِشْرَاقُ فِي الْآخَرِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَخْصُوصًا بِهِ دُونَ الْآخَرِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ لَنَا لِنَسْتَفِيدَ بِهَا عِلْمًا لَمْ يَكُنْ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ سُلَيْمَانُ مَخْصُوصًا بِالتَّفْهِيمِ دُونَ دَاوُدَ لَكَانَ يُفِيدُنَا سَوَى الْحُكْمِ وَالْعِلْمِ، وَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُمَا قَدْ أُوتِيَا حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَانَا يَحْكُمَانِ بِالْعِلْمِ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَذَلَّ التَّخْصِيصُ بِالتَّفْهِيمِ لِأَحَدِهِمَا عَلَى أَنَّ الْآخَرَ لَمْ يَكُنْ مُفْهَمًا ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالثَّلَاثُ: فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْمُجْتَهِدَ إِذَا حَكَمَ، وَأَصَابَ الْحُكْمَ، أَنَّهُ إِنَّمَا أَصَابَ بِتَفْهِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَبِتَوْفِيقِهِ حِينَ ^(٦) أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ آتَاهُمَا جَمِيعًا الْعِلْمَ، ثُمَّ خَصَّ سُلَيْمَانَ بِالتَّفْهِيمِ، وَالتَّفْهِيمُ هُوَ فِعْلُ اللَّهِ حِينَ ^(٧) أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: أَيْ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْقَاسِي. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنَةِ ح ١٤٣/٤. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَهُوَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنْ الْأَصْلِ رَم. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْث.

ثم إن كان ما ذكرنا كان في ذلك دلالة لأصحابنا في من قتل مسلماً في دار الحرب، أسلم هنالك، أن عليه الكفارة، وليس عليه الدية حين^(١) قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّرَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّرَةٌ﴾ [النساء: ٩٢] ذكر في الأولين الدية والكفارة جميعاً، ثم خص الثالثة بذكر الكفارة دون الدية، فدلّ التخصيص له بأحدهما على أن ليس عليه الآخر، لأنه لو لم يكن كذلك لكان يذكر في الأول الدية والكفارة، ولا يذكر في الآخرين، أو لا يذكر ذلك كله في الكل. فإذا لم يفعل هكذا، ولكنه ذكر كل الواجب في الاثنين على الإبلاغ، وترك في الواحد أحدهما، وذكر الآخر. فدلّ تخصيص الثالث بأحد الحكمين على أن ليس عليه الآخر.

ثم استدلوا بهذه الآية على جواز العمل والقضاء بجتهاد الرأي. فمنهم من استدلّ بإصابة المجتهد في ما يجتهد، وإن يصب هو الحكم الذي هو حكم عند الله فيه حقيقة، وهو قول^(٢) من يقول: كل مجتهد مصيب في ما عليه من الاجتهاد في تلك الحادثة، وهو قول أبي يوسف ومحمد، رجحهما الله.

ومنهم من يستدل به بخطأ أحد المجتهدين وعذره في خطئه، فيذهب إلى أن المقصود مما كُلف من الحكم في ذلك واحد لا [حكمين مختلفين]^(٣) فإذا كان المقصود مما كُلف من الحكم فيه واحداً فلا يجوز أن يحكم اثنين في شيء واحد يحكمين مختلفين، والمقصود فيه واحد، فيكونان جميعاً [مصيبين حين]^(٤) خص أحدهما بالتفهيم بقوله: ﴿فَقَهَّمْنَاهَا سُلَيْمًا﴾ فلو كانا جميعاً مصيبين كانا جميعاً مفهّمين.

فإذا أخبر أنه فهم سليمان، ولم يفهم الآخر، دلّ أن المصيب، هو المفهم منهما، وهو قول أبي حنيفة وبشر وغيرهما.

ومن استدلّ بإصابة، يستدلّ بقوله: ﴿وَكَلَّأْنَا نَحْكُمًا وَعِلْمًا﴾ فدلّ ذلك على أنه لم يكن عليهما غير ما فعلا، وحكما فيه، وإن لم يصيبا الحكم الذي هو حكم حقيقة عند الله.

ثم ذكر في الآية أنهما يحكمان في الحرب، ولم يذكر أنهما حكما بالضمان أو البراءة عن الضمان أو كيف كان حكمهما؟ فدلّ ترك بيان ما حكما فيه على أن ليس علينا ذلك الحكم؛ إذ بين لنا ما علينا العمل فيه. فدلّ بيان أحدهما وترك بيان الآخر على أن ليس علينا الذي ترك ذكره وبيانه.

إلا أن أهل التأويل حملوا حكمهما على الضمان والبراءة. وعلى ذلك روي في الخبر عن رسول الله ﷺ «رُوي أن ناقة لرجل هاربة، دخلت حائط رجل، فافسدت ما فيه، فكلم رسول الله فيها، فقضى أن يحفظ الحائط بالنهار على أهلها، وأن يحفظ المواشي بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل» [أحمد ٤٣٦/٥].

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «ما أصابت الماشية بالليل فعلى أهلها، وما أصابت بالنهار فليس على أهلها منه شيء» [السيوطي في الدر المنثور ٦٤٧/٥] لكن الخبر إنما جاء في المدينة. وفي المدينة إنما ترعى الماشية في السكك، إذ ليس لها مراعى.

ونحن نقول: إن من أرسل ماشيته في مكان لا مرعى لها إلا كرم إنسان أو حائط، فافسده^(٥)، فإننا نوجب الضمان ضمان ما أفسدت. وهو كمن يرسل [الماء]^(٦) في ملكه في مكان، لا يقر فيه، فتعدى إلى ملك جاره فافسده. فعليه ضمان ما أفسده منه.

ومن الناس من يجعل الخبر منسوخاً بما جاء «جرح العجماء جباراً» [بنحوه مسلم ١٧١٠] لكن الوجه فيه ما ذكرنا. وإنما يكون جرحها جباراً إذا تعدت من غير إرسال صاحبها. فأما إذا كان يصنع صاحبها فعليه/٣٤٢- الضمان، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: القول. (٣) في الأصل وم: حكمين مختلفين. (٤) في الأصل وم: مصيبان حيث. (٥) في الأصل وم: فافسده. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وَقَالَ الْقَتِيُّ: «نَفَسَتْ» أَي رَعَتْ لَيْلًا. يُقَالُ: نَفَسَتِ الْغَنَمُ بِاللَّيْلِ، وَهِيَ إِبِلٌ نَفَسَتْ وَأَنْفَاشٌ وَنَفَاشٌ، وَاجِدُهَا: نَافِشٌ، وَسَرَحَتْ، وَسَرَبَتْ بِالنَّهَارِ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: «إِذَا نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» يُقَالُ: أَنْفَسْنَا الْغَنَمَ إِذَا أَثَرْنَاهَا فِي اللَّيْلِ، فَرَعَتْ، وَهُوَ النَّفْسُ، وَنَفَسَتْ^(١) أَيِ انْتَشَرَتْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَهْلِهَا، نَفَسَتْ تَنْفُسُ نَفْسًا، فَهِيَ نَافِئَةٌ.

قَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: النَّفْسُ بِاللَّيْلِ أَنْ تَدْخُلَ فِي زَرْعٍ، فَتَأْكُلَهُ، أَوْ رَعَتْ، فَتَأْكُلُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ» ذَكَرَ التَّسْبِيحَ هُنَا فِي الْجِبَالِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الطَّيْرِ. وَلَكِنْ ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى حِينَ^(٢) قَالَ: «وَالطَّيْرُ تَحْمَدُهُ كُلُّ لَهْ أَوَّابٍ» [ص: ١٩] أَيِ^(٣) تُسَبِّحُ لَهُ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَسْبِيحُ الْجِبَالِ هَهُنَا [وَتُسَبِّحُ الطَّيْرُ]^(٤) تَسْبِيحَ خَلْقَةٍ. لَكِنَّهُ لَوْ كَانَ تَسْبِيحَ خَلْقَةٍ لَكَانَ تَسْبِيحُهَا مَعَ دَاوُدَ وَغَيْرِهِ سَوَاءً. وَقَدْ ذَكَرَ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَسْبِيحًا، يُسَبِّحُ اللَّهَ، وَيَذْكُرُونَهُ.

وَكذلك مَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ الطَّعَامَ سَبَّحَ فِي كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرُوِيَ أَنَّهُ أَخَذَ حَجْرًا، فَسَبَّحَ فِي يَدِهِ، وَأَنَّهُ أَخَذَ كَذَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَأَمثالٌ هَذَا كَثِيرٌ، وَذلك كُلُّهُ آيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَسُولِيهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكُنَّا فَاعِلِينَ» أَيِ كُنَّا فَاعِلِينَ مَا نُرِيدُ: إِنْ أَرَدْنَا أَنْ يُسَبِّحَنَّا سَبِّحْنَ، وَإِنْ أَرَدْنَا الْآ يُسَبِّحُنَّ لَا يُسَبِّحُنَّ، أَيِ كُنَّا فَاعِلِينَ جَمِيعَ مَا نُرِيدُ لَنَا^(٥) كَالْخَلْقِ، لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَشْيَاءَ لَا تَلَايُمُهَا.

الآية ٨٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» كَقَوْلِهِ^(٦) فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا بَنِيَّالٍ أَرَبِيٍّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالْأَنْعَامُ لَهُ الْحَمْدُ﴾ «أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَقَدْرًا فِي السَّاعَةِ» الْآيَةِ [سَبَا: ١٠ و ١١].

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: «وَالنَّارُ لَهُ» أَيِ عَلَّمْنَاهُ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَلِينُ الْحَدِيدُ، فَيَضَعُ بِهِ مَا شَاءَ كَمَا عَلَّمَ غَيْرَهُ مِنَ الْخَلْقِ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَلِينُ الْحَدِيدُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ جَعَلَ الْحَدِيدَ لَنَا بَلَا سَبَبٍ تَسْخِيرًا لَهُ كَمَا سَخَّرَ لَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الشَّدِيدَةِ الصَّلَبَةِ كَمَا أَعْطَى وَلَدَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ حِينَ^(٧) قَالَ: «وَأَلَّمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ» [سَبَا: ١٢] وَذلك لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ سِوَاهُ وَكَذلكَ الْحَدِيدُ. أَلَا إِنَّ لِيُوَالِدِهِ حَتَّى يَنْعَمَلَ بِهِ مَا شَاءَ مَا لَمْ يَكُنْ ذلك لِأَحَدٍ^(٨) سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ» قِيلَ: دَرُوعَ الْحَدِيدِ «لِيُحَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ» أَيِ تَقِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ أَيِ مِنْ غَدُوِّكُمْ وَمِنْ أَمْرِ خَرَبِكُمْ.

وَفِيهِ قَرَاءَاتٌ^(٩): «لِيُحَصِّنَكُمْ» بِالتَّاءِ، وَلِيُحَصِّنَكُمْ بِالْيَاءِ، وَلِيُحَصِّنَكُمْ بِالنُّونِ. قَالَ الْكَسَائِيُّ: مَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ «لِيُحَصِّنَكُمْ» أَيِ الصَّنْعَةِ يُحَصِّنُكُمْ «مِنْ بَأْسِكُمْ» وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ لِيُحَصِّنَكُمْ أَيِ اللَّبُوسِ يُحَصِّنُكُمْ «مِنْ بَأْسِكُمْ» وَمَنْ قَرَأَ بِالنُّونِ لِيُحَصِّنَكُمْ فَإِنَّهُ يَقُولُ اللَّهُ: نُحَصِّنُكُمْ نَحْنُ «مِنْ بَأْسِكُمْ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ» مَا أَعْطَاكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي ذَكَرَ مِنْ تَسْخِيرِ الْجِبَالِ لَهُ وَالطَّيْرِ وَالْحَدِيدِ وَالرِّيحِ وَغَيْرِهَا^(١٠) «فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ» ذلك، أَيِ اشْكُرُوا لَهُ فِي نِعَمِهِ، لِأَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْإِيجَابِ وَالْإِلْزَامِ.

الآية ٨١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالسَّيِّدَاتِ الرِّيحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ» ذَكَرَ هَهُنَا عَاصِفَةً، وَقَالَ فِي آيَةِ أُخْرَى: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَّاءً حَيْثُ أَسَابَ» أَيِ لَيْتَةً. فَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

قَالَ بَعْضُهُمْ: كَأَنَّهُا تَشْتَدُّ إِذَا أَرَادَ سُلَيْمَانُ، وَتَلِينُ إِذَا أَرَادَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَأَنَّهُ تَشْتَدُّ وَتَلِينُ حَمَلِ السَّرِيرِ، وَتَلِينُ وَتَتْ

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَنَفَسْنَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَوْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالطَّيْرُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي حَدِيدٍ. (٩) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقَرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَةِ ج ٤/ ١٤٤. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ.

سِيرِهِ. وَيَخْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدة في الخَلْقَةِ، لكنها تَلِينُ لَهُ، وتَرْخُو؛ فكانه يقول: سَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ العاصِفَةَ الشديدة حتى كانت تَلِينُ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ لا يَقْصِدُ غَيْرَهَا^(١) ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾.

الآية ٨٢

[وقوله تعالى]^(٢): ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَشُورُ لَمْ يَشَأْ وَمِنَ الْبَشَرِ مَنْ يَشُورُ لَمْ يَشَأْ﴾ ذَكَرَ نِعْمَةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمَا حِينَ^(٣) أَخْبَرَ أَنَّهُ سَخَّرَ لِهَمَا أَشَدَّ الْأَشْيَاءِ وَأَضْلَبَهَا مِنْ نَحْوِ الْجِبَالِ وَالرِّيَّاحِ وَالْبَحَارِ وَالْحَدِيدِ وَالشَّيَاطِينِ أَيْضًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ النَّبِيِّ آدَمَ، سَخَّرَ لَهُ الْأَعْدَاءَ الشَّيَاطِينِ وَالرِّيَّاحَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ حَتَّى لَا يُضِلُّوا النَّاسَ.

[والثاني]^(٤): ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ عَلَى سُلَيْمَانَ لثَلَا يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، لِأَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ لَا يَمْلِكُ إِمْسَاكَهُمْ وَاسْتِنْعَامَهُمْ، لَكِنَّ اللَّهَ سَخَّرَهُمْ لَهُ حَتَّى عَمِلُوا لَهُ، وَذَلُّوا لَهُ، وَخَضَعُوا.

والثالث: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ عَنِ الْخِلَافِ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [ص: ٤١] ذَكَرَ فِي سُلَيْمَانَ أَنَّهُ سَلَّطَهُ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَجَعَلَهُمْ مُسَخَّرِينَ لَهُ، يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَعَمَلٍ شَاءَ. وَذَكَرَ فِي أَيُّوبَ عَلَى إِثْرِ قِصَّةِ سُلَيْمَانَ أَنَّهُ سَلَّطَ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ، وَصَارَ هُوَ كَالْمُسَخَّرِ لَهُمْ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ حَتَّى [يُعْلَمَ]^(٦) أَنَّ تَسْخِيرَ الشَّيَاطِينِ لِسُلَيْمَانَ، كَانَ لَهُ إِفْضَالٌ وَإِنْعَامٌ، لَمْ يَكُنْ سَبَقَ مِنْهُ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ ذَلِكَ، وَيَسْتَحِقُّهُ، وَلَا كَانَ مِنْ أَيُّوبَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِضْبَانِ مَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ. وَمَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ مِنْهُ عَذْلٌ. وَكَانَ مَا يُعْطِي مِنَ السَّلَامَةِ وَالصَّحَّةِ رَحْمَةً وَنِعْمَةً. وَلَهُ أَنْ يُعْطِيَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ، وَيَحْرِمَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ لَمَّا رَدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذَ مِنْهُ، وَكَشَفَ عَنْهُ الْبَلَاءَ ﴿رَحْمَةً﴾؟ [الأنبياء: ٨٤] وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَهُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لِيَذْكُرِ الرَّحْمَةَ مَعْنًى.

فهذا يَرُدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ أَنَّ عَلَى اللَّهِ الْأَصْلَحَ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ لِأَنَّهُ مَا أَصَابَ أَيُّوبَ مِنَ الْبَلَايَا أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيَاطِينِ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [ص: ٤١] وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ أَصْلَحَ فِي دِينِهِ لَكَانَ لَا يُضَيِّفُ فِعْلَ الْأَصْلَحِ لَهُ فِي الدِّينِ إِلَى الشَّيَاطِينِ. فَذَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ يُشِيرُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِضْمَارٌ دَعَاءٍ؛ كَانَهُ قَالَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فَأَرْحَمْنِي، وَعَافِنِي ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾؟ [الأنبياء: ٨٤] دَلَّ أَنَّهُ عَلَى الدَّعَاءِ خَرَجَ [كَقَوْلِهِ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [ص: ٤١]]^(٨) وَصِرَتْ بِحَالٍ يَرْحَمُنِي مَنْ رَأَى مِنَ الْخَلْقِ ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ هُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَشَفَ عَنْهُ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ حَتَّى عَادَ إِلَى الْحَالِ الَّتِي كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَتِي أَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا وَمِثْلَ أَجْوَرِهِمْ فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا أَتَيْنَهُ أَهْلُهُ﴾ فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ ﴿وَمِنْهُمْ مِمَّنْهُمْ﴾ وَكَانَتْ امْرَأَةُ أَيُّوبَ وَلَدَتْ قَبْلَ الْبَلَاءِ أَوْلَادًا بَنِينَ وَبَنَاتٍ، فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا أَتَيْنَهُ أَهْلُهُ﴾ أَيَّ مَا يَتَأَهَّلُ بِهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَنْصَارِ عَلَى مَا كَانَ لَهُ مِنْ قَبْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ادراج قبلها في الأصل وم: وقوله تعالى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم حيث. (٤) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: والثاني في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ يَخْتَلِفُ [وجهين]:

أحدهما^(١): أَنَّ مِنَ ابْتِلَاءِ بِلَاءٍ، فَصَبَرَ عَلَى مَا صَبَرَ أَيُّوبُ عَلَى بِلَائِهِ^(٢)، فَفَرَّجَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ [البلاء]^(٣) يَفْرِجُهُ عَنْهُ كَمَا فَرَّجَ لَأَيُّوبَ.

والثاني: يُعْلِمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَيْسَ لِأَمْرِ سَبَقَ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ ابْتِدَاءٌ مُّخْتَلِفٌ مِنَ اللَّهِ، امْتَحَنَهُ بِهَا، وَلَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ مَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْمُحَنِ.

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الْعَبْدِينَ﴾ [يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ]^(٤) [ذو الكِفْلِ اسماً]^(٥) مِنْ أَسْمَائِهِ.

وجائزُ أَنَّهُ سَمَّى ذَا الْكِفْلِ لِأَمْرِ كَانَ مِنْهُ؛ ذِكْرُ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، فَكُفِّلَ لِنَبِيِّ بِأَمْرِ قَوْمِهِ، فَوَقَّى مَا تَكْفَّلَ بِهِ، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ ذَا الْكِفْلِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ نَبِيًّا وَلَسْنَا^(٦) نَعْلَمُ ذَلِكَ سِوَى أَنَّهُ ذِكْرُ أَنَّهُ مِنْ الْعَبْدِينَ. ٣٤٢ - ب/ سَمَّاهُمْ صَابِرِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَأَنَّهُمْ جَمَعُوا جَمِيعَ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ وَجَمِيعَ أَنْوَاعِ الصَّلَاحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٦

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا قَالُوا مِنَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاحِ، كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلُهُ. وَهَكَذَا أَنَّ مَنْ نَالَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالطَّاعَاتِ فَإِنَّمَا يَنَالُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِرَحْمَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٧

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّورُ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِذَا النُّورُ﴾ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ، سُمِّيَ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمَّاهُ ذَا النُّورِ لِكَوْنِهِ فِي بَطْنِ النُّورِ، وَهُوَ الْحَوْثُ، أَيْ صَاحِبُ النُّورِ؛ سُمِّيَ بِاسْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: أَحَدُهُمَا: اسْمٌ مَوْضُوعٌ، وَالْآخَرُ: مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ وَمِمَّا كَانَ بِهِ، وَهُوَ كَمَا^(٧) سَمَّى عِيسَى مَرَّةً، وَسَمَّاهُ مَسِيحًا أُخْرَى: أَحَدُهُمَا: اسْمٌ مَوْضُوعٌ، وَالْآخَرُ: مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ، وَهُوَ مِمَّا كَانَ يَنْسَحُ بِهِ الْمَرْضَى وَالْمَوْتَى، فَيَبْرَؤُونَ. وَكَذَلِكَ ﴿وَإِذَا الْكُفُلُ﴾ [الأنبياء: ٨٥] يُخْرِجُ عَلَى هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَوْضُوعٌ لَهُ، وَالْآخَرُ مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ذَهَبَ مُغْضًى﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ أَيْ حَزِينًا لَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ اللَّهَ قَوْمَهُ لَمَّا آيَسَ مِنْ إِيْمَانِ قَوْمِهِ، وَقَدْ كَثُرَ عِنَادُهُمْ وَمُكَابَرَتُهُمْ، فَخَرَجَ حَزِينًا لِذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مُغَاضِبًا لِلْمَلِكِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمَهُ قَدْ [أَسْرَهُمْ عَدُوَّهُمْ، وَقَدْ كَانَ اللَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِذَا] ^(٨) أَسْرَكْتُمْ عَدُوَّكُمْ، أَوْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ، فَادْعُونِي. فَإِذَا دَعَوْتُمُونِي اسْتَجَبْتُ لَكُمْ. فَلَمَّا أَسِيرُوا نُسُوا أَنْ يَدْعُوهُ زَمَانًا. حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ أَيَّامُ عَقُوبَتِهِمْ، وَنَزَلَتْ أَيَّامُ عَاقِبَتِهِمْ، أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ ابْعَثُوا رَجُلًا قَوِيًّا أَمِينًا فَإِنِّي مُلْقٍ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ أَسْرُوا قَوْمَكُمْ^(٩) أَنْ يُزِيلُوهُمْ، وَفِي الْقِصَّةِ طَوَّلٌ غَيْرَ أَنَّا نَخْتَصِرُ، فَبَعَثَ مَلِكُهُمْ يُونُسَ إِلَى أُولَئِكَ الْأَسَارَى لِيَسْتَنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَخَرَجَ، وَأَتَمَرَ^(١٠) بِأَمْرِهِ، لَكِنَّهُ غَضِبَ عَلَيْهِ لَمَّا اشْتَدَّ^(١١) عَلَيْهِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا ذَهَبَ مُغْضًى﴾ لِلْمَلِكِ حِينَ^(١٢) أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى أُولَئِكَ الْأَسْرَى.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِذَا ذَهَبَ مُغْضًى﴾ لِقَوْمِهِ، وَذَلِكَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِ:

أَحَدُهَا: خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَمَّا آيَسَ مِنْ إِيْمَانِ قَوْمِهِ؛ خَرَجَ مَكِيدَةً لِقَوْمِهِ لِأَنَّ السُّنَّةَ فِيهِمْ أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ [رَسُولُ اللَّهِ]^(١٣) مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ؛ خَرَجَ^(١٤) مِنْ عِنْدِهِمْ لِيَخَافُوا الْعَذَابَ، فَيُؤْمِنُوا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهًا أَحَدًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: بِلَاءٍ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَا الْكِفْلِ اسْمٌ. (٦) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْمَهُمْ. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَوْ اتَّمَرَ. (١١) فِي الْأَصْلِ: اشْتَدَّتْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: رَسُولُهُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَخَرَجَ.

والثاني: خَرَجَ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِهِ لَمَّا أَنْ قَوْمَهُ هَمُّوا بِقَتْلِهِ؛ خَرَجَ^(١) لَمَّا يُقْتَلُ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِهِ كَمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِ قَوْمِهِ لَمَّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ. لَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢) خَرَجَ بِإِذْنِ، وَيُونُسَ بِغَيْرِ إِذْنٍ.

والثالث: خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَمَّا أَكْثَرُوا الْعِنَادَ وَالْمُكَابَرَةَ، وَأَيْسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ؛ خَرَجَ [لِيُقَرِّعَ نَفْسَهُ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ]^(٣) [إِذْ كَانَ مَأْمُورًا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ]^(٤) وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا أَيْسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ خَرَجَ كَمَا^(٥) ذَكَرْنَا بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ فِي خُرُوجِهِ مَنَفْعَةٌ لَهُ وَلِقَوْمِهِ، فَعَوِّبَ^(٦) لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنْ لَنْ تُقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنْ لَنْ تُقْدِرَ عَلَيْهِ﴾]^(٧) أَيْ لَنْ تُضَيِّقَ عَلَيْهِ، وَلَا تَبْتَلِيَهُ بِالضِّيقِ وَالشَّدَائِدِ^(٨) لَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ. يُقَالُ: فَلَانٌ مُقْدِرٌ^(٩) عَلَيْهِ، وَمُقْتَرٌّ، أَيْ مُضَيِّقٌ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أَيْ يُضَيِّقُ وَقَوْلِهِ: ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قَالُوا: فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحَوِثِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّقَمَّ الْحَوِثُ حَوِثًا آخَرَ، فَكَانَ فِي بَطْنِ حَوِثٍ وَحَوِثٍ آخَرَ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، فَقَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وَخَذَ رَبُّهُ، وَنَزَّهَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا قِيلَ فِيهِ، ثُمَّ اغْتَرَفَ بِرِزْقِهِ وَذَنْبِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

الآية ٨٨ [وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمِعَ]^(١٠) اللَّهُ دَعَاءَهُ، وَقَبِلَ تَوْبَتَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ كَشَفَ عَنْهُ الْغَمَّ الَّذِي كَانَ [بِهِ حِينَ]^(١١) قَالَ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُنَجِّي اللَّهُ مِنَ ابْتِلَاءٍ]^(١٢) بِالْبَلَاءِ وَالشَّدَّةِ، فَدَعَا بِمَا دَعَا بِهِ يُونُسُ أَنْ يُفَرِّجَهُ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ^(١٣) قَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعلى ذلك رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَعَا بِدَعْوَةِ ذِي النُّونِ اسْتَجِيبَ لَهُ» [الحاكم في المستدرک ٥٨٤/٢]. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّقَنَّ [اللَّهُ ذَلِكَ الدَّعَاءَ]^(١٤) مِنَ الْأَرْضِ لَمَّا بَلَغَ إِلَى^(١٥) قَرَارِ الْأَرْضِ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٦).

وقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ رَجُلًا صَالِحًا عَابِدًا، وَكَانَ عَوْدَ نَفْسِهِ ذَلِكَ [الدَّعَاءَ]^(١٧) قَبْلَ أَنْ يُدْخَلَ بَطْنَ الْحَوِثِ. فَلَمَّا [أَدْخِلَ فِيهِ اسْتَمَرَّ يَقُولُهُ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ يَقُولُ]^(١٨) مِنْ قَبْلُ.

[وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾]^(١٩) كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسَجِّينَ﴾ [لَبِثَ فِي بَطْنِهِ] الآية [الصافات: ١٤٣ و ١٤٤].

قَالَ بَعْضُهُمْ: [فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسَجِّينَ] قَبْلَ^(٢٠) هَذَا، وَإِلَّا لَبِثَ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْلَا أَنَّهُ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لَبِثَ فِيهِ. فَيَكُونُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: ﴿كَانَ مِنَ الْمُسَجِّينَ﴾ صَارَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَعَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ الْغَمُّ هُوَ مَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالضِّيقِ فِي بَطْنِ الْحَوِثِ وَالْبَحْرِ، فَتَجَاهَ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَجَاهَ مِنَ الْغَمِّ الَّذِي كَانَ بِسَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ.

وقول أهل التأويل: إِنَّ يُونُسَ مَكَثَ فِي بَطْنِ الْحَوِثِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَنَحْوَ هَذَا، فَذَلِكَ لَا يُغْلَمُ إِلَّا بِالْوَحْيِ. فَإِنَّ أَثْبَتَهُ^(٢١) الْوَحْيُ فَهُوَ هُوَ، وَإِلَّا لَيْسَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حَاجَةً.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَخَرَجَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي م: إِلَيْهِ لِعِبَادَتِهِ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمَّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَعَوِّبَ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَالشَّدِيدَةُ، فِي م: وَالشَّدِيدُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: مُقْدِرٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فَسَمِعَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ حَيْثُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيُرْجَى أَنْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٨) فِي الْأَصْلِ: دَخَلَ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ يَقُولُ، فِي م: دَخَلَ فِيهِ فَكَانَ يَقُولُ فِيهِ عَلَى مَا كَانَ يَقُولُ فِيهِ. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٢٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَبِتَ.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿وَذَا التُّونِ﴾ يعني ذا الحوت، والتُّونُ الحوت. وقال أبو عَوسَجَةَ: إنما سُمِّيَ ذا التُّونِ لأنَّ الحوتَ التَّقَمَهُ، والتُّونُ الحوت، والتُّينانُ الجميع.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿فَقُلْنَ أَنْ لَنْ يُغْفَرَ عَلَيْهِنَّ﴾ أن لَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِ. يُقَالُ: فلانٌ مُقَدَّرٌ^(١) عليه، ومُقَدَّرٌ. ومنه: ﴿فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضَيَّقَ عليه. ومنه قوله أيضاً: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أي يُضَيِّقُ، والله أعلم.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَكْنَاهُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ قوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ في الظاهر نَهْيٌ، وكذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وأمثاله تُخْرِجُ في الظاهر مُخْرِجَ النَهْيِ، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ونحوه يُخْرِجُ مُخْرِجَ الأَمْرِ والنَهْيِ. إذا كَانَ مِنَ الْعَبْدِ لِلسَّيِّدِ فهو تَعَوُّذٌ ودَعَاءٌ، وإذا كَانَ مِنَ السَّيِّدِ لِلْعَبْدِ فهو أَمْرٌ ونَهْيٌ، ليس بِتَعَوُّذٍ ولا دَعَاءٍ، ولكن حَقِيقَةُ الأَمْرِ والنَهْيِ. وكذلك سؤالُ الأميرِ لِرَعِيَّتِهِ أَمْرٌ ونَهْيٌ، وسؤالُ الرعيةِ لِلأميرِ تَضَرُّعٌ وتَعَوُّذٌ ودَعَاءٌ.

ثم قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ في الطاعة والعبادة والذكر والتسبيح والتخميد ما دُمْتُ حَيًّا، ولكن اشرك لي في العبادة والذكر مَنْ يُعِينُنِي على ذلك، وهو كقول موسى: ﴿وَأَعْمَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَمَلِي﴾ [هَاشِمِيَّةٌ] ﴿أَتَذَرُنِي يَهُودَ الْأَرْضِ﴾ [وَأَشْرِكْ لِي أَمْرًا] ﴿كَيْ سَهِّلَ كَيْدًا﴾ [وَتَذَكَّرْ كَيْدًا] [طه: ٢٩-٣٤] [وقول زكريا أيضاً^(٢)]: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [يَرْفُئِي وَرَيْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ] [مريم: ٦٥] إذا مَثْنًا، أو يكونُ قوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ بَعْدَ مَمَاتِي في قَبْرِي، ولكن هَبْ لِي مَنْ يَذْكُرُنِي، ويدعو لي بَعْدَ وفاتي، ويُنْجِي أَمْرِي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ يَرِثُ الْعِبَادَةَ. على هذا التأويل. وعلى التأويل الأول: أَنْتَ خَيْرُ مَنْ يُعِينُ عَلَى الْعِبَادَةِ والطاعة، والله أعلم.

الآية ٩٠

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْسَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاءهُ ﴿وَوَقَّعْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّهُ كَانَ يَحْيَى عَلَى سَمَاءِ اللَّهِ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَحْيَى فِي الْكِرَامَاتِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ. وقد ذَكَّرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ جَعَلْنَاهَا بَحِيثٌ يَرْغَبُ فِيهَا زَوْجُهَا ذَاتَ هَيْئَةٍ وَمَنْظَرٍ لِأَنَّهُ ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهَا بَلَغَتْ فِي السِّنِّ مِئَةً غَيْرَ شَيْءٍ. وَالْمَرْثُ فِي النِّسَاءِ/٣٤٣-١/ أَنَّهُنَّ إِذَا بَلَغْنَ الْمَبْلَغَ الَّذِي ذُكِرَ أَنَّهَا بَلَغَتْ زَوْجَةً ذُكِّرَتْ بِكَرْبَةٍ يَكُونُ مِنَ الْقَوَاعِدِ اللَّاتِي لَا يَرْغَبُ فِيهَا أَحَدٌ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصْلَحَهَا، وَصَيَّرَهَا بَحِيثٌ يَرْغَبُ فِيهَا ذَاتَ هَيْئَةٍ وَمَنْظَرٍ.

والثاني: ﴿وَأَسْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي [جَعَلْنَاهَا]^(٣) وَلَوْ دَأ، بَحِيثٌ تَلِدُ، لِأَنَّهُ لَمَّا بُشِّرَ بِيَحْيَى ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨] وَالْعَاقَرُ هِيَ الَّتِي لَا تَلِدُ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَسْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [أَي جَعَلْنَاهَا]^(٤) وَلَوْ دَأ بَحِيثٌ تَلِدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هَذَانِ الرَّجُلَانِ مُحْتَمَلَانِ. وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: كَانَ فِي لِسَانِهَا بَذَاءٌ، وَفِي خُلُقِهَا سُوءٌ. فَذَلِكَ لَا يَجِلُّ أَنْ يُقَالَ إِلَّا [أَنْ]^(٥) يُثَبَّتَ. وَهُوَ عَلَى خِلَافِ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَوَصَفْنَاهُ حِينَ^(٦) قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْسَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

ثُمَّ الْمُسَارَعَةُ فِي الْخَيْرَاتِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَمْتَنِعُهُمْ شَيْءٌ عَنْ [فِعْلِ]^(٧) الْخَيْرَاتِ. وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُ، هُوَ يَرْغَبُ فِي الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا إِلَّا أَنْ يَمْتَنِعَهُ شَيْءٌ مِنْ شَهْوَةٍ أَوْ سَهْوٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُوكَ رَبًّا وَرَهَبًا﴾ [فِي وَجْهَيْنِ]:

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: مُقَدَّرٌ. وَقَوْلُهُ: (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم.

أخذهما: ^(١) أي يذعنونا رغباً في ما عندنا من جزيل الثواب ورهباً من أليم عقابنا.

والثاني: رغباً في ما عندنا من اللطائف من التوفيق على الخيرات والعصمة عن المعاصي ورهباً مما عندنا من النقمات والخذلان والزئج.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاوَأُ لَنَا خَشِيعُونَ﴾ قال بعضهم: الخشوع هو الخوف الدائم الملازم للقلب، لا يفارقه. وقال بعضهم: متواضعين دليلين لأمر الله: تفسير الخشوع ما ذكر بقوله: ﴿وَيَذَعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَيَّْ أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا﴾ أي عَقَّتْ فَرْجَهَا.

الآية ٩١

وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ قال أهل التأويل: إن جبريل أتاهما فَنَفَخَ في جيبها أي فَرْجَهَا. وهذا ليس في الآية. فلا يجوز القول إلا [أن] ^(٢) يُثَبَّت. ولكن قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ كقوله في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩ و ص: ٧٢] أي أنشأت فيه من روعي، إذ لم يقل أحد فيه بالنفخ: أي جبريل نفخ فيه. فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أي أنشأنا فيها من روحنا، والله أعلم.

[وقوله تعالى] ^(٣): ﴿وَعَلَّمْنَاهَا بِأَنْهَآ مَائَةً لِّأَلْفِينَ﴾ ذكر فيها آية واحدة لأنها ولدت بغير زوج، ولذ هو بلا أب، فهو واحد إذا كانت هي ولذته بغير زوج، فيكون بغير أب، فهو آية واحدة. والآية فيها ما ذكر ﴿يَتَرَمَّزُ إِنَّ اللَّهَ أَمْلَأَكَ وَطَهَّرَكَ وَأَمْلَأَكَ عَلَى نِكَآهِ أَلْفِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وآية عيسى حين تكلم في المهد، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَآئِنِي أَلَكُنَّ﴾ الآية [مريم: ٣٠].

وقال أبو عوسجة: ﴿أَحْصَنْتَ﴾ أي عَقَّتْ، ويقال: امرأة حصان أي عفيفة، ومُحْصَنَةٌ أي قد أخصنها زوجها، ومُحْصَنَةٌ أي عفيفة، وامرأة حصان، ونسوة حاصنات وحواصن. قال: والحصان ذكر الخيل، وحُصْنٌ جميع.

الآية ٩٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال بعضهم: إن هذه ملئتكم وشريعتكم ومذاهبكم وملئة واحدة وشريعة واحدة؛ يعني شريعة الإسلام، وملئة واحدة ليست بمُتَفَرِّقَةٍ. وقال بعضهم: إن هذا ^(٤) دينكم دين واحد ليس كدين الأمم الخالية أدياناً ^(٥) مُخْتَلَفَةً، أو تكون الأمة ما يؤم إليها، ويقصد لأن الأمة، هي الجماعة، وهي المقصودة.

وجائز أن يكون إخباراً عن هذه الأمة على دين واحد وملئة واحدة، ليسوا بمُخْتَلَفِينَ فيه ولا بِمُتَفَرِّقِينَ ^(٦) كسائر الأمم الخالية كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٥] [وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]] ^(٧) أخبر عنهم أنهم غير مُتَفَرِّقِينَ، ونهاهم عن أن يتفرقوا كما تفرق الأولون.

ألا ترى أنه قال على إثره: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾؟ [الأنبياء: ٩٣] هذا يدل على أنه إخبار عن أهل الإسلام في [صدد] ^(٨) الأمر أنهم على شيء واحد.

وقال الزجاج: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ما لزموا الحق، وأتبعوه. وأما إذا تركوا لزمته، وتركوا اتباعه، فهي ليست بأمة واحدة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ كقوله ^(٩) في آية أخرى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي﴾ [المؤمنون: ٥٢] ليُعْلَمَ أَنَّ العبادة والتقوى واحد في الحقيقة لأن الإتياء هو ما يُجْتَنَبُ مِنَ الأفعال، والعبادة ما يؤتى مِنَ الأفعال ^(١٠). فإذا اجْتَنَبَ ما يَجِبُ اجْتِنَابُهُ فَقَدْ أَتَاهُ فَعَدَّ اجْتِنَابَ ما يَجِبُ اجْتِنَابُهُ، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لأنه يفعله إياها مُجْتَنِبٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ أي قوِّدوني على ما قال أهل التأويل، لأنه إنما خاطب به أهل مكة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. هذه. (٤) في الأصل وم. آديان. (٥) في الأصل وم. بمفرقين. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم. قال. (٩) ادراج بعدها في الأصل وم. والعبادة.

الآية ٩٣ وقوله تعالى: ﴿وَنَقُطِعْ أَسْرَهُم بِأَيْمَانِهِمْ﴾ أَخْبَرَ عَنِ الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ^(١) اخْتَلَفُوا فِي دِينِهِمْ، وَتَفَرَّقُوا ﴿كُلُّ لِسَانٍ رَاجِعٌ إِلَىٰ مَنْ تَنَفَّرَ [وَمِنْ]﴾^(٢) لَمْ يَتَفَرَّقْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] [وقوله: ^(٣)] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ١٨].

الآية ٩٤ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ لِأَنَّهُ شَرِطٌ فِي قَبُولِهَا الْإِيمَانُ بِقَوْلِهِ^(٤): ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [أَي يُشْكِرُ]^(٥) سَعْيُهُ، وَيُقْبَلُ، وَلَا يُجْحَدُ، وَلَا يُكْفَرُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾ [آل عمران: ١١٥] [بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ] ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾^(٦).
وَأَصْلُ الْكُفْرَانِ السُّتْرُ، وَالشُّكْرُ هُوَ الْإِظْهَارُ. وَيُخْبِرُ أَنَّ لَا يَسْتُرُ مَا عَمِلُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، بَلْ يَشْكُرُ وَيُظْهِرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُمُ كَاتِبُونَ﴾ أَي يَكْتُبُ لَهُمْ تِلْكَ الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الآية ٩٥ وقوله تعالى: وَحَرَّمَ^(٧) ﴿عَلَىٰ قَرَبَيْهِ أَفْلَكَهْمَا﴾ وَ﴿وَحَرَّمَ﴾ بِالْأَلِفِ أَيْضًا. ثُمَّ قَوْلُهُ: وَحَرَّمَ وَ﴿وَحَرَّمَ﴾ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ وَاحِدَةٌ. يَقُولُ: حَرَّمَ عَلَيْكَ كَذَا، وَحَرَامٌ، كَمَا يَقَالُ: حِلٌّ وَحَلَالٌ.
وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمَا، فيقولون: وَحَرَّمَ حَتْمٌ وَوَاجِبٌ ﴿عَلَىٰ قَرَبَيْهِ أَفْلَكَهْمَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَوْ حُكْمٌ^(٨) وَوَاجِبٌ ﴿عَلَىٰ قَرَبَيْهِ﴾ إِمْلَاكُهُمْ بَعْدَ مَا عَلِمَ ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَي لَا يَتَوَبُّونَ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَتَوَبُّونَ.

أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرَبَيْهِ﴾ أَرَادَ اللَّهُ إِمْلَاكَهُمَا ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [وِظَاهَرُ قَوْلِهِ: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرَبَيْهِ أَفْلَكَهْمَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾]^(٩) أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الرَّجُوعُ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرَبَيْهِ أَفْلَكَهْمَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.
أَلَا تَرَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَقَّتْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾؟ [الأنبياء: ٩٦] وَظَاهِرُهُ ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿حَقَّتْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ﴿وَأَقْدَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ و ٩٧] فَعِنْدَ ذَلِكَ يَرْجِعُونَ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧].

أَوْ يَكُونُ ذَكَرَ هَذَا ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لِقَوْلِ قَوْمٍ: لِأَنَّهُ قَوْمًا يَقُولُونَ: إِنَّ الْخَلْقَ كَالنَّبَاتِ^(١٠) يَنْبُتُ، ثُمَّ يَبْسُ، ثُمَّ يَنْبُتُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْخَلْقُ يَمُوتُونَ، ثُمَّ يَعُودُونَ، وَيَرْجِعُونَ.

وَبَغْضٍ مِنَ الرَّاغِبِينَ يَقُولُونَ: يَرْجِعُ عَلَيَّ وَفُلَانٌ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَكْذِيبًا لِخَبَرِهِمْ لِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ صَارَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، وَإِنْ أَنْكَرُوهُ، لَمَّا عَجَزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ كُلِّهِ.

الآية ٩٦ وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ كَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَضَافَ فَتْحَ ذَلِكَ السَّدِّ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ، وَلَا لَسْتُ أَغْرِفُ لِتَأْنِيثِ فَتْحِ السَّدِّ وَجْهًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ قِيلَ: الْحَدَبُ الشَّيْءُ الْمُشْرِفُ، وَقِيلَ: الْحَدَبُ كُلُّ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَقِيلَ: الْحَدَبُ الْأَكْمَةُ. وَقِيلَ: ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿يَنْسِلُونَ﴾ قِيلَ: يُسْرِعُونَ، وَقِيلَ: يَخْرُجُونَ.

أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ أَي مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَمِنْ كُلِّ جِهَةٍ يُسْرِعُونَ؛ كَانَهُمْ لَمَّا سُدَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ السَّدُّ، وَحِيلَ

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: ثُمَّ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَالشُّكْرُ.

(٦) مِنْ م، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ٥٩/٢. (٧) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ح ١٥٠/٤. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: حَتْم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَالنَّبَاتِ.

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَتَعَشَّوْنَ، وَيَتَزَيَّعُونَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، تَفَرَّقُوا فِي تِلْكَ الْأَمَكَةِ لِطَلَبِ مَا يَتَعَشَّوْنَ بِهِ. فَإِذَا بَلَغَهُمْ خَبَرُ [فُتِحَ] ^(١) السَّدِّ أَتَوْا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَنَاحِيَةٍ كَانُوا ^(٢) مُتَفَرِّقِينَ فِيهَا ﴿يَسْأَلُونَ﴾ يُسْرِعُونَ لِأَنَّهُمْ [كَانُوا] ^(٣) مُذْ سُدِّ ٣٤٣ - ب/ عَلَيْهِمُ السَّدُّ [مُتَفَرِّقِينَ فِي كُلِّ] ^(٤) جِهَةٍ. فَلَمَّا ^(٥) فُتِحَ خَرَجُوا مُسْرِعِينَ. وَهُوَ مَا ذَكَرَ ﴿وَرَزَّكَ بِعَصْمِ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

الآية ٩٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَبَ الرَّعْدُ الْحَقُّ﴾ [قَوْلُهُ: ﴿وَأَقْرَبَ﴾ أَي وَقَعَ، وَوَجِبَ ﴿الرَّعْدُ الْحَقُّ﴾] ^(٦) لِأَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ قَدْ أَقْرَبَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وَقَوْلِهِ ^(٧): ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] لَيْسَ عَلَى الْقُرْبِ وَلَكِنْ عَلَى الْوُجُوبِ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَاراً عَنِ الْوُقُوعِ وَالْوُجُوبِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْقُرْبِ أَيْضاً، وَيَكُونُ وَجُوبُهَا وَوُقُوعُهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا مِنْ شَخْصَةٍ أَصْبَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَوْلِهِ ^(٨): ﴿إِنَّمَا يُوْخِرُهُمْ لِيُؤْمِرَ تَشْعُثُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وَقَوْلِهِ ^(٩): ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ أَي يَقُولُونَ: ﴿يَتَوَلَّوْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ كَانَهُمْ تَذَاكُرُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ أَنَا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ ثُمَّ تَذَاكُرُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي غَفْلَةٍ، وَلَكِنْ قَالُوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فِي ذَلِكَ ضَالِّينَ. اغْتَرَفُوا بِالظُّلْمِ وَالضَّلَالِ.

الآية ٩٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يُقَالُ: إِنَّ حَرْفَ: مَنْ: يَتَكَلَّمُ عَنِ الْبَشَرِ وَنَحْوِهِ [وَحَرْفَ: مَا] ^(١٠): إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ عَمَّا سِوَاهُمْ مِنَ الْعَالَمِ. فَإِذَا كَانَ عَلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرَ ^(١١) قَمَا يَتَّبِعِي لِأُولَئِكَ أَنْ يَقْهَمُوا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عِيسَى وَعُزَيْرًا وَالْمَلَائِكَةَ. هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ عُبِدُوا دُونَ اللَّهِ، فَهَمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ عَلَى رَغْوِئِكُمْ. إِلَى هَذَا يَذْهَبُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ، وَيَقُولُونَ.

ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قَالُوا: اسْتَشْنَى مِنْ عَمَلِهِ مَنْ عُبِدَ دُونَ اللَّهِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ الْحُسْنَى، وَهُوَ عُزَيْرٌ وَعِيسَى وَهَؤُلَاءِ [المَلَائِكَةُ] ^(١٢). لَكِنْ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقْهَمُوا مِنْ هَذَا هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ الْأَصْنَافُ وَالْأَحْجَارُ الَّتِي عُبِدَ بِهَا قَوْلُهُ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارُ﴾ [البقرة: ٢٤] الَّتِي عُبِدُوا بِهَا، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ أَمَرُوهُمْ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ. فَتَكُونُ الْعِبَادَةُ لِمَنْ دُونَ اللَّهِ لِلشَّيْطَانِ حَقِيقَةً لِأَنَّهُ هُوَ الْأَمِيرُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَالِدَاعِي إِلَى ذَلِكَ دُونَ مَنْ ذُكِرُوا لِأَنَّ هَؤُلَاءِ، أَعْنِي عِيسَى وَعُزَيْرًا وَالْمَلَائِكَةَ لَمْ يَأْمُرُوهُمْ ^(١٣) بِذَلِكَ.

فَيَكُونُ عَلَى هَذَا كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّكُمْ وَالشَّيَاطِينَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النساء: ٥٠]. إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَأْتِلُ بِعَصْمِ عَلَى بَعْضٍ يَنْسَاءُونَ﴾ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٢٢ و ٢٣ إِلَى ٥٠ و ٥١]. دَلَّ هَذَا أَنَّ الْقَرِينَ هُوَ الشَّيْطَانُ كَقَوْلِهِ: ﴿نَقِصُّ لَمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بِالْصَادِ، وَقُرِئَ بِالطَّاءِ ^(١٤) حَطَبُ جَهَنَّمَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَصَبُ بِلِسَانِ الرُّنَجِيَّةِ هُوَ الْحَطَبُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ حَطَبُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ، وَيُقَالُ أَيْضاً بِالْصَادِ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَصَبُ هِيَ مِنَ الرَّمْيِ، يَخْصِبُ جَهَنَّمَ بِهِمْ، أَيِ يَرْمِي بِهِمْ. وَالْحَطَبُ هُوَ مَعْرُوفٌ، وَالْحَصَبُ هُوَ التَّهْيِيجُ أَيْ تَهْيِيجُ النَّارِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْكَسَائِيُّ: حَضَبْتُ النَّارَ، أَيِ أَلْقَيْتُ فِيهَا الْحَطَبَ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: التي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: في. (٥) ادرج قبلها في الأصل وم: من فتح ذلك السد. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: كقوله. (٩) في الأصل وم: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ذكروا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يأمرهم. (١٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ١٥٢.

وعن عائشة: ﴿حُضِبَ جَهَنَّمَ بِالضَّادِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ أي واقعون فيها.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ إِلَهِةَ مَا وَرَدُوهَا﴾ أي لو كان الذين عبدوا دون الله آلهة على ما زعموا ما وردوا النار. فإن قيل: إنهم لم يقرؤا أنها ترد النار، بل أنكروا ذلك، فكيف احتج عليهم بهذا ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ إِلَهِةَ مَا وَرَدُوهَا﴾؟ قيل: إنهم، وإن لم يقرؤوا بذلك، ألزمهم الله الحجة من جهة الكتاب [أنهم يردون^(١)] النار لما عجزوا عن إتيان مثله، فقد لزمهم الحجة. فكانهم أقرؤا أنهم واردوها، وهو كقولهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُونَا فَاتِّخَذْتُمْ تُيمِينًا ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] لم يقرؤا أنهم يخيون بغد ما ماتوا. ولكن لما عرفوا أنهم كانوا أمواتاً، فأحيائهم، فقد لزمهم الإقرار والحجة بالإحياء بغد الموت. فعلى ذلك الأول: كأنهم أقرؤا بأنهم^(٢) واردون بما لزمهم الحجة.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهر.

الآية ١٠٠

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [قيل: الزفير هو الصوت الخفيض الذي فيه أنين، و]^(٣) قيل: الزفير هو الصوت الرفيع الذي فيه أنين^(٤) وقيل: الشهيق هو أول نهيي الجمار، والزفير هو آخر نهييه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: لا يسمعون الخير، ويسمعون غيره. وقال بعضهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم يكونون صمًا وبكمًا وعميًا في النار كقولهم: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَنَابٌ وَغُصَّةٌ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال القسبي: ﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ قَرَبِهِ أَلْفَكَهْمَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي حرام عليهم أن يرجعوا، ويقال: واجب، وقال: هو حرّم وحرام واحد كما قال: ﴿وَهُمْ يَنْ كَلِّ حَذْبٍ يَسْلُوتُ﴾ أي من كل نسي من الأرض واكتمة يسيلون من السلالن، وهو مقاربه الخطو مع الإسراع كمشي الذئب إذا بادز.

قال أبو عوسجة: الحذب ما ارتفع من الأرض، الواحدة حذبة ﴿يَسْلُوتُ﴾ أي يجيئون.

الآية ١٠١

[وقوله تعالى]^(٥): ﴿إِنَّ إِلَٰهَ رَبِّكَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال عامة أهل التأويل: إنه لما نزل قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قالت الكفرة: إن عيسى وعزيراً والملائكة قد عبدوا من دون الله، فهم حصب جهنم، فنزل قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَ رَبِّكَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ استثنى من سبق له الحسنى منه، [وهم عيسى وعزير والملائكة]^(٦) وكذلك في حرف ابن مسعود: إلا الذين سبق لهم منا الحسنى على الإنشاء.

عن علي عليه السلام [أنه]^(٧) قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَ رَبِّكَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآية ذلكم عثمان وطلحة والزبير، وأنا من شيعة عثمان وطلحة والزبير. ثم قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غِلٍّ﴾ الآية [الأعراف: ٤٣ والحجر: ٤٧].

ولكن قد ذكرنا الوجه فيه. فإن^(٨) ثبت أنه نزل بشأن هؤلاء، وإلا فهو لكل من سبق له من الله الحسنى.

ثم الحسنى تخمّل الجنة كقولهم: ﴿قَالَا مَن أَعْلَىٰ وَآلَيْنَا﴾ ﴿وَمَدَدَ بِالسُّقَىٰ﴾ [الليل: ٦٥] أي بالجنة فعلى ذلك قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَ رَبِّكَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ وتخمّل الحسنى السعادة والبشارة بالجنة وثوابها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي لا يعودون إليها أبداً. ليس على بُعد المكان كقولهم: ﴿أُولَٰئِكَ فِي سَلَٰبٍ مِّيْنٍ﴾ [الزمر: ٢٢] أي لا يعودون إلى الهدى أبداً. أو يكون قوله: ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ مكاناً.

لكن قد ذكر في آية: ﴿قَالِيمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿عَلَى الْأَرْوَاحِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ و٣٥] وقال في آية: ﴿فَأَطْلَعُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] ولا نعلم هذا: أنه يجعل في قوى أهل الجنة أنهم متى أرادوا أن ينظروا إلى

(١) في الأصل دم: أنها ترد. (٢) في الأصل دم: بأنها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل دم. (٥) في الأصل دم: أنين فيه. (٦) في الأصل دم: وهو عيسى والملائكة. (٧) ساقطة من الأصل دم. (٨) من م، في الأصل: قال.

أولئك، ويروهم، يقدروا على ذلك، أو تقرب النار إليهم، فينظروا إليهم، والله أعلم. والأول أشبه، أنهم لا يعودون إليها أبداً.

الآية ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾ أي صوته، وهو ما ذكر من الأبعاد، وإذا بعدوا منها لم يسمعوها حيسها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ وهو ما قال في [آية] (١) أخرى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

الآية ١٠٣

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا يخزنهم أهوال يوم القيامة وافتراؤها ﴿وَتَلْقَاهُمْ أَلْمُتَكَبِّرُ﴾ بالبيارة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ الآية [فصلت: ٣٠] أو ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا يخزنهم ما يحل بالكفرة من الفزع والعذاب، ليس كمن رأى في الدنيا إنساناً في بلاء وشدة، أو يعذب بعذاب، فإنه يخزن / ٣٤٤ - ١. ويهتّم بما حلّ به. فأخبر أنهم لا يخزنون بما حلّ بالكفرة من العذاب والشدائد.

قال أبو عوسجة: ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ قال: الحصب [والخطب] (٢) واحد. قال: وما أكثر [الناس] (٣) من العرب من يتكلم بهذه اللفظة. قال: ولا أعرف: حصب جهنم بالضاد. وقال غيره ما ذكرنا من إلقاء الخطب فيه والتّهيج. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا رُودُونَ﴾ أي داخلون، وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزفير هو شدة النفس في الصدر؛ يقال: زفر يزفر زفيراً. وقال بعضهم: الزفير هو أنين كل مخزون ومكروب، وهو قريب مما ذكرنا. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا﴾ أي صوته، وهو من الجس والصوت.

وقال القتيبي: ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ ما ألقى فيها. واضلّه من الحصباء، وهي الحصى، ويقال: حصبت فلاناً أي رميته حصاً بتشكين الصاد، وما رميت به حصب بفتح الصاد، وكما تقول: نفضت الشجرة نفضاً، وما وقع نفّض، واسم حصا الجمار حصب.

الآية ١٠٤

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ لِلْكَتُبِ﴾ كان هذا قد خرج على إثر سؤال سألوه على غير ابتداء؛ لأنّ الإبتداء بمثله على غير تقدّم أمر لا يُحتمل. فكانه، والله أعلم، لما ذكر أهل النار في قوله: ﴿فَإِذَا مَكَّ شَرِيفُهُ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا رُودُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧ و ٩٨] وذكر أهل الجنة، ووصفهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخر ما ذكر من قوله: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣] فكانهم قالوا: متى يكون ذلك؟ فقال عند ذلك: ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ لِلْكَتُبِ﴾ أخبر أن السماء تطوى كما تطوى السجل للكتب.

ثم ذكر في السماء الطي مرة والتبديل في آية أخرى بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وذكر الإنشقاق في [آيات بقوله] (٤): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقوله (٥): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ونحوه كما ذكر في الجبال أحوالاً: مرة قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقال في آية: ﴿وَنَسْأَلُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقَدْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وقال في آية أخرى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبًا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ونحوه.

فجائز أن تكون كذلك على اختلاف الأحوال على ما ذكرنا في ما تقدّم، ثم تتلاشى، وتفتى، حتى لا يبقى منها شيء كما ذكر ﴿كَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ فعلى ذلك السموات والأرضون، تختلِف عليها الأحوال على ما ذكر، ثم آخرها التبديل كما ذكر ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: آية كقوله. (٥) في الأصل وم: و.

وفي^(١) ما ذَكَرَ في هَؤُلَاءِ الآيَاتِ مِنْ تَغْيِيرِ الْجِبَالِ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ دَلِيلُ قَنَاءِ هَذَا الْعَالَمِ بِجُمْلَتِهِ وَأَسْرِهِ، لِأَنَّ قَنَاءَ السَّمَوَاتِ وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ يَتَعَدَّى عَنْ أَوْهَامِ الْخَلْقِ، وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ الْخَلَائِقِ فَإِنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ قَنَاءَهُ، فَذَكَرَ قَنَاءَ مَا يَتَعَدَّى فِي أَوْهَامِهِمْ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ يَفْتَنُ بِأَسْرِهِ، وَيُسْتَبَدُّ عَالِمًا آخَرَ، يَحْتَمِلُ الْبَقَاءَ لِلْجَزَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ هذا أيضاً لا يُحْتَمَلُ إِلَّا عَلَى تَقَدُّمِ ذِكْرِ؛ فَهُوَ مُحْتَمِلٌ مَا ذَكَرْنَا مِمَّا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ. فَقَالُوا: كَيْفَ يَخْيُونُ؟ فَقَالَ^(٢) عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نُظِفًا ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مُضْغًا ثُمَّ عِظَامًا ثُمَّ لَحْمًا ثُمَّ تَنَفُّخٌ فِيهَا^(٣) الرُّوحَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ حُفَاةٌ غُرَاةٌ عَلَى مَا خُلِقُوا فِي الْإِنْبَاءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ يَعْنِي السَّمَوَاتِ [السَّبْعَ]^(٤) يَطْوِيهَا اللَّهُ، فَيَجْعَلُهَا سَمَاءً وَاحِدَةً كَمَا كَانَتْ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهَا^(٥) سِتَّ سَمَوَاتٍ، وَالْأَرْضِينَ كَذَلِكَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا إِخْبَارًا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُمْ كَمَا قَدَّرَ عَلَى إِبْدَاءِ خَلْقِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أَيِ [كَانَ]^(٦) بَعَثَهُمْ وَغَدَا عَلَيْنَا لَا نُخْلِفُ ذَلِكَ عَلَى مَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ عِلْمَهُ﴾ [آل عمران: ٩ و...].

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي السَّجْلِ وَفِي قِرَائَتِهِ^(٧): قَالَ بَعْضُهُمْ: السَّجْلُ: اسْمُ رَجُلٍ، وَهُوَ كَاتِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمُ الْمَلِكِ الَّذِي يَكْتُبُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّجْلُ الصَّحِيفَةُ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ: السَّجْلُ بِالتَّشْدِيدِ^(٨) فَهُوَ الصَّحِيفَةُ، وَمَنْ قَرَأَ: السَّجْلُ بِالتَّخْفِيفِ فَهُوَ^(٩) مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالصُّحُفِ، اسْمُهُ^(١٠) السَّجْلُ [وَيُقْرَأُ: لِلْكِتَابِ]^(١١).

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿كَطَيَّ السَّجْلَ لِلْكِتَابِ﴾ قَالَ: يُقَالُ: أَسَجَلْتُ^(١٢)، وَسَجَلْتُ، أَيِ كَتَبْتُ إِسْجَالًا وَتَسْجِيلًا، وَسَجَلْتُ أَيْضًا عَمِلْتُ، وَسَجَلَ خَلْقٌ؛ يُقَالُ: مِنْهُ سَجَلٌ يَسْجُلُ سَجَلًا، وَالْمُسَاجَلَةُ الْمُفَاخَرَةُ، وَيُقَالُ: سَاجَلْتُهُ فَاخَرْتُهُ، وَيُقَالُ: أَسَجَلْتُ الْكَلَامَ، فَهُوَ مُسَجَّلٌ، أَيِ أَطْلَقْتُهُ، وَأَرْسَلْتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ كُلَّ كُتُبِ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا، هِيَ [زُبُرٌ، وَقَوْلُهُ]^(١٣): ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أَيِ الْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ؛ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: كَتَبْنَا فِي الْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا بَعْدَ مَا كَانَ مَكْتُوبًا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا كَذَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَتَبَ اللَّهُ فِي الزَّبُورِ الْمَعْرُوفِ، وَهُوَ زَبُورُ دَاوُدَ، بَعْدَ مَا كَتَبَ ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أَيِ التَّوْرَةِ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ كَتَبَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ أَيِ زَبُورِ دَاوُدَ بَعْدَ مَا كَتَبَ فِي الذِّكْرِ الَّذِي عِنْدَهُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ فِي بَعْضِ الْكِتَابِ أَيِ فِي بَعْضِ السُّورِ ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أَيِ بَعْدِ السُّورَةِ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ كَذَا.

وَجَائِزٌ أَيْضًا ﴿كَتَبْنَا فِي﴾ الْكِتَابِ ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أَيِ مِنْ بَعْدِ مَا ذَكَرَهُمْ، وَوَعَّظَهُمْ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ كَذَا.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هِيَ الْجَنَّةُ؛ أَخْبَرَ أَنَّ الْجَنَّةَ إِنَّمَا

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقالوا. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قراءة. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ١٥٤. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: باسمه. (١١) في الأصل وم: وبقراءة الكتاب. (١٢) في الأصل وم: أسجل. (١٣) في الأصل وم: زبور.

يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. وهو ما ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرِثُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ و ١١] فيكون هذا تفسيراً لذلك.

وقال بعضهم: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ﴾ يعني أرض بيت المقدس ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وهو كذلك: كان، ولم^(١) يَزَلْ بها عباد الله الصالحون إلى يوم القيامة.

وجائز أن يكون قوله: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا﴾ أمة محمد كقول رسول الله ﷺ: «رُويَتْ لِي الْأَرْضُ فَأَرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مِثْلُكَ أُمَّتِي مَا رُويَ لِي مِنْهَا» [مسلم ٢٨٨٩] فذلك وراثتها، وهم عبادة الصالحون كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] أَخْبَرَ أَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ فِي هَذَا أَي فِي مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ فِي ذَلِكَ بَلَاغًا ﴿لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾ أَي لِقَوْمٍ هَمُّهُمْ الْعِبَادَةُ أَوْ لِقَوْمٍ مُطِيعِينَ مُوَحِّدِينَ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ فِي مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ، وهو قوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْتَ لَهَا رُودُورٌ﴾ [الأنبياء: ٩٧ و ٩٨] وما ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ كُلَّهُ ﴿لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾.

وجائز أن يكون بَلَاغًا لِلنَّاسِ جَمِيعًا كقوله: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فيكون قوله: ﴿لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾ أَي لِقَوْمٍ يَلْزِمُهُمُ الْعِبَادَةُ.

وقال بعضهم: ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أَي هَذَا الْقُرْآنَ ﴿لَبَلَاغًا﴾ أَبْلَغَهُمْ عَنِ اللَّهِ ﴿لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾.

وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّ فِي هَذَا لَذِكْرَى^(٢) ٣٤٤ - ب/ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ.

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كُلُّ رُسُلِ اللَّهِ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِلْعَالَمِينَ، وَكَذَلِكَ كُلُّ كُتُبِ اللَّهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي عِيسَى: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مُّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وجائز أن يكون رسول الله ﷺ خَاصَّةً، فيكون فِي وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أَي^(٣) جَعَلْنَاكَ ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وَالثَّانِي^(٤): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ رَحْمَةً مِنَّا لِلْعَالَمِينَ. وَ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ هُمْ^(٥) الْجِنُّ وَالْإِنْسُ لِأَنَّهُ بُعِثَ إِلَيْهِمْ.

ثُمَّ الرَّحْمَةُ فِيهِ تَحْتَمِلُ وَجْهًا:

أَحَدُهَا: تَأْخِيرُ الْعَذَابِ عَنْهُمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ رَحْمَةٌ حَتَّى إِذَا اتَّبَعُوهُ تَكُونُ بِهِ نَجَاتُهُمْ، وَبِهِ عِزُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالثَّالِثُ: شَفَاعَتُهُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ فِي الْآخِرَةِ وَتَحْوُ ذَلِكَ.

الآية ١٠٨ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ كَانَهُ عَلَى الدَّعَاءِ خَرَجَ الْأَمْرُ، كَانَهُ قَالَ: أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَخْبِرَكُمْ أَنَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاضْرِبُوا الْعِبَادَةَ إِلَيْهِ، وَلَا تُشْرِكُوا فِيهَا غَيْرَهُ. أَوْ يَقُولُ: أَوْحِي إِلَيَّ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَى إِلَهِكُمُ الَّذِي هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ. وَإِلَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَكِنَّهُ خَرَجَ عَلَى الدَّعَاءِ وَالْإِخْبَارِ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ

(١) الْوَاقِعَةُ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢) فِي هَذَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَّا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يَقَالَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ.

واحد، أو يُخبرهم أني إلى ما أَدْعُوكم إليه، وأمرُكم به، إنما أَدْعُوكم، وأمرُكم بالوحي بما أَوْحِي إلى لا مِنْ تَلْفَاءِ نَفْسِي [لقوله تعالى:] ^(١) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْرِكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ظاهره، وإن كَانَ اسْتِفْهَامًا، فهو على الأمر والإيجاب؛ كأنه قال: قد أَوْحِي إلى أن إِلَهُكُمْ إله واحد، فَاسْلِمُوا، وَأَخْلِصُوا الْعِبَادَةَ لَهُ، لا تُشْرِكُوا فِيهَا غَيْرَهُ. والإسلام هو أن تُجْعَلَ كُلُّيَّةِ الْأَشْيَاءِ، وَالْأَعْمَالُ كُلُّهَا لِلَّهِ ﷻ ثم هو يكون على وجهين:

أحدهما: على الاعتقاد أن تُعْتَقَدَ كُلُّيَّةُ الْأَشْيَاءِ لِلَّهِ لا على تحقيق ذلك الفعل.

والثاني: على تحقيق جعل الأشياء كلها لله اعتقاداً وفِعْلاً وقولاً؛ منه يخاف، ومنه يزجو، لا يخاف غيره، ولا يزجو من دونه. فهذا ^(٢) حقيقة الإسلام.

الآية ١٠٩

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ هذا يدل على أن الأول خَرَجَ على الأمر والدعاء حين ^(٣) قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإجابة إلى ما دَعَوْتَهُمْ ^(٤) إليه: ﴿فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي أَعْلَمْتُكُمْ ^(٥) على عَذَلٍ وَحَقٍّ كقوله: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَتَّلُوا إِلَّا كَلِمَةً سَوَاءً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي عَذَلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا مُحْتَمَلٌ: أن يكون قوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي على عَذَلٍ وَحَقٍّ.

وَيَحْتَمِلُ أَيْضاً: ﴿أَذْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي أَعْلَمْتُكُمْ حتى صِرْتُ أنا وأَنْتُمْ فِي الْعِلْمِ عَلَى سَوَاءٍ، أي على الاستواء في العداوة والمخالفة، وفي كل أمر على الاستواء. وهو كقوله: ﴿فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] على الاستواء في العداوة، أي انْذِرْ إِلَيْهِمْ حتى تكون أنت وَهُمْ على الاستواء في العلم بالمُنَابَذَةِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي ما أذري أقرب أم بعيد ما تُوعَدُونَ؟ ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ الساعة والقيامة التي كانوا يُوعَدُونَ بها، وَهُمْ كانوا يَسْتَعْجِلُونَ بها كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] فيقول: ما أذري أقرب ما تُوعَدُونَ أم بعيد؟

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانَ يَعِدُ لَهُمْ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُمْ كانوا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] فيقول: ما أذري أقرب أم بعيد ما تُوعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ؟ والله أعلم.

الآية ١١٠

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ مَّا تَكْتُمُونَ﴾ يُخْرِجُ ذَلِكَ عَلَى الْوَعْدِ وَالنَّشِيءِ وَالزَّجْرِ عَنِ الْمَكْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَوْلِ فِيهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ. يُخْبِرُ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ وَمَا تَكْتُمُونَ، أي ما تُسِرُّونَ مِنَ الْمَكْرِ بِهِ.

وفيه دلالة إثبات رسالة محمد حين ^(٦) أَخْبَرَهُمْ عَمَّا أَسْرُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَكْرِ بِهِ.

الآية ١١١

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فَتَنَةٌ لَّكُم مِّنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فَتَنَةٌ لَّكُم مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ⁽

تَأَخَّرَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ مَتَاعاً لَهُمْ يَأْمَنُونَ مِنْهُ، فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَكْذِيبِهِ فِي مَا خَوْفُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَيَكُونُ مَا يَأْمَنُونَ^(١) مِنَ الْعَذَابِ مَتَاعاً لَهُمْ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَقْتُ نُزُولِ الْعَذَابِ مُبَيَّنّاً لَهُمْ لَكَانُوا^(٢) أَبْدأً عَلَى خَوْفٍ، فَيُنْغَصُ ذَلِكَ الْخَوْفُ [عَيْشَهُمْ]^(٣) وَيَنْتَعُهُمْ عَنِ الْمَتَاعِ.

وإِنْ لَمْ يُبَيَّنْ لَهُمُ الْوَقْتُ، فَإِذَا تَأَخَّرَ عَنْهُمْ يَأْمَنُونَ، وَيَمْتَنِعُونَ، فيقول: مَا أَدْرِي لَعَلَّ تَخْوِيفِي إِيَّاكُمْ لَكُمْ فِتْنَةً. إِذْ^(٤) لَا يَجِبُ أَنْ يُفَسِّرَ قَوْلُهُ: ﴿فِتْنَةً لَكُمْ﴾ لِأَنَّ^(٥) أَيَّ شَيْءٍ أَرَادَ هُمْ قَدْ عَرَفُوا مَا أَرَادَ بِهِ. وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُفَسِّرَ ذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ كَذَا إِلَّا بَيَّانٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

الآية ١١٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ تَعَلَّقَ أَكْثَرُ الْمُعْتَرِلَةِ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي مَسَائِلَ لَهُمْ:

يقولون: يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى بِدَعَوَاتٍ، يَعْلَمُ الدَّاعِي أَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ نَحْوِ سُؤَالِ الْمُغْفِرَةِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَهُوَ مُغْفَرٌ [لَهُ]^(٦)، وَ: رَبِّ أَعْظِي كَذَا، وَهُوَ مُعْطَى لَهُ ذَلِكَ، ويقول: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُغْفَرُ لَهُ وَنَحْوِ هَذَا مِنَ الْمَسَائِلِ لَهُمْ، فَيَحْتَجُونَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُدْعَوْ بِهِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ [إِلَّا]^(٧) بِالْحَقِّ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى بِمِثْلِ هَذَا الدَّعَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا عَلَى اغْتِقَادِ مَعْنَى آخَرٍ فِي ذَلِكَ، كَانَ لِلَّهِ^(٨) فِعْلُ ذَلِكَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ عَدْلًا [وَحَقًّا]^(٩) نَحْوُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أَيَّ بِالنَّصْرِ لَهُ وَالظَّفَرِ عَلَى أَعْدَائِهِ. وَلَهُ أَلَّا يَنْصُرُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ وَحَقًّا، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ: احْكُم بِالْحَقِّ أَيَّ بِالْعَذَابِ الَّذِي هُوَ حُكْمُكَ عَلَى مُكَذِّبِي الرِّسْلِ.

[فَإِذَا أَنْ يَغْتَفِدَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ مَا اغْتَفَدَ الْمُعْتَرِلَةُ فَيَجْعَلُ الدَّعَاءَ بِهِ: اللَّهُمَّ لَا تُجِرْ، وَرَبِّ اغْدِلْ. وَمَنْ عَرَفَ رَبَّهُ هَكَذَا فَهُوَ لَيْسَ يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ^(١٠).

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾^(١١) رَبِّ احْكُم بِحُكْمِكَ، وَهُوَ الْحَقُّ، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ مُسْتَقِيمٌ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَأَمْثَالَهَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

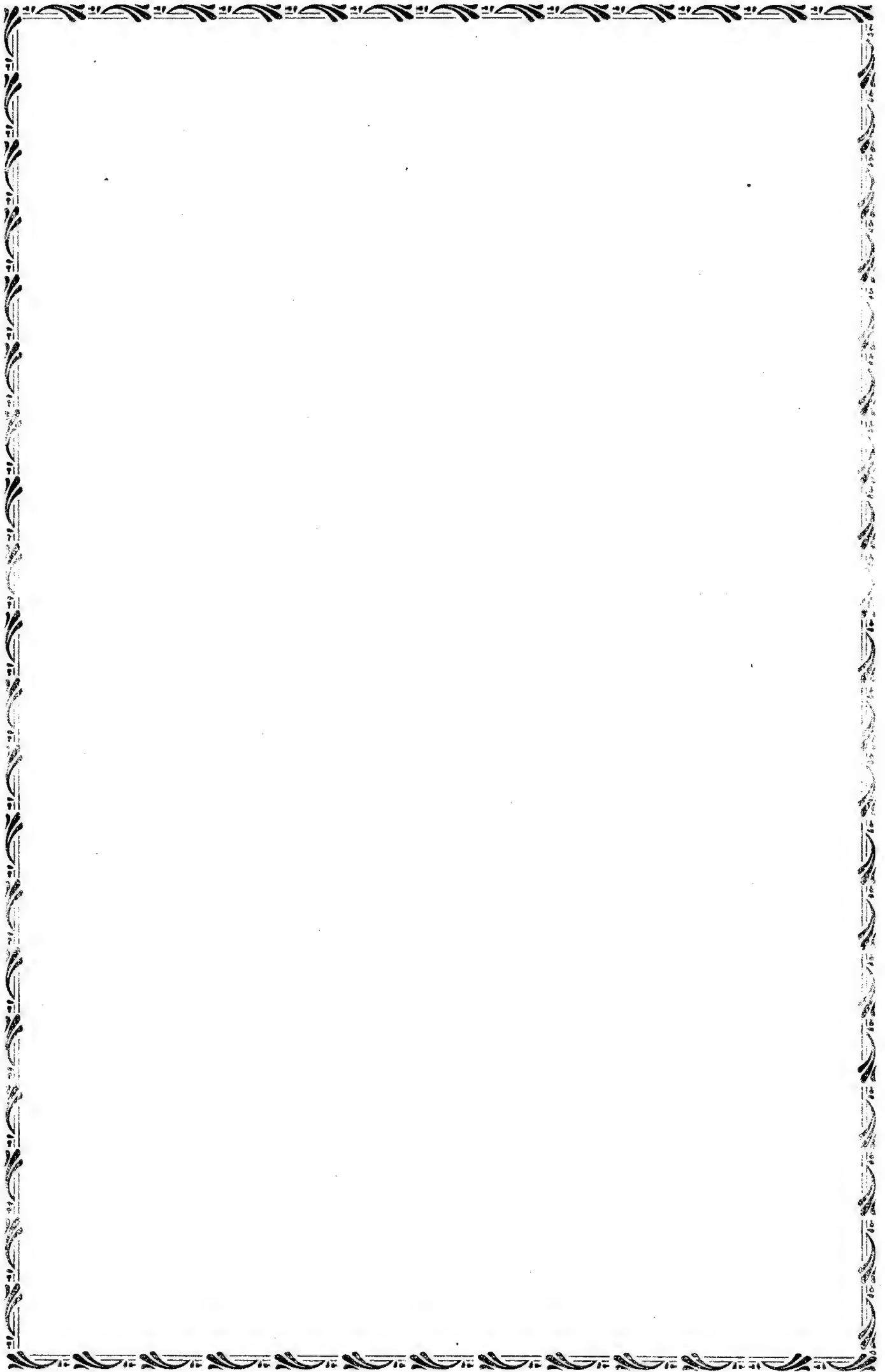
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ﴾ أَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا يَقُولُونَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ فِي مَا يَدْعُو، وَيَعْدُو.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿أَذْنَبْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أَيَّ أَعْلَمْتُكُمْ، فَصِرْتُ أَنَا وَأَنْتُمْ عَلَى سَوَاءٍ. وَإِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ: أَذْنَبْتُكُمْ: أَخْبَرْتُكُمْ، وَأَعْلَمْتُكُمْ، ذَلِكَ. فَاسْتَوَيْنَا فِي الْعِلْمِ. وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: قَوْلُهُ: ﴿أَذْنَبْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أَيَّ كَلَّكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ.



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَأْمَنُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكَانَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: اللَّهُ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَاحِقًا. (١٠) انْظُرِ الْحَرَاشِي الْمَتَعَلِّقَةَ بِالْآيَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.



سورة الحج

سورة (١) الحج / ٣٤٥ - ١ / كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ ﴿هَذَانِ خَصَّانِ أَخَصَّصْنَاهُ﴾ [الآية: ١٩] وَغَيْرَهَا (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ قد ذكرنا تأويله في غير موضع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ آيَاتٍ تَحْجِبُ التَّوْبَةَ وَقَبُولَ الْإِيمَانِ: مِنْهَا الزَّلْزَلَةُ الَّتِي ذَكَرَ، وَمِنْهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّجَالِ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ [وَأَمثالها، وهي] (٣) كقولهِ: ﴿أَوْ بَأْتِيَ رَبَّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ مَا يَأْتِي رَبَّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَأْتِي رَبَّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وجائزٌ عندنا أَنْ تكونَ هذه الآياتُ غَايَةً لِقَبُولِ التَّوْبَةِ، وَالْإِيمَانِ يُقْبَلُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَا يُقْبَلُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنْ تَابُوا، وَأَمَنُوا، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا﴾ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ لِمَا تَشْغَلُهُمْ تِلْكَ الْآيَاتُ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يُؤْمِنُونَ، لِأَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ تُعْمِ الْخَلَاتِقَ كُلَّهُمْ: الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ جَمِيعًا؛ فَلَا يَعْرِفُ الْمُبْطِلُ وَالضَّالُّ أَنَّهُ عَلَى الضَّلَالِ وَالْبَاطِلِ، فَيَرْجِعُ إِلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ، لَيْسَتْ (٤) كَعَذَابٍ يَنْزِلُ عَلَى قَوْمٍ خَاصٍّ لِأَنَّ ذَلِكَ يَعْرِفُ أَوْلَئِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْزِلُ بِهِمْ خَاصَّةً لِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ.

وَإِذَا كَانَتِ الْآيَاتُ عَامَّةً لَمْ يَعْرِفْ أَهْلُ الضَّلَالِ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْزِلُ بِسَبَبِهِمْ لِمَا يَرَوْنَهُ أَنَّهُ قَدْ عَمَّ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا. فَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا﴾ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أَيْ لَا يَكُونُ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ، لَيْسَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شَفَعَاءُ، فَيَشْفَعُونَ، فَلَا تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ لِأَنَّهُمْ يُشْغَلُونَ عَنِ الْإِيمَانِ، فَلَا يُؤْمِنُونَ، فَلَا يَنْفَعُ لَهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ﴾ قِيلَ: السَّاعَةُ، وَقِيلَ: الْقِيَامَةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّكَ زَلَّزَلَةُ السَّاعَةِ﴾ وَصَفَهَا بِالشَّدَةِ وَالْفَرْعِ.

الآية ٢

فَقَالَ: ﴿يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ﴾ أَيْ تُشْغَلُ ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ لِشِدَّةِ أَهْوَالِهَا وَأَفْرَاعِهَا ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾.

هَذَا عَلَى قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ قَبْلَ السَّاعَةِ؛ تَكُونُ عَلَى التَّحْقِيقِ، أَيْ تَذْهَلُ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ حَمْلَهَا لِأَنَّهُ تَكُونُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُرْضِعًا وَحَامِلًا [فَتَذْهَلُهَا أَهْوَالُ ذَلِكَ الْيَوْمِ] (٥) وَأَفْرَاعُهَا عَنْ وَلَدِهَا، وَتَضَعُ مَا فِي بَطْنِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِرْأَاةً زَايِغَةً﴾ [وَأَيُّهُ وَأَيُّوهُ] ﴿وَمَنْجَبِيذٍ وَيَبِيذٍ﴾ [لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّا يَنْتَهِي يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُ] [عبس: ٣٤ إلى ٣٧] (٦) يَذْكُرُ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ مَنْ أَصَابَ شَيْءٌ (٧) مِنَ الْبَلَاءِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا يَفْرُغُ إِلَى هَؤُلَاءِ، فَيُخَيِّرُ [أَنَّهُ فِي] (٨) ذَلِكَ الْيَوْمِ يَفْرُغُ بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ لِشِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهَوْلِهِ لِشُغْلِهِ بِتَفْسِيهِ.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: وأمثاله وهو. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) في الأصل وم: فتذهل الأحوال ذلك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: شيئاً. (٨) في الأصل: أن، في م: أن في.

وعلى قول من يقول: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ هِيَ السَّاعَةُ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الآية على التمثيل، أي تَذْهَلُ عَمَّا أَرْضَعَتْ أَنْ لَوْ كَانَتْ مُرْضِعَةً، وَتَضَعُ حَمْلَهَا أَنْ لَوْ كَانَتْ حَامِلًا لِشِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ أي [مَنْ] ^(١) مَكَّنْ لَهُ، وَقَوَى، يَرَى النَّاسَ كَانَهُمْ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَإِلَّا لَمْ يَجْزَ أَنْ يُرِيَهُمْ سُكَارَى، وَلِسَوْا هُمْ بِسُكَارَى فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّهُ يُرَى مَنْ مَكَّنْ لَهُ، وَقَوَى، وَإِلَّا لَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ سُكَارَى [لَكَانَ لَا يُرِيَهُمْ سُكَارَى] ^(٢) لِأَنَّ السُّكَرَانَ لَا يَرَى مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِ سَكْرَانًا. أَوْ يَكُونُ حَاطَبٌ بِهِ رَسُولُهُ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ ذَلِكَ الْهَوَلُ الَّذِي يَكُونُ فِي غَيْرِهِ. أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى التَّمَثِيلِ، لَيْسَ عَلَى التَّحْقِيقِ.

وقول أهل التأويل: يَقُولُ لَأَدَمَ فِي ذَلِكَ: قُمْ فَابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ، فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تَسْعَ مِئَةً [وَتِسْعًا] ^(٣) وَتَسْعِينَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدًا ^(٤) فِي الْجَنَّةِ.

وَيَرْوُونَ الْأَخْبَارَ فِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ. فَإِنْ ثَبَتَ مَا رُوِيَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، وَإِلَّا فَالْكُفْ ^(٥) عَنْ مِثْلِهِ أَوَّلَى، لِأَنَّهُ يَخْزَنُ حِينَ ^(٦) يُؤْمَرُ أَنْ يَتَوَلَّى بَعَثَ وَلَدِهِ إِلَى النَّارِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَوْجِبَ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: تَذْهَلُ أَي تَسْلُو عَنْ وَلَدِهَا، وَتَتْرُكُهُ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: تَذْهَلُ أَي تَنْسَى؛ يُقَالُ: ذَهَلَ يَذْهَلُ ذُهُولًا، وَأَذْهَلْتُهُ أَي أَنْسَيْتُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَي تُشْغَلُ. وَالْحَمْلُ بِالنَّضْبِ مَا فِي الْبَطْنِ، وَالْحَمْلُ بِالْحَفْضِ مَا عَلَى الظَّهْرِ، وَالزَّلْزَلَةُ الرَّجْفَةُ؛ يُقَالُ: زَلَزَلْتُ أَي حَرَكْتُ، وَزَلَزَلْتُ أَي تَحَرَّكْتُ.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ذَكَرَ الْمُجَادَلَةَ فِي اللَّهِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ فِيْمَ جَادَلُوا؟ وَقَدْ كَانَتْ مُجَادَلَتُهُمْ مِنْ وَجْهِ: مِنْهُمْ مَنْ جَادَلَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمِنْهُمْ مَنْ جَادَلَ أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ مُنْشَأٌ أَوْ لَا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَادَلَ فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى: وَاحِدٌ أَوْ عَدَدٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَادَلَ فِي بَعَثِ الْأَنْبِيَاءِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَادَلَ فِي إِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَادَلَ فِي دِينِ اللَّهِ الْمَدْعُوعِ إِلَيْهِ.

وَبِمِثْلِ هَذَا قَدْ كَثُرَتْ مُجَادَلَاتُهُمْ فِي مَا ذَكَرْنَا. وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مُجَادَلَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ، لِأَنَّهُمْ لَوْ تَفَكَّرُوا فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَنَظَرُوا فِيهِ حَقَّ النَّظَرِ لَعَرَفُوا أَنَّ لِهَذَا الْعَالَمِ مُنْشَأً، وَأَنَّهُ وَاحِدٌ، لَا عَدَدٌ، وَأَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ بِذَاتِهِ، وَأَنَّهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَالْكِتَابَ، وَعَرَفُوا أَيْضًا أَنَّهُ يَبْعَثُ هَذَا الْعَالَمَ، وَيُخَيِّبُهُمْ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ.

لَكِنْهُمْ [لَمْ] ^(٧) يَتَفَكَّرُوا فِيهِ، وَلَمْ يَنْظُرُوا حَقَّ النَّظَرِ، فَجَادَلُوا فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَشْتَعِ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَشْتَعِ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ الشَّيْطَانُ الْمَعْرُوفُ، يُتَابَعُهُ فِي كُلِّ مَا يَدْعُوهُ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ [أَنَّهُ] ^(٨) يَتَّبِعُ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ، وَمَعَهُ الْقَادَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَا يَدْعُو الشَّيْطَانُ، وَيُوحِي إِلَيْهِمْ [كَقَوْلِهِ] ^(٩): ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] أَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ لِيُجَادِلُوهُمْ.

فَذَلِكَ مَعْنَى: ﴿وَتَشْتَعِ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ قِيلَ: فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿وَجَنَّتَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الصافات: ٧] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ مُتَمَرِّدٍ فِي الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ فَهُوَ مَارِدٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَارِدُ هُوَ الْمُجَاوِزُ عَنْ جَنْبِهِ فِي عُنْوِهِ وَتَمَرُّدِهِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الَّذِي لَا لِحْيَةَ لَهُ أَمْرَدٌ لِخُرُوجِهِ [وَمُجَاوَزَتِهِ أَجْنَاسَهُ مِنَ الذُّكُورِ] ^(١٠) وَالْمَارِدُ بِالْفَارِسِيَّةِ: يَشْتَبَهُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلَّهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كُتِبَ عَلَى مَنْ تَوَلَّى الشَّيْطَانُ، وَاتَّبَعَهُ أَنْ ^(١١) يُضِلَّهُ، أَي يَدْعُوهُ إِلَى مَا بِهِ ضَلَالُهُ وَهَلَاكُهُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وراحد. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ومجاورة أجناسه ورجاله. (١٠) في م: أنه.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَعَلَّكُمْ تُفْقَهُونَ﴾. وقيل: قُضِيَ. وَكُتِبَ يَحْتَمِلُ الْإِثْبَاتَ، أَيِ اثْبَتَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى الشَّيْطَانَ، وَاتَّبَعَهُ، يُضِلُّهُ^(١). وقد ذُكِرَ إِضْلَالُ الشَّيْطَانِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ أَيْ خَلَقْنَا أَصْلَكُمْ مِنْ تَرَابٍ، وَخَلَقْنَا أَوْلَادَهُ مِنْ نُفُثَةٍ ﴿ثُمَّ مِنْ عُلَقَةٍ﴾ الْآيَةُ.

تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ كَيْفَ تَشْكُونُ فِي الْبَيْتِ، وَتُنْكِرُونَهُ، وَلَيْسَ سَبَبُ إِنْكَارِكُمُ الْبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُصَيِّرُوا تَرَاباً أَوْ مَاءً فِي الْعَاقِبَةِ وَقَدْ كُنْتُمْ فِي مَبَادِي أَحْوَالِكُمْ تَرَاباً وَمَاءً، فَكَيْفَ أَنْكَرْتُمْ بَعَثَكُمْ إِذَا صِرْتُمْ تَرَاباً؟ أَوْ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّ كَيْفَ أَنْكَرْتُمْ الْبَيْتَ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ/ ٣٤٥ - ب/ أَنَّهُ يُقَلِّبُكُمْ مِنْ حَالِ النُّفُثَةِ إِلَى حَالِ الْعُلَقَةِ وَمِنْ الْعُلَقَةِ إِلَى الْمُضْغَةِ، وَلَا يُقَلِّبُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ بِلَا عَاقِبَةٍ تُقْصَدُ.

فلو لم يكن بَيْتٌ كَمَا تَزْعُمُونَ لَكَانَ خَلْقُكُمْ وَتَقْلِيْبُكُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ عَبَثاً عَلَى مَا أَخْبَرَ أَنَّ خَلْقَ الْخَلْقِ لَا لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ عَبَثٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْنَاكُمْ أَوْ لَمْ يَخْلُقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنْتُمْ لَا تُرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ الْخَلْقِ لَا لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ عَبَثاً. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

أَوْ يَكُونُ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿فَلَمَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَلَوْ اجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْبَشَرِ وَعُلَمَاؤُهُمْ لَيَعْرِفُوا السَّبَبَ الَّذِي خَلَقَ الْبَشَرَ مِنْ ذَلِكَ التَّرَابِ أَوْ مِنَ النُّفُثَةِ مَا قَدَّرُوا عَلَيْهِ، وَمَا وَجَدُوا لِلْبَشَرِ فِيهِ أَثَرًا وَلَا مَعْنَى لِلْبَشَرِيَّةِ فِيهِ. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى ابْتِدَاءِ إِنْشَاءِ هَذَا الْعَالَمِ مِنَ التَّرَابِ أَوْ مِنَ النُّفُثَةِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، يَوْجَدُ فِيهِ، وَلَا أَثَرَ [فَهُوَ قَادِرٌ]^(٢) عَلَى إِعَادَتِهِمْ. وَإِعَادَةُ الشَّيْءِ فِي عَقُولِكُمْ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ فَهُوَ عَلَى الْإِعَادَةِ أَقْدَرُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيِ تَامَّةٍ ﴿وَعَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيِ غَيْرِ تَامَةٍ خَلْقاً، وَهُوَ الْأَشْبَهُ لِأَنَّ التَّشْدِيدَ إِنَّمَا يُذَكِّرُ لِتَكْثِيرِ خَلْقِ^(٣) الْفَعْلِي، وَالتَّخْفِيفُ لِتَقْلِيلِهِ. فَكَانَهُ قَالَ: ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيِ قَدْ أَتَمَّ خَلْقَهَا مِنَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ﴿وَعَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيِ غَيْرِ تَامَةٍ خَلْقاً بِلِ نَاقِصَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَثِقَّتِي فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَبْلَغُ مَنَاسِكٍ﴾ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ مُرْصُولٌ^(٤) بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ ثُمَّ مِنْ عُلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَبْلَغُ مَنَاسِكٍ﴾ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ إِلَى سِتِّينَ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ.

[وقوله تعالى]^(٥): ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ بَعْدَ الْإِقْرَارِ فِيهَا﴾ ﴿لِفَلَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ثُمَّ نَخْرِجُ كُلَّكُمْ مِنْكُمْ طِفْلاً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاسْمُ الطِّفْلِ يُجْمَعُ، وَيُفْرَدُ.

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَشَدُّ هُوَ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً.

وَاصِلُ الْأَشَدِّ هُوَ اشْتِدَادُ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقْوَى كُلِّ شَيْءٍ عَنْهُ مِنَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَكُلُّ مَا رُكِّبَ فِيهِ مِنَ الْعَقْلِ وَغَيْرِهِ. ثُمَّ عِنْدَ ذَلِكَ يُبَيِّنُ لَهُمْ. وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لِيُثَبِّتَ لَكُمْ﴾ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ إِذَا بَلَغُوا الْمَبْلَغَ الَّذِي تَعْرِفُونَ تَقْلِيْبَهُ إِيَّاكُمْ^(٧) مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ عَلَى مَا ذَكَرَ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِيُثَبِّتَ لَكُمْ﴾ وَجُوهاً:

أَحَدُهَا: يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى تَحْوِيلِهِمْ مِنْ حَالِ التَّرَابِ إِلَى حَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ وَمِنْ حَالِ النُّفُثَةِ إِلَى حَالِ الْعُلَقَةِ ثُمَّ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ يَقْدِرُ^(٨) عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ مَا صَارُوا تَرَاباً.

(١) فِي الْأَصْلِ: أَنْ يَضِلَّهُ، فِي م: أَنَّهُ يَضِلُّهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِقَادِر. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: خَلَقَهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مُرْصُولاً. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَأْخُذَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: قَدَّرَ.

والثاني^(١): «يُبَيِّنُ عِلْمُهُ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي^(٢) كَانَ الْوَلَدُ فِيهَا: أَنْ كَيْفَ قَلْبُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ».

والثالث^(٣): «يُبَيِّنُ حِكْمَتَهُ وَتَدْبِيرَهُ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ وَمِنْ النُّطْفَةِ مَا لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ الْحُكَمَاءِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْعُلَمَاءِ لَيَعْرِفُوا الْمَعْنَى الَّتِي بِهَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ، وَصَارَ بِهِ بَشَرًا، مَا قَدَّرُوا عَلَيْهِ، وَلَا عَرَفُوا السَّبَبَ الَّذِي بِهِ صَارَ كَذَلِكَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّهُ حَكِيمٌ بِذَاتِهِ وَعَالِمٌ قَادِرٌ بِذَاتِهِ لَا يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَلَا بِإِقْدَارٍ غَيْرِهِ».

فَمَنْ كَانَ هَذَا سَبِيلَهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ؛ يَنْشِئُ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَا مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّقُ أَيُّ يَتَوَفَّى قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. دَلِيلُهُ: قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّقُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ الْمَبْلُغَ، وَهُوَ الْأَشَدُّ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَيْكَ أَرْدِلَ الْعُمُرِ﴾ أَيُّ إِلَى وَقْتٍ يُسْتَقْدَرُ مِنْهُ، وَيُسْتَخْبَثُ.

لَيْسَ كَالصَّغِيرِ، لِأَنَّ الصَّغِيرَ وَالطِّفْلَ مِمَّا يُؤْمَلُ مِنْهُ فِي الْعَاقِبَةِ الْمَنَافِعُ وَالزِّيَادَاتُ، وَهَذَا^(٤) لَا يَرْجَى مِنْهُ، وَلَا يُؤْمَلُ مِنْهُ الْعَاقِبَةُ. كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ وَقْتُ كَانَ أَضْعَفَ فِي عَقْلِهِ وَنَفْسِهِ. وَلَا كَذَلِكَ الصَّغِيرُ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

قَالَ الْقَتَيْبِيُّ: ﴿أَرْدِلَ الْعُمُرِ﴾ أَيُّ الْخَرَفِ وَالْهَرَمِ.

وقوله تعالى: ﴿لَكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أَيُّ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِهِمَا كَانَ يَعْلَمُهُ شَيْئًا.

ثُمَّ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ، فَقَالَ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَيِّتَةً. وَقِيلَ: خَاشِعَةً، وَقِيلَ: يَابِسَةً. وَقِيلَ: بِالْيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْيَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ قَالَ الرَّجَّاجُ: ﴿وَرَبَّتْ﴾ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّمَاءِ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: يُقَالُ: رَبَا يَرْبُو، أَيُّ زَادَ، وَهُوَ الرُّبَا، وَرَبَوَاتٌ مِنَ الِارْتِفَاعِ، رَبَا يَرْبُو رَبْوَةً كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوَيْتَهُمَا إِلَيَّ رَبْوَةً ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ثُمَّ أَضَافَ الْاهْتِزَّازَ وَالزِّيَادَةَ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ لَا تَهْتَزُّ، وَلَا تَرْبُو. وَإِنَّمَا يَرْبُو. وَتَهْتَزُّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ النَّبَاتِ. لَكِنْ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَيْهَا لِمَا بِهَا كَانَ اهْتِزَّازُ ذَلِكَ النَّبَاتِ، وَبِهَا كَانَ النَّمَاءُ، فَأَضِيفَ إِلَيْهَا، أَوْ إِنْ كَانَ مِنَ الِارْتِفَاعِ وَالرَّبْوَةِ فَهِيَ تَرْتَفِعُ، وَتَنْتَفِخُ، وَتَهْتَزُّ بِالْمَطَرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيجٍ﴾ قِيلَ: الْبَهِيجُ: الْحَسَنُ. يُخْبِرُ فِي هَذَا [عَنْ^(٥)] كُلِّ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا كَانَتْ يَابِسَةً مَيِّتَةً (هُوَ قَادِرٌ^(٦)) عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بَعْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ مَا صَارُوا تَرَابًا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيجٍ﴾ أَيُّ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ حَسَنٍ بَهِيجٍ، أَيُّ يُسِرُّ، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ. يُقَالُ: امْرَأَةٌ ذَاتُ خُلُقٍ بَاهِجٍ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْهَامِدُ الْبَالِي، يُقَالُ: هَمَدَ^(٧) الثَّوْبُ إِذَا بَلِيَ، وَالْهَامِدُ أَيْضًا الْخَامِدُ، حَمَدَتِ النَّارُ تَحْمَدُ حُمُودًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَرَبَّتْ﴾ أَيُّ ضَاعَفَتْ^(٨) النَّبَاتِ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ الْفَلَاقَ﴾ أَيُّ ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ السَّاعَةِ وَزِلْزَالِهَا وَأَهْوَالِهَا وَمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَقْلِيلِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْبُعْثِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا كَانَتْ هَامِدَةً، هُوَ الْحَقُّ، أَيُّ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَنْتَ يَحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) الْوَاقِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِقَادَر. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: هَمَدَتْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَضْعَفَتْ.

الآية ٧

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾؟ هذا كُلُّهُ يَدُلُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْمُنْقُذُ﴾ في تَحْقِيقِ الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَأَنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ عَالِمٌ.

وقال بعضهم: ذلك يقول: هذا الذي فَعَلَ، وَظَهَرَ، مِنْ صُنْعِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ ﴿هُوَ الْمُنْقُذُ﴾ وَغَيْرُهُ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي يَغْبُدُونَهَا بَاطِلٌ ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فِي الْآخِرَةِ لَا الْآلِهَةُ الَّتِي يَغْبُدُونَهَا ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عَلَى مَا يَشَاءُ. وَهُوَ مَا أَخْبَرَنَا.

وقال الحسن: ﴿الْمُنْقُذُ﴾ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ يُخَلِّصُ بِالْحَقِّ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾ [يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾ حِسْبِي ﴿وَلَا هُدًى﴾ أَي لَا بَيَانَ دَلِيلِي مِنْ جِهَةِ الْفِعْلِ ﴿وَلَا يَكْتُبُ مُبِيرٌ﴾ أَي وَلَا وَخِي مُبِيرٌ مَا يُجَادِلُ فِيهِ، وَيُخَاصِمُ. وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾^(١) أَي بغير إِذْعَانٍ مِمَّنْ عِنْدَهُ الْعِلْمُ ﴿وَلَا هُدًى﴾ وَلَا اسْتِسْلَامٍ لِمَنْ عِنْدَهُ الدَّلِيلُ وَلَا خُضُوعٍ لِمَنْ عِنْدَهُ كِتَابٌ مُبِيرٌ.

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا وَى عُنُقِهِ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَظَرًا فِي عِطْفِهِ أَي فِي جَانِبِهِ. وَقِيلَ مِثْلُ هَذَا. لَكِنَّ حَقِيقَتَهُ تُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى التَّمَثِيلِ وَالْكِنَايَةِ عَنْ إِعْرَاضِهِ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ وَالصُّدُودِ عَنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَنقَلَبَ عَلَى رَجْعِهِ﴾ [الحج: ١١] وَقَوْلِهِ: ﴿أَنقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وَنَحْوَهُ، كُلُّهُ عَلَى التَّمَثِيلِ وَالْكِنَايَةِ عَنْ الإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَالصُّدُودِ لَا عَلَى حَقِيقَةِ الْإِنْقِلَابِ عَلَى الْأَعْقَابِ. فَعَلَى ذَلِكَ/ ٣٤٦ - أ/ جَائِزٌ قَوْلُهُ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى التَّمَثِيلِ وَالْكِنَايَةِ عَنِ الإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ.

وَالثَّانِي^(٢): جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَةِ عِطْفِ الْعُنُقِ وَالْمِيلِ عَنْهُمْ تَكْبَرًا وَتَجَبُّرًا مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ [ذَلِكَ]^(٣) فَقَالَ: ﴿لِيُحِيلَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ مَا لَهُ فِي الدُّنْيَا [بِصُنْعِهِ، فَقَالَ: ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْخِزْيُ^(٤) هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي يَفْضَحُهُ.

وَأَصْلُ الْخِزْيِ الْهَوَانُ وَالذُّلُّ. وَهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَدِينِهِ بُلُّوا بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَاتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ، فَذَلِكَ الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا. ثُمَّ أَخْبَرَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَزَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَنَذِيقُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وَعَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ يَضْرِفُونَ الْآيَةَ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَيَقُولُونَ ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لِأَنَّهُ أُسِرَ يَوْمَ بَذْرِ، فَضُرِبَ عُنُقُهُ، وَقِيلَ صَبْرًا. فَذَلِكَ الْخِزْيُ لَهُ.

وَالْحَسَنُ يَقُولُ: هَذَا الْخِزْيُ لِجَمِيعِ الْكَافِرَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ هَذَا صَنِيعُهُمْ مُنْذُ كَانُوا، فَلَهُمُ الْخِزْيُ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْحَصْبُ عَلَى مَا كَانَ فِي الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ لَيْسَ عَلَى تَحْقِيقِ تَقْدِيمِ الْأَيْدِي، وَلَكِنْ عَلَى التَّمَثِيلِ لِمَا بِالْأَيْدِي يُقَدَّمُ، فَذَكَرَ الْيَدَ لِذَلِكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ انْقِلَابِ الْأَعْقَابِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لِأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ أَحَدًا بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَلَا يَأْخُذُهُ^(٥) بِذَنْبٍ غَيْرِهِ.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِي اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَبْغِي اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ﴾ أَي عَلَى شَكٍّ، يَمْتَحِنُ رَبَّهُ عَلَى أَنَّهُ [إِنْ]^(٦) أَعْطَاهُ ظَمْعَهُ وَأَمَلَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَقَّقَ [لَهُ الْأُلُوهِيَّةَ وَالْعِبَادَةَ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ ظَمْعَهُ وَأَمَلَهُ لَا يُحَقِّقُ]^(٧) لَهُ ذَلِكَ، وَيَقُلُ^(٨): لَيْسَ هُوَ بِالْهَؤُلَاءِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ إِلَهًا لَأَعْطَاهُ مَا يَطْلُبُ مِنْهُ. عَلَى هَذَا الشَّكِّ يَغْبُدُ بِالْإِمْتِحَانِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: خِزْي. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَأْخُذُ. (٦) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَقُولُ.

وقال بعضهم: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ أي على شرط الإعطاء. يقول: إن أعطاني أَمَلِي عَبْدَهُ، وأن لم يُعْطِنِي ذلك لم عَبْدَهُ؛ تكونُ عبادته على هذا الشرط.

وقال بعضهم: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ أي على حالٍ واحدة، على جهةٍ واحدة، ليس يَغْبُدُهُ على حالين: كالمؤمن يَغْبُدُهُ في حالين جميعاً حالة الظاهر وحالة الباطن وحالة الصَّراء والسَّراء وحالة السَّعة والشَّدة على ما تَعَبَّدَهُ اللهُ كقولِهِ: ﴿وَيَكُونُ لَهُمُ الْمُسْتَنْبِتُ وَالْمُسْتَنْبِتُ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونحوه.

عَبْدَهُ الْمُؤْمِنُ على الحالين جميعاً على ما تَعَبَّدَهُ اللهُ. والمُنَافِقُ إنما يَغْبُدُهُ على حالة السَّعة والخَضْبِ لأنه ليس يَعْرِفُ رَبَّهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، فإنما يَغْبُدُ السَّعة والرخاء.

وأما المؤمن فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، وَعَبْدَهُ^(٢) في الأحوال كلها لما عَرَفَ نَفْسَهُ عَبْدًا لِسَيِّدِهِ، ولم يَرِ لِلْعَبْدِ سَعَةً تَرْكُ الْعِبَادَةِ لِمَوْلَاهُ في كُلِّ حَالٍ، ورَأَى لِلْمَغْبُودِ حَقَّ اسْتِغْدَائِهِ واستِغْدَائِهِ في كُلِّ حَالٍ: في حالِ الضِّيقِ وحالِ السَّعة، أو [لأن يكونَ رَأَى ما]^(٣) يُصِيبُهُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْبَلَايَا بِتَقْصِيرٍ كَانَ مِنْهُ وَتَقْرِيطٍ، فَعَبْدَهُ^(٤) في الأحوال كلها، أو لما رَأَى، وعَرَفَ نِعَمَ رَبِّهِ عليه كثيرة، ورَأَى شُكْرَ تِلْكَ النِّعَمِ عليه لازماً، فَعَبْدَهُ في الأحوال كلها شُكْرًا لِتِلْكَ النِّعَمِ.

وأما أولئك، لم يَرَوْا لِلَّهِ على أَنْفُسِهِمْ نِعَمًا، فإنما عَبْدُوهُ على الْجِهَةِ التي ذَكَّرْنَا: [كَانَ الْكُفْرَةُ فِرْقًا أَيْضًا: مِنْهُمْ]^(٥) مَنْ يَغْبُدُ اللهُ في حالِ الشَّدةِ والضِّيقِ، ولا يَغْبُدُهُ في حالِ السَّعةِ والرخاءِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ مَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا بَلَغْتُمْ آلَ الْبَحْرِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ونحوه.

ومنهم مَنْ كَانَ يَغْبُدُهُ في حالِ السَّعةِ والرخاءِ، وهو ما ذَكَّرْنَا مِنْ أَمْرِ الْمُنَافِقِ.

وأما المؤمنُ فهو يَغْبُدُهُ في الأحوال كلها لما رَأَى تَغْبُودًا حَقِيقَةً على ما ذَكَّرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَصَابَهُ نِجْنَةٌ﴾ قد ذَكَّرْنَا أَنَّ النِّجْنَةَ هي التي فيها بلاءٌ وشِدَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ قال^(٦) بعضهم: هو على التمثيل على ما ذَكَّرْنَا في قولِهِ: ﴿تَكْصَرُ عَلَى عِقَبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقولِهِ: ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال بعضهم: على تخفُّيقِ انْقِلَابٍ وَجْهِهِ، لأنه كَانَتْ عِبَادَتُهُ ظَاهِرَةً، لم يَكُنْ يَغْبُدُهُ في الباطنِ في حالِ السَّعةِ. فلَمَّا أَصَابَتْهُ الشَّدَّةُ تَرَكَ عِبَادَتَهُ الظَّاهِرَةَ، وانْقَلَبَ على ما كَانَ بَاطِنُهُ، فهذا^(٧) انْقِلَابٌ وَجْهِهِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أما خُسْرَانُ الدُّنْيَا فَلأنَّهُ^(٨) فَاتَ عَنْهُ مَا كَانَ يَأْمُلُهُ بِزَوَالِهَا، وخُسْرَانُ الْآخِرَةِ ظَاهِرُهُ^(٩) الْعَذَابُ وَالشَّدَائِدُ.

وجائزُ أَنْ يَكُونَ خُسْرَانُ الدُّنْيَا، هو خُسُوعُهُ لِمَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ لِلْعِبَادَةِ لِلْأَصْنَامِ.

[وقوله تعالى]^(١٠): ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ لأنه خَسِرَ في الدارين جميعاً أَمَلَهُ وَطَمَعَهُ، والله أعلم.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ قيل: إِنَّ الْآيَةَ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ كَانُوا لَا يَغْبُدُونَهُ^(١٢) على حَرْفٍ [لأنَّ الْعِبَادَةَ على حَرْفٍ]^(١٣) لَيْسَتْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، إنما هي عِبَادَةُ الشَّيْطَانِ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ [يَغْبُدُ مَا لَا يَضُرُّهُ]^(١٤) إِنَّ تَرَكَ الْعِبَادَةَ لَهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ إِنْ عَبْدَهُ، يَدُلُّ على ذَلِكَ [قوله]^(١٥): ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾. لأنه عَبْدٌ مَنْ لَا يَضُرُّهُ إِنْ لم يَغْبُدُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ إِنْ عَبْدَهُ. فذلك هو الضَّلَالُ الْبَعِيدُ.

(١) في الأصل وم: فإذا. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أن يكون أي بما. (٤) في الأصل وم: وعبدوه. (٥) في الأصل وم: كانوا فرقاً من الكفرة. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) في الأصل وم: ظاهر. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: يعبدون. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ قال بعضهم: تأويله^(١): يدعو من ضره^(٢) أقرب من نفعه. وقال بعضهم: قوله: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ هذا إن عبده ضرته عبادته إياه في الآخرة. [وذكر في الآية]^(٣) الأولى حين^(٤) قال: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ﴾ إن ترك عبادته في الدنيا ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إن عبده، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْتَوَكُّلُ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ [قال بعضهم: ﴿لَيْسَ التَّوَكُّلُ﴾ أي الولي ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾]^(٥) يعني الصاحب كقوله: ﴿وَعَايِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أي صاحبوهن بالمعروف. وقال بعضهم: ﴿لَيْسَ التَّوَكُّلُ﴾ أي الولي، وهو الشيطان ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي القرين الذي لا يفارق.

وقال القتيبي: أي الصاحب والخليل، وهو ما ذكرنا، كله واحد. وقال أبو عوسجة: ﴿الْعَشِيرُ﴾ الرفيق الذي تماشيه، ونصاحبه، وتخالطه، والعشير الزوج أيضاً.

وقال القتيبي: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ يتكبر مغرضاً. وكذلك قال أبو عوسجة: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي متكبراً متجبراً. والعطف في الأصل الجانب، والأعطاف جميع، وقوله: ﴿مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: لا يذري أحق هو أم باطل؟ وهو الشك. يقال: إني من هذا الأمر على حرف أي على شك، لست بمستيقن. وقال القتيبي: على حرف واحد وعلى وجه واحد وعلى مذهب واحد. وقال قتادة على شك على ما ذكرنا. وقال أبو غبيدة: على حرف أي لا يدوم، ويقول: إنما أنا [على]^(٦) حرف أي لا اثنى بك، ونحو هذا. وأضله: ما ذكرنا في ما تقدم. وقال بعضهم: قوله: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ﴾ في الآخرة ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ انقلب على وجهه، أي رجع إلى دينه.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ المعتزلة كذبت هذه الآية والآية التي تلي هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦] لأنهم يقولون: أراد الله إيمان جميع الخلائق، ثم لم يفعل ذلك، وأراد جميع الخيرات والكف عن الشرور، ثم لم يفعل ذلك على وفاء ما أراد، ويقولون: لا صنع له في أفعال العباد، ولا تدبير.

فعلى قولهم لم يفعل الله مما أراد واحداً من الوفاء. ويقولون: إن الله أراد هدى جميع الخلائق، لكنهم لم يهتدوا، وهو أخبر أنه يهدي من يريد. وهم يقولون: يريد هدى الخلق كلهم، فلم يهتدوا.

ونحن نقول: من أراد الله هداية اهتدى، وما أراد أن يفعل [فعل] ما يريد^(٧). وهو ما أخبر: ﴿فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧ والبروج: ١٦] أخبر أنه يفعل ما يريد^(٨) فيخرج على قولهم على أحد الوجهين: إما على الخلاف في الوعد، وإما على الكذب في القول والخبر/ ٣٤٦ - ب/ فتعود بالله من السرف في القول.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْتَظِرْ هَلْ يُذِهِبَ كَيْدُهُ مَا يَصِفُ﴾ تأويل الآية عندنا يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ صلوات الله تعالى عليه، وسلم، ثم نصره، فغاضه نصره [إياه]^(٩)، فيدوم غيظه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي يحبل من السماء، فيختنق، ويقتل نفسه، ليذهب غيظه الذي غاضه نصره ليسترخ مما غاضه. والثاني: يخرج على الوعد بالنصر والخبر أنه ينصره. يقول: من كان يظن أن ما وعد له من النصر لا يفعل ذلك له، ولا ينصره، ولا ينجز ما وعد ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليخس ما وعد له من النصر إن غاضه ما وعد ليذهب غيظه الذي غاضه. فعلى هذا التأويل تكون السماء الأصل، أي يخس السبب الذي ينزل من السماء.

(١) أدرجت في الأصل وم: بعد يدعو. (٢) في الأصل وم: يضره، في م: يضر به. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أَنْ لَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ، وَيَجْعَلُهُ صَلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْآيَةَ فِي أَهْلِ التَّفَاقِي، يَقُولُ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ مِنْ أَهْلِ التَّفَاقِي أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْزُقُهُ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، وَدَامَ، فَلْيَمْدُدْ بِمَا ذَكَرَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ قَالَ ذَلِكَ خِيفَةُ آلَا يُرْزَقُ، وَأَهْلُ التَّوَابِلِ صَرَفُوا السَّمَاءَ إِلَى سَفْهِ الْبَيْتِ، وَيَقُولُونَ: الْقَطْعُ الْخَنْقُ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أَنْ لَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ: يُقَالُ: مَطَرٌ نَاصِرٌ، وَارِضٌ مَنْصُورَةٌ أَيْ مَنْطُورَةٌ.

وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ مُحَمَّدًا ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ﴾ أَيْ بِحَبْلِ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ إِلَى سَفْهِ الْبَيْتِ ﴿ثُمَّ لَيَقْلَعَنَّ﴾ أَيْ لَيَخْتَنِقَنَّ ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ﴾ أَيْ حِيلَتَهُ ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غَيْظُهُ، أَيْ لِيُجَاهِدَ جَهْدَهُ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ﴾ قَالَ: هَذَا شَيْءٌ لَا يَكُونُ، وَلَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ، وَهَذَا ذَمٌّ لِلْمَقُولِ فِيهِ لِأَنَّهُ جَعَلَ السَّمَاءَ سَمَاءَ الْأَصْلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ أَيْ يَمْدُدْ يَدَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِسَبِّ﴾ وَالسَّبُّ فِي الْأَصْلِ الْحَبْلُ، أَيْ يُعْلَقُ سَبَبًا، فَيَرْتَقِي فِي السَّمَاءِ، وَالسَّبُّ الْخِمَارُ، وَسُوبٌ جَمِيعُ أَيْ خُمُرٌ، وَالسَّبُّ الْحَبْلُ بِلَفْظِهِ هَذَا، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَغِيظُ﴾ هُوَ شِدَّةُ الْغَضَبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنَاتٍ، يُبَيِّنُ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ﴾.

الآية ١٦

الآية ١٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أَمَّا الصَّابِئُونَ فَإِنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ: قَالَ أَهْلُ التَّوَابِلِ: هُمْ عِبَادُ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَقَابِلَهُمْ فِيهِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، فَتَرَكْنَا ذِكْرَهُ هَهُنَا لِذَلِكَ. ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قِيلَ: هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَهُمْ عَبْدَةُ الْأَوْتَانِ وَالْأَصْنَامِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يَحْكُمُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِاخْتِلَافِهِمْ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَتُ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَتُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] وَقَوْلِهِ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ يَحْكُمُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ١١٣].

فَالْفَصْلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هُوَ الْحُكْمُ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ.

وَيَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فِي الْمَقَامِ؛ يَبْعَثُ هَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى النَّارِ. فَذَلِكَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَفْصِلُ﴾ أَيْ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ حَتَّى يُقَرُّوا^(٢) جَمِيعًا بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُوا^(٣) بِهِ. وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ يَوْمَئِذٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَقْرَابِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَجَمِيعٍ مَا كَانَ مِنْهُمْ.

الآية ١٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ حَرْفٌ ﴿مَنْ﴾ فِي ظَاهِرِ اللَّغَةِ وَاللِّسَانِ إِنَّمَا يُعْبَرُ بِهِ عَنِ الْمُتَمَتِّحِينَ مِنَ الْبَشَرِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ. وَأَمَّا الْمَوَاتُ فَإِنَّهُ لَا يُعْبَرُ بِهِ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْهُ بِحَرْفٍ: مَا.

لَكِنْ ذَكَرَ فِي آخِرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالشَّيْءُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ وَالْجِبَالُ﴾ الْآيَةُ مَا يَدُلُّ أَنَّهُ أَرَادَ الْكُلَّ الْمُتَمَتِّحِينَ وَالْمَوَاتَ جَمِيعًا حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وَإِلَّا ظَاهِرُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا يُعْبَرُ بِهِ: مَنْ عَنِ الْمُتَمَتِّحِينَ وَبِحَرْفٍ: مَا عَنِ الْكُلِّ. جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ يُذَكَّرُ بِاسْمِ الْمُتَمَتِّحِينَ عَلَى مَا يُذَكَّرُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الذَّكْرِ وَالْإِنْتِ بِاسْمِ^(٥) الذَّكُورِ.

نَمْ مَا ذَكَرَ مِنْ سُجُودِ هَذِهِ^(٦) الْأَشْيَاءِ يُخَرِّجُ عَلَى وَجْهِ:

أَخَذَهَا: سُجُودُ خَلْقِهِ؛ يَسْجُدُ كُلُّ شَيْءٍ ذَكَرَ بِخَلْقِهِ لِلَّهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي التَّسْبِيحِ.

وَالثَّانِي: سُجُودُ عِبَادَةٍ؛ وَهُوَ سُجُودُ كُلِّ مُتَمَكِّنٍ [مِنْهُ السُّجُودُ]^(٧) وَتَرْكُهُ، وَهُوَ سُجُودُ الْمُتَمَتِّحِينَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْرُونَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُؤْمِنُونَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: بِاسْمِهِ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَذِهِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

والثالث: سُجُودٌ^(١) يَذُلُّ؛ فما^(٢) جعلَ في هذه الأشياءِ مِنَ المنافعِ، لا تأتي بِتَذَلُّلِهَا^(٣) لأحدٍ مِنَ الماءِ والشمسِ والشجرِ والدَّوابِّ وكلِّ شيءٍ.

والرابع: ما ألهمَ هذه الأشياءَ مِنَ الطاعةِ لله والخضوعِ له. ألا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَيْنَا طَائِفِينَ؟﴾ [فصلت: ١١] ألا تَرَى أَنَّهُ ألهمَ الدَّوابَّ مَعْرِفَةَ إِيَابِ الصَّالِحِ وَاتِّقَاءَ الْمَهَالِكِ؟ فجائزٌ أَنْ يَعْرِفَنَّ طَاعَتَهُ وَالْخُضُوعَ لَهُ، واللهُ أَعْلَمُ. وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ في الْجَنَّةِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: مَنْ خَذَلَهُ اللهُ، وَطَرَدَهُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَبَايَهُ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] والآخر: [الزمر: ٢٣ و ٢٦].

والثاني^(٤): يقول: وَمَنْ أَهَانَهُ اللهُ فِي النَّارِ بِالْعَذَابِ فَمَا لَهُ مِنْ مُنْجٍ يُنْجِيهِ عَنْ ذَلِكَ. [وقوله تعالى]^(٥): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ هذا على المعتزلة لأنهم يقولون: شاءَ أشياء، فَلَمْ يَفْعَلْ. وهو يقول: يَفْعَلُ ما يَشَاءُ.

الآية ١٩ وقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾ اختلفوا في تأويله. قال بعضهم: نَزَلَ فِي سِتَّةِ نَفَرٍ تَبَارَزُوا: ثلاثةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: حمزة بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ رضي الله عنه، وثلاثةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ. فذلك ائْتِصَامُهُمْ.

وقال بعضهم: [اِئْتَصَمَ]^(٦) أَهْلُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِي الدِّينِ: قالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّ نَبِيَّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ وَدِينُنَا قَبْلَ دِينِكُمْ وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ. فقال: الْمُسْلِمُونَ: بل نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ؛ أَمَّا بِكِتَابِنَا وَكِتَابِكُمْ وَنَبِيِّكُمْ وَيَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بَيْنُنَا وَكِتَابِنَا وَبِكُلِّ نَبِيٍّ كَانَ قَبْلَ نَبِيِّكُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مَا فَصَّلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ فقال: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِمُحَمَّدٍ وَبِالْقُرْآنِ، وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

وقال في المؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الحج: ٢٣]. وقال بعضهم: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ﴾ النَّارُ وَالْجَنَّةُ. قالَتِ النَّارُ: جَعَلَنِي اللهُ لِلْعُقُوبَةِ لِلْعَصَاةِ وَالْفَسْقِ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: جَعَلَنِي اللهُ لِلرَّحْمَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَنَحْوِهِ. لكن متى يكونُ لِلنَّارِ مُخَاصَمَةٌ وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ؟ وهو بعيدٌ. وقال بعضهم: اِئْتَصَمَ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ فِي الْبَغْيِ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ اِئْتِصَامُهُمْ ما ذَكَرَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية: ٨] وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْغِي اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الآية: ١١] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الآية: ١٧].

يَكُونُ اِئْتِصَامُ^(٧) بَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلُ الْكُفْرِ. وَفِي^(٨) الْآيَةِ بَيَانُ ذَلِكَ حِينَ^(٩) قَالَ: / ٣٤٧ - / ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ وقال في المؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الآية: ٢٣].

ثم جائزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: حِينَ^(١٠) قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الآية: ١٧] يُنْزِلُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ الْكُفْرِ فِي النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: سجود. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: بذلها. (٤) في الأصل وم: أر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: اختصاصهم. (٨) في الأصل وم: الكفرة لي. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ لِمَ يَأْتِ تَارِي﴾ كقولوه: ﴿سَرَّابِلُهُم مِّنْ فِطْرَانِ﴾ الآية [إبراهيم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿يُصَبِّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قيل: الحميم الماء الحار الذي انتهى حره غايته.

الآية ٢٠ وقوله تعالى: ﴿يُصْهِرُ بَوَّاءٌ فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ قال القتيبي: يَصْهَرُ يُذَابُ، يقال: صَهَرَتِ النَّارُ الشَّحْمَةَ، وَالصُّهَارَةُ مَا أُذِيبَ مِنَ الْإِلَيَّةِ، وكذلك يقال^(١): الصُّهَارَةُ مَا يَبْقَى مِنَ الشَّحْمِ وَالْإِلَيَّةِ إِذَا أُذِيبَا. يقال: صَهَرْتُ الشَّحْمَ أَيِ أَذِيتُ أَصْهَرُهُ صَهْرًا.

الآية ٢١ [وقوله تعالى]^(٢): ﴿وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ حديد﴾ قال بعضهم: المَقَامِيعُ الْأَعْمِدَةُ مِنَ الْحَدِيدِ، وهو قول أبي معاذ. وقال بعضهم: المَقَامِيعُ: شِبْهُ الْعُصِيِّ، الواحدة مَقْمَعَةٌ.

قال أبو معاذ: يعني قوله: ﴿يُصْهِرُ بَوَّاءٌ فِي بُطُونِهِمْ﴾ أَيِ يُذَابُ مَا فِي بُطُونِهِمْ خَاصَّةً. وَأَمَّا الْجُلُودُ فَإِنَّهَا تُحْرَقُ لِأَنَّ الْجِلْدَ لَا يُصْهَرُ، وَلَا يُنْصَهَرُ، وقال: هذا مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ: أَتَيْتُهُ، فَأُطْعِمَنِي، وَاللهُ، تُرِيدُ، وَاللهُ وَلَبْنَا قَارِصًا، أَيِ حَامِضًا، وَاللهُ وَإِزَارًا وَرِدَاءً أَيِ وَاللهُ وَحُمْلَانًا فَارِهًا؛ تُضْمِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِعْلًا يُشَاكِلُهُ. وفي القرآن مثله كثير، وكذلك في اللسان.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال بعضهم: إِنَّ جَهَنَّمَ إِذَا جَاشَتْ الْقَتْلُ مِنْ فِيهَا إِلَى أَعْلَاهَا، فَيُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، فَيُعِيدُهُمُ الْخُرُوجُ فِيهَا بِالْمَقَامِيعِ، ويقول لهم الْخَزَنَةُ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقال بعضهم: إِنَّ فِي جَهَنَّمَ دَرَكَاتٍ، فإذا اشْتَدَّ الْعَذَابُ بِهِمْ يَقْبَلُونَ مِنَ الدَّرَكَةِ السُّفْلَى إِلَى الدَّرَكَةِ الْعُلْيَا، وَيَضَعُدُونَ، ثُمَّ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا فَيُعَادُونَ فِيهَا [كقولوه]^(٣): ﴿سَأُزَيِّقُهُمْ صُورًا﴾ [المدثر: ١٧].

وقال بعضهم: إِنَّ النَّارَ تُضْرِبُهُمْ بِلَهَبِهَا، فَتَرْفَعُهُمْ، حتى إذا كانوا في أَعْلَاهَا ضَرَبُوا بِمَقَامِيعٍ مِنْ حَدِيدٍ، فإذا انْتَهَوْا إِلَى أَسْفَلِهَا ضَرَبَهُمْ زَفَرٌ لَهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تَحْتِ أَيْلِهَا، وهو كما ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣ و...].

وقوله تعالى: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنَ الْكَاوِرِ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ذَكَرَ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ، لِقَوْمٍ رَغِبُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي^(٤) التَّحْلِي، وَتَفَاخَرُوا بِهَا فِيهَا، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَوْلَا أَلْفُ عَلَيْهِمْ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣] وَالْأَقْلُ مَا يَرْغَبُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا فِي التَّحْلِي بِمَا ذَكَرَ إِلَّا النِّسَاءَ خَاصَّةً. فَأَمَّا مَا^(٥) ذَكَرَ لِلنِّسَاءِ أَوْ لِقَوْمٍ تَفَاخَرُوا بِهَا فِي الدُّنْيَا [فَقَدْ وَعَدَ]^(٦) لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ذَلِكَ [بقوله]^(٧): ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَكْذَّبُ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ: مَنْ قَرَأَ: وَلُؤْلُؤًا بِالْخَفْضِ^(٨) فَهُوَ [يُخْرِجُهُ عَلَى وَجْهِينِ]^(٩)

أَحَدُهُمَا: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنَ الْكَاوِرِ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [وَلُؤْلُؤًا]^(١٠).

وَالثَّانِي^(١١): يُحْلَوْنَ فِيهَا: مِنْ لُؤْلُؤٍ: حَلِيَّةٍ سِوَى الْأَسَاوِيرِ.

وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ: وَلُؤْلُؤًا [يُخْرِجُهُ عَلَى]^(١٢) يُحْلَوْنَ فِيهَا لُؤْلُؤًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وكذلك ذَكَرَ فِي الْخَبَرِ: «هو لهم في الدنيا ولنا في الآخرة» [ابن ماجه ٣٥٩٠].

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَعُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ^(١٣) التَّوْحِيدُ وَشَهَادَةُ الْإِخْلَاصِ. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ [فَهُوَ]^(١٤) كَقَوْلِهِ: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا مَبْعَثَكَ اللَّهُمَّ وَنَعَيْتَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُ دَعْوَتَهُمْ إِلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فَهُوَ الْقَوْلُ الطَّيِّبُ الَّذِي هُدُّوا إِلَيْهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ب. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَوَعَدَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) أَنْظَرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ: ح/١٧٢. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْرُجُ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَي. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: هُوَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَعُدُّوا إِلَى اللَّهِ مِيزَانَ الْقَوْلِ﴾ هو القرآن ﴿وَعُدُّوا إِنَّ مِيزَانَ الْفَعْلِ﴾ الإسلام وشرائعه.
وقال قتادة: أَلْهِمُوا التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما أَلْهِمُوا التَّقْوَى، وقال: ﴿الْقَلْبِ مِيزَانَ الْقَوْلِ﴾ هو كلُّ قولٍ حَسَنٍ، وقوله: ﴿الْفَعْلِ﴾ يَحْتَمِلُ صِرَاطَ الْحَمِيدِ أي صِرَاطَ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿مِيزَانَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٣] وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَعَتْ ذَلِكَ الصِّرَاطِ أي صِرَاطِ حَمِيدٍ، والله أعلم.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قوله: ﴿كَفَرُوا﴾ هو خَبَرٌ ماضٍ، وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ خَبَرٌ مُسْتَقْبَلٌ، فَتَسَقُّ الْمُسْتَقْبَلُ عَلَى الْمَاضِي. وقال الرَّجَّازُ: [معناه: ^(١)] إِنَّ الْكَافِرِينَ وَالصَّادِقِينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمَ﴾.
وعندنا تأويله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ، وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِذَا بُعِثَ مُحَمَّدٌ. ثم يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [وجهين:

أحدهما: ^(٢)] كانوا يَنْتَعُونَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِلإِسْلَامِ والسُّؤَالِ عَنْهُ.

والثاني: إخراجُهُمْ مِنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْرَأْ أَفْوَاهُ مِنْهُ أَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ظاهرُ هذا أَنْ يَكُونَ الَّذِي جَعَلَ فِيهِ الْعَاكِفَ وَالْبَادِيَ سَوَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً﴾.

لكنَّ أَهْلَ التَّوِيلِ صَرَفُوا ذَلِكَ إِلَى مَكَّةَ، وقالوا: ﴿سَوَاءَ الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ فِي التَّزَوُّلِ فِي الْمَنَازِلِ.

وظاهرُهُ مَا ذَكَّرْنَا. ثم يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْجِدُ مَخْصُوصاً بِهَذَا لَيْسَ كسَائِرِ الْمَسَاجِدِ الَّتِي لَهَا أَهْلٌ أَنْ أَهْلُهَا أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ. وَأَمَّا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ فَإِنَّ النَّاسَ شَرَعٌ ^(٣) سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِي.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ [ذَكَرَ فِي] ^(٤) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنَّ النَّاسَ فِيهِ [سَوَاءً] ^(٥) لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْحُكْمَ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ كَذَلِكَ أَيْ ^(٦) النَّاسُ فِيهَا سَوَاءٌ أَهْلُهَا وَغَيْرُ أَهْلِهَا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِلْحَادُ فِيهِ، هُوَ الشُّرْكُ وَالْكُفْرُ، وَقَالَ [بَعْضُهُمْ] ^(٧): الْإِلْحَادُ هُوَ كُلُّ الْمَعَاصِي. وَأَصْلُ الْإِلْحَادِ، هُوَ الْعُدُولُ وَالْمِيلُ عَنِ الطَّرِيقِ. وتأويلُهُ: وَمَنْ يُلْجِذْ فِيهِ إِلْحَادٌ يُظْلَمُ نُدْفُهُ كَذَا. وقال بعضهم: مَنْ هَمَّ فِيهِ بِالْحَادِ يُظْلَمُ نُدْفُهُ كَذَا.

ثم يَحْتَمِلُ تَخْصِصُ ذَلِكَ الْمَكَانِ بِمَا ذَكَرَ وَجْهًا:

أحدها: لِيَعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الْخَيْرَاتِ وَتَضَاعُفُهَا مِمَّا لَا يَفْعَلُ فِي إِسْقَاطِ الْمَسَاجِدِ فِيهِ وَهَذَا لِمَا رُوِيَ: «إِنَّ صَلَاةَ وَاحِدَةٍ بِمَكَّةَ تُعْدِلُ كَذَا صَلَاةً فِي غَيْرِهَا مِنْ الْأَمَاكِنِ، وَكَذَلِكَ حَسَنَةٌ فِيهَا» [بنحوه الطبراني في الكبير ٩٠٧/١].

والثاني: خُصِّصَ بِالذِّكْرِ عَلَى التَّغْلِيزِ وَالتَّشْدِيدِ عَلَى مَا خُصِّصَتْ تِلْكَ الْبُقْعَةُ بِتَضَاعُفِ الْحَسَنَاتِ.

والثالث: أَوْلَتْكَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْ غَيْرِهِمْ لِنُزُولِهِمْ ذَلِكَ الْمَكَانَ. فَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِكَذَا نُدْفُهُ. لَيْسَ تَخْصِصُ ذَلِكَ الْمَكَانِ بِمَا ذَكَرَ وَالْعَفْوُ فِي غَيْرِهِ، وَلَكِنْ بِمَا ذَكَّرْنَا.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: مَنْ يُرِدْ فِيهِ الْحَادَا بِظُلْمٍ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿تَلَبَّثُ بِاللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] مَعْنَاهُ، تَلَبَّثُ بِاللَّهِ.

رُوِيَ بِالْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اجْتِنَاكَ الطَّعَامَ بِمَكَّةَ الْحَادَا» [أبو داود: ٢٠٢٠] وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: شرعا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أن. (٧) ساقطة من الأصل وم.

عَمَرَ. وجائز أن يكون ما ذَكَّرْنَا مِنَ التَّغْلِيظِ والتَّشْدِيدِ وتَضَاعُفِ الْعُقُوبَةِ. ولذلك كَرِهَ قَوْمُ الْجَوَارِ بِمَكَّةَ لِمَا تَتَضَاعَفُ بِهَا^(١) العقوبة إذا ارْتَكَبَ [فيها مَأْتَمٌ، وَالْجِدُّ فِيهَا]^(٢) وجائز ما ذَكَّرْنَا.

وقد كَرِهَ قَوْمٌ يَبِيعُ^(٣) رِبَاعَ مَكَّةَ وليجَارَها^(٤) بقوله: ﴿سَوَاءٌ أَلَمَكْتُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾. وعلى ذلك رُوِيَتِ الْأَخْبَارُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ.

رُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ]^(٥) قَالَ: «مَكَّةُ مَبَاحَةٌ، لَا تَبَاعُ رِبَاعُهَا، وَلَا تُؤَجَّرُ بُيُوتُهَا» [السيوطي في الدر المنثور: ٢٦/٦]. وعن^(٦) عَمَرَ ﷺ «يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَا تَتَّخِذُوا لِدُورِكُمْ أَبْوَاباً لِيَرِدَ الْبَادِي حَيْثُ شَاءَ» [عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٩٢١١] وَنَهَاهُمْ أَنْ يُغْلِقُوا أَبْوَابَ دُورِهِمْ.

وليسَ في ظاهِرِ الْآيَةِ ذِكْرُ مَكَّةَ، بَلِ^(٧) فِي الْآيَةِ ذِكْرُ الْمَسْجِدِ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلَمَكْتُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾. وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ/٣٤٧ - ب/ الْحَرَامِ خَاصَّةً.

وقال أبو حنيفة، رَحِمَهُ اللَّهُ: أَكْثَرُهُ إِيْجَارٌ^(٩) بِيُوتِ مَكَّةَ فِي الْمَوْسِمِ مِنَ الْحَاجِّ وَالْمُعْتَمِرِ. فَأَمَّا الْمُقِيمُ وَالْمُجَاوِرُ فَلَا نَرَى بِأَخْذِ ذَلِكَ مِنْهُمْ بَأْساً، وَهُوَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلْبَنِي إِسْرَافَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: بَوَانَا أَيَّ مَيَّانَا لَهُ^(١٠) مَكَانَ الْبَيْتِ لِيَنْزِلَ فِيهِ، وَالتَّبَوُّةُ الْإِنْزَالُ. كَانَهُ قَالَ: ﴿بَوَانَا إِسْرَافَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ لِيَتَّخِذَ فِيهِ بَيْتاً، وَقُلْنَا لَهُ: ﴿لَا تُشْرَفُ بِشَيْءٍ﴾ وَهَكَذَا بُعِثَ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعاً، بُعِثُوا أَلَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ، وَأَمَرُوا أَنْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى تَرْكِ الْإِسْرَافِ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَطَمَرُ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ وَادْعُ النَّاسَ أَيْضاً إِلَى أَلَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَطَمَرُ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ وَمَنْ^(١١) ذَكَرَ أَيَّ ظَهَرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي فِيهِ لَتَلَا يُغْبِثُ غَيْرُهُ.

وجائز أن يكونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَطَمَرُ بَيْتِي﴾ مِنْ جَمِيعِ الْخَبَائِثِ وَمِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْأَذَى مِنَ الْخُصُومَاتِ وَالْبِيَاعَاتِ وَغَيْرِهَا. وَذَلِكَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ كَغَيْرِهِ^(١٢) مِنَ الْمَسَاجِدِ يُظْهَرُ، وَيُجَنَّبُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْأَذَى وَالْخُبْثِ وَالْفُحْشِ.

وقوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ هُمُ الْقَادِمُونَ مِنَ الْبُلْدَانِ ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ الْمُقِيمِينَ هُنَاكَ ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الْمُصَلِّينَ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ لِكُلِّ طَائِفٍ بُو ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ وَالْعَاكِفِينَ لِكُلِّ عَاكِفٍ نَحْوَهُ، أَيَّ لِكُلِّ مُصَلٍّ، وَهَذَا أَشْبَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى الْإِعْلَامِ، أَنْ أُعْلِمَ النَّاسَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ الْحَجَّ بِالْبَيْتِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٩٧].

وَالثَّانِي: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أَيَّ ادْعُ النَّاسَ، وَنَادِهِمْ أَنْ يَحُجُّوا الْبَيْتَ. قَالَ أَهْلُ [التَّأْوِيلِ]^(١٣): لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، فَتَنَادَى، فَاسْتَمَعَ اللَّهُ صَوْتَهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ حَتَّى اسْتَمَعَ صَوْتَهُ وَنِدَاءَهُ مِنْ [فِي]^(١٤) أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، قَالُوا^(١٥): لَيْكَ، وَمَنْ حَجَّ بَيْتَهُ فَهُوَ الَّذِي أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا نَادَاهُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهِ مَأْتَمٌ وَالْحَدُّ فِيهِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْبَيْعُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاجَارَتْهَا. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) الرَّوَا سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: إِجَارَةٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: . (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَنْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِغَيْرِهِ. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالُوا.

لَكِنْ لَا يُغْنِيكَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ مَا ذَكَرُوا، وَإِلَّا فَالسُّكُوتُ^(١) عَنْهُ وَعَنْ مِثْلِهِ أَوْلَى. وقالوا: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ موصول^(٢) بقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [الحج: ٢٦].

وجائز أن يكون قَوْلُهُ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ لِرَسُولِ اللَّهِ أَوْ لِكُلِّ رَسُولٍ، بَعِثَ، الْأَمْرَ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِكَالًا﴾ أي على الأرجل مشاة ﴿وَعَنْ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي يَضْمُرُ، وَيَذْعَبُ سِمْنَهُ لِبُعْدِ الْمَضْرِبِ، وهو ما ذَكَّرْنَا: ﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْجٍ عَمِيقٍ﴾ أي مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ على الدعاء والأمر، فيكون في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِكَالًا﴾ دلالة لزوم الحج على المشاة؛ كأنه قال: مُرِّهْمُ [أَنْ يَحْجُوا]^(٣) مشاة على الأرجل ورُكباناً. وإن كان على الإعلام فهو على الوعد والجزاء يأتوك^(٤) على الأرجل مشاة [وعلى الدواب رُكباناً]^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْجٍ عَمِيقٍ﴾ أضاف الإتيان إلى الدواب لأنه بالدواب يأتون، فأضاف إليها لذلك، والله أعلم.

وقال أبو عوسجة: ﴿يُحْكَلُونَ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٣] مِنَ الْحَلِيِّ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. يُقَالُ: حَلَيْتُ الْمَرَأَةَ أَيِ اتَّخَذْتُ لَهَا^(٦) حُلِيًّا. وَيُقَالُ: حَلَيْتُ الشَّيْءَ، يَحْلَى جَلًّا إِذَا مَا حَسُنَ. وَيُقَالُ: حَلَيْتُ بَعِينَهُ إِذَا حَسُنَ فِي عَيْنِهِ، وَيُقَالُ: حَلَا الشَّيْءُ يَحْلُو حَلَاوَةً، فَهُوَ حُلُوٌّ، وَيُقَالُ: تَحَلَّيْتُ: إِنْ شِئْتُ جَعَلْتُهُ [مِنَ الْحُلِيِّ]^(٧) أَكَلْتُ حَلَاوَتَهُ، وَإِنْ شِئْتُ جَعَلْتُهُ مِنَ الْحَلِيِّ.

[وَيُقَالُ: حَلَيْتُ الشَّيْءَ، وَاحْلَيْتُهُ، أَيِ جَعَلْتُهُ حُلُوًّا]^(٨). [وَيُقَالُ: ^(٩) حَلَاثُ الْإِبِلِ عَنِ الْمَاءِ، أَيِ مَنَعْتُ.

وقال القشيري: ﴿سَوَاءٌ أَلَمَكْتُ فِيهِ وَالْبَادِي﴾ [الحج: ٢٥] [العاكف أي المقيم، والبادي، هو]^(١٠) الطارئ من البدو. وسواء فيه؛ ليس المقيم فيه بأولى من النازع إليه. وقوله: ﴿وَمَنْ بُرِدَ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾ أي مَنْ يَرِدُ فِيهِ إِحَادًا، وهو الظلم والميل عن الحق، فزيدت الباء كما يقال [في]^(١١): ﴿تَبَيَّنَ بِاللَّذِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وهو ما ذَكَّرْنَا. وقوله: ﴿وَعَنْ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي رُكباناً [أي على كل بعير ضامراً]^(١٢) من طول السفر ﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْجٍ عَمِيقٍ﴾ أي بعيد غامض.

وقال أبو عوسجة: العاكف المقيم، والبادي: مَنْ كَانَ فِي الْبَادِيَةِ، وَالْإِلْحَادُ الْمِيلُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ أَشْتَقَّ اللَّحْدَ لِحَدِّ الْقَبْرِ، وَ ﴿وَعَنْ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي على كل بعير ضامراً أي خميص البطن، و^(١٣) ﴿يَأْتُوكَ رِكَالًا﴾ يقول: رَجُلُ الرَّجُلِ يَرْجُلُ [مَنْ رَجَلَهُ، وهو]^(١٤) راجل، والفج الطريق، والعميق^(١٥) البعيد، يُقَالُ: عَمَقَ أَيِ بَعُدَ يَغْمُقُ غُمُقًا فَهُوَ عَمِيقٌ.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: يَشْهَدُونَ مَشَاهِدَ فِيهِ، فَيَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهَا، وَيَكْتَسِبُونَ أَشْيَاءَ، تَنْفَعُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. فَذَلِكَ ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ الَّتِي يَشْهَدُونَهَا.

وقال غيره من أهل التأويل: ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ التَّجَارَاتُ وَالْمَنَافِعُ الَّتِي يَكْتَسِبُونَهَا إِذَا خَرَجُوا لِلْحَجِّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّجَارَةُ فِي الدُّنْيَا، وَالْأَجْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ.

وجائز أن يكون قَوْلُهُ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ الْأَرْزَاقُ الَّتِي جُعِلَتْ لَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ الْبَعِيدَةِ مَا لَوْ لَمْ يَشْهَدُوهَا لَمْ يُسَقِّ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ مِنَ الْأَرْزَاقِ الَّتِي جُعِلَتْ لَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ مَا يُسَاقُّ إِلَى أَهْلِهَا، وَهُمْ فِي مُقَامِهِمْ وَأَمَكَّتِهِمْ. وَمِنْ^(١٦) الْأَرْزَاقِ مَا يُسَاقُّ أَهْلُهَا إِلَيْهَا مَا لَوْ لَمْ يَأْتَوْهَا لَمْ يُسَقِّ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ.

فجائز ما ذَكَرَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْأَرْزَاقِ الَّتِي جُعِلَتْ لَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ الْبَعِيدَةِ؛ إِذَا خَرَجُوا لِلْحَجِّ نَالُوهَا، وَإِذَا لَمْ يَخْرُجُوا لَمْ يَنَالُوهَا.

(١) الغاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: موصولاً. (٣) في الأصل وم: يحجون. (٤) في الأصل وم: أنهم يأتون. (٥) أدرجت في الأصل وم قبل: وإن كان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرجت في الأصل وم: بعد: أي منعت. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: والبادي أي المقيم والبادي وهو، (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: عل ضمير. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: رجلة فهو. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: ﴿لِيَسْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي متاجرهم وقضاء مناسكهم.
 وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ . قال الحسن: هو يوم النحر خاصة .
 وجائز إضافة الواحدة إلى الجماعة كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وإنما جعل في السماء الدنيا، وكما يقال: تَوَارَى^(١) فلان في دور بني تميم، وإنما توارى في دار من دورهم. ومثل هذا كثير. وذلك جائز في اللسان.
 وقال بعضهم: الأيام المعلومات هو يوم النحر ويومان بعده. وقال بعضهم: الأيام المعلومات والمعدودات هي أيام التشريق جميعاً. وقال بعضهم: الأيام المعلومات [هي أيام العشر لأنها]^(٢) هي أيام الذكر فيها.
 وجائز أن يكون قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ كناية عن الذبح وأيام الذبح ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده.

ألا ترى أنه قال: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ذكر الأكل^(٣)، ولم يذكر الذبح؟ فذلك يدل على أن قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ كناية عن الذبح. وإنما كان كناية عنه لأنه بالذبح تقدم الذابح، ولا يخلو منه دونه، والله أعلم.
 وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال بعضهم: من الأضاحي لأن التناول من الأضاحي، كان لا يحل، فخرج ذلك مخرج رخصة التناول منها. والحل لكل^(٤) الأضاحي لا يختل لأن الوقت ليس هو وقت الأضاحي ولا أماكنها، إنما هو وقت دم المتعة والقرآن ودم التطوع، وفيه إباحة التناول من دم المتعة والقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ قال بعضهم: البائس من البؤس، وهو ما اشتد به من الحاجة والشدة. وقال بعضهم: البائس الذي سألك، والفقير المتعفف الذي لا شيء له، وقال بعضهم: البائس هو الذي به زمانة، والفقير الصحيح الذي لا شيء له. وهو مثل الأول.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿لِيَقْضُوا/ ٣٤٨ - أ/ نَفْسَهُمْ﴾ قال بغض أهل الأدب: التفت لا يعرف في لسان العرب. ما يراد به.

وقال الحسن: التفت هو التفتت، وهو ترك الزينة. يدل على ذلك ما روي أنه سئل عن الحاج، فقال: «كل أشعث تقول» [بنحوه الترمذي ٢٩٩٨].

وقال أبو عوسجة: التفت في الأصل الوسخ؛ يقال: امرأة تفتة إذا كانت خبيثة الريح، وهو قريب مما قال الحسن: إنه ترك الزينة.

وأهل التأويل يقولون: التفت هو حلق الرأس وقص الأظفار والشارب والرُمي والذبح ونحوه.

وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا نَفْسَهُمْ﴾ المناسك كلها.

وروي في الخبر: «مَنْ وَقَفَ مِنْ عَرَفَةَ بَلِيلٍ، وَوَصَلَ مَعَنَا الْجَمْعَ، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقُضِيَ نَفْسُهُ» [أبو داود ١٩٤٩] ظاهر: قُضِيَ نَفْسُهُ، أي نُسِكَهُ.

وجائز أن يكون قوله: «وَقُضِيَ نَفْسُهُ» أي جاء وقت الزينة، وهو وقت الحلق واللباس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُسَبِّحُوا ثُدُورَهُمْ﴾ أي ليؤفروا ذبح ما أوجبوا ذبحه. ذكر مما ساق من الهدي لمنتهيه ولحجته الأكل منه لقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ولم يذكر الأكل مما أوجب بالنذر. فذلك يقول أصحابنا: إنه يجوز التناول من هدي المتعة والقرآن، ولا يجوز التناول مما كان وجوبه بالنذر والكفارة. بل عليه أن يتصدق بالكل، وهو ما قال: ﴿فَيَذِيذُ بَيْنَ مَيْبَرٍ أَوْ مَدَنَةٍ أَوْ مَسْجِدٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] والله أعلم.

(١) من م، في الأصل: نوراني. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: رم: الكل. (٤) في الأصل: رم: لكن.

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طواف الزيارة، وهو طواف يوم النحر، وهو الفرض عندنا.

ولا يَحْتَمِلُ ما قال بعض الناس: إنه طواف الصدر لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وحج البيت هو الطواف بالبيت، لا غير. وطواف الدخول وطواف الصدر، ليس على أهل مكة ذاك^(٢) الطوافان، وعليهم الحج كما كان على غيرهم من الناس. فذل ما ذكرنا على أن قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طواف الزيارة، وهو حج البيت الذي قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال بعضهم: سمأه عتيقاً لأنه أغتقه الله عن الجابرة عن أن يتجبروا عليه. وكم من جبار قد صار إليه لينهده، فمَنَعَهُ الله عن ذلك.

وقال بعضهم: سمأه عتيقاً لأنه يرفع إلى السماء الرابعة، فذلك المرفوع، هو البيت العتيق.

والبيت العتيق عندنا، هو الذي بناه إبراهيم، صلوات الله عليه، وأسمه. ويكون قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الذي أسس إبراهيم لا البيت الحادث الذي أسس الناس.

الآ ترى أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام ولأ ردذت البيت على أساس إبراهيم، وجعلت له بابين: باباً يدخل فيه، وباباً يخرج منه؟» [بنحوه البخاري ١٥٨٦].

وروي في بعض الأخبار [خير]^(٣) يروي عبد الله بن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار» [الترمذي ٣١٧٠] فإن ثبت هذا فهو هو.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ جائز أن يكون الذي تقدم ذكره من قوله: ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الآيتان: ٢٧ و ٢٨] إلى آخر ما ذكر ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾.

وجائز أن يكون لا على ذلك. ولكن [ذلك]^(٤) حرف يذكّر عند ختم قصة والفراغ منها لمبتدأ لا على ربط شيء نحو قوله: ﴿مَذَا ذَكَرَ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص: ٤٩] كذا [وقوله]^(٥) ﴿مَذَا ذَكَرَ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص: ٥٥] كذا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [وقوله]^(٦): ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يصح دون ذكر ﴿مَذَا﴾. لكنه ذكر عند ختم الكلام الأول وابتداء آخر. فعلى ذلك جائز أن يكون قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ كانه قال: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ وخرج للحج، وانفق المال، واتعب النفس [في ما]^(٨) له عند ربه من الثواب، فذلك خير له من حفظ ماله وحفظ نفسه. ولأ فلا^(٩) شك أن من يعظم حرمات الله خير له ممن لم يعظمها.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآفَاقُ﴾ وفي حرف ابن مسعود: وأحللت لكم بهيمة الأنعام ﴿إِلَّا مَا يَتَنَلَّ عَلَيْكُمْ﴾ من المحرمات من الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة^(١٠). وقد ذكرنا هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [هو اجتنب] ^(١١) الأوثان، وجائز أن يكون قوله: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ عبادة الأوثان؛ فإنه رجس. وليس فيه أن غير الأوثان، ليس برجس كقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدُكُمْ خَبِئَةً أَمَلْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] ليس فيه أنه يجل قتل الأولاد في غير خشية الإملاق. فعلى ذلك هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ويحتمل الزور الذي قالوا في الله من الولد والشريك وما لا يليق به. ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ حنفاً لله تأويله، والله أعلم: واجتنبوا قول الزور، وكونوا حنفاً لله غير مشركين به.

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ قد ذكرنا. وجائز أن يكون قوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ تفسير قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مخلصين لله في جميع أموركم غير مشركين به في ذلك، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فما. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الآية الثالثة. (١١) في الأصل وم: وهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يَحْتَمِلُ ضَرْبُ مَثَلٍ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ بِالسَّاقِطِ مِنَ السَّمَاءِ [وَحْطَفَ الطَّيْرُ إِيَّاهُ وَهُوَ الرِّيحُ بِوَيْ^(١)] فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: مَا وَصَفَ، وَضَرَبَ مَثَلَهُ بِشَيْءٍ لَا قَرَارَ لَهُ، وَلَا ثَبَاتَ، نَحْوُ مَا قَالَ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَتَجَرَةٍ خَيْبَةٍ أَجْنَحَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] وَنَحْوُ مَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْنَتْهُمْ كُتْرُهُمْ يَقِيعُهُ الْطَغَنَانُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩] ضَرَبَ مَثَلُ الْكُفْرِ بِشَيْءٍ، لَا قَرَارَ لَهُ، وَلَا ثَبَاتَ. فَعَلَى ذَلِكَ [ضَرْبُ^(٢)] مَثَلُهُ بِالسَّاقِطِ: ﴿مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ لَا يَذْرِي أَيْنَ [هُوَ؟ وَلَا أَيْنَ يَطْلُبُ إِنْ أَرَادَ^(٣)] طَلَبَهُ؟ وَلَا يَظْفَرُ بِهِ. فَعَلَى ذَلِكَ الْكَافِرُ.

وَالثَّانِي: [مَا^(٤)] ضَرَبَ مَثَلَهُ بِالسَّاقِطِ مِنَ السَّمَاءِ، وَهِيَ أَبْعَدُ الْبِقَاعِ فِي الْأَوْهَامِ، لَا يَنْتَفِعُ مَنْ^(٥) سَقَطَ مِنْهَا وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا تَبْقَى نَفْسُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنْ مُحَاسِنِهِ، وَلَا تَبْقَى نَفْسُهُ، يَنْتَفِعُ بِهَا، لِيُغْدِيَهُ عَنْ دِينِ اللَّهِ.

وَالثَّلَاثُ: [مَا ضَرَبَ مَثَلَهُ بِالسَّاقِطِ^(٦)] مِنَ السَّمَاءِ إِفْرَ سُقُوطِهِ مِنْهَا فِي نَفْسِهِ وَفِي جَمِيعِ جَوَارِحِهِ وَظُهُورِ^(٧) ذَلِكَ فِيهِ حَتَّى لَا يُرْجَى^(٨) بُرْؤُهُ وَصِحَّتُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْكَافِرُ تَظْهَرُ آثَارُ الْكُفْرِ فِي نَفْسِهِ وَجَوَارِحِهِ لِيُغْدِيَهُ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا مَثَلُ ضَرْبَةِ اللَّهِ لِمَنْ أَشْرَكَ بِهِ فِي هَلَاكِهِ وَبُغْدِهِ مِنَ الْهُدَى. وَالسَّحِيقُ الْبَعِيدُ وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا وَرَأَيْتَ لِلظَّالِمِينَ لَثَرَ مَتَابٍ﴾ [ص: ٥٥] [وقوله^(٩)]: ﴿وَرَأَى لَئِثِينَ لَئِثًا مَتَابٍ﴾ [ص: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَثَهُ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ^(١٠) مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ بِالْجَوَارِحِ، فَذَلِكَ التَّعْظِيمُ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ. وَهَكَذَا الْأَمْرُ الظَّاهِرُ فِي النَّاسِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْقَلْبِ شَيْءٌ مِنْ تَقْوَى أَوْ خَيْرٍ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي الْجَوَارِحِ. وَكَذَلِكَ الشَّرُّ أَيْضًا إِذَا كَانَ فِي الْقَلْبِ ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ لِلَّهِ﴾ وَقَوْلُهُ^(١١): ﴿شَعَثَهُ اللَّهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمَا وَاحِدٌ، وَهِيَ الْمَنَاسِكُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحُرُمَاتُ هِيَ جَمِيعُ مَحَارِمِ اللَّهِ وَمَعَاصِيهِ يَتَّقِيهَا تَعْظِيمًا لَهَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا تَأْوِيلَ ﴿شَعَثَهُ اللَّهُ﴾ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ^(١٢).

[وقوله تعالى: ﴿سَحِيقٍ﴾ بَعِيدٍ^(١٣)] يَقَالُ: سَحِقَ الْمَكَانُ يَسْحَقُ سَحْقًا فَهُوَ سَحِيقٌ إِذَا بَعُدَ. وَالسَّحْقُ أَيْضًا الشَّيْءُ الْخَلْقُ؛ يَقَالُ: اسْحَقَ الثَّوْبُ. وَسَحِقَ يَسْحَقُ، وَسَحِقَ^(١٤) يَسْحَقُ [سَحْقًا، وَالسَّحُوقُ: ^(١٥)] النَخْلَةُ الطَّوِيلَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أَيِ تَذْهَبُ بِهِ؛ هَوَى يَهْوِي هَوْيًا^(١٦) أَيِ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أَيِ فِي مَا ذَكَرَ مِنَ الشَّعَائِرِ ﴿مَنْعَفٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْمَشِيِّقِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنْعَفٌ﴾ مِنْ ظُهُورِهَا وَآلِبَانِهَا وَأَصَوْفِهَا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إِلَى أَنْ تُقْلَدَ، وَتُهْدَى/ ٣٤٨ - ب/ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِذَا قُلِدَتْ وَأُهْدِيَتْ ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْمَشِيِّقِ﴾.

وَكَذَلِكَ يَقُولُ أَصْحَابُنَا: إِنَّ مَنْ أَوْجَبَ بَذَنَةً، أَوْ أَهْدَى بَذَنَةً، لَا يَحِلُّ لَهُ الْإِنْتِفَاعُ بِهَا وَلَا بِشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا فِي حَالِ الْأَضْطِرَارِ فَإِذَا بَلَغَتْ مَحِلَّهَا، وَذُبِحَتْ، حَلَّ الْإِنْتِفَاعُ بِلَحْمِهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنْعَفٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إِلَى وَقْتِ مَحِلِّهَا مِنَ الرُّكُوبِ وَخَلْبِ اللَّبَنِ وَجَزِّ الصَّوْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ قَبْلُ، وَيُزَوِّي فِي ذَلِكَ خَيْرًا؛ رُوي أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ «رَأَى رَجُلًا، سَاقَ بَذَنَةً، فَقَالَ: ارْكَبْهَا، فَقَالَ: إِنَّهَا بَذَنَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: ارْكَبْهَا فَقَالَ: إِنَّهَا بَذَنَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ارْكَبْهَا، قَالَ: إِنَّهَا بَذَنَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: ارْكَبْهَا وَبَلِّغْ» [البخاري ١٦٩٠] وَبِهِ يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ؛ يُبِيحُونَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْهَدَايَا وَالْقَلَائِدِ قَبْلَ أَنْ تُنَحَرَ، وَتُذْبَحَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاخْتِطَافُ الطَّيْرِ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَطْلُبُ إِنْ أَرَادُوا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّنْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَظَهَرَ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَرْجُو. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ. (١٣) السَّحِيقُ هُوَ الْمَكَانُ الْبَعِيدُ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاسْحَقُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ: وَالسَّحِقُ، فِي م: وَالسَّحُوقُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: هَوَاءَ.

لكن عندنا ذلك في وقت الحاجة الشديدة [في^(١)] المضطر إليها. ففي مثل ذلك يجوز الانقياد بترك غير بدل. فعلى ذلك بالهدايا: ينتفع بها بما ذكرنا، ويضمن ما نقصها ركوبه بها. وجائز أن يكون قوله: ﴿لَكُنْ فِيهَا مَنَافِعُ لَكَ أَجَلُ مَسْئَةٍ﴾ إلى أن تهلك أو تهلكوا أنتم كقوله: ﴿وَتَتَّخِذُ لَكَ حِينًا﴾ [البقرة: ٣٦] فعلى ذلك الأول.

ثم يكون قوله: ﴿ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ والله أعلم، ابتداء سؤال سئل عن محل الهدايا والفلاذ، فقال: عند ذلك: ﴿ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ والله أعلم. والأول أشبه وأقرب لما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ ذكر البيت العتيق. ومعلوم أنه لم يرد به نفس البيت، ولكن إنما أراد به البقعة التي فيها البيت، لأن الدماء لا تراق في البيت، إنما تراق في تلك البقعة التي هو فيها [لأن^(٢)] الحرم كله منحر ومذبح. وأراد به بقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ نفس البيت.

ألا ترى أنه قال ههنا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [لما^(٣)] يطاق به، وقال هنالك ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [لما^(٤)] أضاف إليه؟ دل أنه لم يرد به نفس البيت، ولكن [أراد^(٥)] البقعة التي فيها البيت، والله أعلم.

الآية ٣٤

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال بعضهم: المنسك الموضع الذي يعبدون، ويتسكعون فيه، ويصيرون إليه لعبادتهم. ومن ثمة يقال للرجل العابد: ناسك. ولذلك قال من قال: ﴿مَنْسَكًا﴾ أي يصيرون، ويخرجون إليه للعبادة، وقال: المنسك الدين، وقال: الشريعة. وقال بعضهم: المنسك المنحر والمذبح.

وجائز أن يسمى في اللغة الذبح نسكاً كقوله: ﴿فَيَذِيقُ مِنْ صِيبٍ أَوْ مَدَقَةٍ أَوْ مَقْشَرٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] وهو الذبح، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَذَكَرْتُ وَنَسِيتُ وَمَنَافِعُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ولو كان النسك عبادة كذكر الصلاة، وهي عبادة، لكان لا يذكر النسك. فدل أنه أراد بالنسك الذبح.

وقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ دل قوله: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ أن ذكر اسم الله من شرط الذبيحة حين^(٦) ذكر اسم الله، ولم يذكر^(٧) الذبح، ففهموا من ذكر اسم الله الذبح أنه من شرط جوازه وجله سوى الشافعي فإنه لم يفهم ما فهم الناس والأمة جميعاً حين^(٨) لم يجعل ذكر اسم الله من شرط الذبيحة.

وقوله تعالى: ﴿فَالْهَكَرُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ كانه ذكر قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ لقوم أنكروا الذبائح، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي ذبحاً ذبحوه، وذكروا اسم مغبوههم.

[وقوله تعالى: ﴿فَالْهَكَرُ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلُوبٌ﴾ أي اخلصوا ذلك كله ﴿وَيُشِيرُ الْمُخَبِتِينَ﴾ قال [بعضهم^(٩)]: المتواضعين، وقال بعضهم: المظمتين. وقال بعضهم: الخاشعين. وقال بعضهم: كل مجتهد في العبادة هو المخبت، ويقال: المخلصين. وتفسير المخبتين^(١٠) ما ذكر على إثره حين^(١١) قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية. ومن قال: المخبتين^(١٢) المظمتين قال: والخبئة الطمأنينة.

وقوله^(١٣) تعالى: ﴿مَنْسَكًا﴾ ومنسكاً لغتان^(١٤). قال الكسائي: من قرأ منسكاً بكسر السين فهو من نسك ينسك، ومن قرأ منسكاً بالنصب فهو من نسك ينسك^(١٥).

ثم لا خلاف بين أهل العلم في أن البدن التي تساق والهدايا التي تقلد في الحج لا يجوز أن تنحر في غير الحرم، إنما اختلفوا في المنحصر إذا أراد أن ينحر، ويذبح هذبه الذي يحل به. وقد ذكرنا أقوالهم واختلافهم في سورة البقرة^(١٦) ولم يختلف في أن معنى قول الله: ﴿ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يدخل فيه الحرم كله على ما ذكرنا وعلى [ما روت^(١٧)] الأخبار.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. وإنما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: يذكروا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: المخبت. (١٢) في الأصل وم: المخبت. (١٣) في الأصل وم: المخبت. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: فيه. (١٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٤/ ١٨٠. (١٧) في تفسير الآية/ ١٩٦. (١٨) في الأصل وم: رويت.

رُوي عن جابر بن عبد الله [أنه] قال: قال رسول الله ﷺ: «عَرَفْتُ، كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَكُلُّ مَنَى مَنَحَرٌ، وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ طَرِيقٌ وَمَنَحَرٌ» [مسلم ١٢١٨/١٤٩].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى الجُمُرة، فَرَمَى بِهَا، ثُمَّ أَتَى الْمَنَحَرَ، فَقَالَ: «هَذَا الْمَنَحَرُ، وَمِنَى كُلُّهَا مَنَحَرٌ» [مسلم ١٢١٨/١٤٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما [أنه] ^(١) قال: إنما الْمَنَحَرُ بِمَكَّةَ، ولكنها نُزِّهَتْ عَنِ الدِّمَاءِ، وَمِنَى بِمَكَّةَ.

الآية ٣٥ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خَافَتْ، وَفَرَّقَتْ خَوْفًا مِنْهُ ﴿وَالصَّائِرِينَ عَلَى مَا آصَابَهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا﴾ وَالْمَقِيبِي الْمَلَكُوتُ وَمَا رَزَقْتَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿هَذِهِ الْآيَةُ قَدْ ذَكَّرْنَا بِهَا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ ^(٢)﴾.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ. وَقَالَ الْخَسَنُ: مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أَيِ مِنْ مَعَالِمِ دِينِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَنُسُكِهِ، لِأَنَّ الشَّعَائِرَ، هِيَ الْمَعَالِمُ فِي اللُّغَةِ خُصَّصَتْ بِهَا الْمَنَاسِكُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ، فَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لَهَا.

وَالْبَدَنَةُ سُمِّيَتْ بَدَنَةً لِمَا تَعْظُمُ فِي نَفْسِهَا، وَتَبْدُنُ. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا عَظُمَ فِي نَفْسِهِ: بَدُنٌ فَلَانٌ.

وظَاهِرُ مَا رُويَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْبَدَنَةُ تُجْزَى عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةُ تُجْزَى عَنْ سَبْعَةٍ» أَنَّ الْبَدَنَةَ هِيَ الْجَزُورُ وَالْإِبِلُ حِينَ ^(٣) قَالَ: «الْبَدَنَةُ تُجْزَى عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةُ تُجْزَى عَنْ سَبْعَةٍ» [بخاري ١٢١٣/١٣٨ قَرَنَ] ^(٤) بَيْنَ الْبَدَنَةِ وَالْبَقَرَةِ بِالذِّكْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَكَزٍ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَنَافِعُ الْحَاضِرَةُ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْحَلَبِ وَالْحَمَلِ عَلَيْهَا بَعْدَمَا قُلِدَتْ، وَأَوْجِبَتْ هَذِيًّا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَكَزٍ فِيهَا خَيْرٌ﴾ إِلَى أَنْ تَقْلُدَ، فَإِذَا قُلِدَتْ فَلَهُمْ الْأَجْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَكَانَ هَذَا أَشْبَهَ أَنْ ^(٥) يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿لَكَزٍ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الْأَجْرُ ^(٦) فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ الْإِنْتِفَاعَ بِهَا لَا يَحِلُّ إِلَّا إِذَا أُوجِبَتْ بَدَنَةً إِلَّا فِي حَالِ الْأَضْطِرَارِ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٢] وَفِي الْإِنْتِفَاعِ بِهَا إِخْلَالُ شَعَائِرِهِ لِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا: لَا يَنْتَفَعُ بِالْبَدَنِ.

وَمَا رُويَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً، فَقَالَ لَهُ: ارْكَبْهَا فَقَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: ارْكَبْهَا، فَقَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ، فَقَالَ: ارْكَبْهَا وَيَحْكُ [البخاري ١٦٩٠] وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: «وَيْلُكَ».

وهذا عِنْدَنَا لَمَّا رَأَى بِالرَّجُلِ الْحَاجَةَ الشَّدِيدَةَ إِلَى رُكُوبِهَا، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْإِنْتِفَاعَ بِالْمُحَرَّمَاتِ يَجُوزُ فِي حَالِ الْأَضْطِرَارِ، وَلَا يَجُوزُ فِي حَالِ الْإِخْتِيَارِ ^(٧)؛ إِذَا الْإِنْتِفَاعُ بِالْمُحَرَّمَاتِ يَجُوزُ فِي حَالِ الْأَضْطِرَارِ. فَعَلَى ذَلِكَ بِالْبَدَنِ الَّتِي جُعِلَتْ مَعَالِمَ لِلْمَنَاسِكِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ دَلَّ هَذَا أَنَّ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبِيحَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الذَّبِيحَ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا ذَكَرَ اسْمَهُ. فَلَوْلَا أَنَّهُمْ فَهِمُوا مِنْ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهَا ذَّبْحُهَا وَنَحْرُهَا، وَإِلَّا لَمْ يَكْتَفِ بِذِكْرِ اسْمِهِ دُونَ ذِكْرِ الذَّبِيحِ. فَدَلَّ أَنَّهُمْ عَرَفُوا ذَلِكَ بِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ شَرْطِ [جَوَازِ ذَّبْحِهَا] ^(٨) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿صَوَافَّ﴾ ٣٤٩ - أ/ فِيهِ لُغَاتٌ ثَلَاثٌ: إِخْدَاها: صَوَافِي بِالْيَاءِ، وَهُوَ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَالصَّفْوِ لِلَّهِ. وَالثَّانِيَةُ ^(٩): صَوَافِنَ بِالنُّونِ، وَهُوَ مِنْ عَقَلٍ ثَلَاثَ قَوَائِمَ مِنْهَا وَتَرَكَ وَاحِدَةً مُطْلَقَةً. وَالثَّلَاثَةُ: صَوَافًا بِالتَّنْوِينِ أَيِ قِيَامًا مُضْطَقَّةً ^(١٠). وَكَانَ جَمِيعٌ مَا ذُكِرَ يُرَادُ أَنْ يُجْمَعَ فِيهَا مِنَ الْإِخْلَاصِ لَهُ وَعَقْلِ الْقَوَائِمِ وَالْقِيَامِ. وَكَذَلِكَ جَاءَتْ السُّنَّةُ وَالْأَثَارُ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: صَوَافِنَ بِالنُّونِ. وَتَأْوِيلُهُ مَا ذَكَّرْنَا. وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى الْقِيَامِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَإِذَا وَجَّهَتْ جُنُوبُهَا﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآيتين الثانية والثالثة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: فرق. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) من م، في الأصل: الاختيار. (٨) في الأصل وم: جوازها. (٩) من م، في الأصل: والثاني. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ١٨١ و ١٨٢.

وقوله تعالى: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سَقَطَتْ. والسقوط إنما يكون من القيام. فدلَّ أنها تُنَحَرُّ قِيَامًا لا مُضْطَجِعَةً، والله أعلم.

[وقوله تعالى: (١)] ﴿فَكُلُوا مِنَّا﴾ قد ذكرنا هذا في ما تقدّم في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنَّا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: ٢٨] البائس الفقير من سَأَلَكَ. هذا قولٌ بَعْضُ. وقال بعضهم: البائس المعروف بالبؤس، والفقير المتعفف الذي لا يسأل. وقال بعضهم: البائس المسكين، والفقير فقير. وقال بعضهم: البائس الضريز.

[وقوله تعالى: (٢)] ﴿وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعضهم: ﴿الْقَانِعَ﴾ الراضي، وهو من القناعة. وقال بعضهم: هو السائل، وهو من القنوع ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يعتريك، ولا يسأل، والقانع: هو الجالس في بيته ونحوه.

وقال القشيري: القانع السائل؛ يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا، ومن الرضا قَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يعتريك، ولا يسأل. يقال: [عَرَنِي، واعتَرَنِي] (٣).

وقال أبو عوسجة: القانع السائل، والقنوع السؤال، والقناعة من الرضا؛ يقال منه: قَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً، ويقول: اقْنَعْتُهُ (٤) أي أرضيته، وقنعتُهُ أي غطيت رأسه بالقناع ونحوه.؛ ويقال من المعتَر: اعتَرَّ اغْتِرَارًا وَعَرَّ عَرًّا، وكلُّها واحدة.

وقال: ﴿صَوَاتٌ﴾ أي قِيَامًا مُضْطَجَّةً. وقال: ويكون: صَوَاتٌ [وصوافي أي قِيَامًا] (٥) على ثلاث قَوَائِمٍ؛ يقال: صَفَنَ الفرسُ يَصْفُنُ صُفُونًا إذا قامَ على ثلاثِ قَوَائِمٍ.

وقوله: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سَقَطَتْ إلى الأرض. يقال: وَجَبَ يَجِبُ وَجُوبًا فهو واجبٌ إذا سَقَطَ، وَوَجَبَتِ الشمسُ إذا غَابَتْ. وهذا كله من الصوت؛ يقال: سَمِعْتُ وَجَبْتُهُ أي [صَوْتُ سَقَطَتِهِ] (٦).

وقال: ﴿مَنْسَكًا﴾ أي موضعا ينسكون إليه للعبادة.

وعن ابن عباس [أنه] (٧) قال: القانع الذي يَقْنَعُ بما أعطيتُهُ، والمُعْتَر الذي يُرِيكَ نفسه، ولا يسأل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي البُذُن التي ذكرناها. ثم يَحْتَمِلُ ما ذكر من تسخيرها إياها لنا وجهين:

أحدهما: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي كما سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لركوبها والحمل عليها وأنواع الإنفاع بها في حال الحياة.

[والثاني] (٨): ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي مثل الذي وصفته لكم كل ذلك من تسخيرنا (٩) إياها لكم.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِأَلِّهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

الآية ٣٧

أحدهما: لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ تِلْكَ (١٠) إِلَّا بِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى، ولا يقبلها من أهل الكُفْرِ لأنهم كانوا يَنَحْرُونَ البُذُنَ في الجاهلية على ما ذكرنا. فآخِرُ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى. وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والثاني: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ﴾ أي لَنْ يُرْفَعَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الرَّائِيَّةُ وما كَانَ بِالتَّقْوَى. وأما ما كَانَ [بِغَيْرِ التَّقْوَى فلا] (١١) يُرْفَعُ، ولا يُصْعَدُ بها. وهو ما قال: ﴿وَلَكِنْ بِأَلِّهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾.

وقال بعض أهل التأويل: ذَكَرَ هذا لأنَّ أَهْلَ الجاهلية كانوا إذا نَحَرُوا البُذُنَ نَضَحُوا بِدِمَائِهَا حَوْلَ الْبَيْتِ، ويقولون: هذا قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ. فأَرَادَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَصْنَعُوا صَنِيعَهُمْ. فنَزَلَ: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِأَلِّهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ كَذَلِكَ سَخَرْنَا لَكُمْ: قد ذكرنا ما ذكرنا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اعترائي وعربي واعترائي. (٤) في الأصل وم: قنعت. (٥) في الأصل وم: وصوافي أي قائما. (٦) في الأصل وم: صوتا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تسخيرها. (١٠) في الأصل وم: ذلك. (١١) في الأصل: بالتقوى لا، في م: غيرها لا.

وقوله تعالى: ﴿لِشْكُرِهِ اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [يُخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: (١) أي ليُتَصَفَّوا الله بالعظمة والكبرياء على ما هداكم من أسباب تسخير البُدن التي بها يُوصَلُ إلى الانتفاع؛ إذ لولا ما هدانا الله، وعَلَّمَنَا مِنَ الأسباب التي بها تُسَخَّرُ، وتُدَلَّلُ، وإلا ما قَدَرْنَا على الانتفاع بها لِقُوَّتِهَا وشِدَّتِهَا وصلابتِها.

والثاني: بأن يكون (٢) قوله: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ من أمر الدين والهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْتَغِرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ يُخْرِجُ قوله: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ على وجوه:

أحدها: المُحْسِنُونَ (٣) إلى أنفسهم،

والثاني: المُحْسِنُونَ (٤) إلى إخوانهم.

والثالث: (٥) الذين حَسَنَتْ أفعالهم، وصَلَحَ عَمَلُهُمْ [فأما المحسنون] (٦) إلى الله فلا يُخْتَمِلُ، والله أعلم.

الآية ٣٨

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي بعض القراءات: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَذْفَعُ﴾ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا (٧) [بغير ألف] (٨).

وتأويل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يَذْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا جميع شُرُورِ الكُفْرَةِ وأذاهم. وتأويل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يُدْفِعُ الكفار عنهم ينصُرُ المؤمنين عليهم.

وكان قوله (٩): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنما نزل بمكة وعداً (١٠) للذين آمنوا هنالك النَّصْرَ والدَّفْعَ عنهم في حالِ قِلَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وكثرة أولئك الكُفْرَةِ وقُوَّتِهِمْ، وهنالك كانوا كذلك؛ أعني بمكة قليلاً ضعفاء، ويكون نزول قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بالمدينة، لأنه هنالك كان أهلُ الخيانة، لأنهم كانوا أهلَ كتابٍ اتَّشَمُوا على رسالة محمدٍ وأتباعه، فخانواهم، وكتموها، ولم يكن يومئذ بمكة أحدٌ منهم، إنما كانوا جميعاً أهلَ شِرْكٍ.

فَيُشَبِّهُ أَنْ [يَكُونَ مَا ذَكَّرْنَا، أو] (١١) يكون قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بإزاء ما قالت ﴿الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّواهُمْ﴾ [المائدة: ١٨] فأخبر أنه ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ على ما يقولون (١٢)، بل يَغْضُضُهُمْ.

وفيه إثبات رسالة محمد ﷺ لأنه أخبر [أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ] (١٣) ويدفع عنهم [أَذَى الكُفْرَةِ] (١٤) وشرهم، وأنهم خَوَنَةٌ. فكان على ما أخبر. فدلَّ أنه بالله عَرَفَ ذلك.

الآية ٣٩

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ ظُلُمَاتٌ أَوْ يَكْبِتُ عَنْهُمْ اللَّهُ﴾ قال بغض أهل التأويل: إن المشركين كانوا لا يزالون يؤذون أصحاب رسول الله، ويقاتلونهم، وهم لم يؤمروا بقتالهم بعد. فلما هاجروا إلى المدينة أمروا بقتالهم [بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾] قال بعضهم: إنه لم يكن لهم الأمر بقتالهم (١٥) ولا الإذن حتى أمروا بذلك، وأذنوا، فقال أولئك: لم تؤمروا بقتالنا، فكيف تقاتلوننا؟ فأخبر أنهم أذنوا، وأمروا بالقتال معهم، والله أعلم بذلك.

وظاهره أنه كان هنالك منع عن القتال حتى أذنوا، وأمروا. ولكن لا نذري لاية جهة كان ذلك؟ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَكُونَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ لَقِيرٌ﴾ ظاهر على ما أخبر.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ قال بغض أهل التأويل: أخرج الكفار أصحاب رسول الله من مكة بغير حق بأن قالوا: ربنا الله، وآمنوا به، ووحدوه. لهذا (١٦) أخرجوهم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: يكونوا. (٣) في الأصل وم: محسنين. (٤) في الأصل وم: أو المحسنين. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل: فإن المحسنين، في م: فأما المحسنين. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ١٨٤. (٨) من م، في الأصل: جميع. (٩) من م، في الأصل: قولهم. (١٠) في الأصل وم: وعد. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يقول. (١٣) في الأصل وم: أنه ينصرونهم. (١٤) في الأصل وم: أذاهم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ما.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ يَقُولُ: كَانَهُ قَالَ: أُذِنَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ. فإِذَا قَالُوا ذَلِكَ يَرْفَعُ عَنْهُمْ الْقِتَالُ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا لَا يُقِرُّونَ [بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَيُشْرِكُونَ] ^(١) بِهِ فإِذَا قَالُوا ذَلِكَ، وَأَقْرَأُوا أَنَّهُ رَبُّهُمْ رُفِعَ عَنْهُمْ الْقِتَالُ. وَأَمَّا مَنْ يُقِرُّ بِهِ، وَيُصَدِّقُهُ، لَكِنَّهُ يُنْكِرُ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ وَنُبُوَّتَهُ، فَمَنْ ^(٢) لَمْ يُقِرَّ بِهَا، وَلَا يُصَدِّقْ بِهَا، فَإِنَّ الْقِتَالَ لَا يَرْفَعُ عَنْهُ ^(٣)، وَمَنْ يُقِرُّ بِهِ وَيُصَدِّقُهُ بِأَنَّهُ رَسُولُهُ، إِلَّا أَنَّهُ يُنْكِرُ الشَّرَائِعَ فَإِنَّهُ يُقَاتَلُ حَتَّى يُقِرَّ بِهَا، وَيُصَدِّقَ بِهَا. فإِذَا أَقْرَأَ بِهَا رُفِعَ عَنْهُ ^(٤) الْقِتَالُ.

وَذَلِكَ كُلُّهُ رُويَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فإِذَا قَالُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا» [البخاري ٢٥].

وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: [حَتَّى] ^(٥) يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ. فإِذَا قَالُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي كَذَا. وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: «حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ. وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ» [البخاري ٢٥] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

فَالأَوَّلُ [فِي الَّذِينَ] ^(٦) لَا يُقِرُّونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ. فإِذَا أَقْرَأُوا بِهِ/ب/ رُفِعَ عَنْهُمْ الْقِتَالُ. وَالثَّانِي: فِي الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالرِّسَالَةِ. فإِذَا آمَنُوا بِهَا رُفِعَ عَنْهُمْ الْقِتَالُ. وَالثَّلَاثُ: فِي الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِاللَّهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ، لَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ الشَّرَائِعَ. فإِذَا أَقْرَأُوا بِهَا رُفِعَ عَنْهُمْ الْقِتَالُ. كَانُوا أَنْوَاعًا ثَلَاثَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا، فَجَاءَ فِي كُلِّ فَرِيقٍ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ السَّامِیَّةُ وَبِيعَ وَصَلَتْ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ كَقَوْلِهِ ^(٧) فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وَكَقَوْلِهِ ^(٨) فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] وَنَحْوُهُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: دَفَعَ بِالنَّبِيِّينَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَفَعَ بِالْمُجَاهِدِينَ عَنِ الْقَاعِدِينَ مَا لَوْ لَمْ يَدْفَعْ لَهْدَمَتْ كَذَا وَمَا ذَكَرَ، أَيْ دَفَعَ بِالْأَخْيَارِ عَنِ الْأَشْرَارِ وَبِالْأَخْيَرِ عَنِ الْأَذَوْنِ، وَإِلَّا لَهْدَمَتْ، وَفَسَدَ مَا ذَكَرَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بَيْنَ يَصْلِيَّ عَمَّنْ لَا يَصْلِي وَيَمَنُ يَصُومُ عَمَّنْ لَا يَصُومُ وَيَمَنُ يَحُجُّ عَمَّنْ لَا يَحُجُّ، وَيَمَنُ يَزْكِي عَمَّنْ لَا يَزْكِي وَيَمَنُ يَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ عَمَّنْ لَا يَفْعَلُ وَإِلَّا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَهْدَمَتِ الصَّوَامِعُ وَمَا ذَكَرَ.

وَعَلَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّهُ صَلَّى بِأَهْلِ دِمَشْقَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَقَالَ: لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ [مَا] ^(٩) فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ مِنَ الْخَيْرِ لَحَضَرُواهَا. ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بَيْنَ يَحْضُرِ الْمَسَاجِدِ عَمَّنْ لَا يَحْضُرُهَا، وَبِالْغَزَاةِ عَمَّنْ لَا يَغْزُو لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قُبْلًا، أَوْ كَلَامًا ^(١٠) نَحْوَ هَذَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ [فِي] ^(١١) الصَّوَامِعِ وَالبَيْعِ وَالكَنَائِسِ مِنَ الرُّهْبَانِ وَالأَخْبَارِ [مَنْ] ^(١٢) يَتَمَسَّكُ بِالإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، فَيَدْفَعُ بِهِمْ عَمَّنْ لَا يَتَمَسَّكُ مِنْهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ بِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ كُلِّهِمْ ^(١٣) لَكَانَ كَذَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَفَعَ بِالمُسْلِمِينَ عَنِ مَسْجِدِهِمْ وَبِالنَّصَارَى عَنِ بَيْتِهِمْ وَبِاليَهُودِ عَنِ كَنِيْسَتِهِمْ. إِلَى هَذَا ذَهَبَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ وَالمُتَقَدِّمُونَ.

وَلَوْ قِيلَ غَيْرُ هَذَا كَانَ أَشْبَهَ وَأَقْرَبَ؛ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ هَذَا الْخَلْقَ، وَجَعَلَ ^(١٤) بَعْضُهُمْ عَوْنًا لِبَعْضٍ وَرِذَاءً فِي أَمْرِ الْمَعَاشِ وَالدِّينِ جَمِيعًا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ مَنَافِعَ مُتَّصِلَةً بِبَعْضٍ لِمَا ^(١٥) لَوْ كَلَّفَ كُلًّا الْقِيَامَ بِنَفْسِهِ لَهْلَكُوا، وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِاللَّهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَمَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْهُمْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.
(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلَّذِينَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَام.
(١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كُلِّهِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا.

القيام بذلك، نَحْوُ أَنْ لَمْ يُكَلِّفْ أَحَدًا الْقِيَامَ بِجَمِيعِ مَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْحِرَاثَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالْحَصَادِ وَالدَّرَاسِ وَالتَّذْرِيبِ وَالطَّنْحِ وَالْحَبْرِ وَغَيْرِهَا لِمَا^(١) لَوْ كُفِّتَ بِنَفْسِهِ بِذَلِكَ كُلُّهُ لَهْلَكَ. وَلَكِنْ جَعَلَ بَعْضُهُمْ عَوْنًا لِبَعْضٍ وَرِثًا^(٢) [فِي انْتِفَاعٍ] بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ. وَكَذَلِكَ الْقَرْزُ وَالنَّسِجُ وَالْخِيَاطَةُ وَالْقَطْعُ وَالْعَسَلُ كُلُّهُ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ لِمَا^(٣) لَوْ كُفِّتَ [كُلُّ] بِنَفْسِهِ الْقِيَامَ بِذَلِكَ كُلِّهِ لَهْلَكُوا، وَلَوْ هَلَكُوا هَلَكَ مَا لَهُمْ خَلْقٌ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا سَخَّرَ لَهُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَفَعَ بِمَا يَذْكُرُ أَهْلُ الْمَسَاجِدِ فِي الْمَسَاجِدِ مِنْ أَسْمَاءِ^(٤) اللَّهِ عَنْ أَهْلِ الصَّوَامِعِ وَالْبَيْعِ وَالْكُنَائِسِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي مَا ذَكَرَ مِنَ الصَّوَامِعِ وَالْبَيْعِ وَالصَّلَوَاتِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّوَامِعُ لِلرَّاهِبِينَ، وَالْبَيْعُ لِلنَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ لِلْكُنَائِسِ الَّتِي تَكُونُ لِلْيَهُودِ، وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلَوَاتُ لِلصَّابِئِينَ.

وَقَالَ الْفَتَّيُّ: الصَّوَامِعُ لِلصَّابِئِينَ، وَالْبَيْعُ لِلنَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ^(٥) بِيُوتِ صَلَوَاتِ الْيَهُودِ، وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الصَّوَامِعُ لِلرَّهْبَانِيَّةِ، وَالْبَيْعُ لِلنَّصَارَى وَمُصَلَّاهُمْ، وَالصَّلَوَاتُ لِلْيَهُودِ، وَهِيَ شِبْهُ الْبَيْعَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مِنْ نَصْرِهِ﴾ [أَيِ مَنْ نَصَرَ] ^(٦) أَوْلِيَاءَ اللَّهِ نَصْرَهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: مِنْ جِهَةٍ: أَنْ مَنْ نَصَرَ^(٨) اللَّهَ نَصْرَهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَقَوِيٌّ﴾ لِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ لِإِنْتِقَامِ أَعْدَائِهِ. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَوِيًّا^(٩) يَضْعُفُ كُلُّ قَوِيٍّ مِنْ دُونِهِ عِنْدَ قُوَاهُ [وَعَزِيزًا] ^(١٠) يَذُلُّ كُلُّ عَزِيزٍ، أَوْ قَوِيًّا^(١١)، لَا قَوِيَّ سِوَاهُ، عَزِيزًا^(١٢) لَا عَزِيزَ سِوَاهُ.

وَفِي [قَوْلِهِ تَعَالَى] ^(١٣): ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّ سَرَابٌ مِثْلُ هَذِهِ﴾ وَمَا ذَكَرَ دَلَالَةَ تَرْكِ هَذِهِ الْكُنَائِسِ وَالْبَيْعِ وَمَا ذَكَرَ، وَالتَّهْيِ عَنْ هَذِهِمَا لِأَنَّهُ ذَكَرَ الصَّوَامِعَ وَالْبَيْعَ. وَعَلَى ذَلِكَ تُرِكَتِ الْكُنَائِسُ وَالْبَيْعُ فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ تُهَذَّمْ. وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَمْنَعُونَ عَنْ إِحْدَاثِ الْبَيْعِ وَالْكُنَائِسِ فِي أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ وَقُرَاهُمْ. وَأَمَّا الْعَتِيقَةُ مِنْهَا فَإِنَّهُمْ يَتْرَكُونَ ذَلِكَ^(١٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ إِلَى آخِرِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا نَعَتْ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ تَبِعَهُ، وَمَذْهَبُهُمْ لِهَيْبَةِ اللَّهِ ﷻ، وَأَخَذُوهُ فِي حَالِ الْخَوْفِ، بَعْدَ مَا مَكَّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَمَّتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْخَوْفِ الَّذِي كَانَ فِي الْإِبْتِدَاءِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ دَامُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَتْرَكُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ، بَلْ زَادَ لَهُمْ جُرْصًا عَلَى ذَلِكَ وَجَهْدًا.

وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي ذَكَرَ فِي سُورَةِ النُّورِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا يَتْرَكُوا الصَّلَاحَ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [٥٥].

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا فَهُوَ يَرُدُّ عَلَى الرُّوَافِضِ قَوْلَهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمَّا وَلَّى أَبُو بَكْرٍ ارْتَدَّوْا جَمِيعًا، وَتَرَكُوا الدِّينَ الَّذِي اخْتَارُوهُ. فَالْآيَتَانِ تَدْلَانِ عَلَى نَقْضِ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُمْ ارْتَدَّوْا لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ أَخْبَرَ أَنَّهُ مُمْكِنٌ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتَخْلَفَهُمْ، وَوَعَدَ لَهُمُ الْجَنَّةَ. وَإِنَّمَا ارْتَدَّ مَنْ كَانَ إِسْلَامُهُ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْبَةِ، فَإِذَا مَكَّنَّ لَهُمْ تَرَكُوا ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْإِنْتِفَاعُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: اسْم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَلَوَات. (٧) فِي الْأَصْلِ: أَوْ مِنْ نَصْرٍ، فِي م: أَوْ مِنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: نَصْرَهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيِ قَوِيٍّ يَضْعُفُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوِيٍّ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَزِيزٌ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَلِكَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ.

وقال بعضهم: إن الآية، وإن كان ظاهرها خبراً فهي في الحقيقة أمر: أن افعلوا كذا إلى آخر ما ذكر. وهو كقولهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٧] ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ يختل قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي ترجع إليه الأمور في الآخرة كقولهم: ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وجائز أن تكون عاقبة الأمور لأوليائهم من النصير والقهر على أعدائهم. فالمراد بالإضافة إليه ألياءه كقولهم: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إن تنصروا ألياءه، أو تنصروا دينه ينصركم، والله أعلم.

الآيتان ٤٢ و ٤٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ [وَعَادٌ وَثَمُودٌ] وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ] ^(٢). هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: وإن يكذبوك في ما أخبرت لهم، وذكرت من التمكن والثبوت على الدين، ووعدت لهم الجنة، فقد كذبت ^(٣) الأمم الذين من قبلك رسلهم إذا أخبروا لهم بشيء، أو وعدوا لهم بنصر أو نحو.

والثاني ^(٤): جائز أن يكون قوله: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ في الرسالة وفي ما تخبر عن الله من الأخبار، يصبر رسوله: لست أنت بأول مكذب في الخلق، ولكن قد كذب الأقوام الذين كانوا من قبلك رسلهم في الرسالة. وهو ما قال: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ آبَاءِ الرَّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ الآية [هود: ١٢٠].

الآية ٤٤ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ أَنْ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي لم يعاقب الله قوماً كذبوا رسلهم وقت تكذيبهم الرسل، بل أمهلهم حتى اغتروا بتأخير العذاب عنهم، وزادوا ^(٥) لهم تكديباً وعناداً. فعند ذلك أخذوا، وغويوا بالتكذيب، وهو ما أخبر عنهم، وهو كقولهم: ﴿لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

قال الحسن: إن الله لم يهلك قوماً بأول التكذيب، ولكن أمهلهم قرناً فقرناً وقوماً بعد قوم ورسولاً بعد رسول، فعند ذلك إذا علم منهم أنهم لا يؤمنون أهلكتهم، وإن كان يعلم في الأزل من يؤمن منهم ومن لا يؤمن؛ حتى يعلم علم ظهور وعلم ابتلاء أنهم لا يؤمنون. وهو كقولهم: ﴿حَقَّقْ تَمَرُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد: ٣١] علم ^(٦) ظهور في الخلق / ٣٥٠-١. وإن كان يعلم علم باطن وخفي.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ لم يهلك الله أهل قرية إهلاك استئصال وتغذيب إلا بعد عناد أهلها وظلم شرك كقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وكقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْلِكَ الْقُرَىٰ بِطُلُوعِ﴾ [هود: ١١٧] وأمثلة كثيرة ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [قال بعضهم] ^(٨): فإذا ذهب السقف وبقيت ^(٩) الحيطان ^(١٠) فهي خاوية على عروشها ^(١١) وقال بعضهم: خاوية: خربة ساقطة حيطانها على سقوفها.

وقال الحسن: العريش: كل ما ارتفع من الأرض، وعلا: يقال: عرش، وعروش جميع. وهكذا كان ما أهلك الله من القرى: منها ما أهلك أهلها، وترك القرى والبنيان على حالها لأوليائها؛ من ذلك فرعون [وقومه وغيرهم] ^(١٢) من الأقوام، ومنها ما أهلك القرى بأهلها، لم يترك منها شيئاً من نحو قرىات لوط وثمود وعاد وغيرها ^(١٣).

وقال بعضهم: العروش ^(١٤) هي أجزأ الشجر، وكأنها أساطينها ^(١٥). وأصل الخاوية خلأوها عن الأهل ^(١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُ مُعْتَظِرَةً﴾ عطلها أهلها، ليس بها أحد. لا أنها خربت على [ما] ^(١٧) ذكرنا من إهلاك أهلها.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. الآية. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم. لهم. (٤) في الأصل وم. و. (٥) في الأصل وم. وزاد.

(٦) في الأصل وم. على. (٧) في الأصل وم. كثير. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم. بقية. (١٠) في الأصل وم. وقوله وغيره.

(١١) في الأصل وم. وهؤلاء. (١٢) في الأصل وم. والعرش. (١٣) في الأصل وم. أسطواناته. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم. وكذلك.

(١٥) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَعَرِ مَشيِدٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَشيِدٌ﴾ مُجْصَصٌ، وَالْمَشيِدُ الْجِصُّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَشيِدٌ﴾ مُرْتَفِعٌ، وَالْمَشيِدُ بِالْمُشْدِيدِ الْمُطَوَّلُ الْمُرْتَفِعُ.

قَالَ الْفَتْي: الْمَشيِدُ الْمَبْنِيُّ بِالْمَشيِدِ، وَهُوَ الْجِصُّ، وَالْمَشيِدُ الْمُطَوَّلُ، وَيُقَالُ: هُمَا سَوَاءٌ، وَهُوَ مُطَوَّلٌ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ أَوْ قَرِيباً [مِنْهُ] (١).

وَكَانَهُ ذَكَرَ هَذَا لِأَهْلِ مَكَّةَ لِيُوجِّهِينَ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ كَانَتْ لَهُمْ قَرْيَةٌ، فِيهَا قَصُورٌ مُشِيدَةٌ مُحَصَّنَةٌ، يَتَحَصَّنُونَ بِهَا. يُخْبِرُ أَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ حِصْنًا وَقُصُورًا. فَلَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ لَمْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ. فَعَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ إِذَا كَذَّبْتُمْ رَسُولَكُمْ يَنْزِلُ بِكُمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ.

[وَالثَّانِي] (٢): أَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ فِيهَا مُطْمَئِنِّينَ. فَقَالَ: إِنَّ أُولَئِكَ قَدْ كَانُوا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ فِي قَرَاهِمُ كَامِنِينَكُمْ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ. فَانْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ آمِنِينَ فَسَيَنْزِلُ بِكُمْ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ. وَهُوَ مَا قَالَ ﷻ: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هَلَا سَارُوا فِي الْأَرْضِ؟ ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ فَيَنْظُرُوا لِيَعْرِفُوا مَا حَلَّ بِأُولَئِكَ بِالْكَذِبِ، فَيَمْتَنِعُوا (٣) عَنْهُ ﴿أَوْ أَدَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أَيِ [أَفَلَمْ] (٤) يَسِيرُوا فَيَسْتَمِعُوا إِلَى الْأَخْبَارِ الَّتِي (٥) فِيهَا ذَكَرُ هَلَاكِهِمْ وَمَا نَزَلَ بِهِمُ بِالْكَذِبِ وَالْعِنَادِ؟ لَأَنْ مَا حَلَّ بِالْأَوَّلِينَ إِنَّمَا يُعْرِفُ (٦) بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا بِالْمُعَايَنَةِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ وَإِمَّا بِالسَّمْعِ مِنَ الْأَخْبَارِ.

[وَيَحْتَمِلُ] (٧) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ قَدْ سَارُوا فِي الْأَرْضِ لَكِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ وَعَقُولٌ (٨) أَوْ أَفْهَامٌ يَعْقِلُونَ بِهَا مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ بِالْكَذِبِ فَيَمْتَنِعُوا بِذَلِكَ، وَلَا كَانَتْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ [بِهَا] (٩) مَا حَلَّ بِهِمْ. أَيِ كَانَتْ لَهُمْ عَقُولٌ، يَعْقِلُونَ بِهَا لَوْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظَرِ، وَأَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا لَوْ سَمِعُوا حَقَّ السَّمْعِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ (١٠) يَنْتَفِعُوا بِعُقُولِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ.

نَقَى ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ الظَّاهِرَةُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي السُّدُورِ﴾ وَهُوَ مَا نَقَى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لِتَرْكِبِهِمُ الْانْتِفَاعَ بِهَا [كَقَوْلِهِ] (١١): ﴿مَنْ بَكَمُ عَمَى﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَائِدَةَ بْنِ مَكْتُومِ الْأَعْمَى. مَعْنَاهُ: أَنَّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ لَيْسَ عَمَى الْبَصَرِ، وَهُوَ كَانَ [أَعْمَى] (١٢) الْبَصَرِ لَا أَعْمَى الْقَلْبِ. هَذَا مَعْنَاهُ إِنْ ثَبَّتَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِيكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَيِ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ الَّذِي وَعَدَ فِي نَزُولِ الْعَذَابِ، أَيِ يَنْزِلُ بِهِمْ، لَا يَتَقَدَّمُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ مِيعَادِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قَالَ عَائِمَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ نَحْوُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمْ (١٣): إِنَّهَا هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا الدُّنْيَا، وَجَعَلَهَا أَجَلًا لَهَا؛ يُعَدُّ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ كَأَلْفِ سَنَةٍ. إِلَى هَذَا صَرَفَ عَائِمَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، فَلَا تَعْلَمُ لِذَلِكَ (١٤) وَجْهًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَيْكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مِنْ عَذَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ فِي الدُّنْيَا؛ الْيَوْمُ الْوَاحِدُ أَلْفُ سَنَةٍ. وَرَجَّهَ هَذَا أَنَّ الْوَقْتَ الْقَصِيرَ الْقَلِيلَ يَجُوزُ أَنْ يَصِيرَ مَدِيدًا طَوِيلًا لِشِدَّةِ الْعَذَابِ وَالْبَلَاءِ نَحْوُ مَا قِيلَ لَهُمْ: ﴿كَمْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: فيمتنعون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل: هم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لما. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (١٤) في الأصل وم: ذلك.

لِنَشْتَرُ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿١٩﴾ [الكهف: ١٩] قَصَرُوا^(١) مَقَامَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِشِدَّةِ مَا عَانَوْا مِنَ الْعَذَابِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وجائز أن يكون هذا لا للتوقيف والمدة، إذ الآخرة، مما لا غاية لانتهائه. وكل شيء لا غاية لانتهائه، فذكر الوفاء له^(٢) يُخْرِجُ مُخْرَجَ التَّمثِيلِ لَا التَّوْقِيفِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا عَرْضَهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وقوله^(٣): ﴿وَجَعَلْنَا عَرْضَهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ليس على التحديد لها والتوقيف، ولكن على ما يخرج عن الأوهام ذكر ذلك، ومثلها بـ. فعلى ذلك الأول، والله أعلم.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِينَةٍ آمَنَتْ مَّا وَهَىٰ ظَالِمَةٌ﴾: ﴿أَتَلَيْتَ لِمَا﴾: لم آخذها وقت [ظلم أهلها]^(٤) ﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهَا﴾ مِن بَعْدِ ﴿وَلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُدْعَىٰ لِيُخْبِرَ شَيْئًا﴾ هو ظاهر، قد ذكرنا في غير موضع.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لِدُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال بعضهم: سمأه رزقاً كريماً لأن من رزق ذلك، وأعطى، يكرم، ويعظم قدره. وقال بعضهم: سمأه كريماً لأن الكريم هو الذي تفضى عنده الحوائج والحاجات. فعلى ذلك هذا الرزق؛ من ناله، وأصاب، قضيت عنده الحوائج. لذلك سمي كريماً، والله أعلم.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآيِنِنَا مُعْجِرِينَ﴾ في بغض القراءات: مُعْجِرِينَ^(٥). قال بعضهم: ﴿مُعْجِرِينَ﴾ مُبْطِلِينَ مُبْطِلِينَ؛ يَبْطِلُونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّيْءِ.

والأشبه عندنا أن يكون قوله: ﴿مُعْجِرِينَ﴾ سابقين فائتين، لكنه على الإضمار؛ كأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآيِنِنَا مُعْجِرِينَ﴾ على ظن منهم أنهم سابقون فاتون عن عذابه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ أي تلا ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قيل: في تلاوته وقراءته الآية.

قال عامة أهل التأويل: إن رسول الله ﷺ ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ أي تلا في صلاته، أو حدث نفسه، ألقى الشيطان على لسانه عند تلاوته: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] حتى إذا انتهى إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ﴾ ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ الْآتِرَىٰ﴾ [النجم: ١٩ و ٢٠]. قال: ﴿تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا، شَفَاعَتُهُنَّ تُرْجَى. وَذَكَرُوا^(٦) أَنَّهُ أَنَاهُ عَلَى صُورَةِ جَبْرِيلَ ﷺ فَالْقَى عَلَيْهِ مَا ذَكَرُوا.

ثم أَنَاهُ جَبْرِيلُ ﷺ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ بِذَلِكَ، فقال: له: إنه لم يُنزل عليه قط شيئاً مثله. وأمثال هذا قالوا. لكنه لو كان ما ذكر هؤلاء كيف عرقه في المرة الثانية أنه جبريل؟ وأنه ليس بشيطان؟ ولا يؤمن أن يلبس عليه في وقت آخر في أمثاله.

وقال قتادة: إنه ﷺ كَانَ يَتَمَنَّى أَن يَذْكُرَ اللَّهُ إِلَهُهُمْ بِعَيْبٍ. فلما قرأ تلك الآيتين^(٨): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ﴾ ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ الْآتِرَىٰ﴾ [النجم: ١٩ و ٢٠] قال: إنه الغرانيق العُلَا، وإن شفاعتهن تُرْجَى عندهم. يعني بـ عند أولئك الكفرة، وهم على ذلك كانوا يعبدونها.

وقال الحسن: إنه أراد بقوله: تلك الغرانيق العُلَا، وشفاعتُهُنَّ تُرْجَى، الملائكة، لأنهم كانوا يعبدون الملائكة رجاء أن يشفعوا/ ٣٥٠ - ب/ لهم يوم القيامة، فأخبر أن شفاعَةَ الملائكة تُرْجَى. وهذا التأويل أشبه من الأول.

والأشبه عندنا أن يكون على غير هذا الذي قالوا، وهو أن قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾

(١) في الأصل وم: قصر. (٢) في الأصل وم: لم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: ظلمهم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ١٩١. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتذكروا. (٨) في الأصل وم: الآية.

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴿٥٢﴾ أَيِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ الْقُرْآنَ فِي قُلُوبِ الْكُفْرَةِ مَا يُجَادِلُونَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ، وَيُحَاجُّونَهُ، فَيُشَبِّهُونَ بِذَلِكَ عَلَى الْإِتِّبَاعِ لِيَتَّبِعُوهُمْ. وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ يُحَرِّمُ مَا ذَبَحَهُ اللَّهُ، وَيُحِلُّ مَا ذَبَحَ هُوَ بِنَفْسِهِ، وَنَحْوُ قَوْلِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: إِنَّ عَيْسَى وَعِزِيرًا وَمِلَّةَ الْيَهُودِ عُبِدُوا دُونَ الْمَلَائِكَةِ، فَهَمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ إِذَنْ، وَنَحْوُ صَرْفِهِمْ قَوْلُهُ: ﴿الْعَمَّ﴾ [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ] [البقرة: ٢١٠] إِلَى حِسَابِ الْجُمْلِ، وَأَمْثَالُ هَذَا مِمَّا حَاجُّوا رَسُولَ اللَّهِ، وَجَادَلُوهُ بِهِ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَنْسُخُ مُجَادَلَتَهُمْ وَمُحَاجَّتَهُمْ رَسُولَهُ، وَأَنَّهُ يُحْكِمُ آيَاتِهِ: حِينَ (٥٣) قَالَ عِنْدَ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ يُحِلُّ ذَبِيحَ نَفْسِهِ، وَيُحَرِّمُ ذَبِيحَ اللَّهِ. فَبَيَّنَ أَنَّهُ بِمِ حَرَمَ هَذَا؟ وَمِمَّ أَحَلَّ الْآخَرَ؟ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] وَلَكِنْ كُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ. فَبَيَّنَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَحَلَّ هَذَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَحَرَّمَ الْآخَرَ بِتَرْكِ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وَبَيَّنَ [مَا] (٥٣) فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّ عَيْسَى عُبِدَ دُونَ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةُ عُبِدُوا دُونَهُ، فَهَمْ لَيْسُوا بِحَصَبِ جَهَنَّمَ حِينَ (٥٤) اسْتَشْنَى أُولَئِكَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١] فَأَبْطَلُ مُجَادَلَتَهُمْ وَمُحَاجَّتَهُمْ وَصَرْفَهُمُ الْآيَةَ إِلَى حِسَابِ الْجُمْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾ [آل عمران: ٧].

فَهَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ نَسَخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ أُولَئِكَ الْكُفْرَةِ مَا بِهِ جَادَلُوهُ، وَأَخْكَمَ آيَاتِهِ بِمَا ذَكَرْنَا.

ثُمَّ وَإِنْ ثَبَّتَ مَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَامَّةٌ مِنْ ذَكَرْنَا حِينَ (٥٥) قَالُوا: جَرَى عَلَى لِسَانِهِ ذَلِكَ، فَجَازَتْ عِنْدَ مَا جَرَى الْخَطَأُ عَلَى لِسَانِهِ مَنْ عَصِمَ، إِذَا عَرَفَ السَّامِعُ مِنْهُ مَذْهَبَهُ وَدِينَهُ الَّذِي يَدِينُ بِهِ، عَرَفَ أَنَّ مَا جَرَى غَلَطٌ (٥٦) وَخَطَأٌ نَحْوُ مَنْ يَغْتَمِدُ مَذْهَبًا، وَيَتَّجِلُ نِخْلَةً، فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ خِلَافَ مَا يُعْرِفُ مِنْهُ الْإِعْقَادُ، يُعْرِفُ أَنَّهُ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ غَلَطًا.

فَعَلَى ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ إِنْ ثَبَّتَ مَا ذَكَرُوا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ.

وَالْأَشْبَهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي قُلُوبِ الْكُفْرَةِ مَا يُجَادِلُونَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ، وَيُحَاجُّونَهُ (٥٧) كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّهِمْ لَكَاؤٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿إِنَّا نَمْنَعُ﴾ أَيِ تَلَا الْقُرْآنَ ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أَيِ (٥٨) فِي تِلَاوَتِهِ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ، وَقَالَ: أَمَانِي مُشَدَّدَةٌ جَمِيعٌ.

وَقَالَ غَيْرُهُمْ: ﴿إِنَّا نَمْنَعُ﴾ إِذَا حَدَّثَ، وَ ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [فِي حَدِيثِهِ]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَمَنَّى فِي أُمْنِيَّتِهِ (٥٩) هُوَ مِنْ تَمَنَّى النَفْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ [النساء: ٣٢] وَنَحْوُهُ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ: تَمَنَّى كَبَغَضَ مَا تَمَنَّى النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَ ﴿إِنَّا نَمْنَعُ﴾ مَا ذَكَرْنَا مِنْ تَمَنَّى النَفْسِ أَنْ يَذْكُرَ الْكُفْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى، وَتُرْجَى شِفَاعَتُهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتَنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هَذَا تَأْوِيلُهُ (٦٠): لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ أُولَئِكَ الْكُفْرَةِ فَتَنَةً لِلَّذِينَ ذَكَرَ لِمَا ظَنُّوا الْعِلَّةَ؛ لَا يَقْدِرُ [عَلَى] (٦١) الْإِجَابَةِ لَهُمْ، أَوْ لَا يَخْضَرُهُ مَا يُجِيبُهُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فَتَنَةً لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كَانَهُمْ هُمُ الْمُنَافِقُونَ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُوصَفُونَ الْمُسَمَّونَ بِهَذَا الْاسْمِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَقُولُ السُّفَهَاءُ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَائِسَةِ قُلُوبِهِمْ﴾ كَانَهُمْ هُمُ الرُّؤَسَاءُ الْمُكَابِرُونَ الْمُعَانِدُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْكَفْرَةِ، كُلُّهُمْ مَوْصُوفُونَ بِقِسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

(١) ادرج بعدما في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: غلطاً. (٧) في الأصل وم: ويجادلونه. (٨) في الأصل وم: أر. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: تأويل القوم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ الظَّالِمِينَ لَنُيَسِّقَنَّ لَهُمْ فِي عَذَابِهِمْ عَذَابَ الْيَوْمِ﴾ يَحْتَمِلُ أَي فِي عَذَابٍ وَفِي مَكَابِرَةٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عَنِ الْإِجَابَةِ لَهُ أَوْ ﴿بَعِيدٍ﴾ [عَنِ اسْتِمَاعِ] ^(١) الْحَقِّ وَقَبُولِهِ. وَقِيلَ: ﴿يُسَاقُونَ﴾ أَي خِلَافَ بَعِيدٍ أَيْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْوَفَاقِ ^(٢) أَبَدًا.

الآية ٥٤ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخَفَّيَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قوله: ﴿فَتُخَفَّيَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي تَخَضَّعَ، وَتَذَلَّ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُثِيرُ الْمُخَنِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

الآية ٥٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَاتِ الَّتِي ذَكَّرْنَا فِيهَا مَا تَقَدَّمَ: مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَزِيدُهُم مَّرَمًا﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ ﴿الآية [التوبة: ١٢٤ و ١٢٥] وَنَحْوُهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي وَصَفَتْ ^(٣) أَهْلَ التَّوْحِيدِ بِالْقَبُولِ لَهَا وَالْخُضُوعِ وَالِاقْبَالِ إِلَيْهَا، وَوَصَفَتْ ^(٤) أَهْلَ الْكُفْرِ بِالرَّدِّ وَالتَّكْذِيبِ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ عَلِمَ الَّذِينَ آمَنُوا ^(٥) أَنَّ الْقُرْآنَ وَمُحَمَّدًا الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَيْهِ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّجَبُّلِ وَالْخُضُوعِ لَهُ، فَأَقْرَبُوا بِهِ، فَزَادَ لَهُمْ بِذَلِكَ هَدًى وَرَحْمَةً وَشِفَاءً. وَأُولَئِكَ نَظَرُوا إِلَيْهِ بِالْإِسْتِخْفَافِ وَالْهَوَاءِ وَالتَّكْذِيبِ فَزَادَ لَهُمْ بِذَلِكَ رِجْسًا وَضَلَالًا وَفَسَادًا ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيبٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ يَوْمٌ بَذَرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ شَدِيدٌ. وَجَائِزٌ أَنَّهُ سَاءَ عَقِيمًا لِأَنَّهُ لَا تُرْجَى النِّجَاةُ مِنْهُ وَلَا الْخَيْرُ. وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ الْمَرَأَةُ الَّتِي لَا تَلِدُ عَقِيمًا [لَمَّا] ^(٧) لَا يُرْجَى مِنْهَا الْوَلَدُ.

الآية ٥٦ وقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: الْمُلْكُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

لَكِنْ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أَيِ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ دُونَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّ فِي الدُّنْيَا مَنْ قَدْ حَكَّمَ غَيْرَهُ. فَأَمَّا يَوْمَئِذٍ فَالْحُكْمُ لَهُ [خَاصَّةً].

وعندنا ^(٨) تَخْصِصُ الْمُلْكِ يَوْمَئِذٍ لَهُ بِالذِّكْرِ، وَإِنْ كَانَ الْمُلْكُ فِي الْأَيَّامِ كُلِّهَا لِلَّهِ، لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا يُقَرُّونَ لَهُ بِالْمُلْكِ يَوْمَئِذٍ، لَا أَحَدٌ يُنَازِعُ، وَفِي الدُّنْيَا مَنْ قَدْ ادَّعَى الْمُلْكَ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ مَا ذَكَّرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَهُودِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢١] [وقوله] ^(٩): ﴿قَالَ اللَّهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و ٢٩] [وقوله] ^(١٠): ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَزِجُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠ و ٢١١] وَنَحْوُهُ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

الآية ٥٧ [وقوله تعالى] ^(١١): ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآزَلْتَنَاهُمْ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ ظَاهِرٌ تَأْوِيلُهُمَا فِي

الآية ٥٨ قَوْلِهِ تَعَالَى ^(١٢): ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾.

أَمَّا أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ صَرَفُوا تَأْوِيلَ الْآيَةِ إِلَى الْغُرَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُتِلُوا، أَوْ مَاتُوا حَتَّى أَتَاهُمْ، فَإِنَّ لَهُمْ مَا ذَكَرَ مِنَ الرِّزْقِ الْحَسَنِ وَالْمَذْخَلِ الْمَرْضِيِّ.

وظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ فِي الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ. فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ فِيهِ دَلَالَةٌ تُفَضِّلُ قَوْلَ الرَّوَافِضِ حِينَ ^(١٣) قَالُوا: ارْتَدَّ عَائِدَتُهُمْ حِينَ ^(١٤) شَهِدَ اللَّهُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ وَالْمَذْخَلِ الْمَرْضِيِّ؛ قُتِلُوا، أَوْ مَاتُوا حَتَّى أَتَاهُمْ. فَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَا قَالُوا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا اسْتِمَاعَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْوَفَاءُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَفَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَصَفَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْتُوا الْعِلْمَ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَفَسَادًا. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: عِنْدَنَا. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: تَأْوِيلُهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَتَحَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي تَخَضَّعَ، وَتَذَلَّ. وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَشِيرُ الْمُحْشِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ خَيْرٌ أَوْ فَرَجٌ لِلْكَافِرِ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ شَدِيدٌ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قِيلَ: هُوَ الْجَنَّةُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْقَتْلِ. فَلَا يَكُونُ/ ٣٥١ - أ / رِزْقٌ حَسَنٌ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ، فَيَسْتَحْسِنُهَا كُلُّ طَائِفٍ وَعَقْلٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَازِقٌ سِوَاهُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَطْمَعُونَ وَيَطْلُبُونَ الرِّزْقَ وَالسَّعَةَ مِنْ عِنْدِ مَنْ سِوَاهُ حِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَنْ دُونَهُ طَمَعًا فِي السَّعَةِ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ الرَّازِقُ، وَمَنْهُ يُطْمَعُ الرِّزْقُ وَالسَّعَةُ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لِلذَّكَاءِ. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وَقَالَ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] ^(١) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ خَالِقٌ سِوَاهُ.

الآية ٥٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيَدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا رَضْوَنًا﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ أَيْضًا، يَرْضَى بِهَا كُلُّ طَائِفٍ وَعَقْلٍ ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَكَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: عَلِيمٌ بِمَا صَنَعَ بِأَوْلِيَائِهِ أَعْدَاؤُهُ أَوْ مَا صَنَعَ هُوَ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿حَلِيمٌ﴾ حِينَ ^(٢) آخَرَ الْإِنْتِقَامَ مِنْ أَعْدَائِهِ، لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْهُمْ وَفَتْ صَنِيعَهُمْ مَا صَنَعُوا بِأَوْلِيَائِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ ذِكْرُ حَرْفٍ: ذَلِكَ وَحَرْفٍ. هَذَا عَلَى الْإِنْدَاءِ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا يُخْبَرُ بِهِ عَنْ غَائِبٍ، نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ [ص: ٤٩] [وقوله] ^(٣): ﴿هَذَا وَكَانَ لِلظَّالِمِينَ لَثَرَ مَكَابٍ﴾ [ص: ٥٥] يَسْتَقِيمُ ذِكْرُهُ بِدُونِ ذِكْرِ هَذَا، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ كَذَا، وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ كَذَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ ذَلِكَ صَلَوةً مَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ يَقُولُ: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ، وَأَنْبَأْتُكَ: مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ فِي الْقِصَاصِ. مَنْ قَتَلَ وَلِيَّ آخَرَ، فَاتَّصَ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ الْمُتَّصَ مِنْهُ بَعَى عَلَى وَلِيِّ الْمَقْتُولِ، فَقَتَلَهُ ﴿لَيَسْمُرَنَّ اللَّهُ﴾ عَلَى مَنْ بَعَى عَلَيْهِ. وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ عُوفِيَ لَمْ يَنْجِ مِنْ أَيْدِيهِمْ قَاتِلًا أَوْ ظَالِمًا أَوْ مُقْتَدِرًا أَوْ مُتَعَدٍّ﴾ [البقرة: ١٧٨].

لَكِنْ ذَكَرَ هُنَا الْإِعْتِدَاءَ بَعْدَ مَا أَخَذَ الْمَالَ، وَعَقًا. وَفِي الْأَوَّلِ ذَكَرَ الْبَنَى بَعْدَ الْقِصَاصِ، وَهُوَ وَاحِدٌ فِي مَعْنَاهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ عَاقَبُوا الْمُؤْمِنِينَ بِعُقُوبَاتٍ، وَاعْتَدُوا عَلَيْهِمْ. ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ ظَفَرُوا بِهِمْ، فَعَاقَبُوهُمْ جَزَاءَ عُقُوبَتِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ بَغَوْا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَوَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْبَنَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ قَرِيبًا مِنْ هَذَا؛ وَهُوَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُؤْذُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَيُعَاقِبُونَهُمْ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَنْ بِقِتَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَقَاتَلُوهُمْ مُكَافَأَةً لَهُمْ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ وَوَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ إِذَا بَعَى أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ. فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَكُونُ وَغْدُ النَّصْرِ لَهُمْ إِذَا بَعَى أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ. وَعَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ يَكُونُ لَهُمُ الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ بَعْدَ مَا بَعَى أُولَئِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ اسْتَفْزَفُوا عَفْوًا﴾ أَمَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِهِمْ أُولَئِكَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ [حِينَ] ^(٥) كَانَ لَمْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ، أَوْ ﴿إِنِ اسْتَفْزَفُوا عَفْوًا﴾ إِذَا تَابُوا، وَرَجَعُوا عَمَّا فَعَلُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤْلِجُ أَلْسِنًا فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ أَلْسِنًا فِي اللَّيْلِ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ صَرْفَ ذَلِكَ يَسْتَقِيمُ ذِكْرُهُ عَلَى الْإِنْدَاءِ وَالْإِتْنَابِ عَلَى غَيْرِ صَلَوةٍ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وجائز أن يكون صلة قوله: ﴿لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ﴾ أي ذلك النصر لمن ذكر، لأن من قدر على إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل قادر على ما وعد من النصير لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: ﴿سَمِيعٌ﴾ لا قوالهم ﴿بَصِيرٌ﴾ يحوائجهم. والسَمِيعُ: يُقال: هو المُجِيبُ، أي مجيب لدعائهم، بصير بما يكون من الأعداء. أو يكون على الابتداء في كل أمر. وكذلك [قوله^(١)]: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] ما ذكرنا. وقال بعضهم: ذلك بأن الله هو الذي يفعل هذا.

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ قال الحسن: الحق هو اسم من أسماء الله، به يغطي، وبه يخكم بين الخلق^(٢)، وبه يقضي، ونحوه. وجائز أن يكون قوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي عنده يتحقق ما يطمع في العبادة، ويطلب؛ إذ هو المالك لذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي ما يطمعون في عبادة من دونه باطل، وهو الأصنام التي عبدوها رجاء الشفاعة وطمعاً في السعة. فأخبر أنها لا تملك ذلك. وإنما [يملك^(٣)] ذلك الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي من عنده يطلب العلو، ومن عنده يطلب، ويطمع الرزق والسعة والشفاعة والنصر والظفر والإجابة، لا من عند هؤلاء الأصنام التي يعبدونها. يذكّر سفههم بعبادتهم الأصنام من دون الله.

الآية ٦٣ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ: قال بعضهم: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾^(٤) إنما هو حرف تعجب؛ يعجب رسول الله جميع ما يفعل من أفعاله. وقال بعضهم: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حرف إيضاح الحجج وإنارة براهينه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ كُنْتَ مِنْكُمْ نَبِيًّا﴾ [الفرقان: ٤٥] ونحوه.

وأصله أن ظاهرة، وإن كان استيفهاً فهو في الحقيقة تحقيق وإيجاب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي قد رأيت، وقد أخبرت. وهكذا جميع ما خرج الظاهر في الكتاب مخرج الاستيفاء فهو في الحقيقة إيجاب والزام.

ثم في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ وجهان من الاستدلال على منكري البعث: أحدهما: يُخبر عن قدرته وسلطانه أن من قدر على إنزال الماء من السماء وشق الأرض وإخراج النبات منها مع لينه وضعفه وصلابة الأرض وشيئها قادر على إحياء الخلق بعد الموت، ولا يُحتمل أن يعجزه شيء.

والثاني: [أن من^(٥)] قدر على إحياء الأرض بعد موتها ورببها قادر على البعث والإحياء، وقد عرفوا أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، أو يقدر على الإعادة من [يملك القدرة^(٦)] على الابتداء إذا عرف الابتداء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال الحسن: اللطيف في الشاهد إنما يقال على وجوه ثلاثة:

أحدها: أنه يقال للشيء لطيف لرفقته، وذلك عن الله منفي.

والثاني: لما تنأت له الأشياء، ولا تضعب عليه.

والثالث: اللطيف هو الرحيم الرؤوف. وهذان الوجهان يُضافان^(٧) إلى الله، والأول لا يجوز إضافته إليه.

[وقوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾ أي^(٨) عليم.

الآية ٦٤ وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ﴾ [يختصم قوله: ﴿الْغَنِيُّ﴾ وجهين:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الحق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) بين المؤلف أبو منصور أحوال هذا الحرف في تفسير الآية ٧٠ من هذه السورة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: أن حرف ﴿أَلَمْ﴾ حرف يتوجه إلى وجوه: إلى التعجب مرة وإلى التنبيه والإيقاظ ثانياً وإلى إيضاح الحجج والبراهين ثالثاً. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: لا يملك. (٧) في الأصل وم: يضاف. (٨) في الأصل وم: خير.

أَخَذَهُمَا: ^(١) يَخْبِرُ أَنْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ عِبِيدُهُ وَإِمَاؤُهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ لِحَاجَةٍ نَفْسِهِ. وَلَكِنْ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِحَاجَةٍ أَنْفُسِهِمْ حِينَ ^(٢) أَخْبَرَ أَنَّهُ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ.

وَالثَّانِي: يُخْبِرُ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُمْ، وَلَمْ يَنْهَهُمْ، وَلَا امْتَنَحَهُمْ لِمَنَافِعٍ، تَكُونُ لَهُ، وَلَكِنْ لِمَنَافِعِ الْمُتَمَتِّعِينَ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ^(٣) ﴿الْحَكِيدُ﴾ هُوَ الْمَحْمُودُ فِي أَعْمَالِهِ، أَوْ ^(٤) ﴿الْحَكِيدُ﴾ الْحَامِدُ.

الآية ٦٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ يُدْكَرُكُمْ نِعْمَةً لِّسْتَأْذِي بِهِ شُكْرَهُ، لَأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ عَبَثًا لِيَتَّكِبَهُمْ سُدَى؛ لَأَنَّ مَنْ كَانَ خَلْقُهُ لِمَا ذَكَرَ لَمْ يَكُنْ خَلْقُهُ لِيَكُونَ خَلْقًا مَفْرُوكًا سُدَى.

وَيُخْبِرُ أَنَّهُ أَغْطَى لَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي بِهَا يَصِلُونَ إِلَى مَنَافِعِ الْأَرْضِ مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا، وَالْأَسْبَابَ الَّتِي بِهَا يَصِلُونَ إِلَى مَنَافِعِ الْبَحْرِ، وَهِيَ الْفُلُّ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُمْ لِيَصِلُوا بِهَا إِلَى مَنَافِعِ الْبَحْرِ حِينَ ^(٥) خَلَقَ الْخَشَبَ قَارَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ غَيْرَ مُسَرَّيَّةٍ. وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، مِنْ طَبْعِهَا التَّسْفُلُ وَالتَّسَرُّبُ فِي الْمَاءِ كَالْحَدِيدِ ^(٦) وَالْحَجَرِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْأَشْيَاءِ لِيَعْرِفُوا فَضْلَهُ وَرَحْمَتَهُ، أَنَّ كَيْفَ ثَبَّتَ، وَقَرَّ هَذَا ٣٥١ - ب/ على وَجْهِ الْمَاءِ؟ وَلَمْ يَثْبُتِ الْحَدِيدُ وَالْحَجَرُ وَنَحْوُهُمَا ^(٧)؟ ثُمَّ يَثْبُتُ الْحَدِيدُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ مَعَ الْخَشَبِ؟ إِذَا السُّفُنُ لَا تَخْلُو مِنَ الْحَدِيدِ، وَبِهِ تَقُومُ السُّفُنُ، ثُمَّ لَمْ يَتَسَرَّبْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسِّرُكَ اللَّهُ إِلَى الثَّغَامِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أَيُّ يُسِّرُكَ السَّمَاءُ لَا بِالْأَسْبَابِ وَلَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تُسَبِّكُ الْأَشْيَاءَ فِي الشَّاهِدِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ الْآيَةُ [فَاطِر: ٤١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ رَافِقُهُ وَرَحْمَتُهُ مَا خَلَقَ لَهُمْ، وَسَخَّرَ مَا ذَكَرَ.

الآية ٦٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَلَدَّتْ أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يَبْسُتُكُمْ﴾ هَذَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أَيُّ الْكَافِرِ ﴿لَكُفُورٌ﴾ لِلْبَغْتِ، أَيُّ جَاوِدٍ لَهُ. وَالْكَفُورُ لِرَبِّهِ فِي نِعَمِهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ حِينَ ^(٨) ذَكَرَ أَنَّهُ سَخَّرَهَا لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ كَذَا، لَأَنَّهُ يَنْظُرُ فِي النِّعَمِ إِلَى أَسْبَابِهَا وَالْحِجَلِ الَّتِي يَخْتَالُ لَا إِلَى فَضْلِ رَبِّهِ وَأَفْضَالِهِ فِي تِلْكَ النِّعَمِ. لِذَلِكَ صَارَ كُفُورًا لِرَبِّهِ فِي نِعَمِهِ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْحِجَلِ فِيهَا، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى فَضْلِ اللَّهِ وَأَفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ فِيهَا، فَيَكُونُ شُكْرًا لَهُ فِيهَا غَيْرَ كُفُورٍ. وَالْكَافِرُ يَنْظُرُ إِلَى مَا ذَكَرْتُ.

لِذَلِكَ كَانَ مَا ذَكَرْتُ عَلَى الْمُغْتَرِلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكُفُورٌ﴾ لَأَنَّهُ يَقُولُ: هَذَا الَّذِي سَخَّرَ الْفُلَّ، وَهُمْ يَقُولُونَ: لَمْ يُسَخَّرِ الْفُلُّ، وَلَكِنْ إِنَّمَا سَخَّرَ الْخَشَبَ [الَّذِي مِنْهُ] ^(٩) تَتَّخِذُ الْفُلُّ لَأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ اللَّهَ فِي فِعْلِ الْعِبَادَةِ تَدْبِيرًا وَلَا صُنْعًا، وَهُمْ يَكْفُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّهِمْ فِي مَا ذَكَرَ مِنْ تَسْخِيرِ الْفُلِّ لَنَا، وَهُمْ دَاخِلُونَ فِي ظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا.

الآية ٦٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ اخْتَلَفَ فِي الْمَنَسَكِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَنَسَكًا﴾ [دِينًا] ^(١٠) أَيُّ جَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ دِينًا، يَدْعُونَ إِلَيْهِ، أَيُّ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ أَيُّ شَرِيعَةٍ. فَهَذَا عَلَى الْإِخْتِلَافِ، أَيُّ جَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ شَرِيعَةً عَلَى جِدَةٍ ﴿وَهُمْ نَائِكُونَ﴾ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [الْمَائِدَةُ: ٤٨].

وَقَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ﴿مَنَسَكًا﴾ أَيُّ ذَبَائِحٍ وَعِيدَا. قَالُوا ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْكِرُ أَنْ يَكُونَ الذَّبْحُ شَرِيعَةً لِلَّهِ. فَأَخْبَرَ أَنَّ الذَّبْحَ سُنَّةُ اللَّهِ وَشَرِيعَتُهُ فِي الْأُمَمِ كُلِّهَا. لَيْسَ عَلَى مَا قَالَتِ الثَّوَيْتَةُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: من الحديد. (٧) في الأصل وم: ونحوه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: التي منها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَرْعُكَ فِي آلَاءِ رَبِّكَ﴾ على تاويل^(١) من يقول: إِنَّ الْمُنْسَكَ هو الدين، أي لا يُخَالِجُكَ في نفسك [شك]^(٢) أَنْ الذي أنت عليه، هو دين الله، واذعُ الناسِ إليه.

وعلى تاويل من [يقول]: ^(٣) هو الذبح يقول: ﴿فَلَا يَسْتَرْعُكَ﴾ أي لا يَصُدُّكَ عَنِ الذَّبْحِ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِعْ لَكَ رَبِّكَ﴾ أي اذعُ إلى توحيد ربك. أو يكون قوله: ﴿وَأَذِعْ لَكَ رَبِّكَ﴾ إلى عبادة ربك، وأنهم عن عبادة من دونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمَّا هَدَىٰ مُسْتَقِيمًا﴾ هذا يدل أن التاويل الذي ذكرنا في المنسك، وهو الدين، أشبه، وأقرب، لأنه ذكر ﴿إِنَّكَ لَمَّا هَدَىٰ مُسْتَقِيمًا﴾ فلا يَتَخَالَجُ في نفسك شك في ذلك، والله أعلم.

الآية ٦٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْدُلُوكَ﴾ في أمر الذبيحة أو في الدين كثيراً. لكن ذلك قال، والله أعلم، عند إيايس من توحيدهم وإسلامهم. يقول، والله أعلم: ﴿وَلَا يَجْدُلُوكَ﴾ في الدين والتوحيد ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كقوله: ﴿لَا حُبَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] فعلى ذلك قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الآية ٦٩ [وقوله تعالى]: ^(٤) ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيما كُتِبَ فِيهِ تَقَاتُلُونَ. من الدين. وقال: بعض أهل التاويل: هذه الآية منسوخة نسختها آية القتال^(٥) لأن فيها حظراً عن القتال والثرك على ما هم عليه وتسليم الأمر إلى الله، يحكم بينهم يوم القيامة. لكن جائز ما ذكرنا أنه إنما قال ذلك عند الإياس منهم من توحيدهم.

الآية ٧٠ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قد ذكرنا في غير موضع أن حرف ﴿أَلَمْ﴾ حَزَفَ بِتَوَجُّهٍ إلى وجوه: إلى التّعجب مرة وإلى التّنبية والإيقاظ ثانياً وإلى إيضاح الحُجج والبراهين ثالثاً. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الآية ٧١ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ حُججاً وبراهين ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ، ولا سلطاناً، ولا حُجَّةَ لَهُمْ في ذلك، ولا عِلْمَ، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول يُخْبِرُهُمْ، ولا كان لهم كتاب، فَيَعْلَمُونَ بِهِ، فيقول: إنهم يقولون: الله أمرهم بذلك، ولا حُجَّةَ لَهُمْ في ذلك، ولا عِلْمَ.

وفيه أنه إنما بعث الرسل إليهم على علم له منهم أنهم يكذبون الرسل، لأن من الناس من يُنْكِرُ بَعَثَ الرسل إلى من يَعْلَمُ أَنَّهُ يُكْذِبُهُمْ، ويترك إجابته؛ كَمَنْ لَا يَتَعَثَّرُ في الشاهد رسولاً إلى من يَعْلَمُ أَنَّهُ يُكْذِبُهُ، ولا يجيبه. فعلى ذلك يقولون: لا يجوز أن يكون الله يبعث الرسول إلى من يَعْلَمُ أَنَّهُ يُكْذِبُهُ، ولا يجيبه.

لكن الله أخبر أنه على علم منهم بالكذب وترك الإجابة. بَعَثَهُمْ [لا على الجهل حين]^(٦) قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

وأما قولهم: إِنَّ مَنْ عَلِمَ في الشاهد تكذيب المرسل إليه رسوله فإنه لا يَبْعَثُهُ إليه، لأن المرسل إنما يَبْعَثُهُ لِحَاجَةٍ نَفْسِهِ وَمَنَافِعِهِ. فإذا عَلِمَ منه تكذيبه وترك الإجابة له لم يَبْعَثُهُ.

فأما الله ﷻ إنما يُرْسِلُ الرسول لِحَاجَةٍ [المرسل إليه وَمَنَافِعِهِ لا لِحَاجَةٍ]^(٧) نفسه وَمَنَافِعَتِهِ. فلا ضَرَرَ يُلْحَقُهُ في تكذيبه وَجُحُودِهِ. فجائز [أن يكون]^(٨) أَرْسَلَهُ على علم منه بالتكذيب^(٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ قال بعضهم: إِنَّ ذَلِكَ في الكتاب الذي عنده ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول: حِفْظُهُ يَسِيرٌ على الله بِغَيْرِ كِتَابٍ، لا يَضَعُ عَلَيْهِ حِفْظَ شَيْءٍ، لأنه عالم بذاته لا بِسَبَبٍ ولا تَعْلِيمٍ. وإنما يَضَعُ ذَلِكَ على مَنْ كَانَ عِلْمُهُ بِالشَّيْءِ بِسَبَبٍ أو تَعْلِيمٍ.

(١) في الأصل وم: التاويل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: بتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيه دلالة رد قول القدرية حين^(١) قالوا: يُكَذِّبُ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ لا بإرادة الله. فذَكَرَ أَنَّهُ بَعَثَهُمْ^(٢) على علم منه ذلك.

وكذلك روي عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَيَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يُكَذِّبُونَ بِالْقَدْرِ. سَيَكْفِيكُمْ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ أَنْ تَقُولُوا ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾» [السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٤].

وتأويل هذا، والله أعلم، أَنْ يُسْأَلُوا، فَيَقَالَ لَهُمْ: أَرَادَ^(٣) اللَّهُ أَنْ يُصَدِّقَ فِي خَبَرِهِ الَّذِي أَخْبَرَ، أَمْ^(٤) يُكَذِّبُ. فَإِنْ قَالُوا: أَرَادَ أَنْ يُصَدِّقَ فِي خَبَرِهِ^(٥) لَزِمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: أَرَادَ اللَّهُ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْهُمْ. وَإِنْ قَالُوا: أَرَادَ أَنْ يُكَذِّبَ خَبَرَهُ، فَيَكُونُ كُفْرًا مَخْصُصًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ هو ما ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُسَفِّهُهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ دُونَ اللَّهِ بِلا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ وَلَا عِلْمٍ وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ اللَّهِ مَعَ الْحُجَجِ وَالْبُرَاهِينِ وَالْعِلْمِ أَنَّهُ إِلَهُ وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ مُسْتَوْجِبٌ لِلْعِبَادَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يَنْصُرُهُمْ، وَيَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ففِيهِ دَلَالَةٌ لِإِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ لِأَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لِلرُّؤَسَاءِ مِنْهُمْ وَالْقَادَةِ. فَلَمْ يَتَّهِمْ لَهُمْ نَصْرَهُمْ^(٦) بِشَيْءٍ وَلَا رَدُّهُمْ^(٧) مَا قَالَ بِشَيْءٍ. دَلٌّ أَنَّهُ بِاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِنِشَازٍ﴾ ٣٥٢ - ١ / تَحْتَمِلُ الْآيَاتُ الْحُجَجَ وَالْبُرَاهِينَ، وَتَحْتَمِلُ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الْإِنْكَارَ وَأَثَرَ الْعِنَادِ وَالرَّدَّ لِآيَاتِهِ وَالْكَرَاهِيَةَ وَالْبُغْضَ لَهُ ﴿بَكَادُوكَ يُسْطَوْنَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وَشِدَّةِ تَعَتُّيهِمْ وَعُتُوهُمْ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْآيَاتِ عَلَيْهِمْ وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿بَكَادُوكَ يُسْطَوْنَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ يَسْطَوْنَ: قِيلَ: يَأْخُذُونَ أَخْذًا، وَقِيلَ: [يَبْطِشُونَ بَطْشًا].

وقال: الْقَتْبِيُّ: ﴿بَكَادُوكَ يُسْطَوْنَ﴾ قَدْ يَتَأَلَوْنَهُمْ بِالْمَكْرُوهِ مِنَ الشُّمِّ وَالضَّرْبِ.

وقال أبو عوسجة: ﴿بَكَادُوكَ يُسْطَوْنَ﴾ أَيِ يُوقِعُونَ بِهِمْ، يُقَالُ: سَطَا يُسْطَوُ^(٩) سَطْوَةً، وَرَجُلٌ ذُو سَطْوَةٍ وَيَطْشُهُ أَيِ ذُو قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ. قَالَ: وَيُقَالُ: سَطَوْتُ بَفْلَانٍ، أَيِ أَخَذْتُهُ أَخْذًا شَدِيدًا، أَوْ بَطَشْتُ بِهِ كَذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرِّ مَنِ ذَلِكُمْ أَتَارُ﴾ ظَاهِرُ الْآيَةِ لَيْسَ بِجَوَابٍ لِمَا تَقَدَّمَ، وَلَا صِلَتُهُ، وَلَيْسَ عَلَى الْإِنْتِدَاءِ، وَلَكِنْ عَلَى نَازِلَةٍ وَأَمْرٍ كَانَ مِنْهُمْ، لَمْ يَذْكُرْ لَنَا ذَلِكَ.

فَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فَقَالُوا: إِنَّمَا نَزَلَتْ جَوَابًا لِمَا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا صَحَابِيهِ حِينَ^(١٠) قَالُوا: مَا نَعْلَمُ قَوْمًا أَشَقَى مِنْكُمْ حِينَ رَأَوْهُمْ، قَدْ [حُظِرَتِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ]^(١١)، لَمْ يُعْطُوا مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا، فَتَزَلَّ جَوَابًا لَهُمْ ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرِّ مَنِ ذَلِكُمْ أَتَارُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مَنِ ذَلِكُمْ مَثُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ [المائدة: ٦٠].

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى ضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَالْحَاجَةَ إِلَيْهَا. وَذَلِكَ أَنَّ الْعُقُولَ يَجُوزُ أَنْ يَغْتَرِّضَهَا^(١٢) مَا يَسْتُرُ عَلَيْهَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَيَحْجُبُ عَنْهَا إِدْرَاكَ الْحَقِّ. فَضَرْبَ الْأَمْثَالِ لِيَرْفَعَ عَنْهَا ذَلِكَ الْحِجَابَ وَالسُّتْرَ لِيُذَكِّرَ الْعُقُولَ سَبِيلَ الْحَقِّ. وَإِلَّا لَمْ يَجْزِ إِلَّا تَذَكُّرُ الْعُقُولِ لِمَا جُعِلَتِ الْعُقُولُ [مِمَّنْ يُذَكِّرُ]^(١٣) الْحَقِّ. لَكِنْ يَمْنَعُ عَنْ ذَلِكَ الْحَقِّ وَسَبِيلِهِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ اغْتِرَاضِ السُّوَاوِيرِ وَالْحُجُبِ، فَيُسْتَكْشَفُ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَمْثَالِ. ثُمَّ فِي هَذَا الْمَثَلِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: يُخْبِرُ عَنْ تَسْفِيهِ أَخْلَاقِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ أَضْعَفِ خَلْقٍ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا دُبَابًا وَلَوْ أَحْجَمَعُوا لَهُ﴾ وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ مَنْ هُوَ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) أَدْرَجْتَ فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَ ذَلِكَ. (٣) هَمْزَةُ الْاسْتِفْهَامِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: خَيْرُهُمْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: نَصَرَهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: رَدَّهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَظَرَ الدُّنْيَا. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْتَرِضُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَنْ ذَكَرَ.

والثاني: يُخْبِرُ عَنْ قَطْعِ مَا يَأْمُلُونَ، وَيُظَمَعُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿وَلَنْ يَسْلُطَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ﴾ وَيَتْرَكُونَ عِبَادَةً مَنْ يُؤْمَلُ مِنْهُ، وَيُظَمَعُ كُلُّ خَيْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفِيدُوا لَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَجِيبُوا لَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَمِعُوا لَهُ اسْتِمَاعَ مَنْ يَنْظُرُ، وَيَأْمَلُ الْحَقَّ، وَيَقْبَلُهُ [لَا اسْتِمَاعَ]^(٢) مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَى الْحَقِّ، وَلَا يَقْبَلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَدْعُونَ﴾ أَي تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. وَقَالَ [بَعْضُهُمْ]^(٣): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [لَا]^(٤) عَلَى الدَّعَاءِ، أَي تُسَمِّنُهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ الْأَمْرَانِ جَمِيعاً: الْعِبَادَةُ لِلْأَصْنَامِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتَسْمِينُهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَعَسُوا لَهُ﴾ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ تَسْفِيهِ أَخْلَاصِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ لَا يَمْلِكُ خَلْقَ أَضْعَفِ خَلْقِ اللَّهِ وَعَجْزِهِمْ عَمَّا يَأْمُلُونَ مِنَ النَّفْعِ وَعَنْ دَفْعِ مَنْ يَرُومُ بِهِمُ الضَّرَرَ وَالسَّلْبَ مَا ذَكَرَ مِنْهَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ضَعُفَ الطَّلِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّالِبُ الصَّنَمُ، وَالْمَطْلُوبُ، هُوَ الذُّبَابُ لَكِنْ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يُضْمَرُ فِيهِ: لَوْ، أَي ضَعُفَ الصَّنَمُ، لَوْ كَانَ طَالِباً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّالِبُ هُوَ الذُّبَابُ، وَالْمَطْلُوبُ، هُوَ الصَّنَمُ. فَإِنْ قِيلَ: وَصَفَهُمَا جَمِيعاً بِالضَّعْفِ: الذُّبَابُ وَالصَّنَمُ جَمِيعاً عَلَى تَأْوِيلِهِمْ؛ أَعْنِي هُؤَلَاءِ.

فَالصَّنَمُ ضَعِيفٌ عَاجِزٌ عَمَّا وَصَفَ. وَأَمَّا الذُّبَابُ فَهُوَ لَيْسَ بِضَعِيفٍ لِأَنَّهُ غَلَبَ ذَلِكَ الصَّنَمُ، وَإِنْ كَانَ طَالِباً أَوْ مَطْلُوباً. فَكَيْفَ وَصَفَهُ بِالضَّعْفِ، وَهُوَ^(٥) الْغَالِبُ عَلَيْهِ فِي الْحَالَيْنِ؟

لَكِنَّهُ كَانَ [أَزْجَعَ قَوْلَهُ]^(٦) ﴿ضَعُفَ الطَّلِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ إِلَى الْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ، كَانَهُ قَالَ: ضَعُفَ الْعَابِدُ عَمَّا يَأْمَلُ، وَيُظَمَعُ مِنْ عِبَادَتِهِ إِيَّاهُ، وَضَعُفَ الْمَعْبُودُ عَنْ إِيفَاءِ مَا يُؤْمَلُ، وَيُظَمَعُ مِنْهُ. فَهَذَا كَانَهُ أَشْبَهَ وَأَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنَ التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ أَي مَا عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. قَالُوا لَهُ الشَّرِيكَ وَالْوَلَدُ وَالصَّاحِبَةُ. [وَمَا]^(٧) قَالُوا فِيهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَنْسِبُوا إِلَيْهِ، وَلَا وَصَفُوهُ بِالذِّي وَصَفُوهُ، وَعَرَفُوهُ^(٨) بِذَاتِهِ وَتَعَالِيهِ عَنْ ذَلِكَ. لَكِنْ حِينَ^(٩) لَمْ يَعْرِفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ شَبَّهُوهُ بِوَاحِدٍ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ أَي مَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ حِينَ^(١٠) صَرَفُوا الْعِبَادَةَ وَالشُّكْرَ إِلَى غَيْرِهِ؛ إِذْ لَوْ عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ مَا صَرَفُوا عِبَادَتَهُمْ وَشُكْرَهُمْ إِلَى غَيْرِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَشْرَكُوا غَيْرَهُ فِي ذَلِكَ عَلَى عِلْمِهِمْ أَنَّهُ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ تِلْكَ النِّعَمُ مِنَ اللَّهِ لَا يَمُنُّ عَبْدُهُ، وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالصَّوَابُ.

ثُمَّ يَكُونُ تَعْظِيمُهُ وَمَعْرِفَتُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِتَعْظِيمِ أُمُورِهِ وَقَبُولِهَا وَالْقِيَامَ بِهَا، لَا فِي قَوْلِهِ: يَا عَظِيمُ، يَا كَبِيرُ وَنَحْوُهُ. وَلَكِنْ عَلَى مَا ذَكَرْتُ مِنْ تَعْظِيمِ أُمُورِهِ وَقِيَامِهِ بِهَا. وَكَذَلِكَ الْمَحَبَّةُ لِلَّهِ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِهِ وَإِقْبَالِهِ نَحْوَهَا وَالْإِنْتِهَاءَ عَنْ مَنَاهِيهِ لَا فِي مَا فِي قَوْلِهِ: أَنَا حَبِيبُكَ، أَوْ تَصَوِيرِ شَيْءٍ فِي قَلْبِهِ. وَلَكِنْ مَا ذَكَرْتُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَجَعْلِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ ﴿عَزِيزٌ﴾ أَي مُنْتَصِرٌ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَوْ يَقُولُ: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ لِأَنَّهُ تَضَعُفُ كُلُّ الْقُوَى عِنْدَ قُوَّتِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ تَذِلُّ كُلَّ الْعِزِّ عِنْدَ عِزَّتِهِ. أَوْ يَقُولُ: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ لِأَنَّهُ بِهِ يَقْوَى مَنْ قَوِيَ، وَمَنْ يَسْتَفِيدُ الْقُوَّةَ^(١١) ﴿عَزِيزٌ﴾ لِأَنَّهُ بِهِ يَعْزُّ مَنْ عَزَّ^(١٢)، وَمَنْ كَانَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمَعْنَاهُ إِذَا ظَهَرَ لَهُ الْاسْتِمَاعُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهُوَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: رَجَعَ قَوْلُ. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَمَعْنَاهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَرَفُوا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَلِكَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَزَتِهِ.

الآية ٧٥

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أَي اخْتَارَ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي بَعْضِ مَا امْتَحَنَهُمْ. وَيَحْتَمِلُ ﴿يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ إِلَى الرُّسُلِ مِنَ الْإِنْسِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أَي اخْتَارَ مِنْهُمْ؛ أَعْنِي مِنَ النَّاسِ رُسُلًا إِلَى الْإِنْسِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ [وهو^(١)] كَقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بَصِيرٌ﴾ بِمَنْ يَضْلُحُ لِلرَّسَالَةِ وَمَنْ لَا يَضْلُحُ، وَ ﴿بَصِيرٌ﴾ بِمَنْ اخْتَارَ لَهَا وَمَنْ لَمْ يَخْتَرْ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِمَا يَتَلَقَّى الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ الرُّسُولُ مِنَ الْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ وَالرَّدِّ وَالتَّكْذِيبِ. وَإِنَّهُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِالرَّدِّ وَالتَّكْذِيبِ لِلرُّسُلِ.

وفيه دلالة أنه إنما اضطفاهم للرَّسَالَةِ لَا بِشَيْءٍ، يَسْتَوْجِبُونَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِفْضَالًا مِنْهُ.

الآية ٧٦

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَي يَعْلَمُ مَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بَعْدَمَا خَلَقَهُمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: يَعْلَمُ بِأَوَائِلِ أُمُورِهِمْ وَبِأَوَاخِرِهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الْآخِرَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الدُّنْيَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وَمَا عَمِلُوا بِأَنْفُسِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مَا سَنُوا لِغَيْرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿عَلِمْتُ نَفْسِي مَا قَدَّمْتُ وَآخَرْتُ﴾ [الأنفطار: ٥] ﴿مَا قَدَّمْتُ﴾ مَا عَمِلُوا هُمْ، وَمَا ﴿وَآخَرْتُ﴾ مَا سَنُوا لِغَيْرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَا عَلَى حَقِيقَةٍ: بَيْنَ الْأَيْدِي، وَلَا خَلْفَ. وَلَكِنْ [على التمثيل، أي^(٢)] لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ.

[وقوله تعالى: ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ / ٣٥٢ - ب/ قد ذَكَرْنَا مَعْنَاهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٧٧

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَسُجِدُوا وَعِبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْبَلُوا الْخَيْرَ﴾ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِيمَانَ، هُوَ شَيْءٌ خَاصٌّ، وَشَيْءٌ وَاحِدٌ، لَا اسْمُ جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ، وَهُوَ التَّضَدِيقُ، لِأَنَّهُ أَثَبَّتَ لَهُمْ اسْمَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْمُخَاطَبِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَرَفُوا مَنْ خُوطِبَ بِهَا. فَلَوْ كَانَ أَسْمَاءُ لِجَمِيعِ الْخَيْرَاتِ لَكَانَ لَا يُعْرَفُ الْمُخَاطَبُ بِهَا، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ وَاحِدٌ عَلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ. فَذَلِكَ أَنَّهُ شَيْءٌ مَعْرُوفٌ خَاصٌّ مِمَّا يُرْجَعُ صَاحِبُهُ إِلَى حَدِّ الْمَعْرِفَةِ حِينَ^(٣) عُرِفَ الْمُخَاطَبُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَرْكَعُوا وَسُجِدُوا وَعِبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْبَلُوا الْخَيْرَ﴾ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنْ اجْعَلُوا رُكُوعَكُمْ وَسُجُودَكُمْ وَعِبَادَتَكُمْ عِبَادَةً لِلَّهِ، لَا تُشْرِكُوا فِيهَا غَيْرَهُ عَلَى مَا أَشْرَكَ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدُوهَا.

وَالثَّانِي: اعْبُدُوا رَبَّكُمْ بِالْأَسْبَابِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي عَرَفْتُمْ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَكَذَلِكَ أَفْعَلُوا الْخَيْرَاتِ الَّتِي عَرَفْتُمْ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ. وَالثَّلَاثُ: أَنْ اجْعَلُوا أَحْوَالَكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ وَحَرَكَةٍ وَسُكُونٍ عِبَادَةً لِلَّهِ، وَاجْعَلُوا تَقَلُّبَكُمْ أَيْضًا لِلْمَعَاشِ الَّذِي أُبِيحَ لَكُمْ، وَأُذِنَ فِيهِ، عِبَادَةً لِلَّهِ تَعَالَى.

فَالْأَوَّلُ: هُوَ عِبَادَةٌ بِتَقْيِيدِهِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ نَصًّا. وَالثَّانِي: هُوَ الَّذِي يُصَيِّرُهُ عِبَادَةً بِالنِّيَّةِ وَالْقَصْدِ. فَيَكُونُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مُؤَدِّي عِبَادَةٍ.

وَهَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ فِي جَمِيعِ مَا يُؤَدِّي مِنَ النَّوَافِلِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِهِ مُؤَدِّي قَرَضٍ؛ وَهُوَ أَنْ يُؤَدِّيَ جَمِيعَ ذَلِكَ نِيَّةً الشُّكْرِ لِنِعْمِهِ وَتَكْفِيرًا لِمَعَاصِيهِ. وَكِلَاهُمَا لِأَزْمَانٍ وَاجِبَانِ. فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مُؤَدِّي لَازِمٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.

وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكْتُكُمْ قُلُوبَكُمْ﴾ ظاهرة خَرَجَ عَلَى التَّرَجِي، وفي الحقيقة على الوجوب على ما ذكرنا في ما تقدم.

الآية ٧٨

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ليس لحق غاية يوصل إليها. وكذلك قوله: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] لأنه لو كان لحقه غاية لكان الرسل والملائكة يقومون بوفاء ذلك، ويتوهم منهم المجاوزة عن ذلك؛ إذ كل ذي حد وغاية تتوهم المجاوزة فيه. فإن لم يَحْتَمِلِ المجاوزة دل أن حقه ليس بذي حد وغاية. ويكون تأويل قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وقوله^(١): ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ حقه الذي احتمل وسعكم وبنيكم وطاعتكم كقوليه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فيكون هذا تفسيراً لقوله: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ وقوله^(٢): ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي جاهدوا في أنفسكم في شهواتها وأمازيها، أو جاهدوا أعداء الله في دفع الوسواس والمُحَارَبَةِ مَعَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْبَتَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ﴿هُوَ أَعْبَتَكُمْ﴾ للإيمان والهدى والتوحيد.

[والثاني]^(٣): ﴿هُوَ أَعْبَتَكُمْ﴾ جنساً من أفضل الأجناس وأكرمهم من بين سائر الأجناس كقوليه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْآلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال عامة أهل التأويل في قوله: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي وحدوا ربكم؛ اجعلوا كل عبادة مذكورة في الكتاب توحيداً. فيكون ذكر العبادة هنا كقوليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] كأنه قال: يا أيها الذين آمنوا وحدوا ربكم.

ثم اختلف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ قال بعضهم: فيه وجوب سجدة التلاوة على ذلك، وهي في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدةٍ على غيرها من السور. فمن لم يسجدْها فلا يقرأها» [بنحوه الموطأ ٢٠٥/١ و ٢٠٦] وكذلك روي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها، فسجد فيها مرتين، ثم قال ما ذكرنا.

وتأويله عندنا أن قوله: «فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدةٍ» السجدة^(٤) التي هي من صلب الصلاة^(٥)، وسجدة التلاوة في أول السورة^(٦). فمن لم يسجدْها فلا يقرأها.

وأصله في وجوب سجدة التلاوة أن كل سجود في القرآن للخضوع لله فهو واجب للتلاوة لازم له. وكل سجود كان الأمر به لحق سجود الصلاة فإنه لا تلزمه السجدة بالتلاوة^(٧). فالأمر بالسجود في قوله: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أمر بسجود الصلاة، لا غير. لم يلزم تاليه السجود بالتلاوة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ تأويله وجوهاً:

أحدها: أن عليهم معرفة وُحْدَانِيَةِ اللَّهِ والوَهْبِيَّةِ وتعالیه عن الأشياء والشركاء، وعليهم معرفة نعيمه والقيام بشكرها له والخضوع له في كل وقت، وإن [لم]^(٨) يبعث الرسل.

ولكنه بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ بَعَثَ إليهم الرسل ليكون أبسر عليهم معرفة ذلك وأهون، والقيام بأداء ذلك أخف، لأن معرفة الأشياء بالسمع من لسان الصديق والعذل أبسر، والإدراك أهون من معرفتها بالنظر والتفكير، وهو ما قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

أخبر أنه لولا فضله ورحمته في بعث الرسل لاتبعوا الشيطان إلا قليلاً. والقليل الذين استثناهم الذين يتفكرون، وينظرون، فيعرفون بالتفكير والنظر، وذلك لا يعرف إلا بجهد وتكليف.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من م. (٥) المقصود بها الآية: ٧٧. (٦) المقصود بها الآية: ١٨. (٧) في الأصل وم: للتلاوة. (٨) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ولكن بَعَثَ إِلَيْكُمُ الرِّسْلَ لِيَكُونَ أَوْضَحَ لِسَبِيلِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَتِهِ. وَإِنْ كَانَ لَهُ الْآلَا يُزِيلُ، وَيُكَفِّرُ ذَٰلِكَ بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ.

والثاني: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [في قَطْعِ مَا] ^(١) تَقَعُ لَكُمْ الْحَوَائِجُ وَتَحْرِيمُ كُلِّ أَنْوَاعِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَاللَّبَاسِ عَلَيْكُمْ، لَكِنَّهُ إِذَا حَرَّمَ نَوْعًا مِنْهَا أَبَاحَ آخَرَ بِإِزَائِهِ مِمَّا يَسُدُّ بِهِ حَاجَتَهُ، وَيُزِيحُ بِهِ عَلَّتَهُ. وَلَوْ حَرَّمَ كُلَّ أَنْوَاعِهَا كَانَ [ذَٰلِكَ] ^(٢) حَرَجًا فِي الدِّينِ وَضِيقًا.

والثالث: لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْفَرَائِضِ الَّتِي كَلَّفَهُمْ بِهَا وَالْقِيَامَ بِأَدَائِهَا مَا لَا يَحْتَمِلُ وَسْعُهُمْ وَلَا بُيُوتُهُمْ، وَلَا حَمْلَ عَلَيْهِمْ أُمُورًا شَاقَّةً خِلَافَ مَا عَلَيْهِمْ طِبَاعُهُمْ وَأَمْرُ مَعَاشِهِمْ. وَلَكِنْ كَلَّفَهُمْ بِعِبَادَاتٍ، اخْتَمَلَ بِهَا وَسْعُهُمْ وَبُيُوتُهُمْ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ أُمُورًا غَيْرَ شَاقَّةٍ مُوَافِقَةً لِمَا عَلَيْهِمْ أَمْرُ مَعَاشِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَإِنْ تَعَدَّ، وَنَأَى عَنْهُمْ.

والرابع: أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ تَوْبَتَهُمْ عَمَّا ارْتَكَبُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمَأْتِمِ قَتْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَإِهْلَاكَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى مَا جَعَلَ ذَٰلِكَ بِقَوْمٍ [حِينَ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ] ^(٣): ﴿فَتَوْبَتِي إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْلُبُوا أُنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وَلَوْ كَلَّفَ ذَٰلِكَ كَانَ حَرَجًا فِي الدِّينِ وَامْتَالًا ذَٰلِكَ.

والخامس: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أَيِ مِنْ شَكٍّ وَشُبُهَةٍ، أَوْ قَدْ أَزَاحَ عَنْكُمْ الشُّبُهَةَ وَالشَّكَّ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الَّتِي أَقَامَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَهَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى ^(٤) الْأَمْرِ أَنْ الزُّمُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ.

والثاني: أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ هُوَ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَنَكُمُ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ اخْتَلِفَ فِيهِ. قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: قَوْلُهُ: ﴿هُوَ سَنَكُمُ السُّلَيْمِينَ﴾ أَيِ اللَّهِ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِبْرَاهِيمُ ﴿هُوَ سَنَكُمُ السُّلَيْمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ حِينَ ^(٥) قَالَ: ﴿وَوَعْنِي بِهِمَا إِبْرَاهِيمُ نَبِيَّهُ وَتَعْقُوبُ بَنِيُّ إِبْنِ اللَّهِ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَشْرُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وَرَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَقَدْ دَعَا لَهُ وَلِدْرِيَّتُهُ بِذَٰلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أَيِ فِي الْقُرْآنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فِي الْأَمَمِ الَّذِينَ كَانُوا / ٣٥٣ - ١/ مِنْ قَبْلُ، لِأَنَّهُ مَا مِنْ قَوْمٍ وَأُمَّةٍ إِلَّا وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مُتَّسِمُونَ بِهَٰذَا الْإِسْمِ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ فِي قَوْمِهِ، أَيِ ^(٦) كُنْتُمْ مُتَّسِمِينَ ^(٧) بِهَٰذَا الْإِسْمِ فِي الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ كَقَوْلِهِ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أَيِ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فِي الْأَمَمِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ أَنَّهَا تَخْرُجُ فِي هَٰذَا الْوَقْتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِمَعْنَى: لَكُمْ. وَذَٰلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا دُيْعَ عَلَى النَّعْصِ﴾ [المائدة: ٣] أَيِ لِلنَّعْصِ. فَعَلَى ذَٰلِكَ جَائِزٌ فِي هَٰذَا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أَيِ لَكُمْ.

وَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: يَكُونُ الرَّسُولُ لَكُمْ شَهِيدًا بِالتَّصَدِيقِ لَهُ ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بِالتَّصَدِيقِ لِرَسُولِ اللَّهِ إِذَا صَدَقْتُمْ إِيَّاهُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ تَأْوِيلُهُ: يَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ إِذَا خَالَفْتُمُوهُ، وَلَمْ تُصَدِّقُوهُ، ﴿وَتَكُونُوا﴾ أَنْتُمْ إِذَا صَدَقْتُمْ رَسُولَكُمْ، وَوَافَقْتُمُوهُ ﴿شُهَدَاءَ عَلَى﴾ سَائِرِ ﴿النَّاسِ﴾ إِذَا كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُ، وَخَالَفُوهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ اتِّفَاقِ قَرْنٍ حُجَّةٍ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ حِينَ ^(٨) جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَمَنْ قَبْلَهُمْ. وَقَدْ ذَكَرْنَا تَأْوِيلَ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ^(٩).

(١) فِي الْأَصْلِ: قَطَعَ مَا لَمْ، فِي م: قَطَعَ مَا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالُوا لَهُمْ. (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَنْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مُتَّسِمُونَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) الْآيَةُ: ٨٤.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فإذا أَرَادَ الصَّلَاةَ الْمَعْرُوفَةَ وَالزَّكَاةَ الْمَعْرُوفَةَ ففي الأمر بإقامة الصلاة أمرٌ بإصلاح [ما] ^(١) بينهم وبين ربهم، وفي الزكاة [أمرٌ بإصلاح] ^(٢) ما بينهم وبين الخلق كقوله: ﴿لَا تَكُنِ الصَّكَاةَ تَتَعَلَّى عَيْنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي حرف عبد الله بن مسعود: إن الصلاة تأمر بالعدل، وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ قال بعضهم: بدين الله، وهو ما ذكرنا في ما تقدم ذكره من قوله: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إلى ما ذكر فكانه يقول: اغتصموا بالذي ذكر.

وأصل الاعتصام هو الإلتجاء إليه. فكانه قال: اغتصموا به من كل ما نهى عنه من الشرور وبكل ما أمر به من الخير.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ قال الحسن: هو مولى كل من تولاّه بالطاعة. وقال بعضهم: المولى النصير أي هو ناصركم وحافظكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ المانع والنصير المتصير: يتصير لهم من أعدائهم، ويتمتع عنهم الأعداء. وجائز أن يكون قوله: ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي ربكم وسيدكم كما يقال: المولى العبد، هذا مولاه وسيداه، والله أعلم. ويكون في قوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنه قد بلغكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأن الرسول قد بلغكم.

قال أبو عوسجة: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤] أي ما عرفوا الله حق معرفته. يقال في الكلام: ما قدرتك حق قدرك، أي ما عرفتُك، وقالوا: الحرج الضيق ^(٣) في هذا، وفي غير هذا الموضع قيل: هو شك في قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي سَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] أي شك. والضيق إنما يكون من الشك، إذا شك في شيء ضاق صدره منه.

قال أبو معاذ: وأصل الحرج في كلام العرب: شجر من شوك ملتفت، والواحدة حرجة، منه حرجة سلم، وقوله: ﴿هُوَ اجْتَنَبَكُمْ﴾ أي اختاركم. وفي حرف ابن مسعود وأبي: هو اجتباكم، وسماكم المسلمين من قبل. وهذا يؤيد تأويل من يقول: هو سماكم المسلمين، أي الله سماكم.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قال: لم يفرض الله على هذه الأمة شيئاً إلا جعل فيه رخصة لهم عند الاضطراب مثل التيمم إذا لم تجد ماء، [وأن] ^(٤) تصلي قاعداً أو مضطجعا في المرض، وتفطر إذا كنت مريضاً. في نحو هذا ليست فريضة إلا فيها رخصة، ولم يكن من قبل ذلك، وهو قول مقاتل بن حيان.

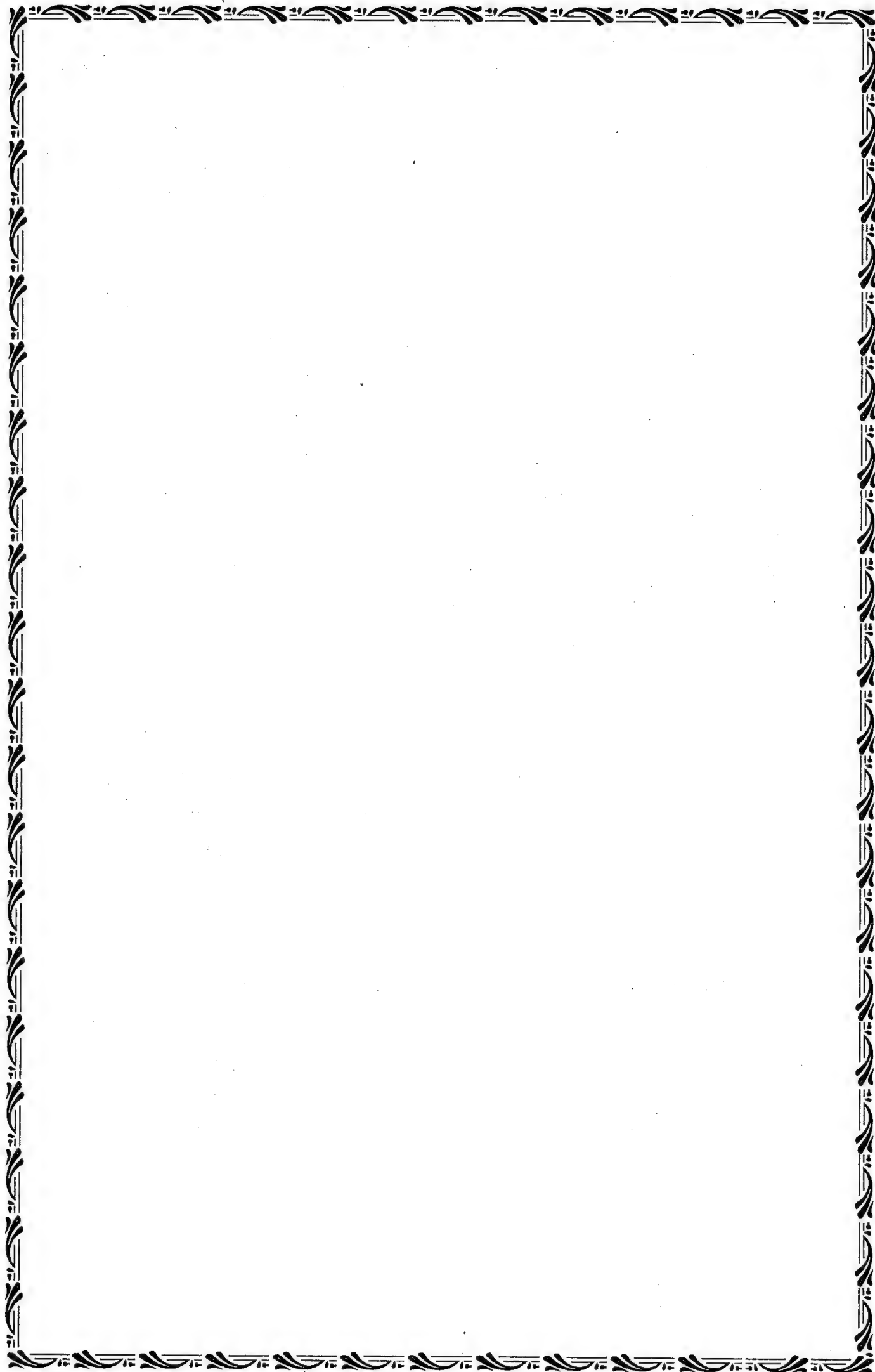
وقال قتادة: قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق. قال: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً، لم يغطها إلا نبي: كان يقال للنبي: ادع فليس عليك حرج، وقال الله لهذه الأمة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكان يقال للنبي: أنت شهيد على قومي، وقال الله لهذه الأمة: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكان يقول للنبي: سل نعطه، وقال الله [لهذه] ^(٥) الأمة ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال بعضهم: في قوله: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا لله كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] يقول: صلوا لا يصلون.

وقال قتادة: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ قال: لا صلاة إلا بركوع، وإن أقواماً أخذوا بدعاً، يسجد أحدهم ومئة سجدة لا يركع فيها. وكان يقال: مما أخذت الناس رُفَع الأيدي في الدعاء والأصوات عند المسألة والإختصار في السجود. وقال أبو هريرة: لا يصلح سجدة إلا بركوع. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.



(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إصلاح. (٣) في الأصل وم: الضيق. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.



سورة المؤمنون

وهي مكية أيضاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الفلاح هو البقاء، أي بقي المؤمنين، وقال قائلون: الفلاح السعادة. وقال [آخرون]^(١): الفلاح الفوز وأمثاله.

وفي^(٢) قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر ما ذكر دلالة أن من المؤمنين من [لم يكن]^(٣) بهذا الوصف الذي وصف هؤلاء، وأن اسم الإيمان يقع بدون الذي ذكر^(٤)، لأنه لو لم يكن لذكر ما ذكر من الخشوع في صلاتهم والحفظ لفروجهن والإعراض عن اللغو مغنى، دل أنه يكون مؤمناً بغير الوصف الذي وصف هؤلاء. وكذلك في قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَنْبًا عَدِلَ نِكَاحُ﴾ [الطلاق: ٢] وقوله: ﴿وَمَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فدل أن فيهم من ليس يعدل، وفيهم من لا يرضى في الشهاداء حين^(٥) خص العدل والمرضي في الشهادة.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال الحسن: الخشوع، هو الخوف الدائم اللازم في القلب. وقال غيره: الخشوع في القلب.

وأصل الخشوع، هو آثار دُل من خوف يظهر في الوجه والجوارح كلها. ولذلك قال بعضهم^(٦): الخشوع في الصلاة، هو ألا يعرف من عن يمينه وشماله، لأن ذلك يشغله عن العلم [بما يتلو]^(٧). وأصله ما ذكرنا، والله أعلم.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْضَوْنَ﴾ اللغو كانه اسم كل باطل، واسم كل ما يلغى، ولا يغبأ به. أخبر أنهم يَرْضَوْنَ عن كل باطل وعن كل ما نهوا عنه، ويقبلون على كل طاعة وكل^(٨) ما أمروا به.

الآية ٤

[وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ تحتل الزكاة الزكاة التي بها تزكو أنفسهم عند الله. وجائز [أن تكون]^(٩) الزكاة المعروفة المعهودة، أخبر أنهم/ ٣٥٣ - ب/ فاعلون ذلك مؤدبون.

وجائز أن يكون ذكر هذا من المؤمنين [إخباراً عن طاعتهم]^(١٠) لله تعالى والإلتزام لأمره والرضا به مقابل ما كان من المنافع من الكراهية في الإنفاق والصلاة على الكسب والمراة كقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاةً يُؤَذِّنُ النَّاسَ﴾ الآية [النساء: ١٤٢] وقوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقوله^(١١): ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧] نعتهم بالكسل والخلاف وترك الإنفاق والمراة في الطاعات. ونعت المؤمنين بضد ذلك وبالرغبة في أوامره والانتهاز عن معاصيه ونواهي.

الآيتان ٥ و ٦

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [إلا على أزواجهن أو ما ملكن إيتنهن] استثنى في هذا، لأن هذا مما يحل في حال، ويحرم في حال. وأما اللغو وما ذكر فلا^(١٢) يحل بحال، واللغو حرام في الأحوال كلها، وكذلك ترك أداء الأمانة والزكاة والصلاة مما لا يحل تركه بحال.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هؤلاء. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: في الآية. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بعض. (٧) في الأصل وم: بمن بابه. (٨) في الأصل وم: وبكل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: من الطاعة. (١٢) في الأصل وم: وقولهم. (١٣) في م: من أول الآية إلى آخرها لا.

[قال^(١)]: ﴿مِنْ مَّكْمَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ونحوه، وهو آدم عليه السلام وذلك على تفسير الأحوال، والله أعلم بالصواب.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُفًا﴾ أي ثم خلقنا ولدَهُ ودُرَيْتَهُ مِنْ نُفُفَةٍ. أَخْبَرَ [عن^(٢)] أَصْلَ مَا خَلَقَ آدَمَ مِنْهُ، وَأَصْلَ مَا خَلَقَ وَلَدَهُ مِنْهُ، وَهِيَ النُّفُفَةُ.

وقوله تعالى: ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّجْمُ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْقَرَارُ هُوَ صُلْبُ الرَّجُلِ، لِأَنَّ النُّفُفَةَ لَا تُخْلَقُ فِي الصُّلْبِ أَوَّلَ مَا يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ، وَلَكِنْ تُجْعَلُ فِيهِ مِنْ بَعْدُ. فَيَكُونُ الصُّلْبُ قَرَارًا وَمَكَانًا إِلَى وَقْتِ خُرُوجِهَا مِنْهُ إِلَى الرَّجْمِ. وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَتَرْتُ وَمُتَوَدِّعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] الرَّجْمُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُسْتَقَرُّ الرَّجْمُ، وَالْمُسْتَوْدَعُ الصُّلْبُ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَا جَمِيعًا وَاحِدًا، أَيُّهُمَا كَانَ الرَّجْمُ أَوْ الصُّلْبُ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا قَرَارٌ، وَمَا يَسْتَوَعِبُ فِيهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: السُّلَالَةُ صَفْوَةُ الْمَاءِ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عَاقَةً﴾ وَالنُّفُفَةُ هِيَ الْمَعْرُوفَةُ. وَالْعَاقَةُ: الدَّمُ^(٣). وَالْمُضْغَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ يُخْبِرُهُمْ عَنْ تَحْوِيلِهِ إِيَّاهُمْ وَتَقْلِيْبِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ لِيُوجِبَ:

أَخْذُهَا: يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعِلْمِهِ وَتَذْيِيرِهِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِنْشَاءِ الْعَاقَةِ مِنَ النُّفُفَةِ، مَا لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ جَمِيعًا عَلَى أَنْ يَعْرِفُوا سَبَبَ خَلْقِ هَذَا مَعَ إِحَاطَةِ عِلْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ فِيهَا مِنْ آثَارِ الْعَاقَةِ شَيْءٌ، مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى ذَلِكَ جَمِيعٌ مَا ذَكَرَ [الْعَاقَةُ مِنَ النُّفُفَةِ]^(٤) وَالْمُضْغَةُ مِنَ الْعَاقَةِ، وَالْعَظْمُ مِنَ الْمُضْغَةِ، وَالْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، يُخْبِرُ^(٥) أَنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ.

فَمَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْشَائِهِمْ مِنَ الْأَصْلِ مِنْ لَا شَيْءٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى إِحْيَائِهِمْ بَعْدَ مَا صَارُوا تَرَابًا. وَالْأَعْجَبُ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِمَّا ذَكَرَ مِنَ النُّفُفَةِ وَالْعَاقَةِ وَالْمُضْغَةِ، لَيْسَ بَدُونِ خَلْقِهِ إِيَّاهُمْ مِنَ التَّرَابِ مِنَ الرَّجْوِ الَّذِي ذَكَّرْنَا.

وَالثَّانِي^(٦): فِيهِ دَلَالَةٌ عِلْمِهِ الذَّاتِيِّ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى تَحْوِيلِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى الْحَالِ^(٧) الَّتِي ذَكَرَ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ دَلَّ أَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، لَا يَعْلَمُ مُسْتَفَادٍ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا قُوَّةَ مُكْتَسَبَةٍ، وَلَكِنَّهُ بِالْعِلْمِ الذَّاتِيِّ وَالْقُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ، لِأَنَّ مِنْ عِلْمِهِ يُسْتَفَادُ، وَمِنْ قُوَّتِهِ يُسْتَفَادُ وَيُكْتَسَبُ، لَا يَبْلُغُ أَحَدًا^(٨) ذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُ^(٩): فِيهِ دَلَالَةٌ تَذْيِيرِهِ لِمُخْرَجِ الْخَلْقِ جَمِيعًا وَتَوَالِدِهِمْ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ إِلَى آخِرِ مَا يَنْتَهَوْنَ عَلَى جَزِيٍّ وَاحِدٍ وَسَنٍ وَاحِدٍ عَلَى غَيْرِ تَغْيِيرٍ فِي التَّوَالِدِ وَالتَّنَاسُلِ الَّذِي جَعَلَ فِيهِمْ.

وَكَذَلِكَ جَمِيعٌ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ النَّبَاتِ وَمِنَ الْأَشْجَارِ الْأَوْرَاقُ فِي كُلِّ عَامٍ وَفِي كُلِّ سَنَةٍ، يَخْرُجُ عَلَى جَزِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَسَنٍ وَاحِدٍ، لَا يَتَغَيَّرُ، وَلَا يَتَفَارَقُ وَقْتُ خُرُوجِهِ. بَلْ عَلَى تَقْدِيرٍ وَاحِدٍ وَمِيزَانٍ وَاحِدٍ. دَلَّ أَنَّهُ عَلَى تَذْيِيرِ ذَاتِ خَرَجٍ، لَا عَلَى الْجُزَافِ. وَبِاللَّهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ.

وَالرَّابِعُ^(١٠): فِي مَا ذَكَرَ مِنْ تَحْوِيلِهِ إِيَّاهُمْ وَتَقْلِيْبِهِمْ^(١١) مِنْ حَالٍ إِلَى [حَالٍ]^(١٢) دَلَالَةٌ أَنَّهُ لَمْ يَنْشِئْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّ مَنْ أَنْشَأَ مِنَ الْعَالَمِ سِوَاهُمْ إِنَّمَا أَنْشَأَهُ لَهُمْ، وَأَنْشَأَ أَنْفُسَهُمْ لِعَاقِبَةٍ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ أَنْشَأَ إِيَّاهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلْفَنَاءِ الَّذِي ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَنُتَوْنَ﴾ [المؤمنون: ١٥] لَكَانَ يَتْرُكُهُمْ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يُحَوِّلُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

فَإِذَا حَوَّلَهُمْ وَقَلَّبَهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ دَلَّ أَنَّهُ لَا لِلْمَوْتِ الَّذِي ذَكَرَ خَلْقَهُمْ خَاصَّةً بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَنُتَوْنَ﴾ / ٣٥٤ - ١ / لَيْتُونَ وَلَكِنْ لِعَاقِبَةٍ تُقْضَى، وَهِيَ^(١٣) الْبَقَاءُ الدَّائِمُ [الَّذِي]^(١٤) لَا فَنَاءَ فِيهِ، وَهُوَ [مَا]^(١٥) ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَعْمُرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: الدم. (٤) في الأصل من العلقة من النطفة، في م: من النطفة والمضغة. (٥) في الأصل وم: على. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: حال. (٨) في الأصل وم: ومكتسبة لا يبلغ. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: وتقلب. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأَتْهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أما [أهل^(١)] التأويل فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: نَفَخَ الرُّوحَ فِيهِ، وهو قول ابن عباس وغيره. وقال بعضهم: إنبات الشجر ونحوه، وهو قول قتادة وغيره [وعن الحسن وغيره^(٢)]: ذَكَرَ أو أَنتَى. وجائز أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأَتْهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ غير ما قال هؤلاء، وهو إظهار الجوارح والأعضاء وتركيبها ما فيه دلالة [ذلك^(٣)] لأنه أَخْبَرَ أَنَّهُ يُقَلِّبُهُ شَيْئًا وَاحِدًا مُضْمَتًا، ليس به هذه الجوارح والأعضاء، إنما يكون فيه آثارها لا أعيانها، فَيَرْكُبُ فِيهِ أَغْيُنَ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْيَانِ حَتَّى يَكُونَ إِنْسَانًا. فذلك هو إنشاء خَلْقٍ آخَرَ، ويكون نَفَخَ الرُّوحِ وَنَبَتْ الشَّعْرِ فِي تَرْكِيبِ مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمَنْ يُنْكِرُ خَلْقَ الشَّيْءِ لَا مِنْ شَيْءٍ، أو يقول بِقَدَمِ الْعَالَمِ، إِنَّمَا يُنْكِرُ ذَلِكَ لِمَا لَمْ يَرِ فِي الشَّاهِدِ صُنْعَ شَيْءٍ لَا مِنْ شَيْءٍ، فَيَقَالُ لَهُ: وَهَلْ رَأَيْتَ إِنْشَاءَ شَيْءٍ مِنْ لَا شَيْءٍ عَلَى إِتْلَافِ الْأَصْلِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرٌ. فَإِذَا لَمْ تَرِ هَذَا فِي الشَّاهِدِ، وَقَدْ رَأَيْتَ فِي الْغَائِبِ إِنْشَاءَ شَيْءٍ مِنْ لَا شَيْءٍ عَلَى إِتْلَافِ الْأَوَّلِ مِنْهُ نَحْوُ الثُّفْلَةِ تَصِيرُ عُلْقَةً عَلَى إِتْلَافِ الثُّفْلَةِ فِيهِ، وَنَحْوُ الْعُلْقَةِ تَصِيرُ مُضْغَةً عَلَى إِتْلَافِ الْعُلْقَةِ فِيهَا إِلَى آخِرٍ مَا ذَكَرَ. كُلُّ ذَلِكَ مُنْشَأٌ مِنْ آخَرَ. إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ إِتْلَافِ الْأَصْلِ. فَهَلَا دَلٌّ^(٤) ذَلِكَ أَنَّ عَدَمَ الْإِنْشَاءِ فِي الشَّاهِدِ لَا مِنْ شَيْءٍ، لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِهِ فِي الْغَائِبِ أَنَّهُ حِينَ^(٥) قَدَّرَ [على^(٦)] هَذَا يَقْدِرُ عَلَى كُلِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ سِوَاهُ خَالِقًا لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١ و... وقول^(٧)]: ﴿وَأَنْتَ أَكْمَلُ الْمَكِينِ﴾ [هود: ٤٥] ونحوه. وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِمَا يَكُونُ سِوَاهُ رَحِيمًا حَكِيمًا كَرِيمًا، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿أَكْمَلُ الْمَكِينِ﴾ و﴿أَزْهَمُ الرَّحِمِينَ﴾. فَعَلَى ذَلِكَ مَا قَالَ: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

ولكن جائز القول بِمِثْلِ هَذَا عِنْدَ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ إِبْتِاثِ آخَرَ سِوَاهُ فِي ذَلِكَ حَقِيقَةً. وَهُوَ يُخْرَجُ عَلَى وَجْهِ: اخذها: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وَمِمَّا تَنْسُبُونَ أَنْتُمْ إِلَيْهِ، وَتَجْعَلُونَهُ خَالِقًا عِنْدَكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْغَيْبِ﴾ [الصافات: ٩١]. فإبراهيم^(٨) لَمْ يُسَمَّ مَعْبُودُهُمُ الَّذِي^(٩) عَبَدُوهُ إِلَهًا عَلَى جَعْلِ الْأُلُوهِيَّةِ لَهُ. وَلَكِنْ عَلَى مَا سَمَّوْهُهُمْ، وَنَسَبُوا الْأُلُوهِيَّةَ إِلَيْهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى حِينَ^(١٠) قَالَ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَيْكَ إِلَهِيكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] عَلَى مَا عِنْدَهُمْ، لَيْسَ عَلَى تَسْمِيَةِ الْأَلَهَةِ لَهُ حَقِيقَةً.

دَلٌّ مَا ذَكَّرْنَا عَلَى أَنَّ تَسْمِيَةَ مَا ذَكَرَ وَذَكَرَهُ يَجُوزُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سِوَاهُ إِلَهًا خَالِقًا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا تَعْمَهُمْ شَعْمَةُ الشَّيَاطِينِ﴾ [المدثر: ٤٨] لَيْسَ عَلَى أَنَّ لَهُمْ شُعْعَاءَ، يَشْفَعُونَ لَهُمْ، وَلَكِنْ لَا شُعْعَاءَ لَهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَّرْنَا. وَالثَّانِي: تَاوِيلُ ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أَيُّ لَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ خَالِقُ آخَرَ سِوَاهُ لَكَانَ^(١١) هُوَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ.

ولكن لا يجوز. وهو كقول^(١٢): ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤] أَيُّ لَوْ جَازَ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا ذَكَرَ. لَكِنْ لَا يَجُوزُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَرَادَ أَنْ تَنْتَهِزَ لَمَوْا لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أَيُّ لَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ كَذَا لَكَانَ كَذَا لَيْسَ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] أَيُّ لَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ لَذَهَبَ بِمَا ذَكَرَ. لَكِنْ لَا يَجُوزُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أَيُّ لَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَالِقٌ غَيْرُهُ لَكَانَ هُوَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ. وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

والثالث: ذَكَرَ ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ لِمَا أَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي كُلَّ صَانِعٍ شَيْءٍ خَالِقًا. فَخُرِجَ الذِّكْرُ لَهُمْ عَلَى مَا يُسَمُّونَهُ^(١٣)

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: كل. (٥) في الأصل: حيث. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: الذين. (١٠) في الأصل: و. (١١) في الأصل: لكن. (١٢) في الأصل: و. (١٣) في الأصل: و. يسموه.

هم، ليس على حقيقة الخلق لمن دونه كقول عيسى حين^(١) قال ﴿أَنَّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أو أن ذكر العالم، أصله من أربع طبائع: من الحرارة والبرودة واليوسة والرطوبة.

أو يكون كقول^(٢) بفض الفلاسيقة: إن العالم، أصله من أربع أو من خمس: من الماء والأرض والنار وغيره. فأخبر أنه ليس كذا، ولكن هو خالقهم لا من الأشياء التي توهموا هم.

وعلى قول من يقول: إنه [لو]^(٣) يكون غيره خالقاً لكان الخلق غير دال على الخالق. وقد جعل الله الخلق سبباً لمعرفة الخالق. فلو كان غيره خالقاً لكان الخلق غير دال على معرفة الخالق لأنه قال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦]

أخبر أنه لو كان سواه في ذلك لتشابه الخلق عليهم، فإذا تشابه لم يكن سبباً لمعرفة ما أخبر في إثبات عدد الآلهة كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ إِذْكَ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] فإذا بطل هذا، ولم يجز عدد الآلهة وإثبات الألوهية لغيره. فعلى ذلك في الخلق على الوجوه [التي ذكرناها]^(٤).

الآيتان ١٥ و ١٦ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّا نَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ لِقَائِهِمْ﴾ [ثُمَّ إِنَّا نَكَّرَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُبُوتُ] قد ذكرنا فيما تقدم أن المقصود من خلق هذا العالم لم يكن الإمامة والإفناء، ولكن [المقصود]^(٥) عاقبة، تتأمل، وتقصد، حين^(٦) قلبهم من حال إلى حال، ثم لم يتركهم على حالة واحدة.

فلو كان المقصود من خلقهم الفناء والهلاك، لا غير، لكان تركهم على حال واحدة، ولم يقلبهم من حال إلى حال. فدل التحويل والتقلب من حال إلى حال على أن المقصود من الخلق العاقبة على ما ذكرنا، والله أعلم، أنه أخبر أن خلقهم، بلا عاقبة، يقصد بها، عبث حين^(٧) قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] صير خلقهم لا للرجوع إليه عبثاً، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَّسَتْ غَزَلُهُمُ الْآيَةَ [النحل: ٩٢] صير نقض الغزل بعد إبراهيم وقوته سفهاً منها.

فلا جائز أن يسفه تلك المرأة بنقض غزلها بعد الإحكام والإبرام بلا نفع يكون لها، ثم هو يفعل ذلك، إذ خلق الخلق للفناء والهلاك خاصة عبث ولهو. وعلى ذلك بناء البناء في الشاهد لا لعاقبة ومنفعة، ولكن للهدم والنقض سفه وعبث. لذلك قلنا: إن خلق الخلق لا للموت خاصة، ولكن لما ذكر من قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّا نَكَّرَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُبُوتُ﴾ أي تحيون.

قال القتيبي [في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]]^(٨) يقال للولد: سلالة أبيه، وللحمر سلالة، ويقال: إنما جعل آدم من سلالة لأنه سل من كل نزية.

وقال أبو عوسجة: السلالة: الخالص من كل. قال أبو معاذ: النسل الولد ينسل من [تحت]^(٩) كل شجرة. وقال القتيبي: المضغة اللحم الصغيرة، سميت بذلك لأنها بقدر ما يمتص كما قيل: غُرقة بقدر ما يُعرف. وقوله: ﴿وَيَقْرَأُ تَكْوِينَ﴾ أي [مكان حريز]^(١٠) وهو الرجم أو الصلب، أيهما كان فهو ما وصف.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال بعضهم: سبع سموات. وقال بعضهم: سبعة أفلاك.

يذكر هذا، والله أعلم، أيهما كان السموات أو الأفلاك التي جعل لأمر^(١١) الخلق ولحوادثهم لوجهين: أحدهما: يُخبر عن قدرته وسلطانه وغناه أن من قدر على خلق ما ذكر وإنشائه بلا سبب قادر على إنشاء الخلق لا من شيء.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لقول. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الذي ذكرناه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: مكانا حريزا. (١١) من م، في الأصل: الأمر.

والثاني: أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذَا يَقْدِرُ عَلَى بَعْثِهِمْ وَإِحْيَائِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أَي سَبْعَ سَمَوَاتٍ، كُلُّ سَمَاءٍ طَرِيقَةٌ، وَيُقَالُ: هِيَ الْاِفْلَاقُ، كُلُّ وَاحِدٍ طَرِيقٌ، وَإِنَّمَا سَمِيَ طَرَائِقُ لِأَنَّهُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، يُقَالُ طَارَقْتُ الشَّيْءَ إِذَا جَعَلْتُمْ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وَيُقَالُ: رَيْشُ [الطَائِرِ] ^(١) طَرَاتِقُ. وَغَيْرُهُ قَالَ: طَرَاتِقُ أَهْوَاءٍ مُخْتَلِفَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أَي لَمْ نَخْلُقْهُمْ عَلَى جَهْلٍ / ٣٥٤ - ب/ مِنَّا بِأَحْوَالِهِمْ، وَلَكِنْ عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِذَلِكَ. وَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَلْقُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ، ثُمَّ يَخْلُقُهُمْ لِلْفَنَاءِ لَا لِلْعَابِقَةِ تَتَأَمَّلْ. لِأَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فِي الشَّاهِدِ فَإِنَّمَا يَفْعَلُ إِمَّا لِلْجَهْلِ أَوْ لِلْحَاجَةِ، وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ خَلَقَ مَا ذَكَرَ. أَي إِذَا عَرَفْتُمْ أَنَّ خَلْقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَا لِأَنْفُسِهَا وَلَكِنْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِمَنَافِعِكُمْ فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَلْقُهَا لَكُمْ بِلَا مِخْتَرٍ وَلَا ابْتِلَاءٍ. فَإِنْ ثَبَّتَ الْمِخْتَرَةَ فَيَكُنْ ثَبَّتَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ. فَإِذَا ثَبَّتَ [هَذَا ثَبَّتَ] ^(٢) الْبَعْثَ وَالْحَيَاةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَقْدَرُ﴾ يَعْلَمُ مِنَّا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا تَقَعُ لَهُمُ الْحَاجَةُ وَالْكَفَايَةُ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿يَقْدَرُ﴾ أَي مَعْلُومٌ مُقَدَّرٌ، لَا يَتَقَدَّمُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَزْدَادُ، وَلَا يَنْقُصُ. وَلَكِنْ عَلَى مَا قَدَّرَ. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنشَأْنَا فِي الْأَرْضِ حَرْشًا﴾ يَذْكُرُ هَذَا، وَيُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى اسْتِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ يَقْدِرُ عَلَى الْبَعْثِ وَعَلَى خَلْقِ الشَّيْءِ لَا مِنْ شَيْءٍ، إِذْ لَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْجَبَلِ الَّتِي عَلَّمَهُ اللَّهُ. أَوْ ^(٣) يَقُولُ: إِنَّهُ حِينَ ^(٤) جَعَلَ مَنَافِعَ الْأَرْضِ مُتَّصِلَةً بِمَنَافِعِ [السَّمَاءِ] ^(٥) وَمَنَافِعَ السَّمَاءِ [مُتَّصِلَةً] ^(٦) بِمَنَافِعِ الْأَرْضِ [مَعَ بُعْدٍ] ^(٧) مَا يَتَّبِعُهُمَا ذَلِكَ اتِّصَالَ مَنَافِعِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ مَعَ بُعْدٍ مَا يَتَّبِعُهُمَا عَلَى أَنْ تُنْشِئَهُمَا وَاحِدًا، وَمُدَبَّرَهُمَا وَاحِدًا عَالَمًا بِذَاتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَّنَا عَلِّمْ ذَعَابٍ بِهِ لَقَدْ تَوَدَّعَ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَسَّحَ مَا وَكَّرَ غَوْرًا﴾ الْآيَةُ [الْمَلِكُ: ٣٠].

الآية ١٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أَي بِالْمَاءِ ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أَي الْكَرْمِ ﴿يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةً﴾ ^(٨) الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهَا مِنْ الْمَاءِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَشْيَاءِ جَمِيعًا لِيَسْتَأْدِيَ بِهِ شُكْرَهُ وَعِبَادَتَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاقٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أَي فِي الْجَنَّاتِ حِينَ ^(٩) ذَكَرَ أَنَّهُ أَنْشَأَهَا لَنَا ﴿فَوَاقٍ كَثِيرَةٌ﴾ فَفِيهِ حُجَّةٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ ^(١٠)، رَجَمَهُ اللَّهُ، أَنَّ مَنْ خَلَفَ آلاَ يَأْكُلُ فَاكِهَةً فَأَكَلَ عِنَبًا لَمْ يَخْنَثْ لِأَنَّهُ ^(١١) ذَكَرَ النَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ، وَذَكَرَ فِيهَا الْفَوَاقِ عَلَى جِدَّةٍ، وَإِنْ كَانَ يَغْنِيهِ بِوِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، فَلَيْسَ فِيهِ حُجَّةٌ لَهُ.

الآية ٢٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أَي أَنْشَأْنَا لَكُمْ أَيْضًا شَجَرَةً فِي طُورِ سَيْنَاءَ.

ثُمَّ الشَّجَرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْجِبَالِ، لَا صُنْعٌ لِلْخَلْقِ فِي إنبَاتِهَا، وَمَا يَكُونُ فِي الْجَنَّاتِ وَالْبَسَاتِينِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِنْبَاتِ الْخَلْقِ. ثُمَّ أَضَافَ كِلَيْهِمَا: مَا يَكُونُ لِلْخَلْقِ فِيهِ صُنْعٌ، وَمَا لَا يَكُونُ. دَلٌّ إِضَافَةً ذَلِكَ إِلَيْهِ كُلُّهُ عَلَى أَنَّ [اللَّهِ] فِي فِعْلِ الْعِبَادِ صُنْعًا ^(١٢) وَأَنَّ جَمِيعَ مَا يَكُونُ إِنَّمَا يَكُونُ بِصُنْعِ مَنْهُ وَلُطْفِهِ، وَيُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهَا مِنْ إِنْشَاءِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ وَالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَالْفَوَاقِ الَّتِي ذَكَرَ لِيَسْتَأْدِيَ بِذَلِكَ شُكْرَهُ.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ حِينَ ^(١٣) أَنْشَأَ الشَّجَرَةَ، وَأَخْرَجَهَا مِنَ الْجَبَلِ، وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ وَأَضْلَبُهَا، [ثُمَّ أَنْشَأَ] ^(١٤) فِي تِلْكَ الشَّجَرَةِ الدُّهْنَ، وَهُوَ أَلْيَنُ الْأَشْيَاءِ وَالْأَطْفُفُهَا. فَيُخْبِرُ أَنَّ [مَنْ] ^(١٥) قَدَّرَ عَلَى إِخْرَاجِ أَلْيَنِ الْأَشْيَاءِ مِنْ أَشَدِّهَا وَأَضْلَبِهَا لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: أن يكون. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: ليعبد. (٨) في الأصل وم: يذكر نعمة الله. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: يوسف. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: الله في فعل العباد صنع. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وفيه أن لا بأس بقران شيء إلى شيء، فيؤكلان^(١) جميعاً، وضَمَّ بَعْضُهُ^(٢) إلى بَعْضٍ، فيَجْمَعُ في الأكل حين^(٣) قال: ﴿تَبْلُتْ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ وهو الإدام.

ثم اختلف في قوله: ﴿طُورٌ سَيْنَاءَ﴾ قال بعضهم: الطُّورُ الجَبَلُ بالسُّريانية، والسِّينَاءُ الحَسَنُ بالحِشِّيَّة. وقال بعضهم: الطُّورُ الجَبَلُ وما ذُكِرَ، والسِّينَاءُ الشَّجَرَةُ الحَسَنَاءُ. وقال بعضهم: الطُّورُ هو الجَبَلُ الذي كُلَّم الله موسى [مِنْ جَانِبِهِ]^(٤) وأوحى إليه، والشَّجَرَةُ الزَيْتُونَةُ. وقال بعضهم: السِّينَاءُ الحِجَارَةُ. وقال بعضهم: الطُّورُ الجَبَلُ، والسِّينَاءُ المُبَارَكُ بما أوحى إلى موسى. وقال بعضهم: الطُّورُ الجَبَلُ والسِّينَاءُ شَجَرٌ حَوْلُهُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَحَفْصَةَ: ﴿وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ تُخْرِجُ الدَّهْنَ ﴿وَصَنِيعٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾. قال بعضهم: تُخْرِجُ الثَّمَرَ. قال أبو مُعَاذٍ: أَتَبَتِ النَّبَاتُ، وَتَبَتِ لُغَتَانِ كَقَوْلِكَ: أَسْرَى، وَسَرَى. وقال زهيرٌ:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بَيْوتِهِمْ قَاطِنًا لَهُمْ حَتَّى^(٥) إِذَا أَتَبَتِ الْبَقُلُ^(٦)

قال الكِسَائِيُّ: تقول: خَرَجْتُ بِزَيْدٍ، وَخَرَجْتُ زَيْدًا. ولا تقول: أَخَرَجْتُ بِزَيْدٍ إِلَّا أَنْ تقول: أَخَرَجْتُ بِزَيْدٍ عَمْرًا.

قال الفَتَّي: ﴿وَصَنِيعٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ مِثْلُ الصَّبَاغِ كما يُقال: دَبَغَ وَدَبَاغٌ^(٧)، وَلَبَسَ وَلِبَاسٌ.

وقال أبو عَوَسَجَةَ: ﴿وَصَنِيعٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ أَي الصَّبَاغِ، وهو ما اضْطَبَعَتْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ، أَي عَمَرَتْهُ فِيهِ.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي آلِ نَهْمٍ لَعْنَةً تُشْفِكُ كَيْفًا فِي بُطُونِهِمَا﴾ وفي^(٨) سورة النحل: ﴿وَمَا فِي بُطُونِهِمَا﴾ [الآية: ٢١] قال بعضهم: إنما ذَكَرَهُ عَلَى الْفَرْدِ وَالْوُحْدَانِ، وفي ما ذَكَرَهُ عَلَى الثَّانِيَةِ [أَرَادَ بِهِ]^(٩) الْجَمْعَ. وقال بعضهم في ما ذَكَرَهُ بِالذِّكْرِ أَرَادَ بِهِ جِنْسًا مِنَ الْأَنْعَامِ: ﴿تُشْفِكُ كَيْفًا فِي بُطُونِهِمَا﴾، وهذا أَشْبَهُ. وقد ذَكَرْنَا هَذَا فِيمَا تَقَدَّمَ. ثم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي آلِ نَهْمٍ لَعْنَةً﴾ وَجْهٌ^(١٠) الْعَبْرَةُ فِيهَا مِنْ وَحْيَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(١١): ما قال ابن عباس، وهو ما ذَكَرَ ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْيَتَيْنِ وَدَمَرٍ﴾ الآية [النحل: ٦٦] ففي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَتَذْيِيرِهِ وَلُطْفِهِ، إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا وَفِيهِ^(١٢) دَلَالَةٌ وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَدَلَالَةٌ عَلَيْهِ وَقُدْرَتِهِ وَتَذْيِيرِهِ.

[وَالثَّانِي]^(١٣): فيه أنه لم يَنْشِئْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ لَأَنْفُسِهَا، وَلَكِنْ أَنْشَأَهَا لِلْبَشَرِ حِينَ^(١٤) أَخْبَرَ أَنَّهُ سَخَّرَهَا لَنَا لِيَمْتَحِنَهُمْ بِهَا.

ثم اختلف في الأنعام: قال مقاتل الأنعام كلُّ شَيْءٍ يُؤْكَلُ لَحْمُهُ، وَيُشْرَبُ لَبَنُهُ. وما لا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ، ولا يُشْرَبُ لَبَنُهُ فَلَيْسَ مِنَ الْأَنْعَامِ. وقال أبو مُعَاذٍ: إِنَّ مِنَ الْأَنْعَامِ ما لا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ، ولا يُشْرَبُ لَبَنُهُ. وقال بعضهم: الأنعام كلُّ بَهِيمَةٍ حَتَّى الْوَحْشِ. والأشْبَهُ أَنْ تَكُونَ الْأَنْعَامُ هِيَ^(١٥) الْإِبِلَ، وَلَكِنَّا لَا نَعْلَمُ حَقِيقَةً، إِنَّمَا هُوَ اللِّسَانُ، فَهُوَ عَلَى ما يُسَمِّيهِ أَهْلُ اللِّسَانِ. وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ قيل: مِنَ الْحُمُولَةِ وَغَيْرِهَا، وقد ذَكَرْنَا هَذَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ^(١٦).

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالَكِ تَكْمُلُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةً فِي ما سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالسَّفَنِ لِيَسْتَأْذِنُوا بِهِ شُكْرَهُ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِكْرَامًا فَقَالَ يَقَوْمِي أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يُرَدِّدُ ۞ أَنْبَاءَ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَأَخْبَارَهُمْ، وَيُكْرِّرُهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ لِيَكُونَ أَبَدًا يَقْظَانًا^(١٧) مُتَّبِعًا، وَيَعْرِفُ أَنَّ كَيْفَ عَامِلٍ أَوَّلُو الْعَزْمِ قَوْمُهُمْ؟ كَيْفَ صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَى أَدَى قَوْمِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ لِيُعَامِلَ^(١٨) هُوَ قَوْمَهُ مِثْلَ مُعَامَلَتِهِمْ، وَيَضِيرَ عَلَى

(١) من م، في الأصل: فهو كان. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: بعضهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) انظر الديوان ص ١١١. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: على. (١٠) في الأصل وم: ووجه. (١١) في الأصل وم: وجه أحدهما. (١٢) في الأصل وم: وفيها. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: هو. (١٦) في تفسير الآية: ١٦. (١٧) في الأصل وم: يقظانا. (١٨) في الأصل وم: ليتعامل.

أَذَى قَوْمِهِ مَثَلٌ مَا صَبَرَ أُولَئِكَ عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ. لِهَذَا مَا يُرَدُّ، وَكَرَّرُ أَنْبَاءَهُمْ عَلَيْهِ، وَيَعْرِفُ قَوْمُهُ أَيْضاً أَلَّا يَظْفَرُوا^(١) بِمَا يَأْمُلُونَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ الْعَاقِبَةَ. بَلِ الْعَاقِبَةُ تُصِيرُ لَهُ عَلَى مَا صَارَتْ لِأُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرِّسْلِ لَا لِقَوْمِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجوهاً:

أحدها: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخَالَفَةً لِلَّهِ؟

[والثاني: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢) مخالفة رسولِهِ؟

[والثالث^(٣): ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عِبَادَةً غَيْرَ اللَّهِ؟

[والرابع^(٤): ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عَذَابُهُ وَنَقْمَتُهُ وَوَعِيدُهُ^(٥)].

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا الذي قالوا، هو مُتَنَاقِضٌ، لأنهم قالوا: إنه ﴿بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ بما ادَّعى مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْإِجَابَةِ إِلَى [مَا]^(٦) دَعَاهُمْ. ثُمَّ هُمْ أَعْنَى الرُّؤَسَاءِ مِنْهُمْ وَالْقَادَةَ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ الْفَضْلَ بِمَا اسْتَبَقُوا هُمُ السُّفْلَةَ، وَطَلَبُوا مِنْهُمْ الْمُوَافَقَةَ لَهُمْ وَالْإِجَابَةَ، وَهُمْ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ. فَذَلِكَ تَنَاقُضٌ فِي الْقَوْلِ.

ثُمَّ أَقْرَأُوا بِتَفْضِيلِ بَعْضِ الْخَلْقِ عَلَى بَعْضٍ، وَعَرَفُوا قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ حِينَ^(٧) قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ فَمَنْ^(٨) قَدَّرَ عَلَى تَفْضِيلِ ٣٥٥-١ / [الملائكة عَلَى الْبَشَرِ قَدَّرَ عَلَى تَفْضِيلِ]^(٩) بَعْضَ الْبَشَرِ عَلَى بَعْضٍ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِمَا ادَّعى مِنَ الرِّسَالَةِ التَّفْضِيلَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ يُرِيدُ التُّضْحِ لَهُمْ وَالْإِشْفَاقَ عَلَيْهِمْ حِينَ^(١٠) قَالَ: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩ والشعراء: ١٣٥] وَقَالَ^(١١): ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وَنَحْوُ مَا قَالَ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ التُّضْحَ وَالْإِشْفَاقَ لَا التَّفْضِيلَ الَّذِي قَالُوا هُمْ.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ هذا قولُهُمْ وَقَدْ كَذَّبُوا فِي قَوْلِهِمْ.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْنُونٍ [وَلَكِنْ أَرَادُوا التَّلْبِيسَ وَالتَّمْوِيهَ عَلَى قَوْمِهِمْ حِينَ^(١٢) خَالَفَهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَعَادَى الرُّؤَسَاءَ مِنْهُمْ وَالْقَادَةَ، وَيَقُولُونَ: مَا يَقَعَلُ هَذَا إِلَّا لِجُنُونٍ]^(١٣) فِيهِ وَاقِفٌ أَصَابَتْهُ فِي عَقْلِهِ، وَلَا عَرَفُوا هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، أَعْنَى الْقَادَةَ، أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، وَلَكِنْ أَرَادُوا التَّمْوِيهَ عَلَى قَوْمِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: ﴿فَتَرْتَضَوْنَ بِهِ هَتْفَ جِنِّ﴾ لَسْنَا نَدْرِي مَا أَرَادُوا بِالْحَيْنِ: أَرَادُوا الْمَوْتَ أَوْ وَقْتُ ارْتِفَاعِ مَا قَالُوا فِيهِ مِنَ الْجُنُونِ أَوْ أَرَادُوا وَقْتاً آخَرَ.

قَالَ مُقَاتِلٌ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ بِالرِّسَالَةِ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ فَضْلٌ فِي شَيْءٍ، فَتَتَّبِعُونَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ بِالْعَذَابِ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وَيَقَالُ: مَا سَمِعْنَا التَّوْحِيدَ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ كَمَا يَدْعُو نُوحٌ.

الآية ٢٦ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ لَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ بِأَوَّلَ مَا كَذَّبُوا، وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ مَا إِيَسَ مِنْ عَرْدِهِمْ إِلَى تَصْدِيقِهِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿إِنِّي مَقْلُوبٌ فَأَنْصُرْ﴾ [القمر: ١٠].

وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَنْصُرْنِي بِتَحْقِيقِ مَا وَعَدْتَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، بِأَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابُهُمْ بِمَا كَذَّبُونِي فِي قَوْلِي بِأَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ أَيِ اجْعَلْ لِي الظَّفَرَ عَلَيْهِمْ بِالتَّكْذِيبِ وَنَحْوِهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَظْفَرُونَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) فِي م: أَوْ. (٥) مِنْ م، مَدْرَجَةٌ قَبْلَ: أَوْ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عِبَادَةً غَيْرَ اللَّهِ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَإِنَّ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي م: حَيْثُ. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْجِنَا إِلَىٰ أَنْ أَسْجَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال بعضهم: يَنْظُرُ مِنَّا. وقال بعضهم: يَمْرَأَىٰ مِنَّا. وجائز أن يكون، صلوات الله عليه، ظن لما أمر باتخاذ الفلك أنهم لا يتركونه أن يتخذ الفلك؛ فاجبره الله أنك تتخذ به حيث نراه؛ ونصرك عليهم بحيث لا يملكون منك عن اتخاذها.

وقوله تعالى: ﴿وَوَعَيْنَا﴾ أي بأمرنا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَارَ الْشُّرُّ﴾ أي إذا جاء الموعود بأمرنا ﴿وَوَكَارَ الشُّرُّ﴾ أو أن يقول: إذا جاء وقت أمرنا بالعذاب، وفار ما ذكر أي خرج الماء من الشور، وظهر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْلَفْنَا فِيهَا﴾ قيل: أدخل فيها. يقال: سَلَكْتُ [واسلكتُ، وهو من] ^(١) الإدخال كقوله: ﴿أَسْلَفْنَا يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص/٣٢] أي أدخل. وتفسير ﴿فَأَسْلَفْنَا﴾ ما ذكر في آية أخرى: ﴿قُلْنَا آخِذْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿آتَيْنِ﴾ نَعْتًا ^(٢) لقوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنثَى. وجائز أن يكون قَوْلُهُ: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ أي كل زوجين عذابين لونين أبيض وأسود وطيب وخبيث. وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا﴾ أي أحمل أهلك أيضاً في السفينة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالعذاب والهلاك، وقد ذكرنا هذا في سورة هود ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ اختلف فيه. قال قائلون: إنما نهاه عن مخاطبته في الذين ظلموا حين قال: ﴿إِنَّ أَبِي مِنْ أَفْلَى﴾ [هود: ٤٥] نهاه عن أن يسأله. فإن كان على هذا فقوله: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي﴾ أي لا تراجفني في نجاتهم، والله أعلم.

الآية ٢٨

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَوْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلْ لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ أَلَمِ الْفُلِّ الْأَوَّلِ﴾ هكذا الواجب على كل من أنجاه الله من الظلمة أن يحمده ربّه على ذلك، يسأله النجاة إذا ابتلي بهم كما علم نوحاً أن يقول ما ذكر، ويحمده على النجاة منهم، وكما قال موسى حين خرج من عندهم خائفاً: ﴿رَبِّ يَخَيُّ مِنْ أَلَمِ الْفُلِّ الْأَوَّلِ﴾ [القصص: ٢١]، وكما سألت امرأة فرعون النجاة من فرعون وقوميه حين قالت: ﴿وَيَخَيُّ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَقِيلِهِ وَيَخَيُّ مِنْ أَلَمِ الْفُلِّ الْأَوَّلِ﴾ [التحریم: ١١].

الآية ٢٩

ثم علمه ربّه أن يسأله الإنزال في منزل مبارك حين ^(٤) قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مَزْلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ﴾. ثم يَحْتَمِلُ سُؤَالُهُ الْمُنْزَلَ الْمُبَارَكَ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ ^(٥) وَالْحَسَنَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ. وَيَحْتَمِلُ سُؤَالُهُ الْمُنْزَلَ الْمُبَارَكَ الْمَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ السَّعَةُ وَالْخَضْبُ عَلَى مَا قَالَه بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْمُبَارَكَ بِالْمَاءِ وَالشَّجَرِ وَغَيْرِهِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ إِبَاحَةً سُؤَالِ السَّعَةِ وَالْخَضْبِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَلْبَتِلِينَ﴾ قال قائلون: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي [إن] ^(٦) في إهلاك قوم نوح وإغراقهم لآيات لمن بعدهم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَلْبَتِلِينَ﴾ بآيات تفضلاً مِنَّا وإحساناً سوى ذلك. وَيَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، وهو أن قَوْلَهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَلْبَتِلِينَ﴾ بِسُورِ الْآيَاتِ الَّتِي كَانَتْ.

وجائز في اللغة إن بمعنى ما.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، وهو أن قَوْلَهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَلْبَتِلِينَ﴾ أي قد ابتلاهم قَبْلَ إهلاكهم إياهم.

ولسنا نعرف ما حقيقة هذا الكلام؟ وما مراده؟ والله أعلم.

قال الفَتَّيُّ: ﴿فَأَسْلَفْنَا فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي أدخل فيها. يُقَالُ: سَلَكْتُ الْحَيْطَ فِي الْإِبْرَةِ، وَأَسْلَكْتُهُ. وقال أبو عُبَيْدَةَ كَذَلِكَ.

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: نعت. (٣) في تفسير الآية ٤٠ (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: الخير. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَأَن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ هذا من الابتلاء، أي اختيار. ومن البلاء: لمبتلين^(١).

الآيتان ٣١ و ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْنَا مِن بَعْدِهِ قَرْيَةً﴾ عاداً وغيرهم ﴿وَأَرْسَلْنَا فِيهِم رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ قالوا هوداً ﴿أَن لَّبِئُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ جميع الأنبياء والرسل إنما بُعثوا بالدعاء إلى توحيد الله، وجعل العباد^(٢) له.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مخالفتهم أو عبادة من دونه وجميع معاصيه على ما ذكرنا من قبل.

الآية ٣٣ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بالبعث ﴿وَأَرْسَلْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال بعضهم: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُمْ﴾ أو بسطنا لهم في الدنيا حتى ركبوا المعاصي. وقال بعضهم: المثرث الغني الطاعي. وقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

الآية ٣٤ [وقوله تعالى^(٣)]: ﴿وَلَقَدْ أَطْعَمْتُمُ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ﴾ الآية. قد ذكرنا في ما تقدم أنهم تناقضوا^(٤) في قولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قولهم^(٥): ﴿وَلَقَدْ أَطْعَمْتُمُ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِذْكَرُوا إِذَا لَغِيْرُوت﴾ لما أنهم منعوا الأتباع عن أن يتبعوا الرسول^(٦)، ويطيعوه، لأنه بشر مثله، ثم طلبوا منهم الطاعة لهم والاتباع في أمورهم، وهم بشر أمثالهم. فذلك تناقض في القول وفساد.

الآيتان ٣٥ و ٣٦ وقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُّكَ أَكْثَرُ إِذَا مِتُّ وَكُنْتُ تُرَابًا وَعِظَامًا أَكْثَرُ نَجْرَتُ﴾ ﴿هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿هَيَاتَ هَيَاتَ﴾ استبعاد الأمر وإنكاره، أي بعيداً بعيداً، أي الأمر^(٧) لا يكون.

الآية ٣٧ وقوله تعالى: ﴿إِن مِّنْ إِلَّا حِسَابُنَا الَّذِي نُمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إن كان هذا القول من التثنية والتثنية فقولهم^(٨): ﴿نُمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هم بأنفسهم، لأنهم يقولون: يموت الإنسان، فيحيا غيره من البقر والحمر، وغيره من ترابه إذا أكل. وإن كان هذا القول من غير التثنية فنقول: قولهم^(٩): ﴿نُمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت نحن، ونحيا الأبناء^(١٠). وذكر في حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي نَحْيَا، ونموت ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿إِن مَّرَ إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذا قولهم^(١١).

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اصْنَرْ لِي بِمَا كَذَّبْتُكَ﴾ قد ذكرنا.

الآية ٤٠ [وقوله تعالى^(١٢)]: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيَسِيرٌ تَلْمِيزِينَ﴾ أي عن قريب يندمون بتكذيب^(١٣) هذا القول الذي قالوه، والإنكار الذي أنكروه، لا شك في ذلك.

وقال القشيري: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٣] - ٣٥٥ - ب/ أي وسعنا عليهم حتى أثرفوا، والثروة الثغمة^(١٤)، ومثلها تخفة، كأن المثرث، هو الذي يتخف.

وقال غيره: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُمْ﴾ أي وأنعمنا عليهم، وبسطنا لهم. فكله يرجع إلى واحد.

قال أبو عوسجة: ﴿هَيَاتَ هَيَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] هذا تبعيد للأمر، أي إنه أمر بعيد على ما ذكرنا أنه لا يكون.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجِيسَةُ بِالْحَقِّ﴾ قد ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَّةً﴾ قال بعضهم: الغثاء اليابس الهامد كنبات الأرض إذا يبس. وقال بعضهم: الغثاء هو الذي يحمله السيل [من العبدان]^(١٥). قال أبو معاذ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَّةً أَخْوَى﴾ [الأعلى: ٥] أي أسود. وقال بعضهم: ﴿غُثَّةً﴾ أي مَوْتَى.

(١) في الأصل وم: مبلون. (٢) في الأصل وم: عبادة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تناقض. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: الرسل. (٧) في الأصل وم: أمر. (٨) في الأصل وم: فقولهم. (٩) في الأصل وم: قوله. (١٠) من م، في الأصل: الأنبياء. (١١) من م، في الأصل: قوله. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) بالتكذيب عن. (١٤) في الأصل وم: منه. (١٥) في الأصل وم: بالموج.

وجائز أن يكون تأويل قوله: ﴿عُتَاءٌ﴾ أي كالشيء المنسي الذي لا يُذكر البتة، لأن أولئك الفراعنة والأكابر إذا هلكوا لم يُذكروا البتة [ولا^(١)] اقتُحِرَ أحدُهُم من أولادِهِم بهم من بعدِ الهلاك كما اقتُحِرَ أولادُ الأنبياء والرُّسل والصالحين بآبائهم وأجدادِهِم من بعدِهِم، وصاروا مذكورين إلى أبد الآبدين. فاما أولئك فصاروا خاملي الذِّكر كالشيء الخسيس المنسي المَثْرُوكِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ عُتَاءً﴾ العُتَاءُ ما دُكِرْنَا، وعلى^(٢) قول بعضهم: كالرَّمِيمِ الهامِدِ الذي يَحْمِلُهُ السِّلُّ، وعلى^(٣) قول بعضهم: كالشيء البالي المتغير، وعلى [قول بعضهم]^(٤): العُتَاءُ ما ارتفع على الماء مما لا يَنْتَفِعُ به، وكُلُّهُ واحدٌ. وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿عُتَاءٌ﴾ أي هَلَكَى كالعُتَاءِ، وهو ما على السِّلِّ مِنَ الرِّبْدِ والقَمَشِ، لأنه يَذْهَبُ، وَيَتَفَرَّقُ. قال أبو عَوسَجَةَ: العُتَاءُ ما يَحْمِلُ السِّلُّ مِنَ العِيدَانِ والبَغْرِ، والأَعْيَةُ جميع، والعُتَاءُ حَمْلُ السِّلِّ.

ثم ذَكَرَ أَنْفُسَ قوم عادٍ وِثْمُودَ، وشَبَّهَها بما ذَكَرَ مِنَ العُتَاءِ، وكذلك يَذْكَرُ جميعَ أهلِ الشرِّ والفسادِ، وذَكَرَ في أهلِ الخَيْرِ أَعْمَالَهُمْ لا أَنْفُسَهُمْ، لأنَّ لَهُمْ أَعْمَالَ الخَيْرِ والصَّلاحِ، فَتَجْعَلُ أَنْفُسَهُمْ حَيَّةً بِالْأَعْمَالِ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] جَعَلَ أَعْمَالَهُمْ أَحَادِيثَ في ما بَيْنَهُمْ.

واما أهل الكُفْرِ والشرِّ فإنَّهُمْ^(٥) لا أَعْمَالَ لَهُمْ تُذْكَرُ، فَتُذْكَرُ أَنْفُسُهُمْ بُعْدًا وَسُخْفًا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا﴾ قِيلَ: مِنْ بَعْدِ قوم عادٍ وهؤلاءِ ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

الآية ٤٢

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿مَا تَنبِئُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ كانه ذَكَرَ هذا لِمَا كانوا يَسْتَعِجِلُونَ العذابَ الموعودَ والهِلاكَ الذي أوعِدُوا. فأخْبَرَ أنَّ لكلِّ أُمَّةٍ أَجَلًا^(٧)، لا تَسْبِقُ أَجَلُهَا بِاسْتِعْجَالِ^(٨) مَنْ يَسْتَعِجِلُ ﴿وَمَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ أَجَلَهُمْ^(٩) الذي جُعِلَ لَهُمْ.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [تباعاً واحداً]^(١٠) بَعْدَ واحدٍ وبَغْضًا^(١١) على إثرِ بَغْضٍ ﴿كُلَّ مَآلَةٍ أُمَّةٍ رُسُلًا كَذَبُوا فَاتَّبَعُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ في الهلاكِ الأوَّلِ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَلِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، يعني [مِنْ]^(١٢) الذين أَهْلِكُوا ﴿فَعَمَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ٤٤

[وقوله تعالى]^(١٣): ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ قد ذَكَرْنَا.

الآية ٤٥

[وقوله تعالى]^(١٤): ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَأَيْنَاهُ كِبَارًا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٤] قال^(١٥) بَعْضُهُمْ: مُتَكَبِّرِينَ مُتَجَبِّرِينَ وقال^(١٦) أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ العُلُوِّ، لَيْسَ مِنَ التَّعَالِي، والتَّعَالِي لا يُوصَفُ بِهِ الخَلْقُ.

الآية ٤٦

قال القُتَيْبِيُّ: ﴿تَتْرًا﴾ أي تَتَابَعَ بِفَتْرةٍ بَيْنَ كُلِّ رَسولَيْنِ، وهو مِنَ التَّوَاتُرِ. والأصلُ: وَتَرَى، فَقَلَّيْتُ الواو تاءَ كما قَلَّبَها في التَّقْوَى والتَّخَمَةِ والتَّكْلَانِ.

وقال أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَتْرًا﴾ بَعْضُهُمْ على إثرِ بَعْضِهِمْ [وهو مِنَ التَّابَعَةِ]^(١٧).

وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ دلالةٌ أنَّ أَهْلَ الفَتْرةِ وَمَنْ كانَ في ما بَيْنَ بَغْثِ الرِّسْلِ، لا عُذْرَ لَهُمْ في شيءٍ لإبقاءِ الحُجَجِ والبراهينِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ آخَرُ وَحُسْنِ آثَارِهِمْ وأَعْلَامِهِمْ. أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ تَباعاً بَغْضًا على [إثْرِ]^(١٨) بعضٍ وأَنَّ^(١٩) كانَ بَيْنَ بَعْثِهِمْ فَترةٌ لِمَا أَتَى الحُجَجِ والبراهينِ وآثَارَ الرُّسْلِ وأَعْمَالَهُمْ، واللهُ أَعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم: (٣) الواو ساقطة من الأصل وم: (٤) في الأصل وم: بعض. (٥) في الأصل وم: فإنه. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: أجل. (٨) في الأصل وم: بالاستعجال. (٩) في الأصل وم: أجلها. (١٠) في الأصل وم: تبع واحد. (١١) في الأصل وم: وبعض. (١٢) ساقطة من الأصل وم: (١٣) ساقطة من الأصل وم: (١٤) ساقطة من الأصل وم: (١٥) في الأصل وم: وقال. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم: (١٧) من م، في الأصل: وهي من التابعة. (١٨) ساقطة من الأصل وم: (١٩) في الأصل دم: وإن.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَلَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ قال بعضهم: تذهب: ترفعهم بعد ما كنا عالين عليهم، تجعلهم عالين علينا، وكانوا لنا عابدين؟ أي ترفعهم فوقنا، ونكون تحتهم، ونحن اليوم فوقهم، وهم تحتنا. كيف تصنع ذلك؟ [ذلك] ^(١) والله أعلم، حين أتوهما ^(٢) بالرسالة.

الآية ٤٨

[وقوله تعالى] ^(٣): ﴿وَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالكذب.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يشبه أن يكون حرف لعل لموسى، أي آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون عنده. ولعل: حرف رجاء وترج. ولكن يستعمل مرة على الإيجاب والإلزام، ومرة على التثني كقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ نُسْكَ﴾ [الشعراء: ٣] أي لا تبخع نفسك، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَانَتْ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ [هود: ١٢] أي لا تترك بغض ما يؤخر إليك. وذلك جائز في اللغة: يقول الرجل لآخر: لعلك تفعل كذا، أي لا تفعل. ونحوه. وحرف: لعل من الله يختل الإيجاب والإلزام والتثني، ومن الخلق على التثني والترجي، والله أعلم.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَحَلَّلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ خص عيسى وأمه بأن جعلهما آية. وجميع البشر في معنى الآية واحد، إذ خلقوا جميعاً من نطفة، ثم حولت النطفة علقة، والعلقة مضغة، إلى آخر ما ينتهي إليه، فيصير إنساناً.

فالآية والأعجوبة في خلق الإنسان من النطفة ومما ذكرنا إن لم تكن أكثر وأعظم لم تكن دون خلقه بلا أب ولا زوج وما ذكر، لكنه خصهما بالذكر الآية فيهما لخروجهما عن الأمر المعتاد في الخلق، إذ العادة الظاهرة فيهم أن يخلقوا من النطفة والأب والتزاوج [والأسباب التي] ^(٤) جعلت للتوالد والتناسل الذي يجري في ما بينهم ^(٥). والأعجوبة في خلق البشر من النطفة وما ذكر إن لم تكن أكثر وأعظم لم تكن دونه: وهو ما خص بني إسرائيل بالخطاب بالشكر لما أنعم عليهم من المن والسلوى، ولما أنجاهم من فرعون وألوه بقوله: ^(٦): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَمْسَكْتُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦] وقوله ^(٧): ﴿يَبْنَئِي أَرْبَابَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الْآلِيَّ أَتُكْفِرُونَ﴾ [البقرة: ٤٧ و ١٢٢].

وقد كان عليهم من النعم ما هو أعظم وأكثر من المن والسلوى ونجاتهم من فرعون وألوه. لكنه خصهم بالذكر المن والسلوى، واستأدى منهم الشكر بذلك من بين سائر النعم لأنها خرجت عن المعتاد من النعم المعروفة، وهم كانوا مخصوصين بهذا من بين غيرهم.

فعلى ذلك عيسى وأمه كانا خارجين عن الأمر المعتاد ومخصوصين بذلك. لذلك خصهما بالذكر الآية، والآية ما ذكر بعض أهل التأويل أنه خلق من غير أب؛ ولذته أمه من غير بعل وامثالها.

وقال بعضهم: الآية في عيسى بأن كلم الناس في المهدي صياً ونحوه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومثله.

وقوله تعالى: ﴿وَوَاتَيْنَاهُمَا إِنْ رِئُوفَ ذَاتِ قُرْبَرٍ وَرَمِيمٍ﴾ ذكر أنه آواهما إلى ربوة كما يؤوي الأب والأم الولد إلى مكان، يتعيش به؛ إذ الربوة هي مكان التعيش فيه. ألا ترى أنه ذكر ﴿ذَاتِ قُرْبَرٍ وَرَمِيمٍ﴾ هو المكان الذي يستقر فيه، ويتعيش، وقال ^(٨): ﴿وَرَمِيمٍ﴾ المعين هو الماء الجاري الظاهر الذي تأخذه العيون، وتقع عليه الأبصار؟.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الرُّسُلَ كُلًّا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ قال عامة أهل التأويل: إنما خاطب بهذا محمداً خاصة على ما يخاطب هو. والمراد منه جميع أمته في ذلك. ولكن جائز أن يقال: خاطب به جميع الرسل لأنهم جميعاً مخاطبون بهذا كله من أكل الطيبات والعمل الصالح؛ هذا الخطاب فيه وفي غيرهم؛ إذ عمهم جميعاً بهذا. ثم [قوله تعالى] ^(٩): ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْحَلَالَاتُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: كُلُوا حَلَالاً غَيْرَ حَرَامٍ.

(١) في م: وذلك، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أتوهما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: والأسباب التي جعل للتوالد في الخلق لخروجها عن الأمر المعتاد في الخلق والعادة الظاهرة خصهما بالذكر الآية. (٦) في الأصل وم: آل فرعون. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) ساقطة من الأصل وم.

أَلَا تَرَىٰ / ٣٥٦- / أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَعْمَلُوا مَلَكًا﴾ [أي اعملوا صالحاً] ^(١) وَلَا تَعْمَلُوا سَيِّئًا؟ فَعَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كُلُوا مِنَّا﴾
الطَّيِّبَاتِ أَي كُلُوا حَلَالًا، وَلَا تَأْكُلُوا حَرَامًا: مَا حَبِثَ.

وفيه أنهم يُمتَحَنُونَ كما يُمتَحَنُونَ غَيْرُهُمْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿كُلُوا مِنَّا﴾ الطَّيِّبَاتِ مَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُكُمْ، وَتَلَذَّذَتْ. فَإِنْ كَانَ عَلَىٰ هَذَا فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَىٰ الْإِبَاحَةِ
وَالرُّخْصَةِ، لَيْسَ عَلَى الْأَمْرِ. مَعْنَاهُ: لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مَا تَسْتَطِيبُ بِهِ أَنْفُسُكُمْ، وَلَكُمْ أَنْ تُؤْثِرُوا غَيْرَكُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ. وَإِنْ
كَانَ عَلَى الْأَمْرِ فَهُوَ عَلَى الْأَمْرِ يُخْرِجُ وَالنَّهْيِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ظاهرٌ، وهو وعيدٌ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً رَّحِيمَةً﴾ جائزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً رَّحِيمَةً﴾ فِي الْكُتُبِ
الْمُقَدَّمَةِ وَعَلَى لِسَانِ الرُّسُلِ السَّالِفَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أَي كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فِي الْكُتُبِ
الْمُقَدَّمَةِ وَفِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. فَعَلَىٰ ذَلِكَ هَذَا.

وقال بعضهم: قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً رَّحِيمَةً﴾ أَي دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ، وَمِلَّتُكُمْ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الْإِسْلَامُ. وَقَالَ
بعضهم: لِسَانُكُمْ لِسَانٌ وَاحِدٌ.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْتُمْ أُمَّةٌ رَّحِيمَةٌ﴾ لَا تَخْتَلِفُونَ فِي رَسُولِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا اخْتَلَفَ الْأُمَمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
فِي رَسُولِهِمْ، بَلْ تَجْعَلُونَ ^(٢) رَسُولَكُمْ رَسُولًا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَأَمَّا سَائِرُ الْأُمَمِ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَرَّطُوا فِيهِمْ حَتَّى كَانَ فِيهِمْ جَعْلُ
الرَّسُولِ ابْنًا لَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ
لَا يَزَالُونَ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا رِجْكُمْ فَانْقُوتُوا﴾ كَقَوْلِهِ ^(٣) فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: ٩٢] جائزٌ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا. وَجائزٌ
أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَانْقُوتُوا﴾ انْقُوتُوا ^(٤) مُخَالَفَتِي [وقوله] ^(٥): ﴿فَاعْبُدُون﴾ اِعْبُدُونِي ^(٦)، وَأَطِيعُونِي.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿فَنَقْطِعُوا رُءُوسَهُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَنَقْطِعُوا أَرْهَامَهُمْ﴾ وَقَطَّعُوا ^(٧) وَاحِدًا، وَهَمَّا لُغَتَانِ:
تَفَرَّقُوا وَفَرَّقُوا. وَزُبُرًا يَرْفَعُ الْبَاءُ، وَزُبُرًا يَنْصَبُ الْبَاءُ ^(٨).

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: مَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ: زُبُرًا فَمَعْنَاهُ قِطْعًا كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تُؤْثِرُوا رُءُوسَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ [الكهف: ٩٦] وَزُبُرًا بِالرَّفْعِ أَي كُتُبًا
كَقَوْلِهِ: ﴿تَجْمَلُونَ قَرَابِيسَ﴾ [الأنعام: ٩١] وَقَوْلِهِ: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] وَنَحْوُهُ؛ وَقَالَ: فِي حَرْفِ ابْنِ
مَسْعُودٍ وَأَبِي: وَقَطَّعُوا الزُّبُورَ بَيْنَهُمْ. قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: قَطَّعُوا، وَتَقَطَّعُوا لُغَتَانِ كَقَوْلِكَ عَلِقْتُ الشَّيْءَ، وَتَعَلَّقْتُهُ، وَجَوَلْتُ،
وَنَحَوَلْتُ، وَوَلَيْتُ، وَتَوَلَّيْتُ، وَنَحْوُهُ كَثِيرٌ.

[وقوله تعالى] ^(٩): ﴿كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ رَاضُونَ أَوْ مَسْرُورُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ أَوْ مَا ذَكَرْنَا.

الآية ٥٤

[وقوله تعالى] ^(١٠): ﴿وَذَرَهُمْ فِي غُرَّتِهِمْ حَتَّىٰ يَجِيءَ﴾ كَقَوْلِهِ ^(١١) فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَذَرَهُمْ يَخْرُجُونَ وَيَلْبَسُونَ﴾
[الزخرف: ٨٣] وَقَوْلِهِ ^(١٢): ﴿وَذَرَهُمْ فِي طُفَيْفِهِمْ يَتَعَمَّونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: قَالَ ذَلِكَ ^(١٣) عِنْدَ الْإِبْرَاهِيمَ عَنْ إِجَابَتِهِمْ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ، كَأَنَّهُ قَالَ: دَرَّ
هَؤُلَاءِ، وَاقْبَلِ ^(١٤) هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ بِأَمْرِكَ، وَيُجِيبُونَ دَعَاءَكَ، وَيَسْمَعُونَ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٦) في الأصل وم: وتقطعوا. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢١٥ (٨) ساقطة من الأصل وم.
(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) من م، في الأصل: كذلك. (١٣) من م، في الأصل:
وقيل.

والثاني: ﴿مَذَرْنَاهُ فِي غَرَابَةٍ﴾ ولا تُكَافِئُهُمْ حتى أنا أكافئهم كقوليه: ﴿مَذَرْنَاهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥].

والثالث: أمره أن يَذَرُهُمْ، ويُغَرِّضَ عنهم لئلا يخوضوا في سبِّ الله والظنِّ في الآية كقوليه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي بَيْنِنَا﴾ الآية [الأنعام: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبِينَ﴾ يَحْتَمِلُ الْقِيَامَةَ، وَيَحْتَمِلُ وَفْتًا^(١) آخَرَ، لَمْ يَبِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال أبو عوسجة: ﴿إِلَّا يَذَرُونَا﴾ [المؤمنون: ٥٠] الربوة المكان المرتفع، وآوَيْتُهُ أَي آوَيْتُهُ. وقال القُتَيْبِيُّ: الرَبْوَةُ الِإِزْتِفَاعُ، وَكُلُّ شَيْءٍ اِرْتَفَعَ، أَوْ زَادَ، فَقَدَرِيًّا، وَمِنْهُ الرُّبَا فِي الْبَيْعِ. قال أبو مُعَاوِيَةَ: لِلْعَرَبِ فِي الرَّبْوَةِ أَرْبَعُ لُغَاتٍ: رَبْوَةٌ وَرَبْوَةٌ وَرَبَاوَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال أبو عوسجة: الْمَعِينُ الْمَاءُ الظَّاهِرُ الْجَارِي، وَالْقَرَارُ الشَّابُ، وَتَقُولُ مِنْهُ: [قَرَّ] يَقَرُّ قَرَارًا، فَهُوَ قَارٌّ، وَأَقَرُّرُهُ أَي أَثْبَتُهُ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: وَقَالَ: ﴿وَمَعِينٍ﴾ مَاءٌ ظَاهِرٌ، وَهُوَ مَفْعُولٌ مِنَ الْعَيْنِ، كَانَ أَصْلُهُ مَعِينُونَ^(٢) كَمَا يُقَالُ: ثَوْبٌ مَخِيْطٌ، وَبُرٌّ مَكِيْلٌ.

وقوله تعالى: ﴿فِي غَرَابَةٍ﴾ قِيلَ: فِي ضَلَالَةٍ. [الْقُتَيْبِيُّ: (٤)] الْعَمْرُ الْمَاءُ الْكَثِيرُ، وَغَمْرَةُ الْحَرْبِ وَسَطُهَا، وَغَمْرَةُ^(٥) الْمَوْتِ [شِدَّتُهُ، وَرَجُلٌ] غَمْرٌ أَي سَخِيٌّ، لَيْسَ لَهُ جَمْعٌ، وَجَمْعُهُ غِمَارٌ، وَيُقَالُ: غَمْرَةُ الْمَاءِ أَي صَارَ فَوْقَهُ، وَالْغَمَرُ الْعِدَاوَةُ^(٦)، وَالْغَمْرُ الَّذِي لَمْ يُجَرَّبِ الْأُمُورَ، وَقَوْمٌ أَغْمَارٌ، وَالْغَمْرُ الدَّسَمُ، وَالْغَمْرَةُ الشَّدَّةُ، وَالْغَمَرَاتُ جَمِيعٌ، وَالْغَمَرُ الْقَدَحُ الصَّغِيرُ، وَالْمَقَامَرَةُ الْمُخَاطَرَةُ، تَقُولُ: غَامَرْتُ بِتَقْصِيهِ أَي خَاطَرْتُ [بِهَا]^(٨).

الآيتان ٥٥ و ٥٦ وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ زَيْنٍ﴾ ﴿تَأْتِيهِمْ لَمْ فِي الْفَرِيقِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حَسِبَ أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ أَنَّ مَا أَمَدَّ لَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ وَمَا^(٩) أَغْطَى لَهُمْ أَنَّ مَا أُعْطِيَ خَيْرًا وَبَرًّا، لَا شَرًّا. فَأَخْبَرَ ﴿وَكَذَّبَهُمْ فِي حَسَابِهِمُ الَّذِي حَسَبُوا﴾ فَقَالَ: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّهُ إِنَّمَا أُعْطِيَ لَهُمْ ذَلِكَ شَرًّا وَإِنَّمَا. فَعَلَى مَا حَسِبَ أَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ فِي مَا أُغْطُوا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ إِنَّمَا أُغْطُوا خَيْرًا.

حَسِبَ الْمُعْتَزِلَةُ فِي قَوْلِهِمْ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَفْعَلُ بِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي الدِّينِ، فَأَخْبَرَ ﴿أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ لَهُمْ فِي الدِّينِ﴾، وَلَا أَصْلَحَ لَهُمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنَلِّى لَهُمْ لِيَزَادُوا خَيْرًا وَبَرًّا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا تُنَلِّى لَهُمْ لِيَزَادُوا خَيْرًا وَبَرًّا. وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُصِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٨٥ و ٨٥] وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا بَلْ إِنَّمَا أَرَادَ لِيُزَحِّمَهُمْ بِهَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَلَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ كَمَا قَالَ لِأَوْلَئِكَ الْكَفَرَةُ حِينَ قَالَ: ﴿قُلْ أَشْتُمُ أَهْلَكُمْ أَرَأَيْتُمْ؟﴾ [البقرة: ١٤٠] إِلَّا أَنْ يُكَابِرُوا.

وقوله^(١٠) تعالى: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لِمَا أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ لَا عَلَى الْعِلْمِ حِينَ^(١١) قَالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ زَيْنٍ﴾ فَقَالَ: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حِينَ^(١٢) قَالُوا ذَلِكَ ظَنًّا وَحُسْبَانًا. وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ عِلْمَ إِحَاطَةٍ وَيَقِينِ.

فجواب هذا أن يقال: إِنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا أُعْطِيَ لَهُمْ، وَأُمْلِي خَيْرًا وَبَرًّا لَهُمْ، فَكَانُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ وَإِحَاطَةٍ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ الظَّنُّ وَالْحُسْبَانُ لَهُمْ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ، وَإِلَّا كَانُوا عَلَى حَقِيقَةِ الْعِلْمِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أُعْطَاهُمْ، وَأَمَدَّ لَهُمْ خَيْرًا. فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أُعْطَاهُمْ ذَلِكَ لِمَا ذَكَرُوا، بَلْ أَخْبَرَ أَنَّ مَا أُعْطَاهُمْ لِمُضَادَّةِ ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقْتُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعِينُونَ. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٥) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: شَدَّتْهَا رَجُلٌ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: عِدَاوَةٌ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي قَوْلِهِ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

الآية ٥٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ جائز أن يكون هذا موصولاً بقوله: ﴿تَسْأَلُكُمْ فِي الْغَايَةِ﴾ على التقديم والتأخير. فكانه قال: إنما نُسارع في^(١) الخيرات للذين هم من خشية ربهم مُشْفِقُونَ إلى آخر ما ذكر [لا أولئك]^(٢) الكفرة.

وجائز^(٣) أن يكون على الابتداء وَصَفَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَنَعَتَهُمْ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ أي من عذاب ربهم مُشْفِقُونَ، أي من عذاب ربهم خائفون.

الآية ٥٨ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ﴾ الإيمان بالآيات يكون إيماناً بالله حقيقة لأن الآيات هُنَّ الأعلام التي تَدُلُّ على وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ. والإيمان هو التصديق. فإذا صَدَّقَ آيَاتِهِ، وَهُنَّ أَعْلَامٌ وَأَخْبَارٌ، تُخْبِرُ عَنْ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ. فإذا صَدَّقَهَا صَدَّقَ اللَّهَ، وَآمَنَ بِهِ. لذلك قلنا: الإيمان بآياته يكون إيماناً بالله.

الآية ٥٩ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ﴾ أي لا يُشْرِكُونَ غَيْرَهُ في عبادتهم.

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا﴾ وفي بعض القراءات: والذين يَأْتُونَ ما آتوا: مَفْصُورَةٌ، وهي قراءة عائشة^(٤). فَمَنْ قَرَأَ: يَأْتُونَ ما آتوا فتأويله^(٥): أي الذين يَفْعَلُونَ مِنْ عَمَلٍ، وَجَلَّتْ/٣٥٦- ب/ لَهُ قُلُوبُهُمْ: أَيْتَقَبَلُ^(٦) مِنْهُمْ أَمْ لَا؟ وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا﴾ فهو مِنَ الإِعْطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ؛ يَقُولُ: والذين يُعْطُونَ، وَيُنْفِقُونَ ما أَنْفَقُوا ﴿وَقُلُوبُهُمْ رَاجِلَةٌ﴾ أَنْ ذَلِكَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ أَمْ لَا.

وفيه دلالة أَنَّ الْمُطِيعَ فِي ما يُطِيعُ رَبَّهُ يكون على خَوْفٍ مِنْهُ كَالْمُسِيءِ فِي إِسَاءَتِهِ وكذلك «رُويَ» عَنْ عائشة أنها سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَسَلَّم عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَتْ: أَهُمُ الَّذِينَ يُشْرِبُونَ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُونَ، وَيَزْنُونَ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يَقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْغَايَةِ﴾ [المؤمنون: ٦١]. [الترمذي ٣١٧٥].

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ رَاجِلَةٌ﴾ لا على ذلك، ولكن على ما يَذْكُرُ: أي قُلُوبُهُمْ وَجَلَّتْ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ عَلَى السَّعَادَةِ أَمْ عَلَى الشَّقَاوَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْغَايَةِ وَهُمْ لَمَّا سَبِقُونَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ نَعَتَهُمْ، وَوَصَفَهُمْ، هُمُ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ لَا أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَدَّمْ ذِكْرُهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَمَّا سَبِقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَي سَبَقُوا أُولَئِكَ الْكَفَرَةَ بِهَا.

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جائز أن يكون ذَكَرَ هَذَا، وَقَالَ، لَمَّا عَمِلَ أُولَئِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ^(٧) الَّتِي لَا تَسْعُ، وَلَا تَجُلُ، فَقَالُوا: اللَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فقال: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إِلَّا ما يَسْعُهَا، وَيَجُلُ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] رَدًّا لِقَوْلِهِمْ وَتَكْذِيبًا.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا وُسْعَهَا أَي طَاقَتَهَا. وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَي لَا يُكَلِّفْ أَحَدٌ مِنَ الْعَمَلِ ما يُثْلِفُ طَاقَتَهُ وَسَعَتَهُ فِيهِ؛ لَا يُكَلِّفُ الْغَنِيُّ مِنَ الإِعْطَاءِ ما يُثْلِفُ بِهِ طَاقَتَهُ وَحَيَاتَهُ، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا أَمَرُهُ، وَكَلَّفُهُ، بِأُمُورٍ تَحْتَمِلُ طَاقَتَهُ^(٨) ذَلِكَ الْعَمَلُ وَالْأَمْرُ. فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُرْذَ بِهِ طَاقَةُ الْعَمَلِ وَقُدْرَتُهُ، وَلَكِنْ طَاقَةُ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَجُورُ تَقَدُّمُهَا عَنِ الْأَفْعَالِ^(٩).

والثاني: ذَلِكَ هَذَا لِثَلَا يَقُولُوا: إِنَّا لَمْ نُطِيقْ ما كَلَّفْنَا لَأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْأَعْمَالَ الَّتِي أَمَرُوا بِهَا، وَكَلَّفُوا بِأَعْمَالٍ، مِثْلُهَا الَّتِي

(١) أدرج قبلها في الأصل: لهم. (٢) في الأصل: لأنه أولئك، في م: لأولئك. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) أنظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢١٧. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي يتقبل. (٧) في الأصل وم: أعمال. (٨) في الأصل وم: طاقته. (٩) في الأصل وم: الأحوال.

تَرْكُوهَا، وَهِيَ الْمَعَاصِي الَّتِي عَمِلُوهَا. فَمَا أَمَرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ لَيْسَ يَفُوقُ الَّتِي عَمِلُوهَا، وَلَكِنْ مِثْلُهَا، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ اخْتِجَاجٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. وَذَلِكَ كُلُّهُ مَحْفُوظٌ مَخْصِيٌّ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فَإِنْ كَانَ هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيَّ بِالتَّصْدِيقِ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ، يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، أَيَّ بِالْحَقِّ الَّذِي يَكُونُ لِيُغْضِ عَلَى بَعْضٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجناب: ٢٩] وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا وَمِنَ الْحَقِّ الَّذِي لِيُغْضِ عَلَى بَعْضٍ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَبِهِ أَنْ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ، فِي الْأَوَاقَاتِ الَّتِي تَكُونُ [إِلَى] ^(١) أَبَدِ الْآبِدِينَ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٢): ﴿وَمَنْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾ فَإِنْ كَانَ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾ أَيَّ لَا يُنْقُصُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَلَا يُزَادُ فِيهِ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ. بَلْ يُحْفَظُ مَا عَمِلُوا. أَوْ يَكُونُ ﴿لَا يُظَلِّمُونَ﴾ أَيَّ لَا يُزَادُ عَلَى الْجَزَاءِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْ قَدْرِهَا. بَلْ يُجْزَوْنَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِنْ هَذَا﴾ قِيلَ فِي عَمَائِيَّةٍ وَجَهَالَةٍ وَغَفْلَةٍ ﴿مِنْ هَذَا﴾ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ، وَأَخْصَى عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَائِلُونَ فِي ^(٣) قَوْلِهِ: ﴿فِي غَمَرٍ مِنْ هَذَا﴾ أَيَّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي يَنْطِقُ بِالْحَقِّ، أَيَّ قُلُوبُهُمْ فِي عَمَائِيَّةٍ وَغَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ هَذَا﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي ذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي مَا تَقَدَّمَ: مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَكِيدُ رَبُّهُمْ يَقُولُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ و ٥٨] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ. فَاجْتَبِ أَنْ قُلُوبَ أُولَئِكَ الْكُفَرَةِ فِي غَفْلَةٍ وَعَمَائِيَّةٍ عَنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلَهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ أَقْنَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَمْ أَقْنَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَيَّ مِنْ دُونِ مَا عَمِلَ أُولَئِكَ الْكُفَرَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَدَرَّعُوا فِي غَمَرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿أَتَحْسَبُونَ أَنَّنَا نُنْذِرُ بِهِ مِنْ تِلْكَ رَيْبٍ﴾ ﴿فَسَاءَ لِمَ فِي الْفَيْبِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤ إلى ٥٦] عَلَى [مَا] ^(٤) ذَكَرَ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ أَعْمَالًا مِنْ دُونِ مَا ذَكَرَ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿وَلَمْ أَقْنَلْ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ ^(٥) الَّذِينَ ذَكَرَ أَعْمَالَهُمْ، أَيَّ لَهُمْ أَعْمَالٌ دُونَ الَّتِي ^(٦) ذَكَرَ، لَهُمْ دُونَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ.

الآية ٦٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَقَّقْ إِذَا أَخَذْنَا مَتَرَهُمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ذَلِكَ فِي الْعَذَابِ الَّذِي أَخَذَ أَهْلَ مَكَّةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْجُوعِ سِنِينَ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْجِيفَ وَالْعِظَامَ [المُحَرَّمَةَ وَنَحْوَهَا] ^(٧).

لَكِنْ الْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ. أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ يَقُولُ: ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ أَيَّ يَتَضَرَّعُونَ؟

الآيتان ٦٥ و ٦٦ وَيَقُولُ أَيْضًا: ﴿لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا لَا نُنْصِرُونَ﴾ ^(٨) ﴿مَذَّكَتْ مَا بَيْنِي نَتْلَ عَلَيْكُمْ نَكْثَرُ عَلَىٰ أَفْعَالِكُمْ نَكْصِرُونَ﴾؟ فَإِنَّمَا [يُخْبِرُهُمْ أَنْكُمْ] ^(٩) كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ كَذَا فِي الدُّنْيَا، وَيَذَكِّرُ ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ ذَلِكَ النَّصْرُ [أَوْ يَنْهَاهُمْ] ^(١٠) عَنِ النَّصْرِ بِقَوْلِهِ ﴿لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ﴾ فَذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الْآيَةُ [عَافِر: ٨٤].

(١) ساقطة في الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم. من. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: المؤمنون. (٦) في الأصل وم: الذي. (٧) في الأصل وم: المحرقة ونحوها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يخبر أن. (١٠) من م، في الأصل: بقوله نهاهم.

مِثْلُ هَذَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، وَفِي الدُّنْيَا مَا ذَكَرَ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ذَكَرَ فِي عَذَابٍ ^(١) الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَمْ يَضُرُّوْا [فَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَضُرُّوْا] ^(٢) فِي الدُّنْيَا عِنْدَ نَزْلِ الْعَذَابِ بِهِمْ [نَم] ^(٣) لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ التَّضَرُّعُ وَالِاسْتِكَانَةُ. ذَلِكَ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا تَجْتَرُّوْا الْيَوْمَ﴾؟ نَهَاهُمْ عَنِ التَّضَرُّعِ، وَلَا يُحْتَمَلُ النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَبَأُ لَا تُصْرَبُونَ﴾ أَي تُنْتَعُونَ مِنْ عَذَابِهِ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَفْقَانِكُمْ تَنَكُّسُونَ﴾ قوله: ﴿عَلَى أَفْقَانِكُمْ﴾ تَرْجِعُونَ عَلَى التَّمْثِيلِ لَا عَلَى التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا عَلَى الْأَعْقَابِ صَارَ مَا كَانَ أَمَامَهُمْ وَرَاءَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ نَبَذُوا ذَلِكَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، أَوْ ^(٤) يَكُونُ الْمُتَقَلِّبُ عَلَى الْأَعْقَابِ كَالْمُكَبِّ عَلَى الْوَجْهِ. وَالْمُكَبُّ عَلَى وَجْهِهِ مَذْمُومٌ عِنْدَ جَمِيعٍ مَنْ رَأَاهُ، وَعَابَتُهُ. لِهَذَا [شَبَّهَهُ بِهِ، وَضَرَبَ مَثَلَهُ] ^(٥) بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦٧ وقوله تعالى: ﴿سُتَكْبَرِينَ يَوْمَ﴾ قَالَ عَامَةُ أَهْلِ النَّوِيلِ: قوله ﴿يَوْمَ﴾ أَي بِالْبَيْتِ. وَوَجْهُ هَذَا أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ آيِنِينَ بِمَقَامِهِمْ عِنْدَ الْبَيْتِ وَفِي حَرَمِ اللَّهِ، وَأَهْلُ سَائِرِ الْبَقَاعِ فِي خَوْفٍ ظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لَهُمْ لِفَضْلِ كِرَامَتِهِمْ وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ. فَحَمَلَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْتِكْبَارِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَمَنْ تَابَعَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿سُتَكْبَرِينَ يَوْمَ﴾ أَي بِالْقُرْآنِ. وَتَأْوِيلُهُ: أَي اسْتَكْبَرُوا عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ. وَإِضَافَةُ الْإِسْتِكْبَارِ إِلَى الْقُرْآنِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ تَكْبَرُوا عَلَى اللَّهِ، فَاضَافَ اسْتِكْبَارَهُمْ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبَ تَكْبَرِهِمْ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنْزِلَتْ هَذِهِ بِإِسْنَانٍ فَأَمَّا الْكُتُبُ مَا أُنْزِلَتْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَا تَوْفَاقُهُمْ كَبِيرٌ﴾ [التوبة: ١٢٤ و ١٢٥] أَضَافَ زِيَادَةَ رِجْسِهِمْ إِلَى السُّورَةِ لِمَا بَهَا يَزِيدُ رِجْسَهُمْ، وَكَانَتْ [سَبَبٌ] ^(٦) رِجْسِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَزِيدُ رِجْسًا فِي الْحَقِيقَةِ.

وقوله تعالى: ﴿سَيَرًا يَهْجُرُونَ﴾ قَالَ الرَّجَّاجُ: السَّمَرُ حَدِيثٌ ^(٧) بِاللَّيْلِ.

وقوله تعالى: ﴿يَهْجُرُونَ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: يَهْذُونَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَهْجُرُونَ﴾ الْقُرْآنُ أَي كَانُوا لَا يَعْمَلُونَ بِهِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ. فَهُوَ الْهَجْرُ.

وفيه لَعْنَةٌ أُخْرَى: يَهْجُرُونَ ^(٨) وَهُوَ/ ٣٥٧ - أ/ كَلَامُ الْفُحْشِ وَالْفَسَادِ.

الآية ٦٨ وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَذَّكَّرُوا الْقَوْلَ﴾ قِيلَ: أَي فِي الْقُرْآنِ. يُحْتَمَلُ قَوْلُهُ: ﴿أَلَّا يَذَّكَّرُوا﴾ أَي فَهَلَا تَذَكَّرُوا ذَلِكَ الْقَوْلَ الَّذِي يَقُولُونَ فِي الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ قَوْلُهُمْ ﴿أَوْ تَرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وَمَا ذَكَرَ مِنْ تَضَرُّعِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَّا يَذَّكَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أَي قَدْ تَذَكَّرُوا الْقَوْلَ، لَكِنَّهُمْ تَعَانَدُوا، وَكَابَرُوا، وَاسْتَكْبَرُوا، وَلَمْ يَخْضَعُوا لَهُ أَنْفًا وَاسْتِكْبَارًا. أَوْ لَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ قَوْلُهُ: ﴿قَاتِلُوا يُسُورُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٣] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لِي أَجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَذَّكَّرُوا فِيهِ. ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ تَذَكَّرُوا فِيهِ، وَعَرَفُوهُ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَعَانَدُوا، وَكَابَرُوا، وَاسْتَكْبَرُوا، أَنْفًا مِنْهُمْ وَاسْتِكْبَارًا وَاسْتِكَافًا عَنْ اتِّبَاعِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَرُونَ﴾ أَي يَسْتَفْشِرُونَ. قَالَ: وَأَصْلُهُ مِنَ الصَّيَاحِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَخْتَرُونَ﴾ يَضْرَحُونَ، وَقِيلَ: يَصِيحُونَ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَرًا يَهْجُرُونَ﴾ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحَدِيثِ بِاللَّيْلِ. ﴿يَهْجُرُونَ﴾ أَي يَهْذُونَ كَمَا يَهْذِي النَّائِمُ وَالْمَرِيضُ الشَّدِيدُ الْمَرَضِ. قَالَ: وَهَجَرَ يَهْجُرُ مِنَ الْهَجْرِ، وَهُوَ الْفُحْشُ، وَهَجَرَ يَهْجُرُ إِذَا سَارَ فِي الْهَاجِرَةِ، وَهِيَ شِدَّةُ الْحَرِّ وَقَوْلُهُ:

(١) فِي م، فِي الْأَصْلِ: الْعَذَابُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَشْبَهَ بِهِ ضَرْبَ مِثْلٍ بِهِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي م: هُوَ ظِلُّ الْقَمَرِ فِيهِ كَانُوا يَهْجُرُونَ، وَالسَّمَرُ. (٨) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٢١٨.

﴿تَنكِسُونَ﴾ قَالَ [بَعْضُهُمْ: تَرْجِعُونَ، وَقَالَ^(١) بَعْضُهُمْ: تَسْتَأْجِرُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] تَرْجِعُونَ، وَتَسْتَأْجِرُونَ وَاحِدٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى تَرْكِ التَّدْبِيرِ فِيهِ وَالتَّفَكُّرِ^(٢) وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ، أَيْ لَمْ يَدَّبَّرُوا فِيهِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا.

وَالثَّانِي: عَلَى إِيْجَابِ حَقِيقَةِ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ، أَيْ قَدْ تَدَّبَّرُوا فِيهِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ، لَكِنْهُمْ تَرَكُوا مُتَابَعَتَهُ عِنَادًا وَتَمَرُّدًا إِشْفَاقًا عَلَى ذَهَابِ رِئَاسَتِهِمْ وَطَمَعًا فِي إِيقَانِهَا وَدَوَامِ مَا كَلَّتِيهِمْ.

فَأَيُّ الْوَجْهَيْنِ كَانَ فِيهِ لُزُومُ حُجَجِ اللَّهِ وَبِرَاهِينِهِ عَلَى مَنْ جَهِلَهَا، وَلَمْ يَعْرِفْهَا، بِالْإِعْرَاضِ عَنْهَا وَتَرْكِ التَّدْبِيرِ فِيهَا حِينَ^(٣) اسْتَوْجَبُوا عَذَابَ اللَّهِ وَمَقَّتَهُ لِجَهْلِهِمْ بِهَا بِتَرْكِ التَّدْبِيرِ فِيهَا بَعْدَ أَنْ^(٤) كَانَ لَهُمْ سَبِيلُ الْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَتِهَا.

وظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ اسْتِفْهَامٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِيْجَابٌ لِمَا^(٥) لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَفْهَمَ اللَّهُ أَحَدًا. فَهُوَ عَلَى الْإِيْجَابِ لِأَنَّهُ عَلَامُ الْغُيُوبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ قَدْ جَاءَهُمْ [مَا جَاءَ آبَاءَهُمْ]^(٦) الْأَوَّلِينَ مِنَ الرُّسُولِ؛ لَمْ^(٧) يَأْتِ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَتَى آبَاءَهُمْ، لَمْ يُخْصُوا مِنْهُم بِالرُّسُولِ. فَكَيْفَ أَنْكَرُوهُ؟

الْأَثَرُ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِّيَكُونُوا أَهْدَى مِنْ إِبْدَى الْأَلْسِمِ﴾ [فاطر: ٤٢] قَدْ أَقْرَأُوا أَنَّ فِي الْأَمْسِ الْمُتَقَدِّمَةِ رَسُولًا حِينَ^(٨) قَالُوا ﴿لِّيَكُونُوا أَهْدَى مِنْ إِبْدَى الْأَلْسِمِ﴾؟

الآية ٦٩ وعلى ذلك يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ لَمْ يَرْفِقُوا رَسُولَهُمْ﴾ أَيْ قَدْ عَرَفُوا رَسُولَهُمْ، لَكِنْهُمْ أَنْكَرُوهُ، وَتَرَكُوا اتِّبَاعَهُ بِمَا^(٩) ذَكَّرْنَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ عِنَادًا وَتَكْبِيرًا وَإِشْفَاقًا عَلَى رِئَاسَتِهِمْ لَكِي تَبْقَى.

الْأَثَرُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ الْآيَةُ؟ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠].

الآية ٧٠ وعلى هذا [يُخْرِجُ قَوْلُهُ]^(١٠): ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أَيْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ جِنَّةٌ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ جَاءَ هَؤُلَاءِ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ، وَخُصَّ هَؤُلَاءِ بِمَا لَمْ يُخْصَّ آبَاءُهُمْ. وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَعَمْرِي لَقَدْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يُخْرِجُ^(١١) عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّدْبِيرِ فِيهِ وَمَعْرِفَةِ الرُّسُولِ أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا يَصِفُونَهُ مِنَ الْجُنُونِ وَغَيْرِهِ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] أَيْ تَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِهِ جِنَّةٌ عَلَى مَا يَصِفُونَهُ، أَوْ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُمْ تَفَكَّرُوا، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ جُنُونٌ، وَلَا شَيْءٌ مِمَّا وَصَفُوا بِهِ. لَكِنْهُمْ ارْتَدَّوْا أَنْ يُنْبَسُوا عَلَى اتِّبَاعِهِمْ وَسَفَلَتِهِمْ إِشْفَاقًا عَلَى إِيقَانِهِ مَا ذَكَّرْنَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ الْبِرَاءَةِ مِنَ الْعَذَابِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ بِالرِّسَالَةِ وَالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْعِبَادَةَ لَهُ مِنْ دُونِ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ ﴿بِالْحَقِّ كَافِرُونَ﴾ كَرِهُوا الْحَقَّ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّ فِي [اتِّبَاعِهِ ذَهَابَ الرِّئَاسَةِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ^(١٢) عَلَى^(١٣) اتِّبَاعِهِمْ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُ حَقٌّ. أَوْ كَرِهُوا لَمَّا لَمْ يَعْرِفُوا فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّهُ حَقٌّ. وَإِلَّا فَلَا أَحَدٌ يَمُنُّ يُوصَفُ بِصِحَّةِ الْعَقْلِ وَسَلَامَتِهِ يَكْرَهُ الْحَقَّ، وَيَتْرُكُ اتِّبَاعَهُ إِلَّا لِلْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَّرْنَاهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْلَهُ أَمَرَهُمْ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: الْحَقُّ هَهُنَا، هُوَ اللَّهُ أَيْ لَوْ اتَّبَعَ اللَّهُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل: حقيقة التفكير. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: لها. (٦) في الأصل وم: ما جاءهم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (١٢) في م: وهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

أهواءهم في كفرهم وشريرهم ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وتاويل [هذا] ^(١) أن الكفر والشرك وما لا عاقبة له. فهو في الحكمة والعقل فاسد باطل غير مستحسن.

وقال بعضهم: الحق ههنا كتاب الله، وهو القرآن على ما يهتدون هم لفسد ما ذكر لأنه يكون خارجاً عن الحكمة. وجائز أن يوصل قوله: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بالحق ^(٢) الذي سبق ذكره، وهو قوله: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لَافِقٌ كَذِبُونَ﴾ أي [لو اتبع] ^(٣) ذلك الحق أهواءهم، وجاء على ما هوئته ^(٤) أنفسهم، واشتهت، [والحق] ^(٥) اسم كل مستحسن وممدوح في العقل والحكمة. ولو اتبع ذلك الحق أهواءهم، وجاء على ما هوئته ^(٦) أنفسهم، واشتهت من عبادة غير الله وتسميتهم إياها آلهة وإنكارهم البعث والتوحيد وغير ذلك من الأفعال التي كانوا اختاروها وعملوا ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وما ذكر لأنه يكون خلقهم وخلق ما ذكر من السموات والأرض وما فيهن لا لما توجب الحكمة والعقل إذ ^(٧) خلقهم، وخلق ما ذكر لأفعالهم التي يفعلون.

فإذا ^(٨) خرجت أفعالهم على غير ما توجب الحكمة والعقل بل على السفه والجهل خرج الذي لها خلق من أجلها الشيء. كذلك إذ خلق الشيء وفعله لا لعاقبة تقصد خارج عن الحكمة، والله أعلم بذلك.

وجائز أن يكون الحق، هو رسول الله؛ أي رسول الله لو اتبع أهواءهم لفسد ما ذكر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَلِيتَهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ قال أهل التاويل: بشرفهم وذكرهم كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوَاكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿فَهَرَّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن شرفهم معرضون.

وجائز أن يكون الذكر هو الحق الذي تقدم ذكره، أي لو قبلوا [ذلك الحق، واقبلوا] ^(٩) نحوه يكون في ذلك ذكرهم من بعد هلاكهم كما يذكر أصحاب رسول الله من بعد ما ماتوا. ألا ترى أولادهم يذكر آباؤهم يتعشرون؟ يقولون: إنا من بني فلان، فيبرهنهم الناس بذلك، ويكرمونهم.

وأما أولئك فإنهم لا يذكرون بشيء من ذلك. فذلك يدل على ما ذكرنا.

ويحتمل قوله: ﴿بَلْ أَلِيتَهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ الشاء عليهم: أي لو آمنوا كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ونحو ذلك مما أثنى الله على من آمن منهم. فهم لو آمنوا استوجبوا بذلك الشاء.

وجائز أن يكون قوله: ﴿بَلْ أَلِيتَهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي يدعاه لهم، وهو ما دعا الملائكة والرسل للمؤمنين كقوله: ﴿وَسْتَفْقِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [غافر: ٧] وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [غافر: ٥٥ ومحمد: ١٩] [وقول: نوح: ١٠٠] ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ الآية [نوح: ٢٨] وقول إبراهيم ودعائه لهم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] ^(١١) لو آمنوا استوجبوا دعاء هؤلاء الملائكة والرسل جميعاً، أو أن يكون ما ذكرنا من إبقاء ذكرهم إلى يوم القيامة كما بقي ذكر أولئك الذين آمنوا به، وصدقوه. فيكون في ذلك كله شرفهم وقدرهم على ما قاله أهل التاويل، والله أعلم.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرُوفًا فَفَرِحُوا بِرَبِّكَ خَيْرٌ﴾ جائز أن يكون هذا صلة ما تقدم من قوله: ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٨ و ٦٩] أي قد عرفوا رسولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠] أي ليس به شيء يمتنعهم عن الإجابة والإيمان به بما يغفرونهم في ترك الإيمان به.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الحق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هوت به. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: هوت به. (٧) في الأصل وم: إذا. (٨) في الأصل وم: فإذا. (٩) في م: ذلك الحق الذي واقلوا. (١٠) في الأصل وم: وقوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرَمًا﴾ أي لم تسألهم أجراً على ما تدعوهم إليه حتى يمنعتهم ثقل ذلك الأجر عن إجابته وتضديقه كقولهِ أيضاً: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَمِنْ مَقَرِّمْ تُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] يقطع مما ذكر جميع أَعْدَارِهِمْ ويجاجيهم، وإن لم يكن [لهم] ^(١) عُذْر ولا حُجَّة في ترك الإجابة له.

وقال بعضهم: الخراج: الرزق ^(٢)، أي تسألهم رزقاً. ثم أخبر أن أجر ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ وَمَوْ خَيْرُ الرَّزِيقِ﴾.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ مِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المُستقيم القائم بالآيات والحجج ليس كالسبيل التي يسلكون هم بلا آيات ولا حجج ولا برهان.

الآية ٧٤ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّهُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أن إنكارهم البعث والآخرة هو الذي حملهم على العدول عن الصراط المستقيم.

والثاني: أن الصراط الذي في الدنيا هو المَجْعُولُ للآخرة. فإذا تركوا سلوكه لشهوات منعتهم عن ذلك أنكروا الآخرة. أو كلامٌ نحو هذا.

وقوله: ﴿لَنُكَيِّبُنَّهُمْ﴾ أي لعادِلون، من العدول عنه والمجانبة والميل إلى غيره.

الآية ٧٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَفَفْنَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ مِن شَرِّ لَلْجَأِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ذكر الضُر، ولم يذكر أي شيء كان. وليس لنا أن نقول كان الجوع، أو كذا إلا بَيِّن. وفيه وجهان من المُعْتَبَر:

أحدهما: أن دفع المحن التي امتحنهم من البلايا والشدائد إنما يكون بِرَحْمَةٍ منه وقُضِلَ لا على ما قاله بعض الناس بالإستحقاق حين ^(٣) ذكر [أن] ^(٤) رَحْمَتُهُ تَكْشِفُ ذلك عنهم.

والثاني: فيه دلالة إثبات رسالة محمد ﷺ لأنه أخبر أنه، وإن كُشِفَ ذلك الضُر عنهم لجأوا ^(٥) في طُغْيَانِهِمْ. فكشفت عنهم ذلك، ف لجأوا في طُغْيَانِهِمْ على ما أخبر. قدَّ أنَّهُ بالله عَرَفَ ذلك، والله أعلم.

الآية ٧٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّيْبِ وَمَا يَنْصَرِعُونَ﴾ يُخْبِر عن سَفَهِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بالله وقسوة قلوبهم وتمردهم وعنادهم حين ^(٦) أخبر أنهم، وإن أخذوا بالعذاب، لم يتضرعوا إليه، وما استكانوا له لجهلهم بعذاب الله حين ^(٧) أخبر أنهم، وإن أخذوا [بالعذاب]، لم يتضرعوا إليه.

الآية ٧٧ وقوله تعالى ^(٨): ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبِيلُونَ﴾ اِخْتَلَفَ في قوله: ﴿مُبِيلُونَ﴾ قال بعضهم: المُبِيلُ الأيس من كل خير، وهو ما وصفه ^(٩) ﴿إِنَّهُ لَيَبُوءُ كُفُورًا﴾ [هود: ٩] فيؤوس قنوط ونحوه.

قال الزجاج: المُبِيلُ الساكِتُ المُتَحَيِّرُ، لا يذري ما يعمل به. فعلى ذلك هم كانوا خيارى لما نزل بهم العذاب لا يذرون ما يعملون به في رفع ذلك عنهم.

وقال الكسائي: المُبِيلُ المُنْقَطِعُ السَّيِّئُ الظَّنُّ. قال: ومنه سُمِّيَ إبليس لأنه أيس من رحمة الله، وانقطع رجاؤه عنده.

وقال أبو عوسجة: اليائس الحزين، ويقال: إبليس الرجل إن ^(١٠) أيس، فحزن، وإبليس غيره أيضاً، وإنما سُمِّيَ إبليس إبليس لأنه يئس من رحمة الله، فحزن. قال: وقوله: ﴿فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّيْبِ﴾ أي لم يذللوا الربوب بالبطاعه له والخضوع لِمَا ذَكَّرْنَا.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَهُ التي ^(١١) أنعمها عليهم لِيَسْتَأْدِي بذلك الشكر له عليها. ذكر أمهات النعم، لم يذكر غيرها، وهي ^(١٢) السَّمْعُ والبَصَرُ والفؤاد الذي ذكر، إذ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والرزق. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: للجوا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وصفهم. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) من م، في الأصل: الله. (١٢) في الأصل وم: وهو.

بها يُوصَلُ إلى مَعْرِفَةِ كُلِّ نَافِعٍ وَضَارٍّ وَكُلِّ طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ وَكُلِّ لَيِّنٍ وَخَشِنٍ وَكُلِّ سَهْلٍ وَشَدِيدٍ وَكُلِّ حُلُوٍّ وَمُرٍّ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَطْبُوعاً عَلَى حُبِّ النَّافِعِ وَالطَّيِّبِ وَاللَّيِّنِ وَالسَّهْلِ، وَاخْتِيَارُهُ عَلَى أَضْدَادِهِ، وَالْهَرَبُ مِنْ كُلِّ ضَارٍّ وَمُؤْذٍ وَالْفِرَارُ مِنْ أَضْدَادِهِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمُخْتَارَاتِ عِنْدَهُ.

فَاخْبَرَ أَنَّهُ أَغْطَى لَهُمْ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ النَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ وَالطَّيِّبَ [مَنْ] ^(١) الْخَبِيثَ مُشَاهِدَةً وَخَبَرًا، وَمَا بِهِ يُمَيِّزُونَ ذَا مِنْ ذَا، وَيَخْتَارُونَ مَا هُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ، وَمَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ لِيَسْتَأْذِي بِذَلِكَ شُكْرَهُ.

الآية ٧٩

وَذَكَرَهُمْ ^(٢) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَاخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَكِنْ: لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحَشْرِ إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَأَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ لِلْفَنَاءِ خَاصَّةً لَا لِلْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ عَبَثٌ وَلَعِبٌ.

الآية ٨٠

وَاخْبَرَ عَنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ حِينَ ^(٣) قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَنَّ مَنْ قَدَرَ، وَمَلَكَ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى وَإِمَاءَةَ الْحَيِّ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَمَنْ مَلَكَ إِنْشَاءَ اللَّيْلِ بَعْدَ مَا دَهَبَ أَثَرُ النَّهَارِ وَإِنْشَاءَ النَّهَارِ بَعْدَ مَا دَهَبَ أَثَرُ اللَّيْلِ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّهُ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ مَا صِرْتُمْ رَمَادًا وَتُرَابًا؟ وَكَيْفَ تُشْرِكُونَ ^(٤) غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ إِنَاءً؟ وَتَضَرِّفُونَ الشُّكْرَ إِلَى غَيْرِهِ فِي مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ؟

ثُمَّ أَهْلُ التَّوَابِلِ صَرَّفُوا قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ إِلَى آخِرِهِ إِلَى الْكُفَّارِ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِنِعْمَتِهِ الَّتِي ذَكَرَ، وَيُنْكِرُونَهَا، وَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ رَأْسًا بِقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ رَبِّمَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٦٥] وَنَحْوَهُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا دَعَاءُهُمْ وَتَضَرُّعُهُمْ إِلَى اللَّهِ عِنْدَمَا أَصَابَهُمُ الضَّرُّ. فَذَلِكَ مِنْهُمْ شُكْرٌ. أَوْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ رَأْسًا كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِآخَرَ: قَلِيلًا مَا تَفْعَلُ كَذَا، أَيْ لَا تَفْعَلُ أَصْلًا. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهَا وَالْخَطَابُ بِهَا أُولَئِكَ الْكُفَرَةَ، وَإِلَّا فَالْخَطَابُ ^(٥) بِهَا يَجِيءُ أَنْ يَكُونَ رَاجِعًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ هُمْ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِبَعْضِ الشُّكْرِ لِنِعْمِهِ وَقَلِيلِهِ. وَأَمَّا الْكُفَرَةُ فَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهَا، وَيُنْكِرُونَ رَأْسًا.

الآيتان ٨١ و ٨٢

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ يُخْبِرُ جَلًّا، وَعَلَا، رَسُولَهُ سَفَهَ قَوْمِهِ وَقَوْلَهُمْ الَّذِي قَالُوا بَعْدَ مَا بَيَّنَّ ^(٦) لَهُمْ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِمْ وَإِنْشَائِهِمْ. وَذَكَرَهُمْ نِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ فِي مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون ٧٨ و ٧٩ و ٨٠].

ذَكَرَهُمْ مَا ذَكَرَ فِي هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِمْ وَقُدْرَتِهِ فِي إِنْشَاءِ مَا أَنْشَأَ لَهُمْ، وَعَرَّفَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفُوا ذَلِكَ كُلَّهُ. ثُمَّ بَيَّنَّ سَفَهَهُمْ فِي جَوَابِهِمْ رَسُولَهُ، فَقَالَ: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ يُخْبِرُ رَسُولَهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِأَوَّلٍ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ، وَلَكِنْ كَانَ لَهُمْ شُرَكَاءُ وَأَصْحَابٌ فِي التَّكْذِيبِ، قُلَّةٌ هَؤُلَاءِ أُولَئِكَ الْأَوَّلِينَ، يُضَيِّرُ رَسُولَهُ عَلَى سَفَهِ هَؤُلَاءِ وَإِذَا هُمْ لِيُضَيِّرَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا صَبَرَ إِخْوَانُهُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ، أَوْ يَذْكُرُ هَذَا لِيُسَلِّيَ ^(٧) بَعْضَ مَا تَدَاخَلَ فِيهِ بِتَرْكِهِمْ إِبْجَابَتَهُ وَخَوْضِهِمْ فِي مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [كَادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ] ^(٨) حَتَّى قَالَ [لَهُ] ^(٩): ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨] وَقَالَ ^(١٠): ﴿لَمَلَكٌ بَلَغَ نَفْسُكَ﴾ [الشعراء: ٣].

فَبَيَّنَّ مَا ﴿قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَوَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. يذكرهم. (٣) في الأصل وم. حيث. (٤) في الأصل وم. تشكرون. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم. تبين (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم. السبيل. (٨) في الأصل وم. كان أن تهلك نفسه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم. و.

الآية ٨٣ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقولون: قد وعد^(١) آباؤنا بعيش ما وعدنا نحن، فلم يثربهم ما أوعدوا من العذاب، ولا ينزل أيضاً بنا ما وعدنا، وهو أساطير الأولين، أي أحاديث الأولين. ثم أمر رسوله أن يسألهم ما يلزمهم الإقرار والإغتراف بما كانوا ينكرون.

الآيتان ٨٤ و ٨٥ فقال: /٣٥٨- / ﴿قُلْ لِيِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [فقالوا: لله. لم يجدوا بداً من أن يقولوا لله]^(٢) ويقولوا به لأنهم [لو أنكروا ذلك جهلهم، وأظهر]^(٣) جهلهم عند كل الخليقي. فقالوا: لله، فيقول: فإذا عرفتم أن ذلك كله له، وهو خالقكم^(٤)، فكيف تركتم طاعته، وأنا لست أدعوكم إلا إلى ذلك: أن تجعلوا الأرض وما فيها كله لله؟ أفلا تتعظون، وتقررون بما أدعوكم إليه؟

الآيتان ٨٦ و ٨٧ وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لا بد لهم من أن يقرروا بذلك. فإذا اغترفتكم^(٥) بذلك، وأقررتكم به ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مخالفته، وتتقون نعمته؟

الآيتان ٨٨ و ٨٩ وكذلك ما قال: ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكْسِرُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فإذا عرفتم ذلك، وأقررتكم به ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ قيل: فأنى تصرفون عن ذلك؟ وقال بعضهم: فأنى تُخدعون، وتقررون [إذا عرفتم أن ذلك]^(٦) كله لله؟

وجائز أن يكون قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ رسول ﷺ وتقولون: إنه ساجر كذاب، وهو ليس يدعوكم إلا إلى ما أقررتكم، واغترفتكم به، فأنى تتسبونني إلى السحر؟ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قد ذكرنا في ما تقدم. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكْسِرُ عَلَيْهِ﴾ أي يؤمن كل خائف، ولا يقدر أحد أن يؤمن من أخافه، وهو كقوله: ﴿وَلَنْ يَسْئَلَكَ اللَّهُ بَشْرًا﴾ الآية [الأنعام: ١٧].

قال أبو عوسجة: قوله: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكْسِرُ عَلَيْهِ﴾ أي يمنع^(٧) ولا يكسر عليه، أي لا يقدر أحد أن يمنع منه أحدًا [وقوله]^(٨): ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي تقررون، وتخدعون؟ تقول: سحرته أي خدعته، وغررت. وقال: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ أي تُخدعون، وتصرفون عن هذا.

الآية ٩٠ وقوله تعالى: ﴿بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ قد ذكرنا أنه يحتمل وجوهاً:

أحدها: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بوحداية الله والوحيته وتعالى عن الشركاء والولدي وعمّا وصفوه.

[والثاني]^(٩): أن يكون قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالقرآن الذي عرفوه أنه حق وأنه من عند الله.

[والثالث]^(١٠): أن يريد ﴿بِالْحَقِّ﴾ محمداً ﷺ عرفوا أنه رسول الله ﷺ.

[والرابع]^(١١): أن يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾ ما ذكر من ذكركم وما فيه شرفهم ومنزلتهم.

[والخامس]: أن يكون^(١٢) ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يكون لله عليهم وما ليغضبهم على بغض من الحقوق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْتَفُوا لِكَذِبُون﴾ في وصفهم ربهم [في ما]^(١٣) وصفوه بما لا يليق وصفه به، أو كاذبون [بأن القرآن]^(١٤) مفتري ومختلق من عند الله، أو كاذبون في قولهم بأنه ساحر وأنه مجنون وأنه ليس برسول. كذبوا في جميع ما أنكروا، والله أعلم.

(١) في الأصل و م: وعدنا (٢) في الأصل و م: يقول الله (٣) في الأصل: أنكروا ذلك جهلهم، في م: لو أنكروا ذلك جهلهم ويظهر (٤) في الأصل و م: خالقهم (٥) في الأصل و م: عرفتم. (٦) في الأصل: في ذلك، في م: في ذلك فإذا عرفتم ذلك. (٧) أدرج قبلها في م: لا. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: أو. (١٠) في الأصل و م: أو. (١١) في الأصل و م: أو. (١٢) في الأصل و م: و. (١٣) في الأصل و م: مما. (١٤) في الأصل و م: بالقرآن.

الآية ٩١

وقوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ جائز أن يكون كل حرف من هذه الحروف موصولاً بغضه ينغض بما^(١) تقدّم. وجائز أن يكون كل حرف من هذه الأخرى منفصلاً عن الأول مستنداً بذاته.

فإن كان على الأول فيكون قوله: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لو^(٢) كان اتخذ ولداً لكان إلهاً، إذ الولد يكون من جنس الوالد ومن جوهره، لا يكون من خلاف جوهره ولا من غير جنسه في المتعارف. فإذا كان إلهاً من الوجه الذي ذكرنا ﴿إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾.

وإن كان منفصلاً فهو على ما ذكر من فساد ذلك كله لأنه قال: ولو كان معه إله على ما زعموا ﴿إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ من الخير والشر [ودعيت^(٣)] الدلالة على الوهيّة ﴿وَلَمَّا بَسَّضَهُمْ عَلَى بَعِينٍ﴾ أي قهراً، وغلب بعضهم بغضاً على ما يكون من عادة ملوك الأرض. فإذا كان ما قالوا ذهب دلالة الألوهيّة والرؤييّة. فإذا لم يكن ذلك دل أنه واحد لا شريك معه، ولا ولده؛ إذ اتساق التدبير وجزئ الأشياء على حد واحد وسنن واحد دل على ألوهيّة واحد لا لعدد؛ إذ لو كان لعدد لكان ما ذكر: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ثم معلوم أن مثل هذا الاحتجاج لا يكون مع الذين ينكرون ألوهيّة الله، ويعبدون الأصنام، وهم مشركو العرب وكفار مكة. ولكن إنما يكون مع الذين يقرّون بألوهيّة الله، لكن يجعلون معه شريكاً لحاجة تقع له، وهم الثنويّة والدهرية والمجوس وأولئك الذين يجعلون خالق الشر غير خالق الخير وخالق هذا غير خالق هذا.

فيكون قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ على هذا، أي يتعالى عما وصفوه بالحاجة له في خلق ما خلق والتفّع له في ذلك.

الآية ٩٢

وكذلك قوله: ﴿تَتَخَلَّىٰ عَنَّا يَتَخَوَّنُ﴾

وأما على ظاهر ما تقدّم ذكره من اتخاذ الولد والشريك ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والشريك وما قالوا فيه، ونسبوا إليه مما لا يليق به، أو يكون قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ كما يوصف^(٤) المخلوق المحدث، لأنهم وصفوه بالولد [والولد^(٥)] في متعارف الخلق لا يكون إلا من الوالد والأم. هذا التوالد المعروف في ما بين الخلق.

فإن وصفوه باتخاذ الولد شبهوه بالمخلوق المحدث من الوجه الذي ذكرنا، فتزّنه نفسه عن ذلك.

الآيتان ٩٣ و٩٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ صَوْنِي مَا بُوْعِدْتُ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: قوله^(٦): ﴿رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ صَوْنِي مَا بُوْعِدْتُ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يتخيل وجهين:

أحدهما^(٧): ﴿رَبِّ إِنَّمَا رُفِعَ صَوْنِي مَا بُوْعِدْتُ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لأنه كان وعد له أن يرفعه بغض ما وعد لهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رُفِعَ بَعْضُ الَّذِينَ يَدْعُونَ تَرَفَعْنَا﴾ [يونس: ٤٦ والرعد: ٤٠] فلا تُريك شيئاً، فقال: رب إن أرفعتني ما يوعدون، أو لا تُرني ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

والثاني: إنك وإن أرفعتني ما تقدّم على التحقيق ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم^(٨) يتخيل قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وجهين:

أحدهما: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ في العذاب الذي وعدت لهم أن [تنزل عليهم]^(٩) لأنه من العدل أن يعذبه وتعامله معاملة أهل العدل. كأنه يقول: رب لا تعاملني معاملة ظالمك إياهم، وإن كان ذلك من العدل أن تعاملني مثل ما تعامل أولئك، لأن رسول الله، وإن لم يكن [له]^(١٠) زلات ظاهرة فلقد كان من الله إليه من النعم والإحسان ما لو أخذ بشكر ذلك لم يقدر على أداء شكر واحدة منها فضلاً عن أن يؤدي شكر الكل.

(١) في الأصل وم: لما. (٢) في الأصل وم: ولو. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: يصف. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لم. (٩) في الأصل وم: تنزل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُئِيَ عَنْهُ ﷻ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ، فَقِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ» [مسلم/٢٨١٦/٧١ و. ٢٨١٨/٧٨].

[والثاني^(١)]: «فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ» فِي الزَّيْعِ وَالْغَوَايَةِ. يَسْأَلُ رَبُّهُ أَنْ يَغْصِمَهُ عَنِ الزَّيْعِ فِي الضَّلَالِ^(٢) وَالْغَوَايَةِ الَّتِي عَلَيْهِ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ^(٣)، وَهُوَ كَدَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ وَسْوَإِهِ^(٤) الْعَصْمَةَ عَنِ الزَّيْعِ بِقَوْلِهِ: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» [إبراهيم: ٣٥] وَإِنْ كَانَ وَعَدَ لَهُمُ الْعَصْمَةَ عَنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٥

وقوله تعالى: «وَلِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ» هَذَا أَيْضًا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يُخْبِرُ رَسُولَهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِعَجْزِ يُوْخُرُ مَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَلَكِنْ لِحِلْمِ مِنْهُ وَعَفْوٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷻ: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَفِيفًا عَمَّا يَكْمُلُ الْأَعْلَامُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْقَارُ» [إبراهيم: ٤٢] فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ هَذَا.

وَالثَّانِي: يُعْزِي رَسُولَهُ^(٥)، وَيُصْبِرُهُ عَلَى آذَانِهِمْ إِيَّاهُ؛ يَقُولُ: إِنِّي مَعَ قُدْرَتِي عَلَى إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ أَخْلُمُ، وَأُوْخِرُ عَنْهُمْ، فَانْتَ مَعَ ضَعْفِكَ عَنْ ذَلِكَ أَوْلَى أَنْ تُصْبِرَ عَلَى آذَانِهِمْ.

الآية ٩٦

وعلى هذا يُخْرِجُ قَوْلُهُ: «أَذْفَعُ يَأْتِي مِنْ أَحْسَنُ السَّنَةِ» [على وجهين:

أَحَدُهُمَا]:^(٦) أَي لَا تُكَافِئُهُمْ لِآذَانِهِمْ إِيَّاكَ، وَلَا تُشْتَغِلُ بِهِمْ بِمُجَازَاةِ ذَلِكَ [وَلَكِنْ أَذْفَعُ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ]^(٧) وَكِلَافًا لِقَوْلِهِمْ: «وَلَكِنْ أَكْفَيْتُهُمْ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» مِنَ الْكُذْبِ وَالْأَدَى الَّذِي يُؤْذُونَكَ.

وَالثَّانِي: «أَذْفَعُ يَأْتِي مِنْ/٣٥٨-ب/ أَحْسَنُ السَّنَةِ» أَي أَذْفَعُ سَيِّئَاتِهِمْ الْمُتَقَدِّمَةِ بِأَحْسَنِ يَكُونُ مِنْكَ إِلَيْهِمْ لِيَكُونُوا لَكَ أَوْلِيَاءَ وَإِخْوَانًا فِي حَادِثِ الْأَوَاقَاتِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: «أَذْفَعُ يَأْتِي مِنْ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» [فصلت: ٣٤].

الآيتان ٩٧ و ٩٨

وقوله تعالى: «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» «وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ» كَقَوْلِهِ^(٨) فِي آيَةٍ أُخْرَى: «وَلِنَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» [الأعراف: ٢٠٠] وَفَصَلَتْ [٣٦] عِلْمُ رَسُولُهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ اللَّعِينِ إِذَا نَزَعَهُ، وَنَزَعَهُ [وَسُوسَ لَهُ]^(٩). وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنْ هَمَزِهِ أَيْضًا، وَهُوَ هَمُّهُ وَقَصْدُهُ بِذَلِكَ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِ مِنْ حُضُورِهِمْ مَكَانَ الْوَسْوَاسَةِ حَتَّى [يَذْفَعَهُمْ عَنْهُ وَلَا يَحْضُرُوا] ذَلِكَ الْمَكَانَ.

وَكَانَ التَّعَوُّذُ مِنْ نَزْعِهِمْ لِيَذْفَعَ عَنْهُ لَثْلًا يُؤْثِرُوا فِي نَفْسِهِ بَعْدَ مَا حَضَرُوهُ [وَوَسَّوْهُ لَهُ]^(١٠) وَالتَّعَوُّذُ مِنْ هَمَزِهِمْ هُوَ أَنْ يَذْفَعَ عَنْهُ^(١١) طَعْنَهُمْ وَنَحْسَهُمْ لَثْلًا يَشْغَلُوهُ بِالَّذِي قَصَدُوهُ بِهِ، وَالتَّعَوُّذُ مِنْ حُضُورِهِمْ مَكَانَ الْوَسْوَاسَةِ.

قَالَ الْحَسَنُ: هَمَزُ الشَّيْطَانِ الْمَوْتَةُ، وَالْمَوْتَةُ غَشْيَانُ الْقَلْبِ.

رُويَ فِي الْحَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ^(١٢) هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ [أَبُو دَاوُدَ ٧٦٤]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَمَزَاتُهُ وَنَزْعَاتُهُ وَاحِدٌ.

وَقَالَ الْقَتَيْبِيُّ: هَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ نَحْسُهَا وَطَعْنُهَا، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْعَائِبِ: هَمَزَةٌ لِأَنَّهُ^(١٣) يَطْعُنُ، وَيَعِيبُ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: هَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ وَسَاوِسُهُمْ، يُقَالُ: هَمَزَ يَهْمِزُ هَمَزًا، أَي وَسَّوَسَ، وَمِنْ وَجْهِ آخَرَ: هَمَزَ يَهْمِزُ هَمَزًا، أَي عَابَ يَعْيبُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلِكُلِّ هَمَزَةٍ لُزْمَةٌ» [الهمزة: ١].

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ: «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ وَجْهَانِ عَلَى الْمُعْتَرِزَةِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَمَرَ رَسُولَهُ [أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِ]^(١٤) مِمَّا ذَكَرَ، فَذَلَّ أَنْ عِنْدَهُ لُظْفًا، لَمْ يُعْطِ، مَا لَوْ أَعْطَاهُ اللَّهُ لَذْفَعَ بِهِ مَا ذَكَرَ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي م: بِالضَّلَالِ (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الظَّالِمِينَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسْوَإِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: رَسُولَ اللَّهِ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ: أَحْسَنُ ذَلِكَ، فِي م: بِأَحْسَنِ ذَلِكَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسُوسَهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَوَسَّوْهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: عَنْهُمْ. (١٢) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ فِي. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَهُ. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

وأنه مالك لذلك؛ إذ لو كان غيره مالكا^(١) لذلك لخرّج السؤال به مخرج الهزء به، إذ من طلب من آخر شيئا، يعلم أنه ليس عنده ذلك، خرّج ذلك الطلب مخرج الهزء به. فعلى ذلك هذا.

والثاني: أن كل ما مور بالتموّد جعل الله له الإعادة عما يتعوّد عنه.

فالوجهان يتقضان على المعتزلة قولهم: إن الله قد أعطى كلا الأصلح في الدين، وأعطى كلا العظمة عن كل ريع وضلال.

الآية ٩٩

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ظاهر هذا أن يكون قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ بعد الموت وبعد ما عاين أهوال الآخرة وأفزعها، لأن الموت ليس هو شيئا يأتي من مكان إلى مكان، إنما هو شيء يذهب بالحياة التي فيها.

إلا أن أهل التأويل قالوا: إن ذلك عند معاينتهم ملك الموت وعند مجيئهم بأهواله فعند ذلك يسألونك الرجعة إلى الدنيا. والأول أشبه، وأقرب.

ثم قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ ليس هو صلة قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ بل هو صلة قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ولا جوابه لأنه ليس من نوعه ولا من جنس ذلك، ولكنه، والله أعلم، صلة قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَانْتَهَرْتُمْ لَكُذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠] وجواب قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] ونحوه الذي تقدّم ذكره. يقول: وإنهم على ذلك ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ فعند ذلك يرجع إلى الحق والتضديق. لكن ذلك لا ينفعه في ذلك الوقت.

﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ولم يقل: رب أرجعني. وذلك يخرج على وجهين:

أحدهما: سأل على ما يسأل الملوك، ويخاطبون: أفعلوا كذا على الجماعة، وإن كان إنما يخاطب واحداً على ما خرّج جواب الله وقوله: إنا فعلنا كذا، ونفعل كذا.

والثاني: أن يكون قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يسأل ربه أن يأمر الملائكة الذين يتولون قبض أرواحهم، أن يرجعوه إلى ما ذكر، والله أعلم.

الآية ١٠٠

وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال بعضهم: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في ما كذبت. وقال بعضهم: في ما تركت في الدنيا من الأعمال الصالحة فأعمل بها.

وجائز أن يكون قوله: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من الأموال، فأودّي منه حقك لأن من الكفرة ما كان سبب كفرهم منع الزكاة وجحودها^(٢) كقوله: ﴿وَيُؤْتِي لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرين] [فصلت: ٦١ و٧] فيسأل أن يرجع إلى المال الذي تركه ليؤدي الحق الذي كان فيه، فتمنعه كقوله: ﴿يَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] وقوله ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فاتصدّق بالصدقة التي تمنعتها لأن الخطاب في الصدقة بقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الآية [المنافقون: ١١] وهذا أشبه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ هو رد لما سألوا من الرجعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَلِمَةٌ مَرَّرْنَا بِهَا﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿إِنَّمَا كَلِمَةٌ مَرَّرْنَا بِهَا﴾ أي الله تعالى قالها، وتلك الكلمة قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ الآية [المنافقون: ١١] وقال بعضهم: قوله: ﴿إِنَّمَا كَلِمَةٌ مَرَّرْنَا بِهَا﴾^(٣) يعني الكافر عند معاينة العذاب، وهو قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

ثم قوله ﴿كَلَّا﴾ على هذا يختم وجهين:

أحدهما: أنه لا حقيقة لسؤاله الذي يسأله من الرجعة ليفعل العمل الصالح، أي إنه، وإن رد، ورجع، لا يفعل كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

(١) في الأصل وم: مالك. (٢) في الأصل وم: وجحوده. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: هو قول الله ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾.

والثاني: أنه لا منفعة لهم في سؤالهم الرجعة؛ إذ لو رجعوا لا يصلون إلى ما يأمّلون لأنهم إنما يسألون ليؤمنوا، والإيمان، سبيله الاستدلال. فإذا لم يستدلوا به وقت أمنهم ونسحتهم فكيف يقدرون على الاستدلال في وقت خوفهم؟ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِم بَرِّخُ إِلَ يَرِ يُمْتُونَ﴾ قال بعضهم: ﴿وَمِن رَّأْيِهِم﴾ أي أمامهم. قال أبو معاذ: [إنه مشتق^(١)] من توارى عنك، فكل ما توارى عنك، أمانك كان أو خلفك، فهو وراءك.

وقال بعضهم: ﴿وَمِن رَّأْيِهِم﴾ على حقيقة وراء ﴿بَرِّخُ إِلَ يَرِ يُمْتُونَ﴾.

قال بعضهم: البرزخ، هو ما بين النفتين. وقال بعضهم: البرزخ هو الأجل بين الموت والبعث، وهو قول الكلبي وقادة. وقال مجاهد: البرزخ، هو حاجر بين الموت والرجوع إلى الدنيا.

وقال القتيبي وأبو عبيدة: البرزخ، ما بين الدنيا والآخرة، وقالا: كل شيء بين شيئين فهو برزخ.

وقال أبو عوسجة: البرزخ ما بين الحدين، يعني الدنيا والآخرة [وقال: البرزخ^(٢)] الأرض المستوية.

وأصل البرزخ الحاجر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣] أي حاجرًا. وتأويله أي صاروا إلى الوقت الذي يخرجهم عما يتمنون، ويشتبهون، وهو كقولهم: ﴿وَجِلَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] وإنما يشتبهون، ويتمنون، الإيمان والأعمال الصالحة.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَمِن رَّأْيِهِم بَرِّخُ إِلَ يَرِ يُمْتُونَ﴾ [أي من رأيهم^(٣)] أحوالهم الممكنة. الإيمان فيه أحوال، لا يمكن فيها الأمان^(٤) وما تمتموا من العمل الصالح، والله أعلم.

وفيه نقض قول الباطنية لأنهم يقولون: البعث هو أن يجعل للمؤمن من الأعمال الصالحة صورة روحانية، تبقى أبدًا ثياب تلك الصورة الروحانية: من الأعمال القبيحة السيئة للكافر صورة قبيحة روحانية، هي ثعالب، وتعدب أبدًا. فذلك البعث عندهم.

فاخبر^(٥) أن بين موتهم وبين البعث البرزخ، وهو الأجل الذي ذكرنا أو الحاجر. فدل ذلك على نقض قولهم أن ليس البعث إلا خروج الصورة الروحانية.

الآية ١٠١ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَنْ يَبْسُطَ رِجْلَهُ عَلَيْهِمْ سَاءَ يَوْمُئِذٍ﴾ في الناس كلهم فذلك في اختلاف المواطن على ما قاله ابن عباس وغيره من أهل التأويل واختلاف الأوقات: لا يتساءلون في موطن أو في وقت، ويتساءلون في وقت آخر.

ألا ترى أنه قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفافات: ٢٧ و ٢٨]. ونحوه؟

وإن كانت الآية في الكفرة^(٦) ٣٥٩ - أ/ خاصة فهو يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ لأنه كان يتناصر بعضهم ببعض على غيرهم، ويستعين بعضهم ببعض، [وكان ذلك^(٧)] رداء لهم في هذه الدنيا وشققاء وأعداء وأعواناً وأنصاراً. فاخبر أن ذلك ينقطع عنهم، ويذهب ذلك التناصر عنهم في الآخرة. والعرب خاصة كان يتفاخر بعضهم على بعض بالأنساب، ويتناصر. فاخبر أن ذلك منقطع عنهم في الآخرة.

والثاني: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وما ذكر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الآ] لشغلهم بأنفسهم لفرع ذلك اليوم وأهواله؛ ينسى بعضهم بعضاً، ويهرب منه كقولهم: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَةٌ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣] وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَى الَّذِينَ مِنْ أُنْثَى﴾ [عبس: ٣٤] وقوله^(٨) في آية أخرى: ﴿وَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ الآية [الحج: ٢].

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ومشتقة. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

(٤) في الأصل وم: الإيمان. (٥) في م: الكفر. (٦) في الأصل وم: ويكون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال.

فذلك كله لشدّة أهوال ذلك اليوم وأفراجه، كان لكل في نفسه شغل^(١) حتى لا يتفرغ إلى أحد، وإن قرب عنه لشغلهم بأنفسهم.

وإن [كانت الآية]^(٢) في الناس جميعاً فهو ما ذكرنا أن ذلك يكون في الاختلاف المواقف والأوقات، يسألون في وقت، ولا يسألون في وقت، ويسألون في موطن، ولا يسألون في موضع، أو يسألون عن شيء، ولا يسألون عن آخر. وروى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل نسب كان فهو منقطع إلا نسي» [بنحوه أحمد/٤/٣٢٣] أو كلاماً^(٣) نحو هذا. ثم يتخيل قوله: «إلا نسي» وجهين:

أحدهما: الشفاعة له في أنسابه، لا يكون ذلك لغيره في نسيه. فإذا أراد هذا فهو على حقيقة نسيه.

والثاني: أراد بقوله: «إلا نسي» المعين له في دينه، لأن كل من اتبعه فقد انتسب إليه، فكانه قال: إن كل شفاعة دوني فهو منقطع إلا شفاعتي، فمن اتبعني فقد انتسب إلي يقبله ديني.

الآيتان ١٠٢ و ١٠٣ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَمَلْتْ مَوَازِيئَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِيئُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿فَمَنْ ثَمَلْتْ مَوَازِيئَهُ﴾ أن^(٤) من عظم قدره ومنزلته عند الله بالأعمال التي عملها^(٥) من الصالحات والحسنات فهو من المفلحين ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِيئُهُ﴾ منزلته وقدره عند الله بأعماله السيئة فهو من الذين خسروا أنفسهم. والله أعلم. وقد ذكرنا أقاويل أهل التأويل في الموازين في ما تقدم.

الآية ١٠٤ وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال بعضهم: تلفحهم النار لفحة، فلا^(٦) تدع لهما على عظم إلا الفنة ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال بعضهم: عابسون. وقال [بعضهم]^(٨): ﴿تَلْفَحُ﴾ أي تنفخ. وقال بعضهم: ﴿تَلْفَحُ﴾ تنفخ وتنحرف. وذلك عادة النار أنها تعمل كل هذا العمل.

وقال أبو عروسة: ﴿تَلْفَحُ﴾ أي تضرب، واللفح الضرب، يقال: لفحته النار، أي ضربته، فأحرقت وجهه، تلفح لفتحاً، فهي^(٩) لافحة، والكالح العابس.

الآية ١٠٥ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَائِي تُلْزِمْنِي عَلَيَّكَ فَنُكِرْتُ بِهَا كَذِبًا﴾ كذلك كانوا يكذبون. وقد ذكرنا في غير موضع.

الآية ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا شِقَاؤُنَا﴾ أما^(١٠) ما قال أهل التأويل: ﴿عَلَيْنَا شِقَاؤُنَا﴾ [كتب علينا]^(١١) من الشقاوة فإنه لا يَحْتَمَلُ لأنهم يقولون ذلك القول اغتذاراً لما كان منهم من التفریط في أمره والتضييع، فلا يَحْتَمَلُ أن يطلبوا لأنفسهم عذراً في ما كان منهم؛ إذ لو كان ما ذكر أولئك لكان في ذلك طلب العذر لأنفسهم، وهم في ذلك الوقت لا يطلبون عذراً لأنفسهم، ولكن يقولون بما كان منهم كقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١١].

لكن يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: يقولون: ربنا شقينا بأعمالنا التي عملناها، وظلمنا أنفسنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾.

والثاني: عملنا أعمالاً استوجبنا بذلك^(١٢) الأعمال جزاء، فنحن أولى بذلك الجزاء، فَعَلَبَ علينا جزاء تلك الأعمال، أو كلامٌ نحو هذا.

وأما ما قاله أولئك من أهل التأويل: ﴿عَلَيْنَا﴾ أي كُتِبَ فهو بعيد لأنه إنما يُكْتَبُ ما يفعل العبد وما يُعْلَمُ أنه يختاره، لا يُكْتَبُ غير الذي عِلِمَ أنه يفعل^(١٣)، ويختاره، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: شغلا. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) في الأصل وم: كلام. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: عملوها. (٦) في الأصل وم: لفحتهم. (٧) في الأصل وم: فلم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فهو. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: بذلك. (١٣) في الأصل وم: يفعل.

الآية ١٠٧ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿ظَلَمَ عِيَانٌ﴾ ^(١) وَإِلَّا قَدْ كَانُوا أَقْرَأُوا بِالظُّلْمِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ قَدْ أَقْرَأُوا بِالظُّلْمِ، لَكُنْهُمْ أَقْرَأُوا بِظُلْمِ خَبِيرٍ وَظُلْمِ سَمَاعٍ لَا ظُلْمَ عِيَانٍ، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿ظَلَمَ عِيَانٌ﴾.

الآية ١٠٨ وقوله تعالى: ﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿اخْشَوْا﴾ أَيِ اسْكُتُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿اخْشَوْا فِيهَا﴾ أَيِ ابْعُدُوا فِيهَا.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: يُقَالُ: خَشَاْتُ فُلَانًا، وَاخْشَاؤُهُ، أَيِ بَاعْذُهُ، فَخَشِيَ، أَيِ تَبَاعَذَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّؤَالُ مِنْهُمْ فِي أَوَّلِ مَا أُذْخِلُوا، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ فَإِنَّكُمْ مَا يَكُونُونَ.

[وَالثَّانِي: جَائِزٌ] ^(٢) أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّؤَالُ مِنْهُمْ بَعْدَ مَا سَأَلُوا الْمَلَكَ الْمَوْتَ مَرَّةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَادَا يَنْتَهِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] وَسَأَلُوا مَرَّةً تَخْفِيفَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفِفْ عَنَّْا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فَلَمَّا أَيْسَوْا مِنْهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ إِخْرَاجَهُمْ مِنْهَا وَإِعَادَةَ إِلَى الْمِخْتَةِ، فَقَالَ: ﴿اخْشَوْا فِيهَا﴾ أَيِ ابْعُدُوا فِيهَا ﴿وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ أَيِ تَصِيرُونَ بِحَالٍ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ لِشِدَّةِ الْعَذَابِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ الشَّهْقُ وَالزَّفِيرُ.

الآيتان ١٠٩ و ١١٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِرَاجًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ يُخْبِرُ هَهُنَا أُولَئِكَ الْكَافِرَةَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ الْإِخْرَاجَ مِنَ النَّارِ أَنْكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فَرِيقًا مِنْ عِبَادِي، آمَنُوا بِي ﴿سِرَاجًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ يَذْكُرُ هَذَا لَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِيَكُونَ حَسْرَةً وَنِكَايَةً. وقوله تعالى: [﴿سِرَاجًا﴾] ^(٣) اخْتَلَفَ فِي قِرَائَتِهِ وَتَأْوِيلِهِ: [قَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿سِرَاجًا﴾ بِكَسْرِ السِّينِ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بِرَفْعِهِ] ^(٤).

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: مَنْ قَرَأَ بِرَفْعِ السِّينِ فَهُوَ مِنَ الْعُبُودَةِ وَالْحَوْلَةِ، أَيِ اتَّخَذْتُمُوهُمْ حَوْلًا وَعِيْدًا، وَمَنْ قَرَأَ ^(٥) بِكَسْرِ السِّينِ فَهُوَ مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالْهَمْزِ.

وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: بِالرَّفْعِ وَالْكَسْرِ جَمِيعًا مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ، وَلَا يُقَالُ فِي الْعُبُودَةِ إِلَّا بِرَفْعِ السِّينِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: [هُمَا سَوَاءٌ].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ ^(٦): حَتَّىٰ أَنْسَاكُمْ الْهُزْءَ بِهِمْ عَنِ الْعَمَلِ بِطَاعَتِي. وَقِيلَ: أَضَافَ الْإِنْسَاءُ إِلَى الذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَذْكُرُهُمْ وَدَعَايَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ يَهْزَوْنَ بِهِمْ، فَأَضَافَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَكَانَ كِبَاضَةً الرَّجْسِ إِلَى السُّورَةِ ^(٧) لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَزِدَادُ لَهُمْ عِنْدَ تِلَاوَةِ السُّورَةِ، فَأَضِيفَ ذَلِكَ إِلَيْهِ.

الآية ١١١ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيِ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ الْفَوْزَ بِمَا صَبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى أَدَى أُولَئِكَ الْكَافِرَةِ أَوْ عَلَى أَدَاءِ مَا أَمَرُوا بِهِ، وَنَهَوَا عَنْهُ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١] وَنَصْرُهُ إِيَّاهُمْ، هُوَ أَنْ صَارَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ ^(٨)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ١١٢ و ١١٣ وقوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لِيَفْتَرِ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: فِي الْقُبُورِ. قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: أَخْطَأَ مُقَاتِلٌ، وَذَلِكَ قَوْلٌ مَنْ يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَظَلَمَ ظَاهِر. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤ / ٢٦٦. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ م. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْنَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمَشًا فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِنَّ رِجْسَهُمْ وَتَابُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: عَاقِبَةٌ.

لأنَّ مَنْ كَانَ فِي عَذَابٍ وَشِدَّةٍ لَا يَنْقُصُ الْمَقَامَ فِيهِ كُلُّ هَذَا الْإِفْتِصَارِ حَتَّى يَقُولَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، بَلْ يَزِدَادُ لَهُ مَقَامٌ [يَوْمًا] ^(١) فِي الْعَذَابِ عَلَى سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ. فَقَالَ: إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَنِّي مَا بَيْنَ الثُّفَحَتَيْنِ/٣٥٩ - ب/ حَتَّى يُؤَدَّنَ لَأَرْوَاحٍ، فَتَرْفُذُ. فَإِذَا يُعْثَوْنَ اسْتَقْلُوا رَقْدَةً ذَلِكَ الْمِقْدَارُ بِمَا كَانُوا قَاسُوا قَبْلَ الرَّقْدَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْقَبْرِ: إِلَى هَذَا يَذْهَبُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. وَجَانِزٌ عِنْدَنَا مَا قَالَ مُقَاتِلٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْقَبْرِ. وَذَلِكَ لَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ عَذَابِ الْقَبْرِ لَأَنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ فِي الْقُبُورِ الْعَذَابَ الَّذِي يُعَذَّبُونَ فِي الْآخِرَةِ. فَجَانِزٌ أَنْ يَسْتَقِيلُوا عَذَابَ الْقَبْرِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَيَسْتَقْصِرُوا ^(٢) ذَلِكَ الْوَقْتَ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ لِشِدَّتِهِ وَأَهْوَالِهِ. وَذَلِكَ جَانِزٌ فِي مُتَعَارِفِ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ فِي بَلَاءٍ وَشِدَّةٍ، ثُمَّ يَزِدَادُ لَهُ الْبَلَاءُ وَالشَّدَّةُ، فَيَسْتَقِلُّ ذَلِكَ الْبَلَاءُ الَّذِي كَانَ بِهِ لِشِدَّةٍ مَا حُلَّ بِهِ.

فَعَلَى ذَلِكَ هُمْ؛ جَانِزٌ أَنْ يَكُونُوا فِي عَذَابٍ فِي قُبُورِهِمْ، لَكِنَّهُمْ إِذَا عَايَنُوا عَذَابَ الْآخِرَةِ اسْتَقْلُوا عَذَابَ الْقَبْرِ، وَاسْتَقْصَرُوا لِشِدَّةِ عَذَابِ الْآخِرَةِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ عَذَابُ الْقَبْرِ عَلَى النَّفْسِ الرُّوحَانِيِّ الدَّرَكِ، الَّذِي يَخْرُجُ فِي حَالِ النَّوْمِ لَيْسَ عَلَى رُوحِ حَيَاةِ النَّاسِ؛ يَرَى نَفْسَهُ فِي بَلَاءٍ وَعَذَابٍ فِي نَوْمِهِ، وَيَكُونُ فِي أَفْزَاعٍ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ مُلْقَاةً فِي مَكَانٍ، لَا عِلْمَ لَهَا بِذَلِكَ، وَلَا خَبَرَ، وَبِهَا أَتَارُ الْأَحْيَاءِ.

فَجَانِزٌ أَنْ يَكُونَ عَذَابُ الْقَبْرِ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ عَلَى الرُّوحِ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ لَا عَلَى رُوحِ الْحَيَاةِ الَّذِي بِهِ يَخْيَى. وَقَالَ قَاتِلُونَ: ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا؛ اسْتَقْلُوا حَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ ^(٣) الْآخِرَةِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَتَنَلَّيَ الْفَايِدَيْنِ﴾؟ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَشْبَهُ حِينَ ^(٤) أَمَرَ أَنْ يُسْأَلَ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا لَا فِي الْآخِرَةِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي الْعَادِينَ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَرْقُبُونَهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَأَعْوَانُهُ.

الآية ١١٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَتَلَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ.

قَالَ الْقَتْنِيُّ ^(٥) «يَخْرِي» بِكَسْرِ السِّينِ، أَيْ تَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَسُخْرِيًّا بِضَمِّهَا، أَيْ تَسْخَرُونَهُمْ مِنَ السُّخْرَةِ ^(٦) عَبَاً. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى أَنْزَلَكُمْ إِلَهُكُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ عَنْ دِكْرِي. وَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ١١٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ صَبَّرَ خَلْقَهُ الْخَلْقَ لَا لِلرُّجُوعِ وَالتَّبَعِثِ عَبَثًا لَوْجَهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِأَنَّ خَلْقَهُ إِيَّاهُمْ لَا لِعَاقِبَةٍ تُتَأَمَّلُ أَوْ لِمَنَافِعٍ تُقْصَدُ، لِلْهَلَاكِ خَاصَّةً وَلِلْفَنَاءِ عَبَثٌ كِبَاءً الْبَانِي لَا لِمَنْفَعَةٍ تُقْصَدُ بِهِ، وَلَكِنْ لِلتَّقْضِ يَكُونُ عَبَثًا فِي الشَّاهِدِ. وَهُوَ مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢] سَفَّهَا فِي غَرْلِهَا لِلتَّقْضِ خَاصَّةً لَا لِمَنْفَعَةٍ قَصَدَتْ بِهِ، وَهَئَانَا أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهَا [فَلَوْلَمْ] ^(٧) يَكُنِ الْمَقْصُودُ مِنَ خَلْقِ الْخَلْقِ إِلَّا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ خَاصَّةً لَا لِعَاقِبَةٍ تُقْصَدُ كَانَ سَفَهَا وَعَبَثًا.

وَالثَّانِي: مَا أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْشَأَ هَذَا الْعَالَمَ غَيْرَ الْبَشَرِ لِهَذَا الْبَشَرِ، وَلَهُ سَخَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ حِينَ ^(٨) قَالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] إِذْ لَيْسَ لَغَيْرِ الْبَشَرِ مَنَفَعَةٌ بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْشَأَهَا لَهُمْ مِنْ نَحْوِ الْجَنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَنَحْوِهِمْ، إِذْ لَهُمْ قِيَامٌ بِدُونِ ذَلِكَ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَنَحْوِهِ مِنَ النِّعَمِ إِنَّمَا ذَلِكَ لِلْبَشَرِ خَاصَّةً.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ كُلَّ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَأَنْشَأَهَا لَهُمْ، ثُمَّ لَا يَمْتَحِنُهُمْ بِالشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا بِأَمْرِهِمْ بِأَوَامِرَ، وَلَا يَنْهَاهُمْ بِنَهَايِهِ. فَذَلِكَ مَا أَنْشَأَ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَسَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُمْ يُعْتَبُونَ، وَيُرْجَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَسْتَقْصِرُونَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَيَاة. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: السُّخْرَةِ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَلَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث.

يُجْزَوْنَ جَمِيعًا: لِلْمُحْسِنِينَ [جزاء الإحسان وللمسيء] (١) جزاء الإساءة؛ إذ في العقول التفرقة بين الولي والعدو وبين المحسن والمسيء وبين الشاكر والكافر. ثم رأيناهم جميعاً في هذه الدنيا عاشوا على سواء في الضيق والسعة، لم تر ما يفصل بين الولي والعدو وبين المحسن والمسيء وبين الشاكر والكافر. فدل ما لم تر من التفرقة ما ذكرنا في هذه الدنيا على أن هنالك داراً أخرى: دار الجزاء.

هناك يفصل بين ما ذكرنا في الجزاء، والله الموفق.

[وقوله تعالى] (٢): ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ قيل: لا تُبْعَثُونَ، وقيل: لا تُرْجَعُونَ إليه بالأعمال التي عملتموها كقولِهِ: ﴿يَتَأْتِيَا الْإِنْسَانَ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذِبًا فَلَئِنَّهُ﴾ [الانشقاق: ٦] وقوله: ﴿نَاسِئِمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا﴾ [فصلت: ٦].

الآية ١١٦ وقوله تعالى: ﴿قَتَلَ اللَّهُ الْمَلِكَ الْحَقَّ﴾ أي يتعالى الله عن أن يكون خلق الخلق لا لإحكمة ﴿الملك الحق﴾ قال الحسن: ﴿الحق﴾ اسم من أسماء الله [الحسن] (٣) أو الملك الذي خلق الخلق لإحكمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تنزيه وتبرئة من جميع ما قالوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْأَوَّلِ: يتعالى الله الملك الحق ورب العرش الكريم عن أن يخلقهم لا لإحكمة أو للعبث.

وقالت الباطنية: العرش القيامة على ما قالوا هم، إلا أنهم يقولون: هو قائم الزمان، وقلنا نحن: هي القيامة المعروفة، وهي الساعة [وهو] (٤) رب القيامة، وهي الملك الذي ذكرنا كقولِهِ: ﴿لِيَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] خص ذلك اليوم بالملك له، وإن كان الملك له في الدارين جميعاً لما لا يتنازع في ملكه يومئذ، قد نوزع في الدنيا، فخلص له ملك ذلك اليوم، وصفا له يومئذ.

وقال بغض أهل التأويل: العرش السرير، أضاف إلى نفسه لمنزله (٥) عند الله، و﴿الكبير﴾ هو نعت ذلك السرير، أي الحسن كقولِهِ: ﴿وَقَفَّارٌ كَبِيرٌ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي حسن. وهكذا يوصف كل كريم بالحسن.

وقال بعضهم: هو نعت الرب، أي ذو عفو وصفح، والله أعلم.

الآية ١١٧ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ظاهر هذا يوحي أن هنالك إلهاً آخر لأنه قال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ لكنه يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩] وكقولِهِ (٦): ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذريات: ٥١].

والثاني: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [أي من يسم مع الله إلهاً آخر] (٧) إذ كانوا يُسْمُونَ الأصنام التي كانوا يعبدونها آلهة. على هذين الوجهين يُخْرِجُ تأويل الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ بِهِ﴾ أي لا حجة له (٨) بذلك، لأن الحجة إنما تكون بوجوه ثلاثة: إما بالأخبار التي تجوز الشهادة على صدقها وصدقها، وإما بالعقول تشهد على ذلك، وإما من جهة الجس يدل على ذلك. فلم يكن [له] (٩) واحد من هذه الوجوه.

ثم الجس يكون بالدلالة من وجهين:

أحدهما: بوقوع الجس عليه بالبدية.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ومنزلة. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في م: لهم، ساقطة من الأصل.

[والثاني]^(١): بآثار تدلُّ على الألوهية.

فلا كان في ظاهر وقوع الجسِّ دلائل ذلك، ولا كان بها آثار تدلُّ على ذلك، بل فيها آثار العبودية والدُّلُّ فضلاً ألا تكون لها آثار الألوهية. ولا عُذَر لهم في ذلك، لأنَّ العبادة لِأَخَرٍ إنما تكون لوجود:

إما لِلنَّعْمِ والأيادي تكون منه إليه، فَيُعْبَدُهُ^(٢) شكراً لما أنعم عليه، وأحسن إليه، وإما لِخَوَائِبِ^(٣)، يطمع قضاءها له من عنده، أو لِمَا يَرَى له في نفسه من آثار العبودية له. فإذا لم يكن واحدٌ من هذين الوجهين التي ذكرنا لا عُذَر لهم في عبادة تلك الأصنام.

فإن قالوا: لنا برهانٌ وحجَّةٌ في ذلك قيل: قَطْعُ حِجَاكِكُمْ بما ذكر من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِرَاتٌ شَرِيكَةُ﴾ الآية [الزمر: ٣٨] وقوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُوكَ كُفُّوا أَلْعَنَ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ونحو ذلك من الآيات فيها قَطْعُ حِجَاكِهُمْ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةٍ: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ﴾ أي لا سلطان/ ٣٦٠ - أ/ له به.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْنَا حِسَابَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ قال قائلون: ﴿فَاتَّخَذْنَا حِسَابَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ هو قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقال بعضهم: حِسَابُهُ: جزاؤه لِصَنِيْعِهِ عِنْدَ رَبِّهِ كقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَنَا إِيَّاهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ و ٢٦].

الآية ١١٨ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ جائز أن يكون هذا تعظيماً من الله لكلِّ أحدٍ [سأل]^(٤) سؤالَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ. وقيل: هو لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فهو يُخْرِجُ على وجهين:

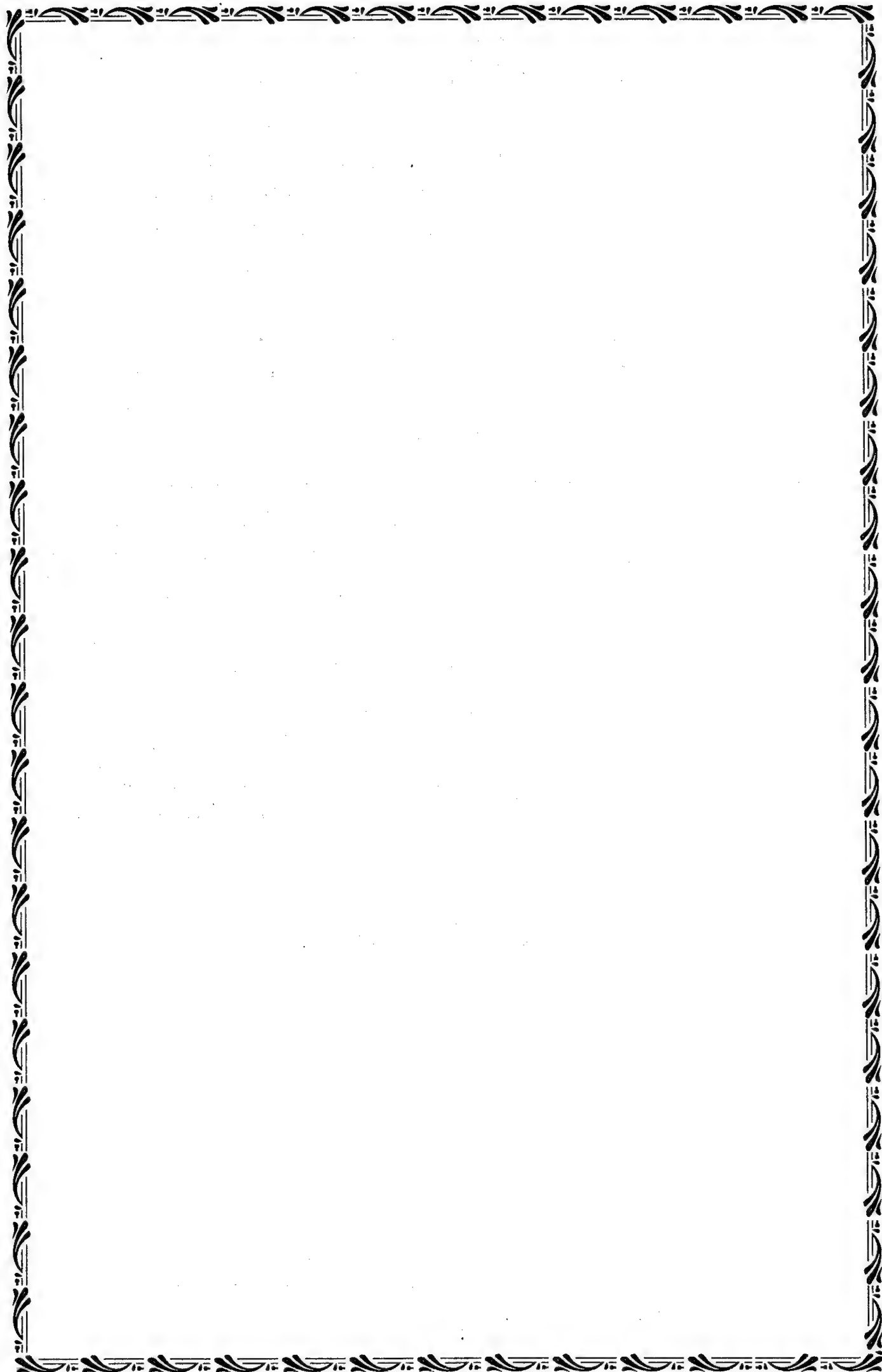
[أحدهما]^(٥): أن في حكمته وعذله ألا [يغفر، ولا يرحم]^(٦) أحداً، وإن كان في فضله ورحمته أن يرحم، ويغفر.

والثاني: يجعل له العِصْمَةَ وَالرَّحْمَةَ بهذا الدعاء، أو تكون العِصْمَةُ، تزيد في الخوف كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأنَّ رَحْمَتَهُ إِذَا أَدْرَكَتْ أَحَدًا اغْتَنَتْهُ عَنْ رَحْمَةِ غَيْرِهِ [ورحمة غيره]^(٧) لا تُغْنِيهِ عَنْ رَحْمَتِهِ. والله الموفق [وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله أجمعين]^(٨).



(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: فيعبده. (٣) في الأصل وم: لحوائجهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يرحم ويغفر. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.



سورة النور

كلها^(١) مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا سَمَاءً سُورَةٌ، وَجَعَلْنَا بِلَاوْنَهَا سُورَةً، وَلَمْ يَجْعَلْ لغيرِهَا مِنَ السُّورِ^(٢) الثَّلَاثَةَ

كما جَعَلَ لِهَذِهِ^(٣).

فجاءت ذلك لكثرة ما فيها من الأحكام ومن^(٤) الفرائض والآداب ما بالناس إلى ذلك حاجة، أو لمعنى لم يذكره، أو لا لمعنى^(٥) ولكنه ذكر هذا، إذ^(٦) له الخلق والأمر.

قال أبو عوسجة: السورة القطعة من كل شيء. يقول: سورت الشيء، أي قطعت.

وقال بعض العلماء: إنما سمي القرآن لجماعة السور، وسميت السورة [لأنها]^(٧) مقطوعة من الأخرى. فلما قرئ بضعها إلى بعض سمي قرآنًا كقوله: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَتَوَّانَهُمْ﴾ أي تأليف بعضها إلى بعض ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْهُ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧ و ١٨] أي فإذا جمعناه، وألفناه، ﴿فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي ما جمع فيه، فاعمل به من أمر ونهي. ويقال: ليس لشيء قرآن أي نظم وتأليف. ويقال للمرأة: ما قرأت سلق قط، أي لم تجمع في بطنها ولدًا.

وقال بعضهم: سورة بلا همز أي المنزلة والرفعة، وبالهز سورة: البقية، ومنه سمي سؤر الكلب وسؤر الهر وسؤر الطائر أي بقيته والقطعة منه.

ثم قرئت بالنصب^(٨) سورة ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ والرفع جميعاً ﴿سُورَةٌ﴾، وهي القراءة الظاهرة.

فمن قرأها بالنصب أوقع الفعل عليها، أي أنزلناها سورة. والفعل إذا وقع على شيء انتصب، تقدّم الفعل، أو تأخر، كقولك: زيداً ضربناه، وضربنا زيداً. وقال بعضهم: إنما انتصب لإضمار فيه كأنه قال: اتبعوا سورة أنزلناها كقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] بالنصب، أي اخذوا ناقة الله.

ومن قرأ بالرفع [رفع]^(٩) على الابتداء. فكل ما يتبدأ به فهو رفع. وقال بعضهم: رفع [على]^(١٠) إضمار: هذِهِ، سورة أنزلناها، وذلك كله جائز في اللغة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قرئ بالتخفيف ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وبالتشديد: وفرضناها^(١١).

قال الزجاج: قوله: وفرضناها بالتشديد يخرج على وجهين:

أحدهما: أي كثرنا فيها الفرائض والأحكام.

والثاني: فرضناها، أي فصلنا فيها بين ما يؤتى وبين ما يتقى وبين ما [أمر وبين ما]^(١٢) نهي.

وقال: وأما التخفيف ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فمعناه: ألزموا ما فيها من الفرائض وآدابها.

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن سورة النور، وفي م: سورة النور. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: سورة. (٣) من م، في الأصل لهذا. (٤) الوار ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٣٣. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٣٣. (١٢) ساقطة من الأصل.

وقال القتيبي: ﴿وَرَوَّضْنَاهَا﴾ بالتخفيف أي بيّنا فيها الفرائض.

وقال أبو عوسجة: مَنْ قَرَأَهَا بالتخفيف ﴿وَرَوَّضْنَاهَا﴾ أي أنزلنا فيها فرائض مختلفة، وَمَنْ قَرَأَ: قَرَضْنَاهَا بالتشديد يُقْل: قَرَضْنَاهَا عليكم وعلى مَنْ بَعَدَكُمْ على الكثير، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَزَلْنَا فِيهَا آيَاتِنَا يَنْتَبِهَاتٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿آيَاتِنَا يَنْتَبِهَاتٍ﴾ أي حُجَجًا بَيِّنَةً، يُقْضَى، وَيَعْرِفُهَا كُلُّ أَحَدٍ بِالْبَدِيهِهِ وَالتَّأَمُّلِ، أَوْ أَنْ يُرِيدَ بِالْآيَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي جَمَعَ فِيهَا أَشْيَاءَ، وَتَتَلَّى لِأَنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الْآيَةِ إِذَا جُمِعَ فِيهَا كَلِمَاتٌ وَحُرُوفٌ، فَأَمَّا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ وَحَرْفٌ وَاحِدٌ فَلَا تُسَمَّى بِهَذَا الْإِسْمِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿آيَاتِنَا يَنْتَبِهَاتٍ﴾ مَادَّكَرَ فِيهَا، وَيَبَيِّنُ مَا يُؤْتَى وَيَتَّقَى، وَيَبَيِّنُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ. فَذَلِكَ كُلُّهُ مُبَيَّنٌ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا لَكُمُ الذِّكْرُ﴾ أي تَتَعَطَّوْنَ بِمَا ذَكَرَ فِيهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ، وَيَبَيِّنُ فِيهَا مَا يَزْجُرُ عَنِ الْمَعَاوِدَةِ، وَهِيَ الْحُدُودُ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا لِأَنَّ سَبَبَ الْإِثْعَاطِ أَحَدُ شَيْئَيْنِ: الْمَوَاعِظُ الَّتِي تُلِينُ الْقُلُوبَ وَالْحُدُودُ الَّتِي تَزْجُرُ.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ لَوْ كَانَ الْخِطَابُ يَجِبُ اغْتِنَاقُهُ عَلَى ظَاهِرِ الْمَخْرَجِ وَالْعُمُومِ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ النَّاسِ لَكَانَ [لِكُلِّ] (١) أَحَدٌ أَنْ يُقِيمَ عَلَى آخِرِ حَدِّ ظَاهِرِ قَوْلِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يَقُولُ: اللَّهُ أَمَرَنِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ أَوْ أَنْ يَضْرِبُوا جَمِيعًا وَاحِدًا مِنَ الزَّانَا ظَاهِرِ قَوْلِهِ: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ فَيَزِدَادُ الضَّرْبَ وَالْحَدَّ عَلَى مَا حَدَّ اللَّهُ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً.

فَدَلَّ أَنْ اغْتِنَاقَ الْعُمُومِ فَاسِدٌ بِظَاهِرِ الْمَخْرَجِ، أَوْ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُ» [مسلم: ٢٦٥/٢١] سَمَى النَّازِلُ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ نَظَرُهُ إِلَيْهِ زَانِيًا وَالْمَاسُ لَهُ (٢) كَذَلِكَ، فَيَلْزِمُهُ الْحَدَّ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

فَإِذَا لَمْ يُفْهَمْ مِنْ ظَاهِرِ قَوْلِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ مَا ذَكَرْنَا كُلَّهُ دَلَّ أَنْ الْإِغْتِنَاقَ عَلَى عُمُومِ الْمَخْرَجِ فَاسِدٌ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْخُصُوصِ إِلَى مُقِيمٍ دُونَ مُقِيمٍ، وَإِلَى زَانٍ دُونَ زَانٍ، وَهُوَ الزَّانِي الَّذِي يَجْمَعُ فِي فِعْلِ الزَّانِي جَمِيعَ بَدَنِهِ: الْعَيْنَ وَالْيَدَ وَالرِّجْلَ وَالْفَرْجَ وَجَمِيعَ بَدَنِهِ. وَرَجَعَ الْخِطَابُ بِهِ إِلَى الْبُكَرَيْنِ الْحُرَيْنِ وَالنَّيِّبَيْنِ الْحُرَيْنِ لَمَّا يَسْتَجْمِعَانِ جَمِيعًا سَبَابَ (٣) الْإِحْصَانِ. فَأَمَّا مَنْ اسْتَجْمَعَ جَمِيعَ سَبَابِ الْإِحْصَانِ فَإِنَّ حَدَّهُ الرُّجْمُ عَلَى اتِّفَاقِ الْقَوْلِ مِنْهُمْ جَمِيعًا.

إِلَّا أَنْ طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَوْجَبُوا عَلَيْهِ مَعَ الرَّجْمِ الْجَلْدَ، وَفِي الْبُكَرِ مَعَ الْجَلْدِ تَغْرِيْبٌ عَامٌ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ رَاجِعٌ إِلَى الْحُرَيْنِ الْبُكَرَيْنِ أَوْ النَّيِّبَيْنِ اللَّذَيْنِ لَمْ يَسْتَجْمِعَا سَبَابَ الْإِحْصَانِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْقَوْلِ الْمُتَّفَقِ [عليه] (٤).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ﴾ ٣٦٠ - ب/ يَنْقُصُهُ قَلِيلَتَهُ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ [النساء: ٢٥].

دَلَّ إِيْجَابُ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ عَلَى الْإِمَاءِ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ الْخَرَائِرَ اللَّاتِي لَمْ يَسْتَجْمِعْنَ جَمِيعَ سَبَابِ الْإِحْصَانِ، وَأَنَّ الْخِطَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ رَاجِعٌ إِلَى الْحُرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا. ثُمَّ لَمْ يَضْرِبْ فِي الزَّانِي الَّذِي بِهِ زَنَى، وَهُوَ الْفَرْجُ، وَقَطَعَ فِي السَّرْقَةِ [الَّتِي بِهَا سَرَقَ]، وَهِيَ (٥) الْيَدُ. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا جَعَلَ الْحُدُودَ زَوَاجِرَ عَنِ الْمَعَاوِدَةِ، لَمْ تُجْعَلْ دَافِعَةً مُّذْهِبَةً إِمَّاكَانَ ذَلِكَ الْفِعْلِ مِنَ الْأَصْلِ. وَفِي ضَرْبِ الْفَرْجِ ذَهَابُ إِمَّاكَانِ الْفِعْلِ مِنَ الْأَصْلِ، وَلَا كَذَلِكَ فِي قِطْعِ الْيَدِ فِي السَّرْقَةِ، إِذْ تَبَقَّى أُخْرَى، بِهَا يَأْخُذُ، وَبِهَا يَتَّبِضُ. لِذَلِكَ افْتَرَقَا؛ إِذْ أَنْ يُقَالَ: فِي ضَرْبِ الْفَرْجِ خَوْفُ [هَلَاكِ الْمَرْءِ] (٦) فِي الْأَغْلَبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي قِطْعِ الْيَدِ، بَلْ يَبْقَى حَيًّا فِي الْغَالِبِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْحُدُودَ لَمْ تُجْعَلْ مُهْلِكَةً مُّثْلِفَةً، وَلَكِنْ جُعِلَتْ زَوَاجِرَ عَنِ الْمَعَاوِدَةِ لِذَلِكَ افْتَرَقَا.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَحْكَام. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي بِهِ سَرَقَ وَهُوَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: هَلَاكَ.

وفي قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ دلالة على أنَّ النفي ليس من عذاب الزانيين ولا من عقوبتهما لأنه قال: ﴿وَلَنَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والنفي مما لا يَحْتَمِلُ أَنْ يُؤْمَرَ بِشُهوهِهٖ لأنه لا يُمَكِّنُ. فدلَّ أنه ليس من عذابهما.

ويُذَلُّ أيضاً قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنِ اتَّبَعَ يَخْشَعُ فَلْيَسِّرْ يَصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [على ذلك] ^(١) لأنهم اجتمعوا على أن لا نفي على الإمام إذا زَنَى، وقد أوجب عليهن إذا زَنَيْنَ يَصِفْ ما على الْمُحْصَنَاتِ أو إن ثبت النفي فهو يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحدها ^(٢) أنه أراد به قطع الشين الذي لِحَقَّهٖمَا بفعل الزنى لأنه ليس جُزْمٌ مِنَ الْأَجْرَامِ أَكْثَرَ شَيْئاً وَاشَدُّ مِنْ فِعْلِ الزَّانِي، فأراد أن يَنْقَطِعَ ذلك من بين الناس.

[والثاني] ^(٣): أن يكون أراد به قطع الشهوة التي حَمَلَتْهُمَا على الزنى بِذَلِّ السَّفَرِ وَذِلَّةِ الْغُرْبَةِ.

[والثالث: أنه] ^(٤) صَارَ مَنْسُوخاً لِمَا شُدَّ فِي الضَّرْبِ بقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

وفي ما ذكر النفي لم يذكُر فيه الشدة، إنما ذكُرَ فِيهِ الْجَلْدُ فَحَسِبَ بقوله عليه السلام: «أما على ابنك هذا فَجَلْدُ مِئَةٍ وَتَقْرِيبُ عَامٍ» [البخاري: ٢٦٩٥ و ٢٦٩٦] فجائز أن يكون الضرب كان بالتخفيف. وفيه نفي. فلما شُدَّ فِي الضَّرْبِ اِرْتَفَعَ النفي.

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه نفى رجلاً، فارتدَّ عن الإسلام، وَلَحِقَ بِالرُّومِ، فقال: كَفَى بِالنَّفْيِ فِتْنَةً، وقال: لا أنفي بهذا أبداً.

وكذلك روي عن علي رضي الله عنه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ في تخفيفها. فهو، والله أعلم، لأنه من أعظم الأجرام في الشين.

ثم لِلْمُعْتَرِلةِ تَعْلُقُ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قالوا: إن الله وَصَفَ نَفْسَهُ بِالرَّحْمَةِ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ثم نهاهم أن تَأْخُذَهُمْ رَأْفَةٌ عَلَى الزَّانِيَيْنِ وَقَتَ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمَا. دَلَّ أَنَّ الزَّانِي قَدْ خَرَجَ بِفِعْلِهِ عَنِ الْإِيمَانِ لِمَا ذَكَّرْنَا مِنْ رَفْعِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ عَنْهُمَا.

لكن عندنا في الآية دلالة أنه ليس على ما ذهبوا إليه، لأن الزاني لو كان يَخْرُجُ عَنِ الْإِيمَانِ بِفِعْلِ الزَّانِي لَكَانَ لَا يَخْتِاجُ إِلَى أَنْ يَقُولَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لأنهم كانوا على ما وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالشَّدَّةِ عَلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾.

دلَّ أَنَّ الزَّانِي لَمْ يُخْرِجْهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَتَهَى آلا تَأْخُذْنَا بِهِمَا رَأْفَةُ الْإِيمَانِ وَالِدِينِ فِي تَعْطِيلِ الْحَدِّ وَتَخْفِيفِهِ، ويكون التَّهْيُّ عَنْ اخِذِ الرَّأْفَةِ لِيَتَحَمَّلَا ^(٥) ذلك الحد. وإلا لم يَنْتَفِعْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وهو آلا يُعَذَّبُ بِهِ.

ألا ترى أنه قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؟ وفائدته ما ذَكَّرْنَا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ إِضَاعَةِ الْحَدِّ لِمَا يَتَأَمَّلُ مِنَ النَّفْعِ فِي الْآخِرَةِ نَحْوُ مَنْ يَشْرَبُ الْأَدْوِيَةَ الْكَرِيهَةَ، وَيَقْتَصِدُ، وَيَخْتَجِمُ، لِمَا يَنْظُمُ الْبُرءُ بِهِ وَالنَّفْعُ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ التَّهْيُّ عَنْ اخِذِ الرَّأْفَةِ فِي حَدِّ الزَّانِي لِيُقَامَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَيَنْجُو فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال بعضهم: الطائفة واحد أو إثنان فصاعداً. وكذلك قالوا في قوله:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وجهين أحدهما. (٣) في الأصل وم. (٤) في الأصل وم. (٥) في الأصل وم. وجهين: أحدهما.

﴿وَإِنْ عَلِمَ ابْنُ ابْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنُوا﴾ [الحجرات: ٩] هما رَجُلَانِ افْتَتَلَا. دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وَهُمَا ابْنَانِ فِي الظَّاهِرِ لَكِنْ أَنْ يُنْضَمَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جَمَاعَةٌ مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَتَكُونُ الطَّائِفَةُ جَمَاعَةً لَا وَاحِدًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّائِفَةُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَشِيرَةِ^(١) فَصَاعِدًا.

ثُمَّ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ لِأَثَرِ مَعْنَى أَمْرٍ أَنْ يَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَجْرَامِ. فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يَحْتَمِلُ وَجُوهًا. أَحَدُهَا: لِلْمِخْنَةِ: أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَ مِنْ حَضَرٍ ذَلِكَ؛ إِذِ^(٢) الْمَرْءُ قَدْ يَتَأَلَّمُ عَلَى ضَرْبٍ آخَرَ، وَمَا يَحُلُّ بِغَيْرِهِ لِيَنْزَجِرَ عَنْ مِثْلِهِ. الثَّانِي: لِإِنْتِشَارِ الْخَبَرِ فِي النَّاسِ لِيَنْزَجِرُوا عَنْ مِثْلِهِ.

وَالثَّالِثُ: لثَلَا يَتَعَدَّى الضَّارِبُ وَالْمُقِيمُ ذَلِكَ الْحَدَّ، وَيُجَاوِزُهُ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ؛ فَإِنْ هُوَ يَتَعَدَّى مَنَعَهُ مِنْ حَضَرِهِ عَنِ الْمَجَاوِزَةِ وَالتَّعَدِّي.

وَالرَّابِعُ: لِدَفْعِ التَّهْمَةِ عَنِ الْحَاكِمِ: لثَلَا يَتَّهِمُهُ النَّاسُ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدَّ بِلَا سَبَبٍ، كَانَ مِنْهُ، وَلَا جُزْمٍ. فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ بِشُهُودِ الطَّائِفَةِ عَذَابَهُمَا هَذِهِ الْوَجُوهُ الْأَرْبَعَةُ^(٣) الَّتِي ذَكَّرْنَا مِنْ إِنْتِشَارِ الْخَبَرِ وَدَفْعِ التَّهْمَةِ عَنْهُ وَمَنْعِ الْمَجَاوِزَةِ [وَالْمِخْنَةِ فَهُوَ]^(٤) يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ جَمَاعَةً لِأَنَّ^(٥) الْوَاحِدَ غَيْرُ كَافٍ لِلذَّكَرِ.

فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الْمِخْنَةُ، فَالوَاحِدُ وَمَا قَوْفُهُ يَكُونُ: يَمْتَحِنُ كُلًّا فِي نَفْسِهِ بِحُضُورِ ذَلِكَ الْحَدِّ لِيَتَأَلَّمَ بِهِ. وَقَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالُوا: إِنَّهُ يُجْمَعُ مَعَ الرَّجْمِ الْجَلْدُ، وَاحْتَجُّوا بِمَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْثِّيبُ بِالْثِّيبِ جَلْدٌ مِثْلُ وَرَجْمٍ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِثْلُ وَتَغْرِيبٍ عَامٍ» [مسلم: ١٦٩٠]. فَأَمَّا الْجَلْدُ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ حَدُّ الْبِكْرِ. وَأَمَّا الثَّقْيُ [فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ]^(٦)؛ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى وَاجِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى عَقُوبَةً، [لَمْ يَضْمُهُ]^(٧) إِلَى الْحَدِّ.

وَنَحْنُ قَدْ ذَكَّرْنَا الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ إِنْ ثَبَّتَ مَا يُغْنِينَا عَنْ تَكَرُّرِهِ. وَنَزِيدُ أَيْضًا نَكْتَةً، وَهِيَ أَنَّ الْحُدُودَ^(٨) ذَاتَ نِهَايَاتٍ مَقْدَارٍ^(٩) وَغَايَاتٍ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ حُدُودًا لِأَنَّ لَهَا نِهَايَةً وَغَايَةً كَمَا يَقَالُ: حَدُّ الدَّارِ^(١٠) مُتْنَاهَا وَآخِرُهَا.

فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلثَّقْيِ مَكَانٌ مَعْلُومٌ، يُنْفَى الزَّانِي إِلَيْهِ، دَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَدٍّ، وَلَكِنْ أَرَادَ بِهِ الْوَجُوهُ الَّتِي ذَكَّرْنَا: إِمَّا حَبْسًا كَمَا يُحْبَسُ الدَّاعِرُ حَتَّى يُخْدِتَ تَوْبَةً [وَأَمَّا]^(١١) قَطْعُ الشَّيْنِ وَالذَّكْرِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ لِيُنْسَى ذَلِكَ، وَيُنْزَكَ [وَأَمَّا]^(١٢) قَطْعُ الشَّهَوَاتِ الَّتِي حَمَلَتْهُمَا^(١٣) عَلَى ذَلِكَ بِذِلَّةِ السَّفَرِ وَالْعُرْيَةِ. وَإِنْ كَانَ ثُمَّ صَارَ مَنْسُوخًا بِمَا شُدِّدَ فِيهِ الضَّرْبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُ أَصْحَابِنَا، رَجَمَهُمُ اللَّهُ، فِي إِزَالَةِ الْجَلْدِ عَنِ الثِّيبِ إِذَا كَانَ مُحْصَنًا لِقَوْلِ الثَّبِيِّ ﷺ^(١٤) «اغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا فَإِنْ اغْتَرَفَتْ فَارْجُمِهَا» [البخاري: ٢٦٩٥ و ٢٦٩٦] وَلَمْ يَذْكُرْ جَلْدًا.

وَذَهَبُوا أَيْضًا إِلَى أَنَّ حَدِيثَ مَا عَزَبَ بَنِي مَالِكٍ لَمَّا رَجَمَهُ الثَّبِيُّ ﷺ بِأَعْيَارِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ جُلِدَ. وَرَوَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ قَالَ لَهُ [لَمَّا]^(١٥) اغْتَرَفَتْ ثَلَاثًا. لَوْ اغْتَرَفَتْ فِي الْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ لَرَجَمْتُكَ^(١٦)، وَلَمْ يَقُلْ: لَجَلَدْتُكَ. عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُجْمَعُ مَعَ الرَّجْمِ الْجَلْدُ.

وَمَا رَوَى عَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ بِرَجْمِ امْرَأَةٍ زَنَتْ، وَلَمْ يَجْلِدْهَا. وَرَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ مِثْلَهُ. إِلَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ دَعَبَ أَصْحَابُنَا، رَجَمَهُمُ اللَّهُ.

وَيَقُولُونَ: لَا يَجْتَمِعُ عَلَى رَجْلِ فِي فِعْلٍ وَاحِدٍ حَدَايِ الْجَلْدِ وَالرَّجْمِ جَمِيعًا كَمَا يَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَجْرَامِ فِي فِعْلِ وَاحِدٍ حَدَايِ أَوْ عَقُوبَتَانِ / ٣٦١ - أ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْعَشِيرَةُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الثَّلَاثَةُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَالطَّائِفَةُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَمَا اخْتَلَفُوا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُمْ يَضُم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: ذُو. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَقْدَار. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: الدَّارَيْنِ أَنَّهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَمَلَتْهُم. (١٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ: قَالَ حَيْثُ، وَفِي م: حَيْثُ قَالَ. (١٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَرَجَمْتُكَ.

وقوله ﷺ «الَّتَيْبُ بِالَّتَيْبِ يُجْلَدُ، وَيُرْجَمُ» [مسلم ١٦٩٠] يَحْتَمِلُ الْجَلْدُ تَيْبًا غَيْرَ مُخَصَّنٍ وَالرَّجْمُ^(١) تَيْبًا آخَرَ مُخَصَّنًا أَوْ الْجَلْدُ^(٢) تَيْبًا فِي حَالِ وَالرَّجْمُ^(٣) تَيْبًا فِي حَالٍ. وقد ذَكَرْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ^(٤).

الآية ٣ [وقوله تعالى] «٥»: «الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ أَوْ مُشْرَكَاتَهُنَّ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ» فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ إِلَّا يَجِلُّ لِلزَّانِي أَنْ يَنْكِحَ إِلَّا الزَّانِيَةَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ (أَوْ الْمُشْرَكَةَ، وَكَذَلِكَ الزَّانِيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ)^(٦) لَا يَنْكِحُهَا الْعَقِيفُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا يَنْكِحُهَا الزَّانِي^(٧) مِنْهُمْ وَالْمُشْرِكُ.

وَفِي ظَاهِرِ الْآيَةِ النَّهْيُ لِلزَّانِي عَنْ نِكَاحِ الْعَقَائِفِ وَإِبَاحَةُ نِكَاحِ الزَّانِيَّاتِ أَوْ الْمُشْرِكَاتِ. فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ، فَكَانَ قَوْلُهُ: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ» [البقرة: ٢٢١] إِلَّا الزَّانَاةَ مِنْكُمْ، فَإِنَّهُ يَجِلُّ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ» [البقرة: ٢٢١] إِلَّا الزَّانِيَّاتِ فَإِنَّهُ يَجِلُّ.

هَذَا ظَاهِرٌ، لَكِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ يَجِلُّ لِلْمُؤْمِنِ، وَإِنْ كَانَ زَانِيًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُشْرَكَةَ، وَكَذَلِكَ لَا يَجِلُّ لِلْمُشْرِكَةِ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِالزَّانِي مِنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ النَّوَابِلِ فِي تَأْوِيلِهِ: قَالَ مُقَاتِلٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَهَؤُلَاءِ: الزَّانِي مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَنْكِحُ، أَيْ لَا يَتَزَوَّجُ إِلَّا زَانِيَةً مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ (أَوْ لَا يَنْكِحُ إِلَّا مُشْرَكَةً مِنْ)^(٨) غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالزَّانِيَةُ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ مُشْرِكٌ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالزَّانِيَةُ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ مُشْرِكٌ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ يَزْنُونَ^(٩) عَلَانِيَةً.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [أَنَّهُ]^(١٠) قَالَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي نَفَرٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانُوا ذَوِي عُسْرَةٍ، وَكَانَ بِالْمَدِينَةِ بَغَايَا يَتَّبِعِينَ بَأْنَفُسِهِنَّ ظَاهِرَاتٍ بِالْمُجُورِ، وَكُنَّ مُخَصَّصَاتٍ أَوْ مَخَاصِبَ الْيَبُوتِ، فَهَمَّ أُولَئِكَ الْمُهَاجِرُونَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا بِأُولَئِكَ الْبَغَايَا لِيُصِيبُوا مِنْ خَضَبِهِنَّ وَسَعْيِهِنَّ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فِي شَأْنِهِمْ: الزَّانِي مِنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ الْمُعْلَنِ بِهِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً مِنَ الْيَهُودِ أَوْ مُشْرَكَةً، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

لَكِنْ هَذَا، يَضْلُحُ^(١١) لَوْ كَانَ أُولَئِكَ الْمُهَاجِرُونَ مِثْلَهُنَّ زُنَاةً. فَأَمَّا أَنْ كَانُوا مُهَاجِرِينَ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعِفَّةِ، فَلَا يَضْلُحُ أَنْ يُقَالَ فِيهِمْ: «الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ أَوْ مُشْرَكَاتَهُنَّ» وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا زُنَاةً إِلَّا أَنْ يُقَالَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ: إِنَّهُ لَا يَقَعُ ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: «الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ أَوْ مُشْرَكَاتَهُنَّ» أَيْ لَا يُجَامِعُ، وَلَا يَزْنِي «إِلَّا زَوَايَاهُمْ» إِلَّا بِزَوَايَاهُمْ مِثْلِهِ. وَكَذَلِكَ الزَّانِيَةُ لَا تَزْنِي إِلَّا بِزَانٍ مِثْلِهَا أَوْ مُشْرِكٍ، لَا يُحَرِّمُ الزَّانِي، وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ^(١٢).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَأَنْكِحُوا الْأَبْنَاءَ بَنَاتِكُمْ وَأَبْنَاءَ بَنَاتِكُمْ» [النور: ٣٢] قَوْلُهُ: «الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَايَاهُمْ أَوْ مُشْرَكَاتَهُنَّ» الْآيَةَ.

وَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَجُلٍ، يَزْنِي بِالْمَرَأَةِ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا. قَالَ: هُمَا زَانِيَانِ مَا اضْطَحَبَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ عَنْ نِكَاحِ الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي نَهْيًا عَنِ الزَّانِي نَفْسِهِ لَا عَنْ نِكَاحٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَزْنُوا فَإِنَّكُمْ إِذَا زَنَيْتُمْ، وَصِرْتُمْ مَعْرُوفِينَ بِهِ، لَا تَجِدُونَ أَنْ تَنْكِحُوا إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً^(١٣)، لَا تُحَرِّمُ الزَّانِي، لِأَنَّ الْعَقَائِفَ مِنْهُمْ، لَا يَزْعُبْنَ [فِي نِكَاحٍ مَنْ صَارَ يُغْلِنُ الزَّانِي، فَإِذَا لَمْ يَزْعُبْنَ]^(١٤) لَمْ يَجِدُوا إِلَّا مَنْ ذَكَرَ، وَهُوَ مَا قَالَ: «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى» [النساء: ٤٣] لَيْسَ النَّهْيُ عَنْ قُرْبَانِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنَّ النَّهْيَ عَنِ السُّكْرِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ.

وَكَذَلِكَ مَا رَوَى أَنَّهُ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِلْمَرَأَةِ النَّاشِئَةِ وَلَا لِلْعَبْدِ الْآبِقِ» [ينحوه مسلم: ٧٠] لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ الْمَرَأَةِ إِنَّمَا النَّهْيُ عَنْ تَشْوِيزِهَا وَعَنْ إِبَاقَتِهَا^(١٥)، لَيْسَ عَنِ الصَّلَاةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَرْجَمُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْجَمُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: يَرْجَمُ. (٤) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٥/. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الزَّانِيَةُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ لَا يَنْكِحُ أَوْ مُشْرَكَةً. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَزْنِينَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَزْنِينَ. (١١) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (١٢) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: وَهَؤُلَاءِ. (١٣) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: إِبَاقَةٌ.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ جَانِزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ أَوْ مُشْرِكَةً وَلَا يَزْنُونَ﴾ [١] إِنَّمَا [هو] ^(١) نَهَىٰ عَنِ الزَّوْنِ، أَي لَا تَزْنُوا لِتَرْغَبَ الْعَفَافُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فِيكُمْ، وَلَا تَزْنِ النِّسَاءُ لِتَرْغَبَ أَهْلَ الْعَفَافِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [فِيهِنَّ] ^(٢) فَإِنَّكُمْ إِذَا زَنَيْتُمْ، وَصِرْتُمْ مَغْرُوفِينَ بِهِ مُعْلِنِينَ، لَا تَجِدُوا إِلَّا نِكَاحَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الزَّانِيَةِ أَوْ الْمُشْرِكَةِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرْنَا: لَا يَرْغَبُ الزَّانِي إِلَّا فِي نِكَاحِ زَانِيَةٍ أَوْ مُشْرِكَةٍ ^(٣)، لَا تُحَرِّمُ الزَّوْنِ، وَكَذَلِكَ الزَّانِيَةُ لَا تَرْغَبُ إِلَّا بِزَانٍ مِثْلِهَا أَوْ مُشْرِكٍ ^(٤)، لَا يُحَرِّمُ الزَّوْنِ.

[وقوله تعالى] ^(٥) ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَحَرَّمَ الزَّوْنِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

أَوْ إِنْ كَانَ عَلَى النِّكَاحِ فَيَكُونُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿وَحَرَّمَ﴾ أَي مُنِعَ عَنْ ذَٰلِكَ الْمُؤْمِنُونَ؛ أَغْنَىٰ نِكَاحَ الزَّانِيَاتِ وَالزَّانَاةَ. قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ يُقَالُ مِنْهُ: زَنَى يَزْنِي زَنًى [وَزَنَاءً، وَزَنًى] ^(٦) يَزْنَانِ زُنُوءًا، أَي ارْتَقَى يَزْتَقِي، وَيُقَالُ الزُّنَاءُ الضُّيُقُ، وَيُقَالُ: زَنَتْهُ أَرْثَةُ زَنًى، أَي ظَنَنْتُ بِهِ ظَنًّا. وَالْقَذْفُ التَّهْمَةُ، وَالرَّمْيُ أَشَدُّ مِنَ الْقَذْفِ.

وَمَنْ جَعَلَ الْآيَةَ فِي الزَّانِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ أَوْ مُشْرِكَةً﴾ عَلَى التَّزْوِيجِ لَزِمَهُ أَنْ يُجِيزَ لِلزَّانِيَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَتَزَوَّجَ الزَّانِيَّ الْمُسْلِمَ وَالْمُشْرِكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا بَدْءًا. وَهَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ. وَفِي بُطْلَانِ هَذَا الْقَوْلِ بَيَانُ أَنَّ الْآيَةَ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا عَقْدُ النِّكَاحِ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الزَّانِيَةِ الْمُشْرِكَةِ، يُرِيدُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا كَمَا ذُكِرَ فِي حَدِيثِ مَرْثَدٍ ^(٧). وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ بِذِكْرِ النِّكَاحِ مِنْهَا الْوُطْءُ، فَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي إِحْدَى الرَّوَابِيعِ عَنْهُ: إِنَّهُ الْجَمَاعُ، لَيْسَتْ تَحْتَمِلُ الْآيَةُ غَيْرَ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

وَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ حَرُمَتْ عَلَى زَوْجِهَا، فَكَانَهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّهُ لِمَا لَمْ يَحِلَّ أَنْ يَطَّأَهَا لِأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ زَانِيَةً لَمْ يَحِلَّ الْمَقَامُ عَلَيْهَا إِذَا زَنَتْ، وَهِيَ زَوْجَةٌ.

لَكِنُّ التَّأْوِيلَ فِي الْآيَةِ عَلَى خِلَافِ مَا تَوَهَّمُ أَوْلَاكَ بِمَا وَصَفْنَا، فَلَا وَجْهَ لِتَحْرِيمِهِمُ الزَّانِيَةَ عَلَى زَوْجِهَا. وَلَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا تَوَهَّمُوهُ لَوَجَبَ ^(٨) أَنْ تُحَرَّمَ الزَّانِيَةُ عَلَى زَوْجِهَا مِنْ حِينٍ ^(٩) أَنْ كَانَ مَمْنُوعًا مِنْ تَزَوُّجِهَا ^(١٠).

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً فِي عِدَّةٍ مِنْ غَيْرِهِ؟ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَطِئَ امْرَأَةً رَجُلٍ بِشَبْهَةٍ [فِي مَا وَجَبَ] ^(١١) عَلَيْهَا مِنْ عِدَّةٍ، لَمْ تُحَرَّمْ عَلَى زَوْجِهَا. أَلَا تَرَى أَنَّ الْعِدَّةَ، إِذَا كَانَتْ عَلَى النِّكَاحِ، تُخَالِفُهُ فِي الْعِدَّةِ؟

وَاسْتَخَرُوا أَيْضًا بَأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَذَفَ امْرَأَتَهُ لِعَيْنٍ [وَفُتِقَ بَيْنَهُمَا] ^(١٢) لَكِنَّ الْوَجْهَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ذَكَرَ الرَّمْيَ، وَلَمْ يَذْكُرْ بِمِ؟ فَيُعْرِفُ ذَٰلِكَ بِالنَّازِلَةِ وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ فَكُذِّبَتْ﴾ ذَكَرَ الْأَرْبَعَةَ الشُّهُودَ، وَالزَّوْنِ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالشُّهُودِ الْأَرْبَعَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَجْرَامِ. فَذَلَّ ذِكْرُ ذَٰلِكَ عَلَى إِنْثَرِ ذَٰلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّمْيَ الْمَذْكُورَ فِيهِ، هُوَ الزَّوْنِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ مِنَ الْحَرَائِرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَا الْعَفَافُ، لِأَنَّ قَاذِفَ الْأَمَةِ يَلْزَمُهُ التَّعْزِيرُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَإِنْ آتَتْ بِغَنَةٍ فَلَعْنَةُ رَبِّهَا﴾ [النساء: ٢٥] أَلَا تَرَى أَنَّهُ أَوْجَبَ عَلَى الْإِمَاءِ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ أَيْ الْحَرَائِرِ؟ وَلَا تَأْتِ [لَوْ] ^(١٣) جَعَلْنَا الْمُحْصَنَاتِ عِبَارَةً وَكِتَابَةً عَنِ الْعَفَافِ دُونَ الْحَرَائِرِ لِأَسْقَظْنَا شَهَادَةَ الشُّهُودِ لِأَنَّ الْعِفَّةَ تُكَذِّبُهَا. وَكَذَلِكَ يَذَلُّ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: ٢٣] أَنَّ الْغَافِلَاتِ عِبَارَةٌ عَنِ الْعَفَافِ. فَذَلَّ أَنَّ الْمُحْصَنَاتِ [عِبَارَةٌ عَنِ الْحَرَائِرِ، ثُمَّ أَذْخَلَ الْمُحْصَنَاتِ] ^(١٤) فِي حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الرَّمْيِ وَالْقَذْفِ وَغَيْرِهِ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرُوا فِي الْآيَةِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ادراج بعدها في الأصل وم: التي. (٤) ادراج بعدها في الأصل وم: الذي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وإما زناء. (٧) انظر أبو داود ٢٠٥١. (٨) في الأصل وم: فوجب. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: تزويجها. (١١) في الأصل وم: فوجب. (١٢) من م، في الأصل: بينهما وفتق. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

ثم شَدَّدَ اللهُ تعالى في الزَّنى، وَعَلَّظَ في امرِهِ ما لم يُشَدِّدْ، ولم يُعَلِّظْ في غَيْرِهِ مِنَ الْأَجْرامِ مِثْلَهُ [في وجوه: (١)]
منها ما نَهَى عن تَعْطِيلِ الْحَدِّ فِيهِ وإِضَاعَتِهِ وَتَخْفِيفِهِ حِينَ (٢) قَالَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ومنها ما
أَمَرَ بِرَجْمِهِ إِذَا كَانَ مُخَصَّنًا مِثْلَ ما يُرْجَمُ الْكَلْبُ، وَيُقْتَلُ بِالْحِجَارَةِ. ومنها ما أَوْجَبَ على الرامي بُو من (٣) الْحَدَّ إِذَا لم يَأْتِ
بَارَبَعَةِ شَهِدَاءَ.

والزَّنى / ٣٦١ - ب/ بهذا كُلُّهُ مُخْصَرٌّ مِنْ بَيْنِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَجْرامِ. وذلك، والله أَعْلَمُ، لِقُبْحِهِ فِي الْعَقْلِ وَالطَّبْعِ جَمِيعًا
وكذلك في الشَّرْعِ.

والدليل على أَنَّهُ قُبِيحٌ فِي الطَّبْعِ وَالْعَقْلِ جَمِيعًا، ما يَنْفُرُ عَنْهُ طَبِيعُ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَنْفُرُ عَنْهُ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ، فَإِنْ قِيلَ: لو كَانَ
يَنْفُرُ عَنْهُ لَكَانَ لَا يَزْنِيهِ، وَلَا تَأْتِيهِ، قِيلَ: يَنْفُرُ عَنْهُ، إِلَّا أَنَّ الشَّهْوَةَ الَّتِي مُكِّنَتْ فِيهِ، وَرُكِبَتْ، تَغْلِبُهُ، وَتَمْنَعُهُ عَنِ النَّفَارِ عَنْهُ.

الَا تَرَى أَنَّهُ [لَوْ] (٤) تَفَكَّرَ بِمِثْلِهِ فِي الْمُتَصِلَاتِ بِهِ مِنَ الْأُمِّ وَالْإِبْنَةِ وَجَمِيعِ الْمَحَارِمِ لَمْ يَخْتَمِلْ قَلْبُهُ ذَلِكَ؟
وَبِمِثْلِهِ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «أَنْ رَجُلًا أَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: ائْذَنْ لِي فِي الزَّنى، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لو فُئِلَ بِابْنَتِكَ وَأُمِّكَ مِثْلُهُ،
أَكُنْتَ تَكْرَهُهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: اكْرَهُ لِغَيْرِكَ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ» [أحمد: ٢٥٦/٥] دَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ قُبِيحٌ فِي الطَّبْعِ وَالْعَقْلِ
جَمِيعًا، إِلَّا أَنَّ الشَّهْوَةَ [لَمْ] (٥) تَمْنَعُهُ عَنِ النَّفَارِ عَنْهُ.

وفيه اشْتِيَاءُ الْأَنْسَابِ وَالْمَعَارِفِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي ما بَيْنَ الْخَلْقِ حَتَّى لَا يَهْتَدِي أَحَدٌ إِلَى مُعَلِّمٍ، يُعَلِّمُ الْحِكْمَةَ وَالْآدَابَ
وَمَعَالِمَ السَّنَنِ، لَا (٦) الدُّعَاءَ بِالْإِبَاءِ وَارْتِفَاعَ التَّوَاصِلِ وَحِفْظَ الْحَقُوقِ الَّتِي يَقُومُ بَعْضُ لِبَعْضٍ، وَالشَّقَقَةَ الَّتِي جُعِلَتْ لِبَعْضٍ
على بَعْضٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ فِي الصِّغَارِ وَحَقُوقِ الْمَحَارِمِ وَغَيْرِهِمْ.

وبِهِ (٧) امْتَحَنَ الْبَشَرُ وَالْعَالَمُ الصَّغِيرُ، وَبَظَلَّ خَلْقُ ما ذَكَرَ مِنَ الْإِنْشَاءِ لِهَذَا الْعَالَمِ وَتَسْخِيرُ ما ذَكَرَ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَهُمْ.

فهذا كُلُّهُ يَدُلُّ على قُبْحِ الزَّنى وَنَهَائِيَّتِهِ فِي الْفُحْشِ وَالْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَعْرِفُ هَذَا الْعَالَمُ قُبْحَهُ وَنَهَايَةَ فُحْشِهِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُهُ
الْعَالَمُ الرُّوحَانِيُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ هَذِهِ الشَّهْوَةُ، وَلَمْ يُمْتَحِنُوا بِهَا.

وَأَمَّا هَذَا الْعَالَمُ الَّذِي جُعِلَتْ فِيهِمْ الشَّهْوَةُ، فَلَا (٨) يَعْرِفُونَ قَدْرَ قُبْحِهِ وَقُبْحَانِهِ، لِمَا تَغْلِبُهُمْ، وَتَمْنَعُهُمْ عَنِ النَّفَارِ عَنْهُ
وَالنَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ قُبْحِهِ.

لهذا، والله أَعْلَمُ، ما شَدَّدَ اللهُ تعالى أَمْرَ الزَّنى، وَعَلَّظَ في أَحْكَامِهِ، ما لم يُعَلِّظْ بِمِثْلِهِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَجْرامِ، وَعَظَّمَ
شَأْنَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنَامِ.

ثم الذَّكَرُ إِنَّمَا جَرَى فِي الْحَرَاثِرِ بِما ذَكَرْنَا، فَهُوَ بِالرِّجَالِ مِنَ الْأَحْرَارِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يَكُونُ، دُونَهُ، لِأَنَّ الْمُعْذَرَ فِيهِمْ
أَكْثَرُ، وَهِيَ الشَّهْوَةُ الَّتِي تَغْلِبُ، وَتَمْنَعُ عَنِ النَّفَارِ عَنْهُ، وَفِي الرِّجَالِ أَقْلُ، فَالْمُعْذَرُ فِيهِمْ أَقْلُ.

الَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ الْحَدَّ فِي الْإِمَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ آتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]
وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْعَبِيدِ شَيْئًا، فَيُلْزَمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ الْحَدَّ إِذَا ارْتَكَبَهُ؟

فَعَلَى ذَلِكَ ما ذَكَرَ مِنَ الْحَدِّ فِي النِّسَاءِ وَالْقَذْفِ، فَهُوَ فِي الرِّجَالِ مِثْلُهُ.
ثم أَجْمَعُوا على أَنَّ على قَاذِفِ الْأَمَةِ التَّغْزِيرَ، وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ.

ثم سَمَّى الزَّوْجَةَ، وَإِنْ كَانَتْ مُخَصَّنَةً أَمَةً، وَقَالَ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] سَمَّى
مُلْكَ الْيَمِينِ مُخَصَّنَةً بِقَوْلِهِ: ﴿أَحْصِينَ﴾ أَيِ تَزَوَّجْنَ وَقَوْلِهِ: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أَيِ الْحَرَاثِرِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: عن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: وبها. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم.

فقد بان بهذه الآية أن الإحصان، قد يكون بالحرية، ويكون بالزواج، وإن كانت الزوجة أمة؛ إذا كان لها زوج. وتسمى الطلقة من النساء مُحْصَنَةً. قال تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْتَفْعَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥] يعني العفائف. فالإحصان على ثلاثة أوجه، وإنما يجب الحد على قاذف الحر المسلم والحرّة المسلمة. فإن كان حراً أو حرّة فعليه^(١) الحد ثمانين، وإن كان عبداً أو أمة فعليه الحد أربعين سوطاً على ما ذكرنا. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [يَحْتَمِلُ هَذَا الْحَدَّ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ ظَاهِرَهُ]^(٢) لَا يَقَعُ عِنْدَ حَضْرَةِ الْقَذْفِ، وَلَكِنْ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى وَقْتِ إِيَّاسِهِ، وَهُوَ الْمَوْتُ، كَمَنْ يَخْلِفُ يَمِينٍ، وَلَمْ يُوقِفْ لَهَا وَقْتًا، فَإِنَّمَا وَقَعَتْ إِلَى وَقْتِ إِيَّاسِهِ، فَحِثَّ عِنْدَ ذَلِكَ.

فَعَلَى ذَلِكَ يَجِيءُ عَلَى ظَاهِرِهِ: أَنْ يَقَعُ عَلَى الْأَبَدِ، لَيْسَ عِنْدَ حَضْرَةِ الْمَوْتِ، لَكِنْ لَوْ وَقَعَ إِلَى الْأَبَدِ لَكَانَ فِيهِ سُقُوطُهُ؛ إِذْ لَا يُقَامُ الْحَدُّ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ أَنَّهُ^(٣) أَرَادَ بِذِكْرِ الشُّهُودِ الْأَرْبَعَةِ زَجْرَهُ عَنْ قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ لِمَا لَا يَجِدُ الشُّهُودَ عَلَى الْحُلُولِ^(٤)، فَالذِّي، هُوَ اخْفَى، وَأَسْرَ، أَبْعَدُ.

والثاني: أَنَّ الْحَدَّ قَدْ لَزِمَهُ بِالْقَذْفِ. فَإِنْ أَرَادَ إِسْقَاطَهُ لَمْ يَسْقُطْ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ، تَقُومُ [عَلَى]^(٥) حَضْرَةِ ذَلِكَ كَمَنْ يُقَرُّ بِقِصَاصٍ^(٦) أَوْ حَقٍّ مِنَ الْحَقُوقِ، ثُمَّ ادَّعَى الْعَفْوَ فِي ذَلِكَ أَوْ إِسْقَاطَ مَا أَقْرَبَهُ^(٧) وَالخُرُوجَ مِنْهُ، لَمْ يَصْدُقْ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ تَقُومُ عَلَى حَضْرَةِ ذَلِكَ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وَقَعَ ذَلِكَ [الْحَدُّ]^(٨) عَلَى حَضْرَةِ الْقَازِفِ^(٩). فَإِنْ أَتَى بِهِ، وَإِلَّا حَدًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم المسألة بأنه إذا أتى بأربعة فساقٍ ذرأ عن نفسه الحد عندنا.

والقياس ألا يطالب بشهود عدول، لأن العدول، لا يشهدون ذلك المشهد، ولا ينظرون إليه، إنما يشهد الفساق، [فهو أحق]^(١٠) أَنْ يَذْرَأَ بِهِمُ الْحَدُّ عَنْهُ مِنَ الْعُدُولِ، وَلَيْسَ كَالشَّهَادَةِ عَلَى إِقَامَةِ حَدِّ الزَّانِي، لِأَنَّ قَضَاهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ قَضَاءُ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وَإِجَابِ الْحَدِّ عَلَى فَاعِلِ ذَلِكَ.

لِذَلِكَ لَمْ يَصِيرُوا فَسَقَةً، وَلَآنَهُمْ لَا يَشْهَدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا عَنْ تَوْبَةٍ تَكُونُ مِنْهُمْ، إِذْ يَمْلِكُونَ التَّوْبَةَ.

وَلِأَنَّ الْفَسَاقَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ لَيْسُوا^(١١) كَالْكَافِرِ وَالْعَبِيدِ. وَهَؤُلَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْفَسَاقِ، فَهَمَّ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ قَذَفَ [كَانَ]^(١٢) فَاسِقًا، أَوْ [إِنْ]^(١٣) كَانَتْ امْرَأَةً، قَذَفَهَا^(١٤) زَوْجُهَا، وَهُوَ فَاسِقٌ، فَإِنَّا^(١٥) نَجِدُ الْقَازِفَ^(١٦) الْفَاسِقَ، وَيُلَاحِظُ بَيْنَ الزَّوْجِ وَبَيْنِ امْرَأَتِهِ؟ وَإِنْ قَذَفَ مُسْلِمٌ كَافِرًا، أَوْ قَذَفَ حُرٌّ عَبْدًا، أَوْ إِنْ قَذَفَ أَحَدُهُمَا زَوْجَهُ^(١٧)، لَمْ يُلَاحِظْ بَيْنَهُمَا؟

فَمَنْ خَالَفْنَا فِي هَذَا اللَّعَانِ فَلَيْسَ يُخَالِفُنَا فِي أَنَّ الْحُرَّ إِذَا قَذَفَ الْعَبْدَ، وَالْمُسْلِمَ إِذَا قَذَفَ الْكَافِرَ، فَلَا حَدَّ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ أَنَّ الْفَاسِقَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ وَالْكَافِرَ وَالْعَبْدَ وَالْمَحْذُودَ فِي الْقَذْفِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ.

فَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ، وَلَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُمْ فِي غَيْرِهِ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ شُبْهَةً، وَالْحُدُودُ مِمَّا تُذَرَأُ بِالشُّبُهَاتِ. لِذَلِكَ دُرِيَ عَنْهُ^(١٨) الْحَدُّ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَلَئِمَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَلَال. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ: لَهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقَذْف. (١٠) فِي م: أَحَق، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَيْسَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَذَفَهَا. (١٥) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قَازِف. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: زَوْجَتِهِ. (١٨) يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْفَاسِقِ.

وأما الكافر والعبد والمخدود في قذف، فإن لم يكونوا من أهل [الشهادة]^(١) لم تجب شبهة في ذرء الحد عنهم^(٢) لذلك افترقا.

ثم المسألة: إذا جاء الشهود متفرقين حذوا، ولم تقبل شهادتهم.

والقياس عندنا ألا يحذوا لأنهم إنما يقومون في الشهادة مختسبين، لا يقصدون بها قذفه وشتمه. وأما الرامي فإنه يقصد قصفه وشتمه وقذفه، ولأن الشاهد يقول: رأيته فعل كذا، والرامي، يقول: أنت كذا، فكان كمن يقول [عن آخر]^(٣): رأيته كفر، لم يضرب بهذا القول، ولو قال: يا كافر ضرب لأن هذا خرج [مخرج]^(٤) الشتم، والأول لا. فعلى ذلك الأول.

لكنهم أقاموا الحد على الشهود، إذا جاؤا متفرقين، لأن الله أكد الشهادة بالزنى بأمرين:

أحدهما: ألا يقبل فيها أقل من أربعة، وألا تقبل حتى يقولوا: زنى بها، فباتوا^(٥) بهذه اللفظة، ويصفوا بأكثر مما يوصف غيره من النكاح وغيره. فالشهادة بالزنى أخرج على اجتماع الشهود في موطن واحد من اجتماع الشهود على النكاح، إذا عقد بشاهدين متفرقين لم يكن نكاحاً.

فالزنى/ ٣٦٢- / الذي كان أمره أوكد^(٦)، والحاجة إليه أخرج، وأكثر، أحق ألا يقبل.

والثاني: ما جاء عن عمر أن ثلاثة شهدوا على رجل بالزنى، وفيهم أبو بكر، فجلدهم عمر جميعاً لما لم يشهد الرابع كما شهدوا هم. وكان ذلك بحضرة أصحاب النبي، فلم ينكر عليه أحد. فكان ذلك إجماعاً.

الا ترى أن أبا بكر قال بعد ذلك: أنا أشهد، فهم عمر أن يجلدوه، فقال له علي^(٧): إن جلدت هذا فارجم صاحبك؟ فلم ينكر عليه علي جلدته إياهم إذا لم يتم أربعة، إنما أنكر إذا تم، والله أعلم.

لذلك قلنا: إنهم إذا جاؤا فرادى متفرقين، صاروا قذفة، ولا ينظر به حضور من بقي منهم كما لم ينتظر عمر.

ثم مسألة أخرى: أنه إذا جاء أربعة، واجدوهم زوج قبل عندنا، وذري عنه الحد لما روي [عن]^(٨) ابن عباس^(٩) وغيره من السلف ولأن الشهادة عليها وشهادة الزوج على امرأته تقبل، وإنما ترد إذا شهد لها.

الا ترى أنه لو شهد عليها في الديون والقصاص والسرقة وغير ذلك من الحقوق قبل؟ فعلى ذلك في هذا ما قيل: إن الزوج إنما يشهد لنفسه، وفيه منفعة له لأن حده اللعان؛ إذا قذفها فهو يزيل اللعان عن نفسه.

قيل: إنما يكون حد الزوج اللعان إذا قذفها قبل أن يرتفعاً إلى الحاكم. فإذا فعل ذلك، ثم شهد مع ثلاثة لم تجز شهادته. وأما إذا كان أول ما بدأ به أن جاء مع ثلاثة^(١٠)، فشهدوا عليها بالزنى فليس يبطل بشهادته عن نفسه شيئاً، وجب عليه.

الا ترى أن الأجنبي إذا قذفت امرأته، ثم جاء يشهد بذلك عليها مع ثلاثة، فإن^(١١) شهادته، لا تجوز لأن الحد قد لزمه قبل شهادته؟ وهو يدفع الحد الذي وجب عليه بشهادته، فلا تقبل. وأنه لو جاء مع ثلاثة، وكان أول أمرهم أن يشهدوا عليها بالزنى، فشهادتهم جائزة، ولا يقال: إن أحداً منهم يدفع عن نفسه شيئاً، وجب عليه، فعلى ذلك الزوج.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ تسمية الفاسق لهم لا تخلو: إما أن كان لما رموا، وقذفوا به بريئاً من ذلك، أو لما هتكوا عليه السر من غير أن هتك هو على نفسه.

فإن كان الأول فذلك لا يعلم إلا الله. فعلى ذلك ثبوته، لا تظهر عندنا؛ فإنما ذلك في ما بينه وبين ربّه. فكانه قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عندكم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٥].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لآخر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيأتون. (٦) في الأصل وم: واكد. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: أو، في م: إن.

وإن كان الثاني فإننا نُعلمُهُ. فكانه قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عندكم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ لا تَظْهَرُ تَوْبَتُهُ عِنْدَنَا، لَأَن تَوْبَتَهُ هُوَ أَن يَغْزِمَ الْآيَةَ عَلَى آخِرِ سِتْرِهِ، أَوْ يَغْزِمَ الْآيَةَ بِقَدْرِ بَرِيءٍ مِنَ الزُّنَى أَبَدًا.

فأي الوجهين كان تَسْمِيَتُهُ فُسَقَهُمْ فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنْ ذَلِكَ لَا تَظْهَرُ عِنْدَ النَّاسِ. لذلك لم تُقْبَلْ [شهادتهم]^(١) ولذلك قال ابن عباس: وإنما تَوْبَتُهُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ؛ إِذَا تَابَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ: الْغَفْرَةُ. وكذلك رَوَى عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْ نَحْوِ الْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ وَأَمثالِهِمَا^(٢)؛ قالوا: تَوْبَتُهُ [فِي مَا]^(٣) بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ لَيْسَ ثَمَّةَ شَهَادَةٍ، رُفِعَتْ إِلَى الْحَاكِمِ، قَرَدَهَا. وَلَكِنْ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً يَرْفَعُونَهَا إِلَى الْحَاكِمِ. فَالْحَرْجُ عَلَى كُلِّ شَهَادَةٍ، يَرْفَعُونَ مِنْ بَعْدِ.

ثم إذا شَهِدُوا بَعْدَ مَا قُدِّمَتْ قَبْلُ أَنْ يُجْلَدَ قَبْلَتْ شَهَادَتُهُمْ. إِنَّمَا تُرَدُّ بَعْدَ مَا جُلِدَ لِمَا اتَّهَمَهُ الْحَاكِمُ.

وكلُّ شَهَادَةٍ رُدَّتْ لِإِثْمَةٍ فِيهَا لَا تُقْبَلُ أَبَدًا. وَالثَّهْمَةُ الَّتِي بِهَا جُلِدَ الْقَاضِي، هِيَ لَا تَرُورُ أَبَدًا.

أَوْ تَكُونُ تَوْبَتُهُ قَوْلُهُ: فَقَدْ كَذَبْتُ فِي مَا قُدِّمْتُ، فَكُنَّا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ [لِإِثْمَتِهِ بِالْكَذِبِ]^(٤) فإِذَا أَكْذَبَ نَفْسَهُ تَقْبَلُهَا لِتَحْقِيقِ الْكَذِبِ، فَهَذَا بَعِيدٌ.

الآية ٥

[وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَصْلُهُ]^(٥) أَنَّ كُلَّ تَوْبَةٍ كَانَتْ بَعْدَ التَّمَكِينِ فِيهَا لَا تَرْفَعُ الْحُكْمَ الَّذِي جُعِلَ لَهُ بِالْحَدِّ، وَكُلُّ تَوْبَةٍ كَانَتْ قَبْلَ التَّمَكِينِ فِيهَا تَرْفَعُ الْعُقُوبَاتِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] فَلَوْ لَمْ يَرْفَعُوا عَنْهُمْ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ لَكَانُوا يَتِمَادُونَ فِي السُّعْيِ فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ. وَأَمَّا فِي مَا نَحْنُ فِيهِ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ التَّمَادِي فِيهِ.

وَرَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ حَالَهُ قَبْلَ الْحَدِّ وَبَعْدَ ذَلِكَ سَوَاءٌ. هَذَا خِلَافٌ مَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْمَةٍ فَاجْلِدُوهُنَّ نِسْفَ الْجَلْدِ﴾ الْآيَةُ. وَقَالَ: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فَجَعَلَهُمْ كَاذِبِينَ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ [الِإِتْيَانِ بِالشَّهَادَةِ]^(٦) وَكَانَ أَمْرُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ مَوْقُوفًا.

فَالْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَاذِبِينَ عِنْدَ عَجْزِهِمْ عَنْ تَضَحِيحِ مَا قَالُوا، وَهِيَ الْحَالُ الَّتِي جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِيهَا كَاذِبِينَ.

فَبِأَنِّمَا وَصَفْنَا أَنَّ مَنْ جَعَلَ حَالَ الْمَحْدُودِ بَعْدَ أَنْ ضُرِبَ الْحَدُّ كَحَالِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مُخْطِئٌ. وَكَذَا مَا وَصَفْنَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَوَازِ شَهَادَتِهِ قَبْلُ أَنْ يُجْلَدَ عَلَى جَوَازِ شَهَادَتِهِ إِذَا تَابَ بَعْدَ الْجُلْدِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، لِأَنَّا بِالْجُلْدِ عَلِمْنَا أَنَّهُ قَاذِفٌ لَا بِمَا كَانَ مِنْ رَمِيهِ الْمَرْأَةَ قَبْلُ أَنْ يُجْلَدَ.

وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَالَيْنِ أَنَّ عُمَرَ لَمَّا جُلِدَ أَبَا بَكْرَةَ قَالَ لَهُ: إِنْ ثُبِتَ قَبْلَتْ شَهَادَتُكَ، وَأَنَّهُ قَبْلُ أَنْ يُجْلَدَ لَمْ يَرُدَّ شَهَادَتُهُ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَهُ مَجْرُوحًا بِالْقَذْفِ لَمْ يَسْمَعْ شَهَادَتَهُمْ. وَلَا أَعْلَمُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ خِلَافَ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ بَعْدَ الْجُلْدِ مَا لَمْ يَثْبُتْ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ فِي شَهَادَتِهِ بَعْدَ التَّوْبَةِ، وَأَنَّ شَهَادَتَهُ قَبْلَ الْجُلْدِ مَقْبُولَةٌ. فَكَيْفَ تَشْتَبِهُ الْحَالَتَانِ مَعَ مَا وَصَفْنَا؟

وَقَالَ غَيْرُهُمْ: التَّوْبَةُ تُزِيلُ فُسْقَهُ، وَلَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ؛ قَالُوا: الْإِسْتِثْنَاءُ عَلَى آخِرِ الْكَلَامِ عَلَى الَّذِي يَلِيهِ. وَقَدْ وَرِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ عُذُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَحْدُودًا فِي قَذْفٍ» [البيهقي في الكبرى ١٩٧/١٠]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْمَةٍ فَاجْلِدُوهُنَّ نِسْفَ الْجَلْدِ﴾ وَذَكَرَ حَدِيثًا^(٨)، فِيهِ طَوْلٌ، وَفِيهِ: لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى «جَاءَ هِلَالٌ بَنُ أُمَيَّةَ»، وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ فَلَانًا مَعَ أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَقُولُ يَا هِلَالُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ، وَسَمِعْتُهُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. وأمثاله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لثمة الكذب. (٥) في الأصل وم: وأصله. (٦) في الأصل وم: إقامة الشهداء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حديث.

بأذني. قال: فَشَقَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الذي جاء به، ثم قال: أَيُجْلَدُ هَلَالٌ، وَتَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ؟ [أحمد ١/ ٢٣٨] فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ وَجَعَلَ يَقُولُ: أَيُجْلَدُ هَلَالٌ، وَتَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ؟ وقول رسول الله ﷺ: أَيُضْرَبُ هَلَالٌ، وَتَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ؟ وما ظهرَ مِنْ غَمِّ بِذلك وَجَزَعِهِ يَدْلَانِ عَلَى أَنَّ المَحْدُودَ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ لِأَن تَوْبَتَهُ، لو قُبِلَتْ، وَكَانَ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي إِذَا أُتِيَ بِمِنْهَا جَارَتْ شَهَادَتُهُ، لَقَالَ النَّبِيُّ: تَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَفْرَنَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ.

وقد ذَكَرْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [أنه] قال: فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفُسْقِ، فَأَمَّا الشَّهَادَةُ فَلَا تَجُوزُ. وكذلك رُوِيَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: تَوْبَتُهُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

وفيه وَجْهٌ آخَرُ؛ وهو أَنَّ الْقَاذِفَ إِذَا ضَرَبَ الْحَدَّ، فهو يَقُولُ مَا لَمْ يُرْجَعْ: أَنَا صَادِقٌ فِي نَفْسِي، وَلَمْ يَلْزَمْنِي الْحَدُّ فِي مَا بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي، وَإِنَّمَا لَزَمَنِي / ٣٦٢ - ب/ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ. فإذا تَابَ، فهو يَقُولُ: كَانَ الْحَدُّ وَاجِباً عَلَيَّ فِي مَا بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي. وفي الْحُكْمِ فَذلكَ أُخْرَى أَلَا يَزُولُ عَنْهُ مِنْ إِبْطَالِ شَهَادَتِهِ بِذلك.

وَوَجْهٌ آخَرُ؛ وهو أَنَّ الْقَاذِفَ، لَمْ تَبْطُلْ شَهَادَتُهُ بِقَوْلِهِ: فَلَانِ زَانٍ لِأَنَّهُ مُدَّعٍ بِقَوْلِهِ هَذَا شَيْئاً، قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَقّاً، وَإِنَّمَا يَصِيرُ قَاذِفاً إِذَا عَجَزَ عَنْ إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ، وَضَرَبَهُ الْحَاكِمُ الْجَلْدَ.

فإذا كَانَتْ شَهَادَتُهُ إِنَّمَا بَطَلَتْ بِحُكْمِ حَاكِمٍ، لَمْ يُزَلْ ذَلِكَ الْحُكْمُ إِلَّا بِحُكْمِ حَاكِمٍ. فإذا حَكَمَ حَاكِمٌ بِجَوَازِ شَهَادَتِهِ فِي شَيْءٍ جَارَتْ شَهَادَتُهُ فِيهِ. فَإِنْ قِيلَ: يَلْزَمُكُمْ عَلَى هَذَا أَنْ تَقُولُوا: إِنْ قَالَ حَاكِمٌ: قَدْ أَجَزْتُ شَهَادَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهَا ^(١) تَجُوزُ، لِأَنَّ الْحَاكِمَ، قَدْ رَفَعَ مَا لَزِمَ مِنْ بَطْلَانِ شَهَادَتِهِ بِالْحُكْمِ الْأَوَّلِ. قِيلَ: قَوْلُ الْحَاكِمِ: قَدْ أَجَزْتُ شَهَادَتَهُ، لَيْسَ بِحُكْمٍ، إِنَّمَا هُوَ قَوْلِي.

وَالْحُكْمُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي مَا تُقَامُ لَهُ الْبَيِّنَةُ، أَوْ يَقَعُ لَهُ الْإِقْرَارُ. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ، رَزَى، فَحَدَّهُ الْحَاكِمُ: هَلْ تَجُوزُ شَهَادَتُهُ إِنْ تَابَ. قِيلَ: بَلَى.

فإِنْ قِيلَ ^(٢): قَدْ بَطَلَتْ شَهَادَتُهُ بِحُكْمِ آخَرَ، وَتَوْبَتُهُ مَقْبُولَةٌ بِغَيْرِ حُكْمٍ حَاكِمٍ، فَمَا مَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْقَذْفُ مِثْلَ ذَلِكَ؟ وما الْفَرْقُ؟ قِيلَ: الرِّزَى فَعَلَّ ظَاهِرًا، يُعْرَفُ بِهِ فُسْقُ الرِّزَى، وَإِنْ لَمْ يُحَدَّ، وَالْقَذْفُ لَا يُعْلَمُ كَذِبُ الْقَاذِفِ فِيهِ مِنْ صِدْقِهِ لِأَنَّهُ شَيْءٌ يَدْعِيهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي قَذْفِهِ بِمَا يُنْقَضُ عَلَيْهِ مِنْ حُكْمِ الْحَاكِمِ. فَلذلكَ افْتَرَقَا.

وَمِنَ الدَّلِيلِ أَيْضاً عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ الْقَاذِفِ، إِذَا حُدَّ، لَا تُقْبَلُ، وَإِنْ تَابَ، أَنَّهُ إِذَا قَالَ: ثُبْتُ عَنْ [قَذْفِي فَلَاناً] ^(٣) أَوْ: كُنْتُ فِي ذَلِكَ كَاذِباً ^(٤). فَلَسْنَا نَذَرِي هَلْ هُوَ صَادِقٌ فِي قَوْلِهِ: [كُنْتُ كَاذِباً أَوْ هُوَ فِي قَوْلِهِ] ^(٥) ذَلِكَ [كَانَ] ^(٦) كَاذِباً لِأَنَّ الْمَقْدُوفَ، إِنْ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ زَانِياً فَقَوْلُ الْقَاذِفِ: كُنْتُ فِي قَذْفِي إِتْيَاهُ كَاذِباً [كَذِبٌ] ^(٧) مِنْهُ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ آتَمٌ.

فإذا كُنَّا لَا نَقِفُ بِتَكْذِيبِهِ نَفْسَهُ عَلَى كَذِبِهِ مِنْ صِدْقِهِ لَمْ [نَجْعَلْ تَوْبَتَهُ] ^(٨) تَوْبَةً؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ أَنْ يَظْهَرَ عِنْدَ الْحَاكِمِ ^(٩) مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُعْلَمُ بِنَفْسِهَا أَنَّهَا طَاعَةٌ، وَأَنَّهُ فِيهَا عَلَى خِلَافِ مَا ظَهَرَ مِنْ نَفْسِهِ فِي الْوَقْتِ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا لَمْ يُعْرَفْ كَذِبُ الْمُكَذِّبِ لِنَفْسِهِ مِنْ صِدْقِهِ لَمْ يُجْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُ تَوْبَةً، وَقُلْنَا: تَوْبَتُهُ فِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ يُعْلَمُ هَلْ هُوَ كَاذِبٌ فِي تَكْذِيبِهِ نَفْسَهُ أَوْ صَادِقٌ؟ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، وَلَا دَلِيلَ لَنَا مِنَ الظَّاهِرِ عَلَيْهِ، فَلَمْ نَجْعَلْ تَوْبَتَهُ تَوْبَةً فِي الْحُكْمِ، وَقُلْنَا: حَالُكَ الْآنَ كَحَالِكَ قَبْلَ ذَلِكَ.

ودليلٌ آخَرُ أَنَّا قَدْ عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿قَالُوا لَيْسَ بِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فإذا قَالَ: كَذِبْتُ فِي قَذْفِي قُلْنَا: لَمْ تُفِئِدْنَا بِتَكْذِيبِكَ نَفْسَكَ فَانْدَةً، لَمْ نَعْرِفْهَا، فَانْتَ فِي هَذَا الْوَقْتِ كَاذِبٌ؛ فَإِنَّكَ فِي الْوَقْتِ الْأَوَّلِ تُعْلِمُنَا أَنَّكَ كَاذِبٌ، فَحَالُكَ الْآنَ فِي شَهَادَتِكَ كَحَالِكَ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَذْفَ فَلَاناً. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَذِباً. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم، نَجْعَلُهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَكَمَ.

على أن الشافعي، يقول: لا تُرجع الملاعة إلى زوجها، وإن تاب. فإذا كانت توبته لا تبطل ما لزمها^(١) من الحكم في رجوعها إليه فكذلك لا يبطل ما لزمه من الحكم في بطلان شهادته، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَدُ وَالرِّجْلُ نُسَبُّنَ جِلْدَهُ﴾ إن كان الجلد مأخوذاً من الجلود فجائز أن يستخرج منه حد الضرب، وهو ألا يجاوز الجلود، ولكن يضرب بمقدار ما يتألم به، ويتوجع، ولا تمرق به الجلود، ولا يخرقها، ويستخرج منه التفريق في الأعضاء كلها والجوارح، لأنه لو ضرب في مكان واحد لخرقه، ومزقه، سيوى الرأس والوجه والمذاكير لما فيه من التأثير والمجاوزة.

فإن كان كذلك ففيه حجة لأبي حنيفة، رحمه الله، في قوله: إن الشهود إذا شهدوا على حد، فضرَب به الإمام، فأصابه بالجراحات، ثم رجعوا، لا يضمنون ما أصابه من الجراحات لأنهم لم يشهدوا على ضرب يخرج، ويؤثر فيه ما أصابه. لذلك لم يضمنوا.

وقول عمر لأبي بكر: تقبل شهادتك إن ثبت، فهو يختمل أي تقبل روايتك عن رسول الله ومشاهدك التي شهدتها. قد ذكر أن الحكم والحد في الآية إنما جرى في قذف المحصنات دون المحصنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية. لكن قذف المحصن وشتمه، إن لم يكن أكثر في الشين وأعظم في الوزر، فلا يكون دونه. فالدكر، وإن جرى في المحصنات، فأمكن وجود المعنى الذي به، جرى [في المحصنين]^(٢) وهو ما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُمَثَلُنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] وهو الإيمان والإحصان والعفة. لذلك لزم الحكم في المحصنين^(٣) كما لزم في المحصنات.

وقد ذكرنا أيضاً في ما تقدم ألا يجلد من قذفت مملوكة، أو قذفت كافرة (أو كافراً، أما قاذف المملوك فليقله)^(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ وقد ذكرنا الدليل على أن المراد بالمحصنات الحرائر دون غيرهن. لذلك لم يجلد قاذف المملوك [أو المملوكة]^(٥) ولأننا لو أوجبنا جلده لثمانين فهو لو أتى بفعل الزنى حد خمسين، فلا يجوز أن يوجب في عين ذلك الفعل، لو أتى به. فسقط بما ذكرنا الجلد عن قاذف المملوك.

وأما الكافر والكافرة [فقد سقط] عن قاذفهما الحد لما ذكرنا من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُمَثَلُنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ شرط فيه الإيمان والإحصان والعفة. فإذا عد واحد مما ذكرنا لم يقم [عليه]^(٦) الحد، ولأننا لو أوجبنا [حدّه حدّناه]^(٧) لقذف عدو الله.

ولا يجوز أن يجلد مسلم يقذف عدواً من أعداء الله مع ما في ما ذكرنا من المسائل إجماع بين أهل العلم في ذلك، والله أعلم.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَنَّهُمْ شَهِدَاتٌ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ روي عن ابن عباس [أنه]^(٨) قال: لما نزلت هذه الآية قال [عاصم]^(٩) بن عدي الأنصاري: [إن]^(١٠) دخل منا رجل بيته، فوجد رجلاً على بطن امرأته، فإراد أن يخرج، فبجي بأربعة رجال شهود يشهدون على ذلك [يكن]^(١١) قد قضى الرجل حاجته، وخرج. وإن هو عجل، فقتله^(١٢)، قتل به. وإن هو قال: وجدت فلاناً مع فلانة، ضرب به الحد، ولاعن امرأته. وإن سكت سكت على غيظ. فذكر أنه ابتلي بذلك من بين الناس.

فأتى رسول الله، فأخبره بذلك، وقال: وجدت فلاناً [على]^(١٣) بطنها، فأرسل رسول الله إلى امرأته وإلى فلان، فجمع بينهما وبين عاصم، فقال للمرأة: ونحك! ما يقول زوجك؟ قالت: يا رسول الله إنه لكاذب، ما رأى شيئاً من ذلك،

(١) من ٢، في الأصل: لزمها. (٢) في الأصل: ذلك في المحصنات في المحصن. (٣) في الأصل: هذا. (٤) في الأصل: أما المملوك لقوله. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: الحد وحدناه. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: عبد الله. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: قتل. (١٣) ساقطة من الأصل.

ولكنه رجلٌ غيورٌ، فذلك الذي حمّله على أن يتكلّم بالذي تكلم. [فكان] ^(١) فلان ضيقاً عنده؛ يَدْخُلُ، ويَخْرُجُ عليّ، وهو يَعْلَمُ ذلك، فلم يَنْهَني عن ذلك ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ أن يَدْخُلَ عليّ، فسأله عن ذلك، فقال: يا عاصمُ اتّقِ اللهَ في حَلِيَّتِكَ، ولا تَقُلْ إلا حقّاً. قال: يا رسولَ الله، أقمِ بالله ما قُلْتُ إلا حقّاً، ولقد رأيتُهُ يَغْشَى على بَطْنِهَا، وهي حُبْلَى، وما قَرَّبْتُها مُنْذُ كَذَا وكَذَا. فأمرهما رسولُ الله أن يتلاعنا عند ذلك.

الآية ٧ وقال: يا عاصمُ قُمْ، فاشهدْ أربعَ شهادَاتٍ بالله إنه لكما قُلْتُ، وإنك لَمِنَ الصادقينَ في قولك عليها، ثم قُلْ ^(٢) ﴿وَالْفَلْسَةَ أَنْ لَعَنْتُ اللَّهَ﴾ عليك إن كُنْتَ مِنَ الكاذبينَ. ففعل ما ذَكَرَ.

الآيتان ٨ و ٩ ثم قال للمرأةِ مثلُ [ذلك] ^(٣) فَشَهِدْتُ ﴿أَنْتِ شَهِدَاتِي وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ ﴿وَالْفَلْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ إن كَانَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿عليها ٣٦٣ - أ / في قوله.

فلما تَلَاعَنَّا، وَفَرَعَا مِنَ اللَّعَانِ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، ثم قال للمرأةِ: إذا وَلَدْتَ فلا تُرْضِعِيه حتى تَأْتِيَنِي بِهِ. فلما انصرفوا عنه قال رسولُ الله ﷺ: إن وَلَدَتْهُ أَحْمَرٌ مِثْلُ الدَّبْسِ فهو الذي يُشْبِهُ أَبَاهُ الذي نَفَاهُ [وإن وَلَدَتْهُ] ^(٤) أَسْوَدٌ أَدْعَجٌ جَعْدٌ قَطَطٌ فهو يُشْبِهُ الذي رُمِيتَ بِهِ. فلما وَضَعَتْ أَتَتْهُ بِهُ رسولُ الله ﷺ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فإذا هو أَسْوَدٌ أَدْعَجٌ جَعْدٌ قَطَطٌ على ما نَعَتَهُ رسولُ الله ﷺ يُشْبِهُ الذي رُمِيتَ بِهِ. فقال رسولُ ^(٥) الله: لولا اللَّعَانُ وَالْإِيمَانُ التي سَلَفَتْ لَكَانَ لي فيها رأيٌ [البخاري ٤٧٤٧].

وفي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمَّا جَمَعَ بَيْنَهُمَا قَالَ لَهَا ^(٦): «اتَّقِيَا اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فهل مِنْكُمَا تَائِبٌ، فَإِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا» [البخاري ٤٧٤٧].

وفي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ، فَذَكَرَ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم في هذا مسائل: إحداها: أَنَّهُ ذَكَرَ قَذْفَ الْأَزْوَاجِ، وَذَكَرَ فِيهِ اللَّعَانُ، وَلَمْ يُبَيِّنْ.

فظاهرُ الْآيَةِ الزَّوْجُ والزَّوْجَةُ كَافِرَانِ أَوْ حُرَّانِ مُسْلِمَانِ أَوْ مَمْلُوكَانِ أَوْ كَيْفَ؟

فَعِنْدَنَا أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا كَافِرًا أَوْ مَمْلُوكًا أَوْ كَانَا جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا لِعَانٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَا جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ وَحُجَّتِنَا ^(٧) فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَلَى الْأَجْنَبِيِّ الْحُرِّ إِذَا قَذَفَ أَجْنَبِيَّةَ حُرَّةً الْحَدَّ ثَمَانِينَ، وَجَعَلَ حَدَّ الزَّوْجِ إِذَا قَذَفَ زَوْجَتَهُ، وَهُمَا حُرَّانِ مُسْلِمَانِ، اللَّعَانُ.

ثم قد ذَكَرْنَا إِجْمَاعَهُمْ عَلَى أَنَّ الْحُرَّ إِذَا قَذَفَ أَمَةً أَوْ يَهُودِيَّةً فَلَا حَدَّ عَلَيْهِ. فلما لَمْ يَكُنْ عَلَى الْحُرِّ الْقَاذِفِ الْأَمَةُ مِنَ الْحَدِّ ^(٨) لَمْ يَكُنْ عَلَى زَوْجِ الْأَمَةِ مِنَ اللَّعَانِ مَا عَلَى زَوْجِ الْحُرَّةِ.

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ الشَّهَادَةَ فِي رَمِي الْأَجْنَبِيَّةِ الْمُحْصَنَةِ وَإِبْرَاءِ الْقَاذِفِ عَنِ الْحَدِّ إِذَا أَتَى بِهَا، وَأَمَرَ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ إِذَا عَجَزَ عَنْ إِيْتَانِهَا ^(٩).

ثم اسْتَشْنَى مِنَ الشَّهَادَةِ الَّذِينَ ذَكَرَ فِي قَذْفِ الْأَجْنَبِيَّةِ شَهَادَةَ الزَّوْجَيْنِ بقوله: ﴿وَلَا يَكُنْ لَكُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهِدُوا أَحْوَجَ أَنْتِ شَهِدَاتِي بِاللَّهِ﴾ فإذا لَمْ يَدْخُلَا فِي تِلْكَ الشَّهَادَةِ إِذَا كَانَا مَمْلُوكَيْنِ أَوْ كَافِرَيْنِ، أَوْ أَحَدُهُمَا لَمْ يَدْخُلْ فِي مَا اسْتَشْنَى، إِذِ الثَّنْيَا اسْتِخْرَاجٌ مِنْ تِلْكَ الْجُمْلَةِ الْمُسْتَشْنَاةِ وَتَحْصِيلٌ مِنْهَا. لِذَلِكَ بَطَلَ اللَّعَانُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ فِي الْكَافِرَةِ، وَهُوَ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَقُولُ فِي الْخَامِسَةِ: إِنَّ «غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ» وَغَضَبُ اللَّهِ يَكُونُ عَلَيْهَا بِغَيْرِ شَرْطٍ. فَمُحَالٌ أَنْ يَقُولَ الْقَاضِيُ لَهَا: عَلَيْكَ غَضَبُ اللَّهِ بِشَرْطٍ إِنْ كَانَ الزَّوْجُ صَادِقًا، وَهُوَ ^(١٠) يَعْلَمُ أَنَّ غَضَبَ [الله] ^(١١) عَلَيْهَا فِي كُلِّ حَالٍ. لِذَلِكَ بَطَلَ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل: يا. (٦) في الأصل وم: لها. (٧) في الأصل وم: وحجتها. (٨) أدرج بعدها في الأصل: على ما قاذف الأمة. (٩) في الأصل وم: إقامتها. (١٠) في الأصل وم: وهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

والمُخَالِفُ لنا أولى بإبطال اللعان بين الحرّة والأمة والمُسْلِمَةِ والذَمِيَّةِ مِنَّا لأنهم يزعمون أن العبد ليس بكُفٍّ للحرّة، ولا الكافر بكُفٍّ للمُسْلِمِ في القصاص في النفس وفي ما دون النفس. فكيف جعلوها في إيمانها مكافئة^(١) لإيمان الأحرار المسلمين؟ كان يجب أن يقولوا: ليست يمين الكافر بمجازية ليمين المسلم، فلا يُجِبُونَ بَيَّتَهُمَا لعاناً. والوجه فيه ما ذكرنا بدءاً.

ثم المسألة [الثانية]^(٢): في إباء الإيمان [في وجهين:

أحدهما]^(٣) إذا أبى أحدهم الإيمان حدّ عند بغض أهل العلم، وهو قول الشافعي.

وعندنا أنه لا يُحدّ بالإباء، فذهب من أوجب الجلد بالإباء إلى ظاهر قوله: ﴿ثُمَّ لَازِلُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَجِلِّدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾

[النور: ٤] أوجب الجلد في قذف الأجنبية إذا عجز عن إثبات^(٤) الشهود، ودرأ عنه الحدّ إذا أتى بأربعة يشهدون. فعلى ذلك درئ عن الزوجين الحدّ إذا شهد كل واحد منهما أربع شهادات بالله. فوجب إذا أبى أحدهما الإيمان أن يُحدّ؛ إذ بالإيمان يدرأ الحدّ، ويوجب اللعان.

والثاني: ما قال ﷺ ﴿وَيَذَرُونَا أَتَى اللَّذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾ جعل الإيمان سبب ذرء الحدّ عنها. فإذا أثبت ذلك لزّمها^(٥) الحدّ.

وعندنا أنه لا يُحدّ بالإباء، لأنه ليس بالإباء ظهور الكذب، إذ ليس كل من أبى اليمين يظهر كذبه فيه، وإنما يُحدّ لظهور كذبه في القذف، وهو لا يعلم، لا يظهر بالإباء. وإنما حدّ في الأجنبية إذا لم يأت بأربعة شهداء، لأنه في الظاهر عند الناس كاذب، لأنه ليس بينه وبين الأجنبية سبب ولا معنى يتبعه على إظهار ما ذكر.

وأما في ما بينه وبين زوجته سبب ومعنى يخمله على إظهار ذلك، وهو الغيرة. فإذا كان كذلك فهو في قذف الزوجة في الظاهر صادق عند الناس للسبب الذي ذكرنا لأنه طالب حق قبلها على ما روي: «لا يوطئن فرشهنّ من يكره الأزواج» [بنحو الترمذي: ١١٦٣] فلا يزال صدقه بإباء اليمين.

وأما في قذف أجنبية فهو كاذب في الظاهر لعدم السبب الحامل على إظهار ذلك الكذب حتى يأتي ما به يزيل الكذب، وهو الشهود. وفي [قذف]^(٦) الزوجة على الصّدق حتى يظهر بالإباء. لذلك افترقا؛ ولأن الحدّ لا يُقام بالإباء البتّة، ولأن الإيمان لا تقابل بشهادة العدول بحال.

الا ترى أن من شهد عليه شاهداً عدلٍ بحق، فحلفت هو بإيمان، لم تكن الإيمان بتلك الشهادة في سقوط الحق؟ وأما قوله: ﴿وَيَذَرُونَا أَتَى اللَّذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾ فجائز^(٧) أن يكون ذلك في تلك المرأة التي في أمرها نزلت الآية؛ علم رسول الله ﷺ كذبها بالوحي.

الا ترى أنه قال: «إذا جاءت بكذا فهو لكذا، وإذا جاءت بكذا فهو لكذا»؟ ثم جاءت به شبيهاً بالذي رويته به. فقال رسول الله ﷺ «لولا الإيمان لكان لي ولها شأن» [البخاري: ٤٧٤٧] علم كذبها حين^(٨) قال: «لولا الإيمان لكان لي ولها شأن» فدرأت تلك المرأة العذاب عنها بالإيمان.

أو أن يكون العذاب الذي درئ عنها الحبس؛ إذ من قولنا: أيهما أبى اليمين حبس حتى يشهد أربع شهادات بالله، أو يقر بالزنى، أو يكذب نفسه. فدرء الحبس عنهما بالإيمان التي ذكر.

وإنما لم يُحدّ بالإباء لأن الإباء لا يظهر الكذب كالإقرار ولأن الإباء في الحقيقة إباحة. ولو أن إنساناً أباح للحاكم أن يُقيم عليه الحدّ لم يُقيم. فعلى ذلك هذا. أو لما يجوز أن يأتي عن الإيمان صوتاً لتقصيه عن اللعن أو العصب الذي ذكر، لم^(٩) يُحدّ لما ذكرنا.

(١) في الأصل وم: اكفاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إقامة. (٤) في الأصل وم: إقامة. (٥) في الأصل وم: لزوم.

(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في م: فلم.

ثم مسألتان^(١) في هذا، نذكرهما، وإن لم تكونا في ظاهر هذه الآية:

إحداهما: في إلحاق الولد أمه. والأخرى: في تفريق الحاكم بينهما إذا تلاعنا.

قال بعض أهل العلم: إذا قرع الزوج من إيمانه وقعت بينهما الفرقة، وإن لم يفرق الحاكم. وقلنا نحن: لا تقع الفرقة بينهما حتى يفرغا من تلاعهما. ويفرق الحاكم بينهما.

والأولى^(٢) في إلحاق الولد. قال أولئك أيضاً: إذا قرع [الزوج]^(٣) من^(٤) إيمانه لحق الولد أمه، وإن لم تلتصين المرأة.

والقياس في لحوق الولد ما قال أولئك: إنه يلحق بفراغ الزوج من اللعان. والقياس في وقوع الفرقة ما قال أصحابنا: إنه لا يقع إلا بعد فراغ الزوجين جميعاً وتفريق الحاكم بينهما؛ لأن الزوج إذا شهد «أربع شهدتي بالله إنهم لئن الصديقين» قد الزم امرأته الزنى في الظاهر.

فإذا ظهر أن الولد ليس منه فجائز لحوقه بالأم بفراغه من اللعان.

وأما الفرقة فإنها لا تقع بظهور الزنى. ألا ترى أن امرأة الرجل إذا زنت لا تقع/ ٣٦٣ - ب/ بينهما^(٥) الفرقة؟

ألا ترى أن دغوى المرأة باقية بعد فراغ الزوج من إيمانه؟ لذلك افترقا.

والأخبار تدل لمذهب أصحابنا في المسألتين جميعاً لأنه روي عن نافع [بن مالك]^(٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً لآعن امرأته في زمان رسول الله ﷺ وانتفى من ولدها، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وألحق الولد بالمرأة.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما لآعن بينهما فرق بينهما. وروي في الأخبار أن رسول الله ﷺ قال لهما: «الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» [البخاري: ٤٧٤٧] قال ذلك لهما ثلاثاً، فأبيا، ففرق بينهما. وفي بعض الأخبار قال: «جسبكما على الله»^(٧) [البخاري: ٥٣٥٠].

فإن قيل: إنما فرق بينهما النبي لأن الفرقة قد وقعت بينهما، فأخبره النبي أنها^(٨) لا تحل له، وقال: لا سبيل لك عليها. قيل: قولك: إن الفرقة قد وقعت بينهما باللعان دغوى منكم، وظاهر الأخبار يشهد لنا، وعلى وهم الخصم.

ثم يقال لهم: ألسنتم تقولون في المولى: إذا مضت مدته، فارتفعنا إلى الحاكم، هل تقع الفرقة بينهما إذا امتنع من قربانها وطلاقها ما لم يقل القاضي: قد فرقت بينكما؟

فإن قيل: فرقة الإيلاء طلاق، وفرقة اللعان غير طلاق عندنا، قيل: هما عندنا طلاق.

فإن قيل: إنكم تزعمون أن فرقة الإيلاء تقع بمضي الأجل، فما منع أن تقع الفرقة باللعان بتمام اللعان؟ قيل: لم يكن للحاكم في الإيلاء صنع، فلا تحتاج إلى حكمه. وفي الآخر لا يتم اللعان إلا بالقاضي، فلا تقع الفرقة إلا بالقاضي.

ويقال لهم: ما تقولون في رجل، ادعى حقاً، فأقام عليه شاهداً^(٩) عند قاضي. هل يلزم الحكم قبل أن يقول القاضي: قد حكمت بذلك؟ فإن قالوا: لا يلزم الحكم حتى يقول: قد حكمت. فيقال: ما منع أن يكون اللعان مثله^(١٠)؟

ويقال لهم أيضاً: ما تقولون في العيّن: أجله [حكم]^(١١) الحاكم بينهما. فإن قالوا: لا تقع [الفرقة بينهما]^(١٢) حتى يفرق الحاكم بينهما. قيل: [ما منع]^(١٣) في فرقة اللعان أنه كذلك؟ فإن قالوا: إنما صارت الفرقة، لا تقع في العيّن والمولى حتى يوقعها الحاكم: يقول: طلقها، أو في إليها، ويقول لامرأة العيّن: اختاري في الفرقة أو المقام معي.

(١) هما الثالثة والرابعة، في الأصل وم: مسئلتنا. (٢) في الأصل: والأخرى. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، في الأصل: بظهور. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: أحدكما كاذب لا سبيل لك عليها. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: شاهدين. (١٠) في الأصل وم: اللعان لمثله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: مانع.

فلَمَّا كَانَ الْحَاكِمُ يَنْتَظِرُ^(١) مَا يَقُولُ الْمَوْلَى وَامْرَأَةُ الْعَيْنَيْنِ لَمْ تَقَعْ الْفُرْقَةُ حَتَّى يُوقِعَهَا. وَلَيْسَ فِي اللَّعَانِ شَيْءٌ يَنْتَظَرُهُ الْحَاكِمُ. لِذَلِكَ افْتَرَقَا.

فَقِيلَ: بَلْ يَنْتَظِرُ الْحَاكِمُ تَكْذِيبَ الْمَرْأَةِ نَفْسَهَا، فَيَحْذُهَا، وَتَكُونُ امْرَأَتُهُ. وَكَذَلِكَ إِنْ أَكْذَبَ الزَّوْجُ نَفْسَهُ حَدَّهُ، وَتَرَكَ عِنْدَهُ امْرَأَتَهُ.

وَأَضْلَهُ: أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْفُرْقَةُ إِلَّا بَعْدَ التَّعَانِيهِمَا جَمِيعاً وَتَفْرِيقِ الْحَاكِمِ بَيْنَهُمَا إِذَا التَّقْنَا جَمِيعاً. عِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مَلْعُوناً؛ أَيُّهُمَا كَذَبَ. وَالْإِنْتِفَاعُ بِالْمَلْعُونِ حَرَامٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ «أَنَّهَا مُوجِبَةٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] أَيِ اللَّعْنَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ؟ فَإِنَّمَا يَلْحَقُ اللَّعْنُ أَحَدَهُمَا إِذَا التَّقْنَا جَمِيعاً. فَأَمَّا بِالتَّعَانِ الزَّوْجِ خَاصَّةً فَلَا تَقَعُ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيُخْتِاجُ إِلَى أَنْ يُفَرَّقَ الْحَاكِمُ بَيْنَهُمَا، وَيُطْرَدُ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ؛ إِذِ اللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ فِي اللَّغَةِ.

وَهُوَ عِنْدَنَا كَالْعُقُودِ الَّتِي تُفْسَخُ، لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْحَاكِمِ نَحْوَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْعَيْنَيْنِ وَالَّذِي يَأْتِي الْإِسْلَامَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعُقُودِ، فَإِنَّهُ لَا تَقَعُ بَيْنَهُمَا الْفُرْقَةُ إِلَّا بِالْحَاكِمِ. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا.

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: الْمُتْلَاعِنَانِ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَداً.

ثُمَّ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى: أَنَّهُ إِذَا فُرِّقَ بَيْنَهُمَا بِاللَّعَانِ، فَأَكْذَبَ الْمُتْلَاعِنُ نَفْسَهُ، أَيْجُوزُ^(٢) لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا أَمْ لَا؟

فَعِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا. اخْتَجَّ بِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ عليهما السلام: الْمُتْلَاعِنَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَداً، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ.

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ: لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا إِذَا أَكْذَبَ نَفْسَهُ. وَلَيْسَ فِي الْخَبَرِ: لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَداً، وَإِنْ تَابَ، وَأَكْذَبَ نَفْسَهُ. فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ^(٣): لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَداً مَا دَامَا فِي تَلَاعُنِهِمَا، وَمَا أَقَامَ عَلَى قَوْلِهِ، وَلَمْ يُكْذِبْ نَفْسَهُ.

وَأَنْ كَانَ فِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ قَالَ: إِذَا قَالَ: لَا يَجْتَمِعَانِ قَبْلَ التَّوْبَةِ وَبَعْدَهَا يَذُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَاهُ» [الكهف: ٢٠] قَوْلُهُ: «وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَاهُ» مَا قَامُوا فِي مِلَّتِهِمْ. فَأَمَّا إِذَا انْقَلَعُوا مِنْهَا فَقَدْ أَفْلَحُوا. فَعَلَى ذَلِكَ لَا يَجْتَمِعَانِ [مَا دَامَا]^(٤) فِي تَلَاعُنِهِمَا وَمَا^(٥) أَقَامَ الزَّوْجُ عَلَى قَوْلِهِ. فَأَمَّا إِذَا رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ فَلَهُمَا الْاجْتِمَاعُ.

[وَأَجْمَعُوا عَلَى أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا]^(٦): أَنَّهُ إِذَا أَكْذَبَ نَفْسَهُ، وَادَّعَى الْوَلَدَ، أَلْحَقَ بِهِ، فَعَلَى ذَلِكَ هِيَ.

وَالثَّانِي: لَوْ أَكْذَبَ الزَّوْجُ نَفْسَهُ بَعْدَ اللَّعَانِ قَبْلَ الْفُرْقَةِ، وَجَبَ أَنْ يُحَدَّ، وَيَكُونَانِ عَلَى نِكَاحِهِمَا^(٧). فَيَجِبُ إِذَا أَكْذَبَ نَفْسَهُ بَعْدَ اللَّعَانِ [أَنْ يُجْلَدَ، وَلَهُ]^(٨) أَنْ يَتَزَوَّجَهَا.

ثُمَّ فُرْقَةُ اللَّعَانِ عِنْدَنَا طَلَاقٌ، وَهِيَ تَطْلِيقَةٌ بَاطِنَةٌ لِمَا رُوِيَ عَنْ^(٩) النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ]^(١٠) لَمَّا لَاعَنَ بَيْنَ عُويَيْرٍ وَامْرَأَتِهِ قَالَ: «كَذَبْتَ عَلَيْهَا إِنْ أَمْسَكْتُهَا. هِيَ طَالِقٌ ثَلَاثًا» [البخاري: ٥٢٥٩] فَصَارَتْ سُنَّةً فِي الْمُتْلَاعِنَيْنِ. فَإِذَا كَانَتْ سُنَّةُ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُتْلَاعِنَيْنِ الطَّلَاقُ الَّذِي أَوْقَعَهُ [عَلَى]^(١١) عُويَيْرٍ. فَوَاجِبٌ أَنْ تَكُونَ كُلُّ فُرْقَةٍ تَقَعُ بِاللَّعَانِ طَلَاقاً.

وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قُدَّتِ الزَّوْجِ كَانَ سَبَبَ هَذِهِ الْفُرْقَةِ، وَكُلُّ فُرْقَةٍ تَكُونُ مِنَ الزَّوْجِ، أَوْ [يَكُونُ فِعْلٌ]^(١٢) الزَّوْجِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْتَظِرُ. (٢) هَمْزَةُ الْاسْتِفْهَامِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ: إِذَا مَا دَامُوا، فِي م: مَا دَامُوا. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَأَمَّا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاجْتَمَعُوا. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: النِّكَاحُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَجُلِدَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَلِكِيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ يَكُونَ.

سَبَّيْهَا، وَتَقَعْ بِقَوْلِهِ، فَإِنِهَا طَلَّاقٌ [كما في العَيْنِ] ^(١) وَالْخَلْعُ وَالْإِيْلَاءُ [وَنَحْوُ ذَلِكَ] ^(٢) فَعَلَى ذَلِكَ فُرْقَةُ اللَّعَانِ تَطْلِيقُهُ بَائِنَةً، لِأَنَّ الرُّوجَ سَبَّيْهَا، وَتَقَعْ بِهِ.

وعلى ذلك جاءتِ الْأَنَارُ عَنِ السَّلَفِ: أَنَّ كُلَّ فُرْقَةٍ، وَقَعَتْ مِنْ قِبَلِ الرِّجَالِ بِقَوْلِهِ فِيهِ طَلَّاقٌ، مِنْ نَحْوِ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَفَتَادَةٍ وَهَؤُلَاءِ، وَكَذَلِكَ بِقَوْلِ أَصْحَابِنَا: إِنَّ كُلَّ فُرْقَةٍ جَاءَتْ مِنَ الرِّجَالِ بِقَوْلِهِ فِيهِ تَطْلِيقُهُ. فَإِنْ عُرِضَ بِأَعْمَالٍ، تَكُونُ مِنَ الرِّجَالِ، فَتَقَعْ بِهِ الْفُرْقَةُ وَالْحُرْمَةُ مِنْ نَحْوِ الْجِمَاعِ وَنَحْوِهِ، فَذَلِكَ لَيْسَ بِمُعَارَضَةٍ لِمَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ هذا الْحَرْفُ مِمَّا يَفْتَضِي الْجَوَابَ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَوَابَهُ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لِأَظْهَرَ الْكَاذِبِ مِنْهُمَا وَالصَّادِقَ وَالْمُذْنِبَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لِأَظْهَرَ الْمَلْعُونِ مِنْهُمَا مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنْ لَا يُتَّقَعُ بِهِ، إِذَا أَحَدُهُمَا مِمَّا لِحَقَّةِ اللَّعْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ، وَلَا يَجِلُّ الْإِنْتِفَاعُ بِالْمَلْعُونِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُوِيَ فِي الْحَبَرِ أَنَّ امْرَأَةً رَكِبَتْ نَاقَتَهَا، فَلَعَنَتْهَا ^(٣)، فَاسْتَجِيبَ، فَأَمْرَتْ أَنْ تَرْفَعَ ثِيَابَهَا، وَتُخْلِيَ سَبِيلَهَا. لَكِنْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ سَتَرَ عَلَى الْمَلْعُونِ حَتَّى يَجُوزَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَتَّقَعَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَجُوزُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَتَّقَعَ بِصَاحِبِهِ مَا دَامَتْ اللَّعْنَةُ فِيهِمَا قَائِمَةً؟

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لِأَظْهَرَ الْمَلْعُونِ مِنْهُمَا، وَإِلَّا لَجَعَلَ الْعُقُوبَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ كَوَيْ فِي الْأَجْنَبِيِّينَ، وَهِيَ الْحُدُّ، وَلَا أَظْهَرَ [الزَّانِي مِنْهُمَا] ^(٤). لَكِنْ بِفَضْلِهِ لَمْ يَجْعَلْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ [قَوْلُهُ] ^(٥) ﴿تَوَّابٌ﴾ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ، إِذَا تَابَ، وَأَكْثَبَ نَفْسَهُ، فَيَرْفَعُ اللَّعْنَ عَنْهُمَا بِالتَّوْبَةِ. فَإِذَا رُفِعَ اللَّعْنُ جَازَ لَهُمَا الْإِنْتِفَاعُ وَالْإِجْتِمَاعُ بَيْنَهُمَا.

ففيه حُجَّةٌ لِقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ، فِي جَوَازِ نِكَاحِهَا إِذَا أَكْثَبَ نَفْسَهُ / ٣٦٤ - ١

[وقوله تعالى] ^(٦): ﴿حَكِيمٌ﴾ حِينَ ^(٧) حَكَمَ بِمَا حَكَمَ بَيْنَ الْمُتَلَاعِنِينَ، أَوْ ﴿حَكِيمٌ﴾ [حِينَ] ^(٨) وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَفِيهِ نَقْضُ قَوْلِ الْمُعْتَزَلَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ بِأَحَدٍ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُ فِي الدِّينِ. وَأَخْبَرَنَا ^(٩) لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ غَيْرَ الَّذِي فَعَلَ، لَمْ يَكُنْ لِتَسْمِيَّتِهِ مَا فَعَلَ فَضْلٌ ^(١٠) وَلَا مَعْنَى. فَذَلَّ أَنْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ غَيْرَ الْأَصْلَحِ فِي الدِّينِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أَي بِالْكَذِبِ ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أَي جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْكُرُ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: كَانُوا مِنْ أَصْحَابِ [عَائِشَةَ رَمَوْهَا بِمَا ذَكَرْنَا] ^(١١) فِي الْآيَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً مِنْ أَصْحَابِ أَبِي بَكْرٍ وَأَقْرِبَائِهِ وَالْمُنَافِقِينَ أَيْضاً.

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِ عَائِشَةَ ﷺ وَأَقْرِبَائِهَا فَذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْهُمْ عَلَى الْعَقْلَةِ وَالْمَعْرِفَةِ، لَيْسَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ وَالْحَقْدِ، لِأَنَّ الْقَرَابَاتِ وَالْمُتَّصِلِينَ بِالرَّجُلِ، لَا يَقْصِدُ بَعْضُهُمْ بِنَفْسِ الْإِنْتِقَامِ وَالْحَقْدِ بِمِثْلِهِ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، إِنْ كَانَ، مُخْرِجَ الْعَقْلَةِ وَالزَّلَّةَ لَا تُخْرِجُ الْإِنْتِقَامَ.

وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَهُوَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ وَطَلَبِ الشَّيْنِ مِنْهُمْ لَهَا.

وَكَانَ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ ابْتِدَاءَ ذَلِكَ الْإِفْكِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ تَسَامَعَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَلَقَّى ^(١٢) بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حِينَ ^(١٣) قَالُوا: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْفُسَهُمْ خَبْرًا﴾ [النور: ١٢] فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَى مَا وَصَفْنَا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَفْلَةً وَزَلَّةً وَغَثَرَةً، وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ انْتِقَامٌ وَطَلَبُ شَيْنٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: كالعينين. (٢) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: فلنعت. (٤) في الأصل: الزنا منهما، في م: الزاني. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: حيث، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: إذ. (١٠) في الأصل وم: فضلاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: وتلقى. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْبُوْهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ^(١) بعضهم: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنكم تُؤجرون على ما قيل فيكم من الفحش والقدف بما قُرفوا به ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الآخرة على ما ذكرنا من الأجر.

ويَحْتَمِلُ قوله: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا لما بَرَأَهُمُ اللهَ مِنَّا قُرفوا به، ودَفَعَ عنهم تمكين ما قُرفوا به، ووَعَدَ لهم الجنة بقوله: ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤَاتٌ مِنَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وكان قَبْلَ نزول هذه الآية موهوماً ^(٢) عند الناس فيها مُتَمَكِّناً ^(٣) اِخْتِمَالُ ذلك الفعل.

ألا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مِنْ بَاتٍ يَنْكُرُ يَفْجَسُوْهُ مُبَيِّنُوْهُ يَصْنَعُ لَهَا الْغَدَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ يَكْفُرْ﴾ [الأحزاب: ٣١] كَانَ الْأَمْرَانِ جَمِيعاً مَوْهُومَيْنِ ^(٤) عَنْهُنَّ عِنْدَ النَّاسِ وَمُخْتَمَلَيْنِ ^(٥) ذَلِكَ؟

فلما قُرِئَتْ رَفَعَ اللهُ مَا كَانَ مَوْهُوماً عِنْدَ النَّاسِ قَبْلَ ذَلِكَ، ووَعَدَ لَهُمُ الثَّوَابَ الْكَرِيمَ وَالرُّزْقَ الْحَسَنَ بقوله: ﴿أُولَئِكَ مَبْرُؤَاتٌ مِنَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فلا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشَرٌّ لَّوَلَيْكَ الَّذِينَ رَمَوْهَا حَتَّى لَا ^(٦) يَتَجَسَّرَ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَا يَجْتَرِئَ أَنْ يَظُنَّ فِيهَا ظَنُّ السُّوءِ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَقُولَ فِيهَا شَيْئاً.

وقصة عائشة، ^(٧) طَوِيلَةٌ لَكِنَّا نَذْكُرُ مَا كَانَ بِنَا إِلَى ذَلِكَ حَاجَةً، أَيِ أَنْ يُقَالَ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِشَانِهِمْ آيَاتٍ فِيهَا بَرَاءَتُهُمْ عَمَّا قُرفوا به، تُثَلِّى تِلْكَ الْآيَاتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ وَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْتِرَاءِ﴾ أَيِ إِنْشَاءٍ مَا قُرفَهَا بِهِ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَراً مِنْهُمْ لَعُدَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هُوَ ذَلِكَ [الْمُنَافِقُ الَّذِي أُلْقِيَ ذَلِكَ] ^(٨) فِي النَّاسِ.

[وقوله تعالى] ^(٩): ﴿لَعُدَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ يَمُوتُ عَلَى نِفَاقِهِ. وَكَذَلِكَ [مَاتَ] ^(١٠) عَلَى نِفَاقِهِ، فَلَحِيقُهُ هَذَا الْوَعْدُ، قِيلَ: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ﴿لَعُدَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ مُنَافِقاً.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ^(١١) قَذَفَ عَائِشَةَ بِضَفْوَانٍ كَذَبْتُمْ بِهِ أُولَئِكَ الْقَذْفَةُ؛ يَقُولُ: أَلَا ظَنَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ خَيْراً، وَهَلَا قَالُوا: ﴿هَذَا إِنْكَارٌ ثَبِيحٌ﴾ يَقُولُ اللهُ: هَلَا قَالُوا: [هَذَا] ^(١٢) الْقَذْفُ كَذِبٌ مُبِينٌ.

الآية ١٣ وعلى هذا يُخْرَجُ أَيْضاً قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أَيِ هَلَا قَالُوا لَهُمْ: جِئْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ عَلَى قَذْفِكُمْ لَهَا ^(١٣) ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُزْلِمَتْ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ظَنَنْتُمْ بِهِمْ ظَنًّا مَا ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دُونَ أَنْ قَالُوا: ﴿هَذَا إِنْكَارٌ ثَبِيحٌ﴾ أَوْ أَنْ يَكُونَ التَّوْبِيلُ: إِنْ لَمْ يَظُنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِنَفْسِهِ إِذَا كَانَ مَعَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَيْفَ ظَنَّ بِضَفْوَانٍ ^(١٤) ذَلِكَ إِذَا كَانَ مَعَ أَزْوَاجِهِ؟ أَوْ أَنْ يُقَالَ: إِذَا لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَحَدٌ بِأَمْهَاتِهِ وَمَحَارِمِهِ ذَلِكَ فَكَيْفَ ظَنَّ بِأَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَهُنَّ ^(١٥) أَمَهَاتُكُمْ وَأَمَهَاتُ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِمَا قَذَفُوا شُهَدَاءَ، وَلَا يَجِدُونَ عَلَى ذَلِكَ شُهَدَاءَ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قوله: ﴿لَوْلَا﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ كَقَوْلِهِ ﴿لَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقْيَةٍ﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقْيَةٍ يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا﴾ [هود: ١١٦] وَلَا عَلَى تَأْوِيلِ: هَلَا يَبْعُدُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَأْتُونَ؟

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَوْهُوم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مُتَمَكِّن. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مَرْهُوم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمُحْتَمَل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمِعْتُمُوهُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَمِهِمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصْفُونَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهِيَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوَّلْتَكُ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾ وإن أتوا بالشَّهادَةِ على أمرٍ عائشة كانوا كاذبين أيضاً. فدلَّ أن تأويل قوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي لم يكن لهم شُهَدَاءُ، فكيف قَدَفوها؟ والله أعلم.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين: [أحدهما] (١): ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ حين (٢) أنزل في قَدَفِكُمْ عائشة بِصَفْوَانٍ آياتٍ في بَرَاءَتِهما حتى تُبْنِي عن ذلك، وإلا لَمَسَّكُمْ العذاب في الآخرة بذلك.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ العذاب، ولَعَابَكُم بما قُلْتُمْ في عائشة في الدنيا. على هذا التأويل العذاب الموعود في الدنيا. وعلى التأويل الأول الوعيد في الآخرة. لكن بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ رُفِعَ عَنْكُم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي خُضْتُمْ فيه.

وقال بعضهم في قوله: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بِأَمْثَالِهِمْ خَيْرًا، وتأويله: لولا ظَنُّ المؤمنون بِأَمْثَالِهِمْ خَيْرًا دونَ أَنْ يَظُنُّوا بِهِمْ شَرًّا (٣).

وفي ما عَظَّمَ اللَّهُ أَمْرَ الْقَذْفِ، وَشَدَّدَ فِيهِ مَا لَمْ يُشَدِّدْ فِي غَيْرِهِ، وَلَمْ يُعْظَمْ وَجْوه:

أحدها: قَطَعَ طَمَعُ أَهْلِ الْفُجُورِ وَالرِّيْبَةِ فِيهِمْ لئلا يَطْمَعَ أَحَدُ مِنْهُمْ فِي الْمُحْصَنَاتِ وَأَوْلَادِ الْكِرَامِ ذَلِكَ الْفِعْلُ (٤)، فَقَطَعَ طَمَعُهُمْ بِمَا شَدَّدَ فِيهِ لئلا يُفَرِّقَنَّ بِذَلِكَ، ولا يَطْمَعَ فِيهِمْ ذَلِكَ.

والثاني: لِيَتَرَكَّ (٥) النَّاسُ الرَّغْبَةَ فِي مُنَاقَحَةِ الْمُحْصَنَاتِ وَأَوْلَادِ الْكِرَامِ، وَيَرْعَبُوا (٦) فِي مَنْ دُونَهُنَّ.

[والثالث: لئلا] (٧) تَخْذُلَ الضَّغَائِنُ وَالْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْقَدَفَةِ وَبَيْنَ الْمُتَصِلِينَ بِالْمَقْذُوفَاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكانَ كذا، هذا من الله على الإيجاب؛ أي قد كان منه ذلك. وإذا كان مُضَافاً إِلَى الْخَلْقِ فهو على أنه لم يكن ذلك، ولذلك تَأَوَّلُوهُ: هَلَا.

وعن ابن عباسٍ أنه قال في قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ [النور: ١٢] يقول: قال لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا إِذْ بَلَّغْتُمْ عَنْ عَائِشَةَ/٣٦٤ - ب/ وَصَفْوَانَ ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ يقول: فَظَنَنْتُمْ بِعَائِشَةَ ظَنُّكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، وَعِلْمُكُمْ أَنَّ أَمْكُكُمْ، لا تَفْعَلُ ذَلِكَ، وكذلك المؤمنة، لا تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَقُلْتُمْ: ﴿هَذَا إِنَّكَ تُبَيِّنُ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ [يَشْهَدُونَ] (٨) على قولِهِمْ، وَيُضَدِّقُونَهُمْ عَلَى مَقَالَتِهِمْ ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ كَذَبْتُمُوهُ ﴿فَأَوَّلْتَكُ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] وهو قريب مما ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بِالشَّدِيدِ، أي تَقَبَّلُونَهُ، وَتَلَقَّوْنَهُ بِالتَّخْفِيفِ، أي تَأْخُذُونَهُ مِنَ الْوَلَقِ، وهو الْكِذْبُ، وكذلك قَرَأَتْ (٩) عائشة رضي الله عنها.

وقال أبو عَوْسَجَةَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تَقُولُونَهُ، قال: تَلَقَّيْتُ الْكَلَامَ، وَلَقَيْتُ، وَتَلَقَّيْتُ، واحد. ثم قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فِي مَا بَيْنَكُمْ. جائز أن يكونا جميعاً واحداً، أي تَتَكَلَّمُونَ ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ أي مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي قُلْتُمْ مِنَ الْقَذْفِ قد كان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ قال بعضهم: تَحْسَبُونَ الْقَذْفَ ذَنْبًا هَيِّنًا ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ فِي الْوِزْرِ. وجائز أن يكون قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ لا تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّ الْقَذْفَ يُحْدِثُ نَقْصاً فِي الدِّينِ. والنَّقْصَانُ فِي الدِّينِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَتَحْسَبُونَهُ أَنْتُمْ هَيِّنًا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: شر. (٤) في الأصل وم: الفضل. (٥) في الأصل: وم بترك.

(٦) في الأصل وم: ويرغبون. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٢٤٠/٤.

الآية ١٦

ثُمَّ وَعَظَ الَّذِينَ خَاصُوا فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا﴾ يَقُولُ: هَلَا ﴿إِذَا سَمِعْتُمُوهُ﴾ أَيِ الْقَذْفِ ﴿تَلْتُمُنَّ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ أَيِ [مَا] ^(١) يَنْبَغِي لَنَا ﴿أَنْ تَتَكَلَّمْنَ بِهَذَا﴾ الْأَمْرِ. وَهَلَا قُلْتُمْ: ﴿سَبِّحْتَكَ مَدَا يَهْتَنُّ عَظِيمٌ﴾ لِعِظَمِ مَا قَالُوا فِيهَا. وَالْبُهْتَانُ الَّذِي يَبْهَتْ، يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَذْفٍ أَوْ غَيْرِهِ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْبُهْتَانُ الْكَذِبُ؛ يُقَالُ: بَهَتْ أَيِ كَذَبَ.

الآية ١٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أَيِ الْقَذْفِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الآية ١٨

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٢): ﴿رَبِّينَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتُ﴾ فِي بَيَانِ ذَلِكَ وَبِرَاءَتِهِمْ. أَوْ يُبَيِّنُ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

الآية ١٩

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [قِيلَ فِي عَائِشَةَ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ] ^(٣): كَانَ أَهْلُ ^(٤) النِّفَاقِ [هُمْ] ^(٥) الَّذِينَ أَحَبُّوا أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ. وَأَمَّا ^(٦) أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَلَا ^(٧) يُحِبُّونَ ذَلِكَ أَبَدًا ^(٨) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لِإِنْفَاقِهِمْ وَقَذْفِ عَائِشَةَ.

وَأَمَّا [مَا قِيلَ]: ^(٩) فِي الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مَا قَالَ: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ عَنْ عَائِشَةَ [أَنَّهَا] ^(١٠) قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عَذْرِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْعِنْبَرِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ، فَضْرَبُوا حَذَهُمْ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي [بْنِ سَلُولٍ] ^(١١) وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ^(١٢) وَمُسْطَحَّ بْنَ أَثَاثَةَ الْحَدَّ، وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: وَامْرَأَةً أَيْضًا، وَهِيَ حَمْنَةُ [بِنْتُ جَحْشٍ] ^(١٣): لِكُلِّ وَاحِدٍ ثَمَانُونَ جَلْدَةً.

ثُمَّ مَا ذَكَرَ مِنْ قَذْفِ عَائِشَةَ أَنَّهُ ﴿يَهْتَنُّ عَظِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وَنَحْوَهُ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي قَذْفِ كُلِّ مُخَصَّصَةٍ بَرِيئَةٍ دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خُصُوصًا لِعَائِشَةَ، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي قَذْفِ الْمُخَصَّصَاتِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْآيَةُ [النور: ٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ، وَيُذِيعُونَهَا فِي الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا إِشَاعَتَهَا ^(١٤) وَإِذَاغَتَهَا [بِأَنْفُسِهِمْ] ^(١٥) فِيهِمْ لَهُمْ مَا ذَكَرَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَالثَّانِي: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لِيَكُونَ ^(١٦) ذَلِكَ ذَرِيعَةً لَهُمْ فِي الْمُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُوا ^(١٧): إِنَّ دِينَكُمْ لَمْ يَمْنَعَكُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُنَافِقِينَ: مِنْهُمْ كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ الْقَذْفِ، وَبِهِمْ شَاعَ. لِذَلِكَ كَانَ لَهُمْ هَذَا الْوَعْدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ حَقَائِقَهَا.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ تَغْلِيْقُ الْحُكْمِ بِالظُّوَاهِرِ دُونَ تَغْلِيْقِهِ بِالْحَقَائِقِ.

الآية ٢٠

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوَّجَ رَجِيمٌ﴾ لَمْ يَذْكُرْ جَوَابَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ فَجَوَابُهُ مَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] بِفَضْلِهِ يَزْكُو مِنْ زَكَا، وَبِرَحْمَتِهِ يَضْلُحُ مَنْ صَلَحَ، لَا يَضْلُحُ [شَيْئًا] ^(١٨) مِنْ نَفْسِهِ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَصْل. (٥) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالَا. (٧) الْفَاءُ ساقطة من الأصل. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي الْمُؤْمِنِينَ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَشْيَاءُهُمْ. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَكُونُوا. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَقُولُونَ. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١) نهى المؤمنين أن يتبعوا خطوات الشيطان، ولم يبين ما خطوات الشيطان؟ لكنه قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فجوابه أن يقول: فإن خطواته كذا. ولم يقل أيضاً: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ يفعل الفاحشة، ولكنه قال: ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

لكن جوابه ما قال في آية أخرى. وما قال في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢) [إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ] الآية [البقرة: ١٦٨ و ١٦٩] أخبر [أَنْ مَنْ اتَّبَعَهُ] (١) أمر بالفحشاء والمنكر. [ثم] (٢) خطوات من الخطوة، والخطوة؛ وهما من رفع القدم ووضعيه.

واضله نهى عن اتباع آثاره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ﴾^(٣) التزكية تختلج التوفيق والعضمة [أو] (٣) يزكون بما أعطى لهم من التوفيق والعضمة، أو يزكون بما أرسل إليهم من الكتب والرسل [لكن التوفيق] (٤) والعضمة أشبه.

وفيه نقض قول المعتزلة لأنه أخبر أن من زكا فإنما يزكو بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وهم يقولون: لو فعل بهم غير الذي فعل كان جائراً عندهم. فعلى قولهم: ليس بمفضل، ولكنه (٥) عادل لأنه فعل ما عليه أن يفعل.

فعلى قولهم: لا يكون مفضلاً، ولكن عادلاً؛ إذ لم يسَم في الشاهد من فعل ما عليه أن يفعل مفضلاً. وعلى قولهم: إنه قد أعطى كلاً ما به [يزكو، ويصلح] (٦) لكنهم لم يزكوا هم [باختيارهم] (٧) فعلى قولهم: لم يزك من زكا به، ولكنه إنما زكا بما أعطاه له. فقد أخبر أن من زكا فإنما زكابه، وأنه قد أبقي عنده ما لم يعطاهم ذلك لَزَكُوا. وقد أعطى ذلك من زكا، وصلح، ولم يُعْطِ مَنْ لَمْ يَزَكْ. فذلك قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ﴾^(٨) والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم وعليم بأفعالهم. واضله ما ذكر: ﴿يَعْلَمُ مَا بُرِئُوا وَمَا يَمْلِكُونَ﴾ [البقرة: ٧٧ و ٧٨].

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ قال بعضهم: قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي ولا يخلف، وهو يفعل، من الإيلاء.

وقال أبو عوسجة: لا يأتل: لا ينجز، ولا يقصر؛ يقال: أتلى يأتلي، ولا يأل ألوا، وهو التقصير وترك المبالغة. ثم يختلج قوله: ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أي من له الفضل والسعة. ويختلج ﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾ من له الفضل والمعروف وبر ﴿أُولَى الْفَرْقِ وَالْمُنْكَرِ وَالْمُهْجِرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وذكر أهل التأويل أن أبا بكر كان حلفت ألا ينفع مسطحاً بنافعة، وكان قريبه، بما تكلم في عائشة فانزل الله النهي عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ/ ٣٦٥- أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾.

لكن الآية، وإن نزلت في أمر ومعنى كان من أبي بكر فإن غيره من الناس يشترك في معنى ذلك؛ وفي ذلك النهي، وكذلك ما قال في آية أخرى، وهو قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَكُمْ لَأَتَذِقَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٤] ذكر أن قوماً يخلفون ألا يبرؤوا الناس، ولا يضلحوا [في ما بين الناس، يريدون] (٩) بذلك أن يكون حلفهم في ذلك عذراً لهم في ترك الإنفاق عليهم والتعاون والإصلاح بين الناس، فنهوا عن ذلك. وذلك النهي (٩) لهم ولمن كان في معناهم، ليس لهم خاصة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. ولكن (٦) في الأصل وم: يزكون ويصلحون. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: اليمين.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِي أُولَٰئِ الْفَظْلِ يَسْكُرُ وَالسَّعَةِ﴾ الآية. وَإِنْ كَانَ فِي أَبِي بَكْرٍ فَهُوَ فِيهِ وَفِي الَّذِينَ فِي مَعْنَاهُ. وَإِنْ كَانَ خَلَفَ هَذَا بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ لِإِسَاءَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، وَالْأَوَّلُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ [١] لِإِسَاءَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ.

وكذلك هذه الآيات نزلت لنازلة كَانَتْ فِي عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ [ابْنِ الْمُعْتَلِ] (٢) فَإِنَّمَا نَزَلَتْ لِئَلَّا يَلْغِيَنَّ النَّازِلَةُ لِمَعْنَى، لَا نَزَلَتْ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَائِشَةُ وَأَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنْ لِمَعْنَى بَعْضٍ مِّنْ وَجَدَ ذَلِكَ، فِيهِ شَرِكٌ فِي ذَلِكَ، وَيَجْعَلُ كَأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فِكُلُّ مُحْصَنَةٍ مُّؤْمِنَةٍ غَافِلَةٌ بِرَيْبَةٍ مِّمَّا رُمِيَتْ بِهِ، دَخَلَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكُلُّ رَامِيٍّ مُحْصَنٍ مُّؤْمِنٍ غَافِلٍ بِرَيْبٍ [مِمَّا رُمِيَ بِهِ دَخَلَ] (٣) فِي الْآيَةِ لَوْجُودِ الْمَعْنَى الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَةُ [لَهُ] (٤).

وعلى ذلك القرآن إذا نَزَلَ بِسَبَبٍ أَوْ (٥) نَازِلَةٍ لِمَعْنَى، يَشْتَرِكُ مَن وَجَدَ فِيهِ ذَلِكَ الْمَعْنَى [فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ] (٦). فعلى ذلك ما نَزَلَ فِي أَبِي بَكْرٍ مِنَ النَّهْيِ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ وَمَا عَوَّدَهُ مِنَ اضْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِ لَمَّا كَانَ مِنْهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسَاءَةِ.

ثم أمره بالعفو والصفح، وهو قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أَيِ اغْفُوا عَنْ إِسَاءَتِهِ، وَاصْفَحُوا، أَيِ لَا تَذْكُرُوا عَفْوَكُمْ إِنَّمَا عَنْ إِسَاءَتِهِ، وَلَا تَذْكُرُوا زَلَّتْهُ أَيْضًا، لِأَنَّ ذِكْرَ الْعَفْوِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الْإِمْتِنَانِ كَقَوْلِهِ ﴿لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. أَخْبَرَ أَنَّ الْمَنَّ يَبْطُلُ الصَّدَقَةُ وَذِكْرُ الزَّلَّةِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ التَّغْيِيرِ وَالتَّوْبِيخِ. فَأَمْرُهُ بِالْعَفْوِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَالصَّفْحُ [وَهُوَ] (٧) مَا ذَكَّرْنَا مِنْ تَرْكِ ذِكْرِ الْعَفْوِ وَالزَّلَّةِ وَالْإِسَاءَةِ جَمِيعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيِ قَدْ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ مَا كَانَ مِنْكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسَاءَةِ؛ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ ذَلِكَ فَاغْفُوا عَنْ إِسَاءَةِ إِلَيْكُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ الْمُحْصَنَاتِ ههنا، هُنَّ الْحَرَائِرُ، وَالْغَافِلَاتِ، هُنَّ الْبَرِيثَاتُ مِنَ الْفَاحِشَةِ، وَالْمُؤْمِنَاتِ: ظَاهِرٌ.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كَأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا (٨) مِنْهُمْ ابْتِدَاءَ الْقَذْفِ وَإِسَاءَتُهُ فِي النَّاسِ. لِذَلِكَ ذَكَرَ فِيهِمُ اللَّعْنَ وَالْعَذَابَ الْعَظِيمَ.

فهو كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الدُّنْيَا﴾ مَا تَوَلَّوْا لَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [النور: ١٩] وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يُحِبُّونَ شَيْعَ (٩) الْفَوَاحِشِ فِي الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنَّمَا ذَلِكَ عَادَةُ الْمُنَافِقِينَ.

ثم اللَّعْنُ فِي الدُّنْيَا، هُوَ الْحَدُّ الَّذِي ضَرِبَ، وَفِي الْآخِرَةِ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْعَظِيمُ. كَأَنَّهُ ذَكَرَ اللَّعْنَ وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ إِذَا لَمْ يَتَوَبَّوْا، وَمَاتُوا عَلَى الثَّقَافِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ لَهُمْ مَا ذَكَرَ.

الآية ٢٤

وبَدَّلْ لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّ الْآيَةَ فِي الْمُنَافِقِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ﴾ الْآيَةُ. وَإِنَّمَا تَشْهَدُ هَذِهِ الْجَوَارِحُ عَلَى الْكَافِرِ كإِنْكَارِهِ بِاللِّسَانِ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ مُقَرَّرٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا يَخْتَاجُ إِلَى أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْهِ الْجَوَارِحُ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الْآيَةُ [يس: ٦٥] كَأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَنْكَرُوا فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَشْهَدُ لَهُمْ أَلْسِنُهُمْ أَلَّا كَانُوا يُخْلِفُونَ لَكَ مَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ [المجادلة: ١٨]. أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَخْلِفُونَ لِلَّهِ فِي الْآخِرَةِ كَمَا يَخْلِفُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا.

فجائز [أَنْ تَكُونَ] أَلْسِنُهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ مَا أَنْكَرُوا، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَائِرُ الْجَوَارِحِ إِذَا أَنْكَرُوا، وَهُوَ مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾ الْآيَةُ ﴿وَقَالُوا لِمُؤْمِنِيهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ الْآيَةُ [فصلت: ٢٠ و ٢١] تَكُونُ شَهَادَةُ الْأَلْسَنِ بَعْدَ مَا أَنْكَرُوا هُنَّ ذَلِكَ، وَخَلَفُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: دخل مما رمي به، في م: مما رمي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بالمرء أمر. (٦) في الأصل: فيه شرك، في م: فيه شرك في ذلك الحكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كانت. (٩) في الأصل وم: شياع.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ الْآخِرُ﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ الْيَوْمُ الْآخِرُ، وَيُقَرَّرُونَ بِالْحَقِّ، لَكُنْ لَا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ يَوْمَئِذٍ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِقْرَارِ بِالرَّبوبِيَّةِ لَهُ وَالْالْوَحْيِيَّةِ ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي يَبِينُ ذَلِكَ، وَالْحَقُّ الْمُبِينُ مَا يَبِينُ مَا يُؤْنِي وَمَا يَنْقَى، وَمَا يَحُلُّ، وَمَا يَخْرُمُ.

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿الْمُحْسِنَاتُ لِلْخَيْرِ وَالْخَيْرَاتُ لِلْخَيْرِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْمُحْسِنَاتُ﴾ مِنَ الْكَلِمَاتِ [لِلْخَيْرِ] مِنَ النَّاسِ^(٢)، وَالْمُحْسِنَاتُ مِنَ الْكَلِمَاتِ [لِلطَّيِّبِينَ] مِنَ النَّاسِ، وَالْمُحْسِنَاتُ مِنَ النَّاسِ [لِلطَّيِّبَاتِ] مِنَ الْكَلِمَاتِ.

وقال مجاهد: هُوَ الْقَوْلُ السَّيِّئُ وَالْقَوْلُ الْحَسَنُ، فَالْحَسَنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالسَّيِّئُ لِلْكَافِرِينَ؛ وَذَلِكَ مَا قَالَ: الْكَافِرُونَ [يَرِثُونَ مِنْ كُلِّ] ^(٣) كَلِمَةً طَيِّبَةً، هِيَ ^(٤) لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَا قَالَ: الْمُؤْمِنُونَ [يَرِثُونَ] ^(٥) مِنْ كُلِّ خَبِيئَةٍ، هِيَ لِلْكَافِرِينَ؛ كُلُّ بَرِيءٍ مِمَّا لَيْسَ لَهُ نَحْوٌ مِنَ الْكَلَامِ.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ يَغْنِي عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ ﴿مُتَرَدِّتَ مَتَا﴾ يَقُولُ أُولَئِكَ الْقَدَّةُ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أَي حَسَنٌ. فَأَبْنُ عَبَّاسٍ صَرَفَ الْآيَةَ إِلَى عَائِشَةَ وَصَفْوَانِ وَإِلَى قَدَفَتَيْهِمْ؛ وَذَلِكَ مُحْتَمَلٌ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ.

وقال بعضهم: ﴿الْمُحْسِنَاتُ﴾ مِنَ النِّسَاءِ، [لِلْخَيْرِينَ] مِنَ الرِّجَالِ، [وَالْخَيْرَاتُ] مِنَ الرِّجَالِ، [لِلْخَيْرِينَ] مِنَ النِّسَاءِ، [وَالطَّيِّبَاتُ] مِنَ النِّسَاءِ، [لِلطَّيِّبِينَ] مِنَ الرِّجَالِ. لَكِنْ هَذَا يَتَوَجَّهُ إِلَى النِّكَاحِ شَرْعاً وَوُجُوداً.

أَمَّا الشَّرْعُ [فَهُوَ] ^(٦) نَهْيُهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَكْفُحُوا إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] فَالْمُشْرِكَاتُ مِنَ الْخَبِيثَاتِ، هُنَّ لَخَبِيثَاتٌ مِنْهُنَّ، وَهُنَّ الْمُشْرِكُونَ. وَكَذَلِكَ الزَّانِيَاتُ لِلزَّانِئَةِ مِنْهُنَّ، وَالْمُؤْمِنَاتُ، هُنَّ الطَّيِّبَاتُ، فَهِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَكَذَلِكَ الْمُحْصَنَاتُ الْغَافِلَاتُ، هُنَّ الطَّيِّبَاتُ، فَهِنَّ لِلْمُحْصَنِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَفَافِ وَالصَّلَاحِ. هَذَا، هُوَ الشَّرْعُ.

وَأَمَّا الْوُجُودُ، فَهُوَ مَا صَبَرَ أَزْوَاجُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرَةِ عَلَى كُفْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، وَالسَّبُّ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَالْأَذَى لَهُ؛ وَذَلِكَ لِخَبِيثَتَيْنِ وَكُفْرَتَيْنِ وَمُؤَافَقَةِ أَزْوَاجِهِنَّ. فَلَوْ كُنَّ طَيِّبَاتٍ لَكُنَّ لَا يَصْبِرْنَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا لَا تَصْبِرُ الْمُؤْمِنَةُ [عَلَى كُفْرِ] ^(٧) زَوْجِهَا [وَلَا تَصْبِرُ الزَّوْجُ عَلَى كُفْرِ] ^(٨) أَمْرَاتِهِ.

وَمَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا صَبَرَ لِخُبْرِهِ؛ فَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَكْفَاءُ: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ، وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَكَذَلِكَ الطَّيِّبَاتُ وَالطَّيِّبُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه [أَنَّهُ] ^(٩) قَالَ: قَالَ: إِنَّ الْكَلِمَةَ الْخَبِيثَةَ لَتَكُونُ فِي جَوْفِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، فَلَا يَكُونُ لَهَا فِي قَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ حَتَّى يُلْفِظَهَا، فَيَسْمَعَهَا الرَّجُلُ الْخَبِيثُ، فَيَضُمُّهَا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَإِنَّ الْكَلِمَةَ الصَّالِحَةَ لَتَكُونُ فِي جَوْفِ الرَّجُلِ الْخَبِيثِ، فَلَا يَكُونُ لَهَا فِي قَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ حَتَّى يُلْفِظَهَا، فَيَسْمَعَهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَيَضُمُّهَا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ: ﴿الْمُحْسِنَاتُ لِلْخَيْرِ وَالْخَيْرَاتُ لِلْخَيْرِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ الآية.

وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْخَبِيثَاتُ هِيَ الدَّرَكَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِي النَّارِ لِلَّذِينَ عَمِلُوا أَعْمَالاً خَبِيثَةً فِي الدُّنْيَا، وَالطَّيِّبَاتُ هِيَ الدَّرَجَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ لِلطَّيِّبِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا. / ٣٦٥ - ب/

فَالدَّرَجَاتُ فِي الْجَنَّةِ لِلطَّيِّبِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الطَّيِّبَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالدَّرَكَاتُ فِي النَّارِ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الْخَبَائِثَ وَالْمَعَاصِيَ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. والقول. (٣) في الأصل وم. من. (٤) في الأصل وم. فهي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم. يصير. (٨) في الأصل وم. والزواج بكفر. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أنزل^(١) في المنافقين الذين قذفوا عائشة [وهي^(٢) عبد الله بن أبي [بن سلول]^(٣) وأصحابه].

وكان قذفها منافقون ومؤمنون، وهو ما ذكرنا أن المؤمنين لم يقصدوا به قذفها، ولكن كان ذلك زلة منهم أو غفلة. وأما المنافقون فقد قصدوا به القذف والفرية.

فأوجب للمنافقين الحد واللعن والعذاب العظيم على ما ذكر: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

وأما المؤمنون فقال لهم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكَّرْتُمْ فِي مَا أَنْفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]. وقال بعضهم: فضله الإسلام ورحمته القرآن، أي لولا ذلك لعدبكم كما عدب أولئك.

ثم قال [بعضهم: قوله^(٤) ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ من القول [والعمل]^(٥) ﴿لِلْمُحْصَنَاتِ﴾ من الناس كما ذكر أولئك. إلا أنه زاد فيه: والعمل^(٦). وذلك كله قريب بعضه [من بعض]^(٧) والله أعلم بذلك.

وقال [بعضهم]^(٨): إن الرجل الصالح يتكلم بالكلمة العوراء، فيقول القائل: قال فلان كذا وكذا، فيقول الآخر: ما هذا من كلام فلان.

وروي عن أبي إني كعب أنه قال مثل قول عبد الله بن مسعود^(٩) إن الكلمة الخبيثة، تخرج من لسان العبد، فتصعد إلى السماء، فلا تفتح لها أبواب السماء، وترجع إلى الأرض، فلا تجد لها مستقراً، وتذهب إلى البحور، فلا تجد لها مكاناً، فتقول: ما أجدي موضعاً أشكته غير الموضع الذي خرجت منه، فترجع إلى صاحبها. ثم تلا كعب هذه الآية: ﴿الْمُحْصَنَاتِ لِلْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلِأَهْلِهَا﴾ روي عن عبد الله بن عباس أنه كان يقرأها: حتى تستأذنوا^(١٠)، وتسلموا على أهلها، وقال: تستأيسوا وهم من الكاتب.

وقال بعضهم: الاستئناس الاستئذان. وقال بعضهم: الاستئناس الاستغلام، وهو أن يطلب من أهل البيت الإذن بالدخول، والاستئذان هو طلب الإذن منهم للدخول.

وروي عن أبي أيوب [أنه^(١١)] قال: قلنا: يا رسول الله هذا السلام قد عرفناه، فما الاستئذان؟ قال: أن يرفع صوته بالتحميد أو بالتسبيح أو بالتكبير ليؤذن للدخول [السيوطي في الدر المنثور ١٧٢/٦] فإن ثبت هذا فهو إلى الاستغلام أقرب، وهو قوله: ﴿فَإِنْ أَتَيْتُمْ بُيُوتَهُمْ مُدْخِلِينَ﴾ [النساء: ٦] أي علمتم.

ثم قال بعضهم: قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلِأَهْلِهَا﴾ على التقديم والتأخير، أي حتى تسلموا، وتستأيسوا، وهو أن تبدأ، فنقول: السلام عليكم، ورحمة الله [أندخل؟ نسلم أولاً، ثم تستأذن]^(١٢) وهو ما روي: «السلام قبل الكلام» [الترمذي: ٢٦٩٩].

ولكن عندنا: الاستئذان^(١٣) للدخول، فإذا أذن بالدخول، فدخل، فعند ذلك يسلم عليهم كقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُبْرَكُ عَلَيْكُمْ﴾ [النور: ٦١] فإنما أمر بالسلام بعد الدخول.

(١) في الأصل: أنزلت، في م: نزلت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ادرج قبلها في الأصل وم: من القول. (٧) في الأصل وم: ببعض. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بمثل قيل عبد الله فقال. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/٢٤٦. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أدخل يسلم أولاً ثم يستأذن. (١٣) ادرج قبلها في الأصل وم: أن.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ هَذَا يُسْتَأْذَنُ لِلدُّخُولِ . فَإِذَا أُذِنَ لَهُ دَخَلَ ، فَبَعْدَ الدُّخُولِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ لَأَنَّهُ^(١) لَوْ سَلَّمَ أَوَّلًا ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ ، اِحْتِاجَ أَنْ يُسَلِّمَ ثَانِيًا إِذَا دَخَلَ . فِهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا أَشْبَهَ بِعَمَلِ النَّاسِ وَظَاهِرِ الْآيَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْمَسَاجِدِ وَنَحْوِهَا^(٢) ، بَلْ يَرْجِعُ ذَٰلِكَ إِلَى بُيُوتِ مَسْكُونَةٍ . فَذَٰلِكَ يَدُلُّ لِقَوْلِنَا : إِنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَدْخُلَ بَيْتًا ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ ، لَمْ يَخْشَ .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَمَلَكُمْ تَذَكَّرْتُ ﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من ترك الاستئذان لأنه ترك التأدب بما أدبه الله ، وعلمه ، ﴿ لَمَلَكُمْ تَذَكَّرْتُ ﴾ أي تنعظون بأدب الله .

وروي في بعض الأخبار أن من دخل بيتاً بغير إذن قال له الملك المؤكل : غصيت ، وأذيت ، فيسمع صوته الخلق كله غير الثقلين ، ويضع صوته إلى السماء الدنيا ، فتقول ملائكة السماء : أفت لفلان غصى ربه ، وأذى .

الآية ٢٨ وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ هذا يدل على أن الاستئذان وطلب الإذن لا ليحيي أنفسهم خاصة ، ولكن لانفسهم ولما لهم في البيوت من الأموال لأنه قال ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ لم يأذن لهم بالدخول فيها ، وإن لم يكن فيها أحد حتى يأذن أرباب الأموال والمنازل بالدخول فيها ليعلم أن النهي عن الدخول لأنفس والأموال جميعاً ، لأن الناس يتخذون البيوت والمنازل صوناً لأنفس والأموال جميعاً . فكما يكرهون اطلاع غيرهم على أنفسهم وعيالاتهم ، فلا تطيب أنفسهم أيضاً [باطلاع غيرهم]^(٣) على أموالهم وأمتعتهم ، فلا تدخل إلا بإذن من أهلها ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ ذكر في بعض الأخبار أن الاستئذان ثلاث ؛ من لم يؤذن له فيهن فليرجع . أما الأولى^(٤) فيسمع الحي ، وأما الثانية فيأخذون جذرهم ، وأما الثالثة فإن شأوا أذنوا ، وإن شأوا ردوا . وقيل : لا تقعدن على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ، ولهم أشغال ، والله أعذر بالعذر . وفي بعضها : وما تنقم من شيء يا ابن آدم هو أزكى لك^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ لأنه إذا لم يؤذن بالدخول ، فقعدها على بابهم ، ولم يرجعوا ، أورت ذلك معاني تكرة أخذها : تهمة على أهل الدار على ما يقعد على أبواب أهل التهم من الشرطي وغيره ، فذلك مكروه عند الناس . والثاني : يكون للناس أشغال وحاجات في منازلهم وخارج المنازل . فإن انتظر ، وقعد على بابهم ، ضاق بذلك ذرعهم ، وشغل قلوبهم ذلك ، فقلل حاجاتهم ، لا تلتئم لشغلهم به ، لذلك كان الرجوع أزكى لهم وخيراً لهم من القعود على الباب والانتظار ، والله أعلم .

وروي عن النبي ﷺ [أنه]^(٦) قال : «الاستئذان ثلاث ، فإن أذن فيه ، وإلا فارجع ، [الموطأ ٢/٩٦٣] وقال بعضهم : معناه ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ يقول : إن سكت عنكم ، فلم يؤذن لكم ، فقد قيل لكم : ارجعوا ، وإن لم يقولوا بالسيئتهم : ارجعوا .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وعيد كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرَتُونَ وَمَا تَنْصُرُونَ ﴾ [النحل : ١٩] .

ثم الاستئذان على محاربه لازم ، وإن كان يجوز له أن ينظر إلى شعر ذات محرمة وجهها ، فإنه منهي عن النظر إلى ما سوى ذلك من عورتها ، إما يخشى أن يبدو من عورة المرأة إن دخل عليها بغير إذن . [روي أن رجلاً سأل نبي الله ﷺ فقال : أنا أخذت أمي ، وأفرشها ، استأذنت^(٧) عليها ؟ قال : نعم ، فسأله ثلاثاً ، فقال له : أيسرك أن تراها غريانة ؟ قال : لا ، [قال]^(٨) : فاستأذنت عليها [الموطأ : ٢/٩٦٣] .

(١) في الأصل وم : لأنهم . (٢) في الأصل وم : ونحوه . (٣) ساقطة من الأصل وم . (٤) في الأصل وم : الأول . (٥) في الأصل وم : لكم . (٦) ساقطة من الأصل وم . (٧) ساقطة من الأصل وم . (٨) ساقطة من الأصل وم .

«وكذلك رُوِيَ عَنْ خَدِيجَةَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ؛ فَقَالَ^(١): اسْتَأْذِنْ عَلَى اخْتِي؟ فَقَالَ: إِنْ لَمْ تَسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا رَأَيْتَ مَا يَسُوءُكَ»^(٢) وكذلك قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ أَحَدِهِمَا فِي الْأُمِّ، وَعَنِ الْآخَرِ فِي الْأَخْتِ لِكُرْ/٣٦٦- أ/ أَمْرُهُ فِي الْاسْتِئْذَانِ عَلَى هَؤُلَاءِ اسْهَلْ وَأَيْسَرُ مِنْ أَمْرِ الْأَجْنَبِيِّ؛ إِذْ كَانَ مُطْلَقًا لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَعْرِ مَحْرَمَةٍ وَوَجْهَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ وَجْهَيْنِ. أَحَدُهُمَا: بُيُوتًا غَيْرَ مُحْتَمِلَةٍ لِلسُّكْنَى، وَهِيَ الْخَرَابَاتُ وَالْمَوَاضِعُ الَّتِي تُقْضَى فِيهَا الْحَوَائِجُ، وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ حَفْصَةَ: بُيُوتًا غَيْرَ مَعْمُورَةٍ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ لَكُمْ.

[وَالثَّانِي: بُيُوتًا غَيْرَ^(٣) مَسْكُونَةٍ مُحْتَمِلَةٍ لِلسُّكْنَى، إِلَّا أَنَّ أَهْلَهَا لَمْ يَسْكُنُوهَا لِتَزُولِ النَّاسِ فِيهَا، وَهِيَ نَحْوُ الْخَانَاتِ وَالرِّبَاطَاتِ^(٤) الَّتِي تَكُونُ لِلْمَارَّةِ.

وعلى ذَلِكَ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ الْاسْتِئْذَانُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ بِالْبُيُوتِ الَّتِي بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ، لَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وَذُكِرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي بَيْتٍ، لَيْسَ فِيهِ سَاكِنٌ، أَنْ تَدْخُلُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ إِنْ [كَانَتْ تِلْكَ]^(٥) الْبُيُوتُ الْخَانَاتُ وَالْبُيُوتُ الَّتِي يَنْزِلُ فِيهَا أَهْلُ السَّفَرِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ يَعْني^(٦): فِيهَا مَنَفَعَةٌ لَكُمْ مِنَ الدَّفْعِ فِي الشِّتَاءِ وَالظَّلِّ فِي الصَّيْفِ وَدَفْعِ الْحَرِّ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ وَدَفْعِ الْبَرْدِ فِي أَيَّامِ الْبَرْدِ.

وإِنْ كَانَتِ الْبُيُوتُ هِيَ الْخَرَابَاتُ [وَالْأَقْنَابُ وَالْأَمْتِعَاتِ]^(٧) الَّتِي كَانُوا يَصْنَعُونَ [لِلطَّهْوَرِ وَقَضَاءِ]^(٨) الْحَوَائِجِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ يَعْني^(٩) الْخَلَاءَ وَالْبَوْلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُدْرِكُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ قِيلَ: ﴿مَا تُدْرِكُونَ﴾ مِنَ السَّلَامِ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وَمَا تُخْفُونَ مِنْهُ، أَوْ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُنْهَوْنَ﴾ [النحل: ١٩] يَذْكُرُ هَذَا لِئَن يَكُونَ^(١٠) أَبَدًا عَلَى جَذَرٍ أَوْ خَوْفٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٠

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام [أَنَّهُ]^(١١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَلِيُّ إِنَّ لَكَ لَكُنْزًا فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّكَ لَذُو قُرْنِيهَا، فَلَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» [أحمد: ١/١٥٩].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [قَوْلُهُ]^(١٢): «يَا ابْنَ آدَمَ لَكَ أَوَّلُ نَظْرَةٍ فَإِيَّاكَ الثَّانِيَةَ» [بنحوه أحمد: ٣٥٢/٥] وَعَنْ جَرِيرِ [ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ]^(١٣) قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفُجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ بَصْرِي.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [قَوْلُهُ]^(١٤) يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَنْ شَهَوَاتِهِمْ فِي مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وَجْهًا ثَلَاثَةً.

أَحَدُهَا: غَضُّ^(١٥) أَبْصَارِهِمْ لِكَيْ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ؛ فَإِنَّ حِفْظَ الْفَرْجِ إِنَّمَا يَكُونُ^(١٦) بِغَضِّ الْبَصَرِ وَحِفْظِهِ.

وَالثَّانِي: غَضُّ^(١٧) أَبْصَارِهِمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ، لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْمَحَارِمِ [لَا يَحِلُّ، وَحِفْظُ]^(١٨) فُرُوجِهِمْ عَنِ الْكُلِّ مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْأَجْنَبِيَّاتِ إِلَّا الَّذِينَ اسْتَنَاءَهُمْ فِي [الآية التالية].

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج هذا في تفسير ابن جرير الطبري على أنه قول ابن جرير وهو ليس حديثاً: ١١٢/١٨. (٣) في الأصل وم. الثاني بيوتاً. (٤) في الأصل وم. والرباط. (٥) في الأصل وم. كان ذلك. (٦) في الأصل وم. أي. (٧) في الأصل وم. وأقناب وامتعات. (٨) في الأصل وم. في الطهور لقضاء. (٩) في الأصل وم. فيكون. (١٠) في الأصل وم. أي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم. غضوا. (١٥) من م، في الأصل يكونوا. (١٦) في الأصل وم. يغضوا. (١٧) في الأصل وم. يحل ويحفظوا.

والثالث: غَضُّ^(١) أبصارِهِمْ عَمَّا فِي أَيْدِي الْخَلْقِ [وَأَلَّا يُفْتَحُوا] ^(٢) إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَكَ إِنْ مَا سَعَا بِهِ أَرْوَامًا مِنْهُمْ﴾ الآية [طه: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَتَىكَ لَمْتُ﴾ أي أظهر لهم وأدعى إلى الصلاح مِنَ النَّظَرِ.

وعلى هذا ^(٣) يُخْرِجُ قَوْلَهُ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه [أنه] ^(٤) قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ الرِّدَاءُ مِنَ الثِّيَابِ.

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه [أنه] ^(٥) قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: الْكَفُّ وَالْخَاتَمُ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها [أنها] ^(٦) قَالَتْ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الْقَلْبُ، وَالْفَتْخَةُ، وَهِيَ خَاتَمُ الرَّجُلِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ [قوله: الزَّيْنَةُ] ^(٧) زَيْنَتَانِ: زَيْنَةُ بَاطِنَةٍ، لَا يَرَاهَا إِلَّا الزَّوْجُ [كالإكليل والسَّوَارِ وَالْخَاتَمِ]. وَأَمَّا الزَّيْنَةُ الظَّاهِرَةُ فَالثِّيَابُ ^(٨).

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ [حِينَ خَصَّ الرِّدَاءُ مِنَ الثِّيَابِ] ^(٩) ففِيهِ دَلَالَةٌ أَلَّا يَجِلَّ النَّظَرُ إِلَى امْرَأَةٍ أجنبية وَإِنْ كَانَ مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ففِيهِ دَلَالَةٌ جَلَّ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ لَا بِشَهْوَةٍ.

وَأِنْ كَانَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ مِنَ الْقَلْبِ وَالْفَتْخَةِ ففِيهِ دَلَالَةٌ جَوَازِ النَّظَرِ إِلَى الْكَفِّينِ وَالْقَدَمَيْنِ لَأَنَّهُمَا ظَاهِرَتَانِ بِأَدْيَتَانِ

أَلَا تَرَى أَنَّهُمَا مِنَ الظَّاهِرِ فِي فَرْصِ غَسْلِ الْوُضُوءِ؟ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ ففِيهِ دَلَالَةٌ جَوَازِ صَلَاتِهَا مَعَ ظُهُورِ الْقَدَمِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ حَلَالًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِشَهْوَةٍ. لَكِنْ غَضُّ الْبَصَرِ وَتَرْكُ النَّظَرِ أَوْفَقُ وَأَزْكَى كَقَوْلِهِ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَمُرُّنَّ﴾ أَنَّهُنَّ حَرَائِرُ ﴿فَلَا يُؤْذِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] كَمَا يُؤْذِي الْإِمَاءُ.

وَالَّذِي يَدُلُّ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ أَلَّا تُغْطِيَ وَجْهَهَا، وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَعَمَّدَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ رضي الله عنه: «إِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» [الترمذي: ٢٧٧٧] وَفِي بَعْضِهَا: «الْأُولَى لَكَ وَالْآخِرَةُ عَلَيْكَ» [بِنَحْوِ التِّرْمِذِيِّ: ٢٧٧٧] لِأَنَّهُ كَانَ هُنَا يَتَعَمَّدُ النَّظَرَ فِي الثَّانِيَةِ لِشَهْوَةٍ تَحْدُثُ فِي قَلْبِهِ.

وَإِذْنُهُ لِلَّذِي تُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَظَرَ الرَّجُلِ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ غَيْرُ حَرَامٍ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ حَرَامًا لَمْ يَأْذَنْ فِيهِ النَّبِيُّ لِأَحَدٍ.

وَنَرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ لَيْسَ بِحَرَامٍ إِذَا ^(١٠) لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِ الرَّجُلِ مِنْ ذَلِكَ شَهْوَةٌ. فَإِذَا وَجَدَ لِذَلِكَ شَهْوَةً، وَلَمْ يَأْمَنْ أَنْ [يُؤْذِيَ بِهَا] ^(١١) ذَلِكَ إِلَى مَا يُكْرَهُ، فَمَحْظُورٌ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ مَعْرِفَتَهَا وَالتَّكَاخُ، فَإِنَّهُ قَدْ رُخِّصَ فِي ذَلِكَ.

رَوَى أَنَّ الْمُغِيرَةَ [بَنَ شُعْبَةَ] ^(١٢) أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «ادْعُهَا»، فَانْظُرَ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤْذِمَ بَيْنَهُمَا [أَحْمَدُ: ٢٤٥/٤].

وَقَالَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا لِلْخُطْبَةِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْلَمُ» [بِنَحْوِ أَحْمَدَ: ٣/٣٦٠].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: آيَةٌ أُخْرَى وَالثَّلَاثُ يَغْضُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا تَفْتَحُوا لَهَا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي م: الزَّيْنَةُ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَأَمَّا الزَّيْنَةُ الظَّاهِرَةُ فَالثِّيَابُ، وَالبَّاطِنَةُ فَالْإِكْلِيلُ وَالسَّوَارِ وَالْخَاتَمُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ خَصَّ مِنَ الثِّيَابِ وَغَيْرِهِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: إِذْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يُؤْذِي بِهِ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لِرَسُولِ.

وَإِحْسَنُ لِلنِّسَاءِ وَأَفْضَلُ لَهَا أَنْ تَشْرَ وَجْهَهَا وَيَدَيَهَا عَنِ الرِّجَالِ، لَيْسَ أَنْ ذَلِكَ حَرَامٌ^(١) وَلَكِنْ لِمَا يُخَافُ فِي ذَلِكَ مِنْ حُدُوثِ الشَّهْوَةِ وَوُقُوعِ الْفِتْنَةِ بِهِنَّ.

فإذا لم يكن للنَّاظِرِ في ذلك شَهْوَةٌ بَأَن كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، أَوْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ دَمِيمَةً أَوْ عَجُوزًا، فَإِنَّهُ لَا يُحْظَرُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ أَمْثَالِهِنَّ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَى ^(٢) مَا سِوَى ذَلِكَ.

واضله قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَنَبِيُّكَ وَمَنَّاكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَنَابِهِمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَن يَعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ جَائِزٌ إِلَّا يَكُونَا^(٣) بِعَوْرَةٍ: بَأَنَّ الْمَرَأَةَ، لَا تُصَلِّيَ وَعَوْرَتُهَا مَكْشُوفَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ تُصَلِّيَ وَوَجْهُهَا وَيَدَاهَا وَرِجْلَاهَا مَكْشُوفَةٌ. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّظَرَ إِلَى ذَلِكَ جَائِزٌ، إِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِشَهْوَةٍ، دَخَلَ فِي ذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ» لِأَنَّ زِنَاءَ الْعَيْنِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالنَّظَرِ لِلشَّهْوَةِ. فَإِذَا كَانَ لِشَهْوَةٍ دَخَلَ فِي ذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَرُوِيَ فِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ، لَيْسَا بِعَوْرَةٍ مَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ [أَنَّهَا] قَالَتْ: «دَخَلْتُ عَلَى أُخْتِي أَسْمَاءَ، وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ شَامِيَةٌ رِقَاقٌ، وَهِيَ الْيَوْمَ عِنْدَكُمْ صِفَاقٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذِهِ ثِيَابٌ، لَا تُجِبُهَا سُورَةُ النُّورِ، فَأَمَرَ بِهَا، فَأُخْرِجَتْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَارَتْنِي أُخْتِي، فَقُلْتُ لَهَا مَا قُلْتُ، فَقَالَ يَاعَائِشُ إِنَّ الْحُرَّةَ إِذَا حَاضَتْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرَى إِلَّا وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا» [بَنَحْوَهُ أَبُو دَاوُدَ: ٤١٠٤] فَإِنْ ثَبَتَ هَذَا فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ مَا ذَكَرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ/ ٣٦٦ - ب/ .

وقوله تعالى: ﴿يَتَقَضَّضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَخْفَضْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قد ذكرنا أنَّ المرأة يُكره لها النَّظَرُ إلى الرجالِ مِنْ غَيْرِ مُحَرِّمِهَا كما يُكره للرجل [النَّظَرُ]^(٥) إلى المرأة الأجنبيَّة.

الَا تَرَى أَنَّهُ رُويَ أَنَّ [عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ الْمُزْدَنَ الْأَعْمَى، دَخَلَ] ^(٦) عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَغَضُ أَزْوَاجِهِ عِنْدَهُ؛ عَائِشَةُ وَآخَرَى. فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُومَا، فَقَالَتَا: [يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى؟] ^(٧) فَقَالَ لَهُمَا: [أَفَعَمِيَا وَإِنْ أَنْتُمَا؟ السُّتَمَا تُبْصِرَانِيهِ] [التِّرْمِذِيُّ: ٢٧٧٨] أَوْ كَلَامًا ^(٨) نَحْوَ هَذَا. فَقَدْ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا.

وعلى ذلك أخبار: رُوِيَ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ [أَنَّهُ] ^(١٩) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنْ تَبِيتَ فِي مَكَانٍ، تَسْمَعُ نَفْسَ رَجُلٍ، لَيْسَ بِمَحْرَمٍ. وَلَا يَحِلُّ لِمَرِيءٍ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَبِيتَ فِي مَكَانٍ،
يَسْمَعُ نَفْسَ امْرَأَةٍ، لَيْسَتْ بِمَحْرَمَةٍ» [ينحوه البخاري: ٣٠٠٦].

وفي بعض الأخبار أنه [قال:] ^(١٠) «لا يُرَخَّصُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُرِيَ غَيْرَ ذِي مَحْرَمٍ مِنْهَا إِلَّا الْوَجْهَ وَالْكَفَّ وَمَا ظَهَرَ، وَبُيِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى كُرْعٍ عَائِشَةَ، وَقَالَ: هَذَا» [بنحوه أبو داود: ٤١٠٤].

وعن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجه وما ظهر من الثياب.

فَإِنْ ثَبَتَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمَرْوِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ ^(١١) رَخَّصَ النَّظَرَ إِلَى الْوَجْهِ وَالْكَفِّ لِقَوْلِهِ: «إِلَّا الْوَجْهَ وَالْكَفَّ» اسْتِثْنَاءَ الْوَجْهِ وَالْكَفِّ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، كَانَ ذَلِكَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: «إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» كَأَنَّهُ قَالَ «وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ» لِلْأَجْنَبِيِّينَ «إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» وَهُوَ الْكُخْلُ وَالْخَاتَمُ.

ثم الكُحْلُ [يَكُونُ] ^(١٢) فِي الْوَجْهِ، وَالْخَاتَمُ فِي الْيَدِ. فَذَكَرُ الزَّيْنَةِ يَكُونُ كَنَائَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى الزَّيْنَةِ [حَلَالٌ لِكُلِّ أَحَدٍ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالزَّيْنَةِ] ^(١٣) الْحُلِيِّ. وَمَا ذَكَرَهُ الْقَوْمُ بِدُلُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِذِكْرِ الزَّيْنَةِ مَوَاضِعُ الزَّيْنَةِ لَا نَفْسُ الزَّيْنَةِ وَالْحُلِيِّ.

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: إليها للخطبة. (٢) من م، في الأصل: أن. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أعميين دخلا، انظر الإصابة ج ١١/٤. (٧) في الأصل وم: أنهما عريان يا رسول الله. (٨) في الأصل وم: هما وإن كانا أعميين فأتتا لستما بأعميين أو كلام. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم رَخَّصَ لِلْأَجْنَبِيِّينَ النَّظَرَ إِلَى بَعْضِ الزَّيْنَةِ، وهو ما ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ الْوَجْهِ وَالْكَفِّ، ولم يُرَخَّصْ ما خَفِيَ مِنْهَا وما بَطَّنَ، ثم اسْتَشْنَى الْمَحَارِمَ مِنْهَا [وَرَخَّصَ لَهُمُ النَّظَرَ] ^(١) إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَا يَذْكُرْنَ زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا لِمَعْلُومَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

ثم مَوَاضِعُ الزَّيْنَةِ الْخَفِيَّةِ؛ مِنْهَا الصَّدْرُ، وَمِنْهَا الْأُذُنَانِ، وَهُمَا فِي الرَّأْسِ، وَمِنْهَا السَّاقُ.

ثم جَمَعَ بَيْنَ الْأَبِ وَمَنْ سَمِيَ مَعَهُ وَبَيْنَ الزَّوْجِ فِي النَّظَرِ إِلَى زِينَةِ الْمَرَأَةِ. وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْأَبَ، لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ مِنْ عَوْرَاتِ ابْنَتِهِ إِلَّا إِلَى رَأْسِهَا، وَفِي الرَّأْسِ الْأُذُنَانِ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِمَا الْقِرْطَانِ ^(٢)، وَنَحْوُهُ.

وَإِذَا جَازَ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَأْسِهَا، وَلَا حِمَارَ عَلَيْهَا، فَلَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى صَدْرِهَا، وَهُوَ مَوْضِعُ الزَّيْنَةِ، لِأَنَّهُ مِمَّا يُغْطِيهِ الْخِمَارُ، وَيَنْظُرُ إِلَى ذِرَاعَيْهَا وَمَوْضِعِ الْخُلْخَالِ مِنْ قَدَمَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، وَهِيَ ^(٣) مَوَاضِعُ الزَّيْنَةِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ لِلْأَجْنَبِيِّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا.

ثم النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ أَحَقُّ أَنْ يَحْرُمَ النَّظَرُ إِلَيْهِ لِلْأَجْنَبِيِّ مِنَ الرَّأْسِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَوَاضِعِ الزَّيْنَةِ لِأَنَّ الْوَجْهَ يَجْمَعُ فِيهِ جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ، وَغَيْرُهُ مِنْ مَوَاضِعِ الزَّيْنَةِ، لَيْسَ فِيهَا مَحَاسِنٌ. لَكِنْ إِنَّمَا حُرِّمَ النَّظَرُ إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ لِأَنَّهَا عَوْرَةٌ فِي نَفْسِهَا، فَالنَّظَرُ إِلَى الْعَوْرَةِ حَرَامٌ لِلْأَجْنَبِيِّ، وَلِأَنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا؛ أَعْنِي مَوَاضِعَ الزَّيْنَةِ، لَا يَكُونُ إِلَّا لِلشَّهْوَةِ، وَالنَّظَرُ إِلَى الشَّهْوَةِ حَرَامٌ ^(٤).

فَأَمَّا الْمَحَارِمُ مِنْهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ مِنْهَا لِشَّهْوَةٍ، وَلَا يَقْصِدُونَ بِهِ ذَلِكَ الْبَتَّةَ، فَأَبِيحَ لَهُمُ النَّظَرُ إِلَيْهَا. وَكُلُّ مَنْ يَخْشَى مِنَ الْمَحَارِمِ النَّظَرَ إِلَيْهَا لِشَّهْوَةٍ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا. وَكَذَلِكَ الْأَجْنَبِيُّ [حِينَ أَبِيحَ لَهُ] ^(٥) النَّظَرُ إِلَى الزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ، فَإِنْ خَشِيَ بِهِ الشَّهْوَةَ لَمْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا. وَضُرُورَةٌ ^(٦) تَمَّ غَيْرُهَا مِنَ الْعَجْزَةِ، لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ النَّظَرَ إِلَيْهَا: لِلْأَبِ وَغَيْرِهِ إِلَّا لِلزَّوْجِ خَاصَّةً أَوْ لِلْمَوْلَى إِلَى مَمْلُوكِيَّتِهِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا حَقٌّ وَلَا يُؤْتُونَ حَقَّهُمْ﴾ ^(٧) إِلَّا عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَا تَنْهَى عَنْهُمْ مَلُومَةٌ [الْمُؤْمِنُونَ: ٦٥].

اسْتَشْنَى الْأَزْوَاجَ وَالْمَوْلَى مِنْ بَيْنِ غَيْرِهِمْ لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلشَّهْوَةِ، لَا تَقَعُ فِيهِ حَاجَةٌ، فَلَا يَبَاحُ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ لَهُ قِضَاءُ الشَّهْوَةِ وَالْوَطْءِ، وَهُوَ الزَّوْجُ وَالْمَوْلَى.

فَانْقَسَمَتِ الْعَوْرَةُ إِلَى جِهَتَيْنِ: جِهَةٌ تُحِلُّ لِلْمَحَارِمِ النَّظَرَ إِلَيْهَا لِحَاجَةٍ وَضُرُورَةٍ، تَقَعُ لَهُمْ، وَجِهَةٌ لَا تُحِلُّ لَهُمْ إِلَّا لِلْأَزْوَاجِ لِمَا لَا تَقَعُ لَهُمْ حَاجَةٌ وَلَا ضُرُورَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَلِكَ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْأُمَّةَ يَنْظُرُ [الْأَجْنَبِيُّ] ^(٨) إِلَى شَعْرِهَا وَذِرَاعَيْهَا وَسَاقِيهَا وَصَدْرِهَا إِذَا أَرَادَ شِرَاءَهَا؟ فَلَا يَنْظُرُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ. فِإِذَا جَازَ لِلْأَجْنَبِيِّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمَّةِ جَازَ لِمَعْرُومِهَا النَّظَرُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَرَأَةِ لِلْحَاجَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا.

ثُمَّ ذَكَرَ فِي آيَةِ الْمَحَارِمِ جَمِيعاً إِلَّا الْأَعْمَامَ وَالْأَخْوََالَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهُمْ ^(٩) فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهَا تُحِلُّ لِبَنِيهِمْ ^(١٠) بِالنِّكَاحِ، فَكَرِهَ أَنْ [يَصِفُوهَا لِبَنِيهِمْ] ^(١١) وَلِهَذَا كَرِهَ [فِي مَا كَرِهَ مِنَ الْمَرَأَةِ] ^(١٢) الْمُسْلِمَةُ إِيدَاءَ الزَّيْنَةِ الْخَفِيَّةِ لِلْكَافِرَةِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ لِمَا لَعَلَّهَا تَصِفُ ذَلِكَ لِلْمُشْرِكِينَ، فَيَرْغَبُونَ فِيهَا، وَيَتَكَلَّفُونَ ذَلِكَ، وَصَرَفَ قَوْلَهُ: ﴿أَوْ يَسَاءِلَهُنَّ﴾ ^(١٣) إِلَى الْمُسْلِمَاتِ.

لَكِنْ جَائِزٌ عِنْدَنَا أَنَّ السَّمَّ وَالْخَالَ إِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهُمَا لِتَكَثُّرِ وَالتَّطَوُّلِ لِمَا يَكْرَهُ ذَلِكَ، أَوْ لِمَا ذَكَرَ مِنْ أَجْنَاسِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ؛ فَذَكَرَ الرُّخْصَةَ فِي أَمْثَالِهِمْ كَافِيَةً.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَسَاءِلَهُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَرَخَّصَهُمْ نَظَرًا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: الْقِرْطُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٤) أُدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ أَبِيحَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَذْكُرُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لِبَنِيهِمَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَصِفُهَا لِبَنِيهَا. (١١) مِنْ كَرِهَ لِلْمَرَأَةِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ.

يَحْتَمِلُ النِّسَاءَ [اللواتي] ^(١) يَحْتَلِظْنَ بِهِنَّ، أَوْ نِسَاءَ قَرَابَتِهِنَّ أَوْ النِّسَاءَ اللَّاتِي ^(٢) تَوَافَقْنَ فِي دِينِهِنَّ وَهِنَّ الْمُسْلِمَاتُ عَلَى مَا قَالَهُ أَوْلَتْكَ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ قَالَ قَائِلُونَ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] وَنَحْوَهُ.

وقال قائلون: الإمام [والعبيد جميعاً]. فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ [الإمام] ^(٣) فَهوَ ظَاهِرٌ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْأَمَّةُ وَالْعَبْدُ فَفِيهِ إِبَاحَةٌ نَظَرِ الْعَبْدِ إِلَى شَعْرِ مَوْلَاتِهِ عَلَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ.

وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، [وَهُوَ] ^(٤) مَا ذَكَرَ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿أَوْ أَلْتَّيَّبِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الْعَبِيدُ ^(٥) مِنَ الرِّجَالِ. أَوْ ذَكَرَ التَّابِعِينَ ^(٦)؛ وَالتَّابِعُ، وَإِنْ كَانَ خَصِيصاً أَوْ غَيْباً أَوْ مَعْتَوْماً عَلَى مَا قَالُوا فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَهُوَلَاءِ النَّظَرُ إِلَى تِلْكَ الْمَوَاضِعِ عَلَى حَالٍ. فَعَلَى ذَلِكَ الْعَبْدُ.

فَيَكُونُ الدُّخُولُ عَلَيْهِنَّ مُضْمَرًا ^(٧) فِي الْآيَةِ، وَتَكُونُ ^(٨) النِّسَاءُ مَثَاهِبَاتٍ وَقَدْ دَخَلَ الْعَبِيدُ وَالتَّابِعِينَ عَلَيْهِنَّ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ التَّابِعِينَ، وَهُمْ تَابِعُو الْأَزْوَاجِ، وَقَدْ دَخَلَ هُوَلَاءِ يَكُونُ مَعْلُوماً عَنْهُمْ، فَيَتَأَهَّبُونَ لَهُمْ، وَتُسَرَّنَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

أَلَا تَرَى [أَنَّهُ] ^(٩) لَا يَجِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُسَافِرَ بِعَبْدِهَا؟ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَحْرَمٍ لَهَا. لِذَلِكَ لَمْ يَجِلَّ لَهُ النَّظَرُ إِلَى شَعْرِ مَوْلَاتِهِ. فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى: إِمَائِهِنَّ وَنِسَائِهِنَّ؟ وَكُلُّ النِّسَاءِ يَجُوزُ لَهُنَّ النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ وَإِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرْنَا؟ قِيلَ: خَصَّ اللَّهُ ﷻ بِالذَّكَرِ إِمَاءَهُنَّ وَنِسَاءَهُنَّ دُونَ النِّسَاءِ الْأَجْنِبِيَّاتِ تَأْذِيباً لَا خَطَرَ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ يَضِيقُ عَلَيْهَا أَنْ تُسْتَتِرَ مِنْ أَمَتِهَا وَنِسَاءِ أَهْلِ بَيْتِهَا لِكَثْرَةِ رُؤْيَيْهِنَّ لَهَا، وَقَدْ تَقْدِرُ أَنْ تُسْتَرَّ مِنَ الْأَجْنِبِيَّةِ مُحَاسِنَتِهَا وَزِينَتِهَا لِقِلَّةِ رُؤْيَيْهَا لَهَا.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ نَهَى الْمَرْأَةَ أَنْ تُضْرِبَ بِرِجْلِهَا لِتُعْلِمَ مَا تُخْفِي مِنْ زِينَتِهَا. وَفِي ذَلِكَ صِيَانَةٌ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَإِبْعَادٌ لِهَمَا عَمَّا ^(١٠) يُخْذَرُ عَلَيْهِمَا، وَيُخَافُ؟ فَلَيْسَ بِعَبْدٍ أَنْ يَجْعَلَ نَهْيَ الْمَرْأَةِ أَنْ تُظَهِّرَ زِينَتَهَا وَمُحَاسِنَتَهَا لِلْأَجْنِبِيَّةِ لِمَا يُخَافُ عَلَى الْأَجْنِبِيَّةِ مِنْ فَسَادٍ ^(١١) قَلْبِهَا وَحُدُوثِ الشَّهْوَةِ لَهَا صِيَانَةٌ / ٣٦٧ - أ / لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ جَمِيعاً وَإِبْعَاداً لَهُمْ مِنَ الزَّيْنَةِ، وَلِنَلَا تَصِفَهَا لِرَجُلٍ، يَفْتِنَ بِهَا، وَيَتَكَلَّفُ الْوَصُولَ إِلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْمُرُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَخَذَتِ النِّسَاءُ أُرُؤَهُنَّ، فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا ^(١٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْمُرُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يَقُولُ: وَلْيَشْدُذْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى الصُّدْرِ وَالتَّخَرِّ، فَلَا تُرَيْنَ مِنْهُمَا شَيْئاً. قَالَ: وَكَانَ ^(١٣) النِّسَاءُ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ إِنَّمَا تُسَدِّلُنَّ خُمُرَهُنَّ سَدَلاً مِنْ وَرَائِهِنَّ كَمَا يَضْنَعُ النَّبْطُ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ سَدَّلْنَ الْخُمُرَ عَلَى التَّخَرِّ وَالصُّدْرِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ دُرُوعَ النِّسَاءِ كَانَتْ ذَاتَ جَيْبٍ، لِأَنَّ الْجَيْبَ إِنَّمَا تَكُونُ لِلدُّرُوعِ، وَذَلِكَ كَانَ لِبَاسُ النِّسَاءِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى الرِّجَالَ عَنْ لَبْسَةِ النِّسَاءِ وَأَنَّهُ لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ. وَرُوِيَ أَنَّهُ لَعَنَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لَبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لَبْسَةَ الرَّجُلِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُؤْتَنِّينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُذَكَّرَاتِ مِنَ النِّسَاءِ. وَكَانَهُ مَكْرُوهٌ لِلرَّجُلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. أَنْ يَلْبَسَ فَرَاةً وَخَدَّهَا، لَا قَمِيصَ تَحْتَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ لِبَاسُ النِّسَاءِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا شَقٌّ ذِلِّي، فَخَرَجَتْ مِنْ لَبْسِ النِّسَاءِ، وَلَمْ يُكْرَهْ لِلرِّجَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والعبد. (٦) في الأصل وم: التابع. (٧) في الأصل وم: مضمرة. (٨) في الأصل وم: وكن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) من م، في الأصل: فساد. (١٢) في الأصل وم: به. (١٣) في الأصل وم: وكن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذِيرُكَ رَبُّنَّهِنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إنما يُباح النظر إلى الوجه للحاجة، وأما على غير الحاجة فلا يُباح لما ذكرنا من قوله: ﴿يَذِيرُكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٩] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فعلَى ذلك ترك النظر إلى وجه المرأة أظهر للنساء وللناس جميعاً. فلا يُباح ذلك إلا عند الحاجة إليه، وهو معرفتها لتقيم به الشهادة.

فإن قيل: اليس النظر يسع إلى مواضع الزينة الخفية للأجنبي للتداوي^(١)؟ قيل: يسع ذلك للضرورة، وأما للحاجة فلا. ومسألتنا في الحاجة ليست في الضرورة.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذِيرُكَ رَبُّنَّهِنَّ إِلَّا لِيُعْلَنَ عَنْهُنَّ﴾ إلى آخر ما ذكر جاز أن يكون المراد برخصة النظر إلى الزينة لهؤلاء المسمين في الآية رخصة النظر إلى نفس الزينة في موضع الزينة لا موضع الزينة. فيدخل في هذه الرخصة من ذكر من «التابعين» غير أولى الآرية من الرجال ونحوه، لأن الزينة في الصدر وما ذكر إنما تكون من وراء ثياب، تكون على الصدر^(٢).

ثم رخص النظر للمحارم إلى مواضع الزينة ولغير المحارم من الممالك والتابعين «غير أولى الآرية»

[وأما في]^(٣) ذكر رخصة الدخول عليهن فيكون في الآية إضمار الدخول؛ كأنه قال: ﴿وَلَا يَذِيرُكَ رَبُّنَّهِنَّ إِلَّا لِيُعْلَنَ عَنْهُنَّ﴾ ومن ذكر من المحارم: ولا يدخل عليهن إلا العبد والتابعون ومن ذكر من «غير أولى الآرية» فيكون في وقت دخول هؤلاء متأهبات، لأن وقت دخول هؤلاء يكون مغلوماً، يعرفه^(٤)، فيتأهبن، لأن العبد إنما يدخل على سيداتهن ومولاتهن عند حاجتهن إليهن [ولأن]^(٥) التابعين ومن ذكر إنما يدخلون إذا دخل أزواجهن عليهن، فيتأهبن لذلك.

ومثل هذا^(٦) الإضمار جاز في الكلام؛ يبين ذلك بالثبوت كقوله: «أجلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتل عليكم غير محلي الصبي وأنتم حرمة» [المائدة: ١]

دل قوله: «غير محلي الصبي» أنه كان الصبي مذكوراً؛ إذ لو لم يكن مذكوراً لم يكن استثنى منه.

فعلَى ذلك جاز أن يكون في الأول إضمار الدخول فيه لهؤلاء الذين لا يحل لهم النظر إلى مواضع الزينة منهن، ورخصة الإبداء^(٧) للمحارم، أو أن يكون ما ذكرنا في ما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: «أو التابعين غير أولى الآرية من الرجال» قال بعضهم: الشيخ الكبير الذي لا حاجة له في النساء وقال بعضهم: المغترة الأحمق الذي لا تشبهه النساء، ولا يعار منه^(٨) الأزواج، وقال بعضهم: العنبن والخصي وهؤلاء [هم]^(٩) الذين لا يطيقون الجماع.

لكن عندنا: لا يسع العنبن أو الخصي أن يخلوا بامرأة أجنبية.

وقال الحسن: «غير أولى الآرية من الرجال» هم الرجال المخشون.

روي عن عائشة [أنها قالت: كان]^(١٠) يدخل على أزواج النبي ﷺ مُحَشَّ، وكانوا يعدونه من «غير أولى الآرية» قالت: فدخل النبي ذات يوم، وهو ينعث امرأة، فقال: «لا أرى هذا يعلم ما ههنا، لا يدخلن عليكم، فحجبه» [مسلم: ٢١٨١].

وعن أم سلمة أن النبي ﷺ دخل عليها، وعندها مُحَشَّ، فأقبل على أخي أم سلمة، فقال: يا عبد الله إن فتح الله لكم غداً الطائف ذلك على بنت غيلان، فإنها تقبل بأربع، وتذير بثمان، فقال: [رسول الله ﷺ]^(١١) «لا أرى هذا يعرف ما ههنا، لا يدخلن عليكم» [بخرو مسلم: ٢١٨٠].

(١) في م: للتداوي بها، في الأصل: المتداوي بها. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل: ومن. (٤) في الأصل: ومن. يعرفن.
(٥) في الأصل: ومن. (٦) في الأصل: ومن. هذه. (٧) في الأصل: ومن. (٨) في الأصل: ومن. عليه. (٩) ساقطة من الأصل وم،. (١٠) في الأصل: ومن. قالت: كانت. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: ﴿غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ﴾ الَّذِينَ لَا تَهْمُهُمْ إِلَّا بَطُونُهُمْ، وَلَا [يُخَافُ مِنْهُمْ] ^(١) عَلَى النِّسَاءِ. وكلُّهُ واحدٌ، وهم الذين ليست لهم الحاجةُ إلى النساءِ.

قال أبو عوسجة: الإِرَةُ الحاجةُ، والإِرَبُ جميعٌ، وكذلك قال القُتَيْبِيُّ. وقال ابنُ عباسٍ: هو الذي لَا تَسْخِي مِنْهُ النِّسَاءُ.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْفِلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ قال بعضهم: هو [مِنْ] ^(٢) الإِطْلَاعِ؛ أي لم يَظْهَرُوا، ولم يَذَرُوا ما هو مِنْ الصَّغَرِ. وقال بعضهم: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ أي لم يَبْلُغُوا الحُلُمَ؛ والأوَّلُ أَشْبَهُ عِنْدَنَا؛ وذلك لأنَّ الطُّفْلَ الذي لم يَحْتَلِمْ قد أَمِرَ بِالِاسْتِثْنَانِ فِي بَعْضِ الْأَوَاقِ لقوله: ﴿لَيْسَتِ بَيْنَكُمْ أَلْفِينَ مَلَكٌ أَمْنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْعَنُوا أَلْفُكُمْ يَنْكُرُ﴾ [النور: ٥٨] فالذي يُؤْمَرُ بِالِاسْتِثْنَانِ، هو الطُّفْلُ الذي لم يَحْتَلِمْ، وقد يَظْلِعُ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.

والذي لَا يُؤْمَرُ بِالِاسْتِثْنَانِ، هو أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ. وهو الذي لَا يَظْلِعُ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ لِصِغَرِهِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ يَأْرِيْلَهُنَّ يُعَلِّمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي لَا يَضْرِبَنَّ إِحْدَى [الرَّجُلَيْنِ بِالْأُخْرَى] ^(٣) لِيُفْرَعَ الْخُلُخَالُ بِالْخُلُخَالِ ﴿يُعَلِّمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي مَا تُوَارِي الثِّيَابُ مِنَ الزَّيْنَةِ، وهو الْخُلُخَالُ [الذي أَخْفَتْ] ^(٤) الثِّيَابُ.

نَهَيْتِ الْمَرْأَةَ عَنْ ضَرْبِ رَجُلِهَا لِتُعَلِّمَ الرِّجَالَ مَا تُخْفِي مِنْ زِينَتِهَا. وذلك مَحْظُورٌ عَلَيْهَا، لَمْ يُخْرَجْ ذَلِكَ مُخْرَجَ تَرْغِيبِ النَّاسِ وَخَشْيَتِهِمْ عَلَيْهَا، إِذِ الزَّيْنَةُ فِي الْأَصْلِ مَا جُعِلَتْ إِلَّا لِلتَّرْغِيبِ وَالتَّخْرِيبِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّنَظُّرِ وَالشَّهْوَةِ.

وفي تَرْكِ ذَلِكَ وفي تَرْكِ إِبْدَاءِ الشَّهْوَةِ صِبَاغَتَهَا وَصِيَانَةَ الرِّجَالِ وَإِبْعَادَهُمْ جَمِيعاً مِنَ الزَّيْنَةِ وَالرَّغْبَةِ.

فَكَشَفَتِ الشَّابَّةَ عَنْ وَجْهِهَا وَنَظَرُ الرَّجُلِ لَشَهْوَةِ إِلَيْهَا أُخْرَى أَنْ يَكُونَ مَحْظُوراً عَلَيْهِ مِنْهَا عَنْهُ، والله أعلم بالصواب.

[وقوله تعالى] ^(٥) ﴿وَتُؤْتُونَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا] ^(٦) ﴿وَتُؤْتُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَةِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لِتَكُونُوا مُفْلِحِينَ.

[والثَّانِي] ^(٧) : أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَتُؤْتُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ارْجِعُوا عَمَّا قَدَّمْتُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمَسَاوِي، وَاجْعَلُوا مَكَانَ ذَلِكَ طَاعَةً لَهُ لِيَعْفُو عَنْكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ مِنَ الْمَعَاصِي، والله أعلم.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَنَ يَنْكُرُ وَالْمُتَصِلِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِنَّا بِكُمْ﴾ الْأَمْرُ بِالْإِنْكَاحِ، وَإِنْ خُرِجَ مُخْرَجَ أَمْرِ وَاحِدٍ فِي الظَّاهِرِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى أَقْسَامٍ:

الْأَمْرُ فِي تَزْوِيجِ الْإِمَاءِ وَالْعَبِيدِ يُخْرَجُ مُخْرَجَ التَّرْغِيبِ وَالتَّخْرِيبِ فِيهِ، وَفِي الْأَحْرَارِ يُخْرَجُ مُخْرَجَ الْمَعُونَةِ وَالتَّقْوِيَةِ، لِأَنَّ مَنْ بَلَغَ وَلَدَهُ النِّكَاحَ ذَكَراً أَوْ أُنْثَى اسْتَشَارَ أَقْرَبَاءَهُ وَأَهْلَ أَنْسَابِهِ / ٣٦٧ - ب / وَالْمُتَّصِلِينَ بِهِ فِي ذَلِكَ [فَاسْتَعَانَ بِهِمْ] ^(٨) عَلَى ذَلِكَ. وَلَا كَذَلِكَ السَّادَاتُ فِي الْمَمَالِكِ، ذَلَّ أَنَّ الْأَمْرَ فِي أَحَدِهِمَا يُخْرَجُ عَلَى الْمَعُونَةِ وَفِي الْآخَرِ عَلَى التَّرْغِيبِ.

ثم تَزْوِيجُ الْعَبْدِ يُخْرَجُ كَأَنَّهُ فَعْلٌ الْمَعْرُوفِ؛ إِذْ فِي ذَلِكَ إِزَامٌ مُؤَنٍ بِلا عِرَاضٍ؛ يَخْضُلُ ^(٩) لَهُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ [الْأَمْرُ] ^(١٠) إِلَّا مَنْ يَمْلِكُ الْمَعْرُوفَ: مِنْ نَحْوِ الْوَصِيِّ وَالْأَبِ وَالْمُكَاتِبِ وَالْعَبْدِ الْمَأْذُونِ لَهُ فِي التَّجَارَةِ؟ وَلَا كَذَلِكَ تَزْوِيجُ الْإِمَاءِ؛ إِذْ يَمْلِكُهُ ^(١١) هَؤُلَاءِ وَكُلُّ مُكْتَسِبٍ خَيْرٌ ^(١٢) لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ.

ثم جَرَى الْوِفَاقُ بَيْنَهُمْ أَنَّ لِلْمَوْلَى أَنْ يَزَوِّجَ أَمَتَهُ، شَاءَتْ هِيَ، أَوْ ابْنَتْ. وَاخْتَلَفُوا فِي تَزْوِيجِ الْعَبْدِ امْرَأَةً:

قال بعضهم: لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِرِضَا الْعَبْدِ. وقال بعضهم: لَهُ ذَلِكَ، شَاءَ، أَوْ أَبَى.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخْفُونَ. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: رَجُلِهَا عَلَى الْآخَرِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: قَدْ أَخْفَا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) فِي الْأَصْلِ: هَذَا يَحْتَمِلُ قَوْلَهُ، فِي م: هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ يَحْتَمِلُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَاسْتَعَانَهُمْ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَحْتَمِلُ. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمْلِكُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: خَيْرٌ لَهُ.

ثم الناس اختلفوا في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُم﴾ قَالَ: بعضهم: الأيتامى منهم: الإناث من الأحرار دون الذكور. واستدلوا ببطلان النكاح وفساده إذا كان بغير إذن الولي بهذه الآية، لأن الله تعالى أمر الأولياء، وخاطبهم أن يزوجهن كما أمر المولى بتزويج أمته. فأوجب للولي الولاية كما أوجب للمولى، وإن كانا مختلفين في الولاية. لكن عندنا لو كانت الآية خرجت على التفسير على ما يقول خصومنا ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُم﴾ الإناث لم يكن فيه دليل على ما قالوا هم. ويخرج ذلك على وجوه.

أخذها: على الترغيب في إنكاحهن لما [لا تتولى النساء] (١) النكاح بأنفسهن حياء، ويستحيين التكلم بذلك حتى من فعلت ذلك منهم بنفسها صارت مطعونة عندهن.

[والثاني] (٢) أن يخرج مخرج المعونة لهن على ما ذكرنا. ألا ترى إلى ما روي عن رسول الله ﷺ أنه [قال] (٣): «مَنْ بَلَغَ وَلَدَهُ النِّكَاحَ، وَعِنْدَهُ مَا يُنْكِحُهُ فَأَخَذَتْ، فَلَا تُنْمِ بَيْنَهُمَا» [الدليمي في الفردوس: ٥٥٠٧] فهذا يدل، والله أعلم، على وجوب المعونة في تزويج الأب الإبن البالغ.

فإذا كان الأب مأموراً من جهة التأديب على المعونة بتزويج ابنه، ولا يوجب ذلك عليه ولاية إذا كره (٤) ذلك، فكذلك يكون مأموراً بتزويج ابنته من طريق المعونة أو جهة الحياء.

[والثالث] (٥): أن يخرج ذلك على ما قال خصومنا من إيجاب الولاية عليها.

ثم رأينا أنها إذا رغبت في النكاح، ورَضِيَتْ بِهِ، وَكَرِهَتْ لَهَا ذَلِكَ، أُجِبَ الْوَلِيُّ عَلَى الْإِنْكَاحِ. وإن هي كَرِهَتْ النِّكَاحَ، وَأَبَتْهُ، وَرَغِبَ الْوَلِيُّ ذَلِكَ، وَشَاءَهُ، لَمْ تُجْبَرْ هِيَ عَلَى ذَلِكَ.

دل ذلك على أن الحق لها عليه دون أن يكون الحق في ذلك له عليها. فإذا كان الحق لها عليه جاز ذلك إذا تولت بنفسها لما ذكرنا أن الخطاب للأولياء يخرج على الرجوع التي ذكرنا، والله أعلم.

هذا إذا كان في الآية ذكر الإناث دون الذكور، فكيف إن ليس في الآية ذكر تخصيص الإناث دون الذكور؟ واسم الأيتم تقع على الإناث والذكور جميعاً؟

ألا ترى أنه روي عن عمر رضي الله عنه [أنه] (٦) قال: لما نزلت هذه الآية ما رأيت [مَنْ يَحْسِبُ] (٧) بغد هذه الآية أيماً: التمسوا الغنى في البائة.

وما روي عن نَجْدَةَ أَنَّ عُمَرَ دَعَانَا أَنْ نُنْكَحَ مِنْ أَيَاتِنَا. وفي الشعر:

لِلَّهِ ذُرِّيٌّ بَنِي عَالِيَةٍ فِي أَيِّمٍ مِنْهُمْ وَنَاكِحٍ (٨)

وفي بعضها:

وَأَيِّمٍ (٩) تَابَى مِنْ آلِ قَوْمِ الْكِرَامِ (١٠) أَيْمًا

جمع فيها اسم الأيتم الرجال والنساء.

ومن الدليل أيضاً على ذلك قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيَّائِكُمْ﴾ فدل ذلك على أنه حث على تزويج البالغين من الأحرار رجالهم ونساءهم.

فإن قيل: فما وجه أمره بتزويج الرجال والأمر إليهم؟ فجواب ذلك ما ذكرنا من المعونة والترغيب فيه.

(١) في الأصل وم: تولى من. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: ذكره. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: مثل ما يلتبس. (٨) هذا البيت من قصيدة لأمية بن أبي الصلت: انظر الديوان ص: ٣٥٠، وأدرج في الأصل: الله در بني إيم منهم وناكح. (٩) في الأصل وم: وابنة. (١٠) ليست في الأصل وم.

ثم قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ أي المؤمنين.

وجائز أن يكون: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ من طلب منكم الصلاح، أو ذكر الصالحين لما كانت العادة في الملوك أنهم يخاطبون أهل الصلاح منهم والأخيار لا على إخراج غيرهم من حكم ذلك الخطاب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الناس من استدلل بهذه الآية أن العبد يملك لأنه ذكر العبيد والأحرار جميعاً، ثم ذكر في آخره الإغناء^(١) دل أنه يملك، ويستدل بقوله: ﴿فَأَنْتُمْ كَوْمُهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ وَءَاثُورُهُنَّ أَجُورُهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أضاف الأجور والإيتاء إليهن دل أنهن يملكن.

لكن عندنا أن الممالك يملكون ملك التوسيع [وملك التصرف، ويقع لهم غنى التوسيع وغنى^(٢) التصرف، ولا يقع لهم التملك ولا حقيقة الملك. والدلالة على ذلك [ثلاثة أقوال.

أحدها^(٣) قوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١] لو كان ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يملكون ما يملك الموالى والسادات لكان الممالك يفضلون على السادات في الملك؛ إذ هم الذين يتصرفون، ويكتسبون الأموال دون السادات، قدل ذكر تفضيل بعض على بعض أنهم لا يملكون ما يملك الموالى.

والثاني: قوله: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ذِي الشَّرَاءِ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الزمر: ٢٩] ولو كانوا يملكون ما^(٤) يملك السادات لكانوا [فيه سواء]^(٥). دل أنهم لا يملكون حقيقة الملك، ولكن يملكون ملك التوسيع والتصرف.

والثالث^(٦): قوله ﴿يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يرجع^(٧) إلى الأحرار منهم دون الممالك. وذلك جائز في اللسان كقوله [هذا]^(٨).

ثم روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ [أنه]^(٩) قال: «ثلاثة حق على الله تعالى أن يغنيهم: المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء» [الناسي: ٦١/٦].

وعن عمر^(١٠) [أنه]^(١١) قال: ما رأيت مثل الرجل لا يلتبس الغنى في الباء، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وروي في الخبر أنه^(١٢) قال رسول الله ﷺ «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأخضر للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [البخاري: ٥٠٦٥].

وروي عن نبي الله ﷺ [أنه]^(١٣) قال لعمر بن الخطاب «ما فعلت ببناتك؟ قال: هن عندي يا رسول الله. قال: وقد حضن؟ قال: نعم. قال: إنك لم تحبس واحدة منهن عن كفء إلا نقص من أجرك قيراطاً.

وفي بعض الأخبار: «من بلغ ولده النكاح وعنده ما يئكمه فأخذت فالإنم بينهما» [الدلمي في الفردوس: ٥٥٠٧]

الآية ٣٣

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّتِّيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ كَلِمًا حَقًّا يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الاستغفار، هو طلب العفاف؛ كأنه قال: يطلب الأسباب التي تمتع عن الرزق، وتصريه عفيفاً، حتى يغنيه الله من فضله. وأسباب العفة تكون بأشياء^(١٤):

أحدها: ما روي عن نبي الله ﷺ «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأخضر للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [البخاري: ٥٠٦٥].

(١) في الأصل وم: الغنى. (٢) من م، في الأصل: وغناء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٥) في الأصل وم: لهم فيه شركاء. (٦) في الأصل وم: أو أن يكون. (٧) في الأصل وم: راجعاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أشياء.

وَيَنْخَوِّهُ^(١): يَكْتَسِبُ أسبابَ العِفَّةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَنْكُحُ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الزَّنى إِلَى أَنْ يُغْنِيَهُ^(٢) اللهُ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ اسْتَعْتَفَ أَعَفَهُ اللهُ» [النسائي: ٩٨/٥].

وجائزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «وَلْيَسْتَعْتِفِ الَّذِينَ» أَيِ لِيَتَعَفَّفَ الَّذِينَ «لَا يَحْدُرُونَ نِكَاحًا» لَمْ يَجْعَلِ اللهُ ﷻ لِلَّذِي عَجَزَ عَنِ النِّكَاحِ اسْتِيفَاحَ الْفُرُوجِ/٣٦٨- ١/ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَنْكُحُ كَمَا جَعَلَ فِي الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا رُخْصَةَ التَّنَاوُلِ مِنْ مُلْكٍ غَيْرِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ بِبَدَلٍ لَوْجُودِهِ.

[أَحَدُهَا]^(٣): أَنْ رُخْصَةُ التَّنَاوُلِ مِنْ مُلْكٍ غَيْرٍ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ. وَالضَّرُورَاتُ لَا تَقَعُ فِي الْفُرُوجِ وَفِي الْإِسْتِمْتَاعِ بِهَا بِحَالٍ، لِذَلِكَ لَمْ يُبَيَّنَّ.

وَالثَّانِي: الْإِسْتِمْتَاعُ بِالنِّسَاءِ فِي الْأَصْلِ كَانَ إِنَّمَا جُعِلَ، وَأُبِيحَ لِبَقَاءِ النَّسْلِ وَالتَّوَالِدِ لَا لِحَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَنْكُحُ ارْتَفَعَ عَنْهُ إِبْقَاءُ النَّسْلِ وَالتَّوَالِدِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ السَّعَةَ وَالْغِنَى وَأَنْوَاعَ النِّعَمِ هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْحَاجَةِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ. فَإِذَا كَانَ فَقِيرًا، لَا يَجِدُ مَا يَنْكُحُ، زَالَ عَنْهُ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ. لِذَلِكَ لَمْ يُبَيَّنَّ.

وَأَمَّا الْحَاجَاتُ وَالضَّرُورَاتُ وَمَا ذَكَرْنَا فَكُلُّهَا تَقَعُ فِي الْأَمْوَالِ. وَإِنَّمَا الْحَاجَةُ فِي التَّنَاوُلِ مِنْهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَلِإِثْقَانِهَا. لِذَلِكَ افْتَرَقَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ «يُغْنِيهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» [وَقَوْلِهِ «حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ»]^(٤) وَجِهَانِ مِنَ الْمُعْتَبَرِ عَلَى تَقْضِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَضَافَ الْإِغْنَاءَ إِلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ لَيْسَ يُعْطَى أَحَدًا شَيْئًا، وَيُلْقِيهِ فِي يَدِهِ بِلَا سَبَبٍ وَلَكِنْ إِنَّمَا يُغْنِيهِ، وَيُعْطِيهِ^(٥)، بِأَسْبَابٍ [يَجْعَلُهَا لَهُ. فَذَلِكَ]^(٦) إِضَافَةُ الْإِغْنَاءِ إِلَى نَفْسِهِ عَلَى أَنَّ لَهُ فِي تِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي [لِلنَّاسِ بِهَا غِنًى]^(٧) صُنْعًا وَفِعْلًا، لَيْسَ عَلَى مَا تَقَوْلُهُ الْمُعْتَزِلَةُ: إِنَّهُ لَا صُنْعَ لِلَّهِ فِي أَعْمَالِ عِبَادِهِ.

وَالثَّانِي: فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ غِنَاهُمْ وَسَعَتَهُمْ فَضْلٌ مِنْهُ^(٨) وَرَحْمَةٌ، لَا شَيْءَ يَسْتَوْجِبُونَهُ^(٩) بِأَنْفُسِهِمْ [قِيلَ]. لَكِنَّهُ إِفْضَالٌ مِنْهُ لَهُمْ وَإِحْسَانٌ^(١٠) إِذْ لَوْ كَانَ عَلَيْهِ^(١١) ذَلِكَ كَانَ مِنْهُ عَدْلًا، لَا فَضْلًا.

فَذَلِكَ تَسْمِيَةُ الْفَضْلِ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ يُقَالُ: أَعْطَاهُ ذَلِكَ فَضْلًا مِنْهُ وَإِنْعَامًا لَا اسْتِجَابًا وَاسْتِخْقَاقًا. وَذَلِكَ رَدُّ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَحِ فِي الدِّينِ.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ «يُغْنِيهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» وَقَوْلِهِ «حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» عَلَى تَفْضِيلِ الْغِنَى عَلَى الْفَقْرِ؛ فَقَالُوا^(١٢): لِأَنَّهُ سَمَّاهُ فَضْلًا بِقَوْلِهِ: «مِنْ فَضْلِهِ» وَسَمَّاهُ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ رَحْمَةً وَحَسَنَةً، وَسَمَّاهُ خَيْرًا أَيْضًا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَسَمَّى الْفَقْرَ وَالضُّيْقَ بِلَاءَ مَرَّةٍ، وَسَمَّاهُ ثَانِيًا، وَضُرًّا وَشِدَّةً ثَالِثًا^(١٣) يَقُولُ «وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» [الْأَعْرَافِ: ١٦٨] وَقَوْلِهِ^(١٤) «وَيَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» [الْأَنْبِيَاءِ: ٣٥] وَقَوْلِهِ: «هَلْ هُنَّ كَانَتْ شَرًّا أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُسِيكَتْ رَحْمَتِي» [الزَّمَر: ٣٨] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَكَانَ مَا سَمَّى مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّدَّةِ وَالشَّرِّ وَالضَّرِّ وَالسَّيِّئَةِ كُلُّهُ عِبَارَةً وَكِنَايَةً عَنِ الضُّيْقِ وَالْفَقْرِ، وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ وَنَحْوِهَا كُلُّهُ عِبَارَةٌ عَنِ السَّعَةِ وَالْغِنَى.

فَذَلِكَ تَسْمِيَةُ الْغِنَى خَيْرًا وَحَسَنَةً وَرَحْمَةً عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ؛ إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ الْخَيْرَ وَالْحَسَنَةَ وَالرَّحْمَةَ خَيْرٌ مِنَ الشَّرِّ وَالسَّيِّئَةِ وَالْبَلَاءِ. لِذَلِكَ كَانَ الْغِنَى أَفْضَلَ مِنَ الْفَقْرِ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَنَحْوُهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَمَ: أَغْنَاهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَيُعْطِيهَا. (٦) فِي الْأَصْلِ رَمَ: تَجْعَلُ لَهُمْ فَدْلًا. (٧) فِي الْأَصْلِ رَمَ: مَا لَهُمْ غِنَاءٌ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَمَ: مِنْهُمْ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَمَ: يَسْتَوْجِبُونَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَمَ: ذَلِكَ قَبْلَهُ لَكِنْ إِفْضَالًا مِنْهُمْ لَهُمْ وَإِحْسَانًا. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: حَكَمَهُ. (١٢) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (١٤) فِي الْأَصْلِ رَمَ: وَقَالَ.

فَيَقَالُ لَهُمْ: هُوَ كَمَا قُلْتُمْ: إِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا ذَكَرْتُمْ.

إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ الَّتِي ذَكَرْتُمْ هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْفَسَادِ وَالْبَاعِثَةُ عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالْمُحَرَّمَاتِ، وَلَا كَذَلِكَ الْفَقْرُ وَالضِّيقُ وَالشَّدَّةُ، بَلْ هُنَّ أَسْبَابٌ تَمْنَعُ صَاحِبَهَا عَنِ التَّعَاطِي فِي أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالْمُحَرَّمَاتِ فَضْلاً أَنْ تَدْعُوهُ، وَتَبْعُهُ إِلَى ذَلِكَ.

فَقَوْلُنَا: إِنَّهُ أَفْضَلُ لِلْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَا لَا لِمَعْنَى فِهْمُومِهِ أَنْتُمْ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَا ذُكِرَ، وَسُمِّيَ خَيْراً؛ أَعْنِي السَّعَةَ عِنْدَ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ مَا ذُكِرَ مِنَ الضِّيقِ شَرّاً وَسَيِّئَةً عِنْدَهُمْ، لِأَنَّهُ كَذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ، لَا إِنِّهِمَا فِي الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ لِمَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْغِنَى وَالسَّعَةُ سَبَبَ الْفَسَادِ، وَالضِّيقُ وَالْفَقْرُ سَبَبَ مَنَعِهِ عَنِ الْفَسَادِ، أَوْ أَلَّا يُتَكَلَّمَ فِي تَفْضِيلِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ؛ إِذْ هُمَا مِخْتَلَتَانِ يَمْتَحِنُ [اللَّهُ] ^(١) بِهِمَا الْعِبَادَ؛ هَؤُلَاءِ بِالضَّبَرِ عَلَى الْفَقْرِ وَالضِّيقِ، وَهَؤُلَاءِ بِالشُّكْرِ عَلَى التَّعَمُّعِ وَالسَّعَةِ. وَالتَّكَلُّمُ فِي فَضْلِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ فَضْلٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَلْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَنَكَبْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ظَاهِرُ هَذَا لَيْسَ عَلَى الْكِتَابَةِ، وَلَكِنْ عَلَى الْكِتَابِ الْمَعْرُوفِ، وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمَطْلُوقَ، هُوَ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى؛ يَسْأَلُونَ سَادَاتِهِمْ تَعْلِيمَ الْكِتَابِ لَهُمْ. إِلَّا أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْ هَذَا هَذَا، وَلَكِنْ فَهَمُوا كِتَابَةَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ حِينَ صَرَفُوا الْآيَةَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَكَبْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ لَيْسَ عَلَى الْوَجُوبِ وَالْإِلْزَامِ، وَلَكِنْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِيهَا وَالْحَثِّ. دَلِيلُهُ تَرْكُ الْأُمَّةِ الْمَمَالِيكَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ مَوَارِيثَ لَوَرَثَتِهِمْ مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَلَوْ كَانَ عَلَى الْوَجُوبِ وَاللُّزُومِ لَمْ يَكُونُوا يَتْرَكُونَهُ لَازِماً وَاجِباً عَلَيْهِمْ. فَذَلِكَ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ خُرُجٌ مُخْرَجُ التَّرْغِيبِ [فِيهَا وَالْحَثِّ عَلَيْهَا] ^(٢) لَا عَلَى الْوَجُوبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَكَبْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيُّ كَاتِبِهِمْ إِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ فِي أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَأَنْوَاعِ الصَّلَاحِ، وَفَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لِذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أَيُّ وَفَاءٍ وَأَمَانَةٍ وَصِلَاحاً، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ. وَتَأْوِيلُ هَذَا: أَيُّ كَاتِبِهِمْ إِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى وَفَاءٍ مَا كَوْنُوا أَوْ آدَاءٍ ذَلِكَ.

وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿خَيْرًا﴾ أَيُّ حِيلَةٍ. وَقَالَ قَائِلُونَ: مَالاً، وَقَالَ قَائِلُونَ: ﴿خَيْرًا﴾ أَيُّ حِرْفَةٍ، وَرَوَوْا فِي ذَلِكَ حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُفسِّراً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ ^(٣) «إِنْ عَلِمْتُمْ [مِنْهُمْ حِرْفَةً] ^(٤) فَلَا تُرْسِلُوهُمْ كِلَاباً عَلَى النَّاسِ» [البيهقي في السنن الكبرى ٣١٧/١].

إِنْ ثَبَتَ هَذَا فَلَا ^(٥) يَخْتِاجُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ التَّفْسِيرِ. وَلَوْ كَانَ قَالَ: إِنْ عَلِمْتُمْ لَهُمْ ^(٦) خَيْراً جَازَ أَنْ يُقَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ مَالٌ ^(٧). وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وَالْمَالُ لَا يَكُونُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لَهُمْ. فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ الْخَيْرُ حِرْفَةً لِمَا ^(٨) رَوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ وَفَاءٌ وَأَمَانَةٌ.

ثُمَّ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْعَبِيدَ لَا يُمْلِكُونَ شَيْئاً، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يُمْلِكُونَ لَكَانَ يَرْغَبُهُمْ، وَيَحْتَفُهُمْ عَلَى الْعِتَاقِ دُونَ الْكِتَابَةِ. فَذَلِكَ تَرْغِيبُهُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ لَا يُمْلِكُونَ حَتَّى تُجْعَلَ الْكِتَابَةُ الْكَسْبَ لَهُمْ وَالْخِدْمَةُ دُونَ الْمَوْلَى.

وَفِي الْكِتَابَةِ أَيْضاً نَظَرٌ لِلْمَوَالِي لِأَنَّهُمْ إِنْ قَدَرُوا عَلَى وَفَاءٍ مَا قَبِلُوا أَوْ آدَاءِهِ. وَإِلَّا كَانَ لِلْمَوَالِي رَدُّهُمْ إِلَى مَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ كَانَ عَقْلاً لَمْ يَمْلِكُوا رَدُّهُمْ إِلَى مَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَتَّظِلُّ حَقُّهُمْ بِمَا شَاءَ، يَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَكَبْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ دَلَالَةٌ الْقَوْلِ بِعِلْمِ الْعَمَلِ عَلَى ظَاهِرِ الْأَسْبَابِ دُونَ تَحْقِيقِ الْعِلْمِ بِهِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عليها والحث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: فيهم خيراً أي حركة، في م: فيهم خيراً أي حرفة. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيهم. (٧) في الأصل وم: مالا. (٨) في الأصل وم: الجباء.

حين^(١) قال: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وإنما يُوصَلُ ما ذَكَرَ مِنَ الْخَيْرِ بِأَسْبَابٍ تَكُونُ لَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرُوا فِيهِ مِنَ الْحِرْفَةِ وَالْوَفَاءِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَأَمْثَالِهِ. وتلك أسبابٌ توصلُ إلى الْخَيْرِ عَلَى أَكْثَرِ الظَّنِّ وَالْعِلْمِ لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ.

وفيه دلالة الْعَمَلِ بِالْإِجْتِهَادِ عَلَى مَا يُرَى بِهِمْ مِنْ مَظَاهِيرِ الْأَسْبَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْهَمُ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِي خِطَابِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: هُوَ شَيْءٌ، حَثَّ النَّاسَ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ وَغَيْرُهُ. فَيُخْرِجُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ لِلْمُكَاتِبِينَ فِي الصَّدَقَاتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] وَهُمْ الْمُكَاتِبُونَ. أَمَرَ أَرْبَابَ الْأَمْوَالِ بِدَفْعِ الصَّدَقَاتِ إِلَى الْمُكَاتِبِينَ، وَجَعَلَهُمْ أَهْلًا لَهَا لِيَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى آدَاءِ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابَةِ. فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَذَلِكَ حَقٌّ لَهُمْ.

وَالثَّانِي: جَائِزٌ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِمَعُونَةِ هَؤُلَاءِ الْمُكَاتِبِينَ عَلَى آدَاءِ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابَةِ بِأَمْوَالِهِمْ سِوَى الصَّدَقَاتِ لِيَتَفَكَّرُوا رِقَابَهُمْ عَنْ ذُلِّ الرِّقِّ وَالْكَسْبِ.

وَقَالَ / ٣٦٨ - ب/ قائلون: إنما الخطابُ لِلْمَوَالِي خَاصَّةً لِمَا أَنَّ أَوَّلَ الْخُطَابِ بِالْكِتَابَةِ رَاجِعٌ إِلَى الْمَوَالِي. فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا. ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيهِ.

رُويَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام [أنه^(٢)] قَالَ: يَتْرُكُ الْمَوْلَى ^(٣) الثَّلَثَ مِنْ مُكَاتِبَتِهِ لَهُ، وَرُويَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رُبْعُ الْمُكَاتِبَةِ لَهُ.

وَرُويَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَاتِبٌ غُلَامًا لَهُ، فَحَظَّ عَنْهُ أَوَّلَ نُجُومِهِ، وَقَالَ لَهُ: حُطَّ عَنِّي آخِرُهُ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَعَلِّي، لَا أَصِلُ إِلَيْهِ، أَوْ كَلَامًا^(٤) نَحْوَ هَذَا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ﴾ الْآيَةَ.

وَرُويَ عَنْ غُلَامٍ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه [أنه^(٥)] قَالَ: كَاتِبَنِي عُثْمَانُ رضي الله عنه وَلَمْ يَحْطَ عَنِّي شَيْئًا. ذَلِكَ مَا رُويَ عَنْ عُثْمَانَ أَنَّهُ لَمْ يَحْطَ عَنْهُ شَيْئًا عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِيتَاءِ لِلْمُكَاتِبِينَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحَظَّ عَنْهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْإِخْتِيَارِ وَالْإِفْضَالِ، وَلَيْسَ عَلَى الْوُجُوبِ وَاللِّزْمِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى الْوُجُوبِ لَكَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا يَحْطَ عَنْهُ شَيْئًا.

وَمَنْ جَعَلَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى الْمَوْلَى أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ مَالِهِ، وَيُعْجَلَهُ لَهُ، كَانَ ذَلِكَ خَارِجًا عَمَّا رُويَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ خِلَافًا لَهُمْ، لِأَنَّهُ رُويَ عَنْ بَعْضِهِمْ الْحَظَّ عَنْهُمْ وَالْوَضْعُ دُونَ الْإِيتَاءِ مِنْ مَالِهِمْ^(٦).

وَرُويَ عَنْ بَعْضِهِمْ: الْإِسْتِيفَاءُ عَلَى الْكَمَالِ، لَا حَظَّ فِيهِ، وَلَا إِيْتَاءَ. ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَ مَنْ يَأْمُرُهُم بِالْإِيتَاءِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ دُونَ الْكِتَابَةِ خَارِجٌ مِنْ قَوْلِهِمْ جُمْلَةً. ثُمَّ يَبْطُلُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَنْ قَالَ لِعَبْدِهِ: إِذَا أَدَيْتَ إِلَى كَذَا فَانْتَ حُرٌّ، فَحَظَّ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ، فَادَى الْبَقِيَّةَ، لَمْ يُعْتَقَ حَتَّى يُؤَدِّيَ الْكُلَّ، فَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا أَوْهَمُ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ لَيْسَ عَلَى الْوُجُوبِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِخْتِيَارِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَا يُسَمَّى بَعْدَ الْأَدَاءِ مُكَاتِبًا، وَإِنَّمَا هُوَ حُرٌّ، وَإِنَّمَا ذَكَرُ الْإِيتَاءِ لِإِيْتَاءِهِمْ، وَهُمْ مُكَاتِبُونَ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أَوْهَمُ﴾ فَلَوْ كَانَ عَلَى مَا يَقُولُهُ قَوْمٌ لَكَانَ بَاطِلًا لِلْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا قَبَائِلَكُمْ عَلَى الْإِيتَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَعَصَاكُمْ﴾ بِشَرْطٍ مِنْهُ، لِأَنَّهُنَّ لَا يُكْرَهْنَ عَلَى الْبِغَاءِ، وَإِنْ لَمْ يُرْذَنْ التَّحْصُنُ. ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِشَرْطٍ فِيهِ، وَلَا يَتِمَّكُنُ الْإِكْرَاهُ فِيهِ إِذَا كُنَّ أَطْعَنَ فِيهِ، لَكِنَّهُ خَرَجَ ذَلِكَ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ:

كَانُوا يُكْرِهُونَهُنَّ عَلَى الزَّوْنِ ابْتِغَاءَ الْمَالِ، وَهُنَّ كُنَّ يُرْذَنَ التَّحْصُنُ، فَخَرَجَ الْخُطَابُ وَالنَّهْيُ عَلَى فِعْلِهِمْ دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ شَرْطًا فِيهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِكْرَاهًا إِذَا كُنَّ مُطَاعِرَاتٍ فِي ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَوَالِي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَلَامٌ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَالُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

وفيه دلالة بطلان الْمُتَعَةِ وقسأدها لأنهم كانوا يُكْرِهُونَ إِمَاءَهُمْ عَلَى أَنْ يُؤَاجِرُونَ أَنْفُسَهُنَّ لِلزَّنى ابْتِغَاءَ الْأَجْرِ، وليسَتِ الْمُتَعَةُ إِلَّا كَذَلِكَ.

وقال أهل التأويل: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ فِي الْمَنَافِقِينَ: عبد الله بن أبيّ وفلان وفلان، كانوا يُكْرِهُونَ فَتَيَاتَهُمْ عَلَى الزَّنى ابْتِغَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا. فَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرُوا فِيهِ دَلَالَةً أَنَّ الزَّنى حَرَامٌ فِي الْأَدْيَانِ كُلِّهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: يرجع إلى الإِمَاءِ؛ يقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهنَّ. وكذلك رُوِيَ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ أَنَّهُ قُرِئَ^(١): ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ﴾ لهنَّ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والثاني: يرجع إلى الساداتِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهنَّ إِذَا تَابُوا، وَأَصْلَحُوا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ بِخَفْضِ الْبَاءِ وَنَضْبِهَا^(٢). ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ آيَاتِ الْقُرْآنِ جَمِيعاً، وقوله: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بِالْخَفْضِ أَيِ تَبَيَّنَ لِلخَلْقِ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ وَمَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَا لِيَنْغَضِيَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمُبَيِّنَاتٍ بِالنَّضْبِ أَيِ مُبَيِّنَاتٍ أَنَّهُا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وجائز أن يكون المراد بالآياتِ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ فَإِنْ كَانَ هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بِالْخَفْضِ أَنَّهُا^(٣) تَبَيَّنَ وَخَدَائِثُ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَّمَ رِسَالَةَ رَسُولِهِ، وقوله^(٤): مُبَيِّنَاتٍ بِالنَّضْبِ أَنَّهُا [مَوْضُوحَاتُهَا] حُجَجٌ وَبَرَاهِينُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلتَّقِيينَ﴾ أَيِ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيْضاً مَثَلًا ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ مَا خَلَّ بِهِمْ، وَنَزَلَ بِالْمُكْذِبِينَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ مَا يَتَعَطَّى الْمُتَّقُونَ، أَوْ جَعَلَ لَكُمْ فِي مَا أَنْزَلَ مِنَ الْآيَاتِ عَلَيْكُمْ أَمْثالاً ﴿وَمِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ لِيَتَعَطَّوْا بِهَا^(٥)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّهُ هَادِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. ثُمَّ انْقَطَعَ الْكَلَامُ، فَاتَّخَذَ فِي نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا ضَرَبَ لَهُ مِنَ الْأَمْثَالِ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يَقُولُ: نُورُ مُحَمَّدٍ إِذْ كَانَ فِي صُلْبِ أَبِيهِ ﴿كَاشِكُورٍ﴾ أَيِ كَوَّةٍ بِلُغَةِ الْحَبَشِ غَيْرِ نَافِذَةٍ ﴿فِيهَا يَصْبُحُ﴾ أَيِ سِرَاجٍ ﴿أَلْيَصْبُحُ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: ذَلِكَ السِّرَاجُ الْمُضِيءُ، ضَوْؤُهُ ﴿فِي زُجَاجَةٍ أَرْجَاجَةٍ﴾ نَعْتُهَا الصَّافِيَةُ التَّامَّةُ الصَّفَاءِ. وَالْمِشْكَاءُ صُلْبُ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ. وَالزُّجَاجَةُ وَصْفَاؤُهَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَظُهُرُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْمَعَاصِي. وَالْيَصْبُاحُ نُورُهُ وَصَفَاؤُهُ قَلْبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحِكْمَةِ ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أَيِ مُحَمَّدٍ ﷺ ذَكَرَهُ مَعَ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْفَضِيلَةِ عَلَى تِلْكَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ﷺ كَفَضْلِ الْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ أَيِ الْمُضِيِّ، وَهُوَ الزُّهْرَةُ، عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ.

وقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: اسْتَنَارَ نُورُ مُحَمَّدٍ مِنْ نُورِ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى سُنَّتِهِ وَمِنْهَا جَوْ. فَمَثَلُ إِبْرَاهِيمَ مَثَلُ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَأَصْلُ مُحَمَّدٍ مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [أَرَادَ بِالزَّيْتُونَةِ]^(٦) الْمَحَاسِنَ وَطَاعَةَ إِبْرَاهِيمَ لِرَبِّهِ، فَتَفَعَّلَ اللَّهُ بِحَسَنِ طَاعَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَوَاطِنِ كَمَا تَفَعَّلَ بِالزَّيْتُونَةِ^(٧) أَهْلِهَا فِي الدُّنْيَا؛ فِيهَا فَاكُهُ وَطَعَامُ، وَهِيَ إِدَامٌ، وَهِيَ^(٨) الصَّبَاغُ وَالذَّهْنُ وَالذَّبَاغَةُ.

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يَقُولُ: إِبْرَاهِيمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا، وَعَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ نَضْرَانِيًا لِقَوْلِ النَّصَارَى: هُوَ نَصْرَانِيٌّ؛ يُصَلِّي إِلَى قِبْلَةِ النَّصَارَى مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، وَلَا يَهُودِيًّا لِقَوْلِ الْيَهُودِ: إِنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِنَا، يُصَلِّي قِبَلَ الْمَغْرِبِ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ^(١٠).

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ٢٥١. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ٢٥١. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: و.

(٥) في الأصل وم: واضحات مبيّنات أي. (٦) في الأصل وم: به. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: والزيتونة. (٨) الباء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: يعني. (١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ إِنَّا لَا نَزِمَنَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَقَدْ جَاءَكَ بِالنَّبِيِّينَ رَسُولٌ مِنْهُمْ قَدْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ وَالْأَمَانَةِ كَمَا جَاءَكَ قَدْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ وَالْأَمَانَةِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

يقول الله تعالى: لم يكن كما قال هؤلاء ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ خَفِيفًا مُسَلِّمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] مُصَلِّيًا إِلَى الْكَعْبَةِ، وَهِيَ قِبْلَتُهُ، وَإِلَيْهَا حَجٌّ.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ رَبُّنَا يُغِيثُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارًا﴾ يقول: والله أعلم: لو أن إبراهيم لم يكن نبيا [لَمَا أَصَابَ] ^(١) بِحُسْنِ طَاعَةِ اللَّهِ الْفَضْلَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾ لَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالْكِتَابِ، أَصْلُ نُورِهِ مِنْ قِبَلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُ عَلَى دِينِهِ وَسُنَّتِهِ وَكِتَابِهِ وَمِنْهَا جِو.

ثم قوله ^(٢): ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ الذي جاء به محمد ﷺ وهو النور، وهو القرآن [يَهْدِي بِهِ] ^(٣) ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ٣٦٩ - ١ / وَمَنْ سَبَقَ لَهُ فِي عِلْمِهِ السَّعَادَةُ، وَيُضِلُّ ^(٤) عَنْهُ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ وَمَنْ سَبَقَ لَهُ فِي عِلْمِهِ الشَّقَاءُ.

ثم قوله ^(٥): ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: وَيَصِفُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، وَيُؤَحِّدُوهُ، وَيَعْرِفُوا رُبُوبِيَّتَهُ ^(٦) مِنْ صُنْعِهِ، وَيُصَدِّقُوا بِإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُمَا رَسُولَا الرَّبِّ وَهُوَ تَأْوِيلُ مُقَاتِلِ.

وقال أهل الكلام: قوله: ﴿اللَّهُ ثُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي أَنَارَ اللَّهُ لِأَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ الذي به أَنَارَ مَا ذَكَرَ مَثَلُ الْمَشْكَاةِ الَّتِي ذَكَرَ إِلَى آخِرِهِ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿اللَّهُ ثُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي بِاللَّهِ نُورُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

الْأَتَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ كَذَا، وَلَمْ يَقُلْ مِثْلُهُ؟ وَلَوْ كَانَ النُّورُ هُوَ اللَّهُ، عَلَى مَا قَالَهُ الْمَشْبِهُةُ ^(٧)، وَفَهْمُوهُ، لَقَالَ: اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِثْلُهُ كَذَا، وَلَمْ يَقُلْ: مِثْلُ نُورِهِ قَدْ لَقِيَ قَوْلَهُ: ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ كَذَا [أَنَّهُ] ^(٨) لَمْ يَرِدْ بِالنُّورِ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ بِهِ نُورُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

الْأَتَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِالنُّورِ مَا فَهَمُوا ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؟

دَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا [فَهَمَهُ الْمَشْبِهُةُ] ^(٩) أَنَّهُ نُورُ كَسَائِرِ الْأَنْوَارِ الَّتِي [عَايَنُوهَا، وَشَاهَدُوهَا] ^(١٠).

على هذا يُخْرِجُ تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: قوله ^(١١) تعالى: ﴿اللَّهُ ثُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اللَّهُ [هادي] ^(١٢) أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ كَيْشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي رُجَامَةِ الرُّجَامَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ أَي مِثْلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مِثْلُ مِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، لِأَنَّ الْمِشْكَاةَ هِيَ الْكُوَّةُ الَّتِي لَا مَنَقَذَ لَهَا، تَدْخُلُ فِيهَا الْأَنْوَارُ؛ تَكُونُ مُظْلِمَةً، فَإِذَا جُعِلَ فِيهَا الْمِصْبَاحُ، أَضَاءَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَأَنَارَهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهَا نَاحِيَةٌ إِلَّا وَقَدْ أَصَابَهَا الضِّيَاءُ وَالنُّورُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْقَلْبُ، وَهُوَ مُظْلِمٌ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُ مَنَقَذٌ، يَدْخُلُ فِيهِ النُّورُ مِنَ الْخَارِجِ، فَإِذَا آمَنَ أَنَارَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِإِيمَانِهِ حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ النُّورُ وَآثَرُهُ فِي جَمِيعِ نَوَاحِيهِ وَجَوَارِحِهِ. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿أَتَمَنَّ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ ﴿شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ إِنَّمَا هُوَ مِثْلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ فِي حَرْفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَرَأَ: مِثْلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ كَيْشْكَاةٍ، وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: مِثْلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿مَثَلُ ثُورٍ﴾ قَالَ: مِثْلُ الْقُرْآنِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿كَيْشْكُورٍ﴾ كُوَّةٌ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَصَاب. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَفَضَّل. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: نُورِ نَبِيِّهِ. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: فَهَمُوا بِهِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: عَايَنُوهُ وَشَاهَدُوهُ وَهَمَ الْمَشْبِهُةُ. (١١) فِي الْأَصْلِ م: حَيْثُ قَالَ. (١٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

[وَيُخَمِّلُ^(١)] أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ بِهِ تَنَجَّلِي الظُّلُمَاتِ، وَتَنَكْشِفُ الْحُجُبَ وَالسَّوَاتِرَ؛ إِذِ النُّورُ إِنَّمَا سُمِّيَ نُورًا لِأَنَّهُ يَهْدِي بِهٖ تَنَجَّلِي الْمَظَالِمِ، وَتَنَكْشِفُ السَّوَاتِرَ وَالْحُجُبَ، لَا لِأَنَّهُ^(٢) نُورٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ سُمِّيَ الْقُرْآنَ نُورًا، وَالرَّسُولَ نُورًا، لِأَنَّهُمَا^(٣) تَنَجَّلِي الشُّبُهَاتِ وَالظُّلُمَاتِ، وَبِهِمَا^(٤) تَرْتَفِعُ السَّوَاتِرُ وَالْحُجُبُ، وَإِنْ كَانَا فِي نَفْسَيْهِمَا^(٥) لَيْسَا بِنُورٍ سَمَاهُمَا^(٦) نُورًا لِأَنَّهُمَا ذَكَرْنَا مِنْ [أَنْجِلَاءِ الشُّبُهَاتِ]^(٧) بِهِمَا وَارْتِفَاعِ السَّوَاتِرِ. فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ نُورًا [كُلُّ مَا]^(٨) بِهِ يَكُونُ أَنْجِلَاءُ^(٩) الظُّلُمَاتِ وَالشُّبُهَاتِ وَأَنْكِشَافِ السَّوَاتِرِ وَارْتِفَاعِ الْحُجُبِ، لَا لِأَنَّهُ^(١٠) نُورٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَثَلُ نُورِ مُحَمَّدٍ عَلَى مَا ذَكَرَ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَثَلُ نُورِ الْقُرْآنِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ كَوْنُهُ﴾ قَالَ [بَعْضُهُمْ]:^(١١) الْكَوْنُ الَّتِي لَا مَنَعَدَ لَهَا لِلنُّورِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقَنْدِيلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَدَائِدُ الَّتِي يُعَلَّقُ بِهَا الْقَنْدِيلُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ شَجَرَةٌ مُضْحَرَةٌ؛ تَطْلُعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَتَغْرُبُ عَنْهَا إِذَا غَرَبَتْ، وَزَيْتُهَا^(١٢) أَجْوَدُ الزَّيْتِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ شَجَرَةٌ فِي كَنْ، لَا تَطْلُعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَلَا تَغْرُبُ عَنْهَا^(١٣) إِذَا غَرَبَتْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَتْ شَرْقِيَّةً، لَا غَرْبِيَّةً، لَا شَرْقَ لَهَا، وَلَا غَرْبَ لَهَا، وَلَكِنَّا شَرْقِيَّةٌ غَرْبِيَّةٌ؛ فَكَيْفَ مَا كَانَ فَإِنَّمَا ذَكَرَ الزَّيْتُ لِيَصْفَائِهِ وَخُلُوصِهِ، فَيَجِبُ أَنْ يُسَالَ أَهْلُهُ، فَيَقَالُ: أَيُّ الزَّيْتِ أَجْوَدُ وَأَضْفَى؟ الَّذِي تُصَيِّهُ الشَّمْسُ، أَمْ^(١٤) الَّذِي لَا تُصَيِّهُ، أَمْ^(١٥) الَّذِي تُصَيِّهُ فِي وَقْتٍ، وَلَا تُصَيِّهُ فِي وَقْتٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَادِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [يُضِيءُ هَذَا قَلْبَ]^(١٦) الْمُؤْمِنِ كَمَا يَكَادُ الزَّيْتُ الصَّافِي يُضِيءُ قَبْلَ أَنْ تَمْسَهُ النَّارُ [فَإِذَا مَسَّهُ النَّارُ]^(١٧) أَزْدَادَ ضَوْءَهُ عَلَى ضَوْءِهِ. كَذَلِكَ يَكُونُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ يَفْعَلُ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الْعِلْمُ [فَإِذَا جَاءَهُ الْعِلْمُ]^(١٨) أَزْدَادَ هُدًى عَلَى هُدًى وَنُورًا عَلَى نُورٍ.

وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ [أَنَّهُ]^(١٩) قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يَقُولُ: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ، وَكَذَلِكَ يَقْرَؤُهَا: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ؛ قَالَ: فَهُوَ عَبْدٌ، قَدْ جَعَلَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ فِي صَدْرِهِ.

قَالَ: ﴿كَيْفَ كَوْنُهُ﴾ قَالَ: الْمَشْكَاةُ صَدْرُهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قَالَ: الْمِصْبَاحُ الْقُرْآنُ وَالْإِيمَانُ الَّذِي جَعَلَ فِي صَدْرِهِ. قَالَ: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي رُكْبَتَيْهِ﴾ فَالزَّجَاجَةُ قَلْبُهُ.

قَالَ: ﴿الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ يَقُولُ: كَوْكَبٌ مُضِيءٌ ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ قَالَ: الشَّجَرَةُ الْمُبَارَكَةُ: [أَصْلُ الْمُبَارَكِ: الْإِخْلَاصُ]^(٢٠) اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا يُشْرَكَ بِهِ.

قَالَ: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قَالَ: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ، أُلْتَفَ بِهَا الشَّجَرُ، فَهِيَ خَضِرَاءُ نَاعِمَةٌ، لَا تُصَيِّهُهَا الشَّمْسُ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ؛ لَا إِذَا طَلَعَتْ، وَلَا إِذَا غَرَبَتْ. وَكَذَلِكَ هَذَا الْمُؤْمِنُ، قَدْ أُجِيرَ مِنْ أَنْ يَصِلَهُ شَيْءٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَقَدْ ابْتَلِيَ بِهَا، فَتَبَّتْهُ اللَّهُ فِيهَا؛ فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعِ خِلَالٍ: إِنْ ابْتَلِيَ صَبَرَ، وَإِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِنْ قَالَ صَدَقَ، وَإِنْ حَكَمَ عَدَلَ، فَهُوَ فِي سَائِرِ النَّاسِ كَالرَّجُلِ الْحَيِّ، يَمْشِي فِي قُبُورِ الْأَمْوَاتِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَبِهِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْفُسُهُمَا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمَى. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: تَجَلَّى الْأَشْيَاءَ. (٨) الْأَصْلِ وَم: لَهَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: تَجَلَّى. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: كَمَا هَذَا فِي (١٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢٠) فِي الْأَصْلِ: أَصْلُهُ فَالْمُبَارَكُ وَالْإِخْلَاصُ، فِي م: أَصْلُهُ فَالْمُبَارَكُ الْإِخْلَاصُ.

قَالَ: ﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ﴾ قَالَ: فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةِ مِنَ الْأَنْوَارِ^(١): كَلَامُهُ نُورٌ، وَعَمَلُهُ^(٢) نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ.

قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلَ الْكَافِرِ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَتْهُمْ كَرَامٌ بِقِيَعَةٍ﴾ [الآية [النور: ٣٩] [يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يَحْسَبُ]^(٣) أَنَّهُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، فَلَا يَجِدُهُ، فَيَدْخِلُهُ اللَّهُ إِلَى النَّارِ.

وَقَالَ: [وَضَرَبَ مَثَلًا آخَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى]^(٤) فَقَالَ: ﴿أَوْ كَطَلُمَنْتَ فِي بَحْرٍ لَيْسَ بِقَشَلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَحَابُّ طُلُمَنْتَ بِقَشَلُهُ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي ظُلُمَاتٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ بَنُوهِ يَهْتَدِي مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿كِشْكُورٌ﴾ هِيَ الْكُورَةُ غَيْرُ النَّافِذَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أَيُّ سِرَاجٌ ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مُضِيءٌ، أَيُّ مَنَسُوبٌ إِلَى الدَّرِّ، وَهُوَ قَوْلُ الْقَتِيبيِّ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿كِشْكُورٌ﴾ الْكُورَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْحَانِطِ، وَمَشَاكِ جَمَاعَةٍ، وَكُورَى جَمَاعَةٌ، وَ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ شَدِيدُ الضَّوِّ، وَدُرِّيٌّ هُوَ أَيْضاً مِنَ الضَّوِّ مَا خُوذَ، هُمَا جَمِيعاً مِنَ الضَّوِّ^(٥)، وَكَوَاكِبُ دَرَارٍ^(٦) مُضِيئَةٌ.

وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ [فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أَنَّهُ]^(٧) قَالَ: ضَرَبَ مَثَلَ مُحَمَّدٍ ﴿كِشْكُورٌ فِيهَا مِصْبَاحٌ أَلْيَصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ أَلْرُجَاةُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [٨] مَثَلٌ لِسَانِهِ وَصَدْرِهِ وَقَلْبِهِ ﴿يَكَادُ رَبَّنَا يُضِيءُ﴾ قَالَ: يَكَادُ مُحَمَّدٌ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ [أَنَّهُ نَبِيٌّ] كَمَا يَكَادُ ذَلِكَ الزَّيْتُ بِضِيءٍ ﴿وَلَوْ لَمْ تَسْسَسْ نَارًا﴾^(٩).

وَعَنِ الصَّحَّاحِ بْنِ مُزَاجِمٍ [فِي قَوْلِهِ ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أَنَّهُ]^(١٠) قَالَ: خُلِقَتِ الْكَوَاكِبُ مِنْ نَارٍ، وَيُقَالُ لَهَا: دَرَارٍ، فَمِنْ ثَمَّةٍ قَالَ ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

وَقَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُمْ فِي الْمَشْكَاةِ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْكُورَةُ الَّتِي لَا مَنَفَذَ لَهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْقَتِيلَةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْقَتِيلَةُ الَّتِي فِي جَوْفِ الْقَتِيدِ نَفْسِهِ وَقَالَ / ٣٦٩ - ب / بَعْضُهُمْ: هِيَ الْحِدَائِدُ الَّتِي يُعَلَّقُ بِهَا الْقَتِيدُ، وَأَمَّا الرُّجَاةُ فَهِيَ الْقَتِيدُ.

ثُمَّ إِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أَيُّ نَوْرِ الْمُؤْمِنِ فَلَيْسَ ذَلِكَ وَصَفَ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَنَعْتُهُ، وَلَكِنْ وَصَفَ الْمُؤْمِنَ الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ جَمِيعُ شَرَايِطِ الْإِيمَانِ وَجَمِيعُ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَالْآدَابِ لِأَنَّهُ وَصَفَهُ بِطَهَارَةِ نَفْسِهِ وَجَسَدِهِ وَقَلْبِهِ وَجَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَفْعَالِهِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿كِشْكُورٌ﴾ وَهِيَ قَلْبُهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وَهُوَ صَدْرُهُ الَّذِي فِيهِ^(١١) قَلْبُهُ ﴿أَلْيَصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ﴾ وَهُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي فِي صَدْرِهِ.

ثُمَّ نَعَتِ الرُّجَاةَ، فَقَالَ: ﴿أَلْرُجَاةُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أَيُّ مُضِيءٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الدَّرِّ قَوَّصَتْ الْكُلَّ بِالضِّيَاءِ وَالنُّورِ وَظَهَارَةُ الدَّخِيلِ مِنْهُ وَالْخَارِجِ وَتَقَاوَرَتْ.

فَهُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ جَمِيعُ الشَّرَايِطِ وَالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَأَمَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ فَلَا يَخْتَمِلُ، وَهَذَا أَشْبَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ نَعْتَ الْكَافِرِ مِنْ بَعْدِ [هَذَا]^(١٢) وَخُبْنَهُ حِينَ^(١٣) قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَتْهُمْ كَرَامٌ بِقِيَعَةٍ﴾؟ [النور: ٣٩].

وَإِنْ كَانَ [قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾]^(١٤) وَصَفَ مُحَمَّدٍ فِيهِ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ، وَنَعْتُهُ.

وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنَ فَهُوَ كَذَلِكَ أَيْضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ رَبَّنَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَسْسَسْ نَارًا﴾ الَّذِي^(١٥) ذَكَرْنَا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: النُّور. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعِلْمُهُ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ: فِي آيَةٍ أُخْرَى مَثَلًا، فِي م: فِي آيَةٍ أُخْرَى لَهُ مَثَلًا. (٥) فِي الْأَصْلِ: الدَّر. (٦) فِي الْأَصْلِ: مَرَارِي. (٧) فِي الْأَصْلِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾. (٨) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٩) مِنَ الدَّرِّ الْمَشْتُورِ ٦ / ١٩٦. سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (١٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي.

[وقوله تعالى] ^(١): ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يَخْتَمِلُ ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ لنور محمد ﷺ وَيَخْتَمِلُ الْقُرْآنَ، وَيَخْتَمِلُ الْإِيمَانَ وَالْهُدَى.

وقال بعضهم: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: فالزيت ^(٢) نور، والمصباح [نور] ^(٣) والقنديل نور، وقال [بعضهم] ^(٤): المؤمن نور وعمله نور، وكلامه نور.

ويختَمِلُ قوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي ينوره أضواء السموات والأرض على ما ذكرنا: مثلُ نوره يكون ^(٥) في قلب المؤمن.

وهو في حرف ابن مسعود ﷺ في قلب المؤمن: وهذا مثلُ ضرته للإيمان والقرآن والقلب حين يدخله الإيمان والقرآن ﴿كَيْشْكُورٌ﴾ يعني الكوة ﴿فِيهَا يَصْبَحُ﴾ يعني الإيمان والقرآن ﴿الْيَصْبَاحُ فِي لُجَائِمَةٍ﴾ يعني القلب، والمشكاة الصدر؛ كما دخل هذا المصباح في الزجاجية، فأضاءه، فكذلك أضاء القلب.

ثم خرج من الزجاجية، فأضاء ^(٦) المشكاة. فكذلك أضاء الصدر. ثم نزل الضوء من الكوة، فأضاء البيت. فكذلك نزل النور من الصدر، فأضاء الجوف كله، فلم يدخله حرام، والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يَخْتَمِلُ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ لَهُمْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ضَرْبُ أفعالهم وأقوالهم مثلاً ليعرفوا مقاديرها في الحسن والجمال، ليعلموا قدرها من الجزاء والثواب.

[والثاني] ^(٧) ضَرْبُ الْأَمْثَالِ لَهُمْ لِلنَّفْسِ الْمُكَرَّمِينَ الْمُعْظَمِينَ الْمُسْتَوْجِبِينَ كُلِّ خَيْرٍ، ليرغبوا في مثل ذلك، فيستوجبوا ما استوجب أولئك.

وكان ضَرْبُ مَثَلِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَمُحَمَّدٍ ^(٨) وما كان على اختلاف ما قالوا بالأنوار التي ضربها، والله أعلم، إما أنه قد أقام الحجاج والبراهين على الإيمان والقرآن ومحمد حتى صاروا كالأنوار التي شبههم بها من الحسن والجمال والضياء والبهاء حتى يعرف حسن هذه الأنوار وبهاءها كل واحد.

فعلى ذلك المضروب بها المثل: صار في الحسن والبهاء بالحجاج والبراهين كالأنوار التي لا يخفى حسنها وبهائها على أحد، ولا يتكرها إلا معانيد ومكابرة.

وكان مثل الكفر والعناد من القبح والفساد والبطلان كالظلمات التي ذكر ﴿بِقَضَا تَوْفَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] وكالشراب والزبد الذي ذكر حين ^(٩) قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَامٍ يَبْقَعُهُ﴾ [النور: ٣٩] وكالظلمات التي ذكر حين ^(١٠) قال: ﴿أَزْ كَلْتُمَنِي فِي بَحْرِ لُجِيٍّ﴾ وقال ^(١١): ﴿وَمَنْ لَّزَّ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقال ابن عباس ﷺ [في قوله] ^(١٢) ﴿كَلَّا تَكُونُ دَرِيًّا﴾ الأنجم ^(١٣) الخمسة كلهن دري الزهرة وعطارد والمشتري والمريخ ^(١٤) وزحل.

قال قتادة: الدري الضخم المنير. قال الكسائي: من حمز دري [فقد أراد حسنه] ^(١٥) وظهوره وارتفاعه؛ يقول: درأ النجم، وهو [داري، وهو] ^(١٦) فاش ظاهر في كلام العرب.

ومن رفع الدال، ولم يهمز، فهو ينسب إلى الدر، ومنهم من يرفع الدال، ويهمز، وأظنها لغة ^(١٧).

وقال أبو عمرو بن العلاء: الدري النجم الذي تراه يتلألأ، كأنه يجيء، وينهب.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول. (٦) في الأصل وم: فأضاءه. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، في الأصل: أو محمداً. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: الآية. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٤) في الأصل وم: وبهرام، وهي بالفارسية. (١٥) في الأصل: فهو حسن، في م: فهو حسنه. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/٢٥٣.

وقد رُوِيَ في الخبر عن رسول الله ﷺ [أنه] ^(١) قال: «إن الرجل من أهل عليين ليشرف على أهل الجنة، فتضيء الجنة بوجهه، كأنه كوكب دري، وإن أبا بكر وعمر عليهما السلام ليمتحنهما، وأنعماء [أبو داود: ٣٩٨٧].

وأيضاً رُوِيَ دري بالرفع.

وفي خبر آخر عنه: «إن أول زمرة تدخل الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أضواء كوكب دري في السماء. لكل امرئ منهم زوجان اثنتان آدميتان، يرى مخرج سوقيهما من وراء اللحم. والذي نفس محمد بيده ما فيها عيب ^(٢)» [بنحوه مسلم: ٢٨٣٤].

وقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبْرَكَةٍ﴾ اختلف في قراءته ^(٣): قرأ بعضهم: يُوقَدُ بالياء ورفعها ونصب القاف؛ يقول: المصباح يُوقَدُ. ومن قرأ: توقد بالتاء ورفعها يعني الزجاجة التي توقد. وأهل مكة [قروا] ^(٤): توقد بنصب وتشديد القاف؛ يغنون ^(٥) المصباح توقد، فلذلك انتصب. ومن قرأ: يُوقَدُ؛ يعني الكوكب ^(٦) أو المصباح.

وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قد ذكرنا بعض أقوالهم في ما تقدم. لكننا نزيد فيها شيئاً: قال قائل: هي شجرة ضاحية من حين تطلع الشمس إلى أن تغرب، ليس لها ظل شرقي ولا غربي، وزيتها أضفى الزيت وأغذبه وأطيبه. وقال قائل: ليست بشرقية، يجوزها المشرق دون المغرب، وليست ^(٧) بغربية، يجوزها المغرب دون المشرق. ولكنها في صحراء أو في رأس جبل، تُصيها الشمس النهار كله، وهو مثل الأول.

وقال الكسائي: ليست بشرقية وخدها، ولا بغربية وخدها، ولكنها شرقية وغربية كما تقول: لا آتيك، ولا آتي فلاناً؛ له معنيان؛ إن شئت كان معناه: لا تأتي واحداً منهما، وإن شئت كان معناه: أنك لا تأتيهما معاً. ومثله: والله لا أكل، ولا يأكل زيد، له ^(٨) معنيان.

وكذلك يقال: رجل، لا يرجو الجنة، ولا يخاف النار، ويحب الفتن؛ إنه رجل صالح. أما الفتن فالمال والولد: قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَوكُمُ وَأَزَلَّكُمُ فَسَنَّةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨ والتغابن: ١٥] وهو يرجو الجنة، ويخاف النار على ما فسرنا.

وقال بعضهم: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ﴾ يقول: لا تضحى للشمس من أول النهار إلى آخره ﴿وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ تُصيها الشمس والظل. والعرب تقول: لا خير في شجرة (في مضواة ^(٩))، ولا خير في شجرة ^(١٠) في مضحاة.

وقائل يقول: لا تطلع الشمس، ولا تغرب، وقائل يقول: هي شجرة بالشام، ليست [بالمشرق، وليست] ^(١١) بالمغرب. والحسن يقول: والله لو كانت هذه الزيتونة في الأرض لكانت شرقية أو غربية. والله ما هي في الأرض. ولكن هذا مثل، ضربته الله تعالى لنوره، وهو هذا القرآن.

وأما قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [فقد] ^(١٢) قال: بعضهم: إيمان المؤمن نور [وعلمه نور] ^(١٣)، فهو نور على نور. وقال ^(١٤) بعضهم: نور النار على نور الزيت، فذلك نور على نور، وهو بخودته؛ يعني الزيت. وقال بعضهم: نور النار ونور الزيت حين اجتماع أضواء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه. كذلك نور القرآن ونور الإيمان إذا اجتماعا لا يكون أحدهما مضيئاً إلا بصاحبه. وقال بعضهم: / ٣٧٠ - / ما ذكرنا من نور الإيمان والعمل.

ثم معنى تشبيه ما ذكر بالزيت لأن الزيت أضفى شيء وأظهر وأطيب شيء وأضوأ للسراج، كل المنافع من الإدام والدواء وغيره، والله أعلم.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غرب. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٢٥٥/٤. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعني. (٦) من م، في الأصل: الكواكب. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) في م: مضياء. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) الواو ساقطة من الأصل.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِّنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أَيُّ تَعْظُمَ، وَيُرْفَعُ قَدْرُهَا، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ، عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْبُيُوتِ الْمَسْكُونَةِ، يُذَكِّرُ اسْمُ اللَّهِ فِيهَا وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّنْزِيلُ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَنْجَاسِ وَمِنْ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أَيُّ تُبْنَى، وَتُتَّخَذَ.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا فَفِيهِ الْأَمْرُ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَاتِّخَاذِهَا. وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَفِيهِ الْأَمْرُ بِتَعْظِيمِ الْمَسَاجِدِ وَرَفْعِ قَدْرِهَا بِمَا ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّسْبِيحِ فِيهَا.

ثُمَّ الْإِذْنُ فِي هَذَا الْأَمْرِ لَوْجَهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لِحَقِّ إِقَامَةِ الْجَمَاعَاتِ فِيهَا فِي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْمَعْرُوفَةِ؛ إِذِ الْأَرْضُ كُلُّهَا فِي الْأَصْلِ جُعِلَتْ مَسْجِدًا حِينَ^(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَظَهْرًا» [البخاري: ٣٣٥] فَهِيَ فِي حَقِّ جَوَازِ الصَّلَاةِ مَسْجِدٌ. فَيُخْرَجُ الْأَمْرُ مِنْ مُخْرَجِ الْأَمْرِ بِنَائِهَا لِإِقَامَةِ الْجَمَاعَاتِ.

وَالثَّانِي: أَمَرَ بِهَا خُصُوصًا لِلْمَسَاجِدِ؛ إِذْ غَيْرُهَا مِنَ الْبُيُوتِ الْمَسْكُونَةِ إِنَّمَا اتُّخِذَتْ وَبُنِيَتْ بِالْإِذْنِ وَالِإِبَاحَةِ، فَخُصَّ الْمَسَاجِدُ بِالْإِذْنِ بِنَائِهَا خُصُوصًا لَهَا؛ إِذْ لَوْ كَانَ إِذْنًا عَلَى ظَاهِرٍ مَا ذَكَرَ لَكَانَتْ الْمَسَاجِدُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْبُيُوتِ سَوَاءً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَكَّرُ فِيهَا اسْمَهُ﴾ فَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أَيُّ تَعْظُمَ، وَيُرْفَعُ قَدْرُهَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿وَيَذَكَّرُ فِيهَا اسْمَهُ يَسْبِيحُ لَهُ فِيهَا﴾ تَفْسِيرًا لِلذِّكْرِ التَّعْظِيمِ [وَرَفَعَ الْقَدْرَ]^(٢) الَّذِي أَمَرَ، أَيُّ أَنْ تَعْظُمَ، وَيُرْفَعُ قَدْرُهَا، بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ فِيهَا وَمَا ذَكَرَ مِنَ التَّسْبِيحِ.

وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هُوَ الْأَمْرُ بِالْبِنَاءِ يَكُنْ^(٣) قَوْلُهُ: ﴿وَيَذَكَّرُ فِيهَا اسْمَهُ يَسْبِيحُ لَهُ فِيهَا﴾ كَذَا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ أَيُّ أَمَرَ أَنْ تُبْنَى بُيُوتُ أَيِّ مَسَاجِدَ، وَأَمَرَ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَيُسَبِّحَ لَهُ فِي الْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَةِ^(٤) قَوْلِهِ ﴿يَسْبِيحُ لَهُ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: يُسَبِّحُ لَهُ بِتَضْبِئِ الْبَاءِ^(٥) وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: يُسَبِّحُ بِخَفْضِ الْبَاءِ. فَمَنْ قَرَأَهَا بِالتَّضْبِئِ صَيَّرَهُ عَلَى الْأَوَّلِ: يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ. ثُمَّ ابْتَدَأَ، فَقَالَ: ﴿رَبِّالْأَلَمِينَ﴾ بِحَذَرٍ.

وَمَنْ قَرَأَهَا بِالْخَفْضِ؛ أَعْنِي خَفَضَ الْبَاءَ صَيَّرَهُ مَقْطُوعًا مِنَ الْأَوَّلِ مُبْتَدَأً بِهِ، أَيُّ يُسَبِّحُ لَهُ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ. ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَيَذَكَّرُ فِيهَا اسْمَهُ﴾ جَائِزٌ [أَنْ يُرَادَ]^(٦) بِذِكْرِ اسْمِ الصَّلَوَاتِ وَكَذَلِكَ [الْمُرَادُ]^(٧) بِالتَّسْبِيحِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِذِكْرِ اسْمِهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْأَذْكَارِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيُرَادُ بِالتَّسْبِيحِ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ الصَّلَوَاتُ الْمَفْرُوضَةُ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْغَدُوُّ صَلَاةُ الْغَدَاةِ، وَالْأَصَالُ: صَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَيَجْعَلُ الْأَصِيلَ عِبَارَةً عَنْ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَصَالُ صَلَاةُ الْعَصْرِ خَاصَّةً. وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ الصَّلَاةِ [فَإِنَّهَا عُرِفَتْ]^(٨) لَا بِهَذَا، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ آخَرَ، وَالْغَدُوُّ هُوَ صَلَاةُ الْفَجْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٧

وقوله تعالى: ﴿رَبِّالْأَلَمِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَيُّ لَا تَشْغَلُهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ. ذَكَرَ التَّجَارَةَ وَالْبَيْعَ، وَالتَّجَارَةُ تِجَارَةٌ. وَلَكِنْ كَانَ اسْمُ التَّجَارَةِ يَجْمَعُ كُلَّ أَنْوَاعِ الثَّقُلِ، وَاسْمُ الْبَيْعِ، يَقَعُ عَلَى خَاصٍّ. وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِلَّذِي يَجْمَعُ أَنْوَاعَ الثَّقُلِ تَاجِرٌ، وَلِلَّذِي يَبِيعُ شَيْئًا خَاصًّا بَائِعٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْقَدْرُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُونُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تِلَاوَتُهُ. (٥) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤/٢٥٧. (٦) م م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنَّمَا عُرِفَ.

اخْبَرَانَهُ لَا تَشْعُلُهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أَي لَا يَشْتَغِلُونَ بِالتَّجَارَةِ وَالْبَيْعِ، وَلَكِنْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَمَا ذَكَرَ.

وجائز أن يكونوا^(١) يَتَجَرَّوْنَ، وَيَبِيعُونَ، لَكِنْ تِجَارَتُهُمْ وَيَبِيعُهُمْ، لَا تَشْغُلُهُمْ، وَلَا تَمْنَعُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. يكونون أبدأ في ذِكْرِ اللَّهِ. ثم قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ الصَّلَاةَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَارِ السَّلَوةِ﴾ أي إتمام الصلاة بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَقِرَاءَتِهَا وَجَمِيعِ أَسْبَابِهَا وَشَرَائِطِهَا. وجائز أن يكون قوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الْحُطْبَةُ ﴿وَلَقَارِ السَّلَوةِ﴾ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ الآية [الجمعة: ١١] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا تَوَدَّى لِلصَّلَوةِ﴾ وهو الحُطْبَةُ، غَيْرُ مَسْمُوعٍ مِنْ أَهْلِ التَّوِيلِ، وَلَكِنَّهُ مُحْتَمَلٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ وهو يوم القيامة. يُخْبِرُ عَنْ شِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَخَوْفِهِ، لَا تَثْبُتُ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ فَرَعًا مِنْهُ وَخَوْفًا كَقَوْلِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِبِينَ رُءُوسِهِمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣] وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

وجائز أن يكون قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ يَعْرِفُونَ مَرَّةً، وَيَجْهَلُونَ تَارَةً، وَيَعْتَبِرُونَ يَوْمًا بِمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا فِي الدُّنْيَا، وَيُقَرُّونَ بِمَا لَمْ يَقَرُّوا.

وقال بعضهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ حِينَ تُرَالُ^(٢) عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الصُّدُورِ، فَتَنْشَقُّ^(٣) فِي حُلُوفِهِمْ عِنْدَ الْحَنَاجِرِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ أَي تُقَلَّبُ أَبْصَارُهُمْ، فَيَكُونُونَ زُرْقًا، وَهُوَ قَوْلُ الْقَاتِلِ.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أَي لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ جَزَاءَ إِحْسَانِهِمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْ مَسَاوِيهِمْ، وَلَا يَجْزِيهمُ بِهَا كَقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَقَّلَ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ الآية [الأحقاف: ١٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْزِيهمُ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزِيدهمُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عَلَى قَدْرِ حَسَنَاتِهِمْ ﴿وَاللَّهُ يَزِدُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ فَوْقَهُ مِلْكٌ يُحَاسِبُهُ، فَهُوَ الْمَلِكُ يُعْطِي ﴿مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لَا يَخَافُ مِنْ أَحَدٍ يُحَاسِبُهُ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَي يُعْطِيهمُ بِلَا حِسَابٍ، يُحَاسِبُهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِلَا مُحَاسَبَةٍ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَي يُعْطِيهمُ بِلَا حِسَابٍ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً مَا لَا يُخْصَى لَا عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَتْهمُ كُرَابٌ يَمِيعَةٌ يَحْسَبُ الظَّالِمُونَ مَاءً﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ضَرْبٌ مِثْلُ أَعْمَالِ الْكُفْرَةِ بِالسَّرَابِ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ قَدْ عَمِلُوا فِي الظَّاهِرِ أَعْمَالًا طَمِعُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَيَنْتَفِعُوا بِهَا مِنْ نَحْوِ الصَّدَقَاتِ وَالتَّقَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَنَحْوِهَا^(٤) مِمَّا هِيَ فِي الظَّاهِرِ أَعْمَالُ الْخَيْرِ، فَإِذَا هُمْ حُرِمُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا كَالَّذِي يَرَى السَّرَابَ مِنْ بَعِيدٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمُونَ مَاءً فَسَارَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ، لَا شَيْءَ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْكُفَّارُ عَمِلُوا تِلْكَ الْأَعْمَالَ عَلَى طَمَعٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهَا، فَإِذَا هُمْ عَلَى [لَا]^(٥) شَيْءٍ كَالْعَظْشَانِ الَّذِي يَرَى السَّرَابَ، فَيَحْسَبُهُ أَنَّهُ مَاءٌ، فَإِذَا هُوَ سَرَابٌ.

والثَّانِي: ضَرْبٌ مِثْلُ أَعْمَالِهِمْ بِالسَّرَابِ الَّذِي ذَكَرَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ^(٦) قَدْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ رَجَاءً أَنْ يَنْتَفِعُوا

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: يَكُون. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: زَالَتْ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: فَتَنْشَقُّ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَنَحْوَهُ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: أَنَّهُمْ.

بِشَفَاعَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وكانت عبادتهم الأصنام لما ذكروا من [ظلمتهم بِشَفَاعَتِهِمْ]^(١) فإذا هم لم ينتفعوا، فصاروا^(٢) كالعطشان الذي يرى السراب، فيحسبه أنه ماء. فإذا جاءه وجدّه سراباً، لم يجدّه ما حسبه. إلى هذا تمام المثل.

ثم ابتدأ، فقال: / ٣٧٠ - ب/ ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَاباً﴾ أي وجد الله فوقه حساب عمله وجزاءه، أو يقول: قديم على عمله يوم القيامة، لم يجد عمله الذي عمل في الدنيا شيئاً إلا كما وجد هذا العطشان هذا السراب ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَاباً﴾ يقول: قديم على الله، فوقه حساب أي عمله.

وقال بعضهم: هذا المثل ضرب للكفار؛ وذلك أنهم يبتغون يوم القيامة، وقد تقطعت أعتاقهم من العطش، فيرفع لهم سراب ببيعة من الأرض، فإذا نظروا إليه حسبه ماء، فأموه ليشربوا منه، فلم يجدوا شيئاً، ويؤخذون ثمة، فيحاسبون. وكذلك أعمالهم تضحل يوم القيامة، فلا يصيبون منها.

الآية ٤٠

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّي يَنْشُهُ مَوْجٌ هَذَا مِثْلَ آخَرٍ ضَرَبَ اللَّهُ لَأَحْوَالِ الْكَافِرِ ﴿أَرَأَيْتَ كَظُلُمَاتٍ﴾ جسده شبهة بظلمات؛ وذلك أن البحر إذا كان عميقاً كان أشد ظلمة^(٣)، فقال: ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ والبحر اللجج قلب الكافر ﴿يَنْشُهُ مَوْجٌ﴾ فوق الماء ﴿مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ﴾ تحاب ظلمات بعضها فوق بعض، فهي^(٤) ظلمة الموج وظلمة الليل، وظلمة السحاب هذه ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فكذلك الكافر: قلبه مظلم؛ في صدر مظلم في جسد مظلم؛ لا [يُبْصِرُ نَوْرَ الْإِيمَانِ]^(٥) كما أن صاحب البحر ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ﴾ في تلك الظلمة ﴿لَمْ يَكِدْ يَرَهَا﴾ أي لم يرها البتة.

أو يكون ضرب المثل: ظلمات^(٦) ثلاث بظلمات أحوال، لا تزال تزداد ظلمة: كفرة في كل وقت وفي كل حال بعمله^(٧) الذي يعمل كالظلمات التي ذكر.

فكان كضرب المثل الذي سبق لأنوار أحوال المؤمنين حين^(٨) قال: ﴿مِثْلُ نُورٍ كَاشِكٍ﴾ [النور: ٣٥] والنور جسده وصدرة وقلبه.

ثم قوله ﴿أَرَأَيْتَ كَظُلُمَاتٍ﴾ ليس هو حرف شك، ولكنه كأنه قال: إن ضربت مثل عمله بالسراب فمستقيم، وإن ضربته بالظلمات التي ذكرتها^(٩) فمستقيم. بأيها ضربت فمستقيم وصحيح، لا أنه ذا، أو ذا.

ثم ذكر في أعمال الكفرة مثليين: أحدهما: السراب، والثاني: الظلمات.

فجاء أن يكون في المؤمنين، أيضاً مثلاً^(١٠): الظلمة التي ذكر [في الكافر يُقابل النور الذي ذكر]^(١١) في المؤمنين، والسراب الذي ذكر [لأعمال الكافرين يُقابل]^(١٢) ما ذكر من أعمال المؤمنين حين^(١٣) قال: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨] وقال^(١٤): ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقال بعضهم: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً﴾ إيماناً ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ من إيمان. وقيل: هدى فما له من هدى، وهما واحد.

والآية على المعتزلة لأنهم يقولون: لم يجعل الله للمؤمن من النور إلا وقد جعل مثله للكافر، وفي الآية إخبار أنه لم يجعل للكافر النور؛ إذ لو كان جعل [للكافر كما جعل]^(١٥) للمؤمن لم يكن لقوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ معنى. دل أنه لم يجعل للكافر النور.

وقوله تعالى: ﴿فَوْقَهُ حِسَاباً﴾ يقول: فجازاه بعمله، فلم يظلمه، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قد ذكرنا في غير موضع.

(١) في الأصل وم: شفاعتهم. (٢) في الأصل وم: فصار. (٣) في الأصل وم: لظلمته. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: يبصرون الإيمان. (٦) في الأصل وم: بظلمات. (٧) في الأصل وم: يعلمه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: مثليين. (١١) في م: مقابل النور الذي ذكر، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لأعمالهم مقابل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: وقوله. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

قَالَ الْقَتِيبيُّ: السَّرَابُ مَا رَأَيْتُهُ مِنَ الشَّمْسِ كَالْمَاءِ يَصْفُ النَّهَارَ، وَالْأَلَّ مَا رَأَيْتُهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، [وهو] ^(١) الذي يَرْفَعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْقَيْعَةُ الْقَاعُ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: السَّرَابُ الَّذِي يُشِيرُهُ الْحَرُّ، فَتَرَاهُ كَأَنَّهُ مَاءٌ يَجْرِي، وَهُوَ يَكُونُ يَصْفُ النَّهَارَ إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَلَّ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ يَصْفِ النَّهَارِ، وَالْقَيْعَةُ الْقَاعُ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْيَابِسَةُ الَّتِي يَسْتَنْقِعُ فِيهَا الْمَاءُ، وَقَاعٌ وَاحِدٌ، وَقِيَعَانٌ جَمْعٌ، وَالظُّلْمَانُ الْعَظْشَانُ، وَقَوْمٌ ظُمَاءٌ، وَامْرَأَةٌ ظُلْمَاءُ، وَنِسْوَةٌ ظُمَاءٌ وَأَظْمَاءٌ، وَأَظْمَأُتُهُ أَغْطَشَتْهُ، وَظُمَأُتُهُ أَيْضاً ﴿فِي بَحْرِ لَيْلِي﴾ كَثِيرِ الْمَاءِ، وَاللُّجَّةُ وَسَطُ الْبَحْرِ ﴿يَفْشُهُ مَوْجٌ﴾ أَيْ يَصِيرُ فَوْقَهُ. قَالَ: الْمَوْجُ طَرَائِقُ فِي الْمَاءِ، تَكُونُ إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: الظُّلْمَانُ وَالصَّدْيَانُ وَالْعَظْشَانُ وَاحِدٌ، وَالسَّرَابُ قَبْلَ الزَّوَالِ، وَالْأَلَّ قَبْلَ الزَّوَالِ، وَهُوَ أَرْفَعُ مِنَ السَّرَابِ، وَالرَّوَاقِ [بِالْكَسْرِ وَالضَّمُّ] ^(٢) بَعْدَ الْعَصْرِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَمْ يَكْدُ رَبِّهَا﴾ يَقُولُ: لَمْ يُقَارِبْهُ الْبَصَرُ كَقَوْلِهِ: الرَّجُلُ، لَمْ يُصِيبْ، وَلَمْ يُقَارِبْ. **الآية ٤١** وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَكَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ وَنَحْوُهُ حَرْفٌ تَعْجِيبٍ وَاسْتِفْهَامٍ. يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَخَرٍ: أَلَمْ تَرَ كَذَا؟ وَ: أَلَمْ تَعْلَمْ كَذَا؟ عَلَى التَّعْجِيبِ أَوْ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ. لَكِنَّهُ يُخْرِجُ مِنَ اللَّهِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيْ قَدْ رَأَيْتَ، وَعِلِمْتُ؛ إِذَا الْإِسْتِفْهَامُ لَا يَجُوزُ عَنْهُ.

وَالثَّانِي: عَلَى الْأَمْرِ: أَيْ اغْلَمْ، وَرَ ^(٣) عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُسْخَرُ لَكَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿يُسْخَرُ لَكَ مِنْ﴾ ذَكَرَ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يُسْخَرُ خَلْقُهُ وَصُنْعُهُ؛ إِذْ فِي خَلْقِهِ كُلِّ أَحَدٍ دَلَالَةٌ وَخِدَائِيَّةٌ وَتَعَالِيَةٌ عَنِ الْأَشْيَاءِ وَتَنْزِيهِهُ، وَالشَّهَادَةُ لَهُ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَالتَّفَرُّدِ بِاللَّوْهِيَّةِ لَهُ.

وَالثَّانِي ^(٤): يَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْخَلَائِقِ مِنَ الطُّيُورِ وَالْدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا مَعْنًى؛ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِذَلِكَ، يَقْهَمُونَ هُمْ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ تَسْبِيحٌ، وَإِنْ لَمْ يَقْهَمْ غَيْرُهُمْ مِنَ الْخَلَائِقِ، نَحْوُ مَا ذَكَرَ مِنْ تَسْبِيحِ الْجِبَالِ وَالطُّيْرِ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَجِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطُّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠] وَقَوْلِهِ ^(٥) فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وَالطُّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ [ص: ١٨ و ١٩].

وَلَوْ كَانَ التَّسْبِيحُ مِنْ ذَكَرَ تَسْبِيحَ خَلْقِهِ لَكَانَ سُلَيْمَانُ وَغَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ شَرْعاً سَوَاءً، وَالْعَشِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَوْقَاتِ سَوَاءً.

فَدَلَّ تَخْصِيصُ سُلَيْمَانَ فِي ذَلِكَ وَتَخْصِيصُ الْأَوْقَاتِ مِنْ بَيْنِ غَيْرِهَا ^(٦) عَلَى أَنَّ تَسْبِيحَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ تَسْبِيحَ خَلْقِهِ، وَلَكِنَّهُ تَسْبِيحُ عِبَادَةٍ بِالْمَعْنَى الَّذِي جَعَلَهُ لَهُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْهَمْ غَيْرُهُ ^(٧) مِنَ الْخَلَائِقِ تَسْبِيحَهَا ^(٨).

الْأَثَرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنِ النَّمْلَةِ حِينَ ^(٩) قَالَ: ﴿فَالَتْ نَمْلَةً يَأْكُلُهَا الْكَمَلُ أَذْخَلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

ثُمَّ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِ كَقَوْلِ الْمُتَمَيِّزِ وَالْمُمْتَحِنِ، وَلَكِنَّهُ مَعْنَى فَهَمُوهُ مِنْهَا ذَلِكَ [الْفَهْمُ] ^(١٠) فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ. الْأَثَرُ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نُظُولِ الْجَوَارِحِ وَشَهَادَتِهَا عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ حِينَ ^(١١) قَالَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ [النور: ٢٤] [وَقَالَ: ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾؟ [فصلت: ٢٠]] ^(١٢) فَفَهْمٌ هَؤُلَاءِ مِنْ شَهَادَةِ الْجَوَارِحِ عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَقْهَمْ غَيْرُهُمْ ^(١٣) حَتَّى أَنْكَرُوا عَلَيْهَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: واؤ. (٤) من م، في الأصل: والشهادة. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: غيرهم. (٧) من م، في الأصل: غير. (٨) في الأصل وم: تسبيحهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: غيرها.

دَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا. وَذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لِمَعْنَى فِيهِمْ فَهَمُّوهُمْ، وَلَا يُفْهَمُ غَيْرُهُمْ.

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي سِرِّيَةِ الْمَاءِ مَعْنَى يُخَيِّبُ كُلَّ شَيْءٍ، إِذَا أَصَابَهُ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ؟ وَذَلِكَ الْمَعْنَى لَا يَغْلُمُهُ إِلَّا اللَّهُ أَوْ مَنْ أَظْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَارْتِضَاهُ لِنَفْسِهِ رَسُولًا.

فَعَلَى ذَلِكَ تَسْبِيحُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ. وَغَيْرُهُمْ^(١) جَعَلَ فِي سِرِّيَّتِهِمْ مَعْنَى، يَعْرِفُونَهُ^(٢) هُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ تَسْبِيحًا لَهُ وَتَنْزِيحًا، وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُ غَيْرُهُمْ^(٣)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَكَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حَرْفُ ﴿مَنْ﴾ إِنَّمَا يُعَبِّرُ بِهِ عَنِ الْمُتَمَيِّزِ^(٤)، وَحَرْفُ: مَا يُعَبِّرُ بِهِ [عَنِ غَيْرِ] ^(٥) الْمُتَمَيِّزِ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ مَنْ فِيهَا، قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ^(٦) بِلُغَتِهِ وَلِسَانِهِ غَيْرَ كُفَّارِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

وجائز أن يكون قوله: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ كَلَامًا مِنْهُمْ يَعْرِفُ، وَيَفْهَمُ أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُ غَيْرُهُ؛ كَأَنَّهُ يَذْكُرُ سُلْطَانَهُ وَمُلْكَهُ وَغَنَاءَهُ عَنْ عِبَادِهِ هَؤُلَاءِ [وَتَسْبِيحِهِمْ، وَأَنَّ] ^(٧) مَنْ يُسَبِّحُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَرَكَ^(٨) عِبَادَةَ هَؤُلَاءِ لَهُ وَعِبَادَتَهُ بِمَحَلٍّ وَاحِدٍ، لَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ.

أَوْ أَنْ يَقُولَ: مَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَنْفَعُ لَهُ/ ٣٧١- / الْحَاجَةُ إِلَى عِبَادَةِ أَحَدٍ وَلَا طَاعَةِ [أَحَدٍ]^(٩)، وَإِنَّمَا الْحَاجَةُ وَالْمَنْفَعَةُ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ لَهُمْ دُونَ اللَّهِ. وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤٢] عَلَى [إِثْرِ] ^(١٠) ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا عَلَى الْأَوَّلِ، أَيِ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ مَنْ ذَكَرَ مِنَ التَّسْبِيحِ وَغَيْرِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ عَلَى ابْتِدَاءٍ وَعِيدٍ لِلْخَلْقِ، أَيِ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُونَ.

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ قَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ صَفَّتْ خَنِيعَهَا فِي الطَّيْرِ إِنْ. كَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ، أَيِ صَفَّتْ أَجْنَحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ، فَلَا تُحَرِّكُهَا.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا﴾ قِيلَ: يَسُوقُ سَحَابًا ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أَيِ [يَضُمُّ] ^(١١) بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾ قَالَ: [بَعْضُهُمْ] ^(١٢): فِيهَا تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾ أَيِ قِطْعًا يُخَمَلُ [بَعْضُهُ] ^(١٣) عَلَى [إِثْرِ] بَعْضٍ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أَيِ يَضُمُّ السَّحَابَ بَعْضُهُ أَيِ ^(١٤) الرُّجَامَ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿يُزَيِّجُ﴾ أَيِ يُخْرِجُهُ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَسْخَرُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أَيِ الْمَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وَقِيلَ: خِلَالِهِ^(١٥)، أَيِ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: جِبَالٌ مِنْ ثَلْجٍ: يُنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى [مِنْ السَّحَابِ] الثَّلْجَ وَالْبَرَدَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جِبَالٌ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَرَدٍ [فِي] ^(١٦) السَّمَاءِ، ثُمَّ يَنْزِلُ.

وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ الْجِبَالِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهَا^(١٧) مِنَ السَّمَاءِ أَنَّهَا مِنْ ثَلْجٍ أَوْ بَرَدٍ سِوَى أَنَّهُ خَبِرَ أَنَّ فِيهَا بَرَدًا.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُونَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: غَيْرِهِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: التَّمْيِيزُ. (٥) فِي م: عَنْ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالتَّسْبِيحِ أَنْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَتَرَكَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْدَ. (١٥) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٢٦٢. (١٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ.

فالأشياء تُشَبَّهُ بالجبال، وتُنَسَّب إليها إما للكثرة [أولاً]^(١) وإما للشدة والغلظ والعظم ثانياً كقوله ﴿وَرَوَى الْجَبَالُ نَحْسًا جَائِدَةً﴾ الآية [النمل: ٨٨].

فجائز أن تكون الجبال المذكورة في هذه الآية هي الجبال التي أخبر أنه ينزل منها، إذ لا يذري أين هي؟ أم^(٢) السماء أم^(٣) في ما بين السماء والأرض؟

وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ في نفسه أو زرع أو ثمره، فيضربه ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ فلا يصيبه. فإن كان على هذا فهو يخرج على التثنية. وكذلك عمل البرد يفسد في مكان، ويترك مكاناً، لا يعم، ولكن يصيب مكاناً، ويخطئ مكاناً.

وجائز أن يكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من بركته ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ من بركته.

[وقوله تعالى]^(٤) ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ قيل: ضوء برقه، يكاد ضوء البرق يذهب بالابصار من شدة نوره.

الآية ٤٤ [وقوله تعالى]^(٥): ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ثقلية الليل والنهار اختلافاً: يأتي بهذا، ويذهب بالآخر. يذكّر هذا، والله أعلم، صلة لقوله^(٦): ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٤٢] يخبر عن سلطانيه وقدرته وتدبيره وعلمه وحكمته ووحدانيته.

أما سلطانته وقدرته فما^(٧) ذكر من سوق السحاب بين السماء والأرض، وتسخيروه، وضَمَّ بغيضه إلى بغض. ذل ذلك أنه قادر بذاته، لا يُعجزه شيء.

وذل نزول المطر وإصابته في مكان دون [مكان]^(٨) وتخطيه موضعاً دون موضع مع اتصال السحاب وانضمام بغضه إلى بغض على السواء أنه على التذير والعلم، كان ذلك لا يطباع السحاب أو على جفاف.

وذل جريان الأمر واتساق التذير في ما ذكرنا، وفي اختلاف الليل والنهار، وثقلية من حال إلى حال من النقصان إلى الزيادة [ومن الزيادة]^(٩) إلى النقصان، واتصال منافع الأرض [بالسماء]^(١٠) على بُعد ما بينهما، أنه تدبير واحد لا عَدَد؛ إذ لو كان تدبير عَدَدٍ لَمَنَعَ بَعْضُ بَعْضاً عما يريد من التذير والتنعيم. ذل ذلك كله على أنه واحد عليم قادر مدبر، لا يُعجزه شيء.

ولذلك قال: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لما ذكرنا ما فيه من وجوه الاستدلال والاعتبار.

قال القشيري وأبو عوسجة: ﴿يَرْجِي﴾ أي يسوق ﴿رُكَّامًا﴾ بغيضه فوق بغض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المطر يخرج من غلظه. وغلظه ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوء برقه.

قال أبو عوسجة: [الرُّكَّامُ والرُّكْمُ الكثير]^(١١) المتراكم الذي بغيضه فوق بغض، يقال: ارتكمت الشيء، أي صار بغيضه فوق بغض، ويقال: رَكَمْتُ المَتَاعَ أَرَكَمُهُ كما إذا جعلت بغيضه فوق بغض، والودق المطر، يقال: ودقت السماء تدق ودقاً أي انطرت يخرج من غلظه. أي من بينه، وواحد الخلال خلل ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ السنى مقصور [وممدود هو]^(١٢) الضوء. يقال: السنى النار، وهو واحد.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّا وَءَى﴾ [يختمل وجهين:

أحدهما: أنه]^(١٣) والله أعلم، صلة لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآيات^(١٤) [النور: ٤٢ و ٤٣ و ٤٤] ذكر السحاب وما فيه من التدبير والعلم والحكمة، وذكر أيضاً ثقلية الليل والنهار وما فيهما من التدبير والعلم والحكمة والقُدرة.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: والركام والكثير. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل وم: هو. (١٤) في الأصل وم: الآية.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّا لَكُمْ يَدْرِئُهُ يَوْمَ يَكْفُرُ لِمَنِ تِلْكَ ذُرِّيَّتُهُ وَسُلْطَانُهُ وَعِلْمُهُ وَتَذْيِيرُهُ. أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ مِنْ هَذَا الْمَاءِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَجَوَاهِرِهِمْ، مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ، أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِالطَّبَاعِ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ بِتَذْيِيرٍ وَاحِدٍ عَالَمٍ بِذَاتِهِ، لَا يَعْلَمُ وَتَذْيِيرٍ مُسْتَفَادٍ، وَلَكِنْ يَعْلَمُ^(١) ذَاتِي؛ إِذْ لَوْ كَانُوا بِالطَّبَاعِ لَخَرَجُوا عَلَى تَقْدِيرٍ وَاحِدٍ وَصِفَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَا أَحَدٌ مِنْ حُكَمَاءِ الْبَشَرِ يُدْرِكُ كَيْفِيَّةَ إِنْشَاءِ هَذَا الْعَالَمِ وَخَلْقِ هَذِهِ الْخَلَائِقِ مِنْ هَذِهِ الْبَيَاءِ. فَإِنَّهُ خَلَقَ ذَٰلِكَ، وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْبَيَاءِ مَعْنَى، وَلَا شَيْءٍ مِنْ جَوَاهِرِ الْخَلَائِقِ.

وَدَلَّ إِنْشَاؤُهُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ لِيَخْلُقَ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِحِكْمَةٍ ذَاتِيَّةٍ؛ إِذْ لَمْ تُدْرِكْ ذَٰلِكَ حِكْمَةُ^(٢) الْبَشَرِ.

وَدَلَّ خَلْقُ هَذِهِ الْخَلَائِقِ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي وَالْأَسْبَابِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ عَبَثًا لِيَتْرَكَهُمْ سُدىً، لَا يَأْمُرُهُمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ. فإِذَا ثَبَتَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ثَبَتَ الْإِحْيَاءُ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ لِلْجَزَاءِ.

وَذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمَاءِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، لِأَنَّهُ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا قَادِرٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿فَيَتَنَبَّهْنَ عَلَىٰ بَطْنِهِمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ يَذْكُرُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَحَدٍ وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا: تَذْكِيرُهُ إِيَّاهُمْ]^(٣) نِعَمَهُ وَمِنَّةَ الَّذِي أَعْطَاهُمْ وَاحْسَانَهُ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ مُعْتَدِلًا سَوِيًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ اخْتِيَارٌ لِّذَلِكَ، أَوْ [كَانُوا]^(٤) يَسْتَوْجِبُونَ ذَٰلِكَ قَبْلَهُ، وَخَلَقَ غَيْرَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ مُنْكَيِّينَ عَلَى وَجْهِهِمْ وَمَاثِيَّينَ عَلَى بَطْنِهِمْ. وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ وَنِعْمَةٌ.

[وَالثَّانِي: ذِكْرُ مِثَالٍ لِحَالِ]^(٥) الْكَفَرَةِ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ يَتَّبِعُ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ الْآيَةُ [الملك: ٢٢] أَخْبَرَ أَنَّ الْكَفَرَةَ يَكُونُونَ مُنْكَيِّينَ عَلَى وَجْهِهِمْ، وَاهْلَ الْإِسْلَامِ يَمْشُونَ مُتَّصِفِينَ مُسْتَوِينَ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى:]^(٦) ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لِأَنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ لَا بِقُدْرَةٍ مُسْتَفَادَةٍ مِنْ غَيْرِهِ.

الآية ٤٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا تُبَيِّنُهَا﴾ الْآيَةُ: قَدْ ذَكَرْنَا.

الآيتان ٤٧ و ٤٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: إِنَّهُ قَدْ وَقَعَتْ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَبَيْنَ عُثْمَانَ [بَنِ عَفَّانٍ]^(٧) حُصُومَةٌ فِي الْأَرْضِ [الَّتِي]^(٨) اشْتَرَاهَا عُثْمَانُ مِنْ عَلِيٍّ، فَاخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ [الْأَرْضِ]^(٩) فَقَضَىٰ لِعَلِيِّ عَلَى عُثْمَانَ، وَالزَّمَهُ الْأَرْضَ. فَقَالَ قَوْمُ عُثْمَانَ: إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَأَكْرَمُ عَلَيْهِ، فَقَضَىٰ [لَهُ عَلَيْهِ]^(١٠) أَوْ نَحْوُ / ٣٧١ - ب/ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ. فَتَزَلَّ فِي قَوْمِ عُثْمَانَ ذَٰلِكَ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرُوا^(١١).

لَكِنْ هَذَا بَعِيدٌ، لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عُثْمَانُ وَقَوْمُهُ يَخْطُرُ بِإِلَهِم [مَا ذُكِرَ فِي رَسُولِ اللَّهِ]^(١٢).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَزَلَّ هَذَا فِي بَشَرِ الْمُنَافِقِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَشَرِ خُصُومَةٍ، وَأَنَّ الْيَهُودِيَّ دَعَا بِشَرًّا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَعَاهُ بِشَرٍّ إِلَى كُفْبِ ابْنِ الْأَشْرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَحِيفُ عَلَيْنَا، وَنَحْوُهُ مِنَ الْكَلَامِ. فَتَزَلَّ هَذَا.

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: حكام. (٣) في الأصل وم: أما تذكيرا آياه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو ذكر مثلاً بحال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليك له. (١١) في الأصل وم: ذكر. (١٢) في الأصل وم: في رسول الله ما ذكر.

وعلى ذلك يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ مَرْءٌ أَرَأَيْتُمْ أَن يَخَافُكَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ﴾ لا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا يَخَافُونَ حَيْفَ اللَّهِ وَخَوْرَهُ، لَكِنْ إِنَّمَا يَخَافُونَ جَوْرَ رَسُولِهِ أَوْ كِتَابِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥١

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا إِضَافَةَ الدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي قِصَّةِ الْمُنَافِقِينَ وَنَعْتِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا سَيَعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿سَيَعْنَا﴾ أَي سَمِعْنَا الدَّعَاءَ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الْأَمْرَ. وَيَحْتَمِلُ ﴿سَيَعْنَا﴾ أَجَبْنَا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الْأَمْرَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿سَيَعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْقَوْلِ مِنْهُمْ وَالتَّنْطِقِ بِهِ، وَلَكِنْ إِبْخَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا عَلَيْهِ، وَاعْتَقَدُوا بِهِ؛ إِذْ كُلُّ مُؤْمِنٍ يَتَعَقَّدُ فِي أَصْلِ اعْتِقَادِهِ طَاعَةَ اللَّهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ، فَيَكُونُ كَمَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿إِنَّمَا تُطِيعُونَ اللَّهَ﴾ لَا تَرِيدُ يَنْكُرُ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا [الإنسان: ٩].

هَذَا إِبْخَارٌ عَمَّا أَطِيعُوا هُمْ لَيْسَ أَنَّهُمْ قَالُوا بِاللِّسَانِ ﴿إِنَّمَا تُطِيعُونَ﴾ لَكِنَّا، وَلَكِنْ إِبْخَارٌ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ. وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الْمُفْلِحُ هُوَ الَّذِي يَظْفَرُ بِحَاجَتِهِ [الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ] ^(١) يُقَالُ: فَلَانُ أَفْلَحَ أَي ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٢

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ﴾ أَي يَخْشَى اللَّهَ عَلَى مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فِي مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ، أَوْ يَخْشَى اللَّهَ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهُ مِنَ التَّقْصِيرِ وَالتَّفْرِيطِ، وَيَتَّقِي ذَلِكَ وَكُلَّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَمُخَالَفَتَهُ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَةَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَهَذَا وَاحِدٌ.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَرُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّ يَمِينٍ بِاللَّهِ فَهُوَ جَهْدُ الْيَمِينِ لَأَنَّهُمْ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ ^(٢) كَانُوا لَا يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِلَّا فِي الْعَظِيمِ مِنَ الْأَمْرِ وَالْخَطِيرِ. فَأَمَّا الْأَمْرُ الدُّونَ فَإِنَّمَا يَخْلِفُونَ بِغَيْرِهِ. فَيَكُونُ عَلَى هَذَا كُلُّ يَمِينٍ بِاللَّهِ فَهُوَ جَهْدُ الْيَمِينِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا خَلَفُوا أَيْمَانًا ^(٣) غَلِيظَةً شَدِيدَةً عَلَى مَا يُغْلَظُ النَّاسُ فِي أَيْمَانِهِمْ، رُبَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ جَهْدُ الْيَمِينِ. أَوْ أَنْ يَكُونَ جَهْدُ الْيَمِينِ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجْنَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجْنَ﴾ هُوَ جَهْدُ أَيْمَانِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجْنَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهًا: [يَحْتَمِلُ] ^(٤): ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجْنَ﴾ مِنْ أَرْضِهِمْ الَّتِي تَخَاصَمُوا إِلَيْهَا فِيهَا، أَي لِيَخْرُجْنَ، وَيُسَلِّمْنَهَا إِلَى خَصْمِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ: ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجْنَ﴾ مِنْ جَمِيعِ أَمْلَاكِهِمْ وَمَا تَحْوِيهِ أَيْدِيهِمْ تَعْظِيمًا لِأَمْرِكَ وَاجْتِلَالًا [لَكَ] ^(٥) فَكَيْفَ لَا يَتَّبِعُونَ قِضَاءَكَ، وَيَتَقَادُونَ لِحُكْمِكَ؟

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لِيَخْرُجْنَ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ بَعِيَالَتِهِمْ وَجَمِيعِ حَوَاشِيهِمْ إِلَى بِلَدٍ أُخْرَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَيْنَ أَمْرَتِهِمْ لِيَخْرُجْنَ﴾ أَي أَمْرَتُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِي الْجِهَادِ ﴿لِيَخْرُجْنَ﴾ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَخَلَّفُونَ. ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْقَسَمِ الَّذِي اتَّخَذُوا [قَالَ] ^(٦) ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا﴾. [وقوله تعالى] ^(٧) ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا تَقْسِمُوا﴾ فَإِنَّ اللَّهَ، لَوْ بَلَغَ مِنْكُمْ الْجَهْدُ، لَنْ ^(٨) تَبْلُغُوهُ. ثُمَّ قَالَ ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ يَقُولُ: أَطِيعُوهُ، وَقُولُوا لَهُ الْمَعْرُوفَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: دُنْيَوِيَّةٌ أَوْ أُخْرَوِيَّةٌ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: كَانَهُمْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: يَمِينٌ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ.

وقال بعضهم: قوله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ تَمَّ الكلام، ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ وفي الكلام حذف الإيجاز، يُسْتَدَلُّ بظاهره عليه: كأن القوم، كانوا يُنَافِقُونَ، وَيَحْلِفُونَ في الظاهر/ ٣٧٢ - أ/ على ما يُضْمِرُونَ خِلَافَهُ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَا تُقْسِمُوا؛ هي طاعة مَعْرُوفَةٌ صَحِيحَةٌ، لَا يُنَافِقُ فِيهَا، وَلَا طَاعَةٌ فِيهَا يُنَافِقُ.

وقال بعضهم: لا تخلفوا، ولتكن هذه منكم للنبي طاعةً معروفةً حسنةً.
وقال بعضهم: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ تُعْرَفُ أنها طاعةٌ بالقول والعمل. لا تكونوا كاذبين فيها بالقول دون العمل. وبعضه قريب من بعض.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(١): ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فَلَا تُقْسِمُوا.

وفيه دلالة إثبات رسالته، لأنهم كانوا يُسرّون، ويُضْمِرون في ما بينهم التَّوَلَّى والإعراض عن حكمه، ثم أخبرهم بذلك، فعلموا أنه بالله عرّف ذلك.

الآية ٥٤ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ۖ أَى تَوَلَّوْا۟ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ۖ فَإِنَّا عَلَيْهِ مَا حِجْلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلْتُمْ﴾ قال: فإنما على النبي ما أمر بتبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلْتُمْ﴾ وأمرتم من الطاعة لله ورسوله. وَنَحْمِلُ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِ﴾ أداء ﴿مَا حِجْلٌ﴾ من الفرائض ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ أداء ﴿مَا حُمِلْتُمْ﴾ وأمرتم من الفرائض.

وجائز أن يكون قوله: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِ مَا حِمْلٌ﴾ أي لا يُسأل هو، ولا يُؤاخذ بما عليكم، ولا تُسالون أنتم، ولا تُؤاخذون أيضاً بما عليه؛ يُسأل كلُّ عَمَّا عليه كقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] والله أعلم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وَلَا شَكَّ؛ إِنَّهُمْ إِنِ اطَاعُوهُ افْتَدَوْا ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ ظَاهِرٌ.

الآية ٥٥ وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال بعضهم: «مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ بِمَكَّةَ سِنِينَ مِنْ بَعْدِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ خَائِفاً هُوَ وَأَصْحَابُهُ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ؛ يُضَبِّحُونَ فِي السَّلَاحِ؟ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنْ تَلْبِتُوا إِلَّا سِرّاً حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ مُحْتَبِياً^(٢) لَيْسَ عَلَيْهِ^(٣) حَدِيدَةٌ» [السبوطي في الدر المنثور: ٦/ ٢١٥] فانزّل الله هذه الآية على إثر ما ذكّر.

وقال بعضهم: لما صدَّ المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه يومَ الحديبية وعَدَّ الله المسلمين أن يُظهرهم وأن يفتحَ لهم مكة، وقالوا^(٤): وتضديق ذلك ما ذكرَ في سورة الفتح، وهو قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] ﴿وَقَوْلُهُ^(٥)﴾ في آخر ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾ الآية [الفتح: ٢٨].

وَعَدَ رَسُولُهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَسْخَلِفُهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَيُنْزِلُهُمْ^(٦) فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَجَعَلَهُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ .
[وَقَالَ قَاتِلُونَ]^(٧): كَانَ وَعْدُهُ لِيَآئِهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ أَنَّهُ يَجْعَلُهُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ كَمَا فَعَلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

ولكن كَيْفَمَا كَانَ ذَلِكَ الْوَعْدُ لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِيهِ أَمْرَانِ اثنان: اأخذهما: البشارةُ لِلْمُسْلِمِينَ.

[والثاني] ^(٨): الْحُجَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ لَأَنَّهُ وَعَدَ لَهُمُ الْآمَنُ ^(٩) فِي النَّصْرِ فِي وَقْتٍ، لَا يَرْجُونَ، وَلَا يَظْمَعُونَ النِّجَاةَ فَضْلاً أَنْ يَظْمَعُوا الْإِسْخَالَافَ وَالتَّمَكُّنَ فِي الْأَرْضِ وَإِظْهَارَ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا.

(١) باسطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مختبئاً. (٣) في الأصل: عليهم، في م: فيهم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: حتى قال. (٦) في الأصل وم: ويتزل. (٧) من م، في الأصل: ويتزلون فيها. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: إلا.

فإذا كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ الْوَعْدِ وَالْبَشَارَةِ، لَا يُطْمَعُ، وَلَا يُرْجَى فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْخَوْفِ عَلِيمٌ أَنَّهُ إِنَّمَا بَشَّرَهُمْ بِذَلِكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ وَوَعَدَهُمْ مِنْهُ، فَكَانَ مَا وَعَدَ.

ذَلِكَ أَنَّهُ بِاللَّهِ وَعَدَ ذَلِكَ، وَبَشَّرَ. فَذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى أَوْلَئِكَ، وَبَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ليس بِشَرْطٍ لَأَنَّهُ لَوْ كَفَرَ قَبْلَ ذَلِكَ أَيْضاً فَهُوَ فَاسِقٌ.

ثم مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ﴾ هذه النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَشْكُرْهُ عَلَيْهَا فَهُوَ كَذَابٌ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ وَلَيْسَ لَهُ جَوَابٌ.

الآية ٥٦ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فِي مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَنَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ [أَي تَرْحَمُونَ] ^(١) هُوَ ظَاهِرٌ، قَدْ ذَكَرْنَا هَذَا فِي مَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٥٧ وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أَي فَائِزِينَ فِي الْأَرْضِ هَرَباً مِنْ عَذَابٍ، فَلَا يُدْرِكُهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَابِقِينَ فِي الْأَرْضِ هَرَباً أَيْضاً حَتَّى لَا يُجْزَوْا ^(٢) بِكُفْرِهِمْ، وَهُوَ وَاحِدٌ ﴿وَمَا لَهُمْ آلَاءٌ وَلَكِنِ السَّيِّئُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَيْضاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِفَائِزِينَ وَلَا سَابِقِينَ عَنْهُ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ لَهُ هَذَا كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفُولاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٢] هُمَا وَاحِدٌ.

وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَةَ: أَحْسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُعْجِزُوا ^(٣) اللَّهَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. إِنَّهُ وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْحُرُوفُ فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٨ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُتُ مَأْمُوءَاتٌ يُسْتَنْزَلُ عَلَيْهِنَّ الْمَلَائِكَةُ الْمُسَكَّنَاتُ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْقُوا الْمَلَأُ مِنْكُمْ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا وَامْرَأَتَهُ، تَسَمَّى أَسْمَاءُ بِنْتُ مَرْثَدٍ اتَّخَذُوا طَعَامًا لِلنَّبِيِّ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: مَا أَتَبَحَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنْ يَدْخُلَ عَلَى الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَهُمَا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، غُلَامُهُمَا الْمَمْلُوكُ: فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿لِيَسْتَنْزِلَ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ الْمُسَكَّنَاتُ﴾ [السُّيُوطِي فِي الدَّرِّ الْمَشْتُور: ٢١٧/٦].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ هَذَا فِي شَأْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَهُوَ مَا قَالَ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: ذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [بَعَثَ] ^(٤) غُلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُ: مُدْلِجٌ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ظَهِيرَةً لِيَدْعُوهُ، فَانْطَلَقَ الْغُلَامُ إِلَيْهِ لِيَدْعُوهُ، فَوَجَدَهُ قَائِلًا، قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَقَامَ مِنْ خَلْفٍ، وَحَرَّكَهُ، فَلَمْ يَسْتَقِظْ، فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ أَقِظْهُ ^(٥) لِي. قَالَ: فَدَقَّ الْبَابَ، ثُمَّ نَادَاهُ، وَدَخَلَ، فَاسْتَقِظَ عُمَرُ، فَجَلَسَ، فَانْكَشَفَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَرَأَى الْغُلَامَ، وَعَرَفَ عُمَرُ أَنَّ الْغُلَامَ [قَدْ رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ عُمَرُ: وَوَدِدْتُ، وَاللَّهِ، أَنَّ اللَّهَ نَهَى] ^(٦) أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَخَدَمَنَا أَنْ يَدْخُلُوا هَذِهِ السَّاعَاتِ عَلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنٍ ^(٧)، ثُمَّ انْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَهُ قَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، وَأَمَرَ بِالِاسْتِئْذَانِ عَلَى دُخُولِهِمْ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ. لَكِنْ لَا حَاجَةَ لَنَا ^(٨) إِلَى أَنْ نَتَعَرَّفَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ أَوْ فِي أَمْرِ فُلَانٍ وَسَبَبِهِ سِوَى أَنْ نَتَعَرَّفَ الْمَوْدِعَ فِيهَا وَمَا ذَكَرَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَدَابِ وَالْأَحْكَامِ.

ثُمَّ خَاطَبَ بِالِاسْتِئْذَانِ الْمُسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ لَا الْمُسْتَأْذَنَ وَالسَّادَاتِ وَالْأَبَاءَ وَمَنْ لَهُ الصَّغَارُ حِينَ ^(٩) قَالَ: ﴿لِيَسْتَنْزِلَ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ الْمُسَكَّنَاتُ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْقُوا الْمَلَأُ مِنْكُمْ﴾ وَذَلِكَ الْخَطَّابُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُخْرِجُ مُخْرَجَ الْأَمْرِ لِلْأَبَاءِ وَالسَّادَاتِ بِتَعْلِيمِ أُمُورِ الدِّينِ وَالْقِيَامِ بِمَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَالتَّأْدِيبِ عَلَى ذَلِكَ، إِنَّ أَبْتَ أَنْفُسَهُمْ.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: يجزون. (٤) في الأصل وم: يعجزه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: أيقظ. (٧) من م: ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بإذنه. (٩) في الأصل وم: لها. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وكذلك ما روي عن رسول الله ﷺ حين^(١) قال: «مُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا، وَاضْرِبُوهُمْ إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» [أحمد: ١٨٠/٢] خَاطَبَ بِهِ الْآبَاءُ وَالْأُولِيَاءُ أَنْ يَأْمُرُوهُمْ بِأُمُورِ الدِّينِ أَمْرَ الْعِبَادَةِ^(٢) وَالتَّعْلِيمِ لَهُمْ وَالتَّأْدِيبِ إِنْ امْتَنَعُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يُخَاطَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ لِجَهْلِهِمْ وَقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِأَمْرِهِمْ.

وَإِذَا بَلَغُوا، وَعَرَفُوا الْأَمْرَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَاطَبَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِسْتِثْنَانِ حِينَ^(٣) قَالَ: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَرْتُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» [النور: ٥٩] خَاطَبَهُمْ إِذَا بَلَغُوا [الْحُلُمَ]^(٤) وَأَمَرَهُمْ بِالْإِسْتِثْنَانِ فِي أَنْفُسِهِمْ. وَمَا دَامُوا صَغَارًا خَاطَبَ بِهِ الْآبَاءُ وَالْأُولِيَاءُ لِمَا لَا يَجْرِي عَلَيْهِمُ الْقَلَمُ.

وَلَيْسَ الْخُطَابُ وَالْأَمْرُ وَالتَّنْهِي إِلَّا لِجَزِيَةِ الْقَلَمِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكُ الْأَمْرِ وَالْخُطَابِ لِدَفْعِ الْقَلَمِ عَنْهُمْ. وَأَمَّا أَمْرُ الْآبَاءِ لَهُمْ بِذَلِكَ فَيُخْرِجُ مُخْرِجَ الشَّفَقَةِ لَهُمْ عَلَيْهِمْ وَالْقِيَامِ لِبَعْضِ مَصَالِحِهِمْ. وَذَلِكَ جَائِزٌ. ثُمَّ اخْتُلِفَ فِي مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُنَا. قَالَ جَمَاعَةٌ [مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ]^(٥): هُنَّ النِّسَاءُ دُونَ الرِّجَالِ. وَأَمَّا الرِّجَالُ فَهَانِهِمْ يَسْتَأْذِنُونَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، وَالتَّنْهِي عَنِ الدَّخُولِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثِ؛ إِذْ هَذِهِ أَوْقَاتُ غِرَّةٍ وَسَاعَاتُ غَفْلٍ لِلذَّكُورِ وَالْإِنَاثِ جَمِيعًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْكِبَارُ مِنْهُمْ دُونَ الصَّغَارِ.

وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ فِي الصَّغَارِ مِنْهُمْ لِأَنَّ الْكِبَارَ مِنْهُمْ وَالْأَحْرَارَ سَوَاءً فِي خَطَرِ النَّظَرِ إِلَى الْعَوْرَةِ وَإِبَاحَتِهِ.

الْأَثَرُ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ؟» وَهُمْ الْأَحْرَارُ وَالصَّغَارُ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «لْيَسْتَنْذِرُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمُ الصَّغَارُ مِنْهُمْ». أَمْرُ السَّادَاتِ بِتَعْلِيمِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأُمُورِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ» هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: «لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ» أَي لَمْ يَخْتَلِمُوا^(٦) وَيَحْتَمِلُ: «لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْحُلُمِ بَعْدَ مَا جَعَلَهُمْ فِي مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ؛ أَعْنِي الصَّغَارَ:

فِي حَالٍ لَا يُؤْمَرُونَ، وَلَا يُنْهَوْنَ، وَهِيَ الْحَالُ الَّتِي لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْعَوْرَةِ وَبَيْنَ غَيْرِ الْعَوْرَةِ، وَهِيَ^(٧) مَا قَالَ: «أَوْ

الْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ» [النور: ٣١] أَي لَا يَعْرِفُونَ الْعَوْرَةَ مِنْ غَيْرِ الْعَوْرَةِ.

وَحَالٍ يَغْرِفُونَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَقَعُ لَهُمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا، فَيُؤْمَرُونَ بِالسُّتْرِ عَنْهُمْ.

وَحَالٍ تَقَعُ لَهُمْ^(٨) الْحَاجَةُ إِلَيْهَا وَقِضَاءُ الرِّوَاطِ، فَيُؤْمَرُونَ بِالْحِجَابِ وَالتَّفْرِيقِ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «تِلْكَ مَرْئِي مِنْ قَبْلِ مَلَكُوتِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ نَفْسَيْنِ مِنْ آلِ الْفَلَكِ مِنْ بَدَلٍ مَلَكُوتِ النِّسَاءِ تِلْكَ عَوْرَتُ لَكُمْ» يَحْتَمِلُ

قَوْلُهُ: «تِلْكَ عَوْرَتُ لَكُمْ» وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: ثَلَاثُ أَوْقَاتٍ: عَوْرَاتُ لَكُمْ وَسَاعَاتُهَا.

[وَالثَّانِي]^(٩): «تِلْكَ عَوْرَتُ» أَي ثَلَاثُ حَالَاتٍ: تَطْهَرُ فِيهَا الْعَوْرَةُ كَقَوْلِهِ «إِنَّ يَوْمَنَا عَوْرَةٌ» [الأحزاب: ١٣] أَي

لَيْسَتْ^(١٠) مِمَّا يَمْنَعُ السَّارِقَ^(١١) عَنِ السَّرِقَةِ فِيهَا.

وَفِيهِ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْإِجْتِهَادِ فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ^(١٢) مِنَ الرَّأْيِ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ [فِي الْحَقِيقَةِ جَائِزًا، لِأَنَّهُ]^(١٣) قَدْ سُمِّيَ

ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ فِي الْأَمْرِ، وَنَهَى عَنِ الدَّخُولِ بِلَا اسْتِثْنَانٍ، وَإِنْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْعَوْرَةُ مُسْتَوْرَةً، وَإِبَاحَ فِي غَيْرِهَا مِنْ

الْأَوْقَاتِ الدَّخُولَ بِلَا اسْتِثْنَانٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَادَةً. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

(٦) فِي الْأَصْلِ: يَحْتَمِلُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَحْتَمِلُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: لَيْسَ.

(١١) فِي الْأَصْلِ وَم: السَّرِقُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْأَكْبَرُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ: فِي الْحَقِيقَةِ جَائِزٌ لِأَمْرِ، فِي م: عَلَى الْحَقِيقَةِ جَائِزٌ لِأَنَّهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ كَشَفُ الْعَوْرَةِ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أَي بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ [هَمْ] ^(٢) ﴿طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ غَشَاكُمْ عَنْ بَعْضِهِمْ﴾ لَكِنَّهُ أَبَاحَ وَحَظَرَ بِالْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ^(٣) لَا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَهَكَذَا الْعَمَلُ بِالْإِجْتِهَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ﴾ أَي يَخْدُمُونَكُمْ بَعْدَ هَذِهِ ثَلَاثِ السَّاعَاتِ، وَفِي الثَّلَاثِ لَا.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ يَرِيدُ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ لِأَنَّهَا أَوْقَاتُ التَّجَرُّدِ وَظُهُورِ الْعَوْرَةِ: أَمَّا قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ فَلْيُخْرِجِ مِنَ الثِّيَابِ لِلتَّوَمُّ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أَي بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ﴾ يَرِيدُ أَنَّهُمْ خَدَمُكُمْ، فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَدْخُلُوا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُخْلِدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] أَي يَطُوفُ عَلَيْهِمْ فِي الْخِدْمَةِ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿الظَّهِيرَةُ﴾ نِصْفُ النَّهَارِ، وَظَاهِرُ جَمْعٍ، وَظَهَرْتُ أَي دَخَلْتُ فِي الظَّهِيرَةِ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ فَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ خَاطَبَ بِهِ الْأَوْلِيَاءَ فِي تَعْلِيمِ الْأَدَابِ وَأُمُورِ الدِّينِ الصِّغَارَ، وَلَمْ يُخَاطَبْهُمْ هُوَ حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿لْيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ وَإِذَا بَلَغُوا خَاطَبَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾.

ثُمَّ^(٦) يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وَجْهَيْنِ: يَخْتَمِلُ: إِذَا اخْتَلَمُوا، وَيَخْتَمِلُ إِذَا بَلَغُوا وَقْتُ الْحُلُمِ؛ فَالْأَوَّلُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِخْتِلَامِ، وَالثَّانِي عَلَى قُرْبِ بُلُوغِ الْإِخْتِلَامِ. فَكَانَ الْأَوَّلُ أَشْبَهَ لِأَنَّهُ خَاطَبَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالِاسْتِئْذَانِ. فَلَوْ لَمْ يَكُونُوا بِالْغَيْرِ لَمْ يُخَاطَبْهُمْ، وَلَكِنْ خَاطَبَ بِهِ الْأَوْلِيَاءَ كَمَا خَاطَبَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُولَى.

وفيه دلالة أَنَّ الْحَدَّ فِي بُلُوغِ الصَّغِيرِ الْإِخْتِلَامُ. وَعَلَى ذَلِكَ اتِّفَاقُ الْقَوْلِ مِنْهُمْ.

الَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: كَمَا^(٧) أَمَرَ بِهِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ الْبَالِغِينَ أَلَّا يَدْخُلُوا بَيْتًا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا [وَيُسَلِّمُوا]^(٨) عَلَى أَهْلِهِ، أَوْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي الْكِبَارَ: أَنَّ يَكُونَ الْإِسْتِئْذَانُ فِي الْكِبَارِ مَعْرُوفًا ظَاهِرًا، وَفِي الصِّغَارِ لَا. فَأَمَرَ إِذَا بَلَغُوا أَنْ يَسْتَأْذِنُوا كَمَا يَسْتَأْذِنُ الْكِبَارُ مِنْهُمْ.

وَرُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُوَافِقُ ظَاهِرَ الْآيَةِ، وَهُوَ مَا قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: أَحَدُهَا: الصَّبِيُّ حَتَّى يَخْتَلِمَ»^(٩) وَأَمَّا إِذَا بَلَغَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فِيمَا اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِيهِ:

مَا رَأَى أَبُو يُونُسَ وَمُحَمَّدٌ بِالْعَمَلِ لِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَجَازَهُ فِي الْقِتَالِ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَمْ يُجْزَلْ لَهُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً. لَكِنْ لَيْسَ فِيهِ أَنَّهُ أَجَازَهُ لِيُبْلُوغِهِ، وَلَمْ يُجْزَلْ لَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ. جَائِزٌ إِجَازَتُهُ فِي الْعَامِ الثَّانِي لِتَقْوِيَّتِهِ^(١٠) وَطَاقَتِهِ عَلَى الْقِتَالِ. وَلَمْ يُجْزَلْ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ لِضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ وَعَجْزِهِ عَنِ الْقِتَالِ.

وَاحْتَجَّ بَعْضُ مَشَايِخِنَا، وَوَجَدُوا الْمَعْرُوفَ فِي مَنْ نَقَصَتْ سِنُهُ عَنْ ائْتِنِّي عَشْرَةَ [سَنَةً]^(١١) أَلَّا يَخْتَلِمَ، فَإِذَا بَلَغَهَا قَرُبًا اخْتَلِمَ، فَجَعَلَ حَدَّ الزِّيَادَةِ عَلَى الْخَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً الَّتِي هِيَ وَسَطٌ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ ثَلَاثَ سِنِينَ كَمَا كَانَ بِمِقْدَارِ التَّقْصَانِ عَنْهَا ثَلَاثَ سِنِينَ. وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ قَوْلِهِ اسْتِخْصَانٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَعْلَامُهُ أَي يُبَيِّنُ لَكُمْ الْأَعْلَامَ الَّتِي تَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا، وَتَعْرِفُونَ مَا يَسَعُ لَكُمْ وَمَا لَا يَسَعُ وَمَا يُؤْتَى وَمَا يُتَّقَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: آيَاتُهُ ههنا أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْأَكْبَر. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا (٨) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلْيَبَئِثَ فَوْقَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [النور: ٢٧]، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَبْرَأَ وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ» انظر سنن أبي داود ج ٤/ ٣٠٣ رقم الحديث ٤٣٩٩. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: تَقْوِيهِ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَرَعَةُ مِنَ الْكِسَاءِ الَّتِي لَا يَرْتَحُونَ بِكَلَامِهَا﴾ قال أهل التأويل: قوله: ﴿لَا يَرْتَحُونَ بِكَلَامِهَا﴾ لا يُرَدْنَ نِكَاحاً. لكنَّ الأُشبَه أن يكونَ قوله: ﴿لَا يَرْتَحُونَ﴾ أي لا يَظْلَمُنَّ أن يَرْعَبَ فِيهِنَّ الرِّجَالُ لِكِبَرِهِنَّ، وإلا كُنَّ يُرَدْنَ النِّكَاحَ، وإن كِبَرْنَ، وَعَجِزْنَ.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسَّرْ لَكُمُ اللَّهُ الْخِيَارَ﴾ أي لا يَضَعُ مِنْ ثِيَابِهِنَّ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَسَّرَ لَكُمُ اللَّهُ الْخِيَارَ﴾. وكذلك رُوِيَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ وَهُوَ الرِّدَاءُ.

وقال بعضهم: هو الجِلْبَابُ؛ يُقَالُ: الجِلْبَابُ، هو القِنَاعُ الذي يكونُ فوقَ الخِمَارِ، فلا بأسَ أن تَضَعَ ذَلِكَ عِنْدَ اجْتِنَابِ وَغَيْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا خِمَارٌ ضَيِّقٌ غَيْرُ مُتَبَرِّجَةٍ بِزِينَةٍ. يقول، والله أعلم: مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ وَضَعَتِ الرِّدَاءَ وَالْجِلْبَابَ، تَرِيدُ بِذَلِكَ إِظْهَارَ الزِينَةِ وَالتَّبَرُّجِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ/ ٣٧٣ - ١/ يَسْتَفْتِفْنَ خَيْرَ لَهْمُ﴾ أي وَالَا يَضَعْنَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الثِّيَابِ خَيْرَ لِهِنَّ مِنْ أَنْ يَضَعْنَ. وقال بعضهم: الخِمَارُ، لكنه لا يُحْتَمَلُ لَأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْمَرَأَةَ، وَإِنْ كِبَرَتْ، أَوْ عَجِزَتْ، لَا تُكْشِفُ عَوْرَتَهَا لِأَحَدٍ.

ثم الزينة رُبَّمَا تُكْشَفُ لِلْمَحَارِمِ، وَلَا تُكْشَفُ لِلْغَرِيبِ [وهي في] ^(١) الراسِ وَالصُّدْرِ وَنَحْوَهُمَا ^(٢). فإذا بَلَّغَتْ فِي السَّنِّ مَبْلَغًا لَا تَظْلَعُ أَنْ تُرْعَبَ فِي نِكَاحِهَا، لَا تَتَزَيَّنُ. ومع ما لَا تَفْعَلُ لَا يَحِلُّ لِلْأَجْنَبِيِّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَعْرِهَا وَلَا إِلَى صَدْرِهَا وَلَا إِلَى سَاقِهَا. وإِنَّمَا، وَإِنْ صَلَّتْ، وَرَأْسُهَا مُكْشُوفٌ [فَصَلَّاهَا] ^(٣) فَاسَدَةٌ.

وإذا كَانَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ تَأْوِيلُ وَضْعِ الثِّيَابِ الْخِمَارَ لِمَا ذَكَرْنَا. وَلَكِنْ الرِّدَاءُ وَالْجِلْبَابُ الَّذِي يَلْبَسْنَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ مَنَازِلِهِنَّ.

فإن قيل: إِنَّمَا أُطْلِقَ لَهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا عَنْ رَأْسِهَا إِنْ لَمْ يَرَهَا أَحَدٌ. قيل: الشَّائِبَةُ أَيْضًا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَضَعَ الْخِمَارَ عَنْ رَأْسِهَا إِذَا دَخَلَتْ فِي الْبَيْتِ. فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَجُوزَ أَوْ أَنَّ تَضَعَ الْخِمَارَ عَنْ رَأْسِهَا إِذَا دَخَلَتْ فِي الْبَيْتِ. فَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَجُوزَ أَوْ أَنَّ تَضَعَ ثَوْبَهَا، وَهُوَ الْجِلْبَابُ أَوْ الْمَلَأَةُ الَّتِي كَانَتْ تُغَطِّي بِهَا وَجْهَهَا إِذَا خَرَجَتْ.

وإذا كَانَ الْمُطْلَقُ لَهَا هَذَا فَالْوَاجِبُ عَلَى الشَّائِبَةِ أَلَّا تُظْهَرَ [وَجْهَهَا] ^(٤) إِذَا كَانَتْ تُشَتِّهِى وَلَا يَدْيَهَا. فإذا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] وَهُوَ الزَّيْنَةُ الَّتِي لَا يُحِبُّ سَتْرُهَا بِحَالٍ، وَهُوَ الْكُحْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَي مَظْهَرَاتٍ مُحَاسِنَتُهُنَّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ﴾ أَي غَيْرَ مُتَزَيَّنَاتٍ بِزِينَةٍ، وَالتَّبَرُّجُ الْمُتَزَيَّنَةُ لِإِظْهَارِ الزَّيْنَةِ، وَالزَّيْنَةُ هِيَ الدَّاعِيَةُ الْمُرَغَّبَةُ فِي النَّظَرِ إِلَيْهَا وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ. فَكَانَ أَبَاحُ لَهَا وَضْعَ الثِّيَابِ إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مُتَزَيَّنَةٍ. وَإِذَا كَانَتْ مُتَزَيَّنَةً فَلَا.

وَأَبَاحُ لَهَا أَيْضًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا مُحَاسِنٌ، يُرْعَبُ فِيهَا، وَإِذَا كَانَ بِهَا ذَلِكَ لَمْ يُبَحَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَفْتِفْنَ خَيْرَ لَهْمُ﴾ يَخْتَلِ وَجْهَيْنِ:

[أحدهما] ^(٥): يَخْتَلِ ﴿وَأَنْ يَسْتَفْتِفْنَ﴾ وَلَا يُبْدِينَ مُحَاسِنَهُنَّ ﴿خَيْرَ لَهْمُ﴾ مِنْ أَنْ يُبْدِينَ.

والثاني: ﴿خَيْرَ لَهْمُ﴾ مِنَ الْوَضْعِ كَقَوْلِهِ: ﴿يُدْرِيكَ عَلَيْكَ مِنْ جَلِيلِيهِمْ ذَلِكَ أَذَلُّ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ [الأحزاب: ٥٩]

أَي يُعْرِفَنَّ أَنَّهُنَّ خَوَارِئُ فَلَا يُؤْذِنَنَّ كَمَا تُؤْذِي الْإِمَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَجِيحٌ عَلِيمٌ﴾ كَانَ قَوْلُهُ ﴿وَاللَّهُ سَجِيحٌ عَلِيمٌ﴾ هَهُنَا صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَتْ لَكُمْ إِلَهٌ مِثْلُكُمْ﴾ وَإِلَّا لَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يُوَصِّلُ بِهِ، أَوْ يَكُونُ جَوَابًا لَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

قَالَ الْفَتِيُّ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ هُنَّ الْمُعْجَرُ، وَاجِدَتْهَا^(١) قَاعِدٌ، وَيُقَالُ: إِنَّمَا قِيلَ لَهَا: قَاعِدٌ لِقَعُودِهَا عَنِ الْحَبِضِ وَالْوَلَدِ، وَمِثْلُهَا تَرْجُو النِّكَاحَ، أَيْ تَطْمَعُ فِيهِ [وَلَا أَرَاهَا]^(٢) سُمِّيَتْ قَاعِدًا بِالْقَعُودِ عَمَّا ذُكِرَ، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا أَسْنَتْ عَجِزَتْ عَنِ التَّصَرُّفِ وَكَثْرَةِ الْحَرَكَةِ، وَأَطَالَتْ الْقَعُودَ، فَقِيلَ لَهَا: قَاعِدٌ بَلَا هَاءٍ لِيَذُلَّ بِحَذْفِ الْهَاءِ عَلَى أَنَّهُ قَعُودٌ كَبِيرٌ كَمَا قَالُوا: امْرَأَةٌ حَامِلٌ بَلَا هَاءٍ لِيُعْرَفَ عَلَى أَنَّهُ حَمْلٌ حَبَلٍ. وَقَالُوا فِي غَيْرِ ذَلِكَ: قَاعِدَةٌ فِي بَيْتِهَا، وَحَامِلَةٌ عَلَى ظَهْرِهَا.

وَقَالَ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ: وَامْرَأَةٌ وَاضِعٌ إِذَا كَبِرَتْ، فَوَضَعَتِ الثِّيَابَ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا فِي الْهَرَمَةِ.

وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَةٍ﴾ أَيْ غَيْرَ مُظْهِرَاتٍ مُحَاسِنَتُهُنَّ، وَالْمُتَبَرِّجَةُ الْمُتَزَيِّنَةُ. وَحَاصِلُ^(٣) قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَسِرْ عَلَيْكَ جُنَاحُكَ أَن يَبْهَتَ بِهَا بَعْضُ نِسَائِكَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ:

أَحَدُهُمَا: يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَزُجُونَ نِكَاحًا﴾ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَةٍ بِرِسَةٍ﴾ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَرْفَيْنِ يَكُونُ مَعْنَاهُ مَعْنَى الْآخَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَفَّحَاتٍ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٥] إِذَا كُنَّ مُحْصَنَاتٌ كُنَّ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ، وَإِذَا كُنَّ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ كُنَّ مُحْصَنَاتٍ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَزُجُونَ نِكَاحًا﴾ إِذَا كُنَّ لَا يَزُجُونَ النِّكَاحَ كُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّ التَّزْيِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهُنَّ طَمَعًا فِي النِّكَاحِ.

وَالثَّانِي: مَعَ مَا لَا يَزُجُونَ النِّكَاحَ يَتَزَيَّنَّ، وَيَتَبَرَّجْنَ، فَقَالَ: ﴿فَلْيَسِرْ عَلَيْكَ جُنَاحُكَ أَن يَبْهَتَ بِهَا بَعْضُ نِسَائِكَ﴾ غَيْرَ مُظْهِرَاتٍ الزَّيْنَةِ.

عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ جَائِزٌ أَنْ يُخْرِجَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَن يَسْتَفِيقَنَّ﴾ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْاَغْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْاَغْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الْآيَةُ. اخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الرَّجُلَ الصَّحِيحَ كَانَ يَتَخَرَّجُ مُوَاَكَلَةً الْاَغْمَى وَالْاَغْرَجَ وَالْمَرِيضَ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةً؛ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَبْصُرُ طَلِبَ الطَّعَامِ، وَلَعَلَّهُ يَأْكُلُ الْخَبِيثَ، وَأَنَا أَكُلُ الطَّيِّبَ، وَيَقُولُ: إِنَّ الْاَغْرَجَ لَا يَسْتَوِي جَالِسًا إِذَا قَعَدَ، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَنَاوَلَ [كَمَا أَتَنَاوَلُ]^(٤) أَنَا، وَإِنَّ الْمَرِيضَ لَا يَأْكُلُ مِثْلَ مَا يَأْكُلُ الصَّحِيحُ. وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ أَبِيهِ وَلَا مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِذَا لَمْ يَكُونَا فِيهِ. وَكَذَلِكَ الصَّدِيقُ وَهَوْلَاءُ. فَانْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً لِذَلِكَ كُلِّهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ هَوْلَاءَ الشُّرَاضِ: الْعُمَيَّانَ وَالْعُرَجَ وَالْمَرَضَى وَأُولِي الْحَاجَةِ مِنْهُمْ، يَسْتَنْبِغُهُمْ رِجَالٌ إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَيَسْتَضِيفُونَهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ طَعَامًا أَوْ شَيْئًا يَأْكُلُونَهُ ذَهَبُوا بِهِمْ إِلَى بُيُوتِ آبَائِهِمْ وَمِنْ عَدَدَ مَعَهُمْ، فَكَرِهَ ذَلِكَ الْمُسْتَضِيعُونَ التَّنَاولَ فِي غَيْرِ بُيُوتِ أَوْلِيائِهِمْ وَلَا إِذْنٍ، سَبَقَ مِنْهُمْ. فَانْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِبَاحَةً لَهُمْ وَرُخْصَةً، وَأَحَلَّ لَهُمْ الطَّعَامَ حَيْثُ وَجَدُوهُ.

وَقَالَ [بَعْضُهُمْ]^(٥): إِنَّ الْاَغْمَى وَالْاَغْرَجَ وَالْمَرِيضَ وَهَوْلَاءَ الَّذِينَ كَانَتْ بِهِمْ زَمَانَةٌ، كَانُوا يَتَخَرَّجُونَ مُوَاَكَلَةً الْأَصْحَاءِ مَخَافَةَ أَنْ يَتَفَرَّقُوا مِنْهُمْ، وَيَسْتَفْزِرُوا.

يَقُولُ الْاَغْرَجُ: لَا أَكُلُ النَّاسَ لِأَنِّي أَخُذُ مِنَ الْمَجْلِسِ مَكَانَ رَجُلَيْنِ، وَأَضِيقُ عَلَيْهِمْ.

وَيَقُولُ^(٦) الْاَغْمَى: إِنِّي أَفْسِدُ عَلَيْهِمْ طَعَامَهُمْ، وَكَذَلِكَ الْمَرِيضُ مِنْهُمْ، يَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَانْزَلَ اللَّهُ الرُّخْصَةَ فِي ذَلِكَ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ الْجُنَاحَ فِي مُوَاَكَلَتِهِمْ؛ يَقُولُ: إِنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْحَمُوهُمْ لَمَّا بَكُمُ مِنَ الزَّمَانَةِ وَأَنْ يَدْعُوا لَكُمْ بِالرَّفْعِ عَنْكُمْ لَا التَّفَرُّقَ وَالْاِسْتِغْثَارَ مِنْكُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الرَّجُلَ الْغَنِيَّ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ الْفَقِيرِ وَالزَّيْنِ، فَيَدْعُوهُ^(٧) إِلَى طَعَامِهِ، فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَجْنَحُ، وَلَا أَخْرُجُ أَنْ أَكُلَ مِنْ طَعَامِكَ، وَأَنَا غَنِيٌّ، وَأَنْتَ فَقِيرٌ، فَانْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاحِدًا. (٢) م: فِي الْأَصْلِ: وَلَا إِذَا بَهَا. (٣) م: فِي الْأَصْلِ: وَالتَّزْيِينَ. (٤) فِي م: فِيمَا أَتَنَاوَلَ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (٧) م: فِي الْأَصْلِ: فَيَدْخُلُ.

وقال بعضهم: كان هذا في أهل الجهاد، وإن الرجل كان يخرج إلى الجهاد، فيُخْلِفَ آخَرَ في منزله في حفظ ماله وأهله والقيام بكفائتهم، فكان يخرج، ولا يأكل من ماله شيئاً إلا من طعامه لما لم يسبق منه الإذن في ذلك. [فانزّل الله]^(١) في ذلك رخصة وإباحة التناول من ذلك.

إلى هذا انتهت أقاويل أهل التأويل وتأويلهم.

والأشبه عندنا أن يكون تأويل الآية في غير ما ذهبوا هم إليه، وهو أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء حرج أن يأكلوا من بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بيوت إخوانهم أو بيوت أخواتهم أو بيوت أعمامهم إلى قوله: ﴿أَوْ بِيُوتِ حَلَائِكُمْ﴾ لأنهم إنما يأكلون بالحق لأن من كان به زمانة كان له التناول من أموال ما ذكر من الآباء والأمهات والقربات؛ إذ تُفَرَضُ لَهُمُ الثَّقَّةُ في أموالهم، فيكون في ذلك دالة وجوب الثَّقَّةِ لهم في أموالهم، ويكون ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ جناح ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾... ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَخَافَتُهُ أَوْ صَدِيقَتُهُمْ﴾ أي بأس أن تأكلوا من بيوتكم أو ما ملكتكم مفاتيحه أو صديقكم؛ إذ ليس يُباح للرجل التناول من مال نفسه ومن مال صديقه في حال عذره، ولا يُباح في حال الضعة والسلامة، بل يُباح في الأحوال كلها.

دل أن التأويل الذي ذكرنا أشبه؛ فيُصَرَّفُ تناول الرُمنى من أموال القربات بحق الثَّقَّةِ، والحق لمن^(٢) ليس به زمانة في ماله ومال صديقه بحق الملك والصدقة، لأن الزمانة ترفع الصدقة من بينهم، وكذلك وجوب الثَّقَّةِ في مال الصديق ترفع الصدقة / ٣٧٣ - ب/ ولا ترفع القربة، ولا تزول صلتها.

ثم اختلف في قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ قال بعضهم: من بيوت أولادكم. وقال بعضهم: من بيوت [أزواجكم ونسائكم]^(٣). وقال بعضهم: من بيوت أنفسكم^(٤)، وهو ما يجد الرجل في بيته من طعام، فإنه لا بأس أن يأكله، ولذلك لا بأس للرجل أن يتناول من بيت زوجته لأنه لم يذكر في الآية بيت الولد، وبيت الزوجة على الإشارة والتفسير، فيصرفون تأويل قوله: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَخَافَتُهُ﴾ أي خزيته؛ يَحْتَمِلُ الْعَبْدُ لَأَنَّ السَّيِّدَ يَمْلِكُ مَالَ عَبْدِهِ، وَيَحْتَمِلُ الْوَكِيلُ وَالْخَازِنُ: أَنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ وَأَدَمِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ السَّيِّدِ، وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَخَافَتُهُ﴾ السَّيِّدُ نَفْسَهُ صَاحِبَ الْخِزَانَةِ وَمَالِهَا.

ثم ذكر الأكل من بيوت من ذكر على التأويل الذي ذكرنا، واستدلنا على إيجاب الثَّقَّةِ لهؤلاء الرُمنى في أموال من ذكرنا من القربات يخرج على وجهين:

أحدهما: ذكر البيوت لأنهم إذا كانوا رُمنى يستوجبون السكنى أيضاً مع الثَّقَّةِ، فذكر البيوت لكونهم فيها وسكنائهم معهم.

والثاني: ذكر الأكل من بيوتهم لئلا يفهم من الأكل الأخذ منها لأنه ذكره في آيات الأكل، والمراد المفهوم منه الأخذ كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الذِّبُّ مَأْمُورًا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ خُلَافًا﴾ [النساء: ١٠] وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران: ١٣٠] مفهوم المراد من الأكل في هذه الآيات الأخذ لا الأكل نفسه.

فذكر ههنا الأكل من بيوتهم لئلا يفهم منه الأخذ كما فهم من تلك.

وعلى تأويل أهل التأويل مستقيم ظاهر ذكر البيوت إذ لا يجعلون ذلك الأكل والتناول منه انحلاً وتناولاً بحق.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قال بعضهم: ذكر هذا لأن قوماً كانوا لا يأكلون

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ومن. (٣) في الأصل وم: أزواجهم ونسائهم. (٤) في الأصل وم: أنفسهم.

وَحَدَّثَهُمْ^(١)، وَلَا يَزُونَ ذَلِكَ حَسَنًا فِي الْخُلُقِ، وَيَتَحَرَّجُونَ [عَنْ^(٢)] ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مَعَهُمْ غَيْرُ [وَاحِدٍ]^(٣) فَرَخَّصَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ذَلِكَ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ الْحَرَجَ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيبَةً أَوْ أَمْتًا﴾.

وعلى تأويل مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُمْ اسْتَضَافُوا قَوْمًا، فَلَمْ يَجِدُوا فِي بَيْتِهِمْ شَيْئًا يَأْكُلُونَ، فَذَهَبُوا بِهِمْ إِلَى بُيُوتِ هَؤُلَاءِ، فَيَتَحَرَّجُ أُولَئِكَ الْأَصْيَافُ الْأَكْلَ مِنْ بُيُوتِ مَنْ ذَكَرَ، وَأَرَبَابُ الْبُيُوتِ لَيْسُوا فِيهَا، فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وعلى تأويل مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ الْأَكْلَ مَعَ الْعُمَيَّانِ^(٤) إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ وَتَرْحُمًا لِمَا لَا يُبْصِرُونَ طَيِّبَ الطَّعَامِ، وَلَا يَأْكُلُونَ مَا يَأْكُلُ الصَّحِيحُ، فَرَفَعَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْحَرَجَ، وَرَخَّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

وعلى تأويل مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ الْأَكْلَ مَعَ هَؤُلَاءِ تَغَرُّزًا وَاسْتِغْذَارًا، فَرَغَّبَهُمْ فِي الْأَكْلِ مَعَ أُولَئِكَ وَتَرَكَ التَّغَرُّزَ مِنْ ذَلِكَ.

وَبَدَّلَ التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ [عَلَى^(٥)] مَا رُوِيَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ؛ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ [أَنَّهُ^(٦)] قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالذَّنَائِيرِ وَالِدِرَاهِمِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ. قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ الدِّينَارُ وَالِدِرَاهِمُ أَحَبَّ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» [بَنَحْوِهِ أَحْمَدُ: ٤٢/٢].

وَعَنْ ابْنِ عُثْمَرَ [أَنَّهُ^(٧)] قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتَنِي وَمَالَ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَحَقُّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» [بَنَحْوِهِ أَحْمَدُ ٨٤/٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيْ يُسَلِّمُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ. فَصَيَّرَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ^(٨) بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كَأَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٩] أَيْ لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٩] وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

فَصَيَّرَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كَأَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَشِيءٌ وَاحِدٌ؛ يَتَأَلَّمُ بَعْضُهُمْ بِأَلَمِ بَعْضٍ، وَيَحْزَنُ بَعْضُهُمْ بِحُزْنِ بَعْضٍ، وَيُسَرُّ بَعْضُهُمْ بِسُرُورِ بَعْضٍ وَنَحْوَهُ. فَهُمْ جَمِيعًا كَشِيءٍ وَاحِدٍ، وَأَنْفُسُهُمْ جَمِيعًا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. لِذَلِكَ جَعَلَ سَلَامَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي حَقِّ السَّلَامَةِ^(٩) وَاحِدًا.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ بَعْضَهُمْ إِذَا سَلَّمَ عَلَى بَعْضٍ، رَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهُ، فَصَيَّرَ كَأَنَّهُ هُوَ يُسَلِّمُ عَلَى نَفْسِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ لَا يَقْتُلُ أَحَدٌ آخَرَ، فَيُقْتَلُ بِهِ، فَيَكُونُ قَاتِلٌ نَفْسِهِ، إِذْ لَوْلَا قَتْلُهُ لِيَأْتِ، لَمْ يَقْتُلْ بِهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ إِنَّهُ إِذَا أَكَلَ مَالَ غَيْرِهِ بِغَيْرِ رِضَا ضَمَنَهُ، فَإِذَا ضَمَنَهُ فَكَأَنَّهُ أَكَلَ مَالَ نَفْسِهِ بِالْبَاطِلِ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ السَّلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَيْ يُسَلِّمُ كُلٌّ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ.

وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ^(١٠)] قَالَ: أَرَادَ الْمَسَاجِدَ؛ إِذَا دَخَلْتَهَا فَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ [وَعَلَى ذَلِكَ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: «مَنْ دَخَلَ بَيْتًا أَوْ مَسْجِدًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، وَالسَّلَامُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ»]^(١١) [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٧٤/٨].

وعلى ذلك جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا وَغَيْرِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

وَجَائِزٌ أَنْ يُرَادَ بِالْأَنْفُسِ أَهْلُهُمْ، أَيْ سَلِّمُوا عَلَى أَهْلِكُمْ، وَهُوَ الْأَوَّلَى.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي السَّلَامِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: السَّلَامُ مِنَ السَّلَامَةِ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ وَالنَّكَبَاتِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّلَامُ هُوَ اسْمُ مَنْ أَسَمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى الْحُسْنَى؛ فَتَأْوِيلُهُ: عَلَيْكَ اسْمُ اللَّهِ الَّذِي لَا [يَضُرُّكَ مَعَهُ]^(١٢) شَيْءٌ، وَلَا يُلْحَقُكَ بِهِ أَذَى كَقَوْلِهِ بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [أَحْمَدُ: ٦٢/١ وَ٦٣].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَحْدَهُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْأَعْمَى وَمِنْ ذَلِكَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: أَجْمَعٍ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: السَّلَام. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَضُرُّ مَعَكَ.

وقوله تعالى: ﴿نَجِيَّةً يَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ النجاة كآتيا الكرامة، كأنه قال: كرامة من عند الله لكم.

وقوله تعالى: ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ المبدأ هو الذي يُنال به كل خير وبر، أو [سُمي مباركاً]^(١) لما فيه ينمو الشيء، ويذكر.

وقوله تعالى: ﴿مُطِيبَةً﴾ أي ما يستطيع^(٢) كل أحد. وقال بعضهم: ﴿مُطِيبَةً﴾ أي حسنة؛ فتأويله: ما يستحسنه^(٣) كل أحد. وقال بعضهم: قوله: ﴿نَجِيَّةً يَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول: سلام من أمر الله لكم ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ بالأجر ﴿مُطِيبَةً﴾ بالمغفرة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ﴾ أي مثل الذي ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تفعلوا ما لكم وما عليكم وما لله عليكم وما ليفضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ ما ذكرنا. قال بعضهم: المساجد، وقال بعضهم: البيوت المسكونة كقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧].

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ كقوله^(٤) في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ الآية [الحجرات: ١٥] وقوله^(٥) في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

هذا، والله أعلم، ليس أن ما ذكر من الاستئذان وترك الارتباب وزيادة الإيمان بالثلاوة ونحوه من شرط الإيمان. ولكن، والله أعلم، إن الأولى بالمؤمنين هذا: ألا يذهبوا حتى يستأذنوا رسولهم، وألا يرتابوا، وأن يجاهدوا، وأن تزيدهم^(٦) الثلاوة ما ذكر. ليس على جعله شرطاً للإيمان، ولكن ما ذكرنا من الأولى بهم والاختيار لهم ما ذكر، والله أعلم.

ثم ذكر في هذه الآية أن المؤمنين لا يذهبون عنه، ولا يفارقونه إلا بالاستئذان منهم من رسول الله، وذكر أن المنافقين يذهبون، ويفارقون تسلاً ولوإذا حين^(٧) قال: ﴿قَدْ بَلَغَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ يُسَلِّطُ لَكُمْ لُؤْلُؤًا﴾ [النور: ٦٣] وقال في آية أخرى: ﴿لَا يَسْتَنْذِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤] ذكر أنهم لا يستأذنونك، وإنما يستأذنونك/ ٣٧٤ - ١ / المنافقون بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَنْذِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥].

فهذه الآيات في ظاهر المخرج مختلف، وإن كانت في المعاني المذرجة فيها متوافقة^(٨). فهذا يبطل قول من يخرج بظاهر المخرج؛ إذ للملحدة أن تقول: هو مختلف في الظاهر، وإنه من عند غير الله يقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فدل ما ذكرنا أن الاحتجاج بظاهر المخرج باطل، والإعتقاد به فاسد خبال.

ثم جاز أن يكون ما ذكر من استئذان المؤمنين وترك استئذان أولئك للخروج منه إما لا يستأذنه المؤمنون للخروج من عنده إلا بعذر، وأولئك يستأذنون للخروج لا للعذر كقوله تعالى: ﴿إِنْ يُونَا عَوْرَةً وَمَا مِنْ عَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]. وأما المؤمنون فلا يستأذنون إلا بعذر، أو أن يكون ذلك في نوازل مختلفة أو في فرق، أو أن يكون المؤمنون يظهرون له عذرهم، ويقوضون أمورهم إلى رسول الله على أن ينظر في ذلك؛ فإن رأى الصواب الكون والمقام معه أقاموا معه، والمنافقون لا على ذلك كانوا يفعلون.

وعلى هذا، والله أعلم، جاز أن يخرج تأويل الآيات التي ذكرنا.

ثم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي مع رسول الله ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ اختلف فيه: قال بعضهم: يوم الجمعة ويوم

(١) في الأصل وم: يسمى مباركة. (٢) في الأصل وم: يستطيع به. (٣) في الأصل وم: يستحسن به. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: يزداد لهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: موافقة.

العبد. وقال بعضهم: في العزِّ والجهاد في سبيل الله؛ يُخبر أن المؤمنين يكونون معه، لا يذهبون عنه إلا بإذن، والمنافقين يتسللون، ويذهبون؛ مستخفين منه، ويقعدون، ويخرجون من عنده.

وأصله: ﴿وَلَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي مع رسول الله ﴿عَلَّ أَمْرُ جَائِجٍ﴾ على أمر طاعة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾.

قال بعض من أهل التأويل: هذه الآية نسخت الآية التي في سورة ﴿بَرَاءَةٌ﴾ حيث قال في ذلك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ الآية [الآية: ٤٣] وقال في سورة النور ﴿فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذن له بالإذن لهم. لكن الوجه فيه ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأمر بالاستغفار لهم يُخرج مُخْرَجَ الأمر بالتشفع لهم.

الآية ٦٣

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ إياكم إلى ما يدعوكم إليه ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ مرة تُجيبونه، ومرة لا تُجيبونه كما يجب بَعْضُكُمْ بَعْضًا إذا دعاه مرة، ولا يُجيبه تارة. بل أجيبوا رسول الله في جميع ما يدعوكم إليه في كل حال تكونون.

والثاني: لا تجعلوا دعاءكم الرسول إذا دعواكم كما يدعو بعضكم بعضاً: يا فلان، ويا فلان، ولكن اذعوه باسمه المخصوص^(١) يو: يا رسول الله، ويا نبي الله على ما أقررت أنه مخصوص من بينكم، ليس كمثلكم.

فعلى ذلك في الدعاء والإجابة اجعلوه مخصوصاً تعظيماً له وإجلالاً خصوصية له وقصيلة، وهو ما ذكر^(٢) في آية أخرى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَسْرَاتِكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ بَيْنَكُمْ لِيُذْهِبُوا عَنْهُمْ﴾ قال بعضهم: إن المنافقين إذا كانوا في أمر جامع، فيسمعون رسول الله، يذكرون مثاليهم ومساوئهم وغيوبهم، فيستلون كراهية لما سمعوا، يلوذ بعضهم ببعض، وقال بعضهم: نزلت^(٣) هذه في المنافقين الذين كانوا يذهبون عنه، ويخرجون من عنده بغير استئذان منهم.

وقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبُوا عَنْهُمْ﴾ أي يستيروا بالشيء، ويلوذ بعضهم ببعض، ويستتر بعضهم بعضاً^(٤)، فيخرجون.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي يخالفون أمره، وحرف ﴿عَنْ﴾ يكون صلة فيه.

وجائز أن يكون على ظاهر ما ذكر ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فإن كان على هذا فكانه قال: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي يغدلون عن أمره، ويرغبون عنه كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغِبْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبا: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ تَحْتَمِلُ الفِتْنَةُ الكُفْرَ [وتَحْتَمِلُ^(٦) القتال والتغذيب في الدنيا أو تُصِيبُهُمْ عَذَابٌ آخِرٌ في الآخرة، والله أعلم.

الآية ٦٤

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليس ههنا ما يستقيم أن يجعل قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صلة له؛ اللهم إلا أن يجعل ذلك صلة قول^(٧) مَنْ يَجْعَلُ لَهُ الْوَلَدَ وَالشَّرِيكَ أو صلة قوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فنقول: مَنْ لَهُ ما في السموات والأرض لا يَحْتَمِلُ أَنْ تَقَعَ [لَهُ^(٨) الحاجة إلى الولد أو الشريك، وَمَنْ لَهُ مُلْكُ ما في السموات والأرض يختار لرسالته مَنْ يَشَاءُ بشراً أو ملكاً، ليس لأحد القول في ذلك القول، والله أعلم.

(١) في الأصل: ادعوا باسم هو مخصوص. (٢) من م، في الأصل: ذكرنا. (٣) في الأصل: نزل، في م: ببعض، وقال بعضهم: نزل. (٤) في الأصل: م: ببعض. (٥) من م، في الأصل: و. (٦) من م، في الأصل: و. (٧) في الأصل: وم: قوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَرَ عَلَيْهِ﴾ هذا وعيد وإعلام أنه مراقبهم مطلع عليهم في جميع أحوالهم ليكونوا أبدأ على خذر؛ لأن من علم أن عليه رقيباً وحافظاً كان أئباً وأيقظ وأحذر ممن لا يعلم ذلك، أو يكون على علم بأحوالكم وما أنتم عليه من الخلاف لأمره [لأنه خلقكم، وأرسل إليكم رسلاً^(١)] لا على جهل بذلك وغفلة، أو يؤخر عنكم العذاب على علم بما أنتم عليه لليوم الموعود لا يسهر وغفلة كقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

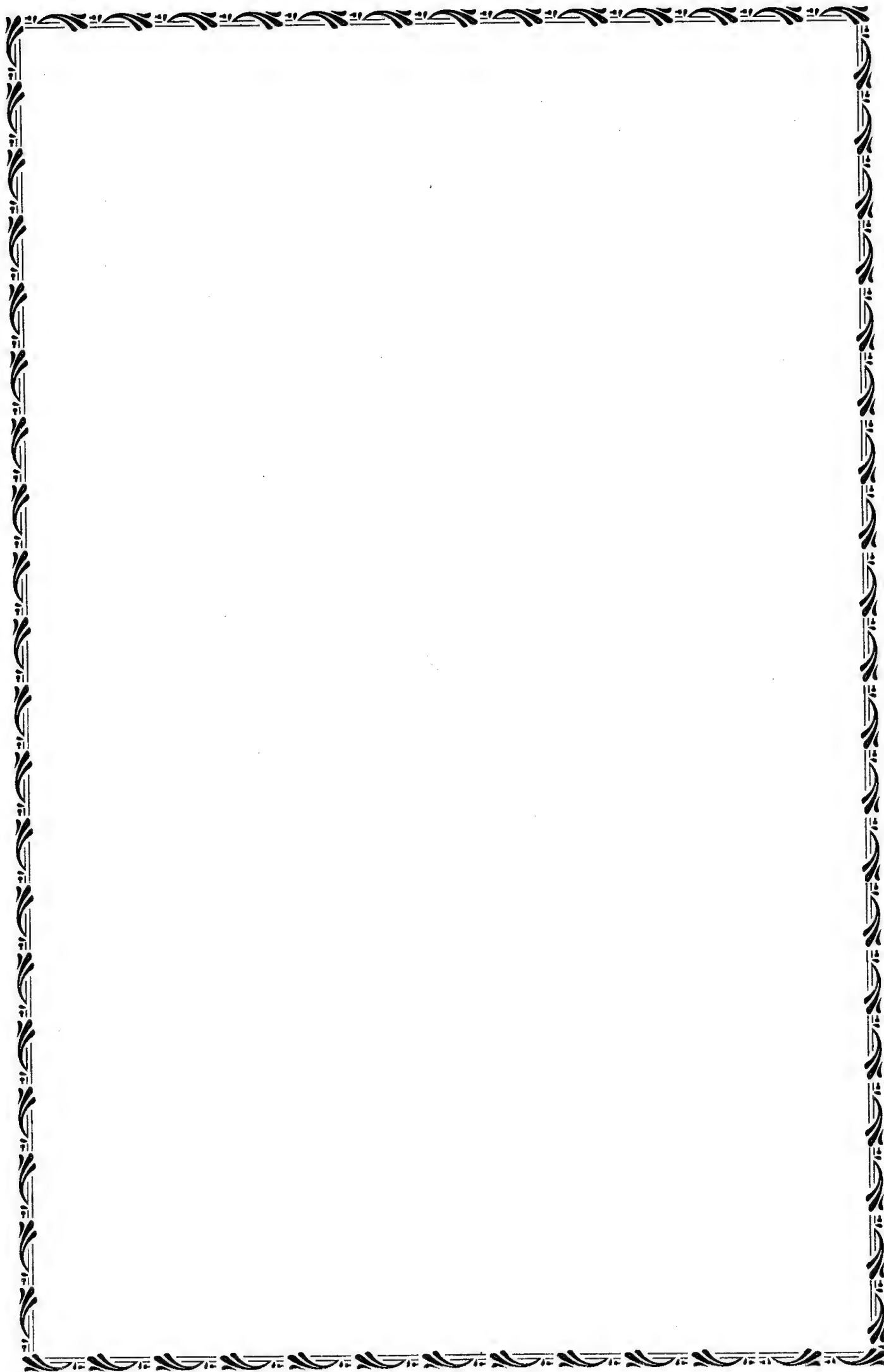
فعلّى ذلك قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتَرَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي إنما يؤخر ذلك عنهم إلى يوم الرجوع إليه. فعند ذلك يُنبئهم ﴿بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قال أبو عوسجة: ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي يذهبون مُستخفين، ويقال: انسل الرجل أي انسرق من الناس، أي فارقه، ولا يعلمون به والتسلل [إنما يستعمل]^(٢) إذا كان الاستخفاء من الجماعة، وقوله: ﴿لِوَادَا﴾ يقال: لاد مني، أي استتر، واختبأ مني، واختفى، ويقال: لاد بي، أي استتر بي.

وقال القتيبي: قوله: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادَا﴾ أي [يستتر كل]^(٣) بصاحبه في انسلاله، ويخرج، يقال: لاد فلان، واللواذ مضدر [وصلّى الله سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبه نستعين]^(٤).



(١) في الأصل وم: خلقكم أو أرسل إليكم رسلاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: من يستتر. (٤) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الفرقان

مَكِّيَّةٌ (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية ١

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ قال أهل التأويل: ﴿تَبَارَكَ﴾ مِنَ التَّعَالَى، وهو من تعالي لأن البركة هي اسم كل رفعة وقصيلة وشرف، فكان تأويله: تعالي من التعالي والارتفاع. وقال أهل الأدب: ﴿تَبَارَكَ﴾ هو من البركة، والبركة هي اسم كل فضل وبر وخير، أي به ينال كل فضل/ ٣٧٤ - ب/ وشرف وبر.

قال أبو عوسجة: ﴿تَبَارَكَ﴾ هو تنزيه، مثل قولك: تعالي: وقال الكسائي والقشيري: هو من البركة، وهو ما ذكرنا. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ سَمَاءُ فُرْقَانًا. قال بعضهم: لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام وبين ما يؤتى وما يتقى.

وعلى هذا جائز أن تسمى جميع كتب الله التي أنزلها على رُسُلِهِ فُرْقَانًا لأنها تفرق بين الحق والباطل وبين ما يحل وما يحرم وبين ما يؤتى وما يتقى. ولذلك سَمِيَ التوراة فُرْقَانًا بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. وأما القرآن فهو من قرآن بغضه إلى بغض؛ يقال: قرئت الشيء إلى الشيء، إذا ضُمَّتْهُ إِلَيْهِ، قرآن يقرن قرآنًا. وقال بعضهم: سَمِيَ [القرآن فُرْقَانًا] (٢) لأنه أنزلهُ بالتفريق مُفَرَّقًا، وسائر الكتب أنزلَ مجموعة. لكن الوجه فيه ما ذكرنا بدءًا، وهو أقرب وأشبه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمَاتِ نَذِيرًا﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿لِلْعَلَمَاتِ نَذِيرًا﴾ أي القرآن الذي أنزلهُ على عبده يكون نذيرًا لمن ذكر.

ويحتمل قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمَاتِ نَذِيرًا﴾ أي ليكون محمد بالقرآن الذي أنزل عليه نذيرًا كقوله: ﴿وَلَا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكقوله: ﴿وَأَوْحَى إِلَهُ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَتُذَكَّرُ بِهِ وَمَنْ يَلُغْ﴾ [الأنعام: ١٩] أي من بلغ القرآن من الخلق فرسول الله نذيره.

ثم قوله: ﴿لِلْعَلَمَاتِ﴾ جائز أن يراد به الإنس والجن.

ثم ذكر النذارة فيه، ولم يذكر البشارة. فإن كان على هذا فهو حجة لأبي حنيفة، رحمه الله، أن ليس للجن ثواب إذا أطاعوا سوى النجاة من العقاب، ولهم عقاب بالأجرام، لأن الله تعالى، لم يذكر لهم الثواب في الكتاب، وذكر لهم العقاب بالعصيان حين (٣) قال: ﴿يَقُومُونَ لِمِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآيُونَا بِهِ بِغَيْرِ لَكُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٣١] جعل ثوابهم نجاتهم من عذاب اليم.

وجائز أن يكون في النذارة بشاراً أيضاً؛ [بشارة] (٤) ما كان وما يكون إلى يوم القيامة؛ لأنهم إذا اتقوا مخالفة الله ومعاصيه كانت لهم العاقبة، فلم يُمْ بشاراً في ذلك ونذارة كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

(١) من م، أدرج قبلها في الأصل: كلها أنزلت بمكة وهي. (٢) من م، في الأصل: الفرقان قرآنًا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِكْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿لَمْ يَلِكْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صلة قوله: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، ووجهها^(١)، والله أعلم: أي تعالى عن أن يكون النذير الذي بعثه إليهم، إنما بعثه لحاجة نفسه: ليجر منفعة إليه أو يدفع مضرة عنه على [ما يبتغى]^(٢) ملوك الأرض من الرسل لحوائج أنفسهم: إما ليجر منفعة إليهم أو يدفع مضرة عنهم.

ولكن إنما يبتغى النذير والبشير إلى الخلق لِمَنَافِعِ أنفسهم، إذ لا يتحمل أن يكون من له ملك السموات والأرض أن يبتغى النذير والبشير لِمَنَافِعِ نفسه ولحاجته لِنَفْسِهِ.

وأما ملوك الأرض فلا يملكون ذلك، ويبتغون^(٣) الرسل، ويُرسلون لِمَنَافِعِ أنفسهم وحوائجهم: يدفع مضرة أو جَرِ منفعة.

وجائز أن يكون قوله: ﴿بَارَكَ﴾ أي تعالى عن أن يتخذ ولداً أو شريكاً في الملك على ما نسبوا إليه من الولد أو الشريك، فقال: تعالى عن أن يكون له الولد أو الشريك؛ إذ له ملك السموات والأرض. فالولد في الشاهد إنما يتخذ لإحدى خلال ثلاث، وقد ذكرنا.

وبعد فإن الولد في الشاهد إنما يكون من جنس الوالد ومن جوهريه، ويكون من أشكاليه. وكل ذي شكل تكون فيه منفعة وآفة. وكذلك الشريك إنما يكون من جنسه ومن شكله، وإنما تقع الحاجة إلى [الولد أو الشريك] إما لعجز أو آفة^(٤).

فإذا كان الله، سبحانه، ﴿الَّذِي لَمْ يَلِكْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو خالقها، فأنى تقع له الحاجة إلى الولد أو الشريك؟

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: فيه دلالة نقض قول المعتزلة لأنه أخبر أنه خلق كل شيء. وعلى قولهم: أكثر الأشياء، لم يخلقها، من الحركات والسكون والاجتماع والافتراق^(٥) وجميع الأعراض؛ فهم^(٦) يقولون: إنها ليست بمخلوقة الله، ولا صنع له فيها.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَرَهُ قَدِيرًا﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿فَقَدَرَهُ قَدِيرًا﴾ لإحكامه، أو قدره تقديراً ليوحدانيته^(٧) والوحيته، أو قدره تقديراً؛ أي جعل له حداً؛ لئلا اجتماع الخلائق على ذلك ما عرفوا قدره ولا حده من صلاح وغيره ما لو لم يقدر ذلك لفسد.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي مغبودين^(٨). ثم تسميته إياها؛ أعني الأصنام التي عبدوها، آلهة، [على ما عندهم وفي زعمهم]^(٩) فالآلة عند العرب مغبود، ويسمون كل مغبود إلهاً [وهو كقولهم]^(١٠): ﴿رَأَى إِلَهَ الْإِلَهِينَ﴾ [الصفات: ٩١] عندهم وفي زعمهم، وقول موسى ﴿وَانْظُرْ إِلَٰهَ الْإِلَهِ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] في زعمهم وعندهم أن كل مغبود إله.

لقد^(١١) عابهم بتسميتهم الأصنام آلهة، ثم بين سفههم وقلة فهمهم في عبادتهم الأصنام وتسميتهم إياها آلهة حين^(١٢) قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي يتركون عبادة من يعلمون أنه خالق كل شيء، ويعبدون من يعلمون أنهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون^(١٣) أي يتركون عبادة من يعلمون [أنه يملك النفع والضر]^(١٤) [[ويعبدون من يعلمون]^(١٥) أنه لا يملك النفع لهم ولا الضر^(١٦) ولا يملكون لأنفسهم سراً ولا نقماً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً^(١٧) أي يعبدون من يعلمون أنه لا يملك النفع لهم إن عبدوه ولا الضر إن تركوا عبادته، ولا يملكون النفع والضر^(١٨) لأنفسهم أيضاً، وهو قوله: ﴿وَلَا

(١) في الأصل وم: ووجهه. (٢) في الأصل وم: يبتغى. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: من الرسل إنما يبتغى من. (٤) في الأصل: إما لعجز لا رافة، في م: الولد إما لعجز أو آفة. (٥) في الأصل وم: والفرق. (٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) في الأصل وم: لوحانية الله. (٨) في الأصل وم: مغبود. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وكذلك قوله. (١١) في الأصل وم: وإلا. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من م.

يَتَلَكَّوْنَ أَنْفُسَهُمْ مَرًّا وَلَا تَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُونَ لِغَيْرِهِمْ. فَعَلَىٰ هَذَا الظَّاهِرِ يَجِيءُ أَنْ يَكُونُوا هُمْ سَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ [الْأَصْنَامَ آلِهَةً] ^(١) لَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ ضَرَرَ الْأَصْنَامِ، وَلَا ^(٢) تَمْلِكُ ذَلِكَ لَهُمْ وَلَا لِأَنْفُسِهَا.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي الموت الذي ^(٣) كان قبل أن يُخْلَقَ النَّاسُ كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُونَا؟﴾ [البقرة: ٢٨]. وأما قوله: ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ فيقول: لا يَمْلِكُونَ أَنْ يَزِيدُوا فِي هَذَا الْأَجَلِ الْمُؤَجَّلِ ﴿وَلَا تُشْرِكُونَ﴾ أي بغثا بغث الموت.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أَنْ يُعْمِتُوا حَيَاتًا قَبْلَ أَجَلِهِ ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ وَلَا يُخَيِّرُوا ^(٤) مَيِّتًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ ﴿وَلَا تُشْرِكُونَ﴾ أي بغثا على ما ذكّرنا، وبالله العیضة.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْنَاهُ يَغْنُونُ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ^(٥)، وَكَانَ يَفْرُقُهُ عَلَيْهِمْ، فيقولون ^(٦)﴾: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي كَذِبٌ ﴿افْتَرَيْنَاهُ﴾ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ وَاخْتِرَاعِهِ ^(٧) مِنْ نَفْسِهِ.

إِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ كَانُوا يُكَذِّبُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَخْبَارَ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَتْ لَهُمُ الْأَسْبَابُ الَّتِي بِهَا مَا يُوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ صِدْقِ الْأَخْبَارِ وَكَذِبِهَا. وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَادَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ. وَالْأَسْبَابُ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا صِدْقَ الْأَخْبَارِ وَكَذِبِهَا، هِيَ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ وَالرُّسُلُ الَّذِينَ ^(٨) تَنْطَقُوا عَنْ وَحْيِ السَّمَاءِ.

فَكَفَّارُ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْ هَذَيْنِ. فَكَيْفَ ادَّعَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اخْتِلَافَ هَذَا الْقُرْآنِ وَاخْتِرَاعَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَنَّهُ مُفْتَرٍ عَلَى غَيْرِ تَوْنٍ سَبَابٍ مَعْرِفَةِ الْكَذِبِ وَالصِّدْقِ لَهُمْ فِي الْأَخْبَارِ مَعَ مَا ظَهَرَتْ لَهُمْ آيَاتُ رِسَالَتِهِ وَأَعْلَامُ صِدْقِهِ فِي الْإِخْبَارِ حِينَ ^(٩) لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِ كَذِبٌ قَطُّ، وَلَا رَأَوْهُ اخْتَلَفَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَا كَانَ يُحْسِنُ أَنْ يَخْطُبَ بِيَدِهِ كِتَابًا، وَمَا قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ [التَّخْرِيرُ وَالتَّقْرِيعُ بِقَوْلِهِ] ^(١٠): ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْبَقَرَةِ: ٢٣﴾ وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا بِمَشْرِئِ سُوْرَةِ بَنِي إِسْرَءِيلَ مُفْتَرَيْنَا﴾ [هود: ١٣].

فَدَلَّ عَجْزُهُمْ وَتَرَكُ تَكْلُفِهِمْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ / ٣٧٥- / كَذَبَهُ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيْنَاهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ﴾ قالوا: إِنَّهُ إِفْكٌ مُفْتَرَى، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ آخَرُونَ فِي افْتِرَائِهِ وَاخْتِرَاعِهِ، وَهَمَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَسْلَمُوا، وَقَدْ كَانُوا يَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بَعْثَهُ ^(١١) وَصِفَتَهُ وَمَا كَانَ أَنْبَاءُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَخْبَرَهُمْ ^(١٢) مِنَ الْأَنْبَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمَاضِيَةِ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ حِينَ سَأَلَهُمْ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ عَمَّا يُخْبِرُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: إِنَّهُ كَمَا يَقُولُ، وَإِنَّهُ صَادِقٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِنَّا نَجِدُ ذَلِكَ فِي كِتَابِنَا.

فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا سَمِعُوا مِنْ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ؛ عِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ﴾. ثم أَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾. أَمَا قَوْلُهُ: ﴿ظُلْمًا﴾ فَلَأَنَّهُمْ كَذَّبُوهُ [وقالوا] ^(١٣): إِنَّهُ مُفْتَرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ لَهُمْ سَبَابُ الْكَذِبِ وَالصِّدْقِ. فَهُوَ ظُلْمٌ حِينَ ^(١٤) وَضَعُوا ذَلِكَ [فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ] ^(١٥). وأما قَوْلُهُ: ﴿وَزُورًا﴾ فَلَأَنَّهُمْ ^(١٦) قَالُوا: إِنَّهُ مُخْتَلِفٌ، وَإِنَّهُ سِخَرٌ، وَإِنَّهُ ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وَإِنَّهُ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ.

الآية ٥

[وقوله تعالى] ^(١٧): ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْآلُوتِ أَسْكَتْنَاهَا فَعِيَ ثَنَلٌ عَلَيْهِ بُعْثَرٌ وَأَصِيلًا﴾ قَدْ ظَهَرَ كَذِبُهُمْ بِهَذَا فِي مَا بَيَّنَّاهُمْ، لَأَنَّهُمْ، مَا ^(١٨) رَأَوْهُ اخْتَلَفَ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، يُعَلِّمُهُ ذَلِكَ، وَمَا ^(١٩) رَأَوْهُ كَتَبَ شَيْئًا قَطُّ، أَوْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ قَطُّ ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْآلُوتِ﴾.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: آلِهَةٌ لَا أَصْنَامَ. (٢) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْيُونَ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: رَسُولُ اللَّهِ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِقَوْلِهِ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَخْتَرَعُهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِينَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلُهُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: نَفْسُهُ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُخْبِرُهُمْ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ: غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فِي م: غَيْرِ مَوْضِعِهِ. (١٦) فِي الْأَصْلِ: كَانَهُمْ، فِي م: لَأَنَّهُمْ. (١٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: مَتَى. (١٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ مَتَى.

فَإِذَا عَرَفَ تِلْكَ الْأَنْبَاءَ وَالْأَحَادِيثَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِلِسَانِ أُولَئِكَ، دَلَّ إِخْبَارُهُ عَمَّا فِي كُتُبِهِمْ بِلِسَانِهِ أَنَّهُ عَرَفَ ذَلِكَ بِاللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا تُمَلِّئُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَجِيلًا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: عُذُوا وَعَشِيًّا. فَلَوْ كَانَ عَلَى ذَلِكَ لَكَانَ [الْكَفَرَةُ] ^(١) يَخْضَرُونَهُ فِي الْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ، فَيَسْمَعُونَهُ، وَيُشَاهِدُونَهُ ^(٢) مَا يُنَمِّلُ عَلَيْهِ؛ إِذِ الْوَقْتُ وَقْتُ الْحُضُورِ.

ولكن عندنا كأنهم أرادوا بالبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَآخِرَهُ الْأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ بِأَوْقَاتِ الْحُضُورِ وَالْجُلُوسِ؛ يَقُولُونَ: يَأْتُونَهُ سِرًّا [وَهِيَ، تُمَلِّئُ عَلَيْهِ، وَيَتَعَلَّمُهَا] ^(٣). فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا لَكَانُوا يُرَاقِبُونَهُ، وَيُحَافِظُونَهُ سِرًّا لَيَعْرِفُوا ذَلِكَ، وَيُشَاهِدُونَهُ. فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ دَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْرِفُونَ صِدْقَهُ وَأَنَّهُمْ كَذَّبَتْ فِي رَغَبِهِمْ. لَكِنَّهُمْ كَابَرُوهُ، وَعَانَدُوهُ فِي ذَلِكَ.

الآية ٦ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حِينَ ^(٤) قَالَ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لَيْسَ بِمُخْتَلَقٍ مِنْهُ وَلَا مُفْتَرَى.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيَّ يَعْلَمُ الْأَعْمَالَ الْخَفِيَّةَ وَالسَّرِّيَّةَ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيَّ يَعْلَمُ الْكَوَامِينَ الَّتِي فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَفِيَّاتِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أَيُّ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: أَنْزَلَهُ أَيُّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ ^(٥) قَالُوا بِمَكَّةَ سِرًّا: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ بَلْ هُوَ سَاحِرٌ ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

فَقِي ذَلِكَ دَلَالَةُ إِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ لِأَنَّهُمْ قَالُوا سِرًّا فِي مَا يَبْتَنُّهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ. دَلَّ أَنَّهُ بِاللَّهِ عَرَفَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غَفْرًا رَجِيمًا﴾ فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ. يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿غَفْرًا رَجِيمًا﴾ إِذَا تَابُوا عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَنُوا بِهِ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ أَوْ ﴿غَفْرًا رَجِيمًا﴾ لَا يُعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ، أَيَّ بِرَحْمَتِهِ لَا يُعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ، لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿تَبَارَكَ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبَرَكَةِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْكِسَائِيُّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: تَنْزِيَهُ مِثْلُ قَوْلِكَ: تَعَالَى عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَقَالَ: ﴿الْفَرْقَانُ﴾ هُوَ الْحَقُّ، فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْقُرْآنُ، هُوَ مِنْ قَرْنٍ بَعْضًا إِلَى بَعْضٍ، وَالزُّبُرُ، هُوَ اسْمُ كِتَابٍ، وَالزُّبُرُ جَمِيعٌ، وَزُبُرْتُ كَتَبْتُ، وَالزُّبُرُ قِطْعُ الْحَدِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] الْوَاحِدَةُ ^(٦) زُبْرَةٌ. وَالتَّوْرَةُ اسْمُ كِتَابٍ لَا أَطْنُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ ^(٧). وَقَالَ أَبُو مُعَاذٍ: الْأَسَاطِيرُ الْأَحَادِيثُ، وَاجْتَدَتْهَا ^(٨) أَسْطُورَةٌ كَأَرْجُوزَةٍ وَأَرَاغِيزٍ وَأَخْدُوثةٍ وَأَحَادِيثٍ وَأَعْجُوبَةٍ وَأَعَاجِيبٍ. وَفِي حَرْفٍ خَفِصَةٌ: وَهِيَ تُمَلُّ عَلَيْهِ، وَهِيَ لُغْتَانِ ^(٩). وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَنْ يُعَلِّمَ هُوَ قَلِيلًا وَلِيُؤْمِنَ بِالْمَدَنِيِّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الآية ٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَشِي فِي الْأَنْشَارِ﴾ كَانَ الْكَفَرَةُ يَطْعَنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مِنَ الْبَشَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وَقَوْلِهِ ^(١٠) ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] كَانُوا لَا يَرَوْنَ أَنَّ الْبَشَرَ رَسُولٌ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَنْذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: كَانُوا يَطْعَنُونَهُ ^(١١) بِالْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَصَفَارَةِ الْيَدِ حِينَ ^(١٢) قَالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كَنُزٌ أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ﴾

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وشاهدونه. (٣) في الأصل وم: تملئ عليه وتعلمه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: الواحد. (٧) دليل ظنه ما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]: وقيل سمي إنجيلًا لما يجلي، وهو من الإظهار في اللغة، وقيل: سمي التوراة توراة أوريت الزند: وهو كذلك، والله أعلم. (٨) في الأصل وم: واحدهما. (٩) الأولى: أملى من مادة: م ل ي، والثانية: أملى من مادة: م ل ل، انظر اللسان، ثم انظر معجم القراءات القرآنية ج ١/ ٢٢١ ر ج ٤/ ٢٧٤. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: يطعنون. (١٢) في الأصل وم: حيث.

[الفرقان: ٨] وحين^(١) قالوا: ﴿يَا كُذِّبُوا أَطْعَمَ وَيَشِي فِي الْأَشْرَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] يُشْكِرُونَ الرُّسَالَءَ فِي الْفَقْرَاءِ وَدَوِي الْحَاجَةِ، وَيَرَوْنَهَا فِي دَوِي الْمُلْكِ وَالْأَمْوَالِ. وَلِذَلِكَ قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَنَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿يَا كُذِّبُوا أَطْعَمَ وَيَشِي فِي الْأَشْرَاقِ﴾ وفي حواشي الفقهاء. ولو كان رسولا لكان ملكا غنيا، يأكل طعام الملوك، ولا تقع له الحاجة إلى أن يشي في الأسواق وفي حواشيه.

فاجاب لهم في طعنهم فيه أنه بشر مثلهم وإنكارهم الرسالة في البشر في وجوه: أخذها: قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِحَ الْأَمْرُ﴾ الآية [الأنعام: ٨] مغنا، والله أعلم. أنه لا ينزل الملك إلا بالمعذبات. فلو أنزل لا نزل بالمعذبات، فأهلكوا.

والثاني: ما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الآية [الأنعام: ٩] تأويله، والله أعلم، أنه لم يجعل في وسع البشر رؤية الملك على صورته وعلى ما هو عليه؛ إذ جنس هذا غير جنس أولئك، وجوهه غير جواهر أولئك. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ هكذا كتبنا عليهم ما كان يلبس أولئك القادة على الاتباع كقولهم^(٢): إنه ساحر، وإنه كذاب، وإنه مجنون، فكان ذلك تليسا^(٣) عليهم.

والثالث: ما قال: ﴿قَدْ لَوَّ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَدُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٩٥] أي لو كان أهل الأرض ملائكة لكتبنا عليهم الرسول ملكا من جنسهم وجواهرهم لأنهم أعرف به، وأظهر صدقا عندهم ممن هو من غير جواهرهم وجنسهم.

فإذا كان أهل الأرض بشرا فالرسول إذن كان منهم؛ فهم أعرف به، وصدقه أظهر عندهم، وقلوبهم إليه أميل إلى من هو من غير جنسهم.

واجاب لطعنهم في أكليهم ومشيه في الأسواق حين^(٤) قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَشْرَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] في حواشيه، أي^(٥) غيره من الرسل الذين تؤمنون أنتم بهم كانوا فقراء، يأكلون الطعام، ويشربون في حواشيه أنفسهم. ثم لم يمنع ذلك عن أن يكونوا موضعاً لرسالاته.

فعلى ذلك محمد: الفقير وذو الحاجة أحق أن يكون موضعاً لرسالاته من الغني، الثري لأن الناس يتبعون الغني ومن له الملك والثروة. فلو كان الرسول غنيا ثريا ملكا لكان لا يظهر متبع الحق من غيره. وإذا كان فقيرا محتاجا لظهر ذلك، اللهم إلا أن يكون ملكه^(٦) هو آية لرسالاته^(٧) نحو ملك سليمان ودأود. [وذلك بنفسه]^(٨) آية لرسالاته على ما قال: ﴿وَقَبْلَ مَلَكًا لَا يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَدِيَّةٍ﴾ [ص: ٣٥] والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ كأنهم قالوا ذلك لما نزل قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ. لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قالوا / ٣٧٥ - ب/ عند ذلك ﴿لَوْلَا نُزِّلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾.

الآية ٨

وقالوا: ﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ عند سماع قوله: ﴿أَلَيْسَ لَكَ الْمُلْكُ الشَّكْرُ وَالْأَرْضُ﴾ [الفرقان: ٢٢] أي قالوا: لو كان محمد رسول من له ملك السموات والأرض ونذيرا للعالمين على ما يقول لكان أنزل معه ملك نذير، أو لكان أعطي هو كثر أي مالا ﴿أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ على ما يكون لرسل ملوك الأرض.

لكن الجواب لهم ما ذكر: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [الفرقان: ١٠] أي لو شاء الله أعطاك خيرا مما يقولون من البستان والقصور على ما أعطى غيرك. لكن ليس في ما منع منقصة لك، ولا في ما أعطاهم فضيلة.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) في الأصل وم: تلييس. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: إلى. (٦) في الأصل وم: ملكا. (٧) في الأصل وم: الرسالة. (٨) في الأصل وم: ذلك لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْفَالِطُونَ إِن تَنبِئُونَا بِأَيِّ مَا تَنبِئُونَ﴾ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿لَا تَزَالُ عَادَتُهُمْ بِنِسْبَةِ الرِّسُولِ إِلَى السَّحْرِ وَالْجُنُونِ وَالْكَذِبِ﴾.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا؟﴾ فتأويله، والله أعلم، أي انظر إلى سقاهم أن ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وشبهوك بها؟ نسبوك مرة إلى السحر، وقالوا: إنك ساحر، ومرة إلى الجنون، وقالوا: إنك مجنون، ومرة إلى الكذب حين^(١) قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ﴾ [القمر: ٢٥] ونحو هذا مما كانوا ينسبونه إليه.

فيقول، والله أعلم: انظر إلى سقاهم أن ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ ونسبك إلى ما ذكروا، وعلى علم منهم أنك نسبت كذلك، ولا على ذلك، وإنك على الحق، وهم على باطل وكذب، أو يكون قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ؟﴾ ما قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ﴾ ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كُرٌّ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وأمثال ما سألوا، وقالوا^(٢): لو كان ما يقول: إنه رسول لكان ذلك له أعلام الرسالة وأمارات صدقه، فيخير أن الأعلام والآيات ليست تأتي على شهوات سؤال المعاندين وأمانهم.

ولكن إنما تجيء على ما توجب الحكمة ما يدل على صدق ما ادعى، ويظهر كذب من عاند، وتولي. وقد اتاهم بحمد الله بحجج وبراهين ما أظهر لهم صدق ما ادعى من الرسالة والتبوة، ولكنهم عاندوها، وكابروا، فلم يقرؤا بها خوفاً أن تدفع عنهم رئاستهم.

وقوله تعالى: ﴿فَضَلُّوا﴾ لاشك أنهم قد ضلوا عن الهدى، أي عدلوا بضربهم الأمثال له ونسبهم إياه إلى ما نسبوه إليه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى أو إلى ما سألوا من الأشياء.

وفي حَرْفِ حَفْصَةٍ: فلا يهتدون سبيلاً. وقال بعضهم: فلا يستطيعون مخرجاً من الأمثال التي ضربوها لك، والله أعلم.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَنَ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبَرًا مِّنْ ذَلِكَ﴾ قد ذكرنا أنه خرج جواب ما سألوا من الأشياء من الملك والكنز والجنة وأنواع الطعن الذي طعنوه، أي لو شاء لأعطاك خيراً من ذلك.

ثم أخبر أن الذي حملهم على ذلك السؤال وأنواع الطعن فيه، هو تكذيبهم بالساعة حين^(٣) لم يروا لأمرهم عاقبة، ينتهون إليها: يثابون عليها، أو يعاقبون.

الآية ١١ [وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾]^(٤).

ثم أخبر ما أعد لهم بتكذيبهم الساعة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

الآية ١٢ ثم وصف ذلك السعير، فقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَشِيئًا وَزَفِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

[أحدهما]^(٥): يَجْعَلُ لَهَا سَبَاباً: تراهم بها كما يرونها [بتلك الأسباب].

والثاني: إذا صار الكفرة^(٦) في مكان بحيث يرونها كأنها رأتهم.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْلَفُوا فِيهَا مَكَانًا صَبِيحًا﴾ قيل: إن النار، ترفع، وتعلي لها، وترد من مكان من أعلاها إلى أسفلها [وترد من مكان من أسفلها]^(٧) فتجتمعهم جميعاً، فيضيق عليهم المكان، ويشتد بهم العذاب؛ كلما ضاق عليهم المكان كان العذاب لهم أشد.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فيقولون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم، وإذا صار ما. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿مُفَرِّقِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مُقَيِّدِينَ بَعْضُهُمْ يَبْغِضُ.

ثم قَالَ بَعْضُهُمْ: الشَّيْطَانُ يُفَرِّقُ، وَيُقَيِّدُ: كُلُّ شَيْطَانِيهِ الَّذِي دَعَاهُ إِلَى مَا دَعَاهُ، وَاتَّبَعَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقْضِ لَمْ شَيْعَانَا﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: يُفَرِّقُ الْعَابِدُ وَالْمَعْبُودُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهُوَ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدُوهَا كَقَوْلِهِ: ﴿اٰخْتَرُوا الَّذِيْنَ عَلَّمَكُمُ الْآيَةَ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أَي هَلَاكًا. وَالثُّبُورُ الْهَلَاكُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَايَ لَاطُنْكَ يَنْفَعُوثُ ثُبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أَي هَالِكًا. وَالثُّبُورُ وَالْوَيْلُ، هُمَا حَرْفَانِ، يَدْعُو بِهِمَا كُلُّ مَنْ كَانَ فِي الْهَلَكَةِ وَالشَّدَّةِ.

الآية ١٤ [وقوله تعالى] ^(١): ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أَي لَا تَدْعُوا هَلَاكًا وَاحِدًا كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا أَنْ مَنْ هَلَكَ مَرَّةً لَا يَهْلِكُ ثَانِيًا. وَأَمَّا فِي النَّارِ فَإِنَّ لَهَا هَلَاكَاتٍ لَا تُحْصَى كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَي أَسْبَابُ الْمَوْتِ ثَانِيَةً ^(٢) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ﴾ [النساء: ٥٦].

وَأَمَّا يَسْأَلُونَ، وَيَدْعُونَ بِالْهَلَاكِ لِمَا يَرْجُونَ مِنَ الْهَلَاكِ النِّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ. وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ شَدِيدٍ يَتَمَنَّى الْهَلَاكَ وَالْمَوْتَ.

الآية ١٥ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَالَ هَذَا لِقَوْلِهِمْ: ﴿تَوَلَّأَ أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْنَا كَذِبًا أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ و ٨] فيقولون: أَذَلِكُ الَّذِي سَأَلْتُمُوهُ أَنْتُمْ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾؟ أَوْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ لِمَا رَأَوْا لِأَنْفُسِهِمُ الْفَضْلَ وَالْمَنْزِلَةَ فِي الدُّنْيَا لَمَّا وَسَّعَ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَأَعْطَوْا مِنْ حُطَايِهَا، فَقَالَ: ﴿أَذَلِكُ﴾ الَّذِي أُعْطِيتُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّعَةِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٦ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعدًا مَسْئُولًا﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ مِمَّا سَأَلْتَهُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَادْخُلْنَاهُ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [آية: ٨] أَوْ ^(٣) سَوَالِ الرُّسُلِ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رَسُولِكَ﴾ [آية: ١٩٤] أَوْ ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ مِمَّا سَأَلُوا رَبَّهُمْ، فَوَعَدَ لَهُمْ ذَلِكَ. فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِالسَّوَالِ وَالشَّفْعِ لَهُمْ وَالتَّضَرُّعِ، لَا أَنَّهُمْ يَسْتَوْجِبُونَ ذَلِكَ بِأَعْمَالِهِمْ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ فِي السَّلَاسِلِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا تَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ كَضَاقِيقِ الرَّجِّ فِي الرُّمَحِ، فَالْأَسْفَلُونَ، يَرْفَعُهُمُ اللَّهْبُ، وَالْأَعْلَوْنَ، يُخَفِّضُهُمُ اللَّهْبُ، فَيَزْدَحِمُونَ فِي تِلْكَ الْأَبْوَابِ الضَّيِّقَةِ، فَتَضَيِّقُ ^(٤) عَلَيْهِمْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَدْعُونَ بِالثُّبُورِ؛ يَقُولُونَ: يَا ثُبُورَاهُ، وَيَا وَيْلَاهُ.

وَرَوَى مِنْهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؛ وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَضَيِّقُ عَلَى الْكَافِرِ كَضَاقِيقِ الرَّجِّ فِي الرُّمَحِ، وَقَوْلُهُ: ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ يَقُولُونَ ^(٥): وَيْلًا، وَهَلَاكًا، وَيَقُولُ ^(٦) اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ثُمَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ يَعْنِي الَّذِي ذَكَرَ ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا أَي مَنَزَلًا.

قَالَ أَبُو عَرَسَةَ: التَّغَيُّظُ مِنَ الْغَيْظِ، وَالزَّفِيرُ [وَالشَّهيقُ، يَكُونَانِ] ^(٧) فِي الْحَلْقِ، وَشَهَقَ يَشْهَقُ شَهيقًا وَشَهَقًا، وَهُوَ نَفَسٌ فِي الْحَلْقِ شَدِيدٌ، لَهُ صَوْتٌ. وَقَالَ: ﴿ثُبُورًا﴾ أَي هَلَاكًا، وَصَرْفُهُ: ثَبَرٌ يَثْبُرُ ثَبْرًا، فَهُوَ مَثْبُورٌ. وَقَالَ الْفَتَّيُّ ﴿تَتَغَيَّظُ وَتُزْفِرُ﴾ أَي تَغَيَّظًا عَلَيْهِمْ. كَذَلِكَ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ يَسْمَعُونَ فِيهَا تَغَيُّظَ الْمُعَذِّبِينَ وَزَفِيرَهُمْ، وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَأْتِيهِمْ. (٣) فِي م: وَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَضَاقِيقُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الشَّهيقُ يَكُونُ.

[هود: ١٠٦]. واغْتَبَرَهُ الْأَوَّلُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْطِ﴾ [الملك: ٨]. وهذا أشبه التفسيرين، إن شاء الله، لأنه قال: ﴿يَمِئُوا لَهَا﴾ ولم يقل: سَمِعُوا فِيهَا، ولا: منها.

وقال: ﴿ثُبْرًا﴾ أي بِاللَّهْلَكَةِ كما يقول القائل: واهلاكاه، والله أعلم/ ٣٧٦-١/

الآية ١٧

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَبُولُ مَا نَسُوا أَنْتُمْ أَصْلَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. قال بعضهم: يَخْشَرُ أولئك الذين عبدوا دون الله والمعبودين، وهم الملائكة، لأن من العرب مَنْ قَدَّ عَبَدُوا [الملائكة من دون الله] (١) كقولهِ في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال بعضهم: أنت ولينا من دُونِهِمْ (الآية: سبأ: ٤٠ و٤١).

وقال [بعضهم: هو] (٢) عيسى، يَخْشَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ عَبَدُوهُ لَأنَّهُ قَدَّ عُبِدَ دُونَ اللَّهِ، فيقول لَهُ مَا ذَكَرَ [وهو قوله] (٣) رَادًّا قَالِ اللَّهُ يُعِيسِي ابْنَ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي رَأًى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (الآية: المائدة: ١١٥).

وقال بعضهم: يَخْشَرُ الأصنامَ وَمَنْ عَبَدَهَا، ثم يَأْذُنُ لَهَا فِي الْكَلَامِ، فيقول: ﴿مَا أَنْتُمْ أَصْلَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. كقولهِ: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. إلى قوله: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَنُفْلِحَنَّ﴾ [يونس: ٢٨ و٢٩].

ولو كان عيسى ﷺ والملائكة لكانوا عالمين بعبادتهم إياهم غير غافلين. دل ذلك أنها الأصنام التي عبدوها دون الله، وإياها يسألون، وكل ذلك مُحْتَمِلٌ، إذ قد كان منهم ذلك كله. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ أَصْلَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. والله ﷻ كان عالماً ما كان منهم. لكن السؤال إِيَّاهُمْ، والله أعلم، يُخْرِجُ مُخْرَجَ تَوْبِيخِ أولئك الكفرة وتوبيخهم لأنهم يعبدون مَنْ ذَكَرَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، ويقولون: هُمْ أَمْوَهُمْ بذلك، وكانوا مقبولي القول عندهم صادقين في ما يُخْبِرُونَ، ويقولون.

فأراد أن يُظْهِرَ كَذِبَهُمْ عِنْدَ الْخَلَائِقِ. لذلك سألهم، والله أعلم، بالكائن منهم من أنفسهم. لكنه يُخْرِجُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. ثم نَرَاهُ عَنْ جَمِيعِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَبَرُّوْا أَنْفُسَهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ أَمْرٌ أَوْ شَيْءٌ مِمَّا نَسَبُوا أَوْلَئِكَ إِلَيْهِمْ، وهو أعلم بهم:

الآية ١٨

فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال أهل التاويل: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي أرباباً، وَهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا أَرْبَاباً مِنْ دُونِهِ.

لكنه عِنْدَنَا يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ.

[والثاني] (٤): أَنْ يَكُونَ ﴿مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِ وَلَايَتِكَ وَلَايَةً سِوَاكَ.

وفي بعض القراءات أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ بِرَفْعِ النُّونِ (٥). لكن أهل الأدب يقولون: هو خَطَأٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَتَّبِعُهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَقٌّ شَوْا لَلْكَرِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ آبَاءَهُمْ قَدَّ أَمْنَهُلُوا، وَتَعَمَّوْا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَتَّى مَاتُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ [أَنْ] (٦) أَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا أَوْعَدُوا فِي كِتَابِهِمْ وَمَا أَوْعَدَهُمُ الرُّسُلُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ عَلَى مَا اخْتَارُوا مِنَ الدِّينِ وَصَنِيْعِهِمْ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ مِنْ ذَلِكَ حِينَ (٧) لَمْ يُصِيبْهُمْ مِنَ الْمَوَاعِيدِ الْمَذْكُورَةِ فِي كِتَابِهِمْ. أَوْ مَا أَوْعَدَهُمْ رُسُلُهُمْ بِشَيْءٍ. فعلى هذا التاويل الذَّكَرُ الَّذِي إِنَّهُمْ نَسَوْهُ، هو كِتَابُهُمْ، أَوْ مَا أَوْعَدَهُمْ رُسُلُهُمْ، والله أعلم، فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَالْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْهُمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: من دون الله، في م: الملائكة. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كقولهِ. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٧٩. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث.

[والثاني^(١)]: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي الْفِرَاعَةِ وَالْقَادَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ، مُتَعَوًّا بِأَحْوَالِ وَرثَاةٍ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمُ الْمَعِيشَةَ حَتَّى دَعَوْا النَّاسَ وَاتَّبَاعَهُمْ إِلَى مَا مُمُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ بِرَسُولِهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَجْبُوا بِالْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ، فَتَسُوا مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴿وَكَاثُرًا قَوْمًا بُرًّا﴾.

وَالْبُورُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْهَلَاكُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْبُورُ الْفَسَادُ.

الآية ١٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أَي فَقَدْ كَذَّبَكُمْ أَوْلَتُكَ الْمَعْبُودُونَ بِمَا تَقُولُونَ: إِنَّهُمْ أَمَرُوا بِذَلِكَ، وَكَانُوا عِنْدَهُمْ صَدَقَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهًا:

أَحَدُهَا: أَي مَا يَسْتَطِيعُ أَوْلَتُكَ الْكَفَرَةُ صَرْفَ قَوْلٍ مِنْ عَبْدِهِمْ^(٢) وَتَكْذِيبَهُمْ حِينَ كَذَّبُوهُمْ قَوْلَهُمْ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أَي وَلَا اسْتَطَاعُوا الْإِنْتِصَارَ مِنْهُمْ حِينَ كَذَّبُوهُمْ. وَعَلَى ذَلِكَ تُخْرَجُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِالنَّاءِ^(٣) ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

[والثاني^(٤)]: يَحْتَمِلُ: فَمَا يَسْتَطِيعُ^(٥) أَوْلَتُكَ الْمَعْبُودُونَ صَرْفَ عَذَابِ اللَّهِ وَتَقْمِيَةِ عَنْكَمْ، وَلَا كَانُوا لَهُمْ نُصْرَاءَ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَقَالُوا^(٦): ﴿مَا تَسْبُدُّهُمْ إِلَّا لِيُفْرَوْنَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وَالثَّالِثُ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أَي فِدَاءَ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أَي لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، وَلَا كَانَ لَهُمْ نَاصِرٌ، يَنْصُرُهُمْ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنَّا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُكَ شَيْئًا﴾ [البقرة: ١٢٣].

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ وَأَبُو عَوْسَجَةَ: [قَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّرْفُ الْجِيلَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ لِيَنْصَرِفَ، وَ]^(٧) قَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّرْفُ النَّافِلَةُ، سُمِّيَتْ صَرْفًا لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ عَلَى الْوَاجِبِ وَالْعَدْلِ: الْفَرِيضَةُ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْحَبَرِ: «مَنْ طَلَبَ صَرْفَ الْحَدِيثِ لِيَتَّبِعِي بِهِ إِقْبَالَ وَجْهِهِ النَّاسِ لَمْ يُرَخَّ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ» [بَنَحْوِ التِّرْمِذِيِّ ٢٦٥٤]. أَي مَنْ طَلَبَ تَحْسِينَهُ بِالزِّيَادَةِ فِيهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّرْفُ [وَالْعَدْلُ: الْفِيضَةُ]^(٨): رَجُلٌ مِثْلُهُ [كَأَنَّهُ يَرِيدُ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَنْ يُقْتَدَى بِرَجُلٍ مِثْلِهِ]^(٩) وَعَدْلُهُ، وَلَا يَصْرِفُ عَنْ نَفْسِهِ بِدَيْتِهِ. وَمِنْهُ قِيلَ: [صَرَافٌ: صَرَفَ]^(١٠) الدَّرَاهِمَ بِالْأَنْبَارِ لِأَنَّهُ^(١١) يَصْرِفُ هَذَا [إِلَى هَذَا]^(١٢). وَأَصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ وَأَبُو عُيَيْدَةَ: ﴿قَوْمًا بُرًّا﴾ أَي هَلَكَى، وَهُوَ مِنْ بَارٍ يَبُورُ إِذَا هَلَكَ، وَيَبْطَلُ، يُقَالُ: بَارَ الطَّعَامُ، إِذَا كَسَدَ، وَبَارَتِ الْأَيْمُ إِذَا لَمْ يُرْعَبْ فِيهَا. وَفِي الْحَبَرِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّدُ مِنْ بَوَارِ الْأَيْمِ.

قَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ: يُقَالُ: رَجُلٌ بُورٌ، وَقَوْمٌ بُورٌ؛ لَا يُتَنَّى، وَلَا يُجْمَعُ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿قَوْمًا بُرًّا﴾ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَرَجُلٌ بَائِرٌ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو زَيْدٍ: ﴿قَوْمًا بُرًّا﴾ لَيْسَ فِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿قَوْمًا بُرًّا﴾ فَاسِيدِينَ بِلُغَةِ أَهْلِ عُمَانَ، وَقَالَ: مَا نَسِيَ قَوْمٌ ذَكَرَ اللَّهُ قَطُّ إِلَّا بَارُوا، وَفَسَدُوا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ يَنْصُرْهُ عَذَابًا كَثِيرًا﴾ أَمَّا عَلَى قَوْلِ الْخَوَارِجِ، كُلُّ ظُلْمٍ ارْتِكَبَهُ [أَمْرٌ]^(١٣) فَهُوَ فِي ذَلِكَ الْوَعِيدِ عَلَى أَصْلٍ مَذْمُومٍ، وَعَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزَلَةِ: كُلُّ صَاحِبٍ كَبِيرَةٍ فِي ذَلِكَ الْوَعِيدِ. وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ: فَذَلِكَ الْوَعِيدُ لِمُرْتَكِبِي الظُّلْمِ: ظُلْمِ [الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ]^(١٤)، وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ.

الآية ٢٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَسْتَثْنُونَ فِي الْأَسْرَاقِ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا فِي

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: عَبْدُهُ. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤/ ٢٨٠. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَطِيعُونَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنْ م. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: الدِّيةُ وَالْعَدْلُ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: صَارْفِي وَصَرَف. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّكَ. (١٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: كَفَرٌ وَشُرْكٌ.

ما تَقَدَّمَ أَنْ هَذَا إِنَّمَا أُخْرِجَ جَوَاباً لِقَوْلِ أُولَئِكَ: ﴿هَٰذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْإِنْسَانِ﴾ [الفرقان: ٧] فَاخْبِرْ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ^(١) كَانُوا مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ عَلَى مَا يَأْكُلُ هُوَ، وَيَتَشَبَّهُ.

ثُمَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَرِهَ الرُّكُوبَ فِي الْأَسْوَاقِ بِهَذَا، وَقَالَ: إِنَّهُ أَخْبَرَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ جُمْلَةً أَنَّهُمْ كَانُوا، يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، لَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمْ الرُّكُوبَ، فَذَلِكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ مِنْهُمْ.

فَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُ^(٢) يَكُونُ مَكْرُوهاً، لِأَنَّهُ يُخْرِجُ الرُّكُوبَ فِي الْأَسْوَاقِ مُخْرِجَ التَّعَزُّزِ وَالْمُبَاهَاةِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ تَعَزُّزُهُ بِالْإِسْلَامِ وَبِدِينِهِ الَّذِي^(٣) اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَخَاصَّةً عَلَى الْعُلَمَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَعَزُّزُهُمْ وَمُبَاهَاةُ تَعَزُّزِهِمْ بِالْعِلْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَأَكْرَمَهُمْ [يُؤَيِّدُ] فَوَإِنَّ عِزَّ، لَا يَغْنُبُهُ ذَلِكَ، وَلَا يُورِثُ^(٤) صَغَاراً وَلَا قَهْراً. وَأَمَّا كُلُّ عِزٍّ كَانَ سِوَى مَا ذَكَرْنَا فَهُوَ إِلَى ذَلِكَ، بِصِيرٍ^(٥) سَرِيعاً، كَأَنَّهُ لَيْسَ بِعِزٍّ فِي الْحَقِيقَةِ، لَوْ تَوَقَّلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الْفِتْنَةُ كَانَهَا، هِيَ الْبَحْثَةُ الَّتِي فِيهَا شِدَّةٌ وَبَلَاءٌ.

ثُمَّ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: لَمَّا أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَبُو ذَرٍّ وَعَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَصُهَيْبٌ وَأَمثالُ هَؤُلَاءِ قَالَ الْفَرَّاعَةُ مِنْ قُرَيْشٍ نَحْرُ أَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدُ/ ٣٧٦ - ب/ وَأَمثالُهُمَا: انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا: [الَّذِينَ]^(٦) اتَّبَعُوهُ مِنْ مَوَالِينَا وَأَعْرَابِنَا: رِذَالَةُ كُلِّ قَوْمٍ [فَارْزَوْا عَنْهُمْ]^(٧) وَأَذَوْهُمْ، وَاسْتَهْزَوْا بِهِمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ لِهَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَسُولَ اللَّهِ لِيُصْبِرَهُمْ عَلَى أَذَاهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ أَيِ اضْبِرُّوا عَلَى الْأَمْرِ. هَذَا مُحْتَمَلٌ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ جَعَلَ أَهْلَ الْبَلَاءِ فِتْنَةً لِغَيْرِهِمْ، وَغَيْرَ أَهْلِ الْبَلَاءِ [فِتْنَةً لِأَهْلِ الْبَلَاءِ]^(٨)؛ يَقُولُ الْأَغْمَى: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَنِي بِصِيرًا مِثْلَ فُلَانٍ، وَيَقُولُ الْفَقِيرُ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَنِي غَنِيًّا مِثْلَ فُلَانٍ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ السَّقِيمُ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَنِي صَحِيحًا مِثْلَ فُلَانٍ.

لَكِنَّهُ أُعْطِيَ لِأَهْلِ الْبَلَاءِ [الْبَلَاءُ]^(٩) وَأَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَأَعْطَى لِأَهْلِ النُّعْمَةِ النُّعْمَةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ هَذَا، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ أُعْطِيَ بَعْضُ النُّعْمَةِ وَالسَّعَةِ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ أَهْلَ ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ قَرِيبٍ مُحْتَاجاً إِلَى الْقَرِيبِ الْآخَرِ، جَعَلَ الْغَنِيَّ وَالثَّرِيَّ مُحْتَاجاً إِلَى الْفَقِيرِ فِي بَعْضِ أُمُورِهِ، وَالْفَقِيرَ مُحْتَاجاً إِلَى الْغَنِيِّ لِغِنَاؤِهِ، وَجَعَلَ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ مُؤَنَّةٌ مَا لَوْ لَا فَقَّرَ الْفَقِيرُ لَمْ يَعْرِفِ الْغَنِيَّ قَدْرَ غِنَاؤِهِ وَلَا الْفَقِيرُ قَدْرَ فَقْرِهِ، وَلَا قَامَ بَعْضٌ بِكِفَايَةِ مُؤَنَّةِ بَعْضٍ.

ثُمَّ أَمَرَ كُلَّاً بِالصَّبْرِ عَلَى تَحْمِلِ مُؤَنَّةِ الْآخَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْتَصِرُونَ﴾ أَيِ اضْبِرُّوا، عَلَى الْأَمْرِ يُخْرِجُ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ اسْتِيفَهاً وَسُؤَالاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أَيِ عَلَى بَصَرٍ وَعِلْمٍ، جَعَلَ بَعْضُ فِتْنَةٍ لِبَعْضٍ، لَيْسَ عَلَى سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ.

الآية ٢١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لَا يَخَافُونَ، وَلَا يَخْشَوْنَ [لِقَاءَنَا] أَيِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَقَالَ أَهْلُ الْكَلَامِ: الرَّجَاءُ، هُوَ الرَّجَاءُ لَا الْخَوْفُ. لَكِنْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فِي الرَّجَاءِ خَوْفٌ، وَفِي الْخَوْفِ رَجَاءٌ، لِأَنَّ الرَّجَاءَ الَّذِي لَا خَوْفَ فِيهِ، هُوَ أَمْنٌ، وَالْخَوْفُ الَّذِي، لَا رَجَاءَ فِيهِ، إِيَّاسٌ؛ فَكِلَاهُمَا مَذْمُومَانِ: الْإِيَّاسُ وَالْأَمْنُ جَمِيعاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّوْا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ﴾ أَوْ رَفَعَ رَبَّنَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: ﴿تَوَلَّوْا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ﴾ رُسُلًا دُونَ أَنْ أَنْزَلَ الْبَشَرَ رُسُلًا إِلَيْنَا لِإِنْكَارِهِمُ الْبَشَرَ رُسُلًا كَقَوْلِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و ٣٣].

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُمْ: ﴿تَوَلَّوْا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ﴾ الْوَحْيَ وَالرَّسَالَهَ لَنَا دُونَكَ، وَنَحْنُ الرُّؤَسَاءُ وَالْمُلُوكُ وَالْقَادَةُ دُونَكَ؛

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنَّ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّتِي. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يُوْرَثُهُ. (٦) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: مَا. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَارْزَوْهُمْ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

يقولون: لو كان ما تقول حقاً وصدقاً: إنك رسول، وإنه يُنزل عليك الوحي والمَلَكُ، فنحن أولى بالرسالة منك؛ إذ نحنُ الملوك والرؤساء كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وأمثال هذا لإنكارهم الرسالة لمن هو دونهم في الدنياويَّة، أو أن يكون ذلك كقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُمْ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] أو يكون له شاهداً أنه رسول.

[وقوله تعالى] (١): ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عياناً، ونكلمه، ونسأله، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الاستكبار، هو الّا يَرى [المراء] (٢) غيرة مثلاً له ولا عدلاً ولا شكلاً في نفسه وأمره. فإن كان هذا فهو ما لم يروا رسول الله أهلاً للرسالة وموضِعاً لصغَرِ يده وحاجته، ورأوا أنفسهم أهلاً لها. فاستكبروا، هو ما لم يروا غيرهم (٣) مثلاً ولا شكلاً لأنفسهم.

فاستكبروا، ولم يخضعوا لرسول الله، ولم يطيعوه، ولم يتبعوه أنفاً منه بغد عليهم أنه نُجِرَ لذلك، وأنه رسول إليهم. وقوله تعالى: ﴿وَعَتَرْنَا عُنُورًا كَبِيرًا﴾ قال بعضهم: العتو هو الحرادة، وهو أشد من الاستكبار. وقال بعضهم: العتو هو الغلو في القول غلواً شديداً. وقال بعضهم: هو من التكبر.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [قال الحسن: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ هي كلمة] (٤) من كلام العرب؛ إذا كره أحدُهم الشيء قال: حِجْرًا [مَحْجُورًا، أي حراماً مُحَرَّماً] (٥) فإذا رأوا الملائكة يَكْفُرُونَهُمْ قالوا (٦): حِجْرًا مَّحْجُورًا.

فعلى هذا القول الكفرة: هم يقولون: حِجْرًا مَّحْجُورًا إذا رأوا الملائكة وما معهم من المواعيد.

قال بعضهم: إن الملائكة يتلقون المؤمنين بالبشرى على أبواب الجنة، ويقولون للكفرة: لا بشرى لكم، ويقولون: حِجْرًا مَّحْجُورًا، أي تقول الملائكة: حرام البشرى للمُجْرِمِينَ، أو حرام عليهم الجنة أن يدخلوها. والحِجْرُ على هذا القول، هو الحرام.

وقال بعضهم: الحِجْرُ ههنا، هو المنع والحظر؛ يقولون: إنهم يُمنعون، ويُحْظَرُونَ عما طمعوا، وقصدوا، بعبادتهم الملائكة والأصنام التي عبدوها حين (٧) قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا (٨): ﴿مَا تَبَدُّهُمْ إِلَّا لِقَرِيبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فيقول: يُمنع عنهم ما قصدوا، وطمعوا، بعبادتهم [الملائكة] (٩).

أو يكون المنع ثواب الخيرات التي عملوها في هذه الدنيا من صلة الأرحام والصدقات ونحوها ممّا هي في الظاهر خيرات، مُنِعُوا ثوابها في الآخرة كقوله: ﴿وَلَيْنَ ذُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقوله: ﴿وَلَيْنَ تُجِيتَ إِلَيْنَا رَبِّي لَأَجِدَنَّ لِي عِندَهُ لَكُحْنًا﴾ [فصلت: ٥٠] ونحو ذلك كله، والله أعلم.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأَةً مِّنْثَوْرًا﴾ هو ما ذكرنا من الأعمال [التي] (١٠) عملوها في هذه الدنيا رجاء أن يصلوا إليها في الآخرة ﴿فَجَعَلْنَاهُ نَبْأَةً مِّنْثَوْرًا﴾ قال أهل التأويل: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أي وعيّدنا، وقصدنا إلى ما عملوا من عمل.

لكن عندنا: جعلنا أعمالهم تلك في الأصل ﴿نَبْأَةً مِّنْثَوْرًا﴾.

قال بعضهم: ﴿نَبْأَةً مِّنْثَوْرًا﴾: ﴿نَبْأَةً مُّبْتَنَّا﴾ [الواقعة: ٦] وهو رمج الدواب (١١). وقال بعضهم: الهباء المنثور، هو (١٢) غبار الثياب. وقال بعضهم: هو الغبار الذي يكون في شعاع الشمس، وهو (١٣) الذي يُسمى الدُّر.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل: كله، في م: قال الحسن: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كله. (٥) في الأصل وم: حرام هذا. (٦) في م: كرهتهم وقال. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: الدابة. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَبْرًا تَحْمُرُهَا﴾ أَي عَزَازًا مُعَادَا؛ يَقُولُ: الْمُجْرِمُونَ، يَسْتَعِيدُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: ﴿وَعَزَّزْتُ عُنُورًا كَبِيرًا﴾ هُوَ مِنَ التَّكْبِيرِ، وَيُقَالُ: مِنَ الْخِلَافِ عُنَا عُنِيًّا إِذَا خَالَفَ، يُقَالُ فِي الْكَلَامِ: لَا تَغْتَبِ عَلَيَّ، أَي لَا تُخَالِفْنِي، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنَ الشَّدَةِ وَالْيُسْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، أَي يَابَسًا. وَقَالَ: ﴿حَبْرًا تَحْمُرُهَا﴾ أَي حَرَامًا مُحَرَّمًا، وَحَجَرْتُ عَلَيْهِ مَالَهُ، أَي مَنَعْتُهُ مِنْ مَالِهِ، أَخْجَرُ حَجْرًا. وَيُقَالُ: حَجَرْتُ [عَيْنِي، أَي] ^(١) لَطَخْتُ أَجْفَانَهَا بِشَيْءٍ مِنَ الدَّوَاءِ ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَبَاءً تُنْثَرُهَا﴾ أَي لَا شَيْءَ، وَالْهَبَاءُ هَبَاءُ النَّارِ، أَي رَمَادٌ يَكُونُ عَلَى أَعْلَى النَّارِ إِذَا خَمَدَتْ، وَيُقَالُ: هَبَّتِ النَّارُ، تَهَبُّ هَبًّا إِذَا خَمَدَتْ، وَالْجَمْرَةُ عَلَى حَالِهَا إِلَّا [أَنهَا قَدْ غَطَّاهَا] ^(٣) ذَلِكَ الْهَبَاءُ، وَكُلُّ شَيْءٍ، لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَهُوَ هَبَاءٌ، وَقَوْلُ: هَذَا هَبَاءٌ، أَي لَا شَيْءَ، وَمَنْثُورٌ، قَدْ نُثِرَ.

الآية ٢٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وَصَفَ أَعْمَالُ الْكَافِرَةِ مَرَّةً بِالْهَبَاءِ الْمُنْثُورِ وَمَرَّةً بِالرَّمَادِ وَمَرَّةً بِالسَّرَابِ وَمَرَّةً بِالتَّرَابِ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الصَّفْوَانِ، وَهُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ إِذَا أَصَابَهُ الْوَابِلُ. وَوَصَفَ أَعْمَالُ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ وَالْقَرَارِ وَنَحْوِهِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ^(٤): لَا يَتَنَصَّفُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ النَّارِ [فِي النَّارِ] ^(٥) وَأَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي حَرْفِهِ فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الآية: ٦٨] أَي إِلَى الْجَحِيمِ.

وَيُسَبِّحُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أَي لَنَا أَمْوَالٌ وَجَنَاتٌ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ / ٣٧٧ - شَيْءٌ، فَقَالَ جَوَابًا لَهُمْ: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

الآية ٢٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ وَيَذَرُ الْمُنْتَكَتُ نَزِيلًا﴾ وَصَفَ السَّمَاءَ لِهَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِأَوْصَافٍ، وَذَكَرَ لَهَا أَحْوَالَ، فَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] وَقَالَ ^(٦): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وَقَالَ ^(٧): ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وَقَالَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُوبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَقَالَ ^(٨): ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَذَلِكَ فِي اخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ، يَكُونُ فِي كُلِّ وَقْتٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي وَصَفَ، وَكَذَلِكَ مَا وَصَفَ [الجبال] ^(٩) مَرَّةً بِالْهَبَاءِ الْمُنْثُورِ [بقوله: ﴿ذَكَرَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾] [الواقعة: ٦] وَشَبَّهَا مَرَّةً بِالْعَيْنِ ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ^(١٠) وَمَرَّةً [قَالَ] ^(١١): ﴿كَيْبًا مَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وَمَرَّةً قَالَ: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبًا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وَنَحْوَهُ مِنَ الْأَوْصَافِ الَّتِي وَصَفَهَا، وَذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ تَكُونُ فِي كُلِّ وَقْتٍ عَلَى حَالٍ وَوَضِيفَ.

فَعَلَى ذَلِكَ السَّمَاءَ لِشِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَرَعِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ﴾ أَي تَشَقُّقٌ عَنِ الْغَمَامِ، فَتَبْقَى بِلَا غَمَامٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بِالسَّحَابِ﴾ أَي يَبْقَى الْغَمَامُ فَوْقَ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يُظَلُّهُمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] إِنَّمَا مَعْنَاهُ: يُظَلِّلُ مِنَ الْغَمَامِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَيَرْتَفِعُ الْإِشْتِيَاءُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ تَحْتَمِلُ إِضَافَةَ مُلْكِ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْمُلْكُ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَيَّامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجُوهًا:

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَيْشَهُ أَوْ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْغَدَاةُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: وَ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ: وَ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَ. (٧) فِي الْأَصْلِ: وَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

أخذها: إما أنْ مُلِكَ الآخِرَةُ مُلْكٌ دائمٌ باقٍ، لا^(١) فناء له، ومُلِكَ الدنيا، جَعَلَهُ فَايَةً، لا دَوَامَ [له]^(٢)، ولا بقاء.

والثاني: يُعْرِى له جميعُ الخلائقِ بِالمُلْكِ له في ذلك اليوم، وإنْ لم يُعْرِى له البَعْضُ بِمُلْكِ الدنيا.

والثالث: إما [لا]^(٣) يَنَازِعُهُ أَحَدٌ في مُلْكِ ذلك اليوم، وإنْ كَانَ له مُنَازَعٌ في الدنيا.

أو أنْ يَكُونَ المَقْصُودُ بِخَلْقِ هذا العالمِ لِذلك^(٤) اليوم، يَظْهَرُ لِلْخَلْقِ [يومئذٍ] ثم^(٥) يَعلَمُ كُلُّ أنْ خَلَقَهُمْ في الدنيا لِذلك اليومِ كَانَ لا لِلدُّنْيَا خَاصَّةً.

وقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ ذَكَرَ هُنَا الرَّحْمَنَ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿لِيَنِي أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] لِيَتَلَمَّ الْعَرَبُ أَنَّ الرَّحْمَنَ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥ و...]. [والذي]^(٦) ذَكَرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي، وَتُعْرِفُ كُلَّ مَغْبُودٍ إِلَهًا، وَلَا تُعْرِفُ الرَّحْمَنَ مَغْبُودًا وَلَا تَسْمِيَةَ الرَّحْمَنِ، فَعَرَّفَهُمْ أَنَّ اللَّهَ وَالرَّحْمَنَ [اللَّذِينَ ذَكَرَهُمَا]^(٧) وَاحِدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ ظاهرٌ، لَأَشْكُ فِيهِ، فَكَذَلِكَ يَكُونُ.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي عُقْبَةِ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ؛ كَانَ يُؤَاخِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَيُوَادُّهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ إِلَى طَعَامِهِ، فَدَعَا يَوْمًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامِهِ، فَقَالَ: لَا حَتَّى تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَشَهِدَ بِذَلِكَ، فَطَعِمَ مِنْ طَعَامِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبِي بَنَ خَلْفٍ، فَاتَاهُ، فَقَالَ: صَبَوْتُ يَا عُقْبَةُ [إِلَى مُحَمَّدٍ]^(٨) وَأَجَبْتُهُ إِلَى مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ، وَغَيْرُهُ^(٩) عَلَى ذَلِكَ حَتَّى رَجَعَ عُقْبَةُ عَنْ ذَلِكَ، وَازْتَدَّ عَنْ دِينِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ طَوْلٌ. فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِي شَأْنِهِ وَصَنِيعِهِ وَنَدَامَتِهِ وَخَيْرَتِهِ عَلَى مَا فَعَلَ، فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ. وَذُكِرَ أَنَّ عُقْبَةَ، وَأَبِي بَنَ خَلْفٍ قُتِلَا: أَحَدُهُمَا يَوْمَ بَذْرِ وَالْآخَرُ يَوْمَ أُحُدٍ [السيوطي في الدر المنثور ٢٥٠/٦ و٢٥١].

ولكنَّ الْآيَةَ فِي كُلِّ ظَالِمٍ وَكُلِّ كَافِرٍ يَكُونُ عَلَى مَا ذَكَرَ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ عَلَى التَّمَثِيلِ وَالْكِنَايَةِ عَنِ النَّدَامَةِ وَالْحَسْرَةِ، لِأَنَّ مَنْ اشْتَدَّتْ بِهِ النَّدَامَةُ وَالْحَسْرَةُ وَالْغَيْظُ عَلَى شَيْءٍ، يَكَادُ يَعَضُّ يَدَيْهِ غَيْظًا مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا كُنِيَ بِغُلِّ الْيَدِ عَنْ تَرْكِ الْإِنْفَاقِ وَبِالْبَسِطِ عَنْ كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ وَالْمُجَاوَزَةِ فِيهِ، وَكَمَا كُنِيَ بِالنَّبْذِ وَرَاءِ الظُّهْرِ عَنْ تَرْكِ الْإِنْتِفَاعِ وَقِلَّةِ النَّظَرِ فِيهِ وَالِإِكْتِرَابِ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿تَكْصَمُ عَنْ عَيْبَتِهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] عَنِ الرَّجُوعِ وَنَحْوِهِ وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْذِرُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وَقَوْلِهِ: ﴿فَنَزَلَ فَرَسٌ بَدَّ بُرُوتَهَا﴾ [النحل: ٩٤] وَأَمْثَالُ هَذَا عَلَى التَّمَثِيلِ وَالْكِنَايَةِ عَنِ الرَّجُوعِ وَالْقَابِ وَالْأَخْذِ وَالتَّرْكِ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَضُّ الْأَيْدِي كِنَايَةً عَنِ شِدَّةِ النَّدَامَةِ وَالْغَيْظِ عَلَى مَا حَلَّ بِهِ.

وَمِثْلُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى التَّحْقِيقِ تَحْقِيقِ عَضُّ الْيَدِ [إِذٍ]^(١٠) يَجْعَلُ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ بِعَضُّ الْيَدِ كَمَا جَعَلَ عُقُوبَةَ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ حِينَ^(١١) جَعَلَ أَنْفُسَهُمْ حَطَبًا لِلنَّارِ، يُعَذَّبُونَ، وَيُعَاقَبُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ السَّبِيلُ الَّذِي دَعَاهُ الرَّسُولُ إِلَيْهِ.

الآية ٢٨

[وقوله تعالى]^(١٢): ﴿يَتَوَلَّى لَتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ الْإِنْسَانُ، وَيَحْتَمِلُ الشَّيْطَانُ، أَيْ لَمْ أَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ خَلِيلًا، وَلَمْ أَطْعُهُ فِي مَا [دَعَانِي إِلَيْهِ]^(١٣)، وَالْإِنْسَانُ الَّذِي قُلَّدَهُ فِي مَا قُلَّدَهُ.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْأَلْنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ الشَّرَفَ الَّذِي يُذَكَّرُ بِهِ الْمَرْءُ ﴿أَسْأَلْنِي عَنِ الشَّرَفِ﴾ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، أَوْ ﴿أَسْأَلْنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أَيْ عَنِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الذِّكْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بَلَا. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فِي ذَلِكَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَوْمَئِذٍ يَتِم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي ذَكَرَهَا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَمَّدًا. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَعِير. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: دَعَاهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثَ السَّيِّئِينَ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا﴾ أي تاركاً له متبرئاً منه؛ يقول كما قال في آية أخرى حكاية عنه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦] ويقول كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] أو يكون كما ذكر: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] أو يكون ذلك الحذولان منه له^(١) في الدنيا [ذ: ٢٢] يُمْنِيهِ بَامَانِي [وَيُزَيِّنُ لَهُ] أشياء^(٢)، ثم لا يوصله إليها.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ قال بعضهم: المهجور، هو الذي لا يتفق [به]^(٣) ولا يعمل [به]^(٤).

قال أبو عروسة والقشيري: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي تركوه مهجوراً. ويقال: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي كالهذيان، والهجر الإسم^(٥)، يقال، فلان، يهجر في منامه، أي يهذي، وهو بالفارسية: بلاه كفى.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل الذي جعلنا لك من العدو من الكفرة جعلنا لكل نبي من قبلك عدواً.

ثم العداوة، تكون في الدين مرة، ومرة في الأنفس وأحوالها. فإن كان العدو عدواً في الدين فجميع^(٦) الكفرة له أعداء لإخلافهم له في الدين، ويكون حُرْف: من صلة، أي جعلنا لكل نبي المجرمين أعداء.

وإن كان على تحقيق من وإثباتها فالعداوة عداوة في [الأنفس وأحوالها]^(٨) وذلك راجع إلى الفراعنة وأصداد الرسل: ما من رسول [إلا]^(٩) وله فراعنته، وأصداده، يُنَازِعُونَهُ، وَيُقَاتِلُونَهُ [وَيُهَيِّمُونَ بِقَتْلِهِ]^(١٠).

ثم بشر رسوله بالحفظ له والنصر والظفر على أعدائه، وهو قوله: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ذكر أهل التأويل أن أهل مكة كانوا يأتون رسول الله، فيُعتَنُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ: يا محمد أتزعم أنك رسول من عند الله؟ أفلا آتينا بالقرآن جُمْلَةً كما أنزلت التوراة جُمْلَةً واحدة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود؟

فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَكَ﴾ ٣٧٧ - ب/ يه فَوَادَكَ وَكَذَلِكَ تَرْتِيلًا أي بمثل الذي نُثَبِّتُ بِهِ فَوَادَكَ. ثم يَحْتَمِلُ قوله تعالى: ﴿لِنُنَبِّئَكَ بِهِ فَوَادَكَ﴾ وَجْهين:

أحدهما: أنزلناه مُتَفَرِّقًا لِنُثَبِّتَ فِي فَوَادِكَ، فَتَحْفَظُهُ^(١١)، وَتَذْكُرُهُ، لَأَنْ حِفْظَ الشَّيْءِ إِذَا كَانَ سَمَاعُهُ بِالتَّفَارِيقِ، كَانَ حِفْظُهُ أَهْوَنَ وَأَيْسَرَ مِنْ حِفْظِهِ إِذَا سُمِعَ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ أَجْناسٍ وَأَنْوَاعٍ.

والثاني: ﴿لِنُنَبِّئَكَ بِهِ فَوَادَكَ﴾ أي لِنُثَبِّتَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَعَانِي فَوَادَكَ.

ثم يَحْتَمِلُ قوله: ﴿فَوَادَكَ﴾ أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ فَوَادُ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَيَسْمَعُهُ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّيٍّ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٦] على ما ذكرنا أنه يكون أَسْرَعَ حِفْظًا وَأَهْوَنَ ثَبَاتًا مِنْ سَمَاعِهِ جُمْلَةً.

وجائز أن يكون أراد [به]^(١٢) فَوَادَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ [إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ] [القيامة: ١٦ و ١٧] وقوله: ﴿سَتَقَرُّنَاكَ فَلَا تَنْهَى﴾ [إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ] الآية [الأعلى: ٦ و ٧] كَانَ يُعْجَلُ بِحِفْظِهِ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ خَوْفًا أَنْ يَذْهَبَ، فَخَبَرَهُ أَنَّهُ يُثَبِّتُ فَوَادَهُ^(١٣)، وَيُزِيلُهُ بِالتَّفَارِيقِ لِكَيْ يَحْفَظَهُ، وَيَذْكُرَهُ.

ثم إن كَانَ الْمُرَادُ تَثْبِيتهُ فِي الْفَوَادِ، هُوَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَعَانِي وَقِرَاءَتُهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّيٍّ كَذَلِكَ، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُزِيلُهُ عَلَى قَدْرِ التَّوَازِلِ وَالْحَوَائِجِ لِيَكُونُوا أَحْفَظَ لَتِلْكَ الْمَعَانِي وَأَعْرِفَ بِمَوَاضِعِهَا وَتَقْدِيرِ غَيْرِهَا مِنَ التَّوَازِلِ بِهِ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ جُمْلَةً فِي دَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) من م، في الأصل: منزله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وزينه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: كاسم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الدين والأحوال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ويهيمونه قتله. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: فوادك.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ يَمَنٌ﴾ أي بصفة، يُسَبِّهُونَ بها على الخلق ﴿إِلَّا يَجْنَلَ﴾ بالحق ﴿بِصِفَةٍ﴾ هي أحقُّ مما أتواهم، فترفع تلك الشبهة عنهم؛ أعني عن الخلق، أو يقال: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ يَمَنٌ﴾ بصفة، هي باطل ﴿إِلَّا يَجْنَلَ﴾ بالحق ﴿أي بصفة﴾ هي حق، فتبطل تلك، وتضمحل ﴿وَأَحْسَنَ تَقْدِيرًا﴾ أي بياناً من الأول. وعلى التأويل الثاني ظاهر، ولا شك أنه أحسن وأحق.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿وَرَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ أَيِ أَنْزَلْنَا بَعْضَهُ بَعْدَ بَعْضٍ وَعَلَى اثَرِ بَعْضٍ؛ لَمْ يُنَزِّلْهُ فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَرَزَّلْنَاهُ رِزْقًا﴾ أي بيناه تبياناً.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ قال: لا يُخَاصِمُونَكَ بشيءٍ، ولا يُجَادِلُونَكَ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول^(١): جِئْنَاكَ بِالْقُرْآنِ بِأَحْسَنِ مِمَّا جَاءُوا بِهِ تَفْسِيرًا. وهو قريب مما ذُكِّرْنَا بِهِ. وفي حرفٍ حَفْصَةً: إِلَّا جِئْنَاكَ بِأَحَقِّ مِنْهُ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا. وهو شبيهٌ بِبَعْضِ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي ذُكِّرْنَا.

الآية ٣٤ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَسْفَلُ سَبِيلًا﴾ يُشْبِهُهُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ هَذَا عَلَىٰ مُقَابَلَةِ سَقَطَ. وَإِلَّا عَلَى الْإِنْتِدَاءِ لَا يَسْتَقِيمُ ذِكْرُهُ.

فَجَاءَتْهُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرُهُ عَلَى مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿أَسْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ الآية [الفرقان: ٢٤] هذا ذِكْرُ مُقَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَذَكَرَ مُقَابِلَ ذَلِكَ مَكَانَ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَ: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ جُورِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أَيِ شَرِّ مَكَانًا فِي الْآخِرَةِ، وَأَضَلُّ سَبِيلًا فِي الدُّنْيَا.

أَوْ أَنْ يَكُونَ مُقَابِلَ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؟ [مريم: ٧٣] فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِنْ جَهَنَّمَ أَزْلَمَتْ لَسَرًّا مَكَانًا وَاضْعَلَّ سَبِيلًا﴾ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، بَلْ مَقَامُهُمُ الْجَنَّةُ؛ أَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ، وَمَقَامُ الْكَافِرَةِ النَّارُ، فَهُمْ سَرًّا مَكَانًا مِنْهُمْ.

وفي بعض الأخبار أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يُخسر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: إن الذي أمشاه على رجله قادر على أن يُمشيه على وجهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ ذَكَرَ ههنا أَنَّهُ كَانَ وزيراً لَهُ، وَذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿قَالِيَاءُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] حِينَ^(٣) قَالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

فَكَانَ [فِي] ^(٤) مَا ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا. وَكَانَ لَهُ وَزِيرًا، وَالْوَزِيرُ هُوَ الْعَوْنُ وَالْعَضُدُ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا عَوْنًا وَعَضُدًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا لِي وَزِيرًا مِّنْ أُمَّلِي﴾ ﴿مَنْزُونٌ أَخِي﴾ ﴿أَشَدُّ بِؤْسَ آزَرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ و ٣٢] سَأَلَ رَبُّهُ الْمَعُونَةَ لَهُ وَالْإِشْرَاكَ فِي أَمْرِهِ.

وقال: ﴿فَازْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤].

وَقَالَ الرَّجَاؤُ: الْوَزِيرُ هُوَ الَّذِي يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ فِي النُّوَائِبِ، وَيُعْتَصَمُ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ وَاحِدٌ.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿نَقُلْنَا أَهْكَ إِلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَرْنَاهُمْ فَذَمُّهُمْ ذَمُّ مَعْرِفَةِ آيَاتِنَا، أي اهلكناهم إهلاكاً.

الآية ٢٧ وقوله تعالى: ﴿رَقَمَ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَصْرَفَتَهُمْ﴾ جائز أن يكون قوله: ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ [أراد به] ^(٥) نوحاً خاصة لأنه ذَكَرَ قومَ نوح. فإن كانَ ذلكَ ففيه دلالةٌ جوازِ تسميةِ الواحدِ باسمِ الجماعةِ، وجائزٌ أن يكونَ نوحٌ دعاهُم إلى الإيمانِ [بالله ﷻ] ^(٦) وبجميعِ الرسل، فكذبوه، وكذبوا الرسلَ جميعاً، واللهُ أعلمُ.

(١) في الأصل وم: بقوله. (٢) من م، في الأصل: ليتني. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ لم يُغْرِقْنَاهُمْ على إثر تكذيبهم إياه، ولكن إنما أغرقهم بعد ما دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي آية لِلْمُكَذِّبِينَ وَالْمُصَدِّقِينَ [الْمَا بَيْنَ حُكْمِهِ: فِي الْمُكَذِّبِينَ^(١) مِنْهُمْ الْإِهْلَاكُ وَالْإِسْتِصْصَالُ، وَفِي الْمُصَدِّقِينَ مِنْهُمْ النِّجَاةُ وَالْخَلَاصُ]. فَذَلِكَ آيَةٌ لِكُلِّ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقٍ لِمَا إِلَيْهِ تَوَلَّوْا عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ: عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ الْإِهْلَاكُ، وَعَاقِبَةُ الْمُصَدِّقِينَ النِّجَاةُ^(٢).

فإن قيل: إنهم جميعاً، قد هلكوا: الْمُصَدِّقُونَ مِنْهُمْ وَالْمُكَذِّبُونَ قِيلَ: أَهْلِكَ الْمُكَذِّبُونَ مِنْهُمْ إِهْلَاكاً عُقُوبَةً وَتَعْذِيباً [وَهْلَاكَ الْمُصَدِّقِينَ^(٣) بِانْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ لَا هْلَاكاً عُقُوبَةً].

ثم ذَكَرَ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ فَمَعْنَى جَعَلَ أَنْفُسَهُمْ آيَةً مَا ذَكَرْنَا. وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] أي السفينة.

قَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلَ السَّفِينَةَ آيَةً لِأَنَّ مِنْ طَبِيعِ الشُّعْنِ أَنَّهَا إِذَا امْتَدَّتْ الْأَوْقَاتُ، وَطَالَ الزَّمَانُ، تَفْسُدُ^(٤)، وَتَتَلَاشَى، وَهِيَ بَعْدُ بَاقِيَةٌ كَمَا هِيَ؛ أَعْنَى سَفِينَةَ نُوحٍ. لَكِنْ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا ذَكَرَ أَوْ: لَا. فَالْوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هَكَذَا جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ ظَلَمَ كُفْرًا وَشِرْكًا أَنْ يُعَذَّبَ لَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ.

الآية ٣٨ وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّمِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَهْلَكَ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ عَادًا، وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ، وَثَمُودًا، وَهُمْ قَوْمُ صَالِحٍ ﴿وَأَصْحَابَ الرِّمِّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: سُمُّوا أَصْحَابَ الرِّمِّ لِأَنَّهُمْ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ فِي بَيْتٍ، أَيْ رَسُّوهُ فِيهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرِّمُّ هُوَ اسْمُ الْبَيْتِ، كَانُوا نَزَلُوا عَلَيْهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ شُعْبِيًّا، فَكَذَّبُوهُ، فَسُمُّوا بِذَلِكَ، وَنُسِبُوا إِلَى تِلْكَ الْبَيْتِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَ كَعْبًا عَنْ الرِّمِّ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ -مَعَاشِيرَ الْعَرَبِ- تَدْعُونَ الْبَيْتَ رَسًّا، وَالْقَبْرَ رَسًّا، وَتَدْعُونَ الْخَدَّ رَسًّا [وَقَدْ خَدَّ قَوْمٌ قَبْلَكُمْ]^(٥) أَخْدُودًا فِي الْأَرْضِ، فَأَوْقَدُوا فِيهَا النَّارَ لِلرُّسُولِينَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ فِي يَس: ﴿إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [الآية: ١٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا مَرَرْنَا لَهُ الْآتِلَّ﴾ أَي ذَكَرْنَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَمْثَالَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمَمِ، مِنَ الْمُكَذِّبِينَ وَالْمُصَدِّقِينَ وَمَا حَلَّ بِهِمْ وَمَا إِلَيْهِ آتَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ حَتَّى^(٦) قَالَ: ﴿وَكَلَّا مَرَرْنَا تَنْبِيْرًا﴾ أَي أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَبَّرْنَا أَي كَسَرْنَا بِالْبَطِيْطَةِ؛ يَقُولُ أَحَدُهُمْ [عَنِ الشَّيْءِ] إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكْشِرَهُ: أَتَبَّرَهُ.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقُرُونِ يَغْنِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَهْلَ مَكَّةَ﴾ أَلْقَى أَنْطَرْتُ مَكَّرَ الْقُرُونِ، وَهِيَ الْحَجَارَةُ؛ يَغْنِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قُرَيَاتٍ لُوطٍ أَيْ/ ٣٧٨ - أَيْ يَمُرُّ عَلَيْهَا^(٨) أَهْلُ مَكَّةَ فِي تِجَارَتِهِمْ، وَيَأْتُونَهَا، وَهُوَ كَمَا قَالَ فِي الصَّافَاتِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شُعْبَانَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ [الآية: ١٣٧].

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿أَنْتُمْ يَكْثُرُونَ يَكُونُوا يَكُونُوا﴾ مَا حَلَّ بِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ فَيَغْتَبِرُوا، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ شُورًا﴾، أَيْ بَغْنًا بَعْدَ الْمَوْتِ وَاحْيَاءً. إِنَّمَا كَذَّبُوا الرِّسَالَ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَغْثِ، وَلَا يَخَافُونَ شُورًا.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؟ كَانُوا إِذَا رَأَوْهُ هَزَبُوا بِهِ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ فِي مَا بَيْنَهُمْ: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾؟ [الإسراء: ٩٤] هَكَذَا كَانَتْ عَادَةُ الْكُفَرَةِ يَهْزَوْنَ بِهِ إِذَا حَضَرُوهُ، وَإِذَا غَابُوا عَنْهُ قَالُوا مَا ذَكَرَ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْمُصَدِّقِينَ. (٤) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهَا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: فَخَدُوا. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لِلشَّيْءِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٢

[وهو] ^(١) قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

[وفي] ^(٢) قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا﴾ دلالة أنه إنما أراد أن يضلَّهم عن عبادتهم الأصنام بالحجج والآيات؛ إذ ليس في وسع النبي صرفهم ومنعهم عن ذلك إلا من وجه لزوم الآيات والحجج [لأنهم عاندوا تلك الآيات والحجج] ^(٣) وكابروها، وثبتوا على عبادة الأصنام والأوثان. ولأنهم علموا من جهة الآيات والحجج التي أقامها عليهم أنه على الحق وأنهم على باطل.

ثم قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَلْمُونَكَ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ آلَوْا مِنْ أَمْلٍ سَبِيلًا﴾ أي يعلمون حين لا يقدرُونَ على الجحود والإنكار إذا نزل بهم العذاب، ووقع ^(٤) من أضل سبيلاً هم أو المؤمنون لأنهم ^(٥) علموا بالآيات والحجج أنه على حق وأنهم على باطل وعلموا الموعود من العذاب.

فأخبر أنهم يعلمون عند وقوعه بهم علماً، لا يقدرُونَ على جحوده ولا إنكاره كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَنَعَدُكُمْ﴾ [غافر: ٨٤] وهذه الآية وقوله: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخِذْنَا سَبِيلًا إِنَّا مُقَنِّطُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وأمثال ذلك إذا عاينوا الموعود في الدنيا يقرُّون به، لا يقدرُونَ على الجحود؛ فكذلك قوله: ﴿وَسَوْفَ يَلْمُونَ﴾ [علماً] ^(٦) لا يقدرُونَ على الإنكار والجحود ^(٧) حيث يرون العذاب من أضل سبيلاً.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ قال بعضهم: إنهم كانوا يعبدون أشياء: حجراً وغيره. فإذا رأوا أحسن منه في رأي العين والمنظر تركوا عبادة ذاك، وعبدوا ما هو أحسن منه.

وقال بعضهم: كلُّما هَوَتْ أنفسهم شيئاً عبدوه، وكلُّما اشتبهوا شيئاً اتَّوَّه، لا يخجروهم عن ذلك ورع ولا تقوى الله.

ويختلِل وجهين آخرين موى [ما] ^(٨) ذكر هؤلاء:

أحدهما: تركوا عبادة الإله الذي قامت الحجج والبراهين بالوحي ورؤيته، ولزموا عبادة من لم تقم له الآيات والحجج بذلك بهوَاهُم.

والثاني: أنهم عبدوا [ما عبدوا] ^(٩) من الأصنام بلا أمرٍ كان لهم بالعبادة [إذ] ^(١٠) لا بُدَّ من أمرٍ [ياتيرون به] ^(١١) بل عبدوا بهوَاهُم أو كلامٌ نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي لست أنت بوكيلٍ ومُسَلِّطٍ عليهم، ولا حافظ، أي لا تُسأل أنت عن أعمالهم، ولا تُحاسَب عليها، بل هم المسؤولون عنها، وهم مُحاسِبُونَ عليها كقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقوله: ﴿فَأَنْتَ تَوَلَّوْا فَمَا لَنَا عَلَيْهِ مَا يَحُكُّ﴾ الآية [النور: ٥٤] والله أعلم.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وإن كان في الظاهر استيفهاً فهو في الحقيقة على الإيجاب. وهكذا كل استيفهاً من الله يُخرِّج على الإيجاب أو على النفي. كأنه قال: قد حَسِبْتَ ^(١٢) أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ أي لا يَتَّقِعُونَ [بما يسمعون، ولا يَتَّقِعُونَ] ^(١٣) بما يعقلون. [أو يكون على النفي، أي لا تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ] أي لا يَتَّقِعُونَ بما يسمعون، ولا يَتَّقِعُونَ بما يعقلون، والله أعلم ^(١٤).

[وقوله تعالى] ^(١٥): ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا لَآئِنَّمْ يَلَهُمْ أَصْلُ سَبِيلًا﴾ قال بعضهم: ^(١٦) لَأَنَّهُمْ هُمُ، ليست إلا كهمة الأنعام، وهي ^(١٧) الأكل والشرب، ليست لهم همةٌ سِوَاهَا ^(١٨)، وليست للأنعام همةٌ العاقبة. فعلى ذلك الكفرة؛ فهم كالأنعام من هذه الجهة.

(١) وفي الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدما في الأصل وم: وإن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يؤتمره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل وم: سواء.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قَالَ قَائِلُونَ: قَوْلُهُ: ﴿أَضَلُّ﴾ لَأَنَّ الْأَنْعَامَ، تَعْرِفُ رَبَّهَا وَخَالِقَهَا، وَتَذْكُرُهُ، وَهُمْ لَا يَغْرِفُونَ رَبَّهُمْ، وَلَا يَذْكُرُونَ. أَوْ هُمْ أَضَلُّ لِأَنَّهُمْ يَنْسِبُونَ إِلَى اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ، وَيُشْرِكُونَ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْأَنْعَامَ [لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ؛ فَهُمْ] ^(١) أَضَلُّ.

[وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ أَضَلُّ] ^(٢) لَأَنَّ الْأَنْعَامَ إِذَا هُدِيَتْ إِلَى الطَّرِيقِ اعْتَدَتْ، وَهُمْ يَهْدُونَ، وَيُذْعَوْنَ إِلَى الطَّرِيقِ، فَلَا يَهْتَدُونَ، وَلَا يُجِيبُونَ، فَهُمْ أَضَلُّ. أَوْ يُقَالُ: هُمْ أَضَلُّ لِأَنَّهُمْ يَفْضِلُونَ [وَيُضِلُّونَ] ^(٣) غَيْرَهُمْ، وَيَمْنَعُونَهُمْ ^(٤) مِنَ الْهُدَى، وَالْأَنْعَامَ لَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ حَرْفَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هُوَ حَرْفُ تَعْجِيبٍ وَاسْتِفْهَامٍ، لَكِنَّهُ ^(٥) فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى الْإِيجَابِ؛ أَيِ قَدْ رَأَيْتَ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِنْ رَيْكَ﴾ أَيِ إِلَى تَدْبِيرِ رَبِّكَ وَلُطْفِهِ ^(٦): ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وَهُوَ لَا يُؤْذِي، وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَمَسُّ، وَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَنْقُلُ، وَلَا يَخْفُ، وَلَا يَسْتَرُّ، وَلَا يَكْشِفُ عَنْ وَجْهِ الْأَشْيَاءِ. [إِنَّمَا النُّورُ] ^(٧) هُوَ الْكَاشِفُ عَنْ وَجْهِ الْأَشْيَاءِ، وَالظُّلْمَةُ هِيَ السَّائِرَةُ لِلذَّكَ.

وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ مِمَّا يُحِيطُ بِالْخَلَائِقِ كُلِّهَا لِيُعْلَمَ أَنَّ [مِنْ] ^(٨) الْمَحْسُوسَاتِ الَّتِي تَقَعُ عَلَيْهَا الْحَوَاسُّ مَا لَا تَذْكُرُ حَقِيقَتَهُ: مِنْ نَحْوِ الظِّلِّ الَّذِي ذَكَّرْنَا. هُوَ مَا [لَا] ^(٩) تَذْكُرُ حَقِيقَتَهُ، وَمِنْ نَحْوِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ وَالنُّطْقِ لِيُعْلَمَ أَنَّ الَّذِي سَبِيلُ مَعْرِفَتِهِ الْاسْتِدْلَالُ، وَهُوَ مُنْشِئُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَحَقُّ أَلَّا يَذْكُرَ، وَلَا يُحَاطَ بِتَدْبِيرِهِ وَلُطْفِهِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ بَلَغَ تَدْبِيرَهُ وَلُطْفَهُ هَذَا الْمَبْلَغَ، لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُعْجِزَهُ شَيْءٌ، أَوْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَلُطْفِهِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ قَادِرٌ وَمُدَبِّرٌ [وَلَطِيفٌ بِذَاتِهِ] ^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا﴾ أَيِ دَائِمًا ^(١١)، لَا يَذْهَبُ أَبَدًا، وَلَا تُصَيِّبُهُ الشَّمْسُ، وَلَا يَزُولُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿سَاكِنًا﴾ أَيِ مُسْتَقِرًّا دَائِمًا، لَا تَنْسَحُهُ الشَّمْسُ كَظِلِّ الْجَنَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الْأَنْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ تَلْبِيهِ، وَتَتَبُعِهِ، حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى كُلِّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الْأَنْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾] ^(١٢) يَقُولُ: حَيْثُمَا [تَكُنِ الشَّمْسُ يَكُنِ] ^(١٣) الظِّلُّ. وَاصْلُهُ: أَنَّهُ بِالشَّمْسِ يَعْرِفُ الظِّلُّ أَنَّهُ ظِلٌّ، وَلَوْلَا الشَّمْسُ مَا عُرِفَ الظِّلُّ. فَهِيَ دَلِيلُ مَعْرِفَتِهِ وَكَوْنِهِ أَنَّهُ ظِلٌّ.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَبِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَيِّئًا خَفِيًّا. وَاصْلُهُ أَنَّهُ يَقْبِضُ بِالشَّمْسِ الظِّلَّ، وَتَنْسَحُهُ شَيْئًا قَشِيًّا حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى كُلِّهِ.

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَآءٍ قِيلَ: سَكَنًا، يَسْكُنُ فِيهِ الْخَلَائِقُ، وَقِيلَ: لِأَسَآءٍ﴾ أَيِ سِنْرًا ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ رَاحَةٍ؛ يُقَالُ: سَبَتَ الرَّجُلُ، يَسُبُّ سُبَاتًا، فَهُوَ مَسْبُوتٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَضَلُّ السَّبَبِ التَّمَدُّدُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَبَتَ الرَّجُلُ إِذَا نَعَسَ. وَقِيلَ: رَجُلٌ مَسْبُوتٌ، لَا يَقِفُّ، كَأَنَّهُ مَيِّتٌ ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾. فَمَنْ جَعَلَ السُّبَاتَ النَّوْمَ جَعَلَ قَوْلُهُ: ﴿النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أَيِ حَيَاةٍ يَحْيُونَ فِيهِ، وَمَنْ يَقُولُ: السُّبَاتُ رَاحَةٌ يَجْعَلُ قَوْلُهُ: ﴿النَّهَارَ نُشُورًا﴾ يُتَشَرُّ فِيهِ لِلْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَابْتِغَاءِ الرِّزْقِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَذْكُرُ نِعْمَتَهُ وَمِنَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ لِيَسْتَأْذِيَ شُكْرَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنَّهُمْ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَمْنَعُوهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٥) أُدْرِجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ: وَالظُّلْمَةُ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: بِذَاتِهِ لَطِيفٌ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: دَائِمًا. (١١) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ: يَكُونُ، فِي م: تَكُونُ الشَّمْسُ يَكُونُ.

وقال أبو معاذ: قال مقاتل: ؟ ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾ يعني الفَيء من أوّل وقت صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وأخطأ؛ ولا يُسمى ذلك الظلّ شيئاً.

وقال الكسائي: العرب، تقول: الظلُّ من حين يَصْبَحُ إلى انتصاف النهار، فإذا زالت الشمس من كبد السماء، فما خرج من ظلّ فذلك الفَيء، ويُقال: الفَيء الظلُّ، ولا يُقال: الظلُّ الفَيء قبل الزوال.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ قال بعضهم: نُشْرًا^(١) أي حياة، وقال بعضهم: نُشْرًا للسحاب، أي تَبْسُطُهُ. وعلى التأويل الأول أي [يُخَيِّي بها]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بَيْنَ يَدَي ٣٧٨ - ب/المَطَرِ. سَمِيَ المَطَرُ رَحْمَةً لما بِرَحْمَتِهِ يَكُونُ. وكذلك سَمِيَ^(٣) الجنة رَحْمَةً لأنها بِرَحْمَةٍ مِنْهُ^(٤) يَدْخُلُ مَنْ يَدْخُلُ^(٥) فيها.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ هذا يَدُلُّ أَنَّهُ لَا يُفْهَمُ [مِنَ اليَدِ]^(٦) اليَدُ المَعْرُوفَةُ التي هي الجارحة حين^(٧) ذَكَرَ ذلك، ولا تُعْرَفُ؛ أعني اليَدُ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣ والحديد: ٢٩] وقوله^(٨): ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١] ذلك، وبالله العِصْمَةُ.

وقرأ بعضهم: ﴿بُشْرًا﴾ بالباء، وهو مِنَ الْبِشَارَةِ كقوله: ﴿وَمَنْ آيَنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرَتًا﴾ [الروم: ٤٦] أي تُبَشِّرُهُم بِالرَّحْمَةِ والسَّعَةِ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي ماء يَطْهَرُ بِهِ الْأَنْجَاسَ وَالْأَفْذَارَ الظَّاهِرَةَ مِنْهَا وَالْبَاطِلَةَ. وكذا الطَّهْوَرُ؛ إِنَّهُ يَطْهَرُ حَيْثُ مَا أَصَابَهُ.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿لَنُخَيِّبَنَّ بِهِ بَلَدَهُ مَبْنًى وَنُثْقِلَهُ مَبْنًى خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَأْيًا كَثِيرًا﴾ [فيه لُغَتَانِ: أَسَقَى، وَسَقَى: بِالْأَلِفِ وَبِغَيْرِ الْأَلِفِ^(٩) يُقَالُ: سَقَى بِهِ حَرْتَهُ وَمَاشِيَتَهُ، وَأَسَقَيْتُهُ^(١٠) أي نَاولْتُهُ مَا يَشْرَبُ، وهو قول القُتَيْبِيِّ وَأَبِي عَوْسَجَةَ^(١١)].

وقوله^(١٢) تعالى: ﴿وَأَنَابِيَّ كَثِيرًا﴾ قال بعضهم: الْأَنَابِيَّ جَمْعُ إِنْشِي، وقال بعضهم: هو جَمْعُ إِنْسَانٍ؛ وَأَضْلُهُ بالنون: أَنَاسِيْن، لكن أُبْدِلَتِ النونُ ياءً.

وقال أبو عوسجة والقُتَيْبِيُّ ﴿وَأَنَابِيَّ﴾ مُشَدَّدَةً؛ يعني أَنَاسًا^(١٣). وَأَنَابِيَّ جَمَاعَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. ثم يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَنُثْقِلُهُ مَبْنًى خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَأْيًا كَثِيرًا﴾ أي نُسْقِيهِ مِنَ الْمَاءِ الطَّهْوَرِ الْمُنْزَلِ مِنَ السَّمَاءِ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْعَامِ وَكَثِيرًا مِنَ الْإِنْسَانِ وَكَثِيرًا مِمَّا يَسْقَى مِنَ الْمِيَاءِ الْمُنْزَعَةِ مِنَ الْأَرْضِ.

الآية ٥٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ أي صَرَفْنَا المَطَرَ وَالسَّحَابَ بَيْنَهُمْ؛ يُمَطِّرُ فِي مَكَانٍ، وَيَسَوِّقُ السَّحَابَ إِلَى مَكَانٍ، وَلَا يَسَوِّقُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ كقوله: ﴿وَتَقْرِيفَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤] وكقوله: ﴿فَسَقْنَهُ إِلَيْنَا بَلَرٍ مَّيَّتٍ﴾ الآية [فاطر: ٩].

يُذَكِّرُهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِنْ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ تَذْكِيرُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحِكْمَتُهُ وَنَعَمُهُ.

أَمَّا تَذْكِيرُهُ [فهو حين^(١٤)] تَرَى السَّحَابَ فِي مَوْضِعٍ، وَلَا تَرَاهُ فِي مَوْضِعٍ، وَتَرَاهُ مُنْبَسِطًا فِي الْآفَاقِ، ثم يُمَطِّرُ فِي

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٨٨. (٢) في الأصل وم: يحييها. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٤) من م، في الأصل: ما.

(٥) في الأصل وم: دخل. (٦) في الأصل وم: باليد. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية

٢٨٩/٤. (١٠) في الأصل: وسقيته. (١١) ساقطة من م. (١٢) الواو ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: أناسي. (١٤) في الأصل وم: حيث.

مَوْضِعَ آخَرَ، وَلَا يُرْسِلُهُ^(١) فِي مَكَانٍ، وَيُرْسِلُهُ^(٢) فِي مَكَانٍ آخَرَ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ عَنْ تَدْبِيرٍ كَانَ هَكَذَا لَا بِالطَّنْبِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بِالطَّنْبِ كَانَ ذَلِكَ لَكَانَ جَائِزاً^(٣) أَنْ يُنْطَرَفَ فِي مَكَانٍ، وَيَتْرَكَ فِي مَكَانٍ آخَرَ. دَلٌّ أَنَّهُ بِالتَّدْبِيرِ كَانَ مَا كَانَ وَبِالْأَمْرِ.

وَأَمَّا قُدْرَتُهُ [فهي]^(٤) مَا ذَكَرَ مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَإِنْبَاتِهَا بَعْدَ إِحْيَائِهَا مِمَّا يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ حَيَاتِهَا وَمَوْتَهَا، وَيُقِرُّ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذَا [فهو]^(٥) قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَأَمَّا حِكْمَتُهُ فَإِنَّ^(٦) مَا خَلَقَ مِمَّا ذَكَرَ، وَإِنشَاءً؛ لَمْ يُنْشِئْهُ عَبَثاً. يُهْمِلُهُمْ^(٧)؛ لَا يَأْمُرُهُمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ، وَلَا يَمْتَحِنُهُمْ بِشَيْءٍ، وَلَا يَجْعَلُ لَهُمْ عَاقِبَةً؛ يُثَابُونَ [ولا]^(٨) يُعَاقَبُونَ، وَلَا يَسْتَأْذِي مِنْهُمْ شُكْرًا مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ [التَّعْمِ]^(٩) مِمَّا تَعْجِزُ عَقُولُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِهِ، وَتَقْصُرُ أَفْهَامُهُمْ عَنْ تَقْدِيرِ مِثْلِهِ. [إِنْشَاءً]^(١٠) لِيُعْلَمَ أَنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

ثُمَّ قَوْلُهُ^(١١) تَعَالَى: ﴿فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ: الْكَفُورُ بَرَفِ الْكَافِ الْكُفْرِ، وَالْكَفُورُ بِفَتْحِ الْكَافِ الْكَافِرُ، وَالشُّكُورُ بِضَمِّ الشَّيْنِ الشُّكْرُ، وَالشُّكُورُ بِفَتْحِ الشَّيْنِ الشَّاكِرُ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ. فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفْرًا بِاللَّهِ وَتَكْذِيبًا لِعِبَادَتِهِ بِصَرْفِهِمْ الْعِبَادَةَ إِلَى غَيْرِهِ وَلِتَفْأُولِيهِمْ وَتُظَيِّرَهُمْ: أَنَّ هَذَا مِنْ نَوْءٍ كَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥١ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَافْتَنَّا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ هَذَا يَحْتَوِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا عَنْكَ بَعْضَ مَا حَمَلْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْمُؤْنِ: مِنْ مُؤْنَةِ التَّبْلِيغِ وَالْقِيَامِ بِذَلِكَ، وَحَمَلْنَاهَا^(١٢) غَيْرَكَ، فَيَكُونُ عَلَيْكَ أَيْسَرٌ وَأَهْوَنٌ مِنَ الْقِيَامِ بِالْكُلِّ.

وَالثَّانِي: لَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَا غَيْرَكَ أَيْضاً أَهلاً لِلرَّسَالَةِ وَمَوْضِعاً لَهَا فِي زَمَانِكَ وَجِهَتِكَ، فَبَعَثْنَا فِي بَعْضِ الْقُرَى وَالْمُدُنِ لَكُنَّا لَمْ نَجْعَلْ غَيْرَكَ أَهلاً لَهَا، وَخَصَّضْنَاكَ لَهَا مِنْ غَيْرِكَ^(١٣) مِنَ النَّاسِ. فَهُوَ عَلَى الْاِئْتِنَانِ يُخَرِّجُ وَالْاِخْتِصَاصِ لَهُ.

ثُمَّ لَا يَخْلُو ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ يَضْلُحُ لِلرَّسَالَةِ، وَيَضْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَهلاً لَهَا وَمَوْضِعاً، فَلَمْ تُرْسَلْ، أَوْ كَانَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يَضْلُحُ لَذَلِكَ. فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ: لَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَا فِيهِ مَنْ يَضْلُحُ لِلرَّسَالَةِ، وَيَضْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَهلاً لَهَا وَمَوْضِعاً.

فَأَيُّ الرَّجْهَيْنِ كَانَ فَهُوَ يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَرِزَةِ قَوْلَهُمْ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَضْلُحُ لَهَا، وَارْسَلْ، كَانَ أَضْلَحَ لَهُ، فَلَمْ يُرْسَلْ، فَقَدْ تَرَكَ مَا هُوَ أَضْلَحُ لَهُ وَآخِرُ، أَوْ يَكُونُ، لَا يَضْلُحُ فِيهِمْ أَحَدٌ لَذَلِكَ، لَكِنَّهُ يَمْلِكُ أَنْ يُضْلِحَهُ، وَيَجْعَلَهُ أَهلاً لَهَا، فَهُوَ أَضْلَحُ لَهُ وَآخِرُ، ثُمَّ لَمْ يَفْعَلْ.

دَلٌّ أَنَّ [لَهُ]^(١٤) أَنْ يَتْرَكَ الْأَضْلَحَ وَالْآخِرَ فِي الدِّينِ.

الآية ٥٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرَّسُلِ التَّيَقُّنُ وَالْاِئْتِنَانُ عَنِ التَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ وَالْقِيَامِ بِمُجَاهَدَتِهِمْ، وَإِنْ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ الْهَلَكَ، حِينَ^(١٥) قَالَ: ﴿تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ^(١٦) يَوْمَئِذٍ إِلَّا قَلِيلٌ مِمَّنْ اتَّبَعَهُ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ لِأَنَّ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِيهَا نَزَلَتْ.

وَالثَّانِي: فِيهِ دَلَالَةٌ لِإِبَاتِ لِرِسَالَتِهِ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالْخِلَافِ لَهُمْ وَالْقِيَامِ بِمُجَاهَدَتِهِمْ بِالْحُجَجِ وَالْآيَاتِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ يَكُونُ فِي وَسْعٍ وَاحِدٍ الْقِيَامَ لَذَلِكَ لِأَمْثَالِهِمْ، وَكَانَتْ هِمَّتُهُمُ الْقَتْلَ وَالْإِهْلَاكَ لِمَنْ خَالَفَهُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا قَامَ لَذَلِكَ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ، إِذْ لَا يَمْلِكُ وَاحِدٌ الْقِيَامَ لَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَوْءَاظِ مَرَجٍ الْبَحْرَيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَرَجٌ أَيْ خَلَعَ مَاءُ الْمَالِحِ عَنْ مَاءِ الْعَذْبِ، وَقَالَ

(١) وَ (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَرْسَلْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: جَائِزٌ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يُهْمِلُهُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَحَمَلْنَا. (١٣) الْكَافُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعَهُ.

بَعْضُهُمْ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أَرْسَلَ الْبَحْرَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: عَذْبٌ، وَالْآخَرُ أَجَاجٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَرَجَ أَيِ أَفَاضَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ.

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: الْعَرَبُ تَقُولُ: مَرَجْتُ الدَّابَّةَ إِذَا خَلَعْتُهَا، وَتَرَكْتُهَا تَذْهَبُ حَيْثُ أَمَرْتُهَا إِمْرَاجًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمَرْجُ مَرْجًا لِأَنَّهُ مَتْرُوكٌ لِلسَّبَاعِ غَيْرِ مَعْمُورٍ، وَالْمَرْجُ^(١) الَّذِي يَزْعَى دَابَّتُهُ فِي الْمَرْجِ، وَالدَّابَّةُ الْمُمْرَجَةُ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ مَرَجَهُمَا: خَلَطَهُمَا، فَهُوَ مَارِجٌ، وَقَالَ ۞: ﴿فَهُوَ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ﴾ [ق: ٥] أَيِ مُخْتَلِطٍ، وَيُقَالُ: مَرَجْتُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا خَلَعْتُ^(٢)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلِفَ فِي الْبَحْرَيْنِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: أَحَدُهُمَا: بَحْرُ الْأَرْضِ، وَالْآخَرُ بَحْرُ السَّمَاءِ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرَزَخًا أَيِ حَاجِزًا عَنْ أَنْ يَخْتَلِطَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَهُوَ [الهواء]^(٣).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَحَدُهُمَا: بَحْرُ السَّمَاءِ، وَالْآخَرُ: بَحْرٌ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرَزَخًا، وَهُوَ الْأَرْضُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَخْرَانِ: أَحَدُهُمَا: بَحْرُ الرُّومِ، وَالْآخَرُ: بَحْرُ الْهِنْدِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَخْرَانِ: أَحَدُهُمَا: بَحْرُ الشَّامِ، وَالْآخَرُ: بَحْرُ الْعِرَاقِ، أَحَدُهُمَا: مَالِحٌ أَجَاجٌ، وَالْآخَرُ: عَذْبٌ.

وَكَانَ الْأَجَاجُ، هُوَ الَّذِي بَلَغَ فِي الْمُلُوحَةِ غَايَتَهُ، وَالْفَرَاتُ، هُوَ الَّذِي بَلَغَ فِي الْعُدْوَةِ غَايَتَهُ.

ذَكَرَ مِثْلَهُ وَقَضَلَهُ وَلُطِفَهُ حِينَ^(٤) لَمْ يَخْلُطْ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، بَلْ حَفِظَ كُلًّا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَصِيرُ الْكُلُّ وَاحِدًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا أَلْحَاظَ سِجْرَتِ﴾ [التكوير: ٦].

ثُمَّ إِنَّ كَانَ أَحَدُهُمَا بَحْرَ السَّمَاءِ وَالْآخَرُ بَحْرَ الْأَرْضِ [فَالْحَاجِزُ بَيْنَهُمَا الْهَوَاءُ]^(٥)، وَإِنْ كَانَ الْبَخْرَانِ^(٦) فِي الْهَوَاءِ، فَالْحَاجِزُ بَيْنَهُمَا لَيْسَ إِلَّا اللَّطْفُ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ الثَّالِثُ، يُعْلَمُ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى حِفْظِ هَذَا مِنْ هَذَا بِإِلَاحِجَابٍ وَلَا حَاجِزٍ بِاللُّطْفِ، لِقَادِرٍ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَبَعْثِهِمْ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَهُ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: مَاءٌ أَجَاجٌ شَدِيدُ الْمُلُوحَةِ، وَيُقَالُ: أَيْجُ الْمَاءِ يَاجُ أَجَا [فَهُوَ أَجَاجٌ]^(٧)، وَيُقَالُ: تَجَاجَ/ ٣٧٩ - ١/ أَيِ مَاءٍ، رُويَ بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أَيِ مِنَ الثُّلُفَةِ. يُخْبِرُ عَنْ فَضْلِهِ وَمِثْنِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ.

الآية ٥٤

[أَمَّا لُطْفُهُ وَقُدْرَتُهُ فَنَحْنُ] ^(٨) خَلَقَ الْبَشَرَ مِنَ الثُّلُفَةِ، وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حُكَمَاءِ الْبَشَرِ عَلَى أَنْ يَغْرِفُوا، وَيُذَكِّرُوا كَيْفِيَّتَهُ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ. دَلٌّ أَنَّهُ قَادِرٌ بِذَاتِهِ لَطِيفٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَأَمَّا فَضْلُهُ وَمِثْنُهُ فَمَا^(٩) أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا. أَمَّا النَّسَبُ فَنَحْنُ^(١٠) يَتَعَارَفُونَ، وَيَتَوَاصَلُونَ، مَا لَوْلَا ذَلِكَ مَا تَعَارَفُوا، وَلَا تَوَاصَلُوا. وَأَمَّا الصُّهْرُ فَلَمَّا بِهِ يَتَزَاوَجُونَ، وَيَتَوَادَّدُونَ، وَيَتَوَالَّدُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةً﴾ [النحل: ٧٢] وَقَوْلِهِ^(١١) ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] يَذْكُرُ فَضْلَهُ وَمِثْنَهُ لِيَسْتَأْذِي بِهِ شُكْرَهُ لِيُعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَخْرُجُ عَبَثًا بِاطْلَافٍ وَلَا بِمُخَنَةٍ وَلَا عَاقِبَةٍ.

وَكَانَ النَّسَبُ مِمَّا لَا يَجْرِي بَيْنَهُمُ التَّنَاحُجُ وَالتَّزَاوُجُ، وَالصُّهْرُ مَا يُجِلُّ بَيْنَهُمُ التَّنَاحُجُ وَالتَّزَاوُجُ.

وَفِي حَرْفٍ حَفْصَةً: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ نَسَبًا وَصِهْرًا.

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: الصُّهْرُ الْفَتَى وَالْأُكَّةُ، وَالْحَتْنُ أَبُو الْمَرْأَةِ، وَالْحَتْنَةُ أُمُّ الْمَرْأَةِ وَالْأَخْتَانُ الْمَرْأَةُ وَأَهْلُهَا، وَالْأَصْهَارُ آلُ الْفَتَى وَأَهْلُهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: وَالْمَرْجُوح. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: خَلَطْتُ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٦) فِي الْأَصْلِ رَم: بَحْرَيْنِ. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ: وَقُدْرَتُهُ حَيْثُ، فِي م: أَمَّا لُطْفُهُ وَقُدْرَتُهُ حَيْثُ. (٩) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (١٠) الْفَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (١١) فِي الْأَصْلِ رَم: وَقَالَ.

وقال أبو عوسجة: ﴿وَصِهْرُكُمْ﴾ مِنَ الْمُصَاهَرَةِ، وَكُلُّهُمْ أَصْهَارٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ جَمِيعاً. وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَنَا أَنَّهُ إِنَّمَا تُسَمَّى قَرَابَةُ الزَّوْجِ اخْتِنَانًا، وَقَرَابَةُ الْمَرَأَةِ أَصْهَارًا، وَذَلِكَ لِإِسَانٍ؛ فَهُوَ عَلَى مَا تَعَارَفُوهُ بَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٥

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أَي يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَغْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِنْ عَبَدُوهُ، وَلَا يَضُرُّهُمْ إِنْ تَرَكُوا عِبَادَتَهُ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿هَلْ هُنَّ كَتَيْبَتٌ تُزَيَّرُ﴾ [الزمر: ٣٨] وَأَمثال ما ذَكَرَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ سَفَهُ أَوْلَئِكَ بِعِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أَي تَأْوِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: وَكَانَ الْكَافِرُ لِلْكَافِرِ وَلَوْلَا^(١) ظَهِيرًا عَلَى مَنْ أَطَاعَ رَبَّهُ؛ يَكُونُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَوْنًا وَظَهِيرًا عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَإِلَّا لَا يَكُونُ الْكَافِرُ عَلَى اللَّهِ ظَهِيرًا، وَلَكِنْ عَلَى أَوْلِيَاءِهِ. وَيَكُونُ ذَكَرَ الَّذِي عَلَى إِرَادَةِ وَلِيِّهِ وَمَنْ أَطَاعَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يُرَادُ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُ لَا نَفْسُهُ.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عَصَاهُ. وَالْبَشَارَةُ هِيَ الْإِعْلَامُ لِمَا يَلْحَقُ مِنَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ فِي الْعَاقِبَةِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَالنَّذَارَةُ هِيَ الْإِعْلَامُ لِمَا يَلْحَقُ مِنَ الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْذُورِ فِي الْعَاقِبَةِ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْفَاسِدَةِ.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى الدِّينِ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَجْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ﴾ [الطور: ٤٠] أَي لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَمْنَعَكُمْ ثَقُلَ الْمَغْرَمُ عَنْ إِجَابَتِي.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا مِثْلَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾: كَانَ فِيهِ إِضْمَارًا، أَي لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا مَنْ شَاءَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا إِلَى رَبِّي سَبِيلًا، أَوْ^(٢) يَقُولُ: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا مِثْلَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَي وَلَكِنْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّي سَبِيلًا أَطَاعَنِي، وَاجَابَنِي.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْكُمْ وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ﴿مِنْ أَجْرِ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا مِثْلَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ فَيَبْرُنِي، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا مِثْلَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ فَيُؤَدِّنِي كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْوَدَّ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أَي تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. وَالتَّوَكَّلُ هُوَ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ بِكُلِّ أَمْرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيِّحٌ يَعْذِيْبُ﴾ أَي نَزَّهٌ رَيْكٌ، وَبَرْئُهُ مِنَ الْآفَاتِ كُلِّهَا وَالْعُيُوبِ بِشَاءٍ، تُثْنِي عَلَيْهِ، وَهُوَ التَّسْبِيحُ بِحَمْدِهِ. وَقَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَي صَلِّ بِأَمْرِ رَبِّكَ. لَكِنَّ التَّأْوِيلَ عِنْدَنَا مَا ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْ يَدًا يُدْثِرُ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أَي كُنْ يَدًا عِلْمًا بِذُنُوبِ عِبَادِهِ، أَي لَا أَحَدٌ أَغْلَمُ بِهَا مِنْهُ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قَدْ ذَكَرْنَا هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿فَتَشَلُّبُهُمْ خَيْرًا﴾ قَالَ قَائِلُونَ: فَاسْأَلْ بِاللَّهِ خَيْرًا لِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ [يَا مُحَمَّدُ]^(٣) وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ كَفَارِ مَكَّةَ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ تَتَعَلَّمُ الشُّعْرَ فَتَخُنْ لَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ: أَشِعْرُ^(٤) هَذَا؟ إِنْ هَذَا كَلَامُ الرَّحْمَنِ، فَقَالُوا: أَجَلُ لَعَنَهُ اللَّهُ إِنَّهُ لَكَلَامُ الرَّحْمَنِ الَّذِي بِالْإِيمَانَةِ، هُوَ يُعَلِّمُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ: الرَّحْمَنُ، هُوَ اللَّهُ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِينِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَيْزَعُمُ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ يُعَلِّمُنِي، وَالرَّحْمَنُ يُعَلِّمُنِي، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِينَ^(٥) إِلَهَانِ، أَوْ كَلَامٌ نَحْنُ هَذَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ لِمَا لَا يَعْرِفُونَ الرَّحْمَنَ، وَعَرَفُوا اللَّهَ، فَأَنكَرُوا ذَلِكَ لِمَا لَمْ يَكُونُوا يَسْمَعُونَ ذَلِكَ، فَعَرَّفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلِيهِ. (٢) أُدْرَجَ بَعْدَهَا فِي م: أَنْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مُحَمَّد. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الشُّعْر. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا.

أو أن يكونوا يَغْرِفُونَ كُلَّ مَغْبُودٍ إِلَهًا، وكذلك يُسْمُونَ الأصنامَ التي عَبدوها آلهةً، وكانَ رسولُ الله ﷺ دعاهُم إلى عبادةِ الرحمن، فَظَنُوا أَنَّهُ غَيْرٌ، فقالوا: فَلَئِنْ جَازَ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللَّهِ فَنَحْنُ نَعْبُدُ الأصنامَ، فَلَيْمَ تَمْنَعُنَا عَنْ ذَلِكَ؟ فَأَخْبَرَ [أَنْ] (١) الرحمنَ والإلهَ واحدٌ، ليسَ وهو غَيْراً حِينَ قَالَ: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ إلى آخِرِ مَا ذَكَرَ [الفرقان: ٦١...]. يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لَا (٢) يَكُونُ الرَّحْمَنُ غَيْرَ الْإِلَهِ، بَلِ الرَّحْمَنُ هُوَ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَوَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ الْبُرُوجَ، وَهِيَ النُّجُومُ، وَجَعَلَ فِيهَا السُّرُجَ، وَهِيَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، هُوَ اللهُ. فَأَخْبَرَ أَنَّ الرَّحْمَنَ هُوَ ذَلِكَ، لَا غَيْرُ.

وفي قولِ بعضهم: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآيةُ دلالةٌ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَكْنُومِ، وَلَكِنَّهُ مِمَّا يُعْلَمُ، وَيُفَسَّرُ حِينَ (٣) قَالَ: ﴿فَسْتَلْ بِهِمْ خَبِيرًا﴾ وَلَوْ كَانَ مِمَّا لَا يُعْلَمُ لَكَانَ لَا يَأْمُرُهُ أَنْ يَسْأَلَ بِهِ خَبِيرًا، أَوْ لَوْ (٤) أَمَرَهُ بِالسُّؤَالِ لَكَانَ لَا يُحْتَمَلُ إِلَّا يُخْبِرُهُ. دَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَكْنُومِ، وَلَكِنَّهُ مِمَّا يُعْلَمُ، لَكِنْ لَا يُعْلَمُهُ إِلَّا الْخَبِيرُ، وَالْخَبِيرُ هُوَ الْعَالِمُ. ثُمَّ يَحْتَمِلُ اللهُ أَوْ جَبْرِيلُ أَوْ مَنْ يُعْلَمُهُ اللهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَسْتَلْ بِهِمْ خَبِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: بِاللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِالَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَسْبُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الباء والياء] (٥) جميعاً. وقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ ثُغُورًا﴾ أَي زَادَهُمْ دَعَاؤُهُ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ثُغُورًا مِنْ رَسُولِ اللهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَسْتَلْ بِهِمْ خَبِيرًا﴾ يَقُولُ: مَا أَخْبَرْتُكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتُكَ، لَا شَكَّ فِيهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١ وقوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قَوْلُهُ: ﴿نَبَارَكُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ مِنَ الْبَرَكَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ التَّعَالَى: ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ هُوَ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ خَرَجَ جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾.

الآية ٦٢ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أَي جَعَلَ أَحَدَهُمَا خَلْفَ الْآخَرِ: إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَكَبَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا أَي يَذْكُرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ الْمَوْعِظَةَ، أَوْ يَشْكُرَ لِنِعْمِهِ لِأَنَّهُمَا يُذَكِّرَانِ قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَتَهُ حِينَ (٦) يَهْزَأُ الْجَابِرَةُ وَالْفَرَاغَةُ وَيَغْلِبُهُمْ (٧) حِينَ يَظْلِمُونَ، وَيَأْتِيَانِهِمْ، شَاوُوا، أَوْ كَرِهُوا، لَا يَقْدِرُونَ دَفْعَهُمَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ.

وفيها دلالةُ الإحياءِ والبعثِ بَعْدَ الْفَنَاءِ وَالْهَلَاكِ [حِينَ يَذْهَبُ بِهِذَا، وَيَأْتِي] (٨) بآخرِ بَعْدَ ٣٧٩ - ب/ أنْ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِهِ شَيْءٌ. فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذَا قَدَّرَ عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَذَهَابِ أَثَرِهِ. وَيُذَكِّرَانِ أَيْضًا نِعْمَهُ وَآلَاءَهُ لِأَنَّهُ جَعَلَ النَّهَارَ مُنْقَلَبًا لِمَعَايِهِمْ وَمَطْلَبًا لِرِزْقِهِمْ وَمَا بِهِ قِيَامُ أَنْفُسِهِمْ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ مُسْتَرَحًا لِأَبْدَانِهِمْ [وَسُكُونًا؛ إِذْ] (٩) لَا قِيَامَ لِلأَبْدَانِ لِأَحَدٍ دُونَ الْآخَرِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ كَيْفَ ذَكَرَ نِعْمَهُ فِيهِمَا حِينَ قَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرِيحًا إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ﴾ الآية [القصص: ٧١] وَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرِيحًا إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ مَنْ لَدُنْهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَشْكُرُونَ فِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧٢] يُذَكِّرُهُمْ عَظِيمَ نِعْمِهِ فِيهِمَا؟ أَعْنِي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِيَسْتَأْدِيَ بِهِ شُكْرَهُ. فَقُلَى ذَلِكَ هَذَا مَا ذَكَرْنَا [فِي] (١٠) قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَكَبَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ النعمة التي جَعَلَ فِيهِمَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: بالياء والياء، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٩٢. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ويغلبونهم. (٨) في الأصل وم: حيث ذهب بهذا أبي. (٩) في الأصل وم: وسكونهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿خَلَقْنَا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ﴾ أي يكون كل واحد منهما خلقاً للآخر في ما يفوت من التذكير والتشكير؛ يقضى في الآخر.

وقال الحسن قريباً مما ذكرنا، وقال: من فاته شيء بالليل أذكره بالنهار، ومن فاته شيء بالنهار أذكره بالليل، وعلى مثل ذلك روي عن عمر أن رجلاً، قال له: يا أمير المؤمنين إني فاتني الصلاة الليلة، فقال عمر: أذكر ما فاتك من ليالك في نهارك الآخر.

ثم يحتل الاختلاف وجهين:

أحدهما: مجيء هذا وذهاب الآخر على ما ذكرنا كقوله: ﴿وَأَخْلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والثاني: هو اختلاف اللون من السواد والبياض؛ أحدهما أسود، والآخر أبيض، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿نَكَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال بعضهم: البروج، هي النجوم العظام، والواحد بروج، وهو قول أبي عوسجة إلى الأعرابي. وقال بعضهم: البروج القصور في السماء، فيها تنزل الشمس في كل ليلة.

وروي مثل قول عمر عن سلمان أن رجلاً أتاه، فقال: إني لا أستطيع قيام الليل، قال: إن كنت لا تستطيع قيام الليل فلا [تعجز عنه] ^(١) بالنهار.

وذكر أن نبي الله ﷺ كان يقول: «أصيبوا من الليل ولو ركعتين ولو أربعاً» وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده إن في كل ليلة ساعة، لا يوافقها رجل مسلم يسأل فيها خيراً إلا أعطي له في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيبتان، تحمِلان الناس إلى آجالهم؛ تقربان كل بعيد، وتبليان كل جديد، وتجبِتان بكل موعود، حتى يؤدي ^(٢) ذلك إلى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» [المعارج: ٤] يصير الناس بأعمالهم إلى الجنة وإلى النار ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١] ^(٣) [ينحروه مسلم ٧٥٧].

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْآرِضِ هَوْنًا﴾ وَصَفَ ۖ أَهْلَ الصَّفْوَةِ وَالْإِحْلَاصِ مِنْ عِبَادِهِ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، وَإِلَّا كَانُوا كُلُّهُمْ عِبَادَ الرَّحْمَنِ لَكِنْ وَصَفَ أَهْلَ الصَّفْوَةِ مِنْهُمْ وَالْإِحْلَاصِ وَالتَّقَى.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّقُونَ عَلَى الْآرِضِ هَوْنًا﴾ قال بعضهم: حُلُمَاءٌ أَتَقِيَاءُ يَغْيِرُ مَرَحٌ وَلَا بَطَرٌ. وقال بعضهم: هَوْنًا ^(١) أي متواضعين، لا خيلاء، ولا كِبَرِيَاءَ، ولا مَرَحًا.

وعن الحسن [أنه] ^(٢) قال: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، قَوْمٌ ذُلٌّ، ذَلَّتْ [منهم] ^(٣) والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يخسبهم الجاهل مَرَضًى، والله ما بالقوم مَرَضٌ، وإنهم لأَصِحَّةُ الْقُلُوبِ، وَلَكِنْ دَخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مَا لَمْ يَدْخُلْ غَيْرُهُمْ.

وفي بعض الأخبار مرفوعاً عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمنون هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجَمَلِ الْإِنْفِ، إِنْ قِيدَ انْقَادًا، وَإِنْ أُنْبِغَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاحٌ» [ابن المبارك في الزهد ٣٨٧].

وأصله أنهم يمشون هَوْنًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَأَذَى بِهِمْ أَحَدٌ أَوْ يَلْحَقَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ ضَرَرٌ أَوْ ضَنْى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ قال بعضهم: إِذَا جَاهَلَهُمْ ^(١) الْجَاهِلُونَ، وَسَافَهُهُمْ الشُّفَهَاءُ لَا يُجَاهِلُونَ أَهْلَ الْجَهْلِ وَالشُّفَا، وَلَكِنْ يَقُولُونَ ^(٢): السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

وقال بعضهم: وَإِذَا سَمِعُوا الشَّتْمَ وَالْأَذَى قَالُوا: سَلَامًا، أَيْ سَدَادًا وَصَوَابًا مِنَ الْقَوْلِ وَرَدًّا مَعْرُوفًا؛ أَعْرَضُوا عَنْ سَفَهِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِهِمْ، وَلَمْ يَكْافِئُوهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْنَاكُمْ وَلَكُمْ أَعْنَاكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] يُخْبِرُ.

(١) في الأصل وم: تعجزه. (٢) من م، في الأصل: يرد. (٣) أورد هذا الحديث في صحيح مسلم في كتاب الجمعة بلفظ آخر. (٤) انظر مجمع القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٩٣. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: معنى. (٧) في م: خاطبهم. (٨) في الأصل وم: قالوا.

عَنْ صُخَبَائِهِمْ أَهْلَ السَّقْوَةِ وَالْجَهْلِ وَحَسَنَ مُعَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُمْ وَرَفِيقِهِمْ. فَكَيْفَ يُعَامِلُونَ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْعَقْلِ مِنْهُمْ، وَيُصَاحِبُونَهُمْ^(١)؟ فَهَذِهِ مُعَامَلَتُهُمُ الْخَلَائِقَ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي وَصَفَهُ.

الآية ٦٤

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ صَنِيعِهِمْ وَرُكُونِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا﴾ عَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ^(٢)] قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ اللَّيْلَ، وَأَيْدِيَهُمْ عَلَى رُكْبَتَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ صَلَّى رُكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ فَقَدْ تَابَ اللَّهُ تَعَالَى سَاجِدًا قَانِمًا».

وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانُوا يَبْتَغُونَ لِلَّهِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَيَقْتَرِشُونَ وَجُوهَهُمْ سُجْدًا لِرَبِّهِمْ تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ فَرَقًا مِنْ رَبِّهِمْ. وَقَالَ: لَا مِرَّ مَا سَهَرَ لَهُ لَيْلُهُمْ، وَلَا مِرَّ مَا خَشَعَ لَهُ نَهَارُهُمْ.

الآية ٦٥

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِخْبَارًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا فِي ضَمِيرِهِمْ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ الْقَوْلِ وَالِدُعَاءِ لِأَنَّ مَنْ بَلَغَ فِي الْعِبَادَةِ وَالْوَرَعِ الْمَبْلَغَ الَّذِي وَصَفَ لَا يَشْغَلُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسُّؤَالِ عَنْ دَفْعِ الْمَضَارِّ أَوْ دَفْعِ الْمُنَفَقَةِ. وَيَحْتَمِلُ عَلَى مَا أَخْبَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عَذَابِهَا [فَقَالَ: ^(٣)] «إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» قَالَ الْحَسَنُ: الْغَرَامُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يُفَارِقُ صَاحِبَهُ، وَكُلُّ غَرِيمٍ، يُفَارِقُ غَرِيمَهُ غَيْرَ عَذَابِ جَهَنَّمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْغَرَامُ الْهَلَاكُ.

الآية ٦٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أَيِ جَهَنَّمَ، بِشَسِّ الْمُسْتَقَرِّ، وَبِشَسِّ الْمَقَامِ لِأَهْلِهَا، وَهُوَ^(٤) مُقَابِلُ مَا ذَكَرَ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ الْجَنَّةَ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «غَرَامًا» غَرِمُوا فِي الْآخِرَةِ مَا نَعَمُوا فِي الدُّنْيَا. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ «كَانَ غَرَامًا» إِنَّا أَنْشَأْنَا أَهْلًا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: «هَوَا» هُوَ مِنَ الرَّفْقِ، يُقَالُ: هَانَ يَهُونُ هَوْنًا، فَهُوَ هَانُنٌ [وَمِنْهُ يُقَالُ: ^(٦)] إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ: أَيِ إِذَا اسْتَدَّ فَارْتُقَى بِهِ، وَالْغَرَامُ الْهَلَاكُ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْقَتَيْبِيُّ «غَرَامًا» أَيِ هَلَكَةً، وَقَالَ: مَشِيًا «هَوَا» رُويًا «سَلَمًا» أَيِ سَدَادًا مِنَ الْقَوْلِ؛ لَا رَفَتْ فِيهِ، وَلَا هُجَرَ.

الآية ٦٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: «لَمْ يُسْرِفُوا» فِي غَيْرِ حَقٍّ؛ كَسَبُوا طَيِّبًا، وَأَنْفَقُوا قَصْدًا، وَأَغْطَوْا فَضْلًا [لَا جُحُودًا، وَاسْتَبْشَرُوا]^(٧) «وَلَمْ يَقْتُرُوا» أَيِ وَلَمْ يُنْصِبُوا عَنِ الْحَقِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» أَيِ بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ مَقْصِدًا، وَهُوَ تَأْوِيلُ مُقَاتِلٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِسْرَافُ هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، «وَلَمْ يَقْتُرُوا» أَيِ لَمْ يُمْسِكُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» أَيِ عَدَلًا؛ لَا يُمْسِكُ عَنْ حَقٍّ، وَلَا يُنْفِقُ^(٨) فِي بَاطِلٍ، وَلَكِنْ نَفَقَةً فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِسْرَافُ فِي النَّفَقَةِ، هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي مَا لَا يُنْتَفَعُ [بِهِ]^(٩) مِنْ نَحْوِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ الَّتِي كَانُوا يَتْرَكُونَهَا سُدًى، وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا. وَالْإِفْتَارُ، هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِيمَا يُنْتَفَعُ/ ٣٨٠ - أ/ بِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِسْرَافُ، هُوَ الْمَجَاوِزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ فِي الْإِنْفَاقِ، فِي الْإِكْثَارِ. وَالْإِقْتَارُ هُوَ الْمَنْعُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» أَيِ وَسَطًا كَقَوْلِهِ: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ» [الإسراء: ٢٩] وَلَكِنْ بَيَّنَّ ذَلِكَ.

وَأَضْلَهُ: «لَمْ يُسْرِفُوا» أَيِ لَمْ يُنْفِقُوا، وَلَمْ يَضَعُوا إِلَّا فِي مَا أُمِرُوا أَنْ يَضَعُوا فِيهِ [أَمْوَالَهُمْ]^(١٠) «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» أَيِ قَانِمًا فِي ذَلِكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَصَاحِبُونَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) الزَّوَادُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

(٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالْجُحُودُ وَاسْتَبْشَرُوا. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يُنْفِقُونَ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

أَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَا يَفْعَلُونَ [مَا يَفْعَلُونَ] ^(١) إِلَّا بِأَمْرِ.

الآية ٦٨ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ثُمَّ يَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]: ^(٢) ﴿لَا يَدْعُونَ﴾ أَي لَا يَعْبُدُونَ دُونَ اللَّهِ غَيْرَهُ.

[وَالثَّانِي]: ^(٣) لَا يُسْمُونَ غَيْرَ اللَّهِ [إِلَهًا] ^(٤). ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

أَخْبَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] عَنْ مُعَامَلَتِهِمُ الْخَلْقَ وَصَنِيعِهِمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعِبَادِ حِينَ ^(٥) أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَمْسُونَ هَوْنًا، وَلَا يُؤْذُونَ أَحَدًا، وَلَا يَضُرُّونَهُ، وَإِذَا آذَاهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالسُّفْهَاءُ لَمْ يُكَافِئُوهُمْ لِآذَاهُمْ، وَلَكِنْ اخْتَمَلُوا ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَتَجَاوَزُوا، وَقَالُوا لَهُمْ قَوْلًا سَدِيدًا.

هَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ بِالنَّهَارِ.

وَأَخْبَرَ عَنْ مُعَامَلَتِهِمْ وَدَعَائِهِمْ رَبَّهُمْ بِاللَّيْلِ حِينَ ^(٦) قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ الْآيَةُ [الفرقان: ٦٤ و ٦٥].

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ صَنِيعِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَضَعُونَهَا إِلَّا فِي مَا أَمَرُوا بِالْوَضْعِ فِيهَا، وَأَخْبَرَ عَنْ صِفَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ وَكُفِّهِمْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ حِينَ ^(٧) قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧] وَقَالَ ^(٨): ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ مَوْصُولٌ بِهَذَا وَمُقَدَّمٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَا يَزْنُونَ، وَلَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَي مَا ذَكَرْنَا قَتْلَ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ وَالزُّنَى وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَالشَّرْكَ يَلْقَ أَثَامًا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَثَامًا﴾ أَي وَادِيًا فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَثَامًا﴾ عَذَابًا فِي النَّارِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَشْهَدُونَ مَكَانَ الزُّورِ، وَهُوَ الْغِنَاءُ، أَي لَا يَشْهَدُونَ الْمَكَانَ الَّذِي يُتَعَنَّى فِيهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَشْهَدُونَ بِشَهَادَةِ الزُّورِ، وَهُوَ الْكُذِبُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَا مَرَأُوا اللَّغْوَ مَرُّوا كِرَامًا﴾ مَرُورُ الْكِرَامِ، أَي إِنْ قَدَرُوا عَلَى تَغْيِيرِ مَا عَانَيُوا مِنَ اللَّغْوِ وَالْمُنْكَرِ غَيْرَهُ، وَمَضَوْا عَلَى وَجْهِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ فِي ذَلِكَ فَسَادٌ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا مَضَوْا، وَلَمْ يَغْبُتُوا بِهِ، وَلَا اسْتَقَلُّوا بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِذَا سَكَبُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ دَلَالَةٌ نَقْصِ قَوْلِ الْخَوَارِجِ بِإِكْفَارِهِمْ أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ مُحَرَّمَةٌ بَعْدَ ازْتِكَابِهَا الزُّنَى ^(٩) كَمَا هِيَ قَبْلَ ازْتِكَابِهَا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ حِينَ ^(١٠) قَالَ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ دَلٌّ أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ بِحَقِّ ^(١١) غَيْرِ كَافِرَةٍ إِلَّا بِالْحَقِّ: إِمَّا بِحَقِّ الْقِصَاصِ، وَإِمَّا بِحَقِّ الزُّنَى، وَإِمَّا بِحَقِّ الْإِزْتِدَادِ. وَعَلَى مَا ذَكَرَ فِي الْخَبَرِ: لَا يَجِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي ثَلَاثِ خِصَالٍ: زُنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، وَكُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ [بَنَحْوِ الْبُخَارِيِّ ٦٨٧٨] وَلَوْ كَانَتْ كَافِرَةً بَارْتِكَابٍ مَا ذَكَرَ لَكَانَتْ غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ، قَدْ لَأَ أَنَّهُ مَا ذَكَرْنَا.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْإِسْرَافُ الْفَسَادُ، وَالتَّغْيِيرُ التَّضْيِيقُ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أَي لَمْ يُنْفِقُوا قَلِيلًا، لَا يَكْفِي عِيَالَهُمْ، وَالْقَوَامُ الْوَسْطُ، وَيُقَالُ: لَا قَوَامَ لِي فِي هَذَا الْأَمْرِ أَي لَا طَاعَةَ لِي فِيهِ، وَلَا أَقَامُ هَذَا الْأَمْرَ أَي لَا أَطِيقُهُ، وَالْقَوَامُ الْقَضْدُ.

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ لُغَاتُ أَرْبَعٍ: لَمْ يَقْتُرُوا بِرَفْعِ الْيَاءِ وَبِخَفْضِ التَّاءِ غَيْرَ مُثْقَلٍ [وَيُقْتَرُوا: مُثْقَلًا] ^(١٢)

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: آر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: والقتل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: بعد. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وَيَقْرِئُوا يُنْصَبِ الْيَاءُ وَخَفِضَ التَّاءُ، وَيَقْرِئُوا يَرْفَعُ التَّاءُ وَيُنْصَبِ الْيَاءُ، وَالْمَعْنَى كُلُّهُ وَاحِدٌ^(١). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] قَالَ بَعْضُهُمْ: يَقُولُ: إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَصْمُوا عَنِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَغْمُوا. قَالَ: هُمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَوْمٌ عَقَلُوا عَنِ اللَّهِ، وَانْتَفَعُوا بِمَا سَمِعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: مَنْ يَقْرَأُهَا بِلِسَانِهِ يَخِرُّ عَلَيْهَا أَصَمًّا وَأَعْمَى؛ كَأَنَّهُ يُخْبِرُ أَنَّ أَوْلَئِكَ؛ أَعْنَى أَهْلَ صَفْوَةِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِهِ لَمْ يَخِرُّوا عَلَى تِلْكَ الْآيَاتِ صُمًّا وَعُمْيَانًا كَالْكَفَرَةِ الْعَنْدَةِ، وَلَكِنْ خَرُّوا عَلَيْهَا مُتَذَكِّرِينَ وَمُتَفَقِّهِينَ مُتَقَيِّظِينَ عَالِمِينَ بِمَا فِيهَا كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

الآية ٦٩ وقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَتَحْلِلْ فِيهِ مِهْكَانًا﴾^(٢) قَالَ: أَخْبَرَ ههنا أَنَّهُ يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] فَمَا مَعْنَى الضَّعْفِ ههنا؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ [وَجُوهًا]:

أَحَدُهَا: [٣] أَنَّهُ يُضَاعَفُ الْعَذَابُ لِلَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ: إِذَا كَفَرُوا بِاللَّهِ بَعْدَ مَا بَلَغُوا الْمَبْلَغَ الَّذِي وَصَفَهُمُ وَالرُّتْبَةَ الَّتِي ذُكِّرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَعَادُ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٣] أَنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، إِذَا كَفَرَ ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْكَذَابُ﴾ يُضَاعَفُ عَذَابُهُ عَلَى قَدْرِ مَنَزَلَتِهِ وَمَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَعَلَى قَدْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِنْهُ عِصْيَانٌ وَكُفْرَانٌ لِلذَّكَاءِ؛ وَهُوَ كَمَا قَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾. إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤ و ٧٥] أَيْ ضِعْفُ عَذَابِ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ عَذَابِ الْمَمَاتِ، وَمَا ذُكِرَ لِأَزْوَاجِهِ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿يَلْسَآةُ النَّارِ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَلْحِسَةٍ يُلْقِيَنَّ يُنْفَعُ لَهَا أَلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

كُلُّ مَنْ كَانَ أَغْظَمَ قَدْرًا وَآخَفَرَ نِعْمًا عَلَيْهِ فَعُقُوبَتُهُ إِذَا عَصَى رَبَّهُ أَكْثَرُ وَأَشَدُّ مِنَ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَلَا تِلْكَ الرُّتْبَةُ^(٦)، فَتَكُونُ ضِعْفٌ غَيْرُهُ وَجَزَاءٌ مِثْلُهُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِلْأَيِّمَةِ؛ أَعْنَى الْكَفَرَةَ وَالرُّؤْسَاءَ دُونَ الْآتِبَاعِ لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَدَعَا غَيْرُهُمْ إِلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وَالثَّالِثُ^(٧): أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ [لِلْعِنَادِ]^(٨) الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ وَالْمُكَابَرَةَ.

الآية ٧٠ ثُمَّ اسْتَشْنَى مَنْ تَابَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الآية].

[فَإِنْ كَانَتْ الْآيَةُ]^(٩) فِي الَّذِينَ قَالَ: ﴿وَيَعَادُ الرَّحْمَنُ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَلَى الْأَنْفُسِ هَوَاكُم﴾ [الفرقان: ٦٣] فَكَانَ^(١٠) فِيهِ دَلَالَةٌ قَبُولِ تَوْبَةِ الْمُتَرَدِّ إِذَا تَابَ، وَرَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ حِينَ^(١١) اسْتَشْنَى مَنْ تَابَ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يَجِدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يُؤَفِّقُهُمُ^(١٢) اللَّهُ إِذَا تَابُوا، وَنَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَعْمَلُوا مَكَانَ [كُلِّ]^(١٣) سَيِّئَةٍ عَمِلُوهَا [حَسَنَةً]^(١٤) فَذَلِكَ مَعْنَى تَبْدِيلِ اللَّهِ [سَيِّئَاتِهِمْ]^(١٥) حَسَنَاتٍ، أَيْ يُؤَفِّقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ فِي الْآخِرَةِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ النَّدَامَةُ وَالْحَسْرَةُ عَلَى كُلِّ سَيِّئَةٍ كَانَتْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَعَلَى ذَلِكَ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]^(١٦): «لَيَأْتِيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ / ٣٨٠ - ب / وَذُؤُوا أَنَّهُمْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَقِيلَ لَهُ: [وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ]^(١٧)؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» [السيوطي في الدر المنثور ٦ / ٢٨١] وَكَأَنَّهُ رَوَى مِثْلَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ٢٩٤. (٢) في الأصل وم: فلان. (٣) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٤) في الأصل وم: لرسول الله.

(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: الزينة. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: لهم المعتاد. (٩) من نسخة الحرم المكي،

ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: فكانه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: يوفق. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

(١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: قال. (١٧) في الأصل: يا أبا هريرة ومن هم.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يكون على الأمر؛ كأنه قال: وَمَنْ تَابَ فَلْيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا، لا يرجع عنه^(١) أبداً. وعلى ذلك يُخْرِجُ قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥] أي إن يكن منكم عشرون، فَيَغْلِبُوا مِائَتِينَ على الأمر؛ دليلاً قوله حين^(٢) قال: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٦].

والثاني: أن يكون ذلك لقوم خاص، عِلِمَ اللَّهُ أنهم إذا تابوا توبة لا يَرْجِعُونَ عنها أبداً. وإلا لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَابَ يكون على تَوْبَتِهِ أبداً.

الآية ٧٢

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَرُونَ الزُّورَ﴾ قد ذَكَرْنَاهُ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد ذَكَرْنَاهُ أيضاً. وقال^(٣) بعضهم: إذا أَوْذَوْا صَفَحُوا، وقال بعضهم: إنهم كانوا إذا أَتَوْا على ذِكْرِ النِّكَاحِ أو غَيْرِهِ كَفُّوا عنه.

وقال أبو عروسة والقشيري: ﴿يَلْقَى أَشَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي عُقُوبَةَ الْأَثَامِ، وقوله: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي لم يَخُوضُوا فيه، وأَكْرَمُوا أَنْفُسَهُمْ عنه.

الآية ٧٣

[وقوله تعالى^(٤)]: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يَتَغافلوا عنها، وقال بعضهم: إنهم إذا وُضِعُوا بِالْقُرْآنِ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ عند تلاوة القرآن، فلا يَسْمَعُونَ، ولا يَبْصُرُونَ، ولكن يَخِرُّونَ عَلَيْهَا سَمْعًا وَبَصَرًا، وهو واحد.

الآية ٧٤

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قد نَعَتَهُمْ ﴿فِي مُعَامَلَتِهِمْ﴾: أن كيف عَامَلُوا رَبَّهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ نَعَتَهُمْ أيضاً في مُعَامَلَتِهِمْ عِبَادَةً: أن كيف عَامَلُوا عِبَادَةً. ثم نَعَتَهُمْ في مُعَامَلَتِهِمْ أَهْلِيَهُمْ ودَعَائِهِمْ لَهُمْ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فهو، والله أَعْلَمُ لَمَّا أَمَرَهُمْ أَنْ يَتُوبُوا [وَيَقُولُوا^(٥)] أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيَهُمُ النَّارَ بقوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية [التحریم: ٦] فعند ذلك دَعَا رَبَّهُمْ، وسألوه أَنْ يَهَبَ لَهُمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ما تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ في الدنيا والآخرة.

وقال بعضهم: اجْعَلْهُمْ صَالِحِينَ مُطِيعِينَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْرَأُ أَعْيُنُنَا. قال الحسن: والله ما شيء أحب إلى العبد المسلم من أن يَرَى وَلَدَهُ أو حَبِيبَهُ، يُطِيعُ اللَّهَ، وقال: نَرَاهُمْ، يَعْمَلُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَتَقَرُّ بِذَلِكَ أَعْيُنُنَا، والله أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال بعضهم: أي اجْعَلْنَا أئِمَّةً هُدًى، يُقْتَدَى بِهَا. وقال بعضهم: واجْعَلْنَا بِحَالٍ يُقْتَدَى بِهَا الْمُتَّقُونَ.

وأصله، والله أَعْلَمُ: كأنهم^(٦) سألوا رَبَّهُمْ أَنْ يَجْعَلَهُمْ بِحَالٍ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ صَارَ تَقِيًّا، لا مَنِ اقْتَدَى صَارَ ضَالًّا فَاسِقًا. هذا، والله أَعْلَمُ: تأويله. وإلا سَوَّالُهُمْ: أَنْ اجْعَلْنَا إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ، لا مَعْنَى لَهُ أَنْ يَطْلُبُوا لأنفسهم الإمامة، ولكن على الرَّجْهِ الذي ذَكَرْنَا، والله أَعْلَمُ.

الآية ٧٥

ثم أَخْبَرَ عَنْ جَزَائِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِصَنِيعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَصَبْرِهِمْ عَلَى مَا أَمَرُوا، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَجْزِيكَ اللَّهُ﴾ الْفَرْقَةُ بِمَا سَبَّوْا، وَالْغُرُقَةُ، هي أَعْلَى الْمَنَازِلِ، وَأَشْرَفُهَا. أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُجْزَوْنَ ذَلِكَ، وَيَكُونُونَ فِيهَا. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أولئك يُجْزَوْنَ الْجَنَّةَ بما عَمِلُوا. فجائز أن تكون الْغُرُقَةُ المذكورة في الآية كِنَايَةً عَنِ الْجَنَّةِ بِدَلَالَةِ^(٧) حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وجائز أن يراد بها^(٨) نَفْسُ الْغُرُقَةِ لِأَرْتِفَاعِهَا وَعُلُوِّهَا عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَنَازِلِ؛ وذلك بِمَا يُخْتَارُ السُّكُونُ فِيهَا في الدنيا؛ وَالنَّاسُ يَرْغَبُونَ فِيهَا لِإِشْرَافِهَا وَارْتِفَاعِهَا عَلَى غَيْرِهَا، فَرَغَبَهُمْ فِي ذَلِكَ في الْآخِرَةِ.

(١) في الأصل وم: لا يرجع عنها. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

(٦) في الأصل وم: فإنهم. (٧) في الأصل وم: يدل. (٨) في الأصل وم: به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا فِيهَا آلَ لُوطٍ وَآلَ هَارُونَ﴾ [التشديد، والتخفيف]^(١): وَلَقَدْ فَتَنَّا فِيهَا تَجِيَّةً وَسَلَامًا، أي تَلَقَّاهُمْ الملائكةُ بالتَّجِيَّةِ والسلام كقولِهِ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يٰمَا سَرَّتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وقولِهِ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] أي^(٢) يَلْقَى بعضهم بعضاً بالتَّجِيَّةِ والسلام، وَيُخَيِّ بعضهم بعضاً، وَسَلِّمْ بعضهم على بعضٍ.

الآية ٧٦ وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿حَسَنَتْ مُمْسَكَتًا وَمُقَامًا﴾ تاويلُهُ، والله أعلم: أي حَسَنَتْ الجنة لَهُمْ مُمْسَكَتًا ومُقَامًا حتى لا يَمَلُّوا فِيهَا، ولا يَسَامُوا، ولا تَأْخُذَهُمُ الوَحْشَةُ والكآبَةُ كنعيم الدنيا، يَمَلُّ، وَيُسَامُ فِيهَا، عند الكثرة وطول المقام فِيهَا.

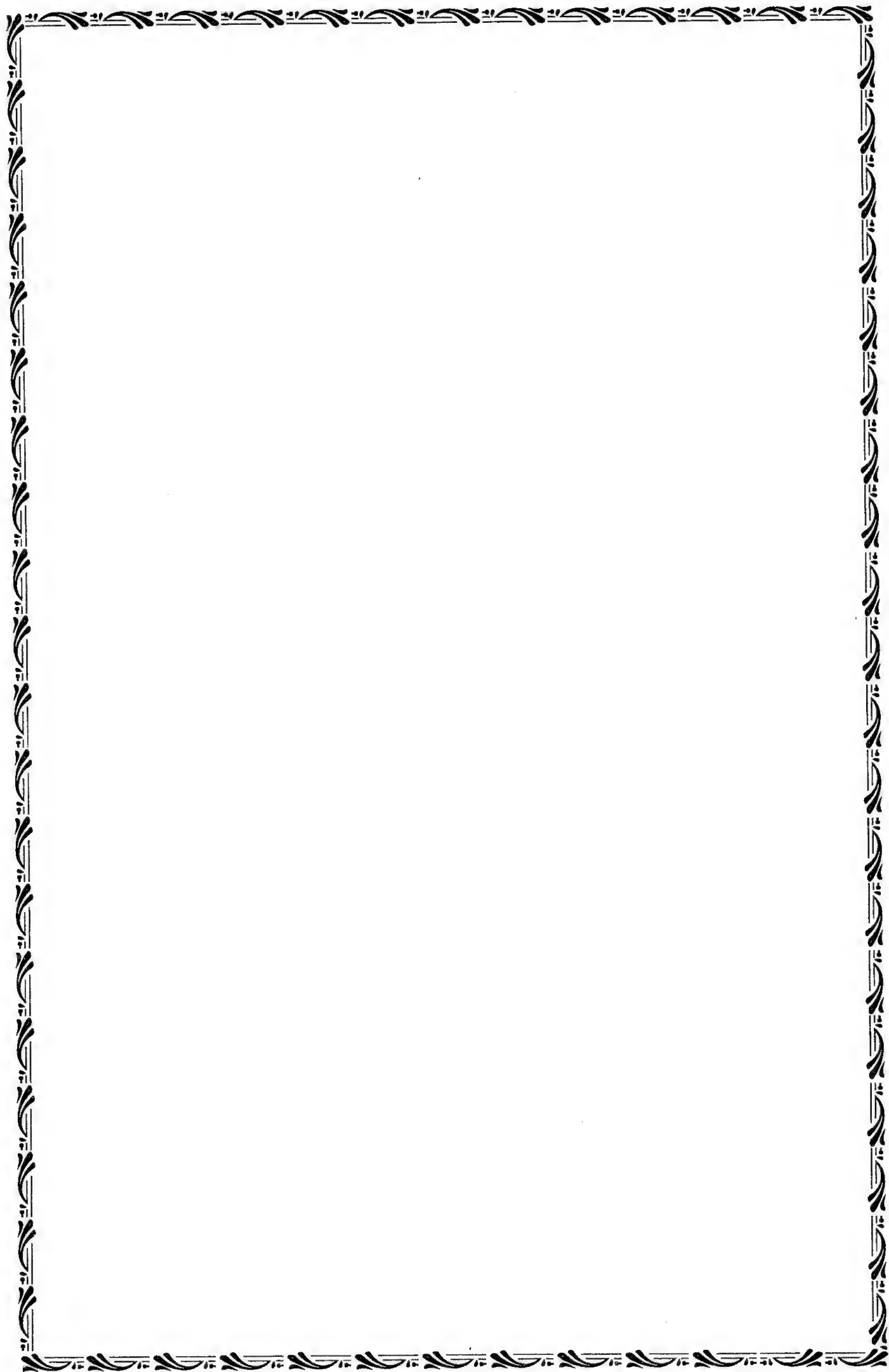
الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَسْبُغُوا يَكُ رَنِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [قال بعضهم: ﴿قُلْ مَا يَسْبُغُوا يَكُ رَنِي لَوْلَا﴾ دعاؤُهُ]^(٣) لِيَأْتِيَهُمُ التَّوْحِيدُ لِتَوْحِيدِهِ، وَيُطِيعُوهُ. وقال بعضهم: ﴿مَا يَسْبُغُوا يَكُ رَنِي﴾ أي ما يَصْنَعُ. والله أعلم: أي ما يَصْنَعُ ربي بعدائِكُمْ، إن شَكَرْتُمْ، وَأَمْتُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ فَسَوَفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قال بعضهم: هو عذاب يوم بدرٍ، يَغْنِي الزَّمَّ بَعْضُهُمْ بعضاً، وكذلك قال ابنُ مشعودٍ، قال: مَضَتْ آيَةُ الدِّخَانِ وَالْبَطْشَةِ^(٤)، وَاللِّزَامُ يومُ بدرٍ، وقال: ﴿لِزَامًا﴾ أي عذاباً مُلَازِماً غَيْرَ مُفَارِقٍ، وهو عذاب الآخِرَةِ.

وقال أبو عَوَسَجَةَ: ﴿مَا يَسْبُغُوا يَكُ رَنِي﴾ أي ما يَصْنَعُ؛ يُقَالُ: عَبَأَ يَغْبِئُ عَبْئًا، فهو عَابِيٌّ، إذا اخْتَنَجَ إِلَيْكُمُ، وَيُقَالُ: ما أَغْبَأَ بهذا الأمرِ، أي ما أَصْنَعُ، وَيُقَالُ: عَبَأْتُ بِفُلَانٍ أي اخْتَنَجْتُ إِلَيْهِ. وكذلك قولُ الْقُتَيْبِيِّ. والله أعلم بالصواب.



(١) في الأصل وم: بالتخفيف والتشديد، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٩٩. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) وهي قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكَبِيرَى إِنَّا مُنْقِشُونَ﴾ [الدخان: ١٠ و ١٦]



[سورة الشعراء]

وهي^(١) مَكِّيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

قوله تعالى: ﴿مَلَأَ بَيْنُكَ بَيْنَهُمُ الْبُيُوتَ﴾ قد ذكرنا تأويل الحروف المعجمة في ما تقدم، وكذلك قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾

الآية ٢

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا بَلَغَ بَيْنُكَ بَيْنَهُمُ الْبُيُوتَ﴾ كان يشتد على رسول الله تركهم الإيمان وتكذيبهم إياه إشفافاً وخوفاً عليهم وتعظيماً وإجلالاً لحقه حتى كادت نفسه تهلك حزناً على ذلك. [وهو]^(٢) كقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ بَيْنُكَ بَيْنَهُمُ الْبُيُوتَ﴾ على ما أثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً. [الكهف: ٦]. والأسف، هو النهاية في الحزن كقول يغقوب: ﴿يَتَأَسَفْنَ عَلَى يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]. وقال / ٣٨١ - أ / بغضهم: الأسف، هو النهاية في الغضب كقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قيل: أغضبونا.

وقد ذكرنا في سورة يوسف على ما ذكر الله رسوله، ووصفه [أنه]^(٣) كان مطبوعاً بحزن وتأسف لِمَكَانٍ كُفِرَ بِهِمْ وتكذيبهم كقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٨] يحزن عليهم إشفافاً عليهم [ويغضب عليهم]^(٤) الله تعظيماً له وإجلالاً لأمره لِمَا ضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهَبُوا.

وهكذا الواجب على كل من رأى آخر في فاحشة أو كبيرة أن يحزن، ويترحم عليه، ويغضب لله لِمَا^(٥) ارتكب من الفاحشة.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنَادَّاهُمْ نَادَاهُمْ﴾ قال المفسرون: قوله: ﴿إِنْ تَنَادَّاهُمْ نَادَاهُمْ﴾ مشبهة قسراً وقهراً حتى يضطروا لها، فيؤمنوا.

لكن عندنا مشبهة الإيمان والاختيار أي إن نشأ إيمانهم نزل عليهم آية فيؤمنوا، لأن الآية، لا تضطر أحداً، ولا تقهر على الإيمان، دليله قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا رَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ كُلَّهُ لَبَوَّاهُ بِآيَاتِهِ الْفُتُورِ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] أخبر أنهم لا يؤمنون، وإن قتل ما ذكر، ولا يضطرون ذلك على الإيمان، وكذلك ما أخبر عنهم في الآخرة بقوله^(٦): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٨] وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ يَفْتَنُكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٣] أخبر عن حلفهم وإنكارهم في الآخرة أنهم لم يكونوا على ما كانوا. ولا تكون آية أعظم مما عاينوا من أنواع العذاب.

ثم لم يمتنعهم ذلك عن التكذيب، ولا اضطرنهم على الإقرار والتضديق. دل، وإن كانت عظيمة، لا تضطر أهلها على الإيمان والتضديق. وقد ذكرنا هذه المسألة في ما تقدم ما يغنينا عن ذكرها في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي مالت، وخضعت لها أعناقهم، والأعناق كأنها كناية عن أنفسهم، وعن

(١) من م، في الأصل: قيل: سورة الشعراء. (٢) في الأصل: وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: عقلاً. (٦) في الأصل: وم. قال.

ابن عباس [أنه]^(١) قال: ﴿فَنَلَّكَ أَغْنَتْهُمْ مَا خَصَّيْنِ﴾ قال: سيكون لنا دولة على بني أمية، فتدُلُّ لنا أعناقهم [خضوعاً]^(٢) بغد صُعوبية وهواناً بغد عزّة، فقد كان ذلك.

وقال بعضهم: الأعناق السادة والقادة، والواحد عُقٌّ، أي إذا أسلم القادة أسلم الأتباع أتباعاً لهم، والله أعلم.

الآية ٥ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْذَرٍ﴾ قال بعضهم: يقول: كلما نزل شيء بغد شيء من الموعظة والذكر فهو مُنْذَرٌ من الأزل^(٣).

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ﴾ مما به فيه ذكْرُهُمْ في الآخرين، وشرَفُهُمْ في الخلق ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُنْزِجِينَ﴾ لأنهم لو آمنوا لذكروا في الناس، وبقي لهم ذكْرٌ وشرَفٌ كذكر الأنبياء والرسل فيهم إلى آخر الدهر.

وقوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ﴾ هو مُنْذَرٌ على هذين الوجهين اللذين ذكرناهما.

قال القتيبي وأبو عوسجة: ﴿فَنَلَّكَ أَغْنَتْهُمْ﴾ كما تقول: ظِلَلْتُ اليوم. قالوا: والأعناق السادة، والواحد منه: عُقٌّ.

الآية ٦ وقوله تعالى: ﴿فَنَقَذَ كَذِبُوا﴾ الآية [هو ظاهر]^(٤) قد ذكرنا تأويله في ما تقدّم.

الآية ٧ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِمَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: قد رأوا ما أنبتنا، وأخرجنا منها.

والثاني: على الأمر، أي رَأَوْا ما أنبتنا في الأرض، وأخرجنا منها ﴿مِنْ كُلِّ نَجْعٍ كَيْرٌ﴾.

قال الحسن: الكريم الحسن كالبهيج، وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ نَجْعٍ كَيْرٌ﴾ أي جنس حسن.

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَرُوحِيَّتِهِ، وَآيَةً لِّسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَآيَةً لِّعِلْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ، لَأَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى إحياء النبات مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا يَبْسُ، وَجَفَّ، قَادِرٌ عَلَى إحياء المَوْتَى وَبَعْثِهِمْ. ودلَّ إخراج النبات مِنَ الْأَرْضِ فِي كُلِّ عامٍ عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ وَعَلَى قَدَرٍ وَمِيزَانٍ وَاحِدٍ، عَلَى [أنه]^(٥) إنما خَرَجَ ذَلِكَ عَنْ تَدْبِيرٍ [مدبّرٍ عليم؛ لَهُ تَدْبِيرٌ ذَاتِي]^(٦) وَعِلْمٌ ذَاتِيٌّ وَقُدْرَةٌ ذَاتِيَّةٌ، لَيْسَتْ بِمُسْتَفَادَةٍ. فَذَلِكَ كُلُّهُ أَنَّهُ فَعَلَ وَاحِدٌ قَادِرٌ وَمُدَبِّرٌ عَالِمٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أَكْثَرُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا وَقْتُ مَبْعَثِهِ. وجائز أن يكون ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ [وما يكون]^(٧) أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا زَيَّلْ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ جائز أن يقال: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْمُتَنَقِّمُ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ. وَيَحْتَمِلُ ﴿الْعَزِيزُ﴾ عَلَى الْخَلَاتِقِ كُلِّهِمْ، وَهُمْ أَذِلَّةٌ دُونَهُ؛ بِهِ يَعْزُزُ مَنْ عَزَّ.

الآيتان ١٠ و ١١ وقوله تعالى: ﴿وَلِذَا نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ أَي أَمَرَ رَبُّكَ مُوسَى، وَأَوْحَى ﴿أَنْ أَنْتَ الْفَقْرَمُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَرَعَوْنَ﴾ وَلَا يَنْقُوتُ فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ مُوسَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَانَ مَبْعُوثاً مُرْسِلاً إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَذْكُرْ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ قَوْمَهُ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿أَذَقْتُ لَكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤ والنازعات: ١٧] وَقَالَ فِي بَعْضِهَا: ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣ و...] [والملاء: هُم]^(٩) الرُّؤَسَاءُ وَالْقَادَةُ. فإِذَا آمَنُوا هُمْ أَتْبَعُهُمُ الْآتِبَاعُ فِي ذَلِكَ، فَكَانَ^(١٠) مَبْعُوثاً فِي الْحَقِيقَةِ رَسُولاً إِلَيْهِ وَإِلَى قَوْمِهِ جَمِيعاً الْآتِبَاعِ وَالْمُتَّبِعِينَ لِمَا ذَكَرَ.

وقوله تعالى: ﴿فَرَعَوْنَ﴾ وَلَا يَنْقُوتُ كَأَنَّهُ عَلَى الْإِضْمَارِ: ﴿أَنْ أَنْتَ الْفَقْرَمُ الظَّالِمِينَ﴾ وَقُلْ لَهُمْ: ﴿أَلَا يَنْقُوتُ؟﴾

ثم قوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْقُوتُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين: أَحَدُهُمَا: ﴿أَلَا يَنْقُوتُ﴾ مُخَالَفَةً أَمْرٍ لِلَّهِ وَنَهْيِهِ.

(١) و (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأول. (٤) في الأصل وم: هي ظاهرة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فهذه لأنهم كانوا. (١٠) في الأصل وم: والاكأن.

والثاني^(١): «أَلَا يَتَّقُونَ نَفْعَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

الآية ١٢ وقوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» لم يقطع موسى القول في التكذيب، ولكنه على الرجاء قال ذلك. وذلك، والله أعلم، كقولهِ: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَمَّا يُذَكِّرُ أَوْ يَخْشَى» [طه: ٤٤] فكانه رجا ذلك منه لهذا، والله أعلم.

وجائز أن يكون على القطع والعلم منه بالتكذيب؛ كأنه قال: إني أعلم أنهم يكذبوني، وذلك^(٢) جائز في اللغة.

الآية ١٣ وقوله تعالى: «وَيَحْيِي صَدْرِي وَلَا يَمِلُّ لِسَانِي» لأنَّ عليه أن يغضب لله إذا كذَّبوه، فإذا اشتدَّ بالمرء الغضب ضاق صدره، وكلَّ لسانه، وهو ما دعا ربُّه، وسأله حين^(٣) «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي» «وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي» «وَأَسْلُفْ عَفْوَكَ بَيْنَ لِسَانِي» [طه: ٢٥ و ٢٦ و ٢٧] وهو ما ذكرنا إذا اشتدَّ بالمرء [الغضب]^(٤) يضيق صدره حتى يمنعه عن الفهم، ويكلَّ لسانه حتى يمنعه عن العبارة والبيان. وجائز أن يكون ذلك لآفة، كانت بلسانه.

ثم ضيق الصدر يكون لوجهين:

أحدهما: لعظم أمر الله وجلال قدره إذا كذَّبوه، وردُّوا رسالته وأمره، ضاق لذلك صدره.

[والثاني]^(٥): لما ينزل من عذاب الله ونقمته بالتكذيب إشفافاً عليهم منه، والله أعلم.

الآيتان ١٣ و ١٤ وقوله تعالى: «فَأَرْسِلْ إِنْ شِئْتَ إِلَىٰ هَرُونَ» «وَلَمْ يَلَمْ يَأْتِ الْوَيْلَ أَنْ يَقُولُوا: «فَأَرْسِلْ إِنْ شِئْتَ إِلَىٰ هَرُونَ» كسؤاله إياه حين^(٦) قال: «وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي» «هَرُونَ أَخِي» «أَشَدُّ بِهٖ أَمْرِي» «وَأَشْرِكْ بِي أَمْرِي» [طه: ٢٩ - ٣٢] فعلى ذلك قوله: «فَأَرْسِلْ إِنْ شِئْتَ» يكون معي في الرسالة، وقوله^(٧): «هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا» الآية [القصص: ٣٤].

وذنبه الذي ذكر أنه عليه، هو قتل ذلك القبطي، وهو قوله: «فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» [القصص: ١٥] ذلك ذنبه الذي لهم عليه.

الآية ١٥ [وقوله تعالى]^(٨): «قَالَ كَلَّا فَإِنَّهَا يَتَذَكَّرُ أَتَىٰ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» وقوله: «كَلَّا» ردَّ على قول موسى «فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» كأنه قال: لا تخف، وهو ما قال في آية أخرى حين^(٩) «قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا» بالفعل «أَوْ أَنْ يَفْلُجَ» [طه: ٤٥] فقال عند ذلك «قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» [طه: ٤٦].

فعلى ذلك قوله: «كَلَّا فَإِنَّهَا يَتَذَكَّرُ أَتَىٰ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» ب/ «فَأَذْهَبَا يَتَذَكَّرُ أَتَىٰ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ».

وقال في تلك الآية: «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» [طه: ٤٦] أي أسمع ما يقولون لكما، وأرى ما يفعلون بكما^(١٠)، فأمنعهم عنكما؛ لأنهما ذكرا الخوف منه من شيتين: من الفعل والقول حين^(١١) «قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا» بالفعل «أَوْ أَنْ يَفْلُجَ» [طه: ٤٥] باللسان.

الآيتان ١٦ و ١٧ وقوله تعالى: «فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ» «أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ» ليس على حقيقة الإرسال معه، ولكن على ترك استعبادهم كقولهِ: «فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ» [طه: ٤٧] أي خلِّ بينهم وبين استخدامك إياهم واستعبادك، والله أعلم.

الآية ١٨ ثم قال له فرعون: «أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ إِنَّا وَدِدَا وَكَانَتْ بَيْنَنَا مِنْ عَمَلِكَ سِينٌ» يذكرك نعمته التي أنعمها عليه بترتيبته إياه صغيراً وكونه فيهم ذميراً، وكفران موسى لما أنعم عليه:

الآية ١٩ وهو ما قال: «وَقَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ آتَىٰ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» وهو قتل ذلك القبطي الذي وكَّره موسى، فقضى عليه، فأقر له موسى بذلك، فأخبر أنه فعل ذلك حين^(١٢) «قَالَ فَعَلْنَا إِذَا وَدِدْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ».

(١) في الأصل وم: ونقول. (٢) من م، في الأصل: وكذلك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو يضيق. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وكقولهِ. (٨) في الأصل وم: ثم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: بكم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَلَكُنَا إِذَا وَانَا مِنَ السَّالِّينَ﴾ أي فعلت ذلك، وأنا كنت من الجاهلين؛ لا يعلم أن وكزته تلك، تفكته، وألا لو علم ما وكزته، لأنه لم يكن يحل له قتله حين^(١) ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] دل ذلك منه أنه كان لم يحل قتله إلا أنه جرى ذلك على يده خطأ وجهلاً.

وفيه دلالة أن الرجل، قد ينهى، ويؤاخذ بما يجري على يده خطأ وجهلاً، ويخاطب بذلك حين^(٢) ﴿قَالَ فَمَلَكُنَا إِذَا وَانَا مِنَ السَّالِّينَ﴾.

الآية ٢١

وقوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ وهو حين قال له ذلك الرجل ﴿إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَتَمُّونَ بِكَ يَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ﴾ الآية ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢٠ و ٢١] وذلك فراره منهم.

وقوله تعالى: ﴿فَوَعَدَ لِي رَبِّي شُكْرًا وَحَمْدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال بعضهم: ﴿شُكْرًا﴾ أي علماً بالحكم، و﴿حَمْدًا﴾ من المرسلين وقد كان ذلك له كله.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهو استغبادك إياهم، أي إذا ذكرت هذا فاذكر ذاك. وهذا^(٣) يختل وجوهاً:

أخذها: أن تذكر ما انعمت علي، وتمنئها، ولا تذكر مساوئك بني إسرائيل، وهو استغبادك إياهم، أي إذا ذكرت هذا فاذكر ذاك.

والثاني: أن تلك ﴿نِعْمَةٌ تَنُنَّا عَلَىٰ﴾ حين^(٤) لم تعبدي، وعبدت بني إسرائيل؛ يُخرجه^(٥) على قبول النعمة منه.

والثالث: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ لو تخلت^(٦) عن بني إسرائيل، ولم تستغبدهم، لولوا ذلك عنه.

وتمام هذا بقول موسى لفرعون: أتمن علي يا فرعون بأن اتخذت بني إسرائيل عبيداً، وكانوا أحراراً، فقهرتهم، وقوله^(٧) ﴿فَمَلَكُنَا إِذَا وَانَا مِنَ السَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين بذلك: أنه يتوَلَّد من وكزته الموت.

وكذلك روي في بعض الحروف: وأنا من الجاهلين^(٨). دل أنه على الجهل فعل^(٩) ذلك لا على القصد.

وقال بعضهم في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنُنَّا عَلَىٰ﴾ يقول: وهذه نعمة تمنئها علي بقولك^(١٠) ﴿أَلَمْ تَرَيْكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يقول: تمن بها علي أن تستغبد بني إسرائيل، وتمن علي بذلك.

الآيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥

[وقوله تعالى]^(١١) ﴿قَالَ فَرَعُونَ لِمُوسَىٰ ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال له موسى ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من خلقي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ثم ﴿قَالَ لَنْ حَوْلَهُ إِلَّا نَسِيعُونَ﴾.

إنما قال اللعين هذا، والله أعلم [لما]^(١٢) وقع عنده أن موسى حاد عن جواب ما سأله لأنه إنما قال اللعين هذا، فهو إنما أجابه عن [فعل وربوبيه رب العالمين]^(١٣)، فظن أنه حائد عن جواب ما سأله، ولذلك^(١٤) قال لقوميه: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ إلى ما يقول موسى تعجباً منه: إني أسأله عن شيء، وهو يجيبني عن شيء.

الآيتان ٢٦ و ٢٧

ثم قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبِّي مَلَكُ الْآلِينَ﴾ فقال عند ذلك: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ نسب إلى المجنون لما ذكرنا أنه [ظنه حائداً]^(١٥) عن الجواب في كل ما ذكر؛ إنما كان السؤال منه عن الماهية، وهو لم يجبه عنها.

الآية ٢٨

فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كنتم تقولون لم يجبه موسى في كل ما ذكر له عن

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يخرج. (٦) في الأصل وم: خلعت. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) هذه قراءة ابن مسعود وابن عباس، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٠٨. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: بقوله. (١١) في الأصل وم: ثم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: فعله وربوبية. (١٤) في الأصل وم: وكذلك. (١٥) في الأصل وم: ظن حائد.

الماهيّة، ولكن أجابه في الأول عن بيان [الرُبُوبِيَّةِ وَاللَّوْهِيَّةِ حِينَ] ^(١) ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] ذلك، فَعَرَفَ اللّٰعِينَ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا صُنْعَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنْشِئْهُمَا، وَلَكِنْ أَنْشَأَهُمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا ذَكَرَ مُوسَى.

لكن كانه لم يَعْرِفْ حَدَثَهُمَا وَلَا فَنَاءَهُمَا بِمَا ذَكَرَ لَهُ مُوسَى لِمَا [لم] ^(٢) يُشَاهِدُ حَدَثَهُمَا وَفَنَاءَهُمَا، فَلَمْ يَنْقَرَّرْ ذَلِكَ عِنْدَهُ أَنَّهُمَا كَذَلِكَ كَانَا، وَيَكُونُونَ أَبَدًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ اخْتِاجٌ إِلَى أَنْ يَذْكُرَ لَهُ مَا يُشَاهِدُ [حَدَثَهُ وَفَنَاءَهُ] ^(٣) وهو ما ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ الْآلَافِينَ﴾ ذَكَرَ لَهُ مَا شَاهَدَ حَدَثَهُ وَفَنَاءَهُ.

فَإِذَا عَرَفَ حَدَثَ مَا ذَكَرَ وَفَنَاءَهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَكُونُ نَفْسُهُ إِلَّا بِمُحْدِثِ أَحَدَهُ وَبِمُدَبِّرٍ، دَبَّرَهُ. ثُمَّ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ذَكَرَ هُنَا قُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ، وَهُوَ يَأْتِي بِالنَّهَارِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبِاللَّيْلِ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَيُطْلِعُ الشَّمْسَ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَيُغْرِبُهَا فِي ^(٤) الْمَغْرِبِ، وَكَذَلِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ.

فَفِيهِ دَلَالَةٌ الْبَغْثِ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِالنَّهَارِ مِنْ كَذَا وَبِاللَّيْلِ مِنْ نَاحِيَةٍ كَذَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ كَذَا قَادِرٌ عَلَى الْبَغْثِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. فَنَفِي كُلِّ حَرْفٍ مِنَ الْأَحْرَافِ دَلَالَةٌ وَاسْتِذْلَالٌ عَلَى شَيْءٍ، لَيْسَ فِي الْأُخْرَى.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دَلَالَةٌ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَالْوَهِيَّةِ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ الْآلَافِينَ﴾ دَلَالَةٌ حَدَثِ مَا ذَكَرَ وَفَنَائِهِ وَدَلَالَةٌ مُحْدِثٍ وَمُدَبِّرٍ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ دَلَالَةٌ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ عَلَى الْبَغْثِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَّرْنَا.

وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْرِفُ بِالْمَاهِيَّةِ وَلَا بِمَا يُحَسُّ ^(٥)، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَعْرِفُ مِنْ جِهَةِ الْإِسْتِذْلَالِ بِخَلْقِهِ وَبِالْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ حِينَ ^(٦) سَأَلَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَنِ الْمَاهِيَّةِ، فَاجَابَ عَلَى الْإِسْتِذْلَالِ بِخَلْقِهِ.

الآية ٢٩ ثُمَّ قَالَ اللَّعِينُ: ﴿لَيْنَ أَتَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرَ لَأَجْمَعَنَّكَ مِنَ السَّجُونِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا أَوْعَدَهُ السَّجَنَ، وَلَمْ يَوْعِدْهُ الْقَتْلَ لِأَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُ الْحُجَّةَ عَلَى مَا ادَّعَى مِنَ الرِّسَالَةِ حِينَ ^(٧) قَالَ: ﴿قَاتِلْ بِهِ﴾ الْآيَةُ [الشعراء: ٣١] وَلَوْ قَتَلَهُ لَكَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْيَانِهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ كَانَ سَبْجُهُ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ وَمِنْ كُلِّ عُقُوبَةٍ.

الآية ٣٠ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أَيَّ مَا يُبَيِّنُ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ وَالْوَهِيَّةَ، أَوْ مَا يُبَيِّنُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ.

الآية ٣١ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: ﴿قَالَ قَاتِلْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بِالرِّسَالَةِ وَبِمَا ادَّعَيْتَ.

فَدَلَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى حِينَ ^(٨) قَالَ لَهُ: ﴿قَاتِلْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ رَسُولٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِالْإِلَهِ مَا ادَّعَى، وَأَنَّ الْإِلَهَ غَيْرُهُ حِينَ طَلَبَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] بِالْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ / ٣٨٢ - أ / تَعَالَى وَمَشِيتِيهِ.

ذَكَرَ هَذَا مُقَابِلَ إنْكَارِهِمُ الصَّانِعَ. وَالْإِيمَانُ هُوَ الْعِلْمُ [الَّذِي] ^(٩) يُسْتَفَادُ مِنْ جِهَةِ الْإِسْتِذْلَالِ. لِذَلِكَ لَا يُقَالُ لِلَّهِ: مُوقِنٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] [مُقَابِلُ] ^(١٠) قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُتِيتُمْ بِهِ لَكَاظِمٌ لَكُمْ لَكَاظِمٌ﴾.

الآية ٣٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْقَوَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُبَانٌ مَّنِينٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الثُّبَانُ، هُوَ ^(١١) الْكَبِيرَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ الْحَيَّاتِ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿تَهْتَرُ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠] وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَنِي﴾ [طه: ٢٠]. فَجَانِزٌ أَنْ تَكُونَ كَالثُّبَانِ بَعْدَ مَا طَرَحَهَا، وَالْقَاهَا، وَقَبْلَ أَنْ يَطْرَحَهَا كَالجَانِّ، وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: رَبُوبِيَّتِهِ وَالْوَهِيَّةِ حَيْثُ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَدَثَهُمَا وَفَنَاءَهُمَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مِنْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْسَنُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ.

الآية ٢٣ وقوله تعالى: ﴿وَرَجَّ يَدَيْهِ فَإِذَا هِيَ بَيْتَاءُ لِلْكَاطِبِينَ﴾ بياضاً خارجاً عن خِلْقَةِ الْبَشَرِ وخارجاً عن الْآفَةِ على ما ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ [طه: ٢٢ و...].

الآيتان ٢٤ و ٢٥ وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَولَهُ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْزِلَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَحَابٍ﴾ هذا مِنْهُ إِغْرَاءٌ وَتَحْرِيشٌ مِنْهُ لِقَوْمِهِ عَلَى مُوسَى لئَلَّا يَنْظُرُوا إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ لِتَعْظِيمِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْآيَةِ؛ [أَرَاهُمْ حِينَ^(١)] قَالَ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْزِلَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَحَابٍ﴾ أَنَّهُ^(٢) لَمْ يُرِدْ إِخْرَاجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ^(٣)، وَلَكِنْ ذَلِكَ إِغْرَاءٌ مِنْهُ لَهُمْ عَلَيْهِ لئَلَّا يَتَّبِعُوهُ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْزِلَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ فَيَفْسِدَ عَلَيْكُمْ مَعَاشَكُمْ، وَيُضَيِّقَ عَلَيْكُمْ مَقَامَكُمْ وَمُتَقَلِّبَكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآذَا تَمُورُونَ﴾ هذا يُبَيِّنُ أَنَّهُ كَانَ عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ بِاللَّهِ، فَيُبَيِّنُ ذُنُوبَهُ وَقِلَّةَ مَعْرِفَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَقُولُ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ لِقَوْمِهِ: مَاذَا تَمُورُونَ؟ وَخَاصَّةً مَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ الْأُلُوهِيَّةَ. بِقَوْلِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] فَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ خَاسِيسَ الْهَيْمَةِ دَنِيءَ الرَّأْيِ وَالْبَالِ.

الآية ٣٦ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَزِجُّوهُ أَتَمْنَاءُ﴾ أَحْبَبْنَاهُ، وَأَخْرَجُوهُ ﴿وَلَقَدْ فِي الذِّكْرِ خَبِيرِينَ﴾ الْحَاشِرُ: الْجَامِعُ، وَالْحَشْرُ الْجَمْعُ.

الآية ٣٧ [وقوله تعالى^(٤)]: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ السَّحَابَ يُقَابِلُ بِسَحَابٍ مِثْلِهِ، وَلَا يَخْتَاجُ إِلَى أَنْ يَسْأَلَ قَوْمَهُ ذَلِكَ. لَكِنَّهُ كَانَ اللَّعِينُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قِلَّةِ الْبَصَرِ فِي الْأَمْرِ وَخَسَاسَةِ الْهَيْمَةِ وَدَنَاءَةِ الرَّأْيِ.

الآيات ٢٨ و ٢٩ و ٤٠ وقوله تعالى: ﴿فَجَمْعَ السَّحَرَةِ لِيَقْتَرِبَ بَوْرُ مَقْلُوبِهِ﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ قَالَ اللَّعِينُ: ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: نَتَّبِعُهُمْ إِنْ كَانَتْ مَعَهُمُ الْحُجَّةُ، لِئَلَّا يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ، وَعَرَفَ أَنَّ لَا حُجَّةَ مَعَهُمْ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ مَعَ مُوسَى حِينَ^(٥) وَجَدَ^(٦) أَتْبَاعَ الْغَالِبِينَ دُونَ مَنْ مَعَهُمُ الْحُجَّةُ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: قَالَ لِلنَّاسِ: أَنْتُمْ مُسْتَمْعُونَ إِلَى السَّحَرَةِ أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ، لَعَلَّآ نَتَّبِعُ مِنْهُمْ الْغَالِبِينَ.

الآيتان ٤١ و ٤٢ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ الْكُفْرَ إِنْ كُنَّا نَظَاهِرٌ، لَكِنْ أَهْلَ التَّأْوِيلِ قَالُوا: كَانَ السَّحَرَةُ كَذَا كَذَا عَدَدًا، وَإِنَّ مُوسَى قَالَ لَا تُكْبِرْهُمْ سَاحِرًا: أَتُؤْمِنُ لِي إِنْ غَلَبْتُكَ؟ وَقَالَ السَّاحِرُ: كَذَا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ مِمَّا لَيْسَ ذَلِكَ، فِي الْكِتَابِ ذِكْرُهُ، وَلَيْسَ يَتَّبِعُنِي لَهُمْ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَنْ يَتَأَوَّلُوا شَيْئًا، لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ لِمَا يُدْخِلُ فِي ذَلِكَ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، فَيَكُونُ لِلْكَفَرَةِ مَقَالٌ فِي ذَلِكَ وَظَعْنٌ فِي رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ كَانَتْ فِي كُتُبِهِمْ، فَذِكْرُ رَسُولِ اللَّهِ لِيَكُونَ آيَةً لَهُ فِي الرِّسَالَةِ، فَإِنْ زَادُوا، أَوْ نَقَصُوا، يَقُولُوا: هَذَا كَذِبٌ، لَمْ يَذْكُرْ فِي كِتَابِنَا ذَلِكَ.

فلهذا الوجه ما يَتَّبِعُنِي أَنْ يَزِيدُوا عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ، أَوْ يُنْقِصُوا، لئَلَّا يَجِدَ أَوْلَئِكَ مَقَالًا فِي تَكْذِيبِ رَسُولِ اللَّهِ.

الآية ٤٣ وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ مُوسَى لِأَوْلَئِكَ السَّحَرَةَ: ﴿أَلْقُوا﴾ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا يُلْقُونَ، هُوَ سِحْرٌ؟ فَكَيْفَ أَمَرَهُمْ بِالسَّحْرِ؟ قِيلَ: هَذَا [بِخَطِّهِمْ وَجْهًا]:

أَحْذَرُهَا^(٧) إِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمْرًا فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَوَعُّدٌ كَقَوْلِهِ لِإِبْلِيسَ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ مِنْ أَسْطَلَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ﴾ [الآية [الإسراء: ٦٤] [لا] ^(٨) يُخْرِجُ عَلَى الْأَمْرِ، وَلَكِنْ عَلَى التَّوَعُّدِ وَالتَّهْدِيدِ، أَيْ وَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَلَا سُلْطَانَ لَكَ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

والثاني: أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ لِمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبَ إِيْمَانِ أَوْلَئِكَ السَّحَرَةِ.

الآية ٤٤ وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّ السَّحَرَةَ كَانُوا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَرَاهُمْ حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمُوسَى كَأَنَّهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَرْضَكُمْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَد. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

يَعْبُدُونَ فِرْعَوْنَ حِينَ^(١) قَالُوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وَعَلِمُوا عَجَزَ فِرْعَوْنَ وَضَعْفَهُ حِينَ^(٢) فَرَعَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: ﴿مَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿قَالَتِي مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وقد قرئ تَلْقَفُ بالتشديد^(٣).

قال أبو عوسجة: تقول: لَقِفْتُ الشيء، والشيء، أي أَخَذْتُهُ. وقال غيره: تَلْقَفُ، أي تَلْقِمُ، وهو واحد. وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وهو الفاعل بِمَعْنَى المفعول أي مَأْفُوكٌ، وذلك جائز في اللغة. وأمثاله كثير كقوله: ﴿نَهَرُ فِي عِيشَةٍ رَائِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] ونحوه.

الآية ٤٦ وقوله تعالى: ﴿قَالَتِي النَّحْرَ سَبْعِينَ﴾ أَخْبَرَ [عَنْ سُرْعَةٍ]^(٤) مَا سَجَدُوا كَانَهُمْ أَلْقُوا لِمَا بَانَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَظَهَرَ.

الآية ٤٧ [وقوله تعالى]^(٥): ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ قال أهل التأويل: إِنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: أَنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.

الآية ٤٨ فَقَالَتِ السَّحَرَةُ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ لَكِنَّ الْإِمْتِنَاعَ عَنْ هَذَا وَأَمثَالِهِ مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ فِي الْكِتَابِ أَوَّلَى لِمَا ذَكَّرْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا يُخْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِهِذِهِ الْأَنْبَاءِ عَلَى تَصْدِيقِ مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَهُ فِي ذَلِكَ لِمَا هِيَ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِهِمْ، فَتُخَافُ الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصَانُ، فَيُكْذَّبُونَهُ فِي ذَلِكَ. فَيُذَكَّرُ الْقَدْرُ الَّذِي فِي الْكِتَابِ لئَلَّا تُدْخَلَ فِيهِ الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصَانُ، فَيُفَرِّقَ بِهِ، وَيُكْذَّبَ، إِلَّا مَا ظَهَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ الْقَوْلُ بِهِ، فَيَقَالُ، وَإِلَّا^(٦) الْإِمْتِنَاعُ وَالْكَفُّ أَوَّلَى.

الآية ٤٩ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿أَمْسِرْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِثْمٌ لِكَيْرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى هُوَ حُجَّةٌ، لَكِنَّهُ كَانَ يُلْبِسُ عَلَى قَوْمِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَيُغْوِيهِمْ عَلَيْهِ:

فَقَالَ مَرَّةً: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وَقَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَسَجُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وَقَالَ مَرَّةً: ﴿إِنَّكُمْ لَكَيْرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَقْتُلُكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩] وَقَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الآية ١٢٣].

ثُمَّ أَوَعَدَ لَهُمْ بِوَعَائِدِهِ، فَقَالَ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَسْلِمَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الآية ٥٠ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا سَبِيْرَ لَنَا إِلَهَ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أَي إِنَّا إِلَى ثَوَابِ رَبِّنَا الَّذِي وَعَدَ لَنَا لِرَاجِعُونَ، لَا يَصْرُنَا مَا نُوْعِدُنَا بِهِ.

قال أبو عوسجة والقتيبي: لَا صَبِيْرَ: هُوَ مِنْ ضَارَهُ يَصُوْرُهُ، وَيَصْبِرُهُ، بِمَعْنَى ضَرُهُ. وَقَدْ قُرِئَ: ﴿وَلَا تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَصْرُكُمْ كَيْدُهُمْ سَبِيْرًا﴾ [الأعراف: ١٢٠] لَا يَصْرُكُمْ بِالتَّخْفِيفِ^(٧) بِمَعْنَى لَا يَصْرُكُمْ.

الآية ٥١ فَقَالُوا ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ [مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ]^(٨) وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ كُنَّا أَوَّلَ أَهْلِ مِصْرَ إِيْمَانًا. وَجَائِزٌ: إِنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْحَالِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ فِرْعَوْنَ قَدْ فَعَلَ بِهِمْ مَا أَوَعَدَ مِنْ قَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ. لَكِنْ لَيْسَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ حُلُولِ مَا أَوَعَدَ بِهِمْ، فَلَا نَقُولُ بِهِ مَخَافَةَ الْكُذْبِ.

الآية ٥٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَنبِئْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ السُّرَى سَبَرُ اللَّيْلِ، وَهُوَ [مَا]^(٩) قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَنبِئْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] أَي يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بِالتَّخْفِيفِ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/٣١١. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لِسُرْعَةٍ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَلَا. (٧) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٢/٦١. (٨) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

الآية ٥٣

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَيْنِ﴾ أي أرسَلَ في المَدَائِنِ مَنْ يَحْشُرُ الْجُنُودَ / ٣٨٢ - ب / والعساكر.

وقالوا: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يَغْنُون أصحاب موسى ﴿لَيَرْزُمَنَّهُمْ لَيَالُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أي عصابة قليلة. وقال بعضهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَرْزُمَنَّهُمْ لَيَالُونَ﴾ أي طائفة قليلة.

الآية ٥٥

[وقوله تعالى^(١)]: ﴿وَأَنبَأْنِي لَنَا لَمَّا طُنَّ﴾ في الحَلِيِّ الذي استعاروه منَّا، أي ذهبوا به مُغَايَظَةً لَنَا. وقال بعضهم: ﴿وَأَنبَأْنِي لَنَا لَمَّا طُنَّ﴾ بما فعلنا بهم مِنْ قَتْلِ أولادِهِمْ واستِغْيَادِ نِسَائِهِمْ ورجالِهِمْ يَقْعَلُونَ بنا ما فعلنا بهم إِنْ ظَفَرُوا.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَّا لَجَبَّيْحُ حَذِرُونَ﴾ وحذرون^(٢). قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الْحَذَرِ، وقال بعضهم: ﴿وَلَنَّا لَجَبَّيْحُ حَذِرُونَ﴾ أي مُؤَدُّونَ أي مُقَوِّونَ، أي معنا أدوات^(٣) أصحاب الحرب، والمُقَوِّى الذي دَابَّتْ قُوَّتُهُ.

وقال بعضهم: ﴿حَذِرُونَ﴾ أي مُسْتَعِدُّونَ للحَرْبِ، وقال بعضهم: حاذرون لِمَا حَدَثَ لَهُمْ مِنَ الْحُزَنِ، والحَذَرُ للحَالِ، حَذِرُوا المُعَاوَذَةَ، أي حَذِرُوا أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِمْ، وحذرون أي كُتًا، ولم^(٤) نَزَلْ مِنْهُمْ عَلَى حَدَرٍ. وقال أبو مُعَاذٍ: حاذرون مُؤَدُّونَ مِنَ الْأَدَاةِ أي تَأْمُرُ السَّلَاحِ.

وفي خروج موسى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ كَثَرَتِهِمْ عَلَى مَا ذُكِرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَمِثُّونَ الْفِ فَصَاعِدًا مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِمَ الْقَبِيطُ بِذَلِكَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ؛ إِذْ لَا يَقْدِرُ نَقْرُ الْخُرُوجِ مِنْ مَحَلَّةٍ أَوْ نَاجِيَةٍ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَهْلُهَا بِخُرُوجِهِمْ. فَبَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مَوْسَى هُوَ الْغَايَةُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ مَحَلَّةٍ أَوْ نَاجِيَةٍ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَهْلُهَا بِخُرُوجِهِمْ. فَبَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مَوْسَى هُوَ الْغَايَةُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ مَحَلَّةٍ أَوْ نَاجِيَةٍ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَهْلُهَا بِخُرُوجِهِمْ. فَبَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ مَوْسَى هُوَ الْغَايَةُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ مَحَلَّةٍ أَوْ نَاجِيَةٍ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَهْلُهَا بِخُرُوجِهِمْ.

الآيات ٥٧ - ٦٠

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يَغْنِي فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴿مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ﴾ أي حَسَنٍ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ شُرَيفَاتٍ﴾ أي تَبِعَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ حِينَ شَرَقَّتِ [الشَّمْسُ]^(٥) أَي طَلَعَتْ، وَقِيلَ^(٦): ﴿شُرَيفَاتٍ﴾ أي كَانُوا فِي الشَّمْسِ، أَي قَوْمُ مُوسَى صَارُوا فِي الشَّمْسِ. يُقَالُ: أَشْرَقُوا^(٧) إِذَا صَارُوا فِيهَا.

الآيتان ٦١ و ٦٢

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَنَانِ﴾ جَمَعَ مُوسَى وَجَمَعَ فِرْعَوْنُ، أَي رَأَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. كَانَ قَوْمُ مُوسَى لَمْ يَعْلَمُوا بِالْبِشَارَةِ الَّتِي بَشَّرَهَا اللَّهُ مُوسَى أَنَّهُمْ لَا يَذْرَكُونَ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] أَي لَا تَخَفْ دَرَكَهُمْ، وَلَا تَخْشَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ. لَذَلِكَ قَالُوا: ﴿إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾.

وَكَانَتْ الْبِشَارَةُ لَهُمْ لَا لِمُوسَى خَاصَّةً. يَذُلُّ [على]^(٨) ذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ عَلَى إِثْرِ قَوْلِهِمْ ﴿إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾ أَي كَلَّا إِنَّهُمْ لَا يَذْرَكُونَكُمْ.

الآية ٦٣

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَوْ آضِرِبْ بِصَاحِكَ الْبَحْرَ فَانْفَلِقْ﴾ أَي انشَقَّ. وَكَذَلِكَ ذُكِرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: فَانْشَقَّ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أَي كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَالطَّوْدُ وَاحِدٌ، وَأَطْوَادُ جَمَاعَةٍ.

الآية ٦٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْآخِرِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَرْزَلْنَا أَي أَهْلَكْنَا نَمَّ الْآخِرِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جَمَعْنَا، وَمِنْهُ قِيلَ: لَيْلَةُ الْمُرْدَلِقَةِ أَي لَيْلَةُ الْإِزْدِلَافِ، وَهُوَ الْإِجْتِمَاعُ، وَكَذَلِكَ قِيلَ لِلْمَوْضِعِ: جَمَعَ.

فَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ هَذَا فَبِهِ دَلَالَةٌ أَنَّ [اللهَ فِي]^(٩) فِعْلِ الْعِبَادِ صُنْعًا وَتَذَبِيرًا لِأَنَّهُ أَضَافَ الْجَمْعَ إِلَيْهِ، وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا خَرَجُوا لِلْمَعْصِيَةِ، فَذَلِكَ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى مَا ذُكِرْنَا.

وقال بعضهم: ﴿وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْآخِرِينَ﴾ أَي أَذْنِيَاهُمْ وَقَرْنَاهُمْ، وَمِنْهُ أَرْزَلَكَ اللَّهُ [أَي قَرَبَكَ اللَّهُ]^(١٠).

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣١٣. (٣) في الأصل وم: أداة. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أشرقنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الله ما. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

ويقال: أزلّني كذا عند فلان، أي قرّبتني منه، والزّلْفُ المنزل والمراقى لأنها تذنو بالمُساوِر [إلى المقصِد، ومنه قوله تعالى] (١): ﴿وَأَزَلُّوا بِلِقَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي أذنبت وقرّبت. وكذلك قال أبو عوسجة والقُتَيْبِيُّ.

الآيتان ٦٥ و ٦٦ وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّبَا ثُوْمَيْنِ وَمِنْ مَعَهُ أَهْمِيْن﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِيْنَ﴾ الآية ظاهرة.

الآية ٦٧ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي في هلاك فرعون وإنجاء موسى ومن معه مُتَعَطِّ وَمَرْجَرٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ [حين يَرَوْنَ] (٢) أنه أهلك الأعداء، وأبقى الأولياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهين]:

أحدهما: ما (٣) قال بعضهم: لم يكن أكثر أهل مصر بمُصَدِّقِيْنَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ؛ إذ لو كان أكثرهم مؤمنين لم يُعَذِّبوا في الدنيا. ولكن غير هذا، كأنه أشبه، أي لو لم يُهْلِكْهُمُ اللَّهُ تعالى، ولكن أبغاهم، لم يؤمن أكثرهم.

[والثاني: ما] (٤): قال بعضهم: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ من بني إسرائيل ﴿مُؤْمِنِيْنَ﴾ أي لم يَدُمُ أَكْثَرُهُمْ على الإيمان، بل ارتدَّ أَكْثَرُهُمْ من بعد ما أنجاهم حين (٥) قالوا لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] والله أعلم.

الآية ٦٨ وقوله تعالى: ﴿وَلَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءَرِيْزٍ رَّجِيْمٍ﴾ الْمُنتَقِمُ من فرعون وقومه ﴿الرَّجِيْمُ﴾ بِموسى ومن معه من المؤمنين. هذا في هذا الموضع يَسْتَقِيْمُ أَنْ يُصَرِّفَ تَأْوِيلَ الْعَزِيْزِ إِلَى الْأَعْدَاءِ وَالرَّحِيْمِ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ: كُلُّ حَرْفٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْفَرِيْقِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ ذَلِكَ: الرَّحْمَةُ إِلَى الْمُؤْمِنِيْنَ وَالنَّقْمَةُ إِلَى الْأَعْدَاءِ.

الآية ٦٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ بَآءَ إِزْرِيْهِمْ﴾ وَخَبْرُهُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَوْلَادِ إِبْرَاهِيْمَ وَمِنْ نَسْلِهِ، يُقْلِدُونَ آبَاءَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ، وَإِبْرَاهِيْمَ وَبَعْضُ أَوْلَادِهِ إِسْمَاعِيْلُ وَإِسْحَاقُ وَهَوْلَاءُ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ عِبَادَ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ لَا عِبَادَ إِلَّا لِلَّهِ فَهَلَّا اتَّبَعُوا إِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى دِينِهِ مِنْ آبَائِهِمْ دُونَ [أَنْ يَتَّبِعُوا] (٦) مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ.

يُسَفِّهُ أَحْلَامَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَتَقْلِيْدِهِمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ [مِنْ آبَائِهِمْ عَبَدُوا] (٧) الْأَصْنَامَ وَتَرْكِهِيْمَ تَقْلِيْدَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْهَا، وَعَبَدَ اللَّهُ.

الآية ٧٠ ثم قول إبراهيم حين (٨) ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهٍ وَقَوِيْهِ مَا تَعْبُدُوْنَ﴾ على ما ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَاذَا تَعْبُدُوْنَ﴾ ﴿أَبْنَاكَ﴾ [الصافات: ٨٥ و ٨٦] وَيَحْتَمِلُ ﴿مَا تَعْبُدُوْنَ﴾ أَي مَنْ تَعْبُدُونَ؟

الآية ٧١ [وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾] (٩) تَعْبُدُ أَسْمَاءًا فَتَطْلُ لَهَا عَنكِيْنَ أَي تُقِيْمُ لَهَا عَابِدِيْنَ، أَي نَدُوْمُ عَلَى عِبَادَتِهَا. وَالْعُكُوفُ عَلَى الشَّيْءِ، هُوَ الْإِقَامَةُ عَلَيْهِ، وَالذَّوَامُ.

قال أبو مُعَاذٍ النَّخَوِيُّ: ظَلٌّ: لَا يُقَالُ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَمُحَالٌ أَنْ يُقَالَ: ظَلٌّ لَيْلَةً يَضْنَعُ كَذَا، وَإِنَّمَا (١٠) يُقَالَ: بَاتَ لَيْلَةً، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «ظَلَّ نَهَارُهُ صَائِماً، وَبَاتَ لَيْلَةً قَائِماً» [بمعناه النسائي ٤ / ٢١٠].

الآية ٧٢ [وقوله تعالى] (١١): ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُوْنَكَ إِذْ تَدْعُوْنَ﴾ [يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ] (١٢): يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُوْنَكَ﴾ أَي هَلْ يُجِيبُوْنَكَ إِذْ تَدْعُوْنَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُوْنَكَ﴾ عَلَى السَّمَاعِ نَفْسِهِ، أَي هَلْ يَسْمَعُونَ دُعَاءَكَ إِذْ تَدْعُوْنَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكَ﴾ الآية؟ [فاطر: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُوْنَ﴾ يَحْتَمِلُ تَعْبُدُونَ، وَيَحْتَمِلُ الدُّعَاءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ كَانَ عَلَى الْعِبَادَةِ فَلَا يَحْتَمِلُ السَّمَاعَ.

الآية ٧٣ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَفْعَلُوْكُمْ أَوْ يَهْمُوْكُمْ﴾ أَي (١٣) هَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى تَفْعِيْلِكُمْ وَضَرْبِكُمْ إِنْ أَرَادُوا ذَلِكَ بِكُمْ، أَوْ شَاؤُوا؟ [وَيَحْتَمِلُ] (١٤) أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: هَلْ ﴿يَفْعَلُوْكُمْ﴾ إِنْ عَبَدْتُمُوها، وَأَطَعْتُمُوها؟ ﴿أَوْ يَهْمُوْكُمْ﴾ إِنْ عَصَيْتُمُوها؟ فَيَهْتُوا، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْجَوَابِ لَهُ سِوَى مَا ذَكَرُوا مِنْ تَقْلِيْدِ آبَائِهِمْ فِي ذَلِكَ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: حَيْثُ رَأَوْا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: وَجُوهًا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: وَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: حَيْثُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: مَنْ اتَّبَعُوا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: عَبَرُوا مِنْ آبَائِهِمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: فَقَالُوا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: حَتَّى. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْهُ: أَدْرَجْتَ فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ قَبْلَ الْآيَةِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَمِنْهُ: وَ. (١٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمِنْهُ.

الآية ٧٤ [وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا^(١) بَلْ وَبَدَّأَ بَابَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لَمَّا عَرَفُوا أَنَّ تِلْكَ الَّتِي عَبْدُوهَا، لَا تَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، لَكِنَّمْ عَبْدُوهَا تَقْلِيدًا لِآبَائِهِمْ لَمَّا وَقَعَ عِنْدَهُمْ أَنَّ آبَاءَهُمْ مَا عَبْدُوهَا إِلَّا بَاطِلٌ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَمْرِ لَتَرَكُوا^(٢). لَكِنْ قَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ مِنْ آبَائِهِمْ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا قَطُّ، ثُمَّ لَمْ يَعْلُدُوهُمْ، فَكَيْفَ قُلُّدُوا أَوْلَئِكَ؟ ذَلَّ أَنَّ الْإِغْتِلَالَ فَايَسَّدُ.

الآيات ٧٥ - ٧٧ وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَكْبَرُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ ﴿فَلَنْتُمْ عَدُوَّيَّ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [قَالَ بَعْضُهُمْ^(٣)] إِنَّهُمْ وَآبَاءَهُمُ الَّذِينَ عَبْدُوا الْأَصْنَامَ مِنْ قَبْلُ عَدُوُّهُمْ ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ اسْتَشْنَى رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ يَقُولُ: هُمْ عَدُوُّ لِي، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَكُونُ فِيكُمْ مَنْ يَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِينَ؛ فَيَكُونُ عَلَى الْإِضْمَارِ، أَيِ فَوَانِهِمْ جَمِيعًا عَدُوُّ لِي إِلَّا مَنْ عَبَدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وقال بعضهم/ ٣٨٣ - أ/ يقول: إِنَّ [الْعَابِدِينَ وَالْمُعْبُودِينَ]^(٤) كُلَّهُمْ ﴿عَدُوُّيَّ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ إِلَّا الْمُعْبُودَ بِالْحَقِيقَةِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، فَإِنَّهُ وَلِيِّي.

وقال بعضهم: لَيْسَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ عَدُوُّ لِي.

الآيات ٧٨ - ٨٢ ولكن رب العالمين ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ﴿وَلِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُجَيِّبُ﴾ ﴿وَالَّذِي أَلْهَمَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

الآية ٨٣ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَهَمَّا وَعِلْمًا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ سَأَلَ رَبَّهُ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْحُكْمِ، إِذْ قَدْ كَانَ أَعْطَاهُ الْعِلْمَ وَالْحُكْمَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥] أَوْ سَأَلَ الزِّيَادَةَ عَلَى مَا أَعْطَاهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَأَلَ رَبَّهُ قَبُولَ حُكْمِهِ فِي الْخَلْقِ وَرَفْعَ الْحَرَجِ لَهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ بِالْضَلَالِينَ﴾ أَيِ تَوَفَّنِي عَلَى مَا تَوَفَّيْتُ الصَّالِحِينَ حَتَّى أَلْحَقَ بِهِمْ. هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مَعْنَى سَوَالِهِ الْإِلْحَاقَ بِالصَّالِحِينَ أَنْ يَتَوَفَّاهُ عَلَى الَّذِي تَوَفَّى أَوْلَئِكَ وَهُوَ [الإسلام]^(٦) لِيَلْحَقَ بِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٤ وقوله تعالى: ﴿وَلَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيِ اجْعَلْ لِي الشَّاءَ الْحَسَنَ فِي النَّاسِ. وَكَذَلِكَ [كَانَ]^(٧) إِبْرَاهِيمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، [وَكَانَ]^(٨) جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ قَدْ انْقَادُوا لَهُ، وَانْتَسَبُوا إِلَيْهِ، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ، وَأَنَّ دِينَهُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ إِلَّا وَهُمْ يَتَوَلَّوْنَهُ.

الآية ٨٥ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسِّرْ لِي وَفَّقْ جَنَّةَ النَّعِيمِ﴾ أَيِ اجْعَلْنِي بَاقِيًا مِنْ بَعْدِ مَوْتِي فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ، إِذِ الْوَارِثُ، هُوَ الْبَاقِي مِنَ الْمَوْرُوثِ. وَكَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أَيِ نَبْقَى بَعْدَ فَنَاءِ أَهْلِهَا، إِذِ الْوَارِثُ، هُوَ الْبَاقِي. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَلْيَسِّرْ لِي وَفَّقْ جَنَّةَ النَّعِيمِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٦ وقوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّئٍ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَلَى ظَاهِرٍ مَا ذُكِرَ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّئٍ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ. لَكِنْ كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْإِسْتِغْفَارُ لَهُ. فَاخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ^(٩) كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ؛ فَيَكُونُ هَذَا الثَّانِي إِخْبَارًا مِنَ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ مِنَ الضَّالِّينَ، وَالْأَوَّلُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ.

وكذلك قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي قِصَّةِ بَلْعِيسَ حِينَ^(١٠) ﴿قَالَتْ إِنَّ الثَّلْوَكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَ: فَقَالُوا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَمَ: مَا تَرَكُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَمَ: ثُمَّ قَالَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَمَ: الْعَابِدُ وَالْمُعْبُود. (٥) فِي الْأَصْلِ وَمَ: حَيْثُ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَمَ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَمَ: لَه. (٩) فِي الْأَصْلِ وَمَ: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَمَ: حَيْثُ.

أَوَّلَهُ ﴿ فَصَدَّقَهَا تَعَالَى فِي مَقَالَتِهَا ، وَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] يَجْعَلُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تَصْدِيقًا مِنْ اللَّهِ لَهَا [لَا قَوْلٌ] ^(١) تِلْكَ الْمَرَاة .

ومثال ذلك كثير في القرآن ، يكون بعضه مفصلاً من بغض [كقوله تعالى] ^(٢) : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ نَارًا يَزِيدُ ﴾ ﴿ لَا تَحْرُكَ يَدُكَ ﴾ لِسَانَكَ ﴿ [القيامة : ١٥ و ١٦] قَوْلُهُ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ نَارًا يَزِيدُ ﴾ مفصول من قوله ﴿ لَا تَحْرُكَ يَدُكَ ﴾ لِسَانَكَ ﴿ لَا وَضَلَ بَيْنَهُمَا . فَعَلَى ذَلِكَ دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاعْفِرْ لِي ﴾ مفصلاً من قوله : ﴿ إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا جائز أن يكون قَوْلُهُ : ﴿ وَاعْفِرْ لِي ﴾ أي أعط له ما به تغفر خطاياهُ ، وهو التوحيد ، فيكون سؤالهُ سؤال التوحيد له والتوفيق على ذلك ؛ [إذ به] ^(٣) يُغْفِرُ مِنَ الْخَطَايَا كقوله : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] وعلى ذلك يُخْرِجُ دُعَاءَ هُودٍ لِقَوْمِهِ حِينَ ^(٤) أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ، وهو قَوْلُهُ ﴿ وَتَقُولُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٥٢] وَأَسْلِمُوا لَهُ . طَلَبَ مِنْهُمْ ابْتِدَاءَ الْإِسْلَامِ ؛ إِذْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : قولوا : نَسْتَغْفِرُ ^(٥) اللَّهُ ، وَلَكِنْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمَا يَغْفِرُ لَهُمْ ، وهو التوحيد . وكذلك قول نوح : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَنْكَ ﴾ [نوح : ١٠] .

وقول أهل التاويل : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَذَّبَ ثَلَاثًا كَلَامٌ لَا مَعْنَى لَهُ ، لَا يُحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُخْتَارُهُ ، وَيَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فِي الَّذِي يُكَذِّبُ بِحَالٍ .

الآية ٨٧

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ يَوْمَ يَمُوتُ ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أي وَلَا تُعَذِّبْنِي ﴿ يَوْمَ يَمُوتُ ﴾ وَكَانَ الْإِخْرَاءُ هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي يَهْتِكُ السِّرَّ عَلَى صَاحِبِهِ . فَسَأَلَهُ أَلَا يَهْتِكُ السِّرَّ عَلَيْهِ لِمَا خَافَ أَنْ كَانَ مِنْهُ مَا يَهْتِكُ السِّرَّ عَلَيْهِ ، فَسَأَلَ رَبَّهُ ذَلِكَ ؛ إِذِ الْعِصْمَةُ لَا تَرْفَعُ عَنْ أَصْحَابِهَا الْخَوْفَ ، بَلْ كُلَّمَا عَظُمَتِ الْعِصْمَةُ كَانَ الْخَوْفُ أَشَدَّ ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، كَانَ خَوْفُهُمْ أَشَدَّ عَلَى دِينِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، ثُمَّ الْأَمَثَلُ فَالْأَمَثَلُ بِهِمْ كَانُوا ^(٦) أَشَدَّ خَوْفًا مِنْهُمْ مِنْهُمْ هُوَ دُونَهُمْ .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ ^(٧) قَالَ : ﴿ وَاجْتَنِبْنِي وَابْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] وَقَوْلِ ^(٨) يُوسُفَ : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ؟ [يوسف : ١٠١] وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ .

الآيات ٨٨ و ٨٩

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ لَا يَنْفَعُ ، وَيَضُرُّ ، لَا يَكُونُ فِي نَفْسِ النَّفْعِ دَفْعُ الضَّرَرِ كقوله : ﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْصَحُكَ شَفْعَةٌ ﴾ [البقرة : ١٢٣] وَكقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا لَقِيلَ مِنْهُمْ ﴿ [المائدة : ٣٦] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَا يَحْزَنْ وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَاهُ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان : ٣٣] وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ يَرَى الَّذِينَ مِنْ أَيْنِهِ ﴾ وَأَيْنِهِ وَأَيْنِهِ ﴾ [عيس : ٣٤ و ٣٥] وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ الْمُنْجَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَسِيرٌ ﴾ وَمَنْجَمِيهِ وَأَيْنِهِ ﴾ [المعارج : ١١ و ١٢] وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] .

وفي ظاهر ما استثنى مِنَ الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ يَنْفَعُ الْمَالُ وَالْبَنُونَ إِذَا أَتَوْا اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ حِينَ ^(٩) قَالَ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ [مَالُهُمْ] ^(١٠) وَأَوْلَادُهُمْ إِذَا أَتَوْا رَبَّهُمْ بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ لِمَا اسْتَغْمَلُوا أَمْوَالَهُمْ فِي الطَّاعَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُرْبِ ، وَعَلَّمُوا الْأَوْلَادَ الْأَدَابَ الصَّالِحَةَ وَالْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ ، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ يَوْمَئِذٍ كقوله : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَيْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ [سبا : ٣٧] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا ، وَتَابُوا ، تُقَرِّبُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ عِنْدَهُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : قَوْلُهُ ، فِي م : قَوْلٌ . (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم : (٣) فِي الْأَصْلِ وَم : وَه . (٤) فِي الْأَصْلِ وَم : حَيْث . (٥) فِي الْأَصْلِ وَم : اسْتَغْفِرُوا . (٦) فِي الْأَصْلِ وَم : كَذَلِكَ . (٧) فِي الْأَصْلِ وَم : حَيْث . (٨) فِي الْأَصْلِ وَم : وَقَالَ . (٩) فِي الْأَصْلِ وَم : حَيْث . (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم .

وجائز أن يكون على غير ذلك، أي لا ينفع مال ولا بنون، وإنما ينفع من أتى الله بقلب سليم. والقلب السليم هو السالم من الشرك، أو السليم من الآفات والذنوب، والخالص لربه، لا يتجمل لغيره فيه حقاً ولا نصيباً. وشرط فيه إتيانه ربه ما ذكر ليغلم أنه ما لم يقبض على السلامة والتوحيد لا ينفعه ما كان منه من قبل من الطاعات إذا لم يقبض على التوحيد.

وكذلك شرط في الحسنات الإتيان، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا، ولم يقل: مَنْ عَمِلَ بِالْحَسَنَةِ. وهو ما ذكرنا أن يخرج من الدنيا على التوحيد، ولا يفيد ما عمل من الحسنات، والله أعلم.

الآيتان ٩٠ و ٩١ وقوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَوُزِّيَتْ الْجَحِيمُ لِلْقَاسِينَ﴾ وذكر في حرف ابن مسعود رضي الله عنه وأبي رضي الله عنه وقربت الجحيم للضالين. وفي هذه القراءات ^(١) الظاهرة برزت أظهرت.

الآيتان ٩٢ و ٩٣ وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِمَ أَتَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في الدنيا / ٣٨٣ - ب/ أي ثم يقال لهم: ﴿إِن مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في الدنيا؟ ﴿هَلْ يَمُرُّبِكُمْ﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ ﴿أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ هُمْ مِنَ الْعَذَابِ؟ لَأَنَّهُمْ يُظَرِّحُونَ جَمِيعاً: العابدون والمغبردون في النار كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وإنما قالوا ذلك لهم [لأنهم] ^(٢) كانوا يقولون في الدنيا ﴿هَؤُلَاءِ شُعْمُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [ويقولون: ^(٣)] ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فيقال لهم مقابل ذلك في الآخرة: ﴿هَلْ يَمُرُّبِكُمْ﴾ الآية؟

الآية ٩٤ وقوله تعالى: ﴿فَتَكْبَرُوا فِيهَا﴾ ﴿وَالْقَاوُونَ﴾ قال الزجاج: هو من كب أي كُبروا لكن ذكر كُبروا على التكرار والإعادة مرة بعد مرة أي يكبرون [ثم يكبرون] ^(٤) لم يزل عنهم ^(٥) ذلك، أو كلام نحو هذا.

وقال الفتيي: ﴿فَتَكْبَرُوا فِيهَا﴾ ألقوا على رؤسهم، وقذفوا. وأصل الحرف كُبروا؛ من ذلك كَبَيْتُ الإماء، فأبدلت مكان الباء الكاف، وهو الطرح والإلقاء على الوجوه. يقال: كَبَيْتُهُمْ أي طَرَحْتُهُمْ في النار أو في البئر. [ومنه] ^(٦) قوله: ﴿فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

[وقوله تعالى] ^(٧): ﴿وَالْقَاوُونَ﴾ قيل: الضالون. يقال: غَوَى يَغْوِي غَيًّا وَغَوَايَةً، فهو غاوٍ، أي ضلّ، وهو قول أبي عوسجة والفتيي. وقال أبو معاذ [التخوي] ^(٨): أضله كُبروا. وقال بعضهم: جُمِعوا فيها.

الآية ٩٥ [وقوله تعالى] ^(٩): ﴿وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمُونَ﴾ قال بعضهم: الغاوون، هم الشياطين، وجنود إبليس ذُرِّيَّتُهُ، أي الشياطين الذين أضلوا بني آدم، وهو قول قتادة. وقال بعضهم: الغاوون: هم كفار الجن، وجنود إبليس: هم الشياطين. وقال بعضهم: الغاوون: هم الأئمة من الكفار، وجنود إبليس سائر الكفار: أتباعهم وذُرِّيَّتُهُمْ ^(١٠)، والله أعلم.

الآية ٩٦ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهَمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ذكر أنهم يختصمون في النار، ولم يذكر فيم تكون خصومتهم؟ [وجائز أن تكون ما ذكرنا] ^(١١) في آية أخرى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٣١] إلى آخر ما ذكر، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَلَيْنَا عَذَابًا صَمَفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقوله: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَنَانِهِمْ عَذَابًا﴾ الآية [الأعراف: ٣٨] وأمثاله [كثير في القرآن] ^(١٢) من المجادلات التي تجري في ما بين الأتباع والمُتَّبِعِينَ.

وقال بعضهم: اختصامهم ما ذكر على إثره: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَافِلِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ و ٩٨] هذه مخصمتهم.

الآيتان ٩٧ و ٩٨ وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَافِلِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ فإن كان قولهم هذا للأصنام

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ٣١٩. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: وم: وإنما. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عملهم. (٦) في الأصل وم: هو من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وذريتهم. (١١) في الأصل: ما ذكر، في م: وجائز أن تكون. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

التي عَبْدُوها فذلِكَ في تَسْمِيَّتِهِمْ آلِهَةً وَجَعَلَهُمُ الْعِبَادَةَ لَهَا يُسَوِّئُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ في التَّسْمِيَةِ وَالْعِبَادَةِ. وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُمْ هَذَا لِلشَّيَاطِينِ فَهُوَ فِي اتِّبَاعِهِمْ أَمْرَهُمْ وَدَعَاءَهُمْ الَّذِي دَعَوْهُمْ، وَإِلَّا لَا أَحَدَ مِنَ الْكُفْرَةِ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ، أَوْ يُسَمِّيهِمْ آلِهَةً. وَلَكِنْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِمْ أَمْرَهُمْ.

وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿إِذْ تُسَوِّكُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إِذْ كُنَّا نُشْرِكُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذْ نَعْدِلُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

الآية ٩٩ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا أَوْلَانَا. وَكَذَلِكَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْأَوَّلُونَ. وَتَأْوِيلُ هَذَا أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْأَوَّلِينَ، تُرِكُوا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرِّ، وَلَمْ يُعَذِّبُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَصَابَتْهُمْ نِقْمَةٌ، ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِذَلِكَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَا فَعَلُوا فَنِجْثَةً قَالُوا وَبَدَنَّا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الآية ١٠٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ لَأَنَّهُمْ قَالُوا ﴿مَتَوَلَّاءَ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَلَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ، أَيْ لَيْسَ لَنَا شُفَعَاءُ يَشْفَعُونَ لَنَا، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ شُفَعَاءُ لَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهُمْ عَلَى مَا قَالَ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعْنَى لَأَقْتَدُوا بِوَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٨] لَيْسَ أَنَّهُ كَانَ يَنْفَعُهُمْ، فَعَلَى ذَلِكَ [هذا] ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الْحَمِيمُ الْقَرِيبُ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ حَمِيمٌ، يَهْتَمُّ بِأَمْرِهِمْ.

الآية ١٠٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُخَكِّنَ مِنَ الْمُؤَيِّنِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أَيْ لَوْ أَنَّ لَنَا رَجْعَةً إِلَى الْمِخْنَةِ ﴿فَنَتُخَكِّنَ مِنَ الْمُؤَيِّنِينَ﴾ فَاخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لَنَا نُبُوًّا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ.

الآية ١٠٣ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ الْآيَةُ وَالْعِبْرَةُ ^(٢) لِيَمُنَّ اعْتَبَرَ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤَيِّنِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤَيِّنِينَ مَا عَذِّبُوا فِي الدُّنْيَا. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ: ﴿فَلَوْ رُدُّوا﴾ إِلَى الْمِخْنَةِ الَّتِي سَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَيْهَا [لَعَادُوا] ^(٣) ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤَيِّنِينَ﴾. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَقَرٌ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٤): ﴿وَلَنْ يَكُنَّ لَكَ الْغَرِيرُ الرَّجِيمُ﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ.

الآية ١٠٥ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذَكَرَ ﴿كَذَّبَتْ﴾ بِالتَّأْنِيثِ عَلَى إِضْمَارِ جَمَاعَةٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: كَذَّبَتْ جَمَاعَةُ قَوْمِ نُوحٍ، وَإِلَّا الْقَوْمُ يُذَكَّرُ، وَيُؤَنَّثُ. [وَأَمَّا ذَكَرَ] الْمُرْسَلِينَ، وَهُمْ كَذَّبُوا نُوحًا ^(٥) لَأَنَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ فَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ جَمِيعًا لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ، يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

وَبَعْدُ فَإِنَّ نُوحًا كَانَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ يَكُونُونَ بَعْدَهُ. لِذَلِكَ قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

الآية ١٠٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَمَنْ لَوْهَرُ نُوحٍ أَلَا تَنْفَرُونَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: كَانَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ، وَلَيْسَ بِأَخِيهِمْ [فِي الدِّينِ] ^(٦). قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: إِنَّ اللَّهَ سَمَّى النَّاسَ بَنِي آدَمَ عَلَى بُعْدِهِمْ مِنْ آدَمَ، فَيَجُوزُ أَيْضًا تَسْمِيَّتُهُمْ إِخْوَةً عَلَى بُعْدِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا تَنْفَرُونَ﴾ نِقْمَةُ اللَّهِ وَعَذَابُهُ فِي مُخَالَفَتِكُمْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، أَوْ يَقُولُ: أَلَا تَتَّقُونَ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ وَطَاعَةَ مَنْ دُونَهُ.

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعِبْرَةٌ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، ساقطة من الأصل وَم. (٤) ساقطة من الأصل وَم.

(٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾. (٦) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، ساقطة من الأصل وَم.

الآية ١٠٧

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ هذا يُخْرَجُ على وجهين.

أحدهما: اني كُنتُ أميناً فيكم قَبْلَ هذا، تَصَدَّقُونَنِي في جميع ما أُخْبِرْتُكُمْ، وأنبأتُكُمْ. فما بالُكُمْ لا تُصَدِّقُونَنِي الآنَ إذا أُخْبِرْتُكُمْ اني رسولُ الله إليكم؟

والثاني: يقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ائْتَمَنِي الله، وجَعَلَنِي أميناً على وَحْيِهِ، فَأُبَلِّغُكُمْ الرسالة، وأُؤَدِّي الأمانة، شِئْتُمْ، أو أَيْبَيْتُمْ، قَبْلَتْمْ، أو لم تَقْبَلُوا، فلا أخافُكُمْ بما تَتَوَعَّدُونَنِي بَعْدَ أَنْ جَعَلَنِي اللهُ أميناً، وائْتَمَنِي على أمانتِهِ [وهو] كقولِهِ: ﴿لَنْ يَكْذِبُوا فَلَإِنَّ لِي لِنُظْرُونٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

الآية ١٠٨

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَتِيمِينَ﴾ أي اتَّقُوا نِقْمَةَ الله وعَذَابَهُ، واتَّقُوا مُخَالَفَةَ الله في أمرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَالْيَتِيمِينَ﴾ في ما أُبَلِّغُكُمْ عَنِ الله، وأدعوكُم إليه.

الآية ١٠٩

[وقوله تعالى] (٢): ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أسألكُم على ما أَدْعُوكُم إليه، وأُبَلِّغُكُمْ، أجراً أو شيئاً، فَيَمْنَعُكُمْ (٣) يَقُلْ ذَلِكَ عَنِ الإِجَابَةِ، ولا أَحْمَلُكُمْ في أموالِكُم وأنفُسِكُم مُؤَنَّةً في ما أَدْعُوكُم إليه، بل أَدْعُوكُم إلى عِبَادَةِ الواحدِ، وعبادة الواحدِ أَهْوَنُ وأَخَفُ على أنفُسِكُم من عِبَادَةِ الْعَدَدِ، ولا أَحْمَلُكُمْ في أموالِكُم وأنفُسِكُم مُؤَنَّةً في ما دَعُوكُم (٤) إليه من عِبَادَةِ الْعَدَدِ، ولا أَحْمَلُكُمْ أيضاً مُؤَنَّةً تَمْنَعُكُمْ تَحْمِلُ ذَلِكَ عَنْ إِجَابَتِي ﴿إِنْ أَجَرْتِي﴾ أي ما أَجَرِي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾.

الآية ١١٠

[وقوله تعالى] (٥): ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَتِيمِينَ﴾ فاتَّقُوا الله ما ذَكَّرْنَا، أي اتَّقُوا نِقْمَةَ الله وعَذَابَهُ، واتَّقُوا مُخَالَفَةَ الله في أمرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَالْيَتِيمِينَ﴾ في ما أَدْعُوكُم إليه.

الآية ١١١

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ / ٣٨٤ - / يقولون: نُصَدِّقُكَ، وإنما اتَّبَعَكَ الضَّعَفَاءُ مَنَّا وَالسَّفَلَةُ مِمَّنْ (٦)، لا رَأْيَ لَهُمْ، ولا تَذْيِيرَ. ولو كُنْتُ صَادِقاً لَاتَّبَعَكَ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤَسَاءُ.

فَكَانَ فِي اتِّبَاعِ الْأَرْذَالِ لَهُ وَمَنْ ذَكَرَ أَغْظَمَ آيَةً مِنْ [آيَاتِ] (٧) الرِّسَالَةِ مِنْ اتِّبَاعِ الْأَشْرَافِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَرْذَالَ مِنَ النَّاسِ هُمْ أَتْبَاعُ لَغَيْرِهِمْ لِمَا يَأْمُلُونَ مِنْ فَضْلِ مَالٍ وَنَيْلِ مِنْهُمْ أَوْ رِئَاسَةٍ وَمَنْزِلَةٍ تَكُونُ لَهُمْ.

وَالْفَضْلُ (٨) بَصَرٌ وَحَظٌ وَعِلْمٌ فِي الدِّينِ، فَيَصِيرُونَ أَتْبَاعاً لِمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ شَيْءٌ.

فَالرُّسُلُ، صَلَوَاتُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، حِينَ (٩) لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ أَمْوَالٌ، وَلا طَمَعُ رِئَاسَةٍ، وَلا مَنْزِلَةٌ، اتَّبَعَهُمُ الضَّعَفَاءُ وَالسَّفَلَةُ مَعَ خَوْفِهِمْ (١٠) عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أُولَئِكَ الْأَشْرَافِ مِنَ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ لِمُخَالَفَتِهِمْ (١١) إِيَّاهُمْ. فَمَا اتَّبَعُوهُمْ إِلَّا لِمَا تَبَيَّنَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ صِدْقٌ.

فَفِي اتِّبَاعِ مَا ذَكَّرْنَا أَغْظَمَ دَلَالَةً عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ فِي مَا دَعَا مِنَ الرِّسَالَةِ لَوْ تَأَمَّلُوا، وَتَفَكَّرُوا (١٢) فِي ذَلِكَ.

الآية ١١٢

[وقوله تعالى] (١٣): ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: يقول: لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَهْدِيهِمْ لِلإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ مِنْ بَيْنِكُمْ، يَعْنِي الضَّعَفَاءُ، وَيَدْعُوكُمْ؛ لَا يَهْدِيكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ما جَزَاءُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُونِي مِنَ الْأَرْذَالِ ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

والثاني: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما أَنَا بِعَالِمٍ بِمَا يَعْمَلُونَ [هُمْ فِي السَّرِّ] (١٤) وَمَا ذَلِكَ عَلَيَّ.

الآية ١١٣

[وقوله تعالى] (١٥): ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي حِسَابُهُمْ عَلَيْهِمْ فِي مَا يَعْمَلُونَ فِي السَّرِّ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أدعوكم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو الفضل. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: خوف لهم. (١١) في الأصل وم: لمخافتهم. (١٢) في الأصل وم: والتفكر. (١٣) في الأصل وم: وقول نوح. (١٤) من م، في الأصل: في السر. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

فهذا يدل على أن التأويل الأخير أشبه وأقرب من الأول. وكان من أولئك طغى في الذين آمنوا بأنهم يعملون في السر على خلاف ما أظهروا حتى قال لهم ذلك.

وفي بعض القراءات: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ بالياء^(١) فهو راجع إلى المؤمنين الذين اتبعوه؛ يقول: حسابهم على الله في ما يعملون في السر، أي لو يشعرون ذلك، ولا يعملون في السر خلاف ما يعملون في العلانية، والله أعلم.

الآية ١١٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أهل التأويل: إنهم سألوا نوحاً أن يطرد أولئك الذين آمنوا به من الضعفاء حتى يؤمنوا هم بهم^(٢). فقال عند ذلك: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وجائز أن يكونوا طعنوا في الذين آمنوا [بأنهم آمنوا]^(٣) ظاهراً. وأما في السر فليسوا على ذلك، فقال نوح عند ذلك: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على ذلك قول نوح حين^(٤) قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَوَّجْتَ أَعْيُنَكَ لَن يُؤْمِنَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١]. هذا القول منه يدل على أن كان منهم طغى في أولئك الذين آمنوا به حين^(٥) وكل أمرهم إلى الله، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] والله أعلم.

الآية ١١٥ وقوله تعالى: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ شَيْنٌ﴾ قد ذكرنا في ما تقدم في غير موضع.

الآية ١١٦ وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْن لَّرَنَّتْ يَتَنُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ المرجوم المقتول بالحجارة، وهو أشد قتل، لذلك أوعده. وقال بعضهم: لتكونن من المرجومين^(٦) باللسان. لكن الأول أقرب لأنه قد كان منهم الشتم فلا يَحْتَمَلُ الرعيد به.

الآيتان ١١٧ و ١١٨ ثم دعا نوح عند ذلك، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَبُونُ﴾ أي اقض بيني وبينهم قضاء، أي اقض عليهم بالعذاب والهلاك.

ألا ترى أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ فدل سؤاله نجاة نفسه ومن معه من المؤمنين على أن قوله: ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَتْحًا﴾ سأل ربه هلاك من كذبه، وهو ما قال في آية^(٧) أخرى ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] الذي وعدت أنه ينزل بهم، وهو العذاب. فعلى ذلك هذا.

ثم لا يحتمل أن يكون هذا منه في أول تكذيب كان منهم، بل كان ذلك بعد ما أيس من إيمانهم لأنه ليت فيهم ما قال الله تعالى: ﴿أَلَفَ سَنَةً إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وفي كل ذلك دعاهم إلى توحيد الله. وإنما دعا عليهم بالهلاك بعد ما أخبر الله عن أمرهم وإيمانهم من إيمانهم، فقال: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وأذن له بالدعاء عليهم بما دعا، إذ الأنبياء، صلوات الله عليهم، لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن من الله في ذلك.

ألا ترى أنه ذكر أنه عاتب يونس بالخروج من بينهم بلا إذن، كان من الله له بالخروج من بينهم^(٨)؟ فإذا عاتب هو بالخروج بلا إذن فلا يحتمل أن يدعوا بالهلاك بلا إذن، والله أعلم.

الآيتان ١١٩ و ١٢٠ وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَن مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْهُورِ﴾ ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ الفلك المشحون: قيل: المملوء.

قال أبو معاذ: شحنت السفينة، فلم يبق إلا الدفوع، وهو السوق، وتقول العرب: شحنا عليهم بلادهم خيلاً ورجالاً، أي ملأناها. وقال بعضهم: المشحون المجهز الذي قد فرغ منه، فلم يبق إلا دفعه، وهو واحد.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٢٠. (٢) في الأصل وم: به. (٣) في الأصل وم: انهم قالوا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: المشتمين (٧) في الأصل وم: قصة. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنقَضَ إِلَ الْفُلِّ الْمَشْهُورِ﴾ [الصافات: ١٤٠].

وإنما سُجِّنَتِ السَّفِينَةُ بِأَصْنَافٍ مِنَ الْخَلْقِ. وَكَانَ^(١) الْمُؤْمِنُونَ قَلِيلِي الْعَدَدِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْجَى مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَأَهْلَكَ الْبَاقِينَ.

الآية ١٢١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي في نبأ نوح الآية لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمْ. أَوْ إِنَّ فِي هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ وَإِغْرَاقِهِمْ لَعِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخر قصة قد ذُكِرْنَا.

الآية ١٢٢ [وقوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد ذُكِرْنَا تَأْوِيلًا]^(٢).

الآية ١٢٣ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو، والله أعلم، مَا ذُكِرْنَا، أَي كَذَّبَتْ جَمَاعَةُ عَادِ الْمُرْسَلِينَ. وقوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ مَا ذُكِرْنَا أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ، كَانَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَبِجَمِيعِ الرُّسُلِ. فَمَنْ كَذَّبَ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبَ الْكُلَّ.

الآية ١٢٤ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ هُوَ كَانَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ لَأَنَّهُمْ جَمِيعًا وَلَدَ آدَمَ عَلَى بُعْدٍ مِنْ آدَمَ. فَعَلَى ذَلِكَ هُمْ إِخْوَةٌ فِي مَا بَيْنَهُمْ عَلَى بُعْدٍ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ:

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَلَا تَتَّقُونَ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ.

[وَالثَّانِي]^(٣): أَلَا تَتَّقُونَ مُخَالَفَةَ أَمْرِ اللَّهِ وَمَنَاهِهِ.

الآية ١٢٥ [وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُرُؤُوسٌ أَمِينٌ﴾ فِي مَا أَسْتَمْنِي اللَّهَ، وَبَعَثَ عَلَيَّ هِدَايَتَهُ وَأَمَانَتَهُ. أَوْ يَكُونُ مَا ذُكِرْنَا مِنْ قَبْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ١٢٦ و ١٢٧ وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ مَا ذُكِرْنَا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي أَسْعَى فِي نَجَاتِكُمْ وَتَخْلِيصِكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا.

وَفِي الشَّاهِدِ: لَا يَفْعَلُ أَحَدٌ إِلَّا وَيَطْمَعُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُ أَجْرًا، وَأَنَا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا فَيَمْنَعُكُمْ ذَلِكَ عَنْ قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ أَي مَا أَجْرِي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾.

الآيتان ١٢٨ و ١٢٩ وقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةً ثَبْتُونَ﴾ وَتَتَحَدَّثُونَ مَصَالِحَ هَذَا يَخْتَمِلُ وَجْهًا:

أَحَدُهَا: كَانَهُمْ كَانُوا يَتَّبِعُونَ بُنْيَانًا، لَا حَاجَةَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْبُنْيَانِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ بِهِ، فَهُوَ عَبَثٌ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ بَنَى بِنَاءً أَوْ عَمِلَ عَمَلًا، لَا يَتَّبِعُ بِهِ، وَلَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَابَثٌ. لِذَلِكَ سَمَّى مَا بَنَوْا عَبَثًا.

وَالثَّانِي: جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَكَانُ لَهُمْ، كَانَ مَكَانَ الْعَبَثِ وَالْاجْتِمَاعِ لِلَّهِ، فَبَنَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ، فَسَمَّاهُ عَبَثًا لِمَا لَمْ يَكُنْ اجْتِمَاعُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا لِلْعَبَثِ وَاللَّهِوِ.

وَالثَّلَاثُ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَكَانُ مَكَانًا، يَمُرُّ فِيهِ النَّاسُ، فَبَنَوْا أَعْلَامًا، يُضِلُّونَ النَّاسَ بِهَا لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ طَرِيقٌ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فَكَانَ قَصْدُهُمْ بِذَلِكَ الْبِنَاءِ بَاطِلًا. وَكُلُّ بَاطِلٍ عَبَثٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وَلَا تَمُوتُونَ، أَي تُتَّفِقُونَ نَفَقَةً مَنْ يَطْمَعُ أَنْ يَخْلُدَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، لَيْسَتْ بِنَفَقَةٍ مَنْ يَمُوتُ، وَيَرْجُو ثَوَابَهُ [لَا عِقَابَهُ]^(٥)، أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ لِمَا وَسَّعَ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَرَزَقَهُمْ^(٦) / ٣٨٤ - ب / الدَّعَا، يَخْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُدُونَ، لِأَنَّ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، وَنَالَ^(٧) الدَّعَا وَالسَّعَةَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، يَطْمَعُ فِيهَا، وَيَسْكُنُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣] فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَّا كَانَ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَعَاقِبَتُهُ. (٦) فِي الْأَصْلِ: أَوْ رَزَقَ لَهُمْ، فِي م: وَرَزَقَ. (٧) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَكُونُ.

الآية ١٣٠ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ عَنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِالْجَبَّارِ الظَّالِمِ وَالْمُتَعَدِّي، أَي إِذَا بَطَشْتُمْ ظَالِمِينَ.

وَالرَّيْغُ، هُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الطَّرِيقُ: ﴿وَمَصْنَعٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْبِنْيَانُ، وَقِيلَ: الْجِيَاظُ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الرَّيْغُ: مَا اِرْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَجَمْعُ الرَّيْغَةِ رَيْغٌ، وَجَمْعُ الرَّيْغِ أَرْيَاعٌ، وَهِيَ وَاحِدٌ، وَالرَّيْغُ الرَّيْغُ أَيْضاً. تَقُولُ: أَرَاغَ [الْمَالُ] ^(١) إِذَا رِيحَتْ عَلَيْهِ، وَجَمْعُهُ أَرْيَاعٌ. وَمَصْنَعٌ: فِي مَوْضِعِ قُصُورٍ، وَمَوْضِعِ جِيَاظٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْمَاءُ، الْوَاحِدُ: مَصْنَعَةٌ مِنْ كِلَيْهِمَا. وَقَالَ: الْبَطَشُ: الْأَخْذُ؛ يُقَالُ: بَطَشْتُ بَفْلَانٍ، أَبْطَشْتُ بَطْشاً، إِذَا أَخَذْتُهُ، وَقَبِضْتُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ أَيْضاً: الرَّيْغُ: الارتفاعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمَصْنَعُ الْبِنَاءُ، وَاحِدُهَا مَصْنَعَةٌ، فَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَسْتَوِقِفُونَ فِي الْبِنَاءِ وَالْحَصُونِ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى أَنِهَا ^(٢) تُحَصِّنُهُمْ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ. وَهَذَا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ مَا ذَكَرَ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَي تَبْنُونَ بِنَاءً، كَأَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَلَا تَمُوتُونَ، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أَي إِذَا ضَرَبْتُمْ بِالسَّيَاطِ ضَرَبْتُمْ ضَرْبَ الْجَبَّارِينَ، وَإِذَا عَاقَبْتُمْ قَتَلْتُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَطَشْتُمْ أَخَذْتُمْ بِالظُّلْمِ وَالْإِغْتِدَاءِ وَالِاسْتِحْلَالِ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ. وَقَالَ أَبُو مُعَاذٍ: وَكُلُّ بِنَاءٍ مَصْنَعَةٌ. وَفِي حَرْفِ حَفْصَةٍ. وَتَبْنُونَ مَصْنَعٌ كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ. وَالْآيَةُ الْعَلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّيْغُ مَا اسْتَقْبَلَ الطَّرِيقَ مِنَ الْجِبَالِ وَالطَّرَابِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلُّ نَشْزٍ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَافَرُوا فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَّا بِالنُّجُومِ فَبَنَوْا الْقُصُورَ الطُّوَالَ عَتَبًا عِلْمًا بِكُلِّ طَرِيقٍ يَهْتَدُونَ بِهَا فِي طُرُقِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَصْنَعٌ﴾ أَي مَجَالِسَ وَمَسَاكِينَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ مَا بَقِيَتْ مَصَانِعُكُمْ، وَالْجَبَّارُ، هُوَ الَّذِي يَضْرِبُ، أَوْ يَنْتُلُ بِلا حَقٍّ بِلا خَوْفٍ تَبِعَهُ فِي الْعَاقِبَةِ.

الآية ١٣١ وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ قَدْ ذَكَّرْنَا.

الآية ١٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْذَرَكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَمَذَكُمْ؛ قِيلَ أَعْطَاكُمْ، وَهُوَ مِنَ الْمَدِّ، أَي أَعْطَاكُمْ النِّعَمَ تَبَاعًا وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ، لَا تَنْقَطِعُ، ثُمَّ هُوَ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اتَّقُوا كُفْرَانَ الَّذِي أَعْطَاكُمْ النِّعَمَ، فَلَا تُوجِّهُوا شُكْرَهَا إِلَى مَنْ لَمْ يُنْعَمْ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِدَّهَا لَكُمْ، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٣) عِبَادَتَكُمْ الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا تَقْدِرُ ^(٤) عَلَى إِعْطَاءِ شَيْءٍ مِنَ النِّعَمِ.

وَالثَّانِي: اتَّقُوا نِقْمَةَ [اللَّهِ الَّذِي] ^(٥) أَعْطَاكُمْ هَذِهِ النِّعَمَ، فَإِنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى إِنْعَامِهَا قَادِرٌ ^(٦) عَلَى صَرْفِهَا عَنْكُمْ. عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ١٣٣ - ١٣٥ ثُمَّ ذَكَرَ الَّذِي أَمَدَّهُ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، فَقَالَ: ﴿أَمَذَكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ﴾ وَحَسَنَتْ وَعَبُودٌ هَذَا وَغَيْرُهُ

مِمَّا لَا يُخَصُّ ﴿إِنَّ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّ أَخَافَ﴾ أَي أَعْلَمُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْخَوْفُ هَهُنَا هُوَ الْخَوْفُ نَفْسُهُ لِأَنَّهُ كَانَ يَرْجُو الْإِيمَانَ مِنْهُمْ بَعْدُ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ إِذَا مِتُّمْ عَلَى هَذَا.

الآية ١٣٦ فقالوا عند ذلك جواباً له: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الْوَعْظُ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنْ عَوَائِبِ الْأُمُورِ: مِنْ تَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ؛ أَي سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَتَخَوَّفْنَا الْعَذَابَ، أَمْ لَمْ تَخَوَّفْنَا، [لَا] ^(٧) نَصَدِّقُكَ، وَلَا نُجِيبُكَ إِلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ.

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. أنهم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم. وهو. (٤) في الأصل وم. يقدر. (٥) في الأصل: التي، في م: الله. (٦) في الأصل وم: قدر. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٣٧

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قيل: فيه وجوه.

أحدها: أي ما هذا الذي نَحْنُ عليه إِلَّا دينُ الأولين، وما أوتيت أنت، وتَدْعُونَا إليه، هو حادثٌ بديع، والخَلْقُ يجوزُ أن يُكْنَى به عن الدينِ كقولِهِ: ﴿لَا يَدْبِرُ لِحَقِّ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي لدينِ الله.

[والثاني: ما] ^(١) قال بعضهم: الرَّغْطُ هو النُّهْيُ كقولِهِ: ﴿يَعْطُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِعِثَابِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أي يَنْهَأَكُم.

الآية ١٣٨

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ عليه على ما تَرَعُمُ، وتُخِيرُ، كما لم يُعَذِّبِ الآباء.

الآية ١٣٩

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ قيل: أَهْلَكُوا بالريحِ كقولِهِ: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَاقْتُلُوا بِرِيحٍ مَرْسَرٍ عَلَيْهِ﴾

الآية [الحاقة: ٦].

الآية ١٤٠

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَا رَيْكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَّرْنَاهُ.

وقال أبو عوسجة والقشيري: خَلَقَ الْأَوَّلِينَ: أي اخْتَلَفَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ؛ يقال: خَلَقْتُ الْحَدِيثَ، وَاخْتَلَفْتُهُ إِذَا افْتَعَلْتُهُ. قال الفراء: والعَرَبُ تَقُولُ: لِلْخُرَافَاتِ أَحَادِيثُ الْخَلْقِ، قال: ومن قرأ ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء ^(٢) أرادَ عَادَتَهُمْ وَشَأَنَهُمْ.

الآيات ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ... ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قد ذَكَّرْنَا تَأْوِيلَهُ فِي مَا تَقَدَّمَ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي كُنْتُ أَمِينًا قَبْلَ ذَلِكَ، فَكَيْفَ تَتَّهِمُونَنِي الْيَوْمَ؟ وَيُقَالُ: ﴿أَمِينٌ﴾ عَلَى الرِّسَالَةِ، نَاصِحٌ لَكُمْ. وقد ذَكَّرْنَا تَأْوِيلَهُ إِلَى ^(٣) قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ١٤٦

وقوله تعالى: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ بِأُمَمٍ خَلَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿أَتَذْكُرُونَ﴾ هكذا ^(٤). وإن خُرِجَ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ فَكَانَهُ قَالَ عَلَى الْإِخْبَارِ: وَلَا تُتْرَكُونَ فِي مَا ذَكَرَ آمِينَ.

والثاني: ﴿أَتَذْكُرُونَ﴾ أي أَتُظَنُّونَ أَنْ تُتْرَكُوا.

الآيتان ١٤٧ و ١٤٨

[وقوله تعالى] ^(٥): ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُتُوبَةٍ﴾ ﴿وَنَزَّوِعٍ وَخَلْدٍ طَلَمًا هَضِيمٌ﴾ قال بعضهم: الْهَضِيمُ الْمُتَهَضِّمُ. وقال بعضهم: الذي أَرْطَبَ بَعْضُهُ، وهو الذي يُسَمَّى الْمُذْتَبُّ.

وعن ابن عباس [أنه] ^(٦) قال: هو الذي قد أَرْطَبَ، وَاسْتَرْخَى، وهو اللَّيْنُ [وعن الحسن قوله] ^(٧): الذي ليس له نَوَى. وقال بعضهم: هو مِنَ الرُّطْبِ الْهَضِيمِ الطَّلَعِ قَبْلَ أَنْ يَنْشَقَّ عَنْه الْقَشْرُ، وَيَنْفَجَّ.

وقال أبو عوسجة: الْهَضِيمُ الذي لا شَوْكَ فِيهِ، وَلَا مَشَقَّةَ. وقال بعضهم: الْهَضِيمُ: هو الذي يَتَرَاكُمُ بَعْضُهُ [فوق بَعْضٍ] ^(٨) ولو قيل: إِنَّ الْهَضِيمَ، هو الْهَنْيُ الْمَرِيءُ الذي، لا دَاءَ فِيهِ، وَلَا مَشَقَّةَ، يُهَضِّمُ كُلَّهُ ^(٩)، ما فِيهِ دَاءٌ وَمَرَضٌ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْهَاضِمُ هَاضِمًا ^(١٠)، وهو الذي يَهْضُمُ الطَّعَامَ، وَيَهْضُمُهُ لِحَازًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٤٩

وقوله تعالى: ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا قَرِيرِينَ﴾ بِالْأَلِفِ، وَقَرِيرِينَ بِغَيْرِ الْفِ ^(١١): فَارِهِينَ: أي حَاقِظِينَ مُجِيدِينَ أي لَهُمْ حَذَاقَةٌ وَبَصَرٌ فِي نَحْتِ الْبُيُوتِ فِي الْجِبَالِ، يُقَالُ: فَلَانَ فَارَةً فِي أَمْرٍ كَذَا أي حَاقِظًا. وَقَرِيرِينَ: أَشِيرِينَ بِطَرِينٍ أي قَرَجِينَ.

قال القشيري: وَالْفَرَحُ قد يَكُونُ السُّرُورَ، وَيَكُونُ الْأَشَرَ. وَمَنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] أي الْأَشِيرِينَ. قال: وَمَنْ قَرَأَهَا: ﴿قَرِيرِينَ﴾ بِالْأَلِفِ فَهِيَ لُغَةٌ أُخْرَى، يُقَالُ: قَرَرَهُ وَفَارَهُ كَمَا يُقَالُ: قَرِحَ وَفَارَحَ، وَيُقَالُ:

فَارِهِينَ حَاقِظِينَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: و. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٢٢. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَّا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذَا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) فِي الْأَصْلِ: عَنْ الْحَسَنِ، فِي م: وَعَنِ الْحَسَنِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضًا. وَيَكُونُ فَوْقَ بَعْضٍ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: كُل. (١٠) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: هَاضُوم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٢٤.

وقال أبو عوسجة: ﴿فَرِهِينَ﴾ وفَرِهِينَ أي مَسْرُورِينَ، وَيُقَالُ: قَرِهَ يَفْرِهُ قَرَاهًا، فهو قَرِهٌ وفَرِهَةٌ.

الآيات ١٥٠ - ١٥٢

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِيفِينَ﴾ / ٣٨٥ - ١ / ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يقول، والله أعلم: اتَّقُوا نِقْمَةَ اللَّهِ فِي مُخَالَفَتِكُمْ أَمْرَهُ، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِيفِينَ﴾ أي لا تُطِيعُوا أَمْرَ مَنْ ظَهَرَ مِنْهُ الْإِسْرَافُ وَالْفَسَادُ، وَلَكِنْ أَطِيعُوا أَمْرِي؛ إِذْ لَمْ يَظْهَرْ لَكُمْ مِنْهُ إِسْرَافٌ وَلَا فُسَادٌ، وَلَا تُطِيعُوا الَّذِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يُصْلِحُونَ.

[وَيَحْتَمِلُ^(١)] أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِيفِينَ﴾، مُؤَخَّرًا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] يَقُولُ لَهُمْ صَالِحٌ: أَتَتْرُكُونَ طَاعَتِي وَالْإِجَابَةَ لِي لِأَنِّي بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَلَا تُطِيعُوا إِذَنْ بَشَرًا، هُمْ^(٢) دُونِي، وَهُمْ الَّذِينَ ظَهَرَ لَكُمْ مِنْهُمْ الْفُسَادُ وَالْإِسْرَافُ. وَلَمْ يَظْهَرْ لَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ. يُخْبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وَقِلَّةِ تَمَيُّزِهِمْ حِينَ^(٣) تَرَكُوا اتِّبَاعَ الرُّسُلِ وَطَاعَتَهُمْ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ دُونَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

ثم أجابوا صالِحًا [في قوله]^(٤): ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الشَّرِيفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَتِ بَشَائِرَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ:

قَالَ بَعْضُهُمْ: يَقُولُونَ: إِنَّمَا أَنْتَ سَرَقَةٌ مِثْلُنَا، لَسْتَ بِأَفْضَلِنَا، وَإِنَّمَا نَتَّبِعُ نَحْنُ الْمُلُوكَ [وذوي الثروة]^(٥) مِنَ الْمَالِ، وَأَنْتَ لَسْتَ بِمَلِكٍ وَلَا لَكَ ثَرَوَةٌ. فَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، طَعَنُوا صَالِحًا كَمَا طَعَنَ كُفَّارُ مَكَّةَ رَسُولَ اللَّهِ حِينَ^(٦) قَالُوا: ﴿مَا لِي هَذَا أَرْسُولٍ يَأْكُلُ الْأَطْعَامَ وَيَتَّبِعُ فِي الْأَتْرَافِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: يَقُولُونَ: أَنْتَ بَشَرٌ مِثْلُنَا فِي الْمَنْزِلَةِ، لَا تَفْضَلُنَا بِشَيْءٍ، لَسْتَ بِمَلِكٍ وَلَا رَسُولٍ ﴿فَأَتِ بَشَائِرَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بِأَنَّكَ رَسُولٌ فَتَتَّبِعَكَ كَمَا أَطَعْنَا أَوْلَنَّاكَ.

وقَالَ الْفَتِيُّ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أَيِ مِنَ الْمُعْتَلِّينَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ.

وقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُسَحَّرُونَ﴾ وَمَعْنَى لَهُ سَحَرٌ، وَالشَّحْرُ الرَّثَةُ، وَأَسْحَارٌ جَمْعٌ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الْمَسْحُورِينَ، لَكِنَّهُ عِنْدَ الْكَثَرَةِ يُشَدَّدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٥٥

ثم قَالَ صَالِحٌ: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَثْوِيٍّ ذَكَرَ أَهْلُ التَّوِيلِ أَنَّ الْمَاءَ مُنْقَسِمٌ بَيْنَهُمْ؛ كَانَ يَوْمٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ لِلنَّاقَةِ؛ اسْتَدْلَوْا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَثْوِيٍّ﴾ فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ لَهَا مَعْلُومٌ [كَانَ يَوْمٌ لَهُمْ مَعْلُومٌ]^(٧) لَكِنْ لَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْأَمْرَ مَا وَصَفُوا، وَلَكِنْ فِي الْآيَةِ ﴿أَنَّ الْمَاءَ فَنَسَتْ بَيْنَهُمْ كُلَّ شِرْبٍ مَحْضَرٍّ﴾ [القمر: ٢٨] وَظَاهِرُهُ أَنَّ الْمَاءَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْمَةِ لَا الشَّرْبِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَثْوِيٍّ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ بَيْنَهُمْ: بَعْضُهُ لِلنَّاقَةِ، وَبَعْضُهُ لَهُمْ. ثُمَّ لَهُمْ يَوْمٌ مَعْلُومٌ، لَيْسَ لِلنَّاقَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَيْءٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ هَٰذِهِ الْأَنْبَاءَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي كُتُبِهِمْ حُجَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ، فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي الْكِتَابِ مَخَافَةَ أَنْ تَذْهَبَ حُجَّتُهُ عَلَيْهِمْ؛ أَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ لِئَلَّا يُكَذِّبُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي مَا يُخْبِرُ مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي فِي كُتُبِهِمْ.

الآيتان ١٥٦ و ١٥٧

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْخَمُوا بِسُوءِ قِيَادِكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَمَقْرُوهَا فَمَا صَبَحُوا نَذِيرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿فَمَا صَبَحُوا نَذِيرِينَ﴾ إِذَا هَلَكُوا. وَإِلَّا لَوْ نَذِمُوا عَلَى صَنِيعِهِمْ، وَتَابُوا قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا لَقِيلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كُلُّ آيَةٍ أَتَاهُمْ [الرَّسُولُ بِهَا]^(٨) عَلَى إِثْرِ السَّوَالِ، فَكَذَّبُوهَا، أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، فَأَهْلِكُوا.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وذو ثروة. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الرسل.

الآية ١٥٩

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَنْ رَّبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد ذكرنا.

الآيات ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ قد ذكرنا بالتأنيث على إضمار: جماعة؛ كأنه قال: كَذَّبَتْ [جماعة] ^(١) قوم لوط المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَالِيِينَ﴾ قد ذكرنا في ما تقدم. وقوله تعالى: ﴿اتَّاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالِيِينَ﴾ كقولهِ ^(٢) في آية أخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَّاتُونَ الْفَجْحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالِيِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

الآية ١٦٦

وقوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي تَذَرُونَ ما جعلَ الله ذلك طلباً لإبقاء هذا النسل، لأنه لم يجعل النساء لهم لِقْضاء الشهوة خاصة، ولكن إنما جعلَ لهم الأزواج لإبقاء هذا النسل ودوايمه، فيعيرهم لوط بتركهم إتيان النساء لما في ذلك انقطاع ما جعلَ له، وهو إبقاء النسل واشغاليهم بالرجال. وليس في ذلك إبقاء النسل. هذا، والله أعلم، معنى قوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وإنما خلقَ لِقْضاء النسل لا لِقْضاء الشهوة خاصة. لكن جعلَ فيهم، ومكَّن قِضاء الشهوة ليرغبهم في ذلك ليبقى هذا النسل إلى يوم القيامة. وإلا لو لم يجعل ذلك فيهم لعلهم لا يتكفون ذلك، ولا يتحملون هذه المؤن التي يتكفون حملها لذلك.

وفي الآية دلالة أن المرأة، هي المملوكة عليها دون الزوج، والزوج، هو المالك عليها ذلك حين ^(٣) قال ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وقال [في] ^(٤) آية أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [الروم: ٢١] أخبر أنه خلقَ النساء لنا، لا أنه خلقنا لهن. وفي ذلك حجة لأصحابنا في قولهم: إن المسلم إذا تزوج نصرانية بشهادة نصرانيين جاز النكاح لأنه هو الممتلك عليها بالنكاح، وهي المملوكة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَعَادُونَ﴾ أي بل أنتم قوم متجاوزون حدَّ الذي حدَّ لكم، أو عادون حقَّ الذي له عليكم.

الآية ١٦٧

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَرْتَنِهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ذكر الإنهاء، ولم يبين ممَّاذا؟ فجائز أن يكونوا ﴿قَالُوا لَيْنَ لَرْتَنِهِ يَلُوطُ﴾ من تغييرك الذي تغيرنا به ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ بقولك ^(٥): ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَّاتُونَ الْفَجْحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالِيِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] وقولك ^(٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦]. ويختل: ﴿لَيْنَ لَرْتَنِهِ يَلُوطُ﴾ من دعائك الذي تدعوننا إليه ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ كذا.

وقوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ يختل نفس الإخراج، أي نُخرجك من القرية ومن بيتنا.

وجائز أن يكونوا ^(٧) أرادوا بالإخراج إخراجاً بالقتل كقول ^(٨) قوم نوح حين ^(٩) ﴿قَالُوا لَيْنَ لَرْتَنِهِ يَشُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُتْرُوتِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وهو أشبه.

الآية ١٦٨

ثم قال لوط: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي من المبغضين، أي كيف تُوعِدوني بالإخراج، وإني لِعَمَلِكُمْ الذي تعملون من المبغضين؛ أكرهه المقام فيكم، وأبغضُ رؤية أعمالكم التي تعملون، فكيف تُوعِدوني بالإخراج؟

الآية ١٦٩

وقوله تعالى: قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يختل وجوهاً:

أخذها: ربِّ نَجِّنِي وأهلي من عذاب ما يعملون وجزائهم.

[والثاني] ^(١٠): ربِّ نَجِّنِي وأهلي من عمل ما يعملون من الخبايا كقول إبراهيم: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

[والثالث] ^(١١): ربِّ نَجِّنِي وأهلي من رؤية ما يعملون [ومعانيته]

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: وقوله تعالى. (٧) في الأصل وم: يكون. (٨) في الأصل وم: كقولهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أو أن يكون. (١١) في الأصل وم: أو أن يقول.

الآيات ١٧٠ - ١٧٢

وقوله تعالى^(١): ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَتَمِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِيَيْنِ﴾ ﴿ثُمَّ دَرَّزْنَا الْآخِرِينَ﴾ قد ذكرنا في ما تقدم.

الآية ١٧٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَمْطَرَ عَلَيْهِمُ الْحَجَارَةَ بَعْدَمَا قَلَّبَهُمْ ظَهْرًا لِيُظَنَّ وَيُظَنَّ لِيُظْهِرَ كَقَوْلِهِ: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ [هود: ٨٢].

وجائزُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا بِمَا أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَجَارَةِ. وجائزُ أَنْ يَكُونَ [جَعَلَ^(٢)] الْقَرِيَابِ وَمَنْ فِيهَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَى مَنْ كَانَ غَائِبًا مِنْهُمْ الْحَجَارَةَ.

قَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ وَالْقُتَيْبِيُّ: ﴿مِنْ الْقَالَيْنِ﴾ أَيِ مِنَ الْمُبْعَضِينَ؛ يُقَالُ: قَلَبْتُ الرَّجُلَ إِذَا ابْتَعْضْتُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] والغابر: الباقي.

الآيتان ١٧٤ و ١٧٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعْيِزُّ الرَّجِيذِ﴾ قد ذكرنا^(٣).

الآية ١٧٦

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَالْأَيْكَةُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ شَجَرَةٌ، نُسِبُوا إِلَيْهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَيْكَةُ الْغَيْضَةُ.

الآية ١٧٧

[وقوله تعالى^(٤): ﴿إِذْ قَالَ لَمَمٌ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ ههنا فِي شُعَيْبٍ أَخَاهُمْ^(٥) لِأَنَّ شُعَيْبًا، لَمْ يَكُنْ مِنْ نَسْلِهِمْ؛ أَعْنِي مِنْ نَسْلِ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ. لِذَلِكَ^(٦) لَمْ يَقُلْ: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ حِينَ^(٧) قَالَ: ﴿وَلِإِنَّ مَذْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ نَسْلِ أَهْلِ مَذْيَنَ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ شُعَيْبًا، كَانَ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ مَذْيَنَ، وَهُوَ كَانَ مِنْهُمْ/ ٣٨٥ - ب/ وَإِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ. لِذَلِكَ^(٨) قَالَ ثُمَّ: أَخَاهُمْ، وَلَمْ يَقُلْ ههنا.

لَكِنْ لَيْسَ فِي مَا لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ أَخُوهُمْ مَا يَدُلُّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَسْلِهِمْ وَلَا مِنْ نَسَبِهِمْ لِأَنَّ جَمِيعَ أَوْلَادِ آدَمَ إِخْوَةٌ؛ إِذْ يُسَمَّى جَمِيعُ الْبَشَرِ بَنِيهِ^(٩). فَعَلَى ذَلِكَ أَوْلَادُهُ إِخْوَةٌ وَأَخَوَاتٌ.

ثُمَّ لَا نَذْرِي أَنَّ مَذْيَنَ غَيْرُ الْأَيْكَةِ، وَالْأَيْكَةُ غَيْرُ [مَذْيَنَ، أُبْعِثَ^(١٠)] شُعَيْبٌ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا، أَمْ^(١١) هُمَا وَاحِدٌ؟ نُسِبُوا إِلَى مَذْيَنَ [مَرَّةً، وَإِلَى الْأَيْكَةِ أُخْرَى^(١٢)]؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْأَيْكَةُ الْغَيْضَةُ، وَجَمْعُهَا أَيْكٌ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْأَيْكَةُ شَجَرَةٌ، وَالْأَيْكُ جَمْعُ أَيْكَةٍ، وَلَا أَعْرِفُ لَيْكَةً بِلَا أَلِفٍ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ. وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: أَصْحَابُ لَيْكَةٍ^(١٣) أَصْحَابُ بَادِيَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيات ١٧٨ - ١٨٠

[وقد ذكرنا تأويلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٤).

الآية ١٨١

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ لِأَهْلِ مَذْيَنَ فِي سُورَةِ هُودٍ ﴿وَيَتَقَوُّوا أَرْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] ذَكَرَ فِيهِمَا جَمِيعًا إِيْفَاءَ الْكَيْلِ، فَلَسْنَا نَذْرِي: أَظْهَرَ^(١٥) فِيهِمَا جَمِيعًا نَقْصَانُ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، فَأَمَرَهُمَا بِإِيْفَاءِ ذَلِكَ، أَمْ^(١٦) كَانَتِ الْقِصَّةُ وَاحِدَةً، فَذَكَرَ فِيهِمَا ذَلِكَ؟

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥ والشعراء: ١٨٣] جَوَازُ الْإِسْتِدْلَالِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ومعاقبته ثم قال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أخوهم. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: كذلك. (٩) في الأصل وم: بنوه. (١٠) في الأصل وم: المدين فبعث. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل: وإلى الأيكة مرة ثانيا، في م: وإلى الأيكة مرة إلى مدين ثانيا. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٢٤. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أنه ظهر. (١٦) في الأصل وم: أو.

أخذهما: وقُرْع المِيعِ بِمُلْكِ الْمُشْتَرِي، وإن لم يَقِضْهُ الْمُشْتَرِي.

والثاني: جوازُ بَيْعِ الْجُزْءِ مِنَ الْكَيْلِيِّ وَالْوِزْنِيِّ شائعاً مِنَ الْكُلِّ، لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أضاف الأشياءَ إِلَى النَّاسِ، وَنَسَبَهَا إِلَيْهِمْ. فَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ مُلْكٌ لَهُمْ، وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ أَشْيَاءُهُمْ، وَلَكِنْ كَانَتْ أَشْيَاءَ هَوَاءٍ؛ إِذْ لَا يَخْلُو ذَلِكَ: إِمَّا أَنْ كَانَ ثَمَنًا وَإِمَّا^(١) كَانَ مَبِيعًا.

فكيف ما كَانَ فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِالْمُلْكِ لَهُمْ دُونَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ إِيفَاءُ ذَلِكَ؟

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ وَالْوِزْنَ فِي مَا عَلَيْكُمْ إِيفَاؤُهُ، وَلَا تَسْتَوْفُوا مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا لَكُمْ عَلَيْهِمْ.

الآية ١٨٢ وقوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ الْقِسْطُ: الْعَدْلُ، أَيْ وَزِنُوا لِلنَّاسِ حُقُوقَهُمْ بِالْعَدْلِ، وَلَا تَقْصِرُوهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْقِسْطُ، هُوَ الْقَبَاضُ، وَهُوَ الْمِيزَانُ.

وقوله تعالى: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ الْمُسْتَوِي؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَزِنُوا بِالْمِيزَانِ الْمُسْتَوِيِّ، لَا تَجْعَلُوا إِحْدَى الْكِفَّتَيْنِ أَثْقَلَ مِنَ الْأُخْرَى؛ كَأَنَّهُمْ [كَانُوا]^(٢) يَجْعَلُونَ الْكِفَّةَ الَّتِي يُوفُونَ بِهَا حُقُوقَ النَّاسِ أَثْقَلَ، وَالْكِفَّةَ الَّتِي يَسْتَوْفُونَ [بِهَا]^(٣) مِنَ النَّاسِ أَخَفَّ. فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسَوُوا الْكِفَّتَيْنِ جَمِيعًا.

الآية ١٨٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أَيْ لَا تُفْسِدُوا فِيهَا.

الآية ١٨٤ وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّذَى خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى﴾ أَيْ اتَّقُوا نِقْمَةَ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ الْجِيلَةَ الْأُولَى أَيْ كَيْفَ عَذَّبَهُمْ، وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ بِظُلْمِهِمْ، وَالْجِيلَةُ، هِيَ الْخَلِيقَةُ، يُقَالُ: جِيلٌ أَيْ خُلُقٌ.

الآية ١٨٥ [وقوله تعالى]^(٤): ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الَّذِي سُحِرَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. فَعَلَى هَذَا التَّوَابِلِ يَكُونُ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ وَيَكُونُ^(٥) الشَّدِيدُ لِلتَّكْثِيرِ.

الآية ١٨٦ [وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا أَنْتَ مَخْلُوقٌ وَبَشَرٌ مِثْلُنَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُطْنِكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ ظَنًّا مِنْهُمْ لَا يَقِينًا وَحَقًّا.

الآية ١٨٧ [وقوله تعالى]^(٧): ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سَالُوا شُعْبًا الْعَذَابِ عَلَى التَّعْتُبِ كَمَا سَأَلَ غَيْرُهُمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً﴾ [الأنفال: ٣٢] فَتَنَزَّلَ بِهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ سَالُوا مِنَ السَّمَاءِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ]^(٨) قَالَ: سَلَّطَ اللَّهُ الْحَرَّ عَلَى قَوْمٍ شُعْبٍ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهَا حَتَّى كَانُوا لَا يَنْتَفِعُونَ بِظِلِّ بَيْتٍ وَلَا بِبَرْدِ مَاءٍ، ثُمَّ رُفِعَتْ سَحَابَةٌ فِي الْبَرِّيَّةِ، فَوَجَدُوا تَحْتَهَا الرُّوحَ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَدْعُو بَعْضًا حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا أَشْعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى نَارًا، فَأَحْرَقَتْهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ الْآيَةُ [الشعراء: ١٨٩].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَقَطَتْ عَلَيْهِمْ تِلْكَ السَّحَابَةُ، فَتَنَزَّلَتْهُمْ.

وَالظُّلَّةُ: قَالَ أَبُو عَرَسَجَةَ: حَرٌّ شَدِيدٌ، وَقَالَ الْفَتَّي: ﴿كِسَفًا﴾ أَيْ قَطْعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وَالْكَسْفُ الْقِطْعُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ وَعَمَّ فِي بُيُوتِهِمْ، فَخَرَجُوا يَلْتَمِسُونَ الرُّوحَ قَبْلَهُ، فَلَمَّا غَشِيَتْهُمْ تِلْكَ السَّحَابَةُ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ ﴿فَأَمْسَبَهُمْ فِي دَارِهِمْ جُثَثِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨ و...].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ظَلَّلَ الْعَذَابُ لِيَأْهُمُ. وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وعن ابن عباس قريب من هذا: قال: بعث الله عليهم ومدة وحراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فلما أحسوا^(١) بالموت، بعث لهم سحابة، فأظللهم، فتنادوا تحتها، فلما اجتمعوا سقطت عليهم. فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ والظُّلَّةُ السحابة، وهو قريب من الأول.

الآيات ١٨٩ - ١٩١ وقول شعيب: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من نقصان الكيل وغيره من صنيعهم، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ كذبوه في ما أخبر من نزول العذاب بهم، أو كذبوه في ما ادعى من الرسالة وما سيرى ذلك [وإن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين] ﴿وَلَنْ رَّبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) هو مذكور في ما تقدم.

الآيتان ١٩٢ و ١٩٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي نزل رب العالمين ﴿نَزْلًا بِالرُّوحِ الْأَمِينِ﴾ [رداً لقولهم]^(٣): ﴿إِنَّمَا بُعِثْتُ بِشَرٍّ﴾ [النحل: ١٠٣].

الآية ١٩٤ وقوله تعالى: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدها: أن جبريل لما ينزل من القرآن إنما ينزل على قلبه.

والثاني: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي لا يذهب عنه، بل الله يجمعه في قلبك، كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ، لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ [وإن علينا جمه ونقائمه] [القيامة: ١٦ و ١٧].

[والثالث]^(٤): أن يكون قوله: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي يُبَيِّنُهُ على قلبك لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ [وقوله تعالى]^(٥): ﴿كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ، فَوَادَّكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

[والرابع]^(٦): أن يكون قال ذلك لما انتهى إلى قلبه، وحفظه غاية حفظه قال ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ كأنه ألقي في قلبه. وكذلك يقال.

الآية ١٩٥ وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يلسان عربياً] كأنه، والله أعلم، على التقديم والتأخير يخرج، أي: نزل به الروح الأمين على قلبك بلسان عربياً مبين لتكون من المؤمنين.

والباطنية يقولون: أنزل على رسوله كالحيايل غير موصوف بلسان، ثم إن رسوله، أذاه بلسانه العربي المبين، أي بيته. لكنه ليس كذا لأنه^(٧) قال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] فينبطل قولهم: إنه أذاه بلسانه عربياً من غير أن أنزل ذلك. ولو كان على ما يقوله الباطنية: إنه لم ينزل بهذا اللسان، أعني اللسان العربي، وإن الرسول، هو الذي صيره بهذا اللسان، وأذاه به، لكان لا يصير جواباً لقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّمَا كَانَتْ الْآلِيَةُ يُحْدِثُكَ إِلَهُ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِيثٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ولا حجة عليهم. فاذكر هذا جواباً لقولهم وحجة عليهم.

دل أنه إنما أنزل عليه عربياً، وأن تأويل الآية^(٨) ما ذكرنا على التقديم والتأخير.

الآية ١٩٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَقِيَ زُحْرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال بعض أهل التأويل: ﴿وَلَقَدْ﴾ أي بعث محمد ووصفه كان في كُتُبِ الأولين. وجائز أن يكون قوله: ﴿وَلَقَدْ لَقِيَ زُحْرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٧٧]: هذا^(٩) القرآن كان ذكره في كُتُبِ الأولين، أنه ينزل على رسول الله ﷺ محمد، لا أنه^(١٠) عينه، كان فيها [أو أن بعثه، كان]^(١١) في زُحْرِ الأولين، لا الكل، والله أعلم.

الآية ١٩٧ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمُ الْغُلَامُ يَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ آلِهِمْ﴾ قال بعض أهل التأويل: أول لم يكن محمد آية: أن علماء بني إسرائيل، كانوا يعلمون أنهم ﴿يُحْدِثُونَ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي [التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ]﴾^(١٢) [الأعراف: ١٥٧]؟

(١) في الأصل وم: حسبوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لقوله. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، في الأصل: إنه. (٨) في الأصل وم: الأول. (٩) في الأصل وم: هذه. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل: وإن كان بعضه، في م: أو أن كان بعضه. (١٢) في الأصل وم: الكتب.

لَكُنْ تَأْوِيلُهُ: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ عِلْمُ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ آيَةٌ أَنَّهُ رَسُولٌ؟

نم/ ٣٨٦ - ١/ الآية تكون على وجهين:

أخذهما: ما ذُكِرَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ، أَرْسَلُوا إِلَى الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَأَخْبَرُوهُمْ عَنْهُ أَنَّهُ، يَخْرُجُ فِي رَقَبٍ كَذَا، وَهَذَا وَقْتُ خُرُوجِهِ.

والثاني: يقول: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ آيَةُ إِسْلَامِ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَفُقَهَائِهِمْ أَنَّهُ رَسُولٌ نَحْوِ ابْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ؛ إِذْ كَانُوا لَا يُسَلِّمُونَ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ وَثَبَتْ أَنَّهُ رَسُولٌ، إِذْ^(١) كَانَ فِي إِسْلَامِهِمْ ذَهَابٌ مَمْلُوكَتِهِمْ^(٢) وَرِثَاسَتِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ١٩٨ و ١٩٩ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَّلْنَاهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ عَرَبِيٍّ، فَلِمَ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَكَيْفَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى أَعْجَمِيٍّ؟

وقال بعضهم: لَوْ نَزَّلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ؛ يَقُولُ: إِذْنًا لَكَانُوا شَرَّ النَّاسِ فِيهِمْ، مَا فَهِمُوهُ [وَمَا دَرَوْا مَا هُوَ]^(٣) وَهُوَ قَرِيبٌ [مِنْ]^(٤) الْأَوَّلِ.

وقال بعضهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ مِنَ الدُّوَابِّ، فَكَلَّمَهُمْ هَذَا مَا صَدَّقُوهُ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وَتَعَثُّهُمْ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أَي نَزَّلْنَاهُ أَعْجَمِيًّا، فَلِمَ يَفْهَمُوهُ ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفْجَحِيٌّ وَغَرِيبٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وَلَكِنْ نَزَّلْنَاهُ عَرَبِيًّا لِنَلَّا يَقُولُوا ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١ وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَكَذَا سَلَكْنَا الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ، وَأَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْبَيَانَ وَالْحُجَجَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ حَتَّى عَقَلُوهُ، وَلَزِمَتْهُمْ الْحُجَّةُ. لَكِنْهُمْ تَرَكُوا الْإِيمَانَ تَعَثًُّا وَعِنَادًا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حَتَّى يَرَوْا الْكَذَابَ الْأَلِيمَ. حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ، لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ إِيْمَانٌ دَفَعَ وَاضْطِرَارٌ^(٥) لَا إِيْمَانُ اخْتِيَارٍ، وَهُوَ كَمَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: ٨٤] لِأَنَّهُ إِيْمَانٌ دَفَعَ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ [حِينَ خَرَجَتْ أَنْفُسُهُمْ]^(٦) مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَإِيْمَانُ اضْطِرَارٍ^(٧) لَا إِيْمَانُ اخْتِيَارٍ. لِذَلِكَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ.

الآية ٢٠٢ وقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أَي يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ فَجْأَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لِأَنَّهُ. إِذْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ، لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، فَانْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ بَغْتَةً. وَلَوْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ^(٨) يُؤْمِنُونَ حَقِيقَةً عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ لَانْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ مُعَايِنَةً مُجَاهِرَةً لِيُؤْمِنُوا، فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَيَرْفَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ كَمَا قِيلَ إِيْمَانٌ قَوْمِ يُونُسَ حِينَ^(٩) قَالَ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨] قِيلَ مِنْهُمْ الْإِيْمَانُ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمُ الْعَذَابَ لَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُحَقِّقُونَ الْإِيْمَانَ فِي ذَلِكَ [الْوَقْتِ]^(١٠).

وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعِنَادَ وَالْمُكَابَرَةَ فَهُمْ لَا يُحَقِّقُونَ الْإِيْمَانَ.

الآية ٢٠٣ وقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ لَا يَرَالُونَ، يَطْلُبُونَ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا وَتَأْخِيرَ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، [إِذَا نَزَلَ]^(١١) بِهِمْ كَقَوْلِهِمْ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذَا أَبْجَلُ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وَكَقَوْلِهِمْ: ﴿يَلْبَسْنَا ثُوبًا﴾ [الأنعام: ٢٧]. فَيَتَمَنَّوْنَ الرَّجُوعَ وَالنَّظَرَ، لَكِنْ لَا يُجَابُونَ [إِلَى ذَلِكَ].

الآية ٢٠٤ وقوله تعالى: ﴿أَفَعَدْنَا بَنَاتِنَا لِشَتَمٍ لَبِئْسَ مَا لَكُمْ فِي قُلُوبِ الْبَاطِلِينَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: هَذَا جَوَابٌ لَهُمْ لَمَّا أَوْعَدَهُمُ النَّبِيُّ الْعَذَابَ، يَنْزِلُ بِهِمْ: مَتَى الْعَذَابُ؟ تَكْذِيبًا لَهُ وَاسْتِهْزَاءً. يَقُولُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَفَعَدْنَا بَنَاتِنَا لِشَتَمٍ لَبِئْسَ مَا لَكُمْ فِي قُلُوبِ الْبَاطِلِينَ﴾ [١٢] لِقَوْلِهِمْ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: ١١] مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: إِذَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مَا كَلْتَهُمْ. (٣) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَاضْطِرَاب. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: اضْطِرَاب. (٨) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَا. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَانْزَلَ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنْ م.

٤٨ و... [وقولهم: ﴿فَأَمَّا طَرَفٌ عَلَيْنَا حِجَابٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ومثله وإلا ليس في الظاهر جواباً لقولهم^(١): ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾.

الآيات ٢٠٥ - ٢٠٧

[وجواب هذين]^(٢)، والله أعلم، قوله^(٣) تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقول: ما يغني تأخير العذاب عنهم وإمهالهم عن وقت، يُمتعون من عذاب الله من شيء؟ [أي]^(٤) لا ينفعهم ذلك.

ويَحْتَمِلُ^(٥) أن يكونوا سألوا العذاب في الظاهر، واستمهلوه في الحقيقة، فخرج قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ الآيات^(٦) جواباً لاستمهالهم، ويَحْتَمِلُ^(٧) أن يكون: بعضهم استعجل العذاب، واستمهل غيرهم، فخرج هذا جواب من استمهل.

الآية ٢٠٨

وقوله تعالى: فقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرِيَةٍ إِلَّا لَمَّا مَدِيرُونَا﴾ إهلاك استئصال وانتقام إلا بعد الإنذار وإقامة الحجة والبيان.

الآية ٢٠٩

[وقوله تعالى]^(٨): ﴿ذُكِّرُوا﴾ أي موعظة وزجر عما هم فيه، أو ﴿ذُكِّرُوا﴾ يذكُر ما لهم وما عليهم وما ليغضِبهم على بغض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تعذيبهم، أي لم نُعَذِّبْهُمْ بِإِلَّا ذَنْبٍ وَلَا^(٩) جُزْمٍ، ولكن بعنادهم ومكابرتهم لأنَّ العذاب في الدنيا، لا يكون لنفس الكافر، ولكن لعناد ومكابرة. وإنما عذاب الكافر في الآخرة.

وعلى ذلك يُخْرَجُ قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] أي ما كنا مُعَذِّبِينَ في الدنيا تعذيب انتقام حتى نَبْعَثَ رسولاً، فيظهر منهم العناد والمكابرة. فعند ذلك يُعَذِّبُهُمُ اللهُ.

وقال بعضهم: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ما كنا نُعَذِّبُهُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ الْبَيَانِ وَالْحُجَّةِ وَقَطْعِ الْعُذْرِ، والله أعلم. وفي مُضْخَفِ أَبِي: وما أهلكنا من قرية إلا بذنوب أهلها.

الآيتان ٢١٠ و ٢١١

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قال بعضهم: ما نَزَّلَتْ بالقرآن الشياطين. فذلك جواباً لقول أهل مكة: إن محمداً كاهن، معه رثي، هو يأتي بما يقول، يَغْنُون بِالرُّثِيِّ الشيطان. وكانت الشياطين من قَبْلِ يَقْعُدُونَ مِنَ السَّمَاءِ مَقَاعِدَ، يَسْتَمِعُونَ فِيهَا الرُّوحِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَنْزِلُونَ بِهِ عَلَى الْكُهَّانِ، فهم^(١٠) بين مُصِيبٍ وَمُخْطِئٍ، فقالوا: محمدٌ كذلك، فأكذَّبَهُمُ اللهُ تعالى في مقالتهم تلك، فقال: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أن ينزلوا بالقرآن، وما كانوا يَسْتَطِيعُونَ، أي قد جيل بينهم وبين السَّمْعِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالشُّهْبِ.

الآية ٢١٢

وأخبر ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ عَنْ ذَلِكَ.

[وفي قوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾]^(١١) دلالة أن مَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ حُجَّةً لِغَيْرِ الَّذِي جُعِلَ هُوَ حُجَّةً لَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّنْظِيقِ بِهِ وَلَا التَّلَاوَةَ نَحْوَ مَنْ يَأْتِ أَفْقاً مِنْ أَفَاقِ الْأَرْضِ، لَمْ يَنْتَوِ إِلَيْهِ^(١٢) هذا القرآن، فادَّعى^(١٣) لنفسه النبوة، وجعل يحتج بهذا القرآن، فإنه لا يَقْدِرُ عَلَى تِلَاوَتِهِ وَلَا التَّنْظِيقِ لَأَنَّهُ إِنَّمَا جُعِلَ حُجَّةً وَبُرْهَاناً لِلْمُحَقِّقِ لَا لِلْمُطِيطِلِ حِينَ^(١٤) قَالَ: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أن [ينزلوا به]^(١٥) ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك.

الآية ٢١٣

وقد ذكّرنا وَجْهَ التَّنْهِی لِرَسُولِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَنَعَّ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وأمثاله، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: لقوله. (٢) من م، في الأصل: جواب. (٣) في الأصل وم: وقوله. في م: وجواب هذان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: وما. (١٠) في الأصل وم: فمن. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: إليهم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فالدعي. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: ينزلون.

الآية ٢١٤

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَخَصَّ، وَعَمَّ، وَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَقَالَ يَا مَعْشَرَ بَنِي قُصَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَقَالَ يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَاظٍ: أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَكَذَلِكَ قَالَ لِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَلَكِنْ لَكَ رَجَمٌ، سَأَبُلُّهَا بِبِلَاهَا» [مسلم ٢٠٤] أَي سَأَصِلُّهَا.

وفي بغض الأخبار أنه قال عند نزول هذه الآية: «إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً» [عن عائشة مسلم ٢٠٥] وَهُمْ الْأَقْرَبُونَ، وَهُمْ إِخْوَانٌ، أَبْنَاءُ عَبْدِ مَنَاظٍ.

وعن الحسن [أنه] ^(١) قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ أَهْلَ بَيْتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ «أَلَا إِنَّ لِي عَمَلِي، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أَلَا إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَانِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ، أَلَا لَا عِرْفَتُكُمْ/ ٣٨٦ - ب/ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: تَأْتُونِي بِالدُّنْيَا، تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ» ^(٢) وَيَأْتِينِي النَّاسُ بِالْآخِرَةِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٩/ ١٢٣].

وعن قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي لَيْلَةً عَلَى الصُّفَا، يُخَذُّ عَشِيرَتَهُ فَخَذًّا فَخَذًّا، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَ ^(٣) فِي ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ: لَيَأْتِ هَذَا الرَّجُلُ، يُهَوِّثُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ، يَقُولُ: بِصِيحٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ «قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرْدَيَّ» الآية [سبا: ٤٦].

ومعنى التخصيص في إنذاره عَشِيرَتَهُ ^(٤) فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ، وَإِنْ كَانَا دَاخِلَيْنِ فِي جُمْلَةِ إِنْذَارِ النَّاسِ جَمِيعًا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إِذْ هُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ:

أَحَدُهُمَا: جَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا هُمْ يَظْمَعُونَ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ لَمْ يُطِيعُوهُ، وَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عَلَى مَا رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ نَسَبٍ وَسَبَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَئِذٍ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي» [الحاكم في المستدرک ٣/ ١٤٢]. فَيُسَبِّهُ أَنْ يَكُونُوا ^(٥) يَظْمَعُونَ بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَئِذٍ، وَإِنْ خَالَفُوهُ بِحَقِّ الْقَرَابَةِ وَالْوَصْلَةِ مَا لَا يَظْمَعُ بِذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِالطَّاعَةِ وَالْإِجَابَةِ.

فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْذِرَهُمْ لِئَلَّا يَكْلُوا [أَمْرُهُمْ] ^(٦) إِلَى شَفَاعَتِهِ. وَلَكِنْ اخْتَالُوا حِيلَتَهُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ لِمَا يَأْمُرُهُمْ؛ وَهُوَ مَا ذُكِرَ فِي الْأَخْبَارِ الَّتِي ذَكَّرْنَا: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا أَلَا إِنَّ أَوْلِيَانِي مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ» [الطبري في تفسيره: ١٩/ ١٢٣]. أَخْبَرَ أَنْ [لَا] ^(٧) وَلَايَةً لَهُمْ [إِذَا لَمْ] ^(٨) يَتَّقُوا مَخَالَفَتَهُ.

والثاني ^(٩):

الآية ٢١٥

وقوله تعالى ^(١٠): ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَسْمَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَانَهُ أَمَرَ [رَسُولُهُ أَنْ] ^(١١) يَتَوَاضَعَ لَهُمْ، وَيَرْحَمَهُمْ ^(١٢).

وقال في الوالدين: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقال في المؤمنين: ﴿بِمَعْنَاهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ﴾ [الأنفال: ٧٢ و...]. «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» [الفتح: ٢٩] «أَوَّلُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ» [المائدة: ٥٤].

ذَكَرَ الذَّلِيلَ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَالرَّحْمَةَ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الذَّلِيلَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَأَنَّ الذَّلِيلَ كَانَهُ يَرْجِعُ إِلَى الْخُضُوعِ وَاسْتِخْدَامِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. وَكَذَلِكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعِيدٌ، لَا يَخْتَمِلُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالْخِدْمَةِ لَهُمْ. وَجَائِزٌ أَنْ يَتَحَجَّنَ بَعْضُهُمْ بِخِدْمَةِ بَعْضٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: ركاها، في م: رقاها. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وعشيرته. (٥) من م، في الأصل: يكون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أشار الناسخ في الأصل وم في حاشيته أن بعد هذه الكلمة بياضاً يدل أن المؤلف لم يأت بالوجه الثاني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: رسول الله. (١٢) في الأصل وم: ويرحم.

الآية ٢١٦

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قالوا: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وموصول به؛ كأنه قال: وأنذر عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ: إني بريء مما تعملون. قد كان رسول الله بريئاً مما كان يعمل أولئك الكفرة.

لكنه يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أُولَئِكَ لَمَّا أَنْذَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُطِيعَهُمْ فِي بَغْضِ أُمُورِهِمْ، وَيُشَارِكَهُمْ فِي بَغْضِ أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يُطِيعُوا أُولَئِكَ لَهُ فِي بَغْضِ مَا يَأْمُرُهُمْ، وَيَذَعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَيُشَارِكُوهُ^(١) فِي بَغْضِ أَعْمَالِهِ. فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ﴾ أَي مِمَّا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَيَطْلُبُونَ^(٢) مِنْهُ مَسَاعِدَتَهُ إِيَّاهُمْ وَالْإِعْمَاضَ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

الآية ٢١٧

وقوله^(٣) تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وَلَا تَحْتَفِ مُخَالَفَتُهُمْ لِيَاكَ فِي مَا تَدْعُوهُمْ^(٤). أَوْ أَمْرَهُ أَنْ يَكِلَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ، وَيَقْرَضَ جَمِيعَ أُمُورِهِ [إِلَيْهِ]^(٥) فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَقَالَ: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الرَّحِيمُ] الْمُتَّقِمُ بِأَوْلِيَائِهِ أَوْ الشَّدِيدُ بِأَعْدَائِهِ. أَوْ ذَكَرَ الْعَزِيزَ لِأَنَّهُ يُوَيِّعُ مَنْ يُعِزُّ، وَهُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ، وَمَنْ لَمْ يُعِزَّهُ هُوَ فَلَا^(٦) يَكُونُ عَزِيزاً، وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْهُ هُوَ [فَلَا يَنْقَعُهُ]^(٧) تَرْحُمُ غَيْرِهِ. وَالْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

الآيتان ٢١٨ و ٢١٩

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ بَيْنَ ثَنُوءٍ﴾ [وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجْدِينَ] فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَخَذَكَ قَانِئاً وَجَالِئاً وَعَلَى حَالَاتِكَ، يَرَاكَ [وَتَقَبَّلَكَ] أَيْضاً [فِي السَّجْدِينَ] فِي الصَّلَاةِ مَعَ النَّاسِ فِي الْجَمَاعَةِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: فِي تَقَبُّلِكَ فِي السَّاجِدِينَ: فِي الْمُصَلِّينَ؛ يَقُولُ: كَانَ يَرَى مَنْ خَلَفَهُ مِنَ الصَّفُوفِ كَمَا يَرَى مَنْ أَمَامَهُ^(٨). لَكِنْ هَذَا لَيْسَ تَأْوِيلَ الْآيَةِ [إِنَّمَا هُوَ]^(٩) كَلَامٌ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ. وَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَ لَكَانَ يَقُولُ: يُرِيكَ بِرَفْعِ الْيَأَى لَا بِالنُّصْبِ.

وَرُوي فِي بَغْضِ الْأَخْبَارِ: أَنَا إِمَامُكُمْ فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ وَلَا بِالْقِيَامِ فَلِأَنِّي أَرَأَيْتُمْ خَلْفِي كَمَا أَرَأَيْتُمْ أَمَامِي. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ لَصَحَحْتُكُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رَأَيْتُ؟ قَالَ: رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ [مُسْلِم ٤٢٦].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ بَيْنَ ثَنُوءٍ﴾ إِلَى الصَّلَاةِ، فَتُصَلِّي وَخَذَكَ، وَيَرَاكَ مَعَ الْمُصَلِّينَ فِي جَمَاعَةٍ، وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ. وَفِي حَرْفِ حَفْصَةٍ: [وَتَقَبَّلَ وَجْهَكَ]^(١٠) [فِي السَّجْدِينَ].

الآية ٢٢٠

[وقوله تعالى]^(١١): ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السَّمِيعُ لِمَقَالَتِهِمْ مِمَّا يُخْفُونَ، وَيُسِرُّونَ، وَمَا يُغْلَبُونَ. وَالْعَلِيمُ بِضَمِّائِهِمْ وَخَفَائِهِمْ. وَالسَّمِيعُ الْمُجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ. وَالْعَلِيمُ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

الآيتان ٢٢١ و ٢٢٢

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ [نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ] خَرَجَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْآيَاتِ جَوَاباً لِقَوْلِ كَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْكُفَرَةِ وَقَادَتِهِمْ، لَا يَزَالُونَ يُلْبِسُونَ عَلَىٰ أَتَابِعِهِمْ وَالسَّفَلَةَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَا يَنْزِلُ [عَلَيْهِ]^(١٢). فَقَالُوا: مَرَّةً: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيطُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...]. وَمَرَّةً: ﴿مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ تُفْتَنِي﴾ [سبأ: ٤٣] وَمَرَّةً إِنَّهُ [شَاعِرٌ] [الأنبياء: ٥ والطور: ٣٠]^(١٣) [وَمَرَّةً إِنَّهُ]^(١٤) [النَّحْلُ] [يونس: ٢ و...]. وَمَرَّةً قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يَقُولُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وأمثال هذا.

فَجَائِزٌ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ أَيْضاً قَوْلُ: إِنَّ الشَّيَاطِينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَزِلُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عَلَيْهِ عَلَىٰ مَا ذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا يَجِيءُ بِهِ الرَّبُّي، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، فَيُلْقِيهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ. فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ جَوَاباً لَهُمْ: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ] [الشعراء: ٢١٠ و ٢١١] وَإِنَّمَا يَنْتَزِلُ بِهِ جَبْرِيلُ حِينَ^(١٥) قَالَ [قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ] الْآيَةِ [النحل: ١٠٢].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُشَارِكُونَهُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَطَلَبُوا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فَقَالَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: تَدْعُوهُمْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: لَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَا يَنْفَعُ. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: أَمَامَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَّا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَتَقَبَّلَكَ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٣) فِي م: وَإِنَّ شَاعِرًا. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَإِنَّهُ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

ثم أَخْبَرَ عَنِ الشَّيَاطِينِ أَنَّهُمْ عَلَى مَنْ [يَنْتَزِلُونَ حِينَ] ^(١) قَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ﴾ ذَكَرَ هَذَا لِمَا عَرَفُوا هُمْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَنْتَزِلُونَ إِلَّا بِكَذِبٍ وَبَاطِلٍ. [فَمَنْ لَا يَنْتَزِلُ إِلَّا بِكَذِبٍ وَبَاطِلٍ لَا يَنْتَزِلُ] ^(٢) إِلَّا ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ﴾ وَكَانَ مَعْلُومًا ^(٣) مَا عِنْدَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا، لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ، وَلَا أَفَّاكٌ أَبَدًا، إِذْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِكَذِبٍ قَطُّ.

فَنَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَنَزَّلَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَذَّابٍ وَلَا أَفَّاكٍ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَنْتَزِلُونَ إِلَّا بِكَذِبٍ وَبَاطِلٍ، عَلَىٰ هَذَا يُخْرِجُ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَإِلَّا عَلَىٰ الْإِبْتِدَاءِ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ.

الآية ٢٢٢

ثم أَخْبَرَ عَنِ صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ، فَقَالَ ﴿يُلْقُونَ السَّحَابَ كَغِثٍّ﴾ ﴿كَذِبُوتٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يُلْقِي الشَّيَاطِينُ بِآذَانِهِمْ إِلَى السَّمْعِ فِي السَّمَاءِ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا فِي الْأَرْضِ عَلَّمَ بِهِ أَهْلَ السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَسْمَعُونَ كَذِبًا، فَيَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ، فَيُخْبِرُونَ بِهِ الْكَهَنَةَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ كَذَا فِي وَقْتٍ كَذَا.

ثم قَالَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُوتٍ﴾ عَلَى [هَذَا التَّأْوِيلِ؛ أَيْ] ^(٤): وَكَثُرَ الشَّيَاطِينُ كَاذِبُونَ فِي مَا يُخْبِرُونَ الْكَهَنَةَ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْجِنَّ كَانُوا يَضَعُدُونَ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَرْقُونَ أَسْمَاعَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْمَعُونَ مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِهَا، ثُمَّ يَنْزِلُونَ بِهِ عَلَى الْكَهَنَةِ، وَيَسْمَعُ الْكَهَنَةُ أَيْضًا مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ، وَيَخْلِطُونَ مَا سَمِعُوا مِنَ الرُّسُلِ مِنَ الْحَقِّ بِمَا سَمِعُوا مِنَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْبَاطِلِ، فَيُحَدِّثُونَ النَّاسَ بِذَلِكَ. فَمَا كَانَ مِنَ الرُّسُلِ حَقًّا، وَمَا كَانَ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَيَكُونُ بَاطِلًا.

فَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُوتٍ﴾ أَيْ أَكْثَرُ الْكَهَنَةِ كَاذِبُونَ فِي مَا يُخْبِرُونَ النَّاسَ فِي مَا سَمِعُوا مِنَ الشَّيَاطِينِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنَ الْجِنَّ حَقًّا. لَكِنَّهُمْ يَخْلِطُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ كَذِبًا، فَيُحَدِّثُونَ بِهِ النَّاسَ، حَتَّى إِذَا كَانَ النَّاسُ يَشْكُرُونَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْهُمْ مِنَ الْكَذِبِ، حَدِّثُوهُمْ بِذَلِكَ الْحَقُّ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَيُرَاجِعُونَهُمْ/ ٣٨٧ - أ/ وَيُصَدِّقُونَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُوتٍ﴾ أَيْ أَكْثَرُ قَوْلِهِمْ كَذِبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ٢٢٤

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: رَجُلَانِ شَاعِرَانِ، كَانَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدُهُمَا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَالْآخَرُ مِنْ قَوْمِ آخَرِينَ، فَهَجَّوَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَوَاةٌ مِنْ قَوْمِهِ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾. قَالَ: فَاسْتَأْذَنَ شُعْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ النَّبِيَّ أَنْ يَقْتَضُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَذِنَ لَهُمُ النَّبِيُّ، فَهَجَّوَا الْمُشْرِكِينَ، وَمَدَحُوا النَّبِيَّ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٢٢٧]. أَخْبَرَ فِي الْأَوَّلِ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ فَاسْتَنْى شُعْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ [مِنْهُمْ] ^(٥) بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الشُّعْرَاءُ عُصَاةُ الْجِنَّ، يَتَّبِعُهُمْ غَوَاةُ الْإِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١١٢].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ الْكُفَّارُ يَتَّبِعُونَ ضُلَّالَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ، وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ.

الآيتان ٢٢٥ و ٢٢٦

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فِي كُلِّ قَرْيَةٍ يَأْخُذُونَ، أَيْ يَمْدَحُونَ قَوْمًا بَاطِلًا، وَيَذَمُّونَ قَوْمًا بَاطِلًا: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وَأَنَّهُمْ يَصِفُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ أَنَّهُ كَذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُمْ فِي كُلِّ لَفْوٍ وَبَاطِلٍ يَخُوضُونَ، وَأَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ يَقُولُونَ: فَعَلْنَا كَذَا، وَهُمْ كَذِبَةٌ، لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿يَهِيمُونَ﴾ أَيْ يَذْهَبُونَ، وَيَمْضُونَ، وَيَرْكَبُونَ فِي كُلِّ وَادٍ، هَامٌ يَهِيمُ هَيْمًا. وَهَيْمَانُ عَظْشَانُ، وَقَوْمٌ هَيْمٌ، وَالهَيْمُ الْوَاقِعُ الْمُحِجُّ الَّذِي هُوَ عَظْشَانُ إِلَى لِقَاءِ مَنْ يُحِبُّ، وَالتَّهْوِيمُ: النَّوْمُ، يُقَالُ: هَوَّمَ يَهُوِّمُ تَهْوِيمًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَنَسْرُبُ شَرْبَ الْغَيْرِ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٥٥] هُمُ الْعِطَاشُ، وَالْوَاحِدُ هَيْمَانُ.

(١) فِي الْأَصْلِ: تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ، وَفِي م: يَنْزِلُونَ حَيْثُ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَا يَنْزِلُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مَعْلُومٌ. (٤) فِي الْأَصْلِ: التَّأْوِيلُ. فِي م: هَذَا التَّأْوِيلُ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقَالَ الْقَتِيبِيُّ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ﴾ أي في كل وادٍ مِنَ القولِ وفي كل مذهبٍ، يذهبون، كما يذهب الهائم على وجهه.

الآية ٢٢٧ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ هذا الاستثناء يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وهو ما ذُكِّرْنَا. كأنه^(١) قَالَ: أولئك الشعراء، وهم^(٢) القادة منهم: نَحْنُ نقولُ بِمِثْلِ ما أتى محمد ﷺ وقالوا الشعرَ، وأنشدوه، واجتمع إليهم غواةٌ مِنْ قومِهِمْ، يَسْتَمِعُونَ أشعارَهُمْ، وَيَزُودُونَ عَنْهُمْ، حينَ يَهْجُونَ النَّبِيَّ وأصحابه.

فاستثنى شعراء المسلمين الذين قالوا الشعرَ، وأنشدوه، في انتصارِ رسولِ الله ﷺ وأصحابه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يتبعهم الغاؤون.

ويَحْتَمِلُ^(٣) أَنْ يَكُونَ الاستثناء مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يهيمونَ في كل وادٍ، ويقولون ما يفعلون، ولا يقولون ما لا يفعلون. بل يذكرون الله كثيراً ويتصرون^(٤) رسوله وأنفسهم مِنْ بَعْدِ ما ظَلَمُوا.

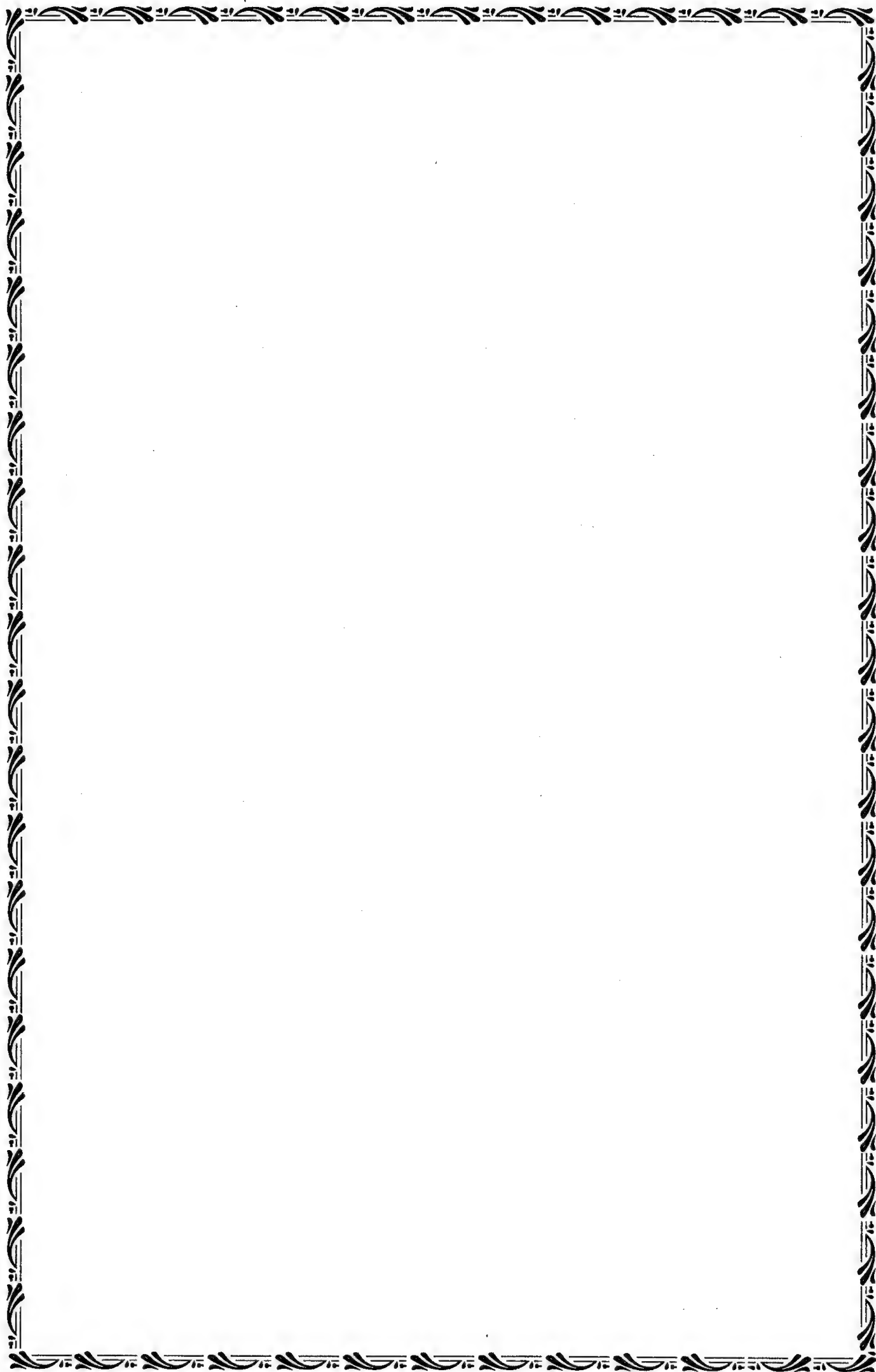
فيكونُ الاستثناء في أحد التاويلين مِنَ الاتِّبَاعِ في الآخِرَةِ مِنَ الأئِمَّةِ والقادة، فكانَ منهم قولٌ سَبَقَ في ذلك حتى قال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر ما ذُكِّرَ؛ إذ لا يَحْتَمِلُ على الابتداءِ دون قولٍ كَانَ منهم على ما ذُكِّرْنَا في قوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١].

قد كَانَ مِنْ أولئك الكفرة قولٌ وطفنُ بَأَنَّ الشياطينَ هم الذين يَنْزِلُونَ بِهِ عليه حتى خَرَجَ جواباً لهم: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنْبِئُ لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ و ٢١١] وإن لم يَذْكُرْ ذلك يَظْهَرُ ذلك في الجوابِ، إن كَانَ منهم قولٌ وطفنُ، وإن لم يَذْكُرْ.

ثم أوعدهم، وقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وَيَحْتَمِلُ في الآخِرَةِ في مُنْقَلَبِ الظُّلْمَةِ، وهي النارُ، أي يَعلَمُونَ عِلْمَ عِيَانٍ يومئذٍ، وإن لم يَعلَمُوا ذلك في الدنيا عِلْمَ الاستِدلالِ لِمَا تَرَكُوا النَّظَرَ فيه، أو يَعلَمُونَ ذلك عِلْمَ عِيَانٍ في الآخِرَةِ، وإن عِلِمُوا في الدنيا عِلْمَ استِدلالٍ، لكنهم تعاندوا، وكابروا، فلم يؤمنوا، والله أعلم بالصواب.



(١) في الأصل وم: كانهم. (٢) من م، في الأصل: وهو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في م: ويتصرون.



سورة النمل^(١)

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقوله تعالى: ﴿سَئِىٓ﴾ قد ذكرنا في ما تقدم تأويل الحروف المعجمة وأقويل الناس فيها وكذلك الآيات المذكورة على إثرها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿تُبَيِّنُ﴾ أي بَيِّنُ واضح لأنَّ أبَانَ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوْضِعِ بَانَ، يُقَالُ: بَانَ وَأَبَانَ. وَيَحْتَمِلُ ﴿وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ أي يُبَيِّنُ ما لِلَّهِ عَلَيْهِمْ [وما لِيُغْضِبَهُمْ عَلَيْهِمْ]^(٣) وما لَهُمْ، وما عَلَيْهِمْ.

الآية ٢ وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿هُدًى﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: دعاء كقولهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي داع، يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَعَلَى ذَلِكَ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿هُدًى﴾ أي دعاء يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ لِلنَّاسِ كَافَّةً.

والثاني: جائز أن يُرِيدَ بِالْهُدَى الْهُدَى الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الضَّلَالِ وَضِدُّهُ، فَهُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، وَإِنْ كَانَ أَرَادَ بِهِ الْبَيَانُ والدعاء فهو لِلْكَلِّ.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ. فَإِذَا آمَنُوا بِهِ كَانَ لَهُمْ بُشْرَى.

الآية ٣ ثم نَعَتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَصَفَهُمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يُقَرُّونَ بِهَا، وَيُؤْمِنُونَ، لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، لَكِنَّمْ أَبَوْا الْإِيمَانَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]

لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِحَسْبِهِمْ إِلَى أَنْ تَمُضِيَ السَّنَةُ، فَتَجِبَ الزَّكَاةُ عَلَيْهِمْ، فَيُؤْتُوا^(٤). فَحِينَئِذٍ يُخْلَوْنَ سَبِيلَهُمْ، وَلَكِنْ الْأَمْرُ بِحَسْبِهِمْ إِلَى أَنْ يُقَرُّوا بِهَا، وَيُؤْمِنُوا، فَيُخْلَوْنَ عِنْدَ ذَلِكَ سَبِيلَهُمْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٣٨٧/٧] - ب/ لَا يَقْبَلُونَهَا، وَلَا يُقَرُّونَهَا، لَيْسَ عَلَى فِعْلِ الْإِيتَاءِ.

فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ، يَحْتَمِلُ هَذَا، وَالثَّانِي، يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً: الْقَبُولَ وَالْإِقْرَارَ بِهَا وَالْإِيتَاءَ جَمِيعاً، أَيْ قَبْلُوهَا، وَأَقْرُوهَا، وَأَعْطَوْهَا. فَحِينَئِذٍ يَسْتَوْجِبُونَ هَذِهِ الْبَشَارَةَ الَّتِي ذُكِرَتْ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الْإِقْيَانُ بِالشَّيْءِ، هُوَ الْعَمَلُ بِهِ مِنْ جَهَةِ الْإِسْتِذْلَالِ وَالْإِجْتِهَادِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي يُسْتَفَادُ بِهَا لِلْعِلْمِ بِالْأَشْيَاءِ، لَا الْعِلْمُ الذَّاتِي. لِذَلِكَ لَا يُوصَفُ اللَّهُ عَلَى الْإِقْيَانِ بِالشَّيْءِ، وَلَا يُقَالُ: يَا مَوْقِنٌ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ لَا بِالْأَسْبَابِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية ٤ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا ثُمَّ أَصَلُّوا﴾ الْأَعْمَالُ الَّتِي هُمْ فِيهَا بِمَا رُكِبَ فِيهِمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ

(١) من م، أدرج في الأصل قبلها: ذكر ان. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قد ذكرنا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فيؤتون.

والأمانِي. وَيَحْتَمِلُ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأعمال التي هي عليهم، أي زَيَّنَ لَهُمُ الْخَيْرَاتِ والطاعات. لكنهم أبوا أن يأتوا بها.

فالمُعْتَرِلة قالوا بهذا التأويل، وأبوا أن يقولوا بالأول: أن يكون من الله تزيين ما هم فيه من الشرك والكفر، إذ أضاف تزيين ذلك إلى الشيطان حين^(١) قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] وقال: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] ونحو ذلك من الآيات، فقالوا: أضاف إلى الشيطان، ولا يجوز أن يُضاف إلى الله. ذلك بُعِثَ. فدل أن الله إنما زَيَّنَ أَعْمَالَهُمُ التي عليهم من الإيمان والخيرات لا الأعمال التي هم فيها.

لكن عندنا يجوز إضافة تزيين أعمالهم التي هم فيها إلى الله من جهة ما رَكَّبَ فِيهِمُ مِنَ الشَّهَوَاتِ والأمانِي التي تُوافِقُ طباعهم وأنفسهم لأن التزيين يَقَعُ بِنَفْسِ الْكُفْرِ وأفعاليه؛ إذ الكفر نفسه ليس بِمُزَيَّنٍ ولا مُسْتَحْسَنٍ. إنما هو شتم رب العالمين، ولكن تزيينه واستحسانه، هو موافقة ما يُعْمَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ طِبَاعَةً وَالْجِهَةً التي تضاف إلى الله، إذ الجِهة التي تُضاف إلى الشيطان هي دعاؤه وتمنيته إلى ما يُوافِقُ طباعهم. فبين هذه الجِهة تجوز إضافة إلى الشيطان.

والجِهة التي تُضاف إلى الله هي ما رَكَّبَ فِيهِمُ مِنَ الشَّهَوَاتِ والأمانِي، وجعل الطباع موافقة^(٢) لها. وإلا الصَّدْقُ وجميع الخير يأتي^(٣)؛ إنما يكون مُزَيَّنًا مُسْتَحْسَنًا في العقل للعاقبة. وجميع المعاصي مُسْتَفْتَحٌ في العقل للعاقبة: إذا حُمدَ أَحَدُهُمَا، وأُثِيبَ على فعله، ذم^(٤) الآخر، وعُوقِبَ لسوء اختياره.

ويَحْتَمِلُ^(٥) أن تكون إضافة ذلك إلى الله إما خَلَقَ أَعْمَالَهُمْ وأعمالهم التي عملوها، وأخرجها من العدم إلى الوجود، وهي من هذه الجِهة فعله. وهو يَرُدُّ قَوْلَهُمْ فِي إِبَائِهِمْ خَلَقَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قيل: يَتَرَدَّدُونَ. وأصل العمه الخيرة، أي يَحْتَرُونَ.

الآية ٥

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي لهم ما يسوءهم من العذاب في الآخرة لاختيارهم سوء الأفعال في الدنيا ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ [الآخَسِرُونَ] والآخر^(٧) واحد. وجائز أن يقال: ﴿هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ للقيادة منهم والرؤساء لأنهم ضلُّوا بأنفسهم، وأضلُّوا غيرهم، هُمُ الْآخَسِرُونَ^(٨) الاتباع كقوله: ﴿يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ [النحل: ٢٥].

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّكَ لَتَلَقَى الْفَرَّاتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنَ اللَّهِ [والثاني]^(٩) على يَدَي رَسُوْلِهِ، وهو جبريل، وهو حكيم، يَضَعُ الْوَحْيَ وَالْقُرْآنَ حَيْثُ أَمَرَ بِوَضْعِهِ فِيهِ؛ إذ الحكيم، هو المُصِيبُ فِي فِعْلِهِ، الواضِعُ الشَّيْءَ مَوْضِعَهُ، وَعَلِيمٌ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَأُرْسِلَ. وهو كذلك كان؛ إذ يجوز أن يُقالَ لِلْمَخْلُوقِ: حَكِيمٌ عَلِيمٌ. أَلَا تَرَى إِلَى [قول يوسف]^(١٠): ﴿إِنِّي حَفِيطٌ عَلِيمٌ﴾؟ [يوسف: ٥٥].

فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا جَائِزٌ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ، أَيْ إِنَّكَ لَتَأْخُذُ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عَلَى [يَدَي]^(١١) رَسُوْلِهِ جَبْرِيلَ. فَمَا يَأْخُذُ مِنْ رَسُوْلِهِ كَأَنَّهُ يَأْخُذُهُ مِنْ عِنْدِ مُرْسِلِهِ؛ إذ الرَسُولُ إِنَّمَا يُؤَدِّي كَلَامَ مُرْسِلِهِ. وقال أبو عوسجة: ﴿وَلَوْ أَنَّكَ لَتَلَقَى الْفَرَّاتَ﴾ يُقال: تَلَقَيْتُهُ أَخَذْتُهُ. وكذلك قَالَ الْقَتَيْبِيُّ ﴿لَتَلَقَى﴾ أَيْ لَتَأْخُذُهُ. وقال أبو عوسجة: ﴿وَلَوْ أَنَّكَ لَتَلَقَى الْفَرَّاتَ﴾ أَيْ لَتَوَتَّى بِالْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥] أَيْ مَا يُؤْتَاهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: مُوَافَقًا. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَات. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَذَم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٧) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَمِنْ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: قَوْلِهِ. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ مَا كُنْتُ نَارًا﴾ قيل: رأيت، وانبصرت ﴿سَتَائِكَ يَتَخَوَّعُكَ أَوْ مَا يَكُنُّ بِشَهَابٍ قَبِيرٍ لَمَّا كُنْتَ تَطْلُوتُ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُ نَارًا لَمَّا كُنْتُ أَمِيرًا عَلَى النَّارِ هَذِي﴾ [طه: ١٠] هذا يدل أنه كان ضل الطريق على ما ذكره أهل التأويل. وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُ نَارًا لَمَّا كُنْتُ أَمِيرًا مِنْهَا يَحْذَرُكَ أَوْ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ لَمَّا كُنْتَ تَطْلُوتُ﴾ [القصص: ٢٩].

ذكر على التقديم والتأخير على اختلاف الألفاظ والحروف، والقصة واحدة، والمُنتَحَن بذلك موسى لا غيره. فهذا يدل أن ليس على الناس تكلف حفظ الألفاظ والحروف بلا تقديم ولا تأخير ولا تغيير بعد أن أصابوا المعنى المودع فيها؛ أعني في الألفاظ، وحفظوها من غير تغيير يدخل في المعنى المودع؛ إذ قصة موسى هذه وغيرها من قصص الأنبياء، صلوات الله عليهم، ذكرت^(١) في الكتاب على التقديم والتأخير على اختلاف الألفاظ والحروف في كثير من الأحكام في الشهادات والأخبار وغيرها، إنما عليهم إصابة المعنى.

وقوله تعالى: ﴿بِشَهَابٍ قَبِيرٍ﴾ قال بعضهم: الشهاب خشبة، في طرفها نار، والقبس النار، وشهبان^(٢) جميع، ولا تسمى النار قَبَسًا إلا ما يحمل من موضع إلى موضع؛ يقال: قَبَسْتُ النار قَبَسًا، واقتَبَسْتُ، وهو قول أبي عوسجة والفتي. وقال بعضهم: القبس الجمر، والشهاب النار الموقدة، وهو قول أبي عبيدة.

وقال بعضهم: ﴿بِشَهَابٍ قَبِيرٍ﴾ أي شعلته من نار، والجذوة كأنها خشبة فيها نار، وهو مثل الأول. ودل قوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتَ تَطْلُوتُ﴾ على أن الوقت [وقت]^(٣) البرد وأيام الشتاء حين^(٤) ذكر الاضطلال، وهو الاستدفاء، والله أعلم.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ نُودِي أَنْ بُورِكَ مَنَ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اضطررت أقاويل أهل التأويل في هذا: صرف بعضهم^(٥) تأويله إلى ما لا يزيد إلا سماجةً ويُعدا عن الحق والصواب وعنى. لكن لو جاز أن يُعَبَّرَ، ويكنى بحرف: مَنْ عَنْ غَيْرِ مُمَيِّزٍ وَغَيْرِ ذِي فَهْمٍ وَعَقْلٍ لَأَسْتَقَامَ التَّأْوِيلُ فِيهِ [ولم تقع فيه شبهة، وجعل]^(٦) كأنه قال: أَنْ بُورِكَ مَا فِيهِ مِنَ النَّارِ وَمَا حَوْلَهَا، ويكون عبارة عن المكان الذي فيه النار وما حولها من الأمكنة، أي بُورِكَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ النَّارُ وَمَا حَوْلَهَا لَأَنَّهُ قَالَ لَهُ فِي آيَةٍ [أخرى]: ﴿إِنَّكَ بِالْأَوْدِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢] أي طوى فيه البركات، وقال في آية^(٧): ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] عَنْ بَرَكَةِ ذَلِكَ الْمَكَانِ.

فعلى ذلك لو جاز أن يُعَبَّرَ بحرف: مَنْ عَنْ غَيْرِ الْمُمَيِّزِ [وذي]^(٨) الفهم، ويكنى به، جاز صرف التأويل إلى ما ذكرنا من المكان، أو يقال: بُورِكَ مَا فِي النَّارِ مِنَ النُّورِ وَمَا حَوْلَ ذَلِكَ وَمَا يُسْتَنَارُ بِهِ وَيُسْتَضَاءُ، وهو ما استفاد من النبوة والرسالة. هذا كله إذا جازت العبارة والكناية بحرف مَنْ [عن]^(٩) غير ذي التمييز والفهم.

فإن جاز هذا لاستقام أن يقال هذا، أو أن يكون التأويل منصرفاً إلى ما ذكر في حرف ابن مسعود وأبي على طرح حرف: مَنْ وَحَرْف: فِي: ذِكْرُ أَنْ فِي حَرْفَيْهِمَا: نُودِي أَنْ بُورِكَ النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا. وذلك جائز في اللغة أن يقال: بُورِكَ فِي فَلَانٍ، وبورك فلان^(١٠)، وبوركنت، وبورك فيك.

وكذلك ذكر عن الكسائي أنه قال ذلك.

فإن كان ما ذكر عن ابن مسعود وأبي ثابت^(١١) صحيحاً، لم تقع فيه شبهة ولا ريب، أو إن لم تجز العبارة بحرف: مَنْ عَنْ غَيْرِ [ذي]^(١٢) التمييز فجائز أن يُصَرَّفَ حرف: مَنْ إِلَى موسى، فيكون كأنه قال: بُورِكَ فِي الَّذِي أَتَى النَّارَ، وهو موسى، أو بُورِكَ فِي مَنْ جُعِلَ لَهُ أَقْبَاسُ النَّارِ، فيُصَرَّفُ تأويل: مَنْ إِلَى موسى/٣٨٨ - وقد جعل له مِنَ الْبَرَكَةِ فِي تِلْكَ النَّارِ مَا لَا يُحْصَى مِنْ اسْتِفَادَةِ النَّبُوَّةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى الطَّرِيقِ وَالْإِضْطِلَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، والله أعلم.

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: بعضه. (٦) في الأصل: ويجعل، في م: ولم تقع فيه شبهة ويجعل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فلانا. (١١) في الأصل وم: ثانياً. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ذَكَرَ هَذَا تَنْزِيهاً عَنْ جَمِيعِ مَا قَالَهَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ تَبَرُّقَةً مِنْهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ نَحْوِ مُقَاتِلٍ وَمَنْ قَالَ بِعِثْلِ قَوْلِهِ وَمَا يُؤَدِّي إِلَى التَّشْبِيهِ وَالشُّبْهِ.

الآية ٩ وقوله تعالى: ﴿يُسْرَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيِ الَّذِي أَعْطَاكَ ذَلِكَ ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَوْ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي جَعَلَ لَكَ ذَلِكَ ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَوْ يَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكَ ذَلِكَ ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، الْحَكِيمُ: الْمُصِيبُ فِي فِعْلِهِ، غَيْرُ الْمُخْطِئِ^(١)، أَوْ يَقُولُ: الْعَزِيزُ [الَّذِي]^(٢) لَا يَذِلُّ أَبَداً قَطُّ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ بِذَاتِهِ، الْحَكِيمُ [الَّذِي]^(٣) يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، لَا يُخْطِئُ.

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ ﴿يُسْرَىٰ﴾ يَقُولُ: إِنَّ النُّورَ الَّذِي رَأَيْتَ ﴿أَنَا اللَّهُ﴾. وَهَذَا مُحَالٌ لِأَوْجُوهٍ: أَحَدُهَا^(٤): لِأَنَّكَ لَا تَقُولُ: إِنَّ الَّذِي رَأَيْتَ أَنَا الْإِنْسَانُ، رَأَى، أَوْ لَشَيْءٍ آخَرَ، وَلَكِنْ تَقُولُ: أَنَا الَّذِي رَأَيْتَ. [وَالثَّانِي]^(٥): مُحَالٌ أَيْضاً قَوْلُهُ لِمَا ذُكِرَ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: نُودِيَ ﴿يُسْرَىٰ﴾ لَا تَخَفُ [إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ]^(٦) يَكَلِّمُهُ اللَّهُ، وَيُخَاطِبُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ النُّورَ الَّذِي رَأَيْتَ أَنَا. [وَالثَّالِثُ]^(٧): مُحَالٌ أَيْضاً لِقَوْلِ اللَّهِ ﴿مَآ تَشَاءُ نَاكِ سَتَائِكَ يَتَّبِعُهَا﴾ قَالَ اللَّهُ: [يَتَّبِعُهَا يَخْبِرُ] وَقَالَ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾^(٨) وَلَمْ يَقُلْ: [مِنْهُ يَخْبِرُ... جَاءَهَا]^(٩).

[وَالرَّابِعُ]^(١٠): مُحَالٌ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ ﴿اللَّهُ﴾ نَعْنًا لِأَنَّكَ لَا تَقُولُ: [إِنَّ الَّذِي]^(١١) رَأَيْتُ أَنَا أَخُوكَ.

فَقَالَ^(١٢): قَوْلُ مُقَاتِلٍ مُحَالٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُوهٍ [خِلَافاً لِظَاهِرِ]^(١٣) الْآيَةِ.

وَأَضْلَهُ: مَا ذَكَّرْنَا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ١٠ وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ فِي الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالْقَاءِ الْعَصَا، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَلْقَاهَا، وَلَكِنْ فِيهِ إِضْمَارٌ: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ فَالْقَاهَا ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ الْجَانَّ هِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ، لَيْسَتْ بِعَظِيمَةٍ. لَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ مُوسَى خَافَهَا، وَوَلَّى مُذْبِراً.

وَمُوسَى لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَخَافَ مِنْ حَيَّةٍ صَغِيرَةٍ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي ذُكِرَ؛ فَكَانَهَا كَانَتْ عَظِيمَةً، لَكِنَّهَا فِي تَحَرُّكِهَا وَالتَّوَائِهَا، كَانَتْ صَغِيرَةً، إِذِ الْحَيَّةُ الْعَظِيمَةُ الْكَبِيرَةُ، لَا تُقْدِرُ عَلَى التَّحَرُّكِ وَالْإِلْتِوَاءِ كَالصَّغِيرَةِ. لِذَلِكَ خَافَهَا مُوسَى حَتَّى نَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَرَّ يَعْقِبُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَرْجِعْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَلْتَمِثْ، وَهُوَ مَاخُذٌ مِنَ الْعَقَبِ.

وَالْجَانُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: مِنَ الْجِنِّ، وَالْجَانُّ الْحَيَّةُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْجِنِّ [وَهُوَ قَوْلُ]^(١٤) أَبِي عُيَيْدَةَ [أَيْضاً]^(١٥).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ نَهَاهُ عَنِ الْخَوْفِ؟ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَخَافُ لَدَيْهِ الْمُرْسَلُونَ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْخَلَائِقِ بِالْخَوْفِ مِنْ رَبِّهِمْ حِينَ^(١٦) قَالَ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَرْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦] [وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى]^(١٧) ﴿يَدْعُونَ نَصْرًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وَأَمثال ذلك مِنَ الْآيَاتِ مِمَّا فِيهَا مَذْهَبُهُمْ بِالْخَوْفِ مِنْ رَبِّهِمْ. لَكِنَّهُ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ مُوسَى حِينَ^(١٨) قَالَ: ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]. فَكَانَهُ قَالَ ههنا: لَا تَخَفْ بَعْدَ مَا أَتَيْتَكَ ﴿إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ إِذَا أَمَّنْتَهُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَخْطُوءٌ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَلَمَّا أَتَاهُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَتَاهُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِأَنَّ اللَّهَ. (١٢) الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى أَبِي مُعَاذٍ. (١٣) فِي الْخِلَافِ الظَّاهِرِ، فِي م: خِلَافَ لظَاهِرِهِ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَوْلُ. (١٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٧) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

والثاني: لا تَخَفْ مِنْ غَيْرِي ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْ غَيْرِي. فكانه قال، والله أعلم: على هذا التأويل: إنما نهاه عن الخوف من غيره، وأخبر أنه لا يخاف لديه المرسلون.

والثالث: إخبار وأمر منه من خوف الآخرة وأهوالها، كأنه قال: لا تَخَفْ فَإِنِّي سَأُؤَمِّنُ الْمُرْسَلِينَ مِنْ خَوْفِ يَوْمِئِذٍ.

الآية ١١ وقوله تعالى: فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَرَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ هذا [أيضاً] ^(١) يُخْرِجُ عَلَى وجوه:

أحدها: ﴿لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَرَ﴾ إذا بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ ^(٢) سُوءٍ.

والثاني: ﴿لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ولكن مَنْ ظَلَمَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. رجاء المغفرة وطمع العفو في ما كان منه.

والثالث: ﴿لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَرَ﴾ منهم من نَحِيَ موسى بِقَتْلِهِ النَّفْسَ وإخوة يوسف ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ وناب عن ذلك، فإنه يخاف أيضاً، والله أعلم.

الآية ١٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ يَصْغَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فالله تعالى قادرٌ أَنْ يُجْعَلَ يَدُهُ بِيضاً مِنْ غَيْرِ إِدْخَالِهِ إِيَّاهَا فِي جَيْبِهِ، لكنه امْتَنَحَنَ موسى بِالْأَمْرِ بِإِذْخَالِهَا فِي جَيْبِهِ، وكذلك قادرٌ أَنْ يُصَيِّرَ عَصَاهُ فِي يَدِهِ حَيَّةً، لكنه امْتَنَحَنَ ^(٣) بِالْأَمْرِ بِإِلْقَائِهَا. ولله أَنْ يَمْتَنِحَنَ عِبَادَهُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْمِنَحَنِ.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرُجْ يَصْغَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ قيل: مِنْ غَيْرِ أَقْبَى مِنْ بَرَصٍ أَوْ غَيْرِهِ. وقد ذَكَرْنَا مَعْنَاهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعٍ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: [يَدُ مُوسَى مِنْ] ^(٤) تِسْعِ آيَاتٍ، وقد يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ: فِي مَكَانَ [مِنْ] ^(٥) كما يُقَالُ: لِفُلَانٍ كَذَا كَذَا نَوْقًا، فِيهَا فَخْلَانِ، أَيِ مِنْهَا فَخْلَانِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِي تِسْعٍ ءَايَاتٍ﴾ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: قد يَكُونُ مَعْنَى: فِي وَمَعَ وَاحِدًا فِي مَا لَا يُخْصَى عَدْدُهُ؛ نَقُولُ: خَرَجْتُ فِي أَهْلِ مَرْوَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَمَعَ أَهْلِ مَرْوَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ. فإذا قُلْتُ: خَرَجْتُ فِي تِسْعَةِ اخْتَلَفْتَ لَأَنَّكَ أَحْصَيْتَ الْعَدَّ فِي تِسْعَةٍ، أَنْتَ تَسِيعُهُمْ، وَمَعَ تِسْعَةٍ، أَنْتَ عَاشِرُهُمْ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: هو على الْإِنْقِطَاعِ مِنَ الْأَوَّلِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ: وَلَقَدْ [أَرْسَلْنَا] ^(٦) مُوسَى فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ﴾ دَلَّ هَذَا أَنَّهُ كَانَ مُبْعَثًا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ جَمِيعًا؛ إِذْ ذُكِرَ فِي آيَةٍ: ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤ و...] خَاصَّةً، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣ و...] وَذُكِرَ ههنا ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ﴾ فكان مُبْعَثًا إِلَى الْكُلِّ.

الآية ١٣ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أَيِ يُبْصَرُ بِهَا، وَيُعْلَمُ، كَقَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُمَّ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ١٧] أَيِ يُبْصَرُ بِهِ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: مُبْصِرَةٌ بِنَضْبٍ ^(٧) الصَّادِ أَيِ بَيِّنَةٍ ظَاهِرَةٍ، يُبْصَرُ فِيهَا. وكذلك قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] [وقوله تعالى] ^(٨): ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لم تَزَلْ عَادَةُ فِرْعَوْنَ اللَّعِينِ تَلْبِيسُ أَمْرِ مُوسَى وَآيَاتِهِ عَلَى قَوْمِهِ لِئَلَّا يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَا يُطِيعُوهُ فِي مَا يَدْعُوهُمْ؛ مَرَّةً قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] [ومرّة قال] ^(٩): ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٤ و٣٥] وأمثال ذلك مِمَّا يُلْبِسُ عَلَى قَوْمِهِ أَمْرَهُ، وَيُغْرِيبُهُمْ عَلَيْهِ لِئَلَّا يُطِيعُوهُ فِي مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَلَا يُجِيبُوهُ.

الآية ١٤ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا يَمَانًا﴾ وَجَائِزٌ فِي اللَّغَةِ أَنْ يُقَالَ: جَعَدَ بِهَا، وَجَعَدَهَا، كَلَامُهُمَا وَاحِدٌ. ثم قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْجُحُودَ لَيْسَ إِلَّا الْإِنْكَارُ، وَقَدْ يَكُونُ الْإِنْكَارُ لِلشَّيْءِ لِلْجَهْلِ بِهِ وَبُعْدِ الْمَعْرِفَةِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بعده. (٣) في الأصل وم: امتنح. (٤) في الأصل وم: موسى في. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/٣٣٩. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: هو على التقديم والتأخير، كأنه قال: فلما جاءتهم آياتنا مبصرة جحدوا بها ظلماتاً وعُلُوا، واستيقنتها أنفسهم أنها من الله وأنها آياته، ليست بسحر. ولو كان سحراً في الحقيقة لكان آية لأن السحر على غير تعلم يكون منه آية سماوية.

وقوله تعالى: ﴿ظُلُمًا﴾ لأنهم جحدوا الآيات، وسموها ^(١) سحراً، فوضعوا الآيات موضع السحر، لم يضعوها موضعها، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلُّوا﴾ أي تكبروا وعناداً ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ليس على الأمر له بالنظر في ذلك، ولكن على تنبيه أولئك والزجر لهم عما هم فيه، أي انظر ما ينزل بهم جحود ^(٢) الآيات وعنادهم/ ٣٨٨ - ب/ فيها على ما نزل بأوابلهم، والله أعلم.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان من الاستدلال:

أحدهما في خلق أفعال العباد.

والثاني: في ترك الأصلاح.

أما الاستدلال على خلق الأفعال فلأنه ^(٣) قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ وقال على إثره: ﴿عَلَّمْنَا مَطْيَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وقال في رسول الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْبِسُ لَهُ﴾ [يس: ٦٩] وقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] ونحوه من الآيات في ما أضاف التعليم والفعل إلى نفسه. فلو لم يكن له في ذلك صنع لم يكن لإضافة ذلك إليه معنى. فدل أنه خلق أفعالهم منهم.

فإن قيل: إنما أضاف ذلك إلى نفسه بالأسباب التي أعطاهم قيل: لا يختل ذلك لأنه قد أعطى رسول الله ﷺ جميع أسباب الشعر، ولم يكن غيره من الشعراء أحق بأسباب الشعر من رسول الله ﷺ ثم أخبر أنه لم يرذ به الأسباب، ولكن أراد ما ذكرنا.

وأما في ترك الأصلاح فهو ما ذكر من قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾... ﴿وَقَالَ يَتَابِعُهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَطْيَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إنه إنما ذكر هذا على الإمتنان والإفضال. فلو كان لا يجوز أن يعطيه ذلك، ولا كان له ترك ما فعل بهم من الأفضال لم يكن لذكر ذلك له على الإفضال والإمتنان معنى، ولا كان داود وسليمان يخدمان على ما أعطاهما، ولا كان له ترك الحمد بذلك أو فعل ما عليه أن يفعل.

دل أنه إنما أعطى ذلك، وفعل بهم ذلك على جهة الإفضال والإمتنان، وكان له ترك ما فعل، وإن كان ذلك لهم أصلاح في الدين.

فهذان الوجهان ينقضان على المعتزلة مذهبهم في إنكارهم خلق الأفعال وجواز ترك الأصلاح في الدين. ثم قوله: ﴿عِلْمًا﴾ قال بعضهم: علماً بالقضاء والحكم، والعلم بكلام الطير والدواب. وقال بعضهم: فضلاً بالنبوة والعلم.

لكن عندنا ذكر أنه آتاهما العلم، ولم يبين ما ذلك العلم أنه علم ما إذا؟ مخافة الكذب على الله، والله أعلم.

الآية ١٦

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ سَلِّمَنَّ دَاوُدَ﴾ قال أهل التأويل: وربّ النبوة والحكم، والوارث هو الباقي بعد هلاك الآخر وفنائيه كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مریم: ٤٠] أي تبقى بعد هلاك أهلها وفنائهم وقوله: ﴿وَلِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُيِّتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣] أي الباقيون بعد فنائهم.

إلا أنه وربّ شيئاً، لم يكن له من قبل. وكذلك قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمُ الْأَرْضَ وَبَيَّرْتُمُهَا وَأَمْلَكْتُكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٧] أي

(١) في الأصل وم: وسموا. (٢) في الأصل وم: الجحود. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم.

إِنْقَاكُمْ، وَتَرْكُكُمْ فِي أَرْضِهِمْ وَبِيَارِهِمْ، وقوله: ﴿وَتِلْكَ لَئِنَّهُ آتِيَةٌ أُرْسِلُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] أي أَبْقَيْتُمْ فِيهَا. وأمثال ذلك كله راجع إلى البقاء.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَبِّكَ سَلِيمٌ ذَاوُدَ﴾ أي بَقِيَ فِي مُلْكِهِ وَتَبَوَّاهُ. وعلى ذلك ما سَأَلَ زَكَرِيَّا رَبَّهُ مِنَ الْوَلَدِ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ و٦]. لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ وَلَدًا، يَرِثُ مَالَهُ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ. وَلَكِنْ كَانَ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ لِيَبْقَى فِي نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ لِيَبْقَى النُّبُوَّةُ فِي نَسْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ عِلْمَنَا نَطِيقَ الظَّيْرِ وَأَوْنِتَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَذْكُرَ هَذَا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، عَلَى الْإِنْتِخَابِ وَالْيَاهَةِ، وَلَكِنْ ذَكَرَ فَضْلَ اللَّهِ وَنِعْمَتَهُ الَّتِي أَعْطَاهُ، وَمَنْ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا نِيعَمَةُ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَضْلِ الثَّيِّبِ؟﴾

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿وَأَوْنِتَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لَا يَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ [لأنهم لم يُؤْتُوا كُلَّ شَيْءٍ]^(٢) حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ، إِنَّمَا أُوتُوا شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ، وَلَكِنْ كَانَ قَالَ: وَأَوْنِتَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَأَلْنَاهُ أَنْ يُؤْتِنَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿وَأَوْنِتَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا يُؤْتَى الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُلُوكَ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أَي يُخْبَسُ أَوْ لَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ: كَانَ لَا يَدْعُهُمْ أَنْ يَنْتَشِرُوا، وَيَتَفَرَّقُوا، وَلَكِنْ يُسِيرُهُمْ مَجْمُوعِينَ عَلَى كُلِّ صَنْفٍ مِنْهُمْ وَزَعَةً، تَرُدُّ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ؛ ذَلِكَ مِنْ سِيرَةِ الْمُلُوكِ أَوْ أَمْرَاءِ الْعَسَاكِرِ أَنْ يُسِيرُوا جُنُودَهُمْ مَجْمُوعَةً غَيْرَ مُتَفَرِّقَةٍ.

وقال أبو عوسجة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أَي يُسَاقُونَ. وَيُقَالُ: أَوْزَعَنِي أَيِ الْهَمْنِي، وَالْوَزْعُ مِنَ الْكَفِّ وَالسَّوْقِ. تقول: وَزَعَ أَيِ كَفْتُ، وَوَزَعَ أَيِ سَاقَ.

وقال مرة [أخرى]^(٣): ﴿يُوزَعُونَ﴾ مُجْمَعُونَ^(٤). يُقَالُ: وَزَعْتُ الْإِبِلَ، أَيِ جَمَعْتُه أَزْعَ وَزَعًا.

وقال الفَتَيْي: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أَيِ يُذْفَعُونَ. وَأَصْلُ الْوَزْعِ الْكَفُّ وَالْمَنْعُ. يُقَالُ: وَزَعْتُ الرَّجُلَ، أَيِ كَفَفْتُهُ، وَوَزَعُ الْجَيْشِ، هُوَ الَّذِي يَكْفِيهِمْ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْإِنْتِشَارِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَ.

الآية ١٨ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ آتِلٍ﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّ التَّمْلَ، وَفَتَيْدٌ لَا تُخَالِطُ النَّاسَ حِينَ^(٥) أَضَافَ [الوادي]^(٦) إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ آتِلٍ﴾ وَلَوْ كَانَتْ تُخَالِطُ النَّاسَ كَهَيِّ الْآنَ لَقَالَ: حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَى الْوَادِي الَّذِي فِيهِ التَّمْلُ. دَلَّ أَنَّهَا لَا تُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ لَهُنَّ مَكَانٌ عَلَى حِدَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿تَالَتْ لَيْلَةً يَأْتِيَهَا التَّمْلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿تَالَتْ لَيْلَةً﴾ عَلَى وَجْهَيْنِ:

[أَحَدُهُمَا]^(٧): عَلَى حَقِيقَةِ الْقَوْلِ مِنَ التَّمْلَةِ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْبَشَرِ؛ أَظْلَعَ اللَّهُ تَعَالَى سُلَيْمَانَ [عَلَى]^(٨) ذَلِكَ، وَالْقَاءُ فِي مَسَامِعِهِ لُطْفًا مِنْهُ وَفَضْلًا مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَنْ شَيْءٌ إِلَّا يَسْمِعَ بِهِمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وَالثَّانِي: أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِي سِرِّيَةِ التَّمْلِ مَعْنَى يَقْهَمُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ لِمَا يُرِيدُونَ فِي مَا يَبْتَغِيهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَوَائِجِ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةِ الْقَوْلِ؛ أَظْلَعَ اللَّهُ سُلَيْمَانَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّىٰ فَهَمَ مِنْهَا مَا كَانَ يَقْهَمُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ لُطْفًا مِنْهُ وَفَضْلًا. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطِيمُكُمْ إِلَيْهِ أَتَوْا لَا يُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩] لَيْسَ أَحَدٌ يَقُولُ لِآخَرَ إِذَا تَصَدَّقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ. لَكِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَمَّا عَلِمَ مِنْ ضَمِيرِهِمْ وَمُرَادِهِمْ مِنَ التَّصَدُّقِ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةِ الْقَوْلِ مِنْهُمْ.

فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ التَّمْلَةِ؛ أَخْبَرَ عَمَّا كَانَ فِي سِرِّيَّتِهِمَا فِي مَا يَبْتَغِيهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ مِنْهَا نَطَقٌ أَوْ كَلَامٌ يَقْهَمُ مِنْهُ الْحَقُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم، وَالضَّمِيرُ عَلَى أَبِي عَوْسَجَةَ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: مَجْمَعُونَ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وقالت الباطنية: ليس المراد من [الذکر النملة] (١) المَعْرُوفَة وقولها، وكذلك من [الذکر] (٢) الِهْذَهْد، إنه لم يرد به الِهْذَهْد المَعْرُوف (٣)؛ إذ لا يجوز الِهْذَهْد من العلم أكثر مما يكون لِسُلَيْمَانَ وَلِقِيْرِهِ، ولكن أراد به الرجل، وهو الإمام الذي يدعو الناس إلى الِهْدَى، ويُدْلِهِمْ على الرُّشْد. وليس كما قالوا لأنه إنما دُكِرَ هذا على التَّعْجِبِ.

ولو كان ذلك إنساناً مَعْنً يكون له قول وكلام لم يَكُنْ لِدُكْرِ (٤) ذلك منه كبيرُ تَعْجِبٍ ولا فائدة. دلّ أنه ليس كما قالوا. وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْطُبُكُمْ سُليْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ أي لا يَكْسِرُكُمْ، والْحَطْمُ هو الكَسْرُ. وفي حرف ابنِ مَسْعُودٍ: لا يَخْطُبُكُمْ على طَرَحِ النونِ والتَّشْدِيدِ (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يَتَّقِ اللَّهَ﴾ قال بعضهم: هذا من التَّمْلَةِ ثناءً على سليمانَ ومَدْحٌ [له لِعَدْلِهِ] (٦) في مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ. إنه لو شَعَرَ بَكُمْ لم يَخْطُبْكُمْ، ولم يَهْمِلْكُمْ.

وقال بعضهم: ﴿وَمَنْ لَا يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي لا يَشْعُرُ جنوده كَلَامَ التَّمْلِ. وعلى كلِّ رئيسٍ وَسَيِّدِ القومِ أن يَحْفَظَ رَعِيَّتَهُ وَخَوَاشِيَهُ [مِنَ المَهِالِكِ] (٧) أو ما يَحْمِلُهُمْ على الفسادِ.

وقول مَنْ قَالَ: إِنَّ التَّمْلَ يومئذٍ كانت كَالذَّبَابِ عَظِيماً، لا يُخْتَمَلُ؛ لأنها لو كانت كما دُكِرَ /٣٨٩- / لم يَكُنْ لقوله: ﴿وَمَنْ لَا يَتَّقِ اللَّهَ﴾ مَعْنًى لأنها لو كانت كَالذَّبَابِ لَشَعَرُوا بها. فَدَلَّ أنها كانت على ما هي اليوم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكاً﴾ أي سَبَّحَ اللهَ لِمَا فِهِمْ مِنْ قَوْلِ التَّمْلَةِ، وَحَمِدَ عَلَيْهِ. وَتَبَسَّمَ الأنبياءُ الشَّيْخُ.

وجائز أن يكونَ التَّبَسُّمُ هو السُّرُورُ؛ إذ التَّبَسُّمُ إنما يكونُ لِسُرُورٍ يَدْخُلُ في الإنسانِ. فقوله: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكاً﴾ أي سُرَّ بما أعطاه الله مِنْ عَظَمِ النِّعْمَةِ لَهُ وَالْمُلْكِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ الإِلَهَامَ [لِيَشْكُرَ نِعْمَةَ التي آتَاهُ الله حين] (٨) قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى رَحْمَتِكَ؟﴾ سَأَلَ رَبَّهُ الإِلَهَامَ وَاللُّطْفَ الذي يكونُ فيه لِيَشْكُرَ نِعْمَةَ. ولو كَانَ الإِلَهَامُ (٩) هو الإِعْلَامُ على ما قاله بعضُ الناسِ لم يَكُنْ سليمانَ لِسَأَلِهِ ذَلِكَ لأنه كَانَ يَعلَمُ أَنَّ عليه شُكْرَ نِعْمِهِ.

وكذلك يَعلَمُ كلُّ أَحَدٍ أَنَّ عليه شُكْرَ مُنْعِمِهِ. فَدَلَّ سؤَالُهُ الإِلَهَامَ على الشُّكْرِ أنه إنما سَأَلَ اللُّطْفَ الذي عنده، به يَشْكُرُ نِعْمَةَ، إِذَا أعطاه، وهو التَّوْفِيقُ، لا الإِعْلَامُ (١٠) الذي قالوه.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَحْمَتِكَ﴾ فيه أنه يَجِبُ على المَرْءِ شُكْرُ النِّعَمِ التي أَنْعَمَ اللهُ على والِدَيْهِ. وسَأَلَ رَبَّهُ أيضاً أَنْ يُوقِّفَهُ على الْعَمَلِ الذي يَرْضَاهُ مِنْهُ [حينَ قَالَ] (١١) ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ مَسْكُوحَةً رِضْنَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمُسْلِمِينَ﴾ جائز أن يكونَ سؤَالُهُ هذا بِإِدْخَالِهِ في ما دُكِرَ كَسؤَالِ يوسُفَ حينَ (١٢) قَالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسُفَ: ١٠١] سَأَلَ رَبَّهُ التَّوْفِيقَ على الإسلامِ والإِلْحَاقَ بِالصَّالِحِينَ.

فَعَلَى ذَلِكَ سؤَالُ سُلَيْمَانَ، يُشْبِهُ أَنْ يُخْرَجَ على ذَلِكَ. ثم فيه دلالةٌ أَنَّ النِّجَاةَ ودخولَ الجنةِ إنما يكونُ بِرَحْمَةِ اللهِ لا بِالْعَمَلِ حينَ (١٣) قَالَ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ بَعْدَ مَا سَأَلَ رَبَّهُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الْمَرْضِيَّ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أي الِهْمْنِي. والإِيزَاعُ الإِلَهَامُ، وَالْوَزْعُ الكَفُّ وَالسَّوْقُ.

وقال القُتَيْبِيُّ: وَأَصْلُ الإِيزَاعِ الإِغْرَاءُ بالشَّيْءِ؛ يُقَالُ: أَوْزَعْتُهُ بِكَذَا، أي أَغْرَيْتُهُ، وهو مُوزَعٌ بِكَذَا، ومُؤَلَّعٌ بِكَذَا.

(١) في الأصل وم: ذكر النمل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: قوله. (٤) من م، في الأصل: قوله. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٣٤١. (٦) في الأصل وم: عليه العدل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إعلام. (١١) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث.

الآية ٢٠

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِيَيْنِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه، [أنه] ^(١) قال: تذكرون كيف تقفّذ سليمان الهدهد؟ ثم قال: إنه إذا كان في فلاة من الأرض دعا الهدهد، فسأله عن بُعد الماء في الأرض وغوره، فهو يعلمه من بين غيره من الطيور. لذلك تقفّذه، وسأله عن حاله. وذكر أنه سأل ابن سلام عن ذلك، فأخبر بذلك.

لكن هذا بعيد لأن سليمان، صلوات الله عليه، كانت له الرياح مسخرة، وذكر أنها كانت تحمله، وتسير به كل غداة مسيرة شهر وكل عشية كذلك. وهو قوله ﴿وَلَمَّا بَلَغَ الْوَيْحَ عَذُّوهُمَا شَهْرًا وَرَوَّاحُهَا شَهْرًا﴾ [سبا: ١٢] فلا يحتمل إذا وقعت له الحاجة إلى الماء ألا يتلج إلى الماء حتى يحتاج إلى أن يحفر له البئر، فيستخرج منه الماء، وما كان له من الشياطين والجن مسخرين له مذلّلين حتى قال واحد منهم: ﴿أَنَا مَا لِكَ بِدِي﴾ [النمل: ٣٩] يعني عرش بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ وقال الآخر: ﴿أَنَا مَا لِكَ بِدِي قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

فمن له سلطان وقوة على القدر الذي ذكر لا يحتمل أن تقع له الحاجة إلى الماء. وإذا وقعت يحتاج إلى أن يتكلفت وصوله إليه بالهدهد مع تكلف الحفر في الأرض. هذا بعيد عزه، والله أعلم. إلا أن يخرج على الامتحان ويكون تقفّذه الطير لما كان عليه حفظهم جميعاً ومنعه إياهم عن الانتشار في الأرض والتفرق لا لما ذكروا هم، والله أعلم، لما على كل ملك وأمير حفظ رعيتيه وحاشيته والتفقد عن أحوالهم وأسبابهم. فعلى ذلك هذا.

ثم يحتمل أن يكون من كل صنف من الطير واحد لا عدد حتى قال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ إذ لو كان عدداً من الهدهد لقال: مالي لا أرى الهدهد إلا أن يكون الذي قفّذه كان رئيساً لغيره من الهدهد وسيدهم.

فجاء أن يقال ذلك ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ من بين غيره ^(٢)، يغيب عن بصري، ولا أدركه ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِيَيْنِ﴾ منهم. فكانه سأل واحداً منهم عن ذلك، فأخبر أنه من الغائبين.

الآية ٢١

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية.

فقال الباطنية في ذلك: إن سليمان لا يحتمل أن يعذب من ليس بمخاطب في شيء، ولا يجري عليه القلم، فدلّ وعيده إياه من التعذيب والذبح أنه لم يكن هدهداً معروفاً، ولكن كان رجلاً ممن يخاطب، ويجري عليه القلم. وكذلك قالوا في التمثلة: إنه كان رجلاً ممن يكون منه الكلام والفهم. وأما التمثلة المعروفة فلا يحتمل. لكن الجواب لهم في ذلك أن الله خلق هذه الدواب والطيور وغيرها من الأشياء لمتافع البشر ولحاجاتهم. فجاءت تغذيتها ودبها للرد إلى منافعهم إذا امتنع عن الإنفاع بها على ما تؤدّب الدواب، وتعدّب للرياضة والتعليم لردّها إلى الإنفاع بها. أو أن يعذب لما يشغل أحداً ^(٣) عن ذكر الله القيام ^(٤) بتغضّص أموره على ما ذكر في آية أخرى حين ^(٥) قال: ﴿إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَمِيِّ الصَّغِيرَتُ الْفِيلَاءُ﴾ ﴿فَقَالَ إِنَّ آجِبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَقًّا تَوَارَتْ بِالْجَبَابِ﴾ [ص: ٣١ و ٣٢] لما شغله عن ذكر ربه.

فعلى ذلك جاز أن يكون تعذيب الهدهد على الوجوه التي ذكرنا.

ومن الناس من استدّل بهذا على مخاطبة الطيور والدواب وغيرها وتكليفها بالأمور كما يكلف غيرها من الخلائق، واختج على هذا بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]. أخبر أن الطير وغيرها أمم أمثالنا. وأخبر في آية أخرى لم تخل أمة عن أن يكون فيها نذير بقوله: ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[ولكننا نقول: إن المراد بقوله: ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾] ^(٦) الأئمة التي هي أمثالنا من الإنس والجن. دليله قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩] ونحوه كثير.

(١) ساقطة من الأصل رم. (٢) في الأصل رم: غيرهم. (٣) في الأصل رم: يشغله. (٤) في الأصل رم: والقيام. (٥) في الأصل رم: حيث.

(٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل رم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمُّ أَتَالِكُمْ﴾ ليس في الخطاب ولكن في أشياء كثيرة.

الآية ٢٢ وقوله تعالى: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي لم يَمُكْتُ طويلاً حتى جاءه. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاءه ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ كأنه سأل: أين كُنْتَ؟ فقال عند ذلك له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وفي حَرْفِ أَبِي: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أنت ولا واحد من جنودك، أي بَلَّغْتُ ما لم تَبْلُغْ أنت، أي ^(١) عَلِمْتُ ما لم تَعْلَمْ أنت ولا واحد من جنودك.

ثم قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْتَظِرِينَ﴾ لاشك فيه.

فكانه سأله عن ذلك النَّبِيَّ، فقال عند ذلك:

الآية ٢٣

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَتْلِيَهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُؤْتَى المَلُوكُ على ما ذَكَرْنَا في قوله ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] ثم الْعَجَبُ مِنْ أَمْرِ بَلْقَيْسَ أَنْ كَيْفَ خَفِيَ خَبَرُهَا وَأَمْرُهَا عَلَى سُلَيْمَانَ كُلِّ ذَلِكَ الْخَفَاءِ، وَكَانَتْ يَقْرُبُ مِنْهُ؟ وَكَانَتْ مَلَكَةً جَبَّارَةً ذَاتَ سُلْطَانٍ وَمُلْكٍ. وَكَانَ يَذْهَبُ فِي كُلِّ غَدُوٍّ مَسِيرَةً شَهْرٍ وَفِي كُلِّ رَوَاحٍ كَذَلِكَ.

كَيْفَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى أَمْرِهَا وَخَبَرِهَا؟ وَكَانَتْ الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ مُسَخَّرِينَ لَهُ وَمُذَلَّلِينَ يَعْمَلُونَ لَهُ الْأَعْمَالَ الصَّعْبَةَ الشَّدِيدَةَ، وَيَطُوفُونَ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَفْقِ. وَكَانَ هُوَ بُعِثَ إِلَى الدُّعَاءِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ. كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَخَبَرُهَا كُلُّ هَذَا الْخَفَاءِ حَتَّى أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ الْهَذْهَدُ؟

هذا، والله، أَمْرٌ عَجَبٌ! وَمِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ أَيْضاً أَنَّهُمْ يَطَّلِعُ بَعْضُهُمْ عَلَى أُمُورِ بَعْضٍ، وَيَعْلَمُ بِأَحْوَالِهِ.

لَكِنْ يُحْتَمَلُ خَفَاءُ خَبَرِهَا لِمَا لَا يَتَجَسَّرُ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ذَلِكَ وَأَنْ يُعْلِمَهُ عَنْ حَالِهَا، وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ هُوَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ السُّؤَالِ وَطَلَبِ الْخَبَرِ تَعْظِيماً لَهُ وَاجْتِلَالاً. وَهَكَذَا الْمُلُوكُ لَيْسَ يَتَجَسَّرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى أَنْ يُخْبِرَهُمْ ^(٢) ٣٨٩ - ب/ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ وَخَبَرٍ إِلَّا بَعْدَ السُّؤَالِ إِيَّاهُ تَعْظِيماً لَهُمْ وَتَوْقِيراً.

فَعَلَى ذَلِكَ أَمْرُ سُلَيْمَانَ مَعَ بَلْقَيْسَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ لِأَمْرِ وَسَبَبٍ لَمْ يَتْلَعْنَا ذَلِكَ، وَلَمْ نَشْعُرْ بِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَقَعَّدَ الظَّيْرَ فَقَالَ نَالِكٌ لَا أَرَى الْهَذْهَدَ﴾ [النمل: ٢٠] إِنَّمَا طَلَبَ، وَتَقَعَّدَهُ لِأَنَّ الظَّيْرَ قَدْ تَوَلَّاهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنَ الشَّمْسِ. فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الظَّيْرِ وَجَدَ مَوْضِعَ الْهَذْهَدِ خَالِياً، تَقَعَّقَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿نَالِكٌ لَا أَرَى الْهَذْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ؟﴾

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] أَيْ لِأَنْتَقِمَ رِيشَهُ حَتَّى تُصِيبَهُ الشَّمْسُ. فَذَلِكَ هُوَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ. لَكِنْ لَا نَفْسُ مَا ذَلِكَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الَّذِي أَوْعَدَهُ سُلَيْمَانُ مَخَافَةَ الْكَذِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] قَالَ بَعْضُهُمْ: غَيْرَ طَوِيلٍ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ: فَمَكَتْ وَقْتًا، يَأْتِي فِي مَثَلِهِ مَنْ كَانَ بَعِيداً ^(٣)، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُعْبَرُ عَنِ الْمَكَانِ لَا عَنِ الْوَقْتِ فِي الظَّاهِرِ ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْمُنَاصَحَةَ لَهُ وَالشَّفَقَةَ؛ يَقُولُ: أَتَيْتُكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْخَبَرِ مَا لَمْ تَأْتِ أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ جُنُودِكَ، فَكَيْفَ تَعَذِّبُنِي؟

وَفِي حَرْفِ عَبْدِ اللَّهِ [ابْنِ مَسْعُودٍ] ^(٤): فَتَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَهُ. قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: مَكَتْ يَنْصَبُ الْكَافُ وَرَفْعُهَا يَمُكْتُ لَفْتَانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْتَظِرِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: حَقٌّ، لَاشْكَ فِيهِ، أَيْ عِنْدَ الْهَذْهَدِ.

أَمَّا عِنْدَ سُلَيْمَانَ فَلَا. أَلَا تَرَى أَنَّ سُلَيْمَانَ ﴿فَقَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ؟﴾ [النمل: ٢٧].

(١) من م، في الأصل: أو. (٢) في الأصل وم: يخبره. (٣) في الأصل وم: بعيد. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقفت في خبره لينظر أصدق ما يقول أم كذب؟ وقال بعضهم: ﴿يَبْكُ يَبْكِينَ﴾ أي عجيب.

ثم اختلف في قوله: ﴿مِنْ سَبِيلٍ يَبْكُ﴾ قال بعضهم: سبأ اسم رجل، تُنسب القرية إليه. وقال بعضهم: اسم بلدة. وقال أبو عوسجة: سبأ أبو اليماني. فمن جعلها اسم بلدة لم يجزه^(١)، ومن جعلها اسم رجل جره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَجَدْتُ آمْرًا تَلَكَّكُمُ﴾ كانه^(٢) على الإضمار، أي وجدت امرأة تملكهم أي تملك أهل سبأ. ألا ترى أنه قال في آخره: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ [النمل: ٢٤] ذكر القوم في آخر الآية دل أن الأهل كان مضمرًا فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ في بلادها ﴿وَمَكَاءَ عَرْشٍ عَظِيمٍ﴾ قال أهل التأويل: أي لها سرير حسن عظيم ضخم، كذا كذا ذراعاً [طوله، وكذا كذا ذراعاً]^(٣) عرشه.

وجائز أن يكون العرش كناية عن الملك؛ كانه قال ﴿وَمَكَاءَ عَرْشٍ عَظِيمٍ﴾ أي ملك عظيم.

الآية ٢٤ وقوله تعالى: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال هذا لعظم ما وقع عند الهدم من السجود لغير الله ليعلم أن الطير وغيرها من البهائم يعرفون الله، ويؤحدونه، وهو كقوله: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدَ بِحُجَّتِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٤) يعبدون الشمس من دون الله. وجائز أنهم يطيعون [الشمس وتخضعون لها]^(٥) من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْلَتْهُمْ﴾ الخبيثة السيئة حتى رأوها حسنة ﴿فَصَدَّهمْ عَنِ النَّبِيلِ﴾ وهو سبيل الله لأن المطلق هو سبيل الله، وهو الإسلام، والكتاب المطلق كتاب الله.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فإن كان هذا القول من هدم، وتأويله: ﴿فَصَدَّهمْ عَنِ النَّبِيلِ﴾ فهم غير مهتدين فإنه^(٦) لا يحتمل أن يعرف أنهم لا يهتدون في حادث الوقت.

وإن كان من الله فهو إخبار أنهم لا يهتدون [أبدًا لما علم أنهم لا يهتدون]^(٧) والله أعلم.

الآية ٢٥ وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ اختلف في تلاوته بالتخفيف والتشديد^(٨).

فمن قرأ بالتشديد ﴿أَلَا﴾ فهو يخرج على وجهين:

أحدهما: على طرح: لا، كانه يقول: فهم لا يهتدون أن يسجدوا، أي هم لا يهتدون أن يسجدوا.

والثاني: [على]^(٩) صلة قوله: ﴿فَصَدَّهمْ عَنِ النَّبِيلِ﴾ لئلا يسجدوا.

ومن قرأ بالتخفيف فهو يخرج على الأمر، أي ألا يا اسجدوا لله^(١٠).

وقال بعضهم: ألا بالتخفيف: هلا يسجدون لله. وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود أنه قرأ: هلا يسجدون لله، وهو حجة من قرأ بالتخفيف. وفي حرف أبي: ألا تسجدون لله بالتاء على المخاطبة إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. وذكر في حرف حفصة: ألا تسجدون بالنون.

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٤٤. (٢) في الأصل وم: كانها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: للشمس ويخضعونها. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٤٦ و ٣٤٧. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرجت العبارة التالية في نسخة الحرم المكي: ينبني على التالي أن يقف على قوله: ألا يا، ثم يتدنى، فيقول: اسجدوا على الأمر، إلا أنه عند الوصل تذهب ألف الوصل التي في: اسجدوا، وتذهب الألف التي في: يا لأنها ساكنة أيضاً، ولا يجمع بين ساكنين، فصارت: ألا يسجدوا، وأشد لذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مبي على البلي ولا زال منها لا يسجدوا لك القطر

قَالَ الْإِنْسَانِيُّ: وَمَنْ شَدَّدَ ﴿الْأَلَا﴾ فَنَاقِلُهُ: زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَلَا يَسْجُدُوا عَلَى مَا ذَكَّرْنَا. وَأَمَّا التَّخْفِيفُ فَهُوَ عَلَى وَجْهِ الْأَمْرِ، أَيِ اسْجُدُوا، وَالْأَلَا: صِلَةٌ، وَبِأَيِّ: صِلَةٌ أَيْضاً.

ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ يَلْزَمُهُ السُّجُودُ لِأَنَّهُ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَلْزَمَ السُّجُودُ بِمَا يَأْمُرُ غَيْرُهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَلْزَمُ فِي مَا يُخَيَّرُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَسْجُدُونَ. بَلْ لَزُومُ السُّجُودِ فِي مَا يُخَيَّرُ عَنْهُمْ لَا يَسْجُدُونَ أَوْلَى خِلَافاً لِصَنِيعِهِمْ وَإِظْهَاراً لِلطَّاعَةِ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الْخَبَاءُ مَا يُخْبَأُ مِنَ الشَّيْءِ مِمَّا ^(١) كَانَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: حَبًّا فِي السَّمَاءِ الْمَطَرُ، فَيُخْرِجُ، وَفِي الْأَرْضِ النَّبَاتُ، فَيُخْرِجُ ذَلِكَ الثَّيْبَ. وَيَحْتَمِلُ الْخَبَاءُ مَا يُخَيَّرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَغْضٍ، وَبُسَارٍ ^(٢) بَعْضُهُمْ بَعْضاً. يُخَيَّرُ أَنَّهُ يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَيُعْلَنُ ^(٣). أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُغْنُونَ وَمَا تُمْلِكُونَ﴾ عَلَى الْوَعِيدِ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ أَبَدًا؟ وَفِي حَرْفٍ حَفِصَةً: أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

الآية ٢٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، جَوَابَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَرْشُ عَظِيمٍ﴾ [يَقُولُ: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ] ^(٤) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا هِيَ؛ أَعْنِي يَلْقِيسَ.

الآية ٢٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَيِ نَنْظُرُ أَصَدَقْتَ فِي مَا أَخْبَرْتَ، وَأَتَيْتَ مِنْ أَمْرِ يَلْقِيسَ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فِي ذَلِكَ. وَقَفْتُ فِي خَبَرِهِ، وَلَمْ يُصَدِّقْهُ، وَلَمْ يُكَذِّبْهُ، إِلَى أَنْ يَظْهَرَ لَهُ الصِّدْقُ أَوِ الْكَذِبُ. وَهَكَذَا الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَخْبَرَ بِخَبَرٍ أَنْ يَقِفَ فِيهِ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ لَهُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ إِنْ كَانَ الْخَبَرُ مِمَّا ^(٥) يَحْتَمِلُ الْغَلَطَ وَالْكَذِبَ.

الآية ٢٨ ثُمَّ قَالَ لَهُ: ﴿أَذْهَبْ يَكْتَبِي هَذَا قَالِقَةً إِلَيْهِمْ﴾ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ أَمَرَ الْهُدْمَ بِالذَّهَابِ ^(٦) بِالْكِتَابِ إِلَيْهَا، وَيُؤَلِّفُهُ تَبْلِيغَ ذَلِكَ إِلَيْهَا، وَهُوَ أَغْظَمُ مِنْ خَبَرِهِ الَّذِي أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ [أَلَا] ^(٧) بَعْدَ مَا وَقَفْتُ فِي خَبَرِهِ ^(٨) قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ، وَيَظْهَرَ لَهُ صِدْقُهُ فِي خَبَرِهِ. فَذَلِكَ تَوَلُّيَّتُهُ إِتَاءَ تَبْلِيغِ الْكِتَابِ إِلَيْهَا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَهُ صِدْقُهُ فِي مَا أَخْبَرَهُ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ إِمَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَإِمَّا بِمَا ^(٩) انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ الْخَبَرِ مَا قَدْ عَلِمَ بِذَلِكَ عِلْمَ يَقِينٍ وَإِحَاطَةٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ وَلَا تَبْلِيغِ الْكِتَابِ [إِلَيْهَا حِينَ] ^(١٠) قَالَ لَهُ: ﴿أَذْهَبْ يَكْتَبِي هَذَا قَالِقَةً إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَلَّى الْكِتَابَ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ، فَانْظُرْ مَاذَا يَقُولُونَ؟ وَمَاذَا يُرَدِّدُونَ فِي مَا يَبَيِّنُهُمُ مِنَ الْكَلَامِ وَالْجَوَابِ؟
وَالثَّانِي: عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَلَّى الْكِتَابَ إِلَيْهِمْ، فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ مِنَ الْجَوَابِ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ، أَيِ اغْرِضْ عَنْهُمْ.

الآية ٢٩ فَفَعَلَ مَا قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ مِنْ إِقَاءِ الْكِتَابِ إِلَيْهَا، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْآيَةِ حِينَ ^(١١) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّ إِلَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ كَانَهُمْ قَالُوا: وَمَنْ ذَلِكَ الْكِتَابُ؟

الآية ٣٠ فَقَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْتُ كَرِيمٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ حَسَنٍ لِمَا رَأَتْ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ الْحَسَنِ وَالْقَوْلِ اللَّطِيفِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَتَبْتُ كَرِيمٌ﴾ أَيِ مَخْتَوَمٍ. وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [أَنَّهُ] ^(١٢) قَالَ: «مَنْ كَرَّمَ الْكِتَابَ خَتَمَهُ» [السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ ٣٥٣/٦] أَوْ كَلَامٍ نَحْوُ هَذَا أَوْ شَبِيهَهُ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَسِر. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَعْلَمُهُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّنْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: الذَّهَابُ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: خَبَرٍ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: إِلَيْهِمْ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

وجائز أن يكون فيه إضمار، أي إني ألقِي/ ٣٩٠- /إليّ كتاب من إنسان كريم، وسليمان كان مغروراً بالكرم؛ يُشبه أن يكون قد اتاهم خبر كريمه، والملا قالوا: هم الأشراف وأهل السؤدد.

قال الزجاج: سموا لما اجتمع عندهم من حاجات الناس وحسن الرأي والتدبير في كل شيء من الأمور، أو كلام نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو ما ذكرنا؛ كأنهم سألوها: بمن ذلك الكتاب؟ فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ وسألوها أيضاً: ما في ذلك الكتاب؟ فقالت: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَى وَثْنٍ مُسِيلِينَ﴾.

الآية ٣١ وقوله^(١) تعالى: ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَى وَثْنٍ مُسِيلِينَ﴾ قوله: ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَى﴾ أي ألا تستكبروا، ولا تتعظموا على ﴿وَثْنٍ مُسِيلِينَ﴾ مُخْلِصِينَ لَكُمْ بِالْوَحِيدِ، أي اجعلوا أنفسكم سالمة لله خالصة له، لا تجعلوا لأحد سواه فيها شريكاً ولا حقاً، لأنه أخبر أنهم كانوا يسجدون للشمس من دون الله، فتخير في الكتاب حين^(٢) افتتح بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أن الذي يستحق السجود والعبادة، هو الله الرحمن الرحيم، لا ما تعبدون أنتم.

ثم من^(٣) عادة الأنبياء والرسل الإيجاز في الكلام والرسائل، لا يشتغلون بفضول الكلام وتطويله على ما ذكر من كتاب سليمان إلى بلقيس ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَقْلُوا عَلَى وَثْنٍ مُسِيلِينَ﴾ ذكر أن هذا القدر، كان الكتاب، والله أعلم.

الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُنَبِّئُونَ بَشَأً فَاظْلَعُوا حَتَّى تَقْضُوا شَأْنَهُمْ﴾ استشارت أشراف قومها، وطلبت منهم الرأي في ذلك. وهكذا عمل الملوك وعادتهم: أنهم إذا أرادوا أمراً، أو استقبلهم أمر، يستشيرون أولي الرأي من قوميهم وأهل الحجا والتدبير منهم، ثم يعملون بتدبير، يكون لهم، وما يرون ذلك صواباً.

وعلى ذلك أمر الله رسوله أن يشاور أصحابه بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ثم أمره إذا عزم على الأمر أن يتوكل على الله في ذلك، وأن يكل الأمر إليه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَقْضُوا شَأْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: ﴿مَا كُنْتُ فَاظِلَّةً أَنْزَلَ حَتَّى تَقْضُوا شَأْنَهُمْ﴾ أو ﴿مَا كُنْتُ فَاظِلَّةً أَنْزَلَ حَتَّى تَقْضُوا شَأْنَهُمْ﴾ أنه صواب حق. فأجابوها في ما طلبت منهم الرأي والتدبير في ذلك.

الآية ٣٣ فقالوا: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن أولو قوة في أنفسنا وأولو بأس أي حزب وقاتل شديد، أي لنا معرفة في ذلك. ومع ما قالوا [ذلك]^(٤) وكلوا الأمر إليها حين^(٥) قالوا ﴿وَالْآخِرُ إِلَهُ قَانظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

وهكذا الواجب على وزراء الملوك والرعية أنهم إذا استشاروهم في أمر أن يدلّوهم على الأصوب والاختس^(٦) إليهم، ثم يكلوا الأمر إليهم.

وقصة سليمان مع ما فيها من العجائب والآداب فيها معرفة سياسة الملوك وتعلم آدابهم: من ذلك ما قال سليمان: ﴿فَهُمْ يُؤْخَذُونَ﴾ [النمل: ١٧] ومن ذلك قوله: ﴿وَتَقَعَّدَ الظَّيْرَ﴾ الآية [النمل: ٢٠] وقوله: ﴿لَا تُدْبِرُهُ عَذَابُ شَكِيدَا﴾ [النمل: ٢١]، ومن ذلك استشارة بلقيس أشراف قومها في ذلك، وجوابات قومها لها، وإخبارها إياهم: من طبع الملوك وعادتهم الإفساد والقتل والإذلال حين^(٧)

الآية ٢٤ ﴿قَالَ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قال أهل التأويل: هذه شهادة من الله لها بما قالت، والتصديق لها في ما أخبرت أنهم كذلك يفعلون بكبرائهم.

الآية ٢٥ ثم قالت: ﴿وَلِيَّ مَرْيَلَةَ إِلَهُم بِهَدْيَةٍ قَانظِرِي يَم يَتَّعِ الْمُرْسَلُونَ﴾ ذكر أنها قالت: إن لي في هذا رأياً: فإن يك

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل: أن، وأدرج قبلها في م: أن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: والحسن. (٧) في الأصل وم: حيث.

صاحب دُنْيَا قَعَسَى أَنْ تُرْضِيَهُ بِالْمَالِ، فَيَسْكُتَ عَنَّا، وَيَكْفُ شَرُّهُ، وَإِنْ يَكُنْ نَبِيًّا فَلَا يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنَّا، وَسَنَعْرِفُ. فَعَمِلْتَ ذَلِكَ، وَأَرْسَلْتَ إِلَيْهِ بِهَدَايَا، فَلَمْ يَقْبَلْهَا سُلَيْمَانُ، فَعَرَفْتَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

وهذا كَانَ مِنْهَا تَدْبِيرًا وَحُسْنُ رَأْيٍ^(١) فِي الْأَمْرِ وَاخْتِيَالًا؛ وَقَفْتَ فِي ذَلِكَ، لَمْ تَشْتَغِلْ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ عَلَى مَا أَشَارَ لَهَا قَوْمُهَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَتْ بَلْقِيسُ لَمَّا آتَاهَا كِتَابُ سُلَيْمَانَ، وَاسْتَشَارَتْ قَوْمَهَا فِي ذَلِكَ، وَطَلَبَتْ قُنْيَاهُمْ، فَأَقْتَرُوا لَهَا بِمَا أَتَتْهُ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ، فَإِنْ قَبِلَهَا فَهُوَ مِلْكُكَ، فَأَحَارَبَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ، أَتَابَعَهُ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: «فَنَاطِرَةٌ» أَنْظَرَتْهُ نَظْرَةً أَيْ أَهْلَكَتْهُ، وَالنَّظْرَةُ فِي الدِّينِ خَاصَّةٌ، وَهِيَ^(٢) الْإِنْظَارُ.

الآية ٢٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ» الرُّسُولُ الَّذِي [بَعَثْتَهُ بِبَلْقِيسَ إِلَيْهِ بِالْهَدِيَّةِ]^(٣) وَيَحْتَمِلُ «فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ» الْمَالُ الَّذِي بُعِثَ إِلَيْهِ. يَحْتَمِلُ ذَا أَوْ ذَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ» أَيْ أَتَقْطَعُونَنِي^(٤) بِمَالٍ. وَقَالَ أَهْلُ الْأَدَبِ: «أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ» مِنَ الْمَدَدِ، وَالْمَدَدُ الزِّيَادَةُ كَمَا يَمْدُ الْقَوْمُ، وَيَكُونُ الْإِعْطَاءُ كَقَوْلِهِ: «وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَيْكِهِمْ وَلَحْرِ مَنَا يَشْتَهَوْنَ» [الطور: ٢٢] وَيَحْتَمِلُ هَذَا^(٥) الزِّيَادَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْنَاهُ» أَيْ مَا آتَانِي اللَّهُ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ «خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْنَاهُ» مِنَ الْأَمْوَالِ. وَيَحْتَمِلُ «فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ» فَادِيَتُكُمْ^(٦) إِذَا أَتَيْتُمُونِي مُسْلِمِينَ «خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْنَاهُ» إِنْ لَمْ تُؤْتُونِي [مُسْلِمِينَ]^(٧) أَوْ آتَيْتُمُ الْإِسْلَامَ، أَوْ كَلَامٌ نَحْوُ هَذَا.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: «فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ» مِنَ الْمُلْكِ «خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْنَاهُ» مِنَ الْمُلْكِ لِأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالطُّيُورَ وَالرِّيَّاحَ وَجَمِيعَ الْأَشْيَاءِ. فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُلْكِهَا.

وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ وَاقْرَبُ؛ إِذْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَفْتَخِرَ سُلَيْمَانُ بِمُلْكِهِ عَلَى غَيْرِهِ، إِنَّمَا يَكُونُ افْتِخَارُهُ بِالْدِّينِ وَالنَّبُوءَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «بَلْ أَتَتْهُ يَدَيُّكَ تَقْرَحُونَ» قَالَ بَعْضُهُمْ: «بَلْ أَتَتْهُ يَدَيُّكَ تَقْرَحُونَ» إِذَا رُدَّتْ إِلَيْكُمْ. لَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ [لِأَنَّ الْمُهْدِيَّ]^(٨) لَا يَفْرَحُ بِرَدِّ الْهَدِيَّةِ إِذَا رُدَّتْ عَلَيْهِ هَدِيَّتُهُ، وَلَمْ تُقْبَلْ [بَلْ يَحْزَنُ]^(٩) عَلَى ذَلِكَ، وَيَهْتَمُّ. لَكِنَّهُ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: «بَلْ أَتَتْهُ يَدَيُّكَ تَقْرَحُونَ» بَلْ أَنْتُمْ أَوْلَى بِالْفَرْحِ بِالْمَالِ وَالْهَدَايَا مِنَّا؛ إِذْ مُرَادُكُمْ الْمَالُ وَالْدُّنْيَا، وَمُرَادُنَا الدِّينُ وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ، أَوْ كَلَامٌ نَحْوُ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ٢٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَتَجِإُ إِلَيْهِمْ فَلَآتَيْنَهُمْ بِمُتَوَدِّعٍ لَا قِلَ لِمَنْ يَهَّأُ» قَالَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِلرُّسُولِ الَّذِي آتَاهُ بِالْهَدِيَّةِ «أَتَجِإُ إِلَيْهِمْ فَلَآتَيْنَهُمْ بِمُتَوَدِّعٍ لَا قِلَ لِمَنْ يَهَّأُ» أَيْ لِنَاتِيَتِهِمْ بِجَنُودٍ، لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهَا، إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ «وَلَتُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَوْ لَةً وَهُمْ سَوْفُونَ» إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ.

الآية ٢٨ ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ ﷺ: «يَتَأْتِيَ الْهَرَمُ» إِنَّمَا خَاطَبَ بِهِ أَشْرَافَ قَوْمِهِ. وَهَكَذَا الْعَادَةُ فِي الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إِذَا خَاطَبُوا أَحَدًا بِشَيْءٍ إِنَّمَا يُخَاطَبُونَ أَهْلَ الشَّرَفِ وَالْمَنْزِلَةِ مِنْهُمْ «إِلَيْكُمْ يَأْتِي بِعَرِيضَةٍ قَدْ أَنْ يَأْتُونَ مُسْلِمِينَ» قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّهُ عَلِمَ، نَبِيُّ اللَّهِ، أَنَّهُمْ مَتَى^(١٠) اسْلَمُوا تَخَرَّمُوا أَمْوَالَهُمْ مَعَ دِمَائِهِمْ، فَاحْبَبَ أَنْ يُؤْتَى بِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

لَكِنَّ هَذَا مُحَالٌ بَعِيدٌ وَخَشَى مِنَ الْقَوْلِ؛ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ رَغْبَةُ سُلَيْمَانَ فِي الْأَمْوَالِ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ بَعْدَمَا رَدَّ هَدَايَاهَا

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الرَّأْيِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَهُوَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعَثَ بِبَلْقِيسَ الْهَدِيَّةِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَتَعَطُونَنِي. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: هَذِهِ. (٦) م، فِي الْأَصْلِ: فَأَتَيْنَهُمْ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ وَم: بِالْحَرْبِ. (١٠) م، فِي الْأَصْلِ: حِينَئِذٍ.

إليها، واختير أنكم تفرحون بها لأنكم أهل دُنيا؛ إذ رَغِبَ أهل الدنيا في الأموال، ونَحَنُ، أهل الدين، رَغَبْنَا في الدين، به نَفْرَحُ، وَنَسْتَعِجِلُ كُلَّ هَذَا الْإِسْتِعْجَالِ رَغْبَةً فِي مَالِهَا وَعَرْشِهَا.

لكنه، والله أعلم، يُخْرِجُ على وجهين:

أحدهما: أنه أراد أن يُرِيَهُمْ قُوَّتَهُ وَسُلْطَانَهُ: أَنْ يَرَفَعَ وَاحِدًا مِنْ جُنُودِهِ عَرْشَهَا مَعَ عِظَمِ مُمَاعَايَةِ مِنْهُمْ وَمُشَاهَدَةِ، وَحَمَلُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذَا لَقَادِرٌ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ، لَا طَاقَةَ لَهُمْ [بِهَا] ^(١) تَضَدِّيقًا لِمَا قَالَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا يَكُنْ لَكُمْ فِيهَا﴾ [وإنه] ^(٢) يَفْدِرُ عَلَى قَهْرِهِمْ وَعَلَبَتِهِمْ.

والثاني: أراد أن يُرِيَهُمْ آيَةً مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ إِذَا آتَوْهُ [وهي أن يَأْتَوْهُ] مُسْلِمِينَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ، لَيْسَ بِمَلَكٍ.

وهذا التأويل الذي ذَكَرْنَا آيَةً لِقَوْلِهِ ^(٣): ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ مُسْلِمِينَ﴾ / ٣٩٠ - ب/ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلَكٍ.

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ مُسْلِمِينَ﴾ أي صَالِحِينَ. وذلك جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ.

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا بَالِيكُ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَقَامُهُ مَجْلِسُهُ الَّذِي كَانَ يَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَفْرَغَ مِنْ قَضَائِهِ حَتَّى يُؤْتَى بِهِ ﴿رَأَى عَلَيْهِ لَقَؤُا۟ أَمِينٍ﴾ لِأَنَّ الْجِنَّ أَقْوَى مِنَ الْإِنْسِ.

وَصَفَتْ نَفْسَهُ بِالْأَمَانَةِ لِأَنَّ الْجِنَّ، لَا يَزْغِبُونَ الْأَمْوَالَ مَا تَرَعَّبَ الْإِنْسُ.

وقال بعضهم: أَمِينٌ عَلَى عَرْشِ ^(٤) تِلْكَ الْمَرْأَةِ، مَقَامُهُ: مَجْلِسُ الرَّجُلِ، يَكُونُ فِيهِ حَتَّى يَقُومَ. وَلَكِنْ لَا نَذَرِي مَا أَرَادَ بِمَقَامِهِ الَّذِي ذَكَرَ.

الآية ٤٠ وقوله تعالى: أَرَادَ سُلَيْمَانُ أَنْ يَكُونَ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الْكَتَبِ﴾ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ: ﴿أَنَا إِلَهِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي ارْتِدَادِ طَرْفِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَنْ يَنْبَعَثَ رَسُولًا إِلَى مُنْتَهَى طَرْفِهِ، فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يُؤْتَى بِهِ [وَقَالَ] ^(٥) بَعْضُهُمْ: هُوَ الرَّجُلُ، يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ الْبَعِيدِ [فَيُؤْتَى بِهِ] ^(٦) قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ طَرْفُهُ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(٧): ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: دَخَلَ فِي نَفْقِ الْأَرْضِ، فَخَرَجَ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ؛ يَعْنِي الْعَرْشَ. كَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ إِذْ دَعَاهُ بِذَلِكَ الْأَسْمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَحَمَّلَ هُوَ حَمْلُهُ وَإِتْيَانُهُ.

فَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ الْآيَاتِ قَدْ تَجَرَّيَ عَلَى غَيْرِ أَيْدِي الرُّسُلِ. لَكِنْ تَكُونُ الْآيَةُ لِلرُّسُلِ، وَإِنْ كَانَتْ تَجَرِّي عَلَى غَيْرِهِمْ. ثُمَّ قَالَ مَدَّ مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَلْزَمَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهُ مَا جَعَلَهُ فَخْرًا وَلَا أَشْرًا وَلَا بَطْرًا، لَكِنَّهُ جَعَلَهُ شُكْرًا وَتَوَاضَعًا.

وَقَالَ ^(٨) بَعْضُهُمْ: لَمَّا دَعَا ذَلِكَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ الْأَسْمِ، فَرَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ، وَقَعَ فِي قَلْبِ سُلَيْمَانَ شَيْءٌ، وَخَطَرَ بِبَالِهِ أَنَّهُ يَكُونُ رَجُلٌ عِنْدَهُ عِلْمٌ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ قَالَ، فَعَزَّمَ اللَّهُ لَهُ عَلَى الْخَيْرِ؟ وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ مِمَّنْ حَوَّلَكَ اللَّهُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿مَدَّ مِنْ فَضْلِ رَبِّي يَقُولُ: مَا أُعْطِيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَا لَمْ يُعْطِنِي﴾ لِيَلْزَمَنِي أَشْكُرُ إِذْ كَانَ مِثْلُهُ تَحْتَ يَدِي ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ لَكِنْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى مَا أُعْطِيَ غَيْرَهُ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿مَدَّ مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ إِتْيَانَهُ أَوْلَئِكَ مُسْلِمِينَ أَوْ النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ.

[وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ] ^(٩): ﴿مَدَّ مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ تَسْخِيرَ ^(١٠) مَا سَخَّرَ لَهُ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى] ^(١١): ﴿لِيَلْزَمَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أَي لِيَفْتَحَنِي ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُنَّ لِنَفْسِهِ﴾ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَحِنُ بِالشُّكْرِ، وَيَأْمُرُهُ بِهِ لَا لِمَنْفَعَةٍ الْمُتَمَتِّعِينَ [وَلَكِنْ لِمَنْفَعَةِ] ^(١٢) الْأُمُورِ بِهِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) في الأصل وم: لكنه. (٤) في الأصل وم: فرح. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أراد. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْحَ غَيْرٍ كَرِيمٍ﴾ غني عن شكره، كريم، يقبل القليل منه واليسير.

الآية ٤١

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: ﴿نَكِّرُوا﴾ أَيِ غَيَّرُوا لَهَا عَرْشَهَا، كَأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُغَيَّرُوا بَعْضُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ لِيَمْتَحِنَهَا: أَتَعْرِفُ^(١) أَنَّهُ عَرْشُهَا أَمْ لَا؟

وَالْمُنْكَرُ هُوَ الَّذِي لَا يُعْرِفُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تُنْكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] وقوله: ﴿نَكَّرْتُمْ وَأَوَجَسَ بَيْنَهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] أَيِ لَمْ يُعْرِفْهُمْ، وقوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ كَانَ يَجِبُ أَنْ يُقَالَ: نَكَّرُوا عَرْشَهَا، وَتَكُونُ ﴿لَهَا﴾ زَائِدَةً، إِلَّا أَنْ يُقَالَ ﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ أَيِ نَكَّرُوا لِأَجْلِهَا عَرْشَهَا، وَهَذَا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ.

وقوله تعالى: ﴿تَنْظُرُ أَنْتَ بِنَدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّوِيلِ: ﴿أَنْتَ بِنَدَى﴾ أَنَّهُ عَرْشُهَا أَمْ لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِ؟

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿تَنْظُرُ﴾: ﴿أَنْتَ بِنَدَى﴾ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى دِينِ اللَّهِ؟

الآية ٤٢

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: شَبَّهَتْ هِيَ عَلَيْهِمْ، وَلَبَسَتْ أَمْرَهُ كَمَا فَعَلُوا هُمْ بِهَا مِنْ تَغْيِيرِ عَرْشِهَا عَلَيْهَا وَتَلْيِيسِهِ عَلَيْهَا. لَكِنْ قَوْلُهَا: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لَمْ تَقْطَعْ فِيهِ الْقَوْلَ لَمَّا رَأَتْ فِيهِ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّكْثِيرِ، وَرَأَتْ فِيهِ سَرِيرَهَا^(٢)؛ وَقَفَتْ فِيهِ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أَنَّ الْعَرْشَ، لَمْ يُحْمَلْ، وَهِيَ نَائِمَةٌ، عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّوِيلِ: إِنَّهُ حُمِلَ دُونَهَا مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ جَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أَمَرَهُمْ أَنْ يُغَيِّرُوا عَرْشَهَا، وَهِيَ عَلَيْهِ، لَمْ تَشْعُرْ بِوَيْ؟ هَذَا بَعِيدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوَيْنَا آلِهَةً مِنْ قَبْلِهَا رِجَالًا شُكَّيْنًا﴾ إِنْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ سُلَيْمَانَ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَوَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ عِلْمِنَا بِهِ أَنَّهُ عَرْشُهَا، وَلَنَا غُنْيَةٌ عَنِ السُّؤَالِ لَهَا عَنْهُ، لَكِنْ نَسَأَلُهَا مُسْتَحْزِرِينَ عَنْ ذَلِكَ مُمْتَحِنِينَ لَهَا.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالًا شُكَّيْنًا﴾ أَيِ صَرْنَا مُسْلِمِينَ جَمِيعًا، أَوْ يَكُونُ هَذَا [القول: ﴿رِجَالًا شُكَّيْنًا﴾]^(٣) صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] فَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي قَالَ: ﴿وَأَوَيْنَا آلِهَةً مِنْ قَبْلِهَا رِجَالًا شُكَّيْنًا﴾ وَلَا فِي الظَّاهِرِ لَيْسَ هَذَا صِلَةً مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٣

وقوله تعالى: ﴿وَمَدَّ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَصَدَّهَا عِبَادَتُهَا الشَّمْسَ وَالْأَصْنَامَ الَّتِي عَبَدُوهَا دُونَ اللَّهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَصَدَّهَا سُلَيْمَانُ عَنْ عِبَادَتِهَا [التي]^(٤) كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِأَنَّهُا ذُكِرَ أَنَّهَا اسْلَمَتْ.

الآية ٤٤

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [وقال بعضهم: الصَّرْحُ]^(٥) حِصْنُ الدَّارِ، وَهُوَ قَوْلُ الرَّجَاجِ. وَقَالَ الْقَتَّيْبِيُّ وَأَبُو عَوَسَجَةَ وَأَكْثَرُ أَهْلِ التَّوِيلِ: الصَّرْحُ هُوَ الْقَصْرُ. ثُمَّ لَا تَذَرِي مَا سَبَبُ بِنَاءِ^(٦) ذَلِكَ الصَّرْحِ؟ وَمَا سَبَبُ أَمْرِهَا بِإِيَّاهَا بِالْدُخُولِ فِيهِ وَكَشْفِهَا عَنْ سَاقِيهَا؟

أَمَّا أَهْلُ التَّوِيلِ فَإِنَّهُمْ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَتِ الْجِنُّ: لَمَّا أَقْبَلَتْ بِلَقِيْسٍ لَقَدْ لَقِينَا^(٧) مِنْ سُلَيْمَانَ مَا لَقِينَا مِنَ التَّعَبِ، فَلَوْ اجْتَمَعَ سُلَيْمَانُ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ وَمَا عِنْدَهَا مِنَ الْعِلْمِ لَهَلَكْنَا، وَكَانَتْ أُمُّ هَذِهِ الْمَرْأَةِ جَنِّيَّةً، تَعَالَوْا [نَعْبُهَا، وَنَكْرُهَا]^(٨) إِلَى سُلَيْمَانَ. فَقِيلَ لِسُلَيْمَانَ: إِنَّ رِجْلَيْهَا مِثْلُ حَافِرِ الدَّوَابِّ، لِأَنَّ أُمَهَا، كَانَتْ جَنِّيَّةً، فَأَمَرَ سُلَيْمَانُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَنَبِيَّ لَهُ بَيْتٌ مِنْ قَوَارِيرَ فَوْقَ الْمَاءِ، وَأَرْسَلَ فِيهِ السَّمَكَ لِيَحْسَبَ أَنَّهُ مَاءٌ، فَتَكَشَّفَتْ عَنْ رِجْلَيْهَا، فَنَظَرَ سُلَيْمَانُ: أَصَدَقَتِ الْجِنُّ أَمْ كَذَبَتْ؟

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ فَظَنَرُ إِلَيْهَا سُلَيْمَانُ، فَإِذَا هِيَ أَحْسَنُ النَّاسِ قَدَمَيْنِ وَسَاقَيْنِ. فَلَمَّا رَأَتْ الْجِنُّ أَنَّ سُلَيْمَانَ رَأَى سَاقِيهَا قَالَتِ الْجِنُّ: لَا تَكْشِفِي عَنْ سَاقِيكِ ﴿إِنَّهُ صَرَخَ مُرَدَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾.

(١) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: سرورها، في م: سررها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: هناك. (٧) في الأصل وم: آتينَا. (٨) في الأصل وم: تنقصها ونكرها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ ذُكِرَ لِسُلَيْمَانَ أَنَّ عَلَى سَاقِهَا شَعْرًا، وَأَنَّهُمَا شَعْرَاوَانِ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ لِيَعْرِفَ ذَلِكَ.

وقال بعضهم: لا، ولكن خافَتِ الْجِنُّ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَرَوَّجَهَا سُلَيْمَانُ، فَتَفَشَّى إِلَيْهِ ^(١) أَشْيَاءَ كَانُوا أَظْلَعُوهَا عَلَيْهَا ^(٢)، وَأَفْشَوْا إِلَيْهَا، فَأَرَادُوا أَنْ يُكْرِهَوْهَا إِلَيْهِ، فَطَعَنُوهَا بِعُيُوبٍ فِي عَقْلِهَا وَجِسْمِهَا ^(٣)، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلَا تُرِيدُ عَقْلَهَا؟ فَإِنَّ فِي عَقْلِهَا شَيْئًا. قَالَ: بَلَى، فَجَاءَتِ الْجِنُّ بِمَاءٍ، فَأَجْرَوْهُ [فِي صَحْنِ الدَّارِ] ^(٤) فَتَرَكُوهُ لُجَّةً، ثُمَّ جَاؤُوا بِالسَّمَكِ وَالضَّفَادِعِ، فَأَرْسَلُوهَا فِي الْمَاءِ، ثُمَّ جِيءَ بِهَا إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَفَّتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ فَقَالُوا لِسُلَيْمَانَ: فِي عَقْلِهَا أَفَةٌ، أَلَا تَرَى أَنَهَا لَا تَعْرِفُ الصُّرْخَ مِنَ الْمَاءِ، وَلَا تُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا، أَوْ نَحْنُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ؟

لَكِنْ لَا نَعْلَمُ مَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ وَلَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ يَخْتَالُ هَذِهِ [الْحِيلَةَ] ^(٥) لِيَنْظُرَ إِلَى سَاقِيهَا، وَهِيَ أَجْنَبِيَّةٌ.

ثم جازئ أن يكون لغير ذلك أراد أن يريها آية من آيات نبوته حين^(٦) اتخذ صرحاً ممرداً من قوارير، يرى [أنه ماء]^(٧) للطاقية، وذلك خارج عن تدبير البشر لتعلم هي أن ذلك تذيير السماء لا تذيير البشر، أو أن يكون أراد بذلك، والله أعلم / ٣٩١ - أ/ أن يريها عظم ملكه وسلطانه لتعلم أنه يفعل ما يشاء، قادر على ذلك، لا تنفعها سوى الطاعة له والإجابة والخضوع لله والإسلام له.

فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فِي مَا عَبَدْتُ دُونَ اللَّهِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ اخْلَصْتُ، وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: عَفْرِتُ، أَي شَدِيدٌ وَثِيقٌ. وَأَصْلُهُ الْعَفْرُ، زِيدَتِ التَّاءُ فِيهِ؛ يُقَالُ: عَفْرِتُ، نَفْرِتُ، [وَعَفَارِيَّةٌ وَنَفَارِيَّةٌ]^(٨)، وَعَفَارِيْتُ وَنَفَارِيْتُ.

قال القُتَيْبِيُّ: الْغَفْرِيُّ الْحَبِيثُ الْمَارِدُ، وَعَفَارِيثُ جَمِيعٌ، وَقَالَ: ﴿وَصَدَقًا﴾ أَي رَدَّهَا، وَمَنْعَهَا، وَقَالَ: الصَّرْحُ الْقَصْرُ، وَالصُّرُوحُ جَمِيعٌ، وَلُجَّةُ الْمَاءِ الْمُجْتَمَعُ الْكَثِيرُ، وَقَالَ: الْمُمَرَّدُ، وَهُوَ الْمُتَمَلِّسُ بِالطَّيْنِ أَوْ بِالْجِصِّ أَوْ بِمَا كَانَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمُجَرَّدُ الطَّوِيلُ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: وَمِنْ ذَلِكَ يُقَالُ: الْأَمَرْدُ الَّذِي لَا شَعَرَ عَلَى وَجْهِهِ، وَيُقَالُ لِلرَّمْلَةِ الَّتِي لَا تُنْبِتُ مَرْدَاءً، وَيُقَالُ: الْمُمَرَّدُ الْمُطَوَّلُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِبَعْضِ الْحُصُونِ: مَارِدٌ.

وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: الْمَمْرُذُ الْأَمْلَسُ، وَيُقَالُ: مِنْهُ سُمِّيَ الْأَمْرُذُ أَمْرَدًا.

الآية ٤٥ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ هَذَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وَأَمَرْنَاهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: اعْبُدُوا اللَّهَ.

وَجَاءَتْهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ﴾ بِالرَّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلْنَاهُ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.

وقوله: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ: وَحْدُوا اللَّهَ، وَيَحْتَمِلُ الْعِبَادَةَ نَفْسَهَا: أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مِمَّنْ فَيَكُنِ يَخْتَمِسُونَ﴾ قيل: فريقان: [مؤمن ب صالح، ومُكذَّب^(١)] بو، ولم يُبينَ فيمَ كانت خصوصتهم؟ وبينَ منَ كانت^(٢) في هذه الآية. لكنه بيّن في آية أخرى، وفَسَّرَ، وهو ما ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَفْعَلُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمْنَوْنَ أَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّهِ رَاسِلُونَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفَرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ و٧٦].

هَذِهِ الْخُصُومَةُ الَّتِي ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فِي لَبَاسٍ يُخَيَّمُونَ﴾ بَيْنَ الرُّسَاءِ مِنَ الْكُفْرَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِصَالِحٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في م: إليها. (٢) في الأصل وم: عليه. (٣) في الأصل وم: ونفسها. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وعفريت ونفريت. (٩) في الأصل وم: وهو من يصلح ويكذب. (١٠) من م، في الأصل: كان.

الآية ٤٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفَرُ لِمَ تَسْتَغِيلُونَ بِالْهَيْئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لم تستغجلون بالهيئة قبل الرحمة، واستعجلالهم العذاب والهيئة ذكر في آية أخرى، وهو قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَسَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا نَبْدَأُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فذلك استعجالهم الهيئة قبل الحسنة. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لولا تؤخرون، ولا تشركونا غيره في العبادة وتسمية الإلهية لكي يرحمكم. وفيه إطماع لهم: لو آمنوا، وتابوا [عن الشريك^(١)] لرحمهم كقوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يَغْفِرَ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

الآية ٤٧

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَلَمْ يَنْزِلْ بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ﴾ أي تشاء منا منك وبين معك. لم ينزل الكفرة [يقولون^(٢)] لرسول الله، صلوات الله عليهم، ولمن آمن معهم: ﴿أَلَمْ يَنْزِلْ بِكَ﴾ إذا أصابهم الشدة والبلاء؛ يتظيرون بهم، ويتشأمون، ويقولون: إنما أصابنا هذا بشؤمكم. وإذا أصابهم رخاء وسعة قالوا: هذا لنا، بنا، ومن أنفسنا، وهو ما قال قوم موسى حين^(٣) قالوا: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣١] وكذلك قال أهل مكة لرسول الله حين^(٤) قال: ﴿وَإِنْ تُعِينَهُمُ سَيْفَةٌ يَفْرُقُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

كانوا يتظيرون برسول الله، ويتشأمون بما يصيبهم من الشدة وما ينزل بهم من البلاء، فأخبر الله رسوله، وأمره أن يقول لهم: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] أي الرخاء والشدة من عند الله ينزل، وهو باعث ذلك لا أنا. فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿طَعْنَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ما ينزل بكم، ويصيبكم من الشدة والرخاء إنما ينزل من عند الله، لا بنا، ولا بكم. أو يقال: ما ينزل بكم من العذاب في الآخرة إنما يصيب بتكذيبكم إيتي في الدنيا، أو يقال: ﴿طَعْنَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي جزاء طيئركم عند الله؛ هو يعجزكم بها بعذاب الدنيا والآخرة.

[وقوله تعالى^(٥)]: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَعَبُونَ﴾ بالعذاب بما تكسبون من الأعمال في الدنيا، أي تعذبون بها.

قال أبو عوسجة: ﴿طَعْنَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول: الله أعلم بطائركم وما تطيئركم^(٦) به.

وقال القتيبي: ﴿طَعْنَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ليس ذلك بي، وإنما هو من الله، وهو ما ذكرنا.

الآية ٤٨

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثَ فِي الدِّيْنَةِ نِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ قال بعضهم: الرهط إنما يقال: من ثلاثة إلى تسعة، وإذا نقص عن ذلك، أو زاد، يقال: رجال.

وقال أبو عوسجة: الرهط: نفر، وراهط ورهوط جميع.

ثم يَحْتَمِلُ الرهط وجهين

أحدهما: ﴿نِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة نفر من الاتباع والرؤساء^(٧)، ﴿يُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

والثاني: ﴿نِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي^(٨) تسعة نفر من الرؤساء، ولكل واحد منهم رهط من الاتباع ﴿يُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وجائز^(٩) أن [يكون^(١٠)] هذا إخباراً من الله أنهم يقيدون أبدأ في الأرض، ولا يؤمنون أبداً. وجائز أن يكون إخباراً عن حالهم، أي يعملون الفساد والمعاصي، ولا يصلحون، أي لا يسعون بالصلاح.

وقال ابن عباس: إن هؤلاء التسعة كانوا من أبناء أشرافهم، وكانوا [في أرض جبر نمود^(١١)] وكانوا فاسقاً، فقال بعضهم لبعض: لنقتل صالحاً وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِزَلِيلِهِ﴾ أي لقوميه من رثتيه: ما قتلناه.

الآية ٤٩

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ دُنَىٰ لِقَوْلِ رَبِّهِمْ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ فتحالفوا على

(١) في الأصل وم: عنه. (٢) ساقطة من الأصل وم: (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم: (٦) من م: في الأصل: تطيئركم. (٧) في الأصل وم: وغيره. (٨) في الأصل وم: لا. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم: (١٠) ساقطة من الأصل وم: (١١) في الأصل وم: بالحجرة، انظر جامع البيان ج ١٩/ ١٧٢.

ذَٰلِكَ، فَأَتَوْا صَالِحًا لَيْلًا، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ بِأَسْيَافِهِمْ لِيَقْتُلُوهُ، وَعِنْدَ صَالِحٍ مَلَائِكَةٌ، جَاءُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، يَخْرُسُونَهُ، فَقَتَلُوا الرَّفِطَ فِي دَارِ صَالِحٍ بِالْحِجَارَةِ.

الآية ٥٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ بِصَالِحٍ وَاهِلِهِ ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أَيِ اهْلَكْنَاهُمْ ﴿وَمَنْ لَا يَتَعَرَّتْ﴾ أَنَّهُمْ يَهْلِكُونَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَؤُلَاءِ التَّسْعَةُ الرَّفِطُ تَوَاتَقُوا أَنَّهُمْ يُبَيِّنُونَ صَالِحًا، وَيَقْتُلُونَهُ وَاهِلَهُ بَعْدَ مَا عَقَرُوا الناقةَ، وَقَالُوا فِي مَا بَيْنَهُمْ: فَإِنْ خُوصِمْنَا فِي ذَلِكَ لَنَقُولَنَّ، وَنُقَاسِمَنَّ ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أَيِ مَا حَضَرْنَا فِي هَلَاقِهِمْ. عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَكُونُ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأَخِيرِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَؤُلَاءِ التَّسْعَةُ، كَانُوا شِرَارَ قَوْمِهِ، خَرَجُوا بِخُمْرٍ إِلَى بَعْضِ الْمَغَارِ [لِيَشْرَبُوا هُنَاكَ] ^(١) ثُمَّ لِيُبَيِّنُوا عَلَى صَالِحٍ وَاهِلِهِ، فَشَرَبُوا هُنَاكَ، فَأَنهَضَتْ بِهِمُ الصَّخْرَةُ، وَغَضِبُوا فِيهِ. فَذَٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا﴾ بِقَتْلِ صَالِحٍ وَهَلَاقِهِ ﴿مَكْرًا﴾ وَمَكَرْنَاهُمْ حِينَ ^(٢) اهْلَكْنَاهُمْ ﴿مَكْرًا وَمَنْ لَا يَتَعَرَّتْ﴾ وَالْمَكْرُ هُوَ الْاِخْذُ بَغْتَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَمَنْ لَا يَتَعَرَّتْ﴾ أَيِ جَزَيْنَاهُمْ جَزَاءَ مَكْرِهِمْ. ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قِرَاءَةِ ﴿لَتَبَيَّنَنَّ وَأَهْلُهُ لَنَقُولَنَّ﴾ بِالنُّونِ. فَذَٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِيُغَضِّ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بِالتَّاءِ ^(٣): لَتَبَيَّنَنَّ وَاهِلُهُ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ. فَذَٰلِكَ قَوْلُ الرُّؤَسَاءِ لِلاتِّبَاعِ. وَمَنْ قَرَأَهُ بِالْيَاءِ ^(٤) يَجْعَلُهُ خَبْرًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ.

الآية ٥١ (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَتَبَعِينَ﴾. هَذَا ظَاهِرٌ) ^(٥).

الآية ٥٢ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ يَبُوءُكُمْ خَاوِيَةً﴾ بِمَا ظَلَمُوا، أَيِ لَمْ تُسْكِنْ فِيهَا أَحَدًا، وَلَكِنْ تَرَكْنَاهَا خَالِيَةً كَذَٰلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَاوِيَةً﴾ أَيِ خَرِبَةٍ ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ خَاوِيَةٍ عَلَىٰ غُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩ / ٣٩١ - ب / أَيِ سَاقِطَةِ خَرِبَةٍ. وَقَدْ كَانَ ذَٰلِكَ كُلُّهُ؛ مِنْهَا جَعَلَ لِغَيْرِهِمْ سَكْنًا إِذَا اهْلَكَهُمْ مِنْ نَحْوِ مَا أَوْرَثَ بَنِي إِسْرَائِيلَ دِيَارَ الْفَيْفِطِ وَأَمَوَالَهُمْ، وَأَنْزَلَهُمْ فِيهَا، وَمِنْهَا مَا تَرَكَهَا كَذَٰلِكَ خَالِيَةً بَعْدَ مَا اهْلَكَ أَهْلَهَا، وَخَرِبَهَا، وَتَرَكَهَا كَذَٰلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ فِي هَلَاقِ مَنْ ذَكَرَ [فِي] ^(٦) الْآيَةِ، وَلِغَيْرَةِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾.

الآية ٥٣ (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْيَنَّا آلَإِيكَ﴾ أَمِنُوا وَكَانُوا يَسْتَفْتُونَ﴾ مُخَالَفَةً أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

الآية ٥٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ مَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ كَانَ فِيهِ إِضْمَارٌ ^(٨)؛ كَأَنَّهُ قَالَ: أَرْسَلْنَا لوطًا ﴿أَتَأْتُونَ الْفَتِحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أَيِ أَتَاوْنَ الْفَاحِشَةَ، وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّهَا فَاحِشَةٌ؟

الآية ٥٥ (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ لَنَاؤُنَ الْإِنَّمَالُ شَهْوَةً﴾ أَيِ اِشْتِهَاءٍ لَكُمْ ﴿مِنْ دُونِ الْإِنَّمَالِ﴾؟ يَقُولُ: أَتَأْتُونَ الذَّكَورَ، وَتَدْعُونَ النِّسَاءَ؟ وَهُوَ مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَكِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ، أَيِ تُجَاهِلُونَ الْأَمْرَ، فَتَغْضُونَ.

فَيْشِبُهُ أَنْ [يَكُونَ] ^(١٠) هَذَا جَوَابُ قَوْلِ، كَانَ مِنْ قَوْمِهِ، نَحْوُ مَا ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُعْجِزِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] فَقَالَ عِنْدَ ذَٰلِكَ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ﴾ مَا تَقُولُونَ، أَيِ عَنْ جَهْلِ مَا تَقُولُونَ ذَٰلِكَ أَوْ كَلَامَ نَحْوِ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا لَوْ طِيبَ قَرِينِكُمْ﴾ قَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ كَذَا فِي وَقْتٍ لَا فِي الْأَوَاقَاتِ كُلِّهَا، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْهُمْ قَوْلٌ وَجَوَابَاتٌ نَحْوُ مَا ﴿قَالُوا أَفَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وَنَحْوُهُ وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَلْمَهُرُونَ﴾.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: جَائِزٌ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤/ ٣٥٨. (٤) انْظُرْ مَعْجَمَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ج ٤/ ٣٥٨. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: إِضْمَارٌ. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

ذَلْ هَذَا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا يَأْتُونَ، وَيَعْمَلُونَ، أَنَّهُ خُبْتُ وَفُحْشٌ وَمُنْكَرٌ حِينَ^(١) قَالُوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾. ثُمَّ يَخْتَمِلُ قَوْلُهُ هَذَا وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ بِهِمْ.

وَالثَّانِي: ﴿قَالُوا آخِرًا مَالِ لُوطٍ﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْتَفْذِرُونَ^(٢) أَعْمَالَنَا وَأَفْعَالَنَا.

وَالثَّالِثُ: عَلَى التَّحْقِيقِ: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾.

الآية ٥٧

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ فيه دلالة أنَّ غَيْرَ الرُّوْحَةِ يَجُوزُ أَنْ تُسَمَّى أَهْلًا. قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: أَهْلُهُ بَنَاتُهُ.

وقوله: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ دلالة خَلْقِ أفعالِ العبادِ حِينَ^(٣) أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ وَالْعُبُورُ الْبَقَاءُ بِفِعْلِهَا^(٤). فَأَخْبَرَ أَنَّهُ قَدَّرَ ذَلِكَ مِنْهَا، وَخَلَقَ. وقوله: ﴿مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي الباقين في عذابِ الله. وفي^(٥) حَرْفِ ابْنِ سَعْدٍ: وَلَقَدْ وَفَّيْنَا إِلَيْهِ أَهْلَهُ كُلَّهُمْ^(٦) ﴿إِلَّا عَجْرًا فِي الْغَائِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١ والصافات: ١٣٥].

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي سَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [الذين]^(٧) لَمْ يَقْبَلُوا الْإِنذَارَ، وَلَمْ تَنْفَعَهُمُ النَّذَارَةُ.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَسَدٍ لِّلَّهِ أَمَرَ نَبِيَّ بِالْحَمْدِ لَهُ وَالنَّشَاءِ عَلَيْهِ عَلَى إِهْلَاكِ^(٨) أَعْدَاءِ الرُّسُلِ الْخَالِيَةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اسْتَطَفَى﴾ وَهُمْ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ إِثَاءً بِالْحَمْدِ لَهُ وَالنَّشَاءِ عَلَيْهِ لِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ: مِنْهَا مَا [ذَكَرَ مِنْ إِهْلَاكِ]^(٩) أَعْدَاءِ الرُّسُلِ وَإِبْقَاءِ أَوْلِيَائِهِمْ تَخْوِيفًا لِأَعْدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَهْلِكَهُمْ^(١٠) كَمَا أَهْلَكَ أَعْدَاءَ الرُّسُلِ الْخَالِيَةِ. أَوْ أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ إِثَاءً بِالْحَمْدِ لَهُ وَالنَّشَاءِ عَلَيْهِ لِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ [النِّعَمِ: مِنْ]^(١١) النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَالْهِدَايَةِ وَنَحْوِهَا^(١٢)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اسْتَطَفَى﴾ يَخْتَمِلُ الرُّسُلَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] وَيَخْتَمِلُ الْأَمْرَ بِالسَّلَامِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أَمَرَ رَسُولَهُ بِالسَّلَامِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَعَلَى أَصْحَابِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿اسْتَطَفَى﴾ دلالة أن لا أَحَدٌ يَسْتَوْجِبُ الصَّفْوَةَ إِلَّا بِاللَّهِ حِينَ^(١٣) قَالَ: ﴿اسْتَطَفَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِالْأَمَمِ^(١٤) الْخَالِيَةِ مِنْ [إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ]^(١٥) وَإِبْقَاءِ الرُّسُلِ وَالْأَوْلِيَاءِ أَمْ الْأَصْنَامُ الَّتِي تُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟

يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ، يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ مِنْ إِهْلَاكِ أَعْدَائِهِ وَإِبْقَاءِ رُسُلِهِ، وَالْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، لَا تَمْلِكُ شَيْئًا. فَكَيْفَ تُشْرِكُونَ فِي أُلُوهِيَّتِهِ؟ وَإِلَّا لَمْ يَذْكُرْ جَوَابَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جَوَابُهُ أَنْ يَقُولُوا: بَلِ اللَّهُ خَيْرٌ.

وَكَذَلِكَ رُويَ فِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنْ ثَبِتَ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قُرَأَ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ: بَلِ اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ» [القرطبي في تفسيره: ٢٠٤/١٣].

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا وَأَخْرَجْنَا بِهِ أَشْجَارًا مِمَّا تَبْتَغُونَ﴾ يَذْكُرُهُمْ بِهَذَا وَجْهَانِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَسْتَفْذِرُونَ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: فَعَلَهَا. (٥) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: كُلُّهَا. (٧) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: هَلَاكَ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَرُوا مِنْ هَلَاكَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَهْلِكُوا. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَنَحْوَهُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِالْأَمَمِ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: الْهَلَاكَ لِلْأَعْدَاءِ.

أَخَذَهُمَا: قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي خَلْقِ مَا ذَكَرَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِنْبَاتِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِخْرَاجِهِ عَلَى أَفْرَادِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَكَيْفَ أَشْرَكْتُمْ بِهِ غَيْرَهُ: مَنْ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَلَا يُقَدِّرُ فِي تَسْمِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ؟

والثاني: يُخْبِرُ عَنِ اتِّسَاقِ الْأُمُورِ وَالتَّذْيِيرِ فِيهِمَا جَمِيعاً وَاتِّصَالِ مَنَافِعِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ عَلَى تَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَعْلَمَ أَنَّ مَنِيَّتَهُمَا^(١) وَمُدَبَّرَتُهُمَا وَاحِدٌ، لَا عَدَدَ. فَإِنْ عَرَفْتُمْ ذَلِكَ فَكَيْفَ أَشْرَكْتُمْ بِهِ غَيْرَهُ فِيهَا؟ وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهذا الحَرْفُ عَلَى الثَّنَوِيَّةِ وَالذَّهْرِيَّةِ؛ وَهَؤُلَاءِ لِقَوْلِهِمْ بِالْعَدَدِ وَإِنكَارِهِمُ الْوَاحِدَ، وَالْأَوَّلُ: عَلَى الْمُقَرِّينَ بِالْوَاحِدِ إِلَّا أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا الْأَصْنَافَ فِي التَّسْمِيَةِ وَالْعِبَادَةِ.

وقوله تعالى: ﴿حَدَّثَ ذَاتَ الْبَهْجَةِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَدَاتُ: الْحَيْطَانُ وَالْبَسَاتِينُ مَا دُونَ الْحَيْطَانِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَدَاتُ: الْحَوَائِطُ الَّتِي خُصَّتْ بِالْأَشْجَارِ، وَالْبَسَاتِينُ هِيَ الْمَلْتَقَةُ بِهَا. وَقَالَ أَبُو عَرَسَةَ: الْحَدَاتُ الْبَسَاتِينُ وَالرِّيَاضُ، وَالْحَدِيقَةُ الرُّوضَةُ.

وقَالَ الْفَتَّيُّ: الْحَدَاتُ الْبَسَاتِينُ، وَاجِدَتُهَا حَدِيقَةً، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَخْدُقُ بِهَا، أَيْ تَحْطُرُ ﴿ذَاتَ الْبَهْجَةِ﴾ لِمَا يَتَّبِعُ صَاحِبُهَا إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا، وَيُسْرِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمُ أَنْ تُلْبَسُوا شَجَرَهَا﴾ أَيْ مَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا فَمَنْ هُوَ دُونَكُمْ أَشَدُّ وَابْعَدُ، فَكَيْفَ أَشْرَكْتُمْ فِي الْعِبَادَةِ وَتَسْمِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ مَنْ هُوَ دُونَكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟

وقوله تعالى: ﴿أَيُّكُم مَعَ اللَّهِ﴾ أَيْ لَا إِلَهَ مَعَ اللَّهِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا^(٢): ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أَيْ يَجْعَلُونَ مَنْ لَا يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ عَدِيلاً لِلَّهِ.

وَالثَّانِي: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أَيْ يَعْدِلُونَ عَنِ اللَّهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُدُولِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦١ [وقوله تعالى^(٣): ﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يَقْرُونَ عَلَيْهَا، وَيَتَعَيَّشُونَ فِيهَا، أَوْ يَبْنُونَ ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ يَنْتَقِعُونَ بِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ، وَيَشْرَبُونَ ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أَيْ جِبَالًا^(٤) لئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ.

[وقوله تعالى^(٥): ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: جَعَلَ بَيْنَ بَحْرِ [الْفُرْسِ وَبَحْرِ] الرُّومِ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ حَاجِزًا، وَسَمَّى جَزِيرَةَ لِمَا جَزَرَ الْمَاءُ فِيهَا، أَيْ ذَهَبَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَحْرُ الشَّامِ وَبَحْرُ الْعِرَاقِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ حَاجِزًا بِلُطْفِهِ، وَلَا يَخْتَلِطُ هَذَا بِهَذَا، وَلَا هَذَا بِهَذَا لُطْفًا مِنْهُ؛ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ وَلُطْفَهُ: أَنْ كَيْفَ أَشْرَكْتُمْ فِي عِبَادَتِهِ وَالْوَهْيِيَّةِ مَنْ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَصَرَفْتُمْ شُكْرَهَا إِلَى غَيْرِ الْمُنْعِمِ؟

[وقوله تعالى^(٦): ﴿أَيُّكُم مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾] يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا^(٨): لِأَنَّ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ/ ٣٩٢ - أ/ بِمَا يَعْلَمُ فَكَأَنَّهُ جَاهِلٌ. نَفَى عَنْهُمْ الْعِلْمَ لِتَرْكِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ كَمَا نَفَى عَنْهُمْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَاللِّسَانَ وَالْعَقْلَ لِتَرْكِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ فِي الْجَوَارِحِ وَالْحَوَاسِّ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْجَوَارِحُ وَالْحَوَاسُّ. فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ نَفَى الْعِلْمَ عَنْهُمْ لِتَرْكِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ.

وَالثَّانِي: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِمَا لَا يَتَكَلَّفُونَ النَّظَرَ فِي مَا ذَكَرَ، أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مَنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَمِل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: الْجِبَال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) فِي الْأَصْلِ: الْفَارُوسُ بَحْرٌ، فِي م: الْفَارُوسُ وَ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى الصَّلَةِ بِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَنْ يَمْلِكُ إِجَابَةَ الْمُضْطَرِّ وَكَشْفِ السُّوءِ عَنْهُ وَجَعْلَكُمْ الْخُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ أَمَّنْ لَا يَمْلِكُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً؟

فجواب ذلك أن يقولوا: بل الذي يملك ذلك خيرٌ ممن لا يملك، ولا يقدر ذلك. أو يُخْرِجُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُمَا: أحدهما: أنكم تعلمون أن الذي يجيب المضطر، ويكشف السوء، هو الله تعالى، لا الأصنام التي تعبدونها، فكيف أشركتموها في الإلهية والعبادة؟

والثاني: أنه إذا أجاب دعوة المضطر، وكشف السوء [عنه، وجعلكم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ بَعْدَ هَلَاكِ أَوَائِلِكُمْ، فَيَذُلُّ ذَلِكَ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا عَدَدَ؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِعْلٌ عَدَدٌ لَكَانَ إِذَا أَجَابَ هَذَا، وَكَشَفَ السُّوءَ، رَدًّا^(١) الْآخَرُ، وَمَنَعَ. فَذُلُّ بَقَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَاتِّساقُ الْأَمْرِ أَنَّهُ وَاحِدٌ، لَا شَرِيكَ لَهُ.

فهذا على الثنوية، والأول على المشركين غيرَه في العبادة له وتسمية الإلهية [وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أَي لَا إِلَهَ مَعَ اللَّهِ ﴿فَلَيْلَا مَا تَدْعُونَ﴾.

الآية ٦٣

وعلى ذلك يُخْرِجُ قَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

الآية ٦٤

وكذلك قوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ يَمْلِكُ الْبَغْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ [وَالْإِحْيَاءَ. وَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَرْزُقَ الْخَلْقَ كُلَّهُ^(٢)] يُلْزِمُهُمُ الْبَغْثَ بِهَذَا، أَي مَنْ يَقْدِرُ هَذَا يَقْدِرُ مَا ذَكَرَ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أَي لَا إِلَهَ مَعَ اللَّهِ، بَلِ اللَّهُ الْمُتَقَرِّدُ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ يَعْبُدُونَ، وَيُشْرِكُونَ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْذِقِينَ﴾ أَي مَنْ لَجَّ فِي هَذَا، أَوْ أَنْكَرَ ذَلِكَ، ادَّعَى الشُّرْكَ فِيهِ لِغَيْرِهِ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْذِقِينَ﴾ فِي مَقَالَتِكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿بُشْرًا﴾ مِنَ الْبَشَارَةِ [وَمَنْ قَرَأَ نُشْرًا وَنُشْرًا وَنُشْرًا بِالنُّونِ فَهُوَ^(٣)] مِنَ التَّفْرِيقِ وَالرُّفْعِ.

وقوله تعالى: ﴿خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يَخْلُفُونَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ.

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: وَوَاحِدُ الْخُلَفَاءِ خَلِيفٌ، وَوَاحِدُ الْخَلَائِفِ خَلِيفَةٌ، وَالْخَلِيفُ مِنَ الْخَالِيفِ كَالْعَلِيمِ مِنَ الْعَالِمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: يَفْعَلُ ذَلِكَ بِكُمْ: يَرْزُقُكُمْ، وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، وَيُنْبِتُ مِنَ الْأَرْضِ مَا تَأْكُلُونَ، وَتَرْعَى أَنْعَامُكُمْ. أَوْ مَعَ اللَّهِ إِلَهُ، يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَيُرْسِلُ لَكُمْ الرِّيحَ بُشْرًا، أَوْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ عَنْهُ، وَكُلُّ مَا ذَكَرَ؟ أَي لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ سِوَاهُ. بَلِ اللَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِكُمْ، فَكَيْفَ أَشْرَكْتُمْ غَيْرَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ عَلَى عِلْمِ مَنْكُمْ أَنَّ الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ، لَا يَمْلِكُ شَيْئاً: أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِكُمْ؟ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وَقِلَّةَ بَصَرِهِمْ وَمَغْرَفَتِهِمْ. ثُمَّ قَالَ^(٤): ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا فَعَلَ ذَلِكَ بِكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْذِقِينَ﴾.

الآية ٦٥

وقوله^(٥) تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ﴾ [أَحَدٌ^(٦)] مِمَّنْ تَعْبُدُونَ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَعْْبُدُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَبَعْضُهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَنْ فِي الْأَرْضِ. يَقُولُ: لَا يَعْلَمُ [أَحَدٌ^(٧)] مِمَّنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ. إِنَّمَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ اللَّهُ.

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وإحياء. (٣) في الأصل: ونشرا من النون، في م: ونشرا بالنون، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٦٤. (٤) الضمير يعود على أبي معاذ. (٥) في الأصل وم: ثم قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم قوله: ﴿الْغَيْبِ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ما يَغِيبُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ.

والثاني: لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، أي ما كَانَ، وما يكونُ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ، لا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ. وإذا عَلِمُوا عَلِمُوا ذَلِكَ [مِنْ اللَّهِ تَعَالَى] ^(١).

ومنهم مَنْ صَرَفَ الْغَيْبَ إِلَى الْبَغْثِ وَالسَّاعَةِ، يقول: لا يَعْلَمُ السَّاعَةَ أَحَدٌ مَتَى تَكُونُ إِلَّا اللَّهُ؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يَتَّبِعُونَ﴾ قال أهل التاويل: وما يَشْعُرُ أَهْلُ مَكَّةَ مَتَى يُبْعَثُونَ؟ لكن لو كَانَ الْجَهْلُ عَنْ وَفْتِ الْبَغْثِ فَأَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي جَهْلِهِمْ بِوَفْتِ الْبَغْثِ شَرْعاً سَوَاءً، لا أَحَدٌ يَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُ مَتَى يُبْعَثُ؟ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ فِي مُنْكَرِ الْبَغْثِ، فحينئذٍ جَانِزٌ صَرْفُهُ إِلَى بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ.

فأما فِي وَفْتِ الْبَغْثِ فَالنَّاسُ فِي جَهْلِهِمْ بِوَفْتِ الْبَغْثِ سَوَاءً، وهو ما قَالَ فِي [آيَةٍ] ^(٢) أُخْرَى: ﴿يَسْتَلْزِمُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلًا﴾ [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ أَحَدٌ عَلَى عِلْمِ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ.

الآية ٦٦

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهَا عَنْهُمْ﴾ اخْتَلَفَ فِي قِرَائَتِهِ وَتَأْوِيلِهِ. أما القراء ^(٣) فإنه قَرَأَ بَعْضُهُمْ ﴿أَذْرَكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالْأَلْفِ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَذْرَكَ بِالسَّاقِطِ الْأَلْفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بَلَى بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ فِي بَلَى وَعَلَى الْوَقْفِ عَلَيْهَا، وَ: أَذْرَكَ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ: بَلَى. أَذْرَكَ؟

ومنهم مَنْ قَرَأَ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ: بَلْ أَذْرَكَ عَلَى غَيْرِ إِثْبَاتِ الْيَاءِ فِي حَرْفٍ: بَلْ وَعَلَى غَيْرِ قَطْعٍ مِنْهُ؟

فَمَنْ قَرَأَ: أَذْرَكَ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى غَيْرِ الْإِسْتِفْهَامِ فيقول: معناه: تَدَارَكَ، واجْتَمَعَ، أي تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ. يقول: أَبْلَغَ ^(٤) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ؟ أي لَمْ يَذْرُكْ، وَلَمْ يَبْلُغْ [فِي الدُّنْيَا] ^(٥) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهَا عَنْهُمْ﴾ بِسَفْهِهِمْ ^(٦) وَيَجْهَلِهِمْ. يقول: مَا بَلَغَ عِلْمُهُمْ بِالْآخِرَةِ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ؟ أي أَمْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، أي غَابَ عِلْمُهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ، وَأَذْرَكَ فِي الْآخِرَةِ حِينَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ.

وَعَنِ الْحَسَنِ [أَنَّهُ] ^(٧) قَالَ: بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ [أَيِ اضْمَحَلَّ] ^(٨) وَذَهَبَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ [أَنَّهُمْ] ^(٩) قَالُوا: بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ [بَلِ اجْتَمَعَ عِلْمُهُمْ بِأَنَّ الْآخِرَةَ] ^(١٠) كَانَتْ، وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ قَالَ: يَقُولُونَ مَرَّةً: الْآخِرَةُ كَانَتْ، ثُمَّ يَشْكُونَ فِيهَا، فَيَقُولُونَ: مَا نَذَرِي أَكَانَتْ هِيَ أَمْ لَا ﴿بَلْ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهَا عَنْهُمْ﴾ يَعْنِي: جَهْلُهُمْ بِهَا.

وَجَانِزٌ أَنْ يُسَمَّى الشَّاكُّ فِي شَيْءٍ أَعْمَى ^(١١).

وَأَبُو عَوَسَجَةَ وَالْقُتَيْبِيُّ يَقُولَانِ ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ أَي تَدَارَكَ ظَنُّهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَتَتَابَعَ بِالْقَوْلِ ^(١٢) ﴿بَلْ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهَا عَنْهُمْ﴾ أَي مِنْ عِلْمِهَا.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ: لَا تَسْتَقِيمُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ فِي بَلَى وَالصَّلَاةَ بِالْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ بَلَى بِالْيَاءِ إِنَّمَا يُقَالُ فِي الْإِجَابِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ، هُوَ عَلَى الْإِنْكَارِ وَالتَّنْكِهِ، وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَيْتًا لَمُخْرِجُونَ﴾ كَانَهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لِأَحَدٍ وَجْهَيْنِ: إمَّا اسْتِهْزَاءً بِمَا يُخْبِرُهُمُ الرُّسُلُ أَنْكُمْ تُبْعَثُونَ، أَوْ قَالُوا ذَلِكَ اخْتِجَاجاً؛ اخْتَجَّجُوا بِهِ عَلَى الرُّسُلِ بِقَوْلِهِمْ الَّذِي قَالُوا:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٦٥ - ٣٦٧. (٤) في الأصل وم: أبلغ. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ليقيم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: عميا. (١٢) في م: في القول.

الآية ٦٨

﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَجُّونَ، قَيِّمُولُونَ: لقد وعدنا^(١) آباؤنا بالبعث كما وعدنا نحن، ثم لم ترهم بعثوا منذ ماتوا. فعلى ذلك نحن وإن وعدنا فلا نبعث كما لم يبعث آباؤنا.

الآية ٦٩

وقوله^(٢) تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول، والله أعلم: لو سيرتكم، فنظرتكم إلى ما حلَّ بمكذبي الرُّسل من العذاب، والرُّسل إنما كانوا يَدْعُونَ إلى توحيد الله والإقرار بالبعث بعد الموت، فعلى^(٣) ذلك ينزل بكم ما أنزل بأولئك بتكذيبهم الرُّسل بالبعث وغيره.

فيكون قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ليس على حقيقة الأمر بالسَّير، ولكن على ما ذكرنا، أي لو سيرتكم لعرَّفْتُمْ ما حلَّ بهم بتكذيبهم. ويَحْتَمِلُ^(٤) أن يكون الأمر بالسَّير في الأرض أمراً بالتفكير في ما نزل بأولئك، والأمر/٣٩٢ - ب/ بالنظر في عاقبة أمرهم أمراً^(٥) بالاعتبار فيهم. وفي أمر أولئك أمر بهذا ليُزجرهم ذلك عن مثل صنيعهم وفعلهم.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قال قائلون: قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بما يحلُّ بهم من العذاب إن لم يَحْزَنُوا هم على أنفسهم، ولم يَزَحْمُوا.

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يُسَلِّمُوا كقولهِ^(٦): ﴿فَلَمَّا كَذَبْتُمْ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وكقولهِ: ﴿فَلَمَّا كَذَبْتُمْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨] وأمثال ذلك.

كأدت نفسه تهلك، وتثَلَّفَ إشفاقاً عليهم بما ينزل بهم بتركهم الإسلام، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [وقال]^(٧) ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: ٨] ليس على النهي، ولكن على تسكين نفسه وتقريرها على ما هي عليه لثلاث تثلَّفَ، وتهلك. وهو ما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي سَبِيلِ مَنَّا يَمْكُرُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي سَبِيلِ مَنَّا﴾ يَسْتَهْزِئُونَ بكم، وَيَسْخَرُونَ، بما تُوعِدُهُم من العذاب والهلاك.

الآخر: ترى أنهم قالوا على إثر ذلك ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ [النمل: ٧١] قالوا ذلك له استهزاء بما يُوعِدُهُم. فكانه قال لرسوله: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي سَبِيلِ مَنَّا﴾ يَسْتَهْزِئُونَ بما تُوعِدُهُم فإن الله يجزيهم جزاء استهزائهم بكم.

والثاني: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي سَبِيلِ مَنَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مما يريدون، ويهتُمُونَ بِقَتْلِكَ، فإن الله يَحْفَظُكَ، وَيَحْوَطُكَ، فلا يَصِلُونَ إليك مما يريدون من قتلِكَ وإهلاكِكَ، وهو ما قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفيه دلالة إثبات رساليته حين^(٨) أمته، وأخبره أنه يَحْفَظُهُ، وَيَعْصِمُهُ من جميع الأعداء، وهو بين أظهرهم. فذلك آية من آيات النبوة والرسالة، والله أعلم.

الآية ٧١

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قد ذكرنا أنهم إنما يقولون ذلك استهزاء وتكديباً بما كان يُوعِدُهُم من العذاب بتكذيبهم إياه. ثم كان يُوعِدُهُم مرةً بعذاب ينزل بهم في الدنيا كما نزل بأوائِلهم بتكذيبهم الرُّسل، ومرةً يُوعِدُهُم بعذاب ينزل بهم في الآخرة، فيكذبونه في ذلك كله، وَيَسْتَهْزِئُونَ به ﴿وَيَقُولُ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وكذلك قال أوائِلهم لِرُسُلِهِمْ: ﴿فَأَنبِئْنَا بِمَا نَعِدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

الآية ٧٢

وقوله^(٩) تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدٌّ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: قوله: ﴿رَدٌّ لَّكُمْ﴾ بعد هذه الحال وبعد هذا القول الذي قالوا: ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي ينزل بكم بعد هذه الحال بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ، وهو العذاب. وقوله: ﴿رَدٌّ لَّكُمْ﴾ أي يذنو منكم، وَيَقْرُبُ.

(١) في الأصل وم: وعدنا. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: فكل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أمر. (٦) من م، في الأصل: لقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

والثاني: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾ بَعْدَ الْحُزْنِ وَالْمَكْرُوهِ الَّذِي يَحُلُّ بِكُمْ بِالْمَوْتِ ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذاب القبر، لأنهم وَقَتِ الْمَوْتَ يَحْزَنُونَ، وَيَكْرَهُونَ، لِمَا شَاهَدُوا، وَعَانُوا مِنْ حَالِهِمْ. وَلِذَلِكَ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الرَّجُوعَ وَالرَّدَّ إِلَى الْمِخْنَةِ ثَانِيًا نَحْوَ قَوْلِهِمْ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِي﴾ [المؤمنون: ٩٩] وقولهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وَنَحْوَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وجوهاً:

أحدها: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ في تأخير العذاب عنهم ﴿وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ، وَلَكِنْ يَسْتَعْجِلُونَ.
والثاني: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في دينهم في بَغْيِهِ وَإِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ مَنْ يَزْجِرُهُمْ، وَيَضْرِفُهُمْ عَمَّا يَسْتَوْجِبُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَمَقْتِهِ، وَهُوَ الرَّسُولُ. لَكِنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا^(١) الْفَضْلِ، وَلَا يَشْكُرُونَهُ، بَلْ يُعَانِدُونَهُ، وَيُكَابِرُونَهُ.
والثالث^(٢): ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. لَكِنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ فِي ذَلِكَ، بَلْ يَضْرِفُونَ شُكْرَهُ إِلَى غَيْرِ الْمُنْعَمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقوله: ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَا تُكِنُّونَ أَنْتُمْ فِي صُدُورِكُمْ، وَتُسِرُّونَ فِيهَا، وَمَا تُعْلِنُونَ أَيَّ مَا تُبْدُونَ، وَتُظْهِرُونَ مِنْهَا^(٣). يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ.
والثاني^(٤): مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ، أَيَّ مَا تُخْفِي أَنْفُسُ الصُّدُورِ، وَتُسِرُّ فِيهَا ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وَمَا تُخْلِي الصُّدُورُ أَصْحَابَهَا عَلَى إِبْدَاءِ مَا فِيهَا وَإِظْهَارِهِ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ فِي الْحَبْرِ حِينَ^(٥) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ جَمِيعُ بَدَنِهِ» [البخاري ٥٢٠] وَهُوَ الْقَلْبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ عَلَاقٍ فِي السَّمَاءِ﴾ مِمَّا كَانَ، وَيَكُونُ أَبَدَ الْأَبْدِينَ إِلَّا كَانَ مُبِينًا ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يُخْبِرُ أَنَّهُ كَانَ، وَلَمْ^(٦) يَزَلْ عَالِمًا بِمَا كَانَ مِنْهُمْ [وَيَكُونُ]^(٧) أَبَدَ الْأَبْدِينَ، وَأَنَّهُ عَنْ عِلْمٍ بِأَفْعَالِهِمْ وَصُنْعِهِمْ؛ خَلَقَهُمْ، وَأَنْشَأَهُمْ، لَا عَنْ جَهْلِ وَغَفْلَةٍ.

والثاني: ﴿وَمَا مِنْ عَلَاقٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيَّ مَا مِنْ غَائِبَةٍ عَنِ الْخَلْقِ: مَا يَغِيبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيُسِرُّ بَعْضُهُمْ [مِنْ بَعْضٍ]^(٨) إِلَّا كَانَ ذَلِكَ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مُحْفُوظًا مَرْقُوبًا، يُنَبِّهُهُمْ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ يَقُولُ: إِنْ مَا يَغِيبُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ مُحْفُوظٌ رَقِيبٌ، لَا [يَغِيبُ]^(٩) عَنْهُ شَيْءٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] أَيَّ أَعْجَلَ لَكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفَعُ عَلَى بَيْتِ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مَقْطُوعٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفَعُ عَلَى بَيْتِ إِسْرَءِيلَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: يَقْضَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ، أَيَّ يُبَيِّنُ لَهُمْ. ثُمَّ قَالَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ هُوَ مُوَصُولٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفَعُ﴾ أَيَّ يُبَيِّنُ ﴿عَلَى بَيْتِ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ﴾ مِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

فَإِنْ كَانَ عَلَى مَا يَقُولُ هَذَا فَهَمْ بِأَنْفُسِهِمْ يُبَيِّنُونَ الْإِخْتِلَافَ الَّذِي هُمْ فِيهِ، لَا يَخْتَاجُونَ^(١٠) إِلَى أَنْ يُبَيِّنَ الْقُرْآنُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِذْ هُمْ يُبَيِّنُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْرِفُونَ هَذَا. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: فِيهَا. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) الْوَاوِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: بَعْضًا. (٩) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: يَحْتَاجُ.

ولكن تأويله، والله أعلم، أن هذا القرآن يُبين لهم الحكم في أكثر ما يختلفون فيه، أو يُبين لهم الحق في أكثر ما يختلفون فيه.

وفي ظاهر الآية أنه يُبين لهم ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وأنه^(١) قد بقي شيء مما اختلفوا فيه لم يُبين حين^(٢) قال: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

لكن قوله: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يُبين لهم ما فيه نص القرآن، ولم يُبين لهم ما فيه دليل القرآن، أو يُبين لهم ما فيه نص القرآن، ولم يُبين ما فيه سنة القرآن ونحوه، والله أعلم.

الآية ٧٧ وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ أَيُّ الْقُرْآنِ الَّذِي ذَكَرَ ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ هُدًى وَرَحْمَةً، أَيُّ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ أَتْبَعَهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَجَلَ بِهِ، وَرَحْمَةً فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ هُوَ هُدًى وَرَحْمَةً لِمَنْ آمَنَ بِهِ.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ حُكْمُهُ هُوَ عَدْلُهُ. كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِعَدْلِهِ؛ لَا يَجُورُ، وَلَا يَظْلِمُ فِي الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، الْعَلِيمُ: الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، عَزِيزٌ بِذَاتِهِ، عَالِمٌ بِذَاتِهِ.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيِ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَاعْتَمِدْ عَلَيْهِ، وَلَا تَخَفْ مَكْرَهُمْ وَمَا يُرِيدُونَ، وَيَقْصِدُونَ أَنْ يَكِيدُوا بِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَمْصُرُكَ/ ٣٩٣ - ١/ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ لِأَنَّ مَعَكَ حُجَجًا^(٣) وبراهين، ليس مع أولئك حُجَجٌ وبراهين، [وإن]^(٤) كان كلٌّ منهم يقول: أنا على الحق، فانت على الحق المبين، لا هم، لِأَنَّ مَعَكَ حُجَجًا^(٥) وبراهين [أن]^(٦) الذي أنت عليه حق، وأن الذي هم عليه باطل، ليس بحق.

الآية ٨٠ [وقوله تعالى]^(٧): ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تَسْمِعُ النُّفُسَ الَّتِي إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: بَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَادَى يَوْمَ بَذْرِ: يَا فُلَانُ، وَيَا فُلَانُ، وَهُمْ قَتَلُوا بَعْدَ مَا أَمَرَ أَنْ يَجْمَعُوا فِي قُلَيْبٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ أَلَمْ تَكْذِبُوا نَبِيَّكُمْ، وَتَكْفُرُوا بِرَبِّكُمْ^(٨)، وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ﴾.

لكن عندنا أن الله تعالى سَمَّى [الكُفْرَةَ مَوْتًا]^(٩) فِي غَيْرِ آيَةٍ^(١٠) مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا لَمْ يُجْهِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِبَادَةِ [الله]^(١١) وَلَا اسْتَعْمَلُوهَا فِي طَاعَتِهِ. فَهُمْ كَالْمَوْتِ، وَسَمَاءُهُمْ صُمًّا لِمَا لَمْ يَسْمَعُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَسَمَاءُهُمْ بُكْمًا لِمَا لَمْ يَنْطِقُوا بِالْحَقِّ، وَلَا تَكَلَّمُوا بِهِ، وَسَمَاءُهُمْ غُمًّا لِمَا لَمْ يَبْصُرُوا الْحَقَّ، وَسَمَاءُهُمْ مَوْتًا لِمَا لَمْ يَسْتَعْمِلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي الْحَقِّ. فَتَنَّى عَنْهُمْ هَذِهِ الْحَوَاسِّ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِذِهِ الْحَوَاسِّ، وَلَا اسْتَعْمَلُوهَا فِي مَا أَنْشِئْتُ، وَخَلَقْتُ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْحَوَاسُّ.

فَعَلَى ذَلِكَ سَمَاءُهُمْ مَوْتٌ وَهَلَكٌ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ شَبَّهَهُمْ بِالْأَنْعَامِ، وَاخْبَرَ أَنَّهُمْ ﴿أَصْلٌ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لِمَا لَمْ يَسْتَعْمِلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَا أَنْشِئْتُ هِيَ لَهُ، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَسْمِعُ النُّفُسَ الَّتِي إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ اخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُسْمِعَ النُّفُسَ، إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُسْمِعَ النُّفُسَ، وَإِنْ أَتَوْا مُقْبِلِينَ، وَلَمْ يُؤَلُّوا؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُمْ صَارُوا صُمًّا، لَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا سَمِعُوا لِإِعْرَاضِهِمْ وَتَرْكِ مَكَانِ^(١٢) النَّظَرِ فِيهِ، وَلَوْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِ لَانْتَفَعُوا بِهِ، فَيَصِيرُ مُسْمِعًا لَهُمْ؛ يُخْبِرُ عَنْ شِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ أَنَّهُمْ كَالنُّفُسِ الْمُدْبِرِينَ، لَا يُمَكِّنُ إِسْمَاعَهُمْ وَتَفْهِيمَهُمْ بِجَهْدٍ: بِالْإِشَارَةِ وَالْإِيمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

الآية ٨١ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِنَّ﴾ وَفِي بَعْضِ الْقَرَاءَاتِ: وَمَا أَنتَ تَهْدِي الْعُمَى عَنْ

(١) الروا ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حجج. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) من الأصل وم: حجج.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: ربكم. (٩) في الأصل وم: الكافر ميتا. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: المكان.

ضَلَّالَتِهِمْ^(١). هذا يَدُلُّ أَنْ لَيْسَ كُلُّ الْهَدَى الْبَيَّانَ عَلَى مَا قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْهَدَى كُلُّهُ بَيَّانًا فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ عَلَى مَا قَالُوا هُمْ لَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ [لِلْكَافِرَةِ ضَلَالَتَهُمْ]^(٢) وَقَدْ بَيَّنَّ لَهُمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ رَسُولَهُ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدَى السَّيِّئِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ فَذَلَّ هَذَا أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ هِدَايَةً وَلُظْفًا لَوْ^(٣) سَأَلُوهُ، وَطَلَبُوا مِنْهُ ذَلِكَ، فَأَعْطَاهُمْ، لَأَهْتَدَوْا، وَأَمَنُوا. فَهَذَا يُنْقِضُ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ قَوْلَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾ أَي مَا تُسْمِعُ إِلَّا أَهْلَ الْإِيمَانِ بِالْآيَاتِ وَأَهْلَ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ. فَاتَّأ أَهْلُ الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ فَلَا.

الآية ٨٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أَي إِذَا وَقَعَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَلَزِمَتْ، فَكَذَّبُوهَا ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا وَقَعَتِ السَّخْطَةُ وَالْعُصْبُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً. وَقَالَ قَائِلُونَ: إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ، أَي إِذَا بَلَغُوا فِي الْكُفْرِ حَدًّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً.

لَكِنْ قَدْ ذَكَّرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ هَذَا، لَا يَصِحُّ، وَلَا يَجُوزُ، لِأَنَّ^(٤) اللَّهَ ﷻ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِمَا كَانَ، وَيَكُونُ مِنْهُمْ أَبَدًا الْآيِدِينَ. فَلَيْسَ عِلْمُهُ بِأَحْوَالِهِمْ بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ إِذَا بَلَغُوا ذَلِكَ الْحَدَّ، بَلْ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ.

وهذا الحَرْفُ الَّذِي يَقُولُ هَذَا الْقَائِلُ يُؤْمَرُ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِذَا بَلَغُوا ذَلِكَ الْحَدَّ، وَقَبْلَ ذَلِكَ لَا. فَهُوَ قَبِيحٌ. وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِذَا وَقَعَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فَلَا يُحْتَمَلُ أَيْضًا، لِأَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ كَانَتْ قَامَتْ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَلَيْسَتْ تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

فَيَكُونُ التَّأْوِيلُ أَحَدَ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا ذَكَّرْنَا مِنْ وَقْعِ الْعَذَابِ وَوَجوبِ الْمُقَابَةِ وَالسَّخْطَةِ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [الاحقاف: ١٨] أَيِ الْعَذَابِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ.

وَالثَّانِي: أَي إِذَا أَتَى وَفَتْ خُرُوجِ الدَّابَّةِ الَّتِي وَعَدْنَا لَهُمْ أَنَهَا تَخْرُجُ أَخْرَجْنَاهَا^(٥) لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَي لَا يَتَقَدَّمُ خُرُوجُهَا عَنِ الْوَقْتِ الْمَوْعُودِ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْقِذُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وهكذا كُلُّ شَيْءٍ جَعَلَ اللَّهُ لظَهْوَرِهِ^(٦) وَكَوْنِهِ وَفَتْ، لَا يَتَقَدَّمُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ ذَلِكَ الْوَقْتُ. هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُكَلِّمُهُمُ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بِالتَّشْدِيدِ ﴿تُكَلِّمُهُمُ﴾ مِنَ التَّكْلِيمِ وَالتَّحْدِيثِ^(٧)، وَكَذَلِكَ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ: تَحَدَّثُهُمْ وَتُنَبِّئُهُمْ، وَقَدْ قُرِئَ: تُكَلِّمُهُمُ بِالتَّخْفِيفِ^(٨)، وَهُوَ مِنَ الْجَرَاحَةِ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ فِي الْأَخْبَارِ وَالْقِصَصِ أَنَّ الدَّابَّةَ إِذَا خَرَجَتْ تَجْرَحُ الْكَافِرَ، وَتَسِمُهُ بِسِمَةٍ وَعِلَامَةٍ حَتَّى يُعْرِفَ الْكَافِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، فَيَقَالُ: يَا مُؤْمِنُ، وَيَا كَافِرُ. وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: تُكَلِّمُ الْمُؤْمِنَ، وَتَحَدِّثُهُ، وَتَجْرَحُ الْكَافِرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِي تِلَاوَتِهِ وَتَأْوِيلِهِ.

[قَرَأَ بَعْضُهُمْ]^(٩): ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ بِنُضْبِ الْأَلِفِ، وَ: إِنَّ النَّاسَ بِكَسْرِهَا. فَمَنْ قَرَأَ بِالنُّضْبِ ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ جَعَلَ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِنَ الدَّابَّةِ، ثُمَّ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ٣٧٠. (٢) في الأصل وم: للكافرين عن ضلالتهم. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: أن.

(٥) في الأصل وم: أخرجنا. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم: (٧) من م، في الأصل: والتحديد. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤ / ٣٧٠ و / ٣٧١. (٩) ساقطة من الأصل وم.

أَحْذَرُهُمَا: تَقُولُ الدَّابَّةُ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِي وَبِخُرُوجِي لِمَا وَعَدَهُ لَا يَوْقِنُونَ.

[والثاني: أنها تُخَيِّرُ مِنَ اللَّهِ، وَتُشِيرُ، أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِالْدَّابَّةِ وَبِغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ لَا يَوْقِنُونَ^(١)].

وَمَنْ قَرَأَ بِالْخَفْضِ^(٢): إِنَّ النَّاسَ... يَجْعَلُ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً إِخْبَارٍ. إِنَّهُمْ كَانُوا، لَا يَزَالُونَ لَا يَوْقِنُونَ. وَفِي خُرُوجِ الدَّابَّةِ أَعْظَمُ آيَاتٍ فِي إِبْطَالِ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبُيُوتِهِ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ فِي وَقْتِ كَذَا، فَتَخْرُجُ عَلَى مَا أَخْبَرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي وَصَفَ، فَيَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ.

الآية ٨٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ قَوًّا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ يُجْمَعُ الْقَادَةُ مِنْهُمْ وَالْآتِبَاعُ وَالْمَتَّبِعُونَ، فَيُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ جَمِيعاً كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْلَمْنَاهُمْ﴾ الْآيَةُ [الصفافات: ٢٢] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٧١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩].

قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أَيُّ يُخْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا. وَقَدْ ذَكَرْنَا الْوَزْعَ فِي مَا تَقَدَّمَ وَمَا قِيلَ فِيهِ^(٣).

الآية ٨٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوا﴾ أَيُّ حَتَّى إِذَا جَاءُوا جَمِيعاً، وَاجْتَمَعُوا، يَعْنِي الْكُفَّارَ، قَالَ لَهُمْ: ﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ يَخْتَمِلُ ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ [وَجْهَيْنِ]:

أَحْذَرُهُمَا: [١٤] أَيُّ قَدْ أَحْظَرْتُمْ بِهَا عِلْماً أَنَّهَا آيَاتٌ، لَكِنْ كَذَبْتُمْ، وَأَنْكَرْتُمْ أَنَّهَا آيَاتٌ عِنَاداً وَمُكَابَرَةً؛ إِذْ يَجُوزُ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالنَّفْيِ عَلَى إِبْطَالِ صِدْقِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَتُنْكِرُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أَيُّ نَعْلَمُ بِضِدِّ ذَلِكَ وَيُخَالِفُ مَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ. وَذَلِكَ جَائِزٌ، فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وَالثَّانِي^(٥): أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ لِمَا لَمْ تَتَفَكَّرُوا فِيهَا، وَلَمْ تَنْظُرُوا إِلَيْهَا نَظَرَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ لِكَيْ تَعْرِفُوا، وَتُحِيطُوا^(٦) بِهَا عِلْماً أَنَّهَا آيَاتٌ.

وَأَلَّا لَوْ كَانَ التَّأْوِيلُ عَلَى ظَاهِرٍ مَا ذَكَرَ لَكَانَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي تَكْذِيبِهَا إِذَا لَمْ يُحِيطُوا بِهَا عِلْماً؛ إِذْ مَنْ لَمْ يُحِيطِ بِالْعِلْمِ بِالشَّيْءِ فَلَهُ عُذْرُ الرَّدِّ وَتَرْكِ الْقَبُولِ. لَكِنْ يُخْرَجُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ^(٧) تَعَالَى: ﴿أَمَّا أَتَى كُنتُمْ تَقْلُونَ﴾ فِي تَكْذِيبِ الْآيَاتِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلُوهَا بَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ.

الآية ٨٥

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(٨): ﴿رَفَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ وَجَبَ الْقَوْلُ بِالْعَذَابِ، وَوَقَعَ مَا وَعَدُوا مِنَ الْعَذَابِ ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ حِينَ^(٩) قَالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وَنَحْوَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ لَا يَخْفَوْنَ﴾ أَيُّ لَا يَنْطَفِقُونَ بِالْحُجَّةِ مِمَّا يَكُونُ لَهُمْ بِهِ عُذْرٌ.

الآية ٨٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّكَ لَآتِيٌّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا دَلَالَاتُ^(١٠) مِنْ جَوْو:

أَحْذَرُهَا: دَلَالَةُ وَخْدَانِيَّتِهِ، وَالثَّانِيَّةُ^(١١): دَلَالَةُ عِلْمِهِ وَتَذْيِيرِهِ وَجُحْمَتِهِ، وَالثَّالِثَةُ^(١٢): دَلَالَةُ كَرَمِهِ وَجُودِهِ، وَالرَّابِعَةُ^(١٣): دَلَالَةُ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَالخَامِسَةُ^(١٤): دَلَالَةُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ مَا صَارَ رَمَاداً وَتُرَاباً.

أَمَّا دَلَالَةُ كَرَمِهِ وَجُودِهِ فَمَا^(١٥) جَعَلَ لَهُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَنَافِعَ تَدْوُمُ مَا دَامُوا هُمْ. ثُمَّ تِلْكَ الْمَنَافِعُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٣٧١. (٣) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٧ مِنَ السُّورَةِ. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: وَأَحْطَرْتُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: تَكُونُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٥) الْفَاءُ ساقطة من الأصل وم.

أَحَدُهُمَا: جَعَلَ النَّهَارَ لِلتَّقْلُبِ فِيهِ وَالتَّصَرُّفِ لِمَعَاشِهِمْ وَمَا بِهِ قَوَامٌ دُنْيَاهُمْ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ رَاحَةً لَهُمْ وَسُكُونًا. وَلَوْ جَعَلَهُمَا جَمِيعًا لِلتَّقْلُبِ مَا قَامَ بِهِ مَعَاشُهُمْ وَمَا بِهِ قَوَامٌ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ أَبَدًا، لِأَنَّهُ لَا يَلْتَمِزُ ذَلِكَ إِلَّا بِالرَّاحَةِ، وَلَوْ جَعَلَهُمَا جَمِيعًا لِلرَّاحَةِ لَمْ يَقُمْ أَمْرُ مَعَاشِهِمْ. فَمِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ جَعَلَ أَحَدَهُمَا لِلرَّاحَةِ وَالْآخَرَ لِلتَّقْلُبِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَشْكُرُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

الثاني: مِنَ النُّعْمَةِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لِلتَّقْلُبِ إِنَّمَا جَعَلَ ذَلِكَ لِلْكُلِّ لَا لِلْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ، وَكَذَلِكَ الَّذِي هُوَ مَجْمُوعٌ لِلرَّاحَةِ وَالْقَرَارِ^(١).

إِنَّمَا [جَعَلَ ذَلِكَ]^(٢) لِلْكُلِّ لَا لِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. وَلَوْ [لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ]^(٣) لَكَانَ لَا يَقُومُ أَمْرُ مَعَاشِهِمْ، وَلَا مَا بِهِ تَقُومُ أَبْدَانُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ. وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ الْمَجْمُوعَ وَقْتَاً لِلرَّاحَةِ لِلْكُلِّ لَا لِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ وَكَذَلِكَ الْمَجْمُوعُ لِلتَّقْلُبِ^(٤) لِيُظْفَرَ الْمُشْتَرُونَ بِالْبَاعَةِ وَالْبَاعَةُ بِالْمُشْتَرِينَ لِيَلْتَمِزَ أَمْرُ مَعَاشِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ وَخِدَائِيَّتِهِ فَمَا^(٥) جَعَلَ مَنَافِعَ أَحَدِهِمَا مُتَّصِلَةً بِالْآخَرِ، إِذْ لَا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْآخَرِ عَلَى اخْتِلَافِ جَوْهَرِيهِمَا لِيُعْلَمَ أَنَّ مُدْبِرَهُمَا وَمُنْشِئَهُمَا وَاحِدٌ، إِذْ لَوْ كَانَ عَدَدًا لَكَانَ مَا أَرَادَ هَذَا إِيصَالَهُ مَنَعَ الْآخَرَ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ جَرِيًا عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ وَاتِّسَاقٍ وَاحِدٍ. دَلَّ أَنَّهُ تَذْيِيرٌ وَاحِدٌ لَا عَدِيدٌ.

وَدَلَالَةُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنَّهُمَا مِنْذُ كَانَا عَلَى مِيزَانٍ وَاحِدٍ وَعَلَى تَقْدِيرٍ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ، يَقَعُ فِيهِمَا. دَلَّ أَنَّ لِمُنْشِئِهِمَا عِلْمًا ذَاتِيًّا لَا عِلْمًا مُكْتَسَبًا مُسْتَقَادًا كَعِلْمِ الْخَلْقِ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَلِأَنَّهُمَا^(٦) يَفْهَرَانِ الْخَلْقَ كُلَّهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَالْفَرَاعِنَةِ، شَاؤُوا، أَوْ أَبَوَا، حَتَّى إِذَا أَرَادَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا [أَنْ يَزِيدَ فِي]^(٧) أَحَدِهِمَا، أَوْ يُنْقِصَ مِنَ الْآخَرِ، لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، أَوْ إِنْ اجْتَمَعُوا جَمِيعًا عَلَى دَفْعِهِمَا أَوْ دَفْعِ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ. دَلَّ أَنَّ لِمُنْشِئِهِمَا قُدْرَةً وَسُلْطَانًا، إِذْ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِنْشَاءِ هَذَا لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَدَلَالَةُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ لِأَنَّهُ يُثْلِفُ أَحَدَهُمَا، وَيَذْهَبُ بِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى أَثَرُهُ، ثُمَّ يَأْتِي بِالْآخَرِ عَلَى تَقْدِيرِ الْأَوَّلِ. فَمَنْ قَدَرَ عَلَى إِنْشَاءِ هَذَا بَعْدَ ذَهَابِ الْآخَرِ بِكُلِّيَّتِهِ وَذَهَابِ أَثَرِهِ [فإنه قادر]^(٨) عَلَى إِنْشَاءِ الْخَلْقِ بَعْدَ فَنَائِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ، وَإِنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

ثُمَّ لَمَّا جَعَلَ هَذَا مَا ذَكَرْنَا، وَخَلَقَ مَا خَلَقَ مِنَ الْمَنَافِعِ الَّتِي ذَكَرْنَا لِهَذَا الْعَالَمِ لِلْمِخْنَةِ، بِأَمْرِهِمْ، يَنْهَاهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ عَاقِبَةً، فِيهَا يُثَابُ مَنْ أَطَاعَهُ، وَيُعَاقَبُ مَنْ عَصَاهُ؛ إِذْ لَوْ لَمْ تَكُنْ عَاقِبَةٌ لَكَانَ خَلْقُهُمْ عَبَثًا، لَا حِكْمَةَ فِيهِ، لِأَنَّ مَنْ بَنَى بِنَاءً لِلْفَنَاءِ وَالنَّفْصِ خَاصَّةً لَا لِعَاقِبَةٍ [يَأْمُلُ نَفْعَهَا]^(٩) كَانَ بِنَاؤُهُ عَبَثًا لَا حِكْمَةَ فِيهِ^(١٠). فَعَلَى ذَلِكَ خَلَقَ الْخَلْقَ لَا لِعَاقِبَةٍ تَقْصُدُ عَبَثٌ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ. وَالآيَاتُ لِمَنْ آمَنَ بِهَا، وَصَدَّقَ. فَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، وَكَذَّبَ بِهَا، فَهِيَ آيَاتٌ عَلَيْهِمْ، لَا لَهُمْ.

الآية ٨٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُزْجَعُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ اخْتَلِفَ فِي التَّفْخِخِ؛ مَا هُوَ؟ وَفِي عَذْبِهِ. وَاخْتَلِفَ فِي الصُّورِ أَيْضًا؛ مَا هُوَ؟ وَكَيْفَ هُوَ؟

أَمَّا الْاِخْتِلَافُ فِي التَّفْخِخِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ التَّفْخِخِ، وَلَكِنْ إِخْبَارٌ عَنْ خَفَّةِ قِيَامِ الْقِيَامَةِ عَلَى اللَّهِ. أَخْبَرَ بِالتَّفْخِخِ عَنْهَا لِأَنَّهُ أَخَفَّتْ شَيْءٌ عَلَى الْخَلْقِ وَأَهْوَنَتْ، فَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهَا، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْبَصْرِ﴾ [النحل: ٧٧] شَبَّهَ أَمْرَهَا بِلَمْحِ الْبَصْرِ لِمَا لَيْسَ شَيْءٌ أَخَفَّ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ لَمْحِ الْبَصْرِ. فَعَلَى ذَلِكَ ذَكَرَ التَّفْخِخَ عِنْدَ قِيَامِهَا لِخِفَّتِهِ عَلَى الْخَلْقِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ذَكَرَ التَّفْخِخَ لِسُرْعَةِ نَفَاذِ السَّاعَةِ؛ إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ نَفَاذًا مِنَ التَّفْخِخِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾

(١) من م، في الأصل: والقرآن. (٢) في الأصل وم: جعله كذلك. (٣) في الأصل وم: جعل كذلك. (٤) في الأصل وم: للقلب. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: في منع. (٨) في الأصل وم: لغادر. (٩) يتأمل نفعه. (١٠) في الأصل وم: غير حكمة.

[يس: ٢٩ و...] [وقال^(١)] ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ﴾ [الأعراف: ٧٨ و...] ذَكَرَ ذَلِكَ، وَشَبَّهَهَا بِالصَّبْحَةِ وَالرَّجْفَةِ لِسُرْعَةِ نَفَاذِهَا عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَنَنْفَعُكَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] لَيْسَ أَنَّهُ يَنْفَعُ فِيهِ نَفْعًا، وَلَكِنْ يَجْعَلُهُ^(٢) كَأَنَّهُ قَالَ: وَجَعَلْنَا فِيهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ عَلَى حَقِيقَةِ النَّفْخِ. فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَهُوَ أَنْ يَنْتَحِزَ الْمَلَكُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقَعَ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ نَحْوَ مَا امْتَحَنَ الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ^(٣) بِكِتَابَةِ أَعْمَالِ الْخَلْقِ وَأَفْعَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ وَقُوعِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ^(٤) امْتِحَانًا مِنْهُ مَلَأَتْكَ بِهِ ذَلِكَ. أَوْ أَنْ يَكُونُوا أُخِذُوا، إِذْ هُوَ عَالَمٌ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ، كَيْفَ يَكُونُ؟ وَمَتَى يَكُونُ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ؟

وَأَمَّا اخْتِلَافُهُمْ فِي عَدَدِ النَّفْخِ، [فقد^(٥)] قَالَ قَاتِلٌ: إِنَّهُ وَاحِدٌ، يَخْتَجُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا صَبْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩ و...]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِالنَّفْخَتَيْنِ، يَخْتَجُّ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّايَةُ﴾ [النَّازِعَات: ٦ و٧] أَخْبَرَ أَنَّهُ يَرُدُّفُ الْأَوَّلَى غَيْرَهَا، وَيَخْتَجُّ بِقَوْلِهِ أَيْضًا: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ [الزمر: ٦٨].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِالنَّفْخَاتِ الثَّلَاثِ؛ يَقُولُ: الْأَوَّلَى لِلْفَرْعِ، وَالثَّانِيَةُ لِلصُّغْرِ عَلَى مَا ذَكَرَ^(٦) فِي الْآيَةِ، وَالثَّالِثَةُ لِلْإِحْيَاءِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِالثَّلَاثِ إِلَّا أَنَّهُ [يَجْعَلُهَا كُلَّهَا]^(٧) بَعْدَ الْمَوْتِ: أَحَدُهَا لِلْفَرْعِ فِي الْقُبُورِ، وَالثَّانِيَةُ لِلْإِحْيَاءِ فِيهَا، وَالثَّالِثَةُ لِلْإِخْرَاجِ مِنْهَا وَالتَّشْرِيرِ. وَيَقُولُ هَذَا الْقَاتِلُ بِعَذَابِ أَهْلِ الْقَبْرِ مِنَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى النَّفْخَةِ الثَّالِثَةِ. وَعَلَى ذَلِكَ رُوِيَ أَخْبَارٌ فِي ذَلِكَ. فَإِنْ ثَبَّتَ فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا نَقِفْ فِيهِ.

وَأَمَّا اخْتِلَافُهُمْ فِي الصُّورِ [فقد^(٨)] قَالَ قَاتِلُونَ: يُنْفَخُ فِي الْخَلْقِ، وَالصُّورُ جَمْعُ صُورَةٍ. قَالَ الزُّجَّاجُ: لَا يُحْتَمَلُ هَذَا لِأَنَّ الصُّورَ عَلَى سُكُونٍ^(٩) الْوَاحِدِ، لَيْسَ هُوَ مِنْ إِفْرَادِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ جَمْعِهَا، لِأَنَّ الْفَرْدَ هُوَ صُورَةٌ بِالْهَاءِ، وَجَمْعُ الصُّورَةِ صُورٌ بِتَخْرِيكِ الْوَاحِدِ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ: ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ كَقَرْنٍ كَذَا، أَوْ بوقٌ كَبُوقٍ كَذَا. لَكِنَّا لَا نَفْسَرُ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرَ مِنَ النَّفْخِ وَالصُّورِ أَنَّهُ كَذَا، وَلَا نُشِيرُ إِلَى شَيْءٍ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ شَيْءٌ مِنَ التَّفْسِيرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقَالُ بِهِ، وَلَيْسَ هُوَ بِشَيْءٍ، يُوجِبُ الْعَمَلَ بِهِ، فَتَكَلَّفَ صِحَّتَهُ أَوْ سَقَمَهُ، إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَجِبُ التَّصَدِيقُ بِهِ، فَتَقُولُ بِالنَّفْخِ وَالصُّورِ عَلَى مَا جَاءَ، وَلَا تَفْسَرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَنْفِخُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ^(١٠) فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنْ شِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَرَأَى النَّاسَ مُسْكِرِينَ﴾ [الحج: ٢] وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَبُ كُلُّ مُرْسِعَةٍ عَمَّا أَرْسَعَتْ﴾ [الحج: ٢] وَنَحْوُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هُمُ الشَّهَدَاءُ فِي الْأَرْضِ. وَعَلَى ذَلِكَ رُويَ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أُعْطِيَ آدَمِيُّ بَعْدَ النَّبُوَّةِ أَفْضَلَ مِنَ الشَّهَادَةِ لَا يَسْمَعُ الشَّهِيدُ الْفَرْعَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَرَجُلٍ قَالَ لَصَاحِبِهِ: أَسْمَعُ؟ قَالَ: أَسْمَعُ أَذِينَ الصَّلَاةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ جِبْرَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ مَلَكَ الْمَوْتِ [وغيرهما]^(١١)».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ. لَكِنْ لَا نَقُولُ نَحْنُ: إِنَّ أَهْلَ الثُّنْبَا هُمُ كَذَا، وَلَا نُشِيرُ إِلَى أَحَدٍ، لِأَنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَثْبُتَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فنقول به.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ اسْتَشْنَاهُمْ هُمُ^(١٢) الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي آخِرِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ آمِنِينَ مِنْ فَرْعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهَوِيلِهِ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَنْتَهِ وَهُوَ/ ٣٩٤ - أ/ يَنْفِخُ يَوْمَئِذٍ مِائَتُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجْعَلُ. (٣) الْإِشَارَةُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]. (٤) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ذَكَّرْنَا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجْعَلُ كُلَّهُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٩) فِي م، فِي الْأَصْلِ: السُّكُونُ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَ. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (١٢) فِي الْأَصْلِ: عَن، فِي م: مَن.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرَةٍ﴾ قُرِئَ بِالْمَدِّ أَتَوْهُ وَتَطْوِيلِهِ وَضَمٌّ^(١) النَّاءِ فِيهِ عَلَى مِثَالِ فَاعِلَوْهُ، جَمْعُ آتٍ [كقوله: ^(٢)﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾] [مريم: ٩٣] وَأَتَوْهُ جَمْعُ آتٍ، وَهُوَ مِنْ سَيَّاتُونَ. وَقُرَأَ بَعْضُهُمْ: بِقَضْرِ الْآلِفِ وَنَضَبِ النَّاءِ عَلَى الْإِنْيَانِ [أَي] ^(٣) قَدْ أَتَوْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَخِيرَةٍ﴾ قِيلَ: صَاغِرِينَ ذَلِيلِينَ؛ ذَخَرَ أَي ذَلَّ.

الآية ٨٨

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَى الْجِبَالَ تَحْسَبَ جَامِدَةً وَهي تَمُرُّ مَرًّا كذا لِكَثْرَتِهَا وَازْدِحَامِهَا، يَرَى النَّاطِرُ إِلَيْهَا، وَيَحْسَبُهَا كَانِهَا جَامِدَةً، وَكَذَلِكَ الْعَسْكَرُ الْعَظِيمُ يَحْسَبُهُ^(٤) النَّاطِرُ إِلَيْهِ كَانَهُ سَاكِنٌ جَامِدٌ [لِكَثْرَةِ جُنُودِهِ]^(٥) وَازْدِحَامِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ الْجِبَالُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنْ لَشِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهَوْلِهِ وَقَزَعِهِ عَلَى النَّاسِ، يَحْسَبُونَ [الْجِبَالَ] ^(٦) كَانِهَا جَامِدَةً ﴿وَهي تَمُرُّ مَرًّا تَحْسَبُ﴾ وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿وَنَزَى النَّاسُ سُكُورِي وَمَا هُمْ بِسُكُورِي﴾ [الآية: الحج: ٢] لِشِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَزَعِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا، وَلَكِنَّ الْجِبَالَ لِهَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَزَعِهِ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ وَسِيرُهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

وَاضْلُهُ: أَنَّ مَا يَذْكُرُ هَذَا وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّتِهِ عَلَى الْخَلْقِ لِيَتَعِظُوا، وَيَنْزَجِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أُنْقَنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أُنْقَنَ، أَخْكَمَ، وَأَبْرَمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أُنْقَنَ﴾ أَي أَحْسَنَ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.

قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ: كَيْفَ يَكُونُ الْكُفْرُ حَسَنًا، وَهُوَ قَبِيحٌ، لِأَنَّهُ شَتَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ خَلَقَ شَتَمَ نَفْسِهِ، وَأَحْسَنَ شَتَمَ نَفْسِهِ، أَوْ أَحْسَنَ كُفْرَ الْكَافِرِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْخِرَافَاتِ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا^(٧) يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهُ خَلَقَ الْكُفْرَ، وَأَحْسَنَهُ، أَوْ أَحْسَنَ شَتَمَ نَفْسِهِ. عَلَى هَذَا الْإِطْلَاقِ، وَمَنْ^(٨) قَالَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ. وَلَكِنْ نَقُولُ: [خَلَقَ] ^(٩) فَعِلَ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ قَبِيحًا، وَخَلَقَ فَعِلَ الْمَعْصِيَةِ مِنَ الْعَاصِي قَبِيحًا. لَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ خَلَقَهُ ذَلِكَ وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَيْهِ حَسَنًا مُتَقَنًا مُحْكَمًا، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنْهُ قَبِيحًا بَاطِلًا سَفَهًا جَوْرًا، أَعْنِي مِنَ الْكَافِرِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ تَكَلَّفَ أَنْ يَعْرِفَ فَعِلَ الْكُفْرَ مِنْهُ سَفَهًا وَجَوْرًا، كَانَ غَيْرَ مَذْمُومٍ؟ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّفُ أَنْ يَعْرِفَ مَا هُوَ سَفَهٌ فِي الْحَقِيقَةِ سَفَهًا، وَيَعْرِفُ مَا هُوَ حَقٌّ حَقًّا.

فَهُوَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ عَارِفٌ حَقٌّ وَجِئَةٌ لِأَنَّ الْجِئَمَةَ تَوْجِبُ أَنْ يَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا هُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةً. فَعَلَى ذَلِكَ خَلَقَ فَعِلَ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا، هُوَ حَسَنٌ مُتَقَنٌ مُحْكَمٌ، وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ فَعِلَ الْكَافِرِ قَبِيحًا سَفَهًا بَاطِلًا. وَهَذَا كَمَا يَصِفُهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنَّهُ ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وَ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢]. وَلَا نَقُولُ: يَا خَالِقَ الْأَنْجَاسِ، وَيَا رَبَّ الْأَقْدَارِ وَنَحْوَهُ، وَإِنْ كَانَ هَذَا دَاخِلًا فِي الْجُمْلَةِ أَنَّهُ خَالِقُهَا وَرَبُّهَا، لِأَنَّهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ يُخْرِجُ مُخْرِجَ الْمَدْحِ لَهُ وَالتَّثْنَاءِ، وَعَلَى^(١٠) التَّخْصِصِ يُخْرِجُ مُخْرِجَ الذَّمِّ لَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أُنْقَنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عَلَى إِثْرِ وَضْفِ الْجِبَالِ بِمَا وَصَفَ مِنْ انْتِقَاضِهَا وَإِفْسَادِهَا^(١١) وَإِخْرَاجِهَا عَنِ الصُّفَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا إِلَى مَا ذَكَرَ لَمْ يُخْرِجْ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ وَالْإِبْرَامِ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ فِي إِفْسَادِ الشَّيْءِ خُرُوجٌ عَنِ الْإِتْقَانِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مُحْكَمًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَعِيدٌ لَهُمْ.

الآية ٨٩

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قِيلَ فِيهِ بَوُجُودُ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: مَضْمُونَةٌ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٣٧٢. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِحَسَبِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: لِكَثْرَتِهِمْ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَوْ. (٨) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) الْوَائِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَإِفْسَادُهُ.

أخذها: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ بالتوحيد توحيد ربِّه [يوم] ^(١) البعث ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.

[والثاني] ^(٢): مَجِيئُهُ رَبِّهَ بالتوحيد إذا خَتَمَ بِهِ قَلَمَهُ مَا ذَكَرَ؛ شَرَطَ الْمَجِيءَ بِهِ، وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ كَذَا، لِأَنَّ الرَّجُلَ، قَدْ يَعْمَلُ بِالْحَسَنَاتِ، ثُمَّ يُفْسِدُهَا، وَيُبْطِلُهَا، فَلَا يُثَابُ بِهَا عَلَيْهَا، لِيُعْلَمَ أَنَّ مَا يُنْتَفَعُ بِالْحَسَنَاتِ فِي الْآخِرَةِ الْحَسَنَاتِ ^(٣) الَّتِي خَتَمَ بِهَا عَلَيْهَا، وَجَاءَ بِهَا رَبُّهُ.

[والثالث] ^(٤): قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أَيِ مَا يُعْطَى فِي الْآخِرَةِ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْحَسَنَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، مِنْهَا تَكُونُ لَهُ جَمِيعُ الْخَيْرَاتِ فِي الْآخِرَةِ.

[والرابع] ^(٥): ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أَيِ الَّذِي أُعْطِيَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّعَمِ، وَصَبَرَ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ خَيْرٌ مِمَّا تَرَكَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ [مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ]﴾ ^(٦) [هود: ١١].

[والخامس] ^(٧): أَيِ رُؤْيَا الرَّبِّ وَلِقَاؤُهُ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِيَ غَيْرَهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا رُؤْيَا الْمَلِكِ وَلِقَاؤُهُ عَلَى الرَّيَّةِ اعْظَمُ وَأَفْضَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْكِرَامَاتِ، وَإِنْ عَظُمَتْ، وَجَلَّتْ.

[والسادس] ^(٨): ذَلِكَ الثَّوَابُ وَالْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا عَمِلُوا بِهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ الثَّوَابَ وَجُوبُهُ الْفَضْلُ وَالرَّحْمَةُ لَا الْإِسْتِجَابَ وَالْإِسْتِخْقَاقَ؛ إِذْ فِي الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَجُوبُ الْعَمَلِ، وَلَيْسَ فِيهِمَا وَجُوبُ الثَّوَابِ فِي مَا هُوَ سَبِيلُهُ فَضَّلَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ غَيْرُهُ.

لَكِنَّهُ غُورَضٌ بِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ سَبِيلُ وَجُوبِهِ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ خَيْرٌ مِمَّا كَانَ سَبِيلُ وَجُوبِهِ الْإِفْضَالُ؛ إِذَا مَا كَانَ سَبِيلُ وَجُوبِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ لَا يَسَعُ تَرْكُهُ، وَمَا كَانَ وَجُوبُهُ الْإِفْضَالُ، لَهُ تَرْكُهُ. لَكِنَّهُ قَالَ ^(٩): إِنَّ قَوْلَهُ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أَيِ فِي طَبَاعِكُمْ وَوَهْمِكُمْ ذَلِكَ الثَّوَابُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَا أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ خَيْرٌ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الروم: ٢٧] أَيِ فِي طَبَاعِكُمْ.

وَعِنْدَكُمْ أَنَّ إِعَادَةَ الشَّيْءِ أَهْوَىٰ مِنْ إِبْتِدَائِهِ؛ إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ أَهْوَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

وَلَكِنْ عِنْدَكُمْ أَنَّ إِعَادَةَ الشَّيْءِ أَهْوَىٰ مِنْ إِبْتِدَائِهِ. فَعَلَىٰ ذَلِكَ الْأَوَّلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ يَنْفِرُ فَرَجٌ يَوْمَئِذٍ مَّائِتُونَ﴾ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا أَتَوْا رَبَّهُمْ بِالتَّوْحِيدِ يَكُونُونَ آمِنِينَ مِنْ فَرَجِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ.

الآية ٩٠ وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَيِ بِالشَّرِّكِ ﴿فَنُكِّنَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ الْمُتَنَكِّبُ عَلَى الْوَجْهِ، هُوَ الْمُتَلَقَّى عَلَى الْوَجْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَيِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَيِ مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا بِأَعْمَالِكُمْ.

الآية ٩١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُ أَنْ أُعْبِدَ رَبِّي هَكَذَا بَلَدَهُ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ قَوْلُهُ: ﴿حَرَّمَهَا﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا ^(١٠): حَرَّمَهَا، أَيِ مَنَعَهَا مِنَ الْإِسْتِيلَابِ وَالْإِخْتِفَاطِ فِيهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] لَيْسَ عَلَى التَّحْرِيمِ حَتَّى لَا يَحِلَّ لَهُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ عَلَى الْمَنَعِ وَالْحَظَرِ، أَيِ مَنَعْنَا مِنْهُ الْمَرَاضِعَ.

وَالثَّانِي: عَلَى التَّحْرِيمِ نَفْسِهِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ لِكُلِّ ^(١١) أَحَدٍ مِنَ الْكَافِرِ وَالْمُسْلِمِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ حُرْمَةً ذَلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى لَا يَتَنَاوَلَ أَحَدٌ مِنْ صَبَدِ تِلْكَ الْبُقْعَةِ وَمِنْ شَجَرِهَا وَخَشْيِشِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٩٢ وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ السَّالِفِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ أَيِضاً عَلَيْكُمْ. كَانَهُمْ أَوْعَدُوهُ بِوَعِيدٍ، وَخَوْفِهِ بِهِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمَوَاقِفَةَ لَهُمْ. فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُ أَنْ أُعْبِدَ رَبِّي هَكَذَا بَلَدَهُ﴾ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، أَيِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم. و. (٣) في الأصل وم: الحسنة. (٤) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٥) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٦) في الأصل وم: كذا. (٧) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) الضمير يعود على صاحب هذا الوجه. (١٠) في الأصل م: يحتمل. (١١) في الأصل: كل.

أَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا لَهُ، لَا أَجْعَلَ نَفْسِي عَبْدًا لِغَيْرِهِ، وَأَمِرْتُ أَيْضًا أَنْ أَجْعَلَ نَفْسِي سَالِمًا لَهُ، لَا أَجْعَلَ لِأَحَدٍ فِيهَا شِرْكًَا كَمَا جَعَلْتُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَمِرْتُ أَيْضًا أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ. فَأَنَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ، كَذَبْتُمُونِي، أَوْ لَمْ تُكَذِّبُونِي فَإِنِّي لَا أَخَافُ كَيْدَكُمْ وَلَا مَكْرَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذَا الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ دلالة لزوم الرسالة لأنَّ أهل مكة وغيرهم قد أقرُّوا جميعاً بحُرْمَةِ تلك البُقعة مِنْ أَوَائِلِهِمْ وَأَوَاخِرِهِمْ. فَمَا عَرَفُوا ذَلِكَ إِلَّا بِالرُّسُلِ. دَلَّ أَنْ أَوَائِلَهُمْ أَقَرُّوا^(١) بالرسالة والنُّبوة. فَعَلَى ذَلِكَ يَلْزَمُ هَؤُلَاءِ الْإِقْرَارُ / ٣٩٤ - ب/ بها، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ يُخْبِرُ أَنْ مَنْ آمَنَ، وَقِيلَ الْهُدَى، فَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَنْفَعَةٍ نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أَيْضًا فَإِنَّمَا يَكُونُ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي لَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا الْإِنذَارُ. فَأَمَّا [غَيْرُ ذَلِكَ فَذَلِكَ]^(٢) عَلَيْكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَا جُمِلَ وَعَلَيْكُمْ مَا جُمِلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

الآية ٩٣ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ هَذَا يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: سِيرَتُهُمْ آيَاتٍ وَخُدَائِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَآيَاتِ رِسَالَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهَا﴾ أَيِ الْآيَاتِ^(٣) مَا ذَكَرَ كَقَوْلِهِ: ﴿سَتُرِيهُمْ ءَايَاتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

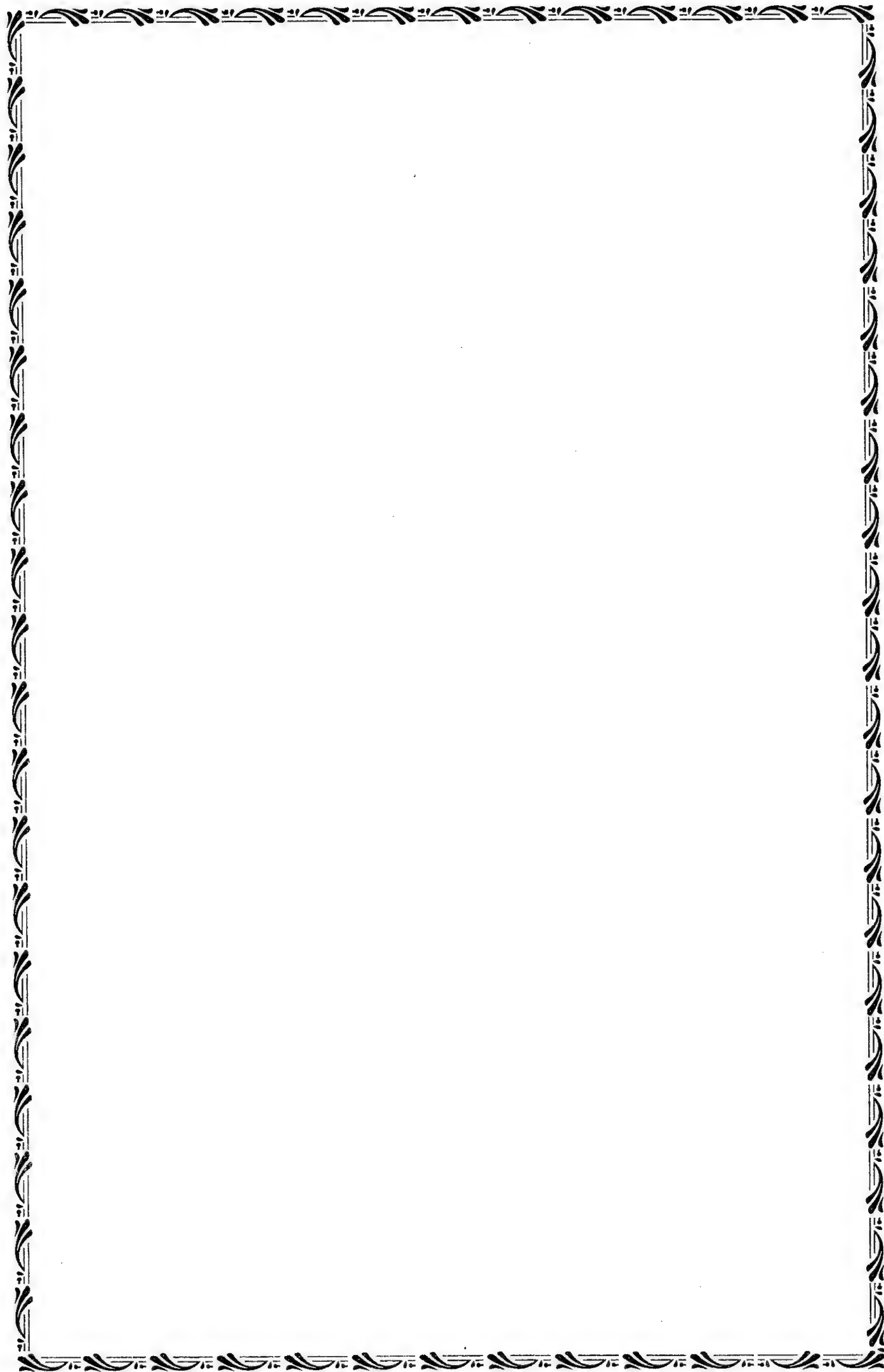
والثاني: سِيرَتِهِمْ مَا وَعَدَ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ لِيَعْرِفُوهُ عِيَانًا عَلَى مَا عَرَفُوهُ خَبَرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَأَيْكَ يَعْفَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا الْحَرْفُ تَرْبِيخٌ لِلظَّالِمِ وَتَغْيِيرٌ وَزَجْرٌ، وَتَغْزِيَةٌ لِلْمَظْلُومِ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا الْحَرْفُ تَرْغِيبٌ وَتَرْهيبٌ.

قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] أَي تَبِعَكُمْ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: [رَدَفَكُمْ]. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ^(٥).



(١) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقْرُونَ. (٢) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَذَلِكَ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: بِالْآيَاتِ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: يَعْمَلُونَ. انْظُرْ مُعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٤/ ٣٧٥. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: رَدَفَ لَكُمْ.



سورة القصص

[وهي مكية^(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و ٢

وقوله تعالى: ﴿طَسَّرَ﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي﴾ قد ذكرنا تأويل هذا في ما تقدّم في غير موضع ما يغني [عن]^(٢) ذكره في هذا الموضع.

الآية ٣

وقوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ من نبأ موسى وفرعون أي من خبرهما. وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق، ما يعلم أنه صدق وحق. وجائز أن يكون قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالحق الذي لموسى على فرعون وقومه، أو بالحق الذي عليه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يختلج وجهين.

أحدهما: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ للمؤمنين، لأنهم هم المنتفعون بالأنباء وما فيها. وأما من لا يؤمن فلا ينتفع بها، فلا تكون [له]^(٣).

والثاني: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالأنباء والكتب المتقدمة؛ هم يعرفون أنه حق لما في كتبهم ذلك؛ والله أعلم.

الآية ٤

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: تجبر، واستكبر، وأبى أن يخضع لموسى ولأمثاله. وقال بعضهم: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بغي، وقهر. فيكون تفسيره ما ذكر على إثرو: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنَاسًا هُمْ يُسْتَعِيذُونَ﴾ هذا، والله أعلم، يشبه أن يكون علوه وبغيه في الأرض، ويشبه أن يكون قوله: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي علا قدره، وارتفعت رتبته لما ادعى لنفسه الألوهية والرؤية بعد ما كان عبداً كسائر العباد أو دونهم، فعلا قدره، وارتفعت منزلته بدعواه: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي غلب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قيل: فرقا: يستضعف طائفة، ويذبح طائفة، ويستحيي طائفة، ويعدب طائفة. جائز أن يكون قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جعل لكل طائفة منهم عبادة صنم، لم يجعل ذلك لطائفة أخرى، وجعل طائفة أخرى على عمل أولئك وحوادثهم ليتفرغوا لعبادة الأصنام التي استعبدتهم لها، لأن الشيع فرق، يزعجون جميعاً إلى أصل واحد وإلى أمر واحد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ كذلك كان، لعنه الله.

الآية ٥

وقوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا﴾ هذا في الظاهر إخبار لرسوله أنه سيفعل ذلك، لا أنه مر عليه، وفعل ذلك لأنه^(٤) يقول: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ﴾ كذا، وقد مر عليهم بذلك. فهلا قال: وقد متنا على الذين استضعفوا في الأرض. لكن معناه، والله أعلم: أي لكتنا نريد في الأزل أن نمن عليهم، وأن نجعلهم أئمة، وأن نجعلهم الوارثين. وإلا الظاهر ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُهمْ آيَةً﴾ يختلج وجهين:

(١) من م، في الأصل: ذكر أنها مكية نزلت فيها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لا أنه.

أَحَدُهُمَا: جَعَلَهُمْ جَمِيعاً أَيْمَةً لَنَا، بِهِمْ نَقْتَدِي، وَنَقْضُ لَهُمْ.

والثاني^(١): أَي نَجْعَلُ فِيهِمْ أَيْمَةً وَقَادَةً لَهُمْ، أَي نَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أَيْمَةً لِبَعْضٍ [كَقَوْلِ ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِي﴾^(٢) أذْكُرُوا يَمَنَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ] [المائدة: ٢٠] والائِمَّةُ المذكورة ههنا كأنهم هم الأنبياء الذين ذُكروا في هذه الآية: ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [والآية التي تليها]^(٣): ﴿وَتُسَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦].

هذا كما ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِيكَ كَانُوا يُسْتَعْمِلُونَ مَشْرِكِ الْأَرْضِ وَمَقَرَّهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] أَي يَرْتَوْنَ الْأَرْضَ وَمُلْكَهُمْ بَعْدَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. والوارث هو الباقي على ما ذَكَرْنَا، كَأَنَّهُ قَالَ: يَتَّقُونَ هُمْ فِي أَرْضِهِمْ وَمُلْكِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أَي نَبْقَى نَحْنُ بَعْدَ هَلَاكِ الْأَرْضِ وَهَلَاكِ مَنْ عَلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٦

وقوله تعالى: ﴿وَتُسَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَيُرِي فِرْعَوْنَ وَفِئْتَهُنَّ وَخُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أَي يَرَوْنَ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْهُ، وَهُوَ الْهَلَاكُ. وَذَهَابُ الْمُلْكِ هَذَا كَانُوا يَحْذَرُونَ. فَأَرَاهُمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ [كَانَ]^(٤) يُذَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ إِشْفَاقاً عَلَى بَقَاءِ مُلْكِهِ، وَيَحْذَرُ ذَهَابَهُ.

قَالَ الرَّجَاجُ: إِنَّ مِنْ حِمَاقَةِ فِرْعَوْنَ وَقَلَّةِ عَقْلِهِ أَنَّهُ كَانَ يُذَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ لِقَوْلِ الْكَهَنَةِ: إِنَّهُ يَذْهَبُ مُلْكُهُ بِغَلَامٍ يُولَدُ فِي الْعَامِ الَّذِي قَالُوهُ فَلَا يَخْلُو: إِمَّا إِنْ صَدَقُوا فِي قَوْلِهِمْ، فَيَذْهَبُ مُلْكُهُ، وَإِنْ قَتَلَ الْأَبْنَاءَ، وَإِمَّا إِنْ كَذَبُوا فِي قَوْلِهِمْ فَلَا مَعْنَى لِقَتْلِ الْأَبْنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَذْهَبُ. لَكِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لِحِمَاقَتِهِ وَسَفَهِهِ وَجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِيكَ اسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالنَّجَاةِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَاسْتِنْفَاذِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ يَدَيْهِ وَمِنْ قَتْلِ الْوَلَدَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِيكَ اسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ وَجُوهٌ عَلَى الْمَعْتَرِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ بِعِبَادِهِ إِلَّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي الدِّينِ [وَأَنْ لَوْ]^(٥) لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كَانَ جَائِراً.

فَيَقَالُ لَهُمْ: لَوْ كَانَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْأَصْلَحِ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَكَانَ لَا مَعْنَى لِذِكْرِ الْيَمَّةِ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ فِي جَعْلِهِمْ أَيْمَةً وَإِقَائِهِمْ فِي أَرْضِهِمْ وَتَمَكِّيهِمْ لِيَاَهُمْ فِي مُلْكِهِمْ وَوِرَاثَتِهِمْ أَمْوَالَهُمْ لِأَنَّهُ عَلَى رَغْبِهِمْ فَعَلَ بِهِمْ مَا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ أَنَّ ذَلِكَ أَصْلَحُ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ / ٣٩٥ - ١ / وَكُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، عَلَيْهِ ذَلِكَ الْفِعْلُ، لَا يَكُونُ لَهُ الْإِمْتِنَانُ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ ذَلِكَ. فَذَلِكَ ذِكْرُ الْيَمَّةِ فِي مَا ذَكَرَ أَنَّهُ فَعَلَ بِهِمْ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ مُفَضَّلاً مَا نَأَى^(٦)، وَلَهُ أَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ.

وَيَقُولُونَ أَيْضاً أَنَّ إِهْلَاكَ^(٧) فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَصْلَحُ لَهُمْ مِنْ إِيقَائِهِمْ وَكَذَلِكَ إِمَانُهُ^(٨) كُلُّ كَافِرٍ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ الْيَمَّةَ. دَلٌّ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَا يَقُولُونَ^(٩) هُمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَنْقُوضٌ مَرْدُودٌ عَلَيْهِمْ.

وَيَقُولُونَ أَيْضاً أَنَّ الْإِرَادَةَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ أَمْرٌ لَهُمْ، يَا مُرْهُمْ بِهِ. فَلَوْ كَانَ أَمراً عَلَى مَا يَزْعُمُونَ لَكَانَ الْأَمْرُ مِنْهُ قَدْ شَمَلَ الْكُلَّ، ثُمَّ لَمْ يَصِيرُوا جَمِيعاً أَيْمَةً وَقَادَةً، وَلَكِنْ إِنَّمَا صَارَ بَعْضُ دُونَ بَعْضٍ.

دَلٌّ أَنَّ الْإِرَادَةَ غَيْرُ الْأَمْرِ وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ لِأَحَدٍ شَيْئاً كَانَ مَا أَرَادَ لَيْسَ عَلَى مَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ أَرَادَ إِيمَانَ كُلِّ كَافِرٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدَ مَا أَعْطَاهُ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعَوْنِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَاهُ. فَذَلِكَ مَا ذَكَرَ عَلَى قَسَادِ مَذْهَبِهِمْ.

الآية ٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا أَنْ تَرْضَعِي﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ الْوَحْيَ ههنا وَخِي الْإِلَهَامِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَهُمُ أَيْمَةً﴾. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَقَوْلِهِ لِمُوسَى. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: فَنَان. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: مِمَّا. (٧) أَدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (٨) أَدْرَجَ قَبْلُهَا فِي الْأَصْلِ وَم: فِي. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَقُولُ.

وَالْقَذْفِ فِي الْقَلْبِ لَا وَخِي إِرْسَالٍ [مِنْ غَيْرِ أَنْ] ^(١) صَارَتْ رَسُولَةً. وَذَاكَ لَا يَجُوزُ. لَكِنْ يُقَالُ: جَائِزٌ أَنْ تُلْهَمَ هِيَ إِرْضَاعُهُ وَالْقَاوَةُ فِي السِّمِّ. فَمَا أَنْ تُلْهَمَ مَا ذَكَرَ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْكَ لَافِكًا﴾ هَذَا مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ^(٢) وَعِلْمُهُ إِلَّا بِتَضَرُّعٍ قَوْلٍ وَمُشَافَهَةِ آخِرِ اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ كَانَ بِمُوسَى آيَاتُ الرِّسَالَةِ وَأَعْلَامُ بُولَمَا عَرَفَتْ هِيَ تِلْكَ الْأَعْلَامُ وَالْآيَاتُ الَّتِي كَانَتْ لَهُ أَنَّهُ يُرَدُّ إِلَيْهَا وَأَنَّهُ يَبْقَى رَسُولًا إِلَى وَقْتٍ. وَقَدْ كَانَتْ بِالرُّسُلِ أَعْلَامُ وَآيَاتُ الرِّسَالَةِ فِي حَالِ صِفَرِهِمْ وَصِبَاهُ نَحْوُ عِيسَى حِينَ ^(٣) كَلَّمَ قَوْمَهُ فِي الْمَهْدِ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ أَنْ مُحَمَّدًا لَمَّا وَلِدَ بِاللَّيْلِ اسْتَنَارَتْ تِلْكَ النَّاحِيَةُ، وَاسْتَضَاءَتْ بِنُورِهِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ وَنَحْوُهُ.

فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بِمُوسَى أَعْلَامٌ وَآيَاتٌ، عَرَفَتْ أُمُّهُ بِهَا أَنَّهُ رَسُولٌ وَأَنَّهُ يُرَدُّ إِلَيْهَا. وَإِنَّمَا كَلَّفْنَا بِهَذَا التَّخْرِيجِ قَوْلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ وَخِي إِلَهَامٍ وَقَذْفٌ فِي الْقَلْبِ، لَا غَيْرُ.

وَعِنْدَنَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْوَخِي إِلَيْهَا وَخِي إِرْسَالِ رَسُولٍ وَإِخْبَارٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ صَارَتْ هِيَ بِذَلِكَ رَسُولَةً نَحْوُ مَا ذُكِرَ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ أَنَّ الْمَلَكَ لَمَّا دَخَلَ تَعَوَّذَتْ بِاللَّهِ حِينَ ^(٤) ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٨ و ١٩] وَذَلِكَ مِنَ الْبِشَارَةِ الَّتِي بَشَّرُوها بِالْوَلَدِ. فَلَمْ تَصِرْ بِمَا أُرْسِلَ إِلَيْهَا مِنَ الرِّسَالِ، وَشَافَهُوا رَسُولَةً. فَعَلَى ذَلِكَ أُمُّ مُوسَى، وَنَحْوُ بِشَارَةِ الْمَلَانِكَةِ لِأَمْرَةِ إِبْرَاهِيمَ بِالْوَلَدِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَإِنْ يَرَوْهُ إِسْتَحْشِقُوا﴾ [هود: ٧١] وَنَحْوُهُ وَمِمَّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ لَمْ يَصِيرُوا بِذَلِكَ رُسُلًا.

فَعَلَى ذَلِكَ الْوَخِي إِلَى أُمِّ مُوسَى يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرْنَا. وَجَائِزٌ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ صَارَتْ بِذَلِكَ رَسُولَةً، وَهُوَ أَشْبَهُ وَاقْتَرَبَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّفَقَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فِي الْآيَةِ إِخْبَارٌ ^(٥) لَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْقَطُوا لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا، وَلَكِنْ كَانَ فِيهِ إِضْمَارٌ أَيْ النَّفَقَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَتَّخِذُوهُ وَلَدًا وَوَلِيًّا، فَكَانَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِذَا كَبُرَ [أَوْ كَلَامٌ] ^(٦) نَحْوُ هَذَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَاكَ إِخْبَارٌ عَمَّا فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَكُونُ مَا ذَكَرَ مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: النَّفَقَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَكُونُ عَدُوًّا وَحَزَنًا. وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ. يُقَالُ: لِدَاوُا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ؛ لَا يَلِدُونَ لِلْمَوْتِ، وَلَا يَبْنُونَ لِلْخَرَابِ، وَلَكِنْ إِخْبَارٌ عَمَّا يَزُولُ أَمْرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَمَرًا وَجُودَهُمَا كَانُوا خَطِيئِينَ﴾ ظَاهِرٌ.

وَفِيهِ نَقْضٌ قَوْلِ الْمُتَنَزِّلَةِ مِنْ وَجْهِ: [أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا يَبْقِي الْكَفَرَةَ لِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ. ثُمَّ قَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ كَانُوا خَاطِئِينَ فِي مَا مَضَى مِنْ عُمْرِهِمْ. وَالْإِبْقَاءُ عَلَى الْخَطَايَا كَيْفَ يَكُونُ أَصْلَحَ؟] ^(٧).

الآية ٩

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُمُّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ هَذَا لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ حِينَ ^(٨) أُلْقِيَ مَحَبَّةً فِي قُلُوبِهِمْ وَخِلَافَةً فِي أَغْيِيهِمْ، وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنْهُ عَلَيْهِ حِينَ ^(٩) قَالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً نَبِيًّا﴾ [طه: ٣٩] لِيَسْتَأْذِي بِذَلِكَ الشُّكْرِ عَلَيْهِ.

قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: قَالَ مُقَاتِلٌ: قَوْلُهُ: ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ﴾ لَا تَقُولُ [أَسِيءُ]: ^(١٠) لَيْسَ لَكَ بِقُرَّةٍ عَيْنٍ. قَالَ أَبُو مُعَاذٍ: وَهَذَا مُحَالٌ. وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ فِي الْقِرَاءَةِ [حِينَ] ^(١١) تَقْتُلُونَهُ. وَهَذَا أَيْضًا مُحَالٌ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وَلَمَّا ^(١٢) كَانَتْ الْقِرَاءَةُ ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كَانَ ^(١٣) مُقَاتِلٌ مُصِيبًا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معرفة ذلك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إضمار. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) و(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ولو. (١٣) في الأصل وم: لكان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ يَخْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: ﴿وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ أَنْ هَلَاكَهُمْ وَاسْتِصْالَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ.

والثاني: ﴿وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ أَنَّهُ هُوَ الْمَطْلُوبُ قَتْلُهُ^(١) مِنْ بَيْنِ الْكُلِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوتَ نَارًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَارِغًا مِنْ مَمِّ مُوسَى وَحُزْنِهَا عَلَيْهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَلَى مُوسَى وَذِكْرِهِ؛ وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوتَ نَارًا﴾ صِلَةً قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ الْآيَةِ. وَهُوَ يَخْتَمِلُ وَجْهًا:

أحدهما: أَنَّ اللَّهَ رَفَعَ الْحُزْنَ وَالْخَوْفَ، وَطَبَعَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ ثَمَّةَ قَوْلٍ أَوْ كَلَامٍ.

والثاني: عَلَى الْقَوْلِ لَهَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَإِنْ كَانَ عَلَى هَذَا فَهُوَ عَلَى الْبَشَارَةِ لَهَا بِالرُّدِّ إِلَيْهَا وَجَعْلِهِ رَسُولًا.

[وَالثَّالِثُ]^(٢): عَلَى النَّهْيِ وَالزُّجْرِ عَنِ الْحُزَنِ عَلَيْهِ وَالْخَوْفِ عَلَيْهِ، وَهُوَ حُزْنُ مُفَارَقَتِهِ عَنْهَا، وَالْخَوْفُ عَلَيْهِ خَوْفُ الْهَلَاكِ كَقَوْلِ يَعْقُوبَ حِينَ^(٣) ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يُوسُفُ: ١٣] ذَكَرَ الْحُزْنَ عِنْدَ الْمُفَارَقَةِ وَالذَّهَابِ عَنْهُ وَالْخَوْفَ عِنْدَ الْهَلَاكِ. فَزَعَّ اللَّهُ عَنْهَا حُزْنَ الْمُفَارَقَةِ، وَبَشَّرَهَا بِالرُّدِّ إِلَيْهَا وَجَعْلِهِ رَسُولًا، وَأَمَّنَّهَا عَنِ الْهَلَاكِ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوتَ نَارًا﴾ مِمَّا خَافَتْ عَلَيْهِ، وَحَزِنَتْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا بِمَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ الْآيَةِ فَلَمْ تَكُذِّبْ بِي، وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يُوسُفُ: ٢٤] أَيْ كَادَ يَهْمُ بِهَا لَوْلَمْ يَرِ بُرْهَانُ رَبِّهِ، لَا أَنَّهُ هَمَّ بِهَا. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَبًّا قَلِيلًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧٤] لَوْلَمْ يُبَنِّتْهُ، لَكِنَّهُ تَبَنَّى، فَلَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهِمْ، وَنَحْوَهُ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقال أهل التأويل: رَبَطَ قَلْبَهَا بِالْإِيمَانِ.

وجائز أَنْ يَكُونَ رَبَطَهُ قَلْبَهَا لَمَّا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ الْآيَةِ.

وقال بعضهم: ﴿نَارًا﴾ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ الَّذِي كَانَ عَهْدَ إِلَيْهَا؛ أَنْسَاهَا عَهْدُ اللَّهِ عِظَمَ الْبَلَاءِ الَّذِي حَلَّ بِهَا، فَكَادَتْ تُبْدِيَ بِهِ، ثُمَّ تَدَارَكَهَا اللَّهُ بِالرَّحْمَةِ، فَزَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، فَذَكَرَتْ، وَارْعَوَتْ.

وقال بعضهم: اتَّخَذَهُ فِرْعَوْنُ وَلَدًا، فَصَارَ النَّاسُ يَقُولُونَ: ابْنُ فِرْعَوْنَ، ابْنُ فِرْعَوْنَ، فَأَذْرَكَتْ أُمُّهُ الرُّقَّةَ وَحُبَّ الْوَلَدِ، فَكَادَتْ تَقُولُ: بَلْ هُوَ ابْنِي. وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

وفي حرفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَةَ: إِنْ كَادَتْ لَتَشْعُرُ بِهِ.

الآية ١١

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيْهِ﴾ أَيْ أَتَّبِعِي أَثَرَهُ.

وقوله تعالى: ﴿بَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ قِيلَ: عَنْ بُعْدٍ، أَيْ كَانَتْ تَتَّبِعُ أَثَرَهُ عَنْ بُعْدٍ مِنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجُنْبُ: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَوْضِعٍ بَعِيدٍ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ بِقُرْبٍ مِنْهُ. وَذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ مَعْرُوفٌ ظَاهِرٌ فِيهِمْ ذَلِكَ.

وقال/ ٣٩٥ - ب/ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ قَالَ: مَشَتْ بِجُنَائِبِهِ^(٤)، وَهِيَ مُعْرِضَةٌ عَنْهُ كَأَجْنَبِيَّةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يَشْعُرْ﴾ أَنْ هَذِهِ تُرَاقِبُهُ، أَوْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَتَحْفَظُهُ، أَوْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ هَلَاكَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ. بَصُرَتْ، وَأَبْصَرَتْ، وَاحَدٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَنْ جُنْبٍ﴾ عَنْ نَاحِيَةٍ بَعِيدَةٍ، وَجَوَانِبُ جَمَاعَةٌ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ جُنْبٌ، وَقَوْمٌ أَجْنَابٌ، وَجَانِبٌ، وَأَجْنَبِيٌّ، أَيْ غَرِيبٌ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْإِجْتِنَابِ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَوَسَجَةَ وَالْقُتَيْبِيِّ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: بِقَتْلِهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: بِجَنَابَتِهِ.

الآية ١٢

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ حَرَّمَ تَحْرِيمَ مَنَعَ وَحَظَرٍ: [التحريم]^(١) الذي ضِدُّهُ الإِطْلَاقُ والإِرسَالُ لا التَّحْرِيمَ الذي ضِدُّهُ الحِلُّ؛ وذلك لُظْفٌ مِنَ اللَّهِ تعالى وَفَضْلٌ وَرَحْمَةٌ حِينَ^(٢) مَنَعَ موسى عَنْ أَنْ يَرْضَعَ مِنَ النِّسَاءِ، وهو طِفْلٌ، وَهَمَّةٌ امْتِنَالُهُ الإِرتِضَاعُ والرَّغْبَةُ فِي التَّنَازُلِ مِنْ كُلِّ لَبَنٍ وَمِنْ كُلِّ مُرْضِعٍ تُرَضِعُهُ لا [تَمَيِّيزَ لَهُ]^(٣) فِي الإِرتِضَاعِ. فَدَلَّ امْتِنَاعُهُ وَكُفُّهُ نَفْسَهُ عَنِ الإِرتِضَاعِ مِنَ النِّسَاءِ جُمَعَ أَنَّ ذَلِكَ لُظْفٌ مِنَ اللَّهِ اعْطَاهُ لِيَمْتَنِعَ عَنْهُ. فَعَمِلَ ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ^(٤) عِنْدَ اللَّهِ لُظْفٌ، لَوْ أُعْطِيَ الْكَافِرُ الَّذِي هِمَّتُهُ الْكُفْرُ والرَّغْبَةُ فِيهِ لَأَمَنَ، وَاهْتَدَى. لَكِنَّهُ لَمَّا عَرَفَ رَغْبَتَهُ وَهَمَّتَهُ فِيهِ وَاخْتِيَارَهُ لَهُ مَنَعَ ذَلِكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ.

وهذا^(٥) الْحَرْفُ يَنْقُضُ عَلَى الْمُعْتَزَلَةِ مَذْهَبَهُمْ فِي رَغْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أُعْطِيَ كُلَّ كَافِرٍ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يُؤْمِنُ وَمَا بِهِ يَصِيرُ مُؤْمِنًا حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمَّا يَكُونُ بِهِ إِيْمَانُهُ إِلَّا وَقَدْ أُعْطَاهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ. فَيَنْقُضُ قَوْلَهُمْ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَمْرِ موسى أَنَّ عِنْدَهُ لُظْفًا^(٦) لَمْ يُعْطِهِ، لَوْ أُعْطَاهُ لَأَمَنَ، وَاهْتَدَى. لَكِنَّهُ لَمْ يُعْطِهِ لِمَا ذَكَرْنَا.

وفيه لُظْفٌ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ وَالْقَبِيظَ كَانُوا يَقْتُلُونَ الْوِلْدَانَ مِنَ الذَّكُورِ لِيَصِيرَ الَّذِي يَخَافُ هَلَاكَهُ وَذَهَابَ مُلْكِهِ عَلَى يَدَيْهِ مَقْتُولًا. فَجَعَلَ اللَّهُ بِلُظْفِهِ وَرَحْمَتِهِ مَحَبَّةً فِي قَلْبِ فِرْعَوْنَ وَقُلُوبِ أَهْلِهِ حَتَّى صَارَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِمْ، وَصَارُوا أَشْفَقَ النَّاسِ وَأَرْحَمَهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى خَافُوا هَلَاكَهُ، وَطَلَبُوا لَهُ الْمَرَاضِعَ لِئَلَّا يَهْلِكَ بَعْدَ مَا كَانُوا يَطْلُبُونَ هَلَاكَهُ وَتَلَفَهُ. وَذَلِكَ لُظْفٌ مِنْهُ لَهُ وَرَحْمَةٌ. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]. وَبِاللَّهِ يُسْتَفَادُ^(٧) كُلُّ فَضْلٍ وَنِعْمَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ قَوْلُهُ: ﴿فَقَالَتْ﴾ أَيِ أُخْتُهُ الَّتِي كَانَتْ تَتَّبِعُهُ، وَتَمْشِي عَلَى إِثْرِهِ. وَذَلِكَ مِنْهَا [عَدَمٌ]^(٨) تَغْرِيبُ الدَّلَالَةِ لَهُمْ إِلَى أُمِّهِمْ لِئَلَّا يَشْعُرُوا أَنَّهَا أُمُّهُ حِينَ^(٩) قَالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ﴾ وَلَمْ تَقُلْ: عَلَى امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ، وَهِيَ تَرْضِعُ. وَلَعَلَّهَا لَوْ قَالَتْ لَهُمْ ذَاكَ وَقَعَ عِنْدَهُمْ أَنَّهَا أُمُّهُ. وَلَكِنْ دَلَّتْهُمْ عَلَى بَيْتٍ لِيَقَعَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ قُتِلَ وَلَدُهُمْ، وَلَهُمْ وَلَدٌ ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أَيِ يَقْبَلُونَهُ، وَيَضُمُّونَهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾. يَخْتِمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ أَيِ لِفِرْعَوْنَ، لَا يَخُونُونَهُ فِيهِ. وَيَخْتِمِلُ ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ لِمُوسَى.

الآية ١٣

وقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آتِيهِ كَمَا تَفَرَّقَ عَيْنَاهُ وَلَا تَحْزَنَ﴾ أَيِ تُسَرُّ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا. وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي النِّسَاءِ ظَاهِرٌ أَنَّهُنَّ يَخْزَنُ بِمُفَارَقَةِ أَوْلَادِهِنَّ، وَيَهْتَمُّنَ لِذَلِكَ، وَيُسَرُّنَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِنَّ، وَاجْتَمَعُوا مَعَهُنَّ^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ كَانَتْ تَعْلَمُ هِيَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ كَائِنْ، لَا مُحَالَةَ. لَكِنْ [كَانَتْ تَعْلَمُ]^(١١) عِلْمٌ خَبِيرٌ لَا عِلْمٌ عِيَانٍ وَمُشَاهَدَةٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: لِنَعْلَمَ عِلْمَ عِيَانٍ وَمُشَاهَدَةٍ كَمَا عَلِمْتَ عِلْمَ خَبِيرٍ، لِأَنَّ عِلْمَ الْعِيَانِ وَالْمُشَاهَدَةِ أَكْبَرُ وَأَبْلَغُ وَأَذْفَعُ لِلشُّبْهِةِ مِنْ عِلْمِ الْإِخْبَارِ. أَلَا تَرَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ. لَكِنَّهُ كَانَ يُعْلَمُ عِلْمَ خَبِيرٍ، فَاحْبَبَ أَنْ يَعْلَمَهُ عِلْمَ عِيَانٍ وَمُشَاهَدَةٍ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ وَأَبْلَغُ لِلْوَاسُوسِ مِنْ عِلْمِ الْإِخْبَارِ؟ [فَعَمِلَ ذَلِكَ الْأَوَّلُ]^(١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أَخْبَرَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ]^(١٣) وَالْمُعْتَزَلَةُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ حِينَ^(١٤) قَالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] وَهُمْ يَقُولُونَ: أَرَادَ أَلَّا يَمْلَأَ جَهَنَّمَ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ أَرَادَ إِيْمَانَ كُلِّ النَّاسِ أَجْمَعِينَ^(١٥)، وَشَاءَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا. فَعَمِلَ قَوْلُهُمْ: إِنْ شَاءَ ذَلِكَ لَهُمْ شَاءَ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْهُمْ. فَذَلِكَ خُلْفٌ فِي الْوَعْدِ وَكَذِبٌ فِي الْقَوْلِ عَلَى قَوْلِهِمْ.

الآية ١٤

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ قَالَ بَغِضُ أَهْلِ التَّوِيلِ: الْأَشَدُّ هُوَ مَا بَيْنَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إِلَى

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: تميز لهم. (٤) من م، في الأصل: يكونوا. (٥) من م، في الأصل: وهذه. (٦) في الأصل وم: لطف. (٧) من م، في الأصل: ليستفاد. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: جعلوا إليهن واجتمعوا. (١١) في الأصل: كانت، ساقطة من م. (١٢) في م: فعلى ذلك، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: جميعا.

ثلاثين سنة، ثم هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين [استواء الشدة، ثم يأخذ بغد الأربعين]^(١) في الثفان، ثم غير بممره الأربعين سنة.

وقال بعضهم: [أريد بقوله]^(٢) ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ثلاث وثلاثون سنة ﴿وَأَسْتَوَى﴾ أربعون.

وعن ابن عباسٍ مثله. وقال بعضهم: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قال: الأشدُّ الحلم، والاستواء أربعون سنة.

واضلُّ الأشدُّ أن يشتدَّ كلُّ شيءٍ منه، وصارَ يَحْتَمِلُ ما قُصِدَ به، وجُعِلَ فيه، ويدخلُ في ذلك العقلُ وكلُّ شيءٍ، ﴿وَأَسْتَوَى﴾ [أي استوى]^(٣) ذلك، واستحكم، وصارَ بحيثُ يَحْتَمِلُ ذلك.

وجائزُ أن يكونَ الاستواءُ هو الأشدُّ الذي ذَكَرَ.

وقال أبو عوسجةٍ والقُتَيْبِيُّ: ﴿وَأَسْتَوَى﴾ أي استحكم، وانتهى شبابه، واستقرَّ، فلم تكن فيه زيادة.

واضله ما ذكرنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِحُكْمٍ وَعَلَّمَ﴾ أي آتيناهُ الحكمَ^(٤) الذي يحكمُ به بين الناسِ ﴿وَعَلَّمَ﴾ بمصالحِ نفسِهِ ومصالحِ الخلقِ.

وقال بعضُ أهلِ التأويلِ: الحكمُ الفقهُ والعقلُ، والعلمُ قيل: النبوة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في الآخرةِ بالوعدِ الذي وعدَ لهم في الدنيا كما جَزَى موسى بإنجازِ ما وعدَ له^(٥) أو أن يكونَ من موسى إحساناً وجهدَ في طلبِ العلمِ وغير ذلك مما أعطاه ذلك، وأخبر أنه كذلك يجزي من ذَكَرَ كقولِهِ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿وَلَعَلَّكَ أَنتَ وَكَرَّمَ اللَّهُ حَقَّ﴾ [القصص: ١٣] كَانَ وَعْدُهُ إِيَّاهَا أَنْ يَرُدَّهَ إِلَيْهَا، وَيَجْعَلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَمَغْنَاهُ مَا ذَكَرَ فِي مَا تَقَدَّمَ.

قال الكسائي: يُقَالُ امرأةٌ مُرْضِعٌ مادامت تُرْضِعُ، فإذا قَطَمَتْ سُمِيتَ مُرْضِعَةً ما دامت حُبْلَى فهي مُرْضِعَةٌ، أي سَتَرَضِعُ.

الآية ١٥

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال عامةُ أهلِ التأويلِ: على غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وهو عندَ الظهيرة، وذلك وقتُ القائلة.

وقال قائلون: ﴿عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ﴾ أهلُ البلدِ عن دخولِ موسى، أي دَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ شَعَرُوا بِهِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ مُوسَى. على هذا التأويلِ الغَفْلَةُ تكونُ على دخولِ موسى عليهم. وعلى الأولِ على غَفْلَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أي وَتَتْ غَفْلَتِهِمْ.

فإن كَانَ على هذا فَيَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ غَفْلَةُ أَهْلِهَا هي أَنْ كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ عِيدِهِمْ؛ خَرَجُوا إِلَيْهِ، فَدَخَلَ هو الْمَدِينَةَ لِيُظَلِّعَ [على]^(٦) أحوالها وأسبابها. إلا أن تكونَ العادةُ فيهم أنهم بأجمعِهِمْ يَقِيلُونَ، فَذَلِكَ مُحْتَمَلٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ قال بعضُ أهلِ الأدبِ: إنَّ قوله: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ إنما يُقَالُ لِلشاهِدِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ، فأما الغائبُ فإنه لا يُقَالُ، لكن قالوا: إنَّ فيه إضماراً ولُظْفاً؛ كانه قال: فَوَجَدَ فِيهَا/ ٣٩٦ - أ/ رجلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ: مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمَا يَقُولُ: هذا من شِيعَتِهِ، وهذا مِنْ عَدُوِّهِ، ثم قال أهلُ التأويلِ: أَخَذَهُمَا كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا وَالْآخَرُ قَبِيلِيًّا.

فإن قيل: كيف سَمَى الإسرائِيلِيَّ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى؟ [قيل: كَانَ]^(٧) ذَلِكَ أَوَّلَ مَا دَخَلَ مُوسَى الْمَدِينَةَ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ كَانُوا عُبَادَ الْأَصْنَامِ، وَقَدْ حُبِّبَ إِلَيْهِمْ حَتَّى قَالُوا لِمُوسَى بَعْدَ مَا أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَبَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَالْقَبِيْطِ جَمِيعاً. ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وكذلك يقولُ مقاتلٌ: كَانَا كَافِرَيْنِ جَمِيعاً.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: العلم.

(٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وذلك.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْمُخْرِمِينَ﴾؟ [القصص: ١٧] لَكِنْ يُخْرِجُ هَذَا عَلَى الْإِضْمَارِ؛ كَأَنَّهُ [قَالَ]: يَكُونُ ﴿هَذَا﴾^(١) مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ. أَوْ يَقُولُ: يَكُونُ هَذَا مِنْ قَوْمٍ، هُمْ شِيعَتُهُ، وَبَقِيَ هَذَا عَدُوًّا فِي قَوْمٍ، هُمْ أَعْدَاؤُهُ. وَعَلَى هَذَا يُخْرِجُ تَأْوِيلُهُ أَنَّهُمَا كَانَا كَافِرِينَ جَمِيعًا. لَكِنْ يُخْرِجُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أَيِ اسْتَفْتَاهُ الَّذِي كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَبْقَى عَدُوًّا لَهُ لِيَنْصُرَهُ^(٢). وَالِاسْتِفْهَانَةُ هِيَ الْإِسْتِعَانَةُ وَالِاسْتِنْصَارُ، أَيِ سَأَلُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ شِيعَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: الْوَكْزَةُ [الطَّغْنَةُ فِي الصَّدْرِ]^(٣). وَقَالَ الرَّجَّاجُ وَالْقُشَيْرِيُّ وَهَؤُلَاءِ: الْوَكْزَةُ الدَّفْعَةُ ﴿فَوَكَزَهُ﴾ أَيِ دَفَعَهُ ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَيِ فَرَعَهُ مِنْهُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] وَقَوْلِهِ: ﴿فَقَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أَيِ فَرَعَهُ وَنَحْوَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أَيِ قَتَلَهُ، وَكِلَاهُمَا سَوَاءٌ؛ إِذَا قَتَلَهُ فَقَدْ فَرَعَهُ مِنْهُ، وَهُوَ لَمْ يَتَّعَمِدْ قَتْلَهُ، وَلَا قَصَدَهُ. لَكِنْ اللَّهُ قَضَى أَجَلَهُ، وَجَعَلَ انْقِضَاءَ عُمرِهِ بِوَكْزَةِ مُوسَى، وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ قَاتِلٌ، لِأَنَّهُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَعَاذَ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] وَلَمْ يَكْذِبِ اللَّهُ مُوسَى فِي قَوْلِهِ: إِنَّكَ لَمْ تَقْتُلْ.

الآية ١٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ الْآيَةُ.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ جَوَازِ الْإِسْتِذْلَالِ لِقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ حِينَ^(٤) قَالَ: مَنْ قَتَلَ آخَرَ بِحَجَرٍ عَظِيمٍ أَوْ بِخَشَبَةٍ عَظِيمَةٍ مِمَّا لَا يَنْجُو مِنْ مِثْلِهِ فَإِنَّهُ^(٥) لَا يُقْتَلُ بِهِ، وَلَا يَجِبُ الْقِصَاصُ فِيهِ، لِأَنَّ مُوسَى لَمَّا وَكَزَ ذَلِكَ الْقَبِيضِي [مَاتَ، وَذُكِرَ]^(٦) أَنَّ لَهُ قُوَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، لَمْ يَرِ الْقِصَاصُ بِهِ وَاجِبًا حِينَ^(٧) قَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ: ﴿يَمُوسَى إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ يَخَيِّ مِنْ الْفَرَقِ الْفَلِيلِينَ [القصص: ٢٠ و ٢١].

وَلَوْ كَانَ الْقِصَاصُ وَاجِبًا لَكَانَ أَوْلَثُكَ لَمْ يَكُونُوا ظُلْمَةً فِي قَتْلِهِ، بَلْ يَكُونُ هُوَ الظَّالِمُ فِيهِ، وَلَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْقِصَاصُ وَاجِبًا أَيْضًا، وَمُوسَى يَقْرَأُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَهْرُبُ. وَفِي ذَلِكَ إِبْطَالُ حَقِّهِمْ.

دَلُّهُ أَنَّهُ لَمْ يَجِبْ، وَلَا شَكُّ أَنَّ وَكْزَةً مِنْ لَهُ قُوَّةُ أَرْبَعِينَ رَجُلًا إِلَى الْهَلَاكِ أَسْرَعُ وَأَقْرَبُ^(٨) وَأَعْمَلُ مِنَ الضَّرْبِ بِالْحَجَرِ الْعَظِيمِ وَالْخَشَبَةِ الْعَظِيمَةِ. فَإِذَا لَمْ يَجِبْ فِي هَذَا لَمْ يَجِبْ فِي ذَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٧ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَسْتُ عَلَى﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ، فَلَمْ تُعَاقِبْنِي بِقَتْلِ النَّفْسِ، وَعَصَمْتَنِي مِنْ أَنْ أَعَاقَبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ هُوَ قُوَّتُهُ الَّتِي [أَعْطَاهُ إِيَّاهَا]^(٩) أَخْبَرَ أَلَّا يَكُونُ ﴿ظَاهِرًا لِلْمُخْرِمِينَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ١٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أَكْثَرُ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ: أَصْبَحَ مَغْنَاهُ^(١٠) صَارَ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَعًا غَوْرًا﴾ [الكهف: ٤١] أَيْ صَارَ وَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَدًّا غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]. وَنَحْوُهُ.

وَأَمَّا هُنَا فَقَوْلُهُ^(١١): ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ [بِهِ]^(١٢) الصَّبَاحَ نَفْسُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أَيِ يَنْتَظِرُ سُوءًا يَنَالُهُ مِنْهُمْ.

وَقَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: التَّرَقُّبُ الْخَوْفُ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: خَائِفًا هَلَاكَهُ. وَأَصْلُ التَّرَقُّبِ هُوَ التَّنَظُّرُ، وَالتَّرَقُّوبُ أَنْ يَرْتَقِبَ مَنْ يَظْلُبُهُ، وَهُوَ مِنَ الرَّقِيبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا الَّذِي ائْتَمَرَ بِالتَّنْصِيحِ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ شِيعَتِهِ

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَنْصُرُهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الطعن فِي الصدور. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) الْفَاء ساقطة من الأصل وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَمَاتَ وَكَز. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: فَالْأَقْرَب. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَعْطَاهَا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: أَيْ. (١١) الْفَاء ساقطة من الأصل وَم. (١٢) ساقطة من الأصل وَم.

ضَعِيفاً فِي نَفْسِهِ حَتَّى^(١) لَا يَقْدِرَ أَنْ يَقُومَ لِرَاحِدٍ، فَيَسْتَنْصِرَ بِمُوسَى، وَيَسْتَعِينُ بِهِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَاصِمُ^(٢)، وَيُنَازِعُ، وَيُقَاتِلُ، لِسُوءٍ فِيهِ وَبِلَاءٍ؛ يُقَاتِلُ، وَيُنَازِعُ. وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ بِنَفْسِهِ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَقُومُ لِوَاحِدٍ فَمِنْ حِينَ^(٣) لَا يُقَاتِلُ مِثْلَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ سُوءِ بِهِ. وَلِلذَلِكَ ﴿قَالَ لَكُمْ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.

[إِنَّمَا عَرَفَ مُوسَى^(٤) غَوَايَتَهُ بِالْأَسْتِذْلَالِ الَّذِي ذَكَرْنَا لَا بِالْمُشَاهَدَةِ. وَلِلذَلِكَ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي^(٥) هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا لِكَلَّا يَقْتُلُهُمَا، وَلَا يَهْلِكُهُ، لِمَا عَرَفَ غَوَايَتَهُ بِالْأَسْتِذْلَالِ لَا حَقِيقَةً.

وَذَكَرَ هَهُنَا الْبَطْشَ، وَهُوَ الْأَخْذُ بِالْيَدِ. وَفِي الْأَوَّلِ ذَكَرَ الْوَكْزَةَ، وَهِيَ الدَّفْعُ وَالطَّلْعُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْأَوَّلَ، فَأَتَتْ الْوَكْزَةُ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَتَلَتْهُ، فَأَخَذَ هَذَا مِنْ هَذَا لِيَمْنَعَهُ عَنْ إِهْلَاكِهِ وَإِتْلَافِهِ، وَلَا يَأْتِيَ عَلَى نَفْسِ الْآخَرِ كَمَا فَعَلَتْ الْوَكْزَةُ.

الآية ١٩ [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿٦﴾] ﴿قَالَ يَشُومُكَ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ اخْتَلَفَ فِي قَائِلِ هَذَا:

قَالَ عَائِمَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّ قَائِلَ هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَضْرَخَهُ، وَاسْتَفَنَاهُ؛ قَالُوا: لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا أَرَادَ بَطْشَهُ وَآخِذَهُ، وَإِلَيْهِ قَصْدٌ، لِلذَّكَاءِ قَالَ: ﴿أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾.

وَقَالَ قَائِلُونَ: هَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا قَالَهُ^(٧) ذَلِكَ الْقَبِيضِيُّ.

فَإِنْ كَانَ هَذَا فَهُوَ يَدُلُّ أَنَّ قَتْلَهُ ذَلِكَ الرَّجُلَ بِالْأَمْسِ كَانَ ظَاهِرًا حَتَّى^(٨) عَلِمَ بِهِ الْقَبِيضِيُّ، وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿عَلَّ بَيْنَ عَقْلَيْنِ مِّنْ أَهْلَاهَا﴾ أَيِ مِنْ دُخُولِ مُوسَى الْمَدِينَةَ.

وَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَوَّلُ كَانَ قَتْلُهُ إِيَّاهُ خَفِيًّا غَيْرَ ظَاهِرٍ. فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْعُقْلَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَا عَلَى دُخُولِ مُوسَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لِأَنَّ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، لَا يَقْتُلُ، وَلَا يَأْخُذُ أَحَدَهُمَا دُونَ الْآخَرِ، وَلَكِنْ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا عَلَى السَّوَاءِ. لِلذَّكَاءِ^(٩) قَالَ مَا قَالَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَقُولُ: هَكَذَا فِعْلُ الْجَبَّارَةِ [أَنْ]^(١٠) تَقْتُلُ النَّفْسَ بِغَيْرِ نَفْسٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَبَّارُ، هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى هَوَاهُ وَعَلَى مَا يُرِيدُهُ، وَيَقْهَرُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، شَاوَرًا، أَوْ أَبَوًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَبَّارُ، هُوَ الَّذِي تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ، لَا يَرَى أَحَدًا لِنَفْسِهِ نَظِيرًا، أَوْ كَلَامَ نَحْوِهِ، وَيُقَالُ، كُلُّ قَائِلٍ آخَرَ عَلَى الْغَضَبِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ جَبَّارٌ.

الآية ٢٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْتَعِيذُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ هُوَ مَسْكَنٌ فِرْعَوْنَ وَمَقَامُهُ، فَمِنْهُ جَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، أَوْ أَنْ يَكُونَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ مَوْطِنُ الْمَلَأِ وَالْأَشْرَافِ الَّذِينَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا عَلَى قَتْلِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعِيذُ السَّعْيُ^(١١) هُوَ الْعَدُوُّ فِي اللُّغَةِ؛ كَأَنَّهُ يُسْرِعُ الْمَشْيَ إِلَيْهِ لِيُخْبِرَهُ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَشُومُكَ إِنْكَ أَلَمَلًا يَأْتِيْرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ بِأَتِيْرُونَ: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَتَشَاوَرُونَ فِي قَتْلِكَ.

وَقَالَ الرَّجَّاجُ: ﴿يَأْتِيْرُونَ بِكَ﴾ أَيِ يَهْشَمُونَ فِي قَتْلِكَ، وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَأْتِيْرُونَ بِكَ﴾ يَتَشَاوَرُونَ بِكَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَوَسَجَةَ.

وَأَصْلُ الْإِثْمَارِ فِي اللُّغَةِ، هُوَ الطَّاعَةُ وَالْإِتْبَاعُ لِمَا يُؤْمَرُ مِنَ الْفِعْلِ؛ كَانَ فِرْعَوْنُ أَمَرَ الْمَلَأَ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَطَاعُوهُ، وَاتَّخَذُوا لِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: يَخَاطَبُ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: لَكِنْ مُوسَى إِنَّمَا الْمَعْرُوفُ. (٥) الْبَاءُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: قَالَ لَهُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: الَّذِي. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالسَّعْيُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرِجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ الصَّحِينَ﴾ قَالَ الرَّجَاُجُ: قوله: ﴿لَكَ﴾ صِلَةٌ، والصِّلَةُ لَا تَقْدَمُ/٣٩٦-ب/ الموصول به. ولكنَّ مَعْنَاهُ: ﴿فَأَخْرِجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ الصَّحِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْصَحُونَ لَكَ. وليسَ كما قال: الصِّلَةُ تَقْدَمُ، وتَأْخُرُ. وذلك ظاهرٌ في الكلام. وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجْ مِنَّا خَائِفًا يَرْقُبُ﴾ قد ذَكَّرْنَا هذا.

الآية ٢١

ذَلْ قوله: ﴿خَائِفًا يَرْقُبُ﴾ أَنَّ الْخَوْفَ قد يكونُ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وجائزٌ أَنْ يُخَافَ مِنْ غَيْرِهِ، وليسَ كما يقولُ بعضُ الناسِ: لَا يَسَعُ الْخَوْفُ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وحقيقةُ الخوفِ تكونُ مِنْ اللَّهِ، يُخَافُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ عَلَى يَدَيْهِ^(١) هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ الظَّالِمُ كُلَّ مُشْرِكٍ، لَأَنَّ كُلَّ مُشْرِكٍ ظَالِمٌ. وَيَحْتَمِلُ: قوله: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ حينَ^(٢) هُمَا يُقْتَلُهُ. وقُتِلَ موسى ذلكَ الْقَبِيضِيِّ لم يوجبْ عليه القَتْلَ والقِصاصَ لانه لم يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، أو لم يَقْتُلْهُ بِسِلَاحٍ، يَجِبُ بِهِ الْقَتْلُ. فَذَكَرَ أَنَّهُمْ فِي مَا هُمَا يَقْتُلُهُ ظَلَمَةً.

الآية ٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا نَجَّاهُ يَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَ بَعْضُهُمْ: أَخَذَ طَرِيقًا؛ إِذَا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ، وَنَقَذَ فِيهِ، خَرَجَ يَلْقَاءَ مَدْيَنَ، أو وَقَعَ يَلْقَاءَ الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَيِ الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَ يَقْصِدُهُ، وَيَطْلُبُهُ، وَهُوَ طَرِيقُ مَدْيَنَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ ضَلَّ الطَّرِيقَ.

الآية ٢٣

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أَيِ وَرَدَ الْبِئْرَ الَّتِي كَانَ مَاءَ مَدْيَنَ، أَيِ وَرَدَ^(٣) الْبِئْرَ الَّتِي كَانَ مَاءَ مَدْيَنَ مِنْ تِلْكَ الْبِئْرِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةً مِنْ الثَّوَابِ يَسْقُونَ﴾ أَمَةً أَيِ جَمَاعَةً، وَقِيلَ: أَنَا، مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ أَغْنَامَهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَذُودَانِ تَحِيَّاسَانِ حَتَّى يَفْرَغَ النَّاسُ، وَيُضْهِرُوا^(٤)، وَيَخْلُوَ لِهَما الْبِئْرُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَذُودَانِ أَغْنَامُهُمَا لِتَسْقِيَهَا.

ثم قوله: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: [تَذُودَانِ]^(٥) غَنَمُهُمَا، وَلَا تَسْقِيَانِهَا ﴿حَتَّى يَضْهِرَ الرِّعَاءُ﴾ لِمَا لَا تُشْرَكَانِ تَسْقِيَانِ غَنَمَهُمَا مَعَ غَنَمِ أَوْلَئِكَ الرِّعَاءِ حَتَّى يُضْهِرُوا هُنَّ.

والثَّانِي: لَا تَمْنَعَانِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهَا تَسْتَحْيَانِ أَنْ تُزَاجِمَا الرِّجَالَ، وَتَخْلُطَا بِهِمْ، فَتَنْتَظِرَانِ قَرَأَهُمْ صُدُورَ الرِّعَاءِ عَنْهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا بِالْهُمَا لَا تَتَخَلَّفَانِ وَقَدْ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ، وَتَشْهَدَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَوْ لَا تَنْتَظِرَانِ خَلَاءَ الْبِئْرِ مِنْهُنَّ؟ قِيلَ: لِمَا ذُكِرَ أَنَّ عَلَى رَأْسِ الْبِئْرِ حَجَرًا، يُلْقَى عَلَيْهَا^(٦)، لَا يُطْفِئُهُ إِلَّا كَذَا كَذَا نَفْرًا، وَكَذَلِكَ الدَّلُؤُ الَّتِي يُسْتَقَى مِنْهَا، لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا كَذَا كَذَا، مِنْ عَشْرَةٍ إِلَى أَرْبَعِينَ عَلَى مَا ذُكِرَ. فَهَما تَشْهَدَانِ تِلْكَ الْبِئْرَ مِنْهُنَّ، ثُمَّ تَأْتِيَانِ، لَمْ تَقْدِرَا عَلَى نَزْحِ الْمَاءِ وَالذَّلُولِ وَرَفْعِ الْحَجَرِ الَّذِي ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْبِئْرِ، لِذَلِكَ كَانَ مَا ذُكِرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أَيِ مَا شَأْنُكُمَا؟ وَمَا أَمْرُكُمَا؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يَضْهِرَ الرِّعَاءُ﴾ لِمَا ذُكِّرْنَا. وَقُرِئَ يَضْهِرُ يَنْضَبُ الْيَاءُ وَبِالرَّفْعِ جَمِيعًا. وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّضْبِ^(٧) فَإِنَّهُ يَقُولُ: حَتَّى يَضْهِرَ الرِّعَاءُ بِأَنْفُسِهِمْ، أَيِ يَرْجِعَ. وَمَنْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ [فَمَعْنَاهُ]^(٨) حَتَّى يَضْهِرُوا، وَيَرْجِعُوا أَغْنَامَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَيْكَ سَيِّئٌ كَبِيرٌ﴾ تَذَكُّرَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، عَذَرُ أَبِيهِمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنْ سَقَى الْغَنَمِ، وَإِرْسَالِهِ إِيَّاهُمَا فِي ذَلِكَ دُونَ تَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَقَالَتَا^(٩): ذَلِكَ لِكِبَرِهِ وَضَعْفِهِ مَا يَتَخَلَّفُ عَنْ ذَلِكَ وَيُرْسِلُهُمَا، وَإِلَّا لَا مَعْنَى لِلذِّكْرِ كِبَرِ أَبِيهِمَا بَلَا سَبَبٍ، يَحْمِلُهُمَا عَلَى ذَلِكَ سِوَى مَا ذُكِّرْنَا.

وجائزٌ أَنْ يَكُونَ لِمَعْنَى آخَرَ، لَا نَعْلَمُهُ.

(١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَدِيهِ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: مُورِد. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيَصْدُرُونَ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِ. (٧) انْظُرْ مَعَجَمَ الْقُرْآنِ ج ٥/١٣. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: وَقَالَا.

الآية ٢٤

وقوله تعالى: ﴿سَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ دَلَّ أَنَّ الْبِشْرَ الَّتِي كَانَتْ تُسْقَى الْمَائِيَّةُ مِنْهَا كَانَتْ فِي الشَّمْسِ حِينَ^(١) اخْتَبَرَهُ سَقَى لَهُمَا [ثُمَّ]^(٢) تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ. وفيه أن لا بأسَ بأن يُجْلَسَ^(٣) فِي الظِّلِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْهُ شِكَايَةٌ عَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْجُوعِ لِأَنَّهُ ذُكِرَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْمِصْرِ إِلَى مَدْيَنَ هَارِباً مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوِيهِ غَيْرَ مُتَزَوِّدٍ، وَهُوَ مَسِيرُهُ ثَمَانِي لَيَالٍ.

وفيه دلالة أن لا بأسَ للرجل أن يُخْبِرَ، وَيَذْكُرَ، عَمَّا هُوَ [فِيهِ]^(٤) مِنَ الشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ حِينَ^(٥) ذَكَرَ مُوسَى حَالَهُ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الْجُوعِ الَّذِي أَصَابَهُ. وَكَذَلِكَ^(٦) مَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] وَذَلِكَ يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ مِثْلَ هَذَا يُخْرَجُ مُخْرَجَ الشُّكَايَةِ إِلَى اللَّهِ. وَلَوْ كَانَتْ شِكَايَةً لَكَانَ مُوسَى لَا يَقُولُ ذَلِكَ، وَلَا يَذْكُرُهُ.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: ﴿فَمَاءَهُ أَخَذَهُمَا تَتَشَى عَلَى أَسْتَحْيَاوْ﴾ قوله: ﴿تَتَشَى﴾ مَشَى مَنْ لَمْ يَغْتَدِ الْخُرُوجَ، أَوْ ﴿تَتَشَى﴾ مَشَى مَنْ لَمْ يُخَالِطِ النَّاسَ ﴿عَلَى أَسْتَحْيَاوْ﴾ عَلَى التَّشْتِيرِ وَالتَّغْطِيَةِ.

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿قَالَتْ إِحْبِبِّي أَبَى يَدْعُوكَ لِتُجِيرَكِ أَعْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَا بَأْسَ أَنْ يُؤْخَذَ عَلَى الْمَعْرُوفِ الَّذِي صُنِعَ إِلَى آخَرِ أَجْرٍ. وَالْأَفْضَلُ عَلَى [مَنْ]^(٨) صَنَعَ إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ وَالتَّيْبُرُغَ أَنْ يُغْطَى لِمَعْرُوفِهِ وَتَبَرُّعِهِ بَدَلًا وَآخَرًا. وَالْأَفْضَلُ عَلَى الْمُتَبَرِّعِ وَعَلَى صَانِعِ الْمَعْرُوفِ أَلَّا يَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ بَدَلًا.

إِلَّا أَنَّ مُوسَى كَانَ قَدْ اسْتَدَّتْ بِهِ الْحَاجَةُ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذُكِرَ وَأَخَذَ لِمَعْرُوفِهِ مَا ذُكِرَ بَدَلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَعَ عَلَيْهِ الْقَمْعُ﴾ أَي لَمَّا جَاءَ مُوسَى أَبَا الْمَرَاتِينِ، وَقُصَّ عَلَيْهِ قِصَّتُهُ ﴿قَالَ لَا تَحْفَتْ جَعَتَ مِنَ الْقَلِيلِينَ﴾ دَلَّ قَوْلُهُ هَذَا لِمُوسَى ﴿لَا تَحْفَتْ جَعَتَ مِنَ الْقَلِيلِينَ﴾ أَنَّ لَمْ يَكُنْ لِفِرْعَوْنَ عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ سُلْطَانٌ وَلَا يَدٌ، إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ سُلْطَانٌ لَكَانَ لَهُ فِيهِ الْخَوْفُ الَّذِي كَانَ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَكُنْ نَجَا مُوسَى مِنْهُ. دَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ.

وقوله تعالى: ﴿الْقَلِيلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ كُلُّ مُشْرِكٍ ظَالِمٌ. وَيَحْتَمِلُ ﴿جَعَتَ مِنَ الْقَلِيلِينَ﴾ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ حِينَ^(٩) ﴿قَالَ رَبِّ يَخْفَى مِنْ الْقَوِي الْقَلِيلِينَ﴾ [القصص: ٢١]^(١٠).

الآية ٢٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَهُمَا بَيَّأَتِ أَسْتَجِيرُكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَبَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: قَالَ أَبُوهُمَا لَمَّا قَالَتْ لَهُ اسْتَأْجِرْهُ فَإِنَّهُ قَوِيٌّ أَمِينٌ: مَا قُوَّتُهُ وَأَمَانَتُهُ؟

فَقَالَتْ: إِنَّمَا قُوَّتُهُ فَإِنَّهُ رَفَعَ الْحَجَرَ مِنْ رَأْسِ الْبِشْرِ وَخَذَهُ، وَكَانَ لَا يُطِيقُهُ إِلَّا كَذَا كَذَا نَقْرًا، وَنَزَعَ الدَّلْوَ مِنَ الْبِشْرِ وَخَذَهُ، وَكَانَ لَا يُطِيقُ^(١١) نَزْحَهُ إِلَّا كَذَا كَذَا [نَقْرًا]^(١٢) فَيَلِكُ قُوَّتُهُ.

وَأَمَّا أَمَانَتُهُ فَإِنَّهُ قَالَ لِي: امْشِي خَلْفِي، وَصِنِّي لِي الطَّرِيقَ. فَيَلِكُ أَمَانَتُهُ.

وَلَكِنْ قَدْ كَانَتْ تُعْرِفُ أَمَانَتَهُ قَبْلَ ذَلِكَ: لَمَّا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْمُعَامَلَةِ حِينَ قَالَ لَهُمَا: مَا خَطْبُكُمَا؟ وَحِينَ سَقَى لَهُمَا. فِي مِثْلِ هَذَا تُعْرِفُ أَمَانَتَهُ فِي تَرْكِ النَّظَرِ إِلَيْهَا وَتَرْكِ الْإِغْتِرَاضِ لِمَا يُوْجِبُ التُّهْمَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وفي قولها]^(١٣): ﴿بَيَّأَتِ أَسْتَجِيرُكَ﴾ [دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَبُوهُمَا]^(١٤) فِي طَلَبِ أَجِيرٍ قَوِيٍّ أَمِينٍ، لَكِنَّهُ^(١٥) لَا يَجِدُ، وَلَا يَظْفَرُ بِهِ. لِذَلِكَ^(١٦) قَالَتْ لَهُ: ﴿أَسْتَجِيرُكَ إِحْبِبِّي خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَبَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ إِذْ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَائِيَّةٌ، وَلَهُ غَنَى، وَبِهِ حَاجَةٌ إِلَى رَغِي ذَلِكَ وَسَقِيهِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ مَا ذُكِرَ: يُرْسِلُ ابْنَتَيْهِ فِي الرِّغْيِ وَالسَّقْيِ، وَلَا يَسْتَأْجِرُ الْأَجِيرَ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَمَى: حَيْثُ. (٢) سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَى. (٣) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَخْلُو. (٤) سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَى. (٥) فِي الْأَصْلِ رَمَى: حَيْثُ.

(٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَكَذَلِكَ. (٧) مِنْ م، سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٨) سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَمَى. (٩) فِي م: حَيْثُ. (١٠) مِنْ م، سَاقَطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ.

(١١) فِي الْأَصْلِ رَمَى: يَطِيقُهُ. (١٢) سَاقَطَةٌ فِي الْأَصْلِ رَمَى. (١٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ رَمَى: وَقَوْلُهَا. (١٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي الْأَصْلِ رَمَى: كَانَ أَبَاهُمَا كَانَ. (١٥) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: لَكِنَّا. (١٦) فِي الْأَصْلِ رَمَى: كَذَلِكَ.

لَيَتَوَلَّى ذَلِكَ دُونَ بَنَاتِهِ. هَذَا لَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ، وَخَاصَّةً مَا وَصَفَ [الله تعالى] ^(١) ابْنَتَهُ مِنَ الْحَيَاءِ حِينَ ^(٢) قَالَ: ﴿لَمَّا تَدْرَأَهُمَا تَمْشِي عَلَى آسَافٍ مِثْلَ الْقَوَى﴾ [القصص: ٢٥].

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي طَلَبِ الْأَجِيرِ، وَإِنَّمَا أَرْسَلَ ابْنَتَهُ فِي سَفَى الْغَنَمِ، وَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى ذَلِكَ مُخْتِاجٌ إِلَيْهِ. لِذَلِكَ قَالَتْ لَهُ: ﴿يَتَأْتِيكَ أَسْتَفْجِرُكَ بِكَ خَيْرٌ مِنِّي أَسْتَفْجِرُكَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾.

الآية ٢٧ [وقوله تعالى] ^(٣): ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ طَلَبَتْ هِيَ الْإِسْتِجَارَ، وَهُوَ عَرَضٌ عَلَيْهِ النِّكَاحُ لِمَا لَمْ تَرْغَبْ هِيَ فِي النِّكَاحِ، أَوْ طَلَبَتْ الْإِسْتِجَارَ لِمَا ^(٤) لَمْ تَرِ مِنْ نَفْسِهَا الرُّغْبَةَ فِي النِّكَاحِ، وَإِنْ كَانَتْ لَهَا الرُّغْبَةُ حَيَاءً، وَاللهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ / ٣٩٧ - أ / وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ جَعَلَ عَمَلَهُ ثَمَانِي حَجَجٍ بَدَلًا لِلنِّكَاحِ وَمَهْرًا لِيَغْضِيَهَا، ثُمَّ تَحْدِيدُهُ ثَمَانِي حَجَجٍ لِمَا رَأَى عَمَلُ ثَمَانِي سِنِينَ مَهْرًا بِفِلْهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أَيِ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا، أَوْ زِدْتَ عَلَى مَهْرِ الْمِثْلِ فَمِنْ عِنْدِكَ، أَيْ لَكَ ذَلِكَ: فَضْلُ مَنْكَ وَإِحْسَانٌ.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ لَيْسَ عَلَى جَعْلِهِ بَدَلًا لِلنِّكَاحِ وَلَكِنْ عَلَى الْإِجَارَةِ الْمَعْرُوفَةِ عَلَى أَجْرِ مَعْلُومٍ عَلَى جِدَّةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ كَانَ ذَلِكَ مَهْرًا لَهَا.

ثُمَّ التَّحْدِيدُ ثَمَانِي سِنِينَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، يُخْرِجُ عَلَى إِحْدَى خِلَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ لَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى الْمِضْرِ، وَرَأَى أَنَّهُ لَا يَأْمَنُ تِلْكَ النَّاحِيَةَ بِدُونِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْمُدَّةِ.

[وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ] ^(٥) لَمَّا رَأَى أَنَّ نَفْسَهُ تَنْزِعُ، وَتَتَوَقَّ بِالْعَوْدِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ، شَرَطَ ^(٦) ذَلِكَ عَلَيْهِ لئَلَّا يُحْدِثَ نَفْسَهُ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أَيِ فَإِنْ زِدْتَ سَتَتَيْنِ عَلَى ذَلِكَ؟ فَمِنْ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ﴾ فِي الزِّيَادَةِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ ^(٧) تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَاقِلِينَ﴾ فِي جَمِيعِ مَا يَجْرِي بَيْنَكَ وَبَيْنِي مِنَ الْمُعَامَلَةِ وَالصُّحْبَةِ.

وَفِيهِ أَنَّ الثَّنِيَا فِي مَا يَعْدُونَ كَانَ ظَاهِرًا فِي الْأَمَمِ السَّالِفَةِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي أَبِي الْمَرَاتِينِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ شُعَيْبًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْنُ أَخِي شُعَيْبٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَكُنْ شُعَيْبًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ سَيِّدَ الْمَاءِ يَوْمَئِذٍ. وَلَيْسَ لَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ كَانَ حَاجَةً. أَمَّا شُعَيْبٌ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ مُوسَى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٢٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ذَلِكَ﴾ يَعْنِي الشَّرْطَ، وَاللهُ أَعْلَمُ ﴿يَتَنَبَّأُ بِبَيْنِكَ أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أَيِ أَوْفَيْتُ، وَعَمِلْتُ: إِمَّا الثَّمَانِي ^(٨) وَإِمَّا الْعَشْرَ ﴿فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ يَقُولُ: لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَا تَبِعَةً. وَالْعُدْوَانُ: هُوَ الظُّلْمُ وَالْمُجَاوَزَةُ عَنِ الْحَدِّ الَّذِي جُعِلَ لَهُ؛ يَقُولُ: لَا ظُلْمَ عَلَيَّ، وَلَا مُجَاوَزَةَ عَلَيَّ، أَيْ الْإِخْتِيَارَ إِلَيَّ: قَضَيْتُ أَيُّ الْأَجَلَيْنِ: اخْتَرْتُ، وَشِئْتُ أَنَا.

وَقَوْلُهُ ^(٩) تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللهُ كَفِيلٌ عَلَيَّ مَقَالَتِي وَمَقَالَتِكَ. وَالْوَكِيلُ: هُوَ الشَّهِيدُ أَوْ الْحَافِظُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَاللهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ شَهِيدٌ.

(١) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَنِي. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَنِي. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَمَّا. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: فَشَرَطَ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَنِي. (٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الثَّانِي. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَنِي. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ثَمَنِي.

ذَكَرَ أَنْ جِبْرِيلَ، جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ سُئِلْتُ: أَيُّ الْأَجْلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَى؟ فَقُلْتُ: أَبْرَهُمَا وَأَوْفَاهُمَا، وَإِنْ سُئِلْتُ: أَيُّ الْمَرَاتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلْتُ: أَصَغَرَهُمَا. فَإِنْ ثَبِتَ هَذَا فَبِهِ أَنَّهُ قَضَى الْأَجْلَيْنِ جَمِيعًا: الثَّمَانِي وَالْعَشْرَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ إِلَّا أَقْبَضُ الْأَجَلَ [وَهُوَ قَوْلُهُ^(١)]: ﴿فَلَمَّا فَصَّ مُوسَى الْأَجَلَ﴾.

وقال القُتَيْبِيُّ: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي تُجَارِئَنِي مِنَ التَّزْوِيجِ. وَالْأَجْرُ مِنَ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الْعَمَلِ.

الآية ٢٩

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَّ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ قَضَى: أَتَمَّهُمَا، أَوْ أَكْثَرَهُمَا. لَكِنْ لَا نَعْلَمُ إِلَّا بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ. فَعَلَى مَا ذَكَرُوا، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ إِلَّا أَقْبَضُ الْأَجَلَ، فَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِثَبِتٍ. فَإِنْ ثَبِتَ مَا رُوِيَ مِنَ الْخَبَرِ فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ مَا أَنْكَرَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾: أَنْكَرَ قِيلَ: أَبْصَرَ وَأَحْسَنَ نَارًا. قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ رَأَى نَارًا، وَلَكِنْ إِنَّمَا رَأَى نُورًا، ظَنَّ أَنَّهُ نَارٌ. فَلَا يَحْتَمِلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْكَرَ نَارًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ نَارًا، وَلَكِنْ نُورًا، فَذَلِكَ^(٢) الْكَذِبُ فِي الْخَبَرِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ عَلَى الْإِضْمَارِ: أَنْكَرَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، ظَنَّ أَنَّهُ نَارًا، أَوْ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ نَارٌ.

[وقوله تعالى^(٣)]: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أَيِ امْكُثُوا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ يَدُلُّنَا، وَيُخْبِرُنَا، عَلَى الطَّرِيقِ؛ فَكَأَنَّهُ قَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ، فَيَقُولُ ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ بِخَبَرِ الطَّرِيقِ ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أَيِ آتِيكُمْ بِجَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ، [أَوَّلُو بَقِيَّتُمْ لَا تَيْتُكُمْ^(٤)] بِخَبَرِ الطَّرِيقِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. هَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ كَانَ فِي وَقْتِ الشِّتَاءِ وَفِي وَقْتِ الْبَرْدِ.

الآية ٣٠

[وقوله تعالى^(٥)]: ﴿فَلَمَّا أَنْتَهَى ثُورِي مِنْ شَطِئِ الْأَوَّامِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿الْأَوَّامِ﴾ أَيِ عَنْ يَمِينِ الْجَبَلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنْ يَمِينِ مُوسَى. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَمِينِ الشَّجَرَةِ. وَلَكِنْ الْأَيْمَنُ الْمُبَارَكُ، وَهُوَ مِنَ الْيَمَنِ، الْوَادِي الْيَمِينُ ﴿فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ [سُمِّيَتْ مُبَارَكَةً^(٦)] لِكثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَأَنْزَالِهَا وَكَثْرَةِ مِيَاهِهَا وَعُشْبِهَا. وَلَكِنْ [سَمِيَ الْوَادِي^(٧)] مُبَارَكًا وَائِمَنَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُ مَكَانُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَمَوْضِعُ الْوَحْيِ. [وَهُوَ^(٨)] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُورِي مِنْ شَطِئِ الْأَوَّامِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَسْمُوتَ﴾ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ [وَاللَّهُ أَنْ يُسْمِعَ، وَيُخْبِرَ مَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ كَمَا أَسْمَعَ مَرْيَمَ مِنْ تَحْتِهَا حِينَ^(٩)] قَالَ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي خَلْقَكَ سَرِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٢٤].

الآية ٣١

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ﴾ لَيْسَ هَذَا بِمَوْصُولٍ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ﴾^(١٠).

ولكن^(١١) ذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ طه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَانْخَلْعْ نَعْلَيْكَ﴾ [الآية: ١٢] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ.

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ﴾ أَيِ تَتَحَرَّكُ ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَانُّ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَانُّ مَا بَيْنَ الْعَظِيمَةِ وَالصَّغِيرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ مَذْهَبًا﴾ فَارًّا هَارِبًا ﴿وَلَوْ يُعْقَبُ﴾ أَيِ يُلْتَقَفُ، وَلَمْ يَزْجَعْ لِشِدَّةِ خَوْفِهِ وَفَرَقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْمُوتُ أَقِيلَ وَلَا تَحْفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَحْفَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: عَلَى رَفْعِ الْخَوْفِ مِنْ قَلْبِهِ إِذْ قَالَ ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

وَالثَّانِي: عَلَى الْبِشَارَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْذِيهِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَحْفَ، وَكُنْ مِنَ الْآمِنِينَ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْذِيكَ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: كَانَ ذَلِكَ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَلَوْ بَقِيتُمْ فِيهِ وَلَمْ آتِيكُمْ. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمِيَ مُبَارَكًا. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: سَمَاءُ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (٩) فِي م: حَيْثُ. (١٠) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (١١) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: ﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ﴾.

والثالث: [على التَّهْيِ، أي لا تَحْفَ] ^(١) فإني أَحْفَظُكَ، وأدْفَعُ أذاهُ عَنْكَ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيَّ أَوْ أَنْ يَطْلَنَ﴾
﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى مَا تَفْعَلُ بِكُمَا، وَأَدْفَعُ ذَلِكَ عَنْكُمَا﴾
وقوله تعالى: ﴿أَزْجَدُونَ﴾ وبُكَسْرِ الجيم ورفْعِها. قَالَ بَعْضُهُمْ: عُودٌ، قَدْ اخْتَرَقَ بَعْضُهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَصْلُ شَجَرَةٍ،
فِيهَا نَارٌ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْجَذْوَةُ مِثْلُ الشَّهَابِ سَوَاءٌ، وَالْجُذَا جَمْعُ الْجَذْوَةِ. وَقَالَ أَبُو عَوْسَجَةَ: الْجَذْوَةُ الْقِطْعَةُ.
وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْجَذْوَةُ عُودٌ، قَدْ اخْتَرَقَ، أَيْ قِطْعَةً مِنْهَا. وَشَاطِئُ أَيْ شَطُّ الْوَادِي. أَتَسْتُ أَبْصَرْتُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:
﴿فَإِنْ مَاتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُسُودًا﴾ [النساء: ٦] أَيْ أَبْصَرْتُمْ، وَعَلِمْتُمْ.

الآية ٣٢

وقوله تعالى: ﴿أَتَلَّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ﴾ [النمل: ١٢]
يَدُلُّ أَنْ لَا بَأْسَ بِتَغْيِيرِ الْأَلْفَاظِ وَاخْتِلَافِهَا بَعْدَ إِصَابَةِ الْمَعْنَى وَمَا قُصِدَ بِهَا.
وقوله تعالى: ﴿تَخَرُّجَ يَيْصَاةٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي مَا تَقَدَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿رَأْسُكُمْ إِلَيْكَ جَعَلَك مِنْ الرُّقْبِ﴾ [بِالْفَتْحِ الرُّهْبِ، وَبِالضَّمِّ الرُّهْبِ] ^(٢) وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا جَمِيعًا.
ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ. قَوْلُهُ: ﴿مِنْ الرُّقْبِ﴾ مَوْصُولٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِلَيْكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾
مِنْ الرُّهْبِ أَيْ الْخَوْفِ وَالْفَرْقِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمْرُهُ أَنْ يَضُمَّ يَدِيهِ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَخَوْفٌ وَأَهْيَبُ وَأَعْظَمُ مِنْ إِرْسَالِهِمَا.
وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ أَيْضًا فِي النَّاسِ أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا عَلَى مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ضَمُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأَجْنَحَتَهُمْ ^(٣) إِلَى أَنْفُسِهِمْ تَعْظِيمًا
لَهُمْ وَتَبْجِيلًا أَوْ خَوْفًا مِنْهُمْ. فَعَلَى ذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يَأْمُرَهُ بِضَمِّ يَدَيْهِ إِلَى نَفْسِهِ لِيَكُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ أَهْيَبٌ ^(٤) وَأَخَوْفٌ مَا يَكُونُ،
وَأَعْظَمُ مَا يَجِبُ لَهُ، وَهُوَ مَا قَالَ لَهُ: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْعَدِينَ طَوًى﴾ [طه: ١٢].
وقوله تعالى: ﴿فَذَلَّلْنَاكَ بِرُحْمَانٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيْ الْيَدُ وَالْعَصَا اللَّتَانِ ذَكَرَهُمَا بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ أَيْ حُجَّتُنَا ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَتُهُ إِتَّهَمُوا كَانُوا قَوْمًا فَتِيهَاتٍ﴾.

الآيتان ٣٣ و ٣٤

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وَأَخَى مَكْرُوثٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
كَقَوْلِهِ ^(٥) فِي سُورَةِ الشَّعْرَاءِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الآيات: ١٢، ١٤] أُخَرُ فِي
هَذَا مَا كَانَ مُقَدِّمًا فِي الذِّكْرِ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ وَتَغْيِيرِ الْحُرُوفِ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ عَلَى السَّامِعِ حِفْظُ الْأَلْفَاظِ
وَالْحُرُوفِ بَعْدَ إِصَابَةِ ٣٩٧ - ب/ الْمَعْنَى وَفَهْمُ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَوْدِعَ فِيهَا لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَالْقِصَصَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ
قَبْلُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ وَتَغْيِيرِ الْحُرُوفِ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالتَّضَامُنِ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ وَالْمُرَادَ
يَذْكُرُهَا مَا فِيهَا لَا عَيْنَ اللَّفْظِ وَالْحُرُوفِ. فَإِذَا عُرِفَ مَا فِيهَا، وَفَهْمَ جَارِ الْأَدَاءِ بِأَيِّ لِسَانٍ كَانَ وَبِأَيِّ لَفْظٍ كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أما ^(٦): أَهْلُ التَّوَابِلِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: كَانَ فِي لِسَانِهِ رَبِّي ^(٧) أَيْ عُقْدَةٌ لِمَا أَدْخَلَ فِي قَبِيهِ مِنَ النَّارِ. فَذَلِكَ لَا نَعْلَمُهُ، وَقَدْ قَالَ
فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَخْلَدَ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧ و ٢٨].

[وَالثَّانِي: يَجُوزُ] ^(٨) أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خِلْفَةً، خَلَقَهُ هَكَذَا عَلَى مَا خَلَقَ بَعْضَ الْخَلْقِ أَفْصَحَ وَأَبْيَنَ مِنْ بَعْضٍ.

أَوْ أَنْ يَكُونَ لِمَا ذُكِرَ بِهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالذَّنْبِ مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِهَارُونَ ^(٩)؛ وَلَا شَكَّ مَنْ اشْتَدَّ بِهِ الْخَوْفُ مَنَعَ صَاحِبَهُ عَنِ
التَّكَلُّمِ وَالْبَيَانِ؛ وَذَلِكَ مُتَعَالِمٌ مَعْرُوفٌ فِي النَّاسِ، وَهُوَ مَا ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ [الشعراء: ١٢].

(١) مِنْ م، ساقطة من الأصل. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: بِالضَّمِّ وَالرُّهْبِ بِالْفَتْحِ، انْظُرْ مَعْجَمَ الْقُرْآنِ ج ٥/ ٢٠. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: وَجَنَاحِهِمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ رَم: وَأَهْيَبُ. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: وَقَالَ. (٦) أَدْرَجَ بَعْدَهَا فِي الْأَصْلِ رَم: أَحَدَهَا. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: رَقَّة. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: فَيَجُوزُ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَم: آخَرُونَ.

أو أن يكون ذلك لأن نشوء هارون كان فيهم، وهم بلسانيه أعرف ولتطويع أفهم، ولموسى قنرات، كان مغترلاً عنهم.
وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي عوناً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ ثم بيّن في آية أخرى أنه في ما طلبه منه عوناً، وهو ما قال: ﴿وَأَعْتَدْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] يُصَدِّقُنِي^(١) في ما أقول إذا كذبوني هم، أو استأنس به إذا ضاق صدري بالكذب والرّد.

الآية ٢٥

وقوله تعالى: فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ العَضُدُ كنايةٌ وعبارةٌ عن القوة والعون، لأن القوة فيه تكون في من تكون، وهو كقوليه: ﴿وَكُنْتُ أَقْدَامُنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠] [لأنه بالأقدام]^(٢) نَشُبْتُ، وقوليه: ﴿تَكْصِرُ عَلَى عَقِيْبِهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] لأنه بالعقب يَنْكُصُ، ومثله كثير. فعلى هذا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَّكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا﴾ قال قائلون: هو على التقديم والتأخير، أي نجعل لكما سلطاناً بآياتنا، فلا يصلون إليكما. وقال بعضهم: ونجعل لكما سلطاناً باللفظ، ندفع عنكما أذاهم وشرهم كقوليه: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْعَى وَآزِفٌ﴾ [طه: ٤٦] أي أسمع ما يقول لكما، وأرى ما يفعل لكما، وأدفع ذلك عنكما، فلا يصلون إليكما بالآيات التي معكما.

وقوله تعالى: ﴿أَنشَأْ وَمِنَ اتَّبَعَكُمَا الْفَلِيلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً^(٣): الغالبون بالحجج والبراهين، أي تغلب حججكمما سيخرهم وتمويهاتهم، أو تكون عاقبة الأمر لكما، أو يكون ذلك في الآخرة.

قال أبو معاذ: تقول العرب: أرزيت^(٤) الرجل أي اغتته. وقال أبو عوسجة: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي أعينك به، وأقويك، والعَضُدُ كناية عن القوة لأن القوة تكون فيه، وبه يقوى من يوصف بالقوة على ما ذكرنا.

الآية ٣٦

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي جاء موسى فرعون وقومه بآياتنا أي [بأعلام، أنشأناها]^(٥) مَوْضُحاتٍ مَّظْهِراتٍ؛ يُظْهِرْنَ، ويوضحن رسالة موسى ونبوته، وقد أظهرت لهم ذلك، وعرفوا أنها آيات من الله، نزلت، أفلا ترى أن موسى [قال لفرعون]^(٦): ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لكنهم عاندوا، وكابروا، وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ هذا منهم تمويه وتلبيس على الاتباع والسفلة، ولم تزل عادتهم التمويه والتلبيس على أتباعهم أمر موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا سِغْنًا يَهْدَا فِي مَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يقولون، والله أعلم: إن آباءنا قد عبدوا الأصنام على ما نعبد نحن، وقد ماتوا على ذلك من غير أن نزل بهم ما تنوعدنا من الهلاك والعذاب. فعلى ذلك نحن على دين آبائنا، وعلى ما هم عليه، فلا ينزل بنا شيء مما تذكر، وتوعدنا به من العذاب.

الآية ٣٧

[وقوله تعالى]^(٧): ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّهِ أَكْبَرُ بِمَن جَاءَهُ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ هذا، والله أعلم، كأنه ليس بجواب لقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سِغْنًا يَهْدَا فِي مَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ويكون جواب هذا، إن كان، هو قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَفْلِحُ الْفَالِيلُونَ﴾ كنى بالظلم عن السحر.

يقول، والله أعلم: ليس بسحر لأنني قد غلبتكم، وفهرتكم، وقد أفلحت أنا. ولو كان سحراً ما أتيتكم به لم أفلح؛ إذ الله تعالى أخبر أن الساحر لا يفلح بقوله: ﴿إِنَّمَا سَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَ﴾ [طه: ٦٩] وقال أيضاً: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ﴾ الآية [يونس: ٨١] وقد أضح عملي، فظهر أنه ليس بفساد، ولكنه جواب قوله: ﴿رَبِّهِ أَكْبَرُ بِمَن جَاءَهُ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ما ذكر في سورة المص [حين قال]^(٨) ﴿وَقَالَ الْكَلْبُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آيَاتَهُمْ وَنَسْفَعُ بِهِمْ وَإِنَّا لَفُوقَهُمْ فَهْرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فقال عند ذلك ﴿رَبِّهِ أَكْبَرُ بِمَن جَاءَهُ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أنتم أو نحن.

(١) في الأصل وم: ويصدقني. (٢) في الأصل وم: ذكر الأقدام. (٣) في الأصل وم: وجهين. (٤) في الأصل وم: أردت. (٥) في الأصل وم: أعلاما أنشأها. (٦) في الأصل وم: قال له يا فرعون. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) في الأصل وم: حيث قالوا.

وَيَكُونُ^(١) ﴿رَبِّهِ أَتَعْلَمُ بَيْنَ جَعَلَهُ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ جَوَاباً لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] والله أعلم.

الآية ٢٨ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ كَانَهُ قَالَ: لِلْمَلَأِ حُصُوصِيَّةٌ لَهُمْ لَأَنَّهُ كَانَ اتَّخَذَ لِلْأَتْبَاعِ أَصْنَاماً يَغْبُدُونَهَا، وَجَعَلَ لِلْمَلَأِ نَفْسَهُ إِلَهاً^(٢) لِمَا لَمْ يَزِ الْأَتْبَاعُ أَهْلاً لِعِبَادَةِ نَفْسِهِ، جَعَلَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَرَأَى الْمَلَأَ أَهْلاً لِلذَلِكَ، فَخَصَّهُمْ، وَمِنْهُ اتَّخَذَتِ الْعَرَبُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ دُونَ اللَّهِ لِمَا لَمْ يَزُوا أَنْفُسَهُمْ أَهْلاً لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَقَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْفَيْدُ لِي يَهْمُنُنَّ عَلَى الطَّيْنِ فَاتَّعَمَلُ لِي مَرَحاً﴾ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْأَجْرَ هُوَ، وَلَا نَعْلَمُ ذَلِكَ [حَقِيقَةً، وَيَحْتَمِلُ]^(٣) أَنْ يَكُونَ قَبْلَ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّعَمَلُ لِي مَرَحاً﴾ أَي قَضَراً ﴿أَلَمْ كُنِّي أُلَاحِظُ إِلَهُ إِلَى اللَّهِ مُوسَى﴾ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِلَهِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِذْ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ، فَكَانَهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ قَوْمَهُ وَاهْلَهُ خَاصَّةً.

[وقوله تعالى]^(٤): ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ كَانَ جَمِيعٌ مَا كَانَ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ مِنَ الْكَلَامِ كَانَ عَلَى الظَّنِّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِمُوسَىٰ مُسَحَّراً﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ مُوسَىٰ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنَ مُسْجُوراً﴾ [الإسراء: ١٠١ و ١٠٢].

الآية ٣٩ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَهُوَ يُحْذَرُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الْإِسْتِكْبَارُ هُوَ الْآيَةُ لِنَفْسِهِ شَكْلاً وَلَا نَظِيراً، وَهُوَ كَذَلِكَ كَانَ، لَا يَرَى لِنَفْسِهِ شَكْلاً وَلَا نَظِيراً لَأَنَّهُ يَدْعِي لِنَفْسِهِ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْأَلُوْهِيَّةَ، وَاسْتِكْبَارُ قَوْمِهِ لَمَّا اسْتَعْبَدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاسْتَعْبَدُوهُمْ، أَوْ اسْتَكْبَرُوا [عَلَى]^(٥) أَنْ يَخْضَعُوا لِمُوسَى، وَيُجِيبُوا لَهُ إِلَى مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ^(٦) ﴿وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ إِنِّسَاءً لَا يَرْجِعُونَ﴾.

الآية ٤٠ [وقوله تعالى]^(٧) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَحُودُودَهُ﴾ أَخَذَ تَعَذِيبَ وَاهْلَاكِ ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي النَّيْرِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يَعَذِّبُونَ بِظُلْمِهِمْ.

الآية ٤١ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ ذَكَرَ فِي هَؤُلَاءِ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَيْمَةً فِي الشَّرِّ، وَذَكَرَ فِي الرُّسُلِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَيْمَةً فِي الْخَيْرِ حِينَ^(٨) قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَكَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وَقَالَ^(٩): ﴿وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فَكَانَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ صُنْعٌ وَمَعْنَى حَتَّى صَارُوا بِذَلِكَ أَيْمَةً الْخَيْرِ مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ بِأَهْلِ الشَّرِّ وَأَيْمَةً الشُّوءِ.

فهذا عَلَى الْمُتَعَزِّلَةِ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ إِلَى الرُّسُلِ وَقَادَةِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى كُلِّ كَافِرٍ وَفَاسِقٍ. فَلَوْ كَانَ عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَصِيرَ هَؤُلَاءِ ٣٩٨ - أ/ أَيْمَةً الْخَيْرِ وَأُولَئِكَ أَيْمَةً الشَّرِّ بِأَعْمَالِهِمْ أَيْضاً، وَإِنْ كَانَ مَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ. لَكِنْ يُضَافُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ بِأَسْبَابِ تَكُونُ مِنْهُ. وَكَانَتْ حَقِيقَةُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَبِعِلْمِهِمْ نَحْوُ ﴿إِنَّمَا شِذْرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أَضَافَ إِندَارَهُ إِلَى مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ [أَنْذَرَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ]^(١٠) وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ.

وَكَذَلِكَ مَا قَالَ فِي الشَّيْطَانِ^(١١): إِنَّمَا يَدْعُو الْجِزْيَيْنِ جَمِيعاً. لَكِنَّهُ أَضَافَ دُعَاءَهُ إِلَى جِزْيِهِ لِمَا مِنْهُمْ تَكُونُ لَهُ الْإِجَابَةُ، وَأَضَافَ إِندَارَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مَنِ اتَّبَعَهُ، وَقَبْلَهُ، لِيُطَاعَتْهُمْ لَهُ.

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: وَيَقُولُ. (٢) فِي الْأَصْلِ رَم: وَالْهَيْتَةُ. (٣) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ رَم: يَحْتَمِلُ. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٥) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٦) أَدْرَجَ فِي الْأَصْلِ رَم بَعْدَهَا: وَقَوْلُهُ تَعَالَى. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ. (٩) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَمَا قَالَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: يَنْذِرُ. (١١) فِي الْأَصْلِ رَم: الشَّيَاطِينُ.

فَعَلَىٰ ذَٰلِكَ الْأَوَّلُ؛ أَضَافَ ذَٰلِكَ إِلَىٰ نَفْسِهِ لِإِعْلَانِهِمْ. لَكِنْ عِنْدَنَا لَا يَكُونُ مِنَ الْخَالِقِ^(١) فِي فِعْلِ الْخَلْقِ حَقِيقَةُ الْفِعْلِ، إِنَّمَا يَكُونُ مِنْهُمْ الْأَسْبَابُ، وَيَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَعْمَالِهِمُ الْأَسْبَابُ وَحَقِيقَةُ الْفِعْلِ، فَتَكُونُ إِضَافَةُ ذَٰلِكَ إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الْفِعْلِ وَالْأَسْبَابِ جَمِيعاً، وَإِلَى الْخَلْقِ لَأَسْبَابٍ تَكُونُ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ.

وَالثَّانِي إِنَّمَا خَصَّ بِالْإِنذَارِ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْصِدُ بِالْإِنذَارِ [مَنْ تَبِعَهُ لَا مَنْ لَا يَتَّبَعُهُ]^(٢) وَكَذَٰلِكَ الشَّيْطَانُ إِنَّمَا يَقْصِدُ بِدَعَائِهِ إِيَّاهُمْ ضَرَرَهُمْ. وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ يُنْذِرُ الْخَلْقَ جَمِيعاً الَّذِي يَتَّبَعُهُ وَالَّذِي لَا يَتَّبَعُهُ. وَكَذَٰلِكَ الشَّيْطَانُ يَدْعُو الْحَزْبَيْنِ جَمِيعاً؛ لِأَنَّ هَذَا يَقْصِدُ ضَرَرَهُمْ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؟ [فاطر: ٦] وَالرَّسُولُ بِمَا يُنْذِرُ يَقْصِدُ نَفْعَهُمْ؛ لِذَٰلِكَ خَصَّ الْإِنذَارَ لِمَنْ اتَّبَعَهُ، وَخَصَّ فِي ذَٰلِكَ حِزْبَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيُّهَا يَكْفُرُونَ إِلَى الْآثَارِ﴾ تَصْرِيحاً لَأَنَّهُمْ لَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى النَّارِ لَا يُجِيبُونَهُمْ، وَلَكِنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى أَعْمَالٍ تَوْجِبُ لَهُمُ النَّارَ، لَوْ أَجَابُوهُمْ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]. أَيَّ مَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى عَمَلٍ، يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ النَّارَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كَانَ الشَّيْطَانُ مَتَّاهُ النَّصْرَ وَالشَّفَاعَةَ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَيُخْبِرُ أَنَّهُمْ لَا يُنصَرُونَ لِمَا مَتَّاهُ.

الآية ٤٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لِنَفْسٍ﴾ وَهُوَ مَا عَذَّبُوا فِي الدُّنْيَا، وَاسْتَوْصَلُوا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْتُولِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مُسَوِّدَةٌ^(٣) وَجُوهُهُمْ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ^(٤) ذَٰلِكَ جَزَاءً مَا افْتَحَرُوا فِي هَٰذِهِ بِالْحُلِيِّ وَالزَّيْنَةِ، وَطَعَنُوا فِي مُوسَى، وَجَوَاباً^(٥) لَهُمْ حِينَ^(٦) قَالُوا: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَلَّةٍ مَّعَهُ الْمَلَكِيَّةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] يُخْبِرُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ عَلَىٰ غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَافْتَحَرُوا بِهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْقُبُوحُ^(٧) هُوَ السَّوَادُ مَعَ الزُّرْقَةِ.

الآية ٤٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ مِنْ نَحْوِ عَادٍ وَثَمُودَ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مِنَ الْأُمَمِ، أَيَّ أَرْسَلْنَاهُ بَعْدَ هَلَاكِ مَنْ ذَكَرَ.

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى]^(٨): ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا]^(٩) يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أَيَّ هَلَاكِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ بَصِيرَةً وَغَيْرَةً لِمَنْ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ لِيُزَجِّرَهُمْ ذَٰلِكَ عَنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَيَكُونُ ذَٰلِكَ آيَةً لِّرِسَالَةِ مُوسَى.

وَالثَّانِي: [يُشَبِّهُ]^(١٠) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أَيَّ الْكِتَابِ [الَّذِي]^(١١) آتَاهُ اللَّهُ مُوسَى هُوَ بَصَائِرُ ﴿لِلنَّاسِ وَمُهْدَى وَرَحْمَةً﴾ لَهُمْ إِذَا قَبِلُوهُ، وَاتَّبَعُوهُ، وَعَمِلُوا بِهِ. وَكَذَٰلِكَ كَانَ جَمِيعُ كُتُبِ اللَّهِ هُدًى وَرَحْمَةً وَبَصِيرَةً لِمَنْ آمَنَ بِهَا، وَعَمِلَ بِهَا.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَٰذَا جَوَاباً وَصِلَةً لِقَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا سَجَعْنَا بِهَٰذَا فِي مَا بَيْنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦] يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّكُمْ لَوْ تَسْمَعُونَ ذَٰلِكَ فِي آيَاتِكُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رُسُلَكُمْ، فَأَجَابُوهُمْ. فَأَمَّا مَنْ كَذَّبُوهُمْ فَإِنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَاسْتَأْصَلْنَاهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِجَانِبِ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: الْخَلْقُ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: مُسَوِّدُونَ. (٤) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَكُونُوا. (٥) الْوَارِ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: الْمَقْبُوحُ. (٨) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٩) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١١) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم.

الْقَرْيَتَيْنِ ﴿٤٤﴾ حَيْثُ تَغْرُبُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ، وَالشَّرْقِيَّ حَيْثُ تَشْرُقُ الشَّمْسُ وَتَظْلَعُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِجَانِبِ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أَيِ
بِجَانِبِ الْوَادِي الْعَرَبِيِّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا أَرَادَ بِهِ.

الآيتان ٤٥ و ٤٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أَيِ مُقِيمًا
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ شَاهِدًا هَذِهِ الْمَشَاهِدَ الَّتِي شَهِدَهَا مُوسَى حِينَ^(١) قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ، وَلَمْ
تَكُنْ شَاهِدًا هُنَاكَ ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حَتَّى تَعْلَمَ أَمْرَ مُوسَى وَوَحْيَهُ^(٢) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾
مُوسَى^(٣)، أَيْ لَمْ تَكُنْ شَاهِدًا هَذِهِ الْمَشَاهِدَ الَّتِي كَانَ مُوسَى شَاهِدًا فِيهَا. ثُمَّ أَغْلَمْنَاكَ بِتِلْكَ الْأَنْبَاءِ وَالْأَخْبَارِ عَلَى مَا كَانَتْ
لِتَتَلَوَّ تِلْكَ الْأَنْبَاءِ وَالْأَخْبَارَ عَلَى [أَهْلِ] مَكَّةَ^(٤)، فَتَكُونَ آيَةً لِّبُيُوتِكَ وَحُجَّةً لِّرِسَالَتِكَ، إِذْ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَا اخْتَلَفْتَ إِلَى أَحَدٍ
مِمَّنْ يَعْرِفُهَا، فَعَلَّمَكَ، ثُمَّ أَنْبَأْتَ، لِيَعْرِفُوا أَنَّكَ إِنَّمَا عَرَفْتَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَذْكُرَ هَذَا لَهُ امْتِنَانًا عَلَيْهِ لِيَسْتَأْذِي بِهِ شُكْرَهُ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى مُوسَى، وَذَكَرَ مُحَمَّدًا وَأُمَّتَهُ فِي شَرَفِهِ
حَتَّى تَمْتَنَى مُوسَى أَنْ يَجْعَلَهُ^(٥) مِنْ أُمَّتِهِ. يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَمْ تَكُنْ أَنْتَ شَاهِدًا فِي هَذِهِ الْمَشَاهِدِ، فَذَكَرْتُكَ ثَمَّةً وَأُمَّتَكَ.

[وَالثَّالِثُ: يَحْتَمِلُ]^(٦) أَنْ يَذْكُرَ هَذَا لَهُ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ لِيُعْرِفَ أَنَّ أَمْرَ الرُّسُلِ وَالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ لَهُمْ
مِنَ اللَّهِ، لَا بِأَمْرِ كَانَ مِنْهُمْ.

عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ يَحْتَمِلُ أَنْ يُخْرِجَ تَأْوِيلُ مَا ذَكَرَهُ لَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ يَقُولُ لِمُحَمَّدٍ: لَمْ تُعَايِنِ هَذَا، وَلَمْ تَشْهَدْهُ، وَإِنَّمَا
هُوَ شَيْءٌ، أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِتَتَلَوَّهُ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ هَذَا لَيْسَ بِصَلَاةٍ بِالْأَوَّلِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ. يَقُولُ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بَعْدَ انْقِرَاضِ الرُّسُلِ وَدُرُوسِ أَعْلَامِهِمْ وَأَنَارِهِمْ، وَتَطَاوَلَ الْعَهْدُ وَالْعُمُرُ، ثُمَّ بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ رَسُولًا
لِنُخَبِّئَ بِكَ^(٧) أَنَارَهُمْ، وَتُظْهِرَ فِيهِمْ سُنَّتَهُمْ وَأَعْلَامَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مَا قَالَ فِي آخِرِهِ: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أَيْ
أَرْسَلْنَا إِيَّاكَ رَحْمَةً مِنَّا لَهُمْ. وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أَيْ مَا أَنْبَأَكَ، وَأَعْلَمَكَ مِنْ أَنْبَاءِ مُوسَى وَأَخْبَارِهِ حِينَ^(٨) لَمْ تَشْهَدْهَا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ حِينَ^(٩) جَعَلَهَا آيَةً
لِّبُيُوتِكَ وَحُجَّةً لِّرِسَالَتِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ [وُجُوهًا]:

أَحَدُهَا: [١١] ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا﴾ أَنْذَرَ بِهِ الرُّسُلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ قَوْمَهُمْ.

وَالثَّانِي: ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ لَمَّا لَمْ يَذْكُرُوا، أَيْ عَلَى رَجَاءِ التَّذَكُّرِ تَنْذِيرُهُمْ.

[وَالثَّالِثُ]^(١١): يَكُونُ ذَلِكَ خَاصَّةً لِمَنْ تَذَكَّرَ إِذَا كَانَ عَلَى الْإِيجَابِ.

الآية ٤٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لَا يَنْتَظِمُ الْجَوَابُ، وَلَيْسَ مَا ذَكَرَ عَلَى إِثَرِهِ
جَوَابًا لَهُ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ
لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ [النور: ١٦] أَيْ لَمْ تَقُولُوا: مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ [النور: ١٤] أَيْ لَمْ يَمَسَّهُمْ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: وَحِينَهُ. (٣) فِي الْأَصْلِ: مُوسَى وَنَحْوَهُ، فِي م: يَا مُوسَى وَنَحْوَهُ. (٤) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ
الْأَصْلِ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: يَجْعَلُ. (٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: بِهِ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.
(١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجِهَيْنِ أَحَدَهُمَا. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ أَنْ.

وجميع ما ذكر في هذه السورة من: ﴿وَلَوْلَا﴾ مغناه^(١): لم يكن. فعلى ذلك جائز أن يكون تأويل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي لم تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ، ولو أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ، وهو العذاب ﴿فَقِيلُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ وهو كقوله ﴿وَلَوْلَا أَنَّا / ٣٩٨ - ب / أَهْلَكْتَهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] على هذا يُخْرَج تأويل هذا.

ثم في هذه الآية في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنَّا أَهْلَكْتَهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [دلالة وحجة من وجهين]^(٢):

أحدهما: على مَنْ يَقُولُ: إنه^(٣) ليس لله أن يُعَذِّبَهُمْ بما كان منهم قَبْلَ بَعَثِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وفي الآية بيان: لَهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ، وإن لم يَبْعَثِ الرُّسُلَ، لأنه أَوْعَدَهُمُ الْهَلَاكَ، فلو لم يكن لَهُ التَّعْذِيبُ وَالْإِهْلَاكُ لَمْ يَكُنْ لِلْإِعَادِ [مَعْنَى] ^(٤). فَذَلَّ أَنْ لَهُ الْإِهْلَاكُ فِي الدُّنْيَا وَالْإِسْتِثْصَالَ. لَكِنَّهُ آخِرُهُ عَنْهُمْ فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً.

والثاني: على الْمُعْتَرِزَةِ فِي قَوْلِهِمْ [بِجُوبِ] ^(٥) الْأَصْلَحِ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا أَوْعَدَهُمْ أَصْلَحَ لَهُمْ مِنَ التَّرْكِ، وَإِمَّا التَّرْكَ لَهُمْ أَصْلَحَ.

فَإِنْ كَانَ مَا أَوْعَدَ لَهُمْ أَصْلَحَ [وَقَدْ تَرَكَهُ] ^(٦) فَيَكُونُ فِي تَرْكِهِ ^(٧) إِيَّاهُمْ جَائِزًا عَلَى قَوْلِهِمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ مَا هُوَ أَصْلَحَ لَهُمْ فِي الدِّينِ.

أَوْ إِنْ يَكُنِ ^(٨) التَّرْكَ لَهُمْ أَصْلَحَ فَيَكُونُ بِمَا أَوْعَدَهُمْ جَائِزًا؛ إِذْ أَوْعَدَ بِمَا كَانَ غَيْرُهُ أَصْلَحَ لَهُمْ مِمَّا أَوْعَدَ فَذَلَّ مَا ذَكَرْنَا عَلَى أَنْ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ حِفْظُ الْأَصْلَحِ لَهُمْ فِي الدِّينِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ لَيْسَ الْكُفْرُ نَفْسُهُ، وَلَكِنْ الْعِنَادُ وَالْمُكَابَرَةُ مَعَ الْكُفْرِ لِأَنَّ عَذَابَ الْكُفْرِ فِي الْآخِرَةِ، لَيْسَ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى كَثِيرًا مِنَ الْكُفْرَةِ لَمْ يَهْلِكْهُمْ، وَلَمْ يُعَذِّبْهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَهْلَكَ، وَاسْتَأْصَلَ فِي الدُّنْيَا مَنْ عَانَدَ، وَكَابَرَ الرُّسُلَ فِي الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الَّتِي [آتَوْهُمْ بِهَا] ^(٩) وَأَقَامُوهَا عَلَيْهِمْ عَلَى إِثْرِ سُؤَالِ كَانَتْ مِنْهُمْ. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَهْلَكْتَهُمْ، وَاسْتَأْصَلْتَهُمْ، لَا يَنْفُسِ الْكُفْرِ.

ثُمَّ مَعَ مَا كَانَ لَهُ التَّعْذِيبُ قَبْلَ بَعَثِ الرُّسُلِ لَمْ يُعَذِّبْهُمْ، وَلَكِنْ آخَرَهُ عَنْهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ لِيَقْطَعَ بِهِ لَجَاجَتَهُمْ وَمُنَازَعَتَهُمْ فَضْلًا مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْإِخْتِجَاعُ عَلَيْهِ ^(١٠) بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَنْبِئَ مَا بَيْنَكَ وَكَوْنَتْ مِنْكَ الْتَوْبِينَ﴾.

وَيَحْتَمِلُ ^(١١) قَوْلُهُ ﴿فَتَنْبِئَ مَا بَيْنَكَ﴾ الْآيَاتِ الَّتِي تَبَعَتْ مَعَ الرُّسُلِ لِأَنَّهُ يَبْعَثُ الرُّسُلَ بِالْآيَاتِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَنْبِئَ مَا بَيْنَكَ﴾ يَغْنُونُ بِالْآيَاتِ الرُّسُلَ [أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ] ^(١٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٤٨ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ جَانِزًا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الَّذِي ذَكَرَ الرُّسُلَ نَفْسَهُ. وَيَحْتَمِلُ [الْحَقُّ] الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَآيَاتِهِ ^(١٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ بِمِثْلِ مَا آوَفَىٰ مُوسَىٰ﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: قَالُوا: هَلَّا أَوْفَىٰ مُحَمَّدٌ مِنْ أَنْوَاعِ [النَّعَمِ] ^(١٤) مِنَ الْعَمَلِ وَالسُّلَى وَغَيْرِهِمَا ^(١٥) مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا تَعَبٍ ﴿بِمِثْلِ مَا آوَفَىٰ مُوسَىٰ﴾ لَوْ كَانَ رَسُولًا عَلَى مَا يَقُولُ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: كُلُّهُ إِنَّهُ. (٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: وَجْهَان. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: بَانَ. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٥) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٦) فِي الْأَصْلِ: فَقَدْ تَرَكْتُمْ، فِي م: فَقَدْ تَرَكْتُمْ. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: تَرَكْتُمْ. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: يَكُون. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: أَنْوَاهُ بِهِمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: عَلَيْهِمْ. (١١) الْوَاوُ سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٢) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ وَم: لِأَنْفُسِهِمْ حُجَج. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَآيَات. (١٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَغَيْرِهِ.

[والثاني^(١)]: أن يقولوا ﴿تَوَلَّى أَوَّلَكَ﴾ مِنَ الْآيَاتِ الْحِسِّيَّاتِ الظَّاهِرَاتِ مِنْ نَحْوِ الْيَدِ وَالْعَصَا وَالْحَجَرِ الَّذِي كَانَ يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْمَاءُ وَالْعَمَامُ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الصَّفَادِيعِ وَالْقَمَلِ وَالذَّمِّ وَالطُّوفَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿مِثْلَ مَا أَوَّلَكَ مُوسَى﴾.

[والثالث^(٢)]: أن يقولوا ﴿تَوَلَّى أَوَّلَكَ﴾ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ جُمْلَةً عِيَانًا جَهَارًا كَمَا أُوتِيَ مُوسَى التَّوْرَةَ جُمْلَةً عِيَانًا جَهَارًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ: بِمَا عَنَّا بِهِ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى، وَاخْتَبَرَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ مَا سَأَلُوهُ سُؤَالَ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ لَا سُؤَالَ اسْتِزْشَادٍ وَطَلَبٍ [لِلْحَقِّ حِينَ^(٣)] قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوَّلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ الْمِ الْيَمْ يَكْفُرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُواكَ الْآيَاتِ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى؛ يَغْنِي أَهْلَ مَكَّةَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولٍ قَطُّ مِنْ قَبْلُ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ أَيِ الْمِ الْيَمْ يَكْفُرُ قَوْمُ مُوسَى بِمَا أُوتِيَ مُوسَى بَعْدَ سُؤَالِهِمُ الْآيَاتِ إِذْ أَتَاهُمْ بِهَا. فَعَلَى ذَلِكَ هَؤُلَاءِ يَكْفُرُونَ بِمَا أُوتِيَ. وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ.

[وقوله تعالى^(٤)]: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ وَقَدْ قُرِئَ: سَاحِرَانِ بِالْأَلِفِ^(٥). قَالَ بَعْضُهُمْ: سَاحِرَانِ مُوسَى وَهَارُونَ، [وَقَالَ بَعْضُهُمْ^(٦)]: مُوسَى وَمُحَمَّدٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عِيسَى وَمُحَمَّدٌ.

وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ بِغَيْرِ أَلِفٍ كِتَابَانِ. لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا. قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْفُرْقَانُ وَالتَّوْرَةُ وَنَحْوُهُ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ أَيْضًا: سَاحِرَانِ أَوَّلَى وَأَقْرَبُ، لِأَنَّ ذِكْرَ التَّظَاهَرِ إِنَّمَا يَكُونُ بَيْنَ الْأَنْفُسِ، لَا يَكُونُ بَيْنَ الْكُتُبِ؛ تَظَاهَرَا أَيِ تَعَاوَنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ أَيْضًا: سِحْرَانِ بِغَيْرِ أَلِفٍ أَوَّلَى لِأَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْكِتَابَيْنِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ بِمَا قَالُوا إِيَّانَ الْكِتَابِ [حِينَ قَالَ: ^(٧)﴾ قُلْ فَاتَّوَأُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا؟ رَدَّ عَلَى مَا قَالُوا، وَطَلَبُوا مِنْهُ.

لَكِنْ نَقُولُ نَحْنُ: لَا نُحِبُّ أَنْ تُخْتَارَ إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى، لِأَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ: فَمَرَّةً قَالُوا: سِحْرَانِ، وَمَرَّةً قَالُوا: سَاحِرَانِ. فَأَخْبَرَ عَلَى مَا قَالُوا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَعْلَمُ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٧] بِالْأَلِفِ اللَّهُ وَغَيْرِ الْأَلِفِ ﴿لِلَّهِ﴾^(٨) لَا يُخْتَارُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ لِأَنَّهُ خَبَرٌ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، فَهُوَ عَلَى مَا أَخْبَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال بعض أهل التأويل: فِي قَوْلِهِ: ﴿تَوَلَّى أَوَّلَكَ مِثْلَ مَا أَوَّلَكَ مُوسَى﴾ قَالَتْ يَهُودُ نَامُرُ قُرَيْشًا أَنْ تَسْأَلَ أَنْ يُوتَى مُحَمَّدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى، يَقُولُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ: قُلْ لِقُرَيْشٍ: قُولُوا^(٩) لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوَّلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي يَهُودَ ﴿قَالُوا﴾ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴿قَالَ قَوْلَ يَهُودَ لِمُوسَى وَهَارُونَ، وَهُوَ مِمَّا ذَكَرْنَا قَرِيبًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا يَكْلِي كَثِيرُونَ﴾ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى عَلَى اخْتِلَافٍ مَا ذَكَرْنَا.

الآية ٤٩

وقوله^(١٠) تعالى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِقُرَيْشٍ أَهْلَ مَكَّةَ ﴿قُلْ فَاتَّوَأُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ عَلَى اخْتِلَافٍ مَا قَالُوا ﴿أَتَيْتُهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي رَغْبَتِكُمْ أَنَّهُمَا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَأَنَّهُ مُفْتَرَى. ائْتُوا أَنتُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِكِتَابٍ أَتَيْتُهُ. إِلَى هَذَا ذَهَبَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَاتَّوَأُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَيْتُهُ﴾ [أَيِ ائْتُوا بِكِتَابٍ^(١١)] مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَمَرَكُمْ^(١٢) بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ دُونَ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يُونُسُ: ١٨] وَإِنَّ عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهَا تُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وَنَحْوُهُ مِنَ الْكَلَامِ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: الْحَقِّ حَيْثُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ٢٦. (٦) ساقطة من الأصل وم: (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ قَالُوا. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٢١. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: يَقُولُوا. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: ثُمَّ قَالَ. (١١) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: الْكِتَابِ. (١٢) أُدْرِجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: أَنَّهُ.

فَيَكُونُ^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنَّمَا﴾ أَيِ ابْتِئَنَ مِنْهُمَا، وَأَوْضَحُ مِنْ هَذَيْنِ، لِأَنَّ هَذَيْنِ إِنَّمَا جَاءَا بِتَهْيِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ؛ مَتَعَهَا دُونَهُ. يَقُولُ: ابْتِئَا بِكِتَابٍ، هُوَ أَهْدَىٰ وَأَبْيَنُ مِمَّا جَاءَ فِيهِ مِنْ هَذَيْنِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ، وَتَكُونُ عِبَادَتُكُمْ لَهَا عَلَى مَا تَزْعُمُونَ. هَذَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٠

[وَقَوْلُهُ تَعَالَى^(٢)]: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فِي إِيَابَانٍ مَا تَطْلُبُ مِنْهُمْ، وَتَسْأَلُ مِنَ الْكِتَابِ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتْلَاؤُكُمْ أَمْوَاءُهُمْ﴾ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَمَنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُتْلَعُونَ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَحْرِيمِ الْحَلَائِلِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ أَمْوَاءُهُمْ، وَيَجْعَلُونَ هَوَاهُمْ، هُوَ الْإِمَامُ؛ إِذْ لَا يُؤْمِنُونَ بِرَسُولٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ كِتَابٌ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أَيِ لَا أَحَدٌ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴿يَغْتَرِ مُدَىٰ رَبِّكَ اللَّهُ﴾ أَيِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي قَوْمًا يُتْلَعُونَ أَمْوَاءَهُمْ، لَا يُتْلَعُونَ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ، لَا يَهْدِيهِمْ مَا دَامُوا فِي اتِّبَاعِ هَوَاهُمْ، أَوْ لَا يَهْدِي الَّذِينَ [هُمْ]^(٣) ظَلَمَةُ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥١

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا لَهُمْ بِنْدِكُورُ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ قَائِلُونَ: هُوَ الْقُرْآنُ. ثُمَّ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: وَصَّلَ الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ حَتَّى خَرَجَ كُلُّهُ مُوَافِقًا بَعْضُهُ بَعْضًا مُصَدِّقًا مُجْتَمِعًا غَيْرَ مُخْتَلِفٍ، وَإِنْ فُرِّقَ فِي الْإِنْزَالِ عَلَى تَبَاعُدِ الْأَوَاقِ وَطُولِ الْمُدَدِ ﴿لَمَّا لَهُمْ بِنْدِكُورُ﴾ أَنْ يَثَلَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا يَغْرُبُ / ٣٩٩ - أ/ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَغِيبُ؛ إِذْ لَوْ كَانَ هُوَ مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِ لَخَرَجَ مُخْتَلِفًا مُتَنَاقِضًا عَلَى مَا يَقُولُ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِ فِي تَبَاعُدِ الْوَقْتِ وَطُولِ الْمُدَّةِ مُخْتَلِفًا مُتَنَاقِضًا.

وَالثَّانِي: وَصَّلَ مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَمَوَاعِيدِهِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَعِدَاتِهِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَإِنْ تَفَرَّقَ نَزْلُهَا، وَاخْتَلَفَتْ مَوَاضِعُهَا؛ يَدْعُوهُمْ [لِإِذَا يَدْعُوهُمْ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ^(٤) مَرَّةٍ] ﴿لَمَّا لَهُمْ بِنْدِكُورُ﴾ بِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أَيِ الْأَنْبَاءِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ نَبَأًا [بَعْدَ نَبَأٍ]^(٥) وَخَبَرًا عَلَى إِثْرِ خَبِيرٍ مَا نَزَلَ بِمُكَذِّبِي الرُّسُلِ مِنْهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ وَمُصَدِّقِي الرُّسُلِ مِنَ النِّجَاةِ وَالْبَقَاءِ فِي النَّعْمِ الدَّائِمَةِ عَلَى إِقْرَارِ مَنْهُمْ بِذَلِكَ وَعِلْمُ أَنَّهُ كَانَ بِهِمْ ذَلِكَ ﴿لَمَّا لَهُمْ بِنْدِكُورُ﴾ ذَلِكَ، وَيَنْزَجِرُونَ عَنْ تَكْذِيبِ رَسُولِهِمْ مَخَافَةَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمُ التَّكْذِيبُ مَا نَزَلَ بِأَوْلَئِكَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أَيِ قَوْلِ التَّوْحِيدِ. وَوَجْهُ هَذَا أَنْ وَصَّلْنَا التَّوْحِيدَ [حَتَّى جَعَلْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَوْمٍ أَهْلَ تَوْحِيدٍ]^(٦) لَمْ نُخْلِ قَوْمًا وَلَا أُمَّةً عَنْهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ [فِي^(٧) كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَوْمٍ أَهْلَ تَوْحِيدٍ] ﴿لَمَّا لَهُمْ بِنْدِكُورُ﴾ أَنَّ فِي آبَائِهِمْ مَنْ قَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ، وَصَدَّقَ بِهِمْ، وَلَا يَقُولُونَ: إِنَّ آبَاءَنَا عَلَى مَا نَحْنُ^(٨) عَلَيْهِ. يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَصَلَ الْقَوْلِ الَّذِي ذَكَرَ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ وَالْقُتَيْبِيُّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أَيِ اتَّبَعْنَا بَعْضَهُ بَعْضًا، وَاتَّصَلَ عِنْدَهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ أَيِ بَيَّنَّا شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى صَارَ عِنْدَهُمْ ظَاهِرًا. وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَصَّلْنَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: أَتَمَّنَّا كَصِلْتِكَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ.

الآية ٥٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ هُم بِهِ يَوْمُئِذٍ﴾ وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْهُمْ

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: فَيَقُولُ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٤) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، فِي الْأَصْلِ بِهِ، فِي م: بِهِ مَرَّةً بَعْدَ. (٥) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٦) مِنْ م سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٨) فِي الْأَصْلِ وَم: هُمْ.

يَمُرُّونَهُ كَمَا يَمُرُّونَ آثَانَهُمْ وَلَئِنْ قَرَيْتُمْ إِلَيْهِمْ لَيَكْفُرُوا بِهِ وَمَنِ يَعْلَمُ [البقرة: ١٤٦] وقال في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ يُوقِنُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَمْ يُوْمِنْ بِهَا﴾ (١) وَيَذْكُرُ فِي الْأَوَّلَى عَلَى الْإِطْلَاقِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

يَذْكُرُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَمْ يُوْمِنْ بِهَا (١) وَيَذْكُرُ فِي الْأَوَّلَى عَلَى الْإِطْلَاقِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ يُوقِنُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَمْ يُوْمِنْ بِهَا﴾ (١) وَيَذْكُرُ فِي الْأَوَّلَى عَلَى الْإِطْلَاقِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

جائز أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ يُوقِنُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ لَمْ يُوْمِنْ بِهَا﴾ (١) وَيَذْكُرُ فِي الْأَوَّلَى عَلَى الْإِطْلَاقِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

حق تلاوته أولئك يؤمنون به [البقرة: ١٢١] وأما من لم يتل حقا تلاوته فلا يؤمن. فاما أهل التأويل فإنهم صرّفوا الآية إلى قوم خاص من أهل الكتاب: عبد الله ابن سلام وأصحابه الذين آمنوا به. ويُسبّه أن تكون الآية في قوم منهم.

الآية ٥٣ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ عَلَى إِثْرِهِ ﴿وَلِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾؟ يَذْكُرُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّهُمْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا بُعِثَ ثَبَتُوا عَلَى ذَلِكَ، وَأَمَنُوا عَلَى مَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ وَاحِدٌ، لَأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ وَقَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ دَلَّ أَنَّهُمَا وَاحِدٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنْهَا مَنَافِقًا مِنَ الْغُيُوبِ﴾ ﴿فَمَا وَدَدْنَا بِهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ و ٣٦] وَمُفَصَّلًا وَاحِدٌ؛ ذَكَرَ مَرَّةً الْإِيمَانَ وَمَرَّةً الْإِسْلَامَ، دَلَّ أَنَّهُمَا وَاحِدٌ.

الآية ٥٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهًا ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّةً بِالْإِسْلَامِ وَمَرَّةً بِمَا صَبَرُوا عَلَى زَوَالِ الرِّئَاسَةِ مِنْهُمْ وَذَهَابِهَا؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ رِئَاسَةٍ وَمَنْزِلَةٍ وَقَدَرٍ، فَذَعَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ، فَلَهُمُ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ لِذَلِكَ.

وَالثَّانِي: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً بِالْإِسْلَامِ، وَمَرَّةً بِمَا صَبَرُوا، وَجَاهِدُوا فِي تَقْوِيَةِ دِينِ اللَّهِ، حَتَّى [٤] صَارُوا قُدُورَةً وَائِمَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، يَقْتَدُونَ بِهِمْ؛ أَحَدُ الْأَجْرَيْنِ بِإِسْلَامِ أَنْفُسِهِمْ، وَالثَّانِي بِدَعَائِهِمْ غَيْرَهُمْ إِلَيْهِ، عَلَى مَا يُعَاقِبُ الرُّؤَسَاءُ مِنْهُمْ وَالْقَادَةُ، وَيُضَاعَفُ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِضَلَالِ أَنْفُسِهِمْ وَمَرَّةً بِإِضْلَالِ غَيْرِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿يَلْحِقُوا آذَانَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوَّارٍ أَلْبِيكَ يُصِلُوهُمْ غَيْرَ عَلَيْهِ﴾ [النحل: ٢٥].

[وَالثَّالِثُ] (٥): جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ إِثْنَاءُ الْأَجْرِ مَرَّتَيْنِ [مَرَّةً بِالْإِسْلَامِ وَمَرَّةً بِمَا يَصْبِرُونَ حَتَّى يَصِيرُوا] (٦) أَيْمَّةً وَقُدُورَةً لغيرهم (٧) فِي الْحَيَرِ. وَيُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ إِذَا صَارُوا أَيْمَّةً وَقُدُورَةً فِي الشَّرِّ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ فِي نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُنِسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِي مِنْكُنَّ بِفَحْشَاةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ؟﴾ [الاحزاب: ٣٠] وَكَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِمَا يَصِيرُ هُنَّ أَيْمَّةٌ لغيرهنَّ يَقْتَدِينَ بِهِنَّ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بِالْإِسْلَامِ نَفْسِهِ، وَيَكُونُ الصَّبْرُ كِنَايَةً عَنِ الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أَيْ آمَنُوا، وَأَسْلَمُوا.

وَأَمَّا أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً بِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَمَرَّةً بِإِيمَانِهِمْ بَعْدَ مَا بُعِثَ. وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مَرَّةً بِإِسْلَامِهِمْ وَمَرَّةً بِمَا صَبَرُوا وَتَحَمَّلُوا (٨) أَدَى أُولَئِكَ الْكُفْرَةِ، وَلَمْ يُكَافِئُوهُمْ، بَلْ خَاطَبُوهُمْ بِخَيْرٍ [حِينَ قَالُوا] (٩): ﴿لَنَا أَعْلَانَا وَلَكُمْ أَعْلَانَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَنَّةَ﴾ [القصص: ٥٥].

وَرُوي فِي نَغْصِ الْأَخْبَارِ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ آمَنَ بِنَبِيِّ، ثُمَّ إِذَا بُعِثَ نَبِيٌّ آخَرُ آمَنَ بِهِ، وَمَمْلُوكٌ لِرَجُلٍ يَخْدُمُهُ، وَيُحْسِنُ خِدْمَتَهُ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ وَرَجُلٌ رَبِّي جَارِيَتُهُ، ثُمَّ اغْتَفَاهَا، فَتَزَوَّجَهَا» [البخاري: ٣٠١١].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: لما يصيرون. (٧) من م، في الأصل: لغير. (٨) في الأصل وم: وحكموا على. (٩) في الأصل وم: حيث قال.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهين:

أحدهما: يُحْسِنُونَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ إِسَاءَتِهِمْ إِلَيْهِمْ وإذا هُمُ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَيَضَعُونَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ.

والثاني: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يَفْعَلُونَ عَنْ أَذَاهُمْ، وَيُكَافِرُونَهُمْ، فيكونُ كقولِهِ: ﴿خُذِ الْقِتْرَ وَأُمِّرْ بِالْعَرْفِ﴾ الآية

[الأعراف: ١٩٩].

والأوَّلُ كقولِهِ: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْفِي هَيَّ أَحْسَنَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَفَعْتَهُمْ يُفْقَرُونَ﴾ أي يُفْقَرُونَ فِي حَقِّ اللَّهِ وَسَبِيلِ الْخَيْرِ. وَإِلَّا كُلُّ كَافِرٍ يُفْقَرُ كقولِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ

فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَاقَ ثَوْرٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ هذا أَيْضاً يَحْتَمِلُ وجهين:

الآية ٥٥

[أحدهما] ^(١): إِذَا سَمِعُوا مِنْهُمْ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَتَأَذُّونَ مِنَ كَلَامِ اللَّغْوِ وَالْفُتْنَةِ أَعْرَضُوا عَنْهُ، أي [لا] ^(٢)

يُكَافِرُونَهُمْ لِأَذَاهُمْ.

والثاني: إِذَا سَمِعُوا مَا يَلْتَمُونَ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ أَعْرَضُوا عَنْهُ، أي لَمْ يُخَالِطُوهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ، فَلَيْسَ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ، وَلَا يَمْنَعُونَهُمْ عَنْ ذَلِكَ إِذَا رَأَوْا النَّهْيَ يَنْجَعُ فِيهِمْ. وَإِذَا رَأَوْا لَا يَنْجَعُ فِيهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَهُوَ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْنَلْنَا وَلَكُمْ أَعْنَلْكُمْ﴾ يَقُولُونَ هَذَا لَهُمْ إِذَا لَمْ يَنْجَعِ النَّهْيُ وَالْمَوْعِظَةُ، وَلَمْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ. عِنْدَ

ذَلِكَ يَقُولُونَ: ﴿لَنَّا أَعْنَلْنَا وَلَكُمْ أَعْنَلْكُمْ﴾ أي لَكُمْ جَزَاءُ أَعْمَالِكُمْ وَلَنَا جَزَاءُ أَعْمَالِنَا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

[الكافرون: ٦]. لَمْ يَقُلْ هَذَا لَهُمْ فِي ابْتِدَاءِ الدَّعَاءِ، وَلَكِنْ بَعْدَ مَا أَيْسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَاجَابَتِهِمْ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا يَبْتَغِي الْجَنَّةَ﴾ هَذَا يُشَبِّهُ أَنْ يُخْرِجَ عَلَى/٣٩٩ - ب/ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: عَلَى الْقَوْلِ مِنْهُمْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ^(٣)، أي كَانُوا لَا يُخَالِطُونَ الْجَهَّالَ، وَلَا يُخَالِطُونَهُمْ إِلَّا بِالسَّلَامِ خَاصَّةً.

بهَذَا الْقَدْرِ يُخَالِطُونَهُمْ فَحَسَبَ ^(٤).

والثاني: لَيْسَ عَلَى حَقِيقَةِ قَوْلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ^(٥)، وَلَكِنْ عَلَى الصُّلْحِ وَتَرْكِ الْمُكَافَاةِ لَهُمْ وَقَوْلِهِمْ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا هُمْ

عَلَيْهِ؛ إِذِ السَّلَامُ هُوَ الصُّلْحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: رَدُّوا عَلَيْهِمْ مَعْرُوفًا [بِمُقَابَلَةٍ مَا وَجَدُوا مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى، وَقَالُوا:] ^(٦) ﴿لَا يَبْتَغِي الْجَنَّةَ﴾ يَغْنُونَ: لَا

تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالسُّفْهِ.

الآية ٥٦

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ذَكَرَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ هَذَا نَزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ عَمَّ النَّبِيَّ «وَذَلِكَ أَنَّ

أَبَا طَالِبٍ قَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ أَطِيعُوا مُحَمَّدًا، وَصَدِّقُوهُ، تَفْلِحُوا، وَتَرْشُدُوا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ تَأْمُرُهُمْ بِالنَّصِيحَةِ

لِأَنْفُسِهِمْ، وَتَدْعُهَا لِنَفْسِكَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَا تُرِيدُ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُرِيدُ مِنْكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا: أَنْ

تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي قَدْ عَلِمْتُ إِنَّكَ لَصَادِقٌ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُ أَنْ يَقَالَ: جَزِعَ عِنْدَ

الْمَوْتِ، وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ عَلَيْكَ وَعَلَى بَنِي آيِيكَ وَأَخِيكَ عَصَاةٌ وَمَسَبَّةٌ بَعْدِي لَقُلْتُهَا، وَلَأَقْرَزْتُ بِهَا عَيْنَكَ عَيْنَكَ عِنْدَ الْفِرَاقِ

لِمَا رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِكَ وَنَصِيحَتِكَ. وَلَكِنْ سَوِّفَ أَمُوتُ عَلَى مِلَّةِ الْأَشْيَاحِ فَلَانِ وَفَلَانِ» [بنحوه مسلم ٤٢/٢٤]

فَانْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

فَهُوَ عَلَى الْمُعْتَرِجَةِ لَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْهُدَى الْبَيَانُ، وَلَوْ كَانَ بَيَانًا عَلَى مَا يَقُولُونَ لَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ، وَقَدْ بَيَّنَّ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) الفاء ساقطة في الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم.

(٦) ساقطة من الأصل وم.

لَكِنَّ الْجَبَائِيَّ يَخْتَجُّ لَهُمْ، فَيَتَأَوَّلُ، ويقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ يَخْرِصُ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةُ، فيقول: إِنَّكَ لَا تَهْدِي طَرِيقَ الْجَنَّةِ لَهُ حَتَّى يَدْخُلَهَا، أَوْ كَلَامٌ يُشَبِّهُ هَذَا، وَذَلِكَ بَعِيدٌ.

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: هَذَا لَيْسَ فِي ابْتِدَاءِ الْهَدَايَةِ، وَلَكِنْ فِي اللَّطَائِفِ الَّتِي تُخْرَجُ مُخْرَجَ الثَّوَابِ لَهُمْ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِهْتِدَاءِ فِي الْبَدْءِ وَالْأَنْفِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ الْآيَةُ [مُحَمَّد: ١٧] فَيُخْبِرُ أَنَّكَ لَا تَمْلِكُ الْهَدَايَةَ اللَّطِيفَةَ الَّتِي تُخْرَجُ مُخْرَجَ الثَّوَابِ أَنْ تَهْدِيَهُمْ.

فَيُقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَنْ تِلْكَ الزِّيَادَةِ الَّتِي تُخْرَجُ مُخْرَجَ الثَّوَابِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِهْتِدَاءِ فِي الْإِبْتِدَاءِ [هَلْ] ^(١) تَنْفَعُ لَهُمْ دُونَ الْإِبْتِدَاءِ؟ فَإِنْ قَالَ ^(٢): نَعَمْ [فَالرَّدُّ فِي وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: يُقَالُ لَهُ] ^(٣): فَذَلِكَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَعِّلَ بِهِمْ؛ إِذْ مِنْ قَوْلِكُمْ ^(٤): أَنْ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَ كُلَّ كَافِرٍ مَا يَنْفَعُهُ، وَيَضْلُحُ لَهُ فِي دِينِهِ، فَكَيْفَ مَنَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ؟

وَالثَّانِي: يُقَالُ لَهُ ^(٥): إِنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ الَّتِي تُخْرَجُ مُخْرَجَ الثَّوَابِ لَهُمْ وَاللَّطَائِفَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ يَسْتَوْجِبُهَا، أَوْ لَا يَسْتَوْجِبُهَا.

فَإِنْ كَانَ يَسْتَوْجِبُهَا فَلَا مَعْنَى لِلْمَنْعِ عَلَى [قَوْلِكُمْ، لَأَنْكُمْ تَقُولُونَ] ^(٦): إِنَّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ ذَلِكَ.

وَأِنْ كَانَ لَا يَسْتَوْجِبُهَا فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَكُنْ اللَّهُ يَدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ عَلَى قَوْلِكُمْ ^(٧). فَيَبْطُلُ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ عَلَى قَوْلِكُمْ ^(٨).

وَعِنْدَنَا زِيَادَةُ الْهَدَايَةِ وَابْتِدَاؤُهَا سَوَاءٌ [وَهُوَ] ^(٩) عَلَى مَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِ. وَلَكِنْ لَوْ كَانَتْ الْهَدَايَةُ بَيَانًا عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَ قَدِ بَيَّنَّ لَهُمْ، فَذَلِكَ مِنْهُ أَنْ تَمَّ هَدَايَةُ سِوَى الْبَيَانِ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا أُعْطِيَ الْعَبْدَ يَصِيرُ مُؤْمِنًا، وَهُوَ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ وَالسَّدَادُ. وَذَلِكَ لَا يَمْلِكُهُ رَسُولُ اللَّهِ: إِنْ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ ابْتِدَاءَهُ. بَلِ اللَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لِلذَلِكَ.

الآية ٥٧

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْمُدَيِّ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ دَلَّ قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا نَتَّبِعُ الْمُدَيِّ مَعَكَ﴾ هُوَ عَلَى أَنَّهُمْ عَرَفُوا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، وَيَذَعُوهُمْ إِلَيْهِ، هُوَ الْهُدَى حِينَ ^(١٠) قَالُوا: ﴿إِنَّا نَتَّبِعُ الْمُدَيِّ مَعَكَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يُخْرَجُ لَهُمْ هَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَيِ تَهْلُكُ، وَتَفْنَى جَوْعًا، إِذَا خَالَفْنَا أَهْلَ الْآفَاقِ فِي الدِّينِ، لِأَنَّ أَرْزَاقَهُمْ وَمَا بِهِ قَوَامُ أَبْدَانِهِمْ إِنَّمَا يُحْمَلُ، وَيُمَارُ مِنَ الْآفَاقِ. فَيَقُولُونَ: إِنَّا إِذَا اتَّبَعْنَا الْهُدَى مَعَكَ، وَخَالَفْنَاهُمْ فِي الدِّينِ، فَاهْلُ الْآفَاقِ مَتَعُونَا الْبِيرَةَ، فَتَهْلِكُ، وَنَمُوتُ جَوْعًا، فَذَلِكَ تَخَطُّفُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ.

وَالثَّانِي: قَالُوا ذَلِكَ مَخَافَةَ أَنْ يُغْزَوْا، وَيُؤْسَرُوا، أَوْ يُقْتَلُوا إِذَا خَالَفُوا أَهْلَ الْآفَاقِ وَالْأَطْرَافِ فِي الدِّينِ، وَاتَّبَعُوا الْهُدَى مَخَافَةَ الْأَسْرِ وَالْقَتْلِ.

فَاجَابَهُمُ اللَّهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ اغْتِيلَانَهُمْ فِي الْوَجْهَيْنِ.

فَقَالَ [فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ] ^(١١) ﴿أَوَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا مَآوِيًا يُخَوِّجُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ زَرْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنَّا جَعَلْنَاهُمْ فِي الْحَرَمِ آمِنِينَ، وَمَا يُنْتَارُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ التَّمَرَاتِ بِاللُّطْفِ، لَا بِمُوَافَقَةِ الدِّينِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ مَعَ مُوَافَقَةِ الدِّينِ كَانُوا يَتَخَطَّفُونَ النَّاسَ مِنْهُمْ حِينَ ^(١٢) قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَآوِيًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ؟﴾ [الْعنكبوت: ٦٧] أَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَعَ مُوَافَقَتِهِمْ فِي الدِّينِ كَانُوا يَتَخَطَّفُونَ. دَلَّ أَنَّهُ إِنَّمَا جَعَلَ لَهُمْ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يقال لهم. (٣) في الأصل وم: قولهم. (٤) في الأصل وم: قولهم. (٥) في الأصل وم: قولهم. (٦) في الأصل وم: قولهم لأنهم يقولون. (٧) في الأصل وم: قولهم. (٨) في الأصل وم: قولهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: قولهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الْحَرَمَ مَأْمَنًا وَالْمِيرَةَ إِلَيْهِمْ بِاللُّطْفِ لَا بِالْمُوَافَقَةِ فِي الدِّينِ حَتَّى [لَا يُتَعَرَّضَ] ^(١) لَاهِلِ الْحَرَمِ فِي الْحَرَمِ وَلَا خَارِجًا مِنْهُ، وَلَا يُتَعَرَّضُ مَنْ دَخَلَ الْحَرَمَ بِشَيْءٍ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ ذَلِكَ بِاللُّطْفِ مِنَ اللَّهِ لَا بِالْمُوَافَقَةِ.

[وفي] ^(٢) الثاني: إنه مع ما كانوا يَغِيدُونَ الأصنامَ دُونَ اللَّهِ فِيهِ، لَا يَمْنَعُهُمُ الرِّزْقُ، وَيُؤْمِنُهُمْ فِيهِ؛ فَلَأَن يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ عِنْدَ عِبَادَتِهِمْ [اللَّهُ تَعَالَى وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةً] ^(٣) غَيْرِهِ أَحَقُّ أَنْ يُرْزَقُوا، وَيَأْمَنُوا فِيهِ.

وقوله تعالى: ﴿يُخَيِّجُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل جنس ونوع مِنَ الثَّمَرَاتِ يُخَيِّجُ إِلَيْهِ. وظاهره أن يُخَيِّجُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَرْقَعُهُ وَأَنْفَعُهُ؛ وَذَلِكَ [ثَمَرُهُ، لِأَن ثَمَرًا] ^(٤) كُلُّ شَيْءٍ أَرْقَعُهُ وَأَنْفَعُهُ. يُقَالُ: ثَمَرَةُ الشَّيْءِ كَذَا، وَثَمَرَةُ هَذَا الْكَلَامِ كَذَا، أَيْ مَا يُنْتَفَعُ مِنْ هَذَا هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ^(٥) مَا يُحْمَلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْآفَاقِ، وَيُخَيِّجُ إِلَيْهِمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَطْعَمَةِ إِنَّمَا هُوَ بِاللُّطْفِ لَا بِمُوَافَقَةِ الدِّينِ. وَكَذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ أَمْنَهُمْ فِيهِ بِاللُّطْفِ لَا بِمُوَافَقَةِ الدِّينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٨

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كَفَرَتْ مَعِيشَتُهَا، لَمْ تَرْضَ مَعِيشَتَهَا. وَفِيهِ إِضْمَارٌ: فِي؛ أَيْ بَطَرَتْ [فِي] ^(٦) مَعِيشَتِهَا، فَانْتَضَبَ لَانْتِزَاعِ حَرْفِ: فِي. وَتَأْوِيلُهُ ^(٧)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَيْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ، بَطَرَتْ أَهْلُهَا فِي مَعِيشَتِهِمْ ^(٨) حَتَّى صَرَفُوا شُكْرَهُمْ [إِلَى غَيْرِ الَّذِي] ^(٩) أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلُوا عِبَادَتَهُمْ ^(١٠) لِغَيْرِ الَّذِي جَعَلَ لَهُمُ السَّعَةَ وَالرِّخَاءَ.

فَانْتَبِهْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ إِذَا بَطَرْتُمْ، وَاشْرُزْتُمْ فِي سَعَتِكُمْ وَخَضِيعِكُمْ، تُهْلِكُونَ كَمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ مَا قَالَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ مَا دُخِرُوا بِهِ، فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ مَدْيَنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِنَ الْقَرْيَاتِ قَرْيَاتٌ إِذَا هَلَكَ أَهْلُهَا أَسْكَنَ غَيْرُهُمْ فِيهَا نَحْوُ قَرْيَاتِ فِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِ، جَعَلَ مَسَاكِنَهُمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ^(١١) قَالَ: ﴿وَأَرْزُقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَغْنَوْنَ مِنْكَ بِدُونِكَ وَتَعْمَلُ لَكَ الْآيَةَ [الأعراف: ١٣٧] وَقَالَ ^(١٢): ﴿وَأَرْزُقْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [غافر: ٥٣].

وَمِنْ الْقَرْيَاتِ مَا جَعَلَهَا غَرَبَةً مُعْظَلَّةً، لَمْ يُسْكِنْ غَيْرُهُمْ [فِيهَا] ^(١٣) نَحْوُ قَرْيَاتِ لُوطَ وَغَيْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أَيْ الْبَاقِينَ. وَالْوَارِثُ هُوَ الْبَاقِي فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا آيَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ ^(١٤):

أَحَدُهُمَا: إِخْبَارٌ عَنْ هَلَاكِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَفَنَائِهِمْ وَبِقَائِهِ ^(١٥)، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ﴾ [مريم: ٤٠] [وقوله] ^(١٦): ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وَالثَّانِي: إِخْبَارٌ عَنْ هَلَاكِ أَوْلَئِكَ وَجَعْلِهَا لِغَيْرِهِمْ أَيْ لِلْمُتَّقِينَ كَقَوْلِهِ ^(١٧): ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ أَبُو عَوَسَجَةَ: ﴿تُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أَيْ تُؤْخَذُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُخَيِّجُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَبَايَةِ، أَيْ يُجْمَعُ، يُقَالُ: جَبَيْتُ، أَخْبِي جَبَايَةً وَ: جَبَاً. وَأَخْبَى يُخْبِي، أَيْ حَازَ يَحُوزُ. [وقوله] ^(١٨): ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أَيْ لَمْ تَرْضَ بِمَعِيشَتِهَا.

وَقَالَ الْقَتَّيْبِيُّ: أَيْ أَشْرَتْ، وَقَالَا: ﴿فِي أَهْلِهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] أَيْ [فِي] ^(١٩) أَكْثَرِهَا وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا، وَهِيَ مَكَّةُ، وَالتَّبِيُّ مِنْهُمْ، وَالْكِتَابُ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَا: وَإِذَا: كَلِمَةٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهَا أَحَدٌ، يَغْنَوْنَ بِالْكَسْرِ ^(٢٠).

(١) من م، في الأصل: يتعرضوا. (٢) في الأصل وم: ر. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ثمرته لأن ثمرة. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: معيشتها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عبادتها. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وقوله. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) أدرج في الأصل بعدما: في هذا. (١٥) في الأصل وم: وبقي، في م: وبقي. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، في الأصل: لقوله. (١٨) ساقطة من الأصل. (١٩) من م، ساقطة من الأصل. (٢٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/٢٩.

الآية ٥٩

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا﴾ [يَخْتِمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما^(١)]: جائز أن تكون تلك القرى التي أخبر أنه غير مهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا﴾ القرى التي من حول مكة؛ لا يهلكها ﴿الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا﴾ قيل في أعظمها، وهي مكة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾.

فإن كان هذا فيكون الإهلاك لها الإنزاع من أيديهم وجعلها في أيدي أهل الإسلام على ما كان، لأن الله كان يفتح على رسوله قرية فقرة قبله وبلدة قبله حتى جعل الكل في أيدي المسلمين، وهو ما قال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] وهو وعد فتح مكة. وذلك إهلاكهم.

والثاني: جائز أن يكون هذا [في^(٢)] كل القرى وجميع الرسل؛ أنه كان لا يهلكها بالكفر نفسه حتى يبعث في أكثرها وأعظمها، وهي المضمر ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ وذلك يشبه قوله^(٣): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ يَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وإنما ذكر بعث الرسول في أمها لأنه بعث الرسول في أعظمها، وهو المضمر، ينتشر، وينتهي في الآفاق والصغائر منها والقرى لما أنهم يدخلون المضمر لحوادثهم، فيتهدأ للرسول تلاوة الآيات عليهم والدعاء لهم، وإذا كان بعض القرى لا يتهدأ لها^(٤) ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَعْلَاهَا ظُلُمَاتٌ﴾ أي معايدون مكابرون، لا نهلكهم إهلاك تعذيب بنفس الكفر في الدنيا حتى يكون منهم العناد والمكابرة، إنما يعذبون عذاب الكفر في الآخرة، وهو العذاب الأبدي.

الآية ٦٠

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُفِيتُ بِهِ النَّارَ وَآتَيْنَاهُمُ الْغُرُوبَ وَمَا كَانَ لِهَٰذَا الْقَوْمِ أَن يُبْعَثُوا﴾ [يُنْفِيتُ وَجْهَيْنِ:

الآية ٦١] ولذلك قال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰفِيهِ كَمَن نَّعْتَهُ نِعْنَةً مِّنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ فجواب هذا أن يقال: بل الموعود الحسن الملاقى بالذي له عاقبة خير من المتاع الفاني الذي ليس له عاقبة. لكنه لم يذكر له عاقبة. فجوابه ما ذكرنا.

ثم كل استيفاهم كان من الله فهو على الإيجاب في الحقيقة، ليس على الاستيفاهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي يحضر^(٥) في النار. وقيل: ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي المعذبين، وكلاهما واحد.

الآية ٦٢

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قوله: ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ﴾ في زعمكم أنهم شركائي حين^(٦) أشركتموهم في العبادة وتسمية الألوهية. وألا لم يكن لله شريك ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ﴾ زعمتم أنهم شركائي؟

ثم قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ إنما يقول^(٨) لهم ليقولهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقولهم: ﴿مَتَّوَلَاءُ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقول: أين شفاعتكم من زعمتم أنهم شفعائكم عند الله؟ وأين قربتكم وزلفائكم بعبادتكم إياها حين^(٩) زعمتم أن عبادتكم إياها تقربكم إلى الله زلفى؟ أين ذلك لكم منهم؟

الآية ٦٣

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ القول الذي قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وجائز أن يكون قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي وجب عليهم العذاب كقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢] أي وجب عليهم وكقوله: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٨٥] أي وجب العذاب عليهم بما ظلموا، ونحوه.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كقوله. (٤) في الأصل وم: لهم. (٥) في الأصل وم: يحضر.

(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: أنتم. (٨) في الأصل وم: يقال. (٩) في الأصل وم: حيث.

ثم اخْتَلَفَ فِي الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُمْ رُؤَسَاءُ الْكَفَرَةِ وَأَيُّمَتُهُمُ الَّذِينَ أَضَلُّوا اتِّبَاعَهُمْ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الضَّلَالِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُمْ شَيَاطِينُ الْجِنِّ. وَلِلْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً فِي الْكِتَابِ ذِكْرٌ:

قَالَ فِي آيَتِهِمْ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وَقَالَ: ﴿قَالَتْ أُنثَىٰ هَذِهِ لَأُذِلَّنَّ لِأُولَئِكَ رَبَّنَا مَتَّوَلَا أَسْكُنُوا﴾ [الأعراف: ٣٨] وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَقَالَ فِي شَيَاطِينِ الْجِنِّ: ﴿وَمَنْ يَغْشَىٰ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَّهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وَقَالَ: ﴿لَاخِشُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْلَجْنَاهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وَنَحْوُهُ كَثِيرٌ أَيْضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يَغْتَدِرُونَ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَتَا إِلَيْهِمْ إِلَّا الدُّعَاءُ وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْغَوَايَةِ، وَهُوَ قَوْلُ إِبْلِيسَ لِلْعَيْنِ وَخِطْبَتُهُ يَوْمَئِذٍ حِينَ^(١) قَالَ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

فَعَلَىٰ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَمْ يَكُنْ مَتَا إِلَيْهِمْ سِوَى الدُّعَاءِ بِمَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ، فَاتَّبَعُونَا، فَلَا تَلُومُونَا، وَلَوْ مَوَا أَنْفُسَكُمْ حِينَ^(٢) تَرَكْتُمْ إِبْرَاهِيمَ الرِّسْلَ، وَمَعَهُمُ بَرَاهِيمُ وَحُجَّجٌ، وَأَجَبْتُمُونَا بِمَا حُجَّجُوا وَلَا بُرْهَانٍ، فَأَغْوَيْنَاكُمْ كَمَا غَوَيْنَا، وَلَوْ كُنَّا عَلَى الْهُدَىٰ لَهَدَيْنَاكُمْ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَتَّبِعُونَ﴾ يَتَّبِعُونَ: أَنَا لَمْ نَأْمُرْهُمْ بِالْعِبَادَةِ لَنَا، وَإِلَّا كَانُوا عِبْدُونَا^(٣).

ثُمَّ إِنَّ لِلْمُغْتَرِلَةِ أَدْنَى تَعَلُّقٍ بِهَذِهِ آيَةِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا أَضَافُوا الْغَوَايَةَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ حِينَ^(٤) قَالُوا: ﴿أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ ذَلَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُغْوِي أَبَداً.

فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّا لَا نُضِيفُ، وَلَا نُجِيزُ إِضَافَةَ الْغَوَايَةِ إِلَى اللَّهِ فِي مَا يُخْرِجُ مُخْرِجَ الدَّمِّ، وَإِنَّمَا نُضِيفُ فِي مَا يُخْرِجُ مُخْرِجَ الْمَدْحِ لَهُ وَالنَّاءِ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَدْ أَضَافَ إِبْلِيسُ الْغَوَايَةَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُنَكِّرْ عَلَيْهِ حِينَ^(٥) قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] وَالْحَجَر: ٣٩] فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَقَالَ: ﴿تُفِيلُ بِهَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وَنَحْوُهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. فَمَا خُرَجَ مُخْرِجَ الْمَدْحِ لَهُ وَالنَّاءِ عَلَيْهِ يُضَافُ إِلَيْهِ، وَمَا خُرَجَ مُخْرِجَ الدَّمِّ فَلَا. وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يَوْمَ قَالَ لِإِبْلِيسَ: ﴿لَاخِلَآنَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. ثُمَّ قَالَتْ الشَّيَاطِينُ فِي الْآخِرَةِ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ يَعْنُونَ كَفَارَ بَنِي آدَمَ؛ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَضَلَّلْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَىٰ كَمَا ضَلَّلْنَا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ مِنْهُمْ يَا رَبِّ ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَتَّبِعُونَ﴾ تَبَرَّأَتِ الشَّيَاطِينُ مِمَّنْ كَانَ يَتَّبِعُهَا فَقَالُوا: لَمْ نَأْمُرْهُمْ بِعِبَادَتِنَا.

الآية ٦٤ [وقوله تعالى]^(٦) ﴿وَقِيلَ لِكُفَّارِ بَنِي آدَمَ﴾: أَذْعَرُوا شُرَكَاءَهُمْ يَقُولُ: سَلُّوا الْأَلْهَةَ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أَي سَالُوهُمْ، فَلَمْ تُجِبْهُمْ^(٧) الْأَلْهَةُ بِأَنَّهُمَا آلِهَةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَعُوتٌ﴾ فِي الدُّنْيَا أَنَّ مَعِيَ شُرَكَاءَ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا مِنْ قَبْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ أَذْعَرُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ]^(٨) شُرَكَاءَهُمْ فِي الْخَلْقَةِ، وَ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ فِي الْعِبَادَةِ: أَذْعَوْهُمْ لِيَشْفَعُوا لَكُمْ، وَيُقَرَّبُوكُمْ^(٩) إِلَى اللَّهِ عَلَى مَا زَعَمْتُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أَي لَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، لِمَا لَمْ يَجْعَلْ فِي وُسْمِهِمُ الْإِجَابَةَ لَهُمْ وَاجِباً كَانَتْ فِي الْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ تَأْوِيلُهُ [فِي وَجْهِ:

أَخْلَعُوا: لَوْ رَأَوْا]^(١٠) الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا لَكَانُوا يَهْتَدُونَ، وَلَكِنْ لَمْ يَرَوْهُ. هَذَا وَجْهٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْث. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم: (٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: يَجِيبُوا. (٨) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٩) فِي الْأَصْلِ وَم: لِيَشْفَعُوا لَكُمْ وَيُقَرَّبُوكُمْ. (١٠) فِي الْأَصْلِ: أَي رَأَى، فِي م: أَي رَأَوْا.

وَوَجْهَ آخَرٍ: أنهم لم يصدقوا بالعذاب في الدنيا، ولو صدقوه لامتدوا مخافة نزول العذاب بهم.
والثالث: لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا ما رأوا العذاب في الآخرة، والله أعلم.

الآيتان ٦٥ و ٦٦ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ/ ٤٠٠ - ب/ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَادَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَعَيَّتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ﴾ اختلِف فيه:

قال قائلون: إنما يسألون عن إجاباتهم الرسل: ماذا أجبتموهم؟ على علم منه أنهم ماذا أجابوهم؟ ﴿فَعَيَّتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ﴾ أي الإجابة، فلا تنهياً لهم الإجابة ليهول ذلك [اليوم] ^(١) وفزعهم.

وقال بعضهم: إنما يسألون عن الحجّة والعذر الذي به كانوا تركوا إجابة الرسل، فيقال لهم: لأي حجّة وعذر تركتم إجابتهم؟ ﴿فَعَيَّتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ﴾ أي الحجج والعذر لما لم يكن لهم الحجّة والعذر في تركهم إجابتهم.

[وقوله تعالى] ^(٢): ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾ قال بعضهم: لا يسأل بعضهم بعضاً، بل يتبرأ بعضهم من بعض، ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً ^(٣) على ما ذكر في الكتاب ^(٤).

وقال بعضهم: ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾ بالانساب يومئذ لما لا حجّة لهم، ولا بُرهان؛ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج لأن الله أذخض حجبهم، وكَلَّلَ السِّتْرَ.

وقال بعضهم: ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾ بالانساب يومئذ كما كانوا يتساءلون في الدنيا كقولهم: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَتَّبِعُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والله أعلم بذلك.

ثم إن بعض المعتزلة تكلموا فيه، وقالوا: لو كان الأمر على ما قاله القدريون والجبريون في المشيئة والإرادة لكان يسهل لهم الاحتجاج، ويهون لهم العذر، فيقولون: يا ربنا أجبتنا ما نَقَدَّ مِنْ مَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ وما مَضَى مِنْ قَضَائِكَ وَكِتَابِكَ علينا إذ كنت أنت قَضَيْتَ، وكتبت علينا، وشئت، وأرذت، بما ^(٥) كان منا من التكذيب لهم وترك الإجابة، فلم يكن لنا تخلص مما شئت أنت، وقضيت علينا.

إلى هذا الخيال يذهب جعفر بن حرب. وهذا منه ^(٦) تعلیم لأولئك الكفرة الحجاج بالباطل والكذب بين يدي رب العالمين للتكذيب الذي كان منهم.

ثم يقال: لو كان لهم ذلك الحجاج على رعيكم فلا يكون ذلك لهم بقولنا، ولكن إنما يكون بكتاب الله وسنة رسوله وقول المسلمين أجمعين حين ^(٧) قالوا: ما شاء الله كان، وما ^(٨) لم يشأ لم يكن.

وبكتاب الله ذكر ^(٩) في غير آية من القرآن [قوله] ^(١٠): ﴿يَهْدِي بِذِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ الآية [يونس: ٩٩] وأمثاله مما لا يحصى من الآيات. فإن كان لهم ذلك فإنما يكون بما ذكر لا بقولنا.

واضله أنه لا يكون لهم هذا النوع من الاحتجاج لأنهم وقت فعلهم لا يعقلون بأن الله شاء ذلك لهم، أو قضى، وكتب ذلك عليهم، وهم يودون، ويحبون وقت فعلهم أن يشاء الله ذلك منهم، ويرضى. فإن كانوا وقت فعلهم لا يعقلون ذلك فكيف يكون لهم الحجاج على ما كانوا يفعلون ذلك ^(١١)؟ لكن هذا منهم تعلیم الكذب لهم ليكذبوا بين يدي رب العالمين على ما ذكر.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ببعض. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَكُم مِّنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. (٤) في الأصل وم: ما. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) (٨) الراوي ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لا لذلك.

وأصل قولنا في هذا: أنا نقول: إنه شاء من كل ما علم أنه يكون منه؛ إذ لا يجوز أن يُشاء منه خلاف عليه^(١) أنه يكون لأن فيه أحد وجهين: إما الجهل بالعواقب وإما العجز فيه، وذلك من الله متفيان. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وأصله ما روي عن أبي حنيفة. رحمه الله، أنه قال: بيننا وبين القدرية حرفان:

هما^(٢): أنا نقول: إن الله أعلم ما يكون أنه يكون. فإن قالوا: لا كفروا لأنهم جهلوا الله، وإن قالوا: بلى، فيقال لهم: وشاء أن يكون. فإن^(٣) قالوا: لا كفروا لأنهم يقولون: شاء أن يجهل ذلك، [وإن قالوا: بلى]^(٤) لزمهم قولنا في المشيئة والإرادة لله في ذلك.

قال أبو عوسجة والقشيري: ﴿فَعَيَّتْ﴾ بالتخفيف أي خفيت فعميت بالتشديد^(٥) أي أخفيت.

الآية ٦٧

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي فأمّا من رجع عما كان فيه من الشرك والكفر ﴿وَأَمَّنَ﴾ بالذي دعاهم الرسل، وأجابهم ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في ما بينه وبين ربه ﴿فَنَسِيَ﴾ أن يكون من المفلحين ﴿يَحْتَمِلُ رَجُوعَ﴾ ﴿نَسِيٍّ﴾ إلى ذلك الرجل الذي نعت به قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ الآية^(٦) على رجاء القبول والفلاح؛ يفعل ما يفعل من التوبة والعمل الصالح.

[ويحتمل]^(٧) أن يقال ما قال أهل التأويل: إن عسى من الله واجب؛ وهو ما ذكرنا أن كل استفهام كان من الله فهو على اللزوم والوجوب. فعلى ذلك حرف: لعل، وإن كان حرف شك في الظاهر، فهو من الله على الوجوب واليقين.

قال أبو معاذ: الفلاح في كلام العرب البقاء، ويقال: النجاة، وقد ذكرنا في غير موضع.

الآية ٦٨

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ما كان لهم الخيرة يقول، والله أعلم: وربك يختار للرسالة من يشاء، ويختار لها، فيجعلهم رسلاً ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ يقول: لم يكن لهم أن يختاروا ويضطفوا من يشاؤون، ولكن الله^(٨) يختار، ويضطفي، من يشاء، ردّ لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الآية [الزخرف: ٣١] إلى هذا ذهب بعضهم.

وجائز أن يكون هذا في كل أمر، أي وربك يختار ما يشاء، ويأمر ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ من أمره أي التخلص والنجاة من أمره كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] والقضاء هنا أمر، لكنه يحتمل وجهين:

أحدهما: على الوقف [في]^(٩) قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ والابتداء من قوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ من أمرهم. فإن كان على هذا فتكون ما هنا: جحداً أي لم يكن لهم الخيرة من أمرهم.

والثاني: على الصلة؛ ليس على الجحد، فيكون تأويله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ الذي لهم الخيرة: أن يكون الوقف على هذا على قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ثم يقول: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي لهم الخيرة. قال أبو معاذ: قرئ: الخيرة بجزم الياء وبخبريكها: ﴿الْخِيَرَةُ﴾^(١٠).

ثم قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ على المعتزلة من وجهين:

أحدهما: ما أجمعوا أن الله قد شاء جميع ما يفعل العباد من الخيرات والطاعات. فإذا جاز ذلك دل أنه خلقها إذ أخبر أنه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧ و...]. وقد شاء الخيرات، فدل ذلك على خلق أفعال العباد. لكنهم يقولون [في]^(١١) قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذا خلقه^(١٢) وكذلك يقولون في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠ و...]. إن خلقه^(١٣) أو كلام نحو هذا. فلتن جاز لهم هذا من الزيادة جاز لكل أحد مثله. فذلك بعيد.

[والثاني]:^(١٤) على قولهم: أكثر الأشياء ليست بمخلوقة لله، وهو على أكثر الأشياء غير قدير، لأن أفعال الخلق،

(١) في الأصل وم: علم. (٢) في الأصل: أحدهما، ولعل الحرفين: لا وبلى الآتيان. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/٣٠. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقول. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في م: يختاروا هم ولكن الله، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/٣٠ و ٣١. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) والضمير يعود على خلق أفعال العباد. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤)

لَا شَكَّ أَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَأَنَّهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وَأَنَّ هَذَا خُرُجٌ مِنْهُ مَخْرَجَ الْإِمْتِدَاحِ لَهُ وَالشَّاءَ عَلَيْهِ بِمَا لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ.

فَلَوْ كَانَ عَلَى مَا يَقُولُ الْمُغْتَرِلَةُ: لَمْ يَكُنْ هَذَا مَذْحًا لَهُ وَلَا نَاءً بِالسُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ إِذْ هُوَ عَلَى قَوْلِهِمْ: عَلَى أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا.

ثُمَّ نَزَّ نَفْسُهُ، وَبَرَّأَهَا، عَمَّا قَالُوا فِيهِ، وَأَشْرَكُوا غَيْرَهُ فِي الْوَهْيِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَفِي عِبَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿مُبْتَخَنَ اللَّهُ وَتَعَلَّنَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٦٩

وقوله^(١) تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ هَذَا يُخْرَجُ عَلَى الْوَعِيدِ لَهُمْ وَالتَّنْبِيهِ لِيَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ فِي مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٠

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اللَّهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وَقَدْ ذَكَّرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ٤٠١-١/ مِنْ أَمْرِهِمْ يُخْرَجُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: لَهُ الْإِخْتِيَارُ فِي أَمْرِهِمْ، لَا لَهُمُ الْإِخْتِيَارُ فِي أَمْرِهِمْ، وَلَا يَمْلِكُونَ هُمْ مَا يَخْتَارُ لَهُمْ دَفْعُهُ.

وَالثَّانِي: هُوَ يَخْتَارُ لَهُمُ الْخِيَرَةَ فِي أَمْرِهِمْ لِأَنَّهُ هُوَ الْعَالِمُ بِمَصَالِحِ أُمُورِهِمْ، وَمَا يَزِجُّ إِلَى الْأَوْفَقِ وَالْإِنْفَعِ، هُمْ لَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ. فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَنَّ أَنْفُسَ الْخَلَائِقِ لَهُ دَوْنُهُمْ، فَلَهُ الْحُكْمُ فِي أُمُورِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ كَمَا لَهُ الْحُكْمُ فِي أَحْوَالِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ الْخِطَابُ فِي حُكْمِهِ؛ إِذْ هُوَ عَالِمٌ بِذَاتِهِ، وَلَا تَلْحَقُهُ التَّهْمَةُ أَيْضًا فِي دَفْعِ مَضْرُوءٍ أَوْ جَرِّ نَفْعٍ [لَأَنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ]^(٢) فَلَهُ الْحُكْمُ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا. وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ هَذَا يُخْرَجُ عَلَى وَجْهٍ:

أَحَدُهُمَا: مَا قَالَهُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ: إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَحْمَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فِي الْجَنَّةِ [حِينَ يَقُولُونَ]^(٣) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ الْآيَةُ [فَاطِر: ٣٤] يَقُولُونَ [ذَلِكَ]^(٤) إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ.

وَالثَّانِي: مَا^(٥) قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ يَقُولُ: فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَتَضْيِيقُهُ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَهُوَ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرُّوم: ١٨] وَقَوْلُهُ^(٦): ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الْجُمُعَةِ: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ الْأَسْفَلُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الْإِسْرَاء: ٤٤].

وَالثَّالِثُ: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ وَهُوَ أَنْ جَعَلَ الدُّنْيَا مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْأَعْدَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ فِي نَعِيمِهَا غَيْرَ مُفْتَرَقَةٍ وَلَا مُخْتَلِفَةٍ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ فَرَّقَ فِيهَا بَيْنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ؛ جَعَلَ لِلْأَوْلِيَاءِ النِّعْمَةَ الدَّائِمَةَ وَلِلْأَعْدَاءِ الْعَذَابَ الدَّائِمَ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ.

وَالرَّابِعُ: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ لِمَا جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ مِخْنَةٍ وَالْآخِرَةَ دَارَ الْجَزَاءِ، لَمْ يَجْعَلْهَا دَارَ الْجِئَانَةِ.

[وَالْخَامِسُ]^(٧) أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ لُهُ الْحَمْدُ مِنَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ حَالٍ وَكُلِّ وَقْتٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آخِرِ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يُونُس: ١٠] إِنَّهُمْ يَحْمَدُونَهُ فِي بَدْءِ كُلِّ أَمْرٍ وَخَتْمِهِ أَيُّ^(٨) أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحَمْدُ.

الآيتان ٧١ و٧٢

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِنَّكُمْ لَأَبْدَانُ لِلْآلَةِ﴾ [وَقَوْلُهُ]^(٩): ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أَيُّ دَائِمًا ﴿إِنَّكُمْ لَأَبْدَانُ لِلْآلَةِ﴾ لَا لَيْلَ فِيهِ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [وَقَوْلُهُ]^(١٠): ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يُخْرَجُ ذِكْرُهُ [فِي وَجْهَيْنِ]^(١١):

(١) فِي الْأَصْلِ رَم: وَقَالَ. (٢) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٣) فِي الْأَصْلِ رَم: حَيْثُ قَالُوا. (٤) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ رَم. (٥) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٦) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: وَقَوْل. (٧) فِي الْأَصْلِ رَم: أَوْ. (٨) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (٩) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (١٠) فِي الْأَصْلِ رَم: وَ. (١١) فِي الْأَصْلِ: لَوْجَيْنِ، فِي م: إِلَى وَجْهَيْنِ.

أَخَذَهُمَا: فِي تَسْفِيهِهِمْ فِي صَرْفِ الْعِبَادَةِ وَالشُّكْرِ إِلَى الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانُوا يَغْبُدُونَهَا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ شَيْئاً مِمَّا ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ اللَّيْلِ نَهَاراً وَجَعْلِ النَّهَارِ لَيْلاً وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ مَنْ يَغْرَفُونَ أَنَّهُ يَمْلِكُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى حِينَ^(١) قَالَ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَتُهُ ضَرْبَهُ﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٢٨] فَلِذَا^(٢) لَا يَمْلِكُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ دَفْعَ ضَرِّ أَرَادَهُ اللَّهُ لَهُمْ^(٣) وَجَعَلَهُ رَحْمَةً وَلَا دَفْعَ رَحْمَةِ أَرَادَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا^(٤) ضُرّاً، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهَا، وَتَتْرَكُونَ عِبَادَةَ مَنْ يَمْلِكُ جَعْلَ هَذَا هَذَا وَدَفْعَ هَذَا بِهَذَا؟ فَعَلَى ذَلِكَ يَقُولُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَعْبُدُونَ مَنْ لَا يَمْلِكُ جَعْلَ الزَّمَانِ كُلَّهُ لَيْلاً دَائِماً، لَا نَهَاراً^(٥) كُلَّهُ دَائِماً، لَا لَيْلَ فِيهِ، وَتَتْرَكُونَ عِبَادَةَ [مَنْ]^(٦) يَمْلِكُ ذَلِكَ كُلَّهُ؟ يَجْعَلُ وَفْتِ [الرَّاحَةِ وَالسَّكُونِ غَيْراً]^(٧) وَفْتِ الْإِكْتِسَابِ وَالتَّعْيِشِ وَوَفْتِ التَّعْيِشِ وَالْكَسْبِ [غَيْراً]^(٨) وَفْتِ^(٩) الرَّاحَةِ وَالْقَرَارِ.

وَالثَّانِي: يُذَكِّرُهُمْ عَظِيمَ نِعْمِهِ وَمِنْهُ حِينَ^(١٠) أَنْشَأَ هَذَا الْعَالَمَ مُحْتَاجاً إِلَى مَا بِهِ قِيَامُ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ فِي دِينِهِمْ. ثُمَّ جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى التَّعَاوُنِ وَتَظَاهُرِ^(١١) بَعْضِهِمْ بِغَضاً مَا لَوْ جَعَلَ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَا تَقُومُ أَنْفُسُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ بِذَلِكَ حِينَ^(١٢) جَعَلَ اللَّيْلَ وَفْتاً لِلرَّاحَةِ وَالسَّكُونِ، وَالنَّهَارَ وَفْتاً لِلتَّغْلِبِ وَالتَّعْيِشِ.

وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَفْتاً لِلرَّاحَةِ لَا تَقُومُ أَنْفُسُهُمْ أَبَداً لِلتَّعْيِشِ وَالْكَسْبِ. وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ وَفْتاً لِلتَّغْلِبِ وَالْكَسْبِ، لَا رَاحَةَ فِيهِ، لَا تَقُومُ أَيْضاً أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ.

لَكِنَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ جَعَلَ وَفْتاً لِلرَّاحَةِ؛ إِنَّمَا جَعَلَهُ لِلْكَوْنِ لَا لِيُغْنِيَ دُونَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ مَا جَعَلَهُ وَفْتاً لِلتَّغْلِبِ؛ إِنَّمَا جَعَلَهُ كَذَلِكَ لِلْكَوْنِ لَا لِيُغْنِيَ دُونَ بَعْضٍ لِتَقُومَ لَهُمْ أَسْبَابُ التَّعْيِشِ وَمَا بِهِ قِيَامُ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ وَفْتاً لِأَحَدِهِمَا لَمْ تَقُمْ أَنْفُسُهُمْ، وَلَا بَقِيَ هَذَا الْعَالَمُ إِلَى الْوَفْتِ الَّذِي جَعَلَ لَهُ الْبَقَاءَ إِلَى ذَلِكَ الْوَفْتِ.

الآية ٧٣

وَهُوَ مَا ذَكَرَ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وَقَوْلُهُ^(١٣): ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إِنَّمَا هُوَ سَمْعُ عَقْلٍ وَقَلْبٍ وَبَصَرُ عَقْلٍ وَقَلْبٍ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هَذَا بِالْعَقْلِ، وَيَقُولُ^(١٤): ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بِالْعَقْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّبَعُوا لَا تَمَتِّعُوا الْآفَاقَ وَلَكِنْ تَمَتِّعُوا الْقُلُوبَ أَلَمْ يَفْعَلْ فِي السَّمْعِ﴾ [الحج: ٤٦].

الآية ٧٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ. وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي يُكْرَرُهَا، وَيُعِيدُهَا^(١٥) مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤] وَقَوْلِهِ: ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَهَا، وَلَا يَقْبَلُونَهَا، وَلَا يَسْمَعُونَ إِلَيْهَا، وَإِنْ كُرِّرَتْ، وَأُعِيدَتْ، غَيْرَ مَرَّةٍ، فَهُوَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَخَذَهُمَا: لَزُومُ الْحُجَّةِ لِمَا مَكُنُوا مِنْ^(١٦) الْإِسْتِمَاعِ وَالسَّمْعِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ إِلَيْهَا.

وَالثَّانِي: يَكُونُ فِيهِ عِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَجْهِ:

أَخَذَهَا: لِشُكْرِهِمْ عَلَى مَا عَصِمُوا مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَوَقَفُوا عِبَادَةَ الْمُسْتَحَقِّ إِلَيْهَا، لِتَعْرِفُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَالثَّانِي: لِتَحْذَرُوا عَاقِبَتَهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَى مَا هُمْ^(١٧) عَلَيْهِ أُولَئِكَ الْكَافِرَةُ عَلَى مَا حَذَّرَ^(١٨) الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَأُولِي الْعِصْمَةِ عَاقِبَتَهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَى ذَلِكَ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَأَجِئْنِي وَنِئْنَى أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ.

(١) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (٢) فِي الْأَصْلِ وَم: فَإِنَّ. (٣) فِي الْأَصْلِ وَم: لَهُ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَجَعَلَهُ. (٥) فِي الْأَصْلِ وَم: النَّهَارُ. (٦) مِنْ م، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ. (٧) وَ(٨) سَاقِطَةٌ مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي. (٩) مِنْ نَسْخَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّي، سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (١٠) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١١) فِي الْأَصْلِ وَم: وَالتَّظَاهُرِ. (١٢) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ. (١٣) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٤) فِي الْأَصْلِ وَم: وَ. (١٥) فِي الْأَصْلِ وَم: وَيُعِيدُ. (١٦) فِي الْأَصْلِ وَم: أَوْ. (١٧) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: هُوَ. (١٨) مِنْ م، فِي الْأَصْلِ: حَذَرُوا.

والثالث: خوفُ المُعامَلَةِ: لثلاثِ يُعامِلُوا مُعامَلَتَهُمْ^(١) في العَمَلِ كما عامَلَ أولئك في الإِغْتِقَادِ، لأنَّ المؤمنين، وإنْ خالفوا^(٢) أولئك الكُفْرَةَ في الإِغْتِقَادِ في إشارِكِ غَيْرِهِ في العِبَادَةِ فربما يُوافِقُونَهُمْ في العَمَلِ، فَكُرِّرَتْ هذه الأنباء والآيات عليهم، وأُعِيدَتْ مرَّةً [بَعْدَ مرَّةٍ]^(٣) وإنْ كَانَ أولئك لَا يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهَا لِلوجوه التي ذَكَرْنَا.

والرابع: كُرِّرَتْ، وأُعِيدَتْ، لثلاثِ يَقُولُوا: إنها لو أُعِيدَتْ، وكُرِّرَتْ، لَقَبَلْنَاها، والله أعلم.

الآية ٧٥ وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قيل: شَهِيدُهَا رَسولُهَا كَقولِهِ: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية [النساء: ٤١] وقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل: ٨٤] ونحوهُ.

سَتَى شَهِيدًا لأنَّهُ شَهِدَ على ما عَمِلُوا، وَحَضَرَ ما كَانَ مِنْهُمْ، والله أعلم، مِنَ التَّكْذِيبِ والقِيُولِ والرَّدِّ ﴿فَقُلْنَا مَا تَوَارَوْا بِرُفَعْنَاكُمْ﴾ في تَسْمِيَتِكُمْ الأصنامَ أَلِهَةً أو في اسْتِخْفَاقِهَا^(٤) العِبَادَةَ أو في زَعْمِكُمْ: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوُ ذَلِكَ يَقولُ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ وَحُجَّتَكُمْ على ما زَعَمْتُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ هذا أَيْضًا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

عَلِمُوا أَنَّ الألوهِيَّةَ والرُّبُوبِيَّةَ لِلَّهِ، أو عَلِمُوا أَنَّ الشُّفَاعَةَ لِلَّهِ لَا لِلْأَصْنَامِ التي عَبَدوها لِيَكُونُوا شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ كَقولِهِ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشُّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أو أَنَّ يَكُونُ الْحَقُّ^(٥) الذي عَلَيْهِمْ هو^(٦) العِبَادَةُ لِلَّهِ، أو أَنَّ يَكُونُ ما جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ/ ٤٠١ - ب/ مِنَ الْحَقِّ إِنَّمَا جَاؤُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَوَصَّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [أي ضَلَّ]^(٧) عَنْهُمْ ما كانوا يَأْمَلُونَ مِنَ عِبَادَتِهِمْ تِلْكَ الْأَصْنَامِ مِنَ الشُّفَاعَةِ والرُّلْفَى.

الآية ٧٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَذَبَتْ مِنْ قَبْلِهِ مُوسَى فَبَيَّنَّا عَلَيْهِمْ﴾ كَانَهُ كَانَ^(٨)، والله أعلم، يُخَوِّفُ أَهْلَ مَكَّةَ، وَيُوعِذُهُمْ بِبُغْيِهِمْ على اللَّهِ وعلى رَسولِهِ بِعَذَابٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ كما نَزَلَ بِقَارُونَ بِبُغْيِهِ على مُوسَى وقَوْمِهِ إِذْ لَمْ تَنْفَعْهُ قَرَابَتُهُ مِنْ مُوسَى وَلَا صِلَتُهُ بِهِ لِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّهِ، وَكَانَ جِثَّتُهُ زَوْجَ أُخْتِهِ مَرِيَمَ.

فَعَلَى ذَلِكَ يَقولُ، والله أعلم: لَا تَنْفَعُكُمُ الْقَرَابَةُ التي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَسولِ اللَّهِ، وَلَا اتِّصَالُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَمَقْتِهِ في الدُّنْيَا إِذْ بَغَى عَلَيْهِ، وكَمَا [لَمْ]^(٩) تَنْفَعْ أَبَوُهُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِذْ بَغَى عَلَيْهِ، وَتَرَكَ اتِّبَاعَهُ حِينَ^(١٠) تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْهُ، وَحِينَ^(١١) قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَبِّحَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ الآية [مريم: ٤٥] وَحِينَ^(١٢) لَمْ تَنْفَعْ لَامْرَأَةَ نُوحٍ وَلَوْ طِ الزَّوْجِيَّةَ التي كَانَتْ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ نُوحٍ وَلَوْ طِ مِنْ نُزُولِ [عَذَابِ اللَّهِ وَمَقْتِهِ بِهِمَا إِذْ تَرَكْنَا اتِّبَاعَهُمَا، وَبَغْتَا عَلَيْهِمَا]^(١٣).

فَعَلَى ذَلِكَ يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَا يَنْفَعُكُمُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَمَقْتِهِ قَرَابَتُكُمْ لِرَسولِ اللَّهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَصِلَتُهُ بِكُمْ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَيَّنَّا عَلَيْهِمْ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ في بُغْيِهِ عَلَيْهِمْ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هو أَنَّ مُوسَى طَلَبَ مِنْهُ زَكَاةَ ما آتَاهُ اللَّهُ مِنَ المَالِ، فَمَنَعَهُ، وَأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بُغْيُهُ عَلَيْهِمْ، هو أَنَّ أُعْطِيَ امْرَأَةً جُعْلًا لَتَقْذِفَهُ بِنَفْسِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَفْضَحَهُ على رُؤُوسِ الْأَخْيَارِ والمَلِإِ وَأَنْ يَرْجُمُوهُ، فَدَفَعَ اللَّهُ [ذَلِكَ]^(١٤) عَنْهُ، وَبَرَّأَهُ مِنْهُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا بَغَى عَلَيْهِ بِكَثْرَةِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ. هذا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ كَانَهُ افْتَحَرَ بِكَثْرَةِ مَالِهِ في دَفْعِ عَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ كَقولِ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿عَنْ أَكْثَرِ أَمْثَلًا وَأَوَّلَدًا وَمَا عَنَّا بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقَالَ بَعْضُهُمْ: بَغَى عَلَيْهِ لِأَنَّ النُّبُوَّةَ جُعِلَتْ في مُوسَى والخُبْرَةُ في هَارُونَ، وَلَمْ يُجْعَلْ لِقَارُونَ شَيْءٌ، فَاعْتَزَلَ عَنْ مُوسَى، وَاتَّبَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَاعْتَدُوا^(١٥) عَلَيْهِ. وَنَحْوُ هَذَا كَثِيرٌ مِمَّا قَالُوهُ.

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) في الأصل وم: خالفوا هم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: استحقاق. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: هي. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قال. (٩) في الأصل وم: إذا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) و(١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العذاب ومقته بهم إذا تركوا اتباعهم وبغوا عليهم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: واعتدى.

والأشبه أن يكون بغية الذي ذكر عليه كِبْنِي فِرْعَوْنَ وهامان عليه حين^(١) قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ و ٢٤] وقال^(٢): ﴿وَقُرْئَتْ وَفِرْعَوْنَ وَمَنْعَتْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَلْيَنْظُرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [المنكبات: ٣٩] فكان منه ما كان من فِرْعَوْنَ وهامان من التكذيب والرد لرساليه وتسميته ساحراً كذاباً.

فذلك هو البغي عليه، لأنه ذكر البغي. أو لا يفسر البغي عليه لأنه ذكر البغي، ولم يبين ما ذلك البغي؟ والله أعلم بذلك. وقال قائلون: بغية عليهم هو أن زاد في ثيابهم شيئاً. فذلك أيضاً لا نعلمه، فهو مثل الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَمِّتُهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لِنُصُوبِ آلِ الْقَوَّةِ﴾ قال بعضهم: ﴿مَفَاتِحُهُ﴾ خزائنه. وقال بعضهم: ﴿مَفَاتِحُهُ﴾ جمع مفاتيح، وهو في الأصل مفاتيح.

وذكر أن كنوزه، كانت كذا كذا الفأ، وأن مفاتيحه كان يحملها^(٣) كذا وكذا بغلاً، وأنها من جلود كذا أو من كذا قدر كذا. فذلك أيضاً لا نعلمه، ولا نفكره، ولا نذكره، إلا قدر ما ذكر في الكتاب: الكنوز والمفاتيح.

وذكر أن العصابة تنوء بها، وذلك لكثرة^(٤) ما ذكر. ولكن لا نعلم قدره وعدده؛ ماهو؟ ولا: كم هو؟ وكذلك العصابة أيضاً؛ لا نعلم كم عددها؟ إلا أن أهل التأويل يقول بعضهم: من عشرة إلى أربعين، ويقول بعضهم: من عشرة إلى خمسة وسبعين. ويقول بعضهم: من عشرة إلى خمسة عشر، ونحن لا نفكره، ولا نذكر عدده سوى أنه اسم جماعة، يتعصب بعضهم ببعض^(٥)، ويغير بعضهم بعضاً، يرجعون جميعاً إلى أمر واحد.

وكذلك الشيعة: هي جماعة، يتشيع بعضهم ببعض^(٦)، ويتبع بعضهم بعضاً. ولذلك قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿لَيْنَ أَكَلَهُ الْأَوْثَنُ وَتَحَنَّنَ غَصْبَهُ﴾ [يوسف: ١٤] أي يتعصب بعضهم ببعض^(٧)، لا ندعه يأكله، ولئن لم نفعل، ولم نحفظه ﴿إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾ [يوسف: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿لَتَنُوبُوا بِالْمُصْبَةِ﴾ اختلف فيه: قال بعضهم: تلك المفاتيح.

وقال القتيبي: ﴿لَتَنُوبُوا﴾ أي تملأ بها العصابة إذا حملتها من ثقلها. وقال أبو عوسجة: ﴿لَتَنُوبُوا بِالْمُصْبَةِ﴾ أي لتعجز العصابة عن حملها. وقال بعضهم: تنوء تثقل، والعصابة الجماعة^(٨).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ قال بعضهم: لا تبظر، ولا تأشر، إن الله لا يحب البطرين الأشرين.

وجائز أن يكون قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تفتخر على الناس بما آتاك الله من المال، ولا تتكبر عليهم، ولا تفرح: لا تسكن إليها، ولا تزكن إلى ذلك، إن الله لا يحب من ذكر.

الآية ٢٧

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ كان كثرة ما آتاه من المال أنسئه الآخرة، وشغلته عنها وعن العمل لها حتى حمل ذلك على الجحود والإنكار، فقال: ﴿وَأَتَيْنَا فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي لا تنس [نفسك]^(٩) من مالك في الدنيا، ولكن قدم لآخرتك.

قال الحسن في قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ إلى آخره؛ قال: أمر أن يأخذ من ماله قدر عيشه، ويقدم ما سوى ذلك لآخرته. وكذلك قال في قوله: ﴿وَأَتَيْنَا فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي قدم الفضل، وأمنك ما يبلغك ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قال: يكفيك ما أحل الله لك من الدنيا، فإن فيه غنى وكفاية.

وأصله ما روي عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لك من الدنيا ما أكلت ولبيست وأفانيت وما قدمت» [مسلم ٢٩٥٨] جعل المقدم من الدنيا له، وأما ما خلفه فهو لغيره.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) في الأصل وم: يحمل. (٤) من م، في الأصل: لكثرة. (٥) و(٦) و(٧) في الأصل وم: بعضا. (٨) في الأصل وم: جماعة. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وهكذا [الدنيا؛ لم تُخلَق الدنيا] ^(١) لِيَبْقَى لاهلها، أو يَبْقَى أهلها فيها. ولكن إنما خُلِقَتْ لِنَفْسِي هي، وَيَتَنى ^(٢) أهلها، وَخُلِقَتْ الآخِرَةُ لِلْبَقَاءِ. فَتَصِيَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا قَدَّمَ، وَأَتَّقَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فِي سَبِيلِهِ، لَيْسَ مَا خُلِقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنَ﴾ إِلَى نَفْسِكَ فِي الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وَأَحْسِنَ إِلَى الْخَلْقِ ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ هَذَا يَدُلُّ أَنَّهُ كَانَ يُتَّقَى مَالُهُ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُتَّقَى فِي الصَّدْعِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى قَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ وَلَوْ كَانَ فِي تَرْكِ الْإِنْفَاقِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ بَغْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

ثم الواجبُ عَلَى مَنْ حَضَرَ الْمُلُوكَ، وَشَهِدَ مَجَالِسَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُخَوِّفُوا الْمُلُوكَ، وَيُوعِدُوهُمْ ^(٤) بِمَا أَوْعَدَ قَوْمُ مُوسَى قَارُونَ وَخَوَّفُوهُ، وَيَأْمُرُوهُمْ بِالصَّلَاحِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي رَعِيَّتِهِمْ كَمَا أَمَرَ أُولَئِكَ قَارُونَ، وَيَنْهَوهُمْ كَمَا نَهَا أُولَئِكَ. فَإِنْ أَجَابُوهُمْ، وَإِلَّا امْتَنَعُوا عَنْهُمْ، وَكَفُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْإِخْتِلَافِ إِلَيْهِمْ. فَإِنْ لَمْ يَقْعِلُوا فَهُمْ شُرَكَائُهُمْ فِي جَمِيعِ مَا يَقْعِلُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٨ وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ قَارُونَ كَانَ أَقْرَأَ النَّاسِ بِالتَّوْرَةِ وَأَعْلَمُهُمْ بِهَا، وَسُمِّيَ قَارُونَ لِذَلِكَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ سُمِّيَ الْمُتَوَرَّ لِحُسْنِ صَوْتِهِ بِالتَّوْرَةِ.

وقال بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ وَهُوَ الْكَيْمِيَاءُ؛ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُعَالِجُ صَنْعَةَ الذَّهَبِ، وَيُخْسِنُهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أَيُّ عَلَى خَبَرٍ/ ٤٠٢ - أ/ عِنْدِي؛ قَالَ ذَلِكَ عَلَىٰ إِثْرِ قَوْلِ أُولَئِكَ: ﴿وَلَا تَنسَ نَفْسِيكَ مِنَ الذَّنْبِ﴾ [إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَسِدِّينَ﴾] كَانَهُمْ أَوْعَدُوهُ بِذَهَابِ ذَلِكَ عَنْهُ وَهَلَاكِهِ. فَقَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ لَمْ أَوْتِ جُزْأً بِلَا سَبَبٍ، وَكَانَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، نَسِيَ ^(٦) الْآخِرَةَ بِمَا أُوتِيَ مِنَ الْمَالِ وَالْكُنُوزِ وَتَرَكَ الْإِنْفَاقَ فِي الْخَيْرِ، وَكَانَ عَارِفًا بِاللَّهِ حِينَ ^(٧) قَالُوا لَهُ: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا أَمَّاكَ اللَّهُ النَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَسِدِّينَ﴾ دَلَّ هَذَا مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ عَارِفًا بِاللَّهِ تَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾ ذَكَرَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لِمَا أَنَّهُ كَانَ يَقْتَحِرُ، وَيَسْتَكْبِرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أُوتِيَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْكُنُوزِ وَالْإِتْبَاعِ.

وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يَدْفَعُ الْعَذَابَ الْمَوْعَدَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ يَظُنُّ [أَنْ مِنْ] ^(٨) أُوتِيَ ذَلِكَ لَا يُعَذَّبُ كَظُنِّ أُولَئِكَ الْكَافِرَةِ حِينَ ^(٩) قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سَبَا: ٣٥].

فجاءتْ أَنْ كَانَ مِنْ قَارُونَ مِنَ الْإِعْجَابِ بِالْكَثْرَةِ وَالْجَمْعِ مَا ذَكَرَ [أُولَئِكَ، فَقَالُوا] ^(١٠) عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَوَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾ ثُمَّ لَمْ يَتَّيَّأْ لَهُمْ دَفْعُ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ. فَتَعَلَّى ذَلِكَ أَنْتَ يَا قَارُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُورِهِمْ الْمُتَجَرِّمُونَ﴾ اخْتَلَفَ فِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ [لَمَّا يُعْرِفُونَ بِسِيَمَاهُمْ] ^(١١) كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُ الْمُتَجَرِّمُونَ يَسْتَفْتِيهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوْبَةِ وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٤١].

وقال بَعْضُهُمْ: لَا تُسْأَلُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَنْ صَنِيعِ مُجْرِمِي الْأَمَمِ الْخَالِيَةِ. وَجاءتْ [أَنَّهُمْ لَا يُسْأَلُونَ] ^(١٢) عَنْ ذُنُوبِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَزُونَ مَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ ذُنُوبًا، وَلَكِنْ إِنَّمَا يُسْأَلُونَ عَنِ الدَّلِيلِ الَّذِي بِهِ لَا يَزُونَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ ذُنُوبًا ^(١٣)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٧٩ وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّحَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: إِنَّهُ خَرَجَ [وَعِلْمَانَهُ] ^(١٤) عَلَى بَغَالٍ شُهَبٍ، وَمَعَهُ كَذَا مِنْ الْجَوَارِي عَلَى كَذَا كَذَا بَغَالٍ شُهَبٍ، عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ كَذَا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو يفتنى. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: يواغدهم. (٥) في الأصل وم: ولا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ. (٦) من م، في الأصل: لفتني. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: إنه لما. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بأولئك فقال. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أن يسأل. (١٣) في الأصل وم: ذنبا. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقال بعضهم: إنه خرج على براذين كذا بيض مع كذا كذا غلمان وجوار^(١) ونحو ما ذكر. ولكننا لا نذري على أي زينة خرج، ولكننا نعلم أنه خرج على الزينة التي يخرج [بأمثالها الملوك]^(٢) ولا نفسر أنه كذا على كذا، ولا نفسر العلم الذي ذكر أنه من المال، والكثرة أنه كان عنده كذا من العلم، والله أعلم بذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة.

الآية ٨٠ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي أوتوا منافع العلم، ربما [يؤتى أحد العلم]^(٣) ولا يؤتى من الإنفعا له به ما أوتي هؤلاء حين^(٤) قالوا لأولئك ﴿وَيَلَّكُم تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لم يكن من أولئك إلا التمني أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون. ثم نهاهم الذين أوتوا منافع العلم والإنفعا به عن ذلك التمني. فدل ذلك أن التمني لا يسع في ما لا يسع الاشتغال به والطلب حين^(٥) قالوا لهم: ﴿وَيَلَّكُم تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

[وقوله تعالى]^(٦): ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ كيف ذكره بالتأنيث؟ وإنما تقدم له ذكر ﴿تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ قال: وما يلقيها^(٧)؟ اختلف فيه.

قال بعضهم: ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾ كناية عن تلك المقالة التي كانت من أولئك الذين أوتوا العلم لأولئك الذين يريدون الحياة الدنيا، أي لا يلقي تلك المقالة التي قالوها لأولئك إلا الصابرون.

وقال بعضهم: لا، ولكن ذلك كناية عن الأعمال [أي وما يلقي تلك الأعمال ولا يؤفق لها]^(٨) إلا الصابرون. قال أبو عوسجة والفتي: ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾ أي لا يؤفق لها، ويقال: لا يوزق [إلا] الصابرون.

[وقوله تعالى]^(٩): ﴿الْكَاذِبُونَ﴾ يختل المؤمنون أنفسهم^(١٠) كقولهم تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و...]. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أي آمنوا.

ويختل المؤمنون^(١١) الذين صبروا أنفسهم، وحبسوها على أداء ما افترض الله عليهم، ولم يؤثروا أنفسهم شهواتها^(١٢) وهوها، والله أعلم.

ثم كان في قوم موسى خصال ثلاث، لم تكن تلك، ولا مثلها في غيره من الأمم:

أحدها: ما ذكر من صلاح أولي العلم وقيمتهم وطمانيتهم في ما وعدوا في الآخرة من العذاب وصبرهم على أداء ما افترض الله عليهم وحسبهم أنفسهم عن مناهم وشهواتهم وصلاحيتهم في الدين وما وعظوا قارون حين^(١٣) قالوا له: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا ءَمَرْنَاكَ أَنَّهُ الْآخِرَةُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ و٧٧] وهو كان ملكاً يومئذ [وما]^(١٤) قالوا لأولئك الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿وَيَلَّكُم تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

والثاني: ما ذكر سحرة فرعون حين أوعدهم بالقطع والصلب والقتل بإيمانهم الذي آمنوا، فقالوا: ﴿لَا صَبْرَ لَنَا إِنَّكَ لَنَاقٍ مُّقْطِعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] وقالوا: ﴿فَاقِصْ مَا أَنتَ قَاصٍ﴾ [طه: ٧٢] وأمثال ذلك مما لم ينالوا حلول ما أوعدهم، وخوفهم من أنواع العذاب.

والثالث: ما ذكر من الذي كان يكتفهم إيمانه حين^(١٥) قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وإنما ظهر ذلك حين قال ﴿فِرْعَوْنُ أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رِبِّهٖ﴾ [غافر: ٢٦] كأنه هم أن يقتله. ألا ترى أن ذلك الرجل المؤمن الذي كان يكتفهم إيمانه قال لهم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟﴾ لم يبال بهلاك نفسه بإظهاره الإيمان بعد أن أعان نبي الله موسى، ونفع له بما [قال، واستقبل فرعون وقومه بما استقبل]^(١٦).

(١) في الأصل وم: وجواري. (٢) في الأصل وم: أمثاله من الملوك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: اختلف في قوله. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: لكن. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا يوفق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نفسه. (١٢) في الأصل وم: شهواتهم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: ولما. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) من م، في الأصل: واستقبل.

فهذه خصائص لم تُذكر عن قوم قط، من سوى قوم موسى مثلها. ولذلك وصفهم، ونعتهم بفضلي الهداية والعدالة، وهو ما قال ﷻ: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

وهكذا الواجب على كل مؤمن إذا أريد منه أخذ الإيمان، أو خاف على دينه أن يذهب به، أو أن يدخل فيه النقصان ألا يبدل ذلك، وإن خاف على نفسه تلفها وهلاكها وتغذيها بأشد ما يكون من العذاب.

ألا ترى أن الله مدح أصحاب الأخدود بما احتملوا أشد العذاب وأسوأ القتل، ولم يتركوا الإيمان، ولم يغطوا لاولئك الكفرة ما أرادوا منهم؟ فهكذا الاختيار^(١) على كل مسلم أن يختار ما اختار أولئك.

وهكذا الواجب على كل من يأتي الأمراء والسلاطين، ويخضر مجالسهم من العلماء أن يعظوهم، ويأمرهم بكل ما يؤتى، وينهوهم عن كل محظور حرام، ويدلوهم على كل خير ما هو طاعة لله كما فعل قوم موسى^(٢) بقارون، وآلا يخضروا^(٣) مجالسهم، ولا يأتوهم^(٤) طائعين. فإن فعلوا فإنهم يكونون شركاءهم.

وذكر عن بعض السلف أنه قال في عيسى وقارون عبرة لمن اعتبر أن عيسى، صلوات الله عليه، زهد في الدنيا زهداً حتى لم يتخذ لنفسه مسكناً يسكن فيه^(٥) ولا مقراً يقر فيه، ولا اتخذ لنفسه ما يتعيش به، ولا اشتغل بشيء منها، فرفعه الله إلى السماء، فجعل عيشه ومقره فيها في كرامته وجواره، وقارون^(٦) كان يزعج في هذه الدنيا رغبة عظيمة^(٧) وجهد في طلبها طاقته ووسعه، وركن إليها ركوناً حتى حسفه الله في الأرض، وادخله فيها مع كنوزه وأتباعه، فيكون فيها إلى يوم القيامة.

ففي ذلك عبرة وآية لكل راغب وزاهد؛ فيزغب الزاهد في الزهد^(٨) فيها، ويتزجر الراغب عن الرغبة فيها، والله أعلم.

الآية ٨١

وقوله تعالى: ﴿لَمَسْنَا بِهٖ وَيَدَاوِي الْأَرْضِ﴾ بالبنى الذي بنى عليهم؛ أعني على موسى وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَصْرُفُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كأنه كان يفتخر بالمال والحواشي، ويتقوى بذلك في دفع عذاب الله ونقمته. لذلك قال: ﴿فَمَا كَانَ/ ٤٠٢ - ب/ لَمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَصْرُفُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لم تُغنيه^(٩) في دفع عذاب الله عنه أتباعه وحواشيه، وهو كظن أولئك: ﴿عَنْ أَكْثَرِ أَمْوَالٍ وَأَوْلَادٍ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥] وكان ظنهم ذلك. وقولهم إنما كان يوجهين:

[أخذهم]^(١٠): أنهم ظنوا أن أموالهم وأتباعهم تدفع عنهم عذاب الله ونقمته كما تدفع نعمة بعضهم من بغض في ما بينهم كقول [ابن نوح]^(١١): ﴿سَوَاءٌ لِي جَبَلٌ يَمْسُكُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].

والثاني: [أنهم ظنوا]^(١٢) أنما أعطوا هذه الأموال والأتباع في هذه الدنيا لكرامة لهم عند الله، فلا يعدبون أبداً، والله أعلم.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُم بِالْأَمْسِ﴾ كانوا تمنوا أن يعطوا مثل ما أعطي قارون^(١٣) ﴿يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَعَسَا يَنَّا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

[قال بغض أهل الأدب: وفي صلة، وإنما هو كان وكأنه. وقال مقاتل: ويكأنه أي لكنه^(١٤)، وقال بعضهم: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ﴾ أي اعلموا ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَيَكُنَّ﴾^(١٥) واعلموا أنه ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لكن الله يسطر الرزق لمن يشاء، ولكنه لا يفلح الكافرون.

(١) من م، في الأصل: اختيار. (٢) في الأصل وم: قارون. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (٤) في الأصل وم: أتوهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) معطوف على عيسى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يغني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ذلك الرجل. (١٢) في الأصل وم: ظنوا أنهم. (١٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَكُنَّ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص: ٧٩]. (١٤) أدرج بيدها في م: ويكان. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقال بعضهم: ألم تر أن الله يسقط الرزق؟ وألم تر أنه لا يفلح كذا؟

وقال الزجاج: وي مقطوع من كان، وهو حرف يفتح به التثنية. ثم ابتدأ بقوله: كأنه لا يفلح الكافرون.

ثم في الآية دلالة نقض قول المعتزلة في وجوب الأصلح على الله لأنهم ذكروا منة الله في منيعه إياهم ما تمنوا بالأنس مما أوتي قارون. فلو كان ما أعطي قارون أصلح له في دينه لم يكن في منيعه عن هؤلاء منة.

دل أن ما أعطى قارون لم يكن أصلح له، وأن ليس على الله حفظ الأصلح للعباد في الدين.

الآية ٨٢

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُتَّقِينَ﴾ في ظاهر الآية^(١) أن كل من لا يريد العلو في هذه الدنيا ولا الفساد فيها يكون من أهل تلك الدار، وكذلك ما ذكر من دار الآخرة، وجهتهم من دار الآخرة أيضاً. لكن الآية تخرج على وجهين:

أحدهما: كأنها نزلت في رؤساء الكفرة، وقرايعنهم هم الذين كانوا يريدون العلو في هذه الدنيا بالتكبر والتجبر على الرسل، والفساد فيها في صرف الناس عن دين الله للرسل، ودعا الناس إلى دين الله واتباع الرسل.

والثاني: تكون الآية في الذين كانوا يعملون بالخيرات والطاعات منهم من^(٢) نحو صلة الأرحام والصدقة على الفقراء والإنفاق في ذلك. فأخبر أنهم، وإن كانوا يعملون بتلك الأعمال، فإنما يعملون للدنيا والعلو فيها لا للآخرة. فتلك الدار الآخرة، ليست لهم. إنما هي للذين يعملون، ويريدون [بأعمالهم]^(٣) الدار الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ كأنه يقول: تلك الدار التي دعوا إليها ليست لمن ذكر [وإنما]^(٤) هي الدار التي قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] فالدار الآخرة، هي الدار التي دعوا إليها، وهي الجنة؛ الدار الآخرة على الإطلاق: الجنة كالكتاب المطلق كتاب الله والدين المطلق دين الله ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُتَّقِينَ﴾ أي تلك الدار الآخرة للمتقين.

الآية ٨٤

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَتُنَبَّأُ﴾ يخرج على وجوه:

أحدها: ما قال أهل التأويل: على التقديم والتأخير، أي فله منها خير؛ ومعناه أن ما يكون له في الآخرة من الخير إنما يكون بتلك الحسنة التي جاء بها في الدنيا، وهي التوحيد.

والثاني: قوله: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَتُنَبَّأُ﴾ أي ما أعطوا في الآخرة من الخير والثواب خير مما يعطون في الدنيا بصبرهم وحسبهم أنفسهم عن شهواتها وأمانيتها.

والثالث: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَتُنَبَّأُ﴾ أي ثواب الله وما أكرموا به خير مما عملوا في الدنيا.

والرابع: أن توفيقه إياهم وإرشاده خير مما عملوا.

[والخامس]^(٥): أن يكون ذكر الله وحمده خير مما ذكر كقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قالوا جميعاً: السيئة هي الشرك ﴿فَلَا يَجْزِي اللَّهَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْسِكُونَ﴾^(٦).

الآية ٨٥

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاوٍ﴾ اختلف في قوله: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قال بعضهم: أي نزل عليك. وقال بعضهم: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ العمل بالقرآن. وقال بعضهم: ﴿فَرَضَ﴾ تبليغ ما أنزل عليك القرآن والرسالة إلى الناس.

(١) في الأصل وم: ظاهرها. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ﴿فَلَا يَجْزِي إِلَّا عَمَلُهَا﴾ لكن مثلها هو التخليد في النار أبداً ﴿وَمَنْ لَا يَلْمُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٠] في ما يجزون بها بل ظلموا أنفسهم.

واخْتَلِفَ أَيْضاً فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَعَادُ [مكة]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَعَادُ^(١) [الْبَعْثُ وَالسَّاعَةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَعَادُ الْجَنَّةُ، وَيُقَالُ: الْمَوْتُ، وَكَلِمَةُ الْبَعْثِ وَالْمَعَادِ هُوَ الْبَعْثُ فِي الظَّاهِرِ.

وَجَائِزٌ أَنْ تُسَمَّى مَكَّةُ مَعَاداً لِمَا يَعُودُ النَّاسُ إِلَيْهَا مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ]^(٢) كَمَا تُسَمَّى مَثَابَةً لِمَا يَثُوبُ النَّاسُ إِلَيْهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. لَكِنْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْمَعَادَ، هُوَ مَكَّةُ؛ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهَاجَرَ إِلَيْهَا، اشْتَقَّ إِلَى بَلَدِهِ وَمَوْلِدِهِ وَمَوْلِدِ آبَائِهِ، فَتَزَلَّ جَبْرِيلُ ﷺ بِهِذِهِ الْآيَةِ بِشَارَةً فِي الْعُودِ إِلَيْهَا ظَاهِراً عَلَيْهِمْ قَاهِراً فَاتِحاً لَهُ مَكَّةَ. هَذَا تَأْوِيلٌ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْمَعَادَ، هُوَ مَكَّةُ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى غَيْرِ هَذَا، وَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَأَنَّهُ حَزَنَ عَلَى الْفِرَاقِ مِنْهُمْ إِشْفَاقاً عَلَى هَلَاكِهِمْ لِإِخْرَاجِهِمُ الرُّسُولَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ لِأَنَّ الْأَمَمَ السَّالِفَةَ إِذَا أَخْرَجَ مِنْ بَيْنِهِمُ الرُّسُلَ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، فَخَافَ لَمَّا^(٣) أَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَأَبَوْا إِجَابَتَهُ أَنْ يُهْلَكُوا، وَيُعَذَّبُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَكْبَرُ﴾ [الشعراء: ٣] وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨] فَبَشَّرَ بِهِذَا أَنْ تُرَدَّ إِلَيْهَا، وَسَتَعُودُ إِلَيْهِمْ، فَيَتَّبِعُونَكَ، وَيُؤْمِنُونَ بِكَ، وَهُمْ لَا يُهْلَكُونَ إِهْلَاكَ اسْتِصْالٍ وَتَغْذِيبٍ كَسَائِرِ الْأَمَمِ.

وَالثَّانِي: يُذَكِّرُ عَلَى الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِ؛ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَالْقَاءُ عَلَيْكَ بَعْدَ مَا لَمْ تَكُنْ تَرْجُو الْإِقَاءَ عَلَيْكَ وَإِنْزَالَهُ. وَلَكِنْ بِرَحْمَتِهِ وَمَنْعِهِ الْقَاءَ إِلَيْكَ، وَأَنْزَلَهُ عَلَيْكَ حِينَ^(٤) قَالَ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

فَعَلَى ذَلِكَ يَرُدُّكَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ مَا لَمْ تَكُنْ تَرْجُو رَدُّكَ وَعُودَكَ إِلَيْهَا.

وَأِنْ كَانَ الْمَعَادُ هُوَ الْبَعْثُ، فَهُوَ يُخْرِجُ أَيْضاً عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عَلَى الْبِشَارَةِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَرُدُّكَ وَيَبْعَثُكَ، بِمَنْ كَذَّبَكَ وَبِمَنْ صَدَّقَكَ، فَيَنْتَقِمُ مِنْ مُكَذِّبِكَ جَزَاءَ التَّكْذِيبِ، وَيَجْزِي مَنْ يُصَدِّقُكَ جَزَاءَ التَّصْدِيقِ.

وَالثَّانِي: يُذَكِّرُهُ، وَيُخَاطِبُهُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ قَوْمَهُ، أَيْ سَتُبْعَثُونَ، وَسَتَعُودُونَ إِلَيْهَا، فَيَكُونُ كَالْآيَاتِ الَّتِي يُخَاطَبُ بِهَا رَسُولُهُ، وَالْمُرَادُ بِهَا قَوْمُهُ، فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى الْوَعِيدِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؟ أَيْ ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ فَيَجْزِيهِ جَزَاءَ الْهُدَى ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فَيَجْزِيهِ [جَزَاءَ الضَّلَالَةِ]^(٥).

فَيُخْرِجُ ذِكْرُ هَذَا عِنْدَ ادِّعَاءِ أُولَئِكَ الْكَفَرَةِ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَأَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَأَنْتُمْ عَلَى ضَلَالٍ. فَيَقُولُ: ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ نَحْنُ أَوْ أَنْتُمْ. فَهُوَ عَلَى التَّحَاكُمِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَيَجْزِي كُلًّا بِمَا جَاءَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الآية ٨٦ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فَهُوَ يُخْرِجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ وَإِنْ كُنْتَ مُطِيعاً أَوْ خَاضِعاً ﴿أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكَ [الكتاب]^(٦) وَتَصِيرَ رَسُولاً، أَوْ لَمْ تَكُنْ تَطْمَعُ ذَلِكَ. وَلَكِنْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ جَعَلَكَ رَسُولاً نَبِيًّا.

وَالثَّانِي: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ أَنْ تَكُونَ فِي قَوْمِكَ وَقَبِيلَتِكَ رِسَالَةً قَضَاءً أَنْ تَرْجُو، وَتَطْمَعُ فِي نَفْسِكَ [لأنه ٤٠٣ / أ / لَيْسَ^(٧) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَالرِّسَالَةُ مِنْ قَبْلُ كَانَتْ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرِّسَالَةَ فِي الْعَرَبِ فِي نَفْسِكَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مَنْ م، فِي الْأَصْلِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَعَادُ هُوَ. (٢) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٣) أَدْرَجَ قَبْلَهَا فِي الْأَصْلِ وَم: إِنْهُمْ. (٤) فِي الْأَصْلِ وَم: حَيْثُ.

(٥) فِي الْأَصْلِ وَم: ضَلَالَهُ. (٦) سَاقِطَةٌ مِنَ الْأَصْلِ وَم. (٧) فِي الْأَصْلِ وَم: لَأَنَّهُمْ لَيْسُوا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا يُخْرِجُ على وجوه:

أحدها: على النَّهْيِ، أي لا تَكُنْ ظَهِيرًا، وإن كَانَ لا يَكُونُ [ذَلِكَ النَّهْيُ لِلْعِصْمَةِ] ^(١) التي عَصَمَهُ اللهُ [بها] ^(٢)، لأنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ وَالْأَمْرَ. بل مَنَعَةُ الْعِصْمَةِ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ.

والثاني: على الْأَمْنِ لَهُ وَالْإِيَّاسِ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا لَهُمْ، كَأَنَّهُ يَخَافُ لِغَلَّةِ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا لَهُمْ فِي وَقْتِ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَأَمَّنَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا تَخَفْ، فَإِنَّكَ لَا تَكُونُ ظَهِيرًا لَهُمْ، وَهُوَ مَا ذَكَّرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧ والنمل: ٧٠] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] على رَفْعِ الْحُزْنِ وَالْحَسْرَةِ بِتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ. فَعَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ.

والثالث: إِنَّ الْخِطَابَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ، فَالْمُرَادُ مِنْهُ غَيْرُهُ عَلَى مَا ذَكَّرْنَا فِي غَيْرِ آيَةٍ ^(٣) مِنَ الْقُرْآنِ أَنَّهُ خَاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ.

والآية ٨٧ وكذلك بهذا في قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ في هذا ما في الْأَوَّلِ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَّرْنَا.

والآية ٨٨ وكذلك بهذا في قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مآخَرًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [وقال بعضهم: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾] ^(٤) تُرْجَى مَنَفَعَتُهُ وَشَفَاعَتُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إِلَّا مَا ابْتِغِي مِنْهُ [وَجْهَ اللَّهِ] ^(٥) وَعَمِلَ لَهُ.

وقال بعضهم: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ وزائلٌ إِلَّا هُوَ فَإِنَّهُ حَيٌّ، لَا يَمُوتُ، دَائِمٌ، لَا يَزُولُ.

وقال بعضهم: كُلُّ أَمْرٍ وَجْهَةٌ، يُتَوَجَّهُ إِلَيْهَا، وَيُعْمَلُ بِهِ، هَالِكٌ، إِلَّا الْجْهَةُ وَالْوَجْهَةُ الَّتِي أَمَرَ هُوَ بِالتَّوَجُّهِ ^(٦) إِلَيْهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَهُوَ قَرِيبٌ [مِنَ الْأَوَّلِ] ^(٧) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



تم بعون الله

المجلد الثالث

ويليه المجلد الرابع، وأوله سورة العنكبوت

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العصمة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بالتوجيه. (٧) في الأصل وم: بالاول.

٥.....	سورة إبراهيم
٣٩.....	سورة الحجر
٦٩.....	سورة النحل
١٣٣.....	[سورة بني إسرائيل
٢٠٧.....	سورة الكهف
٢٥٧.....	[سورة مريم
٢٨٣.....	سورة طه
٣١٧.....	سورة الأنبياء
٣٥٥.....	سورة الحج
٣٩٣.....	سورة المؤمنون
٤٢٥.....	سورة النور
٤٨٩.....	سورة الفرقان
٥١٩.....	[سورة الشعراء
٥٤٩.....	سورة النمل
٥٨٣.....	سورة القصص